مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السّابِعُ والعِشرونَ

سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلّدُ السّابِعُ والعِشرونَ

سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05

نُخبةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجمَعِ القُرآنِ الكريمِ بِالشّارِقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الرَّابِعَ عشَرَ

سُورَةُ النَّحلِ

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أنعم سبحانه بالإيجاد، ووهب الأزواج والأولاد

لمّا ذَكر تعالى امتنانه بالإيجاد ثمَّ بالرِّزق المفضَّل فيه، ذَكر امتنانه بما يقوم بمصالح الإنسان ممّا يأنس به ويستنصر به ويخدمه، وإنعامه بكلِّ ما تقوم به حياته من مَطعم طيِّبٍ، ومَشربٍ عَذْبٍ، وملبَس حسَن؛ فذلك كلُّه دليلٌ على وجود الإله الصّانع الْمُلهِم الْمُدبِّر الْمُتصرِّف في اعتقاد كلِّ من أعمل فِكْرَه، وأمعن نظَره(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بَنِينَ﴾: أصل الابن بنو(2)، ومصدره: البُنُوَّة؛ فيُقال: ابنٌ بيِّن البُنُوَّة، والنِّسبة إليه: بنَوَيّ(3)، والجَذر يدلُّ على الشَّيء يتولَّد عن الشَّيء(4)، ومعناه المحوريّ يدور حول زيادةٍ قويَّةٍ تنشأ للشَّيء فتقيمه وتمدُّه؛ فمن هذا الابن؛ إذ هو امتدادٌ لأبيه، وناشئٌ منه، ويمدُّ ذريَّته ويقيمها(5).

2) ﴿وَحَفَدَةً﴾: الحَفْدُ: الخفَّة والسُّرعة في العمل والخدمة(6)، والأصلُ يدلُّ أيضًا على الخفَّة في التَّجمُّع(7)، فالحَفَدةُ: الأعوان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 242، وابن عادل، اللباب: 12/ 116، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 206 - 207، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 213 - 214.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (بنو).
(3) الخليل العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (بنو).
(4) ابن فارس، المقاييس: (بنو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بنو).
(6) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (حفد).
(7) ابن فارس، المقاييس: (حفد).

والخَدَم[1]؛ لأنَّه يجتمع فيهم التَّجمُّع والتَّخفُّف والسُّرعةُ في الخِدمة والعَون[2]، وواحدهم حافِد[3].

3) ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾: الطَّيِّبُ: خِلافُ الخبيث[4]، وأصله: ما تستلذُّه الحواسُّ والنَّفس، والطَّعام الطيِّب في الشَّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الَّذي يجوز[5]، والطيِّب من الإنسان: مَن تعرَّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلَّى بالعِلْم والإيمان ومحاسن الأعمال[6].

4) ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾: الباطل: نقيض الحقِّ[7]، والشَّيء الزّائل، وما لا ثبات له عند الفحص عنه، ويُقالُ ذلك بالاعتبار إلى المقال والفعال[8]، وسُمِّي الشَّيطانُ الباطل؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ منه باطل[9]، وجمع الباطل: بواطِل[10]، وأصله يدلُّ على ذهاب الشَّيء وقلَّة مكثه ولُبثه[11]؛ يُقالُ: بطلَ الشَّيءُ يَبطُل بُطلًا وبُطولًا وبطلانًا: ذهبَ ضياعًا وخُسرًا[12]، وذهب دمُه بُطلًا؛ أي: هَدَرًا؛ وذلك إذا قُتِل ولم يُؤخَذْ له بثأرٍ ولا ديَة[13]، والبَطَلة: السَّحَرة، وهذا اللَّفظ مأخوذٌ من قولهم: أبطَلَ؛ أي: جاء بالباطل[14]، وقول الله ﷻ: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ يعني: الأصنام[15].

المَعْنى الإجْماليُّ:

والله جعل لكم أيُّها الرِّجال مِنْ جنس أنفُسكم نساءً؛ لتحقيق الأُنس والانسجام

(1) الخليل، العين، والجوهري: الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (حفد).
(2) ابن فارس، المقاييس: (حفد).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (حفد).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (طيب).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طيب).
(6) الراغب، المفردات: (طيب).
(7) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (بطل).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بطل).
(9) ابن فارس، المقاييس: (بطل).
(10) الأزهري، التهذيب: (بطل).
(11) ابن فارس، المقاييس: (بطل).
(12) الخيل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، وابن منظور، اللسان: (بطل).
(13) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بطل).
(14) ابن منظور، اللسان: (بطل).
(15) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 203، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 32، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 145.

مِن عظيم النِّعم والمنن والآلاء أن وهبَنا اللهُ الأزواج والحفدة والأبناء

والائتلاف وقضاء المصالح، وجعل لكم منْ نسائكم بنين وأبناء بنين، ورزقكم من لذيذ المطاعم والمشارب ما تنتفعون به إلى أقصى الحدود وأبعد الغايات، أفبعد هذه النِّعم يشرك به بعض النّاس؟ فيؤمنون بالشَّيطان وعبادة الأصنام، ويجحدون نِعَم اللّه المتعدِّدة الَّتي تستحقُّ الشُّكر والثَّناء؟[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الآية على ما تقدَّمها:

بديع صُنع الله وإنعامه بجعل النَّسل مقارنًا للزَّوجين

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ معطوفٌ على الآية التي قبله، وهو استدلالٌ ببديع الصُّنع في خَلْق النَّسل إذ جُعِلَ مقارَنًا للتَّأنُّس بين الزَّوجين، إذ جَعَل النَّسل منهما ولم يجعله مفارقًا لأحد الأبوين أو كليهما[2]، وقد حسَّن الوصل هنا - دون الفصل - ما بين الآيتين الكريمتين من المناسبة، فكلتاهما خبريَّةٌ مبدوءةٌ بالاسم العظيم الجليل، وكلٌّ منهما تبيِّن صورةً من صور إنعام اللّه تعالى على عباده، وصورةً من صور قهر سلطانه لهم، وعلوِّه عليهم، وليس ثمَّ ما يدعو للفصل بينهما.

غرض إظهار لفظ الجلالة في ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ﴾:

دلالة الاسم العلَم أوضح وأصرح

عُبِّر بلفظ الجلالة دون الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ - فلم يُقَل مثلًا: (وهو الَّذي جَعَلَ...) وهو مقتضَى الظّاهر - لقصد التَّنويه بالخبر إذ افتُتِح بهذا الاسم، ولأنَّ دلالةَ الاسم العلَم أوضح وأصرح، فهو مُقتضى مقام تحقيق الانفراد بالخَلْق والإنعام دون غيره من شركائهم، ولأجل أنَّ مقام الاستدلال بدقائق الصُّنع وعجائب الخَلْق يقتضي تكرير اسم المستدَلِّ على إثبات صفاته تصريحًا واضحًا[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 295، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 31، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 234.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 217.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 198، 217.

غرضُ التقديم في ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ﴾:

قُدِّم المسند إليه - وهو لفظ الجلالة - على المسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ لإفادة التَّخصيص، أي اللّه لا غيره جَعَل لكم من أنفسكم أزواجًا، وذلك في معنى قوله تعالى: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الروم: 40](1).

اللّه العليُّ ذو السُّلطان الأعلى هو وحده المُنعم بجعل الأزواج والبنين

فائدة التَّذكير بهذه النِّعمة بعد التَّفضيل في الرِّزق:

ذكَّر اللّه تعالى عِباده بنِعمة الأزواج والذُّرِّيَّة بعدما ذكَر تعالى امتنانه بالإيجاد ثمَّ بالرّزق المفضَّل فيه؛ لأنَّ الأزواج والذُّرِّيَّة ممّا يقوم بمصالح الإنسان وممّا يأنس به ويستنصر به ويخدمه(2).

المُتفضِّل بأصناف النِّعم وإن تنوَّعت هو اللّه وحده

بلاغة الإدماج في التَّذكير بالنِّعم مِن خلال نِعمة الزَّوجيّة والبَنين:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ بيانٌ لنوعٍ آخر مِن أحوال النّاسِ، ذكَره اللّه تعالى ليستدلَّ به على وجود الإله المختار الحكيم، وليكون ذلك تنبيهًا على إنعام اللّه تعالى على عبيده بمثل هذه النِّعم(3)، فهو بيانٌ لدلائل الانفراد بالخَلْق وقد أُدمج فيه التَّذكير بالنِّعم، فكلُّ نِعمةٍ مذكَّرٍ بها في الآية هي بمنزلة التَّدليل على عظمة مَن أنعم بها واستحقاقه للعبوديَّة، وتفرُّده بالرُّبوبيَّة، فهذه مِنَّةٌ مِن المِنَن وعبرةٌ من العِبر وحُجَّةٌ مِن الحُجج المُتفرِّعة عن التَّذكير بنعم اللّه والاعتبار بعجيب صنعه(4).

كلُّ نِعمةٍ دليلٌ على عَظَمةِ المُنعِم واستحقاقه للعبوديَّة وتفرُّده بالرُّبوبيَّة

نكتة التَّعبير بالجَعْل دون الخَلْق:

في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ عُبِّر بالجَعْل دون الخَلْق لِما في الجَعْل مِن معاني التَّصيير والتَّحويل(5)،

في الجَعْل معنى التَّحويل والتَّصيير، وفي الخَلْق معنى التَّقدير

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 66، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 197.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 564.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 244.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 197.
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، الاشتقاقي: (جعل).

تلاءم كلُّ تعبيرٍ مع سياقه، وتناسبَ مع سباقِه ولحاقِه

ولِما في الخَلْق من معاني التَّقدير والإبداع مِن غير أصلٍ ولا احتذاء[1].

بلاغة المتشابه اللَّفظيِّ مع آيات أُخرى:

قال اللّه تعالى في سورة النَّحل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾.

وقال ﷻ في سورة الرّوم: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الروم: 21].

وقال تعالى في سورة الشّورى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: 11].

يلاحَظُ أوَّلًا: أنَّ آية سورة الرّوم تفرَّدت بالتَّعبير بالخَلْق، فجاء فيها: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [الروم: 21]، وجاء التَّعبير في الآيتين الأُخريين بالجَعْل، ويلاحظ ثانيًا: أنَّ آية سورة النَّحل تفرَّدت بذِكر الذُّرِّيَّة، فجاء فيها: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ ولم يُذكر هذا في الآيتين الأُخريين، ويُلاحَظُ - ثالثًا - أنَّ كلَّ آيةٍ من الآيات الثَّلاث قد ذُيِّلت بختام تميَّزت به عن الأُخريين، فهذه مسائل ثلاثٌ في البحث في علَّة الاختلاف والتَّشابه بين الآيات الثَّلاث، وما تفرَّدت به كلُّ واحدةٍ منها، وبيان ذلك فيما يأتي:

المسألة الأولى: تفرَّدت آية سورة الرّوم بالتَّعبير بالخَلْق؛ ذلك أنَّ سياقها جاء مسبوقًا ومتلوًّا بالكلام عن الخَلْق والإحياء، قال

---

(1) الراغب، المفردات: (خلق).

تعالى قبلها ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ [الروم: 19]، وقال بعدها: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: 22]، فناسبه التَّعبير بالخَلْق.

أمّا آية سورة النَّحل فإنَّها وردت في سياق بيان نِعمة اللّه تعالى على عباده بأنْ كفل لهم أرزاقهم، وأخرجها لهم من أشياء خلَقها وأوجدها لهذه العلَّة، فمعنى الجَعْل والتَّصيير في هذا السِّياق أظهر.

أمّا آية الشّورى فسياقها ينضح بالإنكار على مَن اتَّخذوا من دون اللّه أولياء، وجاء ذلك في غير آية، ومنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: 6]، فلمّا كان الَّذين اتَّخذوا من دون اللّه تعالى أولياء إنَّما جعلوا المخلوق إلهًا يعبدونه من دون اللّه، فكان مِن المناسب أن يذكِّرهم اللّه تعالى بضعفهم وفقرهم وحاجتهم إلى أزواج وإلى طعام؛ فلذلك أخبرهم اللّه تعالى أنَّه سبحانه جعل لهم أزواجًا من أنفُسهم.

المسألة الثّانية: تفرَّدت آية سورة النَّحل بذِكر الذُّرِّيَّة لأنَّ سياقها وسباقها ولحاقها كان دائرًا حول ما أنعم اللّه تعالى به على عباده، وما رزقهم به ممّا تقوم به حياتهم، حيث أنزل لهم من السَّماء ما يشربون، فناسب أن يُذكر الذُّرِّيَّة في هذا السِّياق إذ هي زينة الحياة الدُّنيا، وهي من الهبات العظيمة التي جعل اللّه القلوب تهفو إليها، ولم يكن الأمر كذلك في سياق الآيتين الأخريين، فجيء مع كلِّ سياق بما يناسبه.

المسألة الثّالثة: في ختام كلِّ آية بما يناسبها، خُتِمت آية النَّحل بقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ لأنَّ سياقها في بيان ما أنعم اللّه به على عباده، وخُتِمَت آية الرّوم بقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: 21]؛ لأنَّ في خَلْق الأزواج عددًا من الآيات التي ينبغي الوقوف عندها لتأمُّلها، وخُتِمَت آية الشّورى بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: 11]؛ لأنَّ سياق الآيات كان في الإنكار على مَن اتَّخذوا من دون اللّه أولياء ممّا لا يستحقُّ العبادة، بل يفتقر في وجوده إلى مَنْ يُطعمه ويَسقيه، ويفتقر في بقاء نوعه إلى زوجٍ من جنسه للتَّناسل، ولمّا كان اللّه المعبود بحقٍّ منزَّهًا عن هذا كان الختام بنفي المثليَّة.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَكُم﴾:

امتنان الله بخَلْق الأزواج لأجل الإنسان

اللّام في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ هي لتعدية فعل (جَعَلَ) إلى مفعول به ثانٍ[1]، ويجوز فيها كذلك أن تكون للاختصاص والتَّعليل؛ أي: خَلَقَ اللّه أزواجًا من أنفُسكم لأجلكم؛ أي: لأجل سكونكم إليها واستئناسكم بها، وتناسلكم منها بنين وحفَدة.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

قُدِّم ما كان أهمّ، والعناية به أتمّ

قُدِّم شبه الجملة ﴿لَكُم﴾ على المفعول به ﴿أَزْوَاجًا﴾ وغيره من مُتعلِّقات الفعل؛ لأنَّ المقصود مِن ذِكر جعل (الأزواج) نِعمًا منه سبحانه على النّاس هو تنعُّمهُم هُم بها، وانتفاعُهم هُم بها، لا كونها مجعولةً ومخلوقةً، ولمّا كانت القاعدة في تقديم بعض الكلام على بعضٍ هي أن يُقدَّم الأهمُّ فالأهمُّ، وكان كون الأزواج لهم أهمَّ من كونها من أنفُسهم؛ قُدِّم شبه الجملة.

دلالة حرف الجرِّ في ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

مِنَّة الله لبني الإنسان شاملة، ونِعمته عليهم كاملة

﴿مِّنْ﴾ الدّاخلة على ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ للتَّبعيض؛ إذ كلُّ فردٍ من أفراد الإنسان لا يتزوَّج إلّا بعض النِّساء، فيكون المعنى: واللّه جعل لكم من بعضكم أزواجًا، فتكون المِنَّة مِن اللّه تعالى شاملةً لجميع بني الإنسان ذكورًا وإناثًا[2].

معنى الأنفُسيَّة في قوله ﴿أَنفُسِكُم﴾:

الجنس إلى الجنس آنَسُ، وأسكَنُ، ومحبَّته في القَلْب أمكن

معنى (مِنْ أَنْفُسِكُم) في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: مِن نوعكم في الجنس والشَّكل إناثًا أزواجًا لتأنسوا بهنَّ، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: 61] أي: على النّاس الَّذين بالبيوت[3]، وفي هذا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 217.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 217.

(3) الخازن، لباب التأويل: 3/ 89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 217.

نِعمةٌ وفضلٌ كبيرٌ من الله ﷻ؛ لأنَّ الشَّيء آلَفُ لنوعه وأقربُ إلى جنسه[1].

غرض تقديم قوله ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾:

تخصيص النِّعمةِ نِعمةٌ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ على المفعول به ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ للاهتمام والتَّخصيص؛ لأنَّ الآية في سياق تعداد النِّعم، وكون الأزواج من نوع وجنس البشَر نعمةً زائدة على مجرَّد نِعمة جعل الأزواج.

غرضُ تنكير ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

لكلِّ راغب في الزَّواج فرصة في الاختيار من متعدِّد

جاءت كلمة ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ نكرة، للتَّدليل على الكثرة؛ أي: جعل لكم أزواجًا كثيرةً، فلكلِّ راغب في الزَّواج فرصةٌ في الاختيار من متعدِّد.

بلاغة عطف ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾:

مِن عظيم إنعام الله توليد النِّعمة مِنْ نِعمةٍ قبلها

لَمّا ذكَر تعالى ما امتنَّ به على عباده من جعل أزواجٍ لهم، ولا تخفى منفعتهم وتنعُّمهم بهذه النِّعمة من جهة التَّمتُّع، عطَفَ نِعمةً أخرى مُتعلِّقةً بها وهي نتيجةٌ لها فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾؛ حيث ذكَر تعالى أنَّه جعل مِنَ الأزواج البنينَ والحفدة، وهم أولاد البنين[2].

سرُّ إضمار لفظ الجلالة:

لفظ الجلالة وإن أُضْمِر، فهو معلومٌ ظاهر

أُضمر لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ فلم يقُل مثلًا: (واللّٰه جعل لكم...) جريًا على مقتضى الظّاهر، إذ المقام مقام إضمارٍ لا إظهار، ولمراعاة السَّبك في الجملة، فكأنَّ الثّانية متولِّدةٌ عن الأولى ومُترتِّبةٌ عليها، فلا يُتصوَّر وجود البنين والحفَدة بدون وجود الآباء، فلأجل ذلك سِيقت الجملتان مساق الجملة الواحدة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 210.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 586.

دلالة اللّام في قوله ﴿لَكُم﴾:

امتنان الله بخلق البنين والحفدة لأجل الإنسان

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ هي لتعدية فعل ﴿وَجَعَلَ﴾ إلى مفعولٍ به ثانٍ[1]، ويجوز فيها كذلك أن تكون للاختصاص والتَّعليل؛ أي: خلق اللّه البنين والحفَدة لأجلكم؛ أي: لأجل أن يَتِمَّ اجتماعكم، وتآلفكم، ثمَّ ما يكون من هذا الاجتماع والتَّآلف من ثمراتٍ طيِّبة[2].

غرضُ تقديم شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

فائدة التَّقديم في إظهار التَّنعيم

قُدِّم شبه الجملة ﴿لَكُم﴾ على المفعول به ﴿بَنِينَ﴾ وغيره من مُتعلّقات الفعل؛ لأنَّ المقصود مِن ذِكر جعل (البَنين) نِعمًا منه سبحانه على النّاس هو تنعُّمهم بها، لا كونها مجعولةً ومخلوقة.

دلالة ﴿مِّنۡ﴾ في قوله ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾:

معرفة ابتداء النِّعَم معينةٌ على تدبُّر وشكر النِّعَم

معنى ﴿مِّنۡ﴾ الدّاخلة على ﴿أَزۡوَٰجِكُم﴾ للابتداء، أيْ: جعل لكم بنين منحدرين من أزواجكم؛ لأنَّهم مبدأ الأولاد، فابتداء البنين يكون مِنَ الأزواج، وما مَنَّ اللّه به على النّاس ممّا يكون بينهم وبين أزواجهم؛ فلهذا دخل ﴿مِّنۡ﴾ على ﴿أَزۡوَٰجِكُم﴾ بمعنى الابتداء[3].

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿أَزۡوَٰجِكُم﴾:

نِعمةٌ تُضاف إلى نِعمةٍ

أُضيف الأزواج إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجِكُم﴾؛ لأنَّ جعْلَ البنين للإنسان نِعمةٌ، وجعْلَ كونهم مِنْ زوجةٍ نِعمةٌ أخرى؛ لأنَّ بها تحقُّقَ كونهم أبناءَه بالنِّسبة للذَّكر ودوام اتِّصالهم به بالنِّسبة، ووجود المشارك له في القيام بتدبير أمرهم في حالة ضعفهم[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 217.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 7/ 329.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 217.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 218.

نكتة الإظهار في قوله: ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾:

إظهارٌ لإزالة اللّبس

أظهر (الأزواج) من قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ في مقام الإضمار، فلم يَقُل: (منها)؛ لاحتمال عود الضَّمير إلى الأنفُس بدلًا من الأزواج، فيفسد المعنى، ويكون: واللهُ جعَل لكم من أنفُسكم أزواجًا، وجعَل لكم من أنفُسكم بنين وحفَدة، فيكون آخر الآية مناديًا على أوَّلها بالبطلان، ويكون جعْلُ البنين والحفَدة ليس محتاجًا إلى وجود الأزواج!، وفي هذا إفسادٌ للمعنى، وتعارضٌ بين نِعمة جعْلِ الأزواج وجعلهم سببًا وسبيلًا للبنين والحفَدة، وجعْل البنين والحفدة بغير أزواج، بل بمجرَّد الأنفُس، فلمّا كان ذلك كذلك، أظهر في مقام الإضمار؛ ليكون صريحًا في إرادة الأزواج دون الأنفس؛ لإزالة اللَّبس الَّذي قد ينشأ عن التَّعبير بالضَّمير(1).

غرضُ تقديم ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾:

مراتب الاهتمام في ترتيب أصناف الإنعام

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ على المفعول به ﴿بَنِينَ﴾ للاهتمام والتَّخصيص(2)؛ لأنَّ الآية في سياق تعداد النِّعم، ولأنَّه سبحانه جعل للنّاس بنين وحفَدةً مِن أزواجهم لا من أزواجٍ آخرين، فانضبطت سلسلة الأنساب بهذا النِّظام المُحكَم البديع(3).

سرُّ ذِكر البنين دون البنات:

الامتنان بالمحبوب أولى مِن ذِكر المكروه

ذُكِر البنون دون البنات لكراهة المخاطَبين لهنَّ، فلم يمتنَّ اللّٰه تعالى عليهم إلّا بما يحبّونه(4).

غرض تنكير ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾:

في التَّنكير تكثير

جاءت كلمتا ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ نكرتين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ للتَّدليل على الكثرة، وهو الملائم لسياق تعداد النِّعم.

---

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 67.
(2) الدرر السَّنية، التفسير المحرر: 13/ 510.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 218.
(4) الصّاوي، حاشية على الجلالين: 2/ 320.

دلالةُ العطف والترتيب في ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾:

العطف في قوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يفيد كون الجميع مِن الأزواج، وأنَّهم غير البنين؛ إذ العطف يقتضي المغايرة[1]، فهو إذًا للتَّنبيه على تغاير الوصفين المنزَّل منزلة تغاير الذّات؛ وهما البنوَّة والحفَدة، فيكون امتنانًا بإعطاء الجامع لهذين الوصفين الجليلين، فكأنَّه قيل: وجعل لكم منهنَّ أولادًا هم بنون، وهم حافدون؛ أي: جامعون بين هذين الأمرين[2]، وقدِّم لفظ البنين لتخصيصه والاهتمام به؛ لأنَّ وجود أبناء بنين للرَّجُل يطمئنه بوجود مشاركٍ له في القيام بتدبير أموره ومُعينٍ في حال الضَّعف[3]، فقُدِّم البنون للشَّرف، ثمَّ عطف الحفَدة عليهم؛ لأنَّ الحفَدة أعمُّ؛ فقوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾ يعني: البنات والبنين، وأولادهم ...إلخ[4].

المعطوفات المُتغايرة تدلُّ على تعداد نِعَمٍ مُتكاثِرة

بلاغة العطف في قوله: ﴿وَرَزَقَكُم﴾:

جملة: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ وما بعدها؛ لمناسبة ما في الجُمَل المعطوف عليها من تضمُّن المِنَّة بنِعمة أفراد العائلة.

تكميل نِعمة التَّزويج والتَّوليد بِنعمة التَّرزيق

الغرضُ من إضمار لفظ الجلالة:

أُضمر لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ لسوق الجملتين مساق الجملة الواحدة، واكتُفيَ بذِكر لفظ الجلالة في أوَّلها ليكون هذا الرِّزق (رزق جعل الأزواج والبنين والحفَدة، والطَّيبات مِنَ الرِّزق) كأنَّه رزقٌ واحد.

لفظ الجلالة وإن أُضمِر، فهو معلومٌ ظاهر

نكتة تكرار نعمة الرِّزق:

في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ تكرارٌ لنِعمة الرِّزق

تذكيرٌ بعد تذكير، وتقريعٌ للجاحدين وتحذير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 564.

(2) الشّهاب، عناية القاضي: 5/ 352.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 218.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 210.

المذكورة قريبًا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ لاختلاف الغرض الدّاعي لذِكرها في كلِّ مرَّة.

فائدة عطف نِعمة الرِّزق على ما تقدَّمها:

بيان توالي الإنعام على العباد، بالرِّزق والأزواج والأولاد

لمّا ذكَر تعالى إنعامه على عَبيده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكَر إنعامه عليهم بالمطعومات الطَّيِّبة، سواءٌ كانت من النَّبات؛ وهي الثِّمار والحبوب والأشربة، أو كانت من الحيوان(1).

دلالة (من) في قوله ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾:

الكُفر ببعض النِّعم في الدُّنيا سببٌ للحرمان مِنَ النِّعم كلِّها في الجنَّة

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ تبعيضيَّة؛ أي: بعض الطَّيِّبات؛ لأنَّ كلَّ الطَّيِّبات إنَّما هي في الجنَّة، وما طيِّبات الدُّنيا إلّا أنموذجٌ منها(2)، وفيه إلماحٌ لطيفٌ، وهو أنَّه إذا كان هذا الرِّزق العظيم الواسع الَّذي آتاه اللهُ تعالى عبادَه في الدُّنيا إنَّما هو (بعضٌ) من الطَّيِّبات، فكيف بكلِّها؟!، وكيف يكفر بعد ذلك أحد؟.

نوع (اللّام) ودلالتها في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾:

الرِّزق الطَّيِّب لعبدٍ ما تستطيبه نفسه، ولآخَرَ ما يستطيب سرُّه

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ هي التي لبيان الجنس، فهي شاملةٌ لكلِّ ما يندرج تحت هذا الوصف.

غرض حذف الموصوف في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾:

فضل الله وكرمه في الرِّزق بالطَّيِّبات

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ دلَّ عليه فعل ﴿وَرَزَقَكُم﴾؛ أي: الأرزاق الطَّيِّبات(3)، وفي هذا ما فيه من بلاغة الإيجاز بالحذف، وهذا الإيجاز جعل الصِّفة كأنَّها هي المفعول به مبالغةً في تعظيمها.

دلالة موقع قوله ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ عن سابقه كونه

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 245.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 620، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 219.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 219.

التّباين بين الإيمان بالباطل وكفر النِّعمة يناسبه تباينٌ بين الخبَر والإنشاء

استفهامًا قُصِد به التَّشنيع والإنكار عليهم، فهو إنشاء، أمّا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ فهو خبَر، وهذا هو ما أوجب الفصل بين الجملتين الكريمتين لِما بينهما من كمال الانقطاع[1]؛ أي: التَّباين خبرًا وإنشاءً.

بلاغة الاستفهام ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾ وغرضه:

توبيخ الكفّار واستنكار إيمانهم بالباطل مع أنَّ الواجب الكفر به

جاء الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ للتَّوبيخ على إيمانهم بالباطل البيِّن واستنكار ذلك، فتفريع التَّوبيخ عليه واضح الاتِّجاه، فالاستفهام إنكاريٌّ؛ أي: ليس لهم ذلك[2].

غرضُ الحذف في ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

التَّوبيخ على الكفر بالنِّعمة، والإيمان بالباطل بعد تعدُّد النِّعم

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ دخلت على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتَّقدير: أبَعْدَ عِلمهم بأنَّ الله تعالى هو الَّذي خلقَهم وجعَل لهم من أنفسهم أزواجًا وجعَل لهم مِن أزواجهم بنين، وجعَل لهم من بنيهم حفَدة؛ أبَعْدَ كلِّ هذا يكفرون به، فيؤمنون بالباطل[3]؟!، ودلَّ الحذف على عدم عِلمهم؛ تنزيلًا لمَن لا يعمل بموجب العِلم منزلةَ الجاهل.

دلالة الباء في ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

إيمانُ الكفّار بالباطل لصيق، وهو بكلِّ ذمٍّ حقيق

الباء في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ بمعنى الإلصاق، وهو اللّازمُ لمعناها[4]، وقد أفادت أنَّ إيمان القوم تعرَّى عن كلِّ حقٍّ حقيقٍ بالإيمان به، وجعلوه ملصقًا بذَنَب الباطل يدور معه حيث دار، في صَلَفٍ وإصرارٍ، وعِنادٍ واستكبار.

(1) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 164.
(2) الخازن، لباب التأويل: 3/ 89، والطِّيبي، فتوح الغيب: 9/ 162.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/ 336.
(4) ابن يعيش، المفصَّل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

نوع (اللّام) في ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ هي الجنسيَّة التي يصحُّ معها استبدال لفظ (كلٍّ) بها، فكأنَّهم آمنوا بكلِّ ما هو باطلٌ، وكفروا بكلِّ ما هو حقٌّ.

يُؤمنون الجاحدون بكلِّ باطلٍ لبطلانه، ويُعرضون عن الحقِّ رغم بيانه

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

جيء بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ للدِّلالة على التَّجدُّد والتَّكرير[1]، فكأنَّ القوم كلَّما نَجَمَ لهم باطلٌ قاموا حوله رُكَّعًا وسجودًا!.

كلَّما نَجَم للقوم باطلٌ طاروا به فرحين، وظلَّت أعناقهم له خاضعين

غرضُ تقديم ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

قُدِّمَ شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ على الفعل ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ للاهتمام بالتَّعريف بباطلهم[2]، وللإشارة إلى أنَّهم لا يؤمنون إلّا بالباطل، ولا يؤمنون بحقٍّ قطُّ[3]، وكأنَّ الباطل شيءٌ معلوم مُستَيقَن[4]، وفائدة التَّقديم إيهام التَّخصيص مُبالغةً[5]؛ لأنَّ المقصود بالإنكار الَّذي سيق له الكلام تعلُّق اعتقادهم بالباطل لا مُطلَق الإيمان به[6].

خلط الجاحدون الباطل بدمائهم حتى جعلوه محطَّ إيمانهم

دلالة العطف في ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ معطوفٌ على جملة التَّوبيخ، وهو توبيخٌ متوجِّه على ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ من الامتنان بذلك الخَلْق والرِّزق بعد كونهما دليلًا على انفراد اللّٰه بالإلهيَّة[7]، فلمّا اتَّحدت الجملتان إنشاءً، وكانت بينهما هذه المناسبة

مَن آمن بالباطل العقيم كفر بنعمة الله العظيم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 221.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 220.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4220، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 162.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 656.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 234.
(6) الشّهاب، عناية القاضي: 5/ 352.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 220.

التّامَّة، وليس ثمَّ ما يقتضي الفصل بينهما جيء بالوصل لِما بين الجملتين من شبه كمال الاتِّصال.

دلالة الباء في ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾:

جاءت الباء في قوله تعالى: ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ بمعنى الإلصاق، وهو اللّازمُ لمعناها[1].

سرُّ إفراد النِّعمة:

في قوله تعالى: ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ جاءت كلمة (نِعۡمَة) نكرةً مع أنَّ نِعَم اللّٰه تعالى على المخاطَبينَ كثيرةٌ لا تحصى، لإرادة الجنس، فالمُراد بِنعمة اللّٰه: عموم النِّعم الَّتي أنعم اللّٰه بها عليهم، والّتي لا تُعدُّ ولا تُحصى[2].

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾:

إضافة النِّعمة إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ أفادت تعظيمَ هذه النِّعمة وتشريفَها.

غرضُ تقديم ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾:

أفاد تقديم شبه الجملة ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ على الفعل ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ تأكيد كفرهم بالنِّعمة[3]، كما أنَّ غرض التَّقديم هنا هو كون المقدَّم محطَّ الإنكار، إذ إنَّ نِعمة اللّٰه تعالى حقيقةٌ بأن تُعظَّم ويُعظَّم خالقها ومولِيها ﷻ، فكيف بعد هذا كلِّه يُكفَر بها؟! كما أفاد هذا التَّقديم إيهام الاختصاص مبالغةً؛ لأنَّ المقام ليس بمقام تخصيص حقيقة؛ إذ لا اختصاص لإيمانهم بالباطل، ولا لكفرانهم بنِعم اللّٰه[4]، ثمَّ إنَّه قد أفاد الرِّعاية على الفاصلة[5].

ألصقوا الإلحاد بالنِّعم فما تأتيهم مِنْ نِعمةٍ إلّا كانوا بها يجحدون

عُبِّر عن النِّعم التي ليس لها حدٌّ بلفظ المفرد لتنزيله منزل الجمع

الإضافة إلى العظيم تفيد الإجلال والتَّعظيم

محطُّ الإنكار مقابلة النِّعمة بالكفر

(1) ابن يعيش، المفصّل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(2) طنطاوي، الوسيط: 8/ 197.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4220.
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 68، والشّهاب، عناية القاضي: 5/ 352.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 234.

فائدة التَّعبير بضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾:

كفران النِّعمة أخفى من الإيمان بالباطل

جيء بضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ بين ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾، و﴿يَكۡفُرُونَ﴾ لتأكيد الحُكم بكفرانهم النِّعمة؛ لأنَّ كفران النِّعمة أخفى من الإيمان بالباطل، لأنَّ الكفران يتعلَّق بحالات القَلْب، فاجتمع في هذه الجملة تأكيدان: التَّأكيد الَّذي أفاده التَّقديم، والتَّأكيد الَّذي أفاده ضمير الفصل[1]، كما أنَّه أفاد التَّقوية المعاضِدة للتَّوبيخ والإنكارِ بالهمزة الواردة على فاء التَّعقيب؛ أي: أَبَعْدَ وضوح دلائل بطلان ما يعتقدونه يؤمنون بذلك الباطل؟!، ويجوز أن يكون لإيهام التَّخصيص مبالغةً[2].

وتقديم ضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ على الفعل ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ قد أفاد - إلى جانب ما تقدَّم - المحافظة على فواصل الآيات[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

بتجدُّد الإنعام على الأنام بتجدَّد جحود اللِّئام

جيء بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ للدِّلالة على التَّجدُّد والتَّكرير[4]، ففيه إشعارٌ بأنَّ كفرهم بالنِّعم مستمرٌّ، وإنكارهم لها لا ينقطع؛ لأنَّهم استحوذ عليهم الشَّيطان فأنساهم ذِكر اللّه[5].

بلاغة الطِّباق بين ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

ما أقبحَ القومَ وأقبحَ تناقضهم، يجحدون الحقَّ الأبلج، ويعبدون الباطل اللَّجلج

وفي الجمع بين ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، و﴿يَكۡفُرُونَ﴾ محسِّن بديع الطِّباق[6]، وقد جيء به هنا لبيان مدى تناقض القوم، ومدى سوء أدبهم في تعاطيهم مع نِعمة ربِّهم ﷻ، وهكذا أثرى الطِّباق السِّياق، وأجلى الصّورة، وأكَّد المعنى ووضَّحه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 220.
(2) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 68.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 234.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 221.
(5) طنطاوي، الوسيط: 8/ 197.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 221.

بلاغة توجيه المتشابه اللَّفظي مع آية سورة العنكبوت:

قُيِّدت آية النَّحل بضمير الفصل للغائب لئلّا يلتبس مع المخاطب

الحاصل أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ اتَّصل بما قبله من الخطاب، ثمَّ عاد إلى الغيبة فقال: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾، فكان لا بُدَّ من تقييده بـ﴿هُمۡ﴾؛ لئلّا تلتبس الغيبة بالخطاب والتّاء بالياء، أمّا ما كان في العنكبوت فقد اتَّصل بآياتٍ استمرَّت على الغيبة فيها كلِّها فلم يُحتَج إلى تقييده بالضَّمير(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَعْلُ والخَلْق والبَرْءُ والذَّرْء والإنشاء:

الجَعْلُ فيه معنى التَّضمين، وفي الخَلْق معنى التَّقدير والتَّسوية، وفي البرء معنى تمييز الخَلْق، وفي الذَّرء معنى الإظهار، والإنشاءُ ابتداءُ الخَلْق

الفرق بين خَلَقَ وجَعَلَ الَّذي له مفعول واحد: أنَّ الخَلْقَ فيه معنى التَّقدير والتَّسوية، وفي الجَعْلِ معنى التَّضمين، كإنشاء شيءٍ من شيءٍ، أو تصيير شيءٍ شيئًا، أو نقله من مكانٍ إلى مكانٍ؛ فالجَعْلُ فيه معنى التَّعلُّق والارتباط بالغير بأن يكونَ فيه أو مِنه أو إليه، لا بأن يصير إيّاه؛ لأنّه معنًى آخر للجَعْل، فإنَّه حينئذ يتعدَّى إلى مفعولين(2).

أمّا البرء فأصله خلوص الشَّيء وانفصاله عن غيره، إمّا على سبيل التَّفصِّي، كما في: برِئَ المريضُ من مرضه والمَديونُ من دَيْنِه، أو الإنشاء كما في برَأ اللّهُ آدم من الطِّين؛ أي: خَلَقَهُ ابتداءً متميِّزًا عن لَوث الطِّين(3).

والبرء: أخصُّ من الخَلْق، وللأوَّل اختصاصٌ بخَلْق الحيوان، وقلَّما يُستعمل في غيره، كما في: برأ اللّهُ النَّسَمة وخَلَق السَّماوات والأرض(4).

---

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص 162.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 3، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/ 153، وأبو البقاء الكفوي، الكليات، ص: 430.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/ 81، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 102، والراغب، المفردات: (برأ)، والكليات، الكفوي، ص: 231.

(4) ابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس: (برأ).

وأمّا الذَّرء فأصله الإظهار؛ فهو إظهار ما أبدأه اللّهُ ﷻ، ومعنى ذرأ اللّهُ الخَلْقَ: أظهرهم بالإيجاد بعد العَدَم، ومنه قيل للبياض: الذُّرْأة؛ لظهوره وشهرته[1].

وأمّا الإنشاء فهو ابتداء الخَلْق، والإنشاء الاختراعيُّ غير المسبوق بمثال لا يليق إلّا بالبارئ تعالى، قال اللّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ [الأنعام: 98][2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (ذرأ).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نشأ).

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ [النّحل: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين إغداق النِّعم، وبيان عجز مَن لا يملك رزقًا ولا استطاعة

ورود الآية جاء تبيينًا لِقَولِه تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النّحل: 72]، حيث نعى عليهم فسادَ نَظَرِهم في عبادةِ ما لا يُمكِنُ أن يقَعَ منه ما يَسعى عابِدُه في تَحصيلِه منه، وهو الرِّزقُ، ولا هو في استطاعتِه فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾[1].

وإنَّ اللّهَ تعالى لَمّا شَرَحَ الدَّلائِلَ الدّالَّةَ على صِحَّةِ التَّوحيدِ، وأتبَعَها بذِكرِ أقسامِ النِّعَمِ العَظيمةِ؛ أتبَعَها بالرَّدِّ على عَبَدةِ الأصنامِ[2].

وبَعد أن عدَّد اللّهُ في الآياتِ السّابقةِ نِعَمَهُ سبحانه على المخاطَبين، وأنّه رزقهم من الطّيبات، وجعلَ لهم من أنفسهم أزواجًا وبنينَ وحفَدَة؛ كان من الواجبِ عليهم أنْ يعبدوه لِنعمِه، وفضلِه عليهم، ولكنّهم عبدوا غيره ممّن لا يستحقُّ العبادة، لذلك ردّ عليهم مُبطلًا مذهبَ عبادةِ الأصنامِ مبيِّنًا عجْز هذه المعبودات[3]، فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُونِ﴾: أصلُ (دون): يَدُلُّ عَلى المُداناةِ والمُقارَبَةِ، يُقالُ: هذا دونَ ذاكَ؛ أيْ: هو أقرَبُ مِنهُ، ولا يُشتقّ منه فعل، ويُقال في الإغراء[4]، ودون: ظَرفُ مكانٍ ويُعبّر به عن المنزلةِ الدَّنيّة[5]، ودون:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 565.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 120، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 245.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8083.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دون).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 33.

نقيضُ فوق، وهوَ تَقْصيرٌ عن الغايَةِ، والدّونُ: الحَقِيرُ الخَسِيسُ، ودون تأتي بِمَعْنى: (على، بَعْد، عِنْد، أمام، وراء، غير، ضدّ، أَقَلَّ من ذا، أَنْقَصَ من ذا)[1] والمقصود بـ﴿دُونِ﴾ في الآية: نقيضُ فوقَ، والمُراد بقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أنَّهم عَبَدوا ما لا يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ ولا بِيَدِهِ نِعْمَةٌ، وهو الأصنامُ؛ لأنَّها لا تَملِكُ ما يأْتيهم مِنَ الرِّزْقِ لاحتياجِها، ولا تستَطيعُ رِزْقَهُم لعجْزِها[2]، أو كلّ مَعبود سِوى اللّه تعالى من صنم أو وثَن أو غير ذلك من المعبودات الباطلة[3].

2) ﴿يَمْلِكُ﴾: أصْلُ (ملك) يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أملَكَ عَجِينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، والأصْلُ هذا، ثُمَّ قيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَملِكُهُ مَلْكًا، والاسمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يَدَهُ فيهِ قوِيَّةٌ صَحيحَةٌ[4]، والمِلْكُ ضَربان: مِلْكٌ هوَ التَّمَلُّكُ والتَّوَلّي، ومِلْكٌ هوَ القوَّةُ على ذلِك، تَوَلَّى أو لَم يَتَوَلَّ، والمُلْكُ: ضَبطُ الشَّيْءِ المُتَصَرَّفِ فيهِ بالحُكْمِ، والمَلِكُ: هوَ المُتَصَرِّفُ بالأمرِ والنَّهي في الجُمهورِ، وذلِكَ يَخْتَصُّ بسِياسَةِ النّاطِقينَ[5] والمقصود بالملْكِ في الآية: القُدْرَةُ، والمُرادُ بمِلْكِ الرِّزْقِ: القُدْرَةُ على إعطائِه[6].

3) ﴿رِزْقًا﴾: أصلُ (رزق) يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ غَيرُ المَوْقوت، فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّهِ جَلَّ ثَناؤُهُ[7]، والرِّزق: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مالٍ ونَحوِهِ، والجَمعُ: أرْزاقٌ[8]، والرَّزْقَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[9]، والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ: العَطاءُ الدّائِمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا؛ أيْ: أَعْطَى ووَهَبَ، والرّازِقُ: المُعْطِي وهوَ اللّهُ[10]، وكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ ويُتَغَذَّى بِهِ فهوَ رِزْقٌ، ومِنْ مَعاني الرِّزْقِ أيْضًا: الكَسْبُ، الهِبَةُ، الصَّدَقَةُ[11] والمقصود بالرِّزق في الآية: ما صحَّ الانتفاعُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (دون).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 221.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 197.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(5) الرّاغب، المفردات: (ملك).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 221.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(9) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (رزق).
(10) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رزق).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رزق).

به[1]، والمعنى: أنّهم يَعبدون ما لا يَملِك لهُم سَببًا من أسباب الرِّزق سواء الغَيْث الَّذي يَأتي من جهة السَّماء، أو النَّبات والثِّمار الَّتي تخرج من الأرض، ولا يَستطيعُ نَفْعَهم في شيء[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ معبودٍ سوى الله ﷻ، عاجزٌ عنِ الرِّزق والعَطاء

يُخبرُ اللّه تعالى أنَّ المُشركينَ يَعبُدون أصنامًا لا تَملِكُ أنْ تُعْطيَهم شيئًا مِن الرِّزقِ؛ لا مِن السَّماءِ كالمطَرِ، ولا مِن الأرضِ كالزَّرعِ، ولا تَقْدِرُ الأصنامُ والمَعبوداتُ مِن دونِ اللّهِ أنْ تَرزُقَ عابديها شَيئًا؛ فليس لهم أيُّ نَوْعٍ مِن أنواعِ الاستطاعةِ أصْلًا، فهذه صِفةُ آلهتِهم، فكيف يَعبدونَها مع اللّهِ؟![3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة عطْف الآية على ما تَقدَّمَها:

المَزيدُ مِن التَّوبيخِ، مع اختِلافِ موجِبه، فمَعَ الكُفرِ شكرُ مَن لا يستحقُّه

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾ عَطفٌ على جُملتَيِ التَّوبيخ، وهما قوله: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾، والمعنى: هم يؤمنون بالباطل، ويكفرون باللّهِ سبحانه وزيادة على ذلك يَشكرون غيرَ اللّهِ وهو المنعِمُ ﷻ، وفي هذا العَطف مَزيدٌ مِن التَّوبيخ؛ فإنَّ الجُملَتَيْنِ المعطوفَ عليهما أفادَتا تَوْبيخًا على إيمانِهم بالآلهةِ الباطلةِ، وكُفرِهم بنِعْمةِ المعبودِ الحقِّ، وهذه الجُملةُ المعطوفةُ أفادَتِ التَّوبيخَ على شُكرِ ما لا يَستحِقُّ الشُّكرَ؛ فإنَّ العبادةَ شُكرٌ، فهُم عبَدوا ما لا يَستحِقُّ العبادةَ، ولا بيَدِه نِعْمة، وهي الأصنامُ؛ لأنَّها لا تَملِكُ ما يَأتيهم مِن الرِّزقِ لاحْتياجِها، ولا تَستطيعُ رزقَهم لِعَجزِها؛ فمفادُ هذه

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 410.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 141، ودَرْوَزَة، التّفسير الحديث: 5/ 159.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 305، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 146، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 588. قال السَّعديّ: (غيرُ المالِكِ للشَّيءِ ربَّما كان له قوَّةٌ واقتدارٌ على ما ينفَعُ مَن يتَّصِلُ به، وهؤلاء لا يَملِكونَ ولا يَقدِرونَ)، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 445.

الجملةِ مُؤكِّدٌ لمفاد ما قَبلَها مع اختِلافِ الاعتبارِ بموجِبِ التَّوبيخِ في كِلْتَيهِما[1].

في شِركهم دليلٌ على كِبْرِهم وجهلِهم، وفي تصويرِه تنفيرٌ لهم منه

دلالة التّعبير بالمضارع في: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيّ عن عبادتهم لغيرِ اللّهِ بصيغةِ المضارع في قوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ﴾، مع أنّ هذهِ العبادةَ سَبَقَتْ نزولَ الآية؛ لأمرَيْن:

الأوّل: الدّلالةُ على التَّجدُّدِ الحُدوثيِّ والاستمرار في عبادتهم لِمَنْ لا يَملكُ لهم رزقًا من السّموات والأرض، بما يَدلُّ على مُكابرتهم وقُبحِ حالهم.

الثّاني: إفادةُ تصويرِ خُضوعهم وذلِّهم، لِمَنْ لا ينفعهم ولا استطاعةَ له لِنَفْعهم؛ لِيَحملَهم هذا التّصويرُ على النُّفورِ ممّا هُم فيه، والرُّجوعِ إلى عبادةِ الحقِّ سبحانه، وشكرِ مَن يستحقُّ الشُّكر.

المشركون يَعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا

سرُّ عوْد الضّمير في: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

الضّمير في ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾، عائدٌ على المشركينَ، وهذا مفهوم من السّياق الّذي هو تقريعٌ وتوبيخٌ للمشركين، وإظهارٌ لِفَساد نَظَرهم، ورَدٌّ عليهم في عبادتهم للأصنام، وقد تَقدَّم الكلامُ عنهم في عدد من المواضع في الآيات السّابقة.

أوثانهم الّتي يعبدونها من دون الله، مخالِفةٌ لِصفاتِ الله

معنى حرْف الجرِّ ﴿مِن﴾، في سياق الآية:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حرْفُ جرٍّ، يحتمل معنيَيْن:

الأوّل: للتّأكيد، إنْ كانت ﴿دُونِ﴾ بمعنى غير، والمعنى: ويَعبدون أَوْثانًا غيرَ اللّه، **والثّاني**: ابتدائيّة، إنْ كانت كلمة ﴿دُونِ﴾ اسمًا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 565، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 221.

للمكانِ المُباعدِ، فهي إذَن مُستعارةٌ لَمَعنى المخالَفة، والمعنى: يَعبدون أَوْثانًا مَوصوفة بأنّها مخالِفةٌ لِصِفاتِ اللّه[1].

دلالة التّعبير بالدّونيّة في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

الأصنامُ العاجزةُ، لا تَستحقّ العبادة من دونِ الله

عبّر البيانُ الإلهيّ بلفظ ﴿دُونِ﴾ استعارةً لمعنى المخالَفة؛ إذ إنّ من معاني ﴿دُونِ﴾ أنْ تكون اسمًا للمكان المُباعدِ، "فهُم عَبَدوا ما لا يَستحقُّ العبادة ولا بيَده نِعْمة، وهي الأصنام؛ لأنّها لا تملِك ما يأتيهم من الرّزق لاحتياجِها، ولا تَستطيع رِزْقَهم لعَجْزها"[2].

الغرَض من إظهار ﴿ٱللَّهِ﴾، في موضِع إضْماره:

تقديمُ ما هو غاية السّفول، على العظيم الأجَلِّ، من سفاهة العقول

جاء الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ﴾ صريحًا لا مُضمَرًا، فلَم يَقُلْ سبحانه: (ويَعبدون من دونه)؛ تربيةً للمَهابةِ في النُّفوس، وذلك بذِكْر الاسْم الأعظَم الجامع لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وخاصّة أنّ السّياق هو سياقُ مَهابةٍ وتعظيم لنِعَم اللّه، وانتصارٍ للحقّ وحُجَجه، وهذا يَتضمّن تعريضًا بفَظاعةِ وسوءِ وقبحِ فِعْلهم؛ وهو إعراضُهم عن عبادةِ المُتفضِّلِ المُستَحقّ للعبادةِ سبحانه لِذاته ولإنعامه، والإقبالُ على عبادةِ مَن لا يملكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا، ولذلك فسّر البقاعيُّ الآيةَ فقال: "ويَعبدون من غيرِ مَن له الجلال والإكرام ممّا هو في غاية السّفولِ، من الأصنامِ وغيرها"[3].

سرّ التّعبير بِاسْم الموصول ﴿مَا﴾:

بيان أنّ معبوداتهم باطلة، لا تَملك نفعًا لها ولا لهُم

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ﴾ اسم موصول، وهي "كنايةٌ عن معبوداتهم الباطلة، فهي مفرَدَةٌ لفظًا، مجموعةٌ معنًى"[4]، وهي الأصنام؛ بدلالةِ السّياق؛ لأنّ الآيةَ تتكلّمُ عن حالِ كفّارِ قريش، وقد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 221.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 213.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 198.

عبّر بِاسْم الموصول ﴿مَا﴾ للتّعميم؛ لأنّه أعَمُّ الموصولات وأدْخلُها في الإبهام لِيشملَ كلّ أنواع المعبودات من دون اللّه، العاقل منها وغيرِ العاقل، فاللّفظ يَعمُّ كلَّ ما يُعبد من دون اللّه سبحانه من عاقلٍ وغيرِ عاقلٍ؛ لأنّهما في الحُكم سواء[1]؛ فهُما لا يَملكانِ رزقًا لأحدٍ؛ لأنّ الرّازقَ هو اللّه وحدَه ولا أحدَ معه، وما نراه من صوَرِ إعطاءِ البشَرِ الرِّزقَ للبَشر، فإنّما هم نَقَلَةٌ يُنفّذون مشيئةَ اللّهِ سبحانه فيما قسمَ من الأرزاق، أمّا هم فلا يَملكون من أمرِ الرّزقِ في الحقيقةِ شيئًا[2].

دلالة التّعبير بـ ﴿يَمۡلِكُ﴾ مادّةً وصيغةً:

في تجدُّدِ انتفاءِ مـلْـكِ الأصـنـام لـلـرّزقِ، إثـبـاتٌ لـعـجْـزها غـايةَ العجْز

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظ ﴿يَمۡلِكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ﴾؛ لاتّساع دلالتها؛ إذْ أصلُ (ملك) في اللّغة يدلُّ على قوّة في الشَّيء وصِحَّة[3]، ومن معاني الملْك: العظَمة والسُّلطان، والَّذي يملكُ له القُدْرة على احْتِواءِ الشَّيْءِ الَّذي يملكه وضَبطِه، وله القُدْرَةُ عَلى الاسْتِبْدادِ بِه، والتّصرّف فيهِ بالحُكْم[4].

أمّا من حيث الصّيغة؛ فقد استعمل القرآنُ صيغة الفعل المضارع المَنفيِّ، ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾ الّذي يدلّ على تَجدُّد واستمرارِ هذا النّفْي، فالأصنام الَّتي يَعبدونها عاجزة وعدَمُ ملْكِها للرّزق مستمرٌّ ومتجدِّدٌ، كما أنّ التّعبير بلفظ ﴿يَمۡلِكُ﴾ من حيث مادَّتها وصيغتُها يَتناسَب مع السّياق الّذي أتى لتوبيخِ الكفّار وتَقريعهم، وإظهارِ فسادِ عقولهم، وإثباتِ عجْزِ الأصنام الّتي يعبدونها، فنَفْيُ ملْكِها لأيّ رِزق من السّموات والأرض، يُثبت عجْزَها غاية العجْز وعدَمَ ألوهيّتها، وأنّ القادر على المُلْك والرّزق هو وحده مَن يستحقّ العبادة.

---

(1) ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾ [النّحل: 49]، فقد اشترك العاقل وغير العاقل في حُكم السّجود لله سبحانه.

(2) القدّوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 147.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).

(4) ابن سِيدَه، المُحكَم، والزّبيديّ، تاج العروس: (ملك).

مَنْ لا يملكُ الرّزقَ لمَن يعبده، أحرى أنْ لا يملكه لأيِّ أحدٍ

دلالة اللّام في شِبْه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

(لام) لهم في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ﴾ للاختصاص، وقد أفادتْ تخصيص نَفْي ملْكِهم الرّزقَ بالجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾، ولو قال سبحانه: (وَيَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللّه ما لا يَملِكُ رِزْقًا)، بدون ﴿لَهُمۡ﴾ لَدَلّ على أنّهم لا يملكون أيَّ رزقٍ لأيِّ أحدٍ، ولكنّ سرَّ مَجيءِ التّخصيص بالجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾، يَكمنُ في أنّ الآية جاءتْ رَدًّا على الكافرين الّذين يعبدون غيرَ اللّه؛ ولذا ناسَبَ التّخصيص؛ زيادةً في بيان خطَئهم، وفي نفْيِ ملْكِ المعبودينَ من دون اللّه الرِّزقَ لمَن يَعبدونهم نفْيٌ بالأَوْلى أنْ يَملكوا الرِّزق لأيِّ أحَد؛ لأنّهم إذا كانوا لا يستطيعون أنْ يَرْزقوا مَن يعبدهم ويتذلَّلُ إليهم، فكيف يَرزقون مَن لا يَعبدهم؟![1].

بيان أنّ عجْزَ الأصنام، عجْزٌ مؤكّد عن نقْل النّفع للغير

غرَض تقديم شَبْه الجملة: ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول:

قدَّم البيانُ الإلهيّ شبْهَ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول ﴿رِزۡقٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ولَم يَقُلْ: (لا يملك رزقًا لهم)؛ تأكيدًا لدلالةِ أنّهم إنْ كانوا لا يَملكون الرِّزق لِمَن يَعبدهم خاصّة، فهُم لا يملكون لغيرِ مَن يعبدهم بالأَوْلى.

الــرّزقُ قِوامُ الحياة، والنِّعمةُ الّتي لا يَستغني عنها أحدٌ من المخلوقات

سرّ التّعبير بلفْظ ﴿رِزۡقٗا﴾ في السّياق:

عبَّرَ البيان الإلهيُّ عن خيرات السّماء والأرض الّتي لا تملِكها الأصنام المزعومةُ بـ (الرّزق) في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنّ الرّزق هو الغايةُ المرجوّة؛ وهو النِّعمةُ الظّاهرةُ الّتي أنعَمَ بها ﷻ على عباده في حياتهم؛ من غذاء ولباس ومأْوًى وغيرها، وكلُّ ذلك كان في اختلاطِ ماءِ السّماء بالأرض[2]؛

(1) القدوميّ، التّفسير البياني، ص: 147.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/ 356.

أيْ: عبّر بما فيه قِوامُ حياتهم، وهو الأمر الجَليُّ الواضح لكلّ أحدٍ؛ لأنّ كلّ أحدٍ يحتاج إلى الرّزق.

الغرَض من تنكير ﴿رِزۡقٗا﴾ في السّياق:

العجزُ عن امتلاكِ الرّزقِ القليل، عجْزٌ عن امتلاكِ الرّزق الكثير

تنكير ﴿رِزۡقٗا﴾ في قوله سبحانه: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإشعار بقِلّته وتَفاهَتِه، وأنّ معبوداتهم لا تَملِك لهم أيَّ شيْءٍ من الرِّزق، حتّى ولو كان تافِهًا حقيرًا[1]، والعجْزُ عن امتلاكِ الرّزقِ القليلِ عجْزٌ عن امتلاكِ الرّزقِ الكثير.

دلالة المَوقع النّحويّ لجملة ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ﴾:

بيان أنّ أصنامهم لا تَقدرُ على توفير مقوّمات الحياة لهم

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾ اسم موصول في محلِّ نَصْبِ مفعول به، وجملة ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾ صِلَةَ الموصول، لا محلّ لها من الإعراب[2]، ومعناها اختَلَفَ فيه المفسِّرون على قولَيْن:

الأوّل: ما يَقدِرُ عَلى أنْ يَرزُقَهم شَيْئًا لا مِنَ السَّماواتِ مَطَرًا، ولا مِنَ الأرْضِ نَباتًا، وذلك باعتبار ﴿رِزۡقٗا﴾ بمعنى المَصْدر، و**الثّاني**: لا يَملكون لكم رِزقًا قليلًا كائنًا من السَّماوات والأرض، وذلك باعتبارِ ﴿رِزۡقٗا﴾ اسْمًا لِلْمَرْزوق[3].

دلالة الارتقاء بعطْف الجملة الخبَريّة:

بيان تقرير عجْزهم، عن الخَلْق والمُلْك

أفادَ التّعبيرُ بالجملة الخبريّة: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾، نَوْعًا من الارتقاءِ في الاستدلالِ على بُطْلانِ عبادةِ الأصنام؛ ذلك لأنّ الحقَّ ﷻ قال عنهم في آيةٍ سابقةٍ في سورة النّحل: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾ [النّحل: 20]، فنَفى عنهم القُدْرةَ على الخَلْق؛ بل إنّهم هم المَخلوقونَ، فلمّا نَفى عنهم القُدرةَ على الخَلْقِ أرادَ هُنا أنْ يَترقّى في الاستدلالِ، فنَفى عنهم مجرَّد أنْ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 198.

(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 339.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 224، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 128.

يَملكوا، فقد يملكُ الواحدُ ما لا يَخْلقه، فأتَتِ الآية هنا لتُقرِّر أنّهم حتّى مجرَّد المُلْكِ لا يَملكون[1].

معنى حرْف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ في سياق الآية:

تعدُّد غاية حرْف المعنى (مِن)، ثَراءٌ في المعنى

حرْفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، لابتداءِ الغاية؛ والمعنى إمّا: "لا يَملكون لكُم رزقًا مَوصوفًا بِوُرودِهِ من السّماوات والأرض"[2]، باعتبار ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُتعلّقًا بمَحذوف على أنّه صِفة لـ ﴿رِزۡقٗا﴾ الَّذي هو اسمٌ لِما يُرزَق (المَرْزوق)"؛ أيْ: كائِنًا مِنهُما"[3].

أوْ: لا يَرزقون من السّماواتِ مطَرًا، ولا من الأرض نباتًا، باعتبار ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلّقًا بنَفْس ﴿رِزۡقٗا﴾ إنْ جَعَلْناه مصْدرًا[4].

أوْ: لا يَملكون من السّماواتِ والأرض رِزقًا لهم، باعتبار ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، متعلّقًا بـ ﴿يَمۡلِكُ﴾ سواء أكان ﴿رِزۡقٗا﴾ مصْدرًا أم اسمًا للمَرزوق[5].

دلالة (اللّام) في لفظَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

في إرادةِ العموم، مبالَغةٌ في إثباتِ عجْزِ معبوداتِهم

اللّام في لَفْظَتَي السّماواتِ والأرض، في قوله تعالى: ﴿رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ، تُفيدُ العمومَ؛ فهي تشملُ جنسَ السّماواتِ السَّبعِ؛ أيْ: ما فيها وما فوقها وما تحتَها من رِزقٍ، وتشملُ جنسَ الأرضِ كلّها، وكلّ ما فيها[6]، وفي العموم دلالةٌ على المبالَغة في إثبات عجْز مَعبوداتهم عن أنْ تَملك أيّ رِزقٍ من جنس السّماواتِ والأرض بكلّ ما فيهما، وممّا يدلّ على أنَّ المُراد بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8085.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 221.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 128.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 621، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 224.
(5) ابن عادل، اللّباب: 12/ 120.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 103، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 140، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/ 3592.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسُهما صحّةُ عطفِ الأرض على السّماوات؛ إذ هو عطفُ جنسٍ على جنسٍ، لا عطفُ الجمعِ على المفرد، حتّى يلزمَ تركُ الأَوْلى من رعايةِ التّطابق بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه(1).

بلاغة الإطناب بذِكر محلّ الرّزق، في قوله: ﴿رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

أطنبَ البيانُ الإلهيّ بذِكر محلّ الرّزق بذِكرِهِ لفظَتَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ولَم يَقُلْ: (ويَعبدون ما لا يَملك لهم رزقًا شيئًا ولا يَستطيعون)، مع أنّ الرّزق لا يكون إلّا من السّماء والأرض؛ لأمرَيْن:

تـصـويـرٌ واسـتـحـضـارٌ ذِهـنـيّ لأحـوالِ الـرّزق، لإثبات عجْزِ أصنامهم

الأوّل: للتّذكيرِ بأحوالِ الرّزق؛ ليكون أقوى حضورًا في الذّهن، فالرّزقُ من السّماء: المطر، والرّزق من الأرضِ: النّبات كلُّه من حَبّ وثمرٍ وكَلَأ(2)، وهذا من شأنه أنْ يحقّقَ الغايةَ في إثباتِ عجْزِ هذه الأصنام، في أنْ تملكَ ذلك أو تستطيع أنْ تملكَهُ.

الثّاني: لأنّ آلهتهم المزعومةَ، إذا كانت لا تملك رزقًا من السّماواتِ والأرض، فهُم لا يَملكون أيَّ رزق في أيِّ مكان.

سرّ عدَمِ اقتصار الرّزق على جهةٍ واحدة:

نـفـيُ مـلْـكِ المعبودات للرّزق مـن الجـهـات، دليلٌ على غايةِ عجْزِها

لَم يَقْصرِ القرآن الرّزقَ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على جهةٍ واحدةٍ (السّماء أو الأرض)، وإنّما جمع السّماء والأرض فقال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أيْ: ما لا يملكُ لهم رزقًا منهما جميعًا؛ للدّلالةِ على مُنتهى عجْزِ المعبودات الَّتي يعبدونها، وتأكيدِ بطلان شركِهم وعبادتهم من دون اللّه.

غرَض تقديم السّماوات على الأرض، في السّياق:

رزقُ السّماء أدلّ على كمالِ القُدْرةِ الإلهيّة، وعجزِ أصنامهم الوهميّة

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، قدّم القرآن الكريم ذِكر السّماواتِ على الأرض؛ لأُمورٍ:

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 363، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 155.

الأوّل: مراعاةً لسبْقِ الرّزقِ وأهمّيّته، فنزول الماء من السّماء هو أوّل أسباب الرّزق وأهمُّها.

الثّاني: مراعاةً لسبْقِ خَلْقِها على خَلْقِ الأرضِ[1]؛ فقُدّمت السّماواتُ على الأرض مراعاةً لترتيبِ الوجود.

الثّالث: لأنّ السّماواتِ أعظَمُ من الأرض شأنًا وخَلْقًا، وأشرفُ ذاتًا وصِفةً[2]، فهي متعبَّدُ الملائكة المُقدّسين على تفاوتِ مراتبهم، وقِبلةُ الدُّعاء، ومعراجُ الأرواح الطّاهرة، ولا معاصي ومنْكرات تحصل فيها، بخِلاف الأرض الّتي وإنْ كان فيها الأنبياء فقد وقعَتْ فيها المعاصي، وحوَتِ المُفسدين[3]، ولذا فتقديم ذِكرِ السّماواتِ من باب التّدرُّج من الأعلى إلى الأدنى.

الرّابع: لأنّ نزول الرّزقِ من السّماء أعجبُ وأدلُّ على كمالِ قُدْرته سبحانه وكمالِ عجْزِ أصنامهم.

الخامس: لأنّ الأسبابَ السّماويّة من نزولِ المطر، وحرارةِ الشّمس، وغير ذلك بمنزلة الفاعل، وأمّا الأسباب الأرضيّة من التّربة وغيرِها بمنزلة القابل، فقدَّم الفاعل على القابِل[4].

السّادس: موافقةً لعادةِ القرآن الَّتي هي تقديمُ السَّمواتِ على الأرضِ، ولَم تَتقدّم الأرضُ على السّماوات إلّا استثناءً.

سرّ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

العجزُ عن الأفخم والأشرفِ، عجْزٌ عمّا هو دونه

من محسِّنات الكلام المؤاخاةُ بين الألفاظ، وقد عُدل عن ذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فقد جُمع أحدُ المتقابلَين وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دون الآخر ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ وحِكمةُ ذلك في أمور:

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 83، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 255.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 468.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 77.

(4) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 9/ 451.

الأوّل: الجمعُ أبلغُ في التَّفخيم من الإفراد، وذلك لكون السّماواتِ أشرفَ من الأرض(1)، والعجزُ عن الأفخم والأشرفِ عجزٌ عمّا هو دونَه.

الثّاني: إرادة للسّماوات السَّبعِ ولأجْرامها العظيمة ذاتِ النّظام الخاصّ المتفاوتة بالصّفات والآثارِ والحركاتِ وما فيها من أسرار، وأمّا الأرضُ فهي من جنسٍ واحدٍ، وهو الصَّعيدُ(2)، وعليه يكون في الجمع مبالَغة في إظهارِ عجْز معبوداتهم.

الثّالث: تخفيفًا في النُّطق؛ لِثقلِ جمعِ الأرضِ ومخالَفته للقياس (أرضون، أرضين)، ولهذا لَم تَرِدْ بهذه الصيغة في القرآن، ولَمّا أُريد الجمع قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12](3).

بلاغة الطّباق بيْن السّماوات والأرض:

تـقـابُـلُ رزقَــيِ السّماء والأرضِ مُنبئٌ عن كمالِ قُدْرة الله وعجْز ما سِواها

جمعَ البيان القرآنيُّ بين لفظَيْن متقابلَيْن في المعنى، هما: السّماوات والأرض، بما يَزيد الكلام حُسنًا وطَرافة، ويدلّ على كمالِ القُدْرة الإلهيّة الّتي تشمل الأشياءَ كلّها؛ فهو لا يَرزق من السّماء فقط، أو من الأرضِ فقط؛ بل إنّ قُدْرته تشملُ السّماء والأرض، ويدلّ في المقابلِ على انعدامِ قُدْرةِ الأصنام وما يعبدون من دون اللّه، فهي لا تملك لَمَنْ يَعبدها ولا لغيرهم رزقًا من السّماوات فقط، وإنّما لا تَملك لهم ولا لغيرهم ذلك من الأرض كذلك.

دلالة الموقِع النّحويّ لقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾:

المبالَغة في تأكيدِ عجزِ الكفّارِ عن امتلاكِ الرّزق

في نَصْبِ ﴿شَيْـًٔا﴾ أربعة أوجُه:

الأوّل: أنَّه نائبٌ عن المَصدَرِ منصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقة؛ أيْ: ما لا يَملِكُ لهم شَيئًا مِن الملكِ لا قليلًا ولا كثيرًا.

الثّاني: أنَّه منصوبٌ على المفعوليَّةِ بـ ﴿رِزْقًا﴾؛ أيْ: ما لا يملِكُ لهم أنْ يَرزُقَهم شيئًا.

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 77.

(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 2/ 355.

الثّالث: أنَّه مَنصوبٌ على البَدَليَّةِ مِن ﴿رِزۡقٗا﴾؛ أيّ: ما لا يَملِكُ لهم شيئًا مِن الرِّزقِ[1].

الرّابع: صِفة لمَصْدر محذوف مفعول مُطلَق لقوله: ﴿يَمۡلِكُ﴾، والتّقدير ما لا يملك لهم ملْكًا شيئًا؛ أيّ: قليلًا أو كثيرًا، جليلًا أو حقيرًا[2]، وعلى كلّ الأعاريبِ فإنّ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ تدلُّ على التّأكيد والمبالَغة في عجْز الأصنام عن امتلاك الرِّزق، والقُدْرة على امتلاكه، وأنْ يَرزقوا عابديهم حتّى أحقرَ شيء وأقلّه.

الغرَض من تنكير لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

عجْزُ معبوداتهم عن أيِّ نفعٍ قليلٍ، دليلٌ على عجْزها عن الكثيرِ

نكّر البيانُ القرآنيّ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأمرَيْن:

الأوّل: مُبالَغةٌ في المَنفيِّ، فقد جاءَ التّنكير مؤكِّدًا تعميمَ هذا النّفْي؛ لأنّ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة جاءتْ في سياق النّفْي[3]؛ أيّ: لا يَملِكون جُزءًا قَليلًا مِن الرِّزقِ، وهو منصوب على البدليّة من ﴿رِزۡقٗا﴾، فهو في معنى المفعول به، كأنّه قيل: لا يَملكون لهم شيئًا من الرِّزق[4]، قليلًا أو كثيرًا، جليلًا أو حقيرًا[5].

الثّاني: التّحقير[6]؛ أيّ: لا يَملكون لهم شيئًا من الرّزق مهْما كان قليلًا، وإذا كانت معبوداتهم عاجزةً عن النّفعِ القليلِ فعجْزُها عنِ الكثيرِ آكَدُ.

دلالة العطْف في ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

الأصنامُ لا تَملِكُ وليس لها أيضًا استطاعةٌ تَحصيلِ المُلْك

عطفَ البيانُ القُرآنيّ قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾ لتأكيدِ المعنى

(1) العُكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 803، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 266.
(2) حاشية الصّاويّ على الجلالَيْن، ص: 1006.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 221.
(5) حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالَيْن، ص: 1006.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 213.

العامِّ المُشترَك؛ وهو إثباتُ عجْزِ أصنامهم عن فعلِ أيِّ شيء، فهي لا تملكُ شيئًا، وليس في استطاعتها أنْ تَملك؛ لأنّها ليست أهلًا لذلك[1]، ونَفْي الاستطاعة بعد نفْي المِلْكِ أبلَغُ في الذّمِّ[2]، ولكن في العطْف إضافةُ معنًى آخر، وهو أنَّ مَن لا يَملِكُ شَيئًا قد يكونُ مَوصوفًا باستطاعةِ أنْ يتَمَلَّكَه بطَريقٍ مِن الطُّرُقِ، فبَيَّنَ تعالى أنَّ هذه الأصنامَ لا تَملِكُ، وليس لها أيضًا استطاعةُ تَحصيلِ المُلْك، وذلك على أحَدِ أوجُهِ التَّفسير[3]، وفي تَكرار (لا) مع العطْف إفادةُ توكيد نَفْي هذه الاستطاعة؛ أيْ: هو حُكْم قاطِعٌ لا استئنافَ له فيما بَعْد.

عوْد الضّمير في ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

نفْيُ الاستطاعةِ عـن الأصنـامِ وعـن عابديهـا أبلَغُ في الذّمّ

عوْد ضمير الجمع (الواو) في ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يَحتمل وجهَيْن:

الأوّل: أنّه عائدٌ إلى ﴿مَا﴾ الموصولة باعتبارِ دلالتها على جماعةِ الأصنام المعبودةِ لهم، لإفادة أنّ هذه الأصنام لا تملكُ وليس في استطاعتها تحصيل الملك، ولولا ذلك لأشكل بأنّ مَن لا يملك شيئًا قد يكون في استطاعته أنْ يتملّكه بوجه[4].

الثّاني: أنّه عائدٌ على ما عاد عليه في قوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ وهم الكُفّار، والمعنى: ولا يستطيع هَؤُلاء - مع أنّهم أحياء مُتصرّفون أولو ألباب - من ذلك شَيْئًا فكيف بالجمادات الّتي لا حسّ بها، ولا حياة لها، ولا تستطيع التّصرّف؟![5]، أو لا يستطيعون ذلك ببرهان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 245، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 198.
(2) ابن جُزيّ، التّسهيل: 1/ 432.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 245 - 246، وقد ذكر السّمين الحلبيّ الوجه الآخَر وهو: الواو استئنافيّة، والإخبارُ عنهم بنفيَ الاستطاعةِ على سبيلِ الاستئنافِ، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 268.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 14/ 114.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 621، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 234.

يُظهرونه وحُجّة يُثبتونها[1]، و"عود الضَّمير إلَى الكُفّار العابدين فيه تفكيك الضَّمير، ولا ضير فيه"[2].

نكتة التّعبير بالمضارع في ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

حالةُ الأصنامِ في عدمِ الاستطاعة مستمرّةٌ متجدّدةٌ

عبّر القرآنُ بالفعل المضارع ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾؛ للإشارة إلى استمرارِ حدوثِ وتجدّدِ نفي استطاعةِ المعبودين امتلاكَ الرّزق والنّفع ودفع الضّرّ لَمن يعبدُهم، وأنّهم لا يتأتّى ذلك منهم ولا يستقيم حاضرًا ومستقبلًا؛ لأنّهم مخلوقون، وإنّما الخالق والرّازق هو اللّهُ وحده سبحانه وإلى جعل ذلك صورةً مُتجدّدةً مُتكرّرةً في المُخيّلة تستحضرُ حالتهم في عدمِ الاستطاعة.

الغرض من حذف مفعول ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

أصنامهم عاجزةٌ عن كلّ شيءٍ لا تستطيعُ الرّزقَ ولا غيره

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾؛ أيِ: التّقدير: ولا يستطيعونه؛ لأمور:

الأوّل: للاختصار؛ لدلالةِ ما قبله عليه، ومفعول ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ هو ضميرُ المِلْكِ؛ أيْ: لا يستطيعون أنْ يملِكوا ذلك، ولا يُمكِنُهم، فالكلامُ تتميمٌ لسابِقِه، وفيه من التّرقّي ما فيه، فلا يكونُ نفيُ استطاعةِ المِلكِ بعد نفي مِلكِ الرّزقِ غيرَ مُحتاجٍ إليه، وإنْ جُعِلَ المفعولُ ضَميرَ الرِّزقِ يكونُ هذا النفيُ تأكيدًا لِما قبلَه[3].

الثّاني: لقصدِ التّعميم؛ أيْ: لا يستطيعون شيئًا؛ لأنّ تلك الأصنام حجارةٌ لا تقدِرُ على شيءٍ[4].

ويجوزُ أن يكونَ الفِعلُ مُنزَّلًا منزلةَ اللّازمِ، وليس في يستطيعون

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 490.
(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 334.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 430.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 222.

ضمير مفعول، فيكونَ المُرادُ نفيَ الاستطاعةِ عنهم مُطلقًا، فالمعنى: إمّا أنَّهم لا يملكون أنْ يَرزقوا، أو أنَّهم أمواتٌ لا قُدرةَ لهم أصلًا، فيكونَ تذييلًا للكلامِ السّابقِ[1].

نكتة جمع العقلاء مع معبوداتهم غير العاقلة في ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

مجاراةُ اعتقادهم بنفعِ وشفاعةِ أصنامهم تهكّمٌ بهم

جملة ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ معطوفةٌ على ﴿يَمۡلِكُ﴾، فهي من جملة صلة ما؛ أيْ: ضمير الجمع في ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ عائدٌ إلى جماعةِ الأصنام المعبودة لهم، وقد استعمل القرآن صيغة الجمع بالواوِ والنّونِ المُختصِّ بأولي العلمِ مع معبوداتهم غير العاقلة، وهي الأصنام؛ اعتِبارًا لما يعتقدهُ المشركون أنَّها آلهةٌ؛ فأُجريَتْ عليها صيغةُ جمعِ العُقَلاءِ؛ مُجاراةً لاعتِقادِهم أنَّها تَعقِلُ وتَشفَعُ وتَستجيبُ[2]، وهذا تهكّمٌ بهم[3]، أو باعتبار أنّ في ما يعبدونه من دون اللّه مَنْ يعقل كعُزير وعيسى والملآئكة عليهم الصّلاة والسّلام فغلّبهم[4]، أو باعتبار معنى ﴿مَا﴾ لا لفظها[5]؛ إذِ المُرادُ بذلك آلهتُهم، ويجوز أنْ يكونَ الضّميرُ وهو الواو عائدًا على العابدين[6] الكفرة، بمعنى أنّهم مع كونهم أحياءً مُتصرّفين في الأمور لا يستطيعون من ذلك شيئًا فكيف بالجماد الّذي لا حِسّ به[7]، وللتّعبير بصيغةِ الجمع هنا فائدةٌ أخرى، وهي تأكيدُ حقارتهم؛ لأنّ ما عجز عند الاجتماع فهو عند الانفراد أعجز؛ والمعنى: ليس لهم نوعُ استطاعة أصلًا[8].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 621، والرّازيّ الحنفيّ، أنموذج جليل، ص: 260، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 430.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 246، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 310، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 222، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 198.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4221.

(4) الرّازيّ الحنفيّ، أنموذج جليل، ص: 259.

(5) الرّازيّ الحنفيّ، أنموذج جليل، ص: 259.

(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 268.

(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 234، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 128.

(8) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 213.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

المِلك والمُلك:

المِلك ما مُلك، والمُلكُ العَظمَةُ والسّلْطانُ، لَمَن لَهُ السّياسة والتَّدْبير

يتقارب لفظا (المِلك) و(المُلك) في دلالاتهما اللّغويّة، ومن اللّغويّين مَن لم يفرّق بينهما يقول ابن سِيده: "المَلْكُ والمُلْكُ والمِلْك احْتِواءُ الشَّيْءِ والقُدْرَةُ على الاسْتِبْدادِ بِهِ، مَلَكه يَملِكه مَلْكًا ومِلكًا ومُلْكًا"[1].

وقد فرّق العسكريّ بينهما؛ فذكر أنّ المُلك هوَ استفاضةُ الملك وسعةُ المَقْدور لِمَن لَهُ السّياسة والتّدْبير، والمِلْك: اسْتِحْقاقُ تصريفِ الشَّيْءِ لِمَن هوَ أوْلَى من غيره[2].

فالمِلْكُ ما مُلِكَ، يُقال: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَملِكُهُ مَلْكًا، والاسمُ: المِلْكُ؛ إذْ يدُهُ فيه قَوِيَّةٌ صَحِيحَةٌ[3]، والمِلْكُ ضربان: مِلْكٌ هوَ التَّمَلّكُ والتَّوَلّي، ومِلْكٌ هوَ القوَّةُ على ذلكَ، تَوَلَّى أو لَم يَتَوَلَّ[4].

والمُلْكُ: ضَبطُ الشَّيْءِ المُتَصَرَّفِ فيهِ بالحُكْمِ، المِلْكُ كالجِنْسِ للمُلْكِ، فكُلُّ مُلْكٍ مِلْكٌ، وليسَ كُلُّ مِلْكٍ مُلْكًا، والمُلْكُ: العَظَمَةُ والسّلْطانُ[5].

الاستطاعة والقدرة والطّاقة:

الاستطاعةُ انطباعُ الجوارح للفعل، والقدرةُ أعمُّ، والطّاقَةُ غايَةُ الوُسع في المَقْدور

رغم التّقارب الدّلاليّ بين ألفاظ الاستطاعة والقدرة والطّاقة وتعريف كلٍّ منهما بالآخر في المعاجم اللّغويّة، إلّا أنّ لكلٍّ لفظٍ من هذه الألفاظ ما يتميّز به، فأمّا من جهة الأصل اللّغويّ؛ فإنّ أصلَ (طَوَعَ) يَدُلُّ عَلَى الإصْحابِ والانْقِيادِ[6]، وأصلُ (قَدَرَ) يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِهِ[7]، وأصلُ (طَوَقَ) يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيْءِ

---

(1) ابن سِيدَه، المُحكَم: (ملك).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 182.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 774.
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ملك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).

عَلَى الشَّيْءِ، فكُلُّ ما اسْتَدارَ بِشَيْءٍ فهوَ طَوْقٌ، ومنه أطاقَ هَذا الأمرَ إطاقَةً؛ لِأَنَّهُ إذا أطاقَهُ فكَأَنَّهُ قَدْ أحاطَ بِهِ ودارَ بِهِ مِنْ جَوانِبِهِ[1].

وأمّا من حيث المعنى فالاسْتِطاعةُ: الطّاقةُ، إلّا أنّ الاِسْتِطاعَةَ للإنسان خاصَّة، والإطاقة عامَّة، والاسْتِطاعةُ: الطّاقةُ والقُدْرَةُ عَلَى الشَّيْءِ[2]، والاستطاعةُ ضدّها العجز، وهي أخصّ من القدرة[3].

وقد فرّق العسكريّ بَين القُدْرَة والطّاقة، فذكر أنّ الطّاقَة غايَة مقدرَة القادِر واستفراغ وسعهِ فِي المَقْدور، يُقال هَذا طاقتي؛ أيّ: قدر إمكاني، ولا يُقال للّه تَعالَى مُطيق لذَلِك.

وكذلك فرّق بَين القُدْرَة والاستطاعة: أنّ الاِسْتِطاعَة انطباعُ الجوارح للفعل، فِي قَوْلك طاعتْ جوارحه للفِعْل؛ أيِ: انقادت لَهُ، والقدرة: هي ما أوجب كون القادر عليه قادرًا، ولذلك لا يوصف اللّه تعالى بأنّه مستطيع، ويوصف بأنّه قادر، والاستطاعةُ أخصّ من القدرة، فكلُّ مُستطيعٍ قادرٌ، وليس كلّ قادرٍ بمستطيع؛ لأنّ الاستطاعة: اسم لمعانٍ يتمكّن بها الفاعل ممّا يريده من أحداثِ الفعل، وهي أربعة أشياء: إرادته للفعل، وقدرته على الفعل بحيث لا يكون له مانع منه، وعلمه بالفعل، وتهيّؤ ما يتوقّف عليه الفعل[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوق).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (طوع).

(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 531.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47 - 48.

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾

[النحل: 74]

مواصلة بالنّهي عن تشبيه اللهِ بمعبوداتِهم الباطلة، وإثباتِ عجزِها بالكليّة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ بيَّنَ اللّٰهُ تعالى ضَعْفَ هذه المعبوداتِ الباطلةِ وعَجْزَها، رتَّب على ذلك ما هو كالنّتيجةِ له، وهو نهيهم عن أنْ يجعلوا للّٰه مَثلًا، أو أنْ يُشبّهوه بخَلْقه، فإنّه لا مِثلَ له ولا شبيه، فقال: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَضۡرِبُواْ﴾: أصْلُ الضَّرْبِ: إيقاعُ شَيْءٍ على شَيءٍ وإصابَتُهُ بِهِ، يُقالُ: ضَرَبَهُ بالعَصا، يَضْرِبُهُ، ضَرْبًا؛ أيْ: أوْقَعَها عليه[2]، والضَّربُ: الصِّنف من الأشْياء؛ يُقال: هَذا من ضَربِ ذاك؛ أيْ: من نَحوه، وجمعُه ضروب[3]، وضَرْبُ الأمثالِ: اعْتِبارُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ وتَمثِيلُه بِهِ، يُقال: ضَرَبَ اللّٰه مَثَلًا؛ أيْ: وصَفَ وبَيَّنَ، قيل: مأخوذ من ضَرْبِ الدِّرْهَم: صَوْغُه لإيقاعِ المَطارِق، وسُمِّيَ بِهِ لِتَأْثِيرِه في النُّفوسِ، وقِيلَ: إنَّه مأْخوذٌ من الضَّرِيبِ؛ أي: المَثِيل، تَقولُ: هوَ ضَرِيبُه، وهُما مِنْ ضَرِيبٍ واحِد؛ لأنَّه يَجْعَلُ الأوَّلَ مِثْلَ الثّاني[4]، والمقصود بضرب الأمثال في الآية: التَّبيينُ والجَعْلُ، والمُرادُ: فلا تبيّنوا وتجعلوا للّٰه تعالى الأمثال، وهي الأنداد والأشباه والنَّظائر في زعمكم، فاللّٰه أعلى وأعظم[5].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 114، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 305.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرب).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4222.

2) ﴿ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾: أصلُ (مثل) يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وهذا مِثْلُ هذا؛ أيْ: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعْنًى واحِدٍ[1]، ومَثَّلَ لَهُ كَذا تَمثِيلًا إذا صَوَّرَ لَهُ مِثالَهُ بِالكِتابَةِ أَوْ غَيْرِها، والتِّمثالُ: الصّورَةُ، والجَمعُ: تماثِيلُ، ومَثَلَ بَيْنَ يَدَيْه: انْتَصَبَ قائِمًا[2]، والمَثَلُ: عبارةٌ عن قَولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخر بينهما مُشابهة؛ لِيُبيِّنَ أحدُهما الآخر ويُصوِّرَه، والمِثالُ يُقالُ على وجْهَيْن: أحَدُهُما: بِمَعْنَى المَثَلِ نحو مُشَبَّهٍ ومُشَبَّهٍ بِهِ، والثّاني: عِبارَةٌ عَنِ المُشابَهَةِ لِغَيرِهِ في مَعْنًى من المَعاني أيِّ مَعْنًى كانَ، وهو أعَمُّ الألفاظِ المَوضوعَةِ للمُشابَهَةِ[3]، والمقصود بالمَثَلِ في الآيةِ: النَّظيرُ والمُشابِهُ، وأمّا المُراد: فنَفْيُ المُماثَلَةِ بَيْنَ الحالَتَيْنِ، فلا مُماثَلَةَ بين أصْنامِهِم وبين اللّه تَعالَى في الإلَهِيَّةِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

النّهي في الآيةِ موجَّه إلى المُشركين الَّذين يضربون أمثالًا يُقيمون منها حُججًا لضلالهم، وهي أمثالٌ باطلة فاسدة، تولَّدت من عقولٍ مريضةٍ، وقلوبٍ سقيمةٍ، فقال تعالى لهم: فلا تُبيِّنوا وتجعلوا للّه تعالى أندادًا وأمثالًا مِن مَخلوقاتِه؛ فإنَّه سبحانه لا مِثْلَ له، ولا نَظيرَ، فلا تضربوا للّه الأمثالَ؛ لأنَّ اللّهَ يَعلَمُ حقائِقَ الأشياءِ، وأنَّه لا شريكَ له، ولا مثيلَ له، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِكم، وأنتم - أيُّها المُشرِكونَ - لا تَعلَمونَ ذلك، فتَقَعونَ بجَهلِكم في الشِّركِ به سُبحانَه[5].

النّهيُ عن تشبيهِ اللهِ بخلقه، نهيٌ عن الشّرك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (مثل).
(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 759، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 4/ 68.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 223.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 305، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 146، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 588، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 418، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 331.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ﴾:

النّهي عن ضرب الأمثال لله، متفرّعٌ عن كونه المُنعِمَ وحده

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾، تحتمل ثلاثة أوجه:

الأوّل: أنّها تفريعيّة، والجملة بعدها تفريعٌ على جميع ما سبَق مِن الآياتِ والعِبَرِ والمِنَنِ؛ إذْ قد استَقامَ مِن جَميعِها انفرادُ اللّهِ تعالى بالإلهيَّةِ، ونَفيُ الشَّريكِ له فيما خلَق وأنعَم، وبالأولَى نفيُ أنْ يكونَ له ولَدٌ؛ فلا جَرَمَ استَتَبَّ للمَقامِ أنْ يُفرَّعَ على ذلك زجرُ المشرِكين عن تَمثيلِهم غيرَ اللّهِ باللّهِ في شيءٍ مِن ذلك، وأنْ يُمثِّلوه بالموجوداتِ[1]، أو رتّبَ النَّهي عن أنْ يُجعل للّهِ مُماثلًا أو شبيهًا على ما عَدَّد مِن النِّعَمِ الفائضةِ عليهم مِن جِهَتِه سُبحانَه، وكونِ ما يشركون به تعالى بمعزل من أنْ يملِك لهم مِنْ أقطار السّماوات والأرض شيئًا من رزقٍ ما، فضلًا عمّا فُصّل من نعمة الخلق، والتّفضيل في الرّزق، ونعمةِ الأزواج والأولاد[2].

الثّاني: أنّها للسّببيّة؛ لكون ما قبله سببًا لِما بعده أو للجزاء؛ والمعنى: إذا كان الأمر كَذَلكَ؛ فلا تضربوا للّه الأمثال[3].

الثّالث: أنّها فصيحة؛ لأنّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدّر تقديرُه: إذا عرفتم إنعام اللّه عليكم بهذه النّعم المذكورة، وعجز الأصنام عنها، وأردتم بيان ما هو اللّازم لكم؛ فأقول لكم لا تضربوا للّه الأمثال[4].

الغرض من النّهي في صدر الآية:

النَّهيُ عن ضربِ الأمثالِ لله نهيٌ عن الإشراكِ به تعالى

التَّعبيرُ عن النّهي عن الإشراك بضَربِ المَثَلِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾؛ للقَصدِ إلى النَّهي عن الإشراكِ به تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 222.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 198.
(3) حاشيتا القونوي وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 334.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 320.

في شأنٍ من الشُّؤون؛ فإنَّ ضربَ المَثَلِ مَبْناهُ تشبيهُ حالةٍ بحالةٍ، وقِصَّةٍ بقِصَّةٍ؛ أيْ: لا تُشبِّهوا بشأنه تعالى شأنًا من الشُّؤون[1]، والنّهي وإنْ كان موجّهًا بدايةً للكفّار الّذين وصفوا اللهَ بما لا يجوز من الأبوّة والشّريك وغير ذلك، فهو نهيٌ عامٌّ لكلّ مُخاطَبٍ بالقرآن من الثّقلَيْن.

بلاغةُ الالتفات من الغيْبة إلى الخطاب:

المـواجـهـةُ في النّـهـي إيـذانٌ بـالاهـتـمـامِ بشَأنِه، وأكثرُ تـأثـيرًا عـلى النّفوس

التفتَ البيانُ الإلهيّ من الغَيبة في الآية السّابقة: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، إلى الخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾؛ للإيذانِ بالاهتمام بشَأنِ النَّهي؛ أيْ: لا تُشرِكوا به شيئًا[2]، ولكون المواجهة والتّصدّي في الخطابِ أبلغَ في مقامِ الأمر والنّهي، وأشدَّ على النّفوس بما يُحفّزها للعودة إلى الحقّ؛ لأنّه يختصرُ المسافات الذّهنيّة، ويكون مباشرًا وقويًّا، بينما جاء سابقًا الإخبار بأسلوب الغيبة؛ للإعراضِ عن الكفّار بسبب ما هم فيه من الضّلال[3].

نكتة التّعبير بـ﴿تَضۡرِبُواْ﴾ من حيث مادّتها وصيغتها:

النّهيُ عن تشبيهِ اللهِ بخلقهِ، نهيٌ عن أيِّ نوعٍ من أنواعِ الشّرك

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ ﴿تَضۡرِبُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ دون غيره من الألفاظ، لاتّساع دلالة مادة (ضَرَبَ)؛ إذْ تدلُّ في أصل اللُّغة على إيقاع شَيْءٍ على شَيءٍ وإصابته بِهِ[4]، ومن معانيها كذلك الوصفُ والتَّبيينُ والجَعْل والتَّمثيل والصِّنف من الأشياء[5]؛ وكلُّ هذه المعاني اللّغويّة لـ(ضرب) تتناسب مع سياقِ المبالغة في النّهي عن الإشراك باللّه تعالى بأيّ نوعٍ من أنواع

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 128.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 128، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 198.
(3) القدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 149.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة: (ضرب).

الشّرك، فيكون المعنى: لا تبيّنوا وتجعلوا للّه تعالى الأمثال[1]، ولا تُشَبّهوا بشأنه تعالى شأنًا من الشّؤون[2]، ولا تُمثّلوا للّه الأمثالَ[3]، ولا تصفوا اللّهَ بأيّ وصفٍ ممّا تتّصفُ به الأصنام العاجزة ممّا لا يليق به سبحانه، وفي التّعبير بصيغة المضارع المسبوق بالنّهي ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ﴾ إفادةُ استمرارِ هذا النَّهي وتجدُّدِه في أيّ وقت من الأوقات، وفي أيٍّ حالٍ من الأحوال.

بلاغة التّعبير بضربِ الأمثال في السّياق:

النّهيُ عن التّشبيه وصفًا وذاتًا، نهيٌّ عن أيِّ وجهٍ من أوجهِ الشّرك

الأمثال، جمع: مَثَل، وهو الصّفة، ومعنى (ضرب له مثلًا) وصَفَهُ بصفاتٍ مُعيّنة، وقد عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ في النّهي عن الإشراكِ به تعالى في شأنٍ من الشّؤون فلم يَقُلْ: (فلا تشركوا باللّه) إلى النّهي عن ضربِ الأمثال للّه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ لأمور:

الأوّل: التَّعميمُ في النّهي عن التّشبيه وصفًا وذاتًا، وتنزيهُه عن أيِّ وجه من أوجه الشّرك؛ لأنّ ضربَ المَثَلِ مبناه تشبيهُ حالةٍ بحالة وقصّةٍ بقصّةٍ؛ أيْ: لا تُشَبّهوا بشأنه تعالى شأنًا من الشّؤون[4]. وجوّز الزّمخشريّ وغيره أنْ يكون المُرادُ النّهيَ عن ضربِ الأمثال للّه سبحانه حقيقة، والمعنى: فلا تضربوا للّه تعالى الأمثال الّتي يضربها بعضكم لبعض، إنّ اللّه تعالى يعلم كيف تُضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون[5].

الثّاني: المناسبةُ لحالِ الكفار؛ إذ إنّهم أثبتوا للأصنام صفاتِ الإلهيّة وشبّهوها بالخالق[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4222.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(3) ابن عطيّة، المُحرر الوجيز: 3/ 409.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(5) الآلوسي، ورح المعاني: 7/ 431.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 223.

الثّالث: في لفظة ﴿ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ لَمَن لا مثال له، نعيٌ عظيم على سوء فعلهم[1].

معنى اللّام في لفظ الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾:

في اللّامِ دلالةٌ على تعدّدِ صور شِركهم وتنوّعها

اللّام في ﴿لِلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ حرف جرّ، ويظهر معناها من خلال ما تعلّقت به، وهو يحتمل وجهَين:

الأوّل: متعلّقة بـ ﴿تَضۡرِبُواْ﴾[2]، والمعنى: لا تَجْعَلوا لَهُ أندادًا وأشباهًا وأمثالًا، فإنّ اللّه يَعْلَمُ ويَشْهَدُ أنَّهُ لا إلَهَ إلّاهو وأنْتُم بِجَهْلِكُم تُشْرِكونَ بِهِ غَيْرَهُ[3].

الثّاني: مُتعلّقة بـ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾، وقد رجّحه ابن عاشور؛ بل ورأى أنّه ليس المُراد أنّهم يضربون مثل الأصنام باللّه ضربًا للنّاس، وإنّما أثبتوا للأصنام صفاتِ الإلهيّة وشبّهوها باللّهِ الخالق الّذي يعبدونه، فقد كانوا يقولون عن الأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه[4]؛ والمعنى: فلا تضربوا الأمثال للّه، كأنّه قيل: فلا تُمثّلوا اللّه تعالى ولا تُشبِّهوه بخَلْقه، وفي هذا دلالة على أنّه يجب أنْ يأخذ الضّاربون حِذْرهم فلا يصفوا اللّه إلّا بما وصف به نفسه، إمّا بما جاء في القرآن، أو بما جاء على لسان نبيّنا مُحمّد ﷺ، وبناء على الوجهيْن ففيه دلالةٌ على تعدّد صور شركهم، بأنْ جعلوا للّه أندادًا أو شبّهوه بخلقه.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿لِلَّهِ﴾:

في تقديمِ الاسمِ الجليلِ تحذيرٌ من التّجرّؤ على مقامِ الله

قدّم البيانُ الإلهيّ الجارّ والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾؛ للتّركيزِ على أنَّ ضربَ الأمثالِ الّذي يقع فيه الكُفّار ليس مُتعلقًا بأيّ أحد، إنّما هو متعلّقٌ باللّه ﷻ فليأخذ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 390.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 431، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 339، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 320.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 588.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 222.

الضّاربون حِذْرَهم مُضاعَفًا مُضاعَفةً تليقُ بما يخصّ اللّه ﷻ، وفي هذا تحذيرٌ لهم وتخويفٌ وتهديدٌ من التّجرّؤ على مقامِ اللّهِ بأنْ يجعلوا له أمثالًا في العبادة له، وأشباهًا في تسميتها آلهة.

دلالة (اللّام) في لفظ ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾:

النّهيُ عن ضربِ الأمثال نهيٌ عن أيّ تشبيه لا يليق بالله تعالى

اللّام في ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لامُ الجنس، وأريد الجنسُ المُتحقّق في فردٍ ما؛ إذ هو نهيٌ عن ماهيّة المَثَل، وهي تُفيد العموم، فهو نهيٌ عن ضربِ أيّ مَثَل من الأمثال للّه[1].

نكتة جمع ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ في سياق الآية:

من علامات ضلالِ المشركين، كثرةُ الأمثالِ الّتي ضربوها لله زورًا

عبّر البيان القرآنيّ عن الأمثال بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ مع أنّ اللّام في لفظ ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ جنسيّة تُفيد العموم، وإنّما جيء بالجمع ظاهرًا في النّظم لِما أنّ الكُفّار جعلوا له أمثالًا كثيرة؛ أيّ: مراعاةً لما ورد عَلى ما هوَ الواقع؛ أيّ: أُريدَ النّهيُ عن الجمع بناءً على أنّه وقع منهم[2].

بلاغةُ الجمع بين آيتي النّحل (74)، و(60):

وصْفُ اللهِ بما لا شبيهَ له ولا نظير، هو عينُ النّهي عن تشبيههِ بخلقه

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّحل: 60]: وفيهما قد يظهرُ للوهلة الأولى أنّ بينَ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّحل: 60] تعارضًا، إلّا أنّه في الحقيقة لا يوجد أيّ تعارض؛ إذ وفّق العلماء بين الآيتيْن، وبيّنوا أنّ النّهيَ عن ضربِ الأمثال هو للأمثال الّتي توجبُ الأشباهَ والنّقائص، فأمّا الأمثالُ الّتي يضربها اللّه من غير شَبَه له بخلقه فحقٌّ وصوابٌ؛ لِما فيها من الحِكم[3]؛ أيّ: لا تضربوا للّه مثلًا

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 334.
(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 335.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 98، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 226.

يقتضي نقصًا وتشبيهًا بالخَلق، والمَثَل الأعلى هو وصفُه بما لا شبيه له ولا نظير، فهذا المَثَل يُفيد التّوحيد[1].

سرّ فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾، عمّا قبلها:

علّةُ نهيه سبحانه عن ضربِ الأمثالِ له، هي علمه ببطلانِ اعتقادِهم

فَصَلَ القرآنُ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ عن الجملة الّتي قبلها ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بين الجملتَيْن من كمال اتّصال؛ إذ إنّ الجملة الثّانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ جاءتْ تعليلًا للنَّهي المذكورِ[2]؛ وهو النَّهيُ عن الشِّركِ، ووعيدًا على المَنهيِّ عنه؛ أيْ: إنّه تعالى يعلم كُنْهَ ما تأتونَ وما تذرونَ، وأنّ ذلك في غايةِ العِظم والقبح[3]، وتنبيهًا على أنَّ جهلَهم هو الّذي أوقَعهم في تلك السّخافاتِ مِن العقائدِ، وأنَّ اللّهَ إذ نهاهم وزجَرهم عن أنْ يُشبِّهوه بما شبَّهوه إنّما نهاهم لعلمِه ببُطلانِ اعتقادِهم[4]، أو أنْ يكون معنى التّعليل: فلا تَضربوا للّهِ الأمثالَ؛ إنَّ اللّهَ يَعلَمُ كيف يَضرِبُ الأمثالَ، وأنتُم لا تَعلَمون[5]، فتقعون فيما تقعونَ فيه من مهاوي الرَّدى والضّلال[6]؛ لأنّ ضرب الأمثال من العلوم الدّقيقة الّتي تستدعي لطف إدراكٍ وخبرة، لا سيّما في ذاتِ اللّه ﷻ ولا يقدر على الشّروع فيه إلّا اللّه تعالى والرّاسخون في العلم[7].

بلاغة توالي المؤكّدات في الآية:

علمُ الله عظيمٌ ثابتٌ محيطٌ لا يتغيّرُ ولا يتبدّل

أكّد البيانُ الإلهيّ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ بعدّة مؤكّدات وهي: **التّوكيدُ** بـ ﴿إِنَّ﴾؛ إذ إنّ هذا الحرفَ يفيدُ توكيدَ النّسبةِ بين المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في الجملة؛ أيْ: توكيد علم اللّه، **والتّوكيدُ** بالجملةِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 119.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 214.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 223.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 622.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(7) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 336.

الاسميّة، الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْمِ وبَقائِهِ؛ أيْ: إنّ علمَ اللّهِ أزليٌّ ثابتٌ، **والتّوكيد** وتقويّة الحُكم بتكرار المُسنَد إليه في الجملة، فقد جاء اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾، ثم جاء ضميرًا مُستترًا عائدًا على اسم ﴿إِنَّ﴾؛ أيْ: كُرّر المُسنَد إليه وهو الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، و**التّوكيد** بالاستئناف الموجود في الجملة الّذي يقتضي تأكيد الحكم؛ إذ جاءت الجملة تعليلًا للنَّهيِ عن الشِّركِ، بقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾.

وقد أفاد توالي المؤكّدات في الآية مع ما يتضمّنه السّياق من تفخيم لفضلِه ونعمه وعظيم قدرته سبحانه، وعجز ما يعبدونه من دون اللّه، أفادَ المبالغةَ في تأكيدِ علم اللّه ﷻ.

غرض تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفعليّ:

ثـبـاتُ عـلـمِ الـلـه سبحانه أمـرٌ مـؤكّـدٌ لا يستطيعُ أحدٌ إنكاره

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾، يكمنُ غرض تقديم المُسنَد إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على المُسنَد الفعليّ ﴿يَعۡلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾؛ في تقوية الحُكم وتوكيده، وهو ثباتُ علم اللّه ﷻ؛ وسببُ تقوية هذا الحكم وتوكيده تكرارُ الإسناد في الجملة؛ فقد وقعَ الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ خبرًا عن المُسنَد إليه وهو - أيْ: الفعل - في الوقت نفسه مُسنَدٌ إلى الضّمير المُستتر العائد على الاسم وهو ﴿ٱللَّهَ﴾، فكأنّ الحُكمَ هنا ذُكر مرتيْن؛ مرّة حين أُسند الفعلُ إلى الاسم، ومرّة حين أُسند الفعلُ إلى ضميره العائدِ إلى الاسم، بخلافِ إنْ تأخّر المُسنَد إليه، فقال: (يعلم اللّه)، فلا يحدث هذا التّكرار؛ بل يحدث الإسناد مرّة واحدة فقط.

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿يَعۡلَمُ﴾:

علمُ الله مستمرٌّ دائمٌ لا انتهاء له

استعملَ القرآنُ الكريم صيغةَ المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ علم اللّه تعالى، وأنّه لا ينقطع، فهو سبحانه يعلمُ في كلّ وقتٍ وحينٍ علمًا مستمرًّا دائمًا لا ينتهي.

غرض حذف مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾:

عِلمُ اللهِ واسعٌ محيطٌ لا يَحدُّه حدٌّ

حَذَفَ البيانُ القرآنيّ مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾؛ لأمرَيْن:

الأوّل: دلالةُ السّياق عليه، ولذلك أطنب المُفسّرون في تقديره اعتمادًا على السّياق، فمن أقوالهم: أنّ اللّه تعالى يعلمُ ما عليكم من العقاب العظيم، بسبب عبادة هذه الأصنام وأنتم لا تعلمون ذلك، ولو علمتموه لتركتم عبادتها[1].

أو أنّ اللّه تعالى يعلم ما أنتم عليه من ضرب الأمثال له وأنتم لا تعلمون خطأ ما تضربون له من الأمثال[2]، فهو يعلم كُنْهَ ما تأتون وما تذرون، وأنّه في غاية العِظم والقبح.

أو أنَّ اللّه يعلمُ كيف تُضرب الأمثال وأنتُم لا تَعْلَمونَ ذلك[3].

أو يعلم أنّه لا مِثل له من الخلق وليس له شريك، وأنتم لا تعلمون ذلك[4].

أو أنّ اللّه يعلم ما عليكم من العبادة، وأنتم لا تعلمون ما في عبادتها من سوء العاقبة[5].

الثّاني: لإفادة العموم والشّمول؛ أيْ إنّه، سبحانه، يعلم كلّ شيء و"يعلم كُنهَ الأشياء، وأنتم لا تعلمونه"[6]، ويعلم كلّ الحقائق، ويعلم ما يكون قبل أنْ يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، وأنتم لا تعلمون قَدْرَ عَظَمة الخالق؛ حيث أشركتم به[7].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 246.

(2) الخازن، لُباب التّأويل: 3/ 89.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 431.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 224، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 573.

(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 215.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.

(7) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 142.

غرض إظهار ﴿ٱللَّهَ﴾ في موضع الإضمار:

الاسمُ الجليل يُربّي في النّفوس مهابةَ اللهِ، ويُنبئ عن إحاطة علمه

أتى القرآن باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ ظاهرًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾، ولم يأتِ به مُضمرًا فلم يَقُلْ: (إنّه يعلم) أو (هو يعلم) مع أنّه ورد في السّياق القريب في قوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾، وذلك لزيادة التّقرير والإيضاح والتّأكيد على عظم علمه سبحانه لأنّ اسم الجلالة (الله) جامعٌ لكلّ صفات الكمال الّتي تشتمل على العلم والقدرة والإرادة، ولتربية المهابة في قلوبِ المشركين الّتي تجرّأت على الله لجهلها بمقامه.

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

الواو بين عطفٍ مُفيدٍ للتّعليل، وحالٍ تحكي جهلهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تحتمل وجهيْن: الأوّل: حاليَّة[1]، والمعنى: إنّ الله يعلمُ، والحال أنّكم لا تعلمون، والثّاني: عاطفة، عطفتْ جملة ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، على الجملة التّعليليّة قبلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾[2].

الغرض من الجملة الاسميّة ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

في الاسميّة تأكيدُ ثباتِ نفي العلمِ عنهم، وإثباتُه للهِ تعالى

عبّر البيان القرآنيُّ بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (إنّ الله يعلم ولا تعلمون)؛ لأمريْن:

الأوّل: للدّلالة على تأكيد نفي العلم عنهم، وأنّ جهلهم ثابتٌ، كما أنّ التّعبير بالضّمير ﴿وَأَنتُمۡ﴾ يُشعِر بأنّهم هم بالذّات والتّحديد مَن لا يعلم؛ أيْ: فكيف تصفون اللّهَ بما لا يليق، وأنتم بالذّات أبعدُ النّاس عن العلم بالله.

الثّاني: تأكيدُ ما قبلها (والله يعلم)؛ لأنّها تفيدُ الحصرَ؛ أيْ: نفي العلم عن المشركين بتقديم المُسنَد إليه ﴿وَأَنتُمۡ﴾ على الخبر الفعليّ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، وبهذا تؤكّدُ إثباتَ العلمِ لله تعالَى؛ فهي في المَعْنَى كالتّأكيد لما قبلها[3].

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 339.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 320.

(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 336.

فائدة توسّط النّفي بين المُسنَد إليه والمُسنَد الفعليّ:

الجهلُ ثابتٌ لهم محصورٌ بهم

أفاد توسّط النّفي ﴿لَا﴾ بين المُسنَد إليه ﴿وَأَنتُمۡ﴾ والمُسنَد إليه الفعليّ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ثباتَ نفيِ العلم عنهم، واستغراقهم في الجهلِ، وحصر الجهل بهم.

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

جهلهم مستمرٌّ مُتجدّد طالما استمرّوا على شِركهم

استعملَ البيانُ القرآنيّ صيغةَ المضارع ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ نفيِ العلمِ عنهم، وأنّ جهلهم مستمرٌّ متجدّدٌ طالما استمرّوا على شِركهم.

بلاغة حذف مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

تركُ الذِّكرِ أفصحُ من الذِّكرِ، في البيان القرآنيّ المُفصح

(عَلِمَ) فعلٌ مُتعدٍّ يأخذ مفعولَين، وقد حُذِفَ مفعولُ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ اختصارًا واقتصارًا[1]؛ لأنّه مفهوم من سياق الكلام، والمعنى: إنّ اللّه يعلم كُنْهَ ما تأتونَ وما تذرونَ، وأنّه في غاية العِظم والقبح وأنتُم لا تَعۡلَمونَ ذلك، أو أنّه تعالى يعلم كُنْهَ الأشياء، وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيَكم وقِفوا مواقفَ الامتثالِ، أو المعنى: فلا تضربوا للّه الأمثال إنّ اللّه يعلم كيف تُضرب الأمثال وأنتُم لا تَعۡلَمونَ ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوي الرّدى والضّلال[2]، أو أنّ اللّه يعلم ما عليكم من العبادة، وأنتم لا تعلمون ما في عبادتها من سوء العاقبة[3]، وفيه دلالة أيضًا على سعة جهلهم، وهذا فيه تعريضٌ وتهكّم بهم.

بلاغة المُقابلة بين ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

بين كمالِ علمِ اللهِ المُطلقِ، ومُنتهى جهلِ المشركين المُطبقِ

في المقابلة بين علم اللّه وعدم علمهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ استدعاءٌ لإعمالِ النظرِ الصّحيح ليصلوا

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 269.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 215.

إلى العلمِ البريء من الأوهام[1]، وإظهارٌ للفرقِ الشّاسع بين كمالِ علمِ اللّه تعالى ومُنتهى جهلهم، وزيادةُ إيضاحٍ وإضفاءِ رونق، وتقوية في العلاقة بين الألفاظ والمعاني؛ إذ المقابلةُ من المُحسِّنات اللّفظيّة.

فائدة الجملة الخبريّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾:

في الجملة الخبريّة تعليلٌ للنّهي، وبيانٌ لبطلان اعتقادهم

أفادتْ الجملة الخبريّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، تَعْلِيلًا للنّهي عن تشبيهِ اللّه تعالى بالحوادث، وتَنْبِيهًا على أنّ جهلهم هو الّذي أوقعهم في تلك السّخافات من العقائد، وأنّ اللّه إذْ نهاهم وزجرهم عن أنْ يشبّهوه بما شبّهوه، إنّما نهاهم لعلمه ببطلان اعتقادهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 223.

﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [النحل: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بـعـدَ إبـطـالِ مـذهـب عَـبَـدَةِ الأصـنـام وإشـراكـهـم بـالـلـه، كَـشْـفٌ لـفـسـادِ ما ارتكبوه

في مناسبة الآية لما قبلها عدّة وجوه:

الأول: لَمّا نهاهم اللّهُ تعالى عن ضرب المَثَل؛ لأنَّ ضربَ الأمثال من العلوم الدَّقيقة الَّذي يستدعي لطف إدراكٍ وخبرة، لا سيَّما في ذاتِ اللّه ﷻ، ولا يقدرُ على الشُّروعِ فيه إلّا اللّه تعالى والرّاسخون في العلم عقبهُ بما يكشفُ لذي البصيرةِ عن حالهم في تلك الفَعْلَة، وحال مَن يخالفهم فيها، وعلّمهم كَيْفَ تُضربُ الأمثالُ فقال: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا﴾[1].

الثّاني: لَمّا أبطلَ اللّهُ تعالى مَذهَبَ عَبَدةِ الأصنام ببيانِ عجزِ هذه المعبودات، ونهى عن عبادتها من دونِ اللّه في الآيتَيْن السّابقتَيْن، أتبعَ ذلك بتأكيد هذا الإبطال بضربِ مثالٍ يدلُّ على وحدانيةِ اللّه وقدرته، وعلى بُطلانِ الشِّرك، فقال تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا﴾[2].

الثّالث: لَمّا ختمَ سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تأكيدًا لإبطالِ مذهبِ عبدةِ الأصنام بنفيِ العِلم الّذي هو مناطُ السّداد عنهم، حَسُنَ أنْ يصل به قوله: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ إقامةً للدّليلِ على علمه بأنّ أمثالَه لا يتطرّقُ إليها الطّعن، ولا يتوجّهُ نحوها الشّكوك[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 234، وحاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 336، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 165.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 246.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 215.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثَلًا﴾: أصلُ (مثل): يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ[1]، والمِثْلُ: الشِّبْه، والمَثَل: التّمثيل، وماثَلَ الشّيءَ: شابَهَهُ، ويُستَعمَلُ للتَّسوِيَةِ بين شَيئَيْنِ، يُقال: هذا مِثْلُهُ ومَثِيلُهُ، كما يُقال: شِبْهُهُ وشَبِيهُهُ، والمَثَلُ: ما يُضْرَبُ بِهِ مِنَ الأمثالِ، والمَثَل: الحُجّة، وأيضًا الحديثُ نفسه، ويأتي بِمعنى نَفْسِ الشَّيْءِ وذاتِه، والجمع: أمثالٌ[2].

والمقصود بالمَثَل في الآية: تشبيهُ حالٍ بحالٍ، ومقابلةُ الشّيءِ بمثله أو بضدّه[3].

2) ﴿عَبْدًا﴾: أصلُ (عبد): يَدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ، ومنه طريقٌ مُعبَّدٌ، وهوَ المَسْلوكُ المُذَلَّلُ[4]، ومَعْنَى العبادةِ في اللُّغَةِ: الطّاعةُ مَعَ الخُضوعِ، والعَبْدُ: الإنسان، حُرًّا كانَ أو رَقِيقًا[5]، والعَبْد أيضًا: المملوك؛ خلاف الحُرِّ، والجمع: عبيد، وأصلُ العُبودِيَّةِ: الخضوعُ والذّلُّ، والعِبادة: الطّاعةُ، والتَّعَبُّدُ: التَنَسُّكُ[6]، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا مَن له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى، والعبد يُقال على أربعة أضرب: الأوّل: عبدٌ بحُكم الشّارع وهو الإنسان الّذي يصحّ بيعه وابتياعه، والثّاني: عَبْدٌ بالإيجاد، وذلك ليس إلّا للّه، والثّالث: عَبْدٌ بالعِبادَةِ والخدمة، والرّابع: ما هو عبدٌ للدُّنيا وأعراضها الفانية[7]، والمُرادُ بالعَبْدِ في الآية: الإنسانُ الّذِي يَملِكُهُ إنسانٌ آخَرُ بالأسْرِ، أو بالشِّراءِ، أو بالإرْثِ[8].

3) ﴿مَّمْلُوكًا﴾: أصْلُ (ملك) يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أملَكَ عَجِينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُه، والأصْلُ هذا، ثُمَّ قِيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَملِكُهُ مَلْكًا، والاسمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يَدَهُ فيه قَوِيَّةٌ صَحِيحَةٌ، فالمِلْكُ: ما مُلِكَ مِنْ مالٍ[9]، والمَملوكُ يختصّ في التّعارف بالرَّقيق مِن الأملاك[10]، وفي التَّهْذِيبِ: الَّذِي سُبِيَ ولَم يُملَكْ أبواه[11]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (مثل).

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 331.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(6) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (عبد).

(7) الرّاغب، المُفردات، ص: 542.

(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.

(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (ملك).

(10) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (ملك).

(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ملك).

ويُقالُ: هُم عبِيدُ مَملَكة، وهوَ أن يُغْلَبَ عَلَيْهِم ويُستَعبدوا وهُم أحرار[1]، والمقصود بالمملوك في الآية: العَبْدُ الَّذي لا يَتَصرَّفُ في عَمَلِه تَصَرُّفَ الحُرِّيَّة[2].

4) ﴿حَسَنًا﴾: أصلُ (حسن): أصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْح[3]، والحَسَنَةُ: ضدّ السَّيِّئَةِ، والإحْسانُ: ضدّ الإساءَةِ، والحَسَنُ: ما حَسُنَ من كلِّ شيءٍ[4]، والحُسْنُ: عبارة عن كلِّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مُستَحسَنٌ من جهة العَقل، ومُستحسَنٌ من جِهة الهوى، ومُستَحسَنٌ من جِهة الحسِّ، والحُسْنُ أكْثَر ما يُقالُ في تَعارفِ العامَّة في المُسْتَحْسَن بالبَصَرِ، وأكْثَر ما جاءَ في القُرْآن في المُسْتَحْسَن من جهَةِ البَصيرَة[5]، والمقصود بالحَسنِ في الآيةِ: الَّذي لا يَشوبُهُ قُبْحٌ في نَوعِه، مِثْل قِلَّةِ وِجدانِ وقْتِ الحاجة، أو إسراعِ فسادٍ إليهِ كسوسِ البُرِّ، أو رداءةٍ كالحَشَفِ[6].

5) ﴿يَسْتَوُۥنَۚ﴾: أصْلُ (سوي) يَدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شيئَيْنِ، يُقالُ هذا لا يُساوي كذا؛ أيْ: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هذا الأمرِ؛ أيْ: سَواءٍ[7]، واسْتَوَى الشَّيْئانِ وتَساوَيا: تَماثَلا، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُه لاسْتِواءِ المسافةِ إلَيْه مِنَ الأطْرافِ، والتَّسْوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتأْتي بِمعنى العَدْلِ والإنْصافِ[8]، وهي أيضًا: تَقْويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُهُ، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيْءَ فاسْتَوَى؛ أيْ: قَوَّمتُهُ فاسْتَقامَ[9]، والمقصود بالمساواة في الآية: جعلُ الأشياءِ متساوية، والمُراد: بَيانٌ لِجُملَةِ ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، فبَيَّنَ غَرَضَ التَّشبيهِ بأنَّ المَثَلَ مُرادٌ مِنهُ عدمُ تساوِي الحالتَيْنِ لِيُستَدَلَّ به على عَدَمِ مُساواةِ أصحابِ الحالةِ الأولى لصاحِبِ الصِّفةِ المُشبَّهةِ بالحالةِ الثّانيةِ[10].

---

(1) ابن سيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (حسن).
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 235.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (عدل).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 225.

العقلُ يحكمُ بداهةً أنْ لا مُساواة بين النَّقيضيْن، ولله المثلُ الأعلى

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّهُ مثلًا لِنفسِه تعالى وللأصنام؛ كعَبدٍ مَملوكٍ عاجزٍ، لا يَملِكُ شَيئًا، فلا يَقدِرُ على شيءٍ مِنَ المالِ، ولا مِن أمرِ نَفْسِه، ورجُلٍ حُرٍّ غَنيٍّ آتاه اللّهُ رِزقًا واسِعًا طيِّبًا، يَملِكُ التّصرُّفَ فيه، فيُنفِقُ منه دائمًا في السِّرِّ والعَلانِيَةِ؛ إحسانًا منه إلى الآخَرينَ، هل يستوي العَبدُ والحُرُّ الموصوفان بما تقَدَّمَ مِن الصِّفاتِ؟ فكذلك اللّهُ الَّذي له المُلْكُ وبيَدِه الرِّزقُ، المُتصَرِّفُ في مُلكِه كما يشاءُ؛ لا يستوي مع المَعبوداتِ العاجزةِ الَّتي لا تَملِكُ شيئًا، ولا قُدرةَ لها على شَيءٍ، وأنتم تتَّخِذونَها شُرَكاءَ للّه تعالى في عبادتِه، فكيف تُسَوّونَ بينهما، الحَمدُ الكامل للّه خالصًا دون ما تدعونَ مِن دونه مِن الأوثان، ولكن أكثر هؤلاء الكفّار لا يعلمون أنَّ ذلك كذلك، فهم بجهلهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها للّه شركاء في العبادة والحَمد[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

أمثالُ الله لا يتطرّقُ إليها الطّعنُ، ودلالتها بين البيانِ والتّأكيدِ

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

تحتمل نكتةُ فصلِ جُملة ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا﴾ عمّا قبلها ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وجهيْن:

الأوّل: استئنافٌ بيانيٌّ[2]؛ أيْ: إنّ بين الجملتيْن شبهَ كمالِ اتّصال؛ وذلك أنّ اللّهَ بعد أنّ زجرهم عن أن يُشبِّهوا اللّه بخلقه، أو أن يُشبِّهوا الخَلق بربِّهم بقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، كأنّ سائلًا قد سأل: كَيفَ تُضرَبُ الأمثالُ؟ فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا﴾.

---

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 410، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 445، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 115.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 223 - 224.

الثّاني: أنّ جملة ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا﴾ جاءت بيانًا ودليلًا لِما قبلها؛ أيْ: بينها وبين الّتي قبلها كمالُ اتّصال، ولذلك فُصلت عنها ولم تُعطف؛ أيْ: إنّه لما ختم سبحانه نهيهم عن ضرب الأمثال للّه بتأكيد إبطال مذهب عبَدَة الأصنام بسلب العلم الّذي هو مناط السّداد عنهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ حَسُنَ أن يصل به قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا﴾؛ إقامةً للدّليل على علمه بأنّ أمثاله لا يتطرّق إليها الطّعنُ، ولا يتوجّه نحوها الشّكوكُ[1].

بلاغةُ التّشبيه من خلال المَثَلِ المضروب:

في التّشبيه نفيُ المماثَلةِ بينَ حَجَرٍ مَواتٍ وبين الله القادرِ على كلّ شيءٍ

شبَّه البيانُ القرآني حالَ أصنامِهم في العجزِ عن رزقِهم بحالِ مملوكٍ لا يَقدِرُ على تَصرُّفٍ في نفسِه، ولا يَملِكُ مالًا، وشبَّه شأنَ اللّهِ تعالى في رزقِه إيّاهم بحالِ الغَنيِّ المالِكِ أمرَ نفسِه بما شاء مِن إنفاقٍ وغيرِه، ومعرفةُ الحالَيْن المشبَّهتَيْن يَدُلُّ عليها المَقامُ، والمقصودُ من هذا التّشبيه نفيُ المماثَلةِ بينَ الحالتَيْن؛ أيْ: فكيف يَزعُمون مُماثَلةَ أصنامِهم للّهِ تعالى في الإلهيَّةِ؟! ولذلك أَعْقَبَ بجُملةِ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾، وذَيَّلَ هذا التَّمثيلَ بقولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

بلاغةُ المجاز، في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾:

المَثَلُ يلفتُ الأنْظارَ، ويوقظُ الغافلين عن حقيقةِ التَّوحيد

معنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: أتى بمَثَلٍ، وهو مجاز؛ لأنّه إذا رُجع باللّفظة إلى المعنى الأصليّ الّذي وُضعتْ له يكون المعنى مِن ضَرْبِ الدّرهم والدِّينار وغيرهما؛ أيْ: صوغهما؛ لانّ صياغتَهما لا تكون إلّا بضرْبِ الطّارق، ومثْله ضرْبُ الخاتم وضرْبُ اللّبِن؛ أيْ: قطْعُه[3]؛ أيْ: إنَّ في الضّربِ وقعًا يلفتُ النَّظر، ولذا استُعيرَ ذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 215.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 223 - 224.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 204، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).

لضرْبِ المَثَلِ للمناسبةِ بينهما، فالمَثَلُ يلفتُ الأنظار، ويدقُّ الأذهانَ، فيوقظُ النّائم ويُنبّه الغافل.

في إبهامِ المَثَلِ ثمّ بيانِه، جزالةٌ وفخامةٌ

الغرض من تنكير لفظ ﴿مَثَلٗا﴾:

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿مَثَلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾؛ لإفادةِ الإبهام، "وفي إبهام المَثَل أولًا ثمّ بيانِه بما ذكر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة"(1).

المملوكيَّةُ تقتضي عدمَ الحُرِّيَّةِ، بما يدلّ على غاية العجز

سرُّ تقييد العبد بالوصف بلفظ ﴿مَّمۡلُوكٗا﴾:

وصَفَ ﷻ العبدَ في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ بأنّه مملوك؛ لأمرَيْن:

الأوّل: ليحصلَ الامتيازُ بين العبد المملوك وبين الحرّ؛ لأنّ كليهما يشترك في كونه عبدًا للّه تعالى ولكنّ الحرّ ليس مَملوكًا لغيرِ اللّه(2)، وفي هذا بيانٌ لزيادةِ عجْزِ هذه الأصنام الّتي يعبدونها من دون اللّه.

الثّاني: لتأكيد المَعْنى المقصود، وللإشعار بما في لفظِ (عبدٍ) مِن معنى المملوكيَّةِ المُقتضِيَةِ أنَّه لا يتصرَّفُ في عمَلِه تَصرُّفَ الحُرِّيَّة(3).

مَثَلٌ مؤكَّدٌ بتفصيلٍ يَتبعه، مُشعرًا بِذِلّيّة ومَقهوريّة المُمثَّل به

الموقع الإعرابيّ لقوله: ﴿عَبۡدٗا﴾:

نُصبت ﴿عَبۡدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا﴾، على البدليّة من ﴿مَثَلٗا﴾(4)، على تقدير مُضافٍ؛ أيْ: مثلًا مثلَ عبدٍ، أو حالَ عبد، فحذف المُضاف؛ لأنّ المَثَل هو للهيئةِ المُنتزَعةِ من مجموع هذه الصّفات(5)، والبدليّةُ تُفيد توكيدَ هذا المَثَل، وتفيدُ أنّ وصْفَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 622، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 311، والرّازيّ الحنفيّ، أنموذج جليل، ص: 260، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 199.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 223.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 224.

(5) العكبري، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 802، والمُنتجب الهمذانيّ، الإعراب الفريد: 4/ 137، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.

المُمثَّل به بالعبوديّة يُشعِر بِذُلِّيَّته ومَقْهوريَّته؛ إذ إنَّها علةُ عدمِ مقدوريّتهِ على شيءٍ[1].

الغرض من حذْف المُضاف مع ﴿عَبۡدٗا﴾:

حذَفَ البيانُ القرآنيُ المُضاف في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا﴾، وتقديرُه: حالَ عبد، أو مثلًا مثلَ عبدٍ؛ للاختصار، ولإفادة خلقِ صورةٍ لهذا المثَل، تُمثِّلُ الهيئَةَ المُنتزَعة من مجموع صفاتِ المملوكيّة الّتي تقتضي عدمَ قدرةِ الصّنم المعبودِ من اللّه على شيءٍ[2].

في الحذف تصويرٌ لهيئةٍ مُنتزَعةٍ من مجموعِ صفات المملوكيّة

بلاغة تغاير تشبيه معبوداتهم من دون الله:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النّحل: 20 - 21] مع قوله: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾: قد شبّه اللّهُ معبودات الكافرين وهي الأصنام في هذه الآية ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ بالعبد المملوك العاجز عن أيّ نفعٍ لِمَن يعبده، بينما شبّههم بالأموات الّذين لا يعقب موتهم حياةٌ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النّحل: 20 - 21]؛ وذلك مراعاةً للسّياق في الموضعيْن؛ فالسّياق في الموضع الأوّل حول المقارنة بين الخالق وغير الخالق ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النّحل: 17] ونفي أن تكونَ الأصنامُ آلهةً لعجزها عن الخلق ولكونها مخلوقة؛ أيْ: مُحدَثة من العدم، وهذا يناسبه تشبيهها بالأموات بقوله: ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ [النحل: 21]، ثمّ بالغ في موتها فقال: ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النحل: 21]؛ أيْ: أمواتٌ لا يَعْقبُ موتَها حياةٌ؛ احترازًا عن أمواتٍ يعقبُ موتَها حياةٌ، كالنُّطَف، والبَيض، والأجسادِ الميتة، وذلك أبلغُ في موتها، كأنّه قال: أمواتٌ في الحالِ، غيرُ أحياءٍ

شتّانَ بين الخالقِ القادرِ على كلِّ شيء، والميّتِ العاجزِ عن أيّ شيء

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 338.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.

في المآل[1]، بينما سياق الآية الأخرى ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ هو حول المقارنة بين الله المالك الرّازق المُنعم القادر على كلّ شيء، وبين العبد المملوك العاجز عن أيّ شيء.

علّة وصف العبد المملوك، بأنّه ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾:

عبدٌ فيه كلُّ أوصافِ العجزِ، فهو مثالٌ على أصنامٍ أمواتٍ غيرِ أحياء

وَصَفَ البيانُ القرآنيُّ العبدَ بأنّه لا يقدر على شيءٍ بعد وصْفه بأنّه مملوكٌ في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾؛ لأمريْن:

الأوّل: للتّمييز بينه وبين مَن فيه شائبةُ حرّيّة، كالمُكاتَب والعبد المأذون له في التّصرّف؛ لأنّهما يقدران على بعضِ التّصرّفات استقلالًا[2]، فهذا الوصفُ أفصحَ عن المعنى المقصودِ، وهو أنّ هذا المملوك ليس ممّن ملَّكَهُ سيّدُه فملَكَ وقَدَرَ.

الثّاني: لبيان أنّه أقلُّ العبيد فائدة؛ أيْ: ليس عبدًا مملوكًا عاديًّا؛ بل إنّه عبدٌ عاجزٌ عن كلّ ما يقدر عليه النّاس، كأنْ يكون أعمى وزَمِنًا وأصمَّ[3]؛ أيْ: عاجزًا أيّما عجْز؛ لأنّه لا يستطيع أنْ يفعل شيئًا أيَّ شيء كان، فهو أسوأ مَثَلٍ للعبدِ المملوك، وأبلغُ مثالٍ على عجْز البشر، وهذا مِثْلُ أصنامهم، فهم أمواتٌ غيرُ أحياء ولا يملكون شيئًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النّحل: 20 - 21]، وقَوْله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ [العنكبوت: 17][4].

كما أنّ البيانَ القرآنيّ قد وصَفَ العبدَ المملوك بأنّه ﴿لَّا يَقۡدِرُ﴾، كما وصَفَ الحرّ ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾؛ لأنّ العبدَ المملوكَ

(1) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/ 303.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 622، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 311، والرّازيّ الحنفيّ، أنموذج جليل، ص: 260، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 199.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.

مرزوقٌ أيضًا، فلهُ الطّعامُ والشّراب، وغيرُ ذلك من الأشياء، ولكنَّه لا يقدر على التَّصرّفِ.

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿يَقۡدِرُ﴾:

نفيُ القدرة عن العبدِ، صورةٌ متخَيَّلةٌ تستحضرُ غايةَ عجْزه

عبّر القرآنُ بالفعل المضارع ﴿يَقۡدِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ للإشارةِ إلى تجدّدِ نفي القدرة عن العبد المملوك؛ أيِّ: استمرار عجزه في كلّ الأوقات والأحوال، فلا تتأتّى منه أيُّ قدرةٍ لا حاضرًا ولا مستقبلًا؛ كما أنّ التّعبير بالمضارع ﴿لَّا يَقۡدِرُ﴾ يخلُقُ صورةً متجدّدةً متكرّرةً في المُخيّلة تستحضرُ عجْزَه وعدمَ قدرته.

الغرض من حذف فاعل ﴿يَقۡدِرُ﴾:

إذا استوى الحذفُ والذِّكرُ، فالحذفُ أبلغُ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ فاعل ﴿يَقۡدِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ والتّقدير: (لا يقدر العبد)، وغرض الحذف هو الاختصار؛ لأنّه مفهومٌ، فالسّياق يدلّ عليه؛ إذ الكلامُ عن العبد المملوك، وقوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُ﴾ صفة ثانية لـ ﴿عَبۡدًا﴾، فكان هذا الحذف أبلغَ من الذِّكر.

الغرض من تنكير ﴿شَيۡءٖ﴾:

في التّنكيرِ عمومٌ وتقليلٌ، يدلّ على غايةِ عجْز العبدِ المملوك

في تنكير لفظة ﴿شَيۡءٖ﴾ معنيان:

الأوّل: العمومُ؛ لكون لفظةِ ﴿شَيۡءٖ﴾ نكرةً في سياق النَّفي، والمعنى: لا يقدر على أيّ شيءٍ مهما كان نوعه، سواء أكان تصرفًا بمالٍ أم بغير مال، أم كان حجمه صغيرًا أم كبيرًا، والمعنى: عاجزٌ عَن كلِّ ما يَقدِرُ عَلَيْهِ النّاسُ، كَأنْ يكونُ أعمَى وزَمِنًا وأصمَّ، بِحَيثُ يكونُ أقَلَّ العَبِيدِ فائِدةً، لا يقدر على فعل شيءٍ البتّةَ(1).

الثّاني: التّقليلُ والتّحقيرُ؛ والمعنى: لا يقدر على أيّ شَيْءٍ مهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.

كان قليلًا، وانتفاءُ الشّيءِ القليلِ يقتضي انتفاءَ الشّيءِ الكثير بطريقِ الأَوْلى.

نكتة العدول من الاسميّة، إلى الفعليّة:

تفنّنٌ في الوصف لحالِ مملوكية هذا العبدِ واستمرارِ عجزه

عدَلَ البيانُ القرآنيّ في وصْفِ العبد من الجملة الاسميّة ﴿مَّمۡلُوكٗا﴾ إلى الفعليّة ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ تفنُّنًا وتنويعًا في الكلام بالمخالفة في الأسلوب، الّذي جمع بين الجملة الاسميّة الّتي تدلّ على الثّبات، وبين الجملة الفعليّة الّتي تدلّ على الاستمرار التجدّديّ؛ ليجمع في وصْفِ هذا العبد بين أمريْن: حاله الثّابت في كونه مملوكًا، واستمرار هذه الحالِ في عدم قدرته على أيّ تصرُّفٍ سواء بالمال أم بغيره، فعجزه مستمرٌّ متجدّد.

معنى الواو في ﴿وَمَن﴾:

العطفُ يُظهرُ التّغايرَ الكبيرَ بين الصّنمِ العاجزِ، وبين اللهِ القادر

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾ عاطفةٌ، عطَفَتْ (مَنْ) الّذي هو اسم موصول بمعنى الّذي على ﴿عَبۡدٗا﴾، كأنّه قيل: عبدًا مملوكًا وحُرًّا رزقناه[1]، ورغم أنّهما صورتان في المَثَلِ المضروبِ الّذي يتكامل بهما، وأنّهما يتشاركان في الجنسيّة؛ أيْ: الإنْسانيَّة، إلّا أنَّهما صورتان متقابلتان متضادّتان؛ بما يُظْهِرُ الفرقَ الكبيرَ بين الحُرِّ المَذْكور والعبد المزبور، والصّنم العاجزِ عن التّصرّف، والإلهِ المالكِ القادرِ سبحانه، بما يؤكّد امتناعَ التّسويةِ بينهما.

دلالة ﴿وَمَن﴾ في ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾:

مفاد الموصوليّة والنّكرة الموصوفةِ، في السّياق

تحتمل ﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾ وجهيْن:

الأوّل: أن تكون موصولة، بمعنى حُرٍّ، بقرينة أنَّهُ وقع في مقابلَةِ عَبْدٍ مملوكٍ، وأنّه وصْفٌ بالرّزق الحسن فهو ينفقُ منه سرًّا وجهرًا؛

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 339.

أيْ: كيف شاء، وهذا من تصرّفات الأحرار؛ لأنّ العبيد لا يملكون رزقًا في عُرْف العرب[1].

الثّاني: نكرةٌ موصوفةٌ معطوفةٌ على ﴿عَبۡدٗا﴾[2]، وهو اختيارُ الأكثرين؛ ليُطابقَ عبدًا؛ فإنّه نكرةٌ موصوفة أيضًا، والتّقدير: وحرًّا رزقناه بطريقِ الملك[3].

سرّ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

في الموصوليةِ إيذانٌ بوجهِ استحقاقهم للمدحِ المقابلِ للذّمِ

عبّر القرآن بالاسم الموصول (مَن) في قوله: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾ ولم يَقُلْ: (وحرًّا رزقناه)، لأمرَيْن:

الأوّل: للتّركيزِ على الصِّلة؛ لأنّ القرآن يأتي بالاسم الموصول عندما تكون صلته هي الّتي عليها مدارُ الحكم.

الثّاني: للتّنويه بمكانةِ الاسم الموصول وتفخيمِه وتعظيمِه الّذي يدلّ عليه السّياقُ.

الغرض من تقديم مَثَل العبد على الحرّ:

في التّقديم إمعانٌ في انتقاصِ الأصنام، وإنكارِ مساواتها باللهِ سبحانه

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ مَثَلَ العبد المملوك العاجز عن أيّ نفعٍ على الحرِّ المالك القادر في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾؛ مراعاةً للسِّياقِ ومقصودِ الآيات الرّئيس الّذي هو مُنْصبٌّ على بيانِ عجزِ الأصنام، وإنكارِ تعظيمها ومساواتها باللّه سبحانه وهي لا شيء، وليس مُنصبًّا على بيانِ عظمة اللّه ﷻ على وجهِ التّفصيل، مع أنّ الآية تبيّن الأمرَيْن، ولذا قدّم ذِكرَ مَثَلِ العبدِ إمعانًا في انتقاصِ الأصنام.

دلالة التّعبير بالفعل الماضي ﴿رَّزَقۡنَٰهُ﴾:

تحقّقُ وقوعِ رزقِ اللهِ للإنسان، أمرٌ قطعيّ، لا يشوبه ارتياب

أتى التَّعبيرُ القرآنيّ بلفظ ﴿رَّزَقۡنَٰهُ﴾ بصيغةِ الماضي في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 623، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 269، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 199.

تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا﴾، رغم أنّ رِزْقَ اللّهِ لهذا الحُرِّ لا يقتصرُ على الماضي، فهو في الحاضر والمستقبل كذلك؛ ليدلَّ على أنّ رِزْقَ اللّه لهذ الحرِّ القادرِ على الإنفاق، هو رزقٌ قد تحقّق في الماضي، وقد عاينه هذا الحرُّ ويتقلّبُ في آثاره، وهو في الحاضر والمستقبل محقَّقُ الوقوعِ ولا ينقطع، ولهذا جعلَ اللّهُ مستقبله كالماضي، والمعنى وسنرزقه قطعًا؛ لأنّ رِزْقَ اللّهِ من سُننهِ الكونيّة سبحانه.

بلاغة الالتفات من الغيْبة إلى التّكلّم:

تلوينُ الخطابِ إشعارٌ بضربِ المَثَلِ، زيادةً في الاهتمام والاتّعاظ

التفتَ البيانُ الإلهيّ من ضمير الغَيبة، بقوله: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ إلى ضمير التّكلّم بقوله: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا﴾، فقال: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا﴾، ولم يَقُلْ: (ومَنْ رزقه منه)؛ لأمريْن:

الأوّل: للإشعارِ باختلاف حالَيْ ضربِ المثَل والرّزق[1]، زيادةً في الاهتمامِ بهما والاتّعاظ بحالهما؛ أيْ: ذَكَرَ اللّهُ تعالى ذلك لكم لتتّعظوا وتتفكّروا في حالِ رجليْن: أحدهما عبدٌ مملوكٌ لا يقدرُ على شيء، والثّاني حرٌّ مالك رزقه اللّهُ تعالى رزقًا واسعًا حلالًا حسنًا، فهو يُنفقُ على غيره من هذا الرّزق الحَسَن سرًّا وجهرًا[2].

الثّاني: لأنّ هذا الالتفات يستدعي استخدامَ ضميرِ العظمة (نا) في ﴿رَّزَقۡنَٰهُ﴾؛ وفي هذا إشعارٌ بكثرةِ هذا الرّزقِ وعظمته، ويزيده كثرةً وعظمة قولُه تعالى بعد ذلك: ﴿مِنَّا﴾؛ أيْ: من عندنا وحدنا وليس من عند غيرنا[3].

معنى حرف الجرّ (مِن) ودلالته في ﴿مِنَّا﴾:

التّأكيدُ على كينونةِ الرّزقِ من اللهِ وحدَه، توبيخٌ لهم على عبادة غيره

(مِن) في قوله تعالى: ﴿رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا﴾ ابتدائيةٌ، والمعنى: ومَن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 195، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 199.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 200.

رزقناه مِن جنابنا الكبيرِ المتعالي[1]، لا من الأصنام والآلهة الّتي تعبدونها من دونه سبحانه، وفي هذا توبيخٌ لهم، ورغم أنّ الرّزقَ هو من اللّه ﷻ كما دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿رَّزَقۡنَٰهُ﴾ إلّا أنّ ذِكْرَ ﴿مِنَّا﴾ تأكيدٌ على كينونة الرّزق من اللّهِ وحده.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿مِنَّا﴾:

في التقديمِ بيانٌ لعظمةِ الرّازقِ، وتوبيخٌ لِمَن يعبدُ غيره

قدّمَ القرآنُ شبْه الجملة ﴿مِنَّا﴾ على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا﴾، ولم يَقُلْ: (ومَن رزقناه رزقًا حسنًا منّا)؛ للفتِ الانتباه لعظمة الرّازق سبحانه، وبيان أهميّة مصدر هذا الرّزق فهو مِن اللّه لا مِن غيره، ولتوبيخِ الكفّارِ بأنّ اللّه هو الرّازق وحده، وأنَ الأصنام لا ترزق أحدًا، فكيف يعبدونها؟ وكذلك قدّمه زيادةً في البيان للمؤمنين بأنّ أمرَ الرّزقِ إنّما هو للّه وحده، وليس لأحدٍ أنْ يشكَّ للحظةٍ أنَّ في الكونِ مَنْ يتحكّمُ في أرزاقِ العبادِ.

الغرض من تنكير لفظ ﴿رِزۡقًا﴾:

رزقُ اللهِ عظيمٌ لا يُكتنهُ كُنْهُهُ؛ لأنّه من العظيمِ سبحانه

نكّر البيانُ الإلهيّ لفظَ ﴿رِزۡقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا﴾، لإفادةِ معنى التّكثير والتّفخيم والتّعظيم لشأنِ هذا الرّزق؛ فرِزْقُ العظيم عظيمٌ، وخاصّة أنّه جاء في سياقِ تعظيم الرّازق بإضافة الفعل إلى ضمير العظمة، وذِكْرِ ﴿مِنَّا﴾ وتقديمِها على المفْعول.

سرّ وصف الرّزق، بلفظ: ﴿حَسَنٗا﴾:

الرّزقُ الحسنُ، هو أطيبُ الرّزقِ وأعلاه منزلةً

وَصَفَ سبحانه الرِّزق بالحَسَن في قوله تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا﴾؛ للإشارةِ إلى أنّه مع كثرته فهو حلالٌ طيبٌ مُستَحْسَنٌ في الشّرع، ومُستَحْسَنٌ مرضيٌ في نظَرِ النّاس[2]، فهو ليس أيَّ رزق؛ بل هو رزقٌ حَسَنٌ، أتى عن طريقٍ حَسَنةٍ، فليس في اكتسابه ذُلٌّ ولا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 200.

ضَنْك، وليس ممّا يُسرعُ إليه الفسادُ أو الكَسادُ، وليس ممّا يصْعبُ الاستفادة منه، ولا يشوبُه قُبْحٌ في نوعِه، مثْل قِلَّة وجدانٍ وقْتَ الحاجة، أو إسراعِ فسادٍ إليه كسوسِ البُرِّ، أو رداءةٍ كالحَشَف[1].

امتلاكُ الرِّزقِ الحسَنِ كَمالٌ، والتّصرّفُ بالإعطاءِ كمالٌ أيضًا

معنى الفاء في قوله: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ﴾ عاطفة؛ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها؛ أيْ: لترتيب الإنفاق على الرّزق، كأنَّه قيل: ومَن رزَقْناه منّا رزقًا حسَنًا فأنفَق[2]. وتفريعُ جملةِ ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ﴾ على الَّتي قَبلَها دونَ أنْ تُجعَلَ صِفةً للرِّزق؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَضمونَ كِلْتا الجُملَتَيْن مَقصودٌ لِذاتِه، كَمالٌ في مَوصوفِه؛ فكَونُه صاحِبَ رِزقٍ حسَنٍ كَمالٌ، وكونُه يتَصرَّفُ في رزقِه بالإعطاءِ كمالٌ آخَرُ، وكِلاهُما بضِدِّ نَقائِصِ المملوكِ الَّذي لا يَقدِرُ على شيءٍ من الإنفاقِ، ولا ما يُنفَقُ منه[3].

من علاماتِ كَرَمِ المُنْفقِ في المَثَلِ المضْروبِ، ثباتُ إنفاقِه وعدمُ انقطاعِه

الغرض من التّعبير بالمُسنَد الفعليّ ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ الجملةِ الاسميّة الّتي خبرُها مُسنَدٌ فعليٌّ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾؛ للدَّلالة على ثباتِ الإنفاقِ وقوّته واستمرارِه التّجدّديّ؛ أيْ: ينفق إنفاقًا ثابتًا مستمرًّا[4]؛ وذلك لأنّ الجملة الاسميّة تُفيد ثباتَ الحكم، ومجيء خبرها مُسنَدًا فعليًّا يعني: تكرّر الإسناد في الجملة بما يُقوّي الحُكمَ ويُؤكّده.

استحضارُ صورة الإنفاقِ في المُخيّلة، يُبرزُ فضْلَ الحُرّ، وعجزَ المملوك

غرضُ التّعبيرِ بالجملة الفعليّة ﴿يُنفِقُ﴾:

جعَل البيانُ القرآنيُّ الفعلَ مُضارِعًا في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾؛ للدّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ؛ والمعنى: فهو يُنفِق ويَزيدُ[5]،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 224.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 225، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 200.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 225، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 200.

ولاستحضارِ حالةِ الإنفاقِ في السِّر والعلن، وتصويرِها في المُخيّلة بما يُبرز فضلَ الإنفاق الّذي تُحبّه النّفس، وفضلَ المُنفقِ وقدرتَه على مجاهدة نفسه على البذل، وبالمقابل عجز العبدِ المملوك وقصوره عن هذه المرتبة، وفي التَّعبير بالفعلِ المضارعِ ﴿يُنفِقُ﴾ مقابلَ التَّعبير عنِ الرّزق بالفعل الماضي ﴿رَّزَقْنَٰهُ﴾، إشارة إلى فعله الخير بما رُزق من مال ولو لم يزددْ هذا المال.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يُنفِقُ﴾ في الآية:

الإنــــفـــاقُ في الخيرِ، هو أعلى درجاتِ التّصرّفِ بالمالِ الحلال

جاء التّعبير بلفظ ﴿يُنفِقُ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾؛ للدّلالة على أنّ أعلى تصرّفٍ يقوم به العبد بماله هو الإنفاق في الخير، والدّليلُ على أنّ هذا الحرّ ينفقُ ماله بالخير أنّ مَثَل هذا الحرِّ ضُربَ لأفضلِ مثلٍ للأحرار، كما أنّ مَثَل العبد ضُرِبَ لأسوأِ شيءٍ في العبيد، وهذا لبيانِ الفرقِ الشّاسع بين المَثَلَيْن.

معنى حرف الجرّ، في قوله: ﴿يُنفِقُ مِنْهُ﴾:

بـيـان تـبـايـنِ الـحـالِ بين الصّنمِ العاجزِ، والمُعطي الكريم

حرف الجرّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ للتّبعيض؛ أيْ: يُنفق بعضَ الرّزق الحَسَن؛ إذ إنّه لو كانت للتّوكيد وكان التّعبير (فهو ينفقه)؛ لدلّ على أنّه ينفقُ كلَّ ماله، وهذا يجعله عاجزًا عن التّصرّف؛ لأنّه لا مالَ عنده حينئذٍ، وهذا لا يناسبُ هذا السّياق؛ لأنّ الحرّ المالكَ المُتصرّف يصبحُ عندما ينفقُ كلّ ماله قريبًا من العبدِ الّذي لا يملك؛ لأنّه حرٌّ فقدَ ماله، ممّا يترتّب على ذلك تحديد دائرة تصرّفاته.

كما أنّ حرف الجرّ هنا يُفيدُ المبالغةَ في الدَّلالة على ما قُصد بالمَثَل من تباينِ الحالِ بين المَثَلَيْن، فإنّ العبدَ المملوك العاجز عن أيّ نفعٍ حيث لم يكنْ مثلَ المالكِ الّذي ينفقُ بعضَ ماله، فما ظنُّك عندما يُقارَن العبدُ العاجزُ بمالكِ المُلكِ الّذي لا تنقطع نعمُه سبحانه؟!.

في المصدريّة توكيدٌ لإنفاقه، وفي الحاليّة تعميمٌ يدلّ على استقلاليّة التّصرّف

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿سِرًّا وَجَهۡرًاۖ﴾:

إعرابُ ﴿سِرًّا وَجَهۡرًاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ﴾ يحتمل وجهيْن:

الأوّل: منصوبان على المصدر؛ والمعنى: فهو يُنفقُ إنفاقَ سرٍّ وجهرٍ، وهذا فيه تأكيدٌ لإنفاقه وحرصه على هذا الإنفاق بما يدلّ على كرمه.

الثّاني: منصوبان على الحاليّة من ضمير ﴿يُنفِقُ﴾، وهما مصدران مؤوّلان بالصّفة؛ أيَ: فهو ينفق مُسِرًّا ومجاهِرًا، والمقصود من ذكرهما تعميمُ الإنفاقِ وشموله لكلّ أحواله كنايةً عن استقلالِ التَّصَرُّفِ وعدم الوقاية من مانِعٍ إيّاهُ عن الإنفاق[1].

في تقديم إنفاقِ السّرِّ، بيانٌ لأفضليّته وأهميّته

سرّ تقديم لفظ ﴿سِرًّا﴾، على لفظ ﴿وَجَهۡرًاۖ﴾:

تقديمُ السِّرِّ على الجهرِ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ﴾؛ للإيذانِ بفَضلِه عليه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ بيانِ أفضلِ الأحرار في التّصرّف، فنفَقَةُ الحرّ في السّرّ خيرٌ من الجهرِ؛ لأنّها أبعدُ عن الرّياء، وأحفظُ لكرامةِ الفقير، قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]، وجاء في الحديث: "سبعة يُظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه ... ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها، حتّى لا تعلمُ شِماله ما تنفقُ يمينه"[2].

الدّليل على كمالِ القدرة في التّصرّف، لا على مجرّدِ القدرة

سرّ التّعبير بالجهر دون العلانية:

اختارَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿وَجَهۡرًاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ﴾ دون لفظ (العلن) علمًا بأنّه ورد في آياتٍ كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 225.

(2) صحيح البخاريّ، كتاب: الزَّكاةِ، باب: الصَّدَقَةِ باليَمِينِ، رقم: 1357.

﴿رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: 29] ومثلها [البقرة: 271] و[الرّعد: 22] و[إبراهيم: 31]؛ لكون لفظِ الجهر أنسبَ للسّياق وللمقصود، فالعلنُ ضدّ السّرّ، بينما الجهرُ ليس ضدّ السرّ فقط؛ بل هو الكشفُ والظّهورُ عيانًا بإفراطٍ وشدّةٍ ومبالغة(1).

وسياقُ آياتِ الصّدقةِ أتى لبيانِ أنّ المتصدّقين ينفقون المالَ سرًّا لا يَعرفُ عنه أحدٌ، وعلنًا فيما يراهم فيه النّاس، ولكنّ المقصودَ في سياقِ هذه الآية هو بيانُ كمالِ قدرةِ هذا الحرّ على التّصرّفِ بماله، فهو قادرٌ على أنْ ينفقه سرًّا، كما أنّه قادرٌ على أنْ ينفقهُ جهرًا، ويتضمّن هذا أنّه قادرٌ على أنْ ينفقهُ علنًا؛ لأنّ الجهرَ يتضمّنُ العلنَ، ولكنّ العلنَ لا يتضمّنُ الجهرَ، ولذا بيّنتِ الآيةُ أبعدَ التّصرّفين عن بعضهما ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾؛ للدّلالة على كمالِ القدرةِ في التّصرّف لا على مجرّدِ القدرةِ فقط(2).

بلاغة الطّباق بين السّرّ والجهر:

الجمعُ بين إنفاقِ السّرِّ والجهرِ، بيانٌ لكمالِ تصرّفِ الحرِّ

في الطّباق بين إنفاقِ الحرّ سرًّا وإنفاقهِ جهرًا ثلاثة أمور:

الأوّل: بيانُ كمالِ تصرّف الحرّ؛ أيْ: ينفقُ كما يشاءُ فهو إنسانٌ كريمٌ، لا يبخلُ بشيءٍ ممّا رزقه اللّهُ؛ بل ينفقُ منه في عموم الأحوالِ؛ أيْ: حال السّرّ وحال العلن؛ ليعمَّ إنفاقُه كلّ الأوقات، وعلى من تحسُنُ معه النّفقة سرًّا؛ أيْ: يجتنب عن قَبولها جهرًا، وعلى من تحسُنُ معه النّفقةُ جهرًا(3)؛ ليعمّ إنفاقهُ ويشملَ إنعامهُ كلَّ أصنافِ النّاسِ المُستحقّين للإنفاق.

الثّاني: دلالةٌ على أنّ إنفاقَ الحرِّ في المثَل المضروب هو الإنفاقُ

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 208، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287، والزّبيديّ، تاج العروس: (جهر).

(2) القدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل، ص: 151.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129، وسيد طنطاوي، الوسيط: 8/ 200.

في الخير؛ لأنّ التّعبيرَ عن النّفقةِ بالسّرّ والعلنِ جاء في القرآن في سياق نفقةِ الخير، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: 274]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ [إبراهيم: 31]، ولأنّ الإنفاقَ سرًّا وعلانيةً يُمثِّلُ مَظْهَرًا من مظاهر التَّوازُن في الاقتصاد الإسلاميّ، فالإنفاقُ سرًّا له وجوهُه الاقتصاديَّة وآثارُه الاجتماعيَّة، وكذلك الإنفاقُ علانيةً، كلٌّ بحَسَبِه وما يتناسبُ معه.

الثّالث: إشارةٌ إلى أصنافِ نعمِ اللّه تعالى الباطنةِ والظاهرةِ[1].

بلاغة المقابلة بين الحالَيْن في المَثَل:

لا يقبلُ عقلٌ مساواةَ العبدِ للمالكِ، فما الظّنّ بالجماد ومالكِ المُلك؟

قابلَ البيانُ القرآنيُّ بين الحالَيْن المُقارَنَيْن في المَثَل، ﴿عَبۡدٗا﴾: (حرًّا)، ﴿مَّمۡلُوكٗا﴾: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا﴾، ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ﴾، ولكنّه لم يُطابق بينهما في الألفاظ، بأنْ يُقال: (وحرًّا مالكًا للأموال)، مع كونه أدلَّ على تباين الحالِ بينه وبين قسيمه؛ بل عدلَ عن ذلك؛ لتوخّي تحقيق الحقِّ، بأنّ الأحرارَ أيضًا تحتَ ربقةِ عبوديّته ﷻ وأنّ مالكيَّتَهم لِما يملكونه ليست إلّا بأنْ يرزُقَهم اللّه تعالى إيّاهُ من غيرِ أنْ يكونَ لهم مدخلٌ في ذلك، مع محاولة المبالغة في الدّلالة على ما قُصد بالمَثَل من تباين الحالِ بين المُمثَّلَيْن، فإنّ العبدَ المملوك حيث لم يكنْ مثلَ العبد المالكِ، فما ظنُّك بالجماد ومالكِ المُلك خلّاق العالَمين؟![2].

سرّ فصل قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾:

فَصل البيانُ الإلهيّ جملةَ ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ عن جملة ﴿۞ضَرَبَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.

﴿ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطفٍ؛ لِما بينهما من اتصال المعنى؛ إذ جاءتْ جملةُ ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ وهي إنشائيّة لفظًا خبريّةً معنًى؛ ومعناها: (لا يَسْتَوونَ)، لكنّه جاء في صورة الإنشاء لما في الإنشاء من معنى المحاورة، فتكون الجملة مسوقة لتأكيد معنى المثل السّابق وبيان الغرض منه؛ فقد بيَّنت غرَضَ التَّشبيهِ بأنَّ المَثَل مُرادٌ منه عدَمُ تَساوي الحالَتَيْنِ؛ لِيَستدِلَّ به على عدَمِ مُساواةِ أصحاب الحالةِ الأولى لِصاحِبِ الصِّفةِ المشبَّهةِ بالحالةِ الثّانيةِ، والاستِفْهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[1].

غَرَضُ التَّشبيهِ عدَمُ التَّساوي، بين حَجَرٍ مواتٍ، ومَنْ له القدرةُ والحياة

بلاغة الاستفهام ونوعه:

الاستفهام بـ ﴿هَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ إنكاريٌّ معناه النّفي؛ لأنّه جاء بعد جانبيْن مُتقابليْن في هذا المَثَل، فالفرقُ بينهما واضحٌ وعظيمٌ عند كلّ ذي قلبٍ سليم، وهذا الاستفهام الإنكاريّ التّوبيخيّ هو نفيٌ للتّسوية، وقد جاء النّفيُ بصيغةِ الاستفهام تأكيدًا للنّفي، كأنّ النّفي مقرّرٌ بالبداهةِ وعند المُخاطَب، فكأنّه قد جاء من عنده"[2] والمعنى: هل يستوي في عُرفكم أو في عُرفِ أيّ عاقلٍ هذا العبدُ المملوك العاجز الّذي لا يقدرُ على شيءٍ مع هذا الإنسان الحرِّ المالك الّذي رزقه اللّهُ سبحانه رزقًا واسعًا حلالًا، فشكر اللّه عليه، واستعمله في وجوهِ الخير، إنّ ممّا لا شكّ فيه أنّهما لا يستويان حتّى في نظرِ مَن عنده أدنى شيءٍ من عقل[3]؛ أيْ: لا يستويان مع أنّ الفريقيْن سيّانِ في البشريّة والمخلوقيّة للّه سبحانه[4]، وإنْ كان الأمر كذلك، فكيف سوّى المشركون الجهلاءُ في العبادة بين الخالقِ الرّازق الّذي يملك كلَّ شيء، وبين غيره من المعبودات الباطلة الّتي

لا تستوي المخلوقات والخالقُ سبحانه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 225.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4224.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 200.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.

لا تسمعُ ولا تُبصر ولا تعقلُ، ولا تملك شيئًا[1]، كما أنّ التّعبيرَ بحرفِ الاستفهام ﴿هَلۡ﴾ دون الهمزة؛ أيّ: لم يقل: (أيَستَوونَ؟)؛ للدّلالة على قوّةِ عدمِ المساواة، إذ ﴿هَلۡ﴾ أشدُّ استفهامًا من الهمزة، وهي مفيدةٌ للتّحقيق؛ لأنّها بمعنى قد في الاستفهام[2].

دلالة التّعبير بضمير الجمع في ﴿يَسۡتَوُۥنَۚ﴾:

عمومُ المقارنة، دليلٌ على دقّةِ الحكم، وهو عدمُ التّساوي

جُمِعَ الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ وإنْ تقدَّمَه اثنانِ ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾ ولم يَقُلْ: هل يستويان؛ لعدّة وجوه:

الأوّل: لأنَّ المُرادَ جنسُ العَبيدِ والأحرارِ المدلولِ عليهما بـ ﴿عَبۡدٗا﴾ وبـ ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾؛ أيّ: المقصود بالمثَل كلُّ مَن اتّصف بهذه الأوصاف المذكورة من الجنسيْن المذكوريْن لا فردان مُعيّنان منهما[3]، والمعنى: هل يستوي العبيدُ والأحرار الموصوفون بما ذُكر من الصِّفاتِ؟[4].

الثّاني: لمراعاةِ أصحابِ الهَيْئَةِ المُشَبَّهَة؛ لِأنَّها أصنامٌ كثيرة كُلُّ واحدٍ منها مُشَبَّهٌ بعبدٍ مملوكٍ لا يقدرُ على شيءٍ، فصيغةُ الجمع هنا تجريدٌ لِلتَّمثيليَّة؛ أيّ: هل يستوي أولئك مع الإلهِ الحقِّ القادرِ المُتصرّف، وإنّما أُجري ضميرُ جمعهم على صيغةِ جمعِ العالم تغليبًا لجانبِ أحد التّمثيليْن، وهو جانب الإلهِ القادر[5].

الثّالث: يعود الضّميرُ على الأغنياءِ والفُقَراءِ المدلولِ عليهما بهما أيضًا.

الرّابع: اعتبارًا بمعنى ﴿وَمَن﴾، فإنَّ معناها جمعٌ، فراعَى معناها في قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ بعدَ أنْ راعى لَفظَها في قوله: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾[6].

(1) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 47.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 200.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 129.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 226.
(6) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 122.

الخامس: جَمَعَه نظرًا إلى أنَّ أقَلَّ الجَمعِ اثنانِ(1).

سرّ فصل قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾، وموقع الجملة:

اختصاص الله بالشُّكرِ، لظهورِ حجّةِ اختصاصِه بالإنعامِ

لَمَّا كان جوابُ ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ قَطعًا: لا، وعُلِمَ أنَّ الفاضِلَ في المثال المذكور ما كان مِثالًا له سُبحانَه؛ عُلِمَ أنَّ مَن سَوَّى بينهما أو فعَلَ ما يَؤولُ إلى التَّسويةِ أجهَلُ الجَهَلةِ، فثَبَت مَضمونُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وأنَّ غَيرَه تعالى لا يُساوي شيئًا، فثَبَت بلا رَيبٍ أنَّه سبحانه المختَصُّ بالمَثَل الأعلى، فعبَّرَ عن ذلكَ بقَولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(2)، فهو شكرٌ على بيانِ الأمرِ بهذا المثالِ وعلى إذعانِ الخصمِ له، وهذا كما تقول لِمَن أذعنَ لك في حُجّة وسلّم ما تبني أنتَ عليه قولك: اللّه أكبر، على هذا يكون كذا وكذا، فلمّا قال هنا: هَلۡ يَسۡتَوونَ؟ فكأنّ الخصمَ قال له: لا، فقال: الحمد للّه ظهرتْ الحُجّة(3)؛ أيْ: جاءتْ الجملةُ تأكيدًا لنفي عدمِ التّساوي، وأنّه يحمد اللّه تعالى للوصولِ إلى هذه النّتيجةِ الّتي أخذتْ من إقرارهم(4).

وأمّا موقع جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ فهي مُعترِضةٌ بينَ الاستِفْهامِ المفيدِ للنَّفيِ في ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ وبينَ الإضرابِ بـ ﴿بَلۡ﴾ الانتقاليَّةِ في ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والمقصودُ مِن هذه الجملةِ: أنَّه تبيَّن من المَثَل اختِصاصُ اللّهِ بالإنعامِ، فوجَب أن يَختَصَّ بالشُّكرِ، وأنَّ أصنامَهم لا تَستحِقُّ أنْ تُشكَرَ(5).

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

التّعريف دالٌّ على عمومِ المحامد

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ لتعريف الجنسِ، وهي تفيدُ

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 311، والرّازيّ الحنفيّ، أنموذج جليل، ص: 261.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 216.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 410.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4224.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 225.

توكيدَ اللّفظِ وتقريره وإيضاحه للسّامع[1]؛ وتُفيدُ العمومَ[2]؛ أيْ: تشملُ كلّ حمدٍ سواء حمد المتكلّم أم حمد جميعِ الخلق، فالتّعريفُ دالٌّ على عموم المحامد؛ لأنّه سبحانه مولى جميعِ النّعم لا يستحقّه أحدٌ غيرُه وإنْ ظهرتْ على أيدي بعض الوسائط فضلًا عن استحقاقِ العبادة، وفي هذا العموم إرشادٌ إلى ما هو الحقُّ، من أنّ ما يظهرُ على يدِ مَنْ ينفقُ ممّا ذكر راجعٌ إلى اللّه سبحانه كما لوّح به قوله تعالى: ﴿رَّزَقۡنَٰهُ﴾[3].

فائدة التّعبير بالحمد دون الشّكر:

الحمدُ رأسُ الشُّكرِ، ومظهرٌ من مظاهرِه

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالحمد دونَ الشُّكر، وجعله كنايةً عنه، في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾؛ لكونِ الحمدِ في الآية مَظْهرًا من مظاهرِ الشُّكر، في مَظْهَرِ النُّطق، ولكونِ الكلام على إخلالِ المشركين بواجبِ الشّكر؛ إذ أثنوا على الأصنامِ، وتركوا الثّناءَ على اللّه[4].

معنى اللّام في شبه الجملة ﴿لِلَّهِۚ﴾:

انحصارُ الحمدِ في ملكِ اللّه تعالى، لاختصاصِه به

لام ﴿لِلَّهِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ للاختصاصِ الّذي يفيد انحصارَ الحَمدِ في مُلكِ اللّهِ تعالى، وهو إمّا حصرٌ ادّعائيٌّ أو حصرٌ إضافيٌّ، وتفصيلهما على هذا النّحو:

الأول: حَصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنّ الحكم باختصاصِ جنسِ الحمد به تعالى؛ لوجود لام تعريف الجنس في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ ولام الاختصاص في قوله: ﴿لِلَّهِۚ﴾ يستلزمُ انحصار أفرادِ الحمد في التعلّق باسم اللّه تعالى؛ لأنّه إذا اخْتَصَّ الجِنْسُ اخْتَصَّتِ الأفرادُ، إذ لو تحقّق فردٌ من أفراد الحمد لغير اللّه تعالى لتحقّق الجنسُ في ضمنه، فلا يتمُّ معنى اختصاصِ الجنس المُستفاد من لام الاختصاص الدّاخلة على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 157.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 226.

اسم الجلالة[1]، وبناءً على ذلك فإنّ الحمدَ إنَّما يَكونُ على نِعمةٍ، وغيرُ اللّهِ إذا أنعَم، فإنَّما إنعامُه مَظهَرٌ لِنِعمةِ اللّهِ تعالى الَّتي جَرَتْ على يدَيْه[2].

الثاني: قصرٌ إضافيٌّ، أي قصر إفرادٍ للرَّدِّ على المشرِكين؛ إذ قسَّموا حَمْدَهم بيْنَ اللّهِ وبينَ آلِهَتِهم[3].

الغرض من الجملة الاسميّة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾:

استحقاق اللهِ للحمدِ، حقيقةٌ مُقرَّرَةٌ، لا تزول ولا تحول

معنى قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ ثناؤُه سبحانه على ذاته حيثُ ساقَ سبحانه هذه الأمثال الواضحة للتّمييز بين الحقّ والباطل، وأفادَ التّعبيرُ بالجملة الاسميّة إفادةَ تقريرٍ وتأكيدِ حقيقةَ أنّ اللّه هو المستحقُّ للحمدِ وحده، وأنّه حقيقةٌ ثابتةٌ دائمةٌ مستمرّةٌ لا تزول ولا تحول؛ لأنّ الجملة الاسميّة تفيد قوّةَ الحُكم وبقاءه[4]، وفيها تعليمٌ للمؤمنين أنْ يحمدوا اللّه على إرشادِهِ لهم، وتعليمهم كيف يقذفون بحقّهم على باطلِ أعدائهم فإذا هو زاهقٌ[5].

معنى ﴿بَلۡ﴾ وغرضها في السّياق:

بعد إقامةِ الحُجّةِ على المكابرِ، لا بدّ من تجهيلِهِ

﴿بَلۡ﴾ للإضراب الانتقاليّ، وهو الانتقالُ من أمرٍ إلى أمرٍ أفظعَ منه مع بقاءِ الحُكم الأوّل؛ أيْ: أضرب "للانتقال من الاستدلالِ عليهم إلى تجهيلهم في عقيدتهم"[6]، أو أضربَ للانتقالِ من الحُكم بإشراكهم وتسويتهم الأصنام باللّه إلى الحُكم بجهلهم في عقيدتهم، أو أضرب عن علمهم البدهيّ الّذي طمسَ فيه الهوى على مداخلِ الفكرِ والعلم[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 225.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 157.
(5) طنطاوي، الوسيط: 8/ 201.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 226.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4224.

سرّ إسناد نفي العِلم إلى الأكثريّة:

أسندَ البيانُ القرآنيّ نفيَ العِلْم إلى الأكثريّة في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ للإشعار بأنّ من هؤلاء الكافرين مَن يعلمُ الحقّ ويعرفه كما يعرف أبناءَه، ولكنّ الهوى والغرور والتّقليد الباطل حالَ بينه وبين اتّباعِ الحقّ[1]، كقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النّحل: 83][2]، وجعله يكابرُ استِبْقاءً للسِّيادةِ، واستِجْلابًا لِطاعةِ دَهْمائِهم؛ فهذا ذَمٌّ لأكثَرِهم بوصمةِ الجهلِ بطريقِ التّصريحِ، وهو ذمٌّ لأَقَلِّهم بوَصْمةِ المكابَرةِ والعِنادِ بطَريقِ التَّعريضِ[3]، والجهلُ في الطّرفَيْن أقليّة أو أكثريّة ناتجٌ عن جحودهم وإغلاقهم قلوبهم عن الإيمان.

ذَمٌّ لأكثَرِهم بالجهل تصريحًا، وذمٌّ لأقَلِّهم بالمكابَرة تعريضًا

نكتة توسّط النّفي بين المُسنَد إليه والمُسنَد الفعليّ:

أفاد توسطُ النَّفي ﴿لَا﴾ بين المُسنَد إليه ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ والمُسنَد إليه الفعليّ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثباتَ نفي العلمِ عن أكثرهم؛ لأنّ النَّفي إذا دخلَ على الجملةِ أفادَ منعَ ثبوتِ الخبَرِ للمُسنَد إليه.

نفيُ العلم عن أكثرهم دائمٌ وثابتٌ لهم

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

عبّر القرآنُ الكريم بالفعلِ المضارع ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ حدوثِ وتجدّدِ جهلهم بحقيقةِ أنّ اللّهَ هو المستحقُّ للحمد والعبادة وحده؛ لأنّه جهلٌ من كسبِ أيديهم ناتجٌ عن جحودهم وإغلاقِ قلوبهم عن الإيمان، وعقولهم عن التّفكّر، وهذا أمرٌ مُستقرٌّ ثابتٌ فيهم، لا جهلٌ ناتجٌ عن عدمِ وصولِ الخبرِ إليهم.

جهلهُم بحقيقةِ استحقاق الله للحمد والعبادة، هو جهلٌ مُستمرٌّ مُتجدّد

(1) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 201.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 226.

غرضُ حذف مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ إذ التّقدير: بل أكثرهم لا يعلمونه؛ اختصارًا لدلالةِ ما قبْلَه عليه، إذ هو الحقيقة الّتي قرّرها وأكّدها قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾، وهي أنّ الله هو المستحقُّ للحمد وحده سبحانه.

إذا تساوى الذّكرُ والحذفُ، فالحذفُ أبلغُ

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَبدُ ومِلك اليمين:

عرّف اللّغويّون العبد بأنّه: الإنسان، حُرًّا كانَ أو رَقيقًا، يُذْهَبُ بِذَلِكَ إلى أنه مَرْبوبٌ لِباريهِ ﷻ، والعبدُ يُطلق على المملوك وهو خلاف الحرّ، والجمع: عبيد، وأصلُ العُبوديَّةِ الخضوعُ والذّلُّ[1]، وعرّفوا مِلك اليمين، بأنّه الأمَة والعبد المملوكان[2]، ويُطلقُ مِلك اليمين على الرّقيق[3]، إذن: العبد ومِلك اليمين يشتركان في معنى الخضوع والذّلّ، ويفترقان في أمورٍ:

العبدُ أعمُّ من مِلك اليمين؛ فالعبدُ يشملُ الإنسان الحرّ والرّقيق

الأوّل: العبد أعمّ من مِلكِ اليمين؛ إذ لفظ (العبدِ) يشمل جنس الإنسان حرًّا كان أو رقيقًا، والعبد يُقال على أربعة أضرب: الأوّل: عبد بحُكم الشّارع وهو الإنسان الّذي يصحّ بيعه وابتياعه، والثّاني: عَبْدٌ بالإيجاد، وذلك ليس إلّا لله، والثّالث: عَبْدٌ بالعِبادَةِ والخدمة، والرّابع: ما هو عبدٌ للدُّنيا وأعراضها الفانية[4].

الثاني: أمّا مِلكُ اليمين أو المملوك؛ فيقتصرُ على معنًى واحدٍ وهو العبوديّة للبشر، وهو الّذي يصحّ بيعه وابتياعه.

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عبد).
(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 775.
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (يمن).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 542.

الجهر والعلن:

الإعلانُ ضدّ السّرّ، ولا يقتضي رفع الصّوت، والجهرُ ظُهورُ الشّيْءِ بإفراطٍ

هناك تقاربٌ دلاليٌّ كبير بين لفظي الجهر والعلن، فكلاهما فيه معنى الظّهور، ولذا يُعرف أحدهما بالآخر في اللّغة، فمعنى جهر: أعلن، ومعنى الإعلان: المجاهرة[1]، ومع هذا التّقارب فقد فرّق العلماء بينهما، حيث ذكر العسكريّ: "أنّ الإعلانَ خلافُ الكتمان؛ وهوَ إظْهار المَعْنى للنَّفس ولا يَقْتَضِي رفع الصَّوْت بِهِ، والجهرُ يَقْتَضِي رفع الصَّوْت بِهِ، ومِنْه، يُقال: رجلٌ جهير وجهوري إذا كانَ رفيع الصَّوْت"[2].

وذكر الرّاغب أنّ العلانيةَ: ضدّ السّرّ، وأكثر ما يُقال ذلك في المعاني دون الأعيان[3]، وأصل الجَهْرِ ظُهورُ الشّيْءِ بإفراطِ حاسّة البصر، كرأيته جِهارًا، أو حاسّة السّمع، نَحْو: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [طه: 7][4].

الحمدُ والشُّكر:

الحمدُ أعمُّ من الشُّكر، إذ الحمد يكون عن يَدٍ، وعن غير يَدٍ

بين لفظي الحمد والشّكر تقاربٌ دلاليٌّ؛ إذ يشتركان في معنًى عامٍّ وهو: الثّناء الجميل، والفرق بينهما يتّضح في أنّ الحمد في اللّغة: نقيض الذّمّ، ويكون عن يدٍ وعن غير يدٍ، والشّكر في اللّغة: عرفان الإحسان ونشره وحمد موليه، ولا يكون إلّا عن يدٍ[5].

والشّكر: تصوّر النّعمة وإظهارها، ويُضادّه الكفر[6]، والحمدُ أعمُّ من الشّكر؛ إذ الشّكرُ لا يُقال إلّا في مقابلةِ نعمةٍ مسداة، بينما الحمد يكون في مقابلة نعمةٍ مسداةٍ، وعلى صفةٍ في المحمود قاصرةٍ عليه، فكلّ شكرٍ حمدٌ، وليس كلُّ حمدٍ شكرًا[7]، فالحمدُ مُتضمّن للشّكر.

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (جهر)، (علن).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.
(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 582.
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 208.
(5) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حمد)، (شكر).
(6) الرّاغب، المُفردات، ص: 461.
(7) الرّاغب، المُفردات، ص: 256، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/ 450.

والحمد: الثّناء بجميل الأوصاف، ولا يكون إلّا باللّسان، بخلاف الشّكر، فإنّه يكون باللّسان والجوارح والجَنان[1].

والحمدُ عبارة عن تعظيم الفاعل، لأجل ما صدر عنه من الإنعام، سواء أكان ذلك الإنعام واصلًا إليك أم إلى غيرك، وأمّا الشّكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعامٍ وصل إليك[2].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/ 450.

(2) طنطاويّ، الوسيط: 1/ 19.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ [النحل: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَثَلٌ آخر يدلُّ على بُطلان شِركهم، بوجهٍ أوضحَ لا تُمكِنُ المكابرةُ فيه

لما أكّدَ اللهُ في الآية السّابقة بطلانَ مذهبِ عَبَدةِ الأصنامِ وعجْزَ معبوداتهم بذِكْرِ مَثَلِ العبدِ العاجزِ والحرِّ القادر اللّذيْن لا يستويان أتْبعَه بمثَلٍ آخر، وهو مَثَلُ الأبكمِ العاجز الّذي لا يأتي بخيرٍ والنّاطق القادرِ الآمرِ بالعدلِ فيه فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبۡكَمُ﴾: أَصْلُ (بكم): أصلٌ واحِدٌ قَليلٌ، وهو الخَرَسُ، والأبْكَمُ: الأخْرَسُ لا يتكلَّمُ، وإذا امتنَعَ مِنَ الكَلام جَهْلًا أو تَعَمُّدًا يُقالُ: بَكِمَ عَنِ الكَلامِ، وقَدْ يُقالُ لِلَّذي لا يُفْصِحُ: إنَّهُ لَأبْكَمُ[1]، وقيل البَكَمُ: الخرَسُ مَعَ عِيّ وبَلَهٍ، وقيل: الأبْكَمُ هو مَنْ وُلِدَ لا يَتَكلَّمُ، والأُنْثَى: بَكْماءُ، وقيل: هو الإنْسانُ لا يَنْطِقُ ولا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ، وجَمعُه: بُكْمٌ، ويُطْلَقُ على مَن لا يعْقِل الجوابَ ولا يُحْسِن وجْه الكَلامِ، وعلى الأقْطَعِ اللِّسانِ[2]، والمُراد بالأبْكَم في الآية: المَوصوفُ بالبَكَم، وهو الخَرَسُ في أصْلِ الخِلْقَةِ من وقْتِ الوِلادَةِ، بحَيثُ لا يَفْهَمُ ولا يُفْهِمُ[3].

2) ﴿كَلٌّ﴾: أصلُ (كلّ): يَدُلُّ على خِلافِ الحِدَّةِ، والكَليلُ: السَّيْفُ يَكِلُ حَدُّهُ، والكَلُّ: الّذي هو عيالٌ وثقلٌ على صاحبه، وكلَّ الرَّجلُ: إذا ذهبَ وترك عيالَه بمَضْيَعَة، والكالّ: المعيي، ويُقال:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بكم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 227.

الكَلُّ: اليَتِيمُ؛ وسُمِّيَ بذلكَ لِإدارَتِه[1]، وكَلَّ يَكِلُّ كَلًّا وكَلالًا وكَلالة: تعب وأعْيا، وأصبحَ فلانٌ مُكِلًّا: إذا صار ذَوو قرابَته كلًّا عليه؛ أيْ: عيالًا[2]، والكَلُّ أيضًا: المُصِيبَةُ تحدُث، والأصل مِنْ كَلَّ عَنْهُ؛ أيْ: نَبا وضعُف، والكَلّ أيضًا: الثّقيلُ لا خيرَ فيه، والكَلالة: الرَّجُلُ الَّذِي لا ولَدَ لَهُ ولا والِدَ[3].

والمقصود بالكَلِّ في الآية: غليظ وثقيل على مولاه[4]، وعالة على كافله لا يُدبّر أمر نفسه[5].

3) ﴿مَوْلَىٰهُ﴾: أصلُ (ولي) يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، وكُلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخَرَ فهوَ وليُّهُ، والموالاة: اتّخاذُ المَوْلى[6]، والمَوْلَى: الَّذِي يَلِي عَلَيْك أمرَك، وهو الَّذِي يُسلِم على يدك ويواليك، والمَولَى: مولَى النِّعمة، وهوَ المُعْتِق أنعَم على عَبْده بعِتْقِه، والمَولى: المُعْتَق؛ لِأنَّهُ ينزل منزلَة ابن العَمِّ، يجب علَيكَ أن تَنْصره، وترثه إن ماتَ ولا وارِثَ لَهُ[7]، والولاء والتّوالي يُستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النّسب، ومن حيث الدّين، ومن حيث الصّداقة والنُّصرة والاعتقاد، والوَليُّ والمولى يستعملان في كلّ ذلك، فالمولى: النّاصر والمُنعِم وابن العمّ والحليف والعقيد[8]، والمقصود بالمَوْلَى في الآية الكريمة: الَّذِي يَلِي أمرَ غَيْرِه، والمُراد: هو عالَةٌ على كافِلِه لا يُدَبِّرُ أمرَ نَفْسِه[9].

4) ﴿يُوَجِّههُّ﴾: أصلُ (وجه) يَدُلُّ على مُقابلَةٍ لِشَيءٍ، والوَجْهُ مُسْتَقْبِلُ لِكُلِّ شَيءٍ، يُقالُ: وجْهُ الرَّجُلِ وغيره، وواجَهْتُ فُلانًا: جَعَلْتُ وجْهِيَ تِلْقاءَ وجْهِه، والوِجْهَة: كُلُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلْتَهُ، ووَجَّهْتُ الشَّيءَ: جعلتَه عَلَى جِهَةٍ، وأصلُ جِهَتِه وِجْهَتُهُ[10]، وهما: الموضعُ الَّذِي تَتَوَجَّهُ إلَيْهِ وتَقْصِدُهُ، وضَلَّ وِجْهَةَ أمرِه؛ أيْ: قَصْدَهُ، وتوَجَّه إلَيْه: ذَهَبَ[11]، والمُراد بقوله:

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكَم: (كل).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كل).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 248.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(8) الرّاغب، المُفردات، ص: 885، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: 4/ 342.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجه).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (وجه).

﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ﴾؛ أيِ: يبعثه مَولاهُ ويُرسله، أو يأمره في عَمَلٍ ليَعمَلَهُ أو يأتيَ به، لا يأتِ بخَيرٍ؛ أيِ: لا يَهْتَدِي إلى ما وُجِّهَ إليه[1].

5) ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾: أصلُ (عدل) يَدُلُّ على اسْتِواءٍ، والعدلُ: نَقيضُ الجَوْرِ، والعَدْلُ: قِيمَةُ الشَّيْءِ وفِداؤُهُ، والعَدْلُ: المَرْضيُّ من النّاسِ قولُهُ وحُكْمُهُ المُسْتَوي الطَّرِيقَةِ[2]، والعَدْلُ القَصْدُ في الأُمورِ، وما قامَ في النُّفوس أنَّه مُستقيم، وقيل: هو الأمرِ المتوسِّط بَيْنَ طرفي الإفراط والتَّفريط[3]، ويأتي بمعنى الحُكم بالحقِّ، يُقالُ: عدَلَ، يَعْدِلُ، عَدلًا: إذا حَكَمَ بالعَدْلِ، وكُلُّ ذَلِكَ مِنَ المُعادَلَةِ، وهيَ المُساواةُ[4]، والمقصودُ بالعَدْلِ في الآية: الحَقُّ والصَّوابُ الموافِقُ للواقِعِ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا تساوي في ميزانِ العقلِ بين الحائز على صِفاتِ الكَمالِ المُطلَق وفاقِدِها

ضرَب اللهُ مثلًا آخر يدلُّ على ما يدلُّ عليه المَثَل السّابق على وجه أظهرَ وأوضحَ، فقال: وضرَبَ اللهُ لكم مثلًا لنَفسِه وللأصنام الّتي تُعبَدُ من دونه؛ كرَجُلَيْنِ أحَدُهما لا يَنطِقُ، ولا يَسمَعُ، ولا يَعقِلُ، عاجِزٌ لا يَقدرُ على فِعلِ شَيءٍ من جَلبِ نَفعٍ، أو دَفْعِ ضُرٍّ، وهو مع عدَمِ نُطقِه وعَجزِه ثَقيلٌ على مَن يلي أمرَه ويَعولُه، وأينما يُرسِلْه مَولاه في عمَلٍ لِيَعمَلَه لا ينجَحْ فيه، فهو لا يأتي بخَيرٍ، ولا يَقضي حاجةً؛ لعَجزِه وعدَمِ فهمِه لما يُقالُ له، وعَدَمِ قُدرتِه على التَّعبيرِ عمّا يُريدُ؛ فكذلك شأن الصَّنَمُ لا يَعقِلُ ما يُقالُ له، ولا يَنطِقُ بشَيءٍ، فلا يأتي بخيرٍ، أو يقضي حاجةً، فهل يستوي هذا الأبكَمُ الكَلُّ على مَولاه الَّذي لا يأتي بخيرٍ حيثما توجَّهَ، ومَن هو ناطقٌ مُتكلِّمٌ قادِرٌ يأمُرُ بالحقِّ والقِسْطِ، ويدعو إليه، وهو في نفسِه - مع ما ذُكِرَ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير، والزّبيديّ، تاج العروس: (عدل).
(4) ابن سِيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.

نَفعِه العامِّ - على طريقِ الحقِّ لا يَنحَرِفُ عنه، عاملٌ بما يأمُرُ به، ويدعو إليه، ولا يتوجَّهُ إلى مطلَبٍ إلّا ويبلُغُه بأقرَبِ سَعيٍ وأسهَلِه، فهو عادِلٌ في أقوالِه، مُستقيمٌ في أفعالِه؟! فإذا امتنَعَ التَّساوي بين هذيْنِ الصِّنفَيْنِ المَذكورَيْنِ، فكذلك يمتنِعُ التَّساوي بينَ اللّه سُبحانَه العادِلِ الَّذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو قائِمٌ بالقِسْطِ على صراطٍ مُستقيمٍ وبينَ ما يَجعَلونَه شُرَكاءَ له[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ عطْفِ الآيةِ على سابقتها:

المثَلُ حُجّةٌ أخرى، بيّنها اللهُ تعالى لإبطالِ الشِّرك

الواو في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، والمعنى المُشترك بينهما أنّ كليهما مَثَلٌ يُدلَّل به على أنّ الكُفّار مخطئون في مساواتهم بين الأصنام وبين اللّه ﷻ، ولكنّه ذَكَرَ أولًا عبدًا غيرَ أبْكم وجعله مثلًا للصّنم في نفي المِلْك، ثمَّ زاده نقصًا بقوله: ﴿أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾؛ فدلّ على أنّه أراد عبدًا أبكمَ بدلالة ذِكْرِ المولى وتوجيهه؛ وذلك مبالغةٌ في وصف الأصنام بالنقْص وقلةِ الخير[2]، كما أنّ المَثَل الثّاني يختلف عن الأوّل في وجهِ الشَّبه.

بلاغة ذِكْر الاسمِ الظّاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ في السّياق:

في إظهارِ الاسمِ الجليلِ، تفخيمٌ للمَثَلِ المضْروب، ومهابة لعلّام الغيوب

رغْم دلالة السّياق على الاسم الظاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾؛ إذ إنّ الآية عطْفٌ على الآية السّابقة ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا﴾ رغم ذلك لم تأتِ الآية بالضَّمير المُقدَّر للعلم بالمقصود؛ أيْ: لم يَقُلْ سبحانه: (وضرب مثلًا رجليْن)،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 310، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 589، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 220، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 218، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 391.
(2) الجصّاص، أحكام القرآن: 3/ 243.

وإنَّما أقام القرآنُ الاسمَ الظاهرَ مقامَ المُضْمر تفخيمًا للمَثَل المضْروب بذكرِ ضاربِ المثَل ﷻ وتربيةً لمهابة اللّه في أنفسهم الّتي تجرّأتْ على اللّه فاتخذتْ أندادًا من دون اللّه، ولذا تكرّر ذِكرُ الاسم الجليل في سورة النّحل أربعًا وثمانين مرّةً، ولأنّ سياقها في التّوحيد، والنّهي عن الشّرك ولفظ (اللّه) تتعلق بالعبادة والعبودية، فالتّصريح بذكره هو الأنسب هنا[1].

بلاغة التّنوُّع في أسلوب التَّشبيه من خلال المَثلَيْن المضروبَيْن:

تـفـنُّنٌ في الأسـلـوب، لتثبيت القلوب، ولبيان أن الله لا يشبهه شيء من الأنام

قرنَ البيانُ القرآنيّ في المثالِ الثّاني حالَ الرَّجلَيْن ابتداءً، ثمَّ فصَلَ في آخرِ الكلام مع ذِكْر عدم التّسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز؛ إذ حُذف من صدرِ التّمثيل ذِكْر الرَّجل الثّاني للاقتصار على ذِكْره في استنتاج عدم التّسوية تفنُّنًا في المخالفة بين أسلوب هذا التّمثيل وأسلوب سابقه في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا﴾[2].

الغرض من تنكير ﴿مَثَلًا﴾:

في إبـهـامِ المَـثَـل تفخيمٌ وتعظيمٌ وتشويقٌ

نكّر البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿مَثَلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾؛ لإفادة الإبهام؛ إذْ أبهم المثَل في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، ثمَّ فسّر بقوله: ﴿رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ الآية، وهذا الإبهامُ للمَثَل ثمَّ تفسيرُه فيه ما فيه من تفخيم المثَل وتعظيمه، و"لتنتظرَ النَّفسُ إلى وروده، وتترقّبه حتّى يتمكّن لديها عند وُروده"[3].

نكتةُ العُدول من لفظ (رجلًا) إلى ﴿رَّجُلَيۡنِ﴾:

الـتّـسـويـةُ بين رجـــلٍ كـامـلٍ (المؤمن)، ورجل ناقصٍ (الكافر) لا يقبله العقلُ

عَدَلَ البيانُ القرآني من قوله في المثَل السّابق ﴿عَبۡدًا﴾؛ أيْ: رجلًا إلى ﴿رَّجُلَيۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ﴾

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 832.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 227.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.

ولم يَقُلْ: (وضرب الله عبدًا) أو (رجلًا)، ويمكن أنْ نفهم من هذا العدول الدّلالةَ على أنّه مَثَلٌ للرّجل الكافر الّذي يُمثّله الأبكم، وللرّجل المؤمن الّذي يُمثّله مَنْ يأمر بالعدل، وهو على صراطٍ مستقيم[1].

دلالة الموقع النّحويّ، للفظ ﴿رَّجُلَيۡنِ﴾:

في البدليّةِ بيانٌ لأهميّةِ المَثَل المضروب، ولضرورة الاتّعاظِ به

الموقعُ النّحويّ للفظةِ ﴿رَّجُلَيۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾ بدلٌ من ﴿مَثَلًا﴾[2]، وقد جاءَ البدلُ بيانًا للإبهام في كلمة ﴿مَثَلًا﴾، "ثمَّ استأنفَ البيانُ لما أجمل فقال تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾"[3]، وفي البيانِ بعد الإجمالِ تشويقٌ للنّفس، وبيانٌ لأهميّة المَثَل المضروب، ولضرورةِ الوقوف عليه والاتّعاظ به.

نكتةُ فصْلِ قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾:

في البيانِ بعد الإجمالِ، تقريرٌ لمضمونِ المبيَّن، بعد التّشويقِ بإجماله

فَصَلَ البيانُ الإلهيّ جملةَ ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ عمّا قبلها، ولم يأتِ بالعاطف؛ لأنّه استأنفَ البيانَ لِما أجمل في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾[4]؛ أيْ: بينَ الجملتَيْن كمالُ اتّصال، وفي هذا البيانِ للرّجلَيْن بعد الإجمالِ تقريرٌ لمضمونِ المبَّين اهتمامًا به بعد التّشويق بإجماله.

سرّ وصفِه بالبَكَم بلفظ ﴿أَبۡكَمُ﴾:

إظهار الكمال في العجزِ، بحيث إنّه لا يَفْهَمُ ولا يُفْهِمُ

وصَفَ البيانُ القرآنيُّ الرَّجل في المَثَل بالأبْكم، وهو الموصوف بالبَكَم بفتح الباء والكاف، وهو الخَرَس في أصلِ الخِلقة من وقتِ الولادة، ويلزمهُ الصَّمم؛ لأنَّ الكلام وليدُ السَّمع، فصاحبُه لا يَفْهَمُ لعدمِ السَّمع، ولا يُفْهِمُ غيره لعدمِ النّطق، والإشارةُ لا يعتدُّ بها لعدم تفهيمها حقَّ التّفهيم لكلِّ أحدٍ، فكأنَّه قيل: أحدهما أخرسُ أصمُّ لا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 8102.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 219.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 219.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 219.

يَفْهَمُ ولا يُفْهِمُ[1]، وفي هذا دلالةٌ على زيادةِ عجزه، بخلافِ ما لو عبّر بالأخرس؛ إذْ كلُّ أبكم أخرسُ، وليس كلُّ أخرس أبكمَ.

كما ذكر المُفسّرون أقوالًا أخرى في معنى الأبكم تؤكّد المبالغةَ في عجْزه، منها: أنَّه الّذي لا يعقل، أو الأبكم المُطْبَقُ الّذي لا يسْمعُ ولا يبصرُ[2].

الغرض من التّشبيه البليغ في ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾:

تصويرُ صورة الأبكمِ، بأنّه الّذي لا يُنتفعُ منه بشيء

الإخبارُ عن أحَد الرَّجلَيْن في المَثَل في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ جاءَ على طريقةِ التّشبيهِ البليغ؛ إذ شُبّهَ في انعدام آثارِ الفهم والإفهام منه وتعذّرِ طمع رجوعه إلى رشدٍ أو صوابٍ بالأبكم الّذي انعدمَ منه النُّطق منذُ الولادة بحيثُ لا يَفْهَمُ ولا يُفْهِمُ، أو هي استعارةٌ تمثيليةٌ، مثَّلَ فيها الوثنَ بالأبكم الّذي لا يُنْتفعُ منه بشيءٍ أصلًا مع القادر السّميع البصير، فشتّان ما بين الرَّبِّ والصَّنم[3].

سِرُّ وصفه بأنّه لا يقدر على شيء:

العجزُ التّامُّ للأصنامِ، دليلٌ على بُطلانِ استحقاقِها للعبادة

زاد البيانُ القرآنيّ في وصفِ الأبكم بأنّه لا يقدرُ على شيءٍ في قوله تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ ومقصودُ ذلك الإخبارُ عن صفتهِ الحاليّة؛ أيْ: إنّ حالَ هذا الأبكم ليستْ كحالِ أيِّ أبكم؛ بل هو أبكمُ عاجزٌ لا يقدرُ على تحقيقِ شيءٍ، أيّ شيء، ورغم ذلك لم يُعبّر البيانُ القرآنيّ بقوله: (ما يقدر على شيء) الّتي تُخلِّصُ الفعلَ للحال، وإنّما عبّر بـ﴿لَا﴾ فقال: ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، و﴿لَا﴾ عند الأكثر إنّما يخلّصهُ للاستقبال؛ تنبيهًا على أنَّ عجزه لازمٌ ليس ينفكُّ؛ إذ لو بقي بما بقي للحال لتوهّم أنّه يقدرُ على ذلك

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 433.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 248.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 328.

في المستقبل[1]، وفي هذا مبالغةٌ في بيانِ عجْزه عن تحقيقِ أيِّ شيءٍ نافعٍ، فهو في عجزٍ تامٍّ ونقصانٍ كاملٍ[2].

سرّ العدول من الاسميّة إلى الفعليّة في السّياق:

بيان أنّه بَكَمٌ ثابتٌ ترتَّب عليه انعدامُ قدرةٍ على أيّ شيء

أتى البيانُ القرآنيّ بالجملة الفعليّة بعد الاسميّة في قوله تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ولم يَقُلْ: (أحدهما أبكمُ غيرُ قادرٍ على شيء)؛ لثلاثة أمور:

الأوّل: الدّلالة على كمالِ عجزه؛ إذ جمَعَ بين ثباتِ عجْزه بالبَكَم من ناحيةِ كونه لا يَفْهم ولا يُفهِّم وبين تجدّدِ واستمرارِ العجز عنده من ناحيةِ عدمِ القدرةِ على فعلِ أيِّ شيءٍ.

الثّاني: التّفنّن في أسلوبِ الكلام؛ بأنْ جمعَ بين الجملةِ الاسميّة والجملة الفعليّة.

الثّالث: الإشارة إلى سببيّة البَكَم في تجدّد عدمِ قدرته على النَّفع.

دلالة التّعبيرِ بالمضارع في ﴿لَا يَقۡدِرُ﴾:

عجزُ الرّجلِ الأبكم الضّعيف، عجزٌ مُتجدّدٌ لا واقعةٌ مضَتْ

عبّر البيانُ القرآني بصيغةِ المضارع ﴿يَقۡدِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ للدّلالة على أنَّ عجزَ الأبكم ليس واقعةً قد مضتْ؛ بلْ إنّ عجزَه مُتجدّدٌ، وذلك لدلالةِ الفعل المضارع على التّجدّد الحدوثيّ.

غرضُ حذفِ فاعل ﴿لَا يَقۡدِرُ﴾:

في الحذفِ إيجازٌ وإشارةٌ إلى عدم استحقاقِ الذّكر

حَذَفَ البيانُ الإلهيُّ فاعلَ الفعل: ﴿يَقۡدِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ لأمرَيْن:

الأوّل: اختصارًا؛ لأنَّه سَبَقَ ذِكرُه في الكلام، وهو لفظ (الأبكم)، فكان الإيجازُ فيه أبلغَ.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 38.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 248.

الثّاني: إشارةً إلى عدمِ أهميّة هذا الأبكم، وأنّه لا يستحقّ أنْ يُذكر.

الغرض من تنْكيرِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

إقامةُ الحجّة على عابدي ما لا يُرتجى منه شَيْءٌ

في تنكير لفظة ﴿شَيۡءٖ﴾ معنيان:

الأوّل: العموم؛ لكون لفظةِ ﴿شَيۡءٖ﴾ نكرةً في سياقِ النّفي؛ والمعنى: "أنّ هذا الأبكم لا يقدر على تحقيق شيءٍ نافعٍ ممّا يُرتَجى: من الأشياءِ المُتعلّقةِ بنفسه، أو بغيره بحدْسٍ أو فراسةٍ لقِلّةِ فهمِه وسوءِ إدراكِه"[1].

الثّاني: التّقليلُ والتّحقيرُ، والمعنى: لا يقدرُ على أيّ شَيۡءٍ مهما كان قليلًا، وانتفاءُ الشّيْءِ القليلِ يقتضي انتفاءَ الشّيْءِ الكثير بطريقِ الأولى.

معنى الواو في ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾:

من كمالِ العجز انتفاءُ القُدرة علـى إقامـةِ مصالحِ النَّفسِ والغَيْرِ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه جملة ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، والمعنى المشترك بينهما أنّ كليهما بيانٌ لعجزِ هذا الرَّجل الأبكم، وأمّا الاختلاف بينهما فيتمثّل في أنّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ جاء بيانًا لعدمِ قدرتِه على إقامةِ مصالحِ نفسه بعد ذِكرِ عدم قدرتِه على شيءٍ مُطلقًا[2].

نكتة العدول من الفعليّة إلى الاسميّة:

انعدامُ قدرة الصّنم على النَّفع، يترتّبُ عليه ثباتُ ذلك في حقّ نفسه

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ من الجملة الفعليّة إلى الاسميّة في قوله تعالى: ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ ولم يَقُلْ: (لا يقدرُ على شيءٍ ويثقل على مَنْ يتولّى أمره)؛ لأمريْن:

الأوّل: الدّلالةُ على كمالِ عجزه؛ إذ جمَعَ بين تجدّدِ واستمرارِ العجز عنده من ناحيةِ عدمِ القدرةِ على فعْلِ أيّ شيءٍ، وبين ثبوت عجزه الكامل من ناحية عدمِ القدرةِ على فعْلِ مصالحِ نفسه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.

الثّاني: التّفنّنُ في أسلوب الكلام؛ بأن جمَعَ بين الجملة الفعليّة والجملة الاسميّة.

الثّالث: الإشارة إلى ترتّب عدم قدرتِه على إقامة مصالحِ نفسه على عدمِ قدرته على شيءٍ مطلقًا.

الغرض من تنكير لفظ ﴿كَلٌّ﴾:

تهويلُ ضعفِ حالِ المثَلِ المضروبِ، يُظهرُ مدى عجزِ أصنامهم

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿كَلٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾؛ تهويلًا لضعفِ حال هذا الّذي هو عالةٌ على كافلِه لا يُدبِّرُ أمرَ نفسه، وذلكَ لإفادة مدى عجز أصنامهم الّتي لا جدوى من عبادتها؛ إذ لا تنْفعُ نفسَها فضلًا عنْ أن تُقدِّمَ لهم نفعًا.

فائدةُ تعدية ﴿كَلٌّ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

استعلاءٌ مجازيٌّ مُكنًّى به عن شدّةِ عجزِ الأبكم

عدَّى البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿كَلٌّ﴾ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، لإفادةِ استعلاءٍ مجازيٍّ مُكنًّى به عن شدّةِ عجزِ هذا الأبكم عن تحقيقِ أيِّ شيءٍ نافعٍ لنفسه؛ لأنّ الإنسانَ لا يحملُ إنسانًا عاجزًا ثقيلًا ويجعله مستَعْليًا على ظهره إلّا إذا بلغ هذا العاجزُ الغايةَ في عجْزه، فهو عالةٌ وثقيلٌ على مَن يتولّى شؤونه مِن أهله وقَرابته لا يُدبّرُ أمرَ نفْسه.

نكتةُ فصْلِ قوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾:

بيانٌ يُقرّرُ حالَ شركائِهم الّذين هُم وبالٌ على عَبَدَتِهم

فَصَلَ البيانُ الإلهيّ جملة ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ عمّا قبلها وهي جملة ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ جاء بيانًا لِما سبقه من كون الرّجل الأبكم كَلًّا على مَنْ يتولّى أموره، وذلك بوصفه بقلّة الجدوى؛ فأينما يوجّهه مولاه في عملٍ ليعمله أو يأتي به لا يأتِ بخير؛ أيْ: لا يهتدي إلى ما وجّهَ إليه،؛ لأنّ الخيرَ هو ما فيه تحصيلُ الغرضِ من الفعل ونفعه[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.

معنى ﴿أَيْنَمَا﴾ في قوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾:

الخيرُ من أصنامهم معدومٌ، وهي شؤمٌ ونذيرُ عذابٍ

﴿أَيْنَمَا﴾ اسمُ شرطٍ جازمٍ في محلّ نصب على الظّرفيّة المكانيّة، وهو متعلّق بفعل الشّرط كماً هي القاعدة وقيل بجوابه[1]، بمعنى: في أيّ موضع، والمعنى: "حيثما يوجّهه لا يأتِ بخير"[2]، وقد فسّر المفسّرون ﴿أَيْنَمَا﴾ بـ (حيثما) تنبيهًا على أنّها للمكان[3]، والإتيانُ بهذه الصّيغة في الشّرط الّتي هي ظرفُ مكانٍ أنسبُ مع فعل ﴿يُوَجِّههُّ﴾ الّذي معناه أنّه يرسله في وجْهٍ مُعيّنٍ من الطريق، يُقال: وجّهتُه إلى موضعِ كذا فتوجَّه إليه[4].

فائدة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

بيان مدى عجْزِ أصنامهم، وعدمِ قدرتِها على إقامةِ مصالحِ مَن يعبدُها

عبَّرَ القرآنُ في ضَرْبِ هذا المثَل في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بالجملة الشّرطيّة الّتي تفيد تعليقَ وقوعِ أمرٍ على أمرٍ آخر، وذلك بيانًا لعدمِ قدرة الرَّجل الأبكمِ على إقامةِ مصالحِ مولاه ولو كانتْ مصلحةً يسيرةً[5]، فهو محرومٌ من وجوهِ الخير بالمرّة[6]، وفيها إشعارٌ بأنَّ ضررًا ما يقعُ بسببِه، وهذا فيه بيانٌ يكشفُ مدى عجْزِ أصنامهم وعدم قدرتِها على إقامةِ مصالحِ مَن يعبدُها، وهذا المثَلُ أقوى من الأوّل فهو من بابِ التَّرقّي[7].

دلالةُ التّعبير بـ﴿يُوَجِّههُّ﴾، مادّةً وصيغةً:

عجزُ أصنامهم بلغَ منتهاهُ، فلا تنفعُهم في الخيرِ الّذي يريدونه

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (وجّه) دون غيره؛ للدّلالة على كمالِ عجز هذا الرَّجل الأبكم، فإنّه رغم أنّ سيّده لا يعطيه المعلومات والتّوجيهات فقط، وإنّما يجعل ما يطلبه منه تِلْقاءَ وجْهِهِ ومقابلًا له من قولهم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 341.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 262.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 340.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 248.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.
(6) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 340.
(7) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 340.

في اللّغة: واجَهْتُ فُلانًا: جَعَلْتُ وجْهِيَ تِلْقاءَ وجْهِهِ، ويُقال: وجّهته إلى موضعِ كذا؛ أيْ: أرسلته في وجهٍ مُعيَّنٍ من الطّريق فتوجّه إليه[1]، وذلك لتحقيق أمرٍ ما، ولكنّه لا يستفيد ممّا يُعلم ويوجّه إليه، ويُبيّن له كيفيّةَ تحقيقه؛ أيْ: إنّه لا يستطيع تحقيقَ المنفعةِ على اختلافها؛ لأنّه عاجزٌ عن الفهم والاستيعاب، غبيٌّ لا يفهم ما يُراد منه، بخلافِ الأبكم الذّكيّ الّذي يفهم ما يُراد منه؛ وجاء هذا التّعبير بصيغةِ المضارع لإفادةِ استمرارِ هذا الوصف لهذا الأبكم الّذي بلغَ الغاية في عجْزه، وهذا هو حال أصنامهم الّتي يعبدونها من دون اللّه، فهي حجارةٌ بكماء صمّاء لا تسمعُ ولا تنفعُ مهما حُدّد لها وجهُ الخير الّذي يريدونه منها.

معنى ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾:

عجْزُ أصنامهم مستمرٌّ في مستقبَلِ حالهم

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ نافيةٌ، وقد استعملها البيانُ القرآنيُّ دون (ما)؛ لأنّ ﴿لَا﴾ تخلّصُ المضارعَ للمستقبل بخلاف (ما) فإنّها تخلّصُ المضارعَ للحال؛ أيْ: أراد الحقُّ سبحانه أنْ يُبيّن استمرارَ حالِ عجْزِ هذا الأبكم؛ أيْ: عجز حال أصنامهم في المستقبَل.

دلالة الباء في شبه الجملة ﴿بِخَيْرٍ﴾:

عدمُ النَّفع ملتصقٌ بأصنامهم، وما يعبدون من دون اللهِ لا ينفكّ عنها

حرفُ الجرّ (الباء)، في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ يحتمل معنييْن:

الأوّل: الإلصاقُ، والمعنى: أنّ عدمَ إتيانه النَّفع مُلتصقٌ به وملابسٌ له ملابسةً لا تنفكُّ عنه، وهذا هو شأنُ الأصنام.

الثّاني: التّعدية[2].

الغرض من تنكير لفظ ﴿بِخَيْرٍ﴾:

نكّر البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿بِخَيْرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾؛ لأمريْن:

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 248.

(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد علَى البيضاويّ: 11/ 340.

أصنام المشركين وبالٌ عليهم لا يَصِلُهم منها شيءٌ

الأوّل: إفادة العموم؛ إذِ النَّكرة في سياقِ النَّفي من صيغِ العموم؛ أيْ: نفيُ أيّ شيء من النَّفع، وهذا يدلّ على المبالغةِ في بيانِ عَجْزه؛ لأنّ من النّاس العاجزين مَن يكون عالةً على أهله، ولكنَّ أهله يوجّهونه إلى تحقيقِ أشياء مُعيّنة تُناسبُ وضعَه، فقد يستخدمون هذا الأبكم في الرّعي أو ما شابه ذلك من الأعمال اليدويّة، ولكنَّ هذا الأبكم الّذي ضَرَبَ مثلَه عاجزٌ أيَّما عجْزٍ؛ لأنَّ مولاه أينما يوجّهه لا يأتِ بخير.

الثّاني: التّقليل والتّحقير[1]، والمعنى: لا يأتي بأيّ نفعٍ مهما كان قليلًا، وانتفاءُ الشّيء القليلِ يقتضي انتفاءَ الشّيء الكثير بطريقِ الأولى، وهذا هو حال أصنامهم الّتي يعبدونها من دون اللّه، فإنّها لا تأتيهم بأيّ نفعٍ مهما كان قليلًا؛ بل إنّها مصدرُ الإضرارِ بهم في الدّنيا والآخرة.

غرضُ حذف فاعل ﴿يُوَجِّههُّ﴾ و﴿يَأۡتِ﴾:

من بلاغةِ الكلامِ أنْ تتكلّم وأنتَ لا تنطقُ

حَذَفَ البيانُ الإلهيُّ فاعل الفعليْن: ﴿يُوَجِّههُّ﴾ و﴿يَأۡتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾؛ اختصارًا؛ لأنَّه سَبَقَ ذِكرهما في الكلام، فكان الإيجازُ فيهما أبلغَ، أمّا فعل ﴿يُوَجِّههُّ﴾ ففاعله يعودُ إلى لفظ ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾، وأمّا فعل ﴿يَأۡتِ﴾ ففاعله يعود إلى لفظ ﴿أَبۡكَمُ﴾.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

استئنافٌ يُبيِنُ بالمثَل حالَ مَن لـه الإحاطـة بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا

لم يذكر البيانُ الإلهيّ العاطفَ بين قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ وما سبقه ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾؛ لأحد أمريْن:

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد علَى البيضاويّ: 11/ 340.

الأوّل: لوقوع قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجملتيْن من شبهِ كمالِ الاتصال؛ وذلك أنّ البيانَ القرآنيّ بعد أنْ ضربَ مثلًا رجليْن، وذَكَر الرَّجل الأوّل، فكأنّ سائلًا قد سأل: هذه صفاتُ الرَّجل الأوّل؛ فماذا عن مقابله؟.

الثّاني: لكون قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ المُتضمّن توبيخهم والإنكار عليهم جاءَ نتيجةً لانكشافِ ضلالهم في تسويتهم الأنداد - الّذين لا قدرة لهم على شيءٍ ما - باللّه الّذي له الإحاطة بكلّ شيء قدرةً وعلمًا[1]؛ أيْ إنّ بين الجملتيْن كمالَ اتصالٍ.

بلاغة الاستفهام ونوعه وغرضه:

التّسويةُ بين اللهِ وبين الأندادِ والشّركاء، تَصْدرُ عن جهلٍ وضلالٍ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ معناه التّوبيخ[2]، والتَّعْبيرُ بـ ﴿هَلۡ﴾ أبلغُ من التّعبير بالهمزة[3]، وغرضُهُ عدمُ التّسوية، وذلك بالإنكارِ على المشركين الّذين يسوّون بين الخالق الحقّ الّذي يأمرُ بالعدل والحقّ، وبين الأصنام البُكم الّتي لا تنطقُ بحرف، ولا تقْدِرُ على تحقيقِ أمرٍ لأحد، وإنّما هي عالةٌ على مَن يصنعُها، ومَن ينصبُها، فهي بلا سدنتها لا شيْء، وإذا طلبَ منها أمرٌ لا تأتِ بخير؛ بل الضّرر في توجيهها إلى أمرٍ ما؛ لأنّه طلبٌ من الأصنام، وهذا الشِّرك بعينه.

إذنْ: فالمساواةُ منتفيةٌ من كلّ الوجوه بين الأصنام الّتي يعبدونها من دون اللّه وبين اللّه سبحانه فلا تستوي العبوديةُ مع الحريّة، والعَجْزُ مع القُدرة، والغِنى مع الفقرِ.

نكتةُ العدولِ عن (هل يستوون) إلى ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

تنويعٌ في العبارة، وتفنُّنٌ في الخطاب، ليتدبر أولوا الألباب

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 220.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 391.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 342.

﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ عن قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ الوارد في الآية السّابقة؛ تلوينًا في الخطاب، وتنويعًا في الكلام بالمخالفة بين أسلوب هذا التّمثيل وأسلوب سابقه، وبُعْدًا عن التّكرار؛ لأنَّ تكرير الأسلوبِ بمنزلةِ تكريرِ الألفاظ.

نكتةُ التّعبير بـ﴿يَسۡتَوِي﴾ مادّة وصيغة:

المساواةُ منتفيةٌ من كلّ الوجوه، وفي كلّ الأوقات بين المثَلَيْن

عبّر البيانُ القرآنيُّ بمفردة ﴿يَسۡتَوِي﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ دون غيرها من الألفاظ، فلم يَقُلْ مثلًا: (هل يتعادلُ هو ومَن يأمر بالعدل) أو (هل يتكافأ)، وذلك لأنّ لفظ (المساواة) هنا أنسب للسّياق، وذلك لأنّ المساواةَ في أصلِ مادّتها يدلّ على اسْتِقامَة واعْتِدالٍ بين شَيْئَيْن[1]، ومن معانيه: التّكافؤ في المِقْدار لا يَزِيدُ ولا ينقُص، المُماثلةُ والمُعادَلةُ قدْرًا وقيمَة[2]، فالسّياق هنا في ضرب المَثَل بين رجلَيْن والمقارنة بينهما، والسّؤال عن تمام التّماثل والتّكافؤ بينهما من كلّ جانب، فناسبَ التّعبير بلفظ (المساواة) لأنّ العقل يجيبُ بداهةً بنفي المساواة بينهما من كلّ وجه.

كما أنّ التّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾ حيث جاء الفعل بعد الاستفهام الإنكاريّ الّذي غرضُهُ عدمُ التّسوية، ليدلّ على استمرارِ هذا النّفي، فيكون المعنى: إنّ المساواةَ منتفيةٌ من كلّ الوجوه، وفي كلّ الأوقات بين الأصنام الّتي يعبدونها من دون اللّه وبين اللّه سبحانه.

فائدة ذِكْر الضّمير ﴿هُوَ﴾ في سياق الآية:

سوءُ حالِ أصنامِهم، استدعى التّوكيدَ اللّفظيَّ لهذا العَجْز

ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ الضّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ ولم يأتِ بدونه، فلم يَقُلْ: (هل يستوي ومَن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوو).

يأمر بالعدل)؛ تأكيدًا على سوء حالِ الأبكم، وعلى بُعْدِ الفَرْقِ بين المِنْطِيق الحكيمِ الصّالحِ، وبين الأبكمِ العاجزِ الغبيّ، كأنَّ الآية تقول: (هل يستوي هذا الأبكم المنصوص على عَجْزه وغبائه ومَن يأمر بالعدل)، فإنَّ الضّمير ﴿هُوَ﴾ تأكيدٌ لفظيٌّ للضّمير المستتر الّذي هو فاعل ﴿يَسْتَوِى﴾ والّذي يعودُ على الأبكم الّذي سبقَ ذِكْرُه[1].

معنى الواو في: ﴿وَمَن﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو المُضْمَر في ﴿يَسْتَوِى﴾ الّذي يعود على الأبكم، وحَسُنَ العطفُ على المُضمرِ المرفوعِ لمّا وكّده ﴿هُوَ﴾؛ لأنّ التّوكيد يعيّنهُ، فكأنّه بارزٌ من الفعل[2]، والمعنى المشترك بين المعطوف والمعطوف عليه أنّهما الرَّجلان اللّذان ذُكرا في أوّل الآية: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ تمثيلًا بهما، ويتغايران بأنَّ الأبكمَ إمّا تمثيلٌ عن الأصنام الّتي لا تسمعُ ولا تُبصرُ ولا تُغني عن عابديها شيئًا، وإمّا عن الكافر الغبيّ الأبله الّذي آثر الغيَّ على الرّشْدِ، وأنَّ الآمرَ بالعدلِ إمّا تمثيلٌ عن اللّهِ سبحانه الخالقِ لكلّ شيء، وإمّا عن المؤمنِ الجامعِ لكلّ مكرمةٍ.

> لا مجال للمُقايسة بين الأصنامِ العاجزة، وبين اللهِ العالمِ القديرِ

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه:

عبَّر البيانُ القرآنيّ بالاسم الموصول مع صلته ﴿وَمَن يَأْمُرُ﴾ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ دون الاسم الظّاهر، فلم يَقُلْ: (هل يستوي والآمر بالعدل)؛ لأمرَيْن:

> الأمرُ بالعدل أساسُ كلِّ فضلٍ، وأدنى شيءٍ منْه يشملُهُ هذا المثَل

الأوّل: لقصدِ الإبهام الّذي من أسراره التّنبيه على التّعميم؛ لأنّ (مَن) من ألفاظ العموم؛ أيْ: إنّها تشمل كلَّ مَن يأمر بالعدل، ولو بأدنى أمرٍ، وليس بالضّرورة أنْ يكون راسخًا في الأمر بالعدل - الّذي يُفيده التّعبير بـ (الآمر بالعدل) - حتّى يستحقّ هذه المقابلة؛

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 322.

(2) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/ 256.

أيْ: فمَن كان يأمرُ بالعدل بأدنى ما ينطبق عليه ذلك لا يستوي مع الأبكمِ الّذي لا يأتي منه خير، فمن باب أوْلى الرّاسخ في الأمر بالعدل، وهذا أبلغُ في إثباتِ التّوحيد.

الثّاني: للإيماءِ من خلال الاسم الموصول وصلته وما عُطف عليها إلى وجهِ استحقاق الفاضل لهذا الفضل، وهو الأمر بالعدل، والالتزامُ بالصّراط المستقيم، وأنّ التَّفضيلَ إنَّما يكونُ بالكَلام المتضَمِّنِ للعَدلِ، وهو الحقُّ والصّواب الموافق للواقع، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ أعلى أعمالِ اللّسان على الإطلاق هو النّطقُ بالحقّ، ويندرجُ تحت النّطقِ بالحقّ: الدعوةُ إلى التّوحيد والذِّكرُ والخيرُ والعدلُ والنّصيحة، وغير ذلك من صور الحقّ، ويكون التّفضيل كذلك بالعَمَلِ المُستقيم، وإلّا فإنَّ مجرَّدَ الكلامِ والعَمَلِ قد يكونُ مَحمودًا، وقد يكونُ مَذمومًا؛ فالمحمودُ هو الّذي يَستَحِقُّ صاحِبُه الحمدَ، فلا يستوي هذا والعاجزَ عن الكَلامِ والفِعلِ[1].

دلالة التّعبير بالمضارع في صلة الموصول ﴿يَأۡمُرُ﴾:

من صورِ الكمالِ في العدلِ، أنْ يكون مُتجدّدًا لا واقعةً منعزلةً

مجيءُ صلة الموصول فعلًا مضارعًا ﴿يَأۡمُرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ دالٌّ على تجدّدِ أمرِ الحقّ والصَّواب، ولذا عبَّر البيضاويّ بقوله: "فَهِمٌ مِنْطِيق"[2] مبالغةً في النّطق[3]، وزيادةً على نُطقهِ حكيمٌ ينطقُ بالحكمة، وأيضًا يمارسُ هذا الخير، وليس أمره بالعدل واقعةً قد مضتْ، كما أنَّ التّعبير بصيغة المضارع في ﴿يَأۡمُرُ﴾ هي أنسبُ لسياقِ المقابلة بين صورتي المَثَل؛ إذ إنّه عبّر عن عَجْزِ الأبكم بصيغة المضارع في ﴿يَقۡدِرُ﴾ و﴿يَأۡتِ﴾؛ فالعجزُ المُتجدّد يقابله العدلُ المتجدّد.

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 6/ 80.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235.
(3) الخفاجيّ، كفاية الرّاضي: 5/ 355.

وهو دالٌّ كذلك على تصوير مَن كان هذا أمره بالعدل في مخيّلة السّامع؛ بما يحمله كمالُ المقارنة الّتي تصلُ به إلى الإقرارِ بالتّوحيد للّه وعدمِ الإشراك به.

معنى حرف الجرّ الباء، ودلالته في ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾:

التَّلبُّسُ بالحقِّ والاستعانةُ به هدايةً وتطبيقًا، دليلٌ على غايةِ الكمالِ

الباء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ تحتمل معنيَيْن هما من أشهر معانيها: الإلصاقُ والاستعانة، والمعنى: أنّه يأمرُ وهو ملتصقٌ بالعدل لا ينفكّ عنه، فهو ذو رأيٍ وكفايةٍ ورشدٍ، قد تنزّه عن الجَوْرِ والظّلم والسّفه والباطل، وهو مستعينٌ بالعدل في أمره؛ "لا يأمرُ بذلك إلّا وقد علِمَه وتبصّر فيه"[1]، وفي هذا دلالةٌ على اتّصاف اللّه بغايةِ الكمال والحمد؛ فإنَّ أمرَه بالعدل، وهو عالمٌ به معلّمٌ له، راضٍ به آمرٌ لعباده به، محبٌّ لأهله لا يأمرُ بسواه، وتنزّه عن ضدِّه، فأمره وشرعه عدْلٌ كلُّه، وأهلُ العدل هم أولياؤه وأحبّاؤه وهم المجاورون له عند يمينه على منابر من نور، وأمرُه بالعدلِ يتناول الأمرَ الشّرعيّ الدِّينيّ والأمرَ القدريّ الكونيّ، وكلاهما عدْلٌ لا جَورَ فيه بوجه، فلا يأمرُ إلّا بحقٍّ وعدلٍ، وقضاؤه وقدرهُ القائم به حقٌّ وعدْلٌ[2].

معنى (ال) في لفظ ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ في السّياق:

عَدْلُ المؤمن عامٌّ يشمل كلَّ أحدٍ، فهو منبثقٌ من عدلِ الله المُطلق

لام التّعريف في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ جنسيّةٌ؛ تُفيدُ العمومَ؛ أيْ: هو عدلٌ بالنّسبة إلى كلّ أحد، فهو يشملُ الدّعوة إلى التّوحيد والذّكر والخير والعدل والنّصيحة، وغير ذلك من صور الحقّ، وكونها جنسيّة هو الأنسبُ للسّياق الّذي يذكرُ هذا العدل تمثيلًا على عدلِ اللّه المُطلق.

معنى الواو في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تحتمل معنييَن:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 393.

من علامات الكمالِ الجمعُ بين نفع الغيرِ، وصلاح الذّات

الأوّل: عاطفةٌ[1]، والمعطوفُ عليه جملة ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، والمعنى المشترك بينهما أنّ كليهما وصفٌ للنّاصح الصّالح الآمر بالعدل، ولكن في المعطوف عليه زيادةُ بيانٍ بأنّه مع كونه يأمر الآخرين بالعدل هو في نفسه صالحٌ وناصحٌ وعادلٌ، يسير على صراطٍ مستقيم في تحقيق الخير، لا كالأبكم يسيرُ على طريق مُعوَجٍّ؛ لأنَّه لا يفهمُ شيئًا، ولا يملكُ حكمةً؛ أيْ: يأمرُ بعدلٍ وخيرٍ يتّصفُ به، وبهذا يكتمل المَثَل في حقّه تعالى فهو مثلٌ "لِكَمالِهِ تعالى في ذاتِهِ وإفاضَتِهِ الخَيْرَ على عباده"[2]، أو مَثَلٌ للمؤمن الجامع لكلّ مكرمةٍ[3].

الثّاني: حاليّة، وجُملَةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، حاليَّةٌ مَبنيَّةٌ لِكَمالِهِ في نَفسِه، والمعنى: وهوَ في نَفسِهِ مَعَ ما ذَكَرَ من نَفعِهِ الخاصِّ والعامِّ عَلى صِراطٍ مُستَقيم لا يَتَوَجَّهُ إلى مَطْلَبٍ إلّا ويَبلغُهُ بأقْرَبِ سَعْي[4]، يَأمُرُ النّاس بِالعَدْلِ، وهوَ في نفسه عَلى صِراطٍ مُستَقيم على سيرةٍ صالحةٍ ودينٍ قويم غير منحرفٍ إلى طرفي الإفراط والتّفريط[5]، كما أنّه لا يأمرُ بالعدلِ رياءً وسمعةً، أو طلبًا للمدحِ مع إصراره على المعاصي[6].

ثباتُ استقامةِ النَّفس ضروريٌّ، وتكميلُها مُقدَّمٌ على تكميلِ الغَير

الغرض من التّعبير بالجملة الاسميّة:

أكّد البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، استقامةَ هذا الآمر بالعدل في نفسه، وأنّها استقامةٌ ثابتةٌ لا تزول، من خلالِ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّة الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/ 359.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 202.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 4/ 290.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 38.

الحُكْمِ وبَقائِهِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ تكميلَ النَّفس مُقدّمٌ على تكميل الغير[1].

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ الّذي يفيد الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ تنويهًا بعلوّ ورفعةِ مقامِ هذا العادل الآمر بالعدلِ، وتأكيدًا لاستقامته؛ بل وتمكّنه من صراطِ الاستقامة، بأنّ "جعلهُ كراكبِ صراطِ الاستقامةِ الجالس عليه"[2]، فقد "استعلى على الصّراطِ المستقيم، والدِّين القويم استعلاءَ الرّاكبِ على المركوبِ، وهو استعارَة تمثيليّة أو تبعيّة"[3]؛ لأنّه شبّه هيئةَ المُتمكّن من الاستقامة على طريقِ الحقِّ، والدِّين القويم، بهيئةِ المُستعلي على المركوب.

مـقـامُ الآمـر بـالـعـدلِ مقامٌ عـظـيـمٌ، مستقيم على الحقِّ، والدِّين القويم

بلاغة الاستعارة في التّعبير بالصّراط:

الصّراط المستقيم هو المحجّة الّتي لا التواء فيها، وأُطلق هنا على العملِ الصّالحِ؛ أيْ: استُعير للتّعبير به على ذلك؛ لأنّ العملَ يُشَبَّهُ بالسّيرة والسّلوك، فإذا كان صالحًا كان كالسُّلوك، في طَريقٍ موصِلَةٍ لِلْمَقْصودِ واضِحَةٍ[4]، والاستعارة تصريحيّة حيث شبّه العمل الصّالح وطريق الحقّ بالصّراط، فطوى ذِكْر المُشبّه، وصرّح بذِكْر المُشبّه به؛ ليجيء المعنى في صورةٍ واضحةٍ قريبةٍ من الأذهان.

في الاستعارة مبالغةٌ في إبراز صلاحِ طريقِ الحقّ، وتحقيقه للمقصود

الغرض من تنكير ﴿صِرَٰطٖ﴾:

نكّر البيانُ الإلهيّ لفظ ﴿صِرَٰطٖ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ لإفادة معنى التّفخيم والتّشريف، فعظمته لا يُحدّ حدّها، ولا يقدر قَدْرها، وخاصّة أنّها في سياق المدح في هذا المَثَل

صراط الله صراطٌ شريفٌ مفخمٌ، لا يحدّ حدّه، ولا يقدر قدره

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4228.

(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد عَلَى البيضاويّ: 11/ 341.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 228.

لهذا الحكيم العالم بالحقائق النّاصح للنّاس يأمرهم بالعدل على علمٍ وبصيرة.

سرّ وصف الصّراط بوصف ﴿مُّسۡتَقِيمٍ﴾:

صِراط الله استقامتُه مؤكّدةٌ، وسالكُه مهتدٍ

وَصَفَ البيانُ الإلهيُّ الصِّراط بأنّه مستقيمٌ مع أنّه لا يكون إلّا كذلك؛ لعدّة أمور:

الأوّل: التّأكيدُ اللّفظيُّ لمعنى الاستقامة في النَّفس والخلق والعمل[1].

الثّاني: الدّلالةُ على أنّ من كمالِ هذا العادل النّاصح الآمر بالعدل، أنّه لا يَتَوَجَّهُ إلى مَطْلَبٍ إلّا ويبلغه بأقرب سعيٍ[2]؛ أيْ: أسهله، لكونه عَلَى صراطٍ قويم، "يذهب إلى الهدف مباشرة، ومن أقصر الطّرق"[3]؛ لأنّ الصّراطَ المستقيمَ هو المحجّة الّتي لا التواء فيها، ولأنَّ سالك الطّريق المستقيم، أقرب إلى المطلوب، من سالكِ الطّريق غير المستقيم الواصل، محسوسًا كان أو معقولًا[4].

الثّالث: الدّلالة على أنّه على "طريقٍ مستقيم، لا تزلّ قدمه - أي العادل - ولا تتعثّر خطاه، ولا يضلّ به الطّريق"[5]، فهو "مستقيمُ النَّفس ذو طريقٍ حسنٍ، وهذه أعلى صفات الإنسان، فهو مخلصٌ وإخلاصهُ يوجّهه إلى السّبيل المستقيم، والإدراك المستقيم، والكلام المستقيم، والعمل المستقيم والسّلوك العامّ المستقيم"[6].

الغرض من تقديمِ ذِكْرِ مَثَلِ الأبكم على النّاطق:

في التّقديمِ إمعانٌ في انتقاصِ الأصنامِ وبيانِ عَجْزِها

قدّم البيانُ القرآنيُّ مَثَلَ الأبْكم على النّاطق؛ إمعانًا في انتقاص الأصنام، ومراعاةً لسياق الآية المُنصبِّ على إنكارِ رفعِ الأصنام عن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4228.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8101.
(4) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 341.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 333.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4227.

الحضيض الّذي هي فيه، وعلى بيان عَجْزها، وليس مُنصبًّا على بيانِ عظمةِ اللّه؛ أيّ: إنَّ المعنى الرّئيس في الآية هو إنكار تعظيم الأصنام، ومساواتها باللّه سبحانه وهي لا شيء، وليس المعنى الرّئيس تفصيلَ جوانب عظمة اللّه ﷻ.

نكتةُ التّرتيب بين الصّفات المذكورة، لكلا الطّرفيْن في الآية:

وضوح ضَعْف الأصنام في جميع أوضاعِها، وعظمة القادر تتجلى في جميع أوصافه وأفعاله

الرّجل الأول: ﴿أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾، والرجل الثاني: ﴿مَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾.

إنّ مَن لا يستطيع النُّطق أو الكلام، وهو ضعيفُ الفهم والتّفهيم لغيره لنْ يَقْدِرَ عَلى فعل شَيْءٍ من الأشياء المتعلّقة بنفسه أو بغيره، ومَن كان هذا شأنه فسيكون ثقيلًا على وليّه وقرابته، ووبالًا على صاحبه؛ لأنّ هذ الرَّجل حيثما يوجّهه مولاه وكافله لقضاء أمرٍ من الأمور يعودُ خائبًا، لعَجْزه، وضعفِ حيلته، وقلةِ إدراكه، فأنت ترى أنّ اللّه تعالى قد وصَفَ هذا الرَّجل بأربعِ صفات، تدلّ على سوءِ فهمه، وقلّة حيلته، وثقله على وليِّ أمره، وانسدادِ طرق الخير في وجههِ وكلّ واحدة ترتّب عليها ما بعدها.

وبالمقابل فإنّ صفةَ الأمرِ بالعدل في المثال المقابل "تقتضي أنّه سمع منهجًا، ووعتْهُ أُذُنُه، وانطلقَ به لسانُه آمرًا بالعدل"[1]، فهو ذو رأيٍ وكفايةٍ ورشدٍ ينفعُ النّاس بحَثّهم على العدلِ الجامعِ لمجامعِ الفضائل، وتقتضي منه أنْ يكون في نفسه مع ما ذكر من نفعه العامِّ للخاصّ والعامّ يسير على طريقٍ مستقيم لا اعوجاج فيه[2]، ويسيرُ على منهجِ الحقّ والعدل، ويحكمُ بالعدل، فمقالُه حقٌّ، وأفعاله وسيرته مستقيمةٌ، وطريقهُ مستقيمٌ ودينه قويمٌ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8101.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 130.

تقابلٌ بين الحقّ في وضوحه وجماله، وبين الباطلِ في ظلامه وقُبحه

بلاغة التّقابل بين صفات كلٍّ من الطّرفيْن:

تظهرُ بلاغةُ مقابلة القرآن الكريم بين صفات كلٍّ من الطّرفيْن من خلال أمريْن:

الأوّل: أنّ وصفَ أحدهما بأنّه يأمرُ بالعدل يتضمّن وصفه بكونه قادرًا عالمًا، وهذا يُناقضُ كون الأوّل أبكمَ ولا يقدر على شيء، وكَلًّا على مولاه، ولا يأتِ بخير[1]، وسبب حذفِ ما يُقابل الصّفات من النّطق والقدرة والكفاية، للدلالة عليه بقوله: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ﴾؛ أيْ: والآخر ناطق قادر خفيف على مولاه أيّنما يوجّهه يأتِ بخير[2]، وذكْرُ استوائهما أيضًا دليلٌ على هذا الحذفِ للمقابل[3].

الثّاني: أنّ مُحصّل الأوصاف الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ هو عدمُ استحقاقِ المأموريّة، وملخّصُ هذيْن الوصفيْن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استحقاقُ كمالِ الآمريّة المُستتبِع لحيازة المحاسنِ بأجمعها؛ أيْ إنّهما كمال ما يقابلهما ونهايته، فاختير آخر صفاتِ الكامل المستدعية لِما ذُكرَ وأزْيد حيث جُعل هاديًا مهديًّا، وبذلك تكون الآية قد بيّنت أسوأ حالةٍ للأبكم، وبيّنتْ في المقابل أحسنَ حالة للنّاطق، وأحسنُ حالةٍ للنّاطق هي أنْ يأمر بالعدل، وهو النّطق بالحقّ، وتغييرُ الأسلوب حيث لم يقلْ: (والآخر آمرٌ بالعدل) لمراعاةِ الملاءمة بينه وبين ما هو المقصودُ من بيان التّبايُن بين القرينتيْن[4].

والمعنى: حيثُ لم يستوِ الفريقان في الفضلِ والشّرف مع استوائهما في الماهيّة والصّورة، فلأنْ يُحكم بأنّ الصّنم - الّذي لا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 249.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 341.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 571.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.

ينطقُ ولا يسمعُ، وهو عاجزٌ لا يقدرُ على شيء كَلٌّ على عابده يحتاجُ إلى أنْ يحمله ويضعه ويمسح عنه الأذى إذا وقعَ عليه، ولا ينفعه - لا يساوي ربّ العالمين سبحانه في استحقاق المعبوديّة أحرى وأوْلى(1).

نكتةُ تقديم مَثَلِ (العبد والحُرّ) على (الأبكم والنّاطق):

التّمثيلُ بما يُعايشه أهل مكّة أكثرُ إقناعًا لهم

قدّم القرآنُ مَثَلَ (العبد والحرّ) في قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ على مَثَلَ (الأبكم والنّاطق) في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾؛ مراعاةً لبيئةِ النّزول والابتداء بالأوضح قبل الواضح، وبالأظهر قبل الظّاهر؛ فإنّ مَثَلَ (العبد والحرّ) منتشرٌ في بيئة مكّة والعرب في ذلك الزّمن أكثر من انتشار حالات البَكَم، فإنّ العبيدَ في مكّة كانوا بالمئات، والأحرارَ فوق ذلك، بينما البُكم قد لا يتعدّون أشخاصًا معدودين، ولذا ضرب القرآن في البداية مثلًا يُعايشه العرب قاطبةً بشكل يوميٍّ مُتكرّر، ثمَّ ضرب المَثَل الآخر الّذي لا يعايشه كلّ العرب كالمَثَل الأوّل؛ لانّ الإقناعَ هو المقصود بالمَثَل، فكلّما عايشَ الإنسانُ المَثَل كان أكثر تأثّرًا به(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العدل والإنصاف والمساواة:

العدلُ استواءٌ واستقامةٌ، والإنصافُ إعطاءٌ وأخذٌ، والمُساواةُ تكافؤٌ

بَيْنَ هذه الألفاظ (العَدْل، الإنصاف، المساواة) تقاربٌ دلاليّ كبير؛ وإذا نظرنا إلى المعنى اللّغويّ والاستعمال لكلٍّ منها نجد فروقًا بينها.

فالعَدْلُ في اللّغة الحُكم بالاستواء(3)، تقول: هو يعدل؛ أيّ: يحكم بالحقّ والعدل، والعَدْلُ من النّاس: المَرْضيُّ قولُه وحُكْمُه، والتَّعادُلُ: التَّساوي، والعَدْلُ: الاستواء والاستقامة، وتعديلُ الشّيْء: تقويمه(4).

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 434.

(2) القدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 153.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).

(4) الخليل، العين، والفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).

والإنْصافُ أصله من نِصْف الشّيْء ونَصِيفهُ: أي شَطْرُهُ، والإنْصافُ في المُعامَلَة: كَأنَّهُ الرِّضا بِالنِّصْفِ[1]، والإنصافُ: أنْ تُعطي من نَفْسِك ما يَسْتَحِقُّ من الحَقِّ كما تأخُذُه، ومُنْتَصَفُ اللَّيل والنَّهارِ: وسَطُه[2]، وأنْصَفَ الرَّجلُ؛ أيْ: عَدَلَ، ورَجُلٌ مُتَناصِف: مُتساوي المَحاسِنِ[3].

والمساواة أصلهُ يدلّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بين شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هَذا لا يُساوِي كَذا، أيْ: لا يُعادِلُهُ[4]، والتّساوي: التّكافؤ في المِقْدار لا يَزِيدُ ولا ينقُص، والمُساواةُ: المُماثلةُ والمُعادَلةُ قدْرًا وقِيمَةً[5].

وقد فرّق العسكريّ بين الإنصاف والعدل، فذَكَر أنّ الإنصاف هو إعطاء النّصف، والعدل يكون في ذلك، وفي غيره ألا ترى أنّ السّارق إذا قطع قيل: إنّه عدل عليه ولا يُقال إنّه أنصف، وأصلُ الإنصاف أنْ تعطيه نصف الشّيء وتأخذ نصفه من غير زيادة ولا نقصان[6]، إذن يتميّز كلٌّ من العدل والإنصاف والمساواة عن الآخر بأنّ: **العدل**: حكم بالحقّ والاستواء وعدم الجَوْر، **والإنصاف**: أنْ تُعطيَ من نَفْسِك ما يَسْتَحِقُّ من الحَقِّ كما تأخُذُه، فالإنصاف فيه مشاركة، **والمُساواة** التّكافؤ في المِقْدار، لا يزِيد أحدهما على الآخر، ولا ينقص عنه، ونقيض الظّلم: الإنصاف، وهو إعطاء الحقّ على التّمام، ونقيضُ الجَوْر: العدل، وهو العدول بالفعل إلى الحقّ[7]، فالعدلُ أعمّ من الإنصاف، والإنصاف أخصّ من العدل.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصف).
(2) الخليل، العين: (نصف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نصف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوو).
(6) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(7) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 172.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن يكون آمرًا بالعدلِ، وعلى صراط مستقيم، لابدّ أنْ يكون كامل العلم والقدرة

في مناسبة الآية لما قبلها وجهان:

الأوّل: أنَّ اللّهَ تعالى لَمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقة مَثَلَ الأصنام بالأبكَم العاجزِ، ومَثَّلَ نَفسه تعالى بالّذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو على صِراطٍ مُستقيم - ومعلومٌ أنَّه يَمتَنِعُ أنْ يكونَ آمرًا بالعدلِ، وأنْ يكونَ على صراطٍ مُستقيم إلّا إذا كان كامِلًا في العِلمِ والقُدرةِ - ذكرَ في هذه الآيةِ بَيانَ كَونه كامِلًا في العِلمِ والقُدرةِ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1].

الثاني: لَمّا فرغ ﷻ من ذِكْرِ المَثَلَيْن مدح نفسه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﷻ خاصّة لا لأحدٍ غيره ﴿غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَيۡبُ﴾: أصلُ (غيب) يَدُلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيونِ، ومِنْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ مِمّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّه[3]، وكلُّ مكانٍ لا يُدْرَى ما فيهِ فهوَ غَيْبٌ، وكذلكَ المَوْضِعُ الَّذي لا يُدْرَى ما وراءَه[4]، والغَيْبُ: ضِدُّ الحُضورِ، وضِدُّ المُشاهَدَةِ، فهو كلُّ ما غاب عَنِ العُيون سَواءٌ أكانَ مُحصَّلًا في القُلوب أم غَيْرَ مُحصَّل[5]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما لا يعزبُ عنه مثقال ذرَّة في السّموات ولا في الأرض[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 249، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 220
(2) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 310.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غيب).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (غيب).
(6) الرّاغب، المُفردات، ص: 616.

والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: الغائِبُ عن أعْيُنِ النّاسِ من الأشياءِ الخَفيَّةِ والعَوالم الَّتِي لا تَصِلُ إلى مُشاهَدَتِها حَواسُّ المَخلوقاتِ الأرْضِيَّة ولا تحيط بكُنْهِه العقول[1]، أو المُراد بغيب السّماوات والأرض: يوم القيامة[2].

2) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: أصْلُ (سوع): يَدُلُّ على اسْتِمرارِ الشَّيْءِ ومُضِيِّه، مِنْ ذلكَ السّاعَةُ سُمِّيَتْ بذلكَ، يُقالُ: جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ؛ أيْ: بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ[3]، والسّاعَةُ: الوقت الحاضر، وهي في الأصْلِ تُطْلَق بمعْنيَيْن: أحدُهما أنْ تكونَ عِبارَة عَنْ جُزءٍ مِنْ أربعةٍ وعِشْرينَ جُزءًا هِيَ مجموعُ اليَوْمِ واللَّيْلَة، والثّاني أنْ تَكونَ عبارةً عَنْ جُزءٍ قَليلٍ مِنَ النَّهارِ أوِ اللَّيْلِ، يُقالُ: جلستُ عِنْدَكَ ساعَةً مِنَ النَّهارِ؛ أيْ: وقْتًا قليلًا منه، ثُمَّ استُعِير لاسْمِ يَوْمِ القِيامَة[4]، قيل: سُمِّيَت بذلكَ لأنَّها تَفجأُ النّاس في ساعَةٍ، فيَموت الخَلْقُ كلُّهُم عِنْدَ الصَّيْحَة الأولى[5]، أو أُطلقت على القيامة باعتبارها الأمد، أو غاية المهلة الّتي أُمهلها النّاس على الأرض[6]، والمُراد بـ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في الآية: عِلْمٌ بالغَلَبَةِ على وقت فناء هذا العالَم، وهي مِن جُملَة غَيْبِ الأرْضِ[7].

3) ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾: أصلُ (لمح): يَدُلُّ عَلَى لَمعِ شَيءٍ، يُقالُ: لَمَحَ البَرْقُ والنَّجْمُ لَمْحًا، إذا لَمَعا، واللَّمحةُ: النَّظْرَة[8]، ولَمَحَ إليه يَلْمَحُ لَمْحًا وألْمَحَ: اخْتَلَسَ النَّظَرَ، وكذا إذا أبصره بِنَظَرٍ خَفيفٍ، واللَّمحُ: النَّظر بالعَجَلَةِ، وقِيلَ: لا يكونُ اللَّمحُ إلّا مِنْ بَعيدٍ، واللَّمّاح: الصُّقور الذَّكيّة[9]، ومَلامِحُ الإنسان: ما بَدا من محاسِن وجهه ومساوئه، وقيل: هو ما يُلْمَحُ منهُ: واحدتها لَمحةٌ، على غير قِياس، ولم يَقولوا: مَلْمَحَةٌ[10].

والمقصود بلَمحِ البَصَرِ في الآية: تَوَجُّهُهُ إلى المَرْئِيِّ؛ لأنَّ اللَّمحَ هو النَّظَرُ، والمُراد:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 229، وسيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 204.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 623.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (سوع).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمح).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (لمح).
(10) ابن سِيدَه، المُحكَم: (لمح).

تَحَقُّقُ الوُقوعِ بِدونِ كُلْفَةٍ؛ لِأَنَّ لَمحَ البَصَرِ هوَ أمكَنُ وأسرَعُ حَرَكاتِ الجَوارِحِ، ويجوز أن يكون الُمراد منه تَحَقُّقَ الوُقوعِ بِدونِ مَشَقَّةٍ ولا إنظارٍ عند إرادَةِ اللّه تعالى وُقوعه(1).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

للّه وحْدَه مُلْكُ ما غاب عن عِبادِه في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ مِن الغُيوبِ سبحانه دونَ الآلهةِ التّي تُعبَدُ مِن دونِه، ودونَ كُلِّ مَن سواه، لا يَملِكُ ذلك أحَدٌ غيرُه، ولا اطِّلاعَ لأحدٍ على شَيءٍ مِن الغَيبِ إلّا أن يُطلِعَه اللّهُ عليه، وما أمرُ قيامِ السّاعةِ في سُرعةِ وُجودِها، وبَعثِ الخَلقِ وسُهولتِه إلّا كنَظرةٍ سَريعةٍ مِن البَصَرِ أو هي أسرَعُ مِن ذلك، إنَّ اللّهَ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، ولا يُعجِزُه شَيءٌ، ومن ذلك قدرتُه على إقامةِ السّاعةِ، والمجيءِ بها في أسرعِ ما يكونُ؛ فهو سبحانَه يقولُ للشَّيءِ: كُنْ فيَكونُ(2).

كمالُ قدرة العليّ العظيم يتجلّى في علمه غيبَ السّموات والأرض، وقدرته على كلّ شيء

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تحتمل وجهين:

الأوّل: أنّها استئنافيّة(3)، والمعنى أنّه لّما فرغ من ذِكر المَثَلَين استأنف بمدح نفسه بأنّ علم غيب السماوات والأرض مختصٌّ به سبحانه دون غيره(4).

الثّاني: أنّها عاطفة(5)، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ

حرف المعنى ذو أثر في الدّلالة، ضمن سياق الآية الكريمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 314، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 218، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 658.
(3) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 322، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 346، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 361، وبهجت صالح، الإعراب المُفصّل: 6/ 185.
(4) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 310.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 220.

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، والمعنى المشترك بين الجملتيْن أنّهما تتحدّثان عن علم اللّه، إلّا أنّه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، نصّ على تمام العلم وشمول القدرة واختصاصه بعلمِ غيب السّموات والأرض دون غيره.

دلالة اللّام في شبه الجملة ﴿وَلِلَّهِ﴾:

اللّـهُ وحده مالكُ السّموات والأرض، والعالمُ بغيبهما

اللّامُ في ﴿وَلِلَّهِ﴾ لامُ المِلك، وهو مِلكُ إحاطةِ العلم؛ لأنّ الإخبار بأنّها مِلكٌ للّه يقتضي بطريق الكناية أيضًا أنّه عالم بها، ولامُ المِلك أفادتِ الحصر، والمعنى: الإخبارُ بأنَّ الأشياءَ الخَفيَّةَ والعوالمَ الَّتي لا تَصِلُ إلى مُشاهَدتِها حواسُّ المخلوقاتِ الأرضيَّةِ مِلكٌ للّهِ وحده؛ ووحده العالمُ بها، فالعلم بالمغيّبات ليس إلّا للّه، وهو وحده يختصّ بعلم الغيب لا يشاركه فيه غيرُه ولا يعلمه غيره، وهو ما غاب فيهما عن العباد، بأنْ لم يكنْ محسوسًا ولم يدلّ عليه محسوس[1].

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿وَلِلَّهِ﴾:

في التّقديم تأكيدٌ بأنّ غيبَ السّموات والأرض، منحصرٌ باللّه وحده

قدّم البيانُ القرآنيّ الجارّ والمجرور ﴿وَلِلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للاهتمام، ولإفادة تأكيد الحَصْر والتّخصيص؛ أيْ: للّه وحده لا لأحدٍ غيره سبحانه غيبُ السماوات والأرض؛ لأنّ الحصر مُستفاد من لام المِلْك[2]، والمَعْنَى: غيب السَّماوات والأرْض مقصور على الاتّصاف بكونه للّه تعالى لا يتخطّى إلَى غيره، فهو من قصر الْمَوْصوف عَلَى الصّفَة لا العكس؛ إذ لا معنى له[3].

الغرض من التّعبير بالمصدر ﴿غَيۡبُ﴾:

غيب: مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أيْ: الأشياء الغائبة[4]، وقد

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 229.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 10/ 241.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 229.

إفادة التّوكيد والمبالغة، في إحاطة علم الله تعالى بكلّ مستور

عبّر به البيان الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للدّلالة على التّأكيد والمبالغة الّتي يقتضيها التّعبير بالمصدريّة، فيشمل كل ما يُطلق عليه غيب؛ أيّ: المبالغة والتّأكيد على شمول علم اللّه تعالى لكل غيبٍ في السّماوات والأرض، كما أنّ في التّعبير بالمصدر معنى الثّباتِ والدّوام والاستمرار؛ أيّ: ثبات ودوام علمه سبحانه بغيب السّماوات والأرض.

سرُّ إضافة الغيب إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

بيانٌ لعمومِ علمِ اللهِ وتمامه، بما يُفيدُ توبيخَ مَنْ لا يعبده

أضافَ البيان الإلهيّ لفظ ﴿غَيۡبُ﴾ إلى السّموات والأرض، في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لإفادة أمور؛ منها: لإفادة العموم؛ فالمصدر المُضاف من صيغ العموم، فأفاد أنّ كلّ غيبٍ ممّا فيهما مُختصّ به تعالى لا يعلمه إلّا هوَ، لا تخفى عليه خافية ممّا فيهما، فإضافةُ الغيب للسّماوات والأرض للاسْتغْراق[1].

ومــن فوائد الإضافة هنا أيضًا بيــان اختصاصِ علم الغيب به تعالى من حيث المعلوميةُ حســبما يُنبئَ عنــه عنوانُ الغيبية، لا من حيث المخلوقيّةُ والمملوكيّةُ، وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر[2].

وللإشعار بأنّ علمه سبحانه حضوريٌّ؛ فإنّ تحقّق الغيوبِ في أنفسها عِلمٌ بالنّسبة إليه تعالى ولذلك لم يقل: (وللّه علمُ غيبِ السّماوات والأرض)[3].

وللإشارة إلى تمام علمه سبحانه، فإنّ الّذي يعلمُ كلّ ما غاب عنّا في السّموات والأرض، يعلم بطريق الأولى كلّ ما ندركه ونشهده أيضًا.

وقد أفادتِ الإضافةُ بناءً على المعاني السّابقة التّوبيخَ للمشركين والتّقريع لهم؛ أيّ إنّ العبادة إنّما يستحقّها مَن كانت هذه صفته

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 10/ 241.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.

لا مَن كان جاهلًا عاجزًا لا يضرّ ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم[1]، وفيها تهديدٌ لهم بأنّ ما تفعلونه من الأعمال الشّركيّة كلّها يعلمه اللّه، ولنْ يُفلتَ عملٌ واحد من أعمالكم بلا حساب وعقاب.

معنى (ال) في لفظي: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

بيان إحاطة علم اللّه تعالى، بغيب السّموات والأرض

لام التّعريف في لفظتي السّموات والأرض في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، جنسيّةٌ تُفيدُ العمومَ؛ فهي تشملُ جنسَ السَّمواتِ وجنسَ الأرض؛ فاللّه يعلم كلّ ما فيهما لا يغيبُ عنه شيء، وفي العموم دلالةٌ على المبالغةِ في كمالِ علم اللّه تعالى، وهذا يدلّ على إحاطة علم اللّه بكلّ موجود.

وممّا يدلّ على أنّ المُرادَ بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جنسُهما صحّةُ عطف الأرض على السّموات؛ إذ هو عطفُ جنسٍ على جنسٍ لا عطفُ الجمعِ على المفرد، حتّى يلزمَ تركُ الأَوْلى من رعايةِ التَّطابق بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

الغرض من تقديم لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

غيبُ السّمواتِ أبلغُ في الدّلالة، على كمالِ علم اللّه تعالى وقدرته

قدّم القرآن الكريم ذِكْر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لأمور:

الأوّل: مناسبةً للسّياق؛ إذ السّياق في الدَّلالة على كمالِ علم اللّه تعالى وقدرته، وعلمُ غيبِ السّماوات أبلغُ من علمِ غيبِ الأرض، ومَن يعلم غيبَ السّماواتِ يعلم غيبَ الأرض.

الثّاني: مراعاةً لسبقِ خلقِها على خلقِ الأرضِ[2]؛ فقُدّمت السَّموات على الأرض مراعاةً لترتيبِ الوجود.

الثّالث: لأنّ السّموات أعظمُ من الأرض شأنًا وخَلقًا، وأشرفُ ذاتًا

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 218.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 83، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 255.

وصفةً[1]، فهي متعبَّدُ الملائكة المُقدّسين على تفاوتِ مراتبهم، وقِبلةُ الدُّعاء، ومعراجُ الأرواح الطّاهرة، ولا معاصي ومنْكرات تحصل فيها، بخلاف الأرض الّتي وإنْ كان فيها الأنبياء، فقد وقعتْ فيها المعاصي، وحوت على المُفسدين[2]، ولذا فتقديم ذِكْرِ السّماوات من باب التّدرّج من الأعلى إلى الأدنى.

الرّابع: موافقةً لعادةِ القرآن الّتي هي تقديمُ السَّموات على الأرضِ، ولم تتقدّم الأرضُ على السَّموات إلّا استثناءً.

نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

علـمُ الأفخـمِ والأشــرفِ دالّ على العلم بما هو دونه

من محسِّنات الكلام المؤاخاةُ بين الألفاظ، وقد عُدل عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ فقد جُمع أحدُ المتقابلَيْن وهو السّماوات؛ وحكمةُ ذلك أمور:

الأوّل: الجمعُ أبلغُ في التّفخيم من الوحيدِ، وذلك لكون السَّمواتِ أشرفَ من الأرض، وعلم غيبِ الأفخمِ والأشرفِ علمٌ لما هو دونه.

الثّاني: إرادة للسّمواتِ السّبعِ ولأجرامها العظيمة ذاتِ النّظام الخاصّ المتفاوتة بالصّفات والآثارِ والحركاتِ وما فيها من أسرار، وأمّا الأرض فهي من جنسٍ واحدٍ، وهو الصَّعيدُ، ويكون في الجمعِ مبالغةٌ في بيان كمال علمه سبحانه.

الثّالث: تخفيفًا في النّطق؛ لثقلِ جمعِ الأرضِ ومخالفته للقياس (أرضون، أرضين)، ولهذا لم تردْ بهذه الصّيغة في القرآن، ولّما أُريد الجمع قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطّلاق: 12][3].

بلاغة الطّباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

جمعَ البيان القرآنيّ بين لفظيْن متقابليْن في المعنى، هما:

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 468.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 77.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 2/ 355.

تقابلُ غيبِ السّماءِ مع غيبِ الأرضِ، يدلُّ على كمالِ علمِ الله

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، بما يزيد الكلام حُسنًا وطَرافة، ويدلّ على كمالِ علمه سبحانه، الّذي يحيط بكلّ شيء؛ فهو لا يقتصرُ علمه على غيبِ السّموات فقط، أو الأرضِ فقط؛ بل إنّ علمه يشمل غيب السّموات والأرض.

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾:

استئنافٌ للحديثِ عن تمامِ القُدرة، أو عطفٌ لبيانِ الغيبِ المُستأثَرِ به

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ تحتمل وجهيْن:

الأوّل: عاطفة[1]، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ووجهُ العطف أمران:

الأوّل: أنّ الله يعلمُ ما يفعله الكفّار؛ لأنّه يعلمُ الغيب ويعلمُ الشّهادة بالأوّلى، وأيضًا يملكُ معاقبة الكفّار على ما يفعلونه متى شاء، في أسرع ما يتصوّره البشر.

الثّاني: جاءتْ الآية بهذا الغَيْب الوحيد (علم السّاعة) بعد ذكر علمه بالغيب ﴿غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

الثّاني: استئنافيّة[3]، بعد أنْ فرغَ سبحانه من الحديثِ عن تمامِ علمه استأنفَ الحديثَ عن تمام قدرته.

بلاغةُ القصر بالاستثناء المفرّغ ودلالته:

تأكيدُ سرعةِ قيامِ السّاعة، إنذارٌ وتحذيرٌ للمشركين

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ حرفُ نفي، و﴿إِلَّا﴾ استثناءٌ مُفرّغ يُفيدُ القَصر، وهو قصرٌ بالنّفي والاستثناء، والغرضُ البلاغيّ منه هو حصرُ وتأكيدُ كون أمرِ السّاعة ليس إلّا كلمح البصر، ونفيُ أنْ يكونَ غيرَ ذلك، وهذا الأسلوبُ يؤكّد ويبيّن سرعةَ قيامِ السّاعة عند إرادةِ الله ﷻ لها، والمقصودُ:

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 346، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 361.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8107.
(3) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 322، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه، وبهجت صالح، الإعراب المُفصَّل: 6/ 185.

إنذارُهم وتحذيرُهم مِن أنْ تَبْغَتَهم السّاعةُ؛ لِيُقلِعوا عمّا هم فيه مِن وقتِ الإنذارِ[1].

معنى (اللّام) في لفظ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾:

السّاعةُ هي يومُ القيامة الّذي يقعُ بغتة فيفجأ النّاس جميعًا

(اللّام) في لفظ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ عهديّة، و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: علمٌ بالغلبة على وقتِ فناء هذا العالم[2]، وهو الوَقتُ الّذي تقومُ فيه القيامةُ، وسُمِّيَت ساعةً؛ لأنَّها تَفجَأُ الإنسانَ في ساعةٍ فيَموتُ الخَلقُ بصَيحةٍ واحدةٍ[3]، أو لسرعةِ ما يقعُ فيها من حساب، أو لأنّها على طولها، زمنها يسيرٌ عند اللّه تعالى[4].

سرّ تخصيص السّاعة بالذّكر:

قيامُ السّاعةِ من أعظمِ الدلائل على تمامِ علمه، وشمولِ قدرته

خصّ البيانُ القرآنيّ السّاعةَ بالذِّكر من بين علوم الغيب الّتي لا تُحصى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ لأمرَيْن:

الأوّل: لكثرة المماراة والمجادلة فيها، وتكذيب الأمم رسلها في إخبارهم بها، فهي محطّ الأنظار، ومحلّ البحث والجدل بين المُنكرين والموحّدين، لما فيها من غيوبٍ مُتعلّقة فيها[5].

الثّاني: لأنّها من أعظم ما يدلّ على تمام علمه وشمول قدرته، فلا يُعجزه أمرُ السّاعة، وبعثُ الأجساد بعد موتها، كما لا يُعجزه شيء، ولذا كثُرَ الحديثُ عن قيامِ السّاعة وإثبات البعث وخاصّة في السّور المكّيّة.

نوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾:

تأكيد سرعةِ قيامِ السّاعة، ومباغتتها للبشر

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ أداةُ حصر[6]، ونوعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 150، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 250.
(4) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 204.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 658.
(6) بهجت صالح، الإعراب المُفصّل: 6/ 185.

الاستثناء فيها مُفرّغٌ[1]؛ لأنّ ما قبله مفتقرٌ إليه، فقوله: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ خبرٌ للمبتدأ ﴿أَمۡرُ﴾، والمُستثنى منه محذوف، والتّقدير: وما أمر السّاعة في قربها إلّا كلمح البصر، وقد أفادت الحصر والتّأكيد على سرعة قيام السّاعة.

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾:

في طرفةِ عينٍ، تقوم السّاعةً، وهو عليها قادرٌ

لمح البصر: انتقالُ الحَدَقةِ من وضع إلى وضع[2]؛ أيّ: رجع الطّرفِ من أعلى الحدَقة إلى أسفلها، واللّمحُ: النّظر بسرعة، أو اختلاس البصر بحركة سريعة وسهلة، وهذه الحركة وإن قصرت فهي حركةٌ آنيّةٌ لها هويّةٌ اتّصاليّةٌ مُنطبقةٌ على زمان له هويّةٌ كذلك قابل للانقسام إلى أبعاض هي أزمنة أيضًا[3]، وهذه السّرعة هي أقلّ سرعة يعرفها العرب؛ فمن أمثالهم: أسرع من العين، ومن طرف العين، ومن لمح البصر، وأسرع من اليد إلى الفم[4]، وقال الزّجّاج: "ولم يُرِد أنّ السّاعة تأتي في لمح البصر، وإنّما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها؛ لأنّه يقول للشّيء كُنْ فيَكونُ"[5]، وقد عبّر القرآن بذلك في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النّمل: 40].

ولهذا عبّر البيانُ القرآنيّ بهذا التّركيب للإشارة إلى سرعة مجيء السّاعة بدون مهلة حسبما عبّر عنها في فاتحة السّورة الشّريفة بالإتيان[6] بصيغة الماضي المُفيد لتحقّق الوقوع، وإلى سهولة قيامها فهي أهون على الله وأيسر من لمحِ البصر[7]، فأمرُ تدبيرها

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 322.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8108.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.
(4) القدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 155.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 214.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 204.
(7) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 6/ 543.

لا يحتاجُ إلى وقتٍ ولا إلى جهد؛ إذْ هي في طرفةِ عين حاضرة مهيَّئةٌ بكلّ أسبابها.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡبَصَرِ﴾:

استشعارُ الإنسانِ قدرةَ اللهِ على قيامِ السّاعةِ كلّما حرّك طرفَ بصره

(اللّام) في ﴿ٱلۡبَصَرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ عهديّة، ومعهودها ذهنيٌّ، والمقصودُ هي العين الباصرة، وقد أتى القرآن الكريم بما يعهدونه ليستشعرِ كلُّ إنسانٍ قدرةَ اللّٰهِ سبحانه على قيامِ السّاعةِ وسرعتها وسهولتها عليه كلمّا حرّك الإنسان طَرْفه.

بلاغة التّشبيه في قوله: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾:

تشبيهٌ يصوّرُ قدرةَ اللهِ على قيامِ السّاعةِ وعلى سرعةِ وقوعها

أمرُ السّاعةِ مُشبَّهٌ، ولمح البصر مُشبَّهٌ به، وأمّا وجه الشّبه فيحتمل معنيين:

الأوّل: وجهُ الشَّبَهِ هو كونُ لَمحِ البصَرِ مَقدورًا بدونِ كُلفةٍ؛ لأنَّ لَمَحَ البصَرِ هو أمكَنُ وأسرَعُ حرَكاتِ الجَوارِحِ؛ فهو أيسَرُ وأسرَعُ مِن نقلِ الأرجُلِ في المشيِ، ومِن الإشارةِ باليَدِ[1]؛ أيّ: أمرُ السّاعَةِ أهون على اللّٰه وأيسر من لمح البصر[2]، فيتحقَّق وقوعه بدون مشقّة ولا إنظار عند إرادة اللّٰه تعالى وقوعه، وبذلك يكون الكلام إثباتًا لإمكان الوقوع وتحذيرًا من الاغترار بتأخيره.

الثاني: وجهُ الشّبه السُّرعةُ؛ أيّ: سُرعة الحُصولِ عندَ إرادةِ اللّٰه؛ أيّ: ذلك يَحصُلُ فجأةً بدونِ أماراتٍ، كقولِه: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ [الأعراف: 187]، والمقصودُ: إنذارُهم وتحذيرُهم مِن أن تَبۡغَتَهم السّاعةُ؛ لِيُقلِعوا عمّا هم فيه مِن وقتِ الإنذارِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 543.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 230.

تراوح حرف المعنى، بين الإضراب والتّخيير والشّكّ والإبهام على السّامع

دلالة ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾:

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ تحتمل عدة معانٍ:

الأوّل: للإضرابِ الانتقاليِّ يعني "للانتقالِ والترّقّي لا للإبطال"[1]؛ أيۡ: إضرابًا عن التَّشبيهِ الأوّلِ بأنَّ المُشبَّهَ أقوى في وجهِ الشَّبهِ من المُشبَّهِ به[2]، والمقصود به تكوين صورة ذهنيّة عند السّامع عن سرعة قيام السّاعة عند إرادة اللّه ﷻ؛ أيۡ: إنّ السّرعة في الحصول في أمر السّاعة أقوى منها في لمحِ البصر.

الثّاني: ﴿أَوۡ﴾ للتّخيير والتّساوي في التّشبيه؛ أيۡ: إنّهما سواء في صحّة التَّشبيه، وأنت مُخيَّر في التّشبيه بهما، أو بأيهما شئت[3]، وللتّخيير بالنّسبةِ لقدرةِ اللّه تعالى[4].

الثّالث: ﴿أَوۡ﴾ للإبهام على المُخاطَب[5].

الرّابع: ﴿أَوۡ﴾ للشّكّ؛ أيۡ: الشّكّ ليس للمتكلّم؛ بل لغيره مثل (لعلّ) الواقع منه تعالى حيث حُمل عَلَى ترجّي المخاطب[6].

سرعةُ قيامِ السّاعةِ أمرٌ مؤكّد، لاريب فيه

سر التّعبير بالضّمير ﴿هُوَ﴾ في السّياق:

﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ "ضَمِيرٌ لِلۡأَمرِ"[7]؛ أيۡ: أمر قيام السّاعة أقربُ من لَمح البصر، وقد أتى به البيانُ القرآنيّ في الآية، ولم يَقُلۡ: (وما أمر السّاعة إلّا كلمح البصر أو أقرب)، مبالغةً في توكيدِ سرعة قيامها؛ إذ إنَّ ﴿هُوَ﴾ توكيد لفظيّ.

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد: 11/ 343.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 229.

(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد: 11/ 343 - 344.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 204.

(5) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد: 11/ 343 - 344.

(6) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد: 11/ 343 - 344.

(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 271.

المُراد بالقرب في قوله: ﴿أَقۡرَبُۚ﴾:

قيامُ السّاعة قريبُ الزّمان والمكان، وأسرع حصولًا من لمح البصر

المُرادُ بالقُربِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ إمّا القُربُ المكانيُّ؛ كنايةً عن كَونِه في المقدوريَّةِ بمنزلةِ الشَّيءِ القريبِ التَّناوُلِ، كقولِه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]، أو قُرب الزَّمانِ؛ أيْ: أقرَبُ مِن لَمحِ البصَرِ حِصَّةً؛ أيْ: أسرَعُ حُصولًا[1].

وقيل: تحقيق أقرب في أنّ لمح البصر فعلان هما: وضع الجفن ورفعه، وأمّا قيام السّاعة ففعل واحد[2]، أو معناه أنّ قيامَ السّاعة، وإنْ تراخى فهو عند اللّه كالشّيء الّذي تقولون فيه هو كلمحِ البصر، أو هو أقربُ مبالغةً في استقرابه[3].

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ بين آية النّحل (77)، وآية القمر (50):

مراعاةُ المقام بين التّهديدِ المباشرِ، وبين التّنبيهِ والتّخويفِ

عبّر البيانُ الإلهي في هذه الآية بقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾؛ أيْ: مع ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ بينما جاء في سورة القمر بدون ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾؛ فقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: 50].

ويمكن أنْ يُطرح سؤالٌ عن السّبب في ذلك؟ فيجابُ عن ذلك بأنّ آية النّحل هذه جاءتْ تهديدًا مباشرًا للكفّار بعد ضَرْب مَثَلَيْن على بطلانِ شركهم، كما أنّ المقامَ للتّحذيرِ من مفاجأةِ النّاس بها قبل أنْ يستعدّوا لها، فهو حقيقٌ بالمبالغة في التّقريب، فناسبَ ذلك التّعبير بقوّةٍ عن سرعة حصولها بجعلِ صفةِ سرعةِ الحصولِ في أمرِ السّاعةِ أقوى منه في لمحِ البصر؛ أيْ: إنّ أمرها أقربُ وأسرعُ زمانًا من لمحِ البصر، أمّا آية القمر فإنّه لتمثيلِ أمر اللّه، وذلك يكفي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 229.

(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير وعجائب التّأويل: 1/ 614.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235.

فيه مجرّد التّنبيه؛ إذ لا يتردّد السّامع في التّصديق به، وإنْ كان سياقها سياق بيانٍ مع تهديدٍ للكفّار - ولكنّه ليس بشدّة التّهديد في سورة النّحل - فلم يحتجْ إلى المبالغةِ في التّقريبِ كما في آية النّحل[1] فالتّشبيه في سورة النّحل أدلّ على سرعة الوقوع من التّشبيه في سورة القمر، لكنّهما متقاربان تقارب الزّمن بين "لَمَحَهُ بصري"، و"لَمَحْتُه ببصري"، والأدلّ على السّرعة وقع متناسبًا مع مطلع سورة النّحل، والّذي يليه في الدّلالة على السّرعة ما في سورة القمر، وهي مفتتحة بـ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1] وما في النّحل تناسب مع مفتتحها ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1] والفرق بينهما في الدّلالة على السّرعة هو الفرق بين الاقتراب والإتيان، ولم يقع مثل هذيْن التّشبيهيْن في سورة أخرى سواهما لتفرّدهما فيما افتتحتا به وهذا هو عين الإعجاز.

نكتة فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

قــــدرةُ الـلـه المطلقة، تعليلٌ وبــرهــانٌ على قيام السّاعة

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عن الّتي قبلها ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾، ولم يأتِ بينهما بالعاطف؛ لما بين الجملتيْن من كمالِ اتّصال؛ وذلك لوقوع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليلًا لما قبله؛ أيْ: يكون أمر السّاعة مُتحقّقًا وسريعًا؛ لأنّ الله قادر على كلّ شيء[2]، فأمره في الجلالة والعِظَم والسّرعة والإتقان يجلُّ عن الوصف، وتقصر عنه العقول، ولا شكّ فيه ولا تردّد، فمقدوراته تعالى لا تتناهى[3].

وتأكيدًا لشمول قدرته فإنّه سبحانه لا يُعجز قدرتَه شيء سواء أكان هذا الشّيء يتعلّق بأمر قيام السّاعة في أسرع من لمح البصر أم بغير ذلك من الأشياء[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 221.

(2) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 312، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8111.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 296، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 395.

(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 290، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 205.

وتدليلًا؛ باعتبار قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ كالبرهان على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها؛ أيْ: إنَّ اللّه قادر على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، فهو قادر على إقامتها في أقرب من لمح البصر[1].

بلاغة توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

تأكيد كمالِ قدرة الله، تهديدٌ للكفّار، وتحذير للفجّار

أكّد ﷻ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بعدّة مؤكّدات:

أوّلها: الجملة الاسميّة، الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْمِ وبَقائِهِ، فقدرة اللّه تعالى على كلِّ شيء ثابتة دائمة.

وثانيها: ﴿إِنَّ﴾ الدّالّة على تأكيد الخبر وهو قدرة اللّه تعالى؛ إذْ إنّ الحرفَ (إنّ) يفيدُ توكيد النّسبة بين المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في الجملة.

وثالثها: تقديم شِبْه الجُملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر ﴿قَدِيرٞ﴾؛ الّذي يدلّ على الاهتمام بالمُقدّم وتشويق وتطلّع إلى المُؤخّر وهو وصف ﴿قَدِيرٞ﴾[2].

وكلّ هذه المُؤكّدات مجتمعة أفادتْ المبالغةَ في تأكيد كمالِ قدرة اللّه تعالى وإحاطته بكلّ شيء، وأنّه لا يُعجزه شيء، وفيه أيضًا زيادةٌ في تهديدِ الكفّار، وتحذيرٌ لهم لما يعملونه؛ أيْ: إنّ اللّه قديرٌ على حسابكم وعقابكم.

الغرض من تقديم شبه الجملة في السّياق:

التّقديم اهتمامٌ بالمُقدَّم، وتشويقٌ للمؤخّر، وتأكيدٌ لمعنى الاقتدار

قدّم البيانُ القرآنيّ شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ولم يقل: (إنّ اللّهَ قديرٌ على كلِّ شيء)، للاهتمام والتّقوّي؛ أيْ: للاهتمام بالمقدّم وللتّشويق للمُؤخَّر، ولتأكيد معنى الاقتدار على كلِّ شيءٍ، فإنَّك إذا ما سمعتَ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ثم لَمّا يصل إلى سمعك قوله: ﴿قَدِيرٞ﴾ تطلّعت إلى الخبر

(1) مُحمّد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 312.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4229.

ما يكون، فيأتيك، وأنت المُتطلّع إلى أنْ تعرفه من بعد أنْ ملأ سمعك وقلبك بالتّهديد والوعيد الّذي فاضت به الجُمل السّابقة، فيستقرّ المعنى في قلبك ويقيم فيه[1].

كما أنّ هذه عادة القرآن في كلّ المواضع المشابهة؛ أيّ: لم يأتِ في القرآن الكريم تقديم ﴿قَدِيرٌ﴾ على متعلِّقه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ولم يأت هذا التّركيب في غير الفواصل[2].

الغرض من تنكير ﴿شَيْءٍ﴾:

قدرةُ الله بالغة شاملة لكلّ شيء

الغرضُ من تنكير لفظة ﴿شَيْءٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ العموم؛ وقد أفاد هذا العموم المبالغة في الشّمول؛ أيّ: إنّ قدرة اللّه تعالى تشمل كلَّ شيء مهما كان وفي أيِّ حالٍ كان، كما أنّ لفظ شيء لم يَرِد في القرآن إلّا نكرةً.

سرُّ تذييل الآية بصفة القُدْرة:

في التّذييل دليلٌ على تمام الإرادةِ والقدرة، وعلى قيامِ السّاعة

ذيّلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بصفة القدرة؛ مبالغةً وتأكيدًا وتقريرًا لمضمون ما قبله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من كمالِ علمه وقدرته وعمومها وشمولها، فهو سبحانه تامّ العلم وتامّ القدرة لا يُعجزه شيء، فإنّ كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجِبٌ لقدرته على ما ذكر من قيام السّاعة بلمح البصر، ودليلٌ على قوّة القدرة المقتضية تمام الإرادة والعلم.

وفي هذا تحذيرٌ وتهديدٌ للكُفّار لما يعملونه؛ أيّ: إنّ اللّه قديرٌ على حسابهم وعقابهم، إذ في إثباتِ صفة القدرة بعد إثباتِ صفة العلم يكتملُ وجهُ التّحذير والتّهديد للكافرين.

فائدة إظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

أتى البيانُ القرآنيّ بالاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ - الجامع لصفاتِ

(1) محمود توفيق، شذرات الذّهب - دراسة في البلاغة العربيّة، ص: 61.
(2) محمود توفيق، شذرات الذّهب، ص: 61.

الكمال والعظمةِ والجلال - في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ولم يَقُلْ: (وإنّه على كلّ شيء قدير)؛ لتكون جملة التّذييل مستقلّة بنفسها فتجري مجرى الأمثال، وكذلك في إظهارِ الاسمِ الجليل تربيةُ المهابةِ، والتّخويفُ والتّهديدُ لِمَن يُشرك باللّه ويُنكر البعث، وهذا يتناسب مع السّياق.

اسمُ اللهِ الأعظم، يبعثُ في النّفسِ مهابتَه وتعظيمَ قدرته

غرض التّعبير بصيغة المبالغة ﴿قَدِيرٞ﴾:

﴿قَدِيرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، بمعنى قادر، إلّا أنّ البيانَ الإلهيّ عبّر هنا بلفظ ﴿قَدِيرٞ﴾، وهو من صيغ المبالغة على وزن فعيل، بما يدلّ على زيادة الإبانة عن إبلاغه في تحقيق الفعل وكمال إيجاده، وأنّ ذلك ثابتٌ لازمٌ له ﷻ[1]، وفيها دلالةٌ على الكثرة؛ لأنّ السّياق ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُفيد العموم والكثرة، فناسب التّعبير بصيغة المبالغة ﴿قَدِيرٞ﴾، ومن عادة القرآن - وهي عادةٌ أغلبيّة - أنّه حيث يُعمّم القدرة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أو يُطلقها يأتي بصيغة المبالغة ﴿قَدِيرٞ﴾، وحيث يُقيّدها يأتي باسم الفاعل ﴿قَادِرٌ﴾ [الأنعام: 37]، وهذا هو الفارق الدّلاليّ بين اسم الفاعل وبين صيغة المبالغة الّتي تدلّ على التّكثير[2]، فهو بليغ القدرة لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، وقدرتُه مُطلقَةٌ محيطة لا يُعجزه شيءٌ.

قدرةُ اللهِ مطلقةٌ بالغةٌ محيطةٌ لا يُعجزها شيءٌ

الغرض من تنكير لفظ ﴿قَدِيرٞ﴾:

نكّر البيان الإلهي ﴿قَدِيرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لإفادة معنى التّعظيم والتّفخيم لقدرته سبحانه؛ فهو بالغ القدرة إلى حدّ لا يمكن الزّيادة عليه القادر على كلّ شيء، ولا يُعجزه شيء.

اللهُ العظيم القدرة، هو الرّبّ المستحقّ أن يُعبد بيقين

(1) محمود توفيق، شذرات الذّهب، ص: 61.
(2) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 4/ 325.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(لَمحُ البَصَرِ) و(ارتدادُ الطَّرْفِ):

لمـحُ البـصـر النّظرةُ الخفيفة والسّريعة، وارتداد الطّرف مقْدار ما تُفتحُ العين ثمَّ تَطْرِفُ

يوجد تقاربٌ دلاليّ بين لمح البصر وارتداد البصر؛ فكلاهما يشتركان في معنى نظر العين، ويُعبّر بهما عن السّرعة، ولكن توجد بعض الفروق اللّغويّة بينهما وإيضاح ذلك بأنّ اللّمح أصله يَدُلُّ عَلَى لَمعِ شَيءٍ[1]، واللَّمحُ: سُرْعةُ إبصارِ الشَّيْءِ كاللّمع، ولَمَحَ: اخْتَلَسَ النَّظَرَ، وكذا إذا أبصره بِنَظَرٍ خَفِيفٍ، واللَّمحةُ: النَّظر بالعَجَلَةِ، وقِيلَ: لا يكونُ اللَّمحُ إلّا مِنْ بَعِيدٍ[2].

وأصل الطَّرْف هوَ تَحْرِيكُ الجُفونِ في النَّظَرِ، يُسَمّونَ العَيْنَ الطَّرْفَ مَجازًا[3]، ويُعبَّرُ به عن النَّظَرِ إذ كانَ تحريكُ الجَفْنِ يُلازِمُه النَّظَرُ[4]، والطَّرْفُ: إطْباقُ الجَفْنِ عَلَى الجفْن، وارتداد الطّرف بمِقْدارِ ما تَفْتَحُ عينَكَ ثمَّ تَطْرِفُ، وقيل: بمِقْدارِ ما يَبْلُغُ البالِغُ إلى نهايَةِ نَظَرِكَ[5].

إذن لمحُ البصر هو لقطةٌ خفيفةٌ وسريعةٌ لشيء يعرِض في مجال الرّؤية كما يلفت الإنسانُ حدقتَه دون وجهه نحو أحَد ثمّ يرُدُّها بسرعة[6]، بينما ارتداد الطّرف مقْدار ما تُفتحُ العين ثمَّ تَطرِفُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمح).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لمح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 517، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: 2/ 398.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (طرف).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (لمح).

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين أدلّة السّاعة وكمال القدرة، وبديع الخلق والتّفكّر بوسائل الإدراك

في مناسبة الآية لما قبلها عدّة أوجه:

الأوّل: بعد أنْ بيّن سبحانه أنّ الغيب كلّه في علمه وقدرته، وأنّه على كلّ شيء قديرٌ، وأنّه خالق العاجزين والقادرين والمنافقين ومن لا خير فيه، بيَّن سبحانه أنّ من مظاهر قدرته كذلك خلق الإنسان وعلمه، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾[1].

الثّاني: بعد إيراد المَثَلَيْن البليغيْن وما جاء بعدهما ممّا دلّ على كمال قدرته وعلمه عاد إلى إكثارِ الدّلائِلِ على انفرادِ اللّهِ بالتّصَرُّفِ، وإلى تَعدادِ النِّعَمِ على البشَرِ من نعمةِ إخراج الإنسان من بطن أمه، وعن نعمة البيوت الّتي هي محلّ سكن الإنسان، وغير ذلك، عطفًا على جملةِ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ بعدما فصَلَ بينَ تَعدادِ النِّعَم بما اقتضاه الحالُ مِن التّذكيرِ والإنذارِ[2].

الثالث: لَمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى أمرَ السّاعةِ، وأنَّها كائِنةٌ لا محالةَ، فكان في ذلك دَلالةٌ على النَّشأةِ الآخرةِ، وتقَدَّمَ وصفُ الكافرينَ بانتفاءِ العِلمِ؛ ذكَرَ تعالى النَّشأةَ الأولَى، وهي إخراجُهم مِن بُطونِ أمَّهاتِهم غيرَ عالِمِينَ شيئًا، تنبيهًا على وقوعِ النَّشأةِ الآخرةِ، ثمَّ ذكَرَ تعالى امتِنانَه عليهم بجَعلِ الحواسِّ الّتي هي سبَبٌ لإدراكِ الأشياءِ والعِلمِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4230.
(2) ابن عادل، اللّباب: 12/ 127، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 231، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 94.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 574، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 221.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُطُونِ﴾: أصلُ (بطن): أَصْلٌ واحِدٌ لا يكادُ يُخْلِفُ، وهو إِنْسِيُّ الشَّيءِ والمُقْبِلُ منهُ، فالبَطْنُ خِلافُ الظَّهْرِ، تَقولُ بَطَنْتُ الرَّجُلَ: إذا ضَرَبْتَ بَطْنَهُ، والمَبْطونُ العَليلُ البَطْنِ، والمُبْطِنُ: الخَميصُ البَطْنِ، والبَطْنُ من العَرَبِ دونَ القَبيلَةِ[1]، والبَطْنُ: الغامِض مِن الأرْض، والبَطْنُ: جَوْفُ كلِّ شيءٍ، وبَطَنَ الشَّيءُ: خَفِيَ فهوَ باطِنٌ، والباطن خِلافُ الظّاهِرِ[2]، والبِطانةُ: الدُّخلاء الَّذين يُنبسط إِلَيْهِم ويُستبطنون، يُقالُ: فُلان بِطانةُ لفُلان، أي: مُداخِلٌ لَهُ مُؤانس، والبِطانةُ أيضًا: ما بَطَن من الثَّوْب وكانَ من شَأْن النّاس إخفاؤه[3]، والمعنى المحوريّ للبطن هو التّعبير عن الجوف الدّاخليّ للشّيء حيث يَخْفَى فيه ما يدخل إليه[4] والمقصود بالبُطُون: جمعُ بَطْنٍ، وهو ما بَيْنَ ضُلوعِ الصَّدْرِ إلى العانَةِ، وفيهِ الأمعاءُ والمَعِدَةُ والكَبِدُ والرَّحِمُ[5].

2) ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾: أصلُ (سمع) هو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمعًا، والسَّمعُ: الذِّكر الجميل، يُقالُ: قَدْ ذَهَبَ سَمعُه في النّاسِ، أيْ: صِيتُهُ، ويُقالُ: سَمِعْتُ بالشَّيْءِ، إذا أشَعْتَهُ لِيُتَكلَّم بِهِ[6]، والسَّمعُ: قوَّةٌ في الأُذن به يُدرك الأصوات، وفِعله يُقالُ له السَّمعُ أيضًا، ويُعبّر تارةً بالسّمع عن الأذن، وتارةً عن فعله كالسّماع، وتارةً عن الفهم، وتارة عن الطّاعة[7]، والـمَسْمَع: الـمَوضع الَّذي يُسمع مِنْهُ، من قَولهم: هوَ منِّي بمرأًى ومَسْمَعٍ؛ أيْ: حَيْثُ أراهُ وأسمع كَلامه[8].

والمُراد بالسَّمعِ في الآية: الإحساسُ الَّذي به إدراكُ الأصواتِ الَّذي آلَتُهُ الصِّماخُ[9].

3) ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾: أَصْلُ (بصر) العلمُ بالشّيء، ومنه البصيرة: البرهان، وأصل ذلك كلّه وُضوحُ الشَّيْءِ، ويُقالُ: بَصُرْتُ بِالشَّيْءِ: إذا صِرْتَ بِهِ بَصِيرًا عالِمًا، وأَبْصَرْتُهُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطن).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (بطن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطن).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 424، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 2/ 221.
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمع).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.

إذا رَأَيْتَهُ[1]، فالبصر: العين، وقِيلَ: البَصَرُ حاسَّةُ الرّؤْيَة، والبَصِيرَةُ: العِبْرَةُ والحُجّةُ والاِسْتِبْصارُ في الشَّيْءِ[2]، والبَصَر يُقال للجارحة النّاظرة، وللقوّة الّتي فيها، ويُقال لقوّة القلب المُدركة: بَصِيرَة وبَصَر[3]، والـمُبْصِرُ: النّاظِرُ لِغَيْرِه، وضِدُّهُ الأَعْمَى، وأيضًا المُشرف على الشَّيْءِ المُحافظ عَلَيْه، والبَصِيرَةُ: قوَّةُ الإِدْراك والفِطْنَةُ والعِلْمُ والخبرة[4] والمُراد بـالبَصَرِ في الآية: الإحساسُ المُدرِكُ للذَّواتِ الَّذي آلَتُهُ الحَدَقَةُ[5].

4) ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾: أصلُ (فأد) يَدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حَرارَةٍ، ومنه: الفُؤادُ، سُمِّيَ بذلك لحرارته، والفَأْدُ: مصدرُ فأدْتُه، إذا أصَبْتَ فُؤادَهُ[6]، والفُؤادُ: القلب لكنْ يُقال له: فُؤادٌ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفَؤُّدِ؛ أيْ: التّوقّد، وقيل: يُراد به العقلُ لا العضو المعروف[7]، وقيل: أصلُ الفأْدِ، الحركة والتّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ، لأنّه ينبضُ ويتحرّك كثيرًا[8]، وقِيلَ: الفُؤادُ وعاء القلب، وقيل: داخله، وقيل: غشاؤه، والقَلْبُ حَبَّتُه[9]، والمُراد بالأفئدة في الآية: العَقْلُ مَقَرُّ الإدراكِ كُلِّه، فهوَ الّذِي تنقُلُ إليهِ الحَواسُّ مُدْرَكاتِها، وهي العِلْمُ بالتَّصَوُّراتِ الـمُفرَدَةِ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّذكير بخلق الإنسان، المُستوجِب للشّكران:

يخاطبُ اللّهُ تعالى عبادَه مُعدِّدًا أنواعًا مِن نعمِه عليهم، وذاكرًا بعض مظاهر قدرته سبحانه فيقولُ: واللّهُ - وحده - هو الّذي أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرَجَكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم لا تعقلون شيئًا، ولا تعلمون، فرزقكم عقولًا تفقهون بها، وتُميّزون بها الخير من الشَّرّ، وبصَّركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السّمع الّذي تسمعون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(2) ابن سِيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 127.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأد).
(7) الرّاغب، المُفردات، ص: 646، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 191.
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 233.

إنعام الله باعثٌ على شُكرِه، وتوحيده وعبادته

به الأصوات، فيفقهُ بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم، والأبْصار الّتي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميّزون بها بعضًا من بعض، والقلوبُ الّتي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها، وتُفكرون فتفقهون بها، وما كلّ ذلك إلّا لتشكروه - وحده - على ما أنعم عليكم، وتُفردوه ﷻ بالعبادة(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة عطف الآية على سابقتها:

أدلّة الخلق والتّمكين، مُؤذنة بأنّ مقدوراته تعالى لا نهاية لها

المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ يحتمل وجهيْن:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النّحل: 72]، وهو عطفٌ منتظمٌ معه في سلك أدلّةِ التّوحيد من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [النّحل: 65]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ [النّحل: 70]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النّحل: 71](2)؛ أيْ: ما كان بعدَ كلِّ جملة من هذه المعطوفات، إنّما هو لبيانِ وجهِ العبرة فيها، وضلال الشّرك وأهله، فهي تابعةٌ لمعانيها، فلا يكون ثمّة مانعٌ من العطف عليها(3)، وقد جاءتْ هذه الآية تكميلًا لعرض الأدلّة الموجبة لعبادة اللّه - وحده - عن طريق بيان خلق اللّه وقدرته، وهي تُؤذن "بأنّ مقدوراته تعالى لا نهايةَ لها، والمذكورُ بعضٌ منها"(4).

الثّاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وهو عطفُ المُفصّل على المُجمل؛ لأنّ ﴿إِنَّ﴾ تعليلٌ لِما يأتي بعد جملتها(5)، والمعنى:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 265، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 590.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 2304.
(4) الخفاجيّ، كفاية الرّاضي: 5/ 357.
(5) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 345.

"إنَّ اللّه عَلى كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ فيقدر أنْ يُحييَ الخلائق دفعةً كما قدرَ أنْ أحياهم مُتدرّجًا، ثمّ دلَّ على قُدرته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم﴾"[1].

الغرض من تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفعليّ:

الـخَـلـقُ لا يـكـونُ إلّا من الـلـهِ العظيمِ سبحانه

قدّم البيانُ القرآنيُّ المُسنَد إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على المُسنَدِ الفعلي ﴿أَخۡرَجَكُم﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، ولم يَقُلْ: (أخرجكم اللّهُ من بطون أمهاتكم)؛ لإفادة أمور:

الأوّل: الاختصاص؛ إذ إنّ القرآن قد قدّم ما حقّه التّأخير في اللّغة، ليكون المعنى: أنَّ اللّه - وحده - مَن أخرجكم من بطون أمّهاتكم، وليس هناك من يفعل هذا غيره، فهو مختصٌّ به سبحانه ولو قلنا (وأخرجكم اللّه) لَما دلّ على اختصاص الإخراج باللّه سبحانه كما دلّ عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم﴾[2].

الثّاني: تقويةُ الحكم وتوكيده، وهو اختصاصُ اللّهِ بالإخراج، وذلك لتكرار الإسناد؛ فكأنّ الحكمَ هنا ذُكر مرّتيْن؛ مرّةً حين أُسند الفعلُ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسند إلى ضميره العائد إلى المبتدأ، بخلاف إنْ تأخّر المُسنَد إليه (وأخرجكم اللّه) فلا يحدثُ هذا التّكرار؛ بل يحدثُ الإسناد مرّة واحدة فقط.

بلاغة إظهار اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ دون الإضمار:

عـظـمـةُ الـلـهِ سبحانه دليلُ انفرادِهِ بالخلقِ والإنعام

أظهرَ البيانُ الإلهيُ الاسم الجليل ﴿وَٱللَّهُ﴾ ولم يُضمره في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ رغم أنّ الإضمارَ هو مقتضى الظّاهر، وأنّه أوضح من أنْ يُصرّح به إذ لا خالق إلّا اللّه؛ وذلك لأمريْن:

الأوّل: لقصدِ التّنويهِ بالخبر إذِ افتُتح بهذا الاسم العظيم، ولأنّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 197.

دلالةَ الاسم العلَم أوضحُ وأصرحُ، فهو مُقتضَى مقام تحقيقِ الانفرادِ بالخَلق والإنعام دون غيره من شركائهم؛ لأنّ المشركين يُقرّون بأنّ اللّهَ هو فاعلُ هذه الأشياء(1).

الثّاني: لتربيةِ المهابة في قلوبهم بذكرِ الاسم الجليل، فتمنعهم من أنْ يجترؤوا على مقام اللّه فيشركوا معه آلهةً أخرى، وخاصّة أنّ السّياق هو في تعظيم قدرة اللّه وعلمه في مواجهة اعتدائهم على حقّ اللّه تعالى وعبادتهم أصنامًا لا تضرُّ ولا تنفع.

قدرةُ اللهِ على إخراجِ الإنسانِ من بطنِ أمّهِ، مُتحقّقةٌ وبديعة

دلالة التّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿أَخۡرَجَكُم﴾:

التّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿أَخۡرَجَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ مع أنّ الإخراجَ يمتدّ إلى الحاضرِ والمستقبل، وهو أمرٌ مُستمرٌّ متجدّدٌ؛ لتنزيل مُنْتَظَرِ الوقوع منزلة الواقع(2)، دلالة على حقّيّة وقوعه.

معنى حرف الجرّ ﴿مِّنۢ﴾:

إظهارُ قدرة الله على إخراجِ الإنسانِ، من ضيقِ الرّحمِ، إلى سعةِ الوجود

حرف الجرّ ﴿مِّنۢ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ ابتدائيّة، والمعنى: أخرجكم إخراجًا مُبتدئًا من ضيقِ الرّحم إلى سعة الوجود، يخرجُ الجنينَ من رَحِمِ أمّه لا يعلم شيئًا، ثمّ يعطيه اللّه تعالى أسبابَ العلم بهذه الحياة(3)، وفي ﴿مِّنۢ﴾ الابتدائيّة إشارةٌ إلى قدرةِ اللّهِ تعالى على إخراجِ الإنسان من باطن الأرض بعد موته؛ أيّ: الّذي "أخرجكم منها قادرٌ على إخراجكم من بطنِ الأرضِ بلا فرق؛ بل بطريقِ الأَوْلى"(4).

بلاغة الكناية في الإخراج من البطون:

المقصود بالبطون: الأرحام؛ وذَكَر البطن؛ لأنّه مكانُ الرّحم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 198.
(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 345.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 2304.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.

ويصدقُ على المولود أنّه خرج من رحم أمّه أو خرجَ من بطنها، ولكن لكون "اللّه كريم يكنّي"[1] كما قال ابن عبّاس ﷺ فقد كنّى عن الإخراجِ من أرحامِ الأمّهات بالإخراجِ من بطونِ الأمهات؛ لأنّه لا يُستحسن ذِكرُه حتّى لا يتبادرَ إلى الذّهن صورة الإخراج من الرّحم، كما أنّ في هذه الكنايةِ إشارةً إلى الإخراجِ من بطنِ الأرض يوم البعث، فالّذي أخرجكم من بطونِ أمّهاتكم قادرٌ على إخراجكم من بطنِ الأرضِ بلا فرقٍ؛ بل بطريقِ الأوْلى[2].

الإخـــراجُ من بطونِ الأمّهات، إشـــارةٌ إلى الإخـــراجِ من بطونِ الأرض

الموقع النّحويّ لجملة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾:

جملة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ حالٌ من الضّمير المنصوب في ﴿أَخۡرَجَكُم﴾، والمعنى: حالَ كونكم عندَ الإخراجِ غيرَ عالِمين شيئًا أصلًا[3]؛ أيْ: جُهّالًا مُستصحِبين جهلَ الجماديّة[4]، فالمولودُ عند خروجِهِ من بطنِ أمّه لا يعلمُ شيئًا، ثمّ تأخذُ حواسّه تنقلُ الأشياءَ تدريجيًّا، فجعلَ اللّهُ في الطّفل آلاتِ الإدراكِ وأصولَ التّفكّر[5]، وما يفعله المولودُ من الصّراخِ، ومصّه اللّبنَ من ثديِ أمّه إنّما هذا من الفطرةِ لا مِنَ العلم؛ لأنّ العلمَ كسْبيٌّ لا يكون إلّا بتعلّم.

حـــالُ الـمـولـودِ في تـدرّجـه في الـعـلـم، دلـيـلٌ عـلـى قـــدرة الخالق سبحانه

دلالة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾؛ للدّلالة على أنّ خروجَ الإنسان من بطنِ أمّه جاهلًا مُستصحبًا جهلَ الجماديّة حتّى تعملَ الحواسّ الّتي خلقها اللّهُ له من السّمع والكلام والبصر والعقل أمرٌ متجدّدٌ ومستمرٌّ لا يتخلّف، فلا يمكنُ أنْ يولدَ إنسانٌ عالمًا، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإنسانَ الّذي لا

خروجُ الإنسانِ جاهلًا حتّى تعمل حواسّه، أمرٌ متجدّدٌ مشهودٌ في كلّ مولودٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/ 487.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 11/ 345.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.

يُعمِلُ حواسّه وفقَ ما خلقها اللّه فلا يعلمُ حقّ المُنعم عليه ولا يُؤمنُ بالنّشأةِ الآخرةِ؛ فإنّه في حكمِ الجاهلِ الّذي لا يعلمُ شيئًا.

الغرض من تذكير لفظ ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾:

التّعميمُ أبلغُ في الدّلالة على عدم العلم، فضلًا عن حقّ المُنعِم بالعلم

نكّر القرآن ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾؛ لإفادة أمرين:

الأوّل: العموم؛ أيّ: عموم المَنفيّ؛ لأنّ ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ نكرةٌ جاءت في سياق النّفي[1]؛ أيّ: أخرجكم حالَ كونكم غيرَ عالمين شيئًا من الأشياء قلّ أو جلّ[2]؛ من العلمِ بالحياةِ ومشاربها، ومن العلم بحقّ اللّه على عبادهِ من إدراكِ عظمةِ خلقه في تكوينه الإنسانَ من سلالةٍ من طين، وجعله نطفةً في قرارٍ مكين، وجعل النّطفةَ علقةً والعلقةَ مضغةً، وجعل المضغةَ عظامًا[3].

الثّاني: التّحقير والتّقليل؛ أيّ: لا يعلمون شيئًا من الأشياء مهما كان قليلًا، وإذا كان علمهم القليل منتفيًا فانتفاءُ علمهم للكثيرِ آكدُ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾:

عطفُ خبرٍ على خبرٍ، يظهرُ كمالَ علمه وقدرتِهِ سبحانه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ تحتمل معنيَيْن:

الأوّل: عاطفةٌ، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾، وهذا العطفُ لا يدلُّ على أنَّ خلقَ السّمعِ للمولود كان بعدَ خروجه من بطنِ أمِّه؛ بل العطف هنا عطفُ خبرٍ على خبرٍ، وليس للتّرتيب، وذلك لأنَّ الجنينَ حين يولد تكونُ حاسّة السّمعِ عنده قد اكتملتْ، ونكتة تأخيره - أيّ: الجعل - أنّ السّمع ونحوه من آلاتِ الإدراك، إنّما يُعتدّ به إذا أحسّ الإنسانُ وأدركَ، وذلك لا يكون إلّا بعد الإخراج[4].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 218.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4230.
(4) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 206.

أو أنّ الترتيب مقصود، ويحمل السّمع على الاستماع والإبصار على الرّؤية[1]، أو لتقديمِ الظُّلمة (عدم العلم) على النّور (العلم والإدراك)، فالظّلمة المعنويّة سابقة على النّور المعنويّ، فانتفاءُ العلم ظلمة معنويّة مجازيّة، فهي متقدّمة بالزّمان على نور الإدراكات كلّها[2].

الثّاني: ابتدائيّة[3]؛ لأنّ الكلام قبلها قد تمّ، ثمّ ابتدأ بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، فاللّهُ قد جعلَ هذه الأشياء لهم قبلَ الخروج من بطونِ الأمّهات[4].

فائدة التّعبير بالجعل دون الخلق:

جعْلُ السّمعِ والأبصارِ والأفئدة، تصييرٌ وتهيئةٌ بعد خلقِ مادّة الإنسان

عبّر القرآن بالفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ دون (خلق)، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ - رغم أنّ بينهما تقاربًا دلاليًّا؛ فقد أتيا في بعضِ المواضع بمعنًى واحد - ؛ مراعاةً لعادةِ القرآن الّذي لم يستعملْ لفظَ (خلق) مع إيجادِ السّمع والبصر والأفئدة؛ ولأنّ الخلقَ هو إيجادٌ من عدمٍ وتقديرُ الأشياءِ على مثالٍ لم يُسبق إليه[5]؛ أيْ: إبداعُ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، ولذا استعمله القرآن في خلقِ الإنسانِ وخلقِ السّماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، بخلافِ الجعلِ الّذي ورد في اللّغة بمعنى التّهيئةِ والتّضمين والتّبعيّة، وإحداثِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه[6]، وهذا أنسبُ مع نعمةِ السّمعِ والبصرِ والعقل الّذي هيّئه اللّهُ للإنسان بعد أنْ خلقه من عَدَمٍ، يقول الشّعراويّ في معنى الخلق والجَعْل:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 251.
(2) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة، ص: 147، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 240.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 130، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 438.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 34.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(6) الرّاغب، المفردات، ص: 196.

"الحقُّ ﷻ قد خلقَ المادّة أوّلًا، ثم جعلَ من المادّة سمعًا وبصرًا"[1]، والخلاصةُ: أنّهما يشتركان في معنى إحداثِ الشّيءِ من الشّيءِ، ويتميّز لفظُ (الخلق) بمعنى التّقديرِ والإبداعِ والأوّليّة، بينما يتميّز الجعلُ بمعنى التّصيير والتّهيئة، وكونه محصّلًا من آخر.

تخصيص الله الإنسانَ وتمليكُه وسائلَ الإدراكِ تشريفٌ وتكليفٌ

معنى اللّام في قوله: ﴿لَكُمُ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ تُفيد معنيَين:

الأوّل: شِبْهُ التّمليك؛ أيّ إنّ هذه النّعم من السّمع والأبصارِ والأفئدةِ شبهُ ملكٍ للإنسان، والمالكُ الحقيقيّ لها هو اللّه تعالى.

الثّاني: الاختصاصُ؛ أي: أنّ اللّهَ اختصَّ الإنسانَ بوسائل الإدراك والوعي والحفظ؛ أيّ: خصّكم بالسّمعِ لتسمعوا مواعظَ اللّهِ، والأبصارِ لتبصروا دلائلَ اللّه، والأفئدةِ لتعقلوا عظمةَ اللّه، وكلا المعنيَين يفيدُ تشريفَ الإنسان وتكريمه، بما حمّله اللّهُ من أمانةِ التّكليف، ويشيرُ إلى وجوبِ إحساسه بهذهِ المسؤوليّة فإنّه سيُحاسَب عليها.

في التّقديم عنايةٌ بالمُقدَّم، وتشويقٌ للمؤخَّر

غرض تقديم شبه الجملة ﴿لَكُمُ﴾:

قدّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المَنْصوباتِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ لأمرَين:

الأوّل: الدلالةُ على العنايةِ والرّعايةِ من اللّهِ سبحانه بالمخاطَبين حرصًا على نفعهم واتّعاظهم بما أنعمَ بما سيذكره من نِعم، وللإيذانِ بكونِ المجعول نافعًا لهم، ولِتَشويقِ النَّفسِ إلى المؤخَّر؛ لِيَتمكَّنَ عِندَ وُرودِه عليها فضْلَ تَمكُّنٍ[2]، والمعنى: خلقَ لمنفعتِكم تلكَ المشاعرَ لتعرفوا أنّها مع كونِها في أنفسِها نعمًا جليلةً لا يُقادر قدرُها هي

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 10/ 5910.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.

وسائلُ إلى التَّمتّعِ بسائرِ النِّعمِ الدِّينيّة والدُّنيويّةِ الفائضةِ عليكم، وتشكروها بأنْ تصرفوا كلًّا منها إلى ما خُلق لهُ، فتُدركوا بسمعِكم الآياتِ التّنزيليّةَ النّاطقةَ بالتَّوحيدِ والبعثِ وبأبصارِكم الآياتِ التّكوينيّةَ الشّاهدةَ بهما، وتستدلّوا بأفئدتكم على حقيقتهما[1].

الثّاني: لما في قوله ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ من نوعِ طولٍ يُخِلُّ تقديمُه بجزالة النّظمِ الكريم[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ و﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ و﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾:

آلات إدراكِ الإنسان وتعليمه، إشارةٌ إلى كمالِ القدرةِ، ووجوبِ التّوحيد

(اللّام) في كلمة ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ و﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ و﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ جنسيّةٌ تُفيد العموم، أمّا في السّمع فقد دخلتْ على مصدرٍ يدلّ على الجنسِ الموجودِ في جميع حواسِّ النّاسِ، وأمّا الأبصار والأفئدة فقد دخلتْ على جمعٍ فأفادت عموم الأبصار والأفئدة عند كلّ النّاس، والمقصودُ: سمعُ وبصرُ وفؤادُ كلّ واحدٍ منّا منذ خُلق أبونا الأوّل آدم، وأُمّنا الأولى حوّاء وإلى آخر إنسانٍ في الأرض، وقد يُبتلى الإنسانُ فلا يكون له سمعٌ، ولا يكون له بصرٌ، ويكونُ مجنونًا فلا يكون له وعيٌ، ولكن هذا بالنّسبةِ للمجموع يكون نادرًا وقليلًا، والأصلُ في الأشياء العمومُ، والحكم للغالب[3]وهذا العموم يشيرُ إلى كمالِ قدرةِ الخالقِ سبحانه، ووجوبِ توحيده بالعبادة، وعدمِ إشراكه بأصنامٍ مخلوقةٍ لا تملكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا.

نكتة إفراد ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ في السّياق:

إفرادُ السّمع عادةٌ قرآنيّةٌ مُطّردةٌ لحِكَمٍ متنوّعةٍ

أفرد البيانُ الإلهيُّ السّمعَ ولم يجمعها بخلاف الأبصار والأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ لعدّة أمور:

الأوّل: لأنّ السّمع قوّةٌ واحدةٌ، ولها فِعلٌ واحدٌ؛ فالإنسانُ لا يضبطُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.
(3) الكتّانيّ، تفسير القرآن الكريم: 3/ 91.

في زمانٍ واحدٍ كلامَيْن، والأذنُ مَحلُّ السَّمعِ، ولا اختيارَ لها فيه؛ فإنَّ الصوتَ مِن أيِّ جانبٍ كان يَصِلُ إليه، ولا قُدرةَ لها على تَخصيصِ القوَّةِ بإدراكِ البعضِ دونَ البَعضِ، وأمّا الإبصارُ فمَحلُّه العينُ ولها فيه شِبهُ اختيارٍ؛ فإنّها تتحرَّكُ إلى جانبِ مرئيٍّ دون آخَرَ، وكذلك الفؤادُ محلُّ الإدراكِ، وله نوعُ اختيارٍ يلتفتُ إلى ما يُريدُ دون غَيرِه[1].

الثّاني: لأنّه جرى فيه على الأصلِ في إفرادِ المصدرِ؛ لأنَّ أَصْلَ السَّمعِ أنَّه مَصدرٌ، فهو دالٌّ على الجنسِ الموجودِ في جميعِ حواسِّ النّاسِ[2]، وكذلك فإنّ الأبصارَ اسمٌ، فهو ليس نصًّا في إفادةِ العمومِ؛ لاحتمالِ توَهُّمِ بصَرٍ مخصوصٍ، فكان الجمعُ أدَلَّ على قصدِ العمومِ، وأنفى لاحتمالِ العهدِ[3].

الثّالث: الجمعُ باعتبارِ المُتعلَّقاتِ؛ فلمّا كان البصرُ يَتعلَّقُ بأنواعٍ كثيرةٍ من الموجوداتِ، وكانتِ العقولُ تُدرك أجناسًا وأنواعًا، جُمِعا بهذا الاعتبارِ، وأُفرِدَ السّمعُ؛ لأنَّه لا يَتعلَّقُ إلّا بنوعٍ واحدٍ، وهو الأصواتُ[4].

الرّابع: لأنَّ التَّفاوُتَ في الأبصار والأفئِدة أكثَرُ مِن التَّفاوُتِ في السَّمعِ، بما لا يَعلَمُه إلّا اللّهُ تعالى[5].

الخامس: لكونِ إفرادِ السّمع عادةً قرآنية؛ فالمتتبّع لآيات اللّه الّتي تتحدّث عن السّمع يجد أنّها التزمتْ في ذِكْرِ السّمع الإفراد مُطلقًا، سواء اقترنَ به البصرُ والأفئدة أم لم يقترنْ، وسواء جاء منكّرًا أم معرّفًا بأل أو بالإضافة، ولم يقعْ في القرآنِ مجيءُ السّمع جمعًا في أيّ حالٍ من أحواله، ولم يَرِد في القرآنِ لفظُ الأسماع أبدًا[6].

سرّ تخصيصِ السّمع والأبصار والأفئدة بالذِّكْر:

خَصَّ البيانُ القرآنيّ الأعضاءَ الثّلاثةَ ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ لِشَرَفِها وفَضلِها، ولأنَّها مِفتاحٌ لكُلِّ عِلمٍ، فلا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 142.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 104، وحاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 345.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/ 1001.

وسائل الإدراك، مفاتيح العلوم والفهوم

وصَلَ للعبدِ عِلمٌ إلّا مِن أحَدِ هذه الأبوابِ الثَّلاثةِ، وبهما إدراكُ دَلائلِ الاعتقادِ الحقِّ[1]، وإلّا فسائِرُ الأعضاءِ والقوى الظّاهِرةِ والباطنةِ هو الّذي أعطاهم إيّاها، وجعَلَ يُنَمِّيها فيهم شيئًا فشيئًا إلى أنْ يَصِلَ كُلُّ أحدٍ إلى الحالةِ اللّائقةِ به؛ وذلك لأجلِ أنْ يَشكُروا اللّهَ باستعمالِ ما أعطاهم مِن هذه الجوارِحِ في طاعةِ اللّهِ، فمَن استعمَلَها في غيرِ ذلك كانتْ حُجَّةً عليه، وقابَلَ النِّعمةَ بأقبَحِ المُقابَلة[2].

بلاغة التّرتيب بين ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾:

المُدرَكُ بالسّمعِ أعمُّ، والمُدرَكُ بالبصرِ أتمُّ، والوعي بالأفئدة

قدّم البيانُ القرآنيّ ذِكْرَ السّمع، ثم أردف بالأبصار والأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ مراعاةً للسّياق الّذي يُصرّحُ بأنّ الإنسانَ يولدُ لا يعلمُ شيئًا، وأنّ الأصل فيه الجهل، وهو ما يدُلُّ على نَقصِه؛ لأنّ وسائلَ العلم والإدراك لم تعملْ بَعْد، فإذا أرادَ اللّهُ له أنْ يعلمَ خلقَ له وسائل العلم، لذا قدّمَ سبحانه ما يكونُ إدراكهُ أقدمَ من الإبصار والفهم وهو السّمع[3]، وقد بيَّن علماءُ وظائفِ الأعضاءِ أنّ هذا التّرتيب القرآنيّ للأعضاء هو التّرتيب الطّبيعيّ، فالطفلُ بعد الولادةِ يسمعُ أوّلًا، ثمّ بعد حوالي عشرة أيام يُبصرُ، فترى الطّفلَ يفزعُ من الصّوتِ العالي بعد أيام من ولادته، ولكنْ إذا وضعت أصبعك أمام عينيه لا يطرف؛ لأنّه لم يَرَ بعد، ومن السّمع والبصر وهما السّادةُ على جميع الحواسّ تتكوّنُ المعلومات الّتي في الأفئدة، هذا التّرتيبُ القرآنيّ الوجوديّ هو التّرتيب الطّبيعيّ الّذي وافق العلمَ الحديث[4]، وخلاصةُ حكمة هذا التّرتيب: أنّ القرآنَ بعد أنّ صرّح بأنّ الأصلَ في الإنسان الجهلُ بيّن طُرُقَ العِلمِ وترتيبها في الوجود والارتقاء: فأوّلها السّمعُ، ثمّ الأبصارُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 445.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8114.

وبهما الإدراكُ، أمّا السّمعُ فالمُدرَك به أعمُّ وأشملُ، والمُدرَكُ بالبصرِ أتمُّ وأكملُ، فالسّمعُ له العمومُ والشّمولُ، والبصرُ له الظّهورُ والتّمامُ وكمالُ الإدراك، ثم الأفئدةُ وبها الوعيُ والحفظُ.

ولتقديمِ السّمع على البصر حِكمٌ أخرى منها: مراعاة عادةِ القرآن الكريم[1]، ولأهميةِ السّمع؛ فهو أشرفُ نعمًا وأعظم نفعًا من البصر[2]، وهو طريقُ تلقّي الوحي[3]، ووسيلةُ بلوغِ دعوةِ الأنبياء إلى أفهامِ الأمم على وجهٍ أكملَ من بلوغها بواسطة البصر[4]؛ إذ لو كان النّاسُ كلّهم صُمًّا، ثم بُعِثَتْ الرّسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يُدرِكون آدابَ العبوديّةِ وأحكامَ الشّرائع؟ إذ الإشارةُ تتعذّر في كثير من الأحكام[5].

نكتة فصل قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

الإنعامُ يَبعَثُ العاقِلَ على الشُّكرِ، فهو غايةُ الخَلقِ ومنتهى الأمر

فَصَل البيانُ الإلهيّ بين جملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ عمّا قبلها، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بينَ الجملتيْن من كمالِ اتّصال؛ أيْ: اتّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ لكون قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ جاءَ بعد ذِكرِ أسبابِ الشّكر ودواعيه والباعث عليه من النّشأة الأولى وعظيم قدرة اللّه فيها، وما امتنّ به سبحانه من خلقِ الحواسّ الّتي جعلها سببًا لإدراكِ الأشياء وآلاتٍ لتحصيل العلم والمعرفة، وهذا من أعظم النّعم الّتي تستدعي من العبد شُكرَ اللّه بتَوحيدِه ونَبذِ الإشراك؛ فإنَّ الإنعامَ يَبعَثُ العاقِلَ على الشُّكر؛ لهذا قال تعالى عَقِبَه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[6]، فالشّكرُ هو الغايةُ مِن خَلقِه وأمرِه؛ بل هو الغايةُ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 152.
(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 345.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 152.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 231.

الّتي خلَقَ عَبيدَه لأجْلِها[1]، والمعنى: "كي تعرِفوا ما أنعمَ به عليكم طورًا غِبَّ طَورٍ فتشكروه"[2]، بأنْ توجّهوا القوى العاقلة فيكم لتؤدّي وظيفتها، وأنْ يفتح الإنسانُ منها طاقةً على هذا الوجود، فيرى ما لبسه من نعمِ اللّه عليه، وإحسانه إليه، فيحمده ويشكر له[3].

الغرض من التّعبير بأسلوب التّرجّي (لعلّ):

شكر المشركين، يشوبهُ احتمالُ التّخلّفِ والتّقاعس

عدلَ القرآنُ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ عن لامِ التّعليل، وأتى بحرف الرّجاء (لعَلّ) فلم يَقُلْ: (لتشكروا)؛ لكونِ (لعَلّ) ترجّيًا فيه معنى التّعليل، ولكنّها تومئُ إلى أنّ شكرهم لنعمِ اللّه أمرٌ يتطرّقه احتمالُ التّخلّفِ، وذكرُ حرفِ التّعليل يفوّت هذه الخصوصيّة، والمعنى: "رجاء أنْ تشكروا لتوافرِ أسباب الشّكرِ ودواعيه، والرّجاء من العباد، لا من اللّه ﷻ"[4]؛ أيْ: "لتصيروا - بمعارفِ القلوبِ الّتي وهبَكُموها إذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات - في حالٍ يُرجى فيها شكركُم لِما أفاضَ عليكم من لطائف صنعه، بأنْ تعرفوا ما له من العلمِ والقدرةِ وحُسنِ التّعرّف، فتعترفوا له بجميع ما أتتكم به رسله"[5].

وللتّعبير بـ (لعلّ) قبل لفظ ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ تحقيقٌ للغرضِ البلاغيّ منها وهو إبرازُ المتَمَنَّى في صورةِ الممكن المطْموعِ فيه، بغيةَ الإشعارِ بكمالِ العنايةِ به، والتّلهُّفِ على الحصولِ عليه، أو تحقيقه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

استمرارُ شكرِ النّعمِ، سببٌ في دوامها، ودليلٌ على صِدْقِ شكرها

استعملَ البيانُ القرآنيُّ صيغة المضارع ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ للتّنبيهِ على وجوبِ استمرارِ شكرِ نعمِ

(1) ابن القيّم، عدّة الصّابرين، ص: 119.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 335.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4231.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.

اللّهِ بتوحيده، وألّا يحيدوا عن أسبابِ بقاءِ عزّهم، وممّا يُعلّل هذا الاستمرار في الشّكر ويؤكّده أنّ هذه النِّعم هي نِعَمٌ نستخدمها في كلّ لحظةٍ، لا تفارقنا لا في اللّيل ولا في النّهار، فهي أدعى أنْ تُذكِّرنا بشكرِ خالقنا على ما أنعم علينا، بخلاف نِعَمٍ أخرى لا يستخدمها الإنسان إلّا في أوقاتٍ متفرّقة.

ولذلك جاء الحثّ على شكرها في آيات أخرى؛ منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [المؤمنون: 78] وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السّجدة: 9] وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك: 23].

الغرضُ من حذفِ المفعولِ به للفعل ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

مع النِّعم الّتي لا تُحصى، يكون العمومُ أدلَّ على كُنْهِ الشّكرِ المطلوب

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم الّذي يدلُّ على كُنْهِ الشّكرِ المطلوب؛ إذ لو ذُكرَ المفعول به لأدّى ذلك إلى تخصيصِ الشّكرِ بأمرٍ واحدٍ، وهذا مُخلٌّ بالإفصاحِ عن كُنْهِ المطلوبِ منهم، وهو الشّكرُ على جميعِ نعمِه الّتي لا تُعدّ ولا تُحصى في سورة سُمِّيَتْ بسورة النِّعم، والمعنى: لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ نعمةَ الإيجاد ونعمةَ الإمداد، أظهركم أوّلًا من العدمِ، ثم أمدّكم ثانيًا بضروبِ النّعم طورًا بعد طورٍ، حتّى قدمتم عليه(1).

سرّ التّعبير بالشّكر دون الحمد:

كثرةُ نعمِ الله تستوجبُ الشّكرَ باللّسانِ والجوارحِ والجَنان

عبّر البيانُ القرآنيّ بالشّكر دون الحمد في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ مراعاةً للسّياق الّذي يتحدّثُ عن نِعَم تستوجبُ الشّكرَ، قد وصلتْ لكلّ إنسانٍ من الإيجادِ والإخراجِ والإمدادِ بوسائل الإدراكِ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 151.

والوعي والفهم، والشّكرُ عليها يكون باللّسانِ ثناءً، وبالجوارحِ عملًا بما خُلقتْ من أجله، وبالجَنانِ رضًا عن اللّه، وهذا أنسبُ مع الشّكر الّذي هو التّعظيمُ لأجلِ إنعامٍ وصلَ إلى الشّاكر[1]، والّذي يكون باللّسانِ والجوارحِ والجَنان[2].

كما أنّ الشّكر ضدّ الكفر[3]، ويمكن أن يكون المعنى: لعلّكم تؤمنون، والسّياق هنا يدلّ على ذلك؛ فالآيات السّابقة تتحدّث عن توبيخ المشركين، وعبادتهم غير اللّه، وعن كمال علم اللّه وكمال قدرته سبحانه وعن عظيمِ نعمه الّتي امتنّ بها عليهم، فناسب ترجّي إيمانهم بعد كلّ هذا.

توجيه المتُشابِه اللّفظيّ:

التّذليلُ بما يناسبُ سياق كلّ آيةٍ، أسلوبٌ قرآنيٌّ بليغ

قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [المؤمنون: 78]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك: 23]، ففي سورة النّحل ختم اللّه الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، بينما في سورة المؤمنون وسورة المُلك ختم بقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾؛ أيّ ورد في هاتيْن الآيتيْن نفي شكرهم على المعروف من هذه العبارة أو تقليله بمقتضى اللّفظ، وفي آية النّحل ترجّي شكرهم مع اتحاد المقصود من إبداء عظيم النّعمة بالإسماع والإبصار، فللسّائل أنْ يسأل عن الفرق؟

والجواب، واللّه أعلم: هو مراعاة السّياق في كلّ موضع، ففي سورة النّحل الآية مبتدَأةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فناسبَ هنا ذكر التّرجّي؛ لكونه وصفَ

(1) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/ 19.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/ 450.
(3) الشّاطبيّ، الموافقات: 4/ 220.

حالٍ قبل تعيين التّكليف، وورود التّرجي لأنْ يكون منهم الشّكر لذِكْره إيّاهم في حالٍ لم يتهيّؤوا فيها بعد لقبول أمرٍ أو نهيٍ أو إعراضٍ عن ذلك، ولا يتعلّق بهم التّكليف، فناسب قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أمّا الآيتان فالإخبارُ فيهما عن أحوالِ مَنِ اسْتوفَى سنّ التّكليف وعقلَ الخطابَ وشاهدَ العظات وفهمها، وتكرّر عليه التّذكار فلم يجد عليه شيئًا، فناسب ذلك نفيُ شكرهم، فقد وضَحَ التّناسب في هذه الآي، ووردتْ كلّ واحدة منها على ما يجب، وإنَّ عكس الوارد غير مناسب[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القلب والفؤاد:

القلبُ مُضغةٌ في الصّدرِ مُتقلّبةٌ بالأفكارِ، والفؤادُ وعاءُ القلبِ مُتحرّقٌ مُتحرّك

القلب: أصلُ (قلب) يدلّ على رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ، أو على خالصِ الشّيءِ وشريفه (باطنُ الشّيءِ ولُبُّه)[2]، ومنه قلبُ الإنسان؛ وهو الجارحةُ والمُضغةُ المعروفةُ الّتي في الصّدر، فهي أشرفُ ما في الإنسان وأخلصه[3]، وسُمّي بذلك لكثرةِ تقلّبه، ويُعبّر بالقلبِ عن العقلِ، وعن المعاني الّتي تختصّ به من الرّوح، والعلم، والشّجاعة، وغير ذلك[4].

أمّا الفؤادُ؛ فأصلُ (فأد) يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ، وسُمِّيَ الفؤاد بذلك لحرارته[5]، والفُؤادُ: القلبُ، لكنْ يُقال له: فُؤادٌ إذا اعتُبر فيه معنى التَّفَوُّدِ؛ أيْ: التّوقّد[6]، وقيل: أصله من الحركةِ والتّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ؛ لأنّه ينبضُ ويتحرّك كثيرًا[7].

---

(1) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 304.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قلب).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 681، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 289.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأد).
(6) الرّاغب، المُفردات، ص: 646.
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).

ومن العلماء مَن ذَكَر فروقًا بينهما، ومن هذه الفروق أنّ القلبَ: مضغةٌ من الفؤادِ مُعلّقة بالنّياط، والقلبَ أخصُّ من الفؤادِ لحديث: "أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ قلوبًا وألْيَنُ أفئدةً"[1]، فوصف القلوب بالرّقّة والأفئدة باللّين[2]، وأنّ الفؤاد هو وعاءُ القلب فيما قيل، وقيل: داخله، وقيل: غشاؤه، والقلبُ: حبّته[3].

(1) صحيح البخاريّ، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريّين وأهل اليمن، رقم: 4388.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (القلب)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 289.

(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تمثيل بدليل آخر على كمالِ قدرته سبحانه، بمشهد الطَّيْرِ السّابحِ في جوّ السّماءِ

في مناسبة الآية لِما قبلها أربعة أوجه:

الأوّل: لمّا ذكر اللّه قدرته في خلق الإنسان وتكريمه بمدارك العلم الثّلاثة: السّمع، والنَّظر، والعقل في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ ناسبَ ذِكْر مدرك الحسِّ بذِكْر النَّظر ومدرك العقل بالتّفكّر في عدم سقوط الطّائر مع ثِقَل جسمه، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

الثّاني: لمّا ذكر اللّه في الآية السّابقة دليلًا على كمالِ قدرته فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ نبّه عباده إلى دليلٍ آخر على كمال قدرته، وحضّ سبحانه على التّفكّر في مظاهر قدرته فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

الثّالث: إذا لم يكن في الإنسان نظرٌ يرى ما بداخل كيانه، ويعتبر من أصلِ خلقه كما أفاده قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فليقم نظره على هذا العالم الخارجيّ، وليوجّه مدار نظره على هذا الطّير السّابح في السّماء، وليسأل نفسه: مَن يمسك هذا الطّير أنْ يقع على الأرض؟[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: أصلُ (سخر) يَدُلُّ على احتِقارٍ واستِذلالٍ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 575.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 119، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 206.
(3) الخطيب، تفسير القرآن بالقرآن: 7/ 335.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).

وسَخَّرَهُ تَسْخِيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلا أُجْرَةٍ، وسَخَّرَهُ سُخْرًا وسُخْرِيًّا: كَلَّفَهُ ما لا يُرِيدُ وقَهَرَهُ، والتَّسْخِيرُ: التّذليلُ، وكُلُّ ما ذَلَّ وانْقادَ أو تهيّأ لَكَ عَلَى ما تُرِيدُ فقَدْ سُخِّرَ لَكَ، وتَسْخِيرُ اللّه الأرض وما فيها والشّمسَ والقمرَ والنّجومَ لِلْآدَمِيِّينَ هو إجراؤها على ما يوافقهم وأنْ ينتفعوا بها مختلفَ وجوهِ الانتفاعِ مذلّلة لهم فضلًا منه تعالى[1]، والتَّسْخِيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المُختصّ قهرًا، فالمُسَخَّرُ هو المُقيّض للفعل، والسُّخْرِيُّ: هو الّذي يقهر فيَتَسَخَّرُ بإرادته[2]، والسُّخَرَةُ أيضًا: الضُّحَكَةُ؛ أيْ: بِمعنى: مَنْ يَسْخَرُ مِنْهُ النّاسُ ويَسْتَهْزِؤونَ بِهِ[3].

والمقصود بالتَّسْخِيرِ في الآية: التَّذليلُ[4]، والمعنى: مُذلّلات للطّيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك[5].

2) ﴿جَوِّ﴾: أصلُ (جو) شَيءٌ واحِدٌ يحتَوي على شَيءٍ مِنْ جَوانِبِهِ، فالجَوُّ جَوُّ السَّماءِ[6]، والجَوُّ: الهَواء، وجوُّ السّماء: الهَواءُ الَّذِي بَيْنَ السَّماءِ والأرض، والجَوُّ والجَوَّة المُنْخَفِضُ من الأرض، وأيضًا: كلّ ما اطمأنَّ من الأرْض، وجوُّ كل شَيْءٍ بَطْنُه وداخِله[7]، والمقصود بالجَوِّ في الآية: الفَضاءُ الَّذِي بَيْنَ الأرضِ والسَّماءِ[8]، و﴿جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾: الهواءُ المتباعد عن الأرض[9].

3) ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾: أَصْلُ (مسك) يَدُلُّ عَلَى حَبْسِ الشَّيْءِ أَوْ تَحَبُّسِهِ، والإمساكُ: البُخْلُ[10]، وأصلُ إمساكِ الشَّيء: التّعلُّق به وحفظه[11]، والإمساكُ أيضًا: القَبْضُ، والكفُّ والامتِناعُ والاعتصام، يُقالُ: أمسَكْتُ الشَّيْءَ بِيَدِي إمساكًا؛ أيْ: قَبَضْتُهُ، وأمسَكَ عن الطَّعامِ؛ أيْ: كَفَّ عَنْهُ وامتَنَعَ، وتَمَسَّكتُ بالشّيء واسْتَمسَكت به: اعْتَصَمتُ[12]، والمقصودُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (سخر).
(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 402.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سخر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/ 226.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جو).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (جو)، وابن منظور، لسان العرب: (جوا).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(9) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/ 226.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).
(11) الرّاغب، المُفردات، ص: 768، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 4/ 93.
(12) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (مسك).

بالإمساك في الآية: الشَّدُّ عَنِ التَّفَلُّتِ، والمعنى: ما يمسكهنّ عن السّقوط إلى الأرض من دون إرادتها، وإمساك اللّه لها بأنْ خلق لها أجنحةً وأذنابًا(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مشهدُ الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ في جوّ السّماءِ، عجيبةٌ أخرى من آثارِ القُدرةِ الإلهيّة

نبَّه اللّهُ إلى دليلٍ آخر على كمالِ قدرته سبحانه فقال مخاطبًا المشركين والنّاس أجمعين: ألم تنظُروا إلى الطُّيورِ الّتي ذلَّلَ اللّهُ لها الطَّيرانَ بأجنِحَتِها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، ما يُمسِكُها في الجوِّ إلّا اللّهُ بقُدرته، إنّ في هذا التَّسخيرِ حيث خلَقَها اللّهُ تعالى خِلقةً تَصلُحُ معها للطَّيرانِ، وخلَقَ هذا الهواءَ اللَّطيفَ بحيث يُمكِنُ الطّيرانُ فيه، مع إمساكِها في الهواءِ على خلافِ طَبْعِها(2) لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على وحدانيَّةِ اللّهِ، وكَمالِ قُدرته، وحِكمته وعِلْمِه لِقَومٍ يقرّون بوجدان ما تعاينه أبصارهم، وتحسّه حواسّهم(3)، وبما جاءتْ به رسلهم(4).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

تَعليلٌ وتَدليلٌ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى ومَزيدِ فضلِه ولُطْفِه

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ آيةَ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ﴾ عن الآية الّتي قبلها ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ للاستئناف التّعليليّ؛ إذ جاءتْ تعليلًا وتدليلًا على عظيمِ قدرةِ اللّه وبديعِ صنعه وعلى لطفهِ بالمخلوقات، فهذه الآيةُ دليلٌ آخر على كمال قدرته سبحانه، فاقترن ذِكرُ موهبةِ العقلِ والحواسّ الّتي بها تحصيلُ المنافعِ ودفعُ الأضرار مع لفتِ انتباهِ النّاس إلى لطفٍ يشاهدونه في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 236.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 152.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 316، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 152.

تسخير الجوّ للطَّير وخلقها صالحةً كي تُرفرف فيه بدون تعليم مع ضعف بنياتها، ومن أجلِ هذا لم يأتِ بينهما بعاطف، فهي ليست في مضمونها نعمةً على البشر، ولكنَّها آيةٌ على قدرةِ اللّه تعالى وعلمه[1].

الغرض من الاستفهام ونوعه:

أصحابُ النَّظرِ والعقولِ، يَصلون من عَظيمِ صُنعِ المَخلوقِ إلى الخالقِ

يختلفُ نوعُ الاستفهام تبعًا لقراءةِ الخطاب أو الغَيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

فإنْ كان بقراءةِ الغيبة ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ فيكون الاستفهام إنكاريًّا، وذلك لإنكارِ الوقوع فيكون بمعنى النَّفي المُؤكَّد بإقرار السّامع، كأنّه سُئل وأجاب بالنَّفي، ودخلتْ أداة الاستفهام على حرف النَّفي، ونفيُ النَّفي إثبات، والمعنى: لقد رأوا الطَّير مُسخَّرات؛ أيْ: مُذلَّلات سخَّرها اللّه تعالى لتسيرَ في الجوّ، من غيرِ حاملٍ يحملها، ولا مُمسكٍ يُمسكُها، وهي مع هذا مُسخَّرة لخدمة الإنسان[2]، وظهرتْ بلاغة الاستفهام في نفيِ رؤيتهم مع أنَّهم يرونها فوقهم، لكنْ لَمّا لم يستدلّوا من خلالها على انفرادِ اللّه تعالى بالإلهيّة، واستحقاقه بالعبادة وحده دون سواه، صاروا كأنَّهم لم يروها[3]، ويكون غرضُ الاستفهام التّوبيخَ والتّقريعَ وإقامة الحُجّة عليهم، فالإنكارُ هنا ليس لنفسِ الرُّؤية؛ بل لِلازمها، وهو التَّفكُّر والاعْتبار[4]، وأمّا على قراءة الخطاب (أَلَم تَرَوۡا)[5] فيكون الاستفهام تقريرًا لِمَن ينظر إليهنّ، وتعجيبًا من شأنهنّ[6]، ويُقوّي معنى التَّقرير ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4232.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 22.
(5) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 304.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 314.

تجدّد الرّؤية في تسخير الطّير، موصلٌ إلى العلم بقدرة الخالق

نكتة التّعبير بجملة ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيّ بـ (الرّؤية) في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ دون غيرها من الألفاظ، وذلك لأمور، منها:

أوّلًا: اتّساع دلالة لفظ (الرّؤية) من حيث مادّتها، إذ أصلُ (رأى) يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصِيرَةٍ[1]، ويُطلق لفظ (رأى) على النّظر بالعين، وكذلك على التّفكّر، والرّؤية بالقلب؛ أيّ: بالعقل[2]؛ أيّ: الرّؤية تشمل: إدراك المرئيّ بحاسّة البصر، أو بالفكر والعقل.

ثانيًا: مناسبة السّياق؛ إذِ السّياق هنا في الاستدلال على عظيمِ قدرةِ الله وبديعِ صنعه، والحثّ على الاعتبار، وهذا يتطلّب المشاهدة والنّظر والتّفكّر وإعمال العقل للوصول إلى الإقرار بقدرة الخالق سبحانه، والإيمان به، وكلّ هذه المعاني موجودة في لفظ الرّؤية.

أمّا من حيث الصّيغةُ: فقد آثر النّسق القرآنيُّ صيغةَ المضارعِ ﴿يَرَوۡاْ﴾؛ لإفادةِ تجدُّدِ مضمونه وتكرُّره، فمشهد الطّير في جوّ السّماء مشهد مُتكرّر، والمطلوب أن يُجدِّدوا الرُّؤية ويكرِّروها؛ ليستدلّوا على قدرة الخالق والإيمان به، وهذا ما يدعو إليه القرآن.

والرّؤية المقصودة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ﴾ هي النّظر المؤدّي إلى الاعتبار، والمعنى: ألم ينظروا نظر تأمّل وتعقّل فيعتبروا، إذن: ليس المقصود بالرّؤية هنا مجرّد الرّؤية البصريّة، وإنّما المُراد النّظر الموصِّل إلى الاعتبار والإيمان بالله القدير للكافر، وزيادة الإيمان وثباته للمؤمن، ويؤكّد ذلك تعدية فعل الرّؤية بـ﴿إِلَىٰ﴾، يقول الرّاغب: "رأى إذا عُدِّي إلَى مَفْعولَيْن اقْتَضَى مَعْنَى العِلْم، وإذا عُدِّي بـ (إلى) اقْتَضَى مَعْنَى النَّظَرِ المُؤدِّي إلَى الاعْتِبار"[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 375.

بلاغة توجيه القراءات، في قوله: ﴿يَرَوۡاْ﴾:

آياتُ اللهِ على الكافرينَ حجّةٌ وبرهانٌ، وهي للمؤمنينَ زيادة إيقان وإيمان

قرأ الجمهور ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ بياء الغائب، وقرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة وخلف بتاء الخطاب (أَلَم تَرَوۡا)[1]، وحُجّة مَن قرأ (ألم تَروا) بالتّاء: أنّ المخاطبة لاصقة بقوله قبلها: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فكَذَلِك (ألم تروا)، وحُجّة مَن قرأ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ بالياء أن يردّ إلى قوله قبل آيات: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾[2].

فتكون قراءة الغَيۡبة على طريقة الالتفات، وذلك إعراضًا عن خطاب المشركين في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ﴾.

أو ليس التفاتًا، باعتبار غَيبة ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ في الآية السّابقة: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وحينئذ فالإنكارُ باعتبارِ اندراجهم في العامّة[3]، ولم يُجعل التفاتًا لما عرفت من أنّ عبدة الأصنام أليق بالتّوبيخ المُستَفاد من الاستفهام الإنكاريّ[4].

وأمّا القراءة بتاء الخطاب (ألم تروا) إمّا على نفسِ أسلوبِ الآية السّابقة؛ وذلك توبيخًا للمشركين، أو على أنّه خطاب للعامّة؛ أيۡ: لجميع المخلوقات المُخاطَبين قبله في قوله: ﴿أَخۡرَجَكُم﴾، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾؛ وإنمّا تعرّض له؛ لأنّ الاستفهام الإنكاريّ يقتضي ظاهرًا أنّ المخاطَبين مَن يعبدون مِنۡ دونِ الله عَلَى طريق الالتفات فأشارَ إِلَى أنَ الإنكار باعۡتبار اندراجهم تحت العموم، فلا يقتضي تلوين الخطاب[5].

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 304.
(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 393.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/ 357.
(4) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 347.
(5) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 347.

علّة تعدية فعل الرُّؤية بـ ﴿إِلَى﴾:

الدّليلُ على إرادة النّظر المُؤدّي إلَى الاعْتِبار

يحتمل فعل الرّؤية معنى النّظر بالعين، ويحتمل معنى العلم؛ أي: الرّؤية القلبيّة، ومعنى النّظر البصريّ المؤدّي إلى الاعتبار، ولّما عدّى البيانُ القرآنيّ فعل الرّؤية بـ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد معنى النَّظَرِ المُؤدِّي إلَى الاعْتِبار، قال الرّاغب: "(رأى) إذا عدِّي إلَى مَفْعولَيْن اقْتَضَى معْنَى العِلْم، وإذا عُدِّي بـ (إلى) اقْتَضَى معْنَى النَّظَرِ المُؤدِّي إلَى الاعْتِبار"[1]، وعلى ذلك يكون فعل ﴿يَرَوْاْ﴾ مُتضمّنًا معنى (ينظروا)[2]، وهذا المعنى المُراد يناسب السّياق الوارد في الاستدلال على عظيم قُدرةِ اللّه وبديعِ صُنعه، والحثّ على الاعتبار من خلال النّظر بالعين والتفكّر وإعمال العقل للوصول إلى الإقرار بقدرة الخالق سبحانه، والإيمان به.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلطَّيْرِ﴾:

النّظرُ إلى أيّ طيرٍ في السّماءِ فيه استدلالٌ على كمالِ قدرة الخالق

(اللّام) في كلمة ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة تُفيد العموم، فهي تشملُ كلَّ ذي جناح يسبح في الهواء، فالنّظر إلى أيِّ طيرٍ في السّماء يدلُّ على قدرة اللّه تعالى وعظيم خلقه، وكلمة (طير) إمّا أنّها مفرد، ومصدره جُعلَ اسمًا لجنسه، أو هي جمعٌ في الأصل على وزن راكب وركب، فيكون المفرد طائرًا، والجمع طيرًا، ويُقال في الجمع أيضًا: طيور وأطيار[3].

سِرُّ التّقييد بالحال، في: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾:

حالُ الطّيرِ المُذلَّلة للطّيران دليلٌ على كمالِ قدرة خالقها

كلمةُ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ حالٌ من الطَّير، والمعنى: ألم يروا إلى الطّيرِ حالَ كونها

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 375.

(2) تفسير ابن عرفة: 3/ 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.

(3) حقّي، روح البيان: 10/ 91، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 439.

مُسخَّرات تطير؟ وتخصيصُ النَّظر إلى حالِ كونها مُذلّلة تطيرُ في جوّ السّماء أكثر حثًّا على إعمال العقل في التّفكُّر في قدرتها على الطّير في السّماء بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة لها، والبحث عن مُمسكها، وهذا فيه دلالة على كمال قدرته سبحانه، ويؤكّد ذلك مجيءُ الحالِ بصيغةِ اسم المفعول؛ ليدلَّ على أنَّ للطَّير مُسخِّرًا، وهو اللّه ﷻ[1]، فالطَّيرُ مُذلَّلة لأنْ تطيرَ، ومُنقادة لأنْ تسبحَ في الهواء، فطيرانُ هذه المخلوقات وتحليقها في الجوّ، إنّما هو بسببِ تسخيرِ اللّه هذه الحيوانات لتكون طائرة.

سرّ إضافة الجوّ إلى السَّماء، في السّياق:

بيانُ العلوِّ، وكمالُ القدرَة، وعظيمُ التّسخير

معنى الجَوّ في اللّغةُ: الهَواء، وجوُّ السّماء: الهَواءُ الَّذي بَيْنَ السَّماءِ والأرض، وجوُّ كلّ شَيْءٍ: بَطْنُه وداخِله[2]، والمُراد بجوّ السّماء في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو الفضاء الواسع ما بين السّماء والأرض، والهواء البعيد من الأرض.

وإضافة لفظ ﴿جَوِّ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إضافةٌ بيانيّة؛ لأنّ السّماء كلمة واسعة جدًّا؛ تُطلَق على الفضاء والسَّحاب والمطرِ والسَّقف[3]، وفي اللّغة: كلّ ما علا وارتفع ممّا عدا الأرض، فأتت الإضافة هنا لتُبيّن أنّ المُراد هو الفضاء الّذي بَيْنَ الأرض والسَّماءِ، ولتدلّ على علوِّ هذا الفراغ السّماويّ؛ لأنّه يبدو مُتّصلًا بالقبّة الزّرقاء في ما يخال للنّاظر[4]، وفي هذه الإضافة إظهارٌ لكمالِ قدرته سبحانه لأنّ التّسخير في جوّ السّماء محضُ الإلهيّة.

وكذلك هذه الإضافة تُعطي مدلولًا مُهمًّا، وهو أنَّ الجوَّ الَّذي هو الهواء بنسبة واحدة مع السّماء، فالهواء هو العامل الأساس في ثبات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 575، والهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/ 139.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (جو)، وابن منظور، لسان العرب: (جوا).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 317.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.

الأشياء في الكون، وإلّا لو كان متفاوتًا ومختلفًا من مكان إلى مكان في السّماء لما استطاعت الطّير أنْ تسبحَ في السّماء، وأنْ تتحكّم بنفسها فيها(1).

سرّ التّعبيرِ بلفظ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾، وأثره في المعنى:

التّعبيرُ بالتّسخيرِ، مبالغةٌ في إظهارِ قدرة الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ التّسخيرِ دون غيره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾؛ مبالغةً في إظهار قدرة الله، من حيث إنّ معنى التّسخيرِ جعلُ الشّيءِ مُنقادًا لآخرَ يتصرَّفُ فيه كيفَ يشاءُ؛ كتسخير البحر والفُلك والدّوابِّ للإنسان، والواقع ههنا تسخيرُ الهواء للطّير لتطيرَ فيه كيف تشاء؛ فكان مقتضى طبيعةِ الطير السّقوطَ، فسخّرها الله تعالى للطّيران، وفيه تنبيه على أنّ الطّيران ليس مقتضى طبعِ الطّير؛ بل ذلك بتسخير الله تعالى لها(2)، وبسبب ما أوجد لها من حواسَّ ساعدتها على ذلك، كالأجنحة وغيرها(3).

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

دعوة النّاس إلى التّفكّر في سماءٍ يألفونها، إقامةٌ للحجّة عليهم

(ال) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهد، والعهد فيها ذهنيٌّ؛ فهي سماء معهودة عندهم، فاللّٰه سبحانه يخاطب خلقه، ويأمرهم أنْ ينظروا إلى الطّير في جوّ هذه السَّماء، وهي الجوُّ المرتفع فوقهم ليروا كيف يمسك الله الطَّير فيها، ويمنعها من السُّقوط، وفي هذه اللّام العهديّة إشارةٌ إلى أنّ التّفكُّرَ في الطّير المُذلّلة في جوّ السّماء هو في مقدور كلّ إنسان يملكُ بصرًا وعقلًا، ودعوةٌ له إلى النّظرِ والتّدبُّر؛ إذ هو في مقدوره، وفي هذا إقامة للحُجّة عليه.

نكتة فصل قوله: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾:

بين الاستئناف الّذي يُبيّن قدرةَ اللهِ، والحال الّذي يؤكّد الحفظ والقدرة

فصَل البيانُ القرآنيّ هذه الجملة عن سابقتها ولم يأتِ بينهما بعاطف؛ لأحد أمرين:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8120.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(3) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 207.

إمّا لأنَّها جاءت مُستأنفة[1] استئنافًا بيانيًّا؛ إذ بين الجملتَيْن شبه كمال اتّصال، فكأنّ سائلًا سأل: كيف لا تقع هذه الطّير ومَن يمسكها؟ فأُجيب: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، والغرض من هذا الاستئناف الإقرارُ بأنّ اللّه وحده القادر على أنْ يمسك الطّير من أن تقع أثناء طيرانها فيؤمنوا به.

وإمّا لأنّ بينهما اتّصالًا عضويًّا إعرابيًّا؛ حيث جاءتْ في محلّ نصب حال ثانية من الضَّمير المُستتِر في مُسَخَّراتٍ أو من الطَّيْرِ[2]، وهذا فيه توكيد لحفظهنّ عن السُّقوط لطفًا منه، وتوكيد قدرة اللّه في ذلك.

سرّ مجيء ضمائر التّأنيث في ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ و﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾:

طَيرٌ ضَعيفةٌ لا حِيلةَ لها، وربٌّ قويٌّ قادرٌ يُمسِكُها

الأصل في اللّغة أنَّ الطَّير يُؤنَّث ويُذكَّر، والتَّأنيث أكثر وأفصح، والواحد طائر، والأنثى طائرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ [ص: 19][3]، وجاء النَّصُّ القرآنيُّ في اللّفظتيْن: ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ و﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾ بالتّأنيث لنكتة بلاغيّة مُهمّة، وهي الإشارةُ إلى ضعفها في أنفسها لولا تقوية اللّه لها[4]، ومع ضعفها جاء وصفُها بجمع الجمع ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾[5]؛ ليدُلَّ على أنَّه مهما كثر عددُها ومهما كان مستوى ضعفِها فإنَّ اللّهَ يُمسكها ويحفظها.

بلاغة أسلوب القصر ونوعه في السّياق:

اللّهُ وحدهُ يُمسِكُ الطَّيرَ لا يُشارِكُه في إمساكه أحَدٌ

جاء البيانُ الإلهيّ في هذه الجملة ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ بأسلوب القصر؛ ليعطي معنى الحصر والاختصاص باللّه ﷻ وأنَّه لا يشاركه في إمساك الطَّير أحدٌ، وهذا القصر حقيقيٌّ، وقصر صفةٍ

---

(1) العُكْبَريّ، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 130.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/ 358، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 130، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.

(3) ابن سِيدَه، المُخصَّص: 5/ 179.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 252.

(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 135.

على موصوف؛ لأنَّ المقصور اختصَّ بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع، ولا يتعدّاه إلى غيره أصلًا، وهذا من ضروب الإيجاز؛ إذ إنَّ جملة القصر في مقام جملتَين، فقوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ تعادل: الإمساك للّه، وليس لأحدٍ غيرِه أنْ يمسكها[1].

نكتة التّعبير بالإمساكِ مادّةً وصيغةً:

صورةُ حفظ اللهِ للطّير من التّفلّت، دليلٌ على كمالِ قدرته

عبّر البيان القرآنيُّ بلفظ ﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ دون غيرها من الألفاظ كالقبض مثلًا، فلم يَقُلْ: (ويقبضهنّ)، إذ أصل الإمساك في اللّغة يدلُّ على حَبْسِ الشَّيْءِ أَوْ تَحَبُّسِهِ[2]، ويكون للحفظ وعدم التَّفلُّت، مما يتناسب مع سياق إمساك الطّير في جوّ السّماء وحفظه من التّفلّت والوقوع لطفًا وحماية له، ولا يناسبه القبض الّذي هو جمع الشّيء في قبضة اليد بشدّة لتملّك.

كما أنَّ التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾ التّي تُفيد معنى التّجدّد والاستمرار والتّصوير تتناسب أيضًا مع السّياق الّذي يخبر بكمال قدرته سبحانه، وبأنّ إمساكَ اللّه تعالى للطّير صورةٌ مستمرةٌ متجدّدةٌ، لا تتخلّف في وقتٍ من الأوقات.

نوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾:

حصرٌ يؤكّدُ حفظَ اللهِ للطّير

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ أداةُ حصر، ونوعُ الاستثناء فيها مفرّغٌ؛ لأنّ ما قبله مفتقرٌ إليه، فقوله: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ فاعل للفعل ﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾، والمستثنى منه محذوف، والتّقدير: وما يمسكهنّ من أحدٍ إلّا اللّه، وقد أفادَ الحصر والتّأكيد على حفظِ اللّه للطير.

بلاغة المجاز في التّعبير بالإمساك:

الإمساك هو الشَّدُّ عَنِ التَّفَلُّتِ، والمعنى: ما يمسكهنّ عن السّقوط

(1) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 171.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).

إسنادُ إمساك الطّير إلى الله، مجازٌ عن حفظِها ورعايتِها واللُّطفِ بها

إلى الأرض من دون إرادتها، وإمساك اللّه لها بأنْ خلق لها أجنحةً وأذنابًا، وجعل هذه الأجنحة والأذناب قابلة للبسط، وخلق عظامها أخفّ من عظام الدّوابّ بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفَّت خفّة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأن يخرق ما تحتها من الهواء إلّا إذا قبضت من أجنحتها وأذنابها وقوّست أعصاب أصلابها عند إرادتها النّزول إلى الأرض أو الانخفاض في الهواء، فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثمّ تقع متى شاءت أو كلَّت. فَلَوْلا أنَّ اللّه خَلَقَها عَلى تِلْكَ الحالَةِ؛ لَما اسْتَمْسَكَتْ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ إمْساكًا عَلى وجْهِ الِاسْتِعارَةِ، وهو لُطْفٌ بِها[1].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾:

الاعتبار والانتفاع بآياتِ الله هو شأنُ المؤمنين

فصل البيان القرآنيّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ عمّا قبله، ولم يأتِ بينهما بعاطف، لكونها جاءتْ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّ الإنكار على المشركين عدم الانتفاع بما يرونه من الدّلائل يُثير سؤالًا في نفس السّامع: أكان عدم الانتفاع بدلالة رؤية الطّير عامًّا في كلِّ البشر مؤمنِهم وكافرِهم؟ فيكون الجواب بأنَّ المؤمنين يستدلّون من ذلك بدلالات كثيرة[2]، ويتّعظون بما يرون فجاء الفصل لشبه كمال الاتّصال؛ لأنَّ الجملة الثّانية وقعت جوابًا نتجَ عن الجملةِ الأولى فلم تُعطَف على الأولى[3]، فالجملة الثّانية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ جاءت مُستأنَفة تفيد تعليلَ ما قبلها[4]، من الأمر بالنّظر والتّفكّر في حال هذه الطّير لأنّ في ذلك آياتٍ تؤدّي إلى الإيمان، قال البقاعيّ: "ثم نبّههم على ما في ذلك من الحكم بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(3) القدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 159.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 23.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 224.

بلاغة توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

اجتماعُ المؤكّداتِ إنْباءٌ بأنَّ المنتفِعَ مِن الآياتِ إنَّما هُم المؤمنونَ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، حيث ساق النَّصُّ القرآنيُّ مجموعةً من المُؤكِّدات ليرسّخ المعنى الّذي يريد التَّعبير عنه، وهذه المُؤكّدات هي:

الأوّل: ﴿إِنَّ﴾ في بداية الجملة الّتي تفيد توكيد الخبر، وهي مناسبة لاستفهام الإنكار على الّذين لم يروا تلك الآيات، فأُكِّدتِ الجملةُ الدّالَّةُ على انتفاع المؤمنين بتلك الدّلالة؛ لأنَّ الكلام موجّه للّذين لم يهتدوا بتلك الدّلالة، فهم بمنزلة مَن يُنكر أنّ في ذلك دلالة للمؤمنين؛ لأنّ المشركين ينظرون بمرآة أنفسهم(1).

الثّاني: التَّوكيدُ بالجملةِ الاسميّة الَّتي تَدلُّ على الثَّباتِ.

الثّالث: لام الابتداء الّتي دخلت على اسم إنَّ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ والّتي تفيد التّأكيد(2).

الرّابع: التّوكيد بتقديم المُسنَد ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على المُسنَد إليه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ ممّا يفيد القصر والاختصاص.

الخامس: التَّوكيدُ بالاستئنافِ البيانيِّ في الجملة كلّها الّذي يقتضي تأكيدَ الحكم.

السّادس: مجيءُ صفةِ القوم بأنّهم يؤمنون بالفعل المضارع، وهذا يفيد الاستمراريّة والمداومة والتّأكيد على ملازمة وصف الإيمان لهم.

دلالة التّعبير بحرف الظّرفية، بقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

التّعبيرُ بالظّرفيّة تأكيدٌ لتغلغلِ الإيمان وتمكّنه في قلوب المؤمنين

عبّر القرآن بالظّرفيّة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى تمكّن هذه الآياتِ الدّالّة على كمالِ قدرة اللّه تعالى، في قلوب المؤمنين، وأنّ اللّه سبحانه هو القادر وحده على إمساكِ الطّير لا أحد سواه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 236.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4233.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

قدَّم النَّصُّ القرآنيُّ شبهَ الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للاهتمام بما ذُكِره من دلائل القدرة ممّا اشتملت عليه هذه الآية والّتي قبلها[1]، من الإخراجِ من بطونِ الأمّهات، وجعلِ السّمعِ والبصرِ وتسخيرِ الطّيرِ في جوّ السّماء.

تقديمٌ فيه مزيدُ اهتمامٍ بدلائل القدرة الّتي سبق ذِكْرها

غرض اسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآية:

استعملَ البيانُ القرآنيّ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ حيث اختار ما يُشار به إلى البعيد مع أنّ المُشار إليه قريب؛ فالمشارُ إليه ما اشتملت عليه هذه الآية والّتي قبلها[2]، لعدّة حِكَم؛ منها:

إشارةٌ بالبعيدِ للقريبِ تنبيهًا على علوِّ شأنِ دلائل قدرته الّتي سبقت

أنّ المنظور إليه فوقهم، كما دلّ عليه قوله في سورة المُلك: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ [الملك: 19]. فإذا طار الطير وعلا في جوٍّ السَّماء؛ فإنَّه يصير بعيدًا عن الرّائي، فاحتاج إلى أنْ يُخاطَب باسم الإشارة للبعيد.

وأنَّ فيه تعظيمًا لهذه الآيات، وتفخيمًا لها، وإظهارًا لعلوِّ شأن هذه الآيات الّتي ينظر إليها المؤمنون ورفعة مكانتها، وجعلها بعيدةَ المنزلة.

وأنّ النّظر إلى الطَّير في جوّ السَّماء يترتّب عليه آيات كثيرة، بعضها قريب وبعضها بعيد، فاحتاج اسم الإشارة للبعيد لكي ينطلق المؤمنون بنظرهم وفكرهم من القريب إلى البعيد.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لام الابتداء، دخلت على اسم إنَّ لتُفيد التّوكيد، ولتكون مؤكّدًا من المُؤكِّدات الّتي جاءتْ في تذييل هذه الآية[3]، والسّبب في دخول اللّامِ على اسم ﴿إِنَّ﴾ حيلولة الخبر

في اللّامِ مزيدُ تأكيدٍ لعِظَمِ دلائل قدرة الله

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 439.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 439.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4233.

المُقدّر بينه وبينها، "إذ لو كان يليها ما جاز دخولها، وهي لام التّوكيد، فصار في الجملة حرفا تأكيد: (إنّ) و(اللّام)"[1]، وفيها مزيدُ تأكيدٍ لعظمِ دلائل قدرة اللّه.

الغرض من تنكير ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

آيــاتُ اللــهِ عظيمةٌ كثيرةٌ واضحةٌ مفخَّمةٌ

جاءت كلمة ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ بالتّنكير، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ تنبيهًا إلى كثرتها، وتعظيمًا وتفخيمًا لها كمًّا وكيفًا[2]، فمن أغراض تنكير المُسنَد إليه تعظيمه، وأنّه بلغ في رفعة الشّأن حدًّا فوق مُتناوَل المدارك[3].

نكتة جمع ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، في سياق الآية:

في تسخير الطّير آياتٌ مختلفة متعدّدة، تدلّ على قدرة الخالق

جمع البيان القرآنيّ الآيات في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (إنّ في ذلك لآية)؛ لأنّ في الطّير دلائل مختلفة: من خلقة الهواء، وخلقة أجساد الطّير مناسبة للطّيران في الهواء، فجعلها خفيفة، وخلقَ الإلهام للطّير بأنْ يسبحَ في الجوّ، وبأنْ لا يسقطَ إلى الأرض إلّا بإرادته[4].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

الآيات واضحاتٌ جلّياتٌ لكلّ العقلاء نافعةٌ للمؤمنينَ

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ حرف جرّ، وهي لامُ الأجْل، بمعنى (كي) أو (لأجل)، والمعلّل هو ما في مدلول الآيات من مضمَّن معنى الدَّلالة والنَّفع، فهذه الآياتُ لكلّ العقلاء، إلّا أنّ المُنتفعين بها هم المؤمنون مع ظهورها لغيرهم[5]؛ أيْ إنّ اللّه ذكر هذا الدّليل على قدرته لأجل التّفكّر والاعتبار والإيمان به سبحانه فمَن لم ينتفع بالآيات فليس من أهل التّفكّر.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 83.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 449، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 874.
(3) عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/ 42.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 506، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 236.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/ 358.

نكتة التّعبير بـ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

أقحم النَّصُّ القرآنيُّ كلمة ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ للدَّلالة على أنَّهم جماعة تتضافر على الحقِّ وتطلبه، وتتهدّاه، وتتعرّفه، ومن كان هذا شأنهم فقد عُرِفوا به، وتمكَّن منهم، وصار سجيّةً حتّى كأنّهم يجمعهم هذا الوصف، ويؤمنون بالحقّ إذا بدتْ دلائله، وقامت براهينه[1]، ولهذا عبَّر بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ولم يقل: (المؤمنين)، أو (الّذين آمنوا)، للإيماء إلى أنَّ الإيمانَ عندهم كالسّجيّة لهم والعادة الرّاسخة الّتي تقوم بها قوميّتهم[2].

سجيّةُ القوم المؤمنين، انتفاعُهم بالحقِّ إذا بَدَت دلائلُهُ

الغرض من تنكير ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

نكّر البيان الإلهيّ لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ مدحًا لهم وتعظيمًا لشأنهم[3]، ولإفادةِ معنى التّفخيم والتّشريف لهم، وذلك في سياق المدح للمُعتبِرين بآيات اللّه الدّالّة على قدرته سبحانه؛ أيْ: إنَّ في تلك الآيات لدلائل دالّة على قدرة اللّه تعالى لأهل التّفكّر الّذين يُعملون عقولهم، وفيهم قوّة المحاولة لِما يريدون من الاستمرار في التّفكّر والوصول إلى الحقائق، وهم ليسوا معروفين بأعيانهم؛ بل بوصفهم وهو الإيمان، وهذا ينسحب على كلّ زمان وكلّ مكان.

تنكيرُ القوم المؤمنين المُعتبرين بآيات اللّه، تفخيمٌ وتشريفٌ لهم

نكتة تخصيص المؤمنين بالذّكر دون غيرهم:

خصّ البيانُ القرآنيّ المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ مع أنّ الخطاب في بداية الآية إمّا للنّاس عامّة، أو للمشركين؛ وذلك لأنّ المؤمنين هم أهلُ الاعتبار والانتفاع بآيات اللّه الدّالّة على عظيمِ قدرته سبحانه، فقد ألفوا إعمال تفكيرهم في

المؤمنون هم أهلُ الاعتبارِ والانتفاعِ بآيات الله، والمُصدّقون بأخباره

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 197.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 356.

الاستدلال على حقائق الأشياء، بخلاف أهلِ الكفر الّذين طُبعوا على النّفرة من الاقتداء بالنّاصحين، وعلى مكابرة الحقّ[1]، "ولتضمّنِ الآيةِ أنّ المُسَخِّرَ والمُمسِكَ لها هو اللّه، فهو إخبارٌ منه تعالى ما يُصَدِّقُ به إلّا المؤمن"[2].

دلالة التّعبير بالمضارعِ في ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

الآيات للمؤمنين، يتجدَّدُ بها إيمانُهم ويَزدادُ

التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ يعني من شأنهم وحالهم الإيمانُ دائمًا[3]، وأنَّ إيمانهم أمرٌ مستمرٌّ مُتجدّد، والتّعبير بالمضارع يشير إلى أن الإيمان مقصود به أنّه مرجوٌّ منهم؛ أيْ: إنّ في ذلك لآيات للمؤمنين ولِمَن يُرجى منهم الإيمان عند النّظر إلى الطّير في جوّ السّماء والتّفكّر في قدرته سبحانه وأنّه هو الّذي يُمسكهنّ.

بلاغةُ المتشابه اللّفظيّ بين آية النّحل: (79) وآية المُلك (19):

من أسلوبِ القرآنِ وبلاغته، مراعاةُ السّياقِ في اختيارِ ما يناسبه من ألفاظٍ وتراكيب

قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك: 19]: اختارَ البيانُ القرآنيّ التّعبيرَ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾ في سورة النّحل فقال: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، بينما عبّر باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ في سورة الملك بقوله: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: 19]؛ وذلك مراعاةً لسياقِ الآيتيْن، فالسّياقُ في سورة النّحل في التّوحيد، والتّدليلِ على قدرةِ اللّه، والنّهي عن الشِّرك وتهديدِ المشركين، فناسبَ ذكر اسم الجلالة الّذي يبعثُ في النّفس المهابة، ولذا تكرّر ذكرُ الاسم الجليل في سورة النّحل أربعًا وثمانين مرّةً، ولم يَردْ اسم (الرّحمن) فيها ولا مرّة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 236.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 576.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4233.

أمّا في سورة المُلك؛ فالسِّياق في ذِكر مظاهِرِ رحمته سبحانه؛ فناسبَ ذلك ذِكْر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: 19]، وقد ورد في السّورة اسم (الرّحمن) أربع مرّات، واسم (اللّه) ثلاث مرّات(1).

وكذلك جاء في آية النَّحل لفظ ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ مع اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾، و﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ اسم مفعول، والفاعل هو اللّه سبحانه، والتّسخيرُ فيه قهرٌ، وهذا يتناسبُ مع لفظ الجلالة (اللّه) الّذي فيه معنى القهر والقوّة، والّذي يدلّ على الألوهيّة والتّسخير والتّصرّف، وهذه هي عادة القرآن عند الحديث عن التّسخير أنْ يأتيَ مقترنًا باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾، ولم يرد مقترنًا مع اسم (الرّحمن)(2).

أمّا آية المُلك فقد جاء قوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: 19] مع اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: 19]، فصافّات اسم فاعل، وفاعله الطّير، فنُسب الفعل هنا إلى الطّير؛ وأنّها هي الّتي تصفّ وتقبضُ، وهاتان حالتان يستريح إليهما الطّائر، فتارةً يصفُّ جناحيْه كأنَّه لا حركة به، وتارةً يقبضهما إلى جنبيْه حتّى يلزقهما بهما، ثمّ يبسطهما ويقبضهما موالاةً بسرعة كما يفعل السّابح، فناسب هذا الإنعام منه ﷻ ورود اسمه الرّحمن، ولم يرد ذِكْر هذه الاستراحة في آية النّحل(3).

وجاء اختلافُ تذييلِ الآيتيْن مناسبًا للسّياق أيضًا؛ ففي آية النّحل لمّا ذكر اللّه آياتٍ تدلُّ على ألوهيّته وقدرته سبحانه وتدعو إلى الإيمان به ناسبَ تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾(4)، وأمّا في آية المُلك لَمّا ذكر حركة الطّير وأنّها صافّات وقابضات لأجنحتهنّ؛ احتاج ذلك أن يكون تذييل الآية قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك: 19].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإمساك والقبض:

أصل الإمساك في اللّغة يدلُّ على حَبْسِ الشَّيْءِ أَوْ تَحَبُّسِهِ(5)، بينما القبضُ في أصله

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 831.
(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص 831، والقدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 159.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 306.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).

الإمساك حبس الشَّيء وعدم إطلاقه، والقبض جمع الكفّ على الشّيء وأخذه

يدلّ على شَيْءٍ مَأْخوذٍ، وتَجَمُّعٍ في شَيْءٍ[1]، فالإمساك أعمّ من القبض، إذ هو أخذُ الشّيء وحبسه في حيّز ما، بينما القَبْضُ أخصّ من الإمساك؛ إذ القبضُ هو "جمعُ الكفِّ على الشّيء بشدةٍ إمساكًا له"[2]، كما أن الإمساك غالبًا يكون للحفظ وعدم التّفلُّت، والقبض غالبًا يكون للأخذ والمِلك، يُقال: صار الشَّيء في قبضتك؛ أيْ: في مِلكك[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبض).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قبض).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قبض).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾ [النّحل: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

امتنانُ الله على الناس بما يصلحُ للحضرِ والسَّفرِ

ذكَّرهُم الحقُّ سبحانهُ في الآياتِ السّابقةِ بنعمةِ الإدراكِ والفهمِ بعدَ الخلقِ والابتداءِ، وأتبعهُ ما منَّ بهِ عليهم من الطّيرِ وارتفاعِها في كبدِ السّماءِ بما يحميها من الحرِّ، وأنّه من آياتهِ البيناتِ لمَنْ كانَ يؤمنُ بهِ، أتبعهُ في هذهِ الآيةِ ما ينفعُ النّاسَ منْ مأوى يسكنونَ فيهِ يظلّهُم ويحميهم، وممّا ينتفعُ بهِ منْ جلودِ الحيوانِ وأصوافِها وأوبارِها وأشعارِها سفرًا وحضرًا بما يميّزهُم عن الطّيرِ وسائرِ الحيواناتِ والوحوشِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُيُوتِكُمْ﴾: أصلُ (بيت): أصْلٌ واحِدٌ، وهو المَأْوَى والمآبُ ومَجْمَعُ الشَّملِ[2]، البيت: مَأْوَى الإنْسانِ بِاللَّيلِ، ومِن مَعانِيهِ: المَسْكَنُ والدّارُ، وهو: كُلُّ ما لَهُ جِدارٌ وسَقْفٌ، وإن لم يَكُن بِهِ ساكِنٌ، وجَمعُهُ: أبْياتٌ وبُيوتٌ[3]، والبَيْتُ: عِيالُ الرَّجُلِ والَّذينَ يَبيتُ عِندَهُم، وبُيوتٌ: يجوزُ فيهِ ضمُّ الموَحَّدةِ وكَسْرُها، ومن هذا الباب يُقالُ لبَيْتِ الشِّعْرِ بَيْتٌ على التَّشْبيهِ؛ لأنَّهُ مَجْمَعُ الألفاظِ والحُروفِ والمعاني، عَلَى شَرْطٍ مَخْصوصٍ وهوَ الوَزْنُ[4]، ومِن مَعانِيهِ أيضًا: القَصْرُ،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 225.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بيت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).

والمَسْجِدُ، والكَعْبَةُ، والقَبْرُ[1]، والمقصود بالبيت في الآية: مكانٌ يُجعَلُ لهُ بِناءٌ وفُسطاطٌ يُحيطُ به يُعَيِّنُ مكانَهُ لِيَتَّخِذَهُ جاعِلُهُ مَقرًّا يأْوِي إليهِ ويَستَكِنُّ به من الحَرِّ والقَرِّ[2].

2) ﴿سَكَنًا﴾: أصْلُ (سكن): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِراب والحَرَكَةِ[3]، فالسُّكونُ ضدُّ الحركة، يقال: سَكَنَ الشَّيء يَسْكُنُ سُكونًا، إذا ذهبت حركته[4]، والسَّكَنُ: اسْمٌ بِمَعْنَى المَسْكونِ، والسُّكنَى: مَصْدَرُ سَكَنَ فُلانٌ البَيْتَ، إذا جَعَلَهُ مَقَرًّا لَهُ، وهوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكونِ، أيِ القَرارِ[5]، والسَّكْنُ: الأَهْلُ الَّذينَ يَسْكُنونَ الدّارَ[6]، والسَّكينة: الطُّمأنينة والاستقرار والرَّزانة والوقار، والمقصود بالسَّكن في الآية: الاستقرار والراحة.

3) ﴿جُلُودِ﴾: أصلُ (جلد): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ وصلابةٍ، الجِلْدُ: غِشاءُ جَسَدِ الحَيَوانِ، ويُطْلَقُ على ظاهِرِ البَشَرَةِ، وسُمِّيَ الجِلْدُ جِلْدًا؛ لأنَّهُ أصْلَبُ مِنَ اللَّحْمِ، والجمعُ: جُلودٌ[7]، والمقصود بالجِلْدِ في الآية: الإهابُ بِما عليه، فإذا دُبِغَ وأُزيلَ مِنْهُ الشَّعْرُ فهو الأديمُ، ومنه تُغطى قِبابُ البُيوت.

4) ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: أصلُ (نعم)؛ أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، مِنْهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللهُ تعالى على عَبْدِهِ به مِنْ مالٍ وعَيْشٍ[8]، والأَنْعامُ: جَمعُ نَعَمٍ، وهي: البَهائِم، وأكْثَر ما يُطْلَقُ هذا الاسْمُ على الإبِلِ، وهو جَمعٌ لا واحد له من لفْظِهِ[9]، وسُمِّيَت البَهائم أنْعامًا؛ لِكَثْرَةِ نِعَمِ اللّٰه فيها على خَلْقِهِ مِن النُّموِّ وعُموم الانْتِفاعِ[10]، والمراد بـ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في الآية: الإبِلُ، والبَقَرُ، والغَنَمُ بنوعيه: المَعِزُ والضَّأن.

5) ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾: أصلُ (خفّ): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو شَيءٌ يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانَةَ. يُقالُ خَفَّ الشَّيءُ يَخِفُّ خِفَّةً، وهو خَفيفٌ وخُفافٌ، والخِفَّةُ: خِفَّةُ الوَزن، وخِفَّةُ الحال، والخِفُّ:

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (بيت).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 237.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (جعل)، والسّيوطي، الإتقان: 2/ 225.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(7) الجرجاني، التّعريفات، ص: 159.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(9) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/ 28.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نعم).

كلُّ شَيْءٍ خَفَّ، وخَفَّ القَوْمُ: ارْتَحَلوا، فأمّا الخُفُّ فمِنَ البابِ؛ لِأنَّ الماشِيَ يَخِفُّ وهو لابِسُهُ، وخُفُّ البَعِيرِ مِنْهُ أيْضًا، واسْتَخَفَّ فلانٌ بحقّي: إذا استهان بِهِ، واسْتَخَفَّه الفرحُ: إذا ارْتاحَ لأمر، واستَخفَّه فلان: إذا استجهله فحَمله على اتِّباعِه في غيِّه[1]، والمقصود بالخِفَّة في الآية: ضد الثِّقل، والمراد: تجدونَها خفيفَةَ المَحْمَلِ حينَ تَرحَلونَ.

6) ﴿ظَعۡنِكُمۡ﴾: أصلُ (ظعن): أصْلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على الشُّخوصِ من مكانٍ إلى مكانٍ، تقولُ: ظَعَنَ يَظْعَنُ ظَعْنًا وظَعَنًا، إذا شَخَصَ[2]، والظَّعْنُ: سَيْرُ البادِيَةِ لِنُجْعَةٍ أو حُضورِ ماءٍ أو طَلَبِ مَرْبَعٍ أو غير ذلك؛ والظُّعْنَة: السَّفْرَة القَصِيرَةُ، والظَّعِينَةُ: الجملُ يُظْعَنُ عليه[3]، والظَّعِينة أيضًا: المرأة في الهَوْدَجِ، سُمِّيَتْ بِهِ على حَدِّ تَسمِيةِ الشَّيءِ باسمِ الشَّيءِ لقُربِهِ منهُ، وقِيلَ: سُمِّيَتِ المرأة ظَعِينةً لأنها تَظْعَنُ مَعَ زَوْجِها وتُقِيمُ بإقامته كالجَلِيسَةِ[4]، والمقصود بالظَّعْنِ في الآية: السَّفَرُ.

7) ﴿أَصۡوَافِهَا﴾: أصلُ (صوف): أصْلٌ واحِدٌ صحِيحٌ، وهو الصّوفُ المَعْروفُ: وهو ما يَنْبُتُ على جِلْدِ الشّاةِ، وهو كالشَّعْرِ للماعِزِ، والوَبَرِ للإبِلِ، والبابُ كُلُّهُ يَرجِعُ إليهِ، والمراد بالصّوف في الآية: صوفُ الضَّأنِ وما أشبهه.

8) ﴿وَأَوۡبَارِهَا﴾: الوَبَرُ: الشَّعْرُ الذي يَنْبُتُ على جُلودِ الإبل والأرانِبِ، يُقالُ: جَمَلٌ وبِرٌ وأوْبَرُ: إذا كانَ كَثِيرَ الوَبَرِ، والنّاقَةُ وبِرَةٌ، ووَبَرَ البَعِيرُ، أي: ظَهَرَ على جِلْدِهِ الوَبَرُ، والوَبَرُ لِلْبَعِيرِ كالصّوفِ لِلْغَنَمِ، وجَمعُ الوَبَرِ: أوْبارٌ[5]، وهو المراد هنا في الآية.

9) ﴿وَأَشۡعَارِهَآ﴾: أصلُ (شعر): أصلٌ يَدُلُّ على ثَباتٍ[6]، الشَّعْرُ والشَّعَرُ مذكران: نِبْتَةُ الجِسْمِ مِمّا لَيْسَ بِصوفٍ ولا وبرٍ للإنسان وغَيْرِه، وجَمعُهُ أشْعار وشُعور، وتَيْسٌ شَعِرٌ وأشْعَرُ وعَنْزٌ شَعْراءُ، وقَدْ شَعِرَ يَشْعَرُ شَعَرًا، وذلك كُلَّما كَثُرَ شَعَرُهُ[7]، والمقصود بالأشعار في الآية: ما نبت على الجِسْمِ مِمّا ليس بِصوفٍ ولا وبَرٍ، والمراد به: شَعْرُ المَعْزِ وغيره من ذي الشَّعْرِ.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظعن).

(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ظعن).

(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ظعن).

(5) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وبر).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).

(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شعر).

10) ﴿أَثَٰثٗا﴾: أصلُ (أثّ): يَتَفَرَّعُ مِنَ الاجتماعِ واللِّينِ، وهو أصْلٌ واحِدٌ، قالَ ابنُ دُرَيدٍ: أثَّ النَّبْتُ أثًّا: إذا كَثُرَ[1]، والأثاث: المتاعُ ما كانَ من لِباسٍ أو حَشْوٍ لِفراشٍ أو دِثارٍ، واحِدتُه أثاثَةٌ[2]، واشْتَقَّهُ ابنُ دُرَيْدٍ من الشَّيْءِ المُؤَثَّث أي المَوَثَّر، وفي التَّنزيلِ العَزيزِ: ﴿أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾ [مريم: 74]، وتأثَّثَ الرَّجُلُ: أصابَ خَيْرًا، وشَعَرٌ أثيثٌ: غَزيرٌ طَويلٌ، وكَذَلِكَ النَّباتُ، ولِحيةٌ أثَّةٌ كَثَّةٌ: أثيثة[3]، والمقصود بالأثاثِ في الآية: اسمُ جَمعٍ للأشياءِ الَّتِي تُفرَشُ في البُيوتِ مِنْ وسائِدَ وبُسُطٍ وزَرابِيّ، وكُلُّها تُنْسَجُ أو تُحْشَى بالأصوافِ والأشعارِ والأوبارِ[4].

11) ﴿وَمَتَٰعًا﴾: أَصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمتَعُ مَتْعًا أيْ بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِه، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[5]، والمَتاعُ في الأصْلِ: كلّ شَيْءٍ يُنتفَعُ بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويُتزوَّد من أمتعة البيت ونحوه من كلِّ شيءٍ،[6] والتَّمتِيعُ: الإمهالُ، وأيضًا: التَّعْمِيرُ، ومِنْهُ قَوْلُه تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]، أي: أطَلْنا أعْمارَهُم[7]، والمقصود بالمتاع في الآية: ما يُتمتَّعُ به ويُنتفَعُ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تَذكيرُ اللهِ تعالى عبادَه ببعض نِعمِه، ويستدعي منهم شكرَها والاعترافَ بها

تلك آية أخرى ساقها الله، مبيِّنًا بعض نِعَمه المستوجبة لشكره والإيمان به، بأنه سبحانه جعَل لكم - أيُّها النّاسُ - من بُيوتِكم الَّتي تبنونها من الحجر وغيره كالخَشَبِ مساكِنَ لكم تَستقرّونَ فيها، وتأوونَ إليها، وتَستَترونَ بها، وتَقيكم الحَرَّ والبَرْدَ، وغوائلَ السِّباعِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أثّ).
(2) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (أث).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أث).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 239.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(7) الزّبيدي، تاج العروس: (متع).

والهَوامِّ، وتنتَفِعونَ بها في غيرِ ذلك، وجعَلَ لكم - أيُّها النّاسُ - خيامًا مِن جُلودِ الأنعام، أو مِمّا يَنبُتُ عليها مِن صوفٍ وشَعرٍ ووَبَرٍ، تَجِدونَ الخِيامَ خَفيفةَ الحَملِ والنَّقلِ في تَرْحالِكم، فيَسهُل عليكم نقضها وحملها ونقلها إذا ارتحلتم، فإذا ما أقمتم سَهُل عليكم ضَرْبُها للإقامة، وجعَلَ لكم مِن أصوافِ الغَنَم، وأوبارِ الإبِلِ، وأشعارِ المَعْزِ، أثاثًا لكم من أكسيةٍ وألبسةٍ وأغطيةٍ وفُرشٍ وزينة، ومتاعًا تتمَتَّعونَ به إلى أجلٍ مُسمًّى(1).

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ نِعمةَ السَّكن في البيوتِ والاستقرار فيها، والشعورِ بداخِلها بالأمان والاطمئنان، هذه النِّعمةُ لا يقدِّرها حقَّ قدرها، إلّا أولئك الذين فقدوها، وصاروا يعيشون بلا مأوىً يأويهم، أو منزلٍ يجمع شَتاتَهم، وأنَّ البيتَ مكانُ السكينةِ النفسية، والراحةِ الجسدية، وليس مكانًا للشِّقاق والخِصام؛ لأنَّ الشِّقاقَ والخصامَ ينافي كونه ﴿سَكَنًا﴾(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾، تفيدُ العطفَ؛ فقد عُطفتْ هذهِ الآيةُ على ما تقدّمَ من قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النّحل: 78] وهما داخلانِ في سياقِ تَعدادِ النّعمِ الّتي أنعمَها الحقّ سبحانَهُ على بني الإنسانِ، والألطافِ الّتي هيأها لعقلِ الإنسانِ(3).

تـوالي النّعم الرّبانيّةِ، والألطافِ الإلهيّةِ، على بني الإنسانِ

وعلى وجه عطفِ هذهِ الآيةِ على ما سبقَها من قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 317، والسمرقندي، بحر العلوم: 2/ 284، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 591، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 445، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 237 - 238.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 208.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 236.

﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: 79] حكمةٌ بليغةٌ وعبرةٌ بيِّنةٌ؛ فإنّهُ إذا قصُرت أنظارُ البشرِ عنْ أنْ ترى البيناتِ من آياتهِ ممّا في السّماءِ من طيورٍ قابضاتٍ باسطاتٍ مسخّراتٍ بأمرِه، ففي الأرضِ آياتٌ مبثوثةٌ ليستْ بها حاجةٌ إلى تبعيدِ النّظرِ في السّماءِ، بلْ هيَ وقائعُ مشاهدةٌ ملموسةٌ على الأرضِ[1]، وهيَ البيوتُ الّتي يتّخذُها الإنسانُ في الحضرِ والسّفرِ، وفي ذلكَ عبرةٌ لمعتبرٍ.

إذا قصُرت الأنظارُ عمّا في السّماءِ من البيناتِ فهذهِ آياتٌ مبثوثةٌ على الأرضِ

فائدةُ تقديمِ المسندِ إليهِ:

وفي تقديمِ المسندِ إليهِ (اسمِ الجلالةِ) في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ فائدةُ التّخصيصِ في انفرادهِ بالتّصرّفِ، وإيهابِ النّعمِ؛ فهوَ وحدَهُ ذو الحكمةِ الشّاملةِ والقدرةِ البالغةِ[2] على أنْ يجعلَ لكُم من البيوتِ سكنًا وغيرَهُ ممّا اجتباكُم بهِ، وميّزكُم منْ بينِ الخلائقِ.

إفادةُ التّخصيصِ فاللهُ وحدهُ القادرُ على منحِ هذه النِّعمِ

إيثارُ اسمِ الجلالةِ دونَ اسمِ الرّبّ:

وفي إيثارِ اسمِ الجلالةِ (اللّهُ) على غيرهِ من الأسماءِ كالرّبِّ ونحوهِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾؛ لإفادةِ التّعظيمِ لقدرتهِ تعالى، وتخصيصِ تفرّدهِ ﷻ بالخلقِ، وأنّه لا شريكَ لهُ[3]؛ فحقٌّ عليكُم توحيدُهُ وإفرادُهُ بالعبادةِ.

تعظيمًا لهُ وتخصيصًا لتفرّدِهِ تعالى بالخلقِ وتوحيدًا لهُ

دلالةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ دونَ الإضمارِ:

وفائدةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ دونَ الإضمارِ على مقتضى الظّاهرِ، التّنويهُ بالخبرِ بافتتاحهِ بلفظِ الجلالةِ؛ لأنَّ دلالةَ الاسمِ العَلَمِ أوضحُ وأصرحُ؛ فهوَ في مقامِ توكيدِ الانفرادِ بالخَلقِ والإنعامِ دونَ غيرهِ من الشّركاءِ؛

تنويهًا بالخبرِ وتحقيقًا لانفرادِهِ عن الشّركاءِ بالخلقِ والإنعامِ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 7/ 336.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 224.

(3) سامي القدومي، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 161.

فإنَّ المشركينَ يقرّونَ بأنّه تعالى فاعلُ تلكَ الأشياءِ[1] بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: 61].

سرُّ التّعبيرِ بفعلِ الجعل وصيغته الماضِية:

خلقٌ وتصييرٌ واقعٌ لا محالة؛ إظهارًا لامتنانِه تعالى بنعمةِ التّسخيرِ والتّعليمِ

والتّعبيرُ بفعلِ الجَعْلِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ بمعنى الخلقِ، وبمعنى التّصييرِ[2]، وهو مسوقٌ لإظهارِ الامتنانِ بنعمةِ التّسخيرِ والتّعليمِ لهم، وأنّه متحقّقٌ لا مَحالةَ تحقُّقَ الحدثِ الماضي في الوقوعِ.

السّكنُ هنا مجعولٌ من إيجادِ شيءٍ من شيءٍ

وفي معنى الجعلِ هنا ملمحٌ لطيفٌ خفيٌّ، وهوَ إيجادُ الشّيءِ منْ مثيلِهِ أوْ نظيرِهِ؛ فهنا أوجدَ الحقُّ سبحانهُ لنا السّكنَ منْ إيجادِ البيوتِ[3]، فالبيوتُ مجعولةٌ خلقًا، والسّكنُ مجعولٌ إيجادًا.

فائدةُ الجارّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾:

امتنانًا على عبادِهِ ولبيانِ كمالِ العنايةِ الرّبّانيّةِ بخلقِهِ

وذكَر الجارّ والمجرورَ ﴿لَكُم﴾ معَ أنّهُ واضحٌ صريحٌ منْ سياقِ الجملةِ، إلّا أنّهُ يتوفّرُ على فائدةٍ وهيَ بيانُ إنعامِه عليهِم لا على غيرِهِم[4]، وإظهارُ الامتنانِ على عبادِه، وبيانُ كمالِ عنايتِه سبحانَهُ بخلقِه، وأنّهم يشركونَ باللّهِ معَ كلِّ هذهِ العنايةِ والاهتمامِ[5].

دلالةُ تقديمِ ﴿لَكُم﴾ على المفعولِ ﴿سَكَنًا﴾:

الإيذانُ من أوّلِ الأمرِ بأنَّ إيجادَ البيوتِ لمصلحتِهم ومنفعتِهم تشويقًا للنّفسِ

وقدّمَ الجارّ والمجرورَ ﴿لَكُم﴾ على المفعولِ الأوّلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ إيذانًا من أوّلِ الأمرِ بأنّ هذا الجعلَ، وهذا الإنعامَ إنّما هو لمصلحتِهم، وتحقيقِ منفعتِهم، وتشويقِ النّفسِ إلى إيرادِه[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 198.

(2) ابن عادل، اللباب: 12/ 131، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 9/ 357.

(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 161.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 225.

(5) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 161.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.

موقعُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾:

بيانٌ للسّكنِ بجعلِ اللهِ لكُم بيوتَكُم سكنًا

ويقعُ الجارُّ والمجرورُ من قولِه تعالى: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ بيانًا للسّكنِ؛ فتكونُ ﴿مِّنۢ﴾ للبيانِ، ففيها تبيينٌ لذلك المجعول المبهم في الجملة، وتأكيدٌ لما سبق من التشويق؛ فيكونُ الكلامُ مجرّدًا بتنزيلِ البيوتِ منزلةَ شيءٍ غيرِ السّكنِ، كقولِ القائلِ: لئنْ لقيتَ فلانًا لتَلقينَّ منهُ بحرًا[1].

الابتداءُ لأنَّ أوّلَ السّكونِ يقعُ في البيوتِ

ويجوزُ أن يكونَ معنى ﴿مِّنۢ﴾ في الآيةِ إفادتها الابتداءَ، وهو معنى شائعٌ عندَ النّحويينَ؛ حتّى ادّعى جماعةٌ أنَّ أكثرَ معانيها راجعةٌ إلى الابتداءِ[2] "وعليهِ فيكونُ الامتنانُ بالإلهامِ الّذي دلَّ عليهِ السّكونُ، وتكونُ ﴿مِّنۢ﴾ ابتدائيّةً؛ لأنَّ أوّلَ السّكونِ يقعُ في البيوتِ"[3].

إيثارُ استعمالِ البيوتِ دونَ مرادفاتِها:

الإشارة إلى فائدةِ البيوتِ في إيواءِ الإنسانِ في الأزمانِ والأحوالِ كلِّها

ما يعلو الإنسانَ سقفٌ، وما يقلّهُ أرضٌ، وما ستركَ منْ جهاتِكَ الأربعِ جدارٌ، فإذا انتظمَ ذلكَ كلّهُ واتّصلَ كانَ بيتًا[4]، وهذا هو المعنى المادّيُّ للبيتِ، وقد وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾، إلّا أنّهُ أرادَ معنى آخرَ في إيرادِه هذهِ اللّفظة يتجاوزُ المعنى المادّيّ المجرّدَ؛ فأصلُ البيتِ هوَ المكانُ الّذي يَأْوي إليهِ الإنسانُ في اللّيلِ فيبيتُ فيهِ، وهوَ الغالبُ على معناهُ، وقدْ كانَ دقيقًا في تعبيرِه؛ فإنَّ الإنسانَ أحوجُ ما يكونُ للمأوى والبيتِ في اللّيلِ أكثرُ منْ حاجتِه لأنْ يُؤويه نهارًا؛ فالتّعبيرُ بالبيتِ فيهِ إشارةٌ إلى فائدةِ الإيواءِ لهُ ليلًا، والاحتماءِ من الشّرورِ والأخطارِ[5]، فإنّها أكثرُ انتشارًا عندَ حلولِ الظّلمةِ وسكونِ النّاسِ، وهو ما امتنَّ به تعالى على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 419.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 152.
(5) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 161.

الناس بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص: 72].

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾:

منةُ اللهِ بجعلها لهُم وإنْ كانتْ من عملِ أيديهِم

وفي قولِه: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ أضافَ البيوتَ إلى الضّميرِ الرّاجعِ على المخاطبينَ إشارةً إلى أنّها وإنْ كانتْ منْ صنعِهم، وبناءِ أيديهم؛ فإنّهُ تعالى جاعلُها لهم، ومقدّرُهم عليها[1] نعمةً منهُ وفضلًا.

بيانٌ لبيوتكُم المعهودةِ الّتي تبنونَها من الحجرِ ونحوه

وفي إضافةِ البيوتِ إلى ضميرِ المخاطبينَ دلالةٌ على أنَّ المقصودَ منْ ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ أيْ: بُيوتكُمُ المعهودةُ المعروفةُ الّتي تباشرونَ بناءَها من الحجرِ والمَدَرِ والخشبِ والأوتادِ وهو شائعٌ معهودٌ، وفيهِ تبيينٌ لذلكَ الجعلِ المبهمِ، وفيهِ توكيدٌ لذلكَ التّشويقِ الّذي مرَّ[2].

سرُّ تنكيرِ ﴿سَكَنًا﴾:

تحصيل أنواعِ المنافعِ والمصالحِ المتعدِّدة والفوائدِ المشاهدةِ

وفي تنكيرِ ﴿سَكَنًا﴾ سرّ وهوَ أنّ هذهِ البيوتَ الّتي أنعمَ اللّهُ بها على بني آدم تحتوي على الكثيرِ من معاني السكن؛ فهيَ تحميهم غوائلَ الجوّ من الحرّ والقرّ، وتسترُهم هم وأولادَهم ومتاعَهم من غوائلِ السّباعِ والهوام، ويحفظونَ فيها أموالَهم وأثاثَهم، وغيرَ ذلكَ من المنافعِ والفوائدِ المشاهدةِ.

السّكنُ نوعانِ: سكنُ البيتِ، والسكنُ المعنويُّ (الزّوجةُ)

وفي تنكيرِ السّكنِ هنا ملمحٌ خفيّ يدركُ بالتّأمّلِ؛ فإنَّ السّكنَ نوعانِ؛ سكنُ القالبِ المادّيّ، وسكنُ القالبِ المعنويّ، فالأوّلُ أنْ يكونَ لكَ بيتٌ يؤويكَ، وترتاحُ فيهِ منْ عناءِ الحركةِ والعملِ، والثّاني سكنُ الزّوجِ إلى زوجهِ في أنْ تخفّفَ عنهُ عناءَ الحياةِ وهمومها، وكلا النّوعينِ منْ نعمهِ تعالى[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 40.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/ 8125 - 8126.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿سَكَنًا﴾:

المكانُ الآمنُ الّذي يوفّرُ لصاحبه الرّاحةَ والاطمئنانَ التام

وللتّعبيرِ بالسّكنِ دلالةٌ تتجاوزُ المعنى الحَرْفيّ للكلمةِ - المسكنُ أو البيتُ - وهوَ المكانُ الآمنُ الّذي يوفّرُ لصاحبه الرّاحةَ والاطمئنانَ، ويَطمَئنُّ القلبُ فيه، وتسكنُ النفسُ إليهِ من العناءِ والتّعبِ، فتسكنونَ فيها وتهدأُ جوارحكُم من حركتِها واضطرابِها[1]، وهوَ مشتقٌّ من السّكونِ؛ فهوَ منْ بابِ المجازِ كتسميةِ الزّوجةِ سكنًا؛ فالزّوجةُ بمنزلةِ السّكنِ المعنويّ لزوجِها[2]، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21].

من نعمهِ تعالى أنْ جعلَ البيوتَ سكنًا وخارجَها حركةً واضطرابًا في الأعمِّ الأغلبِ

وفي تسميتهِ سكنًا، أيْ: بمعنى المحلِّ الّذي تسكنونَ فيهِ؛ فتهدأ جوارحُكم عن الحركةِ والاضطرابِ في غالبِ حالها، مثلَما تكونُ الحركةُ هيَ الغالبةُ خارجهُ، فالسّكنُ من السّكونِ، وهوَ منْ جملةِ النّعمِ بأن لم يخلقهُ ساكنًا أبدًا، ولا مضطربًا أبدًا، ولكنّهُ خلقهُ بينَ هذينِ، ويتصرّفُ بالوجهينِ[3].

نكتةُ تقييدِ البيوتِ بـ﴿سَكَنًا﴾:

إظهارُ الامتنانِ عليهِم بأن جعلَ لهم بيوتًا يَقرّونَ فيها

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ يقتضي وجودَ بيوتٍ ليستْ بسكنٍ، وفي التّقييدِ بالسّكنِ هنا إظهارُ منّتهِ تعالى أنْ جعلَها للسّكنِ والقرارِ والاطمئنانِ، وعلّمكُم بناءَ البيوتِ الّتي تسكنونَ فيها[4].

فائدةُ عطفِ جملةِ ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾:

بيانُ نوعي البيوت للمقيم والمسافر

وعطَفَ جملةَ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ على جملةِ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾؛ لأنّ الإنسانَ إمّا أن يكونَ

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 152.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/ 8122.

(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 148.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 546.

مقيمًا أو مسافرًا[1]، فأشارَ للقسمِ الأوّلِ بالجملةِ الأولى، وهم ذوو البيوتِ الموصوفةِ بالسّكنِ، وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله غالبًا، بل الإنسان ينتقل إليه، وأشارَ للقسمِ الثّاني بالجملةِ الثّانيةِ، وهم ذوو البيوتِ المرتحلةِ المعمولةِ من جلودِ الأنعام، وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان.

سرُّ إعادةِ فعلِ الجَعْلِ:

الامتنان بنوعٍ آخرَ من النّعمةِ والفضلِ والإحسانِ

وفي قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ أعادَ فعلَ الجعلِ بعدَ أنْ ذكرهُ في الجملةِ الأولى، وسرُّ إعادتهِ وهوَ للامتنانِ أصلًا؛ إذ الامتنانُ هنا بنوعٍ آخرَ منَ التّفضّلِ بنعمهِ تعالى[2].

بلاغةُ تقديمِ بيوتِ السَّكنِ على غَيرِها:

تقديمُ الأصلِ في البيوتِ على فرعِها والثّابتِ على المتنقلِ

وفي ذكرِ إنْعامه تعالى على عبادهِ ذكرَ جعلَ البيوتِ سكنًا أوّلًا، وهيَ البيوتُ المتّخذةُ من الخشبِ والطّينِ، وهذا القسمُ ثابتٌ ممّا لا يمكنُ نقلهُ، ثمَّ أتبعهُ بالبيوتِ المصنوعةِ من جلودِ الأنعامِ، وهذا القسمُ ممّا يمكنُ نقلهُ منْ مكانٍ إلى آخرَ[3]، وهوَ ترتيبٌ قدّمَ فيهِ الأصلَ على الفرعِ، والثّابتَ على المتحوّلِ؛ فإنَّ الأصلَ في البيوتِ أنْ تلزمَ الثّباتَ، وقدْ يلجأُ الإنسانُ إلى نقلِها، وإنْ كانَ ذلكَ يحصلُ معَ المشقّةِ.

سرُّ تكرارِ الجارّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾:

التّكرارُ أدلُّ على كمالِ العنايةِ والاستقلالِ في موضعي الجعلِ

بعدَ أن عبّرَ بالجارِّ والمجرورِ في صدرِ الآيةِ من قولهِ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ معَ أنّه معلومٌ، وإنّما لإظهارِ الامتنانِ والعنايةِ، أعادَ ذكرهُ في قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ معَ أنَّ العطفَ يُغني عنْ ذكرهِ؛ وذلكَ ليكونَ أدلَّ على كمالِ العنايةِ في موضعي جعلِ البيوتِ المعهودةِ، والبيوتِ المصنوعةِ من جلودِ الأنعامِ؛ لأنَّ تكرارَ الجارِّ يدلُّ على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 253.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 349.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 252.

انفرادِ كلٍّ بارتباطِ الفعلِ بِهِ قصدًا؛ فيدلُّ على استقلالِهما، وأنّ الجعلَ هناكَ لهم، والجعلَ هنا لهم أيضًا، وهوَ منْ كمالِ الاعتناءِ بخلقهِ لعلّهم يشكرونَ.

فائدة التقديمِ في قوله: ﴿مِّن جُلُودِ﴾:

خصّصَ البيوتَ بجعلِها من جلودِ الأنعامِ فضلًا منهُ تعالى ومنّةً

وفي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ قدّمَ ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على المفعولِ الأوّلِ ﴿بُيُوتًا﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، فخصّصَ البيوتَ بكونِها مجعولةً منْ جلودِ الأنعامِ، وفي ذلكَ إظهارُ منّتِه تعالى عليهم بالبيوتِ والجلود[1]، وقدرتِه وفضلِه أنْ أوجدَ البيوتَ ممّا لا يتصوّرُ أنْ تُبنى منها، وهيَ جلودُ الأنعامِ وهو أمرٌ عجيبٌ.

خصوصيَّةُ ذكرِ ﴿جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾:

امتنانٌ خاصٌّ بالبيوتِ القابلةِ للانتقالِ والارتحالِ لأهلِ القُرى أو القبائلِ الرُّحَّلِ

وخَصَّ جلودَ الأنعامِ بالذّكرِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ الّتي تصنعُ منها القبابُ والخيامُ، وهيَ منْ أدَمٍ، ومنْ منسوجِ الأوبارِ والأصوافِ والأشعارِ بعدَ دباغةِ الجلودِ، وفي ذكرِها امتنانٌ خاصٌّ بالبيوتِ الّتي يُنتقلُ فيها ويُرتحلُ، بما فيهِ نفعُ البشرِ، فإنّهم لا يخرجونَ عنْ كونهم أهلَ قرى، أوْ قبائلَ رحّلًا[2]، والنّاسُ على ضربينِ: مستوطنٌ مقيمٌ، ومسافرٌ مرتحلٌ.

سرُّ تنكيرِ ﴿بُيُوتًا﴾:

الامــتــنــانُ والتفضّلُ بتنوعِ البيوتِ، وبِتَعَدُّدِ أصنافِها

ولّما كانت النّكرةُ تدلُّ على العمومِ والشّياعِ[3]؛ فإنّهُ أوردَ ﴿بُيُوتًا﴾ بصيغةِ التّنكيرِ؛ لأنّهُ أرادَها أنْ تشملَ أصنافَ البيوتِ جميعًا، وهذا التنكير من قبيل التنكير التعريفي، بدلالته على الجنس، وليس على العدد، أي: أنَّ المراد بالبيوت هو بيوتٌ من جلودِ الأنعام، بغضِّ النظر عن عددها أو نوعها، لكنّهُ خصّصَ بالذّكرِ الخيامَ والقبابَ وما

(1) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 161.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.
(3) الزمخشري، الأنموذج في النحو، ص: 92.

أشبهَها، وهيَ البيوتُ القابلةُ للارتحالِ والانتقالِ منْ بابِ الامتنانِ والتفضّلِ عليهِم[1]، وهذا المعنى يتوافقُ مع السياق العامِّ للآية الكريمة، إذ يتحدث اللّه تعالى عن نِعمه على عباده، ومنها نعمةُ توفير السكن لهم، وبما أنَّ السَّكن في القِفار والصحراء يكون غالبًا في خيام من جلود الأنعام؛ كان التنكير مناسبًا في هذا السياق.

دلالةُ جمعِ ﴿بُيُوتًا﴾:

لَمّا كانت الخيامُ تقاربُ في ظلّها الظّليلِ بيوتَ القرى، جمعَها هذا الجمعَ

وفي قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا﴾ ذكرَ البيوتَ المعدّةَ للارتحالِ وهيَ الخيامُ بصيغةِ الجمعِ (بيوتًا)؛ وذلك لأنَّ هذهِ الخيامَ تقاربُ بيوتَ السَّكنِ في ظلِّها الظَّليلِ، فجمعها بجمعها، فإنَّهم قالوا: إنَّ هذا الجمع بالمسكن أخصُّ، والأبيات بالشعر أخصُّ[2].

معنى قولِهِ: ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾، وموقعُهُ:

صفةُ البيوتِ أنّها يخفّ عليكُم حملُها في أسفارِكم وإقامتِكم

ومعنى ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أي: أنّها تكونُ خفيفةً عليكُم، ويسهلُ حملُها في الأسفارِ[3] الّتي عبّرَ عنها بالظّعنِ، ثمّ عقّبهُ بالإقامة، والحديثُ هنا عن البيوتِ الّتي لا قصدَ لهم في استيطانِها؛ فجملةُ ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ صفةٌ لـ﴿بُيُوتًا﴾.

نكتةُ استعمالِ صيغة ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾:

تجدونَها خفيفةَ المحملِ بينَ النّقضِ ظعنًا والتّثبيتِ إقامةً

وقولهُ: ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾، الأصلُ في وزنِها (اسْتَفْعَلَ)، والسّين والتّاء المزيدةُ لها عدّةُ معانٍ منها الإصابةُ[4]، وهيَ الواردةُ هنا، والمعبّرُ عنها بالوجدانِ، أيْ: أنّكم تجدونَها "خفيفةَ المحملِ في الضّربِ والنّقضِ والنّقل ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾، أي: يومَ ترحلونَ خفَّ عليكُم حملُها ونقلُها، ويومَ تنزلونَ وتقيمونَ في مكانٍ لم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 225.
(3) القنوجي، فتح البيان: 7/ 291.
(4) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 442.

يثقلَ عليكُم ضربُها، أو هي خفيفةٌ عليكُم في أوقاتِ السّفرِ والحضرِ جميعًا"[1]، والتّعبيرُ بالمضارعِ دالٌّ على أنَّ الفعلَ متجدّدٌ متكرّرٌ بينَ نقضِها منْ مواضعِها ظعنًا، وتثبيتِها في الأرضِ إقامةً.

فائدة الإضافة في لفظَي الظعن والإقامة:

زيادة امتنانٍ باحتواء هذه البيوت لكم جميعًا

في إضافة الظَّعن والإقامة إلى ضمير المخاطبين زيادة امتنان على المخاطبين، بأنّ ما أوجده لكم من ﴿جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ يكون خفيفَ المحملِ ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ أيُّها المسافرون، ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ أيُّها المقيمون، فهي تحتويكم جميعًا أيها المخاطبون؛ لترتاحوا بداخلها، بأيسر السبل.

تكرارُ الظّرفِ في الظّعنِ والإقامةِ:

تأكيد الامتنانِ عليهم بأن جعلَها لهم خفيفةَ المحمل في جميع أحوالهم

وكرّرَ الظّرفَ في قولهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على تأكيدِ الامتنانِ بأن جعلَ لكم من جلودِ الأنعامِ ما تستترونَ بهِ، وهو سكنٌ لكم خفيفةَ المحملِ فلا يشقّ عليكُم، وذلك في جميع أحوالكم، مسافرين أو مقيمين.

بلاغةُ الطّباقِ بين لفظي الظعن والإقامة:

عندَ الظّعنِ (تحملونَها) وعندَ الإقامةِ (تُنزلونَها) فهي خفيفةُ المَحمَلِ في الأمرين

وفي قولهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ طباقٌ[2]، وهو من الأساليبِ البديعيّةِ في القرآنِ الكريمِ، ويسمّيه البلاغيّونَ مجاورةَ الأضدادِ؛ فقد طابقَ هنا بينَ الظّعنِ والإقامةِ وهما مختلفانِ؛ تعبيرًا عن البيوتِ المصنوعةِ من جلودِ الأنعامِ "فإذا ظعنتُم جعلتموها على ظهورِ الإبلِ أو الخيلِ ونحوِها، وإذا أقمتُم أنزلتموها من فوقِ ظهورِ الإبلِ، فأقمتُم تبتغونَ الماءَ والكلأَ"[3].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 625.

(2) "وهو مقابلة الشّيء بمثله الّذي هو على قدره، سمو المتضادّين، إذا تقابلا متطابقين" ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 200.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4235.

فائدةُ تقديمِ ظرف الظَّعن على غيره:

لَمّا أخبرَ عنِ اتّخاذهم جلودَ الأنعام بيوتًا، وهيَ المتّخذةُ للتّرحالِ والتّنقّلِ بما يتناسبُ معَ الظّعنِ، فقالَ: ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾، ثمّ عطفَ عليهِ ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾؛ قدَّم ظرفَ الظّعنِ على ظرفِ الإقامةِ في إشارةٍ إلى أنَّ الأصل في البيوتِ المتَّخذةِ من جلودِ الأنعام أن يكون اتّخاذُها للظّعنِ والتّرحالِ، ويجوزُ استخفافُها يومَ الإقامة[1]؛ فقدَّمَ ما هوَ أولى على ما دونَ ذلكَ، ولأنهم أشدُّ حاجةً إلى هذه البيوت في السفر.

التّناسبُ معَ البيوتِ المتّخذةِ من جلودِ الأنعامِ المعَدّةِ للنّقلِ والتّرحالِ

وفي تقديم ظرفِ الظّعنِ على ظرفِ الإقامةِ معَ أنَّ الإقامةَ هيَ الأصلُ في سكنِ الإنسانِ؛ إظهارٌ لمنّتِه سبحانهُ على خلقهِ في سفرهِ وترحالهِ على التّمام، وعلى العرب خاصَّة في ذلك الوقت؛ إذ كانوا ينتقلون كثيرًا من مكان إلى آخر، فكان تقديم ﴿ظَعۡنِكُمۡ﴾ مناسبًا في هذا السياق الكريم، أمّا المقيمُ فليسَ يشقى في حملِها وثقلِها[2].

ظهورُ المنّةِ التّامةِ في السّفرِ، أمّا المقيمُ فلا عليهِ منْ ثقلِها

أوجُهُ تعلّقِ ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾:

حذفَ العاملَ ﴿جَعَلَ﴾ من قولِه: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾؛ لأنَّ الأصوافَ والأوبارَ والأشعارَ في حقيقتها عائدةٌ على جلودِ الأنعام، والضّمائرُ عائدةٌ عليها[3]؛ فهذهِ الأصنافُ الثّلاثةُ معطوفةٌ على جلودِ الأنعامِ التّي أنعمَ اللّهُ عليهم بأن جعلَ بيوتَهم الأخرى منها، وإنّما قيلَ بعطفها على جلودِ الأنعامِ؛ لأنّ الصّوفَ والوبرَ والشّعرَ ينبتُ فيها[4].

الأصنافُ الثّلاثةُ المذكورةُ معطوفةٌ على جلودِ الأنعامِ ونابتةٌ فيها

ويجوزُ أن تجعلَ جملة: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ مبتدأَ كلامٍ جديدٍ ليسَ معطوفًا على ما سبقَ؛ ليكونَ التّقديرُ: ومن أصوافِها جعلَ أثاثًا، وهي الملبسُ والوطاءُ[5] وسوى ذلكَ.

ومنْ أصوافِها جعلَ أثاثًا من ملبسٍ ووطاءٍ وغيرِ ذلكَ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 40.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 349.
(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 6/ 34.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 412.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 153.

دلالةُ (مِن) في ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾:

الامتنانُ هنا ببعضِ ما فيها من نعمٍ

و(مِنْ) في قولهِ تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ دالّةٌ على التّبعيضِ، وهو معنىً مشهورٌ متداولٌ في معانيها[1]؛ فإنَّ الحقّ سبحانهُ قد امتنّ عليكُم بأصوافِها وأوبارِها وأشعارِها هنا بعضًا ممّا فيها من نعمٍ أخرى كلحومِها وألبانِها وركوبِها والانتفاعِ بنَسْلِها وغيرِ ذلكَ ممّا ذكرهُ في موضعٍ متقدّمٍ في هذه السورة من قولهِ: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ [النّحل: 5].

سرُّ التّرتيبِ في الآيةِ الكريمة:

قدّمَ المستخرجاتِ بحسبِ تفضيلها عندَ العربِ، مع تدرُّجٍ في سَوقِ النِّعمةِ والفضل

وفي قولهِ: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ قدّمَ الأصوافَ على الأوبارِ والأشعارِ؛ لأنَّ الصّوفَ ممّا يكتسي بهِ الضّأنُ، وهوَ مفضّلٌ عندَ العربِ، يليه الإبلُ الذي يَكْسوهُ الوبرُ، ثمَّ المعزُ الذي يَكْسوهُ الشّعرُ فقدّمَ ما هوَ أفضلُ عندهم، وأكثر حاجة واستعمالًا لديهم، وفيه تدرُّجٌ في سَوقِ النِّعمة والفضل: فالأصوافُ ما يستخرج من الضَّأن، وهو أرخص وأقل من الأوبار والأشعار، والأوبارُ ما يستخرج من الإبل، وهو أغلى وأفضل من الأصواف، والأشعارُ هي الشعر الذي يستخرج من المعز والبقر، وهو أنفس وأجود من الأوبار والأصواف.

دلالةُ الاقتصارِ في الآيةِ الكريمة:

خوطبوا فيما عرَفوا وفهموا، وغيرها من المنسوجات ليس مِنْ صناعتهِم

ذكْرُ الأصوافِ والأوبارِ والأشعارِ في قولهِ: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ أثاثًا لهم لا يقتضي انتفاءَ وجودِ غيرِها كالحريرِ والقطنِ والكتّانِ ونحوِها؛ فيردُ سؤالٌ أن لِمَ كانَ اقتصارُ الإخبارِ بهذهِ الأنواعِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنّها لم تكنْ منْ صناعاتِهم، وإرشادًا لهم في الاقتصادِ وعدمِ الإسرافِ في معيشتهم[2] فربمّا عُدّ من التّرفِ فإنَّ الصّوفَ كانَ من لباسِ الصّالحينَ، واقتَصَر على هذه

(1) المرادي، الجنى الدّاني، ص: 309.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 226، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 154.

الثَّلاثةِ؛ لأنَّ بلادَهم لم تكُنْ بِلادَ قُطنٍ وكَتّانٍ وحريرٍ، واندرَجَت في قَولِه بعدَ ذلك: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾، وإنَّما عدَّد عليهم ما أنعَم به عليهم، وخوطبوا فيما عرَفوا بما فهِموا، وما قام مَقامَ هذه، وناب منابَها فيدخلُ في الاستعمالِ والنعمةِ مدخلَها(1).

نكتةُ تقديمِ الأثاثِ على المتاعِ:

تقديمُ الخاصِّ على العامِّ فالمتاعُ أعمُّ منَ الأثاثِ

وقدّمَ الأثاثَ على المتاعِ في قولِه تعالى: ﴿أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ منْ بابِ تقديمِ الخاصِّ على العامِّ(2)، فالأثاثُ يطلقُ على كلِّ ما يمهِّد حياة الإنسان ويسهِّلها من فُرُش وبُسط وسُرر وأغطية وأكسية ممّا يصنع من أصواف الأنعام وأوبارها وجلودها، وغير ذلك ممّا يزيّن به الناس بيوتهم في كلّ العصور والأمصار.

أمّا لفظ المتاع؛ فهو عامٌّ يصدق على كلّ ما يوفِّر الحياة الكريمة الهنيئة الطَّيّبة من أمتعة ووسائل وخزائن يحفظ فيها الإنسان مقتنياته، ووسائل نقل وغير ذلك ممّا يحتاجه في رحلة الحياة في هذه الدنيا(3).

من معاني الأثاث اللباس الفاخر

وإذا ذَهبْنا إلى أنَّ معنى لفظِ (الأثاث) هو اللباس، كما ورد عن حبر الأمَّة ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأورَده الفخر الرازيُّ في تفسيره، فيكون التقديمُ من قبيل تقديم ما يخصُّ لباس الإنسان على الأمتعة التي تساعده على العيش الكريم، وفي ذلك يقول الرازيُّ: "الأثاثُ ما يكتسِي بِه المرءُ، ويستعملُهُ في الغطاءِ والوطاءِ، والمتاعُ: ما يفرشُ في المنازلِ ويزينُ بِه"(4).

ناسبَ تقديمُ ما يخصّ البيوت، وهوَ الأثاثُ

وفي تقديمِ الأثاثِ على المتاعِ ملمحٌ سياقيّ؛ فإنّهُ لَمّا كانَ سياقُ الكلامِ فيما مضى يسيرُ في الكلامِ على البيوتِ، ناسبَ أنْ يذكرَ ما يخصّها أولًا وهوَ الأثاثُ، ثمَّ ما هوَ عامٌّ وهوَ المتاعُ(5).

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 154، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 577.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 221.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 239.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 253.
(5) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 161.

فإنَّ الظّاهرَ من استقراءِ آياتِ الكتابِ الحكيم أنَّ الأثاثَ يستعملُ كثيرًا لمتاعِ البيتِ خاصةً، أمّا المتاعُ فيستعملُ على وجهِ العموم كمتاع الدّنيا غيرِ مقصورٍ على الأثاثِ، ثمَّ إنّهُ يردُ مجازًا، ويستعملُ استعمالًا معنويًا، وقلّما يردُ ذلكَ في الأثاثِ(1).

تنكيرُ لفظتي: ﴿أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا﴾:

الإشارةُ إلى سرعةِ ما تكونُ هلاكًا وبلًى

وأوردَ ﴿أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا﴾ نكرتينِ، وتركَ الإضافةَ والألفَ واللّامَ فيهما إشارةً إلى سرعةِ البلاءِ والهلاكِ نسبةً لما تقدّمَ منَ البيوتِ الّتي تتّخذُ من الحَجَرِ والمدرِ والخشبِ؛ فإنّها تحافظُ على نفسِها وعلى ما فيها منَ المضارِّ والبِلى(2).

فائدةُ قيدِ المتاعِ بالجارّ والمجرورِ:

موعظةٌ بأنَّ النّاسَ صائرونَ إلى زوالٍ ليكونوا على أهبةٍ واستعدادٍ للآخرةِ

وقيّدَ لفظَ المتاعِ بالجارِ والمجرورِ في قولِه: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ هنا وفي ستةِ مواضعَ أخرى من الكتابِ الكريم، وهذهِ المواضعُ: [البقرة: 36] و[الأعراف: 24] و[يونس: 98] و[الأنبياء: 111] و[يس: 44] و[الصافات: 148]، والمتاعُ اسمٌ لما ينتفعُ بهِ مشتقٌّ من المتعِ بمعنى الذَّهابِ بالشّيءِ، ولمعنى الاشتقاقِ أثرٌ في هذا التّعلّقِ؛ فإنّ المقصودَ الإشارةُ إلى أنّهم صائرونَ إلى زوالٍ يحولُ دونَ الانتفاعِ بالدّنيا ومتاعِها الزّائلِ؛ فيكونُ النّاسُ مُستَعِدّينَ للآخرةِ باتّباعِ ما يرضي اللّهَ(3)، وفي ذلكَ موعظةٌ بليغةٌ في أنّه لا ينبغي للمؤمنِ أن يتفاخرَ بما مصيرهُ الزّوالُ والبِلى.

دلالةُ تنكيرِ الحينِ في ختامِ الآيةِ:

متاعًا إلى حينِ البلى أو الموتِ أو القيامةِ أو غيره

ووردَ الحينُ المقيّدُ بالمتاعِ نكرةً في قولِه: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾؛ لأنّه يحتملُ عدّةَ معانٍ، فقد يكونُ معناهُ "إلى حينِ البلَى، وقيلَ: إلى حينِ الموتِ، وقيلَ: إلى حينٍ بعدَ الحينِ، وقيلَ: إلى يومِ القيامةِ"(4).

(1) بنت الشاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، ص: 328.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 350 - 351.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 239.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 253.

يتمتعونَ بهِ بحسبِ قوّةِ الأثاثِ وصلابتِهِ

وفي تنكيرِ الحينِ فائدةٌ أخرى، وهو اختلافُ آمادِ تمتّعهم بما وهبهُم الحقّ سبحانهُ، على أنّ هذا التَّمتُّعَ مختلفٌ؛ كلٌّ في بابهِ، فبعضُ الأثاثِ أقوى صلابةً من غيرهِ؛ فتكونُ مدّتهُ إلى الوفاةِ، وبعضهُ أقلّ صلابةً فمدّتهُ أقلّ، وبعضهُ حتّى تمامِ الحاجةِ منهُ كاللّباسِ والفرشِ ونحوهِ[1].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

البيت والسّكن:

البيتُ مطلقُ ما يُؤْوِي الإنسانَ، والسّكنُ مستقرّ لراحتِهِ وهدوءِ جوارحِهِ

وقولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ ذكرَ البيوتَ هنا، ثمَّ ميّزَها بكونِها سكنًا له، والبيتُ مكانٌ يتّخذهُ صاحبهُ مأوى ومَقَرًّا لهُ، يحميهِ من الحرِّ والبردِ، محيطهُ من الحجرِ والطّينِ والأخشابِ، ولهُ غطاءٌ يسمّى سقفًا من العودِ والطّينِ[2]، وغرضُ البيوتِ على هذهِ الشّاكلةِ السّكنُ والاستقرارُ لِما لها منْ صفةِ الثّباتِ في أنّها لا يمكنُ نقلُها، وآيةُ ذلكَ قولهُ بعدَها: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾؛ فأطلقَ لفظَ البيتِ على نوعٍ آخرَ ممّا يسمّى بيتًا، لكنّهُ لم يصفهُ بالسّكنِ؛ لأنّها بيوتٌ موصوفةٌ بعدمِ الثّباتِ؛ فهي خفيفةُ المحملِ، يسهلُ نقضُها - فثبتَ أنَّ البيتَ اصطلاحٌ عامٌّ يطلقُ على ما يكونُ للإنسانِ قرارًا ومأوى[3]، أمّا السّكنُ فاصطلاحٌ خاصّ يطلقُ على ما يُؤْوِي الإنسانَ ويكونُ "محلًّا تسكنونَ فيهِ، وتهدأُ جوارحكُم عَنِ الحركةِ، وقدْ تتحرَّكُ فيهِ، وتسكنُ في غيرهِ ... فإذا عادَ المرءُ إليهِ سكنَ وبهذا سُمّيتْ مساكنَ لوجودِ السّكونِ فيها في الأغلبِ"[4].

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 351.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 237.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 284.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 125.

الظّعن والسّفر:

الظّعنُ تَرْحالٌ قصيرٌ لِنُجْعَةٍ أو حضورِ ماءٍ ونحوه، والسّفرُ قطعُ المسافاتِ مطلقًا

السّفرُ يطلقُ على ما يقطعهُ المرءُ من المسافاتِ[1]، وأغراضهُ متعددةٌ، أمّا الظّعنُ فهوَ سيرهُم في الفَيافي والبوادي لنجعةٍ أو حضورِ ماءٍ أو طلبِ مَرْبعٍ وعشبٍ أو غيرِ ذلكَ، والظّعنُ يطلقُ على ما قَصُرَ من السّفرِ[2]؛ ولذلكَ عبّرَ عن التَّرحالِ القصيرِ المتقطّعِ بقولهِ: ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ فهم متردّدون بينَ الظّعنِ والإقامةِ، ثمَّ أصبحَ ملازمًا للرحيلِ في الهوادجِ حتّى أصبحتْ تسمّى المرأةُ ظعينةً بكونِ الهودجِ ظرفًا لها[3]، وما ذاكَ إلّا لأنّ الظّعنَ سفرٌ قصيرٌ لغايةٍ محدودةٍ، معَ اتّصافهِ بصفةِ التّكرارِ.

الصّوف والوبر والشّعر:

الأصوافُ للضّأنِ والأوبارُ للإبلِ والأشعارُ للمعزِ ولكلّ منها صفتهُ الّتي تميّزهُ

في قولهِ تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ ذكرَ هنا الصّوفَ والوبرَ والشّعرَ في موضعِ امتنانهِ عليهم في عملِ الأثاثِ والمتاعِ، والفرقُ بينَها أنَّ الأصوافَ للضّأنِ، والأوبارَ للإبلِ، والأشعارَ للمعزِ[4]، وطبيعةُ كلِّ جنسٍ منْ هذهِ الأجناسِ مختلفةٌ، فشعرةُ الصّوفِ أنبوبةٌ أسطوانيةٌ قلبُها فارغٌ، أمّا الوبرُ فيجزٌّ من الجملِ، ويكونُ ملبّدًا دليلًا على أنّهُ مفتولٌ بدقّةٍ، فيما تجدُ شعرَ المعزِ متفرّقًا كلّ شعرةٍ بمفردِها[5]، فهذهِ الفروقاتُ آيةٌ على خلقِ اللّهِ، ينتفعونَ منها بحسبَ كلِّ صفةٍ ممّا بيّنا، والحقُّ سبحانهُ لا يخلقُ هذهِ الصّورَ عبثًا، بل لغرضٍ وغايةٍ منها انتفاعُ الإنسانِ.

الأثاث والمتاع:

وقولهُ تعالى: ﴿أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ مؤذنٌ بأنّ ثمّةَ فرقًا بينهُما؛

(1) الجوهري، الصّحاح: (سفر).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ظعن).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 340.
(4) النحاس، معاني القرآن: 4/ 96.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/ 7815.

الأثاثُ هو فرشُ البيوتِ، والمتاعُ كلّ ما ينتفعُ ويتزوّدُ بهِ

فالأثاثُ هي الأشياءُ الّتي تكونُ فرشًا في البيوتِ كالوسائدِ والبسطِ والزّرابيّ المنسوجةِ أو المحشوّةِ بالأصوافِ والأشعارِ والأوبارِ[1]، أمّا المتاعُ فهو كلُّ ما ينتفعُ بهِ، ويتزوّدُ من أمتعةِ البيتِ، وما يأتي عليهِ الفَناءُ في الدّنيا[2]؛ فالعطفُ بينَ الأثاثِ والمتاعِ من بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 239.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (متع).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾

[النّحل: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نِعمُ الله على بني آدمَ مما يشاركونَ فيهِ سائرَ الحيواناتِ والهوامِّ

وبعدَ أنْ ذكرَ ما أنعمَ عليهِم منْ نعمهِ الخاصَّةِ ببني الإنسانِ من السَّكنِ يومَ ظعنهِم ويومَ إقامتِهم، ذكرَ لهم هنا ما يشاركونَ فيهِ سائرَ الحيواناتِ من الأشجارِ ظلالًا، والجبالِ أكنانًا بما فيهِ سترهم، ثُمَّ أتْبَعَ ذلك ما هَداهم إليه، عِوَضًا مِمّا جَعَلَهُ لِسائِرِ الحَيَوانِ، فذكر نِعمةَ السرابيل التي تقيهم الحر وبأس الحرب، وهذا مِنْ بديعِ اختيارِ الخالقِ المختارِ الّذي ميّزهُم عن الهوامِّ والوحشِ بالثّيابِ الواقيةِ، والسَّرابيلِ الحاميةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظِلَٰلٗا﴾: أصلُ (ظلّ): أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغيره، تَقولُ: أظَلَّتْنِي الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَلِيلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[2]، ويُعبّر بالظّلّ عن العِزَّة والمنعة، وعَن الرَّفاهة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ﴾ [المرسلات: 41]، أي: في عِزَّة ومناع، والظُّلل: جمعُ ظُلَّة، كغُرْفَة وغُرَف: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثر ما يُقال فيما يُستوخم ويُكره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: 171][3]، والمقصودُ بالظِّلِّ في الآية: صورةُ الجسمِ المُنعَكِسِ إليهِ نورٌ؛ وهي آثارُ حَجْبِ الأجسامِ ضَوءَ الشَّمسِ مِنَ الوُقوعِ على الأرْضِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 226.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظلل).

2) ﴿أَكۡنَٰنٗا﴾: أصلُ (كنّ): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على سَتْرٍ أوْ صَوْنٍ. يُقالُ: كَنَنْتُ الشَّيءَ في كِنِّه، إذا جَعَلْتَهُ فِيهِ وصُنْتَهُ، وأكْنَنْتُ الشَّيءَ: أخفيتُهُ، والكِنانَةُ: المَعروفَةُ، وهي القِياسُ[1]، الكِنُّ: ما يَرُدُّ الحَرَّ والبرْدَ مِنَ الأبنية والمَساكِنِ، وقَدْ كَنَنْتُه أكُنُّه كَنًّا، والجَمعُ أكنانٌ وأكِنَّةٌ[2]، وكَنَّ الشيءَ: سَتَرَهُ، قال تعالى: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة: 235]؛ أي أخفَيْتم، والأكِنَّةُ: الأغطِيَةُ؛ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25][3]، والأكنانُ: جَمعُ كِنٍّ وهو فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعولٍ، أي: مكنونٍ فِيه، وهي الغِيرانُ والكُهوفُ، والمقصود بالأكنان في الآية: الغيرانُ والكُهوفُ.

3) ﴿سَرَٰبِيلَ﴾: السِّرْبالُ: القَميصُ من أيِّ جِنْسٍ كانَ، يَقِي الجَسَدَ حَرَّ الشَّمسِ، كَما يَقِيهِ البَرْدَ، وقَدْ تَسَرْبَلَ بِهِ وسَرْبَلَه إيّاه، وسَرْبَلْتُه فتَسَرْبَل، أي: ألبسته السِّرْبالَ، وتُطْلَقُ السَّرابِيلُ على الدُّروعِ، جَمعُها سِرْبال، والسَّرْبَلَة: الثَّريد الكَثِيرُ الدَّسَمِ[4]، والمقصود بالسَّرابيل في الآية نوعان: القمصانُ والثيابُ من القطن وغيره التي تدفع الحر والبرد، والقمصانُ الَّتي تقِي البأسَ: وهِيَ دُروعُ الحَدِيدِ، ولها من أسماءِ القَمِيصِ: الدِّرْعُ، والسِّرْبالُ، والبَدَنُ[5].

4) ﴿تَقِيكُمُ﴾: أصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِه، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِه، أيْ: دَفَعَهُ بِه، وفُلانٌ ما له مِن واقٍ، أيْ: مِن دافِعٍ، والوِقايَةُ: ما يَقِي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللهَ: تَوَقَّهُ، أي اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اتَّقوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمرَةٍ"[6]، وكأَنَّهُ أرادَ: اجْعَلوها وقايَةً بَيْنَكُم وبَيْنَها، وتأْتي الوِقايَةُ بمعنى الحِفْظِ مِن الأذَى والضَّرَرِ[7]، والمقصود بالوِقايَةِ في الآية: حفظُ الشَّيءِ ممّا يؤذيه ويضرُّه.

5) ﴿بَأۡسَكُمۡۚ﴾: أصْلُ (بأس): أصْلٌ واحِدٌ، هو الشِّدَّةُ وما ضارَعَها[8]، والبأْسُ والبَئِسُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كنَّ).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كنن).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كنن).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سربل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240.
(6) رواه أحمد في مسنده، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، رقم الحديث: (18253).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقى)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 340.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).

على مِثالِ فعِلٍ، العَذابُ الشَّديدُ، والبأْس أيضًا: الحَرْبُ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ لا بَأْسَ عليكَ، ولا بَأْسَ، أي: لا خَوْفَ، وإذا قالَ الرَّجُلُ لِعَدوِّه: لا بأْس عليكَ فقَدْ أمَّنه؛ لأنه نَفَى البأْس عَنْهُ[1]، ورَجُلٌ ذو بَأْسٍ وبَئِيسٌ، أي: شُجاعٌ، والمقصود بالبأْسِ في الآية: الشِّدَّةُ في الحَرْبِ.

6) ﴿تُسۡلِمُونَ﴾: معظم باب (سلم): مِنَ الصِّحَّةِ والعافِيَةِ، فالسَّلامَةُ: أنْ يَسْلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، قالَ أهلُ العِلْمِ: اللّٰهُ جَلَّ ثَناؤُهُ هو السَّلامُ؛ لِسَلامَتِهِ مِمّا يَلْحَقُ المَخْلوقِينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ، ومن الباب الإسلامُ: الانْقِيادُ؛ لِأَنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإباءِ والامتِناعِ[2]، والإسْلامُ أيضًا: الاستِسلامُ لأمرِ اللّٰهِ والانقيادُ لطاعَتِه، ويُقالُ فُلانٌ مُسلِمٌ، وفيه قَولانِ: أحدهما: هو المُستَسلِمُ لأمرِ اللّٰه، والثّاني: هو المُخْلِصُ للّٰه العبادةَ، مِنْ قولهم: سَلَّمَ الشَّيءَ لِفُلانٍ، أي: خَلَّصَهُ، وسَلِمَ لَهُ الشَّيءُ، أي: خَلَصَ لَهُ[3]، والمقصود بالإسلام في الآية: الانقِيادُ للّٰه تعالى بكلِّ وجه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَعْدادُ نِعَمِ الله تعالى السابغةِ على خَلْقِهِ من الظِّلالِ والجبالِ واللِّباسِ والدُّروع

ثمَّ ذكَر اللّٰه تعالى نعمةَ الظِّلالِ والجبالِ واللباسِ والدُّروع، فقال: واللّٰه جعَلَ لكم ما تَستظِلّون به مِن الأشجارِ وغيرِها، وجعَلَ لكم من الجبالِ مغاراتٍ وكُهوفًا تَلجَؤونَ إليها عندَ الحاجةِ، فهي تحميكم مِن الحَرِّ والبَردِ، والأمطارِ والأعداءِ، وجعَلَ لكم ثيابًا تَقيكم الحَرَّ والبَرْدَ، وجعَلَ لكم مِن الحديدِ دروعًا وغيرَها تقيكم الطَّعنَ في حُروبِكم وتدفَعُ عنكم ضَرَرَ السِّلاحِ، كما أنعَمَ اللّٰهُ عليكم بهذه النِّعَمِ الوافرة يُتِمُّ نِعمَتَه عليكم؛ لتَخضعوا لأمرِ اللّٰهِ وحْدَه، ولا تُشرِكوا به شَيئًا في عبادتِه[4].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بأس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 321، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 591، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 221، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/ 420.

وفي الآيةِ دليلٌ على اتخاذ الناسِ عدَّةَ الجهاد ليستعينوا بها على قتالِ الأعداء، وقد لبسها النبيُّ ﷺ في حروبه، وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ كثرة النِّعم من الأسباب الجالبةِ من العباد مزيدَ الشكر، والثناءِ بها على اللّه تعالى، لكن من لا يوفَّق إلى هذه الخَصلة لا يزدادُ إلّا تمرُّدًا وعنادًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ جملةِ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ﴾:

امتدادُ امتنانه تعالى بنعمةِ الإلهامِ إلى التّوقّي من الحرّ والقرّ

وعطفَ جملةَ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ وما بعدَها على ما قبلَها في امتدادٍ لنعمهِ تعالى منْ جعلِ البيوتِ القارّةِ والمتحوّلةِ في أحوالِ الإقامةِ والانتقالِ، فبيّنَ هنا إلهامَهُم إلى التّوقّي منْ أضرارِ الحرِّ والقرّ حالَ التّحوّلِ[2]، وكلّ ذلكَ امتنانًا منهُ سبحانهُ على ما وهبهُم.

استظلالُ المسافر بما يستظلُّ به كالجدرانِ والأشجارِ والغمامِ

وأقسامُ الإنسانِ باعتبارِ إقامتهِ وسفرهِ على ضربينِ؛ مقيمٌ ومسافرٌ، والمسافرُ إمّا أنْ يكونَ غنيًّا مكتفيًا، وإمّا ضعيفًا مفتقرًا فهذهِ ثلاثةُ أنواعٍ، وعطفَ هذا النوعَ الثّالثَ على النّوعينِ الأولينِ؛ فالمسافرُ إذا لم يجدْ ما يحميهِ ويؤويهِ منْ خيمةٍ أوْ قبّةٍ أوْ نحوها لافتقارهِ؛ فإنّهُ يستظلُّ بشيءٍ آخرَ كالجدرانِ والأشجارِ والغمامِ[3].

ما تقدّمَ امتنانُ جعلِهِ المساكنَ وعطفَ عليهِ منّةَ جعلِهِ اللّباسَ

وعطفَ هذهِ الآيةَ على ما سبقَها؛ لاشتمالِ هذهِ الآيةِ على منّتينِ امتنَّ الحقُّ سبحانهُ بهما على خلقهِ في اللّباسِ الّذي يحميهم من الحرِّ والبردِ بعد أنَ امتنّ اللّهُ عليهم بمنّةِ جعلهِ المساكنَ لهم، فتقدّمت منّةُ المساكنِ، ثمَّ عطفَ عليها منّةَ اللّباسِ[4].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 160، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 239.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 253، والخازن، لباب التأويل: 3/ 92.
(4) الزركشي، البرهان: 3/ 119.

نكتةُ الذِّكر في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

تعظيمًا له سبحانه وتعديدًا لنعمهِ وظهورِ قدرِها وعلوّ أمرِها

ولَمّا ذكرَ الاسمَ الجليلَ مُظْهَرًا في الآيةِ السّابقةِ كانَ القياسُ أنْ يأتيَ بهِ هنا مضمرًا، لكنّهُ عدلَ عنهُ فوضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ﴾؛ لإرادةِ تعديدِ نعمهِ تعالى، وإظهارِ قدرِها وعلوّ أمرِها، ومنْ أجلِ تعظيمِه سبحانهُ ذي الجلالِ والإكرامِ[1].

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ:

تأكيدُ جعلِ هذهِ النّعمِ لهُ تعالى ونفيُها عن غيره

وقدّمَ المسندَ إليه الاسمَ الكريمَ ﴿وَٱللَّهُ﴾ على المسندِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾؛ لغرضِ تقويةِ إسنادِ الخبرِ إليهِ[2]؛ فلا يَتوهّمَ متوهِّمٌ أنَّ جعلَ مثلِ هذهِ النّعمِ منْ غيرهِ سبحانهُ.

دلالتا تكرارِ ﴿جَعَلَ﴾، وكونه ماضيًا:

تحقّقُ النّعمِ العظيمةِ في معرضِ الامتنانِ

وكرّرَ الفعلَ ﴿جَعَلَ﴾ في هذهِ الآيةِ وما قبلَها؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الامتنانِ عليهِم بالنّعمِ العظيمةِ، واستقلالُ الجعلِ في كلِّ نعمةٍ منْ لدن جعلِ بيوتِهم سكنًا، وهيَ نعمٌ واقعةٌ حقًّا بدلالةِ التّعبيرِ بالماضي حتّى اشترطَ عليهم أنْ يسلموا؛ فيهبهُم من النّعمِ الأخرى حتّى يتمّها في المستقبلِ.

وجهُ تكرارِ الجارّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾:

امتنّ عليكُم واختصَّ بكُم هذهِ النِّعمَ دونَ سائرِ الحيوانِ

وأعادَ ذكرَ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ منًّا منهُ سبحانهُ عليكُم بأن اختصّ بكم هذهِ النِّعمَ دونَ سائرِ المخلوقاتِ الأخرى كالحيوانِ[3].

معنى (مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾:

تبعيضيةٌ؛ إذ من خلقه الكهوفُ التي يأوونَ والأشجارُ التي يستظلّونَ

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ (مِنْ) في ﴿مِّمَّا﴾ دالّةٌ على التّبعيضِ، أيْ: أنّهُ جعلَ لكُم منْ بعضِ ما خلق

(1) العلوي، الطراز: 3/ 150، والبقاعي، نظم الدّرر: 11/ 226.
(2) العلوي، الطراز: 3/ 149.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 226.

ظلالًا تحميكُم، وهيَ الكهوفُ الّتي يأوونَ إليها عندَ اشتدادِ الحرِّ[1]، أو الأشجارُ الّتي يستظلّون بها.

معنى (ما) في الآيةِ، وأثرُها:

خلقَ اللهُ أنواعَ الظّلالِ من أشياءَ كثيرةٍ عامّةٍ بقدرتِهِ وعظمتِهِ

و(ما) في قولِه: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ دالّةٌ على العموم؛ فهي موصولةٌ مشتركةُ الدّلالةِ "مبهمةٌ تقعُ على كلِّ شيءٍ"[2]، ولجواز أن تكون مصدريّة إشارة إلى امتنان الخالق ﷻ عليهم بخَلْقه تلك الظلال من غير صنع منكم؛ فمعناها جميعُ ما كانَ من شجرٍ وسائرِ المستظلّاتِ الأخرى[3]، أي أنّه تعالى خلقَ لكُم أنواعَ الظّلالِ من أشياءَ كثيرةٍ عامّةٍ دلّت عليها (ما) ولم يذكرْ أيَّ شيءٍ معيّنٍ لتعددِ الأنواعِ[4]، وكلّه بقدرتِهِ وعظمتِهِ الّتي لا يحدُّها شيءٌ.

إيثارُ التعبيرِ بالفعلِ ﴿خَلَقَ﴾:

جميعُ ما جعلَ اللهُ لهم إنّما هيَ مخلوقةٌ صورةً ومادةً وهيئةً

ولّما كرّرَ فعلَ الجعلِ غيرَ مرةٍ ذكرَ هنا فعلَ الخلقِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾؛ لأنَّ تلكَ الأشياءَ إذا وصفت بأنّها مجعولةٌ له سبحانهُ، فإنّ خلقَها له تعالى على الجملةِ من جهةِ الصّورةِ والمادّةِ والهيئةِ[5]؛ فقدْ يتوهّمُ أنَّ الجعلَ منْ صفاتِ البشرِ، وأنّ البيوتَ ونحوَها إنّما صارتْ بيوتًا بما صنعَ بنو آدمَ.

الانتفاعُ بأنواعِ الظّلالِ مكافئٌ للنّورِ وليسَ بأقلّ منهُ

ولم يكتفِ بفعلِ الجعلِ كعادتهِ في الآياتِ السّابقةِ، بلْ زادَ عليه فعلَ الخلقِ، وفي تعليقِ الظّلالِ بفعلِ الخلقِ "لكونِها أمرًا عدميًا محقّقًا يتبعُ غيرهُ، وهيَ معَ ذلكَ من النّعمِ العظيمةِ الّتي أنعمَ اللّٰهُ بها على الإنسانِ وسائرِ الحيوانِ"[6] فالانتفاعُ بأنواعِ الظّلالِ كظلالِ الأشجارِ والأبنيةِ والكهوفِ وظلِّ الليلِ مكافئٌ للنّورِ، وليسَ بأقلّ منهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 228.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 174.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4236.
(5) ابن قيم الجوزية، بدائع التّفسير: 2/ 117، والثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 40.
(6) الطباطبائي، الميزان: 14/ 314.

سرُّ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿ظِلَٰلٗا﴾:

وعبّرَ عن الظّلالِ بصيغةِ الجمعِ والتّنكيرِ ﴿ظِلَٰلٗا﴾؛ لأنَّ معنى الظّلالِ يحتملُ أنْ يكونَ ظلالَ الغمامِ، ويحتملُ أنْ يكونَ ظلالَ البيوتِ، أوْ ظلالَ الشّجرِ، أوْ ظلالَ الجبالِ، ويحتملُ كلّ ما لهُ ظلّ منْ حائطٍ وسقفٍ ونحوهما[1]، فمعناهُ عامّ غيرُ معيّنٍ كالنّكرةِ في شمولِها وعدمِ دلالتِها على التّعيينِ.

شمولُ جميعِ أنواعِ الظّلالِ كظلالِ الغمامِ والبيوتِ والشّجرِ والجبالِ وغيرِه

دلالةُ عطفِ جملةِ ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾:

ولَمّا ذكرَ ما أنعمَ عليهم من الظّلالِ الّتي يستترونَ بها من الحرّ "وأنّها الأشياءُ المباشرةُ لهم؛ لأنّ بلادهُم من الحرارةِ وقهرِ الشّمسِ، بحيث للظّلّ غناءٌ عظيمٌ ونفعٌ ظاهرٌ"[2] بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾، عطفَ عليه مماثلهُ ممّا يحميهم من البردِ والمطرِ والرّيحِ بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ وهي الغيرانُ في الجبالِ ونحوها.

مناسبةُ الإتْباعِ بما يحميهم من البردِ والمطرِ

نكتةُ التّعبيرِ بالأكنانِ:

وعبّرَ بالأكنانِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾، ولم يعبّرْ بغيرِها كالبيوتِ؛ لأنّها كانت أماكنَ للاستتارِ من الأعداءِ أو الأمطارِ أو اتّقاءِ حرارةِ الهجيرِ، ولم تُتَّخَذْ بيوتًا للسّكنِ المطمئنِ؛ حيثُ تسكنُ نفوسُهم، ويشعرونَ بالأمانِ بعدَ التّعبِ[3] كما هوَ حالُ البيوتِ المتّخذةِ للسّكنى، فوصفُ الأكنانِ أليقُ بها وأنسبُ.

الأكنانُ مواضعُ للاستتارِ من عدوٍّ أو مطرٍ أوْ نحوِه، وليست بيوتًا للسّكنِ

دلالةُ التّنكيرِ في ﴿أَكۡنَٰنٗا﴾:

وأوردَ مفردةَ الأكنانِ نكرةً؛ لدلالتِها على العمومِ والشّيوعِ كما هوَ الحالُ في النّكرةِ في لسانِ العربِ؛ فإنَّ هذهِ الأكنانَ عامَّةٌ ليستْ محدّدةً، بلْ هيَ كلُّ ما يسترُ الإنسانَ من الحرِّ أو البردِ أو المطرِ أو

كلّ شيءٍ وقاكَ وسترَكَ وحماكَ فهو من الأكنانِ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 576.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 412.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4237.

العدوِّ أو الوحشِ، فكلُّ شيءٍ وقاكَ وسترك وحماكَ فهوَ كنٌّ[1]، وجمعهُ أكنانٌ؛ فهو عامّ غيرُ متعيّنٍ.

بلاغةُ تقديمِ ظلالِ الأشجارِ:

الاستظلالُ بالأشجارِ أكثرُ من الاحتماءِ بأكنانِ الجبالِ

وتقدّمَ قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ على قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ من بابِ تقديمِ الأكثرِ على الأقلّ؛ فإنّ الظّلالَ من كثرةِ الأشجارِ وانتشارِها وعمومِها للمخاطبينَ، والجبالُ منحسرةٌ في أماكنَ معينةٍ، وأنّها لا تشملُ البشرَ جميعًا، وأنّه جعلَ لهم من السّهولِ ما هو أكثرُ من الجبالِ وأعظمُ[2]؛ فثبتَ أنّ استظلالهُم بالأشجارِ أكبرُ من أكنانِ الجبالِ، وإن كانَ الاثنانِ من نعمهِ تعالى.

بلاغةُ الاكتفاءِ في الآيةِ:

الكنّ السّترُ وهو ما يحمي من الحرّ والبردِ فيشملُ الجبالَ والسّهولَ

وفي قولهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ إيجازٌ بالحذفِ من بابِ الاكتفاءِ[3]؛ فإنَّ التّقديرَ أنّه تعالى جعلَ من الجبالِ والسّهولِ أكنانًا[4]؛ فإنَّ الأكنانَ ما يحمي من الحرِّ والبردِ من الأبنيةِ والمساكنِ والغيرانِ؛ فإنَّ معنى كننتُ الشّيءَ: سترتهُ وصنتهُ[5]، وإنْ كانَ قدْ شاعَ إطلاقهُ على الغارِ في الجبلِ، إلّا أنَّ معناهُ المحوريّ يدلُ على السّترِ مطلقًا.

تقدّمَ ذكرُ السّهلِ في جعلهِ البيوتَ سكنًا فأغنى عن ذكرهِ

واكتفى بذكرِ الجبالِ في الجملةِ دونَ ذكرِ السّهلِ؛ لأنّهُ تقدّمَ ما يدلُّ على السّهلِ في الآيةِ السّابقةِ منْ قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾[6].

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 576.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 271، 269.
(3) "أنْ يقتضيَ المقامُ ذكرَ شيئينِ بينهما تلازمٌ وارتباطٌ فيكتفَى بأحدهما عنِ الآخرِ" الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 118.
(4) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص: 352.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 4/ 1927.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 206.

ذكرَ لهم ما هوَ معهودٌ لديهم إذْ كانوا أصحابَ جبالٍ

ولّمّا كانَ العربُ المخاطبونَ بالقرآنِ أصحابَ جبالٍ في الجملة، ولم يكونوا أصحابَ سهولٍ[1] اكتفى بذكرِ الجبالِ بقولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾؛ فذكرَ لهم ما هو معهودٌ لديهم.

معنى إعادةِ الفعلِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾:

تكريرُ الفعلِ فيه تذكيرُهم بنعمهِ تعالى وامتنانهِ عليهم

وكرّرَ الفعلَ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾؛ لأنّه في سياقِ الإنعامِ عليهِم، وهذهِ نعمةٌ أخرى جديدةٌ[2]، وهي نعمةُ الملبسِ بعدَ نعمةِ المسكنِ؛ ففي تكريرِ الفعلِ تذكيرهُم بنعمهِ وامتنانهِ عليهم.

الأثرُ الدّلاليّ في عطفِ قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾:

لَمّا ذكرَ تعالى أمرَ المسكنِ ذكرَ بعدَهُ أمرَ الملبوسِ وذلك من تمامِ النّعمةِ

ولّمّا ذكرَ الحقّ تعالى أمرَ المسكنِ عطفَ عليهِ أمرَ الملبوسِ[3] في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾؛ لأنَّ ما قبلَه جارٍ في سياقِ المسكنِ الحامي لهم منْ حرارةِ الشّمسِ بأنواعِ الظّلالِ، والحامي لهم من البردِ والمطرِ والرّيحِ بأكنانِ الجبالِ؛ لتكونَ منّتهُ بالسّرابيل منْ تمامِ إنعامهِ عليهِم لعلّهم يؤمنونَ.

إيثارُ استعمالِ لفظِ ﴿سَرَٰبِيلَ﴾:

المقامُ مقامُ إنعامٍ فهو جديرٌ بالمبالغةِ والتّعظيمِ في الوصفِ

وقولهُ ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ بصيغةِ منتهى الجموعِ[4]، وهو من جموعِ الكثرةِ، فقد ذكرَ هذهِ الكلمةَ في مقامِ الإنعامِ، وكرّرها لأنَّ المقامَ جديرٌ بالمبالغةِ والتّعظيمِ.

أثرُ موقعِ جملةِ ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾:

السّرابيلُ تقي البشرَ من الحرّ والبردِ والحربِ

ووقعتْ جملةُ ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ عقبَ قولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ على أنّها صفةٌ موضحةٌ للفظةِ سرابيلَ[5]؛ فإنّهُ جعلَ السّرابيل وهيَ الثيابُ من

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 160.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 351.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 253.
(4) كل جمع بعد ألف تكسيره حرفان مثل مساجد أو ثلاثة أحرف أوسطها ساكن مثل مصابيح وقيل إنَّه لا جمع بعده، خالد الأزهري، شرح الأزهرية، ص: 15.
(5) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 348.

القطنِ والكَتّانِ ونحوها منْ أجلِ فائدةٍ لبني البشرِ أنعمَها عليهم، وهيَ وقايتهُم من الحرِّ والبردِ والحربِ.

سرُّ استعمال الفعل ﴿تَقِيكُمُ﴾:

دلالـةُ الوقاية تتناسب مع سياق الآية في دَفع شيء ضارٍّ بشيء آخر

في قولهِ تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ جاءَ بفعلِ الوقايةِ الدّالِّ على دفعِ شيءٍ بشيءٍ معَ الحذرِ من شيءٍ مكروهٍ مضرٍّ طلبًا للنّجاةِ منهُ(1)، وهوَ المرادُ من الوقايتينِ في الآيةِ؛ دفعُ الحرِّ والبردِ، ودفعُ أذى الحربِ من سيفٍ ورمحٍ ودَبّوسٍ ونحوهِ، فوقايتهم بالسَّرابيل امتنان عليهم، وإظهار لضعفهم وعَوَزِ أبدانهم إلى ما يقيها من الحرّ والقرّ ونحوهما.

وقد آثر الخطابُ القرآني استعمالَ لفظ الوقاية على لفظ المنع؛ لأن المنعَ هوَ "ما لأجلهِ يتعذّرُ الفعلُ على القادر، فهوَ يضادُّ الفعلَ، وليسَ يضادُّ القدرةَ، بلْ ليسَ يسمّى منعًا إلّا إذا كانَ معَ القدرةِ، فليسَ هوَ من العجزِ في شيءٍ"(2)؛ فالوقايةُ أنسبُ للسّياق.

أثرُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ:

وقايـتـهُـم من الحـرِّ ومن الحربِ متجدِّدةٌ جاريةٌ في كلِّ زمانٍ

وفي قولهِ تعالى: ﴿تَقِيكُمُ﴾ وصفَ الوقاية من الحرِّ ومنْ أذى المعركةِ بصيغةِ المضارعِ الدّالةِ على التَّجدّدِ، فالقصدُ أنَّ هذهِ النّعمةَ الّتي أنعمَها اللّهُ عليهم متجدّدةٌ، وأنَّ حكمَها جارٍ في كلِّ زمانٍ، وأنّها موجودةٌ ما وُجدَ الحرُّ ووُجدت الحربُ.

بلاغةُ الاكتفاءِ في قولِهِ: ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾:

انفهامُ البرد المحذوفِ من السياق المذكورِ

وفي وصفِ السّرابيلِ وهيَ القمصانُ الّتي تقي الإنسانَ منْ حرّ الصّيفِ ولَفْحهِ، وبردِ الشّتاءِ وسَمومهِ قالَ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾، ولم يقلْ: (الحرّ والبرد)؛ على إرادةِ الحرِّ والبردِ معًا مكتفيًا بذكرِ

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقى).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 352.

أحدِهما لانفهامِ دلالةِ المحذوفِ منْ لفظِ المذكورِ(1)؛ فإنَّ ما يقي من الحرّ يقي من البردِ ضرورةً.

مناسبة لغالبِ أحوالِ المخاطبينَ في بلادِ العربِ الحارّة

وعندَما ذكرَ السّرابيلِ وهيَ منْ جملةِ إنعامِه سبحانَهُ على خلقهِ وصفَها بأنّها ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾، مكتفيًا بهذا الوصفِ، معرضًا عنْ قرينِه وهوَ الوقايةُ من البردِ؛ لأنَّ أكثرَ أحوالِ المخاطبينَ بالقرآنِ وقتَ نزولهِ(2) هم العربُ، وهم في بلادٍ مشتهرةٍ بالحرِّ؛ فتناسبَ الوصفُ معَ حالِهم، فإنّهم قلّما يهمّهم البردُ؛ فإنّه يسيرٌ محتملٌ عندَهم.

وقايةُ البَرْد من أصول النِّعم

لم يذكر اللّهُ البردَ لأنّه قد تقدَّم أنَّ هذه السورةَ أولُها في أصول النِّعَم، وآخرُها في مكملاتها ومتمماتها، ووقايةُ البردِ من أصول النِّعم - فإنه من الضرورة - وقد ذكره في أولِها في قوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: 5](3).

تحذيرًا من حرّ جهنّمَ وتوقّيًا منهُ بالكفّ عن المعاصِي

وفي اكتفائهِ بذكرِ الحرّ دونَ البردِ تحذيرٌ وتنبيهٌ للمخاطبينَ من حرّ جهنّمَ من أن تصيبهُم، وأنّ عليهم الوقايةَ من استحقاقِها بالكفّ عن المعاصي والذّنوبِ(4).

دلالتا الصّيغةِ والصّوتِ في ﴿ٱلۡحَرَّ﴾ و﴿ٱلۡحَرُورُ﴾:

الحرورُ من صيغ المبالغةِ والتّكثيرِ بمعنى السّموم الشّديدةِ الحرارة

ومن إنعامِه تعالى عليهِم أن جعلَ لهم السّرابيلَ الّتي وصفَها بأنّها ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾، فيما قالَ في سورةٍ أخرى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١﴾ [فاطر: 21]، وثمّةَ فرقٌ بالصّيغةِ ومعناها؛ فإنّ ﴿ٱلۡحَرَّ﴾ اسمٌ ثلاثيّ زنةُ (فَعَلْ)، ومعنى الثّلاثيّ معنى المجرّدِ وهو الحرُّ المعهودُ، أمّا الحرورُ فهو صيغةُ مبالغةٍ زنةُ (فَعول)، ومعناهُ دالٌّ غالبًا على السّمومِ على التّحقيقِ(5)، والفرقُ بينهُما من جهةِ الصّوتِ ظاهرٌ؛

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 248.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 206.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 50.

فالحرُّ لفظةٌ مقيّدةٌ بالإدغام، أمّا الحرورُ فمطلقةٌ دالةٌ على الاتّساع بمَدّعاةِ الراءاتِ المتكرّرةِ وضعًا في الكلمةِ المتكرّرةِ صوتًا، فضلًا عنْ حرفِ الواوِ المديّة، وكلُّ ذلكَ يخلعُ على المعنى مبالغةً وزيادةً؛ لأنَّ السّياقَ في تشبيهِ الكافرِ والمؤمنِ ونفيِ تساويهما.

فائدةُ تكرارِ لفظتي: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم﴾:

تفصيلًا بينَ الوقايتين وقايةِ الحرّ والبردِ ووقايةِ البأسِ والحروبِ

وبعدَ ذكرِهِ السّرابيلَ الواقيةَ في قولِهِ تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ أعادَها في قولِهِ: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ فقد "جعلَ السّرابيلَ علَى قسمينِ: **أحدهُما**: ما يكونُ واقيًا منَ الحرِّ والبردِ، **والثّاني**: ما يُتّقى بهِ عنِ البأسِ والحروبِ، وذلكَ هوَ الجَوشَنُ (اسمُ الحديدِ الذي يُلبس من السّلاح) وغيرُهُ، وذلكَ يدلُّ علَى أنَّ كلَّ واحدٍ منَ القسمينِ منَ السَّرابيلِ"[1]، فالتّكرارُ لأجلِ التّفصيلِ بينَ الوقايتينِ وبيانِ نوعيهما.

بلاغةُ الطّباقِ بينَ الظّلالِ والحرّ:

مقابلةً بين ما اختصّ بالمسكنِ وما اختصّ بالملبسِ

وطابقَ بينَ لفظتي الظّلالِ والحرّ في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ لما بينهما في الجملتينِ من المقابلةِ بينَ الظّلالِ المختصّةِ بالمسكنِ، والحرّ المختصّ بالملبسِ.

فائدةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿بَأۡسَكُمۡۚ﴾:

السّرابيلُ تقي بعضكُم بأسَ بعضكُم الآخر

وأضافَ البأسَ وهو الشّدّةُ في الحربِ إلى ضميرِ الخطابِ في قولِهِ: ﴿بَأۡسَكُمۡۚ﴾ على معنى التّوزيعِ، أي: أنّ السّرابيلَ والدّروعَ تقي بعضكُم بأسَ بعضكُم الآخرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ [الأنعام: 65][2].

ولأنهم كانوا في الجاهليةِ هم الذين يثيرونها حروبًا شعواءَ،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 254.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240.

تدعو إليها العصبيةُ الجاهليةُ، وتدفع الحمية غير المدركة العاقلة كحرب البَسوس، وعَبْس وذُبْيان، وغيرِهما مما كانوا يثيرونه من حروب، فلم تكن حروبًا عادلة؛ ولذا أضيفت إليهم[1].

الحروبُ الشعواءُ غيرُ العادلة التي تدعو إليها العصبيةُ الجاهليةُ

دلالةُ المجازِ في قولِه: ﴿بَأۡسَكُمۡۚ﴾:

وإضافةُ البأسِ إلى ضميرِ الخطابِ في قولِه: ﴿بَأۡسَكُمۡۚ﴾ ليسَ على معنى الحقيقةِ، بل هو مجازٌ على حذفِ مضافٍ تقديرُهُ يقيكُم أذى بأسكُم[2]؛ لأنّه هو المطلوبُ الوقايةُ منه لا البأسُ نفسهُ.

المطلوبُ هو الوقايةُ من البأسِ لا البأسُ نفسهُ

غرضُ تقديمِ الوقايةِ من الحرِّ على غيرِها:

وقدّمَ قولهُ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ على قولِه: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ الوقايةَ من الحرِّ أكثرُ وأشيعُ منْ أذى الحربِ؛ فالأوّلُ حدثٌ يوميٌّ يحصلُ في كلِّ ساعةٍ من النّهارِ، ويحتاج إليه كلُّ واحدٍ منْ بني الإنسانِ، أمّا دروعُ الحربِ فخاصّةٌ بالمقاتلينَ؛ فقدّمَ ما الحاجة إليه أكثرُ وأمَسُّ، وأخّرَ الأقلَّ[3].

قدّمَ ما يحتاجُ إليهِ أكثرُ وأخّرَ ما تقلُّ الحاجةُ إليهِ

دلالةُ الاقتصارِ على هذهِ النّعمِ:

وقدْ يردُ سؤالٌ أنْ كيفَ ذكرَ الحقُّ سبحانهُ من النِّعمِ: الجبالَ والظِّلالَ والسَّرابيلَ والقمصَ والأوبارَ والأصوافَ، معَ أنَّ نعمَ اللّهِ أكثرُ منْ هذهِ ولم يذكرْها، فكيفَ خصّصَ هذهِ النّعمَ بهم، وتركَ ما هوَ أكبرُ منها؟ والجوابُ عن ذلكَ: "أنّ العربَ كانوا أصحابَ أنعامٍ، وكانوا أهلَ جبالٍ، وكانت بلادهُم حارّةً؛ فذكرَ من النّعمِ ما يليقُ بحالِهم، وكانت هذه النّعمُ عندَهم فوقَ كلِّ نعمةٍ؛ فخصّها بالذّكرِ لهذا المعنى"[4].

النّعمُ المذكورةُ ممّا يليقُ بحالِهم، وهي عندَهم فوقَ كلِّ نعمةٍ؛ فخصّها بالذّكرِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4238.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 441.
(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 163.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 193.

توضيحُ التّشبيهِ في قولهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾:

والكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ اسمٌ بمعنى مثلَ دالٌّ على التّشبيهِ "أيْ: مثل ما جعلَ هذهِ الأشياءَ، وخلقَها لكم، وأنعمَ بها عليكُم"(1) أي: كما أتمَّ هذهِ النّعمَ الّتي تقدّمت يتمُّ ما تحتاجونَ إليهِ مثلَ ذلكَ الإنعامِ.

كما أتمَّ نعمتهُ عليكم فيما مضى يتمُّها عليكُم في المستقبلِ

وقد يكون قولك : "(مثل الشيء) كناية عن (نفس الشيء)، كما قيلَ في: مثلكَ لا يبخلُ، أيْ: أنتَ لا تبخلُ، وقيلَ : هذا أوفق لما بعدهُ"(2)؛ فقدْ تكونُ الكنايةُ أبلغَ من التّصريحِ، أيْ: أنَّ الحقَّ سبحانهُ سينعمُ عليكم مستقبلًا مثلَ إنعامهِ فيما مضى منْ أمرِكم.

دلالةُ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ﴾:

وختمَ الآيةَ بجملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ من بابِ التّذييلِ لما ذكرَ من النّعمِ الّتي أنعمَها عليهم، والمُشارُ إلَيْهِ بـ (كذلك) هو ما في النِّعَمِ المَذْكُورَةِ مِنَ الإتْمامِ، أوْ إلى الإتْمامِ المَأْخُوذِ مِن (يُتِمَّ)(3)، فلا يدعُ شيئًا تحتاجونَ إليهِ في دينِكم ودنياكُم إلّا وهبهُ لكُم تامًّا، بما يحقّقُ كِفايتَكُم.

تذييلٌ لما ذُكرَ من نعمهِ فلا يدعُ شيئًا تحتاجونَ إليهِ إلّا وهبهُ لكُم

إيثارُ لفظِ الإتمامِ، وصيغةِ المضارعِ:

وآثرَ لفظَ الإتمامِ في قولهِ تعالى: ﴿يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ﴾؛ لأنّهُ لمّا أنعمَ عليهم فيما مضى بنعمٍ كثيرةٍ؛ فإنّهُ يتبقّى نعمٌ أخرى كيْ يحصلَ المرادُ؛ فتكونُ هذهِ متمِّمةً لتلكَ، ووقتُ حصولِها في المستقبلِ(4)؛ لذلكَ أوردَ الفعلَ بصيغةِ المضارعِ الدّالّ على الاستقبالِ والاستمرارِ.

نِعَمُ اللهِ تتجددُ وتتوالى وهو سيتمُّها على عبادهِ في المستقبلِ

الإسنادُ في الفعلِ ﴿يُتِمُّ﴾ وعدمِ ذِكرِه:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، عاد الضمير في

---

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 13/ 162.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 11/ 352.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 578.

كون المسند إليه معينًا معلومًا، وتنبيه المخاطب إلى ما أسند إليه سابقًا

الفعل ﴿يُتِمُّ﴾ على اسم الجلالة المذكور في صدر الآية الكريمة، ولم يصرّح باسم الجلالة؛ لأنَّ تقدير الضمير أبلغ وأخصر، وأقعد في المعنى وأدخل في الفصاحة؛ إذ الفاعل معروف من خلال نِعَمِه الظاهرة وآلائه الجليَّة التي لا ينكرها إلا جاحد، فلهذا كان تقديره أولى، ولأنّ التلميح أبلغ من التصريح؛ حتّى ينتبه المخاطب إلى تلك النّعم السّابقة، فيعاود تدبّرها مرّة بعد مرّة.

سرّا الإفرادِ والإضافة في ﴿نِعۡمَتَهُۥ﴾:

الـدلالـةُ على خالصِ النّعمةِ وكمالِ الواهبِ المستوجبِ شكرَ الموهوبِ

وفي قوله تعالى: ﴿يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ﴾ أوردَ لفظةَ النّعمةِ على صيغة الإفرادِ؛ لأنَّ المرادَ بها المصدرُ[1]، وفائدةُ التّعبيرِ بالمصدرِ يدلُّ على خالصِ الشّيءِ وتمامِهِ ومبالغتِه، فكأنّهُ أرادَ كمالَ نعمتِه، ثمَّ أضافَها إلى الضّميرِ العائدِ عليهِ سبحانهُ؛ لبيانِ الكمالِ من الواهبِ المستوجبِ شكرَ الموهوبِ.

لإظهارِ هوانِها بالنّسبةِ إلى جنابِ الكبرياءِ

وفي إفرادِ النّعمةِ فائدةٌ، وهيَ أنْ يُظهرَ الحقُّ سبحانهُ أنَّ ذلكَ بالنسبةِ إلى جنابِ كبريائهِ وعظمتِه شيءٌ قليلٌ يسيرٌ[2].

لعمومِ المفردِ المضافِ ولأنّها واحدةٌ باعتبارِ مَصدرِها

وأفردَ النّعمةَ في الجملةِ وهيَ متعددةٌ كتسخيرِ البيوتِ للسّكنى، والأشجارِ والجبالِ للاستظلالِ، والسّرابيلِ وقايةً ونحوها؛ "لأنَّ المفردَ المضافَ يعمُّ، ولأنّها واحدةٌ باعتبارِ مصدرِها، وهوَ اللّهُ سبحانه وتعالى"[3].

فائدة الجار والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

الاسْتِعْلاءُ المَجازيُّ؛ فهو إتمامُ إسباغٍ وتغطيةٍ وسترٍ وشمول

تعدّى الفعل (أتمّ) في القرآن الكريم بـ (اللّام) و(إلى) و(الباء) و(على)[4]، كما في قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: 8]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: 187]، وقوله: ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 222.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 441.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4238.
(4) محمد داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/ 475، 476.

﴿لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾ [الأعراف: 142]، وتعدّى بـ (على) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، وحرف الجرّ هنا يفيد الاسْتِعْلاءَ المَجازِيَّ، أيّ إتمام إسباغٍ وتغطيةٍ وسترٍ وشمول؛ لِأنَّ سِياقَ الكَلام خِطابٌ عامّ، أي ذلك الإتمامَ البالغَ ﴿يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ أي إرادةَ أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النِّعم الظّاهرةِ والباطنةِ والأنفُسيّةِ والآفاقيّة، فتعرِفوا حقَّ مُنعمِها؛ فتؤمنوا به وحدَه، وتذروا ما كنتم به تشركون[1].

دلالةُ حرفِ (لعلّ):

التّرجّي في حيّز البشرِ المخاطبينَ فحالهُم ممّا يرجى منها إسلامهُم

وفي قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ السّلامةُ هنا هي الإسلام والاستسلام والانقياد؛ فتكونُ (لعلّ) دالّةً على التّرجّي والتَّوقُّع، ولكنْ في حيّزِ المخاطبينَ من البشرِ، فلو نظرَ أحدٌ حالهَم لترجّى أنْ يُسلموا[2].

رغبةً في أنْ تُسلِموا فتتبعوا الإسلامَ فيؤولُ أمرُكُم إلى شكرِ نعمِهِ تعالى

وقد استُعملت (لعلّ) في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ في معنى الرَّغبةِ، أي: فقد أنعمَ عليكم بما أنعمَ وأتمّ نعمتهُ رغبةً في أن تتّبعوا دينَ الإسلامِ فيكونُ مآلكُم أن تشكروا نِعمَه ﷻ[3].

العدولُ في ﴿تُسۡلِمُونَ﴾:

مُنِحوا من النّعمِ الظّاهرةِ والباطنةِ كي يتفكّروا وينظروا فينقادوا للمنعِمِ

وعدلَ عن لفظِ (تشكرون) إلى لفظِ ﴿تُسۡلِمُونَ﴾؛ لأنّه ها هنا بمعنى الاستسلامِ والانقيادِ، ووضعَ موضعَ العلّةِ والسّببِ، أي: أنّ الحقّ سبحانهُ منحهُم من النّعمِ الظّاهرةِ والباطنةِ كي ينظروا ويتفكروا ويعرفوا المنعمَ؛ فينقادوا ويخضعوا له[4].

سرُّ استعمالِ المضارعِ في خبرِ (لعلّ):

وجاءَ بخبرِ لعلّ ﴿تُسۡلِمُونَ﴾ على صيغةِ المضارعِ الدّالِّ على

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 133.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 413.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 175.

رجاءَ إسلامِ كفّارِ مكّةَ مستقبلًا وأن يَثبُتَ المسلمون على إسلامهم

الاستقبالِ والتّجدّد؛ لأنّهُ خطابٌ لأهلِ مكّةَ، وكانَ أكثرهُم كفّارًا؛ فيكونُ ﴿تُسۡلِمُونَ﴾ دالًّا على الاستقبالِ رجاءَ أنْ يُسلموا، وإنْ كانَ الخطابُ للمسلمينَ فهوَ على معنى أنْ يدوموا على إسلامِهم، وأنْ يقوموا بحقّهِ(1).

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الظّلّ والفيء:

الظّلالُ ما يقي من الحرّ وقتَ الضُّحى والفيءُ عامّ وهو بمعنى الرّجوعِ

وعبّرَ عمّا يحتمي به الإنسانُ بقولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾؛ فذكرَ الظّلَّ ولم يذكرِ الفيءَ مرادفهُ؛ فإنَّ الظِّلَّ هو الطّلوعُ إلى الزّوالِ، والفيءُ ما كانَ بعدَهُ إلى الغروبِ، فالظّلُّ ما كانَ في وقتِ الضّحى؛ لأنّهُ متعلّقٌ بالشّمسِ؛ ولذلكَ قيلَ إنَّ أهلَ الجنّةِ في ظلٍّ؛ فالفيءُ عامّ والظّلّ خاصّ(2)، أو الظِّلُّ أعمُّ من الفيء، فإنه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويقال لكلِّ موضع لم تصل إليه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زال عنه الشمس(3)، فذكرَ في الآيةِ هنا ما يقي من الحرّ وقتَ الضّحى(4)، فذكرُ الظّلالِ هنا أليقُ من ذكرِ الفيءِ.

الأكنان والبيوت:

الأكنانُ ما يسترُ الانسانَ من غارٍ أو نفقٍ، والبيوتُ ما ينشئها للسّكنِ

وذكرَ الأكنانَ في قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾، مفردها كِنٌّ "وهوَ الحافظُ منَ المطرِ والرّيحِ وغيرِ ذلكَ، وهيَ هنا الغيرانُ في الجبالِ، جعلها اللّهُ عدّةً للخلقِ يأوونَ إليها ويتحصّنون بها، ويعتزلون عنِ الخلقِ فيها"(5)، فالأصلُ اللّغوي هو الاستتارُ في جوفِ الشّيءِ كالغيرانِ الّتي تسترُ كلّ ما فيها(6)، أمّا البيوتُ فقد

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 576.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 341.
(3) الراغب، المفردات: (ظلل).
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 174.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 159.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 4/ 1931.

تبيّنَ أمرُها فيما سلفَ، وهي الأماكنُ الّتي يستقرُّ فيها الإنسانُ، وتكونُ على هيئةٍ مخصوصةٍ من الجدرانِ والسّقوفِ الّتي ينشئُها الإنسانُ؛ لأجلِ أن يسكنَ فيها، فثمّةَ فرقٌ بينَ ما يصنعهُ الإنسانُ، وبينَ ما يجدهُ من صنع اللهِ في الطّبيعةِ، وكلاهما ممّا امتنّ بهِ الحقّ سبحانهُ على بني البشرِ.

السّربال والقميص:

السّرابيلُ دالةٌ على العمومِ فتطلقُ على القمصانِ وعلى الدّروعِ وسياقُ الآيةِ في الاثنين

وفي قولهِ تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ ذكرَ السّرابيلَ، مفردهُ سِربالٌ، وهوَ القميصُ المصنوعُ من القطنِ والكتانِ ونحوهِ الّذي يقيهم من الحرِّ والبردِ، ثمَّ أتبَعَهُ بالسَّرابيلِ وهيَ الدّروعُ[1]، الّتي تقيهمُ البأسَ والحربَ، والتّعبيرُ بالسّرابيلِ أكثرُ دقّةً من التّعبيرِ بالقمصانِ؛ لأنَّ السّرابيلَ دالةٌ على العمومِ؛ فتطلقُ على ما صنعَ من القطنِ وغيرهِ، ممّا يلبسهُ الإنسانُ لاتّقاءِ الحرِّ والبردِ، وتطلقُ على ما يلبسهُ المقاتلُ منْ دروعِ الحديدِ[2]؛ لاتّقاءِ أذى الحربِ من السّيوفِ والرّماحِ وغيرِها، فيما لا تطلقُ القمصانُ على الدّروعِ فهيَ أخصُّ.

الوقاية والمنع:

الوقايةُ دفعُ شيءٍ بشيءٍ حذرًا من المكروهِ، والمنعُ حجزٌ بين شيئين

الوِقايَةُ: حفظُ الشيءِ ممّا يؤذيه ويضرّه، وامتنان اللّه على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 11]، ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ٥٦﴾ [الدخان: 56]، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٣٤﴾ [الرعد: 34]، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ٣٧﴾ [الرعد: 37]، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: 6]، والتَّقْوَى جعل النّفس في وِقايَةٍ مما يخاف[3]، والتوقي: جعل النفس في وقايةٍ مما يخاف[4].

(1) كراع النمل، المنتخب من غريب كلام العرب، ص: 502.
(2) الشربيني، السراج المنير: 2/ 254.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص: 881.
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وقى) 4/ 334.

والمنع - في الأصل - الحجز بين شيئين، وهو أيضًا ضدُّ العطيَّة؛ لأنَّ الحاجز يحجز بين المعطي والعطيّة[1].

ويقال في الحماية، ومنه: مكان منيع، وفلان ذو مَنَعَة، أي: عزيز ممتنع على من يرومه، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النساء: 141][2]، والمنع يقتضي القسر، ويكون من فاعل آخر هو المانع، وأمّا عدُّ الأمور المعنوية مانعًا، فاصطلاح أو عرف طارئٌ على أصل اللغة[3].

فالوقاية تتعلّق بالإنسان في بدنه ومعاشه وممتلكاته وغير ذلك من الأمور المحسوسة، كما أنّها قد تكون من اللّه للإنسان أو من الإنسان لغيره[4].

والمنع هو الحجز بين شيئين، وهو أن تَحولَ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشَّيْءِ الَّذي يُريدُهُ، وهوَ خلافُ الإعْطاءِ، ويُقالُ: هوَ تحجيرُ الشَّيْءِ[5].

التّمام والكمال:

التَّمامُ يمكنُ أن يُزادَ عليه، أمّا الكمالُ فهو الحالةُ العليا الّتي لا يُزادُ عليها

ولمّا أرادَ بيانَ منّته تعالى قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ﴾؛ فاختارَ فعلَ التّمامِ مؤْثِرًا إياهُ على قرينِه فعلِ الكمالِ، وإنْ كانا يتّفقانِ على عمومِ المعنى، وهوَ إزالةُ النّقصِ، إلّا أنَّ ثمّةَ فرقًا بينهُما، فالكمالُ هوَ الحالةُ المثلى، وهوَ متعلّقٌ باجتماعِ أبعاضِ الموصوفِ به، أمّا التّمامُ فهوَ اسمٌ للجزءِ الّذي يتمُّ بهِ الموصوفُ[6]، فهو ضدّ النّقصِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: 3]؛ فإنَّ النّعمةَ يمكنُ أنْ يزادَ عليها، أمّا الكمالُ فهوَ الحالةُ العليا

(1) السمين الحلبي، عمدةالحفّاظ: (وقى) 4/ 114.
(2) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص: 779.
(3) الشهاب الخفاجي، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي عَلَى تفْسيرِ البَيضاوي: 6/ 42.
(4) عدد من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن حميد، نضرة النَّعيم: 8/ 3676.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (منع).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 458.

الّتي لا يزادُ عليها؛ فالدّينُ لا يزادُ عليهِ لأنّه نزلَ كاملًا فالحقّ ﷻ "ما أمرهُم بعدَ ذلكَ بشيءٍ منَ الشَّرائعِ"[1]، ومنْ خلالِ استقراءِ الآياتِ الّتي أوردَ فيها النّعمةَ؛ فإنّهُ لم يستعملْ معهُ إلّا فعلَ التّمامِ؛ لجوازِ زيادةِ النّعمةِ منهُ تعالى، فذكرَ في هذهِ الآيةِ الكثيرَ من النّعمِ منْ لدن جعلهِ البيوتَ سكنًا حتّى جعلهِ لهمُ السّرابيلَ الواقيةَ، فإن آمنوا واتّقوا فنِعمُ اللّهِ متوافرةٌ كثيرةٌ قدْ تزيدُ ولا تنقصُ، فالتّمامُ معَ النّعمةِ أنسبُ وأليقُ هنا وفي جميعِ القرآنِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 326.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾ [النّحل: 82 - 83]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

لا تقصيرَ عليكَ بتولّيهم؛ فإنّهم أعـرفُ النّـاسِ بنِعَمِ اللهِ وآلائهِ

لَمّا بيّنَ لهُم ما أعطاهُم، وأتمَّ عليهِم منْ نعمهِ تعالى، ربّما وقعَ في الوهمِ عدمُ إجابتِهِم لداعي الحقِّ؛ فأخبرَ الحقُّ سبحانهُ إخبارَ المعرضِ عنهُم المقبلِ على رسولهِ ﷺ؛ تسليةً لهُ بأنّهم إنّ "كلّفوا أنفسهُم الإعراضَ ومتابعةَ الأهواءِ فلا تقصيرَ عليكَ بسببِ تولّيهِم ولا حرجَ ... وليسَ عليكَ أنْ تردّهُم عن العنادِ"(1)، وليسَ إعْراضُهُم عنْ جهلٍ، بلْ إنّهم أعرفُ النّاسِ بنعمِ اللّهِ وآلائهِ، ولكنّهم قومٌ منكرونَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ ممّا يَلِينِي، أي: يُقارِبُنِي(2)، والوَلايَةُ: تَوَلِّي الأمرِ، فإذا عُدِّي (تَوَلَّى) بنفسِه اقتَضَى معنَى الوَلايَةِ، وحُصولَهُ في أقْرَبِ المواضِع، وإذا عُدِّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكَ قُربِه، فمِنَ الأوَّلِ قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثّاني قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63](3)، والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ: وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ.

2) ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: أصْلُ (بلغ): يدلُّ على لُحوقِ الشَّيْءِ والوُصولِ إليه أو المُشارَفَةِ عليه(4)، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوغًا، أي: وصَلْتُ إليه،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 227 - 228.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 102.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).

وكذلك إذا شارَفْتُ عليه[1]، والبُلْغَةُ ما يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ، كَأَنَّهُ يُرادُ أَنَّهُ يَبْلُغُ رُتْبَةَ المُكْثِرِ إذا رَضِيَ وقَنِعَ، وكَذَلِكَ البَلاغَةُ الَّتِي يُمدَحُ بها الفَصِيحُ اللِّسانِ؛ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بها ما يُرِيدُهُ[2]، والبَلاغُ أيضًا: الإِبْلاغُ، وفي التنزيل: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: 23]، والمقصود بالبلاغ في الآية: اسمُ مصدرِ بلَّغ، أيْ أَوْصَلَ الحَدِيثَ أوِ الكَلامَ، ويُطْلَقُ عَلَى الكَلامِ المُبَلَّغِ مِنْ إِطْلاقِ المَصْدَرِ عَلَى المَفْعولِ.

3) ﴿يُنكِرُونَهَا﴾: أصلُ (نكر): أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتِي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكرَهُ: لَم يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَم يَعتَرِفْ به لِسانُهُ[3]، والإِنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، يُقالُ: أَنْكَرْتُ حَقَّهُ أيْ جَحَدْتُهُ ونَفَيْتُهُ، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النّاسُ وجَحَدوهُ فهوَ مُنْكَرٌ[4]، والمقصود بالإنكار في الآية: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، والمراد: إنكارُ حَقِّ النِّعْمَةِ، أي: يُنْكِرونَ مُلابِسَها، وهو الشُّكْرُ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مُـهـمَّـةُ النَّـبـي ﷺ الـتَّـبـلـيـغُ، والـقـلـوبُ بيد اللهِ

ومع بيان الله تعالى نِعَمَه عليهم، فإن استمرَّ هؤلاءِ المشركون في إعراضهم عنكَ - أيها الرسول - وعن دعوتك بعد هذا البيان والامتنان - بعد ما رأوا من الآياتِ - فلا تحزن، فما عليكَ إلا البلاغُ الواضحُ لما أُرسِلْتَ به، وأما الهداية فإلينا، ثم بيَّن الله تعالى موقفَ المشركينَ من نعم الله وإحسانه إليهم، فقال: يَعرِفُ المُشركونَ نِعَمَ اللهِ عليهم، ثم يَجحَدونَها، فلا يَشكُرونَ اللهَ عليها، ويَنسُبونَها إلى غَيرِه، ويُشرِكونَ به في عبادته، وأكثرُهم الكافرون[6].

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(4) الخليل، العين: (نكر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 592، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/ 420.

وترشدُ الآيتانِ إلى أنَّ مهمةَ الرسول ﷺ ليست هدايةَ القلوب، وإنما هي بيانُ الطريق بالبلاغ الذي يوضِّح معالمَ الدِّين ويبيِّن الصراطَ المستقيم، وهؤلاء المشركون مسؤولون ومحاسبون على عدم استجابتهم، أمّا خلق الإيمان في قلوبهم فليس الرسول ﷺ بقادر عليه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

ذكرَ سببَ العذرِ وهو البلاغُ ليدلَّ على المسببِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ الفاءُ دالةٌ على التّفريع[2]، فرّعت هذهِ الجملةَ على جملةِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾[3]، أي: أنّهم إن تولّوا ولم يقبلوا دعوتكَ فقد بانَ عُذرُك، وأدّيتَ ما عليكَ من البلاغِ.

إيثارُ حرفِ الشّرطِ (إنْ):

توليهم محتملُ الوقوعِ وغيرُ محتملٍ

واستعملَ حرفَ الشّكِ (إنْ) في قولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ دونَ حرفِ الوقوعِ (إذا) نظرًا إلى ما هو في الأمرِ نفسِهِ؛ لأنّه محتملُ الوقوعِ وعدمِ الوقوعِ[4]، واللهُ أعلمُ بأنّهم يتولّونَ أو لا يتولّونَ؛ فاستعمالُ (إن) أوسعُ من (إذا).

وجهُ استعمالِ لفظِ (التّولّي):

الإعراضُ تركٌ والتّولي تركٌ معَ البعدِ وهو حالُ الكافرينَ وفيهِ تيئيسٌ منهُم

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ ومعنى التّولي هو التّركُ والمباعدةُ، ويشبهُهُ في هذا المعنى فعلُ الإعراضِ إلّا أنّ بينهُما فرقًا دقيقًا، فمعنى أعرضَ عنهُ، أي: أظهرَ له عرضهُ، وهو كنايةٌ عن التّركِ، أمّا قولهُم تولّى عنهُ فهو بمعنى الإعراضِ وزيادةٍ وهي البعدُ[5]، وفي ذلكَ

(1) مجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 5/ 664، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 146.
(2) هي الفاء التي تربط جملتين فيكون ما قبلها علة لما بعدها وما بعدها فرع عنه، الصبان، حاشية على الأشموني: 3/ 142.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 353.
(5) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 165.

تيئيسٌ من حالِ الكفّار فإنّهم لو أعرضوا وزادوا التّولية معَ الإعراضِ فأنتَ معذورٌ يا محمّد، وليسَ عليكَ إلّا البلاغُ؛ لأنّه أرادهُ إعراضًا معنويًا عن الإيمانِ بالرّسولِ ﷺ، والتّصديقِ به، وفضّلوا ما هم عليهِ من الملّذاتِ الدنيوية[1].

كلّفوا أنفسهُم الإعراضَ ومتابعةَ الأهواءِ فلا تقصيرَ عليكَ بسببِ تولّيهم

دلالةُ صيغةِ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ في الآيةِ:

والفعلُ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ وزنهُ (تَفَعّلَ)، وهي صيغةٌ دالَّةٌ على المعالجةِ والتّكلّفِ[2]، وهوَ المعنى الّذي أرادهُ في الآيةِ بإيرادهِ الفعلَ على هذهِ الصيغةِ؛ فإنَّ الفطرةَ السّليمةَ تُقبلُ على اللهِ سبحانهُ، ولا تنحرفُ عمّا يرضيهُ إلّا بالمعالجةِ والتّكلّفِ؛ فهؤلاءِ كلّفوا أنفسَهُمُ الإعراضَ واتباعَ الهوى؛ فلا مؤاخذةَ عليكَ بسببِ تولّيهم[3].

إعراضُهم ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا تَبِعَتُهُ عليهم لا عليك

دلالة الفعلِ بينَ الماضي والمضارعِ:

والفعلُ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ متردّدٌ بين الماضي والمضارعِ لجوازِ كونهِ (تتولوا) مضارعًا حذفَ حرفٌ منه[4]؛ فإن كانَ ماضيًا، أي: "فإنْ أعرضوا عنِ الدّعوةِ فلا تقصيرَ منكَ، ولا غضاضةَ عليكَ؛ فإنّكَ قدْ بلّغتَ البلاغَ المبينَ للمحجّةِ"[5]، وإنْ كانَ مضارعًا فالشّأنُ استمرارُ ذلكَ حاضرًا ومستقبلًا بجريانِ الحكمِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ "أي: فإنْ داموا على التّولّي والإعراضِ وعدمِ قبولِ ما ألقيَ إليهم من البيّناتِ"[6] فما عليكَ إلّا التّبليغُ الواضحُ.

تسليةٌ للنّبيّ، فإعراضهم ليسَ عليه فيهِ عَتْبٌ ولا سمةُ تقصيرٍ

تلوينُ الخطابِ في الآية:

وفي قولهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ انتقلَ في الآيةِ منْ خطابِهم إلى خطابهِ ﷺ، فإنّهم إنْ أعرضوا عمّا دعوتَهُم

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 93.
(2) الزمخشري، المفصل، ص: 371.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 228، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 67.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 41.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 442.

إليهِ وتولّوا؛ فلا يلحقكَ عتبٌ ولا تقصيرٌ؛ فلأنّ عليكَ البلاغُ حسب، وقدْ فعلتَ، وفي ذلكَ تسليةٌ لهُ ﷺ[1] على عدمِ طاعتهِم واستجابتهِم.

الالتفاتُ في تحويل الخطاب عنهُم لإشعارهِم بأنَّ ضلالهُم يقتضي تركَ محاورتهِم

وفي تحويلِ الخطابِ منهُم إلى خطابهِ ﷺ نوعٌ من الالتفاتِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخرَ، بأنْ وجّهَ الكلامَ منْ شخصٍ إلى شخصٍ آخرَ؛ فإنَّ القصدَ أنْ يسلموا، فإن لم يسلموا فليسَ عليكَ إلّا البلاغُ[2]، وفي الالتفاتِ إشعارٌ بأنَّ ضَلالَهُم واتّباعَهُم أهواءَهم يقتضي أنْ يضربَ الخِطابُ عنهم صَفْحًا.

بلاغةُ القصرِ بـ (إنّما) في الآية:

مهمتُكَ البلاغُ لا تقليبَ قلوبهِم إلى الإسلامِ أو مجازاتِهم

وأوردَ الأداةَ (إنّما) في قولهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ لإفادةِ القصرِ[3]، وهو قصرٌ إضافيٌّ من قصرِ صفةِ تكليفهِ ﷺ على الموصوفِ وهو البلاغُ المبينُ، أي: أنّه لا يجبُ عليكَ إلّا البلاغُ، وليسَ عليكَ تقليبُ قلوبِ هؤلاءِ إلى طريقِ الإسلامِ، وليسَ عليكَ جزاؤهُم إثرَ إعراضهِم، بل علينا الجزاءُ[4].

للحصرِ المحقّقِ فإنّ عليهِ البلاغَ تولّوا أم لم يتولّوا

والحصرُ متحقّقٌ في (إنّما) في أنَّ عليهِ ﷺ البلاغَ "إذْ لوْ لم تكنْ للحصرِ كانتْ بمنزلةِ إنْ تولّوا فعليكَ البلاغُ، وهوَ عليهِ البلاغُ تولّوا أم لا، وإنّما ترتّبَ على توليهِم نفي غيرِ البلاغِ ممّا قدْ يُتوهّمُ نسبتهُ لهُ ﷺ"[5].

اجتماعُ حرفي التّوكيدِ تواليًا يفيدُ الحصرَ حصرَ مهمتهِ في التّبليغِ

والقصرُ في الآيةِ متحقّقٌ باجتماعِ المؤكّداتِ تواليًا، فقدِ اجتمعت (إنَّ) المؤكّدةَ و(ما) الّتي تفيدُ التّأكيدَ أيضًا؛ لينتظما في (إنّما) الدّالةِ على الحصرِ[6]؛ فمهمتهُ ﷺ منحصرةٌ في التّبليغِ الواضحِ.

---

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(3) معنى القصر عمومًا راجع إلى تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثانٍ، وفيه أنواع كثيرة كالإضافي والادعائي وغيرهما، يُنظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 288.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(5) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 403.
(6) ابن عقيلة، الزيادة والإحسان في علوم القرآن: 6/ 20 - 21.

بيانُ جوابِ الشّرطِ، وموقعِ الفاءِ:

الفاءُ وما بعدَها جوابُ الشّرطِ صورةً لا حقيقةً

وقولهُ في الشّرطِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ يقتضي جوابًا، وجاءت الفاءُ وما بعدَها جوابًا للشّرطِ صورةً لا حقيقةً؛ لأنَّ الجوابَ في حقيقتهِ محذوفٌ تقديرهُ: فأنتَ معذورٌ فقدْ فعلتَ ما يجبُ عليكَ فعلهُ، فوُضعَ سببُ العذرِ وهوَ البلاغُ مقامَ المسببِ؛ لأنّهُ يدلُّ عليهِ ويوضّحهُ[1].

إن تولّوا فقد تمهّدَ عذركَ بعدَ ما أدّيتَ ما وجبَ عليكَ من التّبليغِ

وجملة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ جوابُ شرط لجملة: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ والفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشرطِ بترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها[2]، على إقامةِ العلةِ مقامَ المعلولِ، والمعنى: إنهم إنْ تولوا فلا شيءَ عليكَ منْ تقصيرٍ أوْ عَتْبٍ أوْ مؤاخذةٍ فإنهُ ليسَ عليكَ إلا البلاغُ المبينُ[3]، وقد قُبلَ عذركَ بعدَ أنْ أديتَ ما عليكَ.

فائدةُ التقديمِ في ختامِ الآيةِ:

البلاغُ المبينُ عليكَ لا يتجاوزكَ وفيهِ تكليفٌ وتشريفٌ لكَ

وقدّمَ المسندَ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المسندِ إليهِ ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ في الآيةِ؛ لأنّ الأصلَ (البلاغُ المبينُ عليكَ)، وهو تقديمٌ جائزٌ غرضهُ قصرُ المسندِ إليهِ على المسندِ، أي: أنَّ البلاغَ المبينَ عليكَ لا يتجاوزكَ، وأنّ غيرَ البلاغِ ليسَ عليكَ؛ فلستَ مَعْنيًّا بهدايتهم[4]، وفيهِ تكليفٌ وتشريفٌ له ﷺ، فضلًا عن تبكيتهم، وأنّه ليسَ له من الأمرِ شيءٌ إن هم أعرضوا وتولّوا.

إيثار لفظ ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾:

البلاغ إيصالُ الرسالةِ منْ الرسولِ إلى المرسَلِ إليهم

ولمّا أرادَ إعذارَهُ ﷺ منْ تبعةِ ضلالهم وعدمِ اهتدائهم بعدَ أنْ قامَ بما عليهِ قالَ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، فذكرَ البلاغَ، وهوَ منْ بلغَ المكانُ بمعنى الوصولِ إليهِ، والبلاغُ هوَ الكفايةُ، وهوَ الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ المرادِ[5]، أمّا البيانُ فهو التّوضيحُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 578.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4239.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241 - 242.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 15/ 359.
(5) الجوهري، الصّحاح: (بلغ)، والرّاغب، المفردات: (بلغ).

والكشفُ، يقالُ: بانَ الشّيءُ وأبانَ إذا اتّضحَ وانكشفَ[1]؛ فالرّسولُ ﷺ كانتْ رسالتُه على الغايةِ من انتهاءِ المقصدِ بأنْ أمرهُم بأوامرَ، ونهاهُم عنْ نواهٍ، وزادهُ بأنْ وصَفهُ بالمبينِ؛ فحقّقَ الحسنيينِ.

دلالةُ وصفِ البلاغِ بقولِه: ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾:

يكونُ واضحًا موضّحًا يبلغُ عامّةَ النّاسِ بما يناسبهُم من البيانِ والأسلوبِ

ووصفَ البلاغَ بالمبينِ في قولِه: ﴿عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فإيثارُ صيغةِ (مُفْعِل) بدلًا من البيّن أو نحوِه فيه تنبيهٌ للدّعاةِ والمصلحينَ أنّ البلاغَ على إطلاقهِ لا يكفي، بل يجبُ أن يكونَ بلاغًا واضحًا في نفسهِ موضّحًا لأحكامِ الدّينِ والعقيدةِ؛ فيكونُ تبليغهُ للنّاسِ عامّةً بما يناسبهُم من البيانِ والأسلوبِ؛ فيصلُ إلى خاصّتهِم وعلمائهِم[2].

بلاغةُ الاستئنافِ في جملةِ ﴿يَعۡرِفُونَ﴾:

عرف المشركون نعمةَ اللهِ فأعرضوا إنكارًا ومكابرةً

وجملةُ: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ استئنافٌ بيانيّ ناشئٌ عن سؤالٍ منقدحٍ في ذهنِ السّامعِ، أن كيفَ خفيتْ عليهِم دلائلُ الإسلامِ فتولّوا عنْ دعوتِه معَ وفرةِ أسبابِ اتّباعهِ؟ فكانَ الجوابُ: أنّهم عرفوا نعمةَ اللّهِ، لكنّهم أعرضوا منكرينَ ومكابرينَ[3].

فصلُ جملةِ ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ عمّا قبلَها:

جملةٌ حاليّةٌ أو بدلُ اشتمالٍ من توليهم

وجملةُ ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يجوزُ أن تكونَ حالًا من الضّميرِ في ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾[4]، ويجوزُ أنْ تكونَ بدلَ اشتمالٍ منْ جملةِ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾؛ فعلى هذهِ الأحوالِ لم تُعطفْ على ما قبلَها وفُصلتْ، ومعَ معرفتِهم بأنّها نعمةُ اللّهِ فقدْ أنكروها، أيْ: أنكروا شكرَها بأنّهم عبدوا غيرَهُ تعالى، فكأنّهم بذلكَ أنكروها[5].

جملةُ العرفانِ والإنكارِ جوابٌ لجملةِ توليهم بعدَ الإبلاغِ المبينِ

ولم تعطفِ الجملةُ على سابقتِها؛ لأنّها حلّت محلَّ الجوابِ عمّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 165.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 442.
(4) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 240.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242.

قبلَها، وهو قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وهو من بابِ الفصلِ لشبهِ كمالِ الاتصالِ في علم المعاني؛ فالجملةُ الثّانيةُ جوابٌ للأولى؛ ففصلتْ ولم يحتجْ للعطفِ(1).

سرُّ اختيارِ فعلِ المعرفةِ:

التشنيعُ عليهم؛ إذ المعرفةُ علمٌ يعيّنُ الشّيءَ مفصّلًا بخلافِ العلمِ

واستعملَ فعلَ المعرفةِ معَ نعمةِ اللّهِ بقولهِ: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، ولم يستعملْ (يعلمون) أو نحوَهُ من الأفعالِ الدّالةِ على الإدراكِ؛ ذلكَ أنَّ المعرفةَ علمٌ يعيّنُ الشّيءَ مفصّلًا بخلافِ العلمِ؛ فإنّه قدْ يتعلّقُ بالشّيءِ مجملًا؛ فالعرفانُ أخصُّ من العلم، فهو إدراكُ الشّيءِ بالتّدبرِ لأثرِه، والنّظرُ والتّفكّرِ فيه(2)؛ ولأنَّ المعرفةَ مختصّةٌ بالذّواتِ، كما أنَّ العلمَ مختصٌّ بالصّفاتِ، وكأنّهُ أرادَ هنا أنْ يصفَ حالَ معرفتهم بنعمةِ اللّهِ كمنْ يلمسها لمسَ اليدِ ويتقلّبُ فيها، كما هوَ الحالُ ممّنْ يباشرُ شيئًا مادّيًّا ملموسًا دالًّا على الذّاتِ، وفي هذا الوصفِ توبيخٌ وتقريعٌ عليهم بمعرفتِهم نعمةَ اللّهِ فيما ذكرَ من أشياءَ، والإقرارِ بها، ثمّ جَحدِها والكفرِ به تعالى(3) بعدَ قولهِ: ﴿يُنكِرُونَهَا﴾.

الآيةُ جاءتْ في سياقِ إنكارِ الكفّارِ نعمَ اللهِ بعدَ عرفانِها لا جهلِها

وورَدَ التّعبيرُ بـ﴿يَعۡرِفُونَ﴾، ولم يردْ بـ (يعلمون)؛ لأنَّ المقابلَ الضّدّي له (ينكرونَ)، فيما يكونُ المقابلُ الضّدّي لـ(يعلمونَ) هو (يجهلونَ)، والآيةُ مسوقةٌ لإنكارِ الكافرينَ نِعَمَ اللّهِ؛ فهم يعرفونَ نعمهُ ويميزونَها(4)، وليسَ السّياقُ هنا سياقَ إنكارٍ عن جهلٍ بل عن معرفةٍ مؤكّدةٍ.

دلالةُ المجازِ في إسنادِ الإنكارِ إليهم:

ينكرونَ ملابسَ النّعمةِ وهوَ الشّكرُ ويكفرونَ بالمنعمِ سبحانهُ

وأسندَ فعلَ الإنكارِ إليهم بقولهِ: ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ من بابِ المجازِ

(1) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 167.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 6/ 394.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 413.
(4) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 167.

اللّغويّ، أو المجازِ العقليّ، بمعنى: أنّهم ينكرونَ حقَّ النّعمةِ، أيْ: ينكرونَ مُلابسها وهوَ الشّكرُ[1] فسمّاهم منكرينَ للنّعمةِ من بابِ التّجوّزِ بأن كفروا بالمنعم وهو الحقّ سبحانهُ، وكانَ جديرًا بهم أن يرتّبوا على معرفةِ نِعَمِ اللّهِ مقتضاها منْ إفرادهِ بالشّكرِ والعبادةِ.

سرُّ استعمالِ المضارعِ في المعرفةِ والإنكارِ:

معرفةُ نعمِ اللهِ بتقلّبهم فيها ثمّ إنكارُها بأفعالِهم حيثُ عبدوا غيرَ المنعمِ

واستعملَ الفعلَ المضارعَ في فِعْلَي المعرفةِ ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ والإنكارِ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ بجامعِ دلالةِ الفعلِ المضارعِ على الحدوثِ والتّجدُّدِ، وهي صفةٌ عامّةٌ في الأفعالِ[2]؛ فلمّا كانت معرفةُ نعمِ اللّهِ بإقرارِهم، وأنّهم يتقلّبون فيها، ويتمتعونَ بتلكَ النّعمِ الّتي أسبغَها عليهم[3]، ثمّ إنكارِها بأفعالِهم بأن عبدوا غيرَ المنعمِ سبحانهُ[4] كانَ من الأليقِ التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ الدّالّ على الحدوثِ والتّجدّدِ في فعلي المعرفةِ والإنكارِ فهما متجددان مستمران.

أثرُ حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

الدلالةُ على استبعادِ إنكارِ النّعمةِ بعدَ معرفةِ حقّها

واستعملتْ ﴿ثُمَّ﴾ بينَ فعلي المعرفةِ ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ والإنكارِ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾، ومعناها هنا الاستبعادُ، أي: "الدّلالةُ على أنّ إنكارهُم أمرٌ مستبعدٌ بعدَ حصولِ المعرفةِ؛ لأنّ حقّ منْ عرفَ النّعمةَ أن يعترفَ لا أن ينكرَ"[5]، فالعطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا لبعدِ المنزلةِ بينَ معرفةِ النّعمةِ وإنكارِها.

التّراخي الرُّتْبِيُّ بزوالِ المهلةِ الزّمانيةِ لأنَّ إنكارَ نعمةِ الله أمرٌ غريبٌ

ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ في الجملةِ للتّراخي الرّتبيّ، فقد عطفتْ جملةَ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ على جملةِ ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، فكأنّ العطفَ حاصلٌ بثُمّ المُتحصلِ منهُ التّشريكُ بالحكمِ بزوالِ المهلةِ الزّمانيةِ منهُ؛ لأنّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242.
(2) فاضل السامرائي، معاني النّحو: 1/ 16.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 14/ 182.
(4) النّسفي، حقائق التأويل: 2/ 227.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/ 626، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 255.

للتّراخي الرّتبيّ؛ فصارت مهلةً رتبيةً لا زمانيةً؛ لأنّه من الغرابةِ إنكارُ نعمةِ اللّهِ[1] بعدَ معرفتِها؛ فإنّ إنكارَ النّعمةِ لا يتراخى عن معرفتِها.

وتحتملُ ﴿ثُمَّ﴾ أن تكونَ دالّةً على البعدِ المعنويّ بينَ المعطوفِ عليهِ والمعطوفِ، وليسَ البعدَ الزّمانيّ، أو المهلةَ الموضوعةَ لهُ ﴿ثُمَّ﴾ في لسانِ العربِ[2]؛ لأنّ منْ عرفَ شيئًا وهو هنا النّعمةُ ينبغي أن يكونَ أنأى النّاسِ عن إنكارِهِ[3]؛ فيكونُ آنئذٍ مقرًّا على نفسِهِ بالكذبِ واستحقاقِ العذابِ.

البعدُ المعنويُّ بينَ المتعاطفِين، فمنْ عرفَ شيئًا يكونُ أبعدَ النّاسِ عن إنكارِهِ

نكتةُ إسنادِ المعرفةِ والإنكارِ:

وأسندَ فعلَ المعرفةِ ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ وفعلَ الإنكارِ المتفرّعِ عليهِ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ إلى ضميرِ الكافرينَ مطلقًا منْ بابِ إسنادِ حالِ بعضِهم إلى الكلِّ؛ لأنَّ بعضَهُم ليسوا بكافرينَ بدلالةِ ما بعدَهُ منْ قولِهِ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، فمنهُم المنكرُ بقلبِهِ[4]، ومنهم غيرُ المكلّفِ، ومنهم من لم يعرفْ الحقَّ لنقصانِ عقلِهِ وغيرِهم.

من بابِ إسنادِ حالِ البعضِ إلى الكلّ فإنّ بعضَهُم ليسوا بكافرين

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ﴾:

والواوُ في قولِهِ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ دالَّةٌ على الحالِ[5]، أي: أنّهم يعرفونَ نعمةَ اللّهِ ثمّ ينكرونَها في الحالِ الّتي هم عليها وهو صدورُ الكفرِ والجحودِ من أكثرِهم.

يعرفونَ نعمةَ اللهِ وينكرونَها حالَ كونِ أكثرِهم كافرينَ

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ﴾:

وسرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، والأكثرُ قد لا يكونُ دالًّا على الجميعِ؛ فلأنَّ فيهم من لم تقم عليهِ الحجّةُ؛ لأنّه لم يَبۡلُغۡ حدّ التّكليفِ بعدُ، ومنهُم من أصابتهُ آفةٌ فهو ذو عقلٍ ناقصٍ، فيغدو

المقصودونَ بالخطابِ هم البالغونَ الأصحاءُ الّذينَ أُقيمتِ الحجّةُ عليهِم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 158.
(3) ناظر الجيش، تمهيد القواعد: 7/ 3445.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 442.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 351 - 352.

معنى الأكثرِ هنا: البالغينَ الأصحاءَ، الذين هم المقصودون بالخطاب وإقامة الحجة عليهم[1]، فيكون التعبير بالأكثرية من قبيل الاحتراس.

المرادُ بأنّ جمعَهُم هم الموصوفونَ بالكفرِ

يجوز في قوله ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أن يكون المراد بالأكثر الجمعَ، لأنَّ عُظْمَ الشيءِ يقوم مقام جميعه، فَذِكرُ الأكثرِ كذِكْرِ الجميع؛ وإطلاقُ الجزء على الكل أمرٌ معهودٌ في كلام العرب.

كانَ فيهم الجاهلُ بصدقِ الرّسولِ غيرُ المعاندِ لا الكافرُ الجاحدُ

ويجوزُ في معنى ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أن يكونَ المرادُ من الكافرِ الجاهل عن غير عنادٍ وإصرارٍ، بعدَ معرفةِ سبيلِ الحقّ؛ فقيلَ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ﴾؛ "لأنّهُ كانَ فيهم مَنْ لم يكنْ معاندًا بلْ كانَ جاهلًا بصدقِ الرّسولِ ﷺ، وما ظهرَ لهُ كونهُ نبيًّا منْ عندِ اللّه"[2].

أكثرهُم غالبُ المشركينَ لا جميعُهُم وهم دهماءُ المشركينَ من بسطاءِ العقولِ

ويدلُّ قولُهُ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ على غالبِ المشركينَ لا جميعهم؛ فينبغي حملُ الغالبِ على دهماءِ المشركينَ لا معظمهم من بسطاءِ العقولِ ممَّن ليسَ لهم النّظرُ والتّفكّرُ فلا يشعرونَ بنعمةِ اللّهِ؛ لأنّ نعمةَ اللّهِ تقتضي الإيمانَ بهِ وتوحيدَهُ؛ فيكونُ إشراكهُم راسخًا بخلافِ عقلائهم وأهلِ النّظرِ والتّفكّرِ منهم، فقد حملهُم حبّ السّيادةِ والرّياسةِ على الكفرِ[3].

صيانة الاحتمالِ واحتياطًا للقلّةِ الّتي تفكّر في الإسلامِ ويراودُها أمرُ هذا الدّين

واستعملَ صيغةَ الأكثرِ معَ الكافرينَ منْ بابِ صيانةِ الاحتمالِ، وتركِ البابِ مفتوحًا احتياطًا لقلّةٍ منهُم تفكّرُ في الإسلام، ويراودُها أمرُ هذا الدّينِ الجديد، لكنّها لم تقتنعْ بعدُ، أوْ لم يُلامسِ الإسلامُ قلوبهُم؛ فتركَ لهم بابَ الدّخولِ قائمًا، ولوْ قالَ: وكلُّهم؛ لتعارضَ ذلكَ معَ منْ يبتغي الإسلامَ دينًا[4].

بلاغةُ القصرِ في قولهِ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

أكثرُ هؤلاءِ لا يكونونَ إلّا كافرين

وقولهُ تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ جملةٌ ركناها اسمانِ

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 13/ 164.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/ 8138 - 8139.

معرّفانِ؛ لإفادةِ القصرِ، فهؤلاءِ على كثرتهم لا يكونونَ إلّا كافرينَ؛ لأنّ الكفرَ يحصلُ بإنكارِ الحقّ، وتركِ الإقرارِ به[1].

دلالةُ (ال) في لفظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

هم الكاملونَ في الكفرِ بالنّعمِ الإلهيةِ

الألفُ واللّام الدّاخلةُ على ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ دالةٌ على الكمالِ في تلكَ الصّفةِ[2]، وهي صفةُ الكفرِ بالنّعمِ الإلهيةِ، وبدلالتِها عليها من التّوحيدِ وسواهُ؛ فأكثرهُم على الغايةِ من الكمالِ في الكفرِ والجحودِ عنادًا وإصرارًا[3].

نكتةُ حذفِ المعمولِ لاسمِ الفاعلِ:

الحكمُ عليهم بمطلقِ الكفرِ مُؤْذِنٌ بالكمالِ في كفرهِم

ولفظُ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ اسمُ فاعلٍ مجموعٌ، وقدْ حذفَ معمولَه، وأوردهُ مطلقًا فلمَ يقل: (الكافرونَ باللّهِ أوْ بنعمتهِ)؛ لأنَّ الحكمَ عليهم بمطلقِ الكفرِ مؤذنٌ بالكمالِ منْ حيثُ الكمية، وهوَ لا ينافي غيرَهم منْ جهةِ الكيفيةِ، فالمرادُ أنَّ أكثرَهم مصرّونَ ثابتونَ على كفرهِم[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّولّي والإعراض:

التّولّي أعمُّ من الإعراضِ؛ فهو مطلق الإعراض، ولا يلزمه الإدبار

الإعراض: أن تولي الشيء عَرْضك: أي جانبك ولا تقبل عليه، والتَّولي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبار ... والإعراضُ: الانصراف عن الشَّيء بالقلب، قال بعضهم: المُعْرِض والمتولّي يشتركان في ترك السّلوك إلا أنَّ المُعْرِض أسوأ حالًا[5]، والتولِّي: الإعراض المتكلَّف، بما يُفهمه التَّفعل، ذكره الحرالي[6].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4241.

(2) وقد ذكرها سيبويه في إرادة المبالغة في الصفة، والوصول إلى الكمال فيها، ففرق بين: (أنت الرجل كلُّ الرجل) وبين: (عبد الله كلُّ الرجل) ثم ختم بقوله: "فليس في الحُسن كالألف واللام"، يُنظر: سيبويه، الكتاب: 2/ 12.

(3) الطباطبائي، الميزان: 14/ 316.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 442.

(5) الكفوي، الكليّات، ص: 28.

(6) المناوي، التعاريف: 2/ 216.

البلاغ والبيان:

البلاغ إيصال ما فيه إفادة وكفاية، والبيان إيضاح وإظهار

البلاغ: إيصال الرسالة، قال الجوهري: والإبلاغ الإيصال، وكذلك التبليغ، والاسم منه البلاغ[1]، والبيان هو الإيضاح والكشف عن المعنى المقصود إظهاره[2].

والقرآن بلاغ؛ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ به ما يُرِيدُهُ، ولي في هَذا بَلاغٌ: أيْ كِفايَةٌ[3]، وكلمة (بلاغ) المقصود بها تبليغ الرسالة[4]، والبيان: إظهار المعنى للنفس كإظهار نقيضه[5].

الإنكار والجحود:

الإنكارُ مقابلٌ للإقرارِ، والجَحْدُ أخصُّ من الإنكارِ

وعبّرَ بفعلِ الإنكارِ في قولِه تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ وهوَ المقابلُ للجَحْدِ، إلّا أنَّ ثمّةَ فرقًا بينهُما في "أنَّ الجحدَ أخصُّ من الإنكارِ، وذلكَ أنَّ الجحدَ إنكارُ الشّيءِ الظّاهرِ ... ويجوزُ أنْ يقالَ: الجحدُ هوَ إنكارُ الشّيءِ معَ العلمِ بهِ، والشّاهدُ قولُهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: 14]؛ فجعلَ الجحدَ معَ اليقينِ، والإنكارُ يكونُ معَ العلمِ وغيرِ العلمِ"[6]، ولَمّا كانَ سياقُ الجملةِ في النّعمةِ؛ فإنَّ الإنكارَ أنسبُ في التّعبيرِ؛ لأنَّ إنكارَهُم للنّعمةِ حصلَ بعدَ معرفتِها والإقرارِ بالمنعمِ، وبما سمعوا منْ دلائلِ القرآنِ؛ ولأنَّ الإنكارَ مقابلٌ للإقرارِ[7].

(1) الجوهري، الصحاح: (بلغ).
(2) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص: 157.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلغ).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 157.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242 - 243.

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤﴾ [النّحل: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّخويفُ بالبعثِ من أجلِّ المقاصدِ وأعظمِها

لمّا ذكر اللّهُ تعالى كفرَ المشركين باللّه ونِعَمه، بعد ذلك بيَّن حالهم بعد البعث؛ إذ منْ أجلِّ المقاصدِ وأعظمِها التخويفُ من البعثِ والنّشورِ، وليسَ بعدَ الإعراضِ عن البيانِ، والإصرارِ على كفرانِ معروفهِ تعالى إلّا المجازاةُ؛ والآخرةُ ليست بدارِ تكليفٍ[1]، بل هي دارُ الجزاءِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبۡعَثُ﴾: (بعث): أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ إثارة الشَّيء وتوجيهه[2]، البَعْثُ في كلامِ العَرَبِ على وجهَين: أحدُهما: الإرْسال، كقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]؛ مَعْنَاهُ أرسلنا، وانْبَعَثَ الشَّيءُ وتَبَعَّثَ: انْدَفع، وبَعَثَه مِنْ نَوْمه بَعْثًا، فانْبَعَثَ: أيْقَظَه وأهَبَّه[3]، والمقصود بالبَعْثِ في الآية: إحضارُهُ في المَوْقِفِ[4].

2) ﴿أُمَّةٖ﴾: الأُمَّةُ بمعنى مأمومَة، اشْتُقَّتْ من الأَمِّ - بِفَتْحِ الهَمزَةِ - وهو القَصْد؛ لأنَّ الأُمَّةَ تَقْصدُها الفِرَقُ العَديدَةُ الّتي تَجمَعُها جامِعَةُ الأُمَّة كُلِّها، مِثْلُ الأُمَّةِ الإسلاميَّة؛ لِأنَّها تَرْجِعُ إليها المذاهِبُ الإسْلاميَّةُ[5]، فالأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، سواء كان ذلك

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 228 - 229.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 721.

الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[1]، والجَمعُ: أُمَمٌ، والمقصود بالأمَّة في الآية: الجَماعةُ العَظِيمَةُ الَّتي يَجمَعُها جامِعٌ له بالٌ مِن نَسَبٍ أو دِينٍ أو زمانٍ.

3) ﴿شَهِيدًا﴾: أصْلُ (شهد): يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[2]، مِنْ ذلكَ الشَّهادَةُ، يَجْمَعُ الأُصولَ الَّتي ذَكرناها من الحُضورِ، والعِلْمِ، والإعلامِ، يقال: شَهِدَ الشَّيْءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، والشَّهيدُ: القَتيلُ في سَبيلِ اللّه، قالَ قَوْمٌ: سُمّيَ بِذلِكَ لأنَّ مَلائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَشْهَدُهُ، أي: تَحْضُرُهُ[3]، والشَّهيدُ أيضًا: الشّاهِدُ، وهوَ المُؤَيِّدُ والمُصَدِّقُ لِدَعْوَى مُدَّعٍ، والمقصودُ بالشَّهيدِ في الآيةِ: الشّاهِدُ، وهوَ المُخْبِرُ بالأمرِ الواقِعِ كما وقَعَ، والمرادُ: أنَّهُ شاهِدٌ على المُؤْمِنينَ بِهِ وعلى الكافِرينَ، أيْ: شَهيدٌ لأنَّهُ بَلَّغَهُم رِسالَةَ اللّه تعالى، وبَعْثُ شَهيدٍ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ يُفيدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ شَهيدٌ على هَؤُلاءِ الكافِرينَ[4].

4) ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾: الإذْنُ: مَصْدَرُ أذِنَ، يَأْذَنُ، وأَصْلُه: العِلْمُ والإعْلامُ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يُقالُ: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أَطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[5]، وتَقولُ العَرَبُ: قَدْ أَذِنْتُ بِهذا الأمرِ، أي: عَلِمتُ، وآذَنَني فُلانٌ أَعْلَمَني، وفَعَلَهُ بإذْني، أي: بِعِلْمي، ويَجوزُ بِأمري، وهوَ قَريبٌ مِنْ ذلكَ، قالَ الخَليلُ: ومِن ذلكَ أُذِنَ لي في كذا[6]، والمقصود بالإذن في الآية: إجازَةُ الفِعلِ لِمَنْ يَفعَلُهُ، والمرادُ من نَفْيِ الإذْنِ هنا: كِنايَةٌ عَنِ الطَّرْدِ، كَما كانَ الإذْنُ كِنايةً عَنِ الإكرامِ.

5) ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أصلُ (عتب): يَرْجِعُ إلى أمرٍ فيه بَعْضُ الصُّعوبَةِ من كَلامٍ أو غَيْرِهِ، مِنْ ذلكَ العَتَبَةُ، وهيَ أُسْكُفَّةُ البابِ[7]. يُقال: أَعْتَبْتُ فلانًا، أي: أبرَزْتُ الغِلْظَةَ الَّتي وُجِدت له في الصَّدْرِ[8]، والاسْتِعْتابُ: طَلَبُكَ إلى المُسيءِ الرُّجوعَ عَنْ إساءَته، والتَّعَتُّبُ والتَّعاتُبُ والمُعاتَبَةُ: تَواصُفُ الموجِدَة[9]. يُقالُ: عَتَبَ عليه: إذا وجَدَ عليه، ويُقالُ: عَتَبَ عليه عَتْبًا،

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن)، والمناوي، التوقيف على أمهات التعاريف، ص: 44، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتب).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عتب).
(9) الجوهري، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عتب).

أي: لامَهُ في تَسَخُّطٍ، فهو عاتِبٌ وعَتّابٌ[1]، والعُتْبَى: الرِّضَى بَعْدَ الغَضَبِ، يُقالُ: اسْتَعْتَبَ فُلانٌ فُلانًا فأعتبَهُ، إذا أرضاهُ، قالَ تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت: 24]، والمقصودُ بالاستِعْتابِ في الآيةِ: أنْ يُطْلَبَ مِنَ الإنْسانِ أنْ يَطْلُبَ العُتْبَى، وهيَ الرِّضا، والسّينُ والتّاءُ للمُبالَغةِ، والمرادُ: لا يَستعتِبُهُم أحَدٌ، أي: ولا يُرضَوْنَ بِما يَسألون[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الوعيدُ للكافرين المنكرين وما يلقون يوم القيامة مِن عذابٍ وذِلَّةٍ

يخبرُ تعالى عن حالِ الذين كفروا يومَ القيامة وما يقع فيه من الأهوال حيث يبعث مِن كُلِّ أمَّةٍ شاهدًا عليهم - وهو رَسولُهم الَّذي أُرسِلَ إليهم - ليَشهَدَ بما أجابَتْه به أُمَّتُه فيما بلَّغَها عن اللّهِ تعالى، ثمَّ لا يُعطَى الذين كَفَروا الإذْنَ للاعتذارِ إلى اللّهِ مِن كُفرِهم، إذ لا عُذر لهم ولا حُجَّة لديهم يدافعون بها عن أنفسهم، ولا يطلب منهم أحد في هذا اليوم العُتبى - أي أن يُرضوا ربَّهم بتوبةٍ أو عمَلٍ صالحٍ - فقَد فاتَ أوان ذلك حيث كانوا في دنيا التَّكليف، وقد أُعطوا الفُرصة فيها فلم يفعلوا، فلا سبيل لهم بعدها إلى ذلك، فإنَّ الآخرة دارُ جزاءٍ[3].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اعتذارَ الكافرين بعد ما عُلم يقينًا بطلانُ ما هم عليه، اعتذارٌ كاذب لا يفيدهم شيئًا في ذلك اليوم، ولا يُقبل منهم أن يزيلوا عَتْبَ ربِّهم، وغضبَه وسخطَه عليهم؛ لأنَّ العِتابَ إنما يطلب لأجل معاودةِ الرضا من العاتب، وأنَّ هؤلاء القومَ قد انسدَّ عليهم طريقُ إزالةِ عتب ربهم؛ لأنَّ اللّه تعالى قد سَخِط عليهم سخطًا لا مجال لإزالته، بعد أن أصرّوا على كفرهم في الدنيا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (عتب).

(2) الرّاغب، المفردات: (عتب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244، و25/ 376.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 327، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 592، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن ص: 446، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 665.

وماتوا على ذلك، وإلى أنَّ الآيةَ الكريمة قد نفت عن الذين كفروا قَبولَ أعذارهم، وقبولَ محاولتِهم إرضاءَ ربِّهم عما كانوا عليه من كفر وزيغ في الدنيا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾:

التّذكيرُ بيوم القيامة من البلاغِ المبين

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ دالةٌ على العطفِ؛ بأن عطفتْ هذهِ الجملةَ على قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ على تقديرِ: واذكرْ أيّها العاقلُ المعتبرُ يومَ نبعثُ؛ فإنّ التّذكيرَ بذلكَ اليوم يعدُّ من البلاغِ المبينِ بتبليغهم رسالةَ اللّهِ[2].

بيانُ متعلَّقِ الظّرفِ ودلالته:

بقاءُ الظّرفِ بغيرِ متعلّقٍ يفيدُ التّهويلَ والتّفظيعَ

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾ يومَ: منصوبٌ على الظّرفيةِ، عاملُه محذوفٌ بدلالةِ الكلامِ السّابقِ عليه على أنْ يكونَ تقديرُهُ بما يسمحُ به المعنى منْ مثلِ: (نحاسبهُم حسابًا لا عتبَ فيه)، أوْ غيرُهُ، وحقُّ العاملِ في الظّرفِ أنْ يكونَ ﴿لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، لكنّه لَمّا جُعلَ معطوفًا على جملةِ الظّرفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ فصارَ ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فغدا الظّرفُ خاليًا من المتعلّقِ؛ فيؤولُ تقديرُهُ للسّامعِ بما يذهبُ إليهِ خاطرُهُ بما يفيدُ التّهويلَ والتّفظيعَ[3].

إنذارُهم وتخويفُهم وترهيبُهم من ذلكَ اليومِ

واستهلّ الآيةَ بالظّرفِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾ تخويفًا لهم وإنذارًا وترهيبًا، وقدْ حذفَ عاملَهُ على تقديرِ: وخوّفهُم ذلكَ اليومَ الّذي نبعثُ منْ كلِّ أمّةٍ ما يكونُ شاهدًا عليها؛ تصديقًا بالإيمانِ وطاعةِ اللّهِ أوْ تكذيبًا بالكفرِ والعصيانِ[4].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن ص: 446، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 14/ 125.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾:

التّخويفُ والتّرهيبُ من العذابِ الّذي سيلحقهُم ذلكَ اليومَ

ولَمّا تبيّنَ ممّا سبقَ أنّه خوّفهُم وحذّرهُم من اليومِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾ وهذا ظاهرُ النّصِّ، فإنَّ المعنى أن يخوّفهُم منْ أثرِ ذلكَ اليومِ وعذابِه الّذي سيلحقهُم بموجبِ كفرهِم؛ لأنَّ أسماءَ الزّمانِ والمكانِ ليستْ مخوفةً في نفسِها، وإنّما ما يكونُ فيها منْ أحداثِ البعثِ والنّشورِ والحسابِ والعذابِ والعقابِ[1].

إيثار لفظ ﴿نَبۡعَثُ﴾ على (نُرْسل):

الموقفُ ليسَ إرسالَ رسالةٍ، بلْ هو بعثُ الشّهيدِ الّذي ينبئهُم بعملهِم في الدّنيا

في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ أوردَ الفعلَ الّذي يدلُّ على الإثارةِ (نبعثُ)؛ لأنَّ البعثَ فيهِ إثارةٌ نحوَ عملٍ ما[2]، والإثارةُ لا تكونُ إلّا عنْ ضعفٍ وسكونٍ؛ ففي البعثِ تحفيزٌ وتنشيطٌ، أمّا مرادفهُ (نرسلُ) فإنَّ الإرسالَ دالٌّ على السّهولةِ واليسرِ، ويَدلُّ أيضًا على الانبعاثِ الّذي يقترنُ بالامتدادِ[3].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ المبدوءِ بالنّونِ:

البعثُ أمرٌ عظيمٌ لا يقدرُ عليهِ إلّا العظيمُ سبحانهُ

واستعملَ صيغةَ المضارعِ المبدوءِ بالنّونِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾ وهيَ نونٌ دالّةٌ على التّعظيمِ والتّشريفِ؛ للإيذانِ بأنَّ مثلَ هذهِ الأفعالِ العظيمةِ لا يقومُ بها إلّا العظيمُ سبحانهُ[4].

فائدةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿مِن كُلِّ﴾:

الاختصاصُ، فكلُّ أمّةٍ سيَشهدُ عليها رسولُها، لا أنّهُ سيكونُ متعدّدًا بتعدّدِ الأممِ

وقدّمَ الجارّ والمجرورَ على مفعولِ الفعلِ ﴿نَبۡعَثُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، لأنَّ المقصودَ أنَّ كلَّ أمّةٍ سيشهدُ عليها هذا الشّهيدُ، وهو الرّسولُ، فلو تأخّرَ الجارُّ والمجرورُ بأنْ يقالَ: (نبعثُ شهيدًا منْ كلِّ أمّةٍ)؛ لَتَعدَّدَ الشّهيدُ بتعدّدِ الأممِ، وصارَ هذا التّعدُّدُ مقصودًا من الكلامِ، وهوَ غيرُ مرادٍ في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4241.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(4) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.

الآيةِ، بل المرادُ تسليةُ النّبيِّ بأنَّ كلَّ أمّةٍ سيُشهدُ عليها، وأنّ أمّتكَ منهم، وليسَ المقصودُ هوَ الكلامُ على تعدّدِ الشّهداءِ، وأنَّ عددهُم مساوٍ لعددِ الأممِ[1]؛ فإنّهُ وإن كانَ صحيحًا لكنّهُ غيرُ مرادٍ في الآيةِ، وما سيقت لأجلهِ.

دلالة لفظ ﴿كُلِّ﴾ وإضافته إلى ﴿أُمَّةٍ﴾:

كلّ إذا أضيفت إلى نكرة واحدة خرج الفعل على قدر النّكرة[2]، و﴿كُلِّ﴾ تفيد العموم، وإضافتها إلى لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ - وهو نكرة - يؤكد ذلك العموم، أي بعثنا في كُلّ أمَّةٍ منَ الأممِ الخالية رسولًا خاصًّا بهم[3].

إيثار لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ بدلًا من (طائفة):

بَعْثُ الشّهداءِ يـومَ القيامةِ يكونُ من الأممِ الّتي أُرسِلَ إليها الرّسلُ

واصطفى السّياق الكريمُ لفظَ الأمّة في قولهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾، ومعنى الأمّةِ كلُّ جماعةٍ يجمعهُم أمرٌ معيّنٌ جامعٌ تسخيرًا أو اختيارًا[4]. أمّا الطّائفةُ فهي في الأصلِ الجماعةُ الّتي تطوفُ في البلادِ، أو الّتي تستوي بها حلقةٌ يطافُ عليها، وقد تكونُ اسمًا لواحد غيرِ متعدد؛ لقولهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾[5] [الحجرات: 9]؛ فالطّائفةُ هنا تصلحُ لإطلاقِها على المفردِ، والمعنى في الآيةِ الفِرَقُ الكثيرةُ الّتي تجمعُها جامعةُ الأمّةِ، كالأمّةِ الإسلاميةِ[6]، فبعثهُ الشّهداءَ يومَ القيامةِ يكونُ من الأممِ الّتي أرسِلَ إليها الرّسلُ.

لطيفةُ استعمالِ لفظِ الشّهادةِ في ﴿شَهِيدٗا﴾:

الـدلالـةُ على الرسول الّذي بعثَ إليهم يشهدُ لهم وعليهم

واستعملَ لفظَ الشّهادةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾؛ للدّلالةِ على النّبيِّ؛ فإنَّ شهيدَ كلِّ أمّةِ "نبيّها يشهدُ لهم

(1) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 309.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 112.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمّ).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 334.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 721.

بالإيمانِ والتّصديقِ، وعليهم بالكفرِ والجحودِ والتّكذيبِ، قالَ ابنُ عباسٍ: شهيدُها نبيّها، على أنّهُ قدْ بلّغَ رسالاتِ ربّهِ"[1].

بعثُ شهيدٍ منْ كلّ أمّةٍ يفيدُ أنّه ﷺ شهيدٌ علَى الكافرينَ

ولفظُ الشّهيدِ من الشّهادةِ، وفي بعثِ الشّهيدِ منْ كلِّ أمّةٍ ما يفيدُ أنّهُ ﷺ شهيدٌ على الكافرينَ لقولهِ تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النّساء: 41]؛ لينتظمَ بذلكَ أمرُ العطفِ وصفًا لذلكَ اليوم، وتنويهًا بشأنهِ[2]، والإشارة بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [النّساء: 41] إلى كفار قريش وغيرهم من الكفار، وإنما خصَّ كفار قريش بالذكر لأنَّ وظيفةَ العذاب أشدُّ عليهم منها على غيرهم؛ لعنادهم عند رؤية المعجزات، وما أظهره الله على يديه من خوارق العادات، والمعنى: فكيف يكون حالُ هؤلاء الكفار يوم القيامة ﴿إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١﴾ [النّساء: 41] أمعذَّبين أم منعَّمين؟ وهذا استفهام معناه التوبيخ[3].

بعثُ الشّهيدِ الّذي يشهدُ لها أو عليها هو بعثٌ للأمّةِ وفي ذكرهِ بيانٌ لمقامهِ

والشّهيدُ هو الرّسولُ الهادي والنّذيرُ، وفي ذكرهِ فائدةٌ، وهو أنَّ بعثَ الشّهيدِ الّذي يشهدُ لها أو عليها هو بمنزلةِ بعثِ الأمّةِ؛ فدلالةُ بعثِ الرّسولِ صريحةٌ، وبعثُ الأمّةِ بدلالةِ الاقتضاءِ؛ ولأنّ في ذكرهِ بيانٌ لمقامِ الرّسولِ ﷺ عندَ الحقّ ﷻ[4].

مَنْ كنتُم تحتقرونهُ وتكفرونَ بهِ ستكونُ شهادتهُ سببًا في دخولكُم النّارَ

وقدْ يردُ سؤالٌ وهو أنَّ الحقَّ سبحانهُ ليستْ بهِ حاجةٌ للشّهداءِ لإقامةِ الحجّةِ على الكافرينَ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنّهُ تعالى يُشْهِدُ الشّهداءَ وهم الأنبياءُ على أقوامهِم؛ إكرامًا وتشريفًا للأنبياءِ، وخزيًا للكفّارِ؛ فإنّكم كنتم تحتقرونَ رسلكُم، وتكفرونَ بهم، فها هيَ شهادتهُم ستكونُ سببًا وموجبًا لمصيركم ودخولِكُمُ النّارَ[5].

(1) القنوجي، فتح البيان: 7/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 198.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4241.
(5) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.

دلالـــتـــهُ على الـتّـفـخـيـم والـتّـعـظـيـم فالشّهيدُ حجّةٌ على أهلِ عصرِه

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿شَهِيدًا﴾:

وفي قولــهِ تعالــى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ أوردَ لفظَ الشّــهيدِ نكرةً؛ للدّلالةِ على التّعظيمِ والتّفخيمِ كالواردِ عندَ سيبويه بقولِه: ســيرَ عليهِ ليلًا ونهارًا علــى إرادةِ اللّيلِ الطّويــلِ والنّهارِ الطّويلِ(1)، فالمعنى: أنّه تعالى يبعثُ "يومَ القيامةِ من أهلِ كلّ عصرٍ مَن هو حجّةٌ عليهم فيشهدُ"(2).

وصــفٌ يقتضي شـــهـــادتَـــهُ عــلَى المؤمـنـينَ والكـافرينَ بأن بلّغهُم رسـالةَ الله

علّةُ استعمالِ صيغةِ (فَعيل):

واستعملَ لفظَ الشّهيدِ في قولهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾، وهو وصفٌ زنةُ (فَعيل) على معنى أنّهُ شاهدٌ على المؤمنينَ وعلى الكافرينَ على حدّ السّواءِ؛ فهو شهيدٌ بأن بلّغهُم رسالةَ ربّهم(3).

الإقـنـاطُ الـكُـلّيّ مــن شــهــادة الأنبياء، زيـادةً فيما يحيقُ بهم جرّاءَ ذلكَ المنعِ

دلالةُ حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ﴾:

وحرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ﴾ مستعملٌ "لزيادةِ ما يحيقُ بهم منْ شدّةِ المنعِ عن الاعتذارِ؛ لما فيهِ من الإقناطِ الكلّيِ على ما يُمنَّونَ بهِ منْ شهادةِ الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ"(4)، فبعدَ شهادةِ الأنبياءِ عليهم يزادُ عليهم بما هو أطمُّ من ذلكَ، وهو منعهُم من الكلامِ اعتذارًا أو إلقاءَ حجّةٍ.

التّرتيبُ الرُّتبيُّ لا الزّمنيّ؛ لأنَّ عدمَ الإذنِ لهم مـقـارنٌ لبعثِ الشّهيدِ عليهم

ويجوزُ في حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ﴾ أن يكونَ للتّرتيبِ الرّتبيّ لا التّراخي الزّمني؛ لمقارنةِ عدمِ الإذنِ لهم ببعثِ الشّهيدِ؛ لأنّهم لَمّا أُلجموا عن الكلامِ معَ تعذّرِ الاستعتابِ كانَ أشدّ هولًا من أن يأتيَ عليهم بالشّهيدِ(5).

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 226.
(2) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 2/ 489.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 237.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.

نكتةُ تلوينِ الخطابِ في الآية:

وجعلَ الخطابَ ملونًا باختلافِ التّعبيراتِ من المتكلّمِ المعظّمِ نفسَهُ في قولِهِ: ﴿نَبۡعَثُ﴾، ثمّ الانتقالَ إلى صيغةِ المبنيِ للمفعولِ في قوله: ﴿لَا يُؤۡذَنُ﴾، ولم يقلْ: (نَأْذَن)؛ فإنَّ التّعبيرَ عنْ نفسهِ تعالى وردَ بصيغةِ التّعظيمِ لإدخالِ المهابةِ في نفوسِ المخاطبينَ، فإذا أرادَ الحديثَ عن الكافرينَ أوردَهُ بصيغةِ البناءِ للمفعولِ بحذفِ الفاعلِ كنايةً عن التّركِ والإهمالِ، وأنّهم لا يؤبهُ لهم فلا يستحقّوا أن يذكروا جزاءَ كفرهِم.

دلالةُ النّفي في قولِهِ: ﴿لَا يُؤۡذَنُ﴾:

وأوردَ النّفيَ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾؛ لدلالةٍ خاصّةٍ، وهوَ أنْ يكونَ النّفيُ كنايةً عن الإبعادِ والطّردِ تمامًا، كما يكونُ الأذنُ تعبيرًا عن الإكرامِ والتّوقيرِ[1].

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يُؤۡذَنُ﴾:

والمفعولُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ محذوفٌ تقديرُهُ: ألّا يؤذنَ لهم في الكلامِ[2]، وكلامهُم هنا اعتذارهُم لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾ [المرسلات: 35 - 36]، والسّرُّ في حذفهِ مزيدُ احتقارهِم واستصغارهِم بألّا يؤذنَ لهم في الكلامِ أصلًا؛ فإنَّ "المنعَ من الكلامِ أصعبُ من شهادةِ الأنبياءِ عليهِم"[3] فضلًا عنْ عدمِ قبولهِ لوْ صدرَ منهم، فثمّةَ فرقٌ بينَ منْ يؤذنُ لهُ بالكلامِ ثمَّ يردُّ على وجهِهِ، ومنْ لا يؤذنُ له منْ أوّلِ الأمرِ، فالثّاني أشنعُ وأبشعُ في التّبعيدِ.

سرُّ الاسمِ الموصولِ في ﴿لِلَّذِينَ﴾:

واستعملَ الاسمَ الموصولَ في قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وسرُّ ذلك

التّركُ والإهمالُ للكافرين؛ إذ لا يؤبهُ لهم فلا يستحقّوا أن يذكروا

كنايةٌ عنِ الطّردِ كما كانَ الإذنُ كنايةً عنِ الإكرامِ

في منعهم الكلامَ ابتداءً زيادةٌ في الاحتقارِ، وهو أبشعُ ممّن يؤذنُ لهُ ثمّ يردُّ كلامُهُ

الإشارةُ إلى علّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ؛ فكفرهُم منَعهم من الاعتذارِ وأبعدَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.
(2) ابن عادل، اللباب: 12/ 137.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 296.

الإشارةُ إلى أنَّ صلةَ الموصولِ ﴿كَفَرُواْ﴾ وجحدوا وأصرّوا على كفرهِم هوَ علّةُ بناءِ الخبرِ على الصلةِ، والنعي عليهِم بما ذكرَ من كفرهِم في حيّزِ الصّلةِ[1]، والمعنى: أنَّ كفرهُم علّةٌ لنفيِ الإذنِ عنهم كلامًا واعتذارًا، واستصغارِهم وتركِ استعتابِهم بالرّجوعِ إلى ما يرضي اللّهَ تعالى.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿كَفَرُواْ﴾:

الماضي أوضحُ في استحكامِ ثباتِ كفرهِم وتحقّقِه

وعبّرَ بالفعلِ الماضي في قولهِ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنّهُ مستحكِمُ الثّباتِ لدلالةِ الماضي على تحقّقِ الأمرِ وثباتِه؛ فإنَّ كفرهُم متحقّقٌ بما أوقعهُ عليهِم منْ آثارٍ حلَّت بهم، وبما آلَ إليه مصيرهُم، وهوَ النّارُ بما أعجزهُم عنْ مخاطبتهِ وكلامهِ بأن لم يأذن لهم؛ فإنَّ الأمرَ بكفرهِم قدْ تقررَ وتمَّ وانقضى.

فائدةُ العطفِ في قولهِ: ﴿وَلَا هُمۡ﴾:

اهتمامًا بخصوصهِ وتيئيسًا من حالهم عندَ أهلِ الموقفِ، فلا طائلَ في استعتابِهم

وعطفَ قولَه: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ على قولهِ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معَ أنّه أخصُّ منهُ؛ فهو من بابِ عطفِ الخاصّ على العامّ اهتمامًا بخصوصهِ؛ لإفادةِ حقيقةِ أنّهم ميؤوسٌ من الرّضى عنهُم عندَ أهلِ الموقفِ جميعًا؛ لعلمهِم أن لا طائلَ من استعتابِهم؛ فلا يشيرُ أحدٌ عليهِم بذلكَ الفعلِ؛ لأنّ عدمَ الإذنِ يجعلهُم كالمطرودينَ فلا يجدوا إشارةَ استعتابٍ[2].

احتراسٌ من الوهمِ أنّهُ تعالى راضٍ عن الكافرين وأنّهَ لا يريدُ اعتذارهُم

وفي نفيِ استعتابِهم، أيْ: إرضائهم بعدَ عدمِ السّماحِ لهم بالاعتذارِ، احتراسٌ من الوهمِ الّذي قدْ يحصلُ منْ بعضِ النّاسِ أنّهُ تعالى راضٍ عنْ أولئكَ الكافرين، وأنّهَ لا يريدُ اعتذارهُم، والصّحيحُ أنَّ رفْضَ اعتذارهِم تبعيدٌ لهم وتيئيسٌ، وليس منْ رضى اللّهِ عنهم، ولهذا جاءَ نفيُ إرضائهِم واستعتابِهم[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 443.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 245.

(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.

دلالةُ تقديمِ الضّميرِ على فعلِ الاستعتاب:

وفي تقديم الضّميرِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليّ بعدَ حرفِ النّفي في قولِه: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ تعريضٌ بأنَّ اللّهَ تعالى يستعتبُ غيرهُم، وهم المؤمنونَ بأن يُرضيَهُم ويغفرَ لهُم[1].

تعريضًا بأنّ الحقّ سبحانهُ يُرضي المؤمنينَ ويغفرُ لهم

فائدةُ إظهارِ الضّميرِ المنفصل ﴿هُمۡ﴾:

وفي التّعبيرِ بالضّميرِ المنفصلِ في قولِه: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ فائدةٌ معَ جوازِ الاستغناءِ عنهُ؛ فإنَّ ذكرهُ منْ بابِ توكيدِ التّهديدِ والوعيدِ لهم، ففي تركِ إظهارِه دلالةٌ على أنَّ المستعتبينَ هم الكافرونَ؛ فالإظهارُ في سياقِ الإضمارِ فيهِ منَ التّوكيدِ ما لا يخفى[2].

توكيدُ التّهديدِ والوعيدِ للمخاطبينَ، وأنَّ المستعتبينَ هم الكافرون

سرّ استعمالِ المضارعِ في الختام:

واستعملَ صيغةَ البناءِ للمجهولِ في قولِه: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، وأصلُ الاستعتابِ طلبُ العتبى الّتي هيَ الرّضى بعدَ الغضبِ والمَوجِدةِ، كأن يقالُ: استعتبَ فلانٌ فلانًا، فإذا بُني للمجهولِ باتَ نائبُ الفاعلِ هوَ المطلوبُ إليه الرّضى بعدَ حذفِ الفاعلِ؛ فنائبُ الفاعلِ هنا الضّميرُ المتّصلُ بالفعلِ ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، فيقالُ: اسۡتُعۡتِبَ فلم يَسۡتَعۡتِبۡ، أوِ اسۡتُعۡتِبَ فلم يُعتِبۡ؛ جريًا على الأصلِ، وهوَ استعمالٌ ناشئٌ عن الحذفِ، فالأصلُ فيهِ اسۡتُعۡتِبَ لهُ[3]، وفي حذفِ الفاعلِ هنا العائدُ عليهم منْ بابِ احتقارِهم، وعدمِ التّنويهِ بهم؛ فإنّهُ لا يطلبُ إليهم الرّضى.

لا يطلبُ إليهم الرّضى إشارةً إلى استحقارِهم وعدمِ التّنويهِ بهم

دلالةُ الفعلِ ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾:

وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ عبّرَ بالفعلِ الدّالِّ على العَتۡبِ، وهو المَوجِدةُ بصيغةِ الاستفعالِ، ومعناهُ "يُسترضونَ، أيَ لا

لا يُطلبُ إليهم إرضاءُ ربّهم، فالآخرةُ ليستْ دارَ تكليفٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 377.
(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.

يُكلّفونَ أنْ يرضوا ربَّهُم، لأنّ الآخرةَ ليستْ بدارِ تكليفٍ، ولا يترَكونَ إلى رجوعِ الدّنيا فيتوبونَ"(1)؛ ففيهِ تيئيسٌ لهم من أيِّ شيءٍ من رحمته تعالى.

فائدةُ المضارعِ في﴿لَا يُؤْذَنُ﴾ و﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾:

التّجدُّدُ والاستمرارُ في عدمِ الإذنِ والاستعتابِ، ودوامُ عذابِهم

وفي التّعبيرِ عنْ عدمِ الإذنِ لهم بالكلامِ والاعتذارِ بالفعلِ المضارعِ ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾؛ وكذا عدم الاستعتابِ بقولهِ: ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فائدةُ الاستمرارِ التّجدّديّ كحالِ المخبرِ عنهُم بقولهِ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56]؛ ليدومَ عذابهُم، كذلكَ فإنَّ انتفاءَ الإذنِ باعتذارِهم، وأنّهم لا ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ متجدّدٌ مستمرٌّ(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الإذنُ لهُ) و(الإحلالُ لهُ):

الإحلالُ إباحةٌ وتخييرٌ، ونفيُ الإذنِ كنايةٌ عن الطّردِ

استعملَ فعلَ الإذنِ مَنفيًّا في قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والإذنُ "هو الرّخصةُ في الفعلِ قبلَ إيقاعه"(3)، ويرادفهُ الفعلُ (أحلّ لهُ) من الإحلالِ، وهو الإباحةُ والتّخييرُ بينَ الفعلِ والتّركِ(4)؛ فيكونُ إيرادُ الفعلِ (أذنَ) أدقَّ هنا؛ لأنّهُ لا تخييرَ لهؤلاءِ الكافرينَ في الكلامِ والاعتذارِ، فالفعلُ هنا مذكورٌ على وجهِ النّفي كنايةً عن الطّردِ.

العتاب واللّوم:

العتابُ هو الخطابُ على تضييعِ الحقوقِ، واللّومُ تنبيهُ الفاعلِ على موقعِ الضّررِ

وفي قولهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ استعملَ فعلَ العتبِ بصيغةِ الاستفعالِ، ولم يستعملْ مرادفهُ اللّومَ؛ لأنَّ "العتابَ هوَ الخطابُ على تضييعِ حقوقِ المودّةِ والصداقةِ في الإخلالِ بالزّيارةِ، وتركِ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 162.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 357.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 33.

(4) الفيومي، المصباح المنير: (حلل).

المعونةِ"[1]، وفعلُ الاستعتابِ في الآيةِ بمعنى ردِّهم إلى الدّنيا؛ لأجلِ التّوبةِ، أمّا اللّومُ فهوَ "تنبيهُ الفاعلِ على موقعِ الضّررِ في فعلهِ، وتهجينُ طريقتهِ فيهِ، وقدْ يكونُ اللّومُ على الفعلِ الحسنِ كاللّومِ على السّخاءِ"[2]، وليسَ فيه عَودٌ للتّوبةِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 350.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 471.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥﴾ [النّحل: 85]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تأكيدُ الوَعيدِ بما ينالُ الكافرين من العذابِ منْ غيرِ تخفيفٍ

لمّا ذَكَرَ حالَ يَوْمِ القيامَةِ وما وصلَ إليه النّاكبونَ عنْ طريقِ الهدى، المستحقّونَ للعذابِ في ذلكَ اليومِ الّذي يجازونَ فيهِ شرَّ الجزاءِ، ورأوا العذابَ بعدَ الموقفِ، وبعدَ شهادةِ الشّهداءِ، أكّدَ هذا الوَعيدَ بما ينالُهم من العذابُ منْ غيرِ تخفيفٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنظَرُونَ﴾: أصلُ (نظر): تَأمُّل الشَّيْءِ ومُعايَنَتُهُ، ثُمَّ يُسْتعارُ ويُتَّسَعُ فيه، فيُقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ أَنْظُرُ إليه، إذا عايَنْتَهُ، ويَقولونَ: نَظَرْتُه، أي انْتَظَرْتُهُ، وسُمّيَ الإمهالُ إنْظارًا؛ لأنَّه يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الَّذي يَأْتي فيهِ[2]، وضِدُّهُ: التَّعْجيلُ، والإنْظارُ والنَّظِرَةُ: التَّأخير والإنساء والإمهال[3]، والاسْتِنْظارُ: طَلَبُ الإنْظارِ، واسْتَنْظَرَ المُشْتَري فُلانًا: سَألَهُ الإنْظارَ، والتَّنَظُّرُ: تَوَقُّعُ الشَّيْءِ[4]، والمقصودُ بالإنظار في الآية: الإمهالُ والتَّأجيلُ، أي: لا يُؤَجَّلونَ[5].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

لــزومُ الـجـزاءِ للكافرين دون تَخْفيفِ العذاب عــنــهــم أو إمهالِهم

تعرِضُ الآيةُ صورةً أُخرى لما يكون عليه الكافرون من أهل النّار، إذ يُخبِر الله تعالى عنهم بقوله: وإذا أبصر الَّذين ظلموا العذابَ الَّذي أُعدَّ لهم في الآخرة بسبب ظلمهم وكُفرهم في الدُّنيا، بغتَهُم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 255، والبقاعي، نظم الدّرر: 11/ 229 - 230.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(3) أبو عمرو الداني، الفرق بين الضاد والظاء، ص: 51.
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (نظر).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نظر).

وثقلَ عليهِم، وفزِعوا وخافوا، ولكن خوفهم وفزعهم لن يُغيِّر مِن الأمر شيئًا، فلا يُخفَّفُ عنهم عذابُ النارِ بأيِّ نَوعٍ مِن أنواعِ التَّخفيفِ، ولا هم يُمهَلونَ عن العَذابِ، ولا يُؤَخَّرونَ عن دُخولِ النّارِ حيِن يَرَونَها ولو لَحظةً(1).

وترشدُ الآيةُ الكريمة بالوصف والتحليل إلى حالةِ المشركين والكافرين عندما يضعُ اللّهُ الموازينَ القسطَ ليوم القيامة، وما يكونون عليه من وجوم ودهشةٍ وارتباكٍ وترددٍ؛ لهول المفاجأة(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَإِذَا رَءَا﴾:

رؤيةُ العذابِ وحلولُهُ توكيدٌ للوعيدِ في منعهِم الاعتذارَ والاستعتابَ

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ معطوفٌ على الآيةِ السّابقةِ، وفي هذا العطفِ توكيدُ الوعيدِ الّذي دلَّ عليه قولهُ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ فقد أوعدهُم هنا، وأكّدَ وعيدَهُم برؤيتِهم العذابَ، وإشرافِهم عليهِ فالدخولِ فيه، وانتفاءِ أن يخفّفَ عنهُم أو أن يُنظرهم(3).

العذابُ الدّنيويُّ للظّالمينَ قابلٌ للتّخفيفِ والإنظارِ بخلافِ عذابِ الآخرة

وهذهِ الآيةِ معطوفةٌ على ما قبلَها؛ فإنَّ الآيةَ السّابقةَ مسوقةٌ لبيانِ الفرقِ بينَ الجزاءِ يومَ القيامةِ، وبينَ ما يحلُّ بهم من الأرزاءِ الدّنيويةِ؛ فإنَّ المرءَ متى ما توقّعَ أمرًا من خطوبِ الدّنيا إلّا وكانَ له مطمعٌ في تأخّرهِ أو تخفيفهِ، وكذا إن حلّ به فعلًا، وهو واقعٌ كثيرًا(4)، أمّا عذابُ الآخرةِ المعبّرُ عنه بجزاءِ ذلكَ اليومِ؛ فإنّه إن عاينهُ الكافرُ فلا أملَ له بنظرٍ أو تخفيفٍ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 328، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 162، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 592، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 213.

(2) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير: 3/ 347.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 255.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 414.

سرُّ استعمالِ الظّرفِ المتضمّنِ معنى الشّرطِ (إذا):

(إذا) هنا ظرفٌ خالصٌ منْ معنى الشّرطِ، نُصبَ بفعلٍ مقدّرٍ مناسبٍ لهُ؛ لإفادةِ التّهويلِ والتّفظيعِ.

وجوابُ (إذا) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ محذوفٌ؛ كي يذهبَ فيهِ العقلُ كلَّ مذهبٍ في تقديرِه؛ فقد هالهُم الأمرُ، وشعروا بمقتِ اللّهِ وغضبِه، وطلبوا التّخفيفَ فقوبلوا بالرَّفضِ[1].

بلاغةُ المجازِ في رؤيةِ العذابِ:

التّعبيرُ برؤيةِ العذابِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ من بابِ المبالغةِ، أو المرادُ أنّهم يرونَ جهنّمَ نفسَها مجازًا[2]؛ لأنّ الأمرَ يتعدّى الرّؤيةَ إلى دخولِهم فيها، ووقوعِ العذابِ عليهِم بمدعاةِ ظلمِهم وكفرِهم.

وفي التّعبيرِ برؤيةِ العذابِ قبلَ مباشرتِه والدخولِ فيهِ معنى عميقٌ، فكأنّهُ سيُنصبُ أمامهُم؛ ليجمعَ عليهِمُ العذابَ النّفسيَّ مع العذابِ الجَسديِّ؛ لأنَّ النّفسَ تتأذّى بالمشاهدةِ قبلَ الأحاسيسِ[3].

فائدةُ التّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

وتعبيرُ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهم الّذين كفروا إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ رَوْمًا إلى إجراءِ تلبّسِهم بالصّفاتِ؛ فيكونُ المعنى: ألّا يُؤْذَنَ للذين كفروا، ولا هم يُستعتبونَ ثمّ يساقونَ إلى العذابِ، فإذا رأوهُ فلا يُخفّفُ عنهُم حينَ يسألون التّخفيفَ؛ لأنّه لا يستجابُ لهم شيءٌ من ذلكَ[4].

والتّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دونَ الاسمِ الظّاهرِ (الظّالمون)؛ إيذانًا بعلّيةِ ما في حيّزِ الصّلةِ من ظلمِهم وهو

حينما يرى الظّالمونَ العذابَ يبغتهُم ويثقلُ عليهم فلا تخفيفَ عندئذٍ

جوابُ (إذا) محذوفٌ يذهبُ فيه العقلُ كلَّ مذهبٍ

تعليقُ الرّؤيةِ بالعذابِ للمبالغةِ أو رؤيةِ جهنّمَ نفسِها مجازًا

إدراكاتُ النّفسِ تتأذّى بالمشاهدةِ قبلَ أنْ تألمَ الأحاسيسُ

قصدًا إلى إجراءِ الصّفاتِ المتلبّسين بها عليهم

إيذانًا بعلّيّةِ ما في حيّزِ الصّلةِ من ظلمهم فجوزوا بالعذابِ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4242.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 443.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/ 8141.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 246.

كفرُهُم بوضعِ الشّيءِ في غيرِ موضعِه؛ فإنّه سببٌ لرؤيتِهم العذابَ، أي: الحكمُ به وملاكه[1]، ووقوعِه عليهِم من غيرِ نظرٍ ولا تخفيفٍ.

أثرُ صيغةِ الماضي في قولِه: ﴿ظَلَمُواْ﴾:

ظلمهُم واقعٌ متحقِّقٌ لا محالةَ

وفي إيثارِ صيغةِ الفعلِ الماضي في التَّعبيرِ عن ظلمهم بقولِه: ﴿ظَلَمُواْ﴾ دلالةٌ على أنَّ ظلمهُم واقعٌ متحقّقٌ لا محالةَ، وآيةُ ذلك استحقاقهُم العذابَ بمَدعاةِ هذا الظّلم، من غيرِ إنظارٍ ولا تخفيفٍ.

نكتةُ استعمالِ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾ جوابًا للشّرطِ:

التّخفيفُ يتلو رؤيةَ العذابِ

وجعلَ جملةَ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ جوابًا لقولِه: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾؛ لأنّ التّخفيفَ يقعُ بعدَ رؤيتِهم العذابَ[2]، ومعلومٌ أنّ الجوابَ يتلو الشّرطَ.

غرضُ المجازِ بالحذفِ في ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾:

التّخفيفُ عنهُم غيرُ واردٍ البتّة بدلالةِ الجملةِ الاسميةِ الدّالةِ على الثّبوتِ

وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ أدخلَ الفاءَ على الفعلِ المضارعِ المنفي ﴿يُخَفَّفُ﴾ الواقعِ جوابًا لـ(إذا)، ومتى كانَ الفعلُ المضارعُ جوابًا لم تلزمه الفاءُ "ولا بدّ منْ إضمارِ مبتدأ قبلَ هذهِ الفاءِ، أي: فهوَ لا يخففُ"[3]؛ فهيَ جملةٌ اسميةٌ حذفَ أحدُ طرفيها، وهوَ المسندُ إليهِ؛ فباتت الجملةُ اسميةً بعدَ أنْ كانتْ في ظاهرِها فعليةً؛ لتدلَّ الاسميةُ على الثّبوتِ، وأنَّ التّخفيفَ عنهم غيرُ واردٍ البتّةَ.

الجوابُ بمعنى الخوفِ ورغبة التّخفيفِ، أو التّأجيلِ رجاءَ عملٍ صالحٍ ينجيهم

ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ في ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ عاطفةً على لفظٍ مأخوذٍ من معنى الخوفِ والهلعِ والرّغبةِ في أن يخفّفَ عنهُم عذابهُم، أو أن يؤجلهُ لهم عسى أن يكونَ منهُم عملٌ صالحٌ ينجيهم من ذلكَ العذابِ الأليمِ الّذي كانوا ينتظرونهُ؛ فجوابُ الشّرطِ محذوفٌ، والفاءُ عاطفةٌ عليهِ[4].

(1) الطباطبائي، الميزان: 14/ 318.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 356.

(3) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 7/ 278.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4242.

فائدةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ:

انتفاءُ التّخفيفِ عنهُم بمنزلةِ الأمرِ الواقعِ المتحقّقِ

وبنى الفعلَ للمفعولِ أو المجهولِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عدمَ التّخفيفِ عنهُم بمنزلةِ الأمرِ الواقعِ المتحقّقِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ انتفاءَ التّخفيفِ أمرٌ حتمٌ قدْ صدرَ وانقضى.

علّةُ الإخبارِ بالجملة الفعلية:

توكيدُ عدمِ تخفيفِ العذابِ عنهُم وتحقُّق وقوعه

وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ أخبرَ عن المسندِ إليهِ بالجملةِ الفعليةِ؛ لإرادةِ تقويةِ الحكمِ، وهوَ حكمُ النّفي، فانتفاءُ تخفيفِ العذابِ عنهم أمرٌ مؤكّدُ الوقوعِ، فلا مطمعَ في خلافهِ لمَنْ يظنُّ ذلكَ؛ فتأكّدت هذهِ الجملةُ[1].

فائدةُ التّعبيرِ عنِ انتفاءِ التَّخفيفِ بالفعلِ:

الاستمرارُ التّجدُّدي في الفعلِ الدالِّ على عدمِ التّخفيفِ

وفي التّعبيرِ عنْ عدمِ التّخفيفِ بالجملةِ الفعليةِ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾؛ إفادَةُ الاستمرارِ التّجدُّديِّ كحالِ المخبَرِ عنهُم بقولِه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: 56]؛ ليدومَ عذابهُم بهذا الاستمرارِ التّجدّدي، كذلكَ فإنَّ انتفاءَ التّخفيفِ يتجدّدُ إذا نقلوا منْ عذابٍ إلى آخرَ[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾:

إفادةُ عدمِ الإنظارِ، فعذابهُم دائمٌ لا ينقطعُ

والجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ معطوفةٌ على ما سبقَتها منْ جملةِ نفيِ التّخفيفِ منْ عذابِهم؛ فزادَ هنا عدمَ الإمهالِ والإنظارِ، بلْ هم في عذابٍ قائمٍ دائمٍ[3].

تقديمُ المسندِ إليهِ في قولِه: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾:

عدمُ الإمهالِ ثابتٌ لهم متحقّقٌ بدلالةِ الجملةِ الاسمية

وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ قدّمَ المسندَ إليه ﴿هُمۡ﴾ على المسندِ لتحقيقِ الجملةِ الاسميةِ الدّالةِ على الثّبوتِ والدّوامِ؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 246.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 11/ 357.

(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 171.

فإنّ عدمَ إمهالِهم متحقّقٌ ثابتٌ[1]؛ بدلالةِ الجملةِ الاسميةِ الدّالةِ على الثّبوتِ.

فائدةُ زيادةِ الضّميرِ المنفصلِ ﴿هُمۡ﴾:

زيادةٌ في تأكيدِ أنّ إمهالَ الكافرينَ ممتنعٌ

وفائدةُ زيادةِ الضّميرِ المنفصلِ ﴿هُمۡ﴾ معَ جوازِ الاستغناءِ عنهُ -لأنّهُ إظهارٌ في سياقِ الإضمارِ- هوَ التّوكيدُ في أنَّ إمهالَ الكافرينَ وتأخيرَ عذابِهم ممتنعٌ[2].

إيثار التعبير بلفظ ﴿يُنظَرُونَ﴾:

الإنظارُ لأجلٍ، والإمهالُ مبهمٌ، فنفيُ إنظارِ الكافرينَ تيئيسٌ لهم على أبلغِ وجهٍ

وكانَ منْ أمرِ الكافرينَ الّذينَ وقعَ عليهِم العذابُ أن كانَ عذابُهُم منْ غيرِ تخفيفٍ ولا إنظارٍ بقولهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾، فاستعملَ فعلَ الإنظارِ، ولم يستعملْ فعلَ الإمهالِ؛ لأنَّ "الإنظارَ مقرونٌ بمقدارِ ما يقعُ فيهِ النّظرُ، والإمهالَ مبهمٌ"[3]، وآيةُ ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزمل: 11] فلّما كانَ الإمهالُ مبهمًا في أصلِ وضعهِ اللّغويّ، وكي لا يتوهّموا أنّ إمهالَهُم مطلقٌ وصفهُ بالقليلِ، وهوَ فرقٌ جوهري بينَ الإنظارِ والإمهالِ، فجاءَ بالإنظارِ زيادةً في تيئيسهِم، فإنّهم لنْ يُنظروا ولوْ كانَ الإنظارُ لأجلٍ محددٍ معلومٍ.

سرُّ استعمالِ المضارعِ المبنيّ للمفعولِ:

تحقيرًا لهم واستصغارًا لشأنِهم وعدمِ الاكتراثِ بهِم

واستعملَ صيغةَ المبنيِّ للمفعولِ أو المجهولِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى تحقيرهِم واستصغارِ شأنهِم، وهوانهِم عندَ اللّهِ، وأنّهم المبعَدونَ من رضاه، والازدراءِ بشأنهِم، وعدمِ الاكتراثِ بهِم؛ فهذا استحقاقُهُم بموجبِ ظلمهِم وإشراكهِم.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 443.

(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 171.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.

فائدةُ حذفِ المفعولِ في قولِه: ﴿يُنظَرُونَ﴾:

وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾؛ استعملَ فعلَ الإنظارِ مطلقًا مِنْ أيِّ تقييدٍ بأنْ يقالَ: ينظرونَ يومًا مثلًا؛ لإفادةِ أنَّ عدمَ الإنظارِ حاصلٌ على وجهٍ دائمٍ مستمرٍّ؛ ليكونَ أدخلَ في زيادةِ عذابِهم وحسرتِهم وخلودِهم في العذابِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزخرف: 77].

عدمُ الإنظارِ حاصلٌ على وجهٍ دائمٍ زيادةً في عذابِهم وحسرتِهم

سرُّ تقديمِ حالِ الظّالمينَ في الآيةِ:

وقدّمَ حالَ الظّالمينَ في قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ على حالِ المشركينَ في قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ من بابِ تقديمِ العامّ على الخاصّ؛ فإنّ الظّلمَ معنى عامّ وهو وضعُ الشّيءِ في غيرِ موضعِه، ويجمعُ تحتَه صورًا كثيرةً كظلمِهم أنفسَهُم بكفرِهم وعنادِهم، وظلمِهم عقولَهُم وإدراكَهُم، وظلمِهم المؤمنينَ بإيذائِهم، وظلمِهم الرّسولَ باستهزائِهم به[1]، أمّا الآيةُ التّاليةُ فسياقُها في حالِ المشركينَ، في تَبَرُّؤ المعبودينَ ممّن أشركَ مع الحقّ سبحانَهُ، فوَصَفَهُم بالإشراكِ خاصّ، وهو نوعٌ من الظّلمِ؛ فجاءَ بالخاصّ هنا بعدَ العامّ في الحالِ السّابقةِ[2].

تقديمُ العامّ على الخاصّ؛ إذ الظّلمُ متنوعٌ والشّركُ اتخاذُ غيرِ اللهِ معبودًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4242 - 4243.
(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾ [النّحل: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ازديادُ المشركين حيرةً وارتباكًا حين معاينة معبوداتهم

عندَما ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ ما كانَ منْ أمرِ هؤلاءِ في البعثِ والجزاءِ، وأمرِ شركائهِم، عطفَ عليهِ رؤيةَ المشركينَ شركاءهُم، ووصفوهُمُ الوصفَ المناسبَ باتّخاذهِم أربابًا منْ دونِ اللّهِ، فهلّا أكرمتَنا لأجلهِم؛ وذلكَ جريًا منهم على منهجِ الغباوةِ والجهلِ الّذي كانَ منهم في الدّنيا، فما كانَ منَ الشّركاءِ إلّا تكذيبهُم، والتّخلّي عنهُم مرةً أخرى، وإنكارُ استحقاقهِم العبادةَ، أو أن يكونوا لهم من الشّافعين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَدۡعُواْ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَت الرَّغْبَةُ إلى اللّهِ ﷻ دُعاءً، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، دُعاءً ودَعْوَةً، أيْ: نادَيْتُهُ[2]، والدَّعْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ مِن الدُّعاءِ[3]، ويأتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقالُ: دَعَوْتُ اللّهَ، أَدْعوهُ، أيْ: سَأَلْتُهُ[4]، والدُّعاءُ أيضًا: العِبادةُ والضَّراعة[5]، ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيهِ، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِه، أيْ: حَثَّهُم ورَغَّبَهُم[6]، والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: العِبادة والضَّراعة.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 230 - 231.
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (دعا - دعو).
(3) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (دعو).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/ 3644.
(6) الأمير، التّحبير لإيضاح معاني التّيسير: 4/ 5.

2) ﴿مِن دُونِكَۖ﴾: (دون): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الـمُداناةِ والـمُقارَبَةِ. يُقالُ هذا دونَ ذاكَ، أي: هو أقرَبُ مِنهُ، ويُقالُ للقاصِرِ عَنِ الشَّيءِ: دونٌ، قال بعضهم: هو مقلوب من الدُّنوِّ، والأدون: الدّنيء[1]، ولـ(دون) تسعةُ معانٍ: دون بِمَعْنى قبل، كقولك: دونَ النَّهرِ قِتالٌ، ودون بِمَعْنى: وراء، كَقَوْلِك: هَذا أمير على ما دون جَيْحونَ، أي: على ما وراءَه، وبمعنى الوعيدُ، كَقَوْلِك: دونَك صِراعي، وفي الأمر: دونَك الدِّرهَم، أي: خُذْهُ، وفي الإغراء: دونَك زيدًا، أي: الزَم زيدًا في حفظه، ودونَ بِمَعْنى تَحت، كَقَوْلِك: دون قَدَمِكَ خَدُّ عَدوِّك، أي: تَحت قَدَمِكَ، ودون بِمَعْنى: فوق، كَقَوْلِك: إنَّ فلانًا لَشَريفٌ، فيجيبُ آخرُ فيقولُ: ودونَ ذَلِك، أي: فوق ذَلِك، وكذلكَ الدّون يكون صفةً ويكون نعتًا على هذا الـمَعْنى، ولا يُشْتَقُّ مِنْهُ فعل، ويُقالُ: هذا دون ذَلِك في التَّقْريب والتَّحقير، فالتَّحقيرُ مِنْهُ مَرْفوع، والتَّقريب مَنْصوب لِأنَّهُ صفته، ويُقال: دونَك زَيدٌ في الـمَنزلَة والقُرْبِ والبُعْدِ[2]، والمقصود بدون في الآية: نقيضُ فوقَ، وهو تَقْصيرٌ عَنِ الغايَةِ.

3) ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾: أَصْلُ (لقي): يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[3]، واللَّقي: الشَّيْءُ الـمُلْقى المَنْبوذ[4]، والإِلْقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[5]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلام ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64][6]، والـمُراد بالإلقاء في الآية: الإخْبارُ الصَّريحُ على وجهِ الاستعارةِ[7].

المَعْنى الإجماليُّ:

تبيِّنُ الآيةُ حال الَّذين ظلموا النّاس وظلموا أنفُسَهم وعقولَهم معَ مَن أشركوهم مع اللّه في العبادة، أو عبدوهم من دون اللّه، فما هي حالهم من هذه الأنداد الَّتي اتَّخذوها آلهة من دون اللّه، أجاب اللّه تعالى عن ذلك، فقال: وإذا رأى المُشرِكونَ يومَ القيامةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (دون).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دون).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقى).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 123.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.

مَعبوداتِهم التي جَعَلوها شُرَكاءَ للّه في العبادةِ، قالوا: ربَّنا هؤلاءِ الذين كنّا نَعبُدُهم مِن دونِك، ونَجعَلُهم شُرَكاءَ لك، فقال للمُشرِكينَ شُرَكاؤُهم الذين كانوا يَعبُدونَهم: إنَّكم لكاذِبونَ في ادِّعائِكم أنَّنا آلِهةٌ، وما أمَرْناكم بعِبادتِنا(1).

تبرُّؤُ الآلهة المزعومة من عبادة عابديها

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى فضيحةِ الكفار مع آلهتهم يومَ القيامة، فيُنطقُ اللهُ الأصنام؛ بتكذيبِ مَن عبدها بأنها لم تكن آلهةً، ولا أمرتْهم بعبادتها، وإلى براءةِ الشياطين والأصنام الذين أشركهم الناسُ في عبادة الله من المشركين بهم والتبرؤ منهم وتكذيبهم(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ الجملةِ في قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَا﴾:

وقولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ معطوفٌ على ما سبقَ من قوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾؛ وفيه تسليةٌ أخرى للرّسولِ ﷺ، وهي من بقيّةِ وعيدِه تعالى المشركينَ(3)؛ فالَّذينَ أشْرَكُوا هم الَّذينَ ظَلَمُوا (الَّذينَ يَرَوْنَ العذابَ)، وهم الَّذينَ كَفَرُوا والَّذينَ لا يُؤْذَنُ لَهم، وإجْراءُ هَذِهِ الصِّلاتِ الثَّلاثِ عَلَيْهِمْ لِزيادَةِ التَّسْجيلِ عليهم بأنواعِ إجْرامِهِم الرّاجِعَةِ إلى تَكْذيبِ ما دَعاهُمُ اللَّهُ إلَيْهِ؛ ولذلكَ أظهرهُ، والمقامُ مقامُ إضمارٍ(4).

وعيدٌ للمشركينَ وإجراءُ هذهِ الصّلاتِ عليهم لزيادةِ التّسجيل عليهم بأنواعِ إجرامِهم

لطيفةُ استعمالِ لفظَي ﴿وَإِذَا رَءَا﴾ وتكرارِهما:

ولَمّا كانت رؤيةُ العذابِ في الآيةِ السّابقةِ عذابًا نفسيًا ممهِّدًا للعذابِ الجسديّ؛ كرّرهُ هنا لنوعٍ آخرَ من العذابِ، فإنَّ الحقَّ سبحانهُ يبعثُ معبوداتِهم من الأصنامِ، والقصدُ مِنْ إعادتِها أنْ

رؤيتهُم الأصنامَ بسربالِ الذّلّةِ والحقارةِ ممّا يورثُهم مزيدًا من الغمِّ والحسرة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 328، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 163، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 593، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4243.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 163، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 149.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 256.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 246.

يشاهدَها المشركونَ وهيَ بسربالِ الذّلّةِ والحقارةِ، معَ تكذيبِ منْ كانوا يشركونها؛ وذلكَ كلُّهُ ممّا يوجبُ مزيدًا من الغُصّةِ والحسرةِ في نفوسِهِم[1]، فضلًا عمّا ينتظرهُم من عذابٍ جسديّ.

نوعُ الرّؤيةِ هنا ومعناها:

الرؤيةُ العينيةُ المباشرةُ أزيدُ في التّحسّرِ والعذابِ

والرّؤيةُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ بصريةٌ بموجبِ تعدّي الفعلِ ﴿رَءَا﴾ إلى مفعولٍ واحدٍ هو قولُه: ﴿شُرَكَآءَهُمۡ﴾؛ فالرّؤيةُ عينيةٌ[2]، وفي ذلكَ توكيدُ خسرانِهم بشركِهم، معَ مزيدِ تحسّرٍ وعذابٍ.

فائدةُ التّعبيرِ باسمِ الموصولِ:

الموصولُ يفيدُ علّيّةَ الصّلةِ للحكمِ

وعبّرَ عن النّاكبينَ عنْ طريقِ الحقِّ - وهم المشركونَ - بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾، فجعلَ فعلَ الإشراكِ صلةً، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ إيرادَ الموصولِ يفيدُ علّيّةَ الصّلةِ للحكمِ، وهوَ الإشراكُ؛ فكانَ مصيرُهُم رؤيةَ العذابِ ومباشرَتَهُ.

سرُّ استعمالِ الماضي ﴿أَشۡرَكُواْ﴾:

تحقُّقُ وقوعِ الإشراكِ منهم وعراقَتُهم فيهِ

وجاءَ التّعبيرُ القرآني بصيغةِ الماضي ﴿أَشۡرَكُواْ﴾؛ للإيذانِ بأنّ الإشراكَ والكفرَ قد حصلَ منهُم فعلًا، وأنّهم عريقونَ فيهِ؛ فكانَ سببًا لرؤيتِهم العذابَ، والارتكاسِ فيهِ.

فائدةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ في: ﴿أَشۡرَكُواْ﴾:

التّعبيرُ بالإشراكِ بعدَ الظّلمِ توكيدٌ لذلكَ المعنى

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾، وضعٌ للظّاهرِ موضعَ المضمرِ؛ لأنّ ما سبقَ جارٍ في سياقِ الّذين ظلموا، وهو عامٌّ في أنواعِ الظّلمِ، ثمّ قالَ: ﴿أَشۡرَكُواْ﴾؛ لأنّ الشّركَ نوعٌ من الظّلمِ، ولمّا أرادَ تأكيدَ المعنى[3] أوردهُ ظاهرًا، معَ جوازِ الاكتفاءِ بالضّميرِ العائدِ على ما سبقَ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 256.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 203.
(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.

الوقوعُ على المعنى المرادِ مع مناسبةِ اللّفظِ لقرينهِ تحليةً للكلامِ

علةُ الجناسِ في قولِه: ﴿أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾:

وفي قولِه تعالى: ﴿أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ أسلوبٌ يدعى: "جناسُ الاشتقاقِ"[1]، وهوَ من التّعبيراتِ اللّطيفةِ؛ لإيرادِ المعنى المطلوب، وهوَ بيانُ صفتهم في اتّخاذهم غيرَ اللّهِ معبودًا، ولتحليةِ الكلامِ في الوقتِ نفسهِ فجاءَ بـ"أشركوا ليناسبَ شركاءهُم، ولكونِ الشّركِ ظلمًا عظيمًا عبّرَ فيما قبلَهُ بالذينَ ظلموا"[2]، ففيهِ الوقوعُ على المعنى المرادِ وفيه مناسبةُ اللّفظِ لقرينهِ.

اعترافًا عن غيرِ إرادةٍ فضحًا لهُم وتنصّلًا وإلقاءَ التّبعةِ على المعبوداتِ

فائدةُ الإخبارِ بقولِهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا﴾:

وقولهُم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ إمّا مِن قَبيلِ الاعْتِرافِ عَنْ غَيْرِ إرادَةٍ؛ فَضْحًا لَهم، وإمّا مِن قَبيلِ التَّنَصُّلِ وإلْقاءِ التَّبِعَةِ عَلى المَعْبُوداتِ، كَأنَّهم يَقُولُونَ: هَؤُلاءِ أغْرَوْنا بِعِبادَتِهِمْ[3].

حذفُ حرفِ النداءِ لتعظيمِ اللهِ وتوقيرِهِ ظنًّا منهُم أنّ ذلكَ يشفعُ لهُم

بلاغةُ الحذفِ في قولِه: ﴿رَبَّنَا﴾:

وفي قولِهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ أوردوا نداءَ ربّهم محذوفًا منهُ أداةُ النّداءِ (يا)، وهوَ ممّا يكثرُ في الأسلوبِ القرآني؛ لما فيهِ منْ معنى التّعظيمِ والتّنزيهِ؛ فإنَّ النّداءَ فيهِ لمحٌ منْ معنى الأمرِ؛ فهوَ بمعنى (أدعو) فحذفُ (يا) زوالٌ لمعنى الأمرِ تعظيمًا وإجلالًا[4]، ولَمّا كانَ هؤلاءِ النَّفَرُ في موقفِ ضعفٍ بتربّصِ عذابهم؛ كانَ ذلكَ الحذفُ كالتّمهيدِ بتعظيمهِ وتوقيرهِ تعالى ظنًّا منهم أنَّ ذلكَ شافعٌ لهم.

يا مَنْ أحسنَ إلينا وربّانا ثمّ أشركنا غيرهُ في عبادتهِ

فائدةُ التّعبيرِ بالرّبّ في ﴿رَبَّنَا﴾:

وآثرَ التّعبيرِ بلفظِ الرّبّ في قولهِ: ﴿رَبَّنَا﴾ دونَ غيرهِ من أسمائهِ

---

(1) ويسمّى الاقتضاب أيضًا، ومنهم من عدّه أصلًا برأسه، ومنهم من عدّه أصلًا في الجناس، بأن يأتي بألفاظ من أصل واحد في اللّغة كقوله تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276]، فـ(الرّبا) و(يربي) متجانسان من اشتقاق واحد. يُنظر: النّويري، نهاية الأرب: 7/ 95.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 357.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 247.

(4) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 1/ 285.

تعالى وصفاتهِ؛ للدّلالةِ على الإحسانِ والتّربيةِ[1]، وفيهِ اعترافٌ بأنّهُ الخالقُ المربّي القائمُ على الخلقِ، وفي الوقتِ نفسهِ ففيهِ تعريضٌ بهم، فمعَ إحسانهِ إليهم أشركوا معهُ غيرهُ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ في قولهِ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾:

جريًا على اعتقادِهم إلهيّةَ الأصنامِ الّتي يعبدونَ

وفي قولهِم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ تعبيرٌ عن الأصنام بالمجموعِ من اسمِ الإشارةِ الموضوعِ للعقلاءِ، ودلالةُ ذلكَ عندهُم أنّهم أجرَوها على اعتقاداتِهم وظنونِهم إلهيةَ الأصنامِ والأوثانِ الّتي يعبدونَها[2].

فائدةُ إضافةِ (شركاء) إلى ضميرِ المتكلّمينَ:

تعبيرًا عن آلهتِهم الّتي جعلوها شركاءَ فإضافتُها صحّت بأدنى ملابسةٍ

وفي إضافةِ الشّركاءِ إلى ضميرِ المتكلّمينَ في قولهِم: ﴿شُرَكَآؤُنَا﴾ إضافةٌ إلى أنفسِهم "منْ حيثُ هم جعلوهُم شركاءَ، وهذا كما يصفُ رجلٌ آخرَ بأنّهُ خيرٌ، فتقولُ أنتَ ما فعلَ خيرُكَ؛ فأضفتهُ إليهِ منْ حيثُ وصْفُهُ هوَ بتلكَ الصّفةِ"[3]، يعني آلهتَهُم الّتي جعلوها شركاءَ فماذا أغنت عنهم؟ فإضافتُها إلى ضميرِ المتكلّمينَ؛ لأنّ الإضافة تصحُّ بأدنى ملابسةٍ لفظيةٍ أوْ معنويةٍ.

المرادُ بالشُّركاءِ الأصنامُ أي الشّركاءُ للّهِ حسبَ اعتقادهم

وإشراكُهُم الأصنامَ هنا مقصودٌ منهُ الاشراكُ في صفةِ الإلهيةِ معَ الحقِّ سبحانهُ، فالمتعيِّنُ أنَّ المرادَ بالشّركاءِ هم الأصنامُ والأوثانُ، أيْ: الشّركاءُ للّهِ بحسبِ اعتقادِهم؛ فعلى هذا الاعتبارِ أضيفَ لفظُ الشّركاءِ إلى ضميرِ الظّالمينَ[4].

تهكّمًا من شراكتِهم المزعومةِ الّتي لم تفدهم إلّا ضرًّا وإيرادًا المهالكَ

وفي قولهِم ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ "أضافوهُم إلى أنفسِهم؛ لأنّهُ لا حقيقةَ لشركتِهم سوى تسميتِهم لها الموجبِ لضرّهِم"[5]، فالإضافة

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 247.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 414.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 247.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 230.

هنا قصدًا إلى التّهكّم، أي: ماذا فعلَ شركاؤكُم المزعومونَ سوى ضرّكم وإيرادكُم المهالكَ.

دلالةُ وصفِ شركائهِم بالموصولِ وصلتهِ:

التّعبيرُ بالاسم الموصولِ وصلتهِ في قولهِ: ﴿شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ﴾ دالٌّ على العقلاءِ؛ لأنَّ المشركينَ اعتقدوا أنّهم عقلاءُ، أوْ لأنَّ فيهم منْ ينتمي إلى جنسِ العقلاءِ؛ فأُطلقَ عليهم ذلكَ الوصفُ تغليبًا[1].

اعتقادُ المشركينَ أنّهم عقلاءُ أوْ عبّرَ عنهم تغليبًا

فائدةُ لفظِ ﴿كُنَّا﴾:

وفي قولهِ: ﴿كُنَّا نَدۡعُواْ﴾، استعملَ فعلَ الكونِ في دعاءِ شركائهِم منْ دونِ اللّهِ تعالى؛ لما يشيرُ فعلُ الكونِ إلى جبلّتهِم وطباعهِم الّتي كانوا عليها؛ فهوَ دالٌّ على استمرارهِم في الشّركِ، وعلى عراقتهِم فيهِ حتّى نالوا نصيبهُم من العذابِ في الآخرةِ بمدعاةِ الاستمرارِ في كفرهِم.

الإشارةُ إلى جِبلّتِهم وطباعِهم وعراقتِهم في الكفرِ والإشراكِ

إيثارُ لفظِ ﴿نَدۡعُواْ﴾:

وآثرَ التّعبيرَ بفعلِ الدّعاءِ في قولهِ: ﴿نَدۡعُواْ﴾، وهوَ دالٌّ على العبادةِ، أي: نعبدُ؛ لأنّ الدّعاءَ من أبرزِ أنواعِ العبادةِ[2]، وجُعلَ الدّعاءُ هو العبادةُ لقولهِ ﷺ: "الدُّعاءُ هوَ العبادةُ" ثُمَّ قرَأَ ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60][3]، وتعبيرهُم بالدّعاءِ بمعنى العبادة دالٌّ على إقرارهِم واعترافهِم بذنبهِم بأنَّ عبادةَ غيرِ اللّهِ كانت منهم عن عمدٍ وإصرارٍ.

الدعاءُ هو العبادةُ، وعبادتُهم لغيرِ اللهِ كانت عن إصرارٍ وعنادٍ

فائدةُ القيدِ بـ ﴿مِن دُونِكَۖ﴾:

وفي التّقييدِ بالجارّ والمجرورِ في قولهِ: ﴿نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ فائدةٌ،

التعلُّقُ بمعبوداتِهم بجهلِهم وغباوتِهم

(1) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.

(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.

(3) رواه الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (18391)، وأخرجه الترمذي، السنن، الحديث رقم: (3247)، والنسائي، السنن الكبرى، الحديث رقم: (11464)، وابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (3828)، وهو صحيح.

فإنّه لَمّا كانتِ المراتبُ كثيرةً دونَ رتبةِ اللّهِ تعالى؛ لأنّ عُلوَّهُ مطلقٌ غيرُ منحصرٍ، فكأنّما أرادوا القولَ إنَّ هؤلاءِ الشّركاءِ كانوا الأقربَ رتبةً منهُ تعالى، فهلّا أكرمتَنا لأجلهِم؟ جريًا على منهجهِم وطريقهِم الدّنيويِّ في الجهلِ والغباوةِ(1).

دلالةُ الفاءِ في قولهِ: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾:

تعقيبًا ومبادرةً بتكذيبِ أنّ الأصنامَ شركاءُ للهِ

والفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ دالةٌ على التّعقيبِ؛ مبادرةً بتكذيبِ ما وردَ في مقالهِم، فقد أنطقَ الحقُّ سبحانهُ تلك الأوثانَ لتكذّبَ ما اشتملَ عليه مقالهُم من أنّ الأصنامَ شركاءُ للّهِ، أو أنّ عبادتهُم كانت بإغراءٍ منها، فكانَ أن فُضحوا، وأصبحت حسرةً عليهم(2).

سرُّ استعمالِ الفعل (ألقوا):

تصويرُ سرعةِ مبادرة معبوداتهم بتكذيبهم

والتّعبيرُ بفعلِ الإلقاءِ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾، أي: الشّركاءُ إلى المشركينَ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾، مبادرينَ بهِ على وجهِ السّرعةِ، كأنّهُ شيءٌ ثقيلٌ أسرعوا بإلقائهِ من عَلٍ(3).

بيانُ نطقِ الأصنامِ على غيرِ المتعارفِ كسقوطِ القولِ منْ أفواهِها

وقدْ يردُ سؤالٌ مفادهُ إنكارُ أنْ تكونَ الأصنامُ ناطقةً، والجوابُ عنْ ذلكَ أنَّ نطقَها جارٍ على خلافِ العرفِ والعادةِ؛ فعبّرَ عنْ ذلكَ بالإلقاءِ المُؤذِنِ بأنَّ الحقَّ سبحانهُ أجرى القولَ على أفواهِ الأصنامِ منْ غيرِ نطقٍ منها حقيقةً؛ فكأنَّ القولَ قدْ سقطَ منها(4).

دلالةُ إسنادِ فعلِ الإلقاءِ:

إسنادُ الإلقاءِ إلى ضميرِ الشّركاءِ مجازٌ عقليٌّ لأنّها مَنْ أظهرَ القولَ

وفي قولهِ تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أسندَ فعلَ الإلقاءِ إلى ضميرِ الشّركاءِ، وهم الأصنامُ والأوثانُ، وهو إسنادٌ مجازيّ(5)؛ لأنّ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 247.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 231.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.

القولَ صادرٌ منها، وإن كانَ على غيرِ الحقيقةِ فإنّهم لا ينطقونَ، فإنَّ الشّركاءَ كانت جمادًا مواتًا لا علمَ لها بعبادةِ عابديها[1].

دلالة التجانس بين ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾ و﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

انسجامُ الجَرْسِ للدلالة على تَعرية حقيقتهم

نلحظ اشـــتراك لفظتي ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾ و﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ في أكثر أحرفهما، مع اختلاف جذريهما الاشـــتقاقي، فالأول فعل ماضٍ من الإلقاء، والآخر اســـم مصدر من القول، وهذا من الجناســـ المذيَّل[2]، فيه تتجانس الأصوات، وينسجم جَرْسُها، وتتماثل ذواتُها وصفاتها، ولم يأتِ ذلك إلا لحكْمة، ولم يردْ إلا لفائدة، وذلك ليبين فضيحتهم يوم القيامة، وأنّ كلّ شـــيء ينطق مطابقًا الحقيقةَ بإذن اللّه تعالى من غير إرادة من المخلوق.

علةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

تفسيرُ ما تقرَّر بأنَّ عبادتَكم مجردُ أسطورةٍ من إنشائِكم وحدكُم

ولّما كانت جملةُ ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ تفسيريةً لما ألقيَ من القولِ، فصلَها عنْ سابقتِها منْ غيرِ عطفٍ؛ لتمامِ الاتّصالِ الّذي يوجبُ فصلَ الجملتينِ، أيْ: كذّبَ الشّركاءُ المشركينَ بهذهِ الجملة، فلسنا شركاءكُم، بلْ ما تدعونَ مجردُ أسطورةٍ منْ إنشائِكم وحدكُم لا شأنَ لنا فيها[3].

نكتةُ تعدُّدِ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

مقابلةً حين زادت المعبوداتُ دَفْعَ التّهمةِ عنْ نفسِها

وأكّدَ جملةَ ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ بعددٍ من المؤكّدات، وهيَ: (إنَّ) واللّامُ الدّاخلةُ على الخبرِ، والجملةُ الاسميةُ[4]، والمعنى: أنَّ الآلهةَ ألقت إليهم القولَ تكذيبًا لمنْ عبدَها بأنّها لم تكنْ آلهةً[5]، ولمّا أرادت

---

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 13/ 167.

(2) الجناس المذيَّل هو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفًا في آخره، فصار له كالذيل كقول أبي تمام:

يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ *** تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

ينظر: ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع، ص: 22.

(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4244.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 163.

تلكَ الأصنامُ زيادةَ دفعِ التّهمةِ عنْ نفسِها، وأنّها لم تُغْرِ هؤلاءِ بإشراكِها زادَ التّوكيداتِ في الجملة.

حرصًا على تكذيبِ الشّركاءِ على أتمّ وجهٍ وأبلغه

وفي توكيدِ جملةِ ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ بغيرِ ما مؤكّدٍ مرمى بعيدٌ، وهو حرصُ المعبودين على إثباتِ صفةِ تكذيبِ الشّركاءِ على أتمّ وجهٍ، وأبلغِ تأكيدٍ[1]؛ إفحامًا للمشركين إفحامًا قاطعًا.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ في الآية:

هنا المقامُ لتكذيب الآلهةِ مَن عبدوها، وفي الكهفِ الأمرُ متعلّقٌ بالشّفاعةِ

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ٥٢﴾ [الكهف: 52].

للسّائلِ أنْ يسألَ عنْ وجهِ الجمعِ بينَ إثباتِ النّطقِ للأصنامِ في الآيةِ الأولى، ونفيِها عنها في الآيةِ الثّانيةِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ آيةَ النّحلِ قد أنطقَ الحقُّ سبحانهُ الأوثانَ لتكذيبِ المشركينَ في دعوى عبادتِهم، أمّا آيةُ الكهفِ فإنَّ المرادَ بمناداةِ مَن هم شركاءُ للهِ في العبادةِ النُّصرةُ والشّفاعةُ لهم، أوْ لدفعِ العذابِ عنهم، فلم يجيبوهُم، فالأمرُ متعلّقٌ بالنُّصرةِ والشّفاعةِ ودفعِ العذابِ، وهنا بالتّكذيبِ؛ فلا تناقضَ بينَ المقامين في المثبَتِ والمنفي[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدّعاء والعبادة:

العبادةُ أشملُ والدّعاءُ أظهرُ أنواعِ العبادةِ

وعبّرَ عن عبادةِ الشّركاءِ في الدّنيا بقولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾، فجاءَ بفعلِ الدّعاءِ، ومعناهُ في لغةِ العربِ النّداءُ، إلّا أنَّ الدّعاءَ يكونُ برفعِ الصّوتِ وخفضِه، فقد يدعو المرءُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 444.

(2) الرّازي، أنموذج جليل، ص: 301، والأنصاري، فتح الرحمن: 1/ 314 - 315.

بعيدًا، وقدْ يدعو اللّهَ في نفسهِ[1]، أمّا العبادةُ فأشملُ من الدّعاءِ؛ فإنَّ الدّعاءَ مستعملٌ في العبادةِ، فالتّعبيرُ في الآيةِ أنّهم كانوا يتوجّهونَ إليهم، ويشركونهُم، والدّعاءُ أظهرُ أنواعِ العبادةِ؛ ففيهِ تَوَجُّهٌ جسديٌّ وقلبيٌّ إلى المعبودِ، فكانَ اختيارُ فعلِ الدُّعاءِ إصْرارًا منهم على إشراكهِم.

الإلقاء والرّمي والطَّرح:

وفي حديثِ الأصنامِ أو الأوثانِ لشركائهِم وتكذيبهِم قولهُم: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ جاءَ بفعلِ الإلقاءِ المقترنِ بالقولِ، وهوَ بمعنى الطّرحِ، ثمَّ أصبحَ معروفًا أنْ يكونَ الإلقاءُ لكلِّ طرحٍ مأخوذًا من "أنّ قومًا منَ العربِ كانوا إذا أتَوا البيتَ للطّوافِ قالوا: لا نطوفُ في ثيابٍ عصينا اللّه فيها، فيلقونها"[2] ولّما كانَ سياقُ الجملةِ في الكذبِ أوردَ فعلَ الإلقاءِ مؤْثرًا إياهُ على مرادفهِ: الطّرحِ؛ فإنّهُ يدلُّ على جنسِ الفعلِ[3]، فهوَ معنى عامٌّ، أمّا الرّميُ؛ فمستعملٌ لما كانَ جنسًا من المادّةِ منْ حجارةٍ أوْ سهمٍ أوْ نحوهِ[4]، فكانَ الأليقُ والأنسبُ استعمالَ فعلِ الإلقاءِ الدّالِ على الذّنبِ والإثمِ والكذبِ.

الطّرحُ عامٌّ، والرّميُ للأجناسِ، والإلقاءُ لِما كانَ مقترنًا بالذَّنبِ والإثمِ والكذبِ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 534.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 530.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رمي).

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٨٧﴾

[النّحل: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يقينُ المشركين بمواقعة العذاب ألجأهم إلى الاستسلام

وبعدَما ألقَوا القولَ الكاذبَ إلى الشّركاءِ تبرئةً لأنفسِهم أرادوا تبرئةَ أنفسِهم أمامَ الحقِّ سبحانَهُ؛ فألقوا "الانقيادَ والاستسلامَ بما علمَ بِهِ الكفارُ أنهّم مِنْ جملةِ العبيدِ لا أمرَ لهم أصلًا"[1]، ولما كانوا أمامَ العذابِ، وأيقنوا أنهم مواقعوه لا محالةَ ولا منجاة لهم، فلم يبق إلّا أن يَستسلموا كارهين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّلَمَۖ﴾: معظم باب (سلم): مِنَ الصِّحَّةِ والعافيَةِ، فالسَّلامَةُ: أَنْ يَسْلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، ومن الباب: الإسلامُ: الانْقيادُ؛ لِأَنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإباءِ والامتِناعِ[2]، والإسْلامُ أيضًا: الاستِسلامُ لأمرِ اللّهِ والانقيادُ لطاعَته. يُقال: سَلَّمْنا لِلّهِ رَبِّنا، أي: اسْتَسْلَمْنا له وأسْلَمنا[3]، ومِنْ بابِ الإصْحابِ والانقيادِ: السَّلَمُ، الَّذي يُسَمَّى السَّلَفَ، والسَّلَم: الاستسلام، وسالمتُه: صالحتُه، والمقصود بالسَّلَم في الآية: الاِسْتِسْلامُ، أي: الطّاعةُ وتَرْكُ العِنادِ.

2) ﴿وَضَلَّ﴾: أصلُ (ضلّ): يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[4]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن، إذا غاب، وضلَّ الكافرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النّاسي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُهُ[5]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 231.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).

يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضِلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: الغيابُ، أيْ: غابَ عنهُم.

3) ﴿يَفۡتَرُونَ﴾: أصلُ الفَرْيِ: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر[1]، والفِرْيَةُ: الكَذِبُ، فرَى كَذِبًا فرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنزيلِ العَزيزِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: 38]؛ أي اخْتَلَقَهُ[2]، قال السَّجستاني: "الافتراء: العَظيم من الكَذِب. يُقال لمن عمل عملًا فبالغ فيه: إنَّه لَيَفْري الفَرْيَ، يَعْني: ليقطع الأمر العجيب"[3]، والمراد بالافتراءِ في الآية: الكذِبُ، وهو مُرادِفُ الاختِلاقِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

خاتمةُ أحوال الكافرين يوم الدّين خزيهم واستِسلامهم

ذكر سبحانه حالَ المشركين مع الأوثان يوم القيامة، واستسلامهم صاغرين بعد أن قامت عليهم الحجة وخاب أملهم في آلهتهم، وذلّوا وانقادوا خاضِعينَ لحُكم اللّه فيهم، وعَلِموا أنَّهم مُستَحِقّونَ للعذاب، وغابَ عنهم ما كانوا يَعبُدونَه في الدُّنيا، واضْمَحلَّ ما كانوا يَفترونَه مِن أنَّ آلهتَهم ستشفَعُ لهم، وتُقَرِّبُهم إلى اللّهِ زُلْفى، فليس لهم ناصرٌ ولا معينٌ[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى جزاء اللّه العادلِ يوم القيامة، وإلى انجلاء بصائر من كانت قلوبُهم في عَماية وضلالٍ، وإلى أنَّ بعضَ المخلوقين لا يكتشفُ ضعفَ عقلِه إلا يوم القيامة، بعد فوات الأوان؛ إذ يُدخلُ الحقُّ مستحقّي جهنَّمَ النارَ، وقد امتلأتْ قلوبُهم من مقت أنفسِهم بأنَّ اللّهَ لم يعاقبهم إلا بما كسبوا[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 103.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 329، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 163، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 593.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

براءةُ آلهتِهم الّتي عبدوها منهم، دعتهم للخضوعِ لحكمِ اللهِ فيهم

وقولُه تعالى: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ معطوفٌ على ما قبلهُ بعدَما كانَ من أمرهِم في الآيةِ السّابقةِ؛ إذ لم تغنِ عنهُم آلهتُهم التي كانوا يشركونَها في الدّنيا من دونِ اللّهِ، وتبرّأت منهم؛ فإنّهم استسلموا هنا، وأذعنوا لحكمِه[1].

تمثيلٌ بالمحاربِ إذا غُلِبَ وألقَى سلاحَهُ واستسلمَ

ولَمّا كانت الآيةُ السّابقةُ جاريةً في سياقِ المجادلةِ بينَ المشركينَ وشركائهِم، وانتهتْ إلى افتضاحِ أمرهِم، ففي عطفِ هذهِ الجملةِ هنا على ما سبقَ تمثيلٌ لحالهِم بحالِ المقاتلِ المغلوبِ؛ فليسَ لهُ بعدَ ذلكَ إلّا أنْ يتركَ العنادَ، ويلقيَ سلاحهُ بينَ يدي غالبهِ مستسلمًا مذعنًا مطيعًا[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في الجملةِ:

تشبيهُ إذعانِهم كإلقاءِ المحاربِ المهزومِ سلاحَهُ

وفي التّعبيرِ بفعلِ الإلقاءِ في قولِه: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ﴾ استعارةٌ مكنيةٌ تمثيليةٌ[3]؛ فبعدَ أن خذلتهُم آلهتُهُم الّتي كانوا يشركونَها، شبّهَ حالهُم بحالِ المحاربِ المنكسرِ المهزومِ الّذي يضعُ سلاحهُ[4] مستسلمًا صاغرًا بعدَ قيامِ الحجّةِ عليهِ؛ فخابَ أملهُ، وضلّ سعيهُ، وحقّت عليه الكلمةُ، وباءَ بغضبِ اللّهِ وسخطهِ[5].

علّةُ تكرارِ فعلِ الإلقاءِ:

المعنى للتأسيس؛ لاختلافِ فاعلِ الإلقاءِ بينَ الأصنامِ والمشركينَ

وظاهرُ فعلِ الإلقاءِ هنا تكريرٌ للفعلِ في الآيةِ السّابقةِ، والصوابُ خلافهُ؛ لأنَّ فاعلَ الإلقاءِ مختلفٌ في الموضعينِ[6]؛ فإنّه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 276.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.

(3) هي ما يسميه البلاغيون بالمجاز المرَّكب وهو اللفظ المركب المستعمل فيما شُبّه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل مع حذف المشبه به كونها مكنية، يُنظر: الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 200.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.

(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 666.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.

هناك عائدٌ على الأصنام ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾، وهنا راجعٌ إلى المشركينَ بقوله: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فالمعنى مختلفٌ هنا، وهو قائمٌ على التّأسيسِ لا التّوكيد(1).

نكتةُ تقديم إلقاءِ القولِ إلى شركائهِم:

تقديمٌ رتبيٌّ فليسَ بعدَ الافتضاحِ والكذبِ إلّا الاستسلامُ والانصياعُ

وتقديمُ إلقاءِ القولِ إلى شركائهِم في قولهِ تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ على إلقائهم السّلمَ إليهِ تعالى في قولهِ: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ من بابِ التّقديمِ الرّتبيّ؛ فإنَّ المشركينَ لمّا جادلوا عنْ أنفسهم في محاولةِ النّجاةِ "معَ كونهم يعلمونَ أنّ العذابَ واقعٌ بهم لا محالة، ولكنَّ الغريقَ يتعلّقُ بكلِّ ما تقعُ يدهُ عليهِ"(2)، كانَ الجوابُ بتكذيبهم وافتضاحهم على رؤوسِ الملأ؛ فلم يكنْ بعدَ ذلكَ منهم إلّا إلقاءُ الاستسلامِ والاعترافُ والخضوعُ، وانتظارُ المصيرِ ونهايةِ القصّةِ.

فائدةُ التّعبيرِ باسمِ الجلالةِ بدلًا من الرّبّ:

إلقاءُ المهابةِ والتعظيمِ في القلوبِ فهو الملكُ الأعلى

وآثرَ استعمالَ الاسمِ الجليلِ المعظّم بقولهِ تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بدلًا من لفظِ الرّبّ أو سواهُ؛ لإلقاءِ المهابةِ والتعظيمِ في القلوبِ؛ فهو الملكُ الأعلى، وبيدهِ كلّ شيءٍ؛ فخاطبوهُ بصفةِ العظمةِ والقوّةِ؛ فإنّ خطابهُ بصفةِ الرّبوبيةِ والإحسانِ إقرارٌ واعترافٌ منهم باستحقاقهم العذابَ لا العفوَ والغفرانَ؛ فلا يستحقُّ المشركُ بعدَ الإحسانِ إلّا سوءَ العاقبةِ.

لطيفةُ القيدِ بالظّرفِ في قولهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

انكشافُ حالِ المشركين، وزوالُ أوهامهم بالتّقوّي بآلهتهم

وقيّدَ إلقاءَ السّلمِ إليهِ تعالى بالظّرفِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مريدًا بهِ يومَ القيامةِ؛ إذ يستسلمونَ وينقادونَ انقيادَ العبيدِ، ومن لا أمرَ لهم

(1) التأسيس "إفادة معنى آخر لم يكن حاصلًا قبل" المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 155، ووردت عند الكثير عبارة "التأسيس خير من التوكيد" أو مضمونها، الأسنوي، الكوكب الدّري، ص: 403، والزركشي، البرهان: 3/ 11.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 223.

أصلًا حتّى خابَ قصدهُم، وفي التّقييدِ "بذلكَ اليوم لأنّهم كانوا في الدّنيا بتزيينِ الشّياطينِ لأمورهِم ونطقهِم على ألسنتهِم، بحيث يظنّ عابدوهُم أنّ لهم منعةً وبهم قوةً"[1].

تعريضًا بهم بعدمِ انقيادهِم لحكمِ اللهِ في الحياةِ الدّنيا

وفي التّقييدِ بالظّرفِ في قولهِ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ تعريضٌ بأولئكِ المشركينَ في أنّهم لم يكونوا منقادينَ لشرعِ اللّهِ وحكمهِ في الحياةِ الدّنيا[2]؛ فانقادوا واستسلموا له في هذا اليومِ مرغمينَ قسرًا وقهرًا[3]، وثمّةَ بونٌ شاسعٌ بينَ الانقيادين.

نكتةُ الحذفِ فيما أضيفَ إلى (إذْ):

الإيجازُ في حذف جملةِ رؤيةِ المشركينَ شركاءهُم ومخاطبتَهُم

وفي قولهِ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ حذفُ جملةٍ أضيفت إلى (إذ) والظّرفِ على تقديرِ: (يومَ إذ يرى المشركونَ شركاءهُم، ويحصلُ ما بينهم من المخاطبةِ)؛ فحذفت الجملةُ الفعليةُ، وعوِّضَ منها التّنوينُ[4] من بابِ الإيجازِ والاختصارِ.

إفلاتُ الوهمِ الكاذبِ الّذي تعلّقوا بهِ وملءُ اليأسُ قلوبَهُم

والحذفُ والتّعويضُ بالتّنوينِ دالٌّ على حالهِم فقد أفلتَ من المشركينَ ذلكَ الوهمُ الكاذبُ الّذي تعلّقوا به؛ فامتلأت قلوبهُم يأسًا؛ عندَها أسلموا أمرهُم للحقِّ سبحانهُ بعدَ أنْ تخلّتْ عنهم افتراءاتهُم الباطلةُ[5].

إيثارُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلسَّلَمَۖ﴾:

خلوصُ الانقيادِ لأمرِ اللهِ وحكمهِ بعدَ الإباءِ والاستكبارِ في الدّنيا

وفي قولهِ تعالى: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ استعملَ لفظَ ﴿ٱلسَّلَمَۖ﴾ دونَ غيرهِ؛ ومعناهُ خلوصِ الانقيادِ والاستسلام[6]، وهو مقيّدٌ بهذهِ الآيةِ، وهو أنّهم ألقَوا الاستسلامَ لأمرِ اللّهِ وحكمهِ النّافذِ، بعدَ أن أبَوا ورفضوا واستكبروا في الدّنيا، فأذعنوا هنا مجبرينَ ومقهورينَ.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 231.
(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 175.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 14/ 186.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم: 5/ 243.
(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 7/ 340.
(6) محمد محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 431.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾:

الجمع بين استسلام المشركين ويأسهم من النجاة وغياب شفعائهم المزعومين، وذلك حين كذبوهم وتبرؤوا منهم[1].

إيثارُ لفظِ الضّلالِ دونَ غيرِهِ:

غيابُ الشّفعاءِ الّذين كانوا يتقوَّونَ بهم وصاروا لا حقيقةَ لهُم

وإيثارُ لفظِ الضّلالِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾؛ لدلالتهِ على الغَيْبةِ، فالمعنى: غابَ عنهم افتراؤهُم، ومعنى هذهِ الغيبةِ غيبةُ موضوعِ الافتراءِ، وهو أنّ الشّفعاءَ الّذين كانوا يتقوَّون بهم باتوا لا حقيقةَ لهم، وغابوا غيبةً منقطعةً[2].

فائدة الجار والمجرور ﴿عَنۡهُم﴾:

بحثوا عن شفعائهم حتى يئسوا ورجعوا خائبين

تعلُّق الجار والمجرور ﴿عَنۡهُم﴾ بالفعل ﴿وَضَلَّ﴾ يدلُّ على شدّة حَيْرتهم، وعظيم خيبتهم، بعد بحثٍ عمّا ضاع منهم؛ إذ إنَّ شفعاءهم المزعومين، وما كانوا يفترونه قد غابوا عنهم، فانقطع أملهم، وخاب سعيهم، وفي تقديم الجار والمجرور على الفاعل ﴿مَّا﴾ وما بعدها يشير إلى أنّهم مقصودون بذواتهم بذلك الضلال، جزاءً وفاقًا.

معنى ﴿مَّا﴾ في ختام الآية:

العمومُ والإطلاقُ فلا حصرَ لما كانوا يفترونهُ من الأكاذيبِ

و﴿مَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ موصولٌ بمعنى (الّذي) يقعُ فاعلًا للفعلِ ضلّ[3]، أي: ضاعَ وغابَ عنهُم فلم يجدوهُ، والتّعبيرُ بـ﴿مَّا﴾ دالٌّ على العمومِ والإطلاقِ[4]، فإنّه أرادَ أن يعمّمَ، ويطلقَ ضروبًا لا حصرَ لها "في الدّنيا من ألوانِ الكذبِ والتُّرَّهاتِ كقولِهم: هؤلاءِ شفعاؤنا عندَ اللّهِ، وأنّهم ينجون من النّارِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 135.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4244.
(3) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 2/ 30.
(4) الموصولُ الاسميّ نوعانِ منهُ ما يدلُّ على النصِّ والتعيينِ وهوَ الذي والتي ونحوهما، ومنهُ ما يدلُّ على العمومِ والاشتراكِ وهوَ ما ومنْ ونحوهما، و(ما) في الآيةِ منَ الضربِ الثاني، يُنظر: ابن هشام، أوضح المسالك: 1/ 144.

بشفاعتِهِم، وأنّهم وسيلتهُم إلى اللّهِ، كلُّ ذلكَ ضلَّ، أي: غابَ عنهُم، ولم يعثروا منهُ على شيءٍ"[1].

فائدةُ استعمالِ ﴿كَانُواْ﴾:

الافتراءُ خلقٌ متأصّلٌ فيهم وهم مجبولونَ عليه

وعبّرَ بالفعلِ النّاقصِ الدّالِّ على الكينونةِ في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ فعلَ الافتراءِ الصّادرِ منهُم كانَ بجبلّاتِهم[2]، وما طُبعوا عليهِ، وأنّ الافتراءَ خلقٌ متأصّلٌ فيهِم.

سرُّ إيثارِ لفظِ الافتراءِ في فاصلةِ الآيةِ:

الافتراءُ ادّعاءُ الكذبِ والقطعُ بهِ، وليسَ كذبًا مجرَّدًا

في قولِه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ المقصودُ بالافتراءِ: اتخاذُ الشّركاءِ، فإنّ "عبادتهُم إيّاهُم في الدّنيا افتراءٌ علَى اللّهِ وهوَ الكذبُ"[3] فالافتراءُ ادّعاءُ الكذبِ والقطعُ بهِ، وليسَ مجردَ الكذبِ، والفرقُ بينهُ وبينَ الكذبِ أنّهُ مستعملٌ في التّعبيرِ عن الكذبِ، ولكنّهُ ليسَ الكذبَ الذي هو خلافُ الحقيقةِ[4].

دلالةُ لفظِ الافتراءِ بصيغةِ المضارعِ:

الاستمرارُ التّجدُّديُّ للدّلالةِ على الاستمرارِ في فعلِ الافتراءِ

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أوردَ الفعلَ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ، وهيَ صيغةٌ دالةٌ على الاستمرارِ التّجدّدي للدّلالةِ على الاستمرارِ والتّجدّدِ في فعلِ الافتراءِ، فمتى ما وُجدَ بنو الإنسانِ وُجدَ الافتراءُ منهم؛ فإنّه حكمٌ جارٍ في كلِّ زمانٍ.

بلاغةُ حذفِ المعمولِ في قولِهِ: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

الدّلالةُ على عمومِ صورِ الافتراءِ واتّساعِ أنواعِها

وحذفَ معمولَ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على عمومِ الافتراءِ، وكلِّ ما يقعُ عليهِ فعلُ الافتراءِ من "أنّ للّه شركاءَ وأنَّهُم ينصرونَهُم ويشفعونَ لَهم حينَ كذّبوهُم وتَبَرَّؤوا منهُم"[5]

(1) الجزائري، أيسر التّفاسير: 3/ 148.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 231.
(3) يحيى بن سلام، تفسير يحيى بن سلام: 1/ 82.
(4) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 175.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 581.

وغيرِ ذلكَ ممّا يدخلُ تحتَ فعلِ الافتراءِ، كما هوَ الشّأنُ في حذفِ المعمولاتِ؛ فإنَّ في حذفِها دلالةً على العمومِ والاتّساعِ.

وجهُ تقديمِ جملةِ إلقاءِ السّلم:

التنبيهُ على خضوعِهم لله، وبيانُ خرافةِ معتقداتِهم

وقدّمَ جملةَ ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ على جملةِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من بابِ التّنبيهِ على مصيرِهم بعدَ الاستسلامِ والخضوعِ والانقيادِ، ولكيّ ينهي لهم كلّ أملٍ؛ فختمَ ببيانِ خرافةِ معتقداتِهم، وانتفاءِ منْ يكونُ لهم نافعًا ومعينًا، وانقطاعِ أملِهم ورجائِهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّلم والاستسلام:

الاستسلامُ انقيادٌ باقتناعٍ، والسّلمُ انقيادٌ وخضوعٌ بالقهرِ

معنى الاستسلامِ من الإسلامِ وهو الانقيادُ لطاعتِه، والقَبولُ لأمرِ اللّهِ تَعالَى[2]، ولا يكونُ إلّا عن رغبةٍ واقتناعٍ، أمّا الواردُ في الآيةِ بقولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ فاستعملَ لفظَ السّلمَ لا الاستسلامَ؛ لأنّه وإن كانَ في المعنى بمعنى الاستسلامِ والمقادةِ، إلّا أنّه استسلامٌ مَعَ القهرِ والخضوعِ من غيرِ اختيارٍ منهم للعابدِ والمعبودِ وهم الشّركاءُ في الدّنيا وهو "الاستسلامُ والانقيادُ لحكمِ اللّهِ بعدَ الإباءِ والاستكبارِ في الدّنيا، فلم يكنْ لهم إذْ ذاكَ حيلةٌ ولا دفعٌ"[3].

الافتراء والكذب:

الكذبُ خلافُ الحقيقةِ، والافتراءُ اختلاقُ ما لا أصلَ لهُ والقطعُ بهِ

الكذبُ الإخبارُ عن الشّيءِ بخلافِ حقيقتِه مطلقًا، عمدًا أم خطأً، إلّا أنَّ الشّرعَ علّقَ الإثمَ على ما يقعُ منهُ عمدًا[4]، أمّا الافتراءُ فالأصلُ فيهِ الشّقُّ والقطعُ والفصلُ، وما كانَ في القرآنِ الكريمِ بمعنى اختلاقِ ما لا أصلَ له[5].

---

(1) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 175.
(2) الخليل، العين: (سلم).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 581.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (كذب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فري).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨﴾ [النّحل: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكرُ جَزاء الدّعاة إلى الكفر

بعد أن ذَكَرَ اللّهُ تعالى ما للمُشركين والكافرين مِنَ العذاب؛ أتبعَه ببيانِ العذابِ للدّعاة إلى الكفر والشّرك الّذين يمنعون النّاسَ مِن الإسلام، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَدُّواْ﴾: أصلُ الصّادِ والدّالِ يدُلُّ على الإعراضِ والعُدولِ، فالصَّدُّ: الإعراضُ، يُقالُ: صَدَّ يَصُدُّ، وهو مَيلٌ إلى أحَدِ الجانِبَين[2]، وصَدَّهُ عَنِ الأمرِ يَصُدُّه صَدًّا: مَنَعَهُ وصَرَفَهُ عَنْهُ، قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [النّمل: 43][3]، والصَّدّانِ: جانِبا الوادي، الواحِدُ صَدٌّ، وهو القياسُ؛ لأنَّ الجانِبَ مائِلٌ لا مَحالَةَ[4]، والصَّديدُ: ما حال بين اللَّحم والجِلدِ من القَيحِ، وضُرِبَ مثلًا لِمطْعم أهلِ النّار، قال تعالى: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: 16 - 17][5]، والصَّدُّ: الهِجرانُ، والمقصودُ بالصَّدِّ في الآية: الإعراضُ عنِ السَّبيلِ الموَصِّلَةِ إلى اللّهِ، أي: إلى الكَونِ في أوليائِهِ وحِزبِهِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 231.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صدد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 249.

2) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أصلُ السّينِ والباءِ واللّام: يدُلُّ على إرسالِ شيءٍ مِن عُلوٍّ إلى سُفلٍ، وكذلك على امتِدادِ شيءٍ، فالأوَّلُ مِن قيلِك: أسبَلْتُ السِّترَ، وأسبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبمائِها، وأمّا الثّاني فالمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ منهُ، وهو الطَّريقُ؛ سُمّيَ بذلِكَ لامتِدادِهِ[1]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغلَبُ، والسّابِلَةُ: هُمُ الَّذين يَسلُكون السُّبلَ، وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الَّذي دَعا إليه، وجمعُه: سُبُلٌ[2]، وكلُّ سَبيل أُريدَ بِهِ اللّه تعالى وفيه بِرٌّ؛ فهو داخلٌ في سَبيل اللّه، والمقصودُ بسبيل اللّه في الآية: الشَّريعَةُ الّتي أنزَلَها اللّهُ تعالى لِعِبادِهِ الموصِلَةُ إلى طاعَتِهِ ومَرضاتِهِ.

3) ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾: أصلُ الفاءِ والواوِ والقافِ: يدُلُّ على عُلوٍّ[3]، وهو: نَقيضُ تَحتٍ، يكونُ اسمًا وظَرفًا[4]، ويُستعمَلُ في المكانِ، والزَّمانِ، والجسمِ، والعدَدِ، والمَنزِلةِ، وذلك أضربٌ، الأوَّل: باعتبار العلوِّ، نحو: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63]، الثّاني: باعتبار الصُّعودِ والحدورِ، نحو قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: 10]، الثّالث: يُقالُ في العددِ، نحو قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ [النّساء: 11]، الرّابع: في الكِبَرِ والصِّغَر، نحو: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: 26]، الخامس: باعتبار الفضيلةِ الدُّنيَويَّةِ، نحو: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرف: 32]، السّادس: باعتبار القهرِ والغلبةِ، نحو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18][5]، والمقصودُ بالفوقيَّةِ في الآية: فوقيَّةُ عُلوٍّ وشِدَّةٍ، والمرادُ بها: أن ينضمَّ إلى ما عليه الشَّيء في نفسِه شيءٌ آخر.

4) ﴿يُفْسِدُونَ﴾: أصلُ الفَساد: الخُروجُ عنِ الاعتِدالِ[6]، يُقالُ: فسَدَ الكلامُ؛ أي: خَرَجَ عن حَدِّهِ، ويُقالُ: فسَدَ الشَّيء فسادًا وفسودًا، وأفسدَهُ غيرُه، وضِدُّه: الصَّلاحُ[7]، والفسادُ عامٌّ في الكُفر والضَّلال وكلّ ما هو ضارٌّ، والفَسادُ في الأرضِ تهييجُ الحروب والفِتَن؛ لأنَّ في ذلك فسادَ ما في الأرضِ، وانتفاءَ الاستقامةِ عن أحوال النّاسِ والزَّرعِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فوق).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فوق).
(6) الرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (فسد).
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).

والمَنافِعِ الدّينيّةِ والدُّنيويَّةِ[1]، والمقصودُ بالفساد في الآية: السَّعيُ في أرض اللّهِ بما يكرهُه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عِقابُ الدَّعوة إلى الكُفر مُضاعَفٌ

بعد أن ذَكَرَ اللّهُ تعالى عذابَ المُضادّين؛ بيَّنَ عذابَ الضّالّين المُضلّين، فبيَّنَ أنَّ الّذين كَفَروا وكَذَّبوا بالحقِّ لمّا جاءَهُم، وصَدّوا النّاسَ عنِ اتِّباعِ الإسلام؛ زادَهُم في النّارِ عذابًا على ما بهم مِنَ العذابِ؛ لأنَّهم كانوا يُفسِدونَ في الأرضِ بصَدِّهم النّاسَ عنِ اتِّباعِ الحَقِّ، وفي هذه الآيةِ دليلٌ على تفاوُتِ العذابِ في دَركاتِهِ، كما يتفاوتُ المُؤمنون في مَنازِلِهم في الجنَّة ودَرجاتِهِم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصل الجملةِ عمّا قبلَها:

ذكرُ جزاء الكفرِ مثارُ سؤالٍ عن جزاء الدّعاةِ إليه

فُصِلَ قولُ اللّهِ جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قَبلَهُ؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، فالآيةُ إجابةٌ عَن سؤالٍ نشأ عن ذِكرِ جزاء الكافرين والمُشركين قَبلُ، فكأنّه قيلَ: هذا جزاءُ الّذين أشركوا، فما جزاءُ الّذين كانوا يدعون إلى الكفر والشّرك، ويَمنعون النّاسَ عن سبيل اللّه تعالى؟ فجاء الجوابُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا﴾[3]، فهو إخبارٌ مِنَ اللّه تعالى بأنّ الّذين كَفروا ومَنعوا غيرَهُم مِنَ الدّخولِ في الدّين زادَهُم عذابًا، فيكون ضعفَ العذابِ الّذي استحقَّه الكافرون بكُفرِهِم[4]، والمقصودُ من ذلك "تنبيهُ المُسلمين إلى كَيدِهم وإفسادِهم، والتَّعريضُ بالتَّحذيرِ مِنَ الوُقوعِ في شِراكِهِم"[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 330، 332، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 164، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 593، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 446.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 231.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 415.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 249.

دلالةُ اسم الموصول:

الصَّدُّ عن سبيل الله تعالى موجِبٌ لمُضاعفَةِ العَذابِ

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ عنِ الكافرين بالاسم الموصول في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دون أن يَرِدَ: (والكافرون الصّادّون)؛ وذلك إظهارًا لعلّة الحُكم المُعبَّرِ عنها بالصِّلَةِ، وهو أنّه زيدَ عذابُهم بسَبَبِ كُفرِهِم مع صدِّهِمُ النّاسَ عن دين اللّهِ تعالى، فالمرادُ بالاسم الموصول مَن أظهروا الكفرَ والصّدَّ مِنَ الّذين لم يؤمنوا بالنّبيِّ ﷺ مِنَ المشركين ومِن أهل الكتاب.

إيثارُ استعمال لفظ الكفرِ بعد ذِكْرِ الظُّلمِ والشِّرك:

لفظُ (الكفرِ) يدخُلُ فيه المُشركون وأهلُ الكتاب

آثرَ النّظمُ الكريمُ ذِكْرَ الكفر في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بعد ذكرِ الشّركِ والظّلم في قوله تعالى آنفًا: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ [النّحل: 85 - 86]؛ لأنّ الكفرَ يشملُهم جميعًا، فهو "يشمَلُ الشّركَ باللّهِ بعبادة الأوثان، وأهلَ الكتاب الّذين لم يؤمنوا بمحمَّد ﷺ، وبعضَ مَن نسمّيهم أهلَ كتابٍ يدخلون في الشِّرك من بابِه، وهُمُ الّذين يَعبدون المسيحَ، أو يقولون: إنَّه ابنُ اللّه، ويصفونَه بالرَّبِّ، ويعبدونَ روحَ القُدُس، ويقولون: اللّهُ ثالثُ ثلاثةٍ، فكلمة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يدخلُ في عمومها أهلُ الكتاب، كما قال تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١﴾ [البيّنة: 1]، وقد ذكرَ اللّهُ تعالى ذلك الوصفَ للمُشركين وأهلِ الكتاب؛ لأنَّ الصّدَّ عن سبيل اللّهِ وقَعَ مِن المُشركين، ووَقَعَ من أهل الكتابِ في عصر تبليغِ الرِّسالة"[1].

سِرُّ استعمال صيغة الماضي:

تحقُّقُ الكفرِ والصّدِّ عن سبيل الله فيهم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾؛ للدّلالة على أنّ الحديثَ مَسوقٌ عن قوم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4245 - 4246.

بِعَيْنِهم، وأنّهم قد حقّقوا الكفرَ والصّدَّ عن سبيل اللّه تعالى، وأنّ ذلك فعلٌ مُنجَزٌ، فالوصفُ به يدُلُّ على رسوخ صاحبِهِ فيه.

الصّدُّ والكفرُ شرطانِ لمضاعَفة العذاب

فائدةُ عطف جملة ﴿وَصَدُّواْ﴾ على ما قبلَها:

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَصَدُّواْ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لاشتراكهما في الخبريَّةِ؛ إذ كلٌّ مِنَ الجملتينِ خبريَّةٌ، وبينهما مُناسبةٌ لفظيَّةٌ، وهي اشتراكُهما في الفِعليَّةِ والماضويَّة، وكونهما معًا في جملةِ صلةِ المَوصولِ، والجمع بينَهما يُبيّنُ أنّ استحقاقَ مُضاعفةِ العذابِ إنّما كان بسبب اجتماعِ الصَّدِّ والكُفرِ؛ أي: "الّذين جحدوا نبوّتَك وكذَّبوك فيما جئتَهم به من عِندِ ربِّك، وصدّوا عنِ الإيمان باللّه ورسوله مَن أرادَه؛ زِدناهُم عذابًا فوق عذابِهم الّذي يستحقّونَه بكفرِهم، بسبب استمرارِهِم على الإفساد بالصَّدِّ عن سبيل اللّه"(1).

شناعةُ الصّدِّ تَظهرُ ببيان حُسنِ ما صُدَّ عنه

فائدةُ تقييد الجارِّ والمجرور:

قَيَّدَ النّظمُ الجليلُ الصّدَّ بالجارِّ والمجرور المُضافِ إلى الاسم الأحسَنِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لتخصيصه بأنّه كائنٌ لصدّ النّاسِ عن سبيل اللّه؛ تشنيعًا له، فهو ليسَ كأيِّ صدٍّ آخرَ، بل هو صدٌّ عنِ السّبيل الّذي يَجِبُ أن لا يُصَدَّ عنه، وفيه تمهيدٌ لذِكرِ الجزاءِ المُضاعَفِ بالإخبار عن زيادةِ العذاب، فتلك الزّيادةُ مُتحصِّلَةٌ بسببِ هذا الصّدِّ.

زيادةُ العذاب صادرةٌ عن المَلِك العظيم

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغيبة إلى التَّكلُّم:

التفَتَ النّظمُ الجليلُ مِنَ الغَيبة الّتي يقتضيها الاسمُ الظّاهرُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّم الّذي يدُلُّ عليه ضميرُ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ﴾؛ تهويلًا لشأن الزّيادة في العذاب،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 127.

فهي زيادةٌ كائِنةٌ بِما للّه تعالى من عظمَةٍ، ولو جاءَ النَّظمُ القرآنيُّ: (زادهُم عذابًا) لكانَ إخبارًا مُجرَّدًا عن تلكَ الزّيادةِ مِن غيرِ ذلكَ التّهويلِ والتّعظيم.

دلالةُ الإخبارِ عن زيادة العذابِ للكافرين:

الغلوُّ في الكفر يُقابِلُهُ مزيدٌ مِنَ النّكال

أخبرَ النّظمُ الجليلُ بأنّ اللّهَ تعالى يزيدُ الكافرين عذابًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾، فما العلّةُ في هذا العذاب المزيد فيه؟ والجواب عن ذلك: أنّ هذه الجملةَ تُعَدُّ من فرائد أساليبِ القرآنِ الكريم؛ حيث إنَّها لم تَرِدْ إلّا في هذا المَوطِنِ، والعلّةُ في هذا العذابِ المُضاعَفِ هو كفرُهُم وصدُّهُم عن سبيل اللّه وإفسادُهم، ونحوُه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾ [هود: 19 - 20]، فالإخبارُ عن زيادة العذابِ مُناسِبةٌ لِما بيّنتهُ الآيةُ من عظيم كُفرِهم وشديدِ غيّهم، فهُم كفروا في أنفُسِهم، ثمّ حَمَلوا غيرَهم على الكفر، فمَنْ كان هذا وصفَهُ يُضاعَفُ عقابُهُ، كما ضاعفَ كفرَهُ بدعوةِ غيرِه وصدّهِ عَنِ الإيمان[1].

سِرُّ تنكير ﴿عَذَابٗا﴾ أوّلًا، ثمَّ تعريفها ثانيًا:

عــذابُ دعاة الكُفرِ مَجهولٌ غيرُ معهودٍ كما عُهِدَ عذابُ الكافرين

أوردَ النّظمُ الجليلُ لفظَ العذابِ مرّتين في الجملةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾، فجاء في الأولى نكرةً، وفي الثّانية مَعرِفَةً، وهو تعريفُ جِنسٍ مَعهودٍ؛ إذ قد تقدَّمَ ذِكرُه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النّحل: 85]؛ وإنّما صار العذابُ مَعهودًا؛ لأنّه قد كثُرَ الحديثُ عنه في آيِ الذّكر الحكيم، وأمّا تنكيرُ لفظة العذابِ الأولى فإنّها سيقَت لبيان عذابِ الّذين كفروا وصدّوا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 627.

النّاسَ، فإنّ عذابَ هؤلاء لا يخطُرُ بالبال، فهو مَجهولٌ غيرُ مُتقدِّمِ الذِّكرِ، فناسَبَهُ التّنكيرُ[1]، وهذا التّنكيرُ يُناسِبُ الزّيادةَ المذكورةَ مع (نا) الدّالَّةِ على العَظَمَةِ في: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ﴾، فكان التَّنكيرُ لإرادَةِ التَّفخيم والتَّعظيم.

دلالةُ حرف الجرِّ (الباء):

بيانُ سببِ زيادةِ العذابِ يَنفي ظُلمَ اللهِ تعالى لهم

أدخلَ النّظمُ الجليلُ حرفَ الجرِّ (الباء) الدّالّ على السّببيّة في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ زيادةَ العذابِ حاصلةٌ بسبَبِ استِمرارِهم على الإفسادِ، وهو الصّدُّ المذكورُ[2]، وفي بيانِ علّةِ زيادةِ عذابِهم لِنَفي إرادة ظُلمِهم، أو ظنّ قَصدِهم بسوء العذاب، فأشارَ بذلكَ إلى استِحقاقِهم ما كوفِئوا به مِنَ الزّيادَةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدَرِ المؤوّلِ دونَ المَصدَرِ الصَّريح:

اتّصافُهم بالإفسادِ اتّصافًا راسِخًا لا يفارقونه

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمَصدرِ المُؤوّلِ من (ما) المَصدريّة والفعل في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾، ولم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (بإفسادِهم)، أو (بكونِهم مُفسِدين)؛ لِما في المصدرِ المُؤوَّلِ من دلالةٍ على الزّمن مُتحصِّلةٍ مِنَ الفعل، فالتّعبيرُ به دالٌّ على كونِهم أحدثوا الإفسادَ، وأصرّوا عليه، وباتوا راسخِينَ فيه.

فائدةُ التّعبيرِ بفعلِ الكَونِ:

إحداثُهم الإفسادَ مُتعلّقٌ بهم تعلُّقًا وجوديًّا

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بفعل الكون في الإخبار عن علّة زيادةِ عذابِهم في قولِهِ جلّ شأنُه: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾؛ للدّلالة على رُسوخِهم بذلك الإفسادِ، فهو إفسادٌ مَغروسٌ في طبائعِهم، بيانًا لشدّة الإفسادِ وتَماديهم فيه وإصرارِهم عليه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 249.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 135.

والّذي بِهِ استحقّوا تلكَ الزّيادةَ في العذابِ، فإفسادُهُم وُجِدَ فيهم منذُ أن وُجدوا في هذه الحياة، لم ينفكّوا عنه، بل تمادوا وصاروا فيهِ راسخينَ.

إيثارُ التَّعبير بلفظ الفسادِ دونَ الكُفرِ في فاصلةِ الآيةِ:

الإفسادُ مِن أعظَمِ أسبابِ مُضاعَفةِ العَذابِ

صاغَ النّظمُ البليغُ الفاصلةَ مِنَ الإفساد دون الكفرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ دون أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (بما كانوا يكفرون)؛ لبيان أنّ الصّدَّ عن سبيل اللّه تعالى إفسادٌ، فاستحقّوا الزّيادةَ في العذاب "بكونهم مُفسِدين النّاس بصدِّهم عَن سبيلِ اللّه"[1]، فاستِحقاقُهُم تلك الزّيادةَ المُخبَرَ عَنها ليسَ بِمُجَرَّدِ كونهم كافرين، بل لأنّهم أفسدوا النّاسَ، فالعبارةُ قائِمةٌ مَقامَ التَّعليل للزّيادَةِ، وهي كائِنَةٌ بسببِ الإفسادِ، فكانَ مِن حُسنِ البلاغةِ أن تكونَ الفاصلَةُ كذَلِكَ.

دلالةُ استعمالِ صيغَةِ المُضارع:

منهجُ الكافرينَ إفسادٌ دائمٌ لا ينقطعُ

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم كانوا يوقِعون الفسادَ في كلّ وقتٍ ويُجدِّدونه[2]، وذلك يدُلُّ على إصرارِهم على الفساد، وأنّه مَنهَجُهم ودَيدَنُهم، لا ينفكّون عنهُ.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الصَّدُّ والمَنعُ:

المَنعُ أعمُّ مِنَ الصَّدِّ

قال أبو هلال: "الصَّدُّ هوَ المَنعُ عَن قَصدِ الشّيء خاصَّةً؛ ولهذا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]؛ أي: يمنَعونَ النّاسَ عَن قَصدهِ، والمَنعُ يكونُ في ذَلك وغَيره؛ ألا ترى أنّه يُقالُ: مَنَعَ الحائِطَ عَنِ المَيلِ، ولا يُقالُ: صدَّهُ عنِ الميل؛ لأنّ الحائطَ لا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 627.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 232.

قصدَ لَهُ"(1)، وبهذا فالصّدُّ أخصُّ مِنَ المَنعِ، فهو مَنعٌ عن بلوغِ الغايةِ والقَصدِ، وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالصّدِّ؛ لأنّه مُتعلِّقٌ بمنعِ النّاسِ أن يقصدوا دينَ اللّهِ تعالى.

السّبيل والطّريق:

السَّبيلُ يَقتَضي سُهولَةً، بخلافِ الطَّريقِ فإنَّهُ لا يَقتَضيها

السّبيلُ: طريقٌ فيه سهولةٌ، وجمعُه سُبُلٌ، ويُستعمَلُ لكلِّ ما يُتَوصَّلُ به إلى شيءٍ آخرَ، خيرًا كان أم شرًّا، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النّحل: 125](2)؛ فلمّا كان السّبيلُ يُطلَقُ على كُلِّ ما يُتَوصَّلُ به أُطلِقَ على الأعمالِ الّتي تكونُ موصِلَةً للّه تعالى، كالدّعوة والقتالِ وغيرهما، وأغلبُ استعمالِهِ في الخير، وأمّا الطّريقُ فلا يَقتَضي السّهولة، ولا يكاد يُرادُ به الخيرُ إلّا مُقترِنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تُخَلِّصه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: 30](3).

الفوقيّةُ والعُلوُّ:

الفوقيّةُ تَقتَضي انفِصالًا، والعلوُّ يَقتَضي اتِّصالًا

"إنّ أعلَى الشَّيءِ مِنهُ، يُقالُ: هو أعلَى النَّخلَةِ، يُرادُ أنّه في نهايَةِ قامتِها، وتقولُ: السَّماءُ فوقَ الأرضِ، فلا يَقتَضي ذَلِك أن تكونَ السَّماءُ مِنَ الأرض و(أعلَى) يَقتَضي أسفَل، وفَوق يَقتَضي تَحت، أَسفَلُ الشَّيءِ مِنهُ، وتَحته ليسَ مِنهُ؛ أَلا ترى أنّه يُقالُ: وَضعتُه تَحت الكوزِ، ولا يُقالُ: وَضعتُه أَسفَلَ الكوزِ، بهذا المَعنى، ويُقالُ: أسفَلَ البِئر، ولا يُقالُ: تَحت البِئر"(4).

وفي الآيةِ عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بالفوقيّة للدّلالة على أنّ العذابَ المُضافَ مُنفصِلٌ عنِ العذاب الأوّلِ، وذلك للمُبالغة في تعذيبِهم؛ لأنَّ الفوقَ مُنفَصِلٌ عمّا تحتَهُ، والأعلى جُزءٌ منه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.
(2) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 185.

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النّحل: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعذيبُ الكافرين في الآخرة مُستحَقٌّ بِشهادة الشُّهداء

بعدَ أن حذَّرَ مِن ذلك اليوم، خاطبَ النّبيَّ ﷺ مُكرِّرًا "التّحذيرَ مِن ذلك اليوم على وجهٍ يزيدُ على ما أفهَمَته الآيةُ السّالِفةُ، وهو أنّ الشّهادةَ تقعُ على الأمم لا لَهُم، وتكونُ بحضرتِهم"[1]، فلمّا ذَكَرَ الكافرين والدّعاةَ إلى الكفر؛ أتبعَهُ بأنّ الحسابَ يومَ البعثِ مُحققٌ مُؤكَّدٌ بحيث لا يَفِرّونَ مِنَ الحجّة عليهم؛ إذْ إنّ عليهم شهداءَ مِن أنفسهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تِبۡيَٰنٗا﴾: أصلُ الباءِ والياءِ والنّونِ دالٌّ على انكشافِ الشّيء، ومنه البَيِّنةُ: الأمرُ الواضحُ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]؛ أي: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ، والبيانُ: التَّوضيحُ والكَشفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ: إذا اتَّضحَ وانكَشفَ[2]، وسُمّيَ الكلامُ بيانًا؛ لِكَشفِه عنِ المعنى المقصودِ إظهارُه، نحو: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138]، وسُمّيَ ما يُشرَحُ بِهِ المُجمَلُ والمُبهَمُ مِنَ الكلام بيانًا، نحو قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة: 19]، ويُقالُ: بَيَّنتُه وأبَنتُه: إذا جعلتَ له بيانًا يكشفه[3]، والتِّبيانُ: مصدرٌ دالٌّ على المُبالَغةِ في المَصدريَّةِ، ولا يوجدُ مصدرٌ بوزنِ (تِفعالٌ) - بكسرِ التّاءِ - إلّا تِبيانٌ بمعنى البيانِ كما هُنا، وتِلقاءُ، وزادَ بعضُ الصّرفيّين: التِّنْضال[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(3) الرّاغب، المفردات: (بان).
(4) الحملاويّ، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 60.

والمقصودُ بالتِّبيان في الآية: المُبالغةُ في الظُّهورِ والوضوح، والمرادُ به: بيانٌ بليغٌ شامِلٌ على سبيل الإجمالِ تارةً، وعلى سبيل التَّفصيلِ تارةً أُخرى[1].

2) ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾: أصلُ الباءِ والشّينِ والرّاءِ يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مَعَ حُسنٍ وجمالٍ، فالبَشَرَةُ: ظاهِرُ جِلدِ الإنسانِ، ومنهُ: باشَرَ الرَّجُلُ المَرأةَ، وذلكَ إفضاؤُهُ ببَشَرَتِه إلى بَشَرَتِها، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِم، والبَشيرُ: الحَسَنُ الوَجهِ[2]، والبِشْرُ، بالكسر: الطَّلاقةُ والبَشاشةُ وبَسْطُ الوجه[3]، والبُشرى: الخبرُ الَّذي يُغيِّرُ البَشَرةَ مِن حُزنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرفِ اللُّغةِ بالسُّرور، ولا تكونُ إلّا بالخبر الأوَّل، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصّافّات: 101][4]، فيُقالُ: أبشَرْتُ الرَّجُلَ وبَشَّرتُهُ؛ أي: أخبَرتَهُ بأمرٍ سارٍّ[5]، وسُمّيَتْ بذلك مِنَ البِشرِ وهو السُّرورُ؛ لأنّها تُظهِرُ طَلاقةَ وجهِ الإنسانِ وفَرَحَهُ، والمقصودُ بالبُشرى في الآيةِ: خَبَرٌ بحصولِ ما فيه نفعٌ ومَسرَّةٌ للمُخبَرِ به.

❁ المَعنى الإجْمالِيُّ:

كلُّ نبيٍّ شاهدٌ على أُمَّتِه، وليس في الآخرة مجالٌ للاعتذار والدِّفاع عن النَّفسِ

أكَّدَ اللّهُ سبحانَه في هذهِ الآيةِ أمرَ البَعثِ، وأنَّه آتٍ لا ريبَ فيه، فقال تعالى: واذكرْ أيُّها الرَّسولُ ﷺ ذلك اليومَ وهولَه، يومَ يبعثُ اللّهُ تعالى نبيَّ كلِّ أُمَّةٍ شاهدًا عليهم، فيكون أقطعَ للمَعذرة، وأظهرَ في إتمامِ الحجَّةِ عليهم، وجِئْنا بك شاهِدًا على أُمَّتِك، ونزَّلْنا عليك القُرآنَ مُبَيِّنًا لكُلِّ شَيءٍ يَحتاجُ النّاسُ إلى بيانِه، مِن أمورِ دينِهم ودُنياهُم وآخِرتِهم، ونَزَّلْنا عليك القُرآنَ هاديًا مِنَ الضَّلالة، ورَحمةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 253، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 218.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(4) النّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 267، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 184.
(5) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 128، والعَوْتَبيّ، الإبانة في اللّغة العربيّة: 2/ 280.

في الدُّنيا والآخرةِ، ومُبَشِّرًا بالخَيرِ في العاجِلِ والآجِلِ للمُسلمينَ المُنقادينَ لحُكمِه، الخاضِعينَ له بتَوحيدِه وطاعتِه سُبحانَه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العَطفِ بالواوِ:

المغايرةُ بالأوصافِ تقتضي العطفَ بالواو

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ بالواوِ؛ لأنّها دالّةٌ على المُغايرة، فلمّا كان في العبارة تكرارٌ، غير أنّها مُتضمِّنةٌ ما يجعلُها مُغايرةً لسابِقَتِها، وذلك لأنَّ فيها زيادةَ الوصفِ بقوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، وبهذا قَد حصلَ التّغايرُ بينَ الجُملَتَين؛ فاقتضى ذلك العطفَ بالواوِ الدّالّةِ على المغايَرةِ(2).

سِرُّ التَّكرار في الإخبار عن بعثِ الشّهداء:

تَكرارُ التّهديدِ تأكيدٌ لإيقاظِ وازعِ الإيمان

كرَّرَ النّظمُ الجليلُ جملةَ: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا﴾؛ إذ قد وردَ لفظُها قَبلُ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤﴾ [النّحل: 84]؛ تأكيدًا للتّهديد وتَثنيةً له(3)، كما أنّ فيه إيقاظًا وتنبيهًا للسّامِع.

دلالةُ التّعبيرِ عنِ البعثِ بالفعلِ المضارع:

بَعثُ الشّهداءِ واقِعٌ يومَ القيامةِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا﴾؛ لأنّ بعثَ الشّهداءِ للأمم الماضية إنّما يكونُ يومَ القيامة، فهو بعثٌ كائنٌ بالمُستقبَل، فعَبَّرَ عن ذلك بالفعل المضارعِ الدّالِّ على المُستقبلِ(4).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 333، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 127، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 447، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 250.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 135.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 251.

نكتةُ العُدولِ عَن (مِن) إلى ﴿فِي﴾:

البعثُ خلالهم يدلُّ على قربِه وتمكّنِه مِنَ الشّهادة المكينةِ عليهم

عدَّى النّظمُ الجليلُ فعلَ البعثِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾، وقد كان عُدّيَ الفعلُ نفسُهُ في الآية المُتقدِّمةِ بـ ﴿مِن﴾ [النّحل: 84] في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ [النّحل: 84]؛ وذلك "ليَحصُلَ التَّفنُّنُ بين المُكَرَّرين؛ تَجديدًا لنَشاطِ السّامِعينَ"[1]، كما أنّ التّعبيرَ بالظّرفيّةِ هُنا يُفيدُ المُبالغةَ في التَّمكُّن مِنَ الشّهادة عليهم، فهو مَبعوثٌ خلالهم للشّهادة عليهم، وهم عاجزون في ردِّ شهادتِه، كما أنّ ذلك يدُلُّ على القُربِ مِنهُم وحضورِه فيهم.

سِرُّ التّعبير بلفظ (الشّهيد) مُنكَّرًا:

الشّهادةُ على الأممِ يومَ القيامة عظيمةُ الشّأن

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا﴾ التّعبيرَ بصيغة التّنكيرِ؛ تفخيمًا لشأنِ الشّهيدِ؛ للدّلالة على أنّه "هو في أعلى رُتَبِ الشّهادَةِ"[2]، وكيفَ لا يكونُ كذلك وهو يَشهَدُ على أمّةٍ كاملةٍ ببلوغِ الدّعوة إليهم وإقامةِ الحجّةِ عليهم، ويَعقُبُ هذه الشّهادةَ ما لا يمكن دفعُه، ولا النّجاةُ منه، ولا مُعاوضَتُه كما في الحياة الدّنيا.

دلالةُ تعليقِ الشّهادةِ بحرف الجرّ (على):

الشّهادةُ عليهم مكينَةٌ، وإفادتُها لازمة

عَلَّقَ بليغُ النّظمِ الشّهيدَ الّذي يبعثُه اللّهُ تعالى يومَ القيامة على الأمّة بحرفِ الجرِّ (على) في قوله جلّ شأنُه: ﴿نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم﴾؛ لِما في ذلك مِنَ الإشعار بأنّ شهادةَ الشّهداءِ على الأمم تكونُ بِمَحضَرٍ منهم[3]، وذلك دلالةٌ على تمكُّنِ تلك الشّهادة منهم، وأنّ الرّسولَ الشّهيدَ في مَقامٍ مَكينٍ ثَمَّ، فالشّهادةُ عليهم هناك مُؤكَّدةٌ بالِغةُ الأثَرِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 250.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 232.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 135.

فائدةُ وصف الشّهيد بكونه ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾:

إقامةُ الحجّةِ التّامّةِ على الأُمَمِ

وصفَ النّظمُ الجليلُ (الشّهيد) بكونه مِنَ الأمّةِ نفسِها في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾؛ للدّلالة على أنّه مِن جِنسِهِم؛ لأنّ ذلك يَقطَعُ معذرتَهُم[1]؛ لِما فيه من إقامة الحجّةِ عليهم، فليس الشّهيدُ الّذي يشهدُ عليهم بمظنّة أن يكونَ ظالمًا لهم، فهو من أنفسِهم، فتكون أصدقَ شهادةٍ وأوثقَها، كما أنّ ذلك يُشيرُ إلى أنّ الشّهيدَ هو نبيُّهم المُرسَلُ إليهم[2].

سِرُّ تقديم ﴿عَلَيۡهِم﴾ على ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾:

قوّةُ الشّهادة في نفسِها مُقدَّمةٌ على نفي أسبابِ ضَعفِها

جَمَعَ النّظمُ الجليلُ بينَ شِبهَي الجُملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، مُقَدِّمًا شِبهَ الجملة المُتضمِّنة الاستعلاءَ على شبه الجملةِ المُتضمِّنةِ بيانَ الجنسِ؛ لبيان قوّةِ الشّهادةِ وتمكُّنِها منهم، ثمّ أعقبَها بانتفاء سبُلِ الطّعنِ فيها، وتقديمُ قوّة الشّهادةِ أبلغُ من ذِكرِ انتفاءِ المَطاعِنِ عنها.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا﴾:

البعثُ والمجيءُ للشّهادة كِلاهما حاصِلٌ يومَ القِيامة

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ معطوفةٌ بالواو على الجملة الفعليّة المبدوءةِ بالفعل ﴿نَبۡعَثُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا﴾[3]، فهي داخلةٌ في حيّزِ الظّرف[4]، فيكون المجيءُ والبعثُ كلاهما حادثَينِ في ذلك اليوم.

ويجوز أن تكون الجملةُ: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ مَعْطوفَةً عَلى مَجْموعِ جُمْلَةِ ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾، لِأنَّ المَقْصودَ: وجِئْنا بِكَ شَهيدًا مِن وقْتِ إرْسالِكَ، فلا تدخل حينئذٍ في حيّزِ الظَّرفِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 135.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 628.
(3) صافي، الجدول: 7/ 373.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 251.

دلالةُ التَّعبير بالمجيء فعلًا ماضيًا:

تَحقُّقُ مَجيءِ الشَّهيدِ يومَ القِيامَةِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا﴾ للدّلالة على تحقُّقِ وقوع المجيءِ المذكورِ[1]، ويَكونُ الماضي مُسْتَعْمَلًا في مَعْنى الاِسْتِقْبالِ مَجازًا؛ لِتَحَقُّقِ وُقوعِه، فَشابَهَ بِهِ ما حَصَلَ ومَضى، فالتّعبيرُ عنِ المُستقبلِ بالماضي يؤكِّدُ وقوعَ مَضمونِ الكلامِ.

وعلى القول الثاني في الواو العاطفة، فإن لفظ الماضي في ﴿وَجِئۡنَا﴾ على حقيقته، للإشارة إلى أنَّه مَجيءٌ حصَلَ مِن يوم بِعثتِه، فيكون المعنى: "وجِئنا بكَ لمّا أرسلناكَ إلى أمّتك شهيدًا عليهم؛ أي: مُقَدَّرًا أن تكونَ شهيدًا عليهم يومَ القيامة؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ لمّا كان حَيًّا في آنِ نُزولِ هذه الآيةِ؛ كانَ شهيدًا في الحال والاستقبالِ"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العَظمة:

عظمَةُ الإتيانِ بالشُّهداءِ يومَ القِيامَةِ

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بالفعلِ المُسنَدِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا﴾؛ أي: مَجيئًا جليلًا بما لنا مِنَ العظَمَةِ[3]، فالمَجيءُ بالنّبيّ ﷺ شهيدًا بحيث لا يُعارَضُ كما عارَضوا إرسالَه في الحياة الدّنيا، فهو إحضارٌ مِنَ الجليلِ بحيثُ تُقامُ الحجّةُ على الوجهِ الأبلَغِ والأتمِّ.

علّةُ عدمِ ذِكرِ ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ مع شهادَةِ الرَّسول:

بِعثَةُ الرَّسولِ ﷺ إلى النّاسِ جَميعًا، وشَهادتُه عليهم كُلِّهِم

لم يَذكُرِ النّظمُ الجليلُ القَيدَ بكَونِ النّبيّ ﷺ من أنفسهم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾؛ "لأنّه مَبعوثٌ إلى جميع الأمم، وشهيدٌ عليهم جميعًا، وأمّا وصفُه بذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التّوبة: 128]؛ فذلك وصفٌ كاشِفٌ اقتضاهُ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 135.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 251.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 232.

مَقامُ التَّذكير للمُخاطبين مِنَ المُنافقين الّذين ضَمّوا إلى الكُفرِ باللّه كُفرانَ نِعمَةِ بَعثِ رسولٍ إليهم مِن قومِهِم"(1).

سِرُّ تقديم ﴿شَهِيدًا﴾ على قوله ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾:

تقديمُ الشّهادةِ يُناسِبُ موضوعَ السّياق

أوردَ النّظمُ الجليلُ المفعولَ به ﴿شَهِيدًا﴾ مُقدَّمًا على شبهِ الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، وقد أخَّرَهُ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النّساء: 41]؛ لأنّ السّياقَ في سورة النّحلِ في موضوعِ الشّهادة والإشهادِ عليهم، فتَقديمُ اللّفظِ المُتعلِّق بموضوع السّياق أولى في بناء الجملةِ، كما أنّ في تأخير المفعول به في سورة النّساء مناسبةً لفظيَّةً أخرى، وهي مراعاةُ الفاصلةِ؛ اهتمامًا بالأثر الصّوتيِّ في بنية النّصّ.

دلالةُ عطف الجملة بالواو:

إرشادُ النّبيِّ ﷺ للمُؤمنين، وشهادتُه على الكافِرين

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ معطوفةٌ بالواو على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾؛ أي: "أرسلناك شهيدًا على المُشركين، وأنزلْنا عليك القرآنَ ليَنتفعَ به المسلمون، فرسولُ اللّه ﷺ شهيدٌ على المُكذِّبين ومُرشِدٌ للمُؤمنين، وهذا تخلُّصٌ للشُّروع في تَعدادِ النِّعم على المُؤمنين من نِعَمِ الإرشادِ، ونِعَمِ الجزاءِ على الامتثالِ، وبيانُ بركاتِ هذا الكتابِ المُنزَّلِ لهُم"(2).

سِرُّ استعمالِ صيغة (نزَّل) دون (أنزل):

التّعبيرُ بكثرة النّزولِ مُناسِبٌ لنزول القرآنِ مُنجَّمًا

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المُضّعَفِ (نزّل) دون (أنزل) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لِما فيه من دِلالة على التّدرُّج والتّنجيم(3)، وذلك لِما في المُضَّعفِ من دلالةٍ على التّكثير، فكثرةُ النّزولِ تدُلُّ على نزولٍ مُكرَّرٍ، وهذا معناه التّنجيم في نزولِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 252.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 252.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 233.

القرآن وتفريق نزوله على حَسَبِ الحَوادثِ وما تَقتَضيهِ الحِكمَةُ، فآثَرَ الفعلَ (نزّل)؛ لأنّ بيانَ القرآنِ نَزَلَ شيئًا بعدَ شيءٍ، فـ(نزّل) يقتضي التّفريقَ(1).

دلالةُ إسنادِ الفِعلِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

تَعظيمُ شأنِ إنزالِ القرآنِ الكريمِ

أسندَ النّظمُ الجليلُ الفعلَ إلى ضميرِ العَظمةِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: أنزلناه بما لَنا مِنَ العَظَمَة(2)؛ وذلك لأنّ إنزالَ القرآن تحفُّهُ العظمَةُ مِن حيثُ المُنزِلُ ﷻ، والمُنزَلُ الكريمُ ذاتُه، والمُنزَلُ عليهِ ﷺ، فإسنادُ الفعلِ إلى ضميرِ العظمَةِ يُرادُ به تعظيمُ ذلكَ الإنزالِ.

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ به:

الاهتمامُ بالمُنزَلِ إليهِ هذا الكتابُ

قَدَّمَ النّظمُ الجليلُ شِبهَ الجملةِ مِنَ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ بهِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يقُلْ: ونزّلنا الكتابَ عليكَ؛ لأنّه في سياقِ الحديثِ عن كونِه شاهدًا على النّاسِ جميعًا، وكونِه هو مَن نُزِّلَ عليه الكتابُ للهدايةِ والرّحمةِ، فالأهمُّ في السّياقِ كونُ المُنزَلِ عليه أنتَ، وليس الاهتمامُ مُتَّجِهًا إلى بيانِ أهمّيّة المُنزَلِ.

دلالةُ تعريفِ الكتابِ باللّامِ:

تعظيمُ شَأنِ القرآنِ الكريمِ

عَرَّفَ النّظمُ الجليلُ الكتابَ باللّامِ الدّالّةِ على الجِنسِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ هذا الكتابِ وتفخيمًا له؛ أي: (أنزلنا الكتابَ "الكاملَ في الكتابيَّةِ الحَقيقَ بأنْ يُخَصَّ باسمِ الجِنسِ")(3)، فلكونِه الكتابَ المهيمنَ على الكتُبِ السّابقةِ صارَ جديرًا بأن يوصَفَ المُنزَّلُ على النّبيّ ﷺ بجنسِ الكتابِ كلِّه، ويجوزُ أن تكونَ اللّامُ للعهدِ، فيكون معنى الكتابِ هو القرآنَ الكريمَ(4).

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 42.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 233.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 135.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 253.

إيثارُ لفظ ﴿تِبۡيَٰنٗا﴾ دون (بيانًا):

كمالُ البيانِ القرآنيِّ وجلالتُه

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر ﴿تِبۡيَٰنٗا﴾ دون (بيانًا) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لِما فيه مِنَ المبالغة؛ أي: بيانًا بليغًا[1]، وذلك أنّ الكتابَ الموصوفَ بكونه جنسَ الكتابِ لا بدَّ أن يكون بليغًا في التّبيان؛ أي: أنزلْناه لأجل البيانِ على الوجه الأتمِّ والأكمل[2]، وهو مصدرٌ "من المَصادرِ الّتي بُنيَت على هذه الصّيغة؛ لتكثير الفعلِ والمُبالغةِ فيه؛ أي: تَبيينًا لكلِّ علم نافعٍ من خَبَرِ ما سَبَقَ وعِلم ما سيأتي، وكُلِّ حلالٍ وحرام، وما النّاسُ مُحتاجون إليه في أمر دُنياهُم ودينِهم ومَعاشِهم ومَعادِهِم"[3].

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِّكُلِّ﴾:

تَبيينُ القرآنِ الكريمِ عامٌّ لكلِّ شيءٍ

أدخلَ النّظمُ الجليلُ حرفَ الجرِّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّبيينَ واقِعٌ على كلِّ شيءٍ، فشِبهُ الجملة مُتعلِّقةٌ بالتّبيان، واللّام هي لامُ التّقوية؛ لأنّ عبارةَ (كلّ شيء) هي في معنى المفعول به لـ(التّبيان)[4]، فلمّا كان المُبيَّنُ هو كلَّ شيءٍ كان في معنى المفعول به، فجيء باللّام تقويةً لِهذه النّسبة.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿لِّكُلِّ﴾، وفائدةُ إضافتِه إلى ﴿شَيۡءٖ﴾:

كُلُّ ما يُحتاج إليهِ مِن أمورِ الدِّين مُبَيَّنٌ حُكمُه في القرآن الكريم

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ ﴿لِّكُلِّ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ للدّلالة على عُموم البيانِ، فهو يبيّنُ كلَّ ما يتعلّقُ بالدّين، ومن ذلك أحوالُ الأُممِ مع أنبيائهم عليهم السلام، فيكونُ بمَنزِلةِ الدّليل على كونه عليه السلام شهيدًا عليهم[5]، وإضافتُه إلى لفظِ ﴿شَيۡءٖ﴾؛ للدّلالة على تأكيد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 135.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 233.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 402.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 254.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 135.

التّعميم، فيشمل ما ورَدَ مِن أسئلتِهم ووقائعِهِم وغيرها[1]، والعُمومُ المُرادُ بـ (كلّ) عُمومٌ مُقيَّدٌ بالعُرفِ، فهو عُمومٌ عرفيٌّ المقصودُ به ما يجيءُ به الدّينُ أو تَرِدُ بِهِ الشّرائعُ[2]، فهو يشمَلُ ما هو ضروريٌّ، ويُحتاجُ إليه في "الشّرعِ، ولا بدَّ منه في المِلَّة، كالحلالِ والحرامِ، والدّعاءِ إلى اللّه، والتّخويفِ من عذابِه"[3].

دلالةُ عطف الهُدى والرَّحمَة والبُشرى على التّبيان:

تَقييدُ البَيانِ وتَخصيصُه

عَطَفَ النّظمُ الجليلُ الهدى والرّحمةَ والبشرى في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ﴾ على التّبيان في قوله تعالى: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لبيان المقصودِ من ذلك التّبيان وتقييده، فلمّا "كان التِّبيانُ قد يكونُ للضَّلال قال تعالى: ﴿وَهُدٗى﴾؛ أي: موصِلًا إلى المقصودِ، ولمّا كان ذلك قد لا يَكونُ على سبيل الإكرام؛ قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾، ولمّا كان الإكرامُ قد لا يكونُ بما هو في أعلى طبقاتِ السّرورِ؛ قال سبحانَه: ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾؛ أي: بِشارةً عَظيمةً جدًّا"[4]، فالعطفُ جيءَ به لتخصيصِ عموم التّبيانِ وتقييدِهِ بكونِه للهُدى والرّحمة والبشارة، فالمَذكوراتُ بعدَهُ وجودُهنَّ مُؤسَّسٌ عليه، وهنَّ مُقيِّداتٌ له.

علّةُ ترتيب المعاني الواصفةِ الكتابَ:

التَّرقّي في ذِكرِ الأوصافِ مِن لطيفِ بلاغةِ النّظم المُعجِز

رَتَّبَ النّظمُ الجليلُ أوصافَ القرآن الكريم في قوله جلّ شأنُه: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ﴾ ترتيبًا بحسب الوجودِ، فهو ترقٍّ مِنَ السّببِ الأدنى إلى الغاية العُليا، فلم يكن سَردُها كيفما اتّفقَ، أو حشرًا وحشدًا بلا سببٍ، فالنّظمُ البليغُ مُنزَّهٌ عن ذلكَ كُلِّهِ، ووراءَ كُلِّ شيءٍ علّةٌ، فذُكِرَ التّبيانُ أوّلًا؛ لأنّه أساسُ الهداية، فهو يُحقّقُ الهدى، والهدى يُحقِّقُ الرّحمةَ، ويكونُ سببًا موجِبًا لها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 253.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 415.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 235.

والرّحمةُ من لوازمها ونهاياتها البشارةُ بحُسن الختامِ وحُسنِ المآلِ، فكان التَّدرُّجُ بحسب الأسبقيَّة، فكلُّ مذكورٍ يُحقِّقُ ما بعدَه.

دلالةُ لام الجرِّ، وعلّةُ اختصاصِهم ببركات الكتاب:

انتِفاعُ أهلِ الإسلامِ بالقرآنِ الكريمِ دونَ مَن عَداهُم

أدخلَ النّظمُ الجليلُ لامَ الجرِّ الدّالّة على التّخصيص في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ للدّلالة على اختصاص الهِداية والرّحمةِ والبشارةِ الكائنةِ من هذا الكتاب بالمُسلمين دون غيرِهم؛ وإنّما خصَّ المُسلمين بذلك؛ لأنّهم هُمُ المُنتفعون به دون سِواهُم مِنَ المُعرِضين والكافرين[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البعثُ والإرسالُ:

الإرسالُ يقتضي الـرّسـالـةَ، والـبـعـثُ للشّهادة أعمُّ مِنَ الإرسالِ

البعثُ كالإرسالِ، لكنّه أعَمُّ منه؛ لأنّه "يجوزُ أن يبعثَ الرّجلُ إلى الآخر لحاجةٍ تخصُّهُ دونَك ودون المبعوثِ إليه، كالصّبيّ تبعثُه إلى المَكتَب، فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أرسلتُه؛ لأنّ الإرسالَ لا يَكونُ إلّا برسالةٍ وما يجري مَجراها"[2]، فالإرسالُ مُختصٌّ بوجود رسالةٍ، وأمّا البعثُ فهو أعمُّ؛ إذ لا يَقتَضي وجودَ رسالةٍ.

والأظهرُ في الفرقِ بينَهما ما ذَكَرَهُ ابنُ الزُّبَيرِ الغَرناطيُّ مِن أنَّ الفعلَ (أرسَلَ) أخصُّ في بابِ الإرسالِ مِنَ البعثِ؛ "إذ لا يُقالُ: أرسَلَ، إلّا فيما كانَ تَوجيهًا، فيهِ معنى الانتِقالِ حقيقَةً أو مَجازًا، أمّا (بَعَثَ) فأوسَعُ؛ فإنَّهُ يَقعُ بمعنى الإرسالِ، وبمعنى الإحياءِ، ومنهُ: البَعثُ الأُخراويُّ"[3].

وفي الآية آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالبعث، فقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا﴾؛ لكونِ البَعثِ أكثرَ معانيَ مِنَ الإرسالِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 136.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 216.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾

[النّحل: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من بيانِ القرآنِ الكريمِ جَمعُه لأصولِ التَّشريعِ

بعد أن خَتَمَ النّظمُ الجليلُ الآيةَ السّابقةَ بأنَّ هذا القرآنَ تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، وهدى ورحمةٌ وبُشرى للمسلمينَ، وقد تقدَّمَ بيانُ فضلِ مَن يأمرُ بالعدلِ وهو على صراطٍ مُستقيم؛ أخذَ يبيِّنُ تضمُّنَ القرآنِ على أصولِ الهُدى في التّشريع، وتضمُّنَه الهدايةَ إلى الصّراط المُستقيم، فجَمَعَ ما يتّصلُ بالتّكاليف فرضًا ونفلًا، وما يتّصلُ بالأخلاق والآدابِ عُمومًا وخصوصًا في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾: العينُ والدّالُ واللّامُ تدُلُّ اشتقاقاتُه على استواءٍ، ومنهُ العَدلُ مِنَ النّاسِ؛ وهو المَرْضيُّ المُستَوي الطَّريقَة[2]، فالعَدلُ ما قامَ في النُّفوس أنَّه مُستقيمٌ، ويأتي بمعنى الحُكم بالحقِّ، وضِدُّهُ: الجَورُ، يُقالُ: عدَلَ، يَعدِلُ، عَدلًا: إذا حَكَمَ بالعَدلِ، والعَدلُ أيضًا: قيمَةُ الشَّيءِ وفِداؤُهُ، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ [البقرة: 123]؛ أي: فِديَةٌ، وكُلُّ ذَلِكَ مِنَ المُعادلة، وهيَ المُساواةُ، ويُطلَقُ على القَصدِ في الأمورِ، أو الأمرِ المتَوسِّطِ بينَ طرفي الإفراطِ والتَّفريطِ[3]، والمقصودُ بالعَدلِ في الآية: إعطاءُ الحَقِّ إلى صاحِبِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 254.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).
(3) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم، والفيّوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).

2) ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾: الحُسنُ ضِدُّ القُبحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ، وامرأةٌ حَسناءُ وحسّانَةٌ[1]، والإحسانُ: الإتيانُ بِما هو حَسَنٌ، يُقالُ: أحسَنَ فُلانٌ يُحسِنُ إحسانًا؛ أي: أتى بِشيءٍ حَسَنٍ، والحَسَنُ: الجَيِّدُ، وضِدُّهُ: القَبيحُ والسَّيِّئُ، والحَسَنُ أيضًا: ما كانَ مَحبوبًا عندَ المُعامَلِ به، ولَم يَكُنْ لازِمًا لِفاعِلِه، وأعلاهُ ما كانَ في جانِبِ اللّه تعالى، ودونَ ذلكَ التَّقَرُّبُ إلى اللّه بالنَّوافِلِ[2]، ويأتي الإحسانُ بمعنى الإتقانِ والإجادَةِ، والإحسانُ أيضًا: ضدُّ الإساءَة، ومنه قَولُه ﷻ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرّحمن: 60]؛ أي: ما جَزاءُ مَن أحسَنَ في الدُّنيا إلّا أن يُحسَنَ إليهِ في الآخِرَة[3]، والمُحسِنُ: المُتقِنُ المُجيدُ لِعَمَلِه[4]، والمقصودُ بالإحسانِ في الآيةِ: فِعلُ كُلِّ مَندوبٍ إليه[5].

3) ﴿وَإِيتَآيِٕ﴾: الهمزةُ والتّاءُ والياءُ تدُلُّ تصريفاتُها على وصولٍ أو تقدُّمٍ وحضورٍ إلى مكانٍ أو شيءٍ، بتَهيئَةٍ أو قوَّةٍ تُزيلُ ما يعوقُ، مع خفاءِ مَصدَرٍ[6]، والإتيانُ: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهه: أتِيٌّ وأتاوِيٌّ، والإتيانُ قد يُقالُ للمجيء بالذّات، وبالأمر، والتَّدبير، ويُقالُ في الخير، وفي الشَّرِّ، وفي الأعيان، وفي الأعراض، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26]، وقوله: ﴿أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 40][7]، والإيتاءُ: الإعطاء، يُقالُ: آتَى يُؤاتي إيتاءً، وآتاهُ إيتاءً؛ أي: أعطاه، ويُقالُ: لِفُلانٍ أتوٌ؛ أي: عَطاء، وآتاهُ الشَّيءَ؛ أي: أعطاه إيّاه[8]، والمقصودُ بالإيتاءِ في الآية: الإعطاءُ، والمُرادُ به: إعطاءُ المالِ.

4) ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: أصلُ القُربِ: يدُلُّ على خِلافِ البُعدِ، يُقالُ: قَرُبْتُ منه أقرُبُ، وقَرَّبتُهُ أُقَرِّبُهُ قُربًا وقُربانًا، ويُستعمَلُ ذلك في المكان، وفي الزَّمان، وفي النِّسبة، وفي الحظوَة، والرِّعاية، والقُدرَة[9]، والقُربَةُ: الوَسيلَةُ وكُلُّ ما يُتَقَرَّبُ بِه كالطّاعَةِ ونَحوِها، وأصلُها مِنَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 255.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (حسن).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 586.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو، أتى).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أتي)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 43.
(8) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرب).

القُربِ، وهو: الدُّنوُّ[1]، والتَّقَرُّبُ: التَّدَنّي والتَّواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ[2]، وذو القُربَى: صاحِبُ القَرابَةِ، والقُربَى: فُعلَى؛ اسمٌ للقُربِ، مَصدَرُ (قَرُبَ)، كالرُّجعَى، والمُرادُ بِها: قَرابَةُ النَّسَبِ، كما هو الغالِبُ في هذا المُرَكَّبِ الإضافيِّ؛ وهو قَولُهُم: ذو القُربَى[3].

5) ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: أصلُ الفُحشِ: الزّيادَةُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقالُ: فَحَشَ وزنُهُ، يَفحُشُ، فُحشًا؛ أي: زادَ وجاوَزَ الحَدَّ المُعتادَ، وكُلُّ شَيءٍ جاوَزَ قَدرَهُ فهو فاحِشٌ، والفُحشُ أيضًا: القُبحُ والسّوءُ مِن القَولِ أو الفِعلِ، يُقالُ: فَحَشَ وفَحُشَ وأفحَشَ علينا، فُحشًا: إذا سَبَّنا وقالَ قَولًا فاحِشًا، والفاحِشَةُ: القَولُ أو الفِعلُ القَبيحُ[4]، ومِن مَعاني الفحش أيضًا: الذَّنبُ، والزِّنا، والبَذاءُ، والوَقاحَةُ[5]، والمقصودُ بالفَحشاءِ في الآية: اسمٌ جامِعٌ لِكُلِّ عَمَلٍ أو قَولٍ تَستَفظِعُهُ النُّفوسُ لفَسادِهِ مِنَ الآثامِ الَّتي تُفسِدُ نَفسَ المَرءِ: مِن اعتقادٍ باطِلٍ أو عَمَلٍ مُفسِدٍ لِلخَلقِ[6].

6) ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾: النّونُ والكافُ والرّاءُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على خِلافِ المَعرِفَةِ الَّتي يَسكُنُ إليها القَلبُ، يُقالُ: نَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَم يَقبَلْهُ قَلبُهُ، ولَم يَعتَرِفْ به لِسانُهُ[7]، والمُنكَرُ شرعًا: ما نهى اللّهُ تعالى عَنهُ ورسولُه ﷺ[8]، والإنكارُ: نَفيُ الشَّيءِ وجَحدُهُ ورَدُّهُ، يُقالُ: أنكَرتُ حَقَّهُ؛ أي: جَحَدتُهُ ونَفَيتُهُ، وكلُّ ما جَهِلَهُ النّاسُ وجَحَدوهُ فهو مُنكَرٌ، والتَّنَكُّرُ: التَّنَقُّلُ مِن حالٍ تَسُرُّ إلى أُخرى تُكرَهُ، والنَّكيرُ اسمٌ للإنكار الّذي يُعنَى به التَّغيُّرُ[9]، والمقصودُ بالمُنكَرِ في الآيةِ: ما تَستَنكِرُهُ النُّفوسُ المُعتَدِلَةُ وتكرَهُهُ الشَّريعةُ من فِعلٍ أو قَولٍ[10].

7) ﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾: البغيُ: جِنسٌ مِنَ الفَسادِ، مِن قَولِهِم: بَغَى الجُرحُ؛ إذا تَرامَى إلى فسادٍ، والبَغيُ: الظُّلمُ والاعتِداءُ، يُقالُ: بَغَى، يَبغي، بَغيًا، فهو باغٍ؛ أي: ظالِمٌ مُعتَدٍ، والبغيُ:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قرب).

(2) الخليل، العين: (قرب).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 49، 14/ 257.

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فحش)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 257.

(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فحش).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 257.

(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).

(8) ابن عثيمين، شرح الأربعين النّوويّة، ص: 333.

(9) الخليل، العين: (نكر).

(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 257.

الاعتِداءُ على حقِّ الآخرينَ بِسَلبِ أموالِهم أو بأذاهُم، والكِبرُ على النّاسِ مِن جُملةِ البَغي، والبُغاةُ: الَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ[1]، والمقصودُ بالبَغي في الآية: الاعتداءُ في الـمُعامَلَة[2].

8) ﴿يَعِظُكُمۡ﴾: الواوُ والعينُ والظّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على الزَّجرِ المُقتَرِنِ بتخويفٍ، والعِظَةُ: الاسمُ مِنهُ، قالَ الخَليلُ: هو التّذكيرُ بالخيرِ ونحوه ممّا يَرِقُّ له قلبُهُ[3]، والواعِظُ: النّاصِحُ[4]، ويأتي الوَعظُ بمعنى الأمرِ بالطّاعةِ والتَّوصيةِ بها، فيُقالُ: وعَظَهُ؛ إذا أمَرَهُ ووَصّاهُ بالطّاعَةِ، واتَّعَظَ فُلانٌ؛ أي: قَبِلَ المَوعِظَة، وكَفَّ نَفسَهُ عن الخَطأ[5]، والمقصودُ بالوعظِ في الآيَة: كلامٌ يُقصَدُ منهُ إبعادُ الـمُخاطَبِ به عَنِ الفَسادِ وتَحريضُهُ على الصَّلاح[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمرُ بمَكارِمِ الأخلاقِ، والنَّهيُ عَن سَفسافِها

يقولُ تعالى موجِّهًا عبادَه إلى أمَّهاتِ الفضائلِ، ومَكارمِ الأخلاقِ، ومُحذِّرًا من الرَّذائلِ: إنَّ اللّهَ يأمُرُ عِبادَه بالإنصافِ، وأداءِ حُقوقِه تعالى، وحُقوقِ عبادِه، ويأمُرُ بالإحسانِ في عبادتِه، والإحسانِ إلى خَلقِه، ويأمُرُ بإعطاءِ الأرحامِ حُقوقَهم، وإسداءِ الخَيرِ إليهم؛ صِلةً لهم، وينهَى اللّهُ عن كُلِّ مَعصيةٍ مُتناهيةٍ في القُبحِ كالزِّنا، وينهَى عمّا تَستنكِرُه النُّفوسُ الـمُعتَدِلةُ، وتأباه الشَّريعةُ من فِعلٍ أو قولٍ، وينهَى عن ظُلمِ النّاسِ، والتَّعدّي عليهم في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم، ويُذكِّرُكم اللّهُ - أيُّها النّاسُ - بما يأمُرُكم به، وما يَنهاكم عنه؛ لأجلِ أن تتَذَكَّروه فتَتوبوا إليه، وتَمتَثِلوا أوامِرَه، وتَجتَنِبوا نواهيَه[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 258.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (وعظ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (وعظ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وعظ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 260.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 336، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 596، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 447، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 435.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الاستِئنافِ في الآية الكريمة:

تبيينُ القُرآنِ الكريمِ أصولَ الشَّريعةِ مِنَ الأوامِرِ والنَّواهي

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فهي تبيّنُ الإجمالَ في الآية السّابقةِ، فلمّا ذَكَرَ أنّ هذا الكتابَ تِبيانٌ لكلّ شيءٍ وهدى ورحمةٌ وبُشرى للمُسلمين، كأنّه أُثيرَ سؤالٌ مفادُه: بأيِّ شيءٍ كانَ كذلك؟ فاستأنفَ وشرَعَ في "تِبيانِ أصولِ الهُدى في التّشريعِ للدّين الإسلاميِّ العائدَةِ إلى الأمر والنَّهي؛ إذِ الشّريعةُ كلُّها أمرٌ ونهيٌ، والتّقوى مُنحَصِرَةٌ في الامتثالِ والاجتنابِ، فهذِهِ الآيةُ استِئنافٌ لِبيانِ كَونِ الكتابِ تِبيانًا لكلِّ شيءٍ، فهي جامِعَةٌ أصولَ التَّشريعِ"(1).

علَّةُ التَّعبيرِ بالجُملة الاسميّة واستِهلالها بحرف التَّوكيدِ:

أوامِرُ اللهِ تعالى مُؤكَّدةٌ ثابتَةٌ لا تَتَحَوَّلُ

آثرَ النّظمُ البليغُ التّعبيرَ بالجملةِ الاسميّةِ المستهلَّة بحَرفِ التّأكيد (إنّ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ للدّلالة على تأكيد مَضمونِ الخبرِ وتقويتِه؛ تثبيتًا له في ذِهنِ السّامعِ، وللدّلالة على أنَّ المعانيَ المُضمَّنَةَ فيها هي معانٍ ثابتةٌ راسخةٌ في كتاب اللّه تعالى ودينِه، فالأمرُ بالعَدلِ وما تَبِعَهُ أوامرُ ثابتةٌ مُؤكَّدةٌ لا تزولُ ولا تَحولُ.

إيثارُ استِعمالِ الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ اسمِ اللهِ (الرَّبّ):

تَنبيهُ السّامعِ إلى مكانَةِ المأمورِ بِهِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ الدّالِّ على العظمَةِ والجلالِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾؛ أي: إنّ اللّهَ تعالى وهو المَلِكُ المُستَجمِعُ لصفاتِ الكمالِ يأمُرُ بذلك(2)، فإيرادُ الاسمِ الأحسنِ يخلَعُ التّعظيمَ والتّفخيمَ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 254.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 235.

المأمورِ به؛ إيماءً وتنبيهًا للسّامع على عِظم مكانةِ المذكوراتِ ضِمن السّياقِ؛ ليتحقَّقَ الالتزامُ، والأخذُ بها بلا توانٍ.

دلالةُ تَقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ:

أوامرُ اللّه تعالى ونواهيه ثابتةٌ قاطعةٌ

قَدَّمَ النّظمُ الجليلُ المُسندَ إليه في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ دون أن يقولَ: يأمرُ اللّهُ بالعدل تشريفًا للمأمورِ به[1]، واستهلالُ الجملة بالاسم الأحسَنِ بأن يكونَ مبتدأً، وتكونَ الجملةُ اسميّةً، أبلغُ مِن جَعلِهِ مُسندًا إليه فاعلًا؛ لأنّ الجملةَ الاسميّةَ أبلغُ في الدّلالة على المَعنى وثبوتِه وتأكيدِه، كما أنَّ في ذلك تفخيمًا للمَعنى وتَعظيمًا.

سِرُّ التّعبيرِ بلفظ ﴿يَأۡمُرُ﴾ دون غيره:

العَدلُ والإحسانُ والإنفاقُ على الأقاربِ مِن واجِبِ أمورِ الدِّيانَة

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ الأمرِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ دون غيرِه مِنَ الأفعال، كأنْ يقولَ (يدعو)؛ لأنّ الأمرَ يدُلُّ على الوجوبِ والإلزام، والمذكوراتُ في سياقه مِنَ العدلِ والإحسانِ والنّفقاتِ على الأقاربِ المُحتاجينَ ممّا يَجِبُ أداؤُه.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغَةِ المُضارِعِ:

أمرُ اللّهِ تعالى بالعدل دائمٌ مُستمرٌّ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المُضارعِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ للدّلالة على التَّجدُّدِ والدّوام[2]، فلا يأتي زمانٌ إلّا ويكون أمرُ اللّه فيه بالعدل ثابتًا، وهذا فيه إشارةٌ إلى مكانةِ العَدلِ في شرعِ اللّه تعالى وفي حياةِ النّاس، وفي موازينِ يَومِ القيامةِ يومَ العرضِ على اللّهِ ﷻ.

بلاغةُ حذفِ المعمولِ في ﴿يَأۡمُرُ﴾:

تأكيدُ الصِّفاتِ المُستَحسَنَةِ في طَبعِ كُلِّ إنسانٍ

حَذَفَ النّظمُ البليغُ المفعولَ به مِنَ الفعل يأمُرُ في قوله جلّ شأنُه:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 254.

(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/ 302.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، فلم يقُلْ: (يأمركم)؛ لأنّ الأمرَ هنا عامٌّ، وليسَ موجَّهًا لمخاطَبٍ مُعيَّنٍ، بل على النّاس جميعًا أن يعملوا بها، فهي من الصّفاتِ المُستَحسَنَةِ في طَبعِ كلِّ إنسانٍ، فكلُّ إنسانٍ سويٍّ مأمورٌ بذلك، وفي إيراد المذكوراتِ بهذا الأسلوب مِنَ الأمر الدّالِّ على العُموم تأكيدُ مكانتِها.

العُدولُ عَنِ الأمرِ المباشرِ (اعدِلوا وأحسِنوا وآتوا):

التّصريحُ بالآمِرِ العظيمِ تعظيمٌ وتفخيمٌ للمَأمورِ بِه

عَدَلَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ عن سَوْقِ الأمرِ بالعدلِ وما عُطِفَ عليه بطريقةِ الأمر المُباشر؛ إذ لم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: اعدِلوا وأحسِنوا وآتوا؛ لِما في ذلك من دلالةٍ على التّشويق[1]، وجَعَلَ تلك المَأموراتِ في جملةٍ فعليّةٍ مُسندَةٍ إلى المبتدأ الّذي هو الاسمُ الجليلُ؛ وفي ذلك تأكيدٌ ومبالغةٌ في إيجابِها، فالتّصريحُ بأنّ اللّهَ تعالى هو الّذي يأمرُ بذلك يَخلَعُ على المأمورِ به تفخيمًا وتعظيمًا، ممّا يقتضي شدّةَ الإلزامِ به، وقوّةَ وجوبه، وإنّما جيءَ بهذا الأسلوب مع هذه المَذكورات؛ لعظم أهمّيّتِها في حياة النّاسِ عُمومًا.

فائدةُ الباءِ في قوله: ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾:

دلالةُ الباءِ على إيصالِ الأمرِ إلى المأمورِ به

أدخلَ النّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ الباء على المأمورِ به في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾؛ وهي دالّةٌ على الإلصاقِ أو المُصاحبةِ[2]؛ لبيان المأمورِ بِه، فالباءُ توصلُ أثَرَ الفعلِ إلى مُتعلّقِه، والمرادُ: تخصيصُ أمرِه تعالى بالمذكورات، فاللّهُ تعالى يأمرُ عُمومًا، فلمّا أُريدَ تخصيصُ المأمورِ به في الآية جيءَ بالباء لبيانِ تعلُّقِ الأمرِ بالمذكوراتِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 254.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 43.

إيثارُ استعمالِ (العدل) دون القِسطِ:

العدلُ أدلُّ على الإنصافِ مِنَ القِسطِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ العدلِ دونَ القِسْطِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ لأنّه يدُلُّ على مفهوم المُساواة[1]، أمّا القِسطُ فهو النّصيبُ العادِلُ، ويَردُ القِسطُ بمعنى أخذِ قِسطِ غيره، وذلك جَور، والإقساطُ: أن يُعطيَ قِسطَ غيرِه، وذلك إنصافٌ[2]، وفي الفَرقِ بينهما قال أبو هلالٍ: "القِسْطُ هوَ العدلُ البيّنُ الظّاهِرُ، ومِنه سُمّي المِكيالُ قِسطًا، والميزانُ قسطًا؛ لأنَّهُ يُصَوِّرُ لَك العدلَ في الوَزن حتَّى تراهُ ظاهرًا، وقد يكونُ مِنَ العدلِ ما يَخفى، ولِهَذا قُلنا: إنّ القسطَ هوَ النَّصيبُ الَّذي بيّنت وجوهَهُ، وتقسّطَ القَومُ الشَّيءَ: تقاسَموا بِالقِسطِ"[3]، فالعَدلُ قَد يكونُ فيهِ خفاءٌ لا يَعلَمُه إلّا صاحِبُ الشّأن؛ فلِذا آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بِه لِكَونه أشمَلَ وأدقَّ على تحقيقِ العَدالة.

سِرُّ استعمالِ المَصدرِ:

بيانُ الحقائق الثّابتة الّتي يأمرُ الله تعالى بها

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمَصادِرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ دونَ أن يقولَ: أن تَعدِلوا وأن تُحسِنوا؛ لأنَّ المرادَ أنَّ اللّهَ تعالى يأمُرُ بهذِهِ المفاهيم، فهي مَسوقةٌ لبيانِ أيّ شيءٍ يأمُرُ اللّهُ تعالى به، وليسَت مَسوقَةً لتوجيهِ الأمر للمُخاطَبين بصورَةٍ مُباشِرَةٍ.

سِرُّ ترتيبِ المأموراتِ في الآيةِ:

الأمرُ بأصلِ الأعمالِ مُقدَّمٌ على فروعها

أوردَ النّظمُ الجليلُ الأوامرَ الثّلاثةَ مُرتَّبةً على ما وردَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فقدَّمَ العدلَ؛ لأنّه القدرُ الواجبُ مِنَ الطّاعة وأعمالِ الخير، وأتبعَه بالإحسان؛ لأنّه

(1) الرّاغب، المفردات: (عدل).
(2) الرّاغب، المفردات: (قسط).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.

الزّيادةُ في ذلك، وأتبعَه بصلة الرّحم؛ لأنّها مِن أشرف الإحسانِ[1]، فالعَدلُ يَعني التّوسُّطَ بينَ الإفراطِ والتّفريط، ومعنى أمرِهِ سُبحانَهُ بالعَدلِ أن يأتيَ العبدُ عبادتَه على التَّوسُّطِ لا يميلُ إلى جانب التّفريطِ ولا إلى جانب الغلوِّ والإفراطِ، وأمّا الإحسانُ فيُطلَقُ على التَّفضُّلِ بما لم يجبْ، كصدقة التَّطوعِ، وقد يكونُ قدرٌ من الإحسانِ واجبًا، ومنَ الإحسانِ: إيتاء ذي القربى، وصلة الرّحم[2].

إيثارُ لفظ ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، ووجهُ الأمرِ به:

محبَّةُ الله تعالى إحسانَ العملِ وإتقانَه

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالإحسان في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾؛ للدّلالة على أنّ اللّهَ تعالى يريدُ أن يأتيَ عبادُه بأعمالِهم وطاعاتِهم على الوجه اللّائق[3]؛ إذ هو "فعلُ الطّاعة على أعلى الوجوهِ، فالعدلُ فرضٌ، والإحسانُ فضلٌ، وهو مُجاوَزَةُ النَّصَفَةِ إلى التَّحامُلِ على النّفسِ؛ لأنّه رُبَّما وقَعَ في الفَرض نَقصٌ، فجُبِرَ بالنَّفلِ"[4].

دلالةُ ذكرِ الخاصّ بعدَ العامِّ:

مِن أخصِّ مَراتبِ الإحسانِ إلى الخَلْقِ تعهُّدُ ذَوي القُربى

ذَكَرَ النّظمُ الجليلُ إيتاءَ ذوي القربى بَعدَ الإحسانِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ ليكونَ من ذِكرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ إذ إنَّ الأمرَ بالإحسان يتناولُ إيتاءَ القُربى، فخصَّ ذِكرَهُ بعدَ العُموم اهتمامًا بشأنه[5]؛ فإنّ ذِكرَ فردٍ من أفرادِ ما يقعُ عليه الإحسانُ يُشيرُ إلى أهمّيّتِه وضرورةِ الاعتناءِ به، فإنَّ إيتاءَ القرابَةِ من جملةِ الإحسانِ، وهُم أولى النّاسِ ببِرِّ العبدِ، "وذلك جامعٌ للإحسانِ في صِلَةِ الرَّحِمِ"[6]، وقد دَأَبَ النّاسُ على الاعتناء بالأبعد

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 133.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/ 302.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 136.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 237.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 136.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 238.

واتّقاءِ شرِّهِ، وغفلوا عنِ القريب؛ لأمنِهم جانبَهُ، فاعْتادوا التّساهُلَ في حقوقِه، فصَرَفوا إحسانَهم إلى الأبعدينَ اجتِلابًا للمَحامِدِ، وحُسنِ الذِّكرِ بين النّاسِ، غيرَ مُكترِثين بالأقرَبين[1].

سِرُّ إفرادِ ﴿ذِى﴾:

الإنـفـاقُ على القَرابَةِ يُقوّي تلاحُمَ الأُسَرِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمُفردِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ دون الجمع؛ إذ لم يردِ النظمُ القرآنيُّ: (إيتاء ذوي القُربى)؛ لأنّ التّعبيرَ بالمُفرد يتناولُ كلَّ واحدٍ منهم، وينتهي بالدّلالة على شمول كلِّ الأفرادِ، ولو جاء التّعبيرُ بالجماعة؛ لتَوَهَّمَ مُتوهِّمٌ أنّ المرادَ الجميعُ على وجهِ الأغلبيَّة، وقد لا يتناولُ آحادَهم، وفائدةُ ذلك رَبطُ الأُسرَةِ بآحادها، والمقصودُ: إيتاءُ الأقربين ومعونَتُهم جميعًا[2].

سِرُّ تقديم الأوامرِ على النّواهي في الآيَةِ:

الـجَـمـعُ بـيـنَ تَحصيلِ المَصالحِ ودَفعِ المَفاسِدِ

قَدَّمَ النّظمُ الجليلُ جملةَ الأوامر في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ على جملة النّواهي في قوله تعالى: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾؛ لأنّ تلك الأوامرَ تؤدّي إلى بناء المجتمعِ الصّالحِ، ثُمَّ أتبعَهُ بالنّهي عَمّا يقوِّضُ بنيةَ ذلك المجتمَعِ[3]، فبدأ بِما يَبني، وأتبعَهُ بِما يُحافِظُ عليهِ ويَقيهِ مِنَ الخَرابِ.

فائدةُ عطفِ جملة المَنهيّات على جملة الأوامرِ:

تـأكـيـدُ الأوامـرِ مَـتـبـوعٌ بتأكيدِ المَناهي

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ إذ لمّا تقدَّمَ الأمرُ بالمكارم؛ عَطَفَ عليه النّهي عَنِ المَساوئ[4]، فالمَنهيّاتُ في حيّزِ التّأكيدِ؛ لأنّها معطوفةٌ على الأفعال المُسندةِ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ المسبوقِ بـ ﴿إِنَّ﴾، فتكون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 256.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4252.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4252.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 238.

المنهيّاتُ مُشتركةً مع المأموراتِ بالتّوكيد، وفي هذا العطفِ جمعٌ لِما يُريدُه اللهُ تعالى وما لا يُريدُه، فيكون ذلك مِن بليغ البيانِ بهذِهِ الآيةِ الجامعةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المُضارع:

تشديدُ النّهي بتجدُّدِهِ ودوامِهِ

آثَرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾؛ للدّلالة على أنّ ذلك النّهيَ مَطلوبٌ على وجهِ الدّوام والاستمرار، وأنّه ليس مُختصًّا بزمانٍ دونَ غيرِه، كما أنَّ التّعبيرَ بالتّجدُّدِ في النّهي يومِئُ إلى شدّةِ هذا النّهي وصَرامَتِه، فهو نَهيٌ دائِمٌ.

دلالةُ إسناد الفعلِ إلى الضّمير المُستتَر:

النّهيُ مَشمولٌ بالتّأكيدِ والإسنادِ إلى الاسم الأحسَن (الله)

عَبَّرَ النّظمُ البليغُ بِجَعلِ الفعل مُسندًا إلى الضّمير المُستَتر في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ ليكونَ بذلك معطوفًا على جملة الأوامرِ، فيُشملَ بالتّأكيد وبالإسنادِ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾؛ إذْ لَو أُظهِرَ الاسمُ الأحسَنُ (الله)، فجاءَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وينهى الله)، لكانَ ذلك جملةً مُستقلَّةً مُنقطِعةً عنِ التَّوكيد المذكورِ في صَدرِ الآية، فيتباينُ أسلوبُ ما أُمِرَ به عن أسلوبِ ما نُهي عنه، فيكون دالًّا على الاهتمام بالمأمورِ أكثَرَ مِنَ الاهتمام بالمنهيِّ؛ إذِ التّأكيدُ يكونُ خاصًّا بالمأمورِ حينئذٍ، إلّا أنَّ سوقَ النّهيِ والأمرِ مَساقَ شيءٍ واحدٍ أوجبَ استتارَ الضّميرِ.

نكتةُ حَذفِ المفعولِ بِهِ:

مِن آثار رحمة الله تعالى مَنعُهُ النّاسَ عمّا يضرُّهم

عَدَلَ النّظمُ الجليلُ عن إظهار المفعول به في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾، فلم يقُلْ: وينهاكُم، فجعلَ النّهيَ عامًّا شاملًا؛ إذْ ساقَهُ مَساقَ الحقيقة، فهو إخبارٌ بأنّ اللّهَ تعالى يَنهى عن القبائح، وليس المُرادُ أنَّه يُخاطبُ مُعيّنين طالبًا منهم الكفَّ عن تلكم المَذكورات، فكما أنّ القرآنَ الكريمَ بيّنَ ما يأمرُ اللّهُ تعالى به؛ فإنّه

قد بيَّنَ ما ينهى عنهُ، وما لا يرضاهُ اللّٰهُ سُبحانَهُ مِنَ الأفعال؛ لِتَكونَ تلك المناهي عامّةً لكلّ أحدٍ مِنَ النّاس، وليسَت خاصّةً بالمُخاطَبينَ.

فائدةُ القيدِ بالجارِّ والمجرور وما عُطِفَ عليهِ:

تقييدُ مُطلَقِ النَّهيِ لِبيانِ المَنهيّات

قيَّدَ النّظمُ الجليلُ فعلَ النّهيِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾ لِلدّلالة على المُزاولة أو المُجاوزة[1]، وفائدةُ هذا القيد: تِبيانُ عِظَمِ المَنهيّ عنه؛ إذْ إنّ الآيةَ الكريمَةَ أجملتِ المَنهيّاتِ بكونها فاحشةً أو مُنكَرًا أو بغيًا، كما أنّ النَّهيَ لمّا كان مُطلقًا، جيءَ بالقَيْدِ لبيانِ أنَّه لا يتناولُ كُلَّ شيءٍ؛ إذْ ذلك خارجٌ عَنِ المَعقول، فبيَّنَ اللّٰهُ سُبحانَهُ بالقيدِ حقيقةَ المَنهيّاتِ.

سِرُّ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ دون (الفاحشة) أو (الفواحش):

(الفحشاء) مُختصَّةٌ بسياق الأمر والنّهي، و(الفاحشة) مُختصَّةٌ بِسياقِ المُزاولَةِ والفِعلِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بصيغَةِ ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ على سبيلِ الإفرادِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ دون الفاحشةِ والفواحشِ؛ وذلكَ لِما بينَها من فرقٍ في الاستعمال؛ حيثُ ورَدَت صيغةُ الفحشاء في سياق الأمرِ والنّهي، أمّا الفاحشةُ - وجمعها: فواحش - فقَد جاءَت في سياقِ إحداثِ الفعلِ ومُزاوَلَتِه، وأمّا من حَيثُ الدّلالةُ في اللّغة فهي بمعنًى واحدٍ: "الفُحشُ والفَحشاءُ والفاحِشَةُ: ما عَظُمَ قُبحُهُ مِنَ الأفعال والأقوال"[2]، فالفَرقُ بينَها إنّما هو في الاستعمال والتّوظيف القرآنيِّ لها، فمن خلال ملاحظةِ اللّفظةِ في الاستعمال القرآنيِّ؛ نجدُ أنّ الفاحشةَ تُطلَقُ على الفعل الفاحش الّذي يُزاوَلُ ويُفعَلُ، وقد غلَبَ استعمالُهُ في الزِّنا، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ [النّساء: 15]، أمّا الفحشاءُ فقد جاءَت في الاستعمالِ القُرآنيِّ في سياقِ النَّهيِ والأمر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: 169].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 43.
(2) الرّاغب، المفردات: (فحش).

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ على ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾:

التّنبيهُ على شَناعَةِ الفَحشاءِ

عَطَفَ النّظمُ الجليلُ لفظَ المُنكَرِ على الفاحشةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾؛ لأنّ الفاحشةَ أخصُّ مِنَ المُنكَرِ؛ ولأنّها تَختصُّ مِنَ "المعاصي الّتي شُنعَتُها ظاهِرَةٌ، وفاعلُها أبَدًا مُتَستِّرٌ بها، وكأنَّهم خَصّوها بمعاني الفُروج، والمُنكَرُ أعمُّ منهُ؛ لأنَّه يَعُمُّ جميعَ المَعاصي والرَّذائِلِ"[1]، فعُطِفَ المُنكَرُ على الفحشاءِ؛ ليَشمَلَ كلَّ نوعٍ من أنواع الأفعالِ الّتي تُستنكَرُ وتُستعَظَمُ؛ صغيرِها وكبيرِها، وما يُتَستَّرُ به وما يُعلَنُ، وفي تقديمِ الخاصِّ منها اهتمامٌ بهِ وتأكيدٌ له، فهو تنبيهٌ على شناعَةِ الفَحشاءِ.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ و﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾:

الجمعُ بينَ الأمرِ بالشَّيءِ والنَّهيِ عَن ضدِّهِ تأكيدٌ على الأمرِ والنَّهي

جَمَعَ النّظمُ الجليلُ بين لَفظَي ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ و﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ تأكيدًا لمكانَةِ العدلِ، وتنبيهًا على شناعَةِ الظّلم؛ فالجَمعُ بينَهُما مَع ذِكرِ الأوّلِ في جُملَةِ المأمورِ به، والآخَر في جُملة المَنهيّاتِ، وهُما نَقيضانِ، يدُلُّ الأمرُ بأحدهما على النّهيِ عَن نقيضهِ بدلالةِ الاقتضاءِ وبِمَفهومِ المُخالَفَة، ففي الجمعِ بينَهُما في الجملة تنبيهٌ على مكانة العدلِ وتأكيدُ وجوبه، وعلى شناعة البغي وتأكيدِ حرمته، وما أحسنَ ما ذكرَه الآلوسيُّ من أنَّ الآيةَ الكريمَةَ جمعَت بين الأمرِ والنَّهيِ مع أنَّ الأمرَ بالشَّيءِ يَستلزِمُ النَّهيَ عن ضدِّهِ، والنَّهيَ عَنِ الشَّيءِ يَستلزِمُ الأمرَ بضدِّهِ؛ لمزيدِ الاهتمامِ والعنايَةِ[2].

إيثارُ لفظ ﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ دونَ لفظ (الظُّلم):

البَغيُ يَشمَلُ إيقاعَ الظّلمِ ونيّةَ إيقاعه

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ البغي دونَ الظّلم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾؛ لأنّ البغيَ أشدُّ مِنَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 416، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 43.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 455.

الظّلم من حيثُ كونُه يَشمَلُ ما وقَعَ فيه التّجاوزُ، وما لم يَقعْ، فهو "طَلَبُ تَجاوزِ الاقتِصادِ فيما يُتَحَرَّى، تَجاوزَهُ أم لم يَتجاوزْهُ"[1]، فهو يدُلُّ على طلب التَّجاوز والعدوان، فإيثارُ التّعبيرِ بهِ في الآية مبالغةٌ في النّهي عن أيِّ تجاوُزٍ كانَ، أمّا التّعبيرُ بالظّلم فيدُلُّ على إحداثِ التَّجاوزِ وإيقاعِه على النّاسِ.

سِرُّ تأخيرِ النَّهي عنِ البَغيِ مع تقدُّمِ ذِكرِ العدلِ في مقابِلِه:

خُصَّ البغيُ بالذّكرِ اهتمامًا بـه لا لإيقاع المقابلةِ بالعدل

أخَّرَ النّظمُ الجليلُ ذِكرَ البَغيِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾، وهو مُقابِلٌ للعدل المُقدَّم في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾؛ لأنّه نوعٌ خاصٌّ مِنَ المُنكَرِ، فهو مُضمَّنٌ فيه، وإنّما خصَّهُ النّظمُ بالذّكر لشِدّة ضَرَرِه بالنّاس[2]، "وسدًّا لذريعَةِ وُقوعِه؛ لأنَّ النّفوسَ تَنساقُ إليهِ بِدافِعِ الغَضَبِ، وتغفُلُ عمّا يَشمَلُهُ مِنَ النَّهيِ من عُمومِ الفحشاءِ بسببِ فُشُوِّهِ بينَ النّاسِ؛ وذلك أنَّ العرَبَ كانوا أهلَ بأسٍ وشجاعةٍ وإباءٍ، فكانوا يَكثُرُ فيهم البَغيُ على الغَيرِ"[3].

علّةُ فصلِ جملة ﴿يَعِظُكُمۡ﴾ عمّا قبلَها:

اقـتِرانُ الأمرِ والنَّهيِ بالوَعظِ أدعى للامتِثالِ

فَصَلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَعِظُكُمۡ﴾ عن قبلها؛ لأنّها جملةٌ حاليّةٌ فعلُها مضارعٌ مُثْبَتٌ؛ وما كان هذا شأنه وجبَ تركُ قَرنِه بالواوِ، وقد جيءَ بجملة الحالِ؛ لِبَيان حالِ الفاعلِ في الفعلَينِ: يأمُرُ وينهى[4]، فلمّا دعاهُم إلى أمّهاتِ الفضائل، ونهاهم عنِ القبائح، وكان ذلك إنّما يكونُ في حالِ الوَعظِ والتّبليغِ، نَبَّهَ عليه بقولِه تعالى: ﴿يَعِظُكُمۡ﴾[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (بغي).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 416.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 258.
(4) صافي، الجدول: 7/ 374.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 239.

نُكتَةُ إيثار لفظِ (الوعظ):

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ الموعظَةِ في قولِه جَلّ شأنُه: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (يَنۡصَحُكم) أو (يوصيكُم)؛ لأنّ الوعظَ أبلغُ في الزَّجرِ عَنِ المنهيِّ عنهُ، وفي الدّعوةِ إلى فِعلِ المأمورِ بِهِ؛ لأنَّ مَعناهُ: زَجرٌ مُقتَرِنٌ بتَخويفٍ[1]، فإيثارُه لِكَونِه أنسبَ لِما ذُكِرَ في السّياقِ مِنَ المَأموراتِ والمَنهيّاتِ.

لفظُ (الوعظ) مُلائِمٌ لِلأمرِ والنّهي؛ لِما يتضمَّنُهُ مِنَ الزَّجرِ

نكتَةُ استِعمالِ صيغةِ المُضارِع:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارعِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ ذلك الوعظَ مُتجدِّدٌ، فاللّهُ تعالى يَعِظُ عبادَهُ وعظًا مُتجدِّدًا، وعِظَتُهُ لا تختصُّ بِزمانٍ دون آخرَ.

تَجَدُّدُ وعظِ اللهِ تعالى لِعبادِهِ

سِرُّ فصلِ جملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلَ قولُ اللّهِ جلّ شأنُه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِهِ مُستأنفًا لإرادةِ التَّعليلِ، فالجملةُ تعليليّةٌ[2]؛ لبيان علّةِ الإخبارِ عن وعظِهِ تعالى المُخاطَبينَ بأنَّ غرضَ ذلك الوعظِ المُستمرِّ أن يكونوا أهلًا للتَّذكُّر.

مِن مَقاصِدِ الوَعظِ تَذكيرُ المُخاطَبِ بِهِ

دلالةُ حرف التّرجّي (لعلّ):

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الرّجاء (لعلَّ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، والمرادُ بِه: التَّعليلُ؛ أي: لأجلِ أن تتذكَّروا، وقد تكونُ (لعلَّ) باقيةً على أصلِ دلالتِها في الرَّجاءِ، ويكونُ الطَّمَعُ مُرادًا به المُخاطَبونَ، فتكونُ (لعلَّ) بمعنى الإطماعِ.

المَرجوُّ مِنَ المُخاطَبِ أن يكونَ بِرُتبةِ مَن يُتوقَّعُ منه

إيثارُ لفظ (التّذكُّر) دون غيرِه:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ التَّذكُّرِ دونَ غيرِه مِمّا يُقارِبُهُ في الدّلالَةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ دون

التَّذكُّرُ كافٍ في حثِّ المؤمنِ على سُلوكِ سبيلِ الفَضائِلِ الظّاهِرَةِ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (وعظ).

(2) صافي، الجدول: 7/ 374.

أن يقولَ: لعلَّكم تَعقلون مثلًا؛ لأنّ المَذكوراتِ ليسَت ممّا يُحوِجُ إلى التَّعقُّل؛ وذلك لظهور فضلِها بلا حاجةٍ إلى كثير من إعمال العقلِ؛ "فإنّ كلَّ أحدٍ؛ من طفلٍ وغيره؛ يَكرَهُ أن يُفعَلَ معَهُ شيءٌ من هذه المَنهيّاتِ"(1)، فإنَّ مُجرَّدَ التَّذكُّرِ كافٍ في حثِّ المُؤمنِ على الالتزامِ بتلك المذكوراتِ، وإدراكِ فضلِها ومكانَتِها؛ فلذا آثرَهُ دونَ غيرِه.

الدَّلالةُ الصّوتيَّةُ لِحذف التّاء في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

أدنى مَراتِبِ التَّذكُّرِ كافٍ في إيجادِ الطّاعَةِ

استعملَ النّظمُ البليغُ الفعلَ المضارعَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ محذوفَ التّاء، وأصلُ الفِعل: تتذكّرون؛ وفي الحذفِ تقليلُ اللّفظ، وذلك يُؤثِّرُ في تقليلِ المعنى، فيكون المرادُ إحداثَ أدنى رُتبةٍ مِنَ التّذكُّرِ مهما كانَ، فإنّه كافٍ في إدراك مَقاصِدِ الوعظِ، وفضائلِ التّشريعِ، وهذا يدُلُّ على أهمّيّة مكانة التَّذكُّرِ، فإنّ قليلَه كافٍ أن يُؤمَرَ به، لكفايتِه في إظهارِ الفضائلِ والحثِّ على الالتزامِ بها، كما أنّه يدُلُّ ضمنًا على أنّ المُؤمنَ يكفيه مِنَ الوعظ والتَّذكُّرِ قليلُه.

علَّةُ إيثارِ استعمالِ الفِعلِ المُضارِع:

مِن مَقاصِدِ التَّشريعِ دوامُ التَّذكُّرِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفِعلِ المُضارِعِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّد والدّوام، فالمُرادُ من ذلك الوعظِ دوامُ التَّذكُّر، والاستمرارُ على حالِ استحضارِ مَوعِظَةِ اللّهِ تعالى.

والدّوامُ على التَّذكُّرِ هو مَصدَرُ الطّاعةِ والثّباتِ عليها، والبعدِ عَنِ المَعاصي والتَّحفُّظِ عنها.

بلاغةُ حذفِ المَعمولِ:

التَّذكُّرُ مَنهجُ المُؤمنين في عُمومِ أفعالِهم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بفعل التَّذكُّرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُطلقًا مِنَ القَيدِ ومِن مَعموله؛ إذ لم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (تتذكّرون ما يَعظُكم اللّهُ به)، أو (ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 239.

يُصلِحُكُم)؛ لأنَّ المرادَ إيجادُ التَّذكُّرِ لذاتِه لا لتعلُّقِه بشيءٍ مُعيّنٍ، اهتمامًا به لمكانتِه، فيكونُ الفعلُ المُتعدّي ههنا مُنَزَّلًا مَنزِلةَ اللّازِم، فلا يُقدَّرُ له مفعولٌ أصلًا.

ويجوزُ أن يكونَ المفعولُ به مَحذوفًا؛ وذلك لأنَّ تركَ ذِكرِ قَيدٍ أو مَعمولٍ يَجعَلُ التَّذكُّرَ دالًّا على العُموم، فيكونُ المرادُ: رجاءَ أن يَتذكّروا عمومَ ما ورَدَ في الذّكرِ الحكيمِ مِنَ النّصحِ، والوعظِ، والتّذكيرِ، والتّرغيبِ، والتّرهيبِ.

بلاغةُ الإيجازِ بالقِصَر:

أجمَعُ آيةٍ للخيرِ والشَّرِّ في القرآنِ الكريم

جاءَ قولُ اللّهِ جلَّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ موجَزًا إيجازَ قِصَرٍ[1]؛ حيثُ أُدّيَت المعاني الكثيرةُ بألفاظٍ يسيرةٍ بلا حَذفٍ، فهذِهِ الجُمَلُ الثّلاثُ جَمَعَت المأموراتِ والمَنهيّاتِ ومرادَ اللّه تعالى من عباده، فجمعَت "ما تضيقُ عنه الدّفاترُ والصّدورُ، وشهدَ لها المعاندون من بلغاء العربِ أنّها بلغَت قاموسَ البحر، وتعالَت عن طوق البَشَر"[2]، فهي أجمعُ آيةٍ في كتابِ اللّه تعالى للخيرِ والشّرِّ، فالعدلُ والإحسانُ لا يَتركان من طاعةِ اللّه شيئًا، ولا تترك الفحشاءُ والمُنكَرُ والبغيُ من معصية اللّه شيئًا، فجُمِعَت كلُّ تعاليم الشّريعةِ في هذه الآية[3].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

العَدلُ والقِسطُ:

العدلُ أدلُّ على الإنصاف مِنَ القِسطِ

قال أبو هلالٍ مُبيِّنًا الفرقَ بينَهما: "القِسطُ هو العَدلُ البَيّنُ الظّاهِرُ، ومنه سُمّيَ المِكيالُ قِسطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنَّهُ يُصَوِّرُ لَك

(1) إيجاز القِصَر: ما كان معناه كثيرًا يزيدُ على لفظه، ولا حذفَ فيه. ينظر: القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 181.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 240.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 226.

العدلَ في الوَزن حتَّى تراهُ ظاهرًا، وقد يكونُ مِنَ العدلِ ما يخفى، ولهذا قُلْنا: إنَّ القسطَ هو النَّصيبُ الَّذي بُيِّنَت وجوهُه"[1]، قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [يونس: 4]، والإقساطُ: أن يُعطيَ قِسطَ غيرِه، وذلك إنصافٌ[2]، والقسطُ: النّصيبُ العادلُ، وأمّا العدلُ فإنَّهُ يدُلُّ على مفهوم المساواة[3]، وقد يكونُ فيهِ خفاءٌ لا يعلمُهُ إلّا صاحبُ الشّأن؛ ولذا آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ به في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ لكونه أشملَ وأدقَّ على تحقيقِ العدالة.

الإحسانُ والإتقانُ:

الإتقانُ جَودَةُ الفِعلِ، والإحسانُ نقاؤُهُ وخُلوصُهُ مِن الشّوائِب

الإحسانُ مِنَ الحَسن، وأصله: شَجَرٌ مُصطَفٌّ بكثيب الرّمل، فالحسن هو الشّجر، سُمّي بذلك لحسنِه، والحسنةُ: جبلٌ أملَسُ ليسَ به صَدعٌ، والحُسْنُ: ضدُّ القُبح ونَقيضُهُ[4]، والحَسَن: كثيبُ الرّمل النّقيّ العالي، ويُقالُ: أحسَنَ الرّجلُ؛ إذا جلَسَ على الحَسَن[5]، والحاسِنُ هو القَمَرُ[6]. فالحَسَنُ والإحسانُ والحسنةُ وغيرها هو مجيءُ الشَّيءِ على صِفَةِ النَّقاءِ في بابِه، وخلوّهِ من مُخالطِ شائبٍ، فهو خُلوصُ الشَّيءِ من كلِّ ما يَعيبُه، فيكون صافيًا نقيًّا في الشّكل والقولِ والعملِ، فالحسنُ يَخلو مِنَ التّقصيرِ والعيبِ كما يخلو كثيب الرّملِ مِنَ الحجر والصّخر[7]، أمّا الإتقانُ فهو من (تَقَنَ)، وأصلُه يدُلُّ على إحكام الشَّيءِ، والطّينِ والحَمأة، تقولُ: أتقَنتُ الشَّيءَ؛ إذا أحكمتَهُ، ورَجُلٌ تِقْنٌ: حاذِقٌ، وابنُ تِقنٍ: رَجُلٌ كانَ جَيِّدَ الرَّمي، يُضربُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.
(2) الرّاغب، المفردات: (قسط).
(3) الرّاغب، المفردات: (عدل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حسن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (حسن).
(7) خير الله الشّمريّ، ألفاظ الإتقان والإحكام في القرآن الكريم، ص: 116.

بِهِ المَثَلُ، وأمّا الحَمأةُ والطّينُ فيُقالُ: تَقَّنوا أرضَهُم؛ إذا أصلَحوها بذَلِكَ[1]، والإتقانُ: إحكامُ الشَّيءِ والإتيانُ به على أتمِّ صورةٍ[2] وأكملِ حالٍ، وهو من قولِهم: تَقَّن أرضَه؛ إذا ساقَ إليها الماءَ الخاثرَ بالطّينِ لتَصلُحَ لِلزّراعة[3]، فيختصّ الإتقانُ بالجَودة، بأن يَأتيَ الشّيءُ على جَودَةٍ وصالحٍ، وجعله جيّدًا صالحًا في بابه، وإتقانُ الفعلِ يأتي من توفُّر لوازم جَودَته، وتأتي الجودةُ من استقرارِ ما يوفِّرُ جودةَ الفعل، كاستقرارِ المُكنَةِ اللّغويَّةِ الّتي توفِّرُ الفصاحةَ، وكترسُّبِ خَثارة الطّينِ الّتي تُسبِّبُ خصوبةَ الأرض؛ فهو استقرارُ صفاتِ الجودةِ وتمكُّنُها[4]، وقد آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالإحسانِ هنا؛ لأنَّ المرادَ أن تكونَ الأعمالُ حسنَةً على أتّم وصفِ النَّقاءِ.

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ مُناسِبٌ لِما كان كثيرًا أو عظيمًا، والإعطاءُ مُناسِبٌ للقليلِ غالبًا

قال الرّاغبُ: "الإيتاءُ: الإعطاءُ، وخُصَّ دفعُ الصّدقةِ في القرآنِ بالإيتاء"[5]، ويُلاحَظُ أنّ الإيتاءَ يُستعمَلُ فيما كان كثيرًا عظيمَ الشّأن، كالملك، والحكمة، والرّحمة، والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 269]، وقوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، أمّا الإعطاءُ فيُستعمَلُ في الشّيءِ القليلِ، قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النّجم: 34]، فلم يَرِدِ العطاءُ دالًّا على الشّيء الكثير، إلّا إذا وُجِدَ ما يدُلُّ على ذلك، كما في قوله: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، فلِكَونِ العطاءِ مَنسوبًا للّه تعالى؛ دلَّ ذلك على الكثرةِ، وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تقن).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (تقن).
(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 8/ 646.
(4) خير الله الشّمريّ، ألفاظ الإتقان والإحكام في القرآن الكريم، ص: 122.
(5) الرّاغب، المفردات: (أتى).

﴿٥﴾ [الضّحى: 5]، ولمّا كان المأمورُ بِهِ في الآية الصّدقةَ على ذوي القُربى، وهم مَظنّةُ الكثرةِ؛ ناسبَ أن يَستعمَلَ ما يدُلُّ على الكثرةِ، فقال جلّ شأنُه: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

البَغيُ والظُّلمُ:

البغيُ اعتداءٌ وتَطاوُلٌ بالعُدوانِ، والظّلمُ نقصانُ الحقّ

البَغيُ: شدَّةُ الطّلبِ لما لَيسَ بِحَقٍّ، يُقالُ: بَغَى الجُرحُ يَبغي؛ وذلك إذا تَرامى إلى فَسادٍ[1]، وأمّا الظّلمُ فأصلُهُ: نقصانُ الحقِّ، ونقيضُ الظّلم: الإنصافُ، وهو إعطاءُ الحقِّ على التَّمام[2]، فآثَرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالبغي؛ لأنّه يتضمَّنُ التَّعدّيَ على الآخرين، فهو "التّطاولُ بالظّلمِ والعدوانِ"[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 232.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 172.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 455.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾

[النّحل: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإيفاءُ بالعهود من تمام العدلِ ومُقتضياته

لمّا جَمَعَتِ الآيةُ السّابقةُ المأموراتِ والمَنهيّاتِ على الإجمالِ عَطَفَ على ذلك "بعضَ ما أجمَلَته، وبدأ بما هو مع جَمعِه أهَمُّ؛ وهو الوفاءُ بالعَهدِ"[1]، فلمّا كان قد أمرَ بالعدلِ أتبعَه بالأمرِ بالوفاء بالعهدِ؛ لأنّه من لوازم العدلِ بينَ النّاسِ، فدعا النّظمُ "في هذه الآية إلى العدلِ في وسط الجماعةِ الإسلاميَّة، ودعا إلى العدلِ بَينَ المُسلمين وغيرهم، وميزانُ العدالة الدّوليّة الوفاءُ بالعَهدِ؛ ولذا جاءَ الأمرُ بالوفاءِ بالعَهدِ بَعدَ الأمرِ بالعدل"[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَوۡفُواْ﴾: أصلُ (وفى) يدُلُّ على إكمالٍ وإتمام، ومنه الوفاءُ؛ وهو: إتمامُ العَهدِ وإكمالُ الشَّرطِ، يُقالُ: وفَى، وأوفَى؛ فهو وفيٌّ، ويقولونَ: أوفيتُكَ الشَّيءَ؛ إذا قَضَيتَهُ إيّاهُ وافيًا، وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واستَوفَيتُهُ؛ إذا أخَذتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُكَ منه شيئًا، ومنهُ يُقالُ للمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه[3]، والمُرادُ مِنَ التَّوفيَةِ في الآية: جَعلُ الشَّيءِ وافيًا؛ أي: غير مَنقوصٍ.

2) ﴿بِعَهۡدِ﴾: العينُ والهاءُ والدّالُ تدُلُّ تصريفاتُها على الاحتفاظ بالشَّيءِ وإحداثِ العَهدِ بِهِ، والعَهد في أشياء مُختلفَة؛ فمنها الحِفاظُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 240.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4254.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).

ورعايةُ الحُرمَة، ومِنها الوصيّة؛ وإنَّما سُمّيَت بذلكَ؛ لأنَّ العَهدَ ممّا يَنبغي الاحتِفاظُ بِهِ[1]، والعَهدُ: الأمانُ، ومِنَ العَهدِ أيضًا: اليَمين يحلفُ بها الرَّجُلُ، والعهد كذلك: الميثاق، ومنه قَوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾[2]، والمَعهَدُ: المَوضِعُ الَّذي كنتَ عهِدتَه أو عهِدتَ بِهِ هوًى لَك[3]، والمقصودُ بالعَهدِ في الآيةِ: الحَلِفُ.

3) ﴿وَلَا تَنقُضُواْ﴾: النّونُ والقافُ والضّادُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على الهَدمِ والإفسادِ، وحلِّ أجزاءِ الشَّيءِ بَعضِها عن بَعضٍ، وضِدُّه: الإبرامُ، يُقالُ: نَقَضَ الشَّيءَ يَنقُضُه نَقضًا، وانتَقَضَ وتَناقَضَ: إذا أفسَدَهُ بعدَ إحكامِهِ، ونَقضَ البِناءَ: هَدَمَهُ، ونَقَضَ الحَبلَ أو الغَزلَ: حَلَّ عُقَدَه، ويأتي النَّقضُ بمعنى النَّكثِ، فيُقالُ: نَقَضَ اليَمينَ أو الحُكمَ: إذا نَكَثَهُ، والنِّقضُ أيضًا: اسمٌ للبِناءِ المَنقوضِ، وذلكَ إذا هُدِمَ[4]، والمقصودُ بالنَّقضِ في الآيةِ: إبطالُ المَحلوفِ عليهِ.

4) ﴿ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾: الياءُ والميمُ والنّونُ تدورُ اشتقاقاتُها على أداة قوَّةٍ وعَونٍ أساسيَّةٍ على كُلِّ عمَلٍ[5]، ومِنهُ اليَمينُ: القوَّةُ، ويُطلَقُ على الحَلِفِ والقَسَم، وسُمّي الحَلِفُ بذلك؛ لأنَّهم كانوا إذا تَحالَفوا ضَربَ كلُّ واحدٍ منهم يَمينَ صاحبِهِ؛ ولأنَّ اليدَ اليُمنى من شَأنِها حِفظ الشَّيءِ، وتأتي اليَمينُ بمعنى اليَدِ الجارِحَةِ في مُقابَلَةِ اليَسار؛ لِقوَّتِها بالنِّسبة للشِّمالِ، واليُمنُ: البَرَكَةُ، ويُقالُ: هو مَيمونٌ، وكذلكَ اليَمَنُ، وهو بَلَدٌ، يُقالُ: رَجُلٌ يَمانٍ، وسَيفٌ يَمانٍ[6]، والمقصودُ بالأيمانِ في الآيةِ: جَمعُ يَمينٍ، وهو الحَلِفُ، والمرادُ به: تَوكيدُ القَولِ بِذِكرِ مُعَظَّمٍ بِصيغةٍ مَخصوصَةٍ.

5) ﴿تَوۡكِيدِهَا﴾: الواو والكافُ والدّالُ تدُلُّ تَصريفاتُها على شَدٍّ وإحكام، يُقالُ: أَوْكِدْ عَقدَكَ؛ أي: شُدَّهُ، والوِكادُ: حَبلٌ تُشَدُّ به البَقَرَةُ عِندَ الحَلَبِ، ويَقولونَ: وَكَدَ وَكْدَهُ؛ إذا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عهد).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، النّوويّ، تهذيب الأسماء واللّغات: (عهد).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المحكم، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (نقض).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يمن).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (يمن).

أمَّهُ وعُنيَ بِهِ[1]، والتَّأكيدُ: مَصدَرُ أكَّدَ الأمرَ يُؤَكِّدُهُ تَأكيدًا، ويَدخُلُ التَّوكيدُ في الكلامِ لإخراجِ الشَّكِّ، وفي الأعدادِ لإحاطَةِ الأجزاءِ[2]، والمقصودُ بالتَّوكيدِ في الآية: التَّوثيقُ، وهو ضِدُّ النَّقضِ[3].

6) ﴿كَفِيلًاۚ﴾: الكافُ والفاءُ واللّامُ تدورُ اشتقاقاتُها على تَضَمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ، ومنه سُمّيَ الكِساءُ الَّذي يوضَعُ على ظَهرِ البَعيرِ كِفلًا؛ لأنَّهُ يَدورُ عليه ويَشمَلُهُ[4]، والكَفيلُ: الضّامِنُ، تَقولُ: كَفَلَ به يَكفُلُ كَفالَةً، والكافِلُ: الَّذي يَكفُلُ إنسانًا يَعولُهُ، والكَفالَةُ: الضَّمانُ، ويأتي الكفيلُ بِمعنى العائِلِ الّذي يَقومُ على حاجَةِ غَيرِه، يُقالُ: كَفَلَ اليَتيمَ والصَّغيرَ يَكفُلُهُ كَفلًا وكَفالَةً: إذا رَبّاهُ وقامَ بأمرِهِ، وتَعَهَّدَ برِعايَتِهِ[5]، والمقصودُ بالكفيل في الآية: الشّاهِدُ والضّامِنُ والرَّقيبُ على الشَّيءِ المُراعَى لِتَحقيقِ الغَرَضِ منه[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نقضُ العُهودِ بَعدَ إشهادِ الله تعالى عليها تركٌ لتَعظيمِه سُبحانَهُ

بَعدَ أن ذَكَرَ اللّهُ سبحانَه المأموراتِ والمَنهيّاتِ بطريق الإجمالِ في الآيةِ السّابقة، ذَكَرَ بعضَها على سبيل التَّخصيصِ، فقالَ: وأوفوا - أيُّها النّاسُ - بجَميعِ العُهودِ، فيما بَينَكم وبين رَبِّكم، وفيما بَينَكم وبَينَ النّاسِ، ولا تُخالِفوا العُهودَ الّتي أكَّدتُموها وغَلَّظتُموها بالحَلِفِ باللّه، ولا تَحنَثوا في الأيمان الّتي تَحلِفون بها عند البَيعَة وغيرِها، ولا سيّما الأيمانُ الّتي أكَّدتُموها بتَكرارِها وتَنويعِها، وقد جعَلتُمُ اللّهَ عليكم حَفيظًا وشَهيدًا ومُتكَفِّلًا بوفائِكم بالعُهودِ، فيَكون ذلك منكم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكد).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وكد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 262.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 262.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، المُطَرّزيّ، المُغرب في ترتيب المُعرب، وابن منظور، لسان العرب: (كفل).

تَركًا لتعظيم اللّهِ واستهانةً به، إنَّ اللّهَ يَعلَمُ كُلَّ ما تَفعَلونَه، ومِن ذلك وفاؤُكم بالعُقودِ ونَقضُها، وسيُجازي كلَّ عاملٍ بعَمَلِه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

التَّنويهُ بمَنزِلةِ الوفاءِ بالعُهودِ

افتتحَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ بالواوِ الاستئنافيّة[2]، للشّروعِ في كلامٍ جديدٍ مَبنيٍّ على الإجمالِ في الآيةِ السّابقةِ، فالأمرُ بالإيفاءِ بالعُهودِ مخصوصٌ من جُملَةِ المأموراتِ الّتي تضمَّنَها قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[3]، فالاستئنافُ للاهتمامِ بمَضمونِ الجُملةِ، والتّنويهِ بمكانة الوفاءِ بالعهد.

تلوينُ الخِطابِ مِنَ الخَبَرِ إلى الإنشاء:

تَنويعُ الخِطاب وتلوينُه تجديدٌ للانتباهِ ودَفعٌ لِلملَلِ والسَّآمَةِ

نَوَّعَ النّظمُ الجليلُ الخطابَ بتلوينِ أساليبِه، ففي قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ أسلوبُ طلبٍ؛ وهو الأمرُ، جيءَ به بعدَ الإخبارِ بأوامر اللّه تعالى ونواهيه في قوله جلّ شأنُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، فكان ذِكرُ تلك الأوامرِ والنّواهي مُناسِبًا للانتقال مِنَ الخَبَرِ إلى الإنشاءِ، وهو مِن أغراضِ التَّفنُّنِ في القرآنِ الكريم[4]، وهذا التّلوينُ يَنفي الملالَةَ والسّآمةَ اللَّتينِ قد توجدا في حالِ جريانِ الخطابِ على أسلوبٍ واحدٍ.

سِرُّ إيثار لفظِ (الإيفاء):

الوفاءُ بالعَهدِ إتمامُه ومُجانبَةُ نَقضِه

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الإيفاءِ في قوله جلّ شأنُه:

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 338، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 170، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 448.

(2) صافي، الجدول: 7/ 376.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 227.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 260.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ دون غيرِه مِنَ الألفاظِ المُقاربةِ لَهُ في دِلالتِها؛ لأنّ لفظَ الإيفاءِ دالٌّ على التّمسُّك بالعهد حتّى تمامِه بلا إخلالٍ، فالوافي هو ما بلغَ التّمامَ، كإيفاءِ الكَيل، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 35]، والوفاءُ بالعهد: إتمامُهُ وعدمُ نقضِ حِفظِه[1]، فأوثر لفظُ الإيفاءِ؛ لِدلالتِه على إيجابِ الكَمالِ والإتيانِ بِهِ على وجهِ التّمام.

دلالةُ الأمرِ بالإيفاءِ:

وجوبُ التَّمسُّكِ بالعهدِ وإتمامِه

استعمَلَ النّظمُ الجليلُ فعلَ الأمرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ طلبًا لإيقاعِ الوفاءِ[2] على سبيلِ الوجوبِ؛ وهو طلبُ الإيفاءِ بالعَهدِ على تَمامِه، والتّمسُّكِ بما وقَعَ الوفاقُ عليه، ونبذِ الإخلالِ فيه، ونقيضُه الغَدرُ؛ وهو مِن مَذمومِ الأخلاقِ الّتي يأنَفُ منها كلُّ ذي طبعٍ سليمٍ.

دلالةُ حَرفِ الجرِّ (الباء) الدّاخل على لفظِ العَهدِ:

مِنَ الإيمانِ الوفاءُ بالعُهود

أدخلَ النّظمُ الجليلُ باءَ الجرِّ على العَهدِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، وهي الباءُ الدّالّةُ على التّعدية؛ للتّعبير عن إيصالِ الوفاءِ وإيقاعِه بالعهدِ الكائنِ مع اللّه تعالى.

نكتةُ إيثارِ لفظِ العَهدِ:

إيثارُ لَفظِ العَهدِ تصريحٌ بوجوبِ حِفظِه

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ العهدِ دون غيرِه في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾؛ لِدلالَتِه على حفظ الشّيءِ ومُراعاتِه حالًا بعد حالٍ، وسُمّي المَوثِقُ الّذي يَلزَمُ مُراعاتُه عَهدًا، كقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]؛ أي: أوفوا بِحِفظِ الأيمان[3]، فآثرَ النّظمُ لفظَ العهدِ؛ لأنّه يدُلُّ على وجوب

(1) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 240.
(3) الرّاغب، المفردات: (عهد).

الحفظِ والمُراعاةِ، ففيه سعَةٌ في الدّلالةِ عَن غيرِه، فلا يَقتَصِرُ على مَفهومِ العَقدِ فحَسبُ، بل يدُلُّ عليهِ وعلى وجوبِ حِفظِه.

فائدةُ إضافةِ العهدِ إلى الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

تعظيمُ شأنِ العهدِ مَعَ اللهِ تعالى

أضافَ النّظمُ الجليلُ لفظَ العهدِ إلى الاسمِ الأحسنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، فجعَلَهُ عهدًا معَ اللهِ تعالى؛ لأنّهم عاهدوا النّبيَّ ﷺ على دينِ اللهِ تعالى، فهُم قَد عاهَدوا اللّهَ تعالى، كما قال سبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10][1]، وإضافتُه إلى اللهِ تعالى خَلَعَت على العَهدِ تفخيمًا وتعظيمًا؛ فهو عهدٌ مَعَ المَلِكِ الأعظَمِ ﷻ[2]، وفي ذلك حثٌّ لَهُم على الإيفاءِ بِهِ، وتحذيرٌ مِن نقضِه؛ إذ إنَّ اللّهَ ﷻ طرفٌ في العَهدِ، وهو سبحانَهُ الّذي يعلمُ خائنَةَ الأعيُنِ، وما تخفي الصّدورُ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ وفائِدَتُها:

الإيفاءُ بالعهدِ واجِبٌ كلَّ وقتٍ وحينٍ

أدخلَ النّظمُ الجليلُ ﴿إِذَا﴾ بعد فِعلِ الأمرِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ وهي ظَرفُ زمانٍ جُرِّدَ عنِ الشّرطيَّةِ، وأُخلِصَ للظّرفيّةِ؛ لأنّ المُخاطَبينَ كانوا قد عاهَدوا اللّهَ تعالى على ذلك الإيمانِ والطّاعَةِ، وجيءَ باسمِ الزّمانِ لتأكيدِ الوَفاءِ، والمَعنى: إنّ مَن عاهَدَ وجَبَ عليهِ الوفاءُ[3]، فليس فيها دلالةٌ على الشَّرطِ؛ لأنّ التّعليقَ بينَ الفعلَينِ غيرُ حاصِلٍ؛ إذْ إنّهم قد سَبَقَ إيمانهم وبَيعَتهم، فهو مُحقَّقٌ لا مُعلَّقٌ.

علَّةُ إيثارِ صيغَةِ المُفاعلَةِ في ﴿عَٰهَدتُّمۡ﴾:

المعاهَدَةُ التِزامٌ مِن جانِبَينِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بصيغَةِ المُفاعَلَةِ في لفظِ العَهدِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾؛ لأنّه عهدٌ قائِمٌ بينَ جهَتَينِ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 261.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 261.

ويكون فيهِ الالتزامُ واجبًا مِنَ الجانِبَين[1]. فالعَهدُ لا يقومُ بطَرَفٍ واحدٍ؛ إذ لا بدَّ مِن وجودِ طرفٍ آخَرَ مُعاهِد.

بلاغةُ جناس الاشتقاقِ بين ﴿بِعَهۡدِ﴾ و﴿عَٰهَدتُّمۡ﴾:

التّنويهُ بمكانةِ العَهدِ، والإعلاءُ مِن شأنِهِ

كَرَّرَ النّظمُ الجليلُ ذِكرَ العَهدِ بلفظَينِ مُختلفَينِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ فِعلًا واسمًا، فهو جناسٌ اشتقاقيٌّ، والغرضُ مِنهُ: التّنبيهُ على مكانةِ العهد، وتأكيدُ وجوبِ الإيفاء به، فذِكرُ العهدِ مرَّتين بصيغتَين مُختلفتَين في سياقٍ واحدٍ فيه إصرارٌ على حُضورِ اللّفظ في الأذهانِ وترسيخِه فيها، فلا يَغيبُ بَدءًا لئلّا يُنقَضَ آخرًا.

فائدةُ عطفِ جُملة ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ على ما قَبلَها:

التّنبيهُ على جلالَةِ قدرِ الأيمانِ وخَطَرِ نَقضِها

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ معطوفةٌ على الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾، فالنّهي عن نَقضِ الأيمانِ تأكيدٌ للأمر بالوفاءِ بالعَهدِ؛ أي: لا تنقضوا العُهودَ؛ لأنّ نَقضَها نقضٌ للأيمانِ[2]، فهو من باب عطف الخاصِّ على العامِّ[3]؛ لبيانِ أهمّيّةِ الأيمانِ الّتي هيَ نوعٌ مِن أنواعِ العَهدِ.

دلالةُ النَّهي عن نقضِ الأيمان:

عظَمَةُ الأيمانِ وشَناعَةُ نَقضِها

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ عن إبطالِ المَحلوفِ لأجلهِ بنَقضِ اليمينِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾، فنهى عن نَقضِ الأيمانِ للدّلالة على إبطالِ ما جيء باليمين لأجلِ تَوثيقه، فالنّاقضُ لا يقصدُ نقضَ يمينِه، بل يُريدُ أن ينقُضَ العهدَ والمُحالفةَ وما حُلِفَ لأجله، فعَبَّرَ عن نقضِ ذلك بأنّه نقضٌ للأيمانِ تهويلًا وتغليظًا في حُرمَةِ النّقض؛ لأنّهُ نقضٌ لقُدسيّة اليمينِ وحُرمَتِه[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4255.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4256.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 241.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 261.

سِرُّ إيثارِ لَفظِ (النَّقْض) دون (النَّكْث):

سياقُ تأكيدِ الوفاءِ بالعهدِ مُقتضٍ لِلَفظٍ شديدِ الدّلالة

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ النّقضِ دون النّكثِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ لأنّ النّقضَ أشدُّ مِنَ النّكث، فالنَّقضُ: انتِثارُ العَقدِ مِنَ البِناءِ والحَبلِ والعِقدِ، وهو ضِدُّ الإبرام، يُقالُ: نَقَضتُ البِناءَ والحَبلَ والعِقدَ، ومن نَقضِ الحَبل والعِقدِ استُعيرَ نَقضُ العَهدِ، قال اللّهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 27](1)، أمّا النّكثُ فيُقالُ في نَكثِ الأكسيَةِ والغَزلِ، وهو قَريبٌ مِنَ النَّقضِ(2)، فيُلاحَظُ أنّ النّقضَ مُتعلِّقٌ بالبناء وبالحبل، أمّا النّكثُ فمُتعلِّقٌ بفكّ الأكسيَةِ والغزلِ، فهو أخفُّ مِنَ النّقض، واختارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظةَ النَّقضِ للدّلالة على عظيم تلك الجنايَةِ، كما أنّه مُناسِبٌ لمجيئه بعد الأمرِ بالوفاء بالعهد، فيكون ذلكَ توكيدًا، ولمّا جيءَ به للتّأكيد ناسَبَ أن يُعبَّرَ بالنّقض دون النّكث، كما أنّ ذلك مُناسِبٌ لوجود القَيدِ في آخر الجملةِ؛ وهو قوله تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ فتوكيدُ الأيمانِ يدُلُّ على أنّ الانسلاخَ مِنها شديدٌ عظيمُ الوقعِ، فكان النّقضُ أنسَبَ للمقامِ.

سِرُّ استعمالِ لفظ ﴿ٱلْأَيْمَٰنَ﴾:

اليَمينُ عَهدٌ مؤَثَّقٌ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بِلَفظِ الأيمانِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ دون غيره؛ لِما في لَفظِ الأيمانِ مِن دلالةٍ على الوثاقةِ وقوّة العهدِ الّذي لا ينبغي أن يُنقَضَ، فهو يدُلُّ على أنّه حَلِفٌ وعَهدٌ موثَّقٌ بالتّصافح باليمين، إشارة إلى أنّه عهدٌ موثَّقٌ لا ينبغي الإخلالُ به ولا نقضُه، فاليَمينُ "في الحَلِفِ: مُستَعارٌ مِنَ اليد؛ اعتبارًا بما يَفعلُه المُعاهِدُ والمُحالِفُ"(3).

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نقض).

(2) الرّاغب، المفردات: (نكث).

(3) الرّاغب، المفردات: (يمن).

فائدةُ القَيدِ بالظَّرف في قوله: ﴿بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾:

التَّحذيرُ البليغُ مِن نَقضِ الأيمانِ

قَيَّدَ النّظمُ الجليلُ النّهيَ عنِ النّقض بالظَّرفِ ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾؛ احترازًا بذلك عن لَغوِ اليَمين[1]، كما يُظهِرُ هذا القيدُ شناعَةَ النّقض، وليس دالًّا على التّقييد بالتّوكيد، بمعنى أنّ الأيمانَ الّتي لم تُؤكَّد جائزٌ نقضُها، فإنَّ ذلك ليسَ مرادًا، بلِ القيد لُمجرّدِ تأكيدِ عظيم جنايةِ النّقضِ، فجيءَ بالتّركيب "زيادةً في التّحذير، وليس قَيدًا للنَّهي بالبَعديَّة"[2].

بلاغةُ المقابلةِ بينَ الوفاءِ بالعَهدِ ونَقضِ الأيمانِ:

تَكرارُ المَعاني بأساليبَ مُختَلِفَةٍ تأكيدٌ لِمَضمونِه

قابَلَ النّظمُ الجليلُ بينَ النّهي عن نَقضِ الأيمانِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾، والأمرِ بالإيفاءِ بالعَهدِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾؛ لتكرارِ المَفهوم، ولتأكيدِ المأمورِ به؛ "لأنّ الوفاءَ بالعهدِ، والمنعَ مِنَ النّقضِ مُتقاربانِ؛ لأنَّ الأمرَ بالفِعلِ يَستَلزِمُ النّهيَ عَنِ التّرك"[3].

دلالةُ الواوِ في صَدرِ الجُملَةِ الفِعليَّةِ:

نقضُ الأيمانِ أشنَعُ حالَ إشهادِ اللهِ تعالى عليها

أدخلَ النّظمُ الجليلُ الواوَ الدّالّةَ على الحال في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾؛ لأنّها جملةٌ فعليّةٌ، فِعلُها ماضٍ مُثبَتٌ، إذِ "الماضي يدُلُّ على الحصولِ المُتقدِّم لا الحصولِ حالَ النّسبة"[4]، فمجيءُ الواوِ دالٌّ على أنَّ جعلَ اللّهِ كفيلًا كانَ وقتَ تلك الأيمانِ، فالجُملة حالٌ مِنَ الفاعلِ في ﴿تَنقُضُواْ﴾[5].

دلالةُ التّعبير بالجملة الحاليّة:

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بالجملة الحاليّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَدۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 241.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 261.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 457.
(4) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 186.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 404.

التّحذيرُ مِن نقضِ الأيمانِ مُطلَقًا

﴿جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾؛ للتّحذير مِنَ النّقضِ وبيانِ فحشِه، فاليمينُ جيءَ بِه، وأنتم تعلمونَ أنّ اللّهَ تعالى شاهِدٌ مُطّلِعٌ عليمٌ، فيكون الحالُ دالًّا على تقبيح ذلك الفعلِ الشّنيع[1]؛ والمعنى: لا تنقضوا الأيمانَ في حال إقسامِكم باللّه، وجعلكم له كفيلًا، وبهذا التَّقريرِ يتبيَّنُ أنّ هذه الحالَ ليسَتْ قيدًا، بمعنى: أنّه يجوزُ نقضُ الأيمان إذا لم يَجعلوا اللّهَ تعالى كفيلًا، بل الحال لبيانِ فُحشِ النّقضِ والتّحذيرِ منه.

دلالةُ ﴿وَقَدۡ﴾ وفائِدَتُها:

إشهادُ اللهِ تعالى على الأيمان يَزيدُ في شَناعَةِ نَقضِها

أدخلَ النّظمُ الجليلُ ﴿وَقَدۡ﴾ على الفعلِ الماضي المُثْبَتِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾؛ لأنّه فعلٌ في الجملة الحاليّةِ، فيُؤتَى بـ (قد)؛ لتَقريبِ الماضي مِن زمان الفعلِ، فـ (قد) واجبةٌ في مِثلِ هذا التّركيب؛ لِتُقرِّبَ الفعلَ الواقعَ في الزّمان الماضي مِنَ الحال، فتجعله دالًّا على حصولٍ قريبٍ بعدَ أن كان دالًّا على زمانٍ ماضٍ مُطلَقٍ[2]، كما أنّها تدُلُّ على تأكيد الجَعلِ وتحقيقِه؛ تأكيدًا لمضمون جملة الحالِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾:

تعظيمُ الشّاهدِ في اليمينِ تغليظٌ لِحُرمة نَقضِه

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الأحسَن (اللّه) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ الدّالِّ على العظمَةِ كلِّها؛ تحذيرًا لهم، وتفخيمًا لشأن العَهدِ، وتهويلًا لهذه الحالِ، فيكونُ المرادُ تهويلَ شأن نقضِ العَهدِ الّذي يوثَّقُ بالأيمان بذِكرِ اللّهِ تعالى، فالعهدُ يكون غليظًا لذِكرِ اللّه تعالى في توثيقِه باليَمين.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على المفعول الثّاني ﴿كَفِيلًاۚ﴾:

قَدَّمَ النّظمُ الجليلُ شِبهَ الجملَةِ مِنَ الجارّ والمجرور على المفعول

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 241.

(2) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 186.

إشهادُ اللهِ تعالى على الأيمانِ يُصَيِّرُها أشدَّ إلزامًا

الثّاني في قوله جلّ شأنُه: ﴿جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ﴾، فلم يَرِدِ البيانُ القرآنيُّ: (جعلتُم اللّهَ كفيلًا عليكُم)؛ وهو مُتعلِّقٌ بالفعل (جعل) لا بالكفيل؛ والمعنى: أنّكم أقَمتُموهُ على أنفُسِكُم مَقامَ الكفيلِ[1]، كما أنَّ فيهِ تَخصيصًا للجَعلِ، فأنتُم جعلتُموه شاهدًا عليكم لا على غَيرِكم، مبالغةً في تهويل هذا الجعلِ، وزجرًا عنِ النّقض، وجعلُ هذا التّركيب بين المفعولَين، وتقديمُ المفعول الأوّل الّذي هو الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهَ﴾ مبالغةٌ في تفخيم الجملةِ الحاليّةِ، فالتّفخيمُ حاصلٌ مِنَ التّعبيرِ بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ أوّلًا، ثمّ بالتّعبير بشبه الجملة الّتي تُبيِّنُ أنّ إقامتَه مُقامَ الشّاهدِ على أنفسهم تفخيمٌ ثانٍ، فتقديمُهُ على المفعولِ الثّاني تهويلٌ لهذا الجَعلِ.

علّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾:

العِلمُ باطّلاعِ اللهِ رادعٌ عنِ ارتكابِ المَناهي

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مفصولةٌ؛ لكونِها اعتراضًا بين جملتي النّهيِ السّابقة واللّاحقة[2]، وهي مسوقةٌ تعليلًا للنّهي المُتقدِّم، أو تفسيرًا له؛ أي: هو يعلمُ ما تَفعَلونَ مِنَ النّقض، فيُجازيكُم على ذلك[3].

الغرضُ مِنَ الإخبارِ بِعلمِه ما يَفعَلونَ:

التّحذيرُ مِنَ التّقصيرِ في امتِثالِ الخِطابِ الشَّرعِيّ

أوردَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ خبرًا عن علم اللّهِ تعالى المُتجدِّدِ بما يفعلون تنبيهًا لَهم، فالجملةُ "خبرٌ مُرادٌ منه التّحذيرُ مِنَ التّساهل في التّمسُّك بالإيمان والإسلام؛ لِتذكيرِهِم أنَّ اللّهَ يطَّلِعُ على ما يَفعلونَهُ"[4]، والإخبارُ بالعلم بالأفعال بعدَ إيراد النّهي يقتضي أنّه سَيُحاسِبُ المُقصِّرَ في الامتثالِ لذلِكَ النّهي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 262.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 263.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 457.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 263.

سِرُّ التّعبير بالاسمِ الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

إحاطَةُ عِلمِ الله تعالى بأفعالِ العِبادِ

آثرَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ التَّعبيرَ بالاسمِ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾؛ تعظيمًا لعلمِه، فهو ﷻ له الإحاطةُ الكاملةُ[1]، فيكون علمُه بما تَفعَلونَ على وجهِ الكمالِ، فلا يغيبُ عنه من أفعالِكم شيءٌ، فالّذي يعلمُ أفعالَكم هو اللّهُ تعالى ذو العلمِ المُطلَقِ الّذي لا تخفى عليهِ خافيةٌ، فعلمُهُ عظيمُ الشّأن جليلُ القدْرِ، وفي ذلكَ حثٌّ لَهُم على الإيفاءِ بما يَقتَضيهِ النّهيُ.

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ:

تعليقُ الوَصفِ على الاسمِ الظّاهرِ أدَلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ

أعادَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ ذِكرَ الاسمِ الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وقد تقدَّمَ ذِكرُهُ في قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾، فكَرَّرَ الاسمَ الأحسنَ ﴿ٱللَّهَ﴾ بإظهاره، وكان مُقتَضى الظّاهِرِ إضماره؛ بأن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنّه يعلم)؛ وذلك تفخيمًا للمذكورَين من كونِه عالِمًا، وكونه شاهدًا، فأعاد ذِكرَهُ ظاهرًا لتعظيم مَضمون الجملةِ الثّانيةِ، فيكون تعظيمًا مُستقلًّا عنِ التَّعظيم الّذي دلَّت عليهِ الجملةُ الأولى.

دلالةُ تقديمِ المُسندِ إليهِ على المُسندِ:

دوامُ عِلمِ اللهِ تعالى بأفعالِ العِبادِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالجملة الاسميّةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ دون الفعليّةِ، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ويعلم اللّه)؛ لأنّ المعنى في الجملة الاسميّةِ دالٌّ على التّأكيد والثّبات، فقُدِّمَ المسندُ إليهِ على الفعلِ؛ لتَأتّي تأكيدِهِ ببناءِ الجملة على الاسميّة، وبـ ﴿إِنَّ﴾؛ اهتمامًا بمضمون الخبرِ وتقويةً له[2]، والتّأكيدُ هنا مُناسِبٌ للسّياق؛ لِما فيهِ مِن تقويةِ التّنبيهِ والتَّحذيرِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 241.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 263.

سِرُّ استعمالِ صيغة المضارعِ ﴿يَعۡلَمُ﴾:

إحاطَةُ عِلمِ الله تعالى بما يُحدِثُه العبادُ مِن أعمالٍ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفِعلِ المُضارِعِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ لِدلالَتِه على التَّجدُّدِ؛ أي: كلّما تجدَّدَ منهم فعلٌ فإنَّ اللّهَ تعالى يعلمُهُ[1]، فلمّا كان العلمُ مُكرَّرًا مُستمرًّا كان التّعبيرُ عنهُ بالفعل المضارعِ على مُقتَضى التَّناسُبِ.

معنى ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا تَفۡعَلُونَ﴾ ودِلالَتُها:

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بالكُلّيّاتِ والجُزئيّات

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ الموصولَةِ المفيدةِ العمومَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّه سُبحانَهُ يعلَمُ الّذي تَعمَلونَه، فهي تدُلُّ على أنّهُ تعالى عالمٌ بالكُلّيّاتِ والجُزئيّاتِ، فهو يَعلمُ كلَّ فعلٍ فعلوه على وجه الإفرادِ، وتدُلُّ على العُموم والشّمول، فيعلمُ كلَّ فعلٍ صغيرًا كان أم كبيرًا.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ ﴿تَفۡعَلُونَ﴾:

لا يَخلو زمانٌ مِن تَجَدُّدِ أفعالِ العبادِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفِعلِ المضارعِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ فِعلِهم واستِمرارِه، فالتّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ هُنا مُناسِبٌ للتّعبيرِ عَن عِلمِ اللّه تعالى بالفعلِ المُضارِعِ: ﴿يَعۡلَمُ﴾، ففِعلُهُم المُستمرُّ المُتجدّدُ يقَعُ بإزائِه علمٌ مُتجدّدٌ مُستَمِرٌّ، فلمّا كانَ علمُ اللّهِ تعالى دائمًا مُستمرًّا كان التّعبيرُ عَن فِعلِهِم الّذي يعلَمُه اللّهُ تعالى مُستمرًّا كذلكَ.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

العهدُ والبيعةُ:

العَهدُ أخصُّ مِنَ الوَعدِ، والبَيعَةُ أخصُّ مِنَ العَهدِ

العَهدُ: وعدٌ مَقرونٌ بِشَرطٍ، نَحو قَولك: إنْ فعلتَ كَذا فعلتُ كَذا، وما دمتَ على ذَلِك؛ فأنا عَلَيهِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]؛ أي: أعلمناهُ أنَّك لا تخرجُ مِنَ الجنَّة ما لم تَأكُلْ من هَذِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 263.

الشَّجَرَة، والعهدُ يَقتَضي الوَفاءَ[1]، أمّا البَيعَةُ فهي عهدٌ على الطّاعة، فيُصار إلى أنّ معناها هو وعدٌ اقترَنَ بشَرطِ الطّاعةِ، وبهذا فالبَيعةُ أخَصُّ مِنَ العَهدِ[2]، وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالعَهدِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾؛ لأنّه يَقتَضي الإيفاءَ بما تعاهَدوا عليهِ مِن وُعودٍ وشُروطٍ.

الكفيلُ والوَكيلُ:

الكفيلُ ضامِنٌ مَسؤولٌ، والوكيلُ نائِبٌ عَن غَيرِهِ

التَّوكيلُ: أن تعتَمِدَ على غيرِكَ، وتجعلَهُ نائبًا عنك، والوَكيلُ: فعيلٌ بمعنى: مفعولٍ، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ [النّساء: 81]؛ أي: اكتفِ بِهِ أن يتولّى أمرَك[3] أمّا الكفيلُ فهو من (كَفَلَ)، وأصلُهُ يدُلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[4]، فلمّا عَبَّرَ في الآية عنِ الأَيمانِ، وجَعلِهِم اللّهَ تعالى شاهدًا على ذلكَ، وهو بمعنى الكفيلِ والضّامنِ، كانَ التَّعبيرُ بالكفيلِ أنسبَ وأليقَ بالمقامِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57 - 58.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بيع).
(3) الرّاغب، المفردات: (وكل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفل).

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢﴾ [النّحل: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إيرادُ المَثَلِ تأكيدٌ لشَناعَةِ نقضِ الأيمانِ

لَمّا أوردَ النّظمُ الجليلُ الأمرَ بالوفاء، والنّهيَ عن نَقضِ الأيمانِ؛ أتبَعَهُ بما يؤكِّدُ وجوبَ الوفاء، وتحريمَ النّقضِ وتقبيحَه، تنفيرًا منه، وزجرًا عنهُ، فقال جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾، فأكَّدَ أنّ الوفاءَ قوّةٌ، وأنّ الغدرَ ضعفٌ[1]، وإيرادُ التّمثيل لتصويرِ بشاعةِ الفعلِ القبيحِ بعدَ النّهي عنه في غايةِ المُناسبَةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقَضَتۡ﴾: النّونُ والقافُ والضّادُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على الهَدمِ والإفسادِ، وحلِّ أجزاءِ الشَّيءِ بعضِها عن بَعضٍ، وضِدُّه: الإبرامُ، يُقالُ: نَقَضَ الشَّيءَ يَنقُضُهُ نَقضًا، وانتَقَضَ وتَناقَضَ: إذا أفسَدَهُ بعد إحكامِه، ونَقضَ البِناءَ: هَدَمَهُ، ونَقَضَ الحَبلَ أو الغَزلَ: حَلَّ عُقَدَه، ويأتي النَّقضُ بِمعنى النَّكثِ، فيُقالُ: نَقَضَ اليَمينَ أو الحُكمَ: إذا نَكَثَهُ[2]، والمقصودُ بالنَّقضِ في الآية: فسخُ ما رُكِّبَ بفعلٍ يُعاكِسُ الفِعلَ الَّذي كانَ بِهِ التَّركيبُ، واستُعمِلَ هنا على سبيلِ المَجازِ في إبطالِ العَهدِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 242، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4257.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المحكم، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (نقض).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 223.

2) ﴿غَزْلَهَا﴾: الغَزْلُ: مصدرُ غَزَلَ يغزِل غَزْلًا، يُقالُ: غَزَلَتِ المَرأةُ القُطنَ تَغْزِلُهُ غَزْلًا، أي: جَعَلَتْهُ خُيوطًا[1]، وحقيقتُه: فتْلُ نُتَفٍ من الصّوفِ أو الشَّعرِ لتُجعَلَ خُيوطًا مُحكَمَةَ اتِّصالِ الأجزاءِ بواسطةِ إدارَةِ آلَةِ الغَزلِ، بحيثُ تَلتَفُّ النُّتَفُ المَفتولَةُ باليَدِ فتَصيرُ خَيطًا غليظًا طَويلًا بِقَدرِ الحاجةِ؛ ليكونَ سُدًى أو لُحمَةً للنَّسجِ، والغَزَلُ في الآية: مَصدَرٌ بمعنى المَفعولِ؛ أي: المَغزولِ؛ لأنَّهُ الَّذي يَقبَلُ النَّقضَ[2].

3) ﴿أَنكَٰثًا﴾: أصلُ النَّكثِ: النَّقضُ والإبطالُ بَعدَ الإحكام، يُقالُ: نَكَثَ العَهدَ يَنكُثُ نَكثًا؛ أي: نَقَضَهُ بَعدَ إحكامِه، وانتَكَثَ الشَّيءُ: انتَقَضَ[3]، والنِّكْثُ: الخَيطُ مِنَ الصّوفِ ونَحوِهِ؛ لأنَّهُ يُنقَضُ ثُمَّ يُعادُ فتلُهُ، وجَمعُهُ: أَنْكاثٌ[4]، والنَّكثُ أيضًا: الإلغاءُ، تَقولُ: نَكَثَ الاتِّفاقَ، إذا ألغاهُ[5]، والأنكاثُ في الآيةِ مفردها نِكْثٌ؛ بمعنى مَنكوث؛ أي: مَنقوض، ونَظيرُهُ نَقضٌ وأنقاضٌ[6].

4) ﴿دَخَلًۢا﴾: أصلُ الدّخولِ يدُلُّ على الوُلوجِ، يُقالُ: دَخَلَ يَدخُلُ دُخولًا[7]، ويُقالُ: دَخَلَ مكانَ كذا، والدُّخْلَةُ: بِطانَةُ الأمرِ، تقولُ: إنَّه لَعَفيفُ الدُّخلةِ، وإنَّهُ لخَبيثُ الدُّخْلَةِ؛ أي: باطن أمرِه[8]، والدَّخَلُ: كنايةٌ عنِ الفَسادِ والعَداوَةِ المُستبطَنَةِ، وعنِ الدَّعوة في النَّسَبِ، يُقالُ: دَخِلَ دَخَلًا، والدَّخْلُ: العَيبُ والرِّيبةُ[9]، ودُخِلَ فلانٌ فهو مَدخولٌ كنايةٌ عن بَلَهٍ في عَقلِه، وفسادٍ في أصلِه[10]، والمقصودُ بالدَّخَلِ في الآيةِ: الفَسادُ، والمرادُ: تَجعَلونَ أيمانَكُمُ الَّتي حَلَفتُموها سَبَبَ فسادٍ بَينَكُم، ووسيلَةً للغَدرِ والمَكرِ[11].

5) ﴿أَرْبَىٰ﴾: أصلُ الرّبا: يدُلُّ على الزّيادةِ والنَّماءِ والعُلوِّ[12]، تَقولُ: رَبا الشَّيءُ يَربو

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غزل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 265.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نكث).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نكث).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (نكث).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 265.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخل).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دخل).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والراغب، المفردات: (دخل)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 590.
(10) الرّاغب، المفردات: (دخل).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 265.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربي - ربأ).

رَبوًا؛ أي: زادَ وكَثُرَ، ومِنهُ سُمّيَ أخذُ الرَّجُلِ أكثَرَ مِمّا أعطَى: رِبًا[1]، ويُطلَقُ بمعنى النَّماءِ، يُقالُ: أربَى الزَّرعُ: نَما وعَلَتْ سيقانُهُ، وأربَيتُ المالَ: إذا نَمَّيْتَهُ[2]، ومن مَعانيهِ أيضًا: العُلُوُّ والارتِفاعُ، ومِنهُ سُمّيَت الرّابيةُ، وهي: المَكانُ العالي المُرتَفِعُ عنِ الأرضِ، ورَبا: أصابَهُ الرَّبوُ؛ والرَّبْوُ: عُلُوُّ النَّفَسِ[3]، والمقصودُ بـ ﴿أَرْبَىٰ﴾ في الآية: الزّيادَةُ والكَثْرَةُ؛ أي: أزيَد، وهوَ اسمُ تَفضيلٍ، يَحتملُ الحَقيقَةَ؛ أي: كَثْرَةَ العَدَدِ، والمَجازَ؛ أي: رفاهيةَ الحالِ وحُسنَ العَيشِ[4].

6) ﴿يَبْلُوكُمُ﴾: أصلُ الابتِلاءِ: الاختِبارُ والامتِحانُ، يُقالُ: بَلَوتُ الرَّجلَ، وابتَلَيتُهُ؛ أي: امتَحَنتُهُ واختَبَرتُهُ وجَرَّبتُهُ[5]، وبَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً؛ أي: خَلَقَ، وكأنّي أخلقتُهُ من كثرَةِ اختباري له[6]، وأصلُ الابتِلاءِ مِنَ البَلاءِ، وهوَ: التَّكليفُ بالأمرِ الشّاقِّ، ويكون في الخَيرِ والشَّرِّ معًا، يُقالُ: أبلَيتُهُ بَلاءً حَسَنًا وبَلاءً سَيِّئًا، ونَزَلَتْ بَلاء على الكُفّارِ[7]، وأكثرُ ما يُستَعمَلُ في المَكروهِ، والمرادُ بـ ﴿يَبْلُوكُمُ﴾ في الآية: يختبرُكُم[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقبيحُ حالِ النّاقضِ للعَهد

لقد ضرَبَ اللهُ تعالى في هذهِ الآية مثلًا؛ فيه تقبيحٌ لنقضِ العَهدِ، فقال: ولا تكونوا - أيُّها النّاسُ - في نَقضِ العُهودِ الَّتي أكَّدتُموها كالمرأةِ الَّتي تَنقُضُ غَزْلَها ونَسجَها بعد تَقويتِه وإحكامِه، فتَحُلُّ ما نسَجَت وتجعَلُه أنقاضًا، وتَجعلونَ أيمانَكم الّتي حَلَفْتُموها عند

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ربو).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 266.
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهري، تهذيب اللّغة: (ربو).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ربا)، والزبيدي، تاج العروس: (ربو).
(5) ابن سِيده، المُحكم: (بلو)، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (بلا).
(6) الرّاغب، المفردات: (بلى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلي - بلو)، وابن سِيده، المُحكم: (بلو).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 266.

التَّعاهُدِ خَديعةً لِمَن عاهَدتُموه، وتَنقُضونَ عَهدَكم إذا وجَدتُم قومًا آخرينَ أكثَرَ مالًا ومَنفعةً مِنَ الّذين عاهَدتُموهُم، إنَّما يَختبِرُكم اللّهُ بما أمرَكُم به مِنَ الوفاءِ بالعُهودِ، ولَيُبيِّنَنَّ اللّهُ لكُم - أيُّها النّاسُ - يومَ القيامةِ ما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ في الدُّنيا، كالاختِلافِ في تَوحيدِه، وتَصديقِ رُسُلِه، وثُبوتِ البَعثِ، والعُهودِ الّتي عَقَدتُموها، فيَحكُم بينَكم، ويُجازي كُلَّ عاملٍ بعَمَلِه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾:

التَّشنيعُ على ناقِضي العَهدِ

الجُملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ معطوفةٌ على الجُملةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ بالواوِ الدّالّة على المُغايَرَةِ في المعنى؛ لِما في الثّانيةِ مِنَ التَّمثيل، وفي الأولى مِنَ النَّهيِ، وإنْ كانَتِ الثّانيةُ مِن جِهَةِ المَوقِعِ كالتّوكيد للنّهيِ، فإيرادُ التّمثيلِ بعدَ النّهيِ تشنيعٌ لحالِ الّذين يَنقُضون العَهدَ[2].

بلاغةُ النَّهي بفِعلِ الكَونِ:

المُبالَغةُ في النَّهي عَنِ الاتِّصافِ بِصِفَةِ النَّقضِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بِفِعلِ الكَونِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ دونَ أن يقولَ مثلًا: (ولا تُشابِهوا الّتي نَقَضَت)؛ لِما في نَفيِ الكَونِ من مُبالَغَةٍ في النّفي؛ إذْ إنّ نَفيَ الكَونِ يَقتَضي الامتناعَ عَنِ الوُجودِ على تلكَ الحالِ، وأمّا نفيُ الفِعلِ فهو نَهيٌ عنِ المُزاولَةِ، والنّهيُ عنِ الوُجود أبلَغُ مِنَ النَّهي عَنِ الفِعلِ، فيكونُ قد نَهاهُم على أبلَغِ ما يكونُ مِنَ الاتِّصافِ بفعلِ هذهِ المرأةِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 347، والواحديّ، الوجيز، ص: 617، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 171، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 600، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 448.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 264.

دِلالةُ التَّشبيهِ في الآيةِ وأثَرُه:

تَقبيحُ ناقِضِ العَهدِ

أوردَ النّظمُ الجليلُ التّشبيهَ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾؛ حيث شبَّهَ "الّذي ينقضُ عهدَهُ بالمرأةِ التّي تَفتلُ غزلَها فتلًا شديدًا، ثُمَّ بعد فتلِه تَنقُضُه أجزاءً وصوفًا مُتناثرًا، وهو مَثلٌ يُضرَبُ لكُلِّ مَن يَعمَلُ عَمَلًا يكونُ لَهُ ثمرَةٌ طيِّبةٌ، ثمّ يَنقُضُ ما تمَّ من جهةٍ، ويُبطِلُ عملَه، فتَفقِدُ ثمرةُ العمَلِ الّذي عَمِلَهُ بحقّها وجهَها"[1]، والمُرادُ مِن هذا التّشبيهِ تقبيحُ النّاقِضِ، حيثُ شبّهه بمثلِ هذه المرأة[2].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (الّتي)، وسِرُّ العدولِ عَنِ التَّصريحِ باسمِ المرأةِ:

القَصدُ الأعظَمُ بيانُ قُبحِ الفِعلِ بصَرفِ النَّظرِ عَن فاعِلِه

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾؛ لَمحًا للفِعلِ دونَ الفاعلِ، فالمُرادُ النّهيُ عنِ الفعلِ المَذكورِ لا بالنّظرِ لكونِه مِن فاعلٍ مُعيّنٍ، كما أنّ هذا مِن دأبِ القرآنِ الكريمِ؛ حيثُ يُعرِضُ عن ذِكرِ النّاسِ بأسمائهم غالبًا؛ فالذّمُّ لا يتّجهُ إلى ذاتِ الإنسانِ، بل لفِعلِه، فالّتي نقضَت غزلَها "امرأةٌ اسمُها رَيطَةُ بِنتُ سَعدٍ التَّميميَّةُ من بني تَميمِ من قُريش، وعَبَّرَ عنها بطريقِ الموصوليَّةِ لاشتهارِها بمضمونِ الصِّلة؛ ولأنّ مضمونَ الصِّلةِ هو الحالةُ المُشَبَّهُ بها في هذا التَّمثيلِ، ولأنّ القرآنَ لَم يُذكَرْ فيه بالاسمِ العلَمِ إلّا مَنِ اشتُهِرَ بأمرٍ عظيمٍ، مِثلُ جالوتَ وقارونَ"[3].

سِرُّ إيثارِ لفظِ (النَّقض) بدلًا مِنَ الفكِّ:

النّقضُ انتثارٌ، والفكُّ انفتاحٌ وانفِراجٌ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالنّقضِ دونَ الفكِّ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾؛ لأنّ النّقضَ أنسَبُ للتّعبيرِ عَن

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 417، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4257.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 137.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 264.

فكِّ المبروم والمغزول، فالنَّقضُ: انتثارُ العَقدِ مِنَ البناءِ والحَبلِ والعِقدِ؛ وهو ضِدُّ الإبرام، يُقالُ: نَقَضتُ البِناءَ والحَبلَ والعِقدَ[1]، أمّا الفكّ فأصلُهُ يدُلُّ على تَفَتُّحٍ وانفراجٍ[2]، فيُلاحَظُ أنّ النّقضَ مُتعلِّقٌ بالبناء وبالحَبلِ، وهو أنسَبُ لِنَقضِ الغَزلِ مِنَ الفكِّ؛ لأنّ الفكَّ يدُلُّ على الانفراجِ والانفِتاحِ.

النّهيُ واقعٌ على تحقيقِ النَّقضِ، لا على تَجَدُّدِه

دلالةُ التّعبيرِ بِالفِعلِ الماضي:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفِعلِ الماضي في قوله جلّ شأنُه: ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾؛ للدّلالة على أنّ المَنهيَّ هو تحقيقُ الفِعلِ لا تصويرُه؛ إذ لو عُبِّرَ بالمُضارعِ هنا لَدَلَّ على تصوير النّقضِ، أو يكون التّشبيهُ واقعًا في كونها تُجَدِّدُ النّقضَ، وهذا ليس المراد في السّياق، وإنَّما جاءَ النّهيُ عن تحقيقِ النّقض، والفعلُ الماضي يدُلُّ على ذَلِكَ، فجيءَ به لمناسبتِهِ السّياقَ.

أشنعُ الإضرارِ ما وقَعَ بالنّفس وبدّدَ جُهدَها

نكتةُ إضافةِ الغزلِ إلى الضّمير:

أضافَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الغَزلِ إلى الضّمير العائد على الاسم الموصولِ المُرادِ به المرأةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾؛ للدّلالة على أنّ المُرادَ الغزلُ الخاصُّ بها، الّذي كانت تنتظرُ الفائدةَ منه، فالضّررُ أصابَها؛ لأنّ النّقضَ في ذات الغزلِ الّذي كانت تغزلُه لا في غزلِ غيرِه، وهذا يدُلُّ على وجهِ النّهي؛ فإنّ نقضَ القوّةِ إنّما يضرُّ أهلَها.

ضياعُ العمل وقتَ بلوغه ثمرتَهُ خسارةٌ شَنيعَةٌ

فائدةُ القيدِ بالجارِّ والمجرور ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾:

قَيَّدَ النّظمُ الجليلُ فِعلَ النّقض بشبه الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور وما أُضيفَ إليه، فقال اللّهُ جلّ شأنُه: ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾؛ أي: لا تكونوا كتلك المرأة الّتي نقضَتِ الغزلَ بعدَ إبرامه وإحكامِه[3]،

(1) الرّاغب، المفردات: (نقض).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فك).

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 137.

فأضاعَتْ ثمرةَ الجُهدِ عِندَ بلوغِهِ الغايَةَ، وفيهِ دِلالَةٌ على شدّة الخُسرانِ؛ إذ ضاعَ المَقصودُ بعدَ تحقيقِ العمَلِ وإنجازِه، وهذا يدُلُّ على شناعَةِ ذلكَ النَّقضِ.

دلالةُ ﴿أَنكَٰثًا﴾:

نقضُ الغزلِ يُحيلُه خيوطًا مُفرّقةً

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ عنِ الغزلِ الّذي نُقِضَ بأنّه أنكاثٌ في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُه: ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾؛ أي: طاقاتٍ مُتعدِّدةً مُتفرِّقَةً، وهو حالٌ مِنَ الغَزلِ، ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا به ثانيًا للفعلِ (نَقَضَ)؛ بمعنى: أنّها صيَّرت غزلَها أنكاثًا[1]، والأنكاثُ: "جمعُ نِكث، كِنقضِ الفَتلِ، هو الشَّعرُ الّذي كان مَفتولًا ثمّ نُقِضَ، وصارَ أجزاءً مُتفرِّقةً بعد الفَتلِ وشدِّ الفَتلِ؛ والمعنى: أنّ العهدَ قوّةٌ"[2]، وأنّ النّقضَ ضَعفٌ؛ لأنّه يُسْفِرُ عن أنكاثٍ ضعيفةٍ مُبدَّدةٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالجمعِ ﴿أَنكَٰثًا﴾ دون اسم المفعول (منكوثًا):

التّفرُّقُ بَريدُ الضّعفِ

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ عنِ الأنكاثِ بصيغةِ الجَمعِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ دون اسم المَفعولِ، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (نقضَتْ غَزْلَها مِنْ بعد قوَّةٍ منكوثًا)؛ لأنّ صيغة الجمعِ هنا تُظهِرُ الضَّعفَ، فما "كان غَزلًا واحدًا جعلَتْهُ مَنقوضًا؛ أي: خُيوطًا عَديدةً، وذلك بأن صَيَّرَتهُ إلى الحالةِ الّتي كانَ عليها قبلَ الغزلِ، وهي كَونُهُ خُيوطًا ذاتَ عَدَدٍ"[3]، فالجَمعُ دلَّ على ضياعِ الجُهدِ، فالغَزلُ إنَّما يُرادُ منه تَجميعُ الخيوطِ لِتكونَ شيئًا واحدًا ذا فائِدَةٍ، أمّا إرجاعُ ذلكَ المَغزولِ إلى خيوطٍ كثيرَةٍ؛ فهو دليلٌ على ضياعِ الجُهدِ.

دلالةُ مَوقِعِ جملة ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ عمّا قبلَها:

الضَّرَرُ المُتَعدّي أقبحُ مِنَ الضَّرَرِ القاصِرِ

أوردَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿تَتَّخِذُونَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 137.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4257.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 265.

﴿أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ لبيان الحالِ المنهيّ عنها، فالجملةُ حالٌ مِنَ الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾؛ أي: لا تكونوا مُشابهين لهذه المرأةِ حالَ كونِكم مُتَّخذينَ أيمانَكم مَفسَدةً بينَكم[1]، وهذهِ الحالُ تُبيّنُ أنّ ضررَ اتّخاذ الأيمانِ للإفساد أشدُّ ضررًا من نقض المرأةِ غزلَها؛ إذْ ضَرَرُها خاصٌّ بها، أمّا ضررُ الاتّخاذ فهو مَفسدةٌ لذاتِ البَينِ[2].

دلالةُ النّهي الضِّمنِيّ في جملةِ الحالِ:

إيــرادُ الـحـالِ في حَـيّـزِ النّـهيِ تقويَةٌ لِلنَّهي

أوردَ النَّظمُ الجليلُ النّهيَ ضِمنًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾، والنّهيُ مُستفادٌ مِن كونِه حالًا مِنَ الضّميرِ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، فيكون "قيدًا للنّهي، فلمّا ورَدَ النّهيُ على المُقيّد مع قيدِه يكونُ القيدُ داخلًا في حيّز النّهي، فإذا نُهوا عن كونِهم كالنّاقضة غزلَها حالَ اتّخاذِهم أيمانَهم دَخَلًا بينَهم؛ فقد نُهوا في ضِمنِه عن أن يتّخذوا أيمانَهُم دَخلًا بينَهُم، فكأنّه قيلَ: ولا تنقضوا عُهودَكُم بعدَ توكيدِها بالأيمانِ مُشبَّهين بالنّاقضة غزلَها أنكاثًا مُتَّخِذين أيمانَكُم دخلًا بينَكم"[3]، وقد صرَّحَ بهذا النّهي بعد ذلك قريبًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النّحل: 94]، فالنّهيُ مُتَّجِهٌ لاتّخاذ الأيمانِ على تلك الحال.

وإنّما جيءَ بهذا النّهي بهذا الأسلوب؛ لِما فيه من بلاغةٍ في البيان؛ حيثُ أوردَ النّهيَ ضِمنَ التّشبيه الّذي يبيّنُ شناعةَ ذلك العمَلِ.

إيثارُ لَفظِ الاتِّخاذ بصيغَةِ الافتِعالِ:

تكلُّفُ الأخذِ دالٌّ عـلـى الإصــرار وسوءِ النِّيَّةِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بِفِعلِ الاتّخاذِ في قوله جلّ شأنُه:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 137.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 242.

(3) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد: 11/ 372.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ دون غيره، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ولا تجعلوا) مثلًا؛ لأنّ الاتّخاذَ أبلغُ في بيان سوءِ القَصْدِ، فهو يُبيّنُ أنّ الفاعلَ قد عَمَدَ إلى الأيمان وأخَذَها وسيلةً إلى مُبتَغاه، وفي صيغة الافتِعالِ دليلٌ على الكُلفَة والاجتهادِ في ذلك الأخذِ، والمرادُ: بيانُ سوءِ ذلك الفعلِ المنهيِّ عنه، وفيه إشارةٌ إلى أنّ النّهيَ شاملٌ لفساد الطّويّةِ، وخُبثِ النّيّة.

فائدةُ إضافة الأيمانِ إلى ضميرِ المُخاطَبين:

شناعَةُ المُخالَفَةِ مَــعَ الـعِـلْـمِ بِحَقيقَتِها

أضافَ النّظمُ البليغُ لفظَ الأيمانِ إلى ضمير المُخاطَبين في قوله جلّ شأنُه: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّها أيمانُهم أنفسهم، فهُم بها عارِفون؛ أي: هي أيمانُهم الّتي نطقوها بأنفسِهم، لا أيمانُ جماعَتِهم الّتي قد يَتَغاضَوْن عنها، فيَستَسهِلون نَقضَها، فهي أيمانُهم منسوبةً إليهم، فلا يَنبَغي بحالٍ أن تُتّخَذَ لإرادَةِ الإفساد.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في وصفِ الأيمانِ بالدَّخَل:

نـقـضُ الأيـمـانِ سبَبٌ في الإفسادِ

عَبَّرَ النّظمُ البليغُ عَنْ تحوّل الأيمانِ إلى وسيلَةٍ للدَّخَل في قوله جلّ شأنُه: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾، والدَّخَلُ في الأصلِ: ما يَدخُلُ في الشّيءِ على فسادٍ، وهو ليسَ منه[1]، ثمّ استُعمِلَ للدّلالة على الفسادِ؛ لأنّ الفسادَ لازمٌ لأصلِ المَعنى[2]، والمرادُ به هنا "الذّرائعُ إلى الخدع والغَدر؛ وذلك أنَّ المَحلوفَ له مُطمئنٌّ، فيتمكَّنُ الحالِفُ مِن ضرِّه بما يُريدُه"[3]، فكأنَّ الأيمانَ اتُّخِذَت وسيلةً للدّخولِ في حَلِفٍ مع سبق نيّةِ الإفسادِ، فدَخَلَ ما ليس مِنَ العهدِ والحَلِفِ فيه، وهو الخداعُ والضّررُ، فنسبةُ الإفساد للأيمانِ نسبةُ المُسَبَّب إلى مُسبِّبه؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 137، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 243.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 371.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 418.

أي: "تجعَلونَها سببَ فسادٍ بينَكُم؛ إذْ تَجعَلونَها وسيلةً للغَدرِ والمَكرِ، فيكونُ وصفُ الأيمانِ بالدَّخلِ مَجازًا عقليًّا"[1].

فائدةُ الظَّرفِ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾:

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بالظّرف (بين) في قوله جلّ شأنُه: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ لبيان أنّ ذلك الإفسادَ واقعٌ خلالَ الجَماعاتِ، مُضِرٌّ بها وبأُلفتِها ووِحدَتِها، كما أنَّهُ يدُلُّ على أنّ الطَّرفَ المُعاهَدَ "والمحلوفَ له يَطمَئِنُّ، فيَفْجَؤُه الضَّررُ، ولو كان على حذَرٍ؛ لَما نيل منهُ ولا جُسِرَ عليه"[2]، فالظّرفُ يشيرُ هنا إلى تبييت نيّةِ الإفسادِ مع مَن لا ينبغي أن يُنقضَ عهدُه ويُخانَ؛ لأنّه قريبٌ مُخالِطٌ، فيكون هذا النَّقضُ عظيمَ الإفساد، جليلَ الخطر؛ لأنّه واقعٌ بينَ جماعاتٍ اتّفقوا على مَصالِحِهم، وتآلَفوا فيما بَينَهُم.

مِن أعظَمِ الفَسادِ إفسادُ وُدِّ جماعَةٍ مُتآلِفينَ

دلالَةُ التّعبيرِ بالمَصدَرِ المُؤوّلِ:

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بالمَصدرِ المؤوّلِ من ﴿أَن﴾ والفعلِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾؛ لِبَيانِ علّةِ الاتّخاذِ الّذي يفعلونه، والّذي نُهوا عنه؛ أي: "لِأَنْ تكونَ جماعةٌ أزيدَ عددًا وأوفرَ مالًا من جماعَة"[3]، فهُمُ اتَّخذوا أيمانَهُم دخَلًا بسَبَبِ كونِ أمّةٍ أزيدَ من أمّةٍ، فالتّعليلُ يبيّنُ علّةَ نقضِ الأيمان المنهيِّ عَن نَقضِها، فالمصدرُ في مَوضِعِ المفعول من أجلِه[4].

بيانُ الحامِلِ على نقضِ الأيمانِ

سِرُّ إيثار لَفظِ ﴿أَرۡبَىٰ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿أَرۡبَىٰ﴾ دونَ غَيرِها في قولِه جلّ شأنُه: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾؛ للدّلالة على الأفضليّة والزّيادة على غيرِها في المكانةِ والقوّة، "وهو اسمُ تفضيلٍ مِنَ

إيثارُ اللّفظ واسعِ الدّلالة مِن مَعالِم الإيجاز والإعجاز

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 265.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 243.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 238.
(4) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/ 434.

الرُّبوّ، بوزن العُلوّ؛ أي: الزّيادةِ، يَحتمِلُ الحقيقةَ، أعني: كثرةَ العددِ، والمَجازَ، أعني: رفاهيةَ الحالِ وحُسنَ العيشِ، وكلمةُ ﴿أَرۡبَىٰ﴾ تُعطي هذه المعاني كلَّها، فلا تَعدِلُها كلمةٌ أخرى تَصلُحُ لجميع هذه المعاني، فوَقعُها هنا مِن مُقتَضى الإعجازِ، والمَعنى: لا يَبعَثُكُم على نقضِ الأيمانِ كونُ أُمَّةٍ أحسنَ من أُمَّةٍ"[1]، فآثرَ التّعبيرَ بها؛ لِما فيها مِن دلالةٍ على كلِّ تلك المعاني.

علّةُ فصلِ جُملَةِ ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ عمّا قبلَها:

التّفاضُلُ بينَ العِبادِ في أحوالِ الدُّنيا مِن ابتِلاءِ اللهِ لَهُم

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا تعليليًّا، فلمّا حذّرَهُم نقضَ الأيمانِ بِسَبَبِ ما بينَهُم مِن فوارقَ وزيادةٍ؛ بَيَّنَ علّةَ تلكَ الزّيادة، فهو تعليلٌ "بما يقتضي الحِكمةَ، وهو أنّ ذلك يَبتلي اللّهُ به صِدقَ الإيمانِ، كقولِه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الأنعام: 165]"[2]، وذِكرُ ذلك هنا مِنَ اللُّطفِ بالعِباد، حيث نَفى أن يكونَ ذلكَ التَّفاضُلُ علامَةً على تَقريبِ أحدٍ وإبعاد غيرِه، أو قبول أحدٍ دونَ آخَرَ، فما ذلك إلّا ابتلاء، وليس دليلًا على أفضليّةٍ ما.

بلاغَةُ الحَصرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

ابتلاءُ الله تعالى عبادَهُ لا يَنبغي أن يُجهَلَ

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بأسلوبِ الحَصرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾؛ تأكيدًا لمضمون الجملةِ، وهو انحصارُ تلك الزّيادة الكائنة بينَ الأممِ في شؤون الحياةِ الدّنيا في الابتلاءِ؛ أي: إنّها ليسَت للتّفاضُل، وهو قَصرُ موصوفٍ على صفة قصرًا إضافيًّا، وفي التَّعبيرِ عنِ القصرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ هذا ليسَ من شأنِه أن يُجهَلَ أو يُنكَرَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 266.

إيثارُ لفظ ﴿يَبۡلُوكُمُ﴾ دون غيرِه:

استِمرارُ اختِبارِ الأُمَمِ بتَفاضُلِها

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالابتلاء دونَ غيرِه، كالفتنةِ مثلًا، فقال جلّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾؛ لأنّ الابتلاءَ يدُلُّ على كثرَة الاختبار، "يُقالُ: بَليَ الثّوبُ بِلًى وبلاءً؛ أي: خَلَقَ، ومنه قيل لِمَن سافرَ: بِلْوُ سَفرٍ وبِلْيُ سَفَرٍ؛ أي: أبلاه السَّفرُ، وبَلَوتُه: اختبرتُه، كأنّي أخلقتُه مِن كثرةِ اختباري له"(1)، وبذلك هو أنسبُ للتّعبير عن تفاضُلِ الأمم والجماعات، فالابتلاءُ بهذا التّفاضُلِ لا يكونُ إلّا دائمًا مُستمرًّا، فهو ابتلاءٌ مُكرَّرٌ مُستمِرٌّ.

دلالةُ صيغةِ المُضارِع في ﴿يَبۡلُوكُمُ﴾:

مِن سُنَنِ اللهِ تعالى ابتِلاؤُهُ العِبادَ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفِعلِ المُضارِع في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾؛ للدّلالة على أنَّ ذلك الابتلاءَ دائمٌ مُتجدِّدٌ بدوامِ الحياة والأُمَم، وهذا أصلٌ أصيلٌ وغايَةٌ كبرى من غايات الوجودِ والخَلقِ، فأخبرَ اللّهُ تعالى أنّه يبلو عبادَه على سبيل الدّوام، وأنّ ذلك الابتلاءَ سنّةٌ دائمةٌ مُتجدِّدةٌ من سُنَن اللّه تعالى في خَلقِه.

سِرُّ إسنادِ الابتلاءِ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

تَهيِئَةُ العِبادِ للرِّضا بما قَسَمَهُ اللهُ تعالى بَينَهُم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ تفخيمًا لشأن البلاء، وتأكيدًا لكونه وقَعَ بعِلمِ اللّه وبإرادَته، وأنَّ مردَّهُ لأمرِه، وليس لأسباب الحياة المُجرَّدة، وفيهِ تربيَةٌ للمَهابَة، وتهيئةٌ للنّفوس لِتَقبُّلِ ذلك التّفاضُلِ الدّنيويِّ بِرِضًا؛ حيث إنّه منَ اللّه تعالى الجامعِ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

بيانُ مَرجعِ الضَّمير في ﴿بِهِۦۚ﴾:

الابتلاءُ حاصِلٌ بتفضيلِ الأُمَمِ في شُؤونِ الحياة

الضّميرُ في ﴿بِهِۦۚ﴾ مِن قولِ اللّهِ جلّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ

(1) الرّاغب، المفردات: (بلى).

﴿بِهِۦ﴾ يعودُ إلى المَصدر المُنسبكِ من ﴿أَن﴾ وما دخلَت عليهِ في قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ﴾(1)؛ أي: يَبْلوكم بأن تكونَ أمّةٌ أربى من أمّةٍ أخرى، فيَختَبِرُكم لينظرَ أتتمسّكون بالوفاءِ بالعهد، أو تَتخَلعون منهُ اعتِمادًا على كثرة أنصارِكم وقلَّةِ أنصارِ مَن نَقَضتُم عهدَه مِنَ النّاس(2).

دلالةُ الواو ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾:

معرفةُ العِبادِ يومَ القِيامَةِ بِمآلاتِ التّفاضُل

عَطَفَ النّظمُ الجليلُ قولَه جلّ شأنُه: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بالواو على قوله: ﴿يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾؛ وذلك لتأكيدِ "أنّه سيُبَيِّنُ لَهم يومَ القيامةِ ما يَختلِفون فيهِ مِنَ الأحوال، فتظهَرُ الحَقائقُ كما هي غيرُ مُغَشّاةٍ بزخارفِ الشَّهواتِ، ولا بمكارهِ مُخالَفةِ الطِّباع؛ لأنّ الآخرةَ دارُ الحقائقِ لا لَبْسَ فيها، فيومئذٍ تَعلمون أنّ الإسلامَ هو الخيرُ المَحضُ، وأنّ الكفرَ شرٌّ مَحضٌ"(3)، فكما قُصِرَ التّفاضُلُ في الابتلاءِ تأكيدًا لكونِه مَحضَ ابتلاءٍ، عُطِفَ عليه تأكيدُ كَونِ التّفاضُلِ سَتُعرَفُ نتائجُه يومَ القيامَة.

دلالةُ اللّام في أوّلِ الفِعلِ والنّون المُشدَّدة في آخِره:

تَعجيلُ الطُّمأنينَةِ لأهلِ الإيمانِ

أدخلَ النّظمُ الجليلُ على الفعلِ لامَ القسمِ في أوّله، ونونَ التّوكيدِ في آخره في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ وذلك لتأكيد الوعدِ بمُؤكِّدَين(4)؛ تقويةً للخبر، ولأنّ النّفوسَ مَجبولَةٌ على العَجَلَة، فأكَّدَ لَهُم ذلك طَمأنَةً لأهلِ الإيمانِ.

أثرُ استعمالِ صيغةِ المُضارع:

يَحكُمُ اللهُ تعالى يومَ القِيامَةِ بينَ المُختَلِفين

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفِعلِ المُضارعِ في قولهِ جلَّ شأنُه:

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 372.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 266 - 267.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 267.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنّه حدثٌ واقعٌ في المُستقبل، فالتّعبيرُ بالمضارع لأجلِ ذلك؛ اعتبارًا بالحقيقة، وهو مُناسِبٌ للقَيدِ اللّاحقِ لَهُ بكونه كائنًا يومَ القيامَةِ.

فائدةُ تقييدِ البيانِ بالجارِّ والمجرورِ والظَّرف:

تَأجيلُ البَيانِ إلى يومِ القِيامَةِ تَحقيقٌ لِمَقصودِ الابتِلاءِ

قَيَّدَ النّظمُ الجليلُ البيانَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بشبهِ الجُملةِ ﴿لَكُمۡ﴾؛ اهتمامًا بالمُخاطَبينَ وتخصيصًا لهم، وهو بيانٌ يَبلُغُهم، والمقصودُ به: أنَّه يُبيِّنُ لهم بيانًا على قَدرِهم، وعلى ما يَخُصُّهم ممّا وقَعَ لهم في الحياة الدّنيا مِن اختلافٍ، وأمّا تقييدُه بالظّرف فللدّلالة على أنّه كائنٌ في ذلك اليوم؛ "أي: إذا تَجَلّى لِفصلِ القضاءِ يومَ القيامَةِ"[1]، فسيقَ مَساقَ الوعدِ، لتحقيق المرادِ مِنَ الابتلاءِ؛ إذِ الإحالةُ على يوم القيامة تدُلُّ على توكيلِ العبادِ إلى أنفُسِهم، وما يختارون أن يفعلوهُ إزاءَ الابتلاءِ، ولَو وقَعَ البيانُ في الدّنيا؛ لَما بَقيَ للابتلاءِ مُسَوِّغٌ.

سِرُّ تقديمِ ﴿لَكُمۡ﴾ على ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

الغايةُ مِنَ البيانِ إظهارُ الحقائقِ للمُخاطَبينَ

قَدَّمَ بليغُ النّظمِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ القيدَ بِشِبهِ الجُملةِ على القيدِ بالظّرف؛ لأنّ البيانَ إنّما وقَعَ خاصًّا بالمُخاطَبين، فالغرضُ الأساسُ منه هو التّبيينُ لهم، فقَدَّمَهُم؛ لأنّ ذِكرَهُم في هذا المقامِ أهمُّ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ الموصولَةِ:

لا يَتَخَلَّفُ عَن بيانِ اللهِ تعالى شيءٌ

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بالاسم المَوصولِ ﴿مَا﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾؛ للدّلالة على عموم ما اختَلَفَ فيهِ النّاسُ والأممُ من شأن الإيمانِ والعقائدِ وغيرِها، فكلُّ ذلكَ سَيكونُ ممّا يبيَّنُ للعِباد، كما أنّه يَتناوَلُ ما وقَعَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 244.

فيهِ الاختلافُ على سبيلِ الإفرادِ، فكلّ أمرٍ اختُلِفَ فيه سيكونُ ممّا يُبيَّنُ يومَ القيامَةِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بفِعلِ الكَونِ ﴿كُنتُمۡ﴾:

رُسوخُ الاختلافِ بينَ الأُمَمِ وعَراقَتُهُ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بفِعلِ الكون في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ دون أن يَردَ النَّظمُ القرآنيُّ: (ما فيه تَختلِفون)؛ للدّلالة على عَراقَةِ الاختلافِ بَينَهُم، وأنّ ذلك الاختلافَ كان مُتأصِّلًا بينَ الأُمَمِ، وهو مُطابِقٌ لسنّةِ اللّه تعالى في خَلقه؛ إذ قالَ عزّ ذِكرُه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هود: 118]، فكأنّهم لشدّة التِصاقِهم بالاختِلاف قَد جُبِلوا عليهِ.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهِ﴾:

المقصودُ الأعظَمُ بيانُ المُختَلَفِ فيهِ

قَدَّمَ النّظمُ البليغُ شِبهَ الجملةِ منَ الجارِّ والمجرورِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ دون أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (تَختلِفون فيه)؛ اهتمامًا بالمُقدَّم، فإنّ بيانَ ما وقَعَ فيه الاختلافُ أهمُّ مِنَ الاختلافِ نفسِه، كما أنّ تأخيرَ الفعلِ المَصوغِ بصيغة الأمثلةِ الخمسةِ والمختومِ بالضّميرِ والنّونِ يحافظُ على البِنيَةِ الصَّوتيَّةِ للنّصّ من حيث الفاصلةُ، وهذا يحافظُ على وِحدَةِ النّسقِ الصّوتيِّ الّذي يسحرُ الألبابَ، ويُشنِّفُ الآذانَ.

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ عنِ الاختلاف بصيغة المُضارِع:

الاختلافُ سنّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ تعالى في الخَلْقِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾؛ للدّلالة على التّجدُّدِ والاستمرار، فإنّ الاختلافَ في الحياة الدّنيا كان مُستمرًّا مُتجدِّدًا، وهو سنّةٌ من سُنَنِ اللّهِ في خَلقِه، وهو المعنى الّذي تعبّرُ عنه الآيةُ اللّاحقةُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النَّقضُ والفكُّ:

النَّقضُ: انتِثارُ العَقدِ مِنَ البِناءِ والحَبلِ والعِقدِ، وهو ضِدُّ

الإبرام، يقال: نَقَضْتُ البِناءَ والحَبلَ والعِقدَ[1]، أمّا الفكُّ فأصلُهُ دالٌّ على تَفَتُّح وانفِراج، ومِن ذَلِك فكاكُ الرَّهن، وهو فتحُهُ مِنَ الانغِلاق[2]، يُقالُ: فكَكْتُ الشَّيءَ فانفكَّ، بِمَنزِلَةِ الكِتابِ المَختوم تَفُكُّ خاتِمه، كما تَفُكُّ الحَنَكَيْنِ تَفصِلُ بَينَهُما، وفَكَكْتُ الشَّيءَ: خَلَّصتُه، وكُلُّ مُشتَبِكَينِ فصَلتَهُما فقد فكَكتَهما[3]، فالفكُّ يدُلُّ على الانفراج والانفِتاح، بخلاف النَّقضِ؛ فإنَّهُ مُتعلِّقٌ بالبناء وبالحبل، وهو أنسبُ للتّعبير عن فكِّ المُبرَم والمَغزول؛ ولذا قال جلّ شأنُه: ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾.

النّقضُ أخصُّ مِنَ الفكّ

الدَّخَلُ والخيانةُ:

الدَّخَلُ: كنايةٌ عنِ الفَساد والعَداوَة المُستبطَنة[4]، والمقصودُ في الآيةِ: الفَسادُ، والمرادُ: تَجعَلونَ أيمانَكُمُ الَّتي حَلَفتُموها سَبَبَ فسادٍ بَينَكُم، ووسيلَةً للغدرِ والمَكر[5]، أمّا الخيانةُ فهي: مُخالَفةُ الحقِّ بنَقضِ العهد في السّرِّ، ونقيضُ الخيانة: الأمانَةُ[6]، فنقضُ العهدِ فيها مُتحقِّقٌ على وجهِ الإسرار، وأمّا الدّخَلُ فهو الفسادُ الدّاخليُّ الباطنُ، ومَقامُ الآية الكريمَةِ لا يُساعِدُ على إرادَةِ الخيانَة.

الدّخلُ فسادٌ باطِنٌ، والخيانةُ نقضٌ للعهدِ سِرًّا

الابتِلاءُ والامتحانُ:

الابتِلاء: التّكليفُ بالأمر الشّاقِّ، ولا يكون إلّا بتحميل المَكارهِ غالبًا[7]، وقد يَرِدُ الابتلاءُ بالخَيرِ، كما قال اللهُ سُبحانَهُ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35] وأمّا المِحْنَةُ فواحدة المِحَن الّتي يُمتَحَنُ بها الإنسانُ من بليَّةٍ، يُقالُ: مَحَنتُهُ وامتَحَنتُهُ؛ أي: اختبرتُه، والاسم:

الامتِحانُ عامٌّ، والابتلاءُ خاصٌّ بالشَّدائد غالبًا

(1) الرّاغب، المفردات: (نقض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فكك).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات: (دخل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 265.
(6) الرّاغب، المفردات: (خون).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 216، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.

المِحنَةُ، ويُقالُ أيضًا: مَحَنَهُ سَوطًا: ضَرَبَهُ[1] وإنّما آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عنِ الاختبار بالابتلاء في هذا المَوضِع؛ لأنّ المُرادَ منه الشّدّةُ والتّشديدُ، وهذا أنسبُ لسياق تفاضُلِ الأمم بعضِها على بعض؛ إذ إنَّ الابتلاءَ بزيادة أُمّةٍ على أُمّةٍ في المكانة والرّزقِ والمَعاشِ شديدُ المَشقّة على غَيرِهِم وأقرانِهِم.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (محن).

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [النّحل: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هدايَةُ العِبادِ أو ضَلالُهم راجِعٌ إلى مَشيئَةِ اللهِ تعالى

بعدَ أن أوردَ النّظمُ الجليلُ الأمرَ والنّهي، والتّمثيلَ لبيان قُبحِ الإتيان به، وبيَّنَ أنّ الأسبابَ الدّافِعةَ للنّقض محضُ ابتلاءٍ مِنَ اللّه تعالى، وأنّه سَيَحكُمُ بينَهم يومَ القيامَةِ، وأحالَ "البيانَ إلى يوم القيامة؛ زادَهُم إعلامًا بحكمةِ هذا التّأخير؛ فأعلمَهُم أنّه قادرٌ على أن يُبَيِّنَ لَهُم الحقَّ مِن هذهِ الدّارِ، فيَجعَلُهم أُمّةً واحدَةً، ولكنّ اللّهَ تعالى أضَلَّ مَن شاءَ، وهَدى مَن شاءَ"[1]، فإيرادُ الآيةِ بَعدَ الإحالَةِ على يومِ القيامَةِ كانَ ردًّا لِمَن ظنَّ أنّ كثرةَ الإحالة على القيامةِ دليلٌ على نقصِ القدرةِ في هذه الدّارِ، فصرَّحَ بِنَفيِ ذلكَ بأنَّ اللّهَ تعالى لو شاءَ ذلكَ لَكان، ولكن لم يَشأ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَجَعَلَكُمۡ﴾: الجيمُ والعَينُ واللّامُ تدلُّ تصريفاتُها على تحويلِ الشَّيءِ إلى وضعٍ أو هيئةٍ مُعيَّنةٍ[3]، والجَعْلَةُ، بالفتح: الفَسيلةُ أو الوَديَّةُ، والجُعَل: دابَّةٌ سَوداءُ من دَوابّ الأرضِ، وجَعَلْتُ الشَّيءَ صنعتُه[4]، ولفظُ (جَعَلَ) عامٌّ في الأفعال كُلِّها، وهو أعمُّ من فعَلَ، وصَنَعَ، وسائر أخواتها، يأتي لمعانٍ منها: جَعَلَ الشَّيْءَ جَعلًا: وضَعَهُ وقدَّرَه، جَعَلَ بَعضَه فوقَ بعضٍ: ألقاهُ، وجَعَلَ القَبيحَ حَسَنًا: صَيَّرَهُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 267.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 244.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 385.

وجَعَلَ البَصرَةَ بَغدادَ: ظَنَّها إيّاها، وجَعَلَ لَهُ كَذا على كَذا: شارَطَهُ بِه علَيه[1]، والمقصودُ بالجَعلِ في الآيَةِ: التَّقديرُ، والمرادُ: أنَّهُ تعالى قادِرٌ على أن يُبَيِّنَ لَهُمُ الحَقَّ مِن هذهِ الدّارِ، فيجعلهُم أُمَّةً واحِدَةً[2].

2) ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ﴾: السّينُ والهمزةُ واللّامُ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعنى الاستِدعاءِ والطَّلَبِ[3]، يُقالُ: سَألتُهُ عَن عِلمٍ سُؤالًا ومَسألَةً؛ أي: طَلَبتُ مَعرِفَتَهُ، فالسُّؤالُ حَقيقَتُهُ الطَّلَبُ، فإذا عُدّي بـ(عَن) فهو طَلَبُ معرفَةِ المَجرورِ بـ(عَن)، وإذا عُدّيَ بنَفسِهِ فهو طَلَبُ إعطاءِ الشَّيءِ، والمقصودُ بالسُّؤالِ في الآية سُؤالُ المُحاسَبَةِ والمُجازاةِ[4]؛ لأنَّه سؤالٌ حَكيمٌ تَتَرَتَّبُ عليهِ الإنارةُ، وليسَ سُؤالَ استِطلاعٍ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاختلافُ الواقعُ بين النّاس، هو ممّا قضَت به حكمةُ الله فيهم

يُخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه لو شاءَ لجعَلَكم جميعًا - أيُّها النّاسُ - على مِلَّةٍ واحدةٍ؛ وهيَ مِلَّةُ الإسلامِ، دونَ حُدوثِ اختلافٍ أو تفرُّقٍ بينَكم، ولكِنَّ اللّهَ بحِكمَتِه خالَفَ بينَكم، فجعَلَكم أهلَ مِلَلٍ شَتَّى مُختَلِفة، يخذُلُ مَن يشاءُ عنِ اتِّباعِ الحَقِّ، فيَحرِمُ توفيقَه مَن يشاءُ؛ عدلًا منه سُبحانَه، ويوفِّقُ مَن يشاءُ، فيهديه للحَقِّ فضلًا منه سُبحانَه، وليَسألَنَّكم اللّهُ جميعًا - أيُّها النّاسُ - يومَ القيامةِ عَمّا كُنتُم تعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فيُجازيكُم على أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها[6].

---

(1) ابن سيده، المحكم: (جعل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 267.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 589.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 286.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 347، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 600، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 448.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في مُفتَتَحِ الآيَةِ:

مُقتَضى الابتلاءِ أن لا يكونَ النّاسُ أُمّةً واحدةً

افتتحَ النّظمُ الجليلُ قولَهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالواوِ الاستئنافيّة[1]، فلمّا ذَكَر أنّه يبلو عبادَه استأنفَ لِبَيانِ أنَّ ذلكَ الابتلاءَ يُفَرِّقُ النّاسَ، فيذهب كلُّ أحدٍ منهم إلى ما يُيسِّرُ اللّهُ تعالى له؛ إذْ إنّه لَم يشأْ أن يكونَ النّاسُ أُمّةً واحدةً[2]، فكأنّ السّامعَ لمّا سمعَ شأنَ الابتلاءِ عَلِمَ أنّ النّاسَ مُتفَرِّقون لا محالةَ بسَبَبِ الابتلاء، فكأنّه اعترضَ بأنَّ الغايةَ مِنَ الابتلاء سَتَذهَبُ بغايَةٍ أُخرى؛ وهي توحيدُ الخَلقِ بِجَعلِهِم على دينٍ واحدٍ، فأخبرَ تعالى بأنَّ جَعلَ الخلقِ أمّةً واحدةً لا يكون بِحالٍ؛ لأنّ مشيئتَهُ لَم تتعلَّقْ بذَلِكَ.

علّةُ إيثارِ أُسلوبِ الشَّرطِ على الإخبارِ بالنَّفي:

ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لَم يَشأْ لَم يَكُنْ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بأسلوبِ الشّرط في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ دونَ الإخبارِ بالنَّفي، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وما شاء اللّهُ أن يجعلَكُم أمّةً واحدةً)، بل عَدَلَ عن ذلكَ إلى الشَّرطِ؛ لأنّ التّبيينَ بالمُجازاةِ أبلَغُ مِنَ الإخبارِ[3]، وذلك لأنّه علَّقَ وجودَ الأمّة الواحدةِ على مَشيئَتِه، فلمّا انتَفَتْ مَشيئَتُه؛ انتَفى وجودُ الأمّةِ عَلى ذلك الوصفِ انتفاءً وجوديًّا قطعيًّا.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسمِ الأحسنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

لا مَسلَكَ لِهدايَةِ الخَلْقِ مِن غَيرِ مَشيئَةِ اللهِ تعالى

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بالاسم الأحسَنِ الدّالِّ على التّعظيم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: "المَلِكُ الأعلى الّذي لا أمرَ لأحدٍ معَهُ"[4]؛ وذلك لتأكيدِ تحقُّقِ مضمونِ الخطاب، فإنّ اللّهَ تعالى إذا لم يشأْ؛ فإنّ تلك المَشيئةَ المُنتَفيَةَ المُسنَدَةَ إلى اللّه

---

(1) صافي، الجدول: 7/ 380.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 418.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 372.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 244.

تعالى لا يُمكِنُ أن تكونَ بحالٍ مِنَ الأحوالِ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى هو ذاتُه لم يشأْ ذلكَ، فلا سبيلَ لأن يَكونَ النّاسُ كذلك.

سرُّ إيثار لَفظِ (الجَعْل):

عظمَةُ قُدرَةِ الله تعالى في تَغييرِ النّاس مِن حالٍ إلى حالٍ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الجَعلِ دون غيرِه في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ لأنّ الجَعلَ دالٌّ على تحويلِ الشّيءِ من حالٍ إلى حال، فلمّا كانوا مُختلفين على أصلِ خَلقِهم ووُجودِهم، وأُريدَ التّعبيرُ عن تحويلِهم إلى أُمّةٍ واحدَةٍ، ناسَبَ ذلك التّعبيرَ بالجَعلِ، ولفظُ الجَعلِ يُشيرُ إلى عظيمِ قُدرَةِ اللّهِ تعالى في هذا التَّحويلِ.

سِرُّ استعمالِ لَفظِ ﴿أُمَّةٗ﴾:

لفظُ الأمّةِ دالٌّ على الاجتماعِ والاتّحاد

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ (الأمّة) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ دون غيره، كلفظ (الجماعة) أو (الفئة)؛ لأنَّ الأُمَّةَ هي الأصلُ الجامعُ للنّاس، فالتّعبيرُ بها في سياق جعلِ النّاسِ مُتّحدّين أنسبُ مِن غيرِه؛ لدِلالَتِها على الجَمعِ، فهي تَجمَعُ الجماعاتِ والشّعوبَ ضِمنَ كيانٍ واحدٍ.

فائدةُ وصف الأمّةِ بكونِها واحِدَةً:

الوحدةُ دليلُ الاتّفاقِ

وَصَفَ النّظمُ الجليلُ الأمّةَ بكونِها واحدةً في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ للدّلالة على أنّها مُتَّفِقَةٌ على الإسلامِ لا يَختَلِفُ أهلُها في الدّين[1]، فلا يقعُ عليهِم ذلك الابتلاءُ، ولكنْ شاءَ اللّهُ تعالى أن يَبتَليَهُم بالاختلافِ، فلم يشأْ أن يَجعَلَهُم مُتّفقين، بأن يكونوا أُمّةً واحدةً، لا خلافَ بينَهُم في أصولِ الدّين وفروعه، مُتَّفقين على أمرٍ واحدٍ، مُنتفية عنهم أسبابُ الخِلافِ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 137.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 244.

دِلالةُ الواوِ والحرفِ ﴿وَلَٰكِن﴾:

أثَرُ دِلالاتِ الحُروفِ في إثراءِ المَعاني

أدخلَ النّظمُ الجليلُ واوَ العطفِ على ﴿وَلَٰكِن﴾ الدّالّةِ على الاستدراكِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، والاستدراكُ يدُلُّ على خلافِ ما سبَقَ ذِكرُهُ، فلمّا قالَ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أتبَعَهُ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِن﴾؛ للدّلالة على أنّه لَم يَشَأْ ذلكَ، بَل شاءَ اختلافَهم[1].

سِرُّ استعمالِ لَفظِ الضَّلالِ بصيغَةِ المُضارِع:

يُضلُّ اللهُ تعالى مَن يشاءُ بِعَدلِه

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفِعلِ المُضارعِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الضَّلالَ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ بدَوامِ الدُّنيا وبقائِها، وعَبَّرَ بالإضلالِ، وأُريدَ منهُ أن يَخذُلَهُم عنِ الهِدايَةِ لخلوِّهم من أسبابها، فـ "بِحُكمِ الإلهيّةِ يُضلُّ مَن يشاءُ بخذلانِه إيّاهم عَدلًا منهُ فيهم"[2].

سِرُّ استعمالِ لفظِ الهِداية بصيغَة المُضارع:

يَهدي اللهُ سُبحانَهُ مَن يشاءُ بِفَضلِه

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ الهِداية بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ شأنَ الهداية دائمٌ مُستمرٌّ، وأنّه لا ينقطعُ في زمانٍ مهما عَلا الباطِلُ والضّلالُ فيه، وعَبَّرَ بالهِداية عنِ التّوفيق إليها، فهو بحكم الإلهيَّةِ يهدي مَن يشاءُ بتوفيقِهِ إيّاهُم تفضُّلًا منهُ عليهِم[3].

بلاغَةُ الطِّباقِ بينَ الهُدى والضَّلال:

مِن حُسن البيانِ الجمعُ بين الضِّدَّين

جَمَعَ النّظمُ الجليلُ بين الضِّدَّين في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾، فجَمَعَ بينَ الضَّلالِ والهدى مطابقةً بينَهما؛ وفائدةُ ذلك: بيانُ حُسْنِ أحدِهما وسوءِ الآخر على وجهِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 244.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 228.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 228.

البيانِ التّامّ، فالضّدُّ يُظهِرُ حسنَ الضّدِّ الآخر، فلمّا ذُكِرَ الضّلالُ وهو ممّا لا يسرُّ النّفوسَ؛ أتبعَه بما يَسُرُّها وهو الهِداية، فيقعُ الموقِعَ الحسَنَ والأكملَ في بيانِ الفَضيلَةِ.

دلالةُ ﴿مَن﴾ في مَوضعيها، وسرُّ التَّعبيرِ بها:

الضّلالُ والهُدى مُستَمِرّان على مَرِّ الأزمانِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾، وهو اسمٌ دالٌّ على العموم؛ للدّلالة على أنّ هذينِ الفِعلَين لا يختصّانِ بفئةٍ دون أُخرى، بل هما شاملانِ النّاسَ جميعًا، فتتَعلَّقُ الهِدايةُ بِمَنْ أظهرَ مِن نفسِه الاستعدادَ لقبولِ الهدى في كلِّ الأزمانِ والعصور، وأمّا مَن أبى وتولَّى فقد استحقَّ الضّلالةَ في أيِّ عصرٍ كانَ.

دِلالَةُ حَذفِ مفعولِ المَشيئَةِ:

حَذْفُ ما دَلَّ السِّياقُ عليهِ لاقتِصادٍ في اللَّفظ

حَذَفَ النّظمُ الجليلُ مُتعلّقَ فِعلِ المَشيئَةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ لظُهور المُراد، فقد جاءَ فعلُ المَشيئَةِ صلَةً لِلمَوصولِ[1]، والجملَةُ الواقِعَةُ صلةً تقتضي أن تحتوي على رابطٍ، وهذا الرّابطُ قد يُحذَفُ لظهوره مِنَ السّياق للإيجازِ والاقتِصاد في التّعبير، والتّقدير: يهدي مَن يشاءُ هدايتَه، ويضلُّ مَن يشاءُ إضلالَه، فحذفُه لدلالةِ المذكورِ في الجملة عليهِ، وكفايةِ السّياقِ للبيان عنه، فهو إيجازٌ بليغٌ.

دِلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ﴾:

الهِدايَةُ والضَّلالُ اختيارٌ مِنَ العبدِ لواحِدٍ مِنهُما

الجملَةُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ معطوفَةٌ على الجُملَة في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾[2]، فلمّا كان قولُه عَزَّ ذِكرُه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ قد "يَغترُّ به قِصارُ الأنظارِ، فيَحسَبونَ أنّ الضّالّينَ والمُهتدينَ سواءٌ عند اللّه،

---

(1) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 2/ 1225.

(2) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 2/ 1225.

وأنّ الضّالّينَ مَعذورونَ في ضلالِهم؛ إذْ كان مِن أثرِ مَشيئةِ اللّهِ"[1]، فأعقبَه بذكر السّؤالِ الّذي يدُلُّ على أنّ الضّلالَ والهِدايةَ اختيارٌ مِنَ العَبدِ لطريقٍ واحدٍ منهما، وهو في ذلك لا يخرُجُ عن مشيئةِ اللّهِ سُبحانَهُ؛ و"لو كان العبيدُ مُضطَرّين للهِداية والضّلال؛ لما أثبَتَ سُبحانَه لهم عملًا يُسألونَ عنهُ"[2].

دِلالةُ اللّامِ والنّونِ الدّاخِلَتَين على فِعلِ السُّؤالِ:

تأكيدُ اللّفظِ مُبالغةٌ في تحقيقِ الوَعدِ

أدخَلَ النّظمُ الجليلُ اللّامَ الموطّئةَ للقسَم ونونَ التّوكيد على الفعلِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ وذلك للمبالغَةِ في تأكيدِ السّؤالِ؛ إذْ أكّدَه بمؤكِّدَين[3]؛ مُبالغةً في تحقُّقِ هذا الوَعدِ.

سِرُّ بناءِ فِعلِ السُّؤالِ للمَفعولِ:

الاهتِمامُ بشَأنِ السُّؤالِ والحِسابِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المَبنيِّ للمفعولِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ﴾؛ للاهتمام بالسُّؤال والمحاسبَةِ لِذاتِها، لا لكونِها مِن مُعيّنٍ، فهذا الحدثُ هو المُتَوَعَّدُ به، كما أنَّ في حذفِ الفاعِلِ المَعلوم تعويلًا على علم السّامعِ به يُشيرُ إلى قوّةِ حُضورِه في الأذهانِ، كما أنَّ فيهِ طلبًا للإيجازِ بالاكتفاءِ على المعلومِ في الأذهانِ عَن ذِكرِه في الألفاظِ.

نُكتَةُ عدمِ قَيدِ السُّؤالِ بـ (يَوْمِ القِيامَةِ):

عظمةُ السُّؤالِ مُستقلّةٌ عَن عظَمَةِ يومِ الحِسابِ

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ عن تحقُّقِ السّؤالِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، دون أن يبيّنَ أنّ ذلك كائنٌ يومَ القيامة؛ إذْ في الاستغناءِ عن قَيْدِ (يوم القيامة) تنبيهٌ على الاهتمام بالسُّؤال لذاتِه، فلو أُظهِرَ القيدُ بِكونِ السُّؤالِ في يوم القيامةِ فإنَّ الاهتمامَ سيكونُ بذلك اليومِ والسّؤال فيه، ولكنّه أراد تفخيمَ شأن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 267.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 459.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 228.

السّؤالِ، فحَذَفَ القيدَ لجعلِ الأذهانِ مُتعلّقةً بالسّؤال فحسبُ، كما أنّ فيه إيجازًا في التّعبير، فلم يذكرْهُ اعتمادًا على دِلالة السّياق عليه؛ إذْ مِنَ المَعلوم أنَّ السّؤالَ عنِ الأعمال كائنٌ يومَ القيامَةِ.

لَطيفَةُ تقييدِ الفِعلِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَمَّا كُنتُمْ﴾:

تَنبيهُ العِبادِ إلى الاهتِمامِ بالعَمَلِ

قَيَّدَ النّظمُ الجليلُ السّؤالَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأنّه كائنٌ عنِ الأعمالِ، فهو مُقيّدٌ بما كانوا يَعمَلونَ في الحياةِ الدّنيا فحَسْبُ[1]، فلا يُسألون عن غيرِه؛ إرشادًا لهم على الاهتمام بِعَمَلِهم والكفِّ عمّا سِوى ذلك مِمّا لا يتعلَّقُ به عَمَلٌ.

دِلالةُ (ما) وأثَرُها في المعنى:

عُمومُ السُّؤالِ عَنْ كُلِّ عملٍ، وإنْ صَغُرَ

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالاسمِ المَوصولِ (ما)[2]؛ لدِلالَتِه على العُموم، فيشمَلُ كلًّا مِنَ الضّلال والهدى، فيتناولُ السّؤالُ كلَّ شيءٍ، "وَإنْ دقَّ، فيُجازي كُلًّا مِنكُم على عَمَلِه"[3].

فائدةُ ذِكرِ فِعلِ الكَونِ ﴿كُنتُمْ﴾:

الاعتِيادُ على عمَلٍ ما يَرسَخُ أثَرُهُ في صاحِبِه

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بِفعلِ الكَونِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولم يقُلْ: (عمّا تعملون)؛ للدّلالة على أنّ السّؤالَ يَشمَلُ تلك الأعمال الّتي يَعمَلونها على سبيلِ الاعتياد عليها، وهي مظنَّةٌ أن تُستَصغَرَ لِعَدَمِ الانتباهِ لها والاعتدادِ بها.

دِلالةُ التّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِع:

شُمولُ السُّؤالِ عَنْ جَميعِ أعمالِ العِبادِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفِعلِ المُضارِعِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الدّلالة على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ؛ أي: يسألُكُم عمّا كُنتُم "تَستَمِرّون على عَمَلِه في الدّنيا بِقُدرَتِكم المُؤَثِّرةِ بإذن اللّهِ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/ 308.
(2) صافي، الجدول: 7/ 380.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 245.

تعالى"[1]، فهو يَشمَلُ الأعمالَ الّتي عَملوها طولَ مُدّةِ حَياتِهم؛ إذِ الاستمرارُ يتعلَّقُ بفِعلِهم، ولم تَنقَطِعْ حتّى تنقطعَ الحياةُ، فدلَّ ذلك على أنّ السّؤالَ شامِلٌ لكُلِّ الأعمالِ حتّى المَماتِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَشيئَةُ والإرادَةُ:

الإرادَةُ أعمُّ مِنَ المَشيئةِ

المشيئَةُ والإرادةُ مُتقاربانِ، ولذا فسَّرَ كثيرٌ مِن علماءِ العربيّةِ أحدَهما بالآخرِ[2]، وربَّما أفادَ صنيعُهم أنَّهما بمعنًى واحدٍ من جهةِ اللُّغةِ[3].

وذكرَ أبو البقاءِ أنَّ بينَهما فرقًا من جهةِ اللُّغة؛ إذْ إنَّ المَشيئَةَ لُغَةً: الإيجادُ، والإرادةَ: طلبُ الشَّيءِ[4].

وفرَّقَ بينَهما أبو هِلالٍ؛ بأنَّ الإرادةَ يكونُ لِما تراخَى زمَنُه ولِما لا يتراخى، بخلافِ المَشيئةِ فهيَ لِما لَم يتراخَ زمَنُهُ؛ فالإرادةُ أعمُّ مُطلقًا مِنَ المَشيئةِ[5].

أمّا المشيئةُ والإرادةُ باعتبارِ تعلُّقِهما باللهِ تعالى فالإرادةُ أعَمُّ مِنَ المَشيئةِ مُطلقًا؛ وذلك لأنَّ الإرادةَ تَشمَلُ الإرادةَ الكَونيَّةَ والإرادةَ الشَّرعيَّة، أمّا المشيئةُ فهي مُرادِفةٌ للإرادَةِ الكَونيَّةِ[6].

الجَعلُ والتَّصييرُ:

الصّيرورةُ تحويلٌ من حالٍ إلى حالٍ، والجعلُ خَلقٌ على ذلك الحال

الفعلُ (جعلَ) دالٌّ على تحويلِ الشَّيءِ إلى وضعٍ أو هيئةٍ مُعيَّنةٍ[7]، ويَرِدُ الجَعلُ بمعنى: التَّقدير، و(صارَ) مِنَ الأفعالِ النّاقصةِ كـ (كان)، وهو عبارةٌ عن التّنقلِ من حالٍ إلى حالٍ، أو تحوُّلِ الموصوفِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 459.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (شيأ - رود)، وابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (رود).
(3) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 216.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 75.
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 35.
(6) حافظ حَكَمِي، أعلام السُّنَّة المنشورة لاعتقاد الطّائفة النّاجية المنصورة، ص: 88.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).

من صفةٍ إلى صفةٍ أخرى[1]، تقول: صارَ الطّينُ خزفًا، ومصدُرها الصَّيرورة، مثل الكَيْنونَة، والأصلُ: صرورَةٌ وكنونةٌ[2]، وقد عَبَّرَ بالجَعلِ؛ لأنّه مُناسِبٌ للمَشيئة الّتي هي من حيث تعلُّقُها بالأمر المُعيَّنِ تقتضي أنّه يشاءُ ذلك وقتَ الفعل، فهو خلقَهُم على تلك الحالِ، فالجَعلُ هنا لا يُرادُ به التّحويلُ، بل الخلقُ على تلك الصّفةِ؛ وهي أن يكونوا أمّةً واحدةً.

(1) الرّاغب، المفردات: (صير).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صير).

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾ [النّحل: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تخصيص نقض الأيمان المطلَق تأكيدٌ للتّحذير

والَتِ الآيةُ التّحذير تلوَ التّحذير فخصّصت ما أُطلق، وجدّدت التحذير من نَقْضِ أيْمانٍ مَخْصوصَةٍ أقْدَموا عَلَيْها[1].

وفَصَّل ابنُ عاشور تلك المناسبةَ بقوله: "لَمّا حَذَّرَهم مِنَ النَّقْضِ الَّذي يَؤُوْلُ إلى اتِّخاذِ أَيْمانِهم دَخَلًا فيهم، وأشارَ بالإجْمالِ إلى ما في ذَلِكَ مِنَ الفَسادِ فيهم؛ أعادَ الكَرَّةَ إلى بَيانِ عاقِبَةِ ذَلِكَ الصَّنيعِ إعادَةً تُفيدُ التَّصْريحَ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، وتَأْكيدَ التَّحْذيرِ، وتَفْصيلَ الفَسادِ في الدُّنْيا، وسوءِ العاقِبَةِ في الآخِرَةِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾: أصلُ (يمن): كلماتٌ مِنْ قياسٍ واحِدٍ[3]، فاليَمينُ: القوَّةُ، واليَمينُ أيضًا: الحَلِفُ والقَسَمُ، سُمّي بذلك؛ لأنَّهم كانوا إذا تَحالَفوا ضَربَ كلُّ واحدٍ منهم يَمينَ صاحبِه؛ ولأنَّ اليدَ اليُمنى من شَأْنِها حِفظ الشَّيْءِ، وتأتي اليَمينُ بمعنى اليَدِ الجارِحَة في مُقابَلَةِ اليَسار؛ لِقوَّتها بالنِّسبة لِلشِّمالِ، واليُمنُ: البَرَكَةُ، وهو مَيْمونٌ، يُقالُ: رَجُلٌ يَمانٍ، وسَيْفٌ يَمانٍ[4]، والمقصودُ بالأيْمانِ في الآية: جَمعُ يَمينٍ، وهو الحَلِفُ.

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 20/ 115.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 266.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (يمن).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (يمن).

2) ﴿دَخَلًا﴾: (دخل) أصلٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، وهو الوُلوجُ[1]، يُقالُ: دَخَلَ مكانَ كذا، والدُّخْلَةُ: بِطانَةُ الأمر تقولُ: إنَّه لعَفيفُ الدُّخْلة، وإنَّهُ لخَبيثُ الدُّخْلَة، أي: باطِنِ أمرِه[2]، والدَّخَل: كنايةٌ عن الفَساد والعَداوَة المُستَبطَنة، وعن الدَّعوة في النَّسَبِ، يُقالُ: دَخِل دَخَلًا، والدَّخَل: العَيب والرِّيبة[3]، ودُخِلَ فلانٌ فهو مَدخولٌ؛ كنايةً عن بلَهٍ في عَقْله، وفسادٍ في أصلِه[4]، والمَدْخولُ: المَهْزولُ، ودَخيلُكَ: الَّذي يُداخِلُكَ في أُمورِكَ[5]، والمقصودُ بالدَّخَلِ في الآيةِ: الفَسادُ، والمرادُ: تَجعَلونَ أيمانَكُمُ الَّتي حَلَفْتُموها سَبَبَ فسادٍ بَينِكُم؛ إذ تَجْعَلونَها وسيلَةً للغَدْرِ والمَكْرِ[6].

3) ﴿فَتَزِلَّ﴾: الزَّلَّةُ في الأصلِ: استِرسالُ الرِّجْلِ مِنْ غيرِ قَصْدٍ[7]، زلَّ الشَّيءُ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا دَحَضَ عَنهُ، والمَزَلَّةُ: مَفْعَلَةٌ مِنْ زَلَّ يَزِلُّ؛ إذا زَلِق، وتُفْتَحُ الزّايُ؛ وتُكسَرُ، أراد أنَّه تَزْلَق عَلَيْهِ الأقدام، ولا تَثْبُتُ[8]، وزَلَّ الرَّجُلُ زلَّةً قبيحةً؛ إذا وقعَ في أمرٍ مَكْروه أو أخطَأ خطأً فاحِشًا[9]، والزَّليلُ: مَشْيٌ خَفيفٌ، وقَدْ زَلَّ يَزِلُّ زَليلًا، والأَزَلُّ: السَّريعُ[10]، وقيلَ للذَّنب مِن غيرِ قَصْدٍ: زَلَّةٌ، تشبيهًا بزلَّةِ الرِّجلِ[11]، والماءُ الزُّلالُ: العَذْبُ؛ لأنَّهُ يَزِلُّ عَنْ ظَهْرِ اللِّسانِ لِرِقَّتِهِ[12]، والمقصود بزَلَلِ القَدَمِ في الآية: تَمثيلٌ لاختِلالِ الحالِ والتَّعَرُّضِ للضُّرِّ[13].

4) ﴿وَتَذُوقُواْ﴾: (ذوق): أصلٌ واحدٌ، وهو "اختبارُ الشَّيءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثمَّ يُشتقُّ منهُ مجازًا، يُقال: ذُقْتُ المأكولَ، أذوقُهُ، ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عند فُلانٍ: إذا اخْتَبَرْتَهُ"[14]، وذَوَّقَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دخل).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (دخل).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (دخل)، والفيروزابادِيّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 590.
(4) الرّاغب، المفردات: (دخل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دخل).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 265.
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (زل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (زلل).
(9) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (زل).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (زلل).
(11) الرّاغب، المفردات: (زل).
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زل).
(13) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.
(14) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذوق).

الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِهِ، والذَّوق وجود الطَّعم بالفم، واستُعمل في العذاب بكثرةٍ، قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدُّخان: 49]، واستُعمل في الرَّحمة أيضًا: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ [هود: 10][1]، فإن كان التَّذوق للنِّعمة زيادةً في التَّنعُّم، فالتَّذوقُ للعذاب زيادةٌ في الألم، فهو مُستَعارٌ للإحساسِ القَويِّ، وهذا هو المرادُ في الآية.

5) ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: أصلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[2]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا؛ أيْ: شَرًّا وفَسادًا[3]، والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأْتي بِمعنى الضَّرَرِ والأذَى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ؛ أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكْرَهُ فهو سوءٌ[4]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومِن مَعانيه أيضًا: المُنْكَرُ، والفُجورُ، والبَلاءُ، والعَذابُ، والشَّتْمُ، والشِدَّةُ، والقَتْلُ[5]، والمقصود بـ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ في الآية: ما يُؤلِمُ، والمُرادُ بِه: ذَوْقُ السّوءِ في الدُّنيا مِنْ مُعاملتِهم مُعاملةَ النّاكِثينَ عَنِ الدّينِ أو الخائِنينَ عُهودَهُم[6].

6) ﴿صَدَدتُّمْ﴾: أصلُ (صدد): يدلُّ على الإعراضِ والعُدولِ، فالصَّدُّ: الإعراضُ، يُقالُ: صَدَّ يَصُدُّ، وهو مَيْلٌ إلى أحَدِ الجانِبَيْنِ[7]، وصَدَّهُ عَنِ الأمرِ يَصُدُّه صَدًّا: مَنَعَهُ، وصَرَفَهُ عَنْهُ، قالَ اللّٰه ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: 43][8]، والصَّدّانِ: جانِبا الوادي، الواحِدُ صَدٌّ، وهو القياسُ؛ لأنَّ الجانِبَ مائِلٌ لا مَحالَةَ[9]، والصَّديدُ: ما حال بين اللَّحم والجِلْدِ من القَيْح، وضُرِبَ مثلًا لَمطعَم أهل النّار، قال تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: 16 - 17][10]، والصَّدُّ: الهِجْرانُ[11]، والمقصود بالصَّدِّ في الآية: الإعراضُ عن عَمَلٍ، والمرادُ بِهِ إعراضُهم عن سَماعِ دَعوَةِ الإسلامِ، وصَرْفُ النّاسِ عن مُتابَعَةِ دينِ الإسلام.

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/ 282، والمناويُّ، التوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 172.
(2) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ).
(3) الزبيديُّ، تاج العروس: (سوأ).
(4) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن عباد، المحيط في اللُّغة: (سوأ).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيديُّ، تاج العروس: (سوأ).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صد).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صد).
(10) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صدد).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (صدد).

الوفاء بالعهود والمواثيق، والتَّحذير من الاستخفاف بها

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يقول الحقُّ ﷻ: ولا تجعَلوا أيمانَكم خَديعةً لِمَن تَحلِفونَ لهم؛ ليُصدِّقوكم، وأنتم تَنوونَ الغدرَ والمَكرَ بهم؛ إنْ سَنَحَت لكم فُرصةٌ، فتَنْحَرِفَ أقدامُكم بعد أن كانت ثابتةً على الدّينِ وصِراطِ اللّٰهِ المُستقيم، فتَهلِكوا، ويَحُلَّ بكم العَذابُ في الدُّنيا؛ بسبَبِ إعراضِكم، وصَدِّكم النّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلام، حين تَخدَعونَهم بالحَلِفِ الكاذِبِ، وتَغدِرونَ عَهْدَكم معهم، فلا يبقَى لهم وُثوقٌ في دينِ اللّٰهِ سُبحانَه، ولكم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو):

استقلال النَّهي عن سابقه

الواو في صَدْرِ الآيةِ الكريمة استئنافيَّةٌ؛ لِلنَّهْيِ عَنْ أيْمانِ الخَديعَة، وللإشارة إلى استقلال هذا النَّهْيِ عن سابِقه، وأنَّه ليس تكرارًا لَهُ، يقول أبو زهرة: "إنَّ النَّهْيَ عن اتِّخاذ الأيْمان دَخَلًا، أي: غِشًّا، وخديعةً في العهود؛ لأنَّ الكلام السّابق كان في العهود ونَقْضِها، أمّا النَّهْيُ في هذه الآية؛ فهو نَهْيٌ عن الحَلِف الكاذب خديعةً وغِشًّا، ومَكيدةً بِعَهْد مَن كان يعتَزِم فِعْل أمر، أو يُظهر اعتزامَه ويوثِّقه بيَمينٍ ولا يَتَّجِه إلى المُعاهَدَة عليه، فإنَّ ذلك مَنْهيٌّ عنه، أو يؤَكِّد كلامَه عن أمرٍ سابقٍ باليمين، وهو كاذبٌ في يمينه، فإنَّ اليمينَ في هذه الحالة غِشٌّ وخداع، وعلى هذا يكون النَّهْي عن اتِّخاذ الأيْمان للغشِّ والخديعة يشملُ العُهودَ والبَيْعات، ويشملُ توثيقَ يمينٍ مُنْعقدة لا يَنْوي التَّنفيذَ فيها، أو يمينٍ غَموسٍ هو فيها كاذبٌ، كشهادات الزّور ونحوها ممّا تُتَّخذ اليمين للغشِّ والخديعة وضَياعِ الحقوق، والدُّعاءِ الباطل وتأكيدِه بهذه الأيمان"[2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 338، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 172، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 600، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 448.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4260.

توجيه النَّهْي بـ(لا):

تعدَّدت أقوالُ المُفسِّرين في توجيه النَّهْي في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ إذ قالوا: هو تَصْريحٌ بالنَّهْي عَنِ اتِّخاذِ الأيْمانِ خديعةً بَعْدَ الإشارة إليها ضِمنًا في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ [النّحل: 92]؛ لِأنَّ الاتِّخاذَ المَذْكورَ فيما سبق وقع قَيْدًا لِلْمَنهيِّ عَنْه، فكانَ مَنهيًّا عَنْهُ ضِمنًا تأْكيدًا، ومُبالَغَةً في قُبْحِ المَنهيِّ عَنْهُ، وتَمهيدًا لِقَوْلِه تَعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾؛ أيْ: عَنْ مَحَجَّةِ الحَقِّ بَعْدَ رُسوخِها فيها بالإيمانِ.

اسْتِئْنافُ إنْشاءٍ عَنِ اتِّخاذِ الأيْمانِ دَخَلًا عَلى العُمومِ

وقيلَ: ما تَقَدَّمَ كانَ نَهْيًا عَنِ الدُّخولِ في الحَلِف ونَقْض العَهْد بالقِلَّةِ والكَثْرَةِ، وما هُنا نَهْيٌ عَنِ الدَّخَلِ في الأيْمانِ الَّتي يُرادُ بها اقْتِطاعُ الحُقوقِ، فكَأنَّهُ قيلَ: (لا تَتَّخِذوا أيْمانَكم دَخَلًا بَيْنَكم لِتَتَوَصَّلوا بِذَلِكَ إلى قَطْعِ حُقوقِ المُسْلِمينَ)[1].

وأفادَ النّهي هنا استئنافًا إنشائيًّا يشمل جميع الحالات من الحِلْفِ في المُبايَعَةِ، وقَطْعِ الحُقوقِ الماليَّةِ[2]، و"لَيْسَ المُرادُ اخْتِصاصَ النَّهْيِ عَنِ النَّقْضِ بالأيْمانِ المُؤَكَّدَةِ، لا بِغَيْرِها ممّا لا تَأْكيدَ فيه، فإنَّ تَحْريمَ النَّقْضِ يَتَناوَلُ الجَميعَ، ولَكِنَّ في نَقْضِ اليَمينِ المُؤَكَّدَةِ مِنَ الإثْمِ فوْقَ الإثْمِ الَّذي في نَقْضِ ما لَمْ يُؤَكَّدْ مِنها"[3].

الإثْـمُ في نَقْضِ اليَمينِ المُؤَكَّدَةِ أعظمُ مِن نَقْضِ غيرِ المُؤكَّدِ مِنْها

وقد بيّن القونويُّ نوع مُتعلَّقِ النّهي فقال: "وقد عرفتَ أنَّ مَحَطَّ الفائدة في الكلام المُفيد قَيْدُه؛ فيكون النَّهي مُتَوَجِّهًا إلى القَيْد ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ [النحل: 92]، وإن كان خَبَرًا في الظّاهر، مثل قولِك: لا تُصَلِّ وأنت عُريان، فإنَّ النَّهي فيه مُتَوَجِّه إلى القَيْد فقط، وما نحن فيه: النَّهْيُ مُسَلَّطٌ على القَيْد والمُقَيَّد جميعًا"[4].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 223.
(2) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 515.
(3) الشَّوْكانيُّ، فتْح القدير: 2/ 800.
(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 373.

علَّة التَّعبير بالمضارع وبصيغة الافتعال ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾:

الفطرة السَّليمة تأنفُ من الخديعة في الأيمان

عُبِّرَ بالمضارع ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرار النَّهي عن اتِّخاذ الأيمان خديعةً للمُقسَم له، وعُبِّر بصيغة الافْتِعالِ ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ذَلِكَ الكَذِب في الأيْمان لا يُفْعَلُ إلّا بِعِلاجٍ شَديدٍ مِنَ النَّفْسِ؛ لِأنَّ الفِطْرَةَ السَّليمَةَ يَشْتَدُّ نِفارُها مِنهُ، وتأباه أشَدَّ الإباء[1].

سرُّ جمع (الأيمان):

شمول النَّهي عن جميع صور الأيمان الكاذبة

جاءت الأيْمان جَمعًا في قوله تعالى: ﴿أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾؛ للإشارة إلى تَنَوُّعِ الأيْمان وصيغها، وأنَّ النَّهْيَ يشْملها جميعها.

وجه تنكير ﴿دَخَلَۢا﴾، ودلالة التَّعبير بالبَيْنِيَّة:

التنكيرُ للتحقيرِ والتشنيع، والبَينيَّةُ تدلُّ على تخلُّلِ الفسادِ بين الناس لإفساد المودة بينهم

الغرض مِن تنكير ﴿دَخَلَۢا﴾ التَّحقيرُ والتَّشنيع؛ للتَّنفير مِن اتِّخاذ الأيْمان والعهود والمواثيق خَديعة ومَكْرًا وفسادًا؛ لذا كان التَّعبير بالبَيْنيَّة في قوله تعالى: ﴿دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ لزيادة تقبيح هذا الاتِّخاذِ، وجَعْلِه ذَريعةً إلى غِشِّ النّاس وخِداعهم، واستلابِ حقوقهم، فقد جَرَت عادة النّاس أن يَطْمَئنّوا إلى صِدْق مَنْ يُقْسِم باللّٰه ﷻ فنُهوا أن يجعلوا هذا الاطمئنانَ وسيلةً للكَذِب عليهم، ولإفساد ما بَيْنَ المُخاطَبين وبَيْنَهم مِن مَوَدَّة[2].

ومِمّا يزيد مِن تفظيع هذا الدَّخَل وتَشْويهه أنَّ الكافر إذا رأى أنَّ المؤمِن قَدْ عاهده، ثمَّ غَدَرَ به، لَم يَبْقَ له وثوقٌ بالدِّين، فانْصَدَّ بسببِهِ عن الدُّخول في الإسلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[3].

بلاغة الكِناية في لفظ (الدَّخَل):

تدُلُّ مادَّةُ الدَّخَل على العَيْب، فإنَّ شأنه أنْ يَدْخُل في الشَّيْءِ وليس مِن

(1) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 245.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 228.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 351.

جِنْسه[1]، والدَّخَلُ كنايةٌ عن الفَساد والعداوة المُسْتَبْطَنة، كالدَّغَل، وعن الدَّعوة في النَّسَب، يُقال: دَخَل دَخْلًا، ويُقال: دُخِلَ فلانٌ، فهو مَدْخول، كناية عن بَلَهٍ في عقله، وفسادٍ في أصْله، ومنه قيل: شجرةٌ مدخولة[2].

دلالـة أصْل الـدَّخَـل على العَيْب يُدرِج كلَّ ما يَدخل في الشَّيءِ وليس من جنسِه

سرُّ نوع المشابهة في النَّهي هنا والآيةَ السابقة:

للتعميم بعد الخصوص

جاء النّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ على سبيل الإنشاء، مشابهًا للإخبار الوارد في قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ [النحل: 92]، وهو إخبار أفاد النّهي.

وليس هذا من محض التّكرار، بل هو إجمال بعد تفصيل، وعموم بعد خصوص، فقد "سَبَقَ إِخْبارٌ بِأَنَّهُمُ اتَّخَذوا أيْمانَهم دَخَلًا مُعَلَّلًا بِشَيْءٍ خاصٍّ، وهو: أَنْ تَكونَ أُمَّةٌ هي أرْبى مِن أُمَّةٍ"[3].

فالنّهي هنا أفادَ استئنافًا إنشائيًّا يشمل جميع الحالات من الحِلْفِ في المُبايَعَةِ، وقَطْعِ الحُقوقِ الماليَّةِ[4]، و"لَيْسَ المُرادُ اخْتِصاصَ النَّهْيِ عَنِ النَّقْضِ بِالأَيْمانِ المُؤَكَّدَةِ، لا بِغَيْرِها مِمّا لا تَأْكيدَ فيه، فإنَّ تَحْريمَ النَّقْضِ يَتَناوَلُ الجَميعَ، ولَكِنْ في نَقْضِ اليَمينِ المُؤَكَّدَةِ مِنَ الإِثْمِ فَوْقَ الإِثْمِ الَّذي في نَقْضِ ما لَم يُؤَكَّدْ مِنها"[5].

لتأكيد شناعة هذا الفعل

وهذا نوعٌ من الإطناب يُفيد التّأكيد عليهم، وإظهارَ عِظَم ما يُرتكَب منه[6]، و"تَهَمُّمًا بِذَلِكَ، ومُبالَغَةً في النَّهْيِ عنهُ لِعِظَمِ مَوْقِعِهِ مِنَ الدّينِ، وتَرَدُّدِهِ في مُعاشَراتِ النّاسِ"[7]، وتأكيدًا للإشارة إلى أنَّ هذا أمرٌ فظيعٌ جدًّا، فإنَّ نقضَ العهد، فيه فسادُ الدّين والدُّنيا، وإنَّ الوفاء به، تَحْصيلٌ لخيراتِ الدُّنيا والآخرة[8].

(1) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجَلالَيْن: 2/ 303.
(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحَلَبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (دخل).
(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 515.
(4) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 515.
(5) الشَّوْكانيُّ، فتْح القدير: 2/ 800.
(6) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 471.
(7) ابن عَطِيَّة، المُحَرِّر الوَجيز، ص: 1114.
(8) الصاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1015 (بترقيم الشّاملة آليا)، وقد ناقش القونويّ القوْل بجواز التكرار في هذا الموضع من عدمه، فليُراجع: القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 373.

يقول أبو زهرة: إنَّ النَّهْي هنا عن اتِّخاذ الأيْمان دَخَلًا، أي: غِشًّا، وخديعةً في العهود؛ لأنَّ الكلام السّابق كان في العهود ونَقْضها، أمّا النَّهْيُ في هذه الآية؛ فهو نَهْيٌ عن الحَلِف الكاذب خديعةً وغِشًّا ومَكيدةً بِعَهْد مَن كان يعتَزِم فِعْل أمر، أو يُظهر اعتزامَه ويوثِّقه بيَمينٍ ولا يَتَّجِه إلى المُعاهَدَة عليه، فإنَّ ذلك مَنْهيٌّ عنه، أو يؤَكِّد كلامَه عن أمرٍ سابقٍ باليمين، وهو كاذبٌ في يمينه، فإنَّ اليمينَ في هذه الحالة غِشٌّ وخداع؛ وعلى هذا يكون النَّهْي عن اتِّخاذ الأيْمان للغشِّ والخديعة يشملُ العُهودَ والبَيْعاتِ، ويشملُ توثيقَ يمينٍ مُنْعقِدة لا يَنْوي التَّنفيذَ فيها، أو يمينٍ غَموس هو فيها كاذبٌ، كشهادات الزّور ونحوها مِمّا تُتَّخذ اليمين للغِشِّ والخديعة وضَياعِ الحقوق، والدُّعاءِ الباطل وتأكيدِه بهذه الأيمان[1].

للتصريح بعد التلميح

وقيلَ: هو تَصْريحٌ بِالنَّهْيِ عَنِ اتِّخاذِ الأيْمانِ خديعةً بَعْدَ الإشارة إليها ضِمنًا في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ [النَّحل: 92]؛ لأنَّ الاتِّخاذَ المَذْكورَ فيما سبق وقع قَيْدًا لِلْمَنهيِّ عَنْه، فكانَ مَنهيًّا عَنْهُ ضِمنًا تَأْكيدًا، ومُبالَغَةً في قُبْحِ المَنهيِّ عَنْهُ، وتَمهيدًا لِقَوْلِه تَعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾؛ أيْ: عَنْ مَحَجَّةِ الحَقِّ بَعْدَ رُسوخِها فيها بِالأَيمانِ.

وقد بيّن القونويُّ نوع مُتعلَّق النّهي فقال: "وقد عرفتَ أنَّ مَحَطَّ الفائدة في الكلام المُفيد قَيْدُه؛ فيكون النَّهي مُتَوَجِّهًا إلى القَيْد ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ [النحل: 92]، وإن كان خَبَرًا في الظّاهر، مثل قولِك: لا تُصَلِّ وأنت عُريان، فإنَّ النَّهي فيه مُتَوَجِّه إلى القَيْد فقط، وما نحن فيه: النَّهْيُ مُسَلَّطٌ على القَيْد والمُقَيَّد جميعًا"[2].

للفرق في متعلق النهي

وقيلَ: ما تَقَدَّمَ كانَ نَهيًا عَنِ الدَّخَل في الحَلف ونَقض العَهد بالقلَّة

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4260.

(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 373.

والكَثرَة، وما هنا نَهي عَن الدَّخَل في الأيمان الَّتي يراد بها اقتطاع الحقوق، فكَأنَّه قيلَ: لا تَتَّخذوا أيمانَكم دَخلًا بَينَكم لتَتَوَصَّلوا بذَلكَ إلى قَطع حقوق المسلمينَ[1].

معنى الفاء:

اتِّخاذُ الأيمان الكاذبة سببُ الانحراف عَن الدِّين

(الفاء) في قوله: ﴿فَتَزِلَّ﴾ للسَّببيَّة؛ فزَلَلُ القَدَم، أي: الانحرافُ عَن جادَّة الدّين، والتَّحَوُّل من الخير إلى الشَّرِّ، ومن الهُدى إلى الضَّلال سَبَبُه اتِّخاذُ الأيْمانِ الكاذبة، والعهودِ الفاجرة للمَكْر على النّاس، وخِداعِهم، وقد أوْمَأتِ الفاء إلى سُرْعة حدوث هذا التَّحَوُّل، وذلك السُّقوط، وتحتملُ أن تكون الفاءُ تفريعيَّة؛ ذلك بأنَّ تَفْريعَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه تَفْصيلٌ لِما أُجْمِلَ في مَعْنى الدَّخَلِ[2].

وجه التَّعبير بالمضارع ﴿فَتَزِلَّ﴾:

تصوير الحَدَث وكأنَّه مُشاهَد مَرْئيٌّ

العربُ تقولُ لِكُلِّ مُبتلى بعد عافية أو ساقِط في ورطة: زلّت قدمُهُ، كقولِ الشّاعِرِ:

سَيُمنَعُ مِنْكَ السَّبْقَ إنْ كُنْتَ سابِقًا *** وتُقْتَلُ إنْ زَلَّتْ بِكَ القَدَمانِ[3]

وعُبِّر بالمضارع: ﴿فَتَزِلَّ﴾؛ لتصوير الحَدَث - زَلَلُ القَدَمِ - وكأنَّه مُشاهَدٌ مَرْئيٌّ، وأيضًا للدَّلالة على استمراره.

سِرُّ تنكير القدم وتوحيدها:

لاستعظام هذا الفعل بذكر أدنى ما يحصلُ منه

جاءت كلمة (القَدَم) في قوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ نَكِرَةً مُفْرَدة لَفظًا جمعًا معنًى؛ إذ المرادُ الأقدامُ "لِاسْتِعْظام أنْ تَزِلَّ قَدَمٌ واحِدَةٌ عَنْ طَريقِ الحَقِّ بَعْدَ أنْ ثَبَتَتْ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ بِأقْدامٍ كَثيرَةٍ؟"[4]، وفيه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 223.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 268.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 421، والبيت لبشر بن أبي العبسيِّ، ورد في شرح حماسة أبي تمّام، للفارسيِّ: 2/ 251، وللتِّبريزيِّ: 1/ 174.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 472.

"إشارةٌ إلى أنَّ زَلَّة القَدَم ولو مَرَّةً واحدةً، أو أيِّ قَدم مَضَرَّة؛ لأنَّ مَنْ زَلَّ بِه القَدَم؛ فقد طُرِدَ عن باب اللّه"[1].

إفـرادُ الأقـدام لملاحظة كلِّ فرد منها

ويرى أبو حيّان أنَّ" الجَمعَ تارَةً يُلْحَظُ فيهِ المَجموعُ من حَيْثُ هو مَجْموعٌ، وتارَةً يُلْحَظُ فيهِ اعْتِبارُ كُلِّ فرْدٍ فرْدٍ، فإذا لوحِظَ فيهِ المَجْموعُ؛ كانَ الإسْنادُ مُعْتَبَرًا فيهِ الجَمعيَّةُ، وإذا لوحِظَ كُلُّ فرْدٍ فرْدٍ؛ كانَ الإسْنادُ مُطابِقًا لِلَفْظِ الجَمعِ كَثيرًا، فيَجْمَعُ ما أُسْنِدَ إلَيْهِ، ومُطابِقًا لِكُلِّ فرْدٍ فرْدٍ، فيُفْرَدُ كَقَوْلِه: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31] أفْرَدَ مُتَّكَأً لما كانَ لوحِظَ في قَوْلِه: ﴿لَهُنَّ﴾ [يوسف: 31] مَعْنًى لِكُلِّ واحِدَةٍ، ولَوْ جاءَ مُرادًا بِهِ الجَمعيَّةُ، أوْ عَلى الكَثيرِ في الوَجْهِ الثّاني؛ لجُمِعَ المُتَّكَأُ، ولمّا كانَ المَعْنى هُنا: لا يَتَّخِذْ كُلُّ واحِدٍ منكم؛ جاءَ ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ مُراعاةً لِهَذا المَعْنى، ثُمَّ قالَ: ﴿وَتَذُوقُواْ﴾، مُراعاةً لِلْمَجْموعِ، أوْ لِلَفْظِ الجَمعِ عَلى الوَجْهِ الكَثيرِ، إذا قُلْنا: إنَّ الإسْنادَ لِكُلِّ فرْدٍ فرْدٍ، فتَكونُ الآيَةُ قَدْ تَعَرَّضَتْ لِلنَّهْيِ عَنِ اتِّخاذِ الأيْمانِ دَخَلًا باعْتِبارِ المَجْموعِ وباعْتِبارِ كُلِّ فرْدٍ فرْدٍ، ودَلَّ عَلى ذَلِكَ بِإفْرادِ قَدَمٍ وبِجَمعِ الضَّميرِ في: ﴿وَتَذُوقُواْ﴾"[2].

الإفـرادُ والتنكير لمراعاة المشبَّه به

"ولمّا كانَ المَقْصودُ تَمثيلَ ما يَجُرُّهُ نَقْضُ الأيْمانِ مِنَ الدَّخَلِ؛ شُبِّهَتْ حالُهم بِحالِ الماشي في طَريقٍ بَيْنَما كانَتْ قَدَمُهُ ثابِتَةً إذا هي قَدْ زَلَّتْ بِه، فصُرِعَ؛ فالمُشَبَّهُ بِها حالُ رَجُلٍ واحِدٍ، ولِذَلِكَ نُكِّرَتْ ﴿قَدَمُۢ﴾، وأُفردت؛ إذ ليس المقصودُ قدمًا معنيّةً، ولا عددًا من الأقدام، فإنّك تقولُ لجماعة يتردّدون في أمر: أراكم تُقدِّمون رجلًا، وتُؤخِّرون أُخرى؛ تمثيلًا لحالِهم بحالِ الشّخصِ المُتردِّدِ في المشي إلى الشّيءِ"[3].

التنكيرُ لتعظيم الـقـدم الـثـابـت على الوفاء

ولعلَّ تنكير ﴿قَدَمُۢ﴾ للتَّعظيم؛ لدَلالة القَيْد بالظَّرف والمضاف إليه

(1) الصّاويُّ، حاشية على الجَلالَيْن: 2/ 303.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 515.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.

﴿قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾؛ فمَصْدَر عَظَمَتِها هو ثباتُها على الوفاء بالأيْمان، وعدم اتِّخاذِها خديعةً ومَكْرًا.

دلالةُ الظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ مع لفظ (الثُّبوت):

تَصْوِيرُ اخْتِلافِ الحالَيْنِ، وانْحِطاطه من مَرْتبة إلى مَرْتَبَة

عُبِّر بالظَّرْف: ﴿بَعۡدَ﴾، مُصاحِبًا لِلَفْظ: ﴿ثُبُوتِهَا﴾ مَعَ أنَّ الزَّلَلَ لا يُتَصَوَّرُ إلّا بَعْدَ الثُّبوتِ؛ لأنَّ المقصود ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ "عَنْ مَرْكَزِها الَّذي كانَتْ بِهِ من دينٍ أوْ دُنْيا؛ فلا يَصيرُ لَها قَرارٌ؛ فتَسْقُطَ عَنْ مَرْتَبَتِها."[1] ففيه تصويرٌ لاخْتِلافِ الحالَيْنِ، وأنَّهُ انْحِطاطٌ من مَرْتبةٍ إلى مَرْتَبة، ومِن حالِ سَعادَةٍ إلى حالِ شَقاءٍ، ومَن حالِ سَلامَةٍ إلى حالِ مِحْنَةٍ[2]، ولا يخفى ما في هذا من تحذيرٍ لَهم ووعيد في الدنيا، فالمعنى: فتَهْلَكوا بَعْدَما كُنْتُم آمِنينَ[3].

نكتة التَّعبير بالثُّبوت دون الثَّبات:

الثُّبوت مجازٌ عن التَّحَقُّق

الثُّبوتُ بِالواو: مَصْدَرُ ثَبَتَ كالثَّباتِ، وهو الرُّسوخُ، وعَدَمُ التَّنَقُّل، وهو مَجازٌ عن التَّحَقُّق مِثْلُ ثُبوتِ عَدالَةِ الشّاهِدِ لَدى القاضي، وقد خَصَّ المُتَأَخِّرونَ مِنَ الكُتّابِ الثُّبوتَ الَّذي بِالواوِ بِالمَعْنى المَجازيِّ، وهو التَّحَقُّقُ، أمّا الثَّباتُ الَّذي بِالألِفِ؛ فمُخْتَصٌّ بِالمَعْنى الحَقيقيِّ[4].

عَوْدُ الضَّمير في ﴿ثُبُوتِهَا﴾:

الضَّمير في ﴿ثُبُوتِهَا﴾ يعود إلى القَدَم، واكتفيَ به دون تِكرار لفظِ القدم؛ لظهورِ المعنى، وبيان وجهة عود الضَّمير، والإيجازُ من مقاصِد البلاغة.

بلاغة الإطنابِ بالظرف المضاف ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾:

الإطناب لزيادة التنفير، ولاستقامة التصوير

جاء بعبارة: ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ مع أنَّ قوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾

(1) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 246.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.
(3) البَغَويُّ، معالم التَّنزيل: 5/ 42.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.

يُغْني عنه؛ للمبالغة في التَّنفير عن ذلك، ولأنَّ الواقفَ المُعْتَمِدَ على أحَدِ قدميهِ لا يقعُ إلّا إذا زالتْ قدمُه الَّتي اعتمد عليها، وأمّا إذا زالتْ الأخرى؛ فلا يقعُ، فهو إشارةٌ إلى أنَّهم زالوا عَمّا كانوا ثابتين عليه مُعتمِدين[1].

بلاغة الاستعارة في جملة: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾:

تصويرٌ لتقلُّب الحال بعد النقض

صَوَّرَتِ الاستعارةُ التَّمثيليَّة في قوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ تباينَ الأحوال، وتَغاير المَراتِب بَيْن الاستقامة في الدّين والثَّبات عليه، وبَيْنَ الانحراف عَنْه في صورةٍ حِسّيةٍ مُشاهَدَةٍ مَرْئيَّةٍ؛ حيث صَوَّرت حالَ الثّابتِ على دينه، المُستَقِرِّ عليه بَعْدَ وقوعه في شَرٍّ عظيم، وسُقوطه فيه بِمَن زَلَّت قَدَمُه، وتعَثَّرتْ، فسَقط؛ لأنَّ القَدَم إذا زَلَّت؛ نَقَلت الإنسانَ مِن حال خيرٍ إلى حال شرٍّ"[2].

تمثيلٌ لسوء عاقبة الناقض

"وزللُ القدمِ تمثيلٌ لاختلالِ الحالِ، والتّعرُّضِ للضُّرِّ؛ لأنّهُ يترتّبُ عليهِ السُّقوطُ أوِ الكسرُ، كما أنّ ثُبوتَ القدمِ تمكُّنُ الرِّجلِ مِن الأرضِ، وهو تمثيلٌ لاستِقامةِ الحالِ، ودوامِ السّيرِ، ولمّا كان المقصودُ تمثيل ما يجُرُّهُ نقضُ الأيمانِ مِن الدّخلِ؛ شُبِّهت حالُهم بحالِ الماشي في طريقٍ بينما كانت قدمُهُ ثابتةً إذا هي قد زلّت بِهِ، فصُرِع، فالمُشبّهُ بها حالُ رجُلٍ واحِدٍ، ولِذلِك نُكِّرت ﴿قَدَمُۢ﴾، وأُفرِدت، إذ ليس المقصودُ قدمًا معنيّةً، ولا عددًا مِن الأقدامِ، فإنّك تقولُ لِجماعةٍ يتردّدون في أمرٍ: أراكم تُقدِّمون رِجلًا، وتُؤخِّرون أُخرى؛ تمثيلًا لِحالِهِم بحالِ الشّخصِ المُتردِّدِ في المشيِ إلى الشّيءِ"[3].

بلاغة التَّشبيه التَّمثيليّ:

ثباتُ القدم يقينٌ، وزللها وهنٌ وانهزامٌ وخيبةٌ

في ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾، تَثْبيتُ الأقدام: تمثيلٌ لليقين

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 46.

(2) ابن عَطِيَّة، المُحَرِّر الوَجيز: 1114.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.

وعدمُ الوَهْن، بحالةِ مَن ثَبَتَتْ قدَمُهُ في الأرض، فلم يزِلَّ، فإن الزَّلَلَ وهْن يُسقط صاحبَه، ولذلك يُمثَّلُ الانهزامُ والخيبةُ والخطأُ بزلَلِ القدم[1].

بلاغة الكناية:

بِنقضِهم العهودَ صاروا خائفين، بعد أن كانوا بأيْمانهم آمنين

قوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ كنايةٌ عن الخوف، وقوله: ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ كنايةٌ عن الأمن؛ أيْ: صاروا خائفين بنقضِهم العهود والأيْمان بعدما كانوا آمنين بها؛ لأنَّهم بأيْمانهم كانوا يأمَنون، وبنقضهم العهودَ والأيْمان يخافون[2].

دلالةُ العطف بالواو:

التَّرقّي في بيان سوءِ عاقبة الحَلِف الكاذِب

الواو في قوله: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ عاطفةٌ على جملة جواب النَّهْي قَبْلَها: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾، وفي العطف تَرَقٍّ في بيان سوءِ عاقبة اتِّخاذِ الحَلِفِ الكاذِب خديعةً ومَكْرًا بالنّاس، وتِبْيانٌ لنوعٍ من وجوه الأذى المُتحصَّلة من زلَلِ القدم بعد الثُّبوت.

سِرُّ التَّعبير بالمضارع المجموع: ﴿وَتَذُوقُواْ﴾:

عاقبة الصَّدِّ عن سبيل الله

في التَّعبير بالمضارع إشارةٌ إلى استمرار عذابِهم بسبب صَدِّهم عن سبيل اللهِ بأيْمانهم الكاذبةِ، وعهودِهم الفاجرة؛ والتَّعبير بالجمع: ﴿وَتَذُوقُواْ﴾ فيه مراعاةٌ لِلْمَجْمُوعِ، أَوْ لِلَفْظِ الجمعِ عَلى الوَجْهِ الكَثِيرِ. "إذا قُلْنا: إنَّ الإِسْنادَ لِكُلِّ فرْدٍ فرْدٍ، فتَكونُ الآيَةُ قَدْ تَعَرَّضَتْ لِلنَّهْيِ عَنِ اتِّخاذِ الأيْمانِ دَخَلًا بِاعْتِبارِ المَجْموعِ وبِاعْتِبارِ كُلِّ فرْدٍ فرْدٍ، ودَلَّ عَلى ذَلِكَ بِإِفْرادِ قَدَمٍ وبِجَمْعِ الضَّميرِ في: ﴿وَتَذُوقُواْ﴾"[3].

بلاغة الاستعارة التَّبعيَّة المكنيَّة في ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾:

سُرْعَةُ اتِّصالِ ألَمِ تَذَوُّقِ الطَّعامِ المُرِّ بالإدْراكِ

أَصْلُ الذَّوْق إدراكُ الطُّعوم، ثُمَّ اتَّسَع ليشْمَلَ كُلَّ إدراك، وفي قوله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 26/ 85.
(2) الماتريديُّ، تأويلات أهل السُّنة: 6/ 566.
(3) أبو حَيّان، البَحْر المحيط: 5/ 516.

تعالى: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ في الفعل، ومَكْنيَّةٌ؛ حيث شُبِّه الإحساسُ بالعذاب بِذَوْق طعام مُرٍّ غيرِ مُسْتَساغ، وحُذِف المشبَّهُ به، ورُمِز له بشيءٍ من لوازِمه (الذَّوق) على سبيل الاستعارة المَكْنيَّة التَّبعيَّة، "فالذَّوْقُ مُسْتَعارٌ لِلْإِحْساسِ بِالكَدَرِ، شَبَّهَ ذَلِكَ الإِحْساسَ بِذَوْقِ الطَّعْمِ الكَريهِ، كَأَنَّهم راعَوْا فيه سُرْعَةَ اتِّصالِ أَلَمِهِ بِالإِدْراكِ، ولِذَلِكَ لَم نَجْعَلْهُ مَجازًا مُرْسَلًا بِعَلاقَةِ الإِطْلاقِ؛ إِذْ لا داعيَ لِاعْتِبارِ تِلْكَ العَلاقَةِ، فإِنَّ الكَدَرَ أَظْهَرُ مِن مُطْلَقِ الإِدْراكِ، وهَذا الإِطْلاقُ مُعْتَنى بِهِ في كَلامِهِم، لِذَلِكَ اشْتُهِرَ إِطْلاقُ الذَّوْقِ عَلى إِدْراكِ الآلامِ واللَّذّاتِ، ففي القُرْآنِ: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدُّخان: 49]، و﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ [الدُّخان: 56]"[1].

وفي الآية استُعير الذَّوْقُ وهو حِسّيٌّ لإدراك أثرِ الضَّرر، وهو مَعنويٌّ، والجامعُ مُطْلَقُ الإدراكِ الحاصلِ من العذاب الدُّنيويِّ والأُخرويِّ؛ لِصَدِّهم عن سبيل اللّهِ بِنَقض أيمانهم، وهذا من تشبيه المعقولِ (الإدراك) بالمَحْسوسِ (الذَّوق)، "وكأنَّ العَقليّاتِ ظَهَرت ظُهورَ المحسوساتِ، فاستُعير المحسوسُ للمعقول، فأثبت ما لِلْمحسوس وهو الإذاقةُ للمعقول قرينةً للاستعارة المكنيَّة"[2].

وجه تعريف ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾:

إصابة النّاكثين العُهود والعُقود بِكُلِّ ما تُعورِفَ عليه بأنَّه سوء

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: كُلُّ ما يُؤْلِمُ، وهوَ ما يَسوؤهم من قَتْلٍ، ونَهْبٍ، وأَسْرٍ، وجَلاءٍ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمّا يَسوءُ[3]، والمُرادُ بِهِ أيضًا: "ذَوْقُ السّوءِ في الدُّنْيا مِن مُعامَلَتِهِم مُعامَلَةَ النّاكِثينَ عَنِ الدّينِ أَوِ الخائِنينَ عُهودَهم"[4]، فتعريف السّوء للجِنْس؛ للإشارة إلى إصابة النّاكثين العُهودَ والعُقودَ بِكُلِّ ما تعارف عليه النّاسُ بأنَّه سوءٌ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.
(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 400.
(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 516.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.

دلالةُ الباء في ﴿بِمَا﴾:

الباء في ﴿بِمَا﴾ للسَّببيَّة، و(ما) مصدريَّةٌ، والتَّقدير: "(ينالُكم ما ينالُكم بِسببِ صُدودِكم أو صَدِّكم غَيْرَكم عَنْ سَبيلِ اللّه الَّذي يَنْتَظِمُ بالوَفاءِ بالعُقود، وصِدْقِ الأيْمان)، وهذا الكلام تأكيدٌ لِما فُهِم مِن سببيَّةِ ذَوْقِ العذاب مِن النَّهْي وجوابه؛ إذ المشهورُ أنَّ ما قيل: الفاءُ سَبَبٌ لِما بَعْدها، فبِسَبب الذَّوق اتِّخاذ الأيْمان دَخَلًا، وهو معنى الصُّدود عن سبيل اللّه"[1].

تأكيدٌ لِما فُهِم مِن سببيَّة ذَوْقِ العذابِ مِن النَّهْي وجوابه

توجيه التَّعبير بالمصدر المُنسَبِك: ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾:

المصدرُ المُنْسَبِك المؤوَّل أقوى مبالغةً، وأعْرَفُ من المصدر الصَّريح لدَلالة المؤوَّل على النِّسبة وزمان الحدث[2]، قوله تعالى: ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَوَّل تقديره: بِصُدودِكم، أوْ بِصَدِّكم غَيْرَكم؛ "لِأنَّهم لَوْ نقَضوا الأيْمانَ، وارْتَدّوا؛ لاتُّخِذَ نَقْضُها سُنَّةً لِغَيْرِهم، فيُسَبّونَ بها، وذَوْقُ السّوءِ في الدُّنْيا"[3]، وخُلْف العَهْد، يُعْطي للمجتمع قدوةً سيِّئة، ويُزهِّد النّاسَ في فِعل الخيرِ، وهذا مِن الصَّدِّ عن سبيل اللّه.

خُلْف العَهْد، يُعطي للمجتمع قدوةً سيِّئة، ويُزهِّد النّاس في فِعل الخير

إيثارُ لفظ (الصَّد) دون (الإعراض):

أوثر التَّعبيرُ بالصَّد على التَّعبير بالإعراض؛ لدَلالة الصَّدِّ على معنيين هما: الصُّدود؛ إن كان لازمًا، والصَّدُّ؛ إن كان مُتَعَدّيًا بخلاف الإعراض فيدلّ الصدّ على الإعراض وحثِّ الآخرين عليه.

دِلالة الصَّدِّ أعمُّ من دلالة الإعراض

دلالة التَّعدّي واللُّزوم في (صَدَّ):

الفعل (صَدَّ) إذا استُعْمِل لازمًا كان بمعنى الصُّدود؛ أي: الإعراض، والمعنى بناءً عليه: وبِصُدودِكم، أي: إعراضكم عن الوفاء بالعَهْد، وإذا استُعْمِل مُتَعَدّيًا؛ فالمعنى: بِصَدِّكم غيرَكُم؛ لأنَّه

الصُّدود بَين (أعْرَضَ) و(مَنَعَ)

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 400.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 120.
(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 516.

يَسْتَنُّ بِكُم[1]، وقد أبان الشِّهابُ عَنْ دَلالة التَّعدّي واللُّزوم في (صَدَّ)، فقال: "يعني أنَّ صَدَّ يكون لازمًا بمعنى أَعْرَض، ومصدره الصُّدود؛ لأنَّ فُعولًا يغلِب في المصادر اللّازمةِ ومُتَعَدّيًا بمعنى مَنَعَ، ومصدرُه الصَّدُّ والفعل هنا يحتملُهما"[2].

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي المجموع ﴿صَدَدتُّمۡ﴾:

تَحقُّق وقوع الصَّدِّ

عُبِّر بالفعل الماضي المجموع: ﴿صَدَدتُّمۡ﴾؛ لتَحقُّق وقوعِه من المُخاطَبين، أو مِن أكْثرهم، وتحقُّق وقوعِ الفعلِ منهم مَدْعاةٌ لاستحقاق العذابِ العظيمِ.

دلالة ﴿عَن﴾:

انهمكوا في صُدودهم فاستحقّوا الوعيد

﴿عَن﴾ حَرْف جَرٍّ، له عشرةُ معانٍ أشهرُها المُجاوزة - وهذا معناه هُنا - ولم يذكرْ له البصريّون معنًى سواه[3]، وقد أشار حَرْفُ المُجاوزة هنا إلى انتِكابِ الصّادّين والمُعرِضين عن سبيل اللّهِ المستقيم، واستغراقِهم في سَعْيِهم، وفيه مزيدُ توبيخٍ لَهُم وتعنيفٌ ووعيدٌ.

إيثار لفظ (السَّبيل) دون (الطَّريق):

وضوح المَسْلك إلى الله تعالى، وسهولتُه على السّالكين

أَصْل مادَّة السَّبيل يدلُّ على الامتداد[4]، وكَثُر استعمالُه في الطَّريق السَّهل[5]، وأوثر لفظُ (السَّبيل) دون (الطَّريق) في قوله تعالى: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالإضافة إلى لَفْظ الجَلالة؛ للإشارة إلى وضوح المَسْلك إلى اللّه تعالى، وسهولتِه على السّالكين، وإنْ حَفَّت به المَكارِهُ والمصاعب[6].

نُكْتة تعريف السَّبيل بالإضافة إلى لَفْظ الجَلالة:

الإضافة للتّشريف

معنى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: "كُلُّ شيءٍ يجعل حركةَ الحياة مُنْتَظِمةً

(1) الصّاويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 2/ 303.
(2) الشِّهاب، عناية القاضي: 5/ 366.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 129.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سهل).
(5) الرّاغب، المفردات: (سهل).
(6) محمد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 282.

تُدار بِشَرَفٍ وأمانةٍ، وصِدْقٍ، ونفاذ عَهْدٍ"[1]، وفي الإضافة تشريفٌ للسَّبيل، ومزيدُ تعنيفٍ للصّادِّ عنها بِعُهود فاجرة، وأيْمانٍ كاذبةٍ، تُفْقِد المُجتمع تَماسكَه وترابطَه، وتَنْزِع الثِّقةَ فيما بين أفرادِه.

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

تشبيه المعنويِّ بصورة محسوسة

شُبِّه مَنْهَجُ اللّهِ القويم، ودينُه الحَنيفُ بالسَّبيل؛ أي: الطَّريق المُعَبَّد السَّهل، وحُذِف المشبَّهُ، وذُكِر المُشبَّهُ به، وعليه فالاستعارة تصريحيَّةٌ، والغرض منها توضيحُ المعنى وتَقْويتُه؛ حيث إنَّها تُقَدِّمه مُجَسَّدًا مَحْسوسًا، كما في هذه العبارة.

علَّة إظهار لَفْظ الجلالة:

تعظيم السَّبيل المضاف إلى الله العظيم

أُظْهِر لفظُ الجلالة؛ للتَّشنيع على المُخاطَبين الَّذين كانوا سببًا باتِّخاذهم أيْمانهم دخلًا أن يَصُدّوا عن دين اللّهِ القويمِ، وصراطِه المستقيم، وأيُّ سبيل أعظمُ من سبيل اللّهِ تعالى؟

دلالة الواو، وسرُّ تقديم الجارِّ والمجرور:

التَّعجيل بما يَسوؤهم

(الواو) استئنافيَّة، وقُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿وَلَكُمۡ﴾ على خبره؛ للتَّعجيل بِالإخبار بما يسوؤهم في الآخرة، فضلًا عمّا فيه من تخصيصٍ بنوعٍ من العذاب عظيمٍ لا يُعرفُ كُنْهُهُ، ومقداره.

وجهُ إيثار (العذاب) على (العقاب) أو غيره من مرادفات العذاب:

العذاب أوسع استعمالًا وأدقُّ دلالة على الشِّدَّة

العذابُ والعقابُ في اللُّغة مُترادِفان بمعنى النَّكال، أو مجازاة الذَّنْب بِمِثْله[2]، والعَذاب مُسْتعارٌ لِكُلِّ شِدَّة[3]، وأصْلُ مادَّة العِقاب: تأخيرُ شيءٍ وإتيانُه بعدَ غيره، وسُمّي بذلك؛ لأنَّه يأتي عَقِب الذَّنْب؛ أيْ بَعْدَه[4]، وبناءً على ما سَبَق فإنَّ العِقاب لابُدَّ أنْ يَسْبِقه ذَنْب، أمّا

(1) الشَّعراويُّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8190.
(2) ابن فارس، لسان العرب، مادَّتا: (عذب، عقب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عذب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقب).

التَّعذيب؛ فقد لا يَسْبِقه ذَنْبٌ، فالعِقاب مُجازاةٌ بالذَّنْب، ولا يُشترط أن يكون شديدًا أو أليمًا أو مُهينًا، إلى آخر تلك الصفاتِ الَّتي وُصِفَ بها العذابُ في كتاب اللّهِ الحكيم، والعذاب يتضمَّن دائمًا مَلْمَح الشِّدَّة، حتى وإن لم يوصف بالشَّديد أو الأليم ونحو ذلك، أمّا العِقاب؛ فقد يكون يسيرًا؛ لارتباط العقوبة بالذَّنب، فإذا عَظُمَ الذَّنْبُ؛ عَظُمَت العقوبةُ، وإذا صَغُرَ؛ كان العِقابُ على قَدْره، ويوَضِّح ذلك بِجَلاءٍ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النَّحل: 126]"[1].

وأوثر العذابُ على العِقاب في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لأنَّه يُستعمل في الدُّنيا والآخرةِ، فهو أوسعُ استعمالًا من مرادِفاته، نحو قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾ [النَّمل: 5]، فهذا عذابٌ دُنيويٌّ، ومن شواهد استعماله في عذاب الآخرةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١٤﴾ [البقرة: 114].

سِرُّ تنكير العذاب:

اجتماع مُؤَكِّدَيْن لِشَدَّة العذاب وفظاعته

عُبِّرَ عن العذاب بأنَّه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أيْ: كبيرٌ شديدٌ، ثابتٌ؛ غَيْرُ مُنْفَكٍّ؛ إذا أصَرّوا عَلى ذَلِكَ[2]، والعذابُ العظيمُ هو العذابُ الذي يبلغُ القِمَّة، وقد اجتمع تأكيدان من ذلك: أحدهُما: تنكيرُ العذاب، وثانيهما: الوصفُ ﴿عَظِيمٌ﴾؛ لإفادة أنَّه بَلَغ مِن شِدَّتِه وفظاعتِه، وقوَّتِه أنَّه عظيم أبْلَغُ العِظَم، لا يُعْرَف مِقدارُه[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اليَمين والقَسم والحَلف:

أَصْلُ القَسَم مِن القَسامَةِ، وهيَ الأيْمانُ تُقْسَمُ عَلَى أوْلياءِ المَقْتولِ؛

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 341.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 246.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4261.

اليمينُ اسمٌ مُستعارٌ للقسم يَرْقى إلى مَنزلَة العهد

إذا ادَّعَوْا دَمَ مَقْتولِهِم عَلَى ناسٍ اتَّهَموهُم بِهِ[1]، واليَمين: اسم للقسَم مُستعار، وذلك أنَّهم كانوا إذا تقاسَموا على شيءٍ؛ تصافَحوا بأيْمانهم، ثمَّ كَثُر ذلك حتى سُمّيَ القسم يميناً[2]، والحَلِف القَسَم، وأصله اليَمين الَّذي يأخذ بعضُهم من بعضٍ بها العهدَ، ثمَّ عُبِّر به عن كلِّ يمين، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾ [القلم: 10]؛ أيْ: كثيرُ الحَلِف، وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [التَّوبة: 74][3]، وقيل: الحَلِف في الأصل العَهْد بَيْنَ القوم[4].

وقد فرَّق أبو هلال العسكريُّ بين هذه الألفاظ الثلاثة بقوله: "الفَرْق بين القسَم والحَلِف أنَّ القَسَمَ أبلغُ مِن الحَلِف؛ لأنَّ معنى قولنا: أقْسم باللّه أنَّه صار ذا قَسَمٍ باللّه، فإذا قلت: حَلِف باللّه؛ فكأنَّك قلتَ: قطَعَ المخاصمةَ باللّه، فالأوَّل أبلغ؛ لأنَّه يتضمَّن معنى الآخرِ مع دَفْع الخَصم، ففيه معنيان، وقولنا: حَلِف، يفيد معنًى واحدًا، وهو قَطْع المخاصمة فقط، وذلك أنَّ مَن أحرز الشَّيْءَ باستحقاقٍ في الظّاهر فلا خصومة بينه وبين أحَدٍ فيه، وليس كُلُّ مَن دَفَع الخصومة في الشَّيء؛ فقد أحرزه"[5].

السَّبيل والطَّريق والمَسْلَك:

عَرَّض بسوء فعلهم بالصدِّ عن سبيل الله تعالى مع يُسْره ووضوحِه وتبيُّنِه

السَّبيلُ: يدُلُّ أصْل المادَّة (سبل) على الامتداد، وكَثُر استعمالُه في الطَّريق الَّذي فيه سهولة[6]، والطَّريق لُغَةً: المَسْلَك؛ لأنَّ الأقدام تَطْرقه، أي: تَطَؤه[7]، والطَّريق: السَّبيل المطروق، يُؤنَّث ويُذكَّر.

والصِّراط: أصْلُ صادِهِ سينٌ قُلِبَتْ مَعَ الطّاءِ صادًا لقُرب

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قسم).
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 42.
(3) الرّاغب، المفردات: (حلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبل).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 42.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبل).
(7) الرّاغب، المفردات: (طرق).

مَخارِجِها[1]؛ وهو الطَّريق المَسْلوك، واستُعير للدّين والاعتقادات؛ لأنَّه دين المُنعَم عليهم، وقال بعضُهم: هو الطَّريق المُسْتَسْهَلُ، واشتقاقه من سَرَطَ الطَّعام واسترطه؛ أيَ: ابتلعه، فسُمّي الطّريق سِراطًا؛ إما لأنَّهم تصوَّروا منه أن يَبْتَلِع سالكيه، أو أنَّهم يبتلعونه[2].

ومِمّا يُسْتَنْتج مِن خلال الاستعمال القرآنيِّ للألفاظ الثَّلاثة: (السَّبيل)، و(الطَّريق) و(الصِّراط): أنّ السَّبيل يتميَّز بالوضوح والسُّهولة، وكَثُر إضافة كلمةِ (سبيل) إلى لفظ الجلالة؛ للإشعار بوضوح المَسْلك إلى اللّه تعالى، وسهولتِه على السّائرين فيه[3]، وهو عِلَّة اختياره في سياق الآيةِ دون غيرِه ليُعرّضَ بسوء فِعْلهم بالصدِّ عن سبيل اللّه تعالى مع يسره ووضوحه وتبيُّنه.

وأُضيفت كلمةُ (ابن) إلى السَّبيل، وهو المُسافر الَّذي انقطعت به السُّبُل، ولا يَجِد ما يعودُ به إلى بلده، أو ما يُتَبَلَّغ به[4]، وجُعِلَ ابنَ الطَّريق؛ لملازمته إياه[5].

واستُعير الطَّريقُ لِكُلِّ مَسْلَكٍ يَسْلكه الإنسانُ في فِعْل، محمودًا كان أو مذمومًا[6]؛ لذا فهو أعَمُّ الألفاظ[7].

والصِّراط: استُعير للدّين والاعتقادات، ويتميَّز بالاستقامة والبُعْد عن الزَّيغ والضَّلال.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرط).
(3) محمد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 282.
(4) مجمع اللُّغة العربية بالقاهرة، المعجم الكبير: (سبل).
(5) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (سبل).
(6) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: (طرق).
(7) محمد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 284.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥﴾ [النَّحل: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نقضُ العهد من وُجوهِ الخيانة

لَمّا كان ما سبَقَ خاصًّا بالأيْمانِ، أتبَعَه النَّهيَ عن الخيانةِ في عُمومِ العَهدِ، تأكيدًا بعد تأكيدٍ، للدَّلالةِ على عظيمِ النَّقضِ(1)؛ وأيَضًا لمّا كانت الرغبةُ في الدُّنيا، والمنافسةُ في الاستكثارِ منها، والطَّلبُ لِلَذّاتِها مِن أعظمِ الأسبابِ الباعثةِ للإنسانِ على نقضِ الأيْمانِ: زجَرهم اللّهُ تعالى عنها، ونبَّهَهم على ما هو خيرٌ لهم منها(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِعَهْدِ﴾: أصلُ (عهد) يدلُّ على الاحتِفاظِ بالشَّيءِ وإحداثِ العَهْدِ بِهِ في أشياءَ مُختلفَةٍ: فمنها الحِفاظُ ورعايةُ الحُرْمَةِ؛ ومِنْها الوصيَّة، وإنَّما سُمّيَتْ بِذلِكَ لأنَّ العَهْدَ مِمّا يَنْبَغي الاحْتِفاظُ بِهِ(3)؛ والعَهدُ: الأمانُ؛ ومن العَهْدِ أيضًا: اليَمينُ يحلفُ بها الرَّجُلُ(4)؛ والعهد: الميثاق، ومِنه قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النَّحل: 91](5)، وهو المقصودُ بالعَهْدِ في الآيةِ.

2) ﴿ثَمَنًا﴾: أصلُهُ: اسمٌ لما يأخذه البائعُ في مُقابلة البيْعِ، عينًا كان أو سِلْعةً؛ وكلُّ ما يحصل عِوضًا عن شيءٍ فهو ثمنُه؛ وأثْمَنْتُ الرَّجُلَ بمتاعه، وأثْمَنْتُ لَهُ: أكْثَرْتُ له الثَّمن؛ وشيءٌ ثَمينٌ: كثيرُ الثَّمن، والمقصود بالثَّمَنِ في الآية: العِوَضُ الَّذي يأخُذُهُ المُعاوِضُ(6)؛

(1) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 246.
(2) الرَّسْعنيُّ، رموز الكُنوز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 86.
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (عهد).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (عهد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثمن)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 349.

والمرادُ بهِ: أنَّ كُلَّ عِوَضٍ يُؤخَذُ عن نَقْضِ عَهْدِ اللّه هو عِوَضٌ قليلٌ، ولو كانَ أعظَمَ الـمُكتَسباتِ(1).

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ عَهدٍ تعاهد المُؤمِنُ عليه هو عَهْدُ الله تعالى لا يَصِحُّ أن يُنقض

لقد نهاهم اللّهُ تعالى عن أنْ يبيعوا دينَهم بدنياهم، فقال: ولا تستبدلوا بأوامرِ اللّه تعالى ونواهيه، عَرَضًا قليلًا من أعراض الدُّنيا الزّائلة، بأن تَنقُضوا عُهودَكم لنَيلِ مَتاعٍ قليلٍ مِن الدُّنيا؛ إنَّ ثَوابَ اللّهِ لكم في الجَنَّة - إذا آثَرْتُم رِضا اللّه، فأطَعْتُموه بالوَفاءِ بعُهودِكم - أفضَلُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا القَليلِ، إنْ كُنتُم تَعلَمونَ حَقيقةَ الفَرقِ بينَ الدُّنيا الفانيةِ، والآخرةِ الباقيةِ(2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف بالواو على الآيات السّابقات:

نَهيٌ عَنْ نَقْضِ عَهْدِ الإسْلامِ لِأجْلِ مَصالح دنيويّة

عُطِفَت جملةُ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ على جُملَةِ ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النّحل: 91]، وعَلى جُملَةِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ بالواو، ووجْه عَطْف النَّهي هنا أنَّه نَهيٌ عَنْ نَقْضِ عَهْدِ الإسْلام؛ لِأجْلِ ما فاتَهم بِدُخولِهم في الإسْلامِ مِن مَنافِعَ عِنْدَ قَوْمِ الشِّرْكِ؛ لِأنَّ كُلَّ جُملَةٍ مِنها تَلْتَفِتُ إلى غَرَضٍ خاصٍّ مِمّا قَدْ يَبْعَثُ عَلى النَّقْضِ(3).

وجه النَّهي بـ (لا):

تأكيدٌ بَعْدَ تأكيدٍ

في النَّهْي بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ تأكيدٌ للنَّهي السّابق بعدم نَقْض العهود مهما كان المُقابلُ والثَّمن؛ إذ إنَّ (لا) النّاهية موضوعةٌ لطلب تَرْكِ الفعل.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 270.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 349، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 7/ 2301، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 600، والسَّعْدي، ص: 448، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 229.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 270.

علَّة التَّعبير بالمضارع المجموع:

تَـرْك الاشـتراء زَجْرٌ وتثبيتٌ

عُـبِّرَ بالمضارع المجمـوع: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ تعميمًـا للنَّهْي؛ لِكَفِّ ناقضي العُهود، وناكثي العقود عن فِعْلِهم زَجْرًا لَهُم، ولِتَثبيت الَّذين يوفون بأيْمانهم، ويلتزمون بعهودِهم بدوام الاستمرارِ على ذلك؛ لِئَلّا يقعوا في الهلاك.

بلاغة التَّضمين في لفظ الاشتراء:

المُشْـتَرِي يكون راغبًا في الشَّيْء المُشْـتَرَى، باذلًا للثَّمَن فيه

ذَهَبَ الزَّمخشريُّ إلى القول بتَضمين ﴿تَشۡتَرُواْ﴾ معنى (تستبدلوا)[1]، والتَّضمين لا يكشفُ عن بلاغة المعنى، وإنَّما هو مُصَحِّحٌ له، ولَعَلَّ السِّرَّ البلاغيَّ الَّذي عُدِلَ مِن أجْله عن أصْل التَّعبير - الاستبدال - هو أنَّ "المُشْتري يكون راغبًا في الشَّيْء المُشْتَرَى، باذلًا للثَّمَن فيه، لأنَّه غيرُ راغبٍ فيه إذا قورن بما اشتراه، كَما أنَّ الشَّيء المُشْتَرَى مُلازِمٌ لِمَن اشتراه، أمّا الثَّمنُ المبذول فيه، فمُفارِقٌ لَه متى وقَعَ البَيْعُ بين الطَّرفين صحيحًا"[2].

بلاغة المجاز بالاستعارة في ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾:

ما استُبْدِلَ به الثَّمَنُ القليل هو الوفاء بعهد الله

عُبِّرَ عَنِ المُشْتَرَى الَّذي هو العُمدَةُ في عُقودِ المُعاوَضَةِ؛ والمَقْصودُ فيها، أيْ: بِالثَّمَنِ الَّذي شَأْنُهُ أنْ يَكونَ وسيلَةً فيها؛ فالاشتراء مستعارٌ للاستبدال، لأنَّ الثَّمَن مُشْتَرًى به لا مُشْتَرًى[3]؛ والاستعارة تصريحيَّة، للتَّصريح فيها بالمشبَّه به (الاشتراء) ولحَذْف المُشَبَّه (الاستبدال)، وتبعيَّة لإجرائها في الفعل: ﴿تَشۡتَرُواْ﴾، والمعنى: ولا تستبدلوا بعهود اللّه أشياءَ حقيرةً خسيسةً من أعراض الدُّنيا الفانية، والذي استُبْدِلَ به الثَّمَنُ القليل هو الوفاءُ بعهد اللّه.

(1) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 3/ 471.
(2) عبد العظيم المَطْعنيّ، خصائص التَّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيَّة: 2/ 187.
(3) الشِّهاب، عناية القاضي: 6/ 366.

دلالة (الباء):

شُبِّهَ عهدُ الله بالثَّمنِ في كَوْنِه أهْوَنَ العِوَضَيْنِ عِنْدَ المُسْتَبْدِلِ

قُرِنَ عهدُ اللّه بِالباءِ الَّتي تَصْحَبُ الوَسائِلَ؛ إيذانًا بِتَعْكِيسِهِم حَيْثُ جَعَلوا ما هو المَقْصِدُ الأَصْليُّ وسيلَةً؛ والوَسيلَةَ مَقْصِدًا[1].

وقَدْ عَدَّى الاشْتِراءَ هُنا إلى العهد بـ(الباء)، فكانَ عهد اللّه هو الواقِعَ مَوْقِعَ الثَّمَنِ؛ لِأَنَّ الثَّمَنَ هو مُدْخَلُ الباءِ، فدَلَّ دُخولُ الباءِ عَلى أَنَّ العهدَ شُبِّهَ بِالثَّمَنِ في كَوْنِه أَهْوَنَ العِوَضَيْنِ عِنْدَ المُسْتَبْدِلِ[2].

إيثارُ لفظ (العهد) دون (الميثاق):

نـاسَـبَ معنى عـمـومِ العـهـدِ جماعُ أوامرِ اللهِ ونواهيه

العهدُ إلزامٌ والتزامٌ، سواءٌ كان فيه يمينٌ، أم لم يكنْ؛ والميثاق هو العهد المُؤَكَّد باليمين، فالميثاقُ مُركَّبٌ من العهد واليمين معًا؛ وعلى هذا فالعهدُ أعمُّ من الميثاق في معناه، والميثاقُ داخلٌ في العهد، ولكنَّه مُؤَكَّدٌ باليمين؛ ويجب الوفاءُ به، وكذلك العهدُ الواجب، وهو ما أوصاه المُعاهِد به، وأخَذَ عليه المَوْثِق[3]، ولمّا كان المرادُ عمومَ أوامرِ اللّه تعالى ونواهيه لعباده المشروطةِ بالالتزام بها؛ ناسبَ التَّعبيرَ بلفظ العهدِ لعُمومه.

نُكْتة إضافة العهد إلى الاسم الأعظم:

تعظيمُ العَهْدِ، وتحقيرُ العِوَض

المرادُ بـ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أوامرُه ونواهيهِ الَّتي كَلَّفَنا بِالتزامها والعملِ بمقتضاها؛ وأُضيف العَهْدُ إلى الاسم الأعظم لِلتَّشْريفِ، ولِلزَّجر عن الاستبدال بها، وفيها تعريضٌ بخسارة المخاطَبين، و"غبن صَفْقَتِهِم؛ إذِ اسْتَبْدَلوا نَفيسًا بِخَسيسٍ"[4]: حيثُ عَظَّم العهدَ بالإضافة، "وحَقَّرَ العِوَضَ بِتَحْقيرَيْن: التَّنْكيرِ والوَصْفِ بِالقِلَّةِ"[5] في: ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾.

توجيه الصِّفَةِ ﴿قَلِيلًاۚ﴾:

(قَـلِـيـلًا) صِـفَـةٌ كاشِفَةٌ، ولَيْسَتْ مُقَيِّدَةً

الثَّمَنُ: العِوَضُ الَّذي يَأْخُذُهُ المُعاوِضُ، و﴿قَلِيلًاۚ﴾: صِفَةٌ كاشِفَةٌ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 275.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 270.
(3) هود أبو راس، الخطاب القرآنيّ لأهل الكتاب وموقفهم منه قديمًا وحديثا، ص: 284.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 165.
(5) ابن عَرَفَة، تفسير ابن عرفة: 3/ 46.

وليست مُقيَّدَةً، أيْ: إنَّ كُلَّ عِوَضٍ يُؤْخَذُ عَنْ نَقْضِ عَهْدِ اللّه هو عِوَضٌ قَليلٌ، ولَوْ كانَ أعْظَمَ المُكْتَسَباتِ[1].

والمرادُ بالثَّمن القليل: حُظوظُ الدُّنيا وشهواتُها وزينتها مِن الأموال وغيرها.

والمعنى: ولا تستبدلوا بأوامر اللّهِ ونواهيه عَرَضًا قليلًا مِن أعراض الدُّنيا الزّائلةِ، بأن تَنْقضوا عهودَكم في مقابل منفعةٍ دنيويَّة زائلة[2].

إيثارُ لَفظِ ﴿قَلِيلًاۚ﴾ دون (بخسًا) وغيره:

عَهْدُ الله مِمّا لا يُباع ولا يُشترى فكلُّ ثمنٍ في مقابله قليلٌ

التَّقليلُ هنا باعتبار حالهِ لا كَمّيَّته، فقد يكون كثيرًا في كَمّيَّته وحقيرًا في حاله، وهو جميعُ عَرَضِ الدُّنيا، وأوثر وصفُ الثَّمن بالقِلَّة، ولم يوصف بالبَخْس: لأنَّ الثَّمَنَ البَخْس دون ما يجب، فكأنَّه يُمكن أن يُشترى؛ ولمّا كان عهدُ اللّه مِمّا لا يُباع ولا يُشترى، وصف مَن يبيعه، ويفرِّط فيه من أجل عَرَضٍ من أعراض الدُّنيا بأنَّه ثمنٌ قليل، نعيًا عليهم وتوبيخًا لهم، وقد وجَّه ابنُ عرفة هذا النَّعْت بقوله: "وهذا النَّعت تقليلٌ إن كان للبيان، ولإزالة الاشتراكِ، فيلْزَم المفهومَ، وهو أنَّه قد يكون ما يشترونَه بعهد اللّه ثمنًا كثيرًا، فلم يُنْهَوْا عنه؛ وإن لم يكن كذلك لمجرَّد التَّأكيد، قال: وأُجيب بأنَّه للبيان ومنع من المفهوم"[3].

دلالة ﴿إِنَّمَا﴾:

ما ادَّخره الله لعباده المؤمنين خيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرة

(ما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ اسم موصول بمعنى (الَّذي)، يدلُّ على العموم، أيْ: ما ادَّخره اللّه تعالى في الدُّنيا والآخرة خيرٌ؛ ففي الدُّنيا تكون عِزَّةُ الحَقِّ، وقوَّةُ الوفاء، وهو في ذاته قوَّةٌ، وخصوصًا إذا كان العقدُ مع الضُّعفاء؛ وفي الآخرة نعيمٌ مقيمٌ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 270.
(2) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 229.
(3) ابن عَرَفَة، تفسير ابن عرفة: 3/ 46.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4262.

توجيه عِنْديَّة الله تعالى:

هو ما ادَّخَرَهُ الله لِلْمُسْلِمِينَ مَن خَيْرٍ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ "تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ بِاعْتِبارِ وصْفِ عِوَضِ الاشْتِراءِ المَنهيِّ عَنْهُ بالقِلَّة، فإنَّ ما عِنْدَ اللّٰه هو خَيْرٌ من كُلِّ ثَمَنٍ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ، وما عند اللّٰه هو ما ادَّخَرَهُ لِلْمُسْلِمينَ مَن خَيْرِ في الدُّنْيا وفي الآخِرَة، فخَيْرُ الدُّنْيا المَوْعودُ به أفْضَلُ مِمّا يَبْذُلُه لَهُمُ المُشْرِكونَ، وخَيْرُ الآخِرَةِ أعْظَمُ مِنَ الكُلِّ؛ فالعِنْديَّةُ هُنا بِمَعْنى الادِّخارِ لَهم، كَما تَقولُ: لَكَ عِنْدي كَذا؛ ولَيْسَتْ عِنْديَّةَ مِلْكِ اللّٰه تَعالى، كَما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام: 59]، وقَوْلُهُ سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: 21]، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾"[1].

سرُّ إظهارِ اسمِه الأعظم دونَ قوله: (عنده):

لفظ الجلالة وصفٌ لإحاطتِه تعالى بجميع صفاتِ الكمال

وإظهارُ اسمِه الأعظم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾، بوصفِه المحيطَ بجميع صفاتِ الكمالِ من الأعَراض العاجلةِ في الدُّنيا من واردات القلوبِ وبوادرِ الحقيقة، الآمرِ بكلِّ خيرٍ، الناهي عن كلِّ شرٍّ، المفيدِ لتزْكية الباطنِ وتقويم الظّاهرِ والبركةِ في جميع الأحوالِ والآجلة في الآخرة مِمّا لا يدخلُ تحت الوصف[2].

نُكْتة التَّعبير بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

توكيد قَصْر الخيريَّة على ما عِنْد الله

عُبِّر بضمير الفَصْل في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾؛ لتأكيد خيريَّةِ ما عند اللّٰه تعالى، أيْ: جزاؤُه وثوابه خيرٌ لِمَن رجاه، وآمن به، وطلبه، وحفظ أيْمانَه؛ والجملةُ أسلوب توكيدٍ بالقَصْر بإعادة الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾، فلم يقلِ اللّٰهُ تعالى: إنَّما عند اللّٰه خيرٌ لكم، فيَحْتَمل أنَّ ما عندَ غيره أيضًا خيرٌ لكم، أمّا في تعبير القرآن: ﴿هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾؛ أي: الخيرُ فيما عند اللّٰهِ على سبيل القَصْر[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 270.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/ 603، 20/ 71.
(3) الشَّعراويُّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8192.

بلاغة تنكيرِ لفظةِ ﴿خَيۡرٞ﴾:

حِفْظُ العَهْد رجاء الموعود

جاء لَفْظ ﴿خَيۡرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ نكرةً، لتعظيم هذا الخير، وللحَثّ على نَيْله بِحِفْظ العَهْد رجاءَ هذا الموعود.

دلالتا اللّام وشبه الجملة ﴿لَّكُمۡ﴾:

تخصيص الخيريَّة بالموفين بعهودهم

أكَّدت شِبْهُ الجملة ﴿لَّكُمۡ﴾ خيريَّة ثوابِ اللّه ووعدَه للموفين بعهودِهم مع اللّه تعالى ومع عباده؛ واللّام للاختصاص، أثبتتِ اختصاصَ خيريَّةِ اللّه تعالى بهم.

بلاغةُ اجتماعِ المؤكّدات: التَّوكيد بـ (إنَّ)، والضَّمير (هو)، والجملة الاسميَّة:

تأكيد خَيْرِيَّة ما عِنْد الله تعالى

أُكِّدَت تلك الخيريَّةُ مِن ثَوابِ الدّارَيْنِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ بثلاث مُؤَكِّدات: (إنَّ)، والضمير (هو)، والجملة الاسميَّة: ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، وشُرِّفت بإضافتها إلى لَفْظ الجلالةِ الجامع لِصفات الجلالِ والجمال والكمال، وقد أُكِّد ذلك أيضًا في الآية التّالية في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾، فما عِنْدَ الله لَهم "خَيْرٌ مُتَجَدِّدٌ لا نَفادَ لَهُ، وأنَّ ما يُعْطيهمُ المُشْرِكونَ مَحْدودٌ نافِذٌ؛ لِأنَّ خَزائِنَ النّاسِ صائِرَةٌ إلى النَّفادِ بِالإعْطاءِ، وخَزائِنُ اللّه باقيَةٌ"[1].

إيثار التَّعبير بـ ﴿إِن﴾:

إلهابٌ وتهْييجٌ؛ للحَثِّ على الحِرْص على الالتزام بالعهود والمواثيق

أوثر التَّعبيرُ بِحَرْف الشَّك ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ للإلهاب والتَّهْييج، وللحَثّ على الحِرْص على الالتزام بالعهود والمواثيق، والتَّعبير بـ ﴿إِن﴾؛ لأنَّ علمَهم بالأمر من شأنِه ألّا يكون مُحقَّقًا لخَفاء فائدتِه عنهم لجهلِهم.

وجه التَّعبير بفعل الكوْن ماضيًا مجموعًا:

وجْهُ التَّعبيرِ بفعلِ الكَوْن ماضيًا مجموعًا في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 270.

الدَّلالة على الطَّبْع والجِبِلَّة

للدَّلالة على الطَّبْع والجِبِلَّة: فالتعبير بالكون يدلُّ على الإيجاد والاستمرار ولزوم الوصف، واستعمالُ المضيِّ للدلالة على استقرار هذه الصفة فيهم وثبوتها، وبالجمع للدلالة على شمولها جميعَ أفرادِ المخاطَبين واستغراقِهم؛ أيْ: إن كنتم من ذوي العلم، ومن أهله، ومِمَّن يتجدَّد له علمٌ، ولم تكونوا في عِداد البهائم، بوصفِكم جهلةً لا يعتَدُّ بأفعالِكم، فأنتم تعرفون صحَّةَ ما دعوتُكم إليه مِمّا يقتضي الإقبالَ عليه، فإذا تحقَّقتم ذلك، فامتثلوه، فإنَّه يقْبُح على العلم بِقُبْحِ الشَّيءِ الإصرار عليه[1].

سِرُّ صَوْغ الفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ مضارعًا:

الإشارة إلى تَجدُّد العِلْم

صيغ الفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ مضارعًا؛ للدَّلالة على أنَّ المراد: إنْ كنتم مِمَّن يتجدَّد له علمٌ، فإنَّ مَن وضع كيانَه للعلم كان مِمَّن يدوم علْمُهُ[2].

إيثار الفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ دون غيره:

من الخير ما يخفى فيحتاج إلى نظرٍ وتفكُّر بالعلم

اختيار فعل العلم - دون الإيمان مثلًا - للإشارة إلى أنَّ من هذا الخير ما يخفى، فيحتاج مُتَطَلِّبُ تعْيينِ شُعَبِهِ إلى إعمال النظر والعلم[3].

علَّة حذف متعلِّق الفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

الحَذْف للتَّعميم

حُذِف متعلِّق الفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ للتَّعميم؛ أيْ: إن كنتم تعلمون أيَّ عِلْم، فإنَّه يدُلُّكم أنَّ ثواب اللّهِ خيرٌ لَكُم؛ وهذا فيه مزيدٌ من الحثِّ، والتَّهْييج، والحَضِّ على الوفاء بالعهود والعقود.

دلالة جملة الفاصلة:

درجات ترتيب تأكيد الأيمان في سياق الآية الكريمة

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أيْ: إنْ كُنْتُم مِن أَهْلِ العِلْم والتَّمييزِ؛ وهو تَعْليلٌ لِلنَّهْيِ عَلى طَرِيقَةِ التَّحْقيقِ[4]، وقد جاء "العَهْدُ

(1) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 246، 4/ 308.
(2) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 246، 4/ 308.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 208.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 397.

الشّامِلُ لِلْأَيْمانِ مَبْدوءًا في هَذِهِ الآياتِ بِالأمرِ بِالوَفاءِ بِهِ، ومَخْتومًا بِالنَّهْيِ عَنْ نَقْضِهِ، والأَيْمانُ الَّتي هي أَخَصُّ مِنهُ وسَطٌ بَيْنَ الأمرِ والنَّهْيِ المُتَعَلِّقَيْنِ بِهِ، فصارَ الحَثُّ عَلَيْها عَلى غايَةٍ مِنَ التَّأْكيدِ عَظيمَةٍ، ورُتْبَةٍ مِنَ التَّوْثيقِ جَليلَةٍ"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العهد والميثاق:

المُرادُ عمومُ أوامرِ الله تعالى ونواهيه

العَهْدُ لُغَةً: حِفظُ الشَّيْءِ ومراعاتُه حالًا بَعْدَ حالٍ، وسُمّي المَوْثِقِ الَّذي يُلْزَم مراعاته عَهْدًا[2]؛ وقد ورَدَت مادَّةُ (عَهِدَ) في القرآن الكريم ستًّا وأربعين مَرَّة؛ والميثاقُ: يَدُلُّ أصل المادَّة على عَقْدٍ وإحْكام[3]، وقد ورَدَت مادَّة (وَثِقَ) في القرآن الكريم أربعًا وثلاثين مَرَّة، والفرق بين العَهْد والميثاق هو أنَّ العَهْد أعَمُّ من الميثاق في معناه، فالميثاق جُزءٌ من العَهْد، لَكنَّه آكَدُ منه باليمين، وكِلاهما يَجِبُ الوفاء بهما، وقد تقدَّم أنَّه لمّا كان المُرادُ عمومَ أوامرِ اللَّه تعالى ونواهيه لعباده المشروطةِ بالالتزام بها، ناسبَ التَّعبيرُ بلفظ العهدِ لعُمومه.

الثَّمن والأجر والقيمة:

الثَّمنُ قابلٌ للتفاوت زيادةً ونقصانًا

الثَّمن يُسْتَعْمل في ما كانَ عينًا أو ورقًا، تَقول: أَعْطَيْت ثمن السِّلْعَة عينًا أو ورقًا، وأعْطيت عِوَضَها من ذَلك أو من العِوَض؛ وإذا قيل: الثَّمنُ من غير العينِ والوَرق فهوَ التَّشْبيهُ، والثَّمن قد يكون بخسًا، وقد يكون وفقًا وزائدًا، كقوله تعالى هنا: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾، وقالَ سبحانه: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]؛ والقيمَةُ: هيَ المساويةُ لمقدار المُثَمَّن من غير نُقْصانٍ ولا زيادَة[4]؛ والأجْر والأُجْرة:

---

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 246، 4/ 308.

(2) الرّاغب، المفردات: (عهد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وثق).

(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 238.

يُقال فيما كان عن عقدٍ وما يجري مجرى العقدِ، ولا يُقال إلّا في النَّفع دون الضُّر[1]، ولمّا كان الثَّمنُ قابلًا للتَّفاوت زيادةً ونقصانًا، عُبِّر به هَهنا، ووُصِف بالقلَّة دلالةً على جهل مَن يشتري بآيات اللّه تعالى ثمنًا قليلًا وسوءِ عمله وجحوده.

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [النحل: 96]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عــزّز التّرغيب بالـتّـذكير بالنّعيم الرّبّانيّ الباقي

بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ خَيْريَّة ما عِنده، وبَيَّن في هَذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ ما عِنْدَه مِن نَعيمِ الجَنَّةِ باقٍ لا يَفْنى، فأضاف سبحانه إلى ترغيبهم في العمل بما يُرْضيه ترغيبًا آخرَ، فقال سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾، وهو وجْهٌ من وجوه الخيريَّة لِما عند الله تعالى[1]. "وأَوْضَحَ هَذا المَعْنى في مَواضِعَ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108]، وقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾ [ص: 54] وقَوْلِهِ: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣﴾ [الكهف: 2 - 3][2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَدُ﴾: (نفد): أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على انْقِطاعِ شَيءٍ وفَنائِه، نَفِدَ الشَّيْءُ يَنْفَدُ نَفادًا؛ وأَنْفَدوا: إذا نَفِدَ زادُهم، أو نَفِدَتْ أموالُهم[3]؛ وخَصْمٌ مُنافِدٌ: إذا خاصَمَ لِيُنْفِدَ حُجَّةَ صاحبِه، يُقالُ: نافَدْتُهُ فنَفَدْتُه[4]؛ واسْتَنْفَدَ وُسْعَه، أي: اسْتَفْرَغَه؛ وأَنْفَدَتِ الرَّكيَّةُ: ذَهَبَ ماؤُها[5]؛ والمقصود بالنَّفادِ في الآية: الانقِراضُ والذَّهابُ والفناءُ[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4262.
(2) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 3/ 136.
(3) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفد).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نفد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نفد).
(6) ابن الجوزيِّ، زاد المسير: 2/ 582، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 271.

2) ﴿بَاقٍۗ﴾: (بقي): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو الدَّوامُ؛ قالَ الخليلُ: يُقالُ: بَقيَ الشَّيءُ يَبْقى بَقاءً، وهو ضِدُّ الفَناءِ؛ وقالَ أيضًا: اسْتَبْقَيْتُ فُلانًا، وذلكَ أَنْ تَعْفوَ عن زَلَلِه، فتَسْتَبْقيَ مَوَدَّتَهُ[1]، والباقي ضربان: باقٍ بنَفسِهِ لا إلى مُدَّةٍ، وهو الباري تعالى، ولا يصحُّ عليه الفَناءُ، وباقٍ بغيره، وهو ما عداه، ويصحُّ عليه الفَناءُ، والباقي باللّه ضربان: باقٍ بشَخْصِهِ إلى أن يشاءَ اللّه أن يفنيَه، كبَقاءِ الأجرام السَّماوية، وباقٍ بنَوعِهِ وجِنْسِهِ دونَ شَخْصِه وجزئِهِ، كالإنسان والحيوان، وكذا في الآخرة باقٍ بشَخْصِهِ كأهلِ الجنَّة، فإنَّهم يبقَوْن على التَّأبيد لا إلى مدَّةٍ، والآخرُ بنوعِهِ وجِنْسِهِ، كما روي عن النَّبيِّ ﷺ: "لا يَنْزِعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنْ ثَمَرِها إلّا أُعيدَ في مَكانِها مَثْلاها"[2]؛ والمقصود بالبقاء في الآية: عدم الفناء[3].

3) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾: أصلُ (جزى): قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ غَيْرِه، ومُكافَأَتُهُ إيّاهُ، يُقالُ: جَزَيْتُ فُلانًا أجزيهِ جَزاءً، وجازَيْتُهُ مُجازاةً[4]؛ والجَزاء: ما فيه الكفايةُ من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر[5]؛ والجَزاء أيضًا: القَضاء، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، وتَقولُ: جَزَى عَنّي هذا الأمرَ يَجْزي، كَما تَقولُ: قَضَى يَقْضي[6]؛ ويُقال: جَزَيْتُه بكذا، وجازَيْتُهُ، ولم يجئ في القرآن إلّا جزى دونَ جازى، وذاك أنَّ المجازاة هي المكافأة، وهي المقابلةُ من كلِّ واحدٍ من الرَّجُلين، والمكافأةُ هي: مقابلةُ نعمةٍ بنعمة هي كُفُؤُها؛ ونِعْمَةُ اللّه تَتَعالى عن ذلك، ولهذا لا يُستعمل لفظُ المكافأةِ في اللّه ﷻ، وهذا ظاهر[7]؛ والمقصود بالجَزاءِ في الآية: العِوَضُ عن عَمَلٍ؛ والمُرادُ به: الثَّوابُ الحَسَنُ في الدُّنيا والآخرة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أضاف اللّهُ تعالى إلى ترغيبهم في العمل بِما يرضيه ترغيبًا آخرَ، فقال: ما عِندَكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ينتهي، ويَفنى، وإن كان كثيرًا، وما عِندَ اللّهِ مِن الثَّوابِ في الجَنَّةِ مُستَمِرٌّ

(1) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بقي).
(2) أخرجه البزّار، المسند، رقم الحديث: (4187)، ويُنظر: الرّاغب، المفردات: (بقي).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 271.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(5) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (جزي).
(7) الرّاغب، المفردات: (جزا).

لا يَنقَطِعُ ولا يفنَى؛ فاحرِصوا عليه، واعمَلوا للظَّفَرِ به، ثمَّ بشَّر الحقُّ سبحانه الصّابرين على طاعته بأعظم البشارات، فقال: ولَنُثيبَنَّ الصّابرينَ يومَ القيامةِ على أحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا من الأعمالِ الصّالحةِ، ونتَجاوَزُ عن سَيِّئِ أعمالِهم[1].

اللهُ أبقى وخيرُه أبقى

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف بجملة ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾:

التَّرغيب في الزُّهْد

وقعت جملة ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾ تَعْليلًا لِلْخَيْريَّة بِطَريقِ الاِسْتِئْنافِ، فحَظُّ الإنسان من دنياه عَرَضٌ زائل، والمعنى: ما تَتَمَتَّعونَ بِهِ مِن نَعيمِ الدُّنْيا، وإنْ جَلَّ، بَلِ الدُّنْيا وما فيها جَميعًا ﴿يَنفَدُ﴾، وإنَّ جَمَّ عَدَدُهُ، ويَنْقَضي، وإنْ طالَ أمَدُهُ، و﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن خَزائِنِ رَحْمَتِه الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ ﴿بَاقٖ﴾ لا نَفاذَ لَهُ، أمّا الأُخْرَوِيَّةُ؛ فظاهِرَةٌ، وأمّا الدُّنْيَوِيَّةُ: فحَيْثُ كانَتْ مَوْصولَةً بالأُخْرَوِيَّةِ، ومُسْتَتْبِعَةً لَها، فقَدِ انْتَظَمَتْ في سِمطِ الباقياتِ الصّالِحاتِ[2].

إيثارُ الموصول ﴿مَا﴾ في الموضعَيْن:

كُلُّ ما يَملكه العِبادُ زائلٌ، ونعيمُ اللهِ باقٍ

أوثر الموصولُ ﴿مَا﴾ في الموضعَيْن: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾؛ للدَّلالة على العموم والشُّمول، فكُلُّ ما يَملكه العِباد زائل، ونعيم الجنَّة باقٍ.

وقد ذَكَر اللّه تعالى دَليلًا قاطِعًا عَلى حَقارَةِ عَرَض الدُّنيا وخَيْريَّةِ ما عِنْدَه سبحانه وديمومته فقالَ سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ "ومَعْلومٌ لِكُلِّ عاقِلٍ أنَّ ما يَنْفَدُ، ويَزولُ، وإنْ بَلَغَ في الكَثْرَةِ إلى أيِّ مَبْلَغ؛ فهو حَقيرٌ يَسيرٌ، وما كانَ يَبْقى، ولا يَزولُ، فهو كَثيرٌ جَليلٌ، أمّا نَعيمُ الآخِرَةِ فظاهِرٌ، وأمّا نَعيمُ الدُّنْيا الَّذي أَنْعَمَ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 349، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 601، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 448.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 275.

اللّه بِهِ عَلى المُؤْمِنينَ، فهو وإنْ كانَ زائلًا، لَكِنَّهُ لَمّا كانَ مُتَّصِلًا بِنَعيمِ الآخِرَةِ كانَ مِن هَذِهِ الحَيْثِيَّةِ في حُكْمِ الباقي الَّذي لا يَنْقَطِعُ"[1].

إضافةُ العنديَّة إلى ضمير الجمع دون الظّاهر:

امتدادُ للخطاب السابق دون امتناع الشمول

عِلَّةُ إضافة العِنْديَّة إلى ضمير الجَمع دون الظّاهِر في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾؛ لأنَّ في السّياق امتداد الخِطاب مع الَّذين يشترون بأَيْمانهم ثمنًا قليلًا، وإن كان المعنى لا يمنع شمولَ الخطابِ للخَلْق أجمعين.

نكتة التَّعبير عن النَّفاد بالمضارع:

ما عِنْد النّاس دائمُ النَّفاد

نُكْتة التَّعبير عن النَّفاد بالمضارع: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾؛ لِتَجَدُّدِ نفادِ ما عِنْد النّاس حالًا بَعْد حالٍ؛ يقولُ ابن عرفة: "عبَّر عنه بالفعل؛ لأنَّ النفادَ هو التَّغيُّرُ والزَّوال، والبقاءُ صفةٌ ثُبوتيَّةٌ دائمةٌ، زمنَين فصاعدًا، ناسب التَّعبيرُ فيها بالاسم"[2].

توجيه العطف بالواو:

عِنْديَّةُ الله تعالى باقيةٌ وعِنْديَّة البشر دائمةُ الزَّوال

الواو عاطفةٌ، وجملة: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب معطوفةٌ على الجملة التَّعليليَّة: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾، وفي العطف إظهارٌ للمُغايَرة بين عِنْديَّة اللّه تعالى الباقيةِ الَّتي لا انقضاءَ لها ولا نفادَ، وبين العِنْديَّة البشريَّةِ الدّائمةِ الزوال.

سرُّ تكرار (عِنْدِيَّة الله) في الآيتَيْن:

توكيدُ ثواب الله تعالى

كُرِّرت (عِنْديَّة اللّه) في الآيتَين؛ لتوكيدها، ولِتَنزيلِ المُخاطَبين مَنْزِلَةَ مَن يُنكِر دوامَ ثوابه سبحانه.

بلاغةُ العدولِ عن المضارع إلى اسم الفاعلِ في وصْفِ ما عِنْد الله:

لَيسَ بعاقلٍ مَن آثر الفانيَ الخَسيسَ على الباقي النَّفيس

عُدِل عن المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد ﴿يَنفَدُ﴾ إلى اسم الفاعلِ في وصْف ما عِنْد اللّه ﴿بَاقٖ﴾: للدَّلالة على دَيْمومَةِ ما عِنْد اللّه تعالى[3]؛

(1) الشّوكاني، فتْح القدير: 2/ 800.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، مخطوط مكتبة الإسكندرية برقم: (9124): 2/100.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 138.

والمعنى: "ما عندكم من متاع الدُّنيا وزهرتِها يفنى، وينقضي، ويزولُ، وما عِنْد اللّه تعالى في الآخرة من عطاءٍ باقٍ لا يفنى، ولا يزولُ، فآثِروا ما يبقى على ما ينْفَدُ"[1].

بلاغة الطِّباق بين ﴿يَنفَدُ﴾ و﴿بَاقٍۗ﴾:

فَـرْقٌ بـين ما يوجَد لِيَنْتهي وما يوجَد لِيَبْقى

أظْهر الطِّباق البَوْنَ الشّاسع بين مُلْكٍ بَشَريٍّ زائل فانٍ، وعطاءٍ ربّانيٍّ باقٍ لا ينْفَدُ، وهو كالفرقِ بين مُلْك الخالق، ومُلْك المخلوق.

قال أبو زهرة: "في المقابلة بين ما عِنْد النّاس، وما عِنْد اللّه، فقد وصَفَ ما عِنْد النّاس بأنَّه يَنْفَدُ، وما عند اللّه بأنّه باقٍ؛ أيْ: له صفة البقاء والدَّوام والاستمرار، وفَرْقٌ بين ما يوجَد ليَنْتهي، وما يوجَد ليَبْقى"[2].

دلالة التَّذييل والمثَل في ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾:

ما عِنْدَ الله لَهم خَيْرٌ مُتَجَدِّدٌ لا نَفادَ لَهُ

جُملَةُ: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ تَذْييلٌ وتَعْليلٌ لِمَضْمونِ جُملَةِ: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، بِأنَّ ما عِنْدَ اللّه لَهم خَيْرٌ مُتَجَدِّدٌ لا نَفادَ لَهُ، وأنَّ ما يُعْطيهِمُ المُشْرِكونَ مَحْدودٌ نافِدٌ؛ لِأنَّ خَزائِنَ النّاسِ صائِرَةٌ إلى النَّفادِ بِالإعْطاءِ، وخَزائِنُ اللّه باقِيَةٌ[3].

دلالةُ الواو في ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ﴾:

(الواو) عاطفةٌ؛ والجمعُ بين وصْفِ ما عِنْد اللّه، والجزاءِ للصّابر عليه ترغيبٌ وتشريفٌ.

التَّعبير عن الجزاء بالمضارع المؤكَّد باللّام وبالنون:

ترغيب المُخاطَبين في الثَّبات على فضيلة الصَّبر، وعلى الوفاء بالعهد

عُبِّر عن الجزاء بالمضارع المُؤكَّد باللّام التي هي لامُ القَسَم لِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة: ليفيدَ تفخيمَ الجزاءِ وتعظيمَه وتوكيدَه، "ولترغيبهم - المُخاطَبين - في الثَّبات على فضيلة الصَّبرِ، وعلى الوفاء بالعهد"[4].

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 230.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 426.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.

(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 230.

توجيه القراءتَين في ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ﴾:

تعظيمُ الجزاء، وتأكيدُ العطاء

في قوْله تَعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ﴾ التفاتٌ مِن الغَيْبة إلى التَّكَلُّم؛ حيثُ كان الظّاهرُ أن يُقال: وما عِندَ الله باقٍ، ولَيَجزِيَنَّ الَّذين صَبَروا، لكنِ التفتَ إلى ضمير المتكلِّم بِنونِ العَظَمَةِ؛ للدَّلالة على عَظمة الجزاءِ وفخامته، ولتشريفه، وهذه قراءةُ ابنِ كثيرٍ وعاصمٍ وابن عامر بخلاف؛ وقرأ الباقون بياءِ الغَيْبة رجوعًا إلى ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لتَقَدُّم ذكرِه العزيزِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾[1].

وقد عَلَّق أبو السُّعود على هذا الالتفاتِ بقوله: "وقَوْلُه تَعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ﴾ بِنونِ العَظَمَةِ عَلى طَريقَةِ الالتِفاتِ تَكْريرُ المَوْعِدِ المُسْتَفادِ مِن قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ عَلى نَهْجِ التَّوْكيدِ القَسَميِّ مُبالَغَةً في الحَملِ عَلى الثَّباتِ في الدّينِ، والالتِفاتُ عَمّا يَقْتَضيهِ ظاهِرُ الحالِ مِن أنْ يُقالَ: ولَنَجْزِيَنَّكم أجْرَكم بِأحْسَنِ ما كُنْتُم تَعْمَلونَ؛ لِلتَّوَسُّلِ إلى التَّعَرُّضِ لِأعْمالِهِم، والإشْعارِ بِعِلِّيَّتِها لِلْجَزاءِ، أيْ: واللّه لَنَجْزيَنَّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ عَلى أذيَّةِ المُشْرِكينَ، ومَشاقِّ الإسْلامِ الَّتي مِن جُملَتِها الوَفاءُ بِالعُهودِ، والفَقْرُ، وقُرِئَ: بالياءِ مِن غَيْرِ التِفاتٍ، و﴿أَجۡرَهُم﴾ مَفْعولٌ ثانٍ لـ(نَجْزي)؛ أيْ: (لَنُعْطيَنَّهم أجْرَهُمُ الخاصَّ بِهِم بِمُقابَلَةِ صَبْرِهِم عَلى ما مُنوا بِهِ مِنَ الأُمورِ المَذْكورَةِ)"[2].

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعليل الحُكْم بجملة الصِّلة

عُبِّر بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم﴾؛ لتعليل الحُكم، وهو الجزاء بأحسنِ ما كانوا يعملون من خلال جملة الصِّلةِ: ﴿صَبَرُوٓاْ﴾، والمقصود صبرُهم على الوفاء في السَّرّاء والضَّرّاء[3].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/305، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 7/ 284.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 397.
(3) البَغويُّ، مَعالم التَّنزيل: 5/ 41.

نكتةُ التَّعبير بالفعل ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ على هَيئَة الماضي المجموع:

تَحقُّقُ الابتلاء وتَحقُّق الصَّبْر عليه

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم﴾: للإشارة إلى تَحقُّق ابتلائِهم، وصَبْرِهم عليه، وإلى صَبْرِهم عَلى الوَفاءِ بأوامر اللهِ ونواهيه، فكلمة ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ "تَدلُّ على أنَّ الإنسانَ سيتعرَّض لهزّاتٍ نفْسيَّة نتيجةَ ما يقع فيه مِن التَّردُّد بين الوفاءِ بالعهد أو نقْضِه، حينما يلوحُ له بريقُ المالِ، وتَتَحرَّك بين جَنَباته شَهَواتُ النَّفْس، فيقولُ له الحقُّ ﷻ: اصبرْ، اصبرْ، لا تكنْ عجولًا، وقارنِ المسائلَ مقارنةً هادئةً، وتحمَّلْ كلَّ مشقَّةٍ نفسيَّة، وتغلَّبْ على شهوة النَّفْسِ؛ لتصلَ إلى النَّتيجة المحمودة"[(1)]؛ "وهي تشيرُ إلى أنَّ الصَّبْر سببُ هذا النَّعيم الباقي الَّذي لا ينْفَد؛ فالصَّبْر هو ضَبْطُ النَّفس في ظلِّ الأوامرِ والنواهي، فضَبْطُ النَّفس عِنْد الأمرِ بالوفاء بالعهد يوجِب ألّا ينْدفعَ النّاسُ وراءَ بارقةٍ تحمل على النَّقض، ويوجب ألّا يُسْتَطار وراءَ مَطْمَعٍ، فلا يَفي، والصَّبْر هو الَّذي يضْبِط النَّفس فيحملُها على الطّاعة، ويحملُها على اجتناب المعاصي، والجهادُ بالصَّبْر على كفِّ أهواءِ النَّفس ونزعاتِها جهادٌ سمّاه النَّبيُّ ﷺ الجهادَ الأكبرَ"[(2)].

سرُّ العدول من (الصّابرين) إلى ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾:

الحثُّ على صفة الصَّبر بأن تكونَ سَجيَّةً مُلازِمةً

عُدِل عن التَّعبير بـ (الصّابرين) إلى ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيه على سَعة رحمةِ اللّه تعالى، وأنَّ مَن اتَّصف بمجرَّد الصَّبْر زمنًا ما؛ فلَهُ أجرُه[(3)]، فكيف بِمَنْ جعل الصَّبْر سَجيَّةً له، واستعمله على ما نابَهُ من المكاره، والمشاقِّ؛ مبالغةً في الحثِّ على الصَّبْر.

(1) الشَّعراويُّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8194.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: / 4263.

(3) ابن عَرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 46.

وَجْهُ تعريفِ الأجرِ بالإضافة:

جزاءُ الصَّبْرِ الفوزُ بالطَّلبة، والظَّفرُ بالبُغْيَة

في تعريف الأجرِ بالإضافة إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَجْرَهُم﴾ إشارةٌ إلى استِحْقاقِهم هذا الأجر العظيم، لِصَبرهم على الابتلاءات، وأذى المُشرِكين، وعلى مَكارِهِ النَّفْسِ وشهواتِها.

العدولُ عن الجمع إلى الإفْراد:

عِظَمُ الثَّوابِ مِن اللّه، وشمولُ الأجْرِ

وُحِّد الأجْرُ في قوله تعالى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم﴾، إذ لم يقلْ: ولَنجزينَّ الَّذين صبروا أجورَهم: للإشارة إلى جلال العطاء، وعِظَم الثَّوابِ مِن اللّه تعالى، وإلى شُموله لهم جميعًا، وإلى أنَّهم في مرتبةٍ واحدة؛ وليُشيرَ إلى ما عِنْدَ اللّه من العطاء العظيم المُشارِ إليه بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾؛ وفي توحيد الأجْرِ إلْماحَةٌ إلى فضل الجماعةِ وبركتِها في مُجاهَدَة الابتلاءاتِ والصَّبر عليها.

ولمّا لم يكنْ ثمَّةَ أعمالٌ متعدِّدة، أو أحوالٌ متنوِّعةٌ غيرُ الصَّبْر: وحَّد الأجرَ؛ ولم يُجْمَع الأجرُ في القرآن إلّا وقد سُبِق بأعمالٍ مُتعدِّدة، أو أحوالٍ تقتضي مراعاتها، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: 29 - 30]، ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ [الممتحنة: 10].

دلالة الباء:

الباء بَيْنَ التَّعْدية والإلصاق والسَّببيَّة

الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ﴾ إمّا أن تكون للتَّعدية، وإمّا أن تكون للإلصاقِ، أو للسَّببيَّة على حَسْب المَرْجِع، وقد فصَّل ابنُ عرفة هذا بقوله: "قيل: هو راجع لعملهم أو لجزائه، فهل المرادُ يجزيهم بجزاءِ أحسنِ عملِهم، أو بأحسنِ جزاءِ عملِهم؟ والباء على هذا للتَّعدية أو للإلصاق، أو المراد أنَّهم يُجازون على أحسنِ عملِهم،

ويبقى ما دونَه مَسْكوتًا عنه، والباء على هذا للسَّبَب، وفي الآية دليلٌ على أنَّ التَّرْكَ فِعْلٌ؛ لأنَّ الصَّبْر هو حَبْس النَّفْسِ إمّا على المُؤْلِمات والمشاقّ، فهو فِعل، أو عقبها على الملائِمات فهو تَرْكٌ، وسَمَّى في الآية جميعَ ذلك عملًا"(1).

دَلالة لفظ ﴿بِأَحۡسَنِ﴾:

الإشعار بِكمال حُسْن الصَّبْر

تَعَدَّدت آراء المُفَسِّرين في توجيه دَلالة أفعلِ التَّفضيل ﴿بِأَحۡسَنِ﴾ بِناءً على تفسيرهم المرادِ مِن العمل في قوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الآية الكريمة، وهل أنَّ صيغةَ التَّفضيل على بابها أم لا؟ قال السَّمين الحلبيُّ: "وقوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ﴾ يجوز أن تكونَ أَفْعَل على بابِها من التَّفضيل، وإذا جازاهم بالأحسنِ فلَأَنْ يُجازيَهم بالحَسَن من باب الأَوْلَى، وقيل: ليسَتْ للتفضيلِ، وكأنَّهم فرّوا مِنْ مفهوم أفْعل؛ إذ لا يلزَم من المجازاةِ بالأحسنِ المجازاةُ بالحَسَن، وهو وَهْمٌ لِما تقدَّم مِنْ أنَّه مِنْ مفهوم الموافقة بطريق الأَوْلى"(2)؛ و"قيلَ: مِنَ التَّنَفُّلِ بِالطّاعاتِ، وكانَتْ أَحْسَنَ؛ لِأنَّها لَم يُحَتَّم فِعْلُها، فكانَ الإنْسانُ يَأْتي بِالتَّنَفُّلاتِ مُخْتارًا غَيْرَ مَلْزوم بِها، وقيلَ: ذَكَرَ الأَحْسَنَ تَرْغيبًا في عَمَلِهِ، وإنْ كانَتِ المُجازاةُ عَلى الحَسَنِ والأَحْسَنِ.

وقيلَ: الأَحْسَنُ هُنا بِمَعْنى الحَسَنِ، فلَيْسَ أَفْعَلَ الَّتي لِلتَّفْضيلِ، والَّذي يَظْهَرُ أنَّ المُرادَ بِالأَحْسَنِ هُنا الصَّبْرُ؛ أَيْ: ولَيَجْزِيَنَّ الَّذينَ صَبَروا بِصَبْرِهِم؛ أَيْ: بِجَزاءِ صَبْرِهِم، وجَعَلَ الصَّبْرَ أَحْسَنَ الأَعْمالِ لِاحْتياجِ جَميعِ التَّكاليفِ إلَيْهِ، فالصَّبْرُ هو رَأْسُها، فكانَ الأحسن لذلك"(3).

وأجاد أبو السُّعود في توجيه دَلالةِ أفعل التَّفضيل؛ حيث قال مُفَسِّرًا لقوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾": أيْ: لَنَجْزِيَنَّهم بما كانوا

(1) ابن عَرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 47.
(2) السَّمين الحَلَبيُّ، الدُّرّ المَصون: 7/ 282.
(3) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 20/ 113.

يَعْمَلونَهُ مِنَ الصَّبْرِ المَذْكورِ، وإنَّما أُضيفَ إلَيْهِ الأَحْسَنُ لِلْإِشْعارِ بِكَمالِ حُسْنِه، كَما في قَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: 148] لا لإفادَةِ قَصْرِ الجَزاءِ عَلى الأَحْسَنِ مِنْهُ دونَ الحَسَنِ، فإنَّ ذَلِكَ مِمّا لا يَخْطِرُ ببالِ أَحَدٍ لا سِيَّما بَعْدَ قَوْلِه تَعالى: ﴿أَجۡرَهُم﴾ أَوْ ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ﴾ بِحَسَبِ أَحْسَنِ أَفْرادِ أَعْمالِهِمُ المَذْكورِ عَلى مَعْنى لِنُعْطِيَهم بِمُقابَلَةِ الفَرْدِ الأَدْنى مِن أَعْمالِهِمُ المَذْكورَةِ ما نُعْطيه بِمُقابَلَةِ الفَرْدِ الأَعْلى مِنها مِنَ الأَجْرِ الجَزيلِ، لا أَنّا نُعْطي الأَجْرَ بِحَسَبِ أَفْرادِها المُتَفاوِتَةِ في مَراتِبِ الحُسْنِ، بِأَنْ نَجْزِيَ الحَسَنَ مِنها بِالأَجْرِ الحَسَنِ، والأَحْسَنَ بِالأَحْسَنِ، وفيهِ ما لا يَخْفى مِنَ العِدَةِ الجَميلَةِ بِاغْتِفارِ ما عَسى يَعْتَريهِم في تَضاعيفِ الصَّبْرِ مِن بَعْضِ جَزَعٍ، ونَظْمِه في سِلْكِ الصَّبْرِ الجَميلِ، أَوْ لَنَجْزِيَنَّهم بِجَزاءٍ أَحْسَنَ مِن أَعْمالِهِم، وأَمّا التَّفْسيرُ بِما تَرَجَّحَ فِعْلُهُ مِن أَعْمالِهِم كالواجِباتِ والمَنْدوباتِ، أَوْ بِما تَرَجَّحَ تَرْكُهُ أَيْضًا، كالمُحَرَّماتِ والمَكْروهاتِ، دَلالَةٌ عَلى أَنَّ ذَلِكَ هو المَدارُ لِلْجَزاءِ دونَ ما يَسْتَوي فِعْلُهُ، وتَرْكُهُ كالمُباحاتِ؛ فلا يُساعِدُهُ مَقامُ الحَثِّ عَلى الثَّباتِ عَلى ما هم عَلَيْهِ مِنَ الأَعْمالِ الحَسَنَةِ المَخْصوصَةِ، والتَّرْغيبِ في تَحْصيلِ ثَمَراتِها، بَلِ التَّعَرُّضُ لإِخْراجِ بَعْضِ أَعْمالِهِم عَنْ مَدارِيَّةِ الجَزاءِ مِن قَبيلِ تَحْجيرِ الرَّحْمَةِ الواسِعَةِ في مَقامِ تَوْسيعِ حِماها"[1]، فـ"(أحسن) صيغةُ تفضيلٍ مُسْتَعْمَلَةٌ للمبالغة في الحُسْنِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: 33]، أيْ: بسبَبِ عملِهم البالغِ في الحُسْنِ، وهو عمل الدَّوامِ على الإسلام مع تَجَرُّعِ ألم الفتنة من المُشركين"[2].

سَعة عطاءِ الله للصّابرين

إيثارُ الموصول ﴿مَا﴾:

أوثر التَّعبيرُ بالموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 397 - 398.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 272.

للدَّلالة على سَعة عطاء اللّه للصّابرين وشُموله الفَرْضَ والواجبَ والمَندوبَ مِن أعمالهم الصّالحة.

وجه التعبير بفعل الكَوْن ماضيًا مجموعًا:

عُبِّر بفعل الكَوْن ماضيًا مجموعًا ﴿كَانُواْ﴾؛ للإيماء إلى رسوخ طاعتِهم للّه تعالى، وإلى أنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ ثابتةً في أعمال الخير.

رُسوخٌ في طاعة الله

سرُّ صَوْغِ الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مضارعًا مجموعًا:

صيغَ الفعلُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مضارعًا مجموعًا؛ للدَّلالة على استمرار طاعتِهم للّه تعالى وتجدُّدها، فالدَّوام صورةٌ للثَّبات المَرْغوب فيه، والمندوبِ له.

طاعة لله مُتجدِّدة لا تنقطع

إيثارُ الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دون غيره (يصنعون)، و(يفعلون):

وأوثر الفعلُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ غيره (يصنعون)، و(يفعلون)؛ "لأنَّ العملَ يحتاج إلى تَفَكُّر ومقارنة بين الفِعْل والتَّرْك، وتقليبِ النَّظر في صوَرِه واختيار ما يَهدي إليه النَّظَرُ فيها"[1]، ومِمّا لاشَكَّ فيه أنَّ هذا دَيدَنُ أهلِ الطّاعة، فهُم يعملون الأعمالَ الصّالحة، ويجتنبون الأعمالَ الَّتي تَجلب سَخَطَ رَبِّهم، كَما أنَّ العامل يَعْمَل؛ ليحصلَ على ثَمَرَةِ عمله، وهذا يتناسب مع قوله سبحانه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم﴾.

العَمل يحتاج إلى تَفَكُّرٍ ومقارنةٍ بين الفِعْل والتَّرْك

عِلَّة حَذْف متعلّق الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِف متعلِّق الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على شمول فضلِ اللّه، وحُسْنِ ثوابه لأعمالهم المقبولةِ عنْدَه سبحانه صغيرةً كانت أم كبيرةً، قليلةً أم كثيرةً.

الدَّلالة على شمول فضل الله، وحُسْن ثوابه

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(يعملون) و(يفعلون):

الفِعل: التأثير مِن جِهَة فاعلٍ مُؤَثِّر، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو

(1) عبد العظيم المطعنيُّ، دراسات جديدة في إعجاز القرآن الكريم، ص: 131.

أعمالهم مقصودةٌ تفكُّرًا، ورغبةً، ودوامًا

غيرِ إجادةٍ، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غير عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان من الإنسان والحيوان.

والفرقُ بين الفعل والعمل: أنَّ العملَ إيجادُ الأثر في الشَّيءِ، يُقال: فلانٌ يعمل الطّين خَزَفًا، ويعمل الأديم سِقاء، ولا يُقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ فِعْل الشَّيءِ عبارةٌ عما وُجِدَ في حالٍ كان قبلَها مقدورًا سواءٌ كان عن سببٍ أم لا، والفعل قدْ يُنْسَب إلى الحيوانات الَّتي يقع منها فِعْلٌ بغير قَصْدٍ، وقد يُنْسَب إلى الجمادات، والعملُ قَلَّما يُنْسَب إليهما[1].

والخلاصة أنَّ الفعل أعَمُّ للإنسان والحيوان، ويكونُ بقَصْدٍ وبغير قَصْدٍ، والعمل أخَصُّ، ويكون بِقَصْدٍ، ويُنْسَب للإنسان غالبًا، ولهذا اختير في سياق الآية؛ ليدلَّ على قَصْديَّة أعمالِهم، تفكُّرًا، ورغبةً، ودوامًا.

(1) الرّاغب، المفردات، مادتا: (فعل) و(عمل).

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نــوال الأجــر يــشــمــل كــلَّ مَــن ثَــبَــتَ على الإسلام والعملِ الصّالح

أشار ابنُ عاشور إلى مُناسَبَةِ الآيةِ الكريمة لِما قَبْلها بقوله: "لَمّا كانَ الوَعْدُ المُتَقَدِّمُ بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ خاصًّا بِأولَئِكَ الَّذينَ نُهوا عَنْ أنْ يَشْتَروا بِعَهْدِ اللّه ثَمَنًا قَليلًا؛ عَقَّبَ بِتَعْميمِهِ لِكُلِّ مَن ساواهم في الثَّباتِ عَلى الإسْلامِ والعَمَلِ الصّالِحِ مَعَ التَّبْيينِ لِلْأجْرِ، فكانَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ بِمَنزِلَةِ التَّذْييلِ لِلَّتي قَبْلَها، والبَيانِ لِما تَضَمَّنَتْهُ مِن مُجْمَلِ الأجْرِ، وكِلا الِاعْتِبارَيْنِ يوجِبُ فَصْلَهُما عَمّا قَبْلَهما"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ﴾: أصْلُ (حيّ): يدلُّ على خِلافِ المَوتِ[2]، والحَيُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: نَقيضُ المَيِّتِ؛ وحَيَّ، يَحْيا، فهو حَيٌّ؛ ومنه الحَيَوانُ: مقرُّ الحياةِ، ويُقالُ على ضربيْن: أحدهُما: ما له الحاسَّة، والثّاني: ما له البقاء الأبديُّ، وهو المذكور في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وقال بعضُ أهل اللُّغة: الحَيَوانُ والحياةُ واحدٌ[3]، وقيل: الحَيَوان: ما فيه الحياةُ، والموتان ما ليس فيه الحياةُ؛ والحَيا: المطر، لأنَّه يُحيي الأرضَ بعد موتها، والمقصودُ بالإحياءِ في الآية: إعطاءُ الإنسانِ ما به كمالُ الإنسانِ، فيَعُمُّ كُلَّ ما به ذلك الكمالُ، والمرادُ بالحياة الطَّيبة: وجوه الرّاحة كلّها من أيِّ جهةٍ كانت[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 272.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حيي).
(3) مروي عن قتادة، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (حيا).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 313، وطنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 231.

2) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: أصلُ (جزى): قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ غَيْرِه ومُكافأَتُه إيّاه، يُقالُ: جَزَيْتُ فُلانًا أجزيهِ جَزاءً، وجازَيْتُه مُجازاةً[1]؛ وقد ورَدَ الجزاءُ في القرآن على ستَّة أوجهٍ: الأوّل بمعنى: المكافأةِ والمقابلةِ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾ [الليل: 19]، أي: تُقابَل، والثّاني بمعنى: الأداءِ والقضاءِ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، أيْ: لا تَقْضي ولا تؤدّي، والثّالث بمعنى: الغُنْيَة والكِفاية ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان: 33]، والرّابع بمعنى: العِوَض والبَدَل ﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: 95]؛ أيْ: فبَدلُه ومُبْدَله، والخامس: بمعنى خَراج أهل الذِّمَّة ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29]، السّادس بمعنى: ثواب الخَير والشَّرِّ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ [غافر: 17][2]، والمقصود بالجَزاءِ في الآية: المُكافأةُ على عَمَلٍ حَسَنٍ بِشيءٍ مِثلِه في الحُسْنِ.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الـتَّرغـيـب في المـثـابـرة على أداء الطّاعات وعمل الواجبات الدِّينيَّة

يُخبر اللّهُ تعالى المؤمنين بوَعْدِه لهم بالحياة الطَّيبةِ في الدّارَيْن، فقال: مَن عَمِلَ عمَلًا صالِحًا خالِصًا لله، موافِقًا للقُرآنِ والسُّنّة - ومن ذلك الوَفاءُ بالعُهودِ - من ذَكَرٍ أو أُنثى، وهو مؤمِنٌ باللهِ ورَسوله، مُصَدِّقٌ بوَعدِ اللهِ ووَعيدِه، فلنُحيينَّه في الدُّنيا حياةً سَعيدةً، وذلك بما يجِدُه من حلاوةِ الإيمان، والأُنْسِ بالله تعالى، والتَّلذُّذِ بعبادته، وطُمأنينةِ قَلبِه، وسُكونِ نَفسِه، وبما يَرزُقُه اللهُ من الرِّزقِ الحلالِ الطَّيبِ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، معَ القناعةِ به، ثمَّ هو بعد ذلك يُجزى في الآخرة أحسنَ الجزاء، ويُثاب أجملَ الثَّواب، جزاءَ ما قدَّم من عَمَلٍ صالحٍ، وتحَلَّى به من إيمانٍ صادقٍ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(2) الرّاغب، المفردات: (جزا)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 380.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 350، 354، 355، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/ 419، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 601، والقاسميُّ، محاسن التَّأويل: 6/ 407، والسَّعديُّ، تفسير الكريم الرَّحمن، ص: 449، والمراغيُّ، تفسير المراغيِّ: 14/ 138.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصْلِ صدرِ الآية:

الآية فيها تبيينٌ لإجمال الأجر في سابقتها، وتعميمٌ لمن يناله هذا الأجر

فُصل قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ عن الآية السّابقة ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فلم يقل: (ومن عمل صالحًا)؛ وذلك لأنّها محمولةٌ على كمال الاتِّصال، فهي بمنزلة البيان للآية السّابقة؛ إذ لمّا كان الوعد بالأجر في الخطاب السابق خاصًّا بالذين نُهوا أن يشتروا بعهد الله تعالى ثمنًا قليلًا، فصبروا، وانتهوا عن ذلك؛ جاء قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ مبيِّنًا أن الله ﷻ يُجازي بالأجر الأحسن كلَّ من يعمل عملًا صالحًا من ذكر وأنثى على سبيل التعميم، وكما أنَّ فيه تعميمًا من ناحية جنس الموعود لهم بالأجر، فإنَّ فيه كذلك تبيينًا لمُجمل الأجر الموعود، بذكر الحياة الطيبة.

الآيةُ جوابٌ لسؤالٍ أوجبه اختصاصُ الآيةِ السابقة بالصابرين وإجمالُ أجرهم فيها

ويجوز أن تكون محمولةً على شبه كمال الاتِّصال، أي: على الاستئناف البيانيِّ، على افتراض سؤالٍ: إن كان هذا مآل من صبر وانتهى عن المنهيِّ سابقًا، فما جزاءُ كُلِّ من صَبَرَ وعمل الصّالحات؟ وكيفَ هذا الجزاءُ؟ فكانت هذه الآية جوابًا شافيًا؛ والاعتباران متآيلان في المعنى؛ إذ الآية بيانٌ كاشف للمتقدِّمة، وهي بمنزلة التذييل لها والتعقيب عليها[1].

فائدة التَّصْريح بالذَّكَر والأُنْثى مع دلالة ﴿مَنۡ﴾ على العموم:

صُرِّح بالذَّكَر والأُنْثى مع دلالة ﴿مَنۡ﴾ على العموم؛ "لأنَّ هَذِه الآيَةَ لِلْوَعْدِ بِالخَيْراتِ، والمُبالَغَةُ في تَقْرِيرِ الوَعْدِ مِن أعْظَمِ دَلائِلِ الكَرَمِ والرَّحْمَةِ؛ إثْباتًا لِلتَّأْكِيدِ وإزالَةً لِوَهْمِ التَّخْصِيصِ"[2]؛ أيَ: تخصيصُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 14/ 272.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 113، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 190.

ذِكْرُ الأُنثى فيه فضلُ حَثٍّ وتحضيضٌ لَها على عَمَل الصّالح؛ لِتَطيب حياتُها

الجزاءِ بالحياة الطَّيِّبة والأجرِ الجَزيل لتَبادُرِه من ظاهر لَفْظ (مَنْ)، لأنَّ لَفْظ (مَنْ) ظاهرٌ في الذُّكور؛ فكان في التَّنصيص على الذَّكر والأُنثى بيانٌ لشموله للنَّوعين[1]، فالخِطاب يَشْمل الذَّكَرَ والأُنْثى، فيُدخَلُ الذَّكَرُ ابتداءً، وتُدخَل الأُنْثى بقانون الاطمئنانِ، وهذه تَهمُّ الأُنْثى بالذّات، فكان ذِكْرُ الأُنْثى فيه فضْلُ حَثٍّ وتحضيضٍ لَها على عَمَل الصّالح، لِتَطيب حياتُها بسعادةٍ واطمئنانٍ في ظِلِّ زوجٍ صالحٍ[2].

مِن عَدْلِ الإسلام تَساوي الذَّكَرِ والأُنْثى في أحكامه

قال ابن عاشور: "وقَوْلُه تَعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ تَبْيِينٌ لِلْعُمومِ الَّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ ﴿مَنۡ﴾ المَوْصولَة، وفي هَذا البَيانِ دَلالَةٌ عَلى أنَّ أحْكامَ الإسْلامِ يَسْتَوي فيها الذُّكورُ والنِّساءُ، عَدا ما خَصَّصَه الدّينُ بِأحَدِ الصِّنْفَيْنِ"[3].

بلاغةُ التَّتميم:

العرب تُغلِّب لفظَ الذُّكور على الإناث

في قوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ تَتْميمٌ؛ لأنَّ ﴿مَنۡ﴾ - موصولةً كانت أو شرطيَّة - تفيد العُمومَ، فكان لا بدَّ من تَتْميمِها بالذَّكر والأُنْثى؛ للتَّأكيد، ولإزالة لوهم التَّخصيص جَرْيًا على مُعْتَقَدات العربِ القديمة في تفضيل الذَّكرِ على الأُنْثى وإيثاره بكلِّ ما هو خيرٌ[4]؛ فالنِّساء لا يَدْخُلنَ لفظًا في أكثر الأحكام والمُحاوراتِ لا سيَّما أنَّه في هذا الموضع قد عاد عليه ضميرٌ مُذكَّر[5] في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾.

وَجْه التَّعبير عن العمل بصيغة الماضي:

الصّالح ما يَصْلُح للقبول على الوجه الَّذي أمَرَ الله به

وَجْهُ التَّعبير عن العمل بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ الدَّلالةُ على تَحَقُّق عَمَلِ الأعمالِ الصّالحة، والمُسارعةِ إليها.

(1) الشِّهاب، عناية القاضي: 5/ 366، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 398، والشَّوكانيُّ، فتْح القدير: 2/ 801، وصِدِّيق خان، فتْح البَيان: 7/ 312.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4264.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 273.
(4) صافي، الجدول: 14/ 385 - 386، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 363.
(5) الشِّهاب، عناية القاضي: 5/ 366.

سِرُّ حَذْفِ المفعول به، وتنكير النَّعْت:

تَحْرِيضُ كافَّةِ المُؤْمِنِينَ عَلى كُلِّ عَمَلٍ صالِحٍ

حُذِف المفعولُ به مِن قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ أيْ: عَمَلًا صالِحًا، ونُكِّر النَّعتُ ﴿صَٰلِحٗا﴾؛ لِترغيب المؤمنين في أيِّ عَمَلٍ، كانَ صغيرًا أو كبيرًا، بِشرط صلاحه، وألّا يتركوا بابًا مِن أبواب الخير إلّا وطرقوه؛ وفي هَذا أَيْضًا "شُروعٌ في تَحْرِيضِ كافَّةِ المُؤْمِنِينَ عَلى كُلِّ عَمَلٍ صالِحٍ غِبَّ تَرْغِيبِ طائِفَةٍ مِنهم في الثَّباتِ عَلى ما هم عَلَيْهِ مِن عَمَلٍ صالِحٍ مَخْصوصٍ دَفْعًا لِتَوَهُّمِ اخْتِصاصِ الأجْرِ المَوْفورِ بِهِم، وبِعَمَلِهِمُ المَذْكورِ"[1].

وأضاف أبو زهرة: "ونَكَّر ﴿صَٰلِحٗا﴾، والموصوف والعمل غيرُ مذكور سواءٌ أكان مُقَدَّرًا أم كان غَيْرَ مُقَدَّر؛ وذلك لِيتَّجه النَّظرُ إلى نيَّة الصَّلاح والمصلحة في العمل، فإنَّ الاعتبارَ للنّيَّة كَكُلِّ خَيْرٍ في قانون الأخلاقِ العِبْرَةُ فيه إلى النّيَّة، كما قال ﷺ: "إنّما الأعمالُ بالنّيات وإنَّما لِكُلِّ امرئٍ ما نوى""[2].

دلالة ﴿مِّن﴾:

(مِن) للبيان والحال

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ بيانيَّةٌ، مُتَعَلِّقة بفعل محذوفٍ تقديرُه: (أَعْني مِنْ ذكرٍ أو أنثى)، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِنْ فاعل ﴿عَمِلَ﴾[3].

بلاغة الجناس بين ﴿مَنۡ﴾ و﴿مِّن﴾:

إثراء النَّظم بالمحسِّنات سبيلُ تناغمٍ وتوازنٍ وجمالٍ

في جملة ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ جِناسٌ تامٌّ مُحَرَّفٌ بَيْنَ ﴿مَنۡ﴾، و﴿مِّن﴾؛ لاختلافهما في الحركة: الفتحة والكسرة، أَكْسَب الجملة جمالًا لفظيًّا بما أحدثه مِن إيقاعٍ، وتناغمٍ وتوازنٍ في الجملة القرآنيَّة.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 398، وصِدِّيق خان، فتْح البَيان: 7/ 312.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4264، والحديث رواه البخاريُّ، في صحيح البخاريِّ، عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.
(3) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المَصون: 7/ 282، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 12/ 153.

الوَعْد الإلهيّ بالجزاء الأوْفى لِكُلِّ مَن عَمِل صالِحًا دون تمييز

نُكْتة تنكير الذَّكَر والأُنْثى:

نُكِّر (الذَّكَر) و(الأنثى) في قوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ للتَّعميم، فالوعدُ في الآية بالجزاء الأوفى مِن الله تعالى لِكُلِّ مَن عَمِل صالِحًا مِن عِباده المُؤمنين دونَ تمييزٍ بين ذَكرٍ أو أُنْثى، ولا اعتبارَ لِحَسَبٍ، ولا نَسَبٍ، أو جاهٍ، أو مالٍ، أو جِنْسٍ، أو لَوْنٍ.

وجوبُ أن يكون الرِّجالُ قدوةً للنِّساء في العبادة، وأعمالِ الخير

سرُّ تقديم الذَّكَر على الأُنْثى:

قُدِّمَ الذَّكَرُ على الأُنْثى للتَّفضيل؛ وللإشارة إلى أن الرَّجُل يَجِب أن يكون قدوةً للمرأة في العبادة، وأعمالِ الخَيْر، والتَّسابقِ فيها؛ فضلًا عن كوْنِه الأسبقَ في ابتداء التَّخليقِ والإيجادِ، إذ وقع بآدمَ عليه السلام.

تساوي الذَّكَر والأُنثى في الثَّواب والجزاء

وجْهُ العطف بـ ﴿أَوْ﴾ دون الواو:

أوثر العطفُ بـ ﴿أَوْ﴾ دون الواو: للدَّلالة على التَّنويع؛ وإذا ما تَوَفَّر الإيمانُ، فقد استوى الذَّكَرُ والأُنْثى في الثَّواب والجزاء.

دلالة الواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حاليَّةٌ، والتَّقدير: (مَن عَمِلَ صالِحًا مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى حالةَ كوْنِه وهو مؤمنٌ).

سِرُّ التَّعبير بالضَّمير المفرد: (هو):

عُبِّر بالضَّمير المفرد (هو) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حملًا على لفظ ﴿مَنْ﴾ - والمعنى راسخٌ في هذا الوصف - بعد التَّعميم الدّال عليه ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ للإشارة بالإفْرادِ إلى قِلَّةِ الرّاسِخينَ في التَّلَبُّس بالأعمال الصّالحة[1].

الإيمان شرط قبول الأعمال

وَجْه تَنْكير ﴿مُؤْمِنٌ﴾:

والتَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ للتَّعظيم، ولتَشريف المؤمن الَّذي يحقِّق شَرْطَ قبولِ الأعمالِ.

---

(1) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 248.

دلالة الجملة الاسميَّة الحاليَّة: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾:

وجوبُ دوامِ الإيمان لِقبول العملِ الصالحِ

وقُيِّدَ الخبرُ بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ لأنَّ الإيمان شَرْطُ قَبولِ الأعمالِ، إذ "لا اعْتِداد بِأعْمالِ الكَفَرَة في اسْتِحْقاقِ الثَّواب، أوْ تَخْفيفِ العَذاب، لِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23]، وصفاءُ الحال يسْتَوْجِب وفاءَ المآل، والعملُ الصّالح لا يكون من غير إيمانٍ؛ لذا قُيِّد بالجملة الاسميَّةِ ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، وإيثارُ إيرادِهِ بِالجُملَةِ الاِسْمِيَّةِ الحاليَّةِ عَلى نَظْمِهِ في سِلْكِ الصِّلَةِ؛ لإِفادَةِ وُجوبِ دَوامِهِ، ومُقارَنَتِه لِلْعَمَلِ الصّالِحِ"[1].

إيثار لَفْظ الإيمان على الإسلام:

الإيمان درجةٌ أعلى من الإسلام

أوثر لَفْظُ الإيمانِ على الإسلام؛ للدَّلالة على أنَّ الإيمانَ درجةٌ أعلى مِن الإسلام، والإيمان قرينُ العمل، وهو: قولٌ باللِّسان، وإخلاصٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح؛ يزيد بزيادة الأعمالِ، وينقُص بنَقْصِ الأعمالِ، ومن هنا ناسب اختيارُه في سياق ذكرِ العملِ الصّالح[2].

بلاغة التَّتْميم:

ينعَمُ المؤمنُ بالعمل الصّالح موسِرًا كان أو مُعْسِرًا

أصاب الزَّمخشريُّ أحسنَ الإصابةِ في بيان بلاغة التَّتْميم في جملة: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾؛ إذ قال: "وذلك أنَّ المؤمنَ مع العمل الصّالح موسِرًا كان أو مُعْسِرًا يعيش عَيْشًا طَيِّبًا: إن كان موسِرًا فلا مَقالَ فيه، وإنْ كان مُعْسِرًا فمَعَه ما يَطيب عَيْشُه، وهو القناعةُ والرِّضا بِقِسْمَةِ الله؛ وأمّا الفاجرُ فأمرُه على العكس: إنْ كان مُعْسِرًا فلا إشْكالَ في أمره، وإنْ كان موسرًا فالحرصُ لا يَدَعُه أنْ يهنأ بِعَيْشِه"[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 398، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 227، وصدّيق خان، فتح البيان: 7/ 312.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 258.
(3) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 3/ 472.

دلالة الفاء:

سُرعة تحقُّق الوعدِ الإلهي بالحياة الطَّيِّبة

(الفاء) في جواب الشَّرط أو ما هو معنى الشَّرط، وهو الموصول، قد دلَّت على فوريَّة تحَقُّقِ الوعدِ الإلهيِّ بالحياة الطَّيِّبةِ للمؤمِنين الَّذين يعملون الصّالحات.

دلالة اللّام:

اللّام المَوطِّئة للقَسَم

اللّام في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ﴾: لامُ القَسَم لِقَسَم مُقدَّرٍ يحذفونه كثيرًا استغناءً لدَلالة الجوابِ عليه، وتدخل للمُبالَغة والتَّوكيد، وتحقيقِ العزمِ على القيام بالفعلِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارع المؤكَّد باللّام ونون التَّوكيد الثَّقيلة:

مَزيدُ ترغيب في العمل الصّالح

وقد أكَّد سبحانه قولَه: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ بالقَسَم، وباللّام المَوطِّئَةِ لِلْقَسَم، وبنون التَّوكيدِ الثَّقيلة: ليدُلَّ تعالى على أنَّه يُحْيي حياةً طَيِّبَةً موسومةً بالدَّوام كلَّ مَنْ عَمِلَ صالحًا، ليزدادوا بِشْرًا وحُبورًا؛ وفيه مزيد ترغيب في الإقبال على العمل الصّالحِ.

وَجْه إسنادِ الإحْياء إلى ضمير الجلالة:

تَشْريف الوَعْد الإلهيِّ

في إسْنادِ الإحْياءِ إلى ضَميرِ الجَلالَة: تَشْريفٌ للوَعْد، "كَأَنَّهُ قيلَ: فلَهُ حَياةٌ طَيِّبَةٌ مِنّا"[1]، وأَنْعِم بحياةٍ يَمُنُّ بها الله تعالى، ويَعِدُ بها عبادَه الصّالحين!

نُكْتَة تنكير (الحياة):

التَّنكير للتَّعظيم والتَّفخيم

نُكِّرَت ﴿حَيَوٰةٗ﴾ للتَّعْظيم والتَّفْخيم بدليل وَصْفِها بـ﴿طَيِّبَةٗۖ﴾؛ "وذلك بطُمَأْنينَةِ قلبِه، وسكونِ نَفْسِه، وعدمِ التِفاتِه لِما يُشَوِّش عليه قَلْبَه، ويرزقُه الله رزقًا حلالًا طيِّبًا من حيث لا يَحْتَسِبُ"[2].

فائدة الوَصْف بالنَّكِرة ﴿طَيِّبَةٗۖ﴾:

تَعْميم وُجوه الرّاحة في الحياة الموعودة

فائدة الوَصْف بالنَّكِرة: ﴿طَيِّبَةٗۖ﴾ الإشارةُ إلى أنَّها تَشْمَلُ وُجوه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 273.

(2) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمٰن: 13/ 497.

الرّاحَةِ مِنْ أيِّ جهة كانت، مع أنَّ أكْثَرَ المُفَسِّرينَ عَلى أنَّ هَذِهِ الحَياةَ الطَّيِّبَةَ هي في الدُّنْيا لا في الآخِرَةِ؛ لِأنَّ حَياةَ الآخِرَةِ قَدْ ذُكِرَتْ بِقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1]، وذَكَرَ الماورديُّ سبعةَ تأْويلاتٍ للمقصودِ بالوصف ﴿طَيِّبَةً﴾: **أحَدُها**: أنَّها الرِّزْقُ الحَلالُ، قالَهُ ابْنُ عَبّاسٍ، **والثّاني**: أنَّها القَناعَةُ، قالَهُ عَليُّ بْنُ أبي طالِبٍ ﷺ والحَسَنُ البَصْريُّ، **والثّالِثُ**: أنْ يَكونَ مُؤْمِنًا باللّه عامِلًا بِطاعَتِه، قالَهُ الضَّحّاكُ، **والرّابِعُ**: أنَّها السَّعادَةُ، وهَذا مَرْويٌّ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ أيْضًا، **والخامِسُ**: أنَّها الجَنَّةُ، قالَهُ مُجاهِدٌ وقَتادَةُ؛ ويَحْتَمِلُ **سادِسًا**: أنْ تَكونَ الحَياةُ الطَّيِّبَةُ العافيَةَ والكِفايَةَ؛ وَيَحْتَمِلُ **سابِعًا**: أنَّها الرِّضا بِالقَضاءِ[2].

بلاغةُ المجاز العقليّ في وصف الحياة بالطَّيِّبة:

الحياةُ الطيِّبةُ بِلُزومِ طِيبِ ما فيها

لَمّا كانَتْ حَياةُ الذّاتِ لَها مُدَّةٌ مُعَيَّنَةٌ، كَثُرَ إطْلاقُ الحَياةِ عَلى مُدَّتِها، فوَصَفَها بِالطِّيبِ بِهَذا الاعْتِبارِ، أيْ: طَيِّبٌ ما يَحْصُلُ فيها، وما يُحَصَّلُ؛ فهَذا الوَصْفُ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ مَجازٌ عَقْليٌّ بعلاقة المكانيَّة، أيْ: طَيِّبًا ما فيها، ويُقارِنُها مِنَ الأحْوالِ العارِضَةِ لِلْمَرْءِ في مُدَّةِ حَياتِهِ؛ فمَن ماتَ مِنَ المُسْلِمينَ الَّذينَ عَملوا صالِحًا، عَوَّضَهُ اللّه عَنْ عَمَلِه ما فاتَهُ مِن وعْدِه[3].

بلاغةُ الجناسِ الاشتِقاقيِّ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً﴾:

بَيانُ نَوْعِ الحَياةِ الموعودة

في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً﴾ جِناسُ الاشتقاق، حيث اتَّفقت اللَّفظتان في مادَّة الاشتقاق (حَيَ)؛ وبلاغة هذا الجناس أنَّه عُبِّر به لِيُبْنَى عَلَيْهِ بَيانُ نَوْعِ الحَياةِ بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[4].

(1) الشَّوكانيُّ، فتْح القدير، ص: 801.
(2) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 3/ 212.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 273.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 273.

سرُّ التَّعبير بالمضارع المؤكَّد باللّام ونون التَّوكيد الثَّقيلة:

أكّد الجزاءَ الموعودَ الدّائم

عُبِّرَ بالمضارع المُؤكَّد باللّام ونون التَّوكيد الثَّقيلة: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ لتأكيد الجزاءِ الموعود؛ وللدَّلالة على أنَّ الجزاء غيرُ مُنقَطِع، بل هو من الله تعالى دائمٌ مستمرٌّ؛ وبيان أنَّ الجزاءَ كائنٌ في المُستقبل.

بلاغةُ الالتِفاتِ من ضميرِ الإفْرادِ ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ﴾ إلى ضمير الجَمع ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾:

الإفْرادُ والجَمعُ مراعاة لِنَوْعِ الحياة

يعود الضَّميرُ على الذَّكَر أو على الأنْثى، والحديثِ عن الحياة الدُّنْيا، إذ يُحَيي كلًّا منهما حياةً مستقلَّةً على انفِرادٍ، ولذلك أُفْرِدَ الضَّمير؛ أمّا جَمعُ الضَّمير في ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ فلِكَوْنِه حديثًا عن الجزاءِ في الآخرةِ، وهُم هناك مُجتمِعون.

سِرُّ العُدول مِن التَّصْريح إلى الضَّمير ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾:

علَّة المُغايَرة دفْعُ الإيهامِ

الحديثُ في الآية السّابقة شمَل العِنْديَّة عنْدَ النّاس وعنْدَ اللّه تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ولذلك خصَّص الجزاءَ بالَّذين صبروا؛ لأنَّ في إطلاقِه ما يوهِمُ بشمول الجميع بالأجرِ، أمّا في هذه الآيةِ؛ فالحديثُ عن مَن عمل صالحًا، فلا إيهامَ في الأمر ولا إلْباسَ؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾.

فائدة تكرار جملةِ الفاصلةِ:

تَفَضُّل الله تعالى على عِباده بجزيلِ العطاءِ، وعظيمِ الثَّواب

دَلَّ تكرارُ جملةِ الفاصلةِ: ﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ على التَّأكيد على جزيل عطائِه سبحانه، وعظيمِ ثوابِه لعبادِه المُؤمنين بإعطائِهم على أدْنى ما يعملون مِن الصّالحاتِ كَما يعطيهم على أعلاها تَفَضُّلًا منه سبحانه وكَرَمًا.

سرُّ التَّعبير بالفعلِ (كان) مع الفعل المضارع:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جاء بفعل الكَيْنونة ماضيًا مع جَعْلِ خبرِه فعلًا مضارعًا للدَّلالة على أنَّ تلك الأفعالَ كانت دِيدَنَهم،

حُسْنُ أفعالِهم سَجاياهم، وجميلُ خِصالِهم

فاستحقّوا أنْ يجازيَهم اللّه تعالى جزاءَ العملِ الَّذي كانوا مواظِبين عليه؛ فالفعلُ المضارع يدلُّ على التَّجدُّد والتَّكرار، و(كان) يدلُّ على رسوخ العملِ فيهم؛ فجمع بين الصّيغتيْن للدَّلالة على استمرارِهم على هذه الأفعالِ منذ الأزْمِنَة الماضية، وكأنَّها طبعٌ فيهم وسجيَّةٌ.

دلالة الجَمع في الضَّمائر:

الاشــتراك في الحياة الطَّيِّبة، والـتَّـفـاوت في الجزاء

كَشَفَ الآلوسيُّ عن دَلالة الجَمع في الضَّمائر بِما لا مَزيدَ عليه بقوله: "والجَمعُ في الضَّمائِرِ العائِدَةِ إلى المَوْصولِ لِمُراعاةِ جانِبِ المَعْنى، كَما أنَّ الإفْرادَ فيما سَلَفَ لِرعايَةِ جانِبِ اللَّفْظِ، وإيثارُ ذَلِكَ عَلى العَكْسِ بِناءً عَلى كَوْنِ الإحْياءِ حَياةً طَيِّبَةً في الدُّنْيا وجَزاءَ الأجْرِ في الآخِرَةِ لِما أنَّ وُقوعَ الجَزاءِ بِطَريقِ الاجْتِماعِ المُناسِبِ لِلْجَمعيَّةِ ووُقوعِ ما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ بِطَريقِ الافْتِراقِ والتَّعاقُبِ المُلائِمِ لِلْأفْرادِ، وقيلَ: بِناءً عَلى كَوْنِ ذَلِكَ في الآخِرَةِ: إنَّ الجَمعَ والإفْرادَ لِما تَقَدَّمَ، وكَذا إيثارُ ذَلِكَ عَلى العَكْسِ، فيما عَدا ضَميرِ ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ﴾، وإمّا في ضَميرِهِ، فلِما أنَّ الإحْياءَ حَياةً طَيِّبَةً بِمَعْنى ما سَلِمَتْ مِمّا تَقَدَّمَ أمرٌ واحِدٌ في الجَميعِ، لا يَتَفاوَتُ فيهِ أهْلُ الجَنَّةِ، فكَأنَّهم في ذَلِكَ شَيْءٌ واحِدٌ، ولَمّا لَم يَكُنِ الجَزاءُ كَذَلِكَ، وكانَ أهْلُ الجَنَّةِ فيهِ مُتَفاوِتينَ؛ جيءَ بِضَميرِ الجَمعِ مَعَهُ، فتَأمَّلْ كُلَّ ذَلِكَ"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحياة والمعيشة:

لـفـظُ الـحـيـاةِ يدلُّ على معاني الاستقرارِ والأمنِ وراحةِ البالِ

الحياةُ: ضدُّ الموت، ويُستعمل حقيقةً ومجازًا، نحو: مات الإنسانُ، وماتتِ الأرضُ؛ كذلك الحياةُ، نحو: أَحْيا اللّه فلانًا، وأحيا الأرضَ بعد موتها[2]، ويدلُّ أصلُها على شَيْئَيْن: أحَدُهُما خِلافُ المَوْتِ، والآخَرُ الاِسْتِحْياءُ الَّذي هو ضِدُّ الوَقاحَة[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 228.

(2) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفّاظ: حَيَيَ.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: حَيَيَ.

العَيْشُ: يدُلُّ أصلُه عَلَى حَياةٍ وبَقاءٍ[1]، والعَيْش والمَعيشة: ما يُعاش به، أو ما تكون به الحياةُ، وهو أخصُّ من الحياة[2].

الفرقُ بَيْنَ العَيْش والحياة: أنَّ العَيْش اسمٌ لِما هو سَبَبُ الحياة مِن الأكل والشُّرب وما بسبيل ذلك، وقولُهم: مَعيشَةُ فلان مِن كذا، يعنون: مأكلَه ومشربَه مِمّا هو سَببٌ لِبقاء حياته، فلَيْس العَيْشُ مِن الحياة في شيءٍ[3]؛ والحياة تدلُّ على معاني الاستقرارِ والأمنِ وراحةِ البالِ، وأمّا المَعيشَةُ فتدلُّ على معاني التَّعَبِ والسَّعْيِ والشَّقاءِ والضَّنْكِ وغيرِ ذلك، ومن هنا اختيرَ لفظُ الحياة في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: عَيَشَ.

(2) الرّاغب، المفردات: عَيَشَ.

(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 82.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾

[النحل: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستِعاذَة تصونُ قارئَ القرآنِ من الوسوسة

لَمّا ذَكَرَ تَعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وذَكَرَ أشْياءَ مِمّا بَيَّنَ في الكِتابِ، ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَهُ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾، فأرشَدَ إلى العَمَلِ الَّذي بِهِ تَخْلُصُ أعْمالُهُ عَنِ الوَساوِسِ، وما يَصونُ بِهِ القارِئُ قِراءَتَهُ مِن وسْوَسَةِ الشَّيْطانِ ونَزْغِه؛ فخاطَبَ السّامِعَ بِالاسْتِعاذَةِ منهُ إذا أخَذَ في القِراءَةِ؛ فإنْ كانَ الخِطابُ لِلرَّسولِ ﷺ لَفْظًا، فالمُرادُ أُمَّتُهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾: (عوذ): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهو الالتِجاءُ إلى غَيْرِه والاعتِصامُ بِهِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه كُلُّ شَيْءٍ لَصِقَ بِشَيْءٍ، أوْ لازَمَهُ؛ قالَ الخَليلُ: تقولُ: أعوذُ باللهِ - جَلَّ ثَناؤُهُ - أيْ: أَلْجَأُ إليه تَبارَكَ وتَعالى عَوْذًا أو عِياذًا؛ وذَكَرَ أيْضًا أنَّهُم يَقولونَ: فُلانٌ عِياذٌ لَكَ أيْ: مَلْجَأٌ[2]؛ والعَوذَةُ والمَعاذَةُ: الَّتي يُعَوَّذُ بِها الإنسانُ مِن فزَعٍ أوْ جُنونٍ[3]؛ وضِدُّ العَوْذِ: اللَّوْذُ، وهو طَلَبُ الخَيْرِ؛ والمَعاذُ: المَلْجَأُ والحِصْنُ[4]. والمقصودُ بالعَوْذِ في الآيةِ: اللَّجَأُ إلى ما يَعْصِمُ ويَقي مِنْ أمرٍ مُضِرٍّ؛ والمُراد به: طَلَبُ العَوْذِ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ[5].

2) ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: (شطن): أصْلٌ مُطَّرِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على البُعْدِ؛ يُقالُ: شَطَنَتِ الدّارُ تَشْطُنُ شُطونًا إذا غَرَبَتْ؛ ونوًى شَطونٌ، أي:

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 20/ 116، وأبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 517.
(2) الخليل، والعين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عوذ).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 275.

بَعيدَةٌ[1]؛ والشَّيْطانُ: اسْمٌ لِلْجِنّيِّ الكافِرِ المَخْلوقِ مِن النّارِ، مَأْخوذٌ مِن الشَّطَنِ، وهو: البُعْدُ، أيْ: بَعُدَ عن الخَيْرِ؛ أو مِن الحَبْلِ الطَّويلِ[2]، كأنَّه طالَ في الشَّرِّ، ومنه سُمّيَ بذلك لِبُعْدِهِ عن الحَقِّ وتَمَرُّدِهِ؛ وكُلُّ عاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِن الجِنِّ والإنْسِ والدَّوابِّ فهو شَيْطانٌ، يُقال: شَيْطَنَ الرَّجلُ، وتَشَيْطَنَ: إذا صارَ كالشَّيطانِ، وفَعَلَ فِعْلَه؛ وقيلَ: مَأْخوذٌ من شاطَ، يَشيطُ إذا هَلَكَ واحْتَرَقَ[3]، والمقصود بـ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ في الآية: اسْمٌ لِلْجِنّيِّ الكافِرِ المَخْلوقِ مِن النّارِ.

3) ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: (رجم): أصلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إلى وجْهٍ واحِدٍ، وهو الرَّميُ بِالحِجارَةِ، ثُمَّ يُسْتَعارُ ذَلِكَ؛ مِن ذلكَ الرِّجامُ، وهيَ الحِجارَةُ، يُقالُ: رُجِمَ فُلانٌ إذا ضُرِبَ بالحِجارَةِ[4]؛ والرَّجَمُ - بفتْحِ الجيم -: القَبْرُ، سُمّيَ رَجَمًا لما يُجْمَعُ عليهِ من الأحْجارِ والرِّجامِ[5]؛ والرَّجْمُ أيضًا: السَّبُّ والشَّتْم، ومنه قَوْلُه تعالى حكايةً عَن أبي إبراهيم لابنِهِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦﴾ [مريم: 46]، أي: لأَسُبَّنَّكَ، وأَشْتُمَنَّكَ؛ والرَّجْم كذلك: اسْم لما يُرْجَمُ بِهِ الشَّيْءُ المرجومُ، وجمعه: رُجومٌ؛ والرَّجيم في نعت الشَّيْطان: المرجومُ بالنُّجوم[6]؛ والرَّجيمُ أيضًا: المُحَقَّرُ، لأنَّ العَرَبَ كانوا إذا احْتَقَروا أحدًا حَصَبوهُ بِالحَصْباءِ[7]، والمرادُ بـ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ في الآية: المَطْرودُ، وهو كنايَةٌ عَنِ الحَقارَةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الالتجاءُ إلى الله تعالى والاعتصامُ به من وسْوَسةِ الشَّيطان

الخطابُ في الآية وما ماثَلها من الآيات موجَّهٌ إلى كلِّ مُكلَّفٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شطن).
(2) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (شطن).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيديُّ، تاج العروس: (شطن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجم).
(5) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 30.

يبلِّغه، وأوَّلهم الرَّسول ﷺ؛ وقيل: إنَّه موجَّهٌ إلى الرَّسول، والمُرادُ أُمَّته؛ يقولُ الحقُّ سبحانه: فإذا أردْتَ قِراءةَ القُرآنِ - يا مُحمَّدُ ﷺ - فالتَجِئْ إلى المَعبودِ الحقِّ سُبحانَه، واستَجِرْ به مِنْ كُلِّ جانٍّ مُتمَرِّدٍ مَطرودٍ عن كلِّ خَيرٍ، حتَّى لا يَصرِفَك بوَساوِسِه عن تدبُّرِ القُرآنِ والانتفاعِ به(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالفاء:

الاستعاذةُ مِن جملة الأعمال الصّالحة الَّتي يجزِلُ اللهُ عليها الثَّواب

الفاءُ في صَدْرِ الآية تفريعيَّة، وأبانَ الزَّمخشريُّ عن وجْه بلاغةِ الوَصْلِ بها، فقال: "لمّا ذكَر العملَ الصالح، ووَعَدَ عليه؛ وصَل به قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ إيذانًا بأنَّ الاستعاذةَ من جُملَةِ الأعمالِ الصّالحةِ الَّتي يجْزِلُ اللهُ عليها الثَّواب"(2)؛ ولأنَّ قراءةَ القرآنِ الكريم مِن أفضل الأعمالِ، فطَلَبَ الاستعاذةَ عِنْدَ قراءته ليُحْفَظ مِن الضَّياع المُتَرَتِّب على الوَساوِس الشَّيطانيَّة، والمعنى: إذا عَلِمت أنَّ جزيل الجَزاءِ وعظيمَ الأجر على فضائل الأعمالِ ومحاسنِها؛ فاستعذْ باللهِ من الشَّيطان الرَّجيمِ عنْدَ قراءة القرآنِ الَّذي هو أحسنُ الأعمالِ، وأزكاها(3).

أُتْبِعَ إنزالُ الكتاب الجامع لصفات الكمال بِبَيانِ كيفيَّة الشُّروع بتلاوته

ويرى الطِّيبيُّ - ووافقه ابنُ عاشور - أنَّه "يُمكن أن يُقال: إنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾ مُتَّصِلٌ بالفاء بِما سبق من قولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النّحل: 89]، وذلك أنَّه تعالى لمّا مَنَّ عليه - صلوات اللّه عليه - بإنْزالِ كتابٍ جامعٍ لصفات الكمالِ، وأنَّه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 357، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 174، 175، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 240.
(2) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 3/ 472.
(3) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 2/ 52.

تِبْيانٌ لكلِّ شيءٍ، ونَبَّهَ على كوْنه تِبْيانًا لكلِّ شيءٍ بالكلمة الجامِعةِ، وهي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النَّحل: 90]، وعطف عليه قولَه سبحانه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النَّحل: 91]، وأكَّده ذلك التَّأكيد، قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ﴾؛ أيْ: إذا شَرَعْتَ في قراءة هذا الكتابِ الشَّريفِ الجامعِ الَّذي نَبَّهْتُ على بعض ما اشتَمل عليه، ونازَعَك فيه الشَّيطانُ بهَمزِه ونَفْخِه ونَفْثِه، فاستَعِذْ بالله، والمقصودُ: إرشادُ الأُمَّة"[1].

إيثارُ التَّعبير بـ (إذا) على (إنْ):

المُسلم لا ينقطِعُ عن قراءة القرآنِ الكريمِ

أوثر التَّعبيرُ بِحَرْف التَّحقيق (إذا) على حَرْف الشَّك (إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ للتَّأكيد على قراءة القرآنِ، وعَدَمِ انقطاعِ المسلم عن قراءتِه، وعَدَمِ هَجْرِه.

سِرُّ التَّعبير عن إرادةِ الفِعْل بالفِعْل:

الإرادةُ لا تكونُ إلّا مقارِنةً لِلْفعل ولا تكونُ سابِقةً عليه

عُبِّرَ عن إرادة الفِعْل بالفِعْل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لِاقترانِ الفِعْل بالقَصْد والإرادةِ دونَ فاصلٍ، وهذا ما عَبَّر عنه الزَّمخشريُّ بقوله: "لأنَّ الفعلَ يوجد عند القَصْدِ والإرادةِ بغير فاصلٍ وعلى حَسبه، فكان منه بسببٍ قويٍّ وملابسةٍ ظاهِرة"[2]؛ أيْ: إنَّ الإرادةَ لا تكون إلّا مُقارِنَةً للفعل، ولا تكون سابقةً عليه[3].

ومن شواهد حَذْفِ الإرادة لدَلالة المقام عليها قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6]، أيْ: إذا أردتُم القيامَ إلى الصَّلاة فاغسلوا وُجوهَكُم وأيْديَكم، وقولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ [الأعراف: 4]؛ أيْ: أردنا إهلاكَها، فجاءها بأسُنا.

---

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 9/ 192، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 274 - 275.

(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 472.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 47.

بلاغةُ المجاز المُرسَل:

المقصودُ الإرادةُ المتَّصِلَةُ بِالقِراءةِ

في الجملة الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ، حيثُ عُبِّر عن إرادة قراءةِ القرآنِ بالقراءة عَلى طَريقةِ إطْلاقِ اسْمِ المُسَبَّبِ عَلى السَّبَبِ، إيذانًا بِأنَّ المُرادَ: هي الإرادَةُ المُتَّصِلَةُ بِالقِراءَةِ[1].

دلالة التَّعبير عن فعل القراءة بالماضي:

تَـوافُـرُ رَغْـبـةِ المُـخـاطَـب في الإقـبـال على القرآن، وتقويَة صِلَتِه به

عُبِّر عن فعل القراءةِ بالماضي: ﴿قَرَأۡتَ﴾؛ للإشارة إلى تَحَقُّق قراءةِ المسلمِ للقرآن، والتَّأكيدِ على صِلَته بِكِتاب رَبِّه، وعَدمِ انقطاعِه عنه، وتوافرِ رغبته في الإقبال عليه، وتقْوِيَةِ صِلَتِه به.

إيثار فِعْل القراءةِ على التِّلاوة:

القراءةُ أعَمُّ مِن التِّلاوة

أوثِر فِعْلُ القراءةِ على فِعْل التِّلاوة في الآية: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لأنَّ القراءةَ أعَمُّ مِن التِّلاوة، فالتِّلاوة فيها مَلْمَحٌ دَلاليٌّ زائدٌ، هو مَلْمَحُ الاتِّباعِ، فالتِّلاوة قراءةٌ على نَحْوٍ مخصوصٍ[2].

وَجْها تعريفِ القرآنِ وإظهاره:

معنى القرآنِ الجمعُ والضَّمُّ

لَقد مَنَّ الله تعالى عَلى النَّبي ﷺ بإنْزالِ كتابه الجامعِ لِصِفاتِ الكَمالِ، التِّبْيانِ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ لأنَّ القرآنَ الجَمعُ والضَّم، وبهذا يَظْهَر فائدةُ تعريفِ القرآن وإظهاره[3]؛ وكذلك فإظْهارُ "اسْمِ القُرْآنِ دونَ أنْ يُضْمَرَ لِلْكِتاب: لِأجْلِ بُعْدِ المُعادِ"[4].

معنى الفاء ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾:

الـراجـحُ في الاسـتـعـاذة أنْ تـكـونَ قبل القراءةِ لا بَعْدَها

يَدُلُّ ظاهِرُ هَذِهِ الآيَةِ عَلى أنَّ الِاسْتِعاذَةَ بَعْدَ قِراءَةِ القُرْآنِ، وعليه تكون الفاءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ لِلتَّعْقيبِ؛ والفائِدَةُ فيه أنَّهُ إذا قَرَأ القُرْآنَ اسْتَحَقَّ بِهِ ثَوابًا عَظيمًا، فإنْ لَم يَأْتِ بِالِاسْتِعاذَةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 399.
(2) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 159.
(3) الطِّيبيُّ، فُتوح الغَيْب، حاشية على تفسير الكشّاف: 9/ 193.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 274.

وقَعَتِ الوَسْوَسَةُ في قَلْبِه، وتِلْكَ الوَسْوَسَةُ تُحْبِطُ ثَوابَ القِراءَةِ؛ أمّا إذا اسْتَعاذَ بَعْدَ القِراءَةِ انْدَفَعَتِ الوَساوِسُ، وبَقِيَ الثَّوابُ مَصونًا عَنِ الإحْباطِ[1]؛ إلّا أنَّ أكثرَ الصَّحابة والتّابعين على أنَّ الاستعاذةَ قبلَ القراءةِ لا بَعْدها، قال ابن جُزّيٍّ: "﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، ظاهرُ اللَّفظ أن يُستعاذ بعدَ القراءةِ، لأنَّ (الفاء) تقتضي التَّرتيبَ؛ وقد شَذَّ قومٌ، فأخذوا بذلك، وجُمهورُ الأُمَّة على أنَّ الاستعاذةَ قبلَ القراءةِ، وتأويلُ الآيةِ: إذا أردت قراءةَ القرآنِ فاستعذْ بالله"[2].

الاستعاذة عَوْنٌ على القراءة

والوجه أنَّ (الفاء) واقعة في جواب الشَّرط، فهي في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ فاءُ الإفصاح، لأنَّها تُفْصِح عن شرطٍ مُقَدَّرٍ؛ أيْ: إذا اتَّجهت بالعمل الصّالحِ والقولِ الصالح - أيْ إلى القرآن - ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[3].

بيانُ التَّعبير بالأمر ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾:

الاستعاذةُ مندوبة عند القراءة وغيرها من القُرَب، لصونها من عمل الشيطان

معنى ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾: امتنِعْ به، وتحصَّنْ، واعتصم به، والجَأْ إليه، واستَجِرْ؛ والأمرُ في ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ للنَّدب والاستحباب - وإن كان ظاهرُه الوجوبَ[4] - عندَ قراءةِ القرآنِ مُطلَقًا في الصَّلاة وغيرها[5]؛ وتخصيصُ قراءةِ القرآنِ من بين الأعمال الصّالِحة بالاستعاذة عند إرادتها: للتَّنبيه على أنَّها لسائر الأعمالِ الصّالحة

---

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 20/ 116، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 12/ 155.

(2) ابن جُزّيٍّ، التَّسهيل في علوم التَّنزيل، ص: 442.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4266.

(4) اختلف أهلُ العلم في حكم الاستعاذةِ عندَ القراءةِ، فجمهورُ أهلِ العلم من الصّحابة والتّابعين، ومَن بعدَهم، على أنَّ الاستعاذةَ مُستحبَّةٌ، قبلَ كلِّ قراءةٍ للقرآن، سواءٌ كان ذلك في الصَّلاة، أو خارجها، وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّها واجبةٌ في الصَّلاة وخارجها، منهم عطاءٌ، واختاره ابنُ حزمٍ في المحلّى، وانتصر له، وقد استدلَّ مَن ذهب إلى هذا القولِ بظاهرِ الآيةِ، والأمرُ يقتضي الوجوبَ، كما استدلّوا بمواظبة الرَّسولِ ﷺ على التَّعوُّذ وتعليمِه ذلك لأصحابه، وبأنَّ شرَّ الشَّيطان يجب دفعُه بكلِّ وسيلةٍ، وأعظمُ وسيلةٍ لدفعه هي اللجوءُ إلى الله، والاستعاذةُ به من شرِّ الشَّيطان، وما لا يتمُّ الواجبُ إلّا به فهو واجب، سليمان اللّاحم، اللُّباب في تفسير الاستعاذة والبسْمَلةِ وفاتحةِ الكتاب، ص: 53، 54.

(5) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 2/ 52.

عندَ إرادتها أهَمُّ؛ لأنَّه إذا وقع الأمرُ بها عند قراءة القرآنِ الَّذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه: كانت عندَ إرادةِ غيرِه أوْلى[1].

ومن ناحيةٍ أخرى، جاء الأمرُ بالاستعاذة عند قراءة القرآن الكريم على وجه الخصوص؛ لأنَّ قراءةَ القرآنِ وتدبُّرَ معانيه وهداياتِه هو محضُ الخير الذي يرجوه المؤمنُ؛ والاستعاذةُ في هذا الموضعِ من شأنِها أن تُحَصِّنَ المسلمَ، وتَضمَنَ عدمَ اقترابِ الشيطانِ منه وهو يقرأُ آياتِ ربِّه سبحانه، وتُبعِدَ عنه زَيغَ الشيطان ووساوسَه في فهمِها.

عَوْدُ الضَّمير في ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾:

الإشـــارة إلى أهـمِّـيَّـة الاسـتـعـاذة بـتـوجـيـه الأمـرِ بها إلى المعصوم ﷺ

طَلَبُ الاستعاذة هو مِن قَبيل العملِ الصّالح المطلوبِ مِن الذُّكور والإناث لِطيبِ حياةِ الدّارَيْن؛ والمُخاطَبُ بالأمر: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ هو الرَّسول ﷺ، وإنَّما خوطِب به ﷺ للدَّلالة على فضْل هذا العمل، وأنَّ غيرَه تابعٌ له فيه بحَسَب الذّاتِ والزَّمان، وتأكيدٌ للحَثِّ عليه؛ لأنَّه إذا أُمِر بالاستعاذةِ المعصومُ ﷺ لِدَفْع وساوسِ الشَّيطانِ، فكيف بِسائِرِ أُمَّتِهِ؟[2].

دلالةُ السِّين في ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾:

العَـوْذُ اللَّجَأُ إلى ما يَعْصِمُ، ويَـقِـي مِـن أمرٍ مُضِرٍّ

السِّينُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ لِطَلَب الاستعاذة، أيْ: فاطْلُب اللُّجوءَ إلى الله، واطْلُب منه الحمايةَ والوقايةَ مِنَ الشَّيْطانِ، "والعَوْذُ: اللَّجَأُ إلى ما يَعْصِمُ، ويَقي من أمرٍ مُضِرٍّ"[3].

سِرُّ إيثارِ لَفظِ (أعوذ) في الاستعاذة:

لَفْظُ (أعوذُ) من صِيَغِ الإنْشاءِ

أوثر في الاستعاذة اللَّفظُ الَّذي يُضارِع صيغةَ الامتثال (أعوذ)، لأنَّه من صيَغ الإنشاء بما يَدُلُّ على طَلَبِ العَوْذِ؛ وقد فصَّل ابن عاشور

(1) القنوجيُّ، فتْح البيان: 7/ 314.
(2) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 5/ 368، والشَّوْكانيُّ، فتْح القدير: 2/ 801.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 275.

هذا بقوله: "ومن أحْسَنِ الامتِثالِ مُحاكاةُ صيغَةِ الأمرِ فيما هو من قَبيلِ الأقْوالِ بِحَيْثُ لا يُغَيِّرُ إلّا التَّغْييرَ الَّذي لا مَناصَ مِنهُ، فتَكونُ مُحاكاةُ لَفْظِ (اسْتَعِذْ) بما يَدُلُّ عَلى طَلَبِ العَوْذِ بأنْ يُقالَ: أسْتعيذ، أوْ: أعوذُ، فاخْتيرَ لَفْظُ أعوذُ؛ لأنَّهُ من صيَغِ الإنْشاءِ، ففيهِ إنْشاء الطَّلب بِخِلاف لَفْظِ أسْتَعيذُ؛ فإنَّهُ أخْفى في إنْشاءِ الطَّلب عَلى أنَّه اقْتِداءٌ بِما في الآيَةِ الأُخْرى ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ [المؤمنون: 97]، وأبْقى ما عَدا ذَلِكَ مِن ألْفاظِ آيَةِ الاسْتِعاذَةِ عَلى حالِه، وهَذا أبْدَعُ الأمثالِ، فقَدْ ورَدَ في عَمَلِ النَّبي ﷺ بهَذا الأمرِ أنَّهُ كانَ يَقولُ: "أعوذُ باللّه مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم" يُحاكي لَفْظَ هَذِهِ الآيَةِ، ولَم يَقُلْ في الاسْتِعاذَة: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ [المؤمنون: 97]؛ لأنَّ ذَلِكَ في غَيْرِ قراءَةِ القُرْآن، ولَم يُحاكِهِ النَّبيُّ ﷺ في اسْتِعاذَتِهِ للْقِراءَة"[1].

دِلالة الباء:

طلب العوذ بالله تعالى لا يُتصوَّرُ إلّا بالدعاء

الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾؛ لتَعْديَةِ فِعْلِ الاسْتِعاذَة، يُقالُ: عاذَ بِحِصْنٍ، وعاذَ بِالحَرَم؛ ومَعْنى طَلَبِ العَوْذِ بِاللّه مُحاوَلَةُ العَوْذِ بِهِ، ولا يُتَصَوَّرُ ذَلِكَ في جانِبِ اللّه إلّا بِالدُّعاءِ أنْ يُعيذَه[2].

سِرُّ إيثارِ اسم الجلالةِ وإظهارِه:

التَّرغيبُ في الاستعاذة بالله تعالى

أوثر اسمُ الجلالة - في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ - الدّالُّ على الكمال والجَلال: للتَّرغيب في الاستعاذة به، والحَثِّ عليها ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ وكأنَّه قال: "سَلِ الذي لَهُ الكَمالُ كُلُّهُ أنْ يُعيذَكَ"[3].

دلالة ﴿مِنَ﴾:

بيان المستعاذ منه

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ بيانيَّة؛ حيث بَيَّنَت جِنْسَ المُستعاذِ منه - وهو الشَّيْطانُ الرَّجيم - وعَمَّمَته.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 276.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 275.
(3) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرَر: 11/ 250.

نُكْتتا تعريف الشَّيطان، ووَصْفِه بالرَّجيم:

المُرادُ بِالشَّيْطانِ في هَذِهِ الآيَةِ: إِبْليسُ؛ والأَقْرَبُ أَنَّهُ لِلْجِنْسِ، لِأَنَّ لِجَميعِ المَرَدَةِ مِنَ الشَّياطينِ حَظًّا في الوَسْوَسَةِ[1]، فـ"﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ في لغة العرب: كُلُّ مُتَمَرِّد من الجنِّ والإنس والدَّوابِّ وكُلِّ شيءٍ، وهو مُشْتَقٌّ من شَطَنَ بمعنى بَعُدَ، فهو بعيدٌ بطَبْعِه عن طباع البَشَر، وبعيدٌ بفِسْقِه عن كُلِّ خير"[2]، وكُلُّ ما يشغَل الإنسانَ عن ربِّه فهو شيطان؛ ومَن اسْتَبَدَّت به نَفْسُه، وتَسَلَّطت عليه حتى شَغَلَتْه عن ربِّه، ولو بشهود طاعةٍ أو استحلاءِ عبادةٍ أو مُلاحظةِ حالٍ، فذلك شيْطانُه؛ والواجبُ عليه أن يستعيذَ باللّه من شَرِّ نَفْسِه، وشرِّ كُلِّ ذي شَرٍّ.

لِجَميعِ المَرَدَةِ مِنَ الشَّياطِينِ حَظٌّ في الوَسْوَسَةِ

و﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ من أَوْصافِ الشَّيْطانِ الغالِبَةِ، أَيِ: المَلْعونُ المَرْجومُ بِاللَّعْنَةِ أَوِ المَطْرودُ أَوِ المَرْجومُ بِالكَواكِبِ[3].

بلاغة الجملة الشَّرطيَّة:

دَلَّت الجملةُ الشَّرطيَّةُ في الآية الكريمة على سُرعة الاستعاذةِ باللّه تعالى فوْرَ إرادةِ قراءةِ القرآن الكريم دونَ فاصلٍ زمنيٍّ؛ لينال المستعيذُ باللّه بَرَكَتَها وفضلَها بِمجرَّد التَّلَفُّظِ بها.

اقترانُ الاستعاذة بالقراءة لِنَيْل فضْلِها وبَرَكتِها

إيثارُ الاستعاذة على البَسْمَلَة:

أوثرت الاستعاذةُ على البَسْمَلَة لِمناسبتها لمقام الآيةِ الكريمة، وهو التَّحَصُّن بما يَدْفع وساوسَ الشَّيطان وهَمزَه ولَمزَه، وهذا يناسبه الاستعاذةُ لا البَسْمَلَةُ الَّتي تُستعمل في مقام استِجْلابِ البَرَكَةِ واستِمطارِها؛ وقد فصَّل ابن عاشور هذا بقوله: "وإنَّما لَم تُشْرَعْ لِذَلِكَ كَلِمَةٌ باسِمِ اللهِ؛ لِأَنَّ المَقامَ مَقامُ تَخَلٍّ عَنِ النَّقائِصِ، لا مَقامُ اسْتِجْلابِ التَّيَمُّنِ والبَرَكَةِ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ نَفْسَهُ يُمْنٌ وبَرَكَةٌ، وكَمالٌ تامٌّ،

اختلاف مَقامَي استعمال الاستعاذة والبَسْملة

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 20/ 117.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 353.
(3) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 10/ 3857.

فالتَّيَمُّنُ حاصِلٌ، وإنَّما يُخْشى الشَّيْطانُ أنْ يَغْشى بَرَكاته، فيُدْخِلَ فيها ما يُنْقِصُها، فإنَّ قِراءَةَ القُرْآنِ عِبارَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلى النُّطْقِ بِألْفاظِه، والتَّفَهُّمِ لِمَعانيه، وكِلاهُما مُعَرَّضٌ لِوَسْوَسَةِ الشَّيْطانِ وسْوسَةً تَتَعَلَّقُ بِألْفاظِه مِثْلَ الإنْساءِ؛ لِأنَّ الإنْساءَ يُضيِّعُ عَلى القارِئِ ما يَحْتَوي عَلَيْه المِقْدارُ المَنسيُّ مِن إرْشادٍ، ووَسْوَسَةً تَتَعَلَّقُ بِمَعانيه مِثْلَ أنْ يُخْطِئَ فهْمًا، أوْ يَقْلِبَ عَلَيْه مُرادًا، وذَلِكَ أشَدُّ مِن وسْوَسَةِ الإنْساءِ، وهَذا المَعْنى يُلائِمُ مَحْمَلَ الأمرِ بِالِاسْتِعاذَةِ عِنْدَ الشُّروعِ في القِراءَةِ"[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القراءةُ والتِّلاوةُ:

القراءةُ أعَمُّ مِن التِّلاوة

سبقَ الإشارةُ إلى الفرق بين القراءة والتِّلاوة تحتَ عنوان: (إيثار فِعْل القراءة على التِّلاوة)، فالتِّلاوةُ لُغةً: الاتِّباع؛ ومِنْهُ تِلاوَةُ القُرْآنِ، لِأنَّهُ يُتْبِعُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ[2].

والقراءةُ لُغَةً: الجَمعُ والضَّمُّ؛ ومَعْنَى القُرآنِ مَعْنَى الجَمعِ، وسُمّيَ قُرْآنًا لأنَّه يَجْمَعُ السّوَرَ فيَضُمُّها[3].

والفَرْق بَيْن الكلمتَيْن: هو أنَّ القراءةَ أعَمُّ مِن التِّلاوة؛ لأنَّ القراءة مُجَرَّدُ التَّلفُّظ بالكلام مِن قرآنٍ وغيره، ولا يُشترط فيها عِلْمُ القارئِ بما يقرأ، ولا أن يعمَلَ بما قرأ، عمل أم لم يعملْ، بدليلِ قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 14]؛ أمّا التِّلاوةُ ففيها معنًى زائدٌ هو الاتِّباع، فالتِّلاوة قراءةٌ على نَحْوٍ مخصوصٍ[4]، ولهذا اختير لفظُ القراءةِ في الآية، فهي المقصود هَهُنا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 277.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: تَلَوَ.
(3) ابن منظور، لِسان العرب: قَرأ.
(4) محمد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 159.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾

[النحل: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا سلطانَ للشَّيطان على أهل الإيمان

لَمّا أمَرَ اللّهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ بالاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ، وكان ذلك يوهِمُ أنَّ للشَّيطانِ قُدرةً على التَّصَرُّفِ في أبدانِ النّاسِ، فأزال اللّهُ تعالى هذا الوَهمَ، وبيَّنَ أنَّه لا قُدرةَ له ألبتَّةَ إلّا على الوَسْوسةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾: (سلط): أصلٌ واحدٌ، وهو القوَّةُ والقَهْرُ[2]؛ والسُّلْطانُ: الحاكِمُ والوالي، وأصْلُ الكَلِمَةِ مِن السَّلاطَةِ، يُقالُ: سَلَّطَهُ عليَهِ، أيْ: مَكَّنَهُ مِنْهُ، وحَكَّمَهُ فيهِ؛ ويأتي بِمعنى الخَليفَةِ، والإمامِ، والقاضي[3]؛ والسُّلْطانُ أيضًا: الوِلايَةُ والحُجَّةُ والبُرْهانُ[4]؛ والسُّلْطان كذلك: قُدرةُ المُلْكِ، وقُدرةُ مَن جُعِلَ ذلك له، وإنْ لم يكن مَلِكًا[5]، سُمّيَ سُلطانًا لأنَّهُ يُكسِبُ المُستدِلَّ به سُلطةً على مُخالِفه ومُجادِله[6]؛ والسَّليطُ مِنَ الرِّجالِ: الفَصيحُ اللِّسانِ الذَّرِبُ؛ وامرأةٌ سَليطةٌ: طويلةُ اللِّسان صخّابةٌ[7]، والمقصود بالسُّلطان في الآية: التَّسلُّطُ والتَّصَرُّفُ المَكينُ[8]؛ أو بمعنى الحجَّة والبرهان[9].

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 1/ 85.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلط).
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والفيّوميُّ، المصباح المنير: (سلط).
(4) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(5) الخليل، العين: (سلط).
(6) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 232.
(7) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (سلط).
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.
(9) ابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 354، والشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 3/ 136.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ سُلطانَ الشَّيطانِ وإغواءَه إنَّما هو لِغَيرِ المؤمنين المُخلَصينَ

يُبيِّنُ الحقُّ سبحانه في الآية أنَّ وسْوَسَة الشَّيطانِ لا أثرَ لها على المؤمنين الصّادقين، فقال: إنَّ الشَّيطان مهما تمرَّد وعتا، فإنَّه ليس له تسلُّطٌ واستيلاءٌ واستحواذٌ بالقَهْر والغَلَبَة على نُفوس الَّذين آمنوا بالله تعالى حقَّ الإيمان، والَّذين هم عليه تعالى وحدَه يتوكَّلون ويعتمدون، لا على غيرِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الافتتاح بقوله ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾:

تعليلُ الأمرِ بالاسْتِعاذَةِ، وبيانُ صِفَتِها

الجملة المفتتحة بـ (إنَّ) أفادت التعليل لما سبق، وفُصلت عنه: لِشبه كمال الاتصال بين الآيتين؛ حيث وقعت الجملة تعليلًا لمحذوفٍ، تقديره: (فإذا استعذتَ بالله كُفيتَ شَرَّ الشَّيطان، ودخلتَ في حِصْنِ اللهِ وأمانه، لأنَّه ليس له سلطانٌ على الَّذين آمنوا)[1]؛ "وجُملَةُ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ تَعْليلٌ لِلْأمرِ بِالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ عِنْدَ إرادَةِ قِراءَةِ القُرْآنِ، وبَيانٌ لِصِفَةِ الاسْتِعاذَةِ. فأمّا كَوْنُها تَعْليلًا فلِزيادَةِ الحَثِّ عَلى الامتِثالِ لِلْأمرِ، بِأنَّ الاسْتِعاذَةَ تَمنَعُ تَسَلُّطَ الشَّيْطانِ عَلى المُسْتَعيذ، لِأنَّ اللّه مَنَعَهُ مِنَ التَّسَلُّطِ عَلى الَّذينَ آمَنوا المُتَوَكِّلينَ؛ والاسْتِعاذَةُ مِنهُ شُعْبَةٌ مِن شُعَبِ التَّوَكُّلِ عَلى اللّه، لِأنَّ اللَّجَأ إلَيْهِ تَوَكُّلٌ عَلَيْهِ؛ وفي الإعْلامِ بِالعِلَّةِ تَنْشيطٌ لِلْمَأمورِ بِالفِعْلِ عَلى الامتِثالِ، إذْ يَصيرُ عالِمًا بِالحِكْمَةِ. وأمّا كَوْنُها بَيانًا، فلما تَضَمَّنَتْهُ مِن ذِكْرِ التَّوَكُّلِ عَلى اللّه؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ الاسْتِعاذَةَ إعْرابٌ عَنِ التَّوَكُّلِ عَلى اللّه تَعالى لِدَفْعِ الشَّيْطانِ، لِيَعْقِدَ المُسْتَعيذُ نيَّتَهُ عَلى ذَلِكَ؛ ولَيْسَتِ الاسْتِعاذَةُ مُجَرَّدَ قَوْلٍ بِدونِ اسْتِحْضارِ نيَّةِ العَوْذِ بِاللّه"[2].

---

(1) الصّاويُّ، حاشية الصّاويِّ على الجلالين: 2/ 305.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 278.

بلاغة التَّوكيد بـ (إنَّ) والجملة الاسميَّة:

الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشَّأنِ، أوْ لِلشَّيْطانِ؛ والأرجحُ أنَّه للشَّيْطان، لدَلالة السّياق عليه، وأُكِّد الخبرُ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ لأهمّيَّة الخَبَر، وعظيم شَأْنِه؛ وهو نَفْي أَثَر وسْوسة الشَّيطانِ على المؤمنين الصّادقين المُتَّكِلين على ربِّهم.

أهمِّيَّةُ الخبرِ، وعظيم شأْنِه

بلاغة النَّفْي بِلَيْس دونَ غيرِه:

الفعلُ ﴿لَيۡسَ﴾ يُستعمل في العربيَّة استعمالَ الفعلِ الماضي؛ وهو لنَفْي الحالِ عند الإطلاق، وإذا قُيِّد فبحَسَب ذلك التَّقييدِ، والتَّعبيرُ به في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ لتحقُّق نَفْي سلطانِه على المؤمنين، حالَ إيمانِهم وتوكُّلِهم على ربِّهم؛ ليكونَ نَفْي السُّلطانِ عنهم لكمال التَّنزيه، وتمام التَّشريف.

تَحقُّقُ نفي السُّلطان عن أهل الإيمان والتُّكلان

دلالةُ تقديمِ شِبْه الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾ على اسم ليس:

دَلَّ تقديمُ شِبْه الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾ على اسم ﴿لَيۡسَ﴾ على القَصْر، مِن باب قَصْر الصِّفة (نَفْي الوَسْوَسَة) على الموصوف (الشَّيطان)، والقَصْرُ إضافيٌّ مِن باب قَصْرِ الصِّفةِ على الموصوف، فأثْبَت في الآية اللّاحقة أنَّ سُلْطانَه إنَّما هو عَلى أتْباعِه الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَه والَّذينَ هُم بِهِ مُشْرِكونَ، وأكَّدَ هُنا نَفْيَ سُلْطانِه عن عِباد اللّه المُتَوَكِّلين عليه.

أنَّى يكون للشَّيطان سُلْطانٌ على العبْد والحقُّ سبحانه مُتفرِّدٌ بالإبداع، مُتَوَحِّدٌ بالاختراع

وَجْه إضمارِ لَفْظِ الشَّيْطان والتَّعبير بضميره:

تَناسَبَ إضمارُ لَفْظِ الشَّيْطان والتَّعبيرِ بضميره مع نَفْي ولايتِه وتَسَلُّطه على عِباد اللّه المُتوكِّلين عليه في كُلِّ أمورهم، فتَناسبَ الإخفاءُ مع تَوْهين أثَرِ وسْوَستِه عليهم.

تَناسُبُ الإضمارُ مع المعنى المُراد

سِرُّ تنكير ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾:

تنكيرُ ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ للعُموم؛ إذ المُرادُ نَفْيُ مُطلَق سُلْطانِ الشَّيطان على عبادِ اللّهِ المؤمنين المُتَوَكِّلين على ربِّهم، والسُّلْطانُ هو الحُجَّةُ؛

أمرُ المؤمنين بالاستعاذة مِن الشَّيطان احتياطٌ، واعتناءٌ بِحفظِهم

أيْ: لَيْسَ لِلشَّيْطانِ عَلَيْهِم حُجَّةٌ فيما يَدْعوهم إِلَيْهِ مِن عِبادَةِ الأَوْثانِ، ولا التَّسَلُّطُ والقُدْرَة، عَلى أَنْ يوقِعَهم في ذَنْبٍ لا تَوْبَةَ منه(1).

وقد أُمِر المؤمنون بالاستعاذة مِن الشَّيطان على الرَّغم مِن أنَّه ليس له عليهم سُلْطانٌ للاحتياط وإنْ كان صدوره نادرًا، اعتناءً بحفظهم؛ لذا خوطِب بها النَّبيُّ ﷺ، فالمَنْفيُّ مِن سُلْطان الشَّيطان ما عَظُمَ منها، والاستعاذة عن مُحَقِّراته(2).

إيثارُ لفظ السُّلْطان دون غيره:

مِن معاني السُّلْطان التَّسْليطُ والوِلايَة

أوثر لفظُ السُّلْطانِ دون غيرِه كالتسليط والقدرة والولاية وغيرها؛ لأنَّ هذا اللَّفظ يَكْتَنِز عِدَّة معانٍ منها: التَّسليطُ والولايةُ والاستيلاءُ والتَّمَكُّن والقَهْرُ؛ فهو من الألفاظ الجامِعة، لذا أوثر هنا، ليَنْفيَ عن أولياء اللّهِ أيَّ شيءٍ من ذلك عليهم.

"ونَفى تَعالى سُلْطانَ الشَّيْطانِ عَنِ المُؤْمِنينَ، والسُّلْطانُ هُنا: التَّسْليطُ والوِلايَةُ، والمَعْنى: أنَّهم لا يَقْبَلونَ مِنهُ، ولا يُطيعونَهُ فيما يُريدُ مِنهم مِن اتِّباعِ خُطواتِه، كَما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42]، وكَما أخْبَرَ تَعالى عَنْهُ، فقالَ في قِصَّةِ أوْلِيائِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: 22]، وقيلَ: المُرادُ بِالسُّلْطانِ: الحُجَّةُ، وظاهِرُ الإخْبارِ انْتِفاءُ سَلْطَنَتِهِ عَلى المُؤْمِنينَ مُطْلَقًا، وقيلَ: لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِم سُلْطانٌ لِاسْتِعاذَتِهِم مِنهُ، وقيلَ: لَيْسَ لَهُ قُدْرَةٌ أنْ يَحْمِلَهم عَلى ذَنْبٍ"(3).

دلالة ﴿عَلَىٰ﴾:

نَفْيُ استعلاءِ الشَّيطان وقهره ووَسْوَسَتِه على أولياء الله

عُبِّر بحَرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لِنَفْي استعلاءِ الشَّيطانِ وقهره ووَسْوَسَتِه، ونَفْي تَمَكُّنه مِن عباد اللّه تعالى واستيلائه عليهم.

(1) ابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 354، والشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 3/ 136.

(2) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 5/ 368.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 517.

"والسلطان: الحجة والبرهان والاستيلاء على النفس المؤمنة؛ ولا يمكن أن يكون له ذلك عليها، لأنَّها تعرف أنه عدوها ومرديها ومفسدها، وماضيه في ذلك عندها معروف، علمها إياه الحكيم العليم، وهي تتوكَّل على اللّه وحده، فلا يمكن أن يستولي عليها، فالنفس المؤمنة ليست فارغة حتى يتولاها."(1).

نُكْتةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعليل الحُكْم بجملة الصِّلَة

عُبِّر بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ ليَتأتَّى تعليلُ الحُكم بِنَفْي سلطانِ الشَّيطان على أولياء اللّهِ من خلال جملةِ الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾.

سِرُّ إيثار التَّعبير بالفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾، واستعماله ماضيًا:

الإيمان درجة أعلى من الإسلام

عُبِّرَ بالفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ ماضيًا للدَّلالة على تَحَقُّق إيمانهم ورسوخِه؛ فهُم أصحاب قَدَم راسِخة في الإيمان، ولم يَكنْ إيمانهم طارئًا، ولا مُهْتزًّا، كَما عُبِّر بلَفْظ الإيمانِ دون الإسلام، لأنَّ الإيمانَ درجةٌ أعلى مِن الإسلام؛ لذا فقد كانوا جَديرين بتلك البُشرى الرَّبّانيَّة لَهُم.

"والتَّعبير عن الإيمان بالمُضيِّ، وعن التَّوكُّل بالمضارع؛ لأنَّ التَّوَكُّلَ مُتَجَدِّدٌ في كُلِّ حينٍ بخلاف الإيمان"(2).

دلالة الواو:

شَرط نَفْي استيلاء الشَّيطان وولايته

الواو عاطفةٌ، عَطفت جملةَ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على جملة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ المقصودَ اشتراكُ الجملتيْن في شَرْط نَفْي استيلاء الشَّيطان وولايته، فنفيُ سُلطانِ الشَّيطانِ مَشروطٌ بأمرَيْن: الإيمانِ، والتوكُّلِ؛ فالإيمانُ مَبدأٌ أصيلٌ لِتَوهين سُلطانِ الشَّيطانِ في نَفسِ المُؤمِن، فإذا انضمَّ إليه التوكُّلُ على اللّهِ؛ اندفَعَ سُلطانُ الشَّيطانِ عن المُؤمِنِ المتوكِّلِ(3).

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4267.

(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 381.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 357، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 175، 175، والسَّعْديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 449، وطنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 234.

تَوَكُّل راسخ مُتمكِّن

دلالة ﴿وَعَلَىٰ﴾ في ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

التَّعبير بِحرْف الاستعلاء يوحي برسوخ تَوَكُّلِهم على اللّه تعالى وقوَّته؛ لأنَّه ناشئٌ عن يقين تامٍّ بِقدرة رَبِّهم، وبمَعيَّته، وعَوْنه لَهم، ومَدَده.

وعدٌ من الله بالعناية والإعاذة، مع التشريف والاختصاص

إيثار لَفْظ الرَّبِّ دون غيره، وإضافتُه إلى ضمير المُؤمِنين:

في إيثار لَفْظ الرَّبِّ دون غيره وعدٌ مِن اللّه تعالى بإعاذة المُتَوَكِّلينَ؛ وفائدةُ إضافةِ الرَّبِّ إلى ضمير المؤمنين للتَّشْريف والتَّعظيم باختصاصِهم بالإضافة إلى رَبِّهم المُتفضِّل عليهم بِنِعَمِه، وإحسانِه، ورعايَتِه؛ لذا أوثر التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّةِ دون الألوهيَّة.

شروط تحصين المُؤمِن نَفْسَه مِن الشَّيطان

نُكْتة تقديم شِبْه الجملة على الفعل:

أفاد تقَديمُ الجارِّ والمجرور على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ القَصْرَ؛ إذ قُصِر تَوَكُّل المؤمنين على رَبِّهم دون سِواه، مِن باب قَصْرِ الصِّفةِ على الموصوف قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، فهُم ليس "في قلوبهم فراغٌ للشَّيطان يحتلُّه، والتَّعبير بـ﴿رَبِّهِمۡ﴾ يُزَكِّي توَكُّلهم؛ لأنَّه الَّذي ذَرَأهم، وربّاهم، وكَوَّنَهم"[1].

براعةُ الإيجازِ في بيان الحُصونِ المانعةِ من تسلُّط الشيطان

فائدةُ الجمع بين الأمرِ بالاستعاذة وبين الوصف بالإيمان وبالتوكُّل:

المُؤمِن يُحَصِّن نَفْسَه مِن الشَّيطان بأمور ثلاثةٍ ذُكِرَت في الآيتَيْنِ الكريمتَيْنِ هي: الاستعاذةُ من الشَّيطان الرَّجيم، والإيمانُ باللّه تعالى، والتَّوَكُّل عليه سبحانه حَقَّ التَّوَكُّل، وقد فصَّل أبو زهرة هذا الإجمالَ بقوله: "الحِصنُ الأوَّل: الاستعاذةُ منه بالقلب واللِّسانِ كما أمَر اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾؛ فإنَّ الاستعاذةَ تحصينٌ للقلب مِن وساوِسِ الشَّيطانِ، ودخولُ هذا الحِصْن قراءةُ القرآن الكريم.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4267.

والحِصْنُ الثّاني: الإيمانُ، فإنَّ الإيمان حِصْنُ الحَقِّ مِن الغُرور والأوَهْام والأهْواء، وكُلُّها ذرائعُ الشَّيْطان؛ ولذا قال الشّيطان في وعيدِه بالإغْواء: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾ [الحِجْر: 39 - 40].

والحِصْنُ الثّالث: التَّوكلُ على اللّه حَقَّ توَكُّله، وأخْذُ الأسباب، وتفويضُ الأمرِ إليه تعالى، وهو العَليُّ القدير؛ وهذا هو مُؤَدَّى قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾"(1).

سِرُّ التَّعبير عن التَّوكُّل بالمضارع:

ثَبات الإيمان، وتَجَدُّد التَّوَكُّل

عُبِّر عن التَّوكُّلِ بالمضارع ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ لأنَّ التَّوكُّل مُتَجَدِّدٌ في كُلِّ حين ومُسْتَمِرٌّ، بخلاف الإيمان الذي ذُكر بصيغة الماضي(2)؛ وذِكْرُ التَّوَكُّل بَعْد الإيمان؛ لبيان مزيدِ العِناية بعباد اللّه وأوليائِه(3).

علَّةُ عدمِ تِكرار الموصول:

المقصود اجتماع الصِّلَتَيْن

وإنَّما عطَف ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ دونَ إعادةِ اسم الموصول: للإشارةِ إلى أنَّ الوصفَيْن كصِلَةٍ واحدةٍ لِموصولٍ واحدٍ، لأنَّ المقصودَ اجتماعُ الصِّلتَين(4)؛ والأمرُ بالاِسْتعاذَةِ يَقْتَضي أنَّها تَصْرِفُ كَيْدَ الشَّيْطانِ، كَأنَّها مُتَضَمِّنَةٌ التَّوَكُّلَ عَلى اللّه والاِنْقِطاعَ إلَيْه(5).

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4267.
(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 381.
(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 5/ 268.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 278.
(5) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 517.

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾

[النحل: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَسَلُّطُ الشَّيطان على مَن يَتَوَلّاه لا على المُؤمِن المُتوكِّل

في الآية السّابقة نَفى الله تعالى أن يكون للشَّيْطان سُلْطانٌ على نفوس المؤمنين الصّادقين، وفي هذه الآيةِ أثْبَت سبحانه أنَّ تَسَلُّط الشَّيْطانِ إنَّما هو على نفوس الضّالين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ؛ مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أيْ: يُقارِبُني[2]؛ والمَوْلَى: المُعتَقُ والحَليفُ والوليُّ؛ والمَوْلى أيضًا: ابنُ العَمِّ، والعمُّ، والأخُ، والابْنُ، والعَصَبات كلُّهم؛ والمَوْلَى كذلك: النّاصِرُ؛ والمَوْلَى: الَّذي يَلي عَلَيْك أمرَك[3]؛ والوليُّ: وليُّ النِّعَم؛ والموالاة: اتِّخاذُ المَوْلَى[4]؛ والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَوَلَّى) بنفسِه: اقتَضَى معنَى الوَلايَةِ، وحصوله في أقرب المواضع؛ وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا: اقتضى معنى الإعراض وترْك قربه؛ فمِن الأوَّل قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثّاني قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63][5]، والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الموالي؛ أيْ: يَتَّخِذونَ الشَّيطان وليًّا لَهُم.

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 8/ 234.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (ولي).
(4) الخليل، العين: (ولي).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/ 102.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تسلُّطُ الشَّيطان وتأثيرُه على الضّالين الفاسقين الَّذين يَتَوَلَّوْنَهُ

بعد أن نَفَى اللّه تعالى أن يكونَ للشَّيطان سُلطانٌ على نفوس المؤمنين الصّادقين، أثْبَت سبحانه أنَّ تَسَلُّطَ الشَّيطانِ إنَّما هو على نفوسِ الضّالين؛ فقال تعالى: إنَّما تَسَلُّطُ الشَّيطانِ واقِعٌ على الَّذينَ يتَّخِذونَه وليًّا لهم مِن دونِ اللّه تعالى، فيَتَّبِعونَه، ويُطيعونَه فيما يأمُرُهم به، وعلى الَّذين يُشرِكونَ باللّهِ تعالى(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستِئْناف في الآية:

الفَصل لِشِبْه كمالِ الاتِّصال

فُصِلت جُملَةُ ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ عَمّا قَبْلَها لشِبْه كمالِ الاتِّصال - الاسْتِئْنافُ البَيانيُّ - حيث جاءت جوابًا لسؤالٍ مُقَدَّرٍ، أثاره مَضْمونُ الجُملَةِ قَبْلَها تقديرُه: فعَلى مَن سُلْطانُه؟ فأُجيب: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾.

سِرُّ القَصْر بـ﴿إِنَّمَا﴾:

الَّذين يَستهويهم الشَّيطانُ، ويستولي عليهم، ويحتلُّهم بِولايَتِه هُم مَن لا ولايةَ لَهُم مع الله

أوثر القَصرُ بـ﴿إِنَّمَا﴾ هُنا لأنَّها تُستعمل في الأمر المعلوم الَّذي لا يجهله المُخاطَبُ ولا يُنْكِره، والمُخاطَبون في الآيات مؤمنون موَحِّدون، والخبرُ الإلهيُّ حقيقةٌ دامِغة لا مِراءَ فيها ولا جِدال؛ لأنَّها مِن الباري سبحانه خالقِ كُلِّ موجودٍ، العليمِ بِطِباعِ خَلْقِه.

وقد بَيَّنت الآيةُ الكريمة ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ مَن الَّذين يَستهويهم الشَّيطان، ويستولي عليهم، ويَحتلُّهم بِولايته: إنَّهم مَن لا ولايةَ له مع اللّه، وفي نفوسهم فراغٌ مِن سُلطان اللّهِ تعالى؛ وقد قُصِرَ سُلطانُ الشَّيطانِ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾، أيْ: على الَّذين جعلوا ولايتَهم له، فاختاروا الهَوى على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 357، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 176، والشِّنْقيطيُّ، أضواء البيان: 2/ 444، وطنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 234.

الحَقِّ، والأوهامَ على الفعلِ، وكان سُلْطانُه بمعنى حُجَّتِه عليهم؛ لأنَّه أغواهم أوَّلًا بالأوْهام الضّالةِ والأهواءِ الجامِحةِ المُغيرَة، فكانت حُجَّتُه الباطلةُ رائجةً عندهم[1].

والقَصْرُ في الآية قَصْرٌ إضافيٌّ "بِقَرينَة المُقابَلَة؛ أيْ: بِدون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فحَصَلَ بِهِ تَأْكيدُ جُملَة ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لِزيادَةِ الاهْتِمامِ بِتَقْريرِ مَضْمونِها، فلا يُفْهَمُ مِنَ القَصْرِ أنَّهُ لا سُلْطانَ لَهُ عَلى غَيْرِ هَذَيْنِ الفَريقَيْنِ، وهُمُ المُؤْمِنونَ الَّذينَ أهْمَلوا التَّوَكُّل، والَّذينَ انْخَدَعوا لِبَعْضِ وسْوَسَةِ الشَّيْطانِ"[2].

وأيضًا، ففي قَصْرِ سُلْطانِ اللَّعينِ عَلى المَذْكورينَ غِبَّ نَفْيِه عَنِ المُؤْمِنينَ المُتَوَكِّلينَ: "دَليلٌ عَلى أنْ لا واسِطَةَ في الخارِجِ بَيْنَ التَّوَكُّلِ عَلى اللّٰهِ تَعالى، وبَيْنَ تَوَلِّي الشَّيْطانِ، وإنْ كانَ بَيْنَهُما واسِطَةٌ في المَفْهُوم، وأنَّ مَن لَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ تَعالى يَنْتَظِمُ في سِلْكِ مَن يَتَوَلّى الشَّيْطانَ مِن حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ إذْ بِهِ يَتِمُّ التَّعْليلُ، فَفيهِ مُبالَغَةٌ في الحَمْلِ عَلى التَّوَكُّلِ، والتَّحْذيرِ عَنْ مُقابِلِه"[3].

عِلّةُ إضافةِ السُّلْطان إلى ضمير الشَّيْطانِ دونَ التَّصريح:

لا سُلْطانَ لِلشَّيْطانِ بِالقَسْرِ والإلْجاءِ

ألَمَّ أبو السُّعود إلى عِلّة إضافةِ السُّلْطانِ إلى ضمير الشَّيْطان دونَ التَّصريح بقوله: "﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾؛ أيْ: تَسَلُّطُهُ، وولايَتُه بِدَعْوَتِه المُسْتَتْبِعَةِ لِلاسْتِجابَة، لا سُلْطانُهُ بِالقَسْرِ والإلْجاءِ؛ فإنَّهُ مُنْتَفٍ عَنِ الفَريقَيْنِ لِقَوْلِه سُبْحانَهُ حِكايَةً عَنْهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقَدْ أفْصَحَ عَنْهُ قَوْلُه تَعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾؛ أيْ: يَتَّخِذونَهُ وليًّا، ويَسْتَجيبونَ دَعْوَتَهُ، ويُطيعونَهُ، فإنَّهُ المَقْسورُ بِمَعْزِلٍ مِن ذَلِكَ"[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4268.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 400.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 400.

دلالةُ ﴿عَلَى﴾:

استِعْلاءُ الشَّيطان، وتَمَكُّنه مِن أوليائِه، وسيطرتُه عليهم

دَلَّ التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَى﴾ على استِعْلاء الشَّيطانِ، وتَمَكُّنه مِن أوليائِه، وسيطرتِه عليهم باتِّخاذهم إيّاه وليًّا مِن دون اللّهِ تعالى.

نُكْتَة التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعليل الحُكْم بولاية الشَّيطان على أتْباعه

التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾؛ لِتعليل الحُكْم في الآية بِسُلطان الشَّيطان وولايته على أتْباعه هؤلاء الَّذين يتَّخذونه وليًّا، ويُطيعونه في وساوِسه، "وهُمُ المُلازِمونَ لِلْمِلَلِ المُؤَسَّسَةِ عَلى ما يُخالِفُ الهَدْيَ الإلَهيَّ عَنْ رَغْبَةٍ فيها، ولا شَكَّ أنَّ الذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ فريقُ غَيْرِ المُشْرِكينَ؛ لِأنَّ العَطْفَ يَقْتَضي بِظاهِرِهِ المُغايَرَةَ، وهم أصْنافٌ كَثيرَةٌ مِن أهْلِ الكِتابِ"[1].

سرُّ التَّعبير عن التَّولِّي بالمضارع:

تَجَدُّد التولِّي مظِنَّة تَمَكُّن السُّلطان

"معنى يتولّونهُ: يتّخذونهُ وليًّا لهم؛ وعبّر بالمُضارِعِ لِلدّلالةِ على تجدُّدِ التّولّي، أي: الّذين يُجدِّدون تولّيه؛ لِلتّنبيهِ على أنّهم كُلّما تولّوهُ بالميلِ إلى طاعتِهِ تمكّن مِنهم سُلطانُهُ، وأنّهُ إذا انقطع التّولّي بِالإقلاعِ أوِ التّوبةِ انسلخ سُلطانُهُ عليهم"[2].

دلالةُ بِناء فِعْل (التَّولّي) على صيغة التَّفعُّل:

اجتهادُ أولياءِ الشَّيطانِ في سبيل موالاتِه ومَرْضاتِه

وبناءُ فِعْلِ (التّولّي) على صيغة التَّفعُّل يوحي باجتهاد أولياءِ الشَّيطانِ في سبيل موالاتِه ومَرْضاته وتَكَلُّفِهم في ذلك، وإصرارِهم عَليه بِتَجْديد ولايَتِه كُلَّ حينٍ، وهؤلاء هُم عُصاةُ المُؤمنين والمُشركين، وأهْلُ الكِتاب الَّذين جَعلوا للّه شُركاءَ.

نُكْتَة التَّعبير عن فِعْل التَّولِّي بالجمع:

كَثْرةُ أولياء الشَّيطان

التَّعبير عن فِعْل التَّولّي بالجَمع ﴿يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ فيه إلْماحٌ إلى كَثْرة أولياءِ الشَّيطانِ الَّذين يخدعُهم بِتَزْيينِ المعاصي لَهُم، فيَقعون تحت تأثيرِ وسْوسَتِه وتَسَلُّطِه عليهم.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.

وَجْهُ إضافة فِعْل التَّولِّي إلى ضمير الشَّيطان:

الـعُـدول عن الإظـهـار جاء تَجنُّبًا للالتباس

في إضافة فِعْل التَّولّي إلى ضمير الشَّيطان مراعاةٌ للإضافة إلى ضميره السّابقِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾؛ إذ لو عُدِل عن الإضْمارِ إلى الإظْهارِ، فقيل: إنَّما سلطانُه على الَّذين يتوَلَّون الشَّيطانَ، لَٱلْتَبَسَ المعنى واضطرب، وغَمُض مَرْجعُ الضَّمير في سُلطانه.

دلالةُ العطف بـ (الواو):

تَـعْـديـد الَّـذيـن يَـتَـولّاهـم الـشَّـيـطـانُ بِوَسْوَسَته

الواو للعطف؛ إذ عَطفت جملةَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ بَعْدها على جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ الأولى؛ لتعديد الَّذين يَتَولّاهم الشَّيطانُ بوَسْوَسَته وتأثيرِه وتَسَلُّطه.

سرُّ تِكرار الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

ولايَـةُ المُشركين لِلشَّيطانِ أقْوى

إعادَةُ الاسْم المَوْصولِ في قَوْله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ لِأنَّ وِلايَة المُشركين لِلشَّيْطانِ أقْوى[1]؛ وفي تَكْريره أيضًا احْترازٌ عَنْ تَوَهُّم كَوْنِ الصِّلَة الثّانيَة حاليَّةً، مُفيدَةً لِعَدَم دُخولِ غَيْرِ المُشْركينَ مِن أَوْلياء الشَّيْطان تَحْتَ سُلْطانه[2].

وَجْه التَّعبير بالضَّمير ﴿هُم﴾:

تأكيدُ شِرْكِهم

التَّعبير بالضمير المُنفصلِ ﴿هُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ توكيدٌ لشِرْكهم، و"توكيدٌ لتولّيهم له، فهم مَشركون بسَبَبِه أنْ اعتقدوا في الأحجار الوهميَّة، وهي لا تضرُّ، ولا تنفع بسَبَبِه، وأشركوهم مع اللّه بسبب تحكُّمه بأوهامه فيهم"[3].

دَلالتا الباءِ وعَوْدِ الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾:

الشَّيطان سَبَب الإشراك بالله

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ لِلسَّبَبيَّة، أيْ: صاروا مُشْركينَ بِسَببه، والضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾ الظّاهر عَوْدُه على الشيطان،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4268.

لِتتَّحد الضَّمائر؛ والمعنى: والَّذين هُم بإشْراكِهِم إبْليسَ مُشْرِكون بالله؛ أي: مِن أجْل حَملِه إيّاهم على الشِّرك صاروا مُشركين[1]؛ أو الضَّميرُ المَجْرورُ ﴿بِهِۦ﴾ عائِدٌ عَلى ﴿رَبِّهِمْ﴾، والباء للتَّعدية[2].

نُكْتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على الخبر:

ما أشْرَكَ النّاس إلّا بنَزْغ الشَّيطان

تَقْديم المَجْرور في ﴿بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾؛ لِإفادَة القَصْر، أيْ: ما أشْرَكوا إلّا بِسَبَبِه؛ رَدًّا عَلَيْهم، إذْ يَقولونَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: 148]، وقَوْلُهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النّحل: 35]، وقَوْلُهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: 28][3].

سِرُّ التَّعبير بجملة الصِّلَة اسميَّةً:

الإشْراكُ صِفَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ؛ لِأنَّ قَرارَها القَلْبُ

جُعِلَتِ الصِّلةُ جُملَةً اسْميَّة: ﴿هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾؛ لِدَلالَتِها عَلى الدَّوام والثَّبات؛ لِأنَّ الإشْراكَ صِفَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ؛ إذ إنَّ قَرارَها القَلْبُ بِخِلافِ المَعاصي؛ لِأنَّ مَظاهِرَها الجَوارِحُ، لِلْإشارَةِ إلى أنَّ سُلْطانَ الشَّيْطانِ عَلى المُشْركينَ أشَدُّ وأدْوَمُ؛ لِأنَّ سَبَبَه ثابتٌ ودائِمٌ[4].

سِرُّ تقديمِ تولّي الشَّيطانِ على الإشراك به:

التَّقديمُ والتَّأخيرُ لِرِعايَةِ المُقارَنَة، ولِلإشارة إلى أنّ المقدَّم مَنشأٌ للمُؤخَّر

تَقْديمُ الصِّلة الأولى - أي: تولّي الشَّيطان - عَلى الثّانيَة، أي الإشراك به، الَّتي هي بِمُقابَلَةِ الصِّلَةِ الأولى في الآية السابقة: لِرِعايَةِ المُقارَنَة بَيْنَها وبَيْنَ ما يُقابِلُها مِنَ التَّوَكُّلِ عَلى اللهِ تَعالى؛ ولَوْ روعِيَ التَّرْتيبُ السّابِقُ؛ لانْفَصَلَ كُلٌّ مِنَ القَرينَتَيْنِ عَمّا يُقابِلُها، وَأيضًا، لَمّا كانَ كُلٌّ مِنَ الإيمانِ والتَّوَلّي مَنشَأً لِما بَعْدَهُ: قُدِّمَ عَلَيْهِ[5].

---

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 12/ 156.
(2) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 2/ 305، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المَصون: 7/ 286.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 280.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 280.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [النحل: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مـآلُ ولايـةِ الشَّيطانِ إلقاءُ الأباطيل

لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى إنزالَ الكِتابِ تِبيانًا لكُلِّ شَيءٍ، وأمَرَ بالاستعاذةِ عندَ قراءتِه؛ ذكَرَ تعالى نَتيجةَ ولايةِ الشَّيطانِ لأوليائِه المُشرِكينَ، وما يُلقيه إليْهم مِنَ الأباطيلِ[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَّلۡنَآ﴾: أصلُ (بدل): واحِدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ إذا غَيَّرتَهُ وإنْ لَم تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ؛ وهو: تغييرُ الصّورةِ إلى صورةٍ أُخرى، والجَوْهَرةُ بعينِها، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15]؛ وأبْدَلْتُهُ: إذا أتَيْتُ لَهُ بِبَدَلٍ؛ وهو: تنحيَةُ الجَوْهَرة، واستِئْنافُ جوهرةٍ أُخرى[2]، والمقصود بالتَّبديل في الآية: جَعْلُ شَيْءٍ بَدَلًا عَنْ شَيْءٍ آخَرَ، والمُرادُ به: مُطلَقُ التَّغايُرِ بَيْنَ الأغراضِ والمَقاماتِ، أو التَّغايُرُ في المَعاني واختلافُها باختلافِ المَقاصِدِ والمَقاماتِ مع وُضوحِ الجَمعِ بَين محامِلِها[3].

2) ﴿مُفۡتَرِۢۚ﴾: أصلُ الفَرْيِ: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثرُ[4]، والفِرْيَةُ الكَذِبُ، فرَى كَذِبًا فَرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 517.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بدل).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 281.
(4) الرّاغب، المفردات: (فرى).

[يونس: 38]؛ أي: اخْتَلَقَهُ[1]، والمُفْتَري: الكاذِبُ، والمُفْتَرَى: المَكْذوبُ، قال السِّجستانيُّ: "الافتراء: العَظيم من الكَذِب، يُقال لمن عمل عملًا، فبالغ فيه: إنَّه لَيَفري الفَري، يَعْني: لَيَقطع الأمرَ العجيبَ"[2]، والمقصود بالافتراء في الآية: الاختلاق، وهو ابتكارُ الأخبارِ الكاذبة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّرائعُ توضَع مُشاكَلةً للزَّمانِ والمكانِ والأحوالِ المُلابَسةِ لها، وقد يطْرَأُ ما يُغيِّرُها، ويستَدْعي وضعَ تشريعٍ آخرَ يكون أصلحَ للأحوالِ المُفاجِئة

يقُصُّ الحقُّ تعالى بعضَ الأقاويل الَّتي قالها المُشرِكون عن النَّبيِّ ﷺ وعن القرآن الكريم، وردَّ عليها بما يُخرِس ألْسِنَتَهم، فقال تعالى: وإذا نَسَخْنا آيةً من القُرآنِ بآيةٍ أُخرَى سِواها، خيرٍ منها أو مثلِها - واللهُ أعلَمُ بما يُنَزِّلُ في كتابِه، ويَنسَخُه بما يَصلُحُ لِعباده - قال المُشرِكونَ: إنَّما أنت - يا محمد ﷺ - كاذِبٌ تختَلِقُ على اللهِ الباطِلَ، ليس الأمرُ كما قال هؤلاء المُشرِكونَ، ولكِنَّ حقيقةَ الأمرِ هي أنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ حَقيقةَ القُرآنِ وصِحَّتَه، وأنَّه حَقٌّ من عندِ اللهِ: ناسِخُه ومَنسوخُه، وأنَّ ما فيه من نَسخٍ هو لحِكَمٍ إلهيَّةٍ بالغة، كمُراعاةِ مَصلحةِ عِبادِه، وإذا كانوا جُهّالًا لا يَعلَمونَ ذلك؛ فقدْحُهم وذَمُّهم لا عِبرةَ به[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو:

العطفُ على مقدَّرٍ

الواو في صَدْرِ الآيةِ عاطفةٌ، حيث عُطِفَ عَلى مُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيْهِ الكَلامُ ما أَنْتَجَهُ تَسَلُّطُ الشَّيْطانِ عَلَيْهِم، فقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾؛ أيْ: بِعَظَمَتِنا، بِالنَّسْخِ[4].

---

(1) ابن سِيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(2) السِّجستانيُّ، غريب القرآن، ص: 103.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 362، والعليميُّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 4/ 55، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 3/ 232، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 449.
(4) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 253.

وَجْهُ التَّعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن):

تحقُّق هذا التَّبديلِ مراعاة لأحوال النّاس ومصالحهم

عُبِّر بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾؛ للدَّلالة على تَحَقُّقِ هذا التَّبديلِ مراعاةً لأحوال النّاسِ ومصالحِهم، وهذا ما أكّده التَّعبير بالماضي ﴿بَدَّلْنَآ﴾، "قالَ ابْنُ عَبّاس رضي الله عنهما: كانَ إذا نَزَلَتْ آيَةٌ فيها شِدَّةٌ، ثُمَّ نَزَلَتْ آيَةٌ أَلْيَنُ منها؛ تَقولُ كُفّارُ قُرَيْشٍ: واللّه ما مُحَمَّدٌ إلّا يَسْخَرُ بِأصْحابِهِ، اليَوْمَ يَأْمُرُ بِأمرٍ، وغَدًا يَنْهى عَنْهُ، وإنَّهُ لا يَقولُ هَذِهِ الأشْياءَ إلّا من عِنْدِ نَفْسِه، فأنْزَلَ اللّه تعالى قَوْلَهُ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾"[1].

إيثارُ لَفْظِ التَّبديلِ دونَ النَّسخِ والتَّعويض:

تَبديلُ الآيةِ مكانَ الآيةِ هو النَّسْخُ، واللّه تعالى ينسَخُ الشَّرائعَ بالشَّرائعِ؛ لأنَّها مصالح

التَّبديلُ رَفْعُ الشَّيء مع وضْع غيرِه مكانَه، وتَبْديلُ الآيةِ رَفْعُها بآيةٍ أُخرى مكانَها، وهو نَسْخُها بآيةٍ أخرى، وعليه أوثر لَفْظُ التَّبديلِ دون النَّسخِ، والتَّعويض؛ لِتَضَمُّن التَّبديلِ معنى الوَضْعِ، والمعنى: إذا وضَعنا آيةً مكان آيةٍ تبدُّلًا[2].

واللّه تعالى ينْسَخُ الشَّرائعَ بالشَّرائعِ؛ "لأنَّها مصالِحُ، وما كان مصلحةً أمسِ يجوز أن يكون مفسدةً اليومَ، وخِلافُه مصلحة، واللّه تعالى عالم بالمَصالحِ والمَفاسدِ، فيُثْبِت ما يشاء، ويَنْسَخ ما يشاء بحكمته، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾، وجدوا مَدخلًا للطَّعْن، فطعنوا، وذلك لجهلِهم، وبُعْدهم عن العِلْم بالنّاسخ والمنسوخ، وكانوا يقولون: إنَّ محمدًا يسْخَر من أصحابه: يأمُرهم اليومَ بأمرٍ، وينهاهم عنه غدًا، فيأتيهم بما هو أهْوَنُ، ولقدِ افتروا، فقد كان ينْسَخ الأشقَّ بالأهْوَنِ، والأهْوَنَ بالأشقِّ، والأهْوَنَ بالأهْوَنِ، والأشقَّ بالأشقِّ؛ لأنَّ الغرضَ المصلحةُ، لا الهوانُ والمشقَّة، فإن قلت: هل في ذِكْرِ تبديلِ الآيةِ بالآية دليلٌ على أنَّ القرآن

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 20/ 118.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغَيب، حاشية على تفسير الكشّاف: 9/ 193.

إنَّما يُنْسَخُ بمثله، ولا يصِحُّ بغيرِه من السُّنَّة والإجماعِ والقياسِ؟ قلت: فيه أنَّ قرآنًا يُنْسَخ بمثلِه، وليس فيه نَفْي نَسْخِه بغيره، على أن السُّنَّةَ المَكشوفَة المُتواتِرة مثل القرآن في إيجابِ العلم، فنَسْخُه بها كنَسْخِه بمثْلِه، وأمّا الإجماعُ والقياسُ والسُّنَّة غَيْرُ المَقطوعِ بها؛ فلا يصِحُّ نَسْخُ القرآنِ بها"(1).

وزاد ابن عاشور: "فالتَّبْديلُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿بَدَّلۡنَآ﴾ هو التَّعْويضُ ببَدَلٍ، أيْ: عِوَضٍ، والتَّعْويضُ لا يَقْتَضي إبْطالَ المُعَوَّضِ بِفَتْحِ الواوِ، بَلْ يَقْتَضي أنْ يَجْعَلَ شَيْئًا عِوَضًا عَنْ شَيْءٍ، وقَدْ يَبْدو لِلسّامِعِ أنَّ مِثْلَ لَفْظِ المُعَوَّضِ بِفَتْحِ الواوِ جُعِلَ عِوَضًا عَنْ مِثْلِ لَفْظِ العِوَضِ بِالكَسْرِ في آياتٍ مُخْتَلِفَةٍ بِاخْتِلافِ الأغْراضِ مِن تَبْشيرٍ وإنْذارٍ، أوْ تَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ، أوْ إجْمالٍ وبَيانٍ، فَيَجْعَلُهُ الطّاعِنونَ اضْطِرابًا؛ لِأنَّ مِثْلَهُ قَدْ كانَ بُدِّلَ، ولا يَتَأمَّلونَ في اخْتِلافِ الأغْراضِ، وقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِن هَذا المَعْنى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: 15] في سورَةِ يونُسَ"(2).

نُكْتةُ إضافةِ فِعْل التَّبديل إلى ضمير التَّعْظيم:

في الإسنادِ تَرْبيةٌ للمَهابة

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ عنايةٌ بشأنِ فِعْلِ الإبدالِ - فضلًا عن المُبدَّل - بإضافته إلى ضمير التَّعظيم، وتشريفٌ له بوصفِه مُنزَّلًا من عنْدِ اللّهِ تعالى.

سِرُّ تنكيرِ لَفْظ ﴿ءَايَةً﴾ في المَوْضِعيْن:

تفخيم النّاسخ والمَنسوخ

وتنكيرُ لَفْظ ﴿ءَايَةً﴾ في المَوضِعيْن للتَّفخيم، تفخيمِ الآية النّاسِخة والمَنسوخة؛ لأنَّ كِلْتَيْهما مِن عِنْد اللّه تعالى.

إيثارُ لفظِ ﴿مَّكَانَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ منصوبٌ على الظَّرفيَّة المكانيَّة بأن

(1) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 3/ 473.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 281.

المـكـــانُ هنـا مـجـازيٌّ، وهـو حـالـةُ الـكـلامِ والخطابِ

تأتي آيةٌ في الدَّعوة والخطابِ في مكان آيةٍ أُخرى أَتَتْ في مثل تلك الدعوةِ، فالمكانُ هنا مكانٌ مَجازيٌّ، وهو حالة الكلامِ والخطاب، كما يُسمَّى ذلك مقامًا، فيُقال: هذا مقامُ الغضبِ، فلا تأتِ فيه بالمَزْح، وليس المرادُ مكانَها من ألواحِ المصحفِ ولا بإبْدالِها مَحْوَها منه[1].

فائدة جملة الاعتراض:

التَّبديل ليس مِـن عَـمَـلِ الرَّسولِ ﷺ بل هو مِن اللهِ أنزلَه بعِلمِه

جاءت جملةُ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراضيَّةً بين الشَّرطِ وجَوابِه، لِتَوبيخِ الكفّارِ على قولِهم، والتَّنبيهِ على فسادِ سنَدِهم[2]؛ وتعجيلًا لبيان أنَّ تبديلَ آية مكان آية، أو رفْعَ حكم وتشريعَ غيرِه: هو من العلم الشّامل والحِكمة البالغة، وليس من باب التناقض ولا التصادم بين النصوص؛ وإنّما اللّهُ العليم الحكيم يعلم أزلًا ماذا ينزِّل، ومتى ينزِّله، علمًا منه سبحانه بالمصلحة الراجحة، المقترنة بكلٍّ من الزَّمنَين، السابقِ للتنزيل واللاحقِ له، ويجوز أن تكون الجملةُ حالًا، والواو رابطة، والحال مُؤَكِّدةٌ؛ لأنَّ كَوْنَه حالًا مُؤَوَّلٌ بِكَوْنه مقرونًا بِعِلْمه تعالى[3].

وأشار ابن عادل الدِّمشقيُّ إلى الوَجْهيْن بقوله: "في هذه الجملة وجْهان: أظْهَرُهما: أنَّها اعتراضٌ بين الشَّرط وجوابه، والثّاني: أنَّها حاليَّة؛ فعلى الأوَّل يكون المعنى: واللّه أعلم بما يُنَزِّل من النّاسخ والمَنسوخِ، والتَّغليظِ والتَّخفيفِ، أيْ: هو أعلم بجميع ذلك في مصالح العبادِ، وهذا توْبيخٌ للكفّار على قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾، أيْ: إذا كان هو أعلمُ بما ينزِّل؛ فما بالُهم ينْسِبون محمَّدًا إلى الافتراء؛ لأجلِ التَّبديل والنَّسْخ"[4].

ودعا ابن القيِّم إلى تأمُّلِ حُسْنِ الاعتراضِ وجزالَتِه في الآية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 283.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 382.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 12/ 156.

لإفادته أمورًا: "منها: الجوابُ عن سؤالٍ سائلٍ: ما حِكْمَةُ هذا التَّبديلِ، وما فائِدتُه؟ ومنها: أنَّ الَّذي بُدِّلَ، وأُتيَ بغيرِه مُنَزَّلٌ، مُحكَمٌ نزولُه قبلَ الإخبارِ بقَولِهم، ومنها: أنَّ مَصدَرَ الأمرَيْنِ صادرٌ عن عِلْمِه ﷻ، وأنَّ كُلًّا منهما مُنَزَّلٌ؛ فيَجِبُ التَّسليمُ والإيمانُ بالأوَّلِ والثّاني، ومنها: أنَّ هذا التَّبديلَ ليس من عَمَلِ الرَّسولِ ﷺ، بلْ هو من اللّهِ؛ أنزلَه بعِلمِه، وأبدلَ آيةً مكانَ آيةٍ بعِلمِه؛ وليس منك أيُّها الرسولُ"[1].

بلاغةُ الالتفاتِ مِن الإضْمار إلى الإظهار:

إضْفاءُ المَهابةِ على الخبر، وتقويةٌ لاستقلال جملة الاعتراض

التفاتُ الخطابِ مِن الإضمار في ﴿بَدَّلۡنَآ﴾ إلى الإظهار في ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، بالتَّصريح باسمه الأعظم الَّذي يدلُّ على الإحاطة الشّاملة: مناسبٌ لِعِظَم شأنِ الإنزال، وقداسةِ المُنَزَّل[2]، مع ما فيه من تربيةِ المَهابةِ في النفوس على الخَبَر، وفيه أيضًا تحقيقٌ لمعنى الاعتراض[3]، ولتكونَ الجملةُ مستقلةً بمعناها، تُضرَب مثلًا حيثُما يتأتّى استعمالُها.

دلالةُ صيغة أفعل في التَّعبير عن عِلْم الله:

الله أعلم بالنّاسخ والمنسوخ

أصْلُ العِلْم: إدراك الشَّيءِ على حقيقته، وهو معْرفةُ الشَّيءِ على ما هو عليه، والعِلْمُ نوعان: نظريٌّ وعَمَليٌّ، فالنَّظَريُّ: ما إذا عُلِمَ، فقدْ كَمُلَ، نَحْو العِلْمِ بموجودات العالَم، والعَمَليُّ: ما لا يَتِمُّ

---

(1) وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، أي: من ناسخٍ قَضَت الحكمَة أن يَتَبَدَّلَ المَنسوخُ الأوَّلُ به، وذَهَبَ قَومٌ إلى أنَّ المَعنى تَبديلُ آيَةٍ من آيات الأنبياء المُتَقَدِّمينَ، كَآيَة موسى وعيسى وغَيرهما منَ الآيات الكَونيَّة الآفاقيَّة، بآيَةٍ أُخرى نَفسيَّةٍ علميَّةٍ، وهي كَونُ المُنَزَّل هُدًى ورَحمَةً وبشارَةً يُدركُها العَقلُ، إذا تَنَبَّهَ لَها، وجَرى عَلى نظامه الفطريّ، وذَلكَ لاستعداد الإنسان وقتَئذٍ، لأن يُخاطب عَقلَهُ، ويَستَصرخ فمَهُ ولُبَّهُ، فلَم يُؤتَ من قبَل الخَوارق الكَونيَّة، ويُدهَش بها، كَما كانَ لمَن سَلَفَ، فبُدّلَت تلكَ بآيَةٍ هو كتابُ العلم والهُدى من نَبيٍ أُمّيٍّ لَم يَقرَأ، ولَم يَكتُب، والمَقصودُ أنَّهُ تَعالى، لَمّا رَحمَ العالَمينَ، وجَعَلَ القُرآنَ مَكانَ ما تَقَدَّمَ، نَسَبوا الموحى إلَيه به إلى الافتراء، رَدًّا للحَقّ، وعنادًا للهُدى، وتَوَلّيًا للشَّيطان، وتَعَبُّدًا لوَسوَسَته، وما ذاك إلّا لجَهلهم المُتَناهي، كَما قالَ: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، واعْتِراضُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾لِتَوْبِيخ الكَفَرَةِ والتَّنْبِيه عَلى فسادِ رَأْيِهم، يُنظر: ابن القَيِّم، التِّبيان في أقسام القرآن لابن القيِّم، ص: 224، وابن عُثَيْمين، شَرْح العقيدة الواسطية: 1/ 441.

(2) البقاعيُّ، نظم الدرر: 11/ 254.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 141، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 231.

إلّا بأن يعملَ كالعِلْم بالعبادات[1]، والتَّعبير بصيغة أفعل ﴿أَعۡلَمُ﴾ عن عِلْم اللّه إشارةٌ إلى مُطْلَق سَعةِ عِلْمه تعالى الَّتي لا تضاهيها سَعةٌ، وإلى عظيم حِكْمته ﷻ، وإلى التَّفاوت غيرِ المحدودِ بين العِلْم الإلهيِّ اللَّدُنّيِّ، والعِلْم البَشَريِّ القاصر، والمعنى: واللّه أعلم بالنّاسخ والمنسوخ فيكْفيك عِلْمُه، فلا يَحْزُنْك ما قالوه[2]، وفيه تَسْرِيَةٌ عن النَّبيِّ ﷺ، وتسْليَةٌ له.

عمومُ عِلْمه سبحانه بِكلِّ ما يُنزِّله، وما يُبَدِّله

معنى الباء، وإيثارُ الموصول (ما):

والباء للمُلابَسَة، أي: عِلْمُه تعالى مُلْتبِسٌ بما يُنَزِّله، وأوثر التَّعبيرُ بـ(ما) المَوْصوليَّةِ؛ ليدُلَّ على عموم عِلْمِه سبحانه بِكلِّ ما يُنزِّله، وما يُبَدِّله.

اللّه أعْلَمُ بالمَصْلَحَةِ فيه يُنَزِّلُهُ ناسِخًا ويَرْفَعُهُ مَنسوخًا

سِرُّ التَّعبير بفعل التَّنزيل مضارعًا:

التَّعبيرُ بفعل التَّنزيلِ مُضارعًا فيه دلالةٌ على تَجَدُّد التَّغيير والتَّبديل بما فيه من ناسخٍ ومنسوخٍ واستمرارِه طولَ فتْرَةِ نزول القرآن؛ مراعاةً لأحوال النَّاسِ ومصالِحهم، والمعنى: يَعْني أعْلَمُ بالمَصْلَحَةِ فيه، يُنَزِّلُهُ ناسِخًا، ويَرْفَعُهُ مَنسوخًا[3]، وهوَ أعْلَم بما يُنَزِّلُ فيما يغيِّر، ويُبَدِّل، أعْلم بما هو أصْلَح لِخَلْقِه فيما عَدَّل من أحكامه[4].

عمومُ عِلْمه سبحانه فيما يغيِّر ويُبَدِّل

دلالة إضمار المُنَزَّل:

إضمارُ المُنَزَّل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾؛ للإشارة إلى عموم عِلْمِه سبحانه فيما يغيِّر، ويُبَدِّل.

المُنَزِّل للآيات ناسِخِها ومنسوخِها اللّهُ تعالى

بيان العُدول من (واللّه أعلمُ بما يُبَدِّل) إلى ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾:

عُبِّر بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، وليس (واللّه أعلمُ بما يُبَدِّل) مع أنَّ الحديث عن تبديل الآي؛ للتأكيد على أن المُبدَّل من

---

(1) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: باب العين: 3/ 112.

(2) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 2/ 305.

(3) الماورديُّ، النُّكَت والعُيون: 3/ 117.

(4) الثَّعلبيُّ، الكَشْف والبَيان: 6/ 43.

الآي إنَّما هو مُنَزَّلٌ بعلم اللّه تعالى حالُه حال الَّذي نُسخَ لا فرقَ بينه وبين المُبدَّل؛ فالمُنزِّل للكلِّ اللّهُ تعالى، وفي هذا دفْعٌ لافترائِهم.

وَجْه التَّعبير بفِعْل القَوْلِ ماضيًا مجموعًا:

ثبوت افترائهم وتحقُّقه

عُبِّر بفعل القولِ ماضيًا مجموعًا في قوله تعلى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾؛ للإشارة إلى تَحقُّق هذا القولِ بِنِسْبته ﷺ إلى الافتراء - شاهت وجوهُهم - وصُدوره عن المشركين ومُنْكري نُبوَّتِه ﷺ باعتبار الأكثريَّة، وإلى تَأبّي الأقليَّة عن الإيمان على الرَّغم من عِلمِهم بصدقه ﷺ لكِنَّهم تَمرَّدوا، وأصَرّوا على الكفر والعناد، فأُدخلوا في زُمرة المُتقوِّلين.

دلالة التَّعبير بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

مبالغة مُنْكري رسالة النَّبيِّ ﷺ في نِسْبَةِ الافتراءِ له

دَلَّ التَّعبير بـ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ على مبالغة مُنْكري رسالة النَّبيِّ ﷺ في نِسْبَةِ الافتراءِ له ﷺ، وبمواجَهة الخِطابِ بأداة القصر الَّتي تُستعمل في الأمر المَعلوم الَّذي لا يُنكِره المُخاطَب، فهُم يَرَون أنَّ كونَه ﷺ مُفْتَرٍ - حاشاه - أمرٌ راسخ مؤكَّدٌ، وحقيقةٌ يقينيَّة لا تقبل الجدالَ ولا الشَّكَّ.

فائدة الضَّمير ﴿أَنتَ﴾:

مُجازَفة المُشركين، وسُرْعَتُهم في الحُكْمِ الجائرِ

في إيثار الضَّمير ﴿أَنتَ﴾ إشارةٌ إلى حِرْص المشركين على مواجهة النَّبيِّ ﷺ بمَزاعِمهم بنسبة الافتراءِ إليه مُكافحةً، "وحِكايَةُ طَعْنِهِم في النَّبي ﷺ بِصيغَةِ قَصْرِ المَوْصوفِ عَلى الصِّفَة، فجَعَلوهُ لا صِفَةَ لَهُ إلّا الافْتِراءَ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أيْ: لَسْتَ بِمُرْسَلٍ مِنَ اللّه، وهَذا مِن مُجازَفَتِهِم وسُرْعَتِهِم في الحُكْمِ الجائرِ، فلَم يَقْتَصِروا عَلى أنَّ تَبْديلَهُ افْتِراءٌ بَلْ جَعَلوا الرَّسولَ مَقْصورًا عَلى كَوْنِهِ مُفْتَرِيًا؛ لِإفادَةِ أنَّ القُرْآنَ الوارِدَ مَقْصورٌ عَلى كَوْنِهِ افْتِراءً"[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 183.

أرادوا ثبوتَ نسبةِ الافتراء ودوامَها

نُكْتة التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُفۡتَرِۭ﴾:

تجاوبَ التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُفۡتَرِۭ﴾ الدّالِّ على الثُّبوت والاستمرار مع القَصْر بـ﴿إِنَّمَآ﴾ والخطاب ﴿أَنتَ﴾ على مبالغة المُشركين في نِسْبة الافتراء إليه[1]؛ بوصفها خَصلةً ثابتةً فيه، داوم عليها، واستمرَّ، ودَأبَ في أقواله وأفعاله، حاشاه وهو الصّادقُ المَصدوقُ الأمينُ ﷺ.

الافتراء اختلاق ما لا حقيقةَ له فهو أعمُّ من كلِّ ما يخالفُ الحقيقةَ

إيثار لفْظِ الافتراء دون غيره:

الافْتِراءُ: الِاخْتِراعُ، ويُطَلَّق عَلى اخْتِراعِ الخَبَرِ؛ أي: اخْتِلاقِه، فساوى الكَذِبَ في المَعْنى، ولِذَلك قَدْ يُطْلَقُ وحْدَه كَما هُنا، وقَدْ يُطْلَقُ مُقْتَرِنًا بِالكَذِبِ، كَقَوْلِهِ الآتي: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النّحل: 105]؛ إرْجاعًا بِهِ إلى أصْلِ الِاخْتِراعِ، فيُجْعَلُ لَهُ مَفْعولٌ هو آيِلٌ إلى مَعْناهُ؛ فصارَ في مَعْنى المَفْعولِ المُطْلَقِ[2]، والتَّعبير به هنا مبالغةٌ في إظهار قُبْحِهم، وشنيع خِصالهم بتجاوزهم وصْفَه ﷺ بالكذب إلى وصْفِه بالاختلاق من عند نفسه، وهو تمادٍ في الظُّلم، وسوءِ الخُلُق، وخَرْمٌ لمروءة الرِّجال، ونَقيّي الخِصال.

تَعْرِيةُ عقول مُنْكري النُّبوّة

وَجْهُ العطف بـ﴿بَلۡ﴾:

في العَطْف بـ﴿بَلۡ﴾ إضرابُ انتقالٍ؛ لإبطالِ كلامِهم ونَقْضِه، معناه: بل لستَ مُفتريًا، ولكنَّ أكثرَهم لا يَعْلَمون، ولو أنَّهم كانوا من ذوي العلم لَعَلِموا أنّه إذا بُدِّلَتْ آيةٌ مكانَ آيةٍ؛ فإنَّما ذلك دليلٌ على صِدْقِ الرَّسولِ عليه السلام[3].

المُساواةُ في الكُفْر والجُحود

سرُّ وصْف الأكثريَّة بعدم العِلْم دون الإطلاق:

عُبِّر بـ (الأكثَرِ)؛ مُراعاةً لِما كان عندَ قليلٍ منهم من توقُّفٍ، وقِلَّة

(1) ابن عادل الدِّمشقيُّ، اللُّباب في علوم الكِتاب: 12/ 157.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 183.
(3) ابن عَرَفَة، تفسير ابن عرفة: 3/ 50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 183.

مُبالَغة في التَّكذيبِ والظَّنِّ، أو لأنَّ بعضَهم يَعلَمُ، ويَكفُرُ عِنادًا؛ فيَكونُ هذا اللَّفظُ قَرَّر على قليلٍ مِنهم أنَّهم يَعلَمون، ويَكفُرون تَمرُّدًا وعِنادًا[1]؛ وعند ابن عَرفة أنَّ المرادَ: أقَلُّهم عالمون معانِدون، أو: أقَلُّهم شاكّون، فإن قيل: الشّاك غيرُ عالم فكُلُّهم إذًا لا يعلمون، فيُجابُ: معنى الآيةِ: بلْ أكثرُهم مُصَمِّمون، وأمّا الشّاكّون؛ فليسوا بمُصَمِّمين على الكذب، فيجوز في لَفْظ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إرادةُ التَّصميم على الكذب[2].

سِرُّ صَوْغِ الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مضارعًا مجموعًا:

إصرارٌ على الكُفْر والعِناد

صيغَ الفعلُ المنفيُّ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مضارعًا مجموعًا؛ للتَّشهير باستمرار غبائِهم، واستمرار عنادِهم وافترائِهم.

علَّة حَذْفِ متعلِّق الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

الحذف لِدَلالةِ السِّياق

ومفعول ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ محذوفٌ؛ لِدَلالةِ المعنى عليه، أيْ: لا يَعلَمون أنَّ الشَّرائعَ حِكَمٌ ومَصالِحُ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراء والكذب والبُهتان والاختِلاق والإفْك:

الافتراءُ اختلاقُ الكذب بقلبِ الشَّيءِ عن وجهِه

يدلُّ أصلُ مادَّة الافتراء (فَرِيَ) على القَطْع؛ قَطْعِ الجِلْد للخَرْز، والفَرْيُ: الإصلاحُ، والإفراءُ: الإفسادُ، كأنَّ الهمزةَ فيه للسَّلْب، وإذا أُزيل الإصلاحُ؛ صار فسادًا، والافتراءُ: افتعال مِن الفَرْي أو الإفراءِ، وهو أقبح الكذبِ، أو الكذبُ مع التَّعمُّدِ عند مَن يرى أنَّ الكذبَ مخالفةٌ في الواقع مُطلَقًا[4].

وفي العَلاقة بين البُهْتان والافتراء، قال الكَفَويُّ: البُهْتان: هو الكَذِب الَّذي يَبْهَت سامعُه، أي: يَدْهَش له، ويَتَحيَّر، وهو أفْحَشُ من

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 518، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401، وابن عطية، المُحَرِّر الوجيز: 3/ 420 - 421.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 50.

(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 518، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401.

(4) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (فري).

الكذب؛ لأنَّه إذا كان عن قصدٍ يكون إفكًا، والإفْك: إذا كان على الآخر يكون افتراءً، والافتراءُ: إذا كان بحضرة المَقول فيه يكون بُهتانًا(1)، والإفْك: قَلْب الشَّيْء عن وجْهه، ومنه ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ [النجم: 53] المُنْقَلِبَة، الإفْك: الكَذِب؛ لأنَّه قَلْب المعنى عن جهة الصَّواب، وأَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا صَرَفْتُهُ عَنْه(2).

يشتركُ الجميعُ في عَدَمِ مطابقةِ الخبَرِ للواقِعِ

الكَذِبُ: هو عدَمُ مطابقةِ الخَبَرِ للواقعِ، أو لاعتقادِ المُخبَرِ لهما، على خلافٍ في ذلك، ويكونُ في حَقِّ النَّفسِ، وحَقِّ الآخر، والافتِراءُ والبُهتانُ: يكونان في حَقِّ الآخر فقط.

والكَذِبُ: يُتسامح به في بعضِ الأحوالِ، ولا يُسمّى عندئذ كذبًا، وإنّما تورية أو احتيالا، كالكَذِبِ في الحَربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ، وعلى الزَّوجةِ، ولا يجوز الافتِراءُ والبُهتانُ في جميعِ الأحوالِ.

وقال الرّاغِبُ في الفَرْقِ بَيْنَ الكَذِبِ والافترِاءِ والمَينِ والبُهتانِ: "الكَذِبُ إمّا أن يكونَ اختراعًا لقِصَّةٍ لا أصلَ لها، أو زيادةً في القِصَّةِ أو نقصانًا يُغَيِّرانِ المعنى، أو تحريفًا بتغْييرِ عبارةٍ؛ فما كان اختراعًا؛ يُقالُ له: الافتراءُ والاختلاقُ، وما كان من زيادةٍ أو نقصانٍ؛ فمَينٌ، وكُلُّ مَن أوْرَدَ كَذِبًا في غيرِه، فإمّا أن يقولَه بحَضرةِ المَقولِ فيه أو بغيرِ حضرتِه، وأعظَمُ الكَذِبِ ما كان اختراعًا بحَضرةِ المَقولِ فيه، وهو المعبَّرُ عنه بالبُهتانِ"(3).

وفي الفَرْقِ بَيْنَ الزّورِ والبُهتانِ: الزّورُ: هو الكَذِبُ الَّذي قد سوّيَ، وحُسِّنَ في الظّاهِرِ؛ ليُحسَبَ أنَّه صِدقٌ(4)، والبُهتانُ: هو مواجهةُ الإنسانِ بما لم يحِبَّه، وقد بَهَتَه(5).

(1) الكَفَوِيُّ، الكُلِّيات، ص: 215.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفِك).
(3) الرّاغب، المفردات: (بهت، كذب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زور).
(5) ابن منظور، لِسان العرب: (بهت).

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾ [النحل: 102]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد دفعِ الافتراءِ بيَّن ماهيَّة القرآنِ

في الآية السّابقة أبْطَلَ اللّه دَعْوى المُشركين عَلَيْهِ ﷺ أنَّهُ مُفْتَرٍ بطَريقَةِ النَّقْضِ بنَفْي العِلْم عن أكثرهم، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ أمَرَ رَسولَه ﷺ أنْ يُبَيِّنَ لَهم ماهيَّةَ القُرْآنِ، فأمر رسولَه الكريم ﷺ بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: أصلُ (روح): مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرادٍ، وأصْلُ ذلكَ كُلِّه الرِّيحُ، وأصلُ الياءِ في الرِّيح الواوُ، وإنَّما قُلِبَتْ ياءً لِكَسرَةِ ما قَبلَها، فالرّوحُ روحُ الإنسانِ، وإنَّما هو مُشْتَقٌّ مِنَ الرّيح، وكذلكَ البابُ كُلُّه[2]، والرّوحُ جَوهَرٌ نورانيٌّ لَطيفٌ؛ أيْ: غيرُ مُدرَكٍ بالحَواسِّ، فيُطلَقُ على النَّفْسِ الإنسانيِّ الّذي به حَياةُ الإنْسِ، ولا يُطلَقُ على ما به حياةُ العَجماواتِ إلّا لفظُ نَفْسٍ، قالَ تَعالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]، ويُطلَقُ على قوَّةٍ مِنْ لَدُنِ اللّه تَعالَى يَكونُ بها عَمَلٌ عجيبٌ، ومنهُ قَولُهُ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التَّحريم: 12]، ويُطلَقُ على جِبريلَ، كما في قَولِه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشُّعراء: 193 - 194]، والرّوحُ: المَلَكُ، قالَ تَعالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مَرْيَم: 17]، أيْ: مَلَكًا مِنْ مَلائِكَتِنا، والقُدُس: الطُّهْرُ؛ وروحُ القُدُسِ: روحٌ مُضافٌ إلى النَّزاهَةِ والطُّهْرِ، والمُرادُ بِهِ جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 284.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (روح).

(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (روح)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 596، و14/ 272.

2) ﴿لِيُثَبِّتَ﴾: أصلُ (ثبت): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، تدلُّ على دَوام الشَّيءِ، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا[1]، ومنه: ثَبْتُ الجَنانِ: ماضٍ في الأمرِ والحَرْبِ، وأَثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها، وثَبَتَ القَوْلُ والأمرُ: وضَحَ، ورَجُلٌ ثَبْتٌ، أي: حُجَّةٌ، والثّابِتُ: اللّازِمُ الواقِفُ[2]، والثَّبْتُ: المُتَثَبِّتُ في الأُمُوْرِ، والإثبات والتَّثبيت تارةً يُقالُ بالفعل، فيُقال لما يخرج من العَدَم إلى الوجود، نحو: أثبتَ اللّهُ كذا، وتارةً لما يثْبُت بالحُكم، فيُقال: أثبتَ الحاكمُ عليه كذا، أو ثَبَّته، وتارةً لما يكون بالقَول سواءٌ كان صِدقًا أم كذبًا، فيُقال: أثبت التَّوحيد، وصدَّق النُّبوَّة، وفلان أثبتَ مع الله إلهًا آخر[3]، وحَقيقَةُ التَّثبيت في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ ثابتًا قارًّا في مَكانٍ، والمرادُ به: بَيانٌ لرسوخِ إيمانِ المُؤمِنينَ وسدادِ آرائِهِم في فهْمِ الكلامِ السّامي، وأنَّهُ تَثبيتٌ لقُلوبِهم بصِحَّةِ اليقينِ وهُدًى وبُشرى لَهُم[4].

3) ﴿وَهُدًى﴾: أصلُ (هدى): الرَّشادُ والبَيانُ والدَّلالةُ بلُطْفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطْلوبِ، يُؤَنَّثُ، ويُذَكَّرُ، وهو لازِمٌ ومُتَعَدٍّ، يُقالُ: هَداهُ، هُدًى، وهَدْيًا، وهِدايَةً، وهِدْيَةً، وهَداهُ للدّين وإلى الدّين؛ أيْ: أرْشَدَهُ إليه، وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ، ومِن معانيه أيضًا: الطّاعَةُ، والوَرَعُ، وطَريق الحَقِّ، وإخراجُ شَيءٍ إلى شَيْءٍ، والنَّهارُ[5]، والمقصود بالهُدَى في الآية: الإرشادُ إلى ما فيه صلاحُ العاجِلِ الَّذي لا يَنقُضُ صلاحَ الآجِلِ.

4) ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: أصلُ (بشر): واحِدٌ: ظُهورُ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ؛ فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، ومنه: باشَرَ الرَّجُلُ المَرأةَ، وذلكَ إفضاؤُهُ بِبَشَرَتِهِ إلى بَشَرَتِها، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِم، والبشيرُ: الحَسَنُ الوَجْهِ، والبَشارَةُ: الجَمالُ، والبَشَرةُ: انتشارٌ واسعٌ على ظاهِرِ الشَّيء كانتشار الشَّعر على الجلد، وأصلُ البِشْرِ - بالكسر -: الطَّلاقةُ والبَشاشةُ وبَسْطُ الوجه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾ [الصّافات: 101][6]، والبُشرى: الخبر الَّذي يُغيِّر البَشَرة من حُزْنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكون إلّا بالخبر الأوَّل[7]، فيُقالُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثبت).
(2) ابن عباد، المحيط في اللُّغة: (ثبت).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 347.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 285.
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزبيديُّ، تاج العروس: (هدي)، والجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 277، والمناويُّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 343.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (بشر).
(7) النوويُّ، تحرير ألفاظ التَّنبيه، ص: 267، والبقاعيُّ، نظم الدُّرَر: 11/ 184.

أَبْشَرْتُ الرَّجُلَ، وبَشَّرْتُهُ، أيْ: أَخْبَرْتَهُ بِأمرٍ سارٍّ[1]، وسُمّيَتْ بذلك مِنَ البِشْرِ وهو السُّرورُ؛ لأنَّها تُظْهِرُ طَلاقَةَ وجْهِ الإنْسانِ وفَرَحَه، والمقصود بالبُشْرى في الآية: خَبَرٌ بحصولِ ما فيه نفعٌ ومَسرَّةٌ للمُخْبَرِ به.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّسخ واقعٌ في القرآن لِحِكْمَةٍ هي مراعاةُ المصالحِ والحوادثِ وتطوُّرِ الأوضاعِ البشريَّة

بَيَّن ﷻ لهؤلاءِ المعترضينَ على حِكمةِ النَّسخِ، الزّاعمينَ أنَّ ذلك لم يَكُنْ مِنْ عندِ اللّه، وأنَّ رسولَه ﷺ افْتَراه، فقالَ: قُل يا مُحمَّدُ ﷺ لهؤلاءِ المُشركينَ: ليس هذا القُرآنُ مُفتَرًى مِن عندي، وإنَّما نزَّله عليَّ - ناسِخَه ومَنسوخَه - جبريلُ المُطَهَّرُ مِن كُلِّ خيانةٍ وهَوًى، وعَيبٍ وآفةٍ، نزَّله مِن عندِ رَبّي سُبحانَه مُشتَمِلًا على الحَقِّ؛ بالصِّدقِ في الأخبارِ، والعَدلِ في الأحكام، بلا خطأٍ فيه ولا تَحريفٍ؛ ليُثَبِّتَ المُؤمنينَ على الحَقِّ، ويُقَوّيَ إيمانَهم، وهُدًى مِن الضَّلالة، وبُشرى بالخَيرِ للَّذينَ استَسْلَموا لأمرِ اللّهِ تعالى، وخَضَعوا له، وانقادوا إلى ما أنزَلَه، فأقَرّوا بذلك، وصدَّقوا به قَولًا وعَملًا[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفَصْل في الآية:

شَدُّ عَزْمِ الرَّسول ﷺ

وَقَع قولُه تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ جوابًا عَنْ قَوْلِهِم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢ﴾؛ لذا فُصِلَ فِعْلُ ﴿قُلۡ﴾ لِوُقوعِه في المُحاوَرَة، أيْ: قُلْ لَهم: لَسْتُ بِمُفْتَرٍ، ولا القُرْآنُ بافْتِراءٍ، بَلْ نَزَّلَهُ روحُ القُدُسِ مِنَ اللّه، وفي أمرِهِ بِأَنْ يَقولَ لَهم ذَلِكَ شَدٌّ لِعَزْمِه؛ لِكَيْلا يَكونَ تَجاوُزُهُمُ الحَدَّ في البُهْتانِ صارِفًا إيّاهُ عَنْ مُحاوَرَتِهِم[3].

(1) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 128، والعَوْتَبيُّ، الإبانة في اللُّغة العربيَّة: 2/ 280.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 363، 364، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 603، والسَّعدي، ص: 449، والشَّنقيطيُّ، أضواء البيان: 2/ 453.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 284.

رسالةٌ مهمَّة يجب تبليغُها فورَ تلقِّيها

دلالة الأمر بـ﴿قُلۡ﴾:

دَلَّ الأمرُ ﴿قُلۡ﴾ على أنَّ ما لُقِّنه الرَّسولُ ﷺ رسالةٌ مهمَّة يجب تبليغها فور تلقّيها، وفيها تثبيتٌ له ﷺ بتَلقينه حُجَّتَه لإبطال مَزاعِم مُنْكِري نُبوَّته ﷺ.

تأْنيس النَّبيِّ ﷺ بزيادةِ توغُّلِ الكلامِ معَه

بلاغة الالتفات:

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ التفاتٌ مِن التَّكلم إلى الخِطاب؛ حيث كان مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يَقولَ: (مِن رَبّي)؛ وذلك لِتأْنيس النَّبيِّ ﷺ بِزيادةِ تَوَغُّلِ الكَلامِ مَعَهُ في طَريقَةِ الخِطابِ، واخْتيرَ اسْمُ الرَّبِّ لِما فيهِ مِن مَعْنى العِنايَةِ والتَّدْبيرِ واللُّطْفِ(1).

التَّعبير بالماضي تحقيق للتَّنزيل وتأكيد له

سرُّ التَّعبير بفعل التَّنزيل ماضيًا:

عُبِّر بفعل التنزيل ماضيًا في قوله: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾؛ لِمطابقتِه للواقع؛ حيث نزلَتْ كثيرٌ مِن آيات القرآن وسوَره قَبْلَ نزولِ تلك الآيةِ الكريمةِ، فكان التَّعبير بالماضي تحقيقًا للإنزال وتأكيدًا لَه، وتعبيرًا عن زمن نزولِه.

دلالة صيغة (فَعَّل) على العمل المتُكرِّر في مُهْلة

إيثار فعل التَّنزيل على الإنزال:

أوثر فعلُ التَّنزيل على الإنزال، فقال سبحانه: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾؛ لِمُناسبته للمقام؛ بالإشارة إلى أنَّ القرآن الكريم لَم يَنْزِل دَفْعةً واحدةً، بَلْ نَزَل بالتَّدريج على حَسَب المصالح مِمّا يستدعي التَّبديل، بناءً على دَلالة صيغةِ (فَعَّل) على العمل المُتكرِّر في مُهْلة، أيْ: وجود أصْلِه شيئًا فشيئًا، فتنزيلُ القرآن: توزيع نزوله على الأوقات بِناءً على مصالح النّاس، وذلك يقتَضي أن يُنْسَخ حُكْمُ آية، ويُبَدَّل مكانه؛ لاختلاف المَصالح باختلاف الأوقات؛ لذلك فلا غَرْوَ مِن أن يكون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 284.

إنزالُه مُتدرِّجًا على حسَب المصالح مُسْتَلْزِمًا للنَّسْخ والتَّبديل ومُقْتَضيًا إيّاه[1].

عَوْدُ الضَّمير في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾:

يعود الضَّمير في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ إلى القُرْآنِ المَدْلولِ عَلَيْهِ بِالآيَةِ الكريمة[2].

نُكْتة إضمار المُنَزَّل:

تفخيم المُنَزَّل، والدَّلالة على عمومه

أُضْمِر المُنَزَّلُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لِتفخيمه، وللدَّلالة على عموم التَّنْزيل.

بلاغة إضافة الرّوح إلى القدس:

المبالغة في الوَصْف بالطُّهْر

المقصود بروح القُدُس جِبْريلُ عليه السلام، و﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ يَعْني بأنَّه الرّوحُ المُطَهَّرُ مِنَ الأدْناسِ البَشَريَّة، وإضافَةُ الرّوحِ إلى القُدُس، وهو الطُّهْرُ كَإضافَةِ حاتم إلى الجودِ، حَيْثُ قيلَ: حاتِمُ الجودِ لِلْمُبالَغَةِ في ذَلِكَ الوَصْفِ، كَأَنَّهُ طَبْعٌ مِنه؛ أيْ: لِلْمُبالَغَةِ في كَثْرَةِ مُلابَسَتِهِ لَهُ واخْتِصاصِهِ بِهِ[3].

وجه إسنادِ الإنزال إلى روح القدس بعد إسنادِه إليه تعالى:

مكانة جبريل عليه السلام

في إسناد الإنزال هنا إلى روحِ القُدُس بعد إسنادِهِ إليه تعالى في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ بيانٌ لمكانة جبريل عليه السلام، فهو سفير السَّماء إلى الأرض، وأمينُ الوَحْي الإلهيِّ.

بلاغة الاستعارة في ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾:

حياة الدِّين وطهارةُ المؤمنين إنَّما تكون بما نزل به الرّوح الأمين

قوله تعالى: ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ من باب إضافة المَوْصوف إلى مَصْدَرِ الصِّفَةِ لِلْمُبالَغَةِ في كَثْرَةِ مُلابَسَتِهِ لَهُ واخْتِصاصِهِ بِهِ، وقد أشار الشَّريف الرَّضيُّ إلى أنَّ هذا من باب المجاز، فقال: "وهذه استعارةٌ؛ لأنَّ المرادَ بذلك جبريلُ عليه السلام، والتَّقديس: الطَّهارة، وإنَّما

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/ 325، والشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 5/ 369.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401، والقونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 383.

سُمّي روحُ القُدُس؛ لأنَّ حياة الدّين وطهارة المؤمنين إنَّما تكون بِما يحمله إلى الأنبياء ﷺ من الأحكام والشَّرائع، والآداب والمصالح"[1].

دلالة ﴿مِن﴾:

بيان مَصْدر القرآن الكريم

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لِابْتِداءِ الغايَةِ؛ ولبيان مَصْدرِ القرآن الكريم، ولإبطال قَوْل المُشرِكين للرَّسول صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾.

سِرُّ إيثار لفظ الرُّبوبيّة، وإضافته إلى الكاف:

تشريف الرَّسول ﷺ، والإعْراض عن مُعارضيه

وأوثر التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على العناية الإلهيَّة بالنَّبيِّ ﷺ، والرِّعاية واللُّطف به، كَما يدُلُّ عليه المدلول اللُّغَويُّ للكلمة.

وأضيف (الرَّبُّ) إلى ضَميرِهِ ﷺ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ لِلدَّلالَةِ عَلى تَحْقيقِ إفاضَةِ آثارِ الرُّبوبيَّةِ عَلَيْهِ ﷺ ما لَيْسَ في إضافَتِهِ إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ المُنْبِئَةِ عَنِ التَّلْقينِ المَحْضِ[2]؛ "وكَأنَّهُ - اعْتناءً بِأمرِ هَذِهِ الدَّلالَةِ - لَم يَقُلْ: (مِن رَبِّكم)؛ عَلى أنَّ في تَرْكِ خِطابِهِم مِن حَطِّ قَدْرِهِم ما فيه"[3].

وفي الإضافة إلى كافِ الخِطابِ أيضًا تَشْريفٌ لِلرَّسولِ ﷺ بِاخْتِصاصِ الإضافَةِ، وإعْراضٌ عن مُعارضيه؛ إذْ لَم يُضِفْ إلَيْهِم[4]، والإقبال عليه ﷺ بالخِطاب وحْده، فلا يخفى عَوْد الضَّمير في ﴿رَّبِّكَ﴾ إلى الرَّسول ﷺ.

دلالة الباء، ووَجْه تعريف الحقِّ:

النَّسْخ مِن جملة الحقّ

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للمُلابَسة، وشِبْه الجملة في محلِّ نَصْب حالٌ، والتَّقدير: (نَزَّله مُلْتَبِسًا بِالحَقِّ)؛ أيَ: بالحِكْمة، وتدلُّ

(1) الشَّريف الرَّضيُّ: تلخيص البيان، ص: 167.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 231، والقاسميُّ، محاسن التَّأويل: 10/ 3859.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 221.

على شِدَّة التصاق المُنَزَّل مِن اللهِ تعالى ناسِخًا أو منسوخًا بالحَقِّ، وأيضًا على استغراقه الحَقَّ كُلَّه، ومصاحبته له، وزاد صاحبُ البحرِ المحيط أنَّ النَّسْخَ مِن جملة الحَقِّ، سَواءٌ كانَ ناسِخًا أَوْ مَنسوخًا، فكُلُّه مَصْحوبٌ بِالحَقِّ لا يَعْتَريهِ شَيْءٌ مِنَ الباطِلِ(1).

ويمكن أن تكون الباءُ بمعنى حرفِ المصاحَبة: (مَعَ)، والمعنى؛ أيْ: مع الحقِّ في أوامره ونواهيه وأخباره، ويُحتمل أن يكون قولُه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بمعنى (حقًّا) أو بمعنى أنَّه واجب النُّزول(2).

دلالة اللَّام، وتوجيه التَّعبير عن التَّثبيت بالمضارع المُضعَّف:

الإشارة إلى عِلَّة التَّنزيل بالنَّسْخ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للتَّعليل؛ حيث أشارت إلى عِلَّة التَّنزيل بالنَّسْخ.

وفي التَّعبير عن التَّثبيت بالمضارع المُضَعَّف إشارةٌ إلى قوَّة التَّثبيتِ ومتانتِه ورسوخِه؛ إذ إنَّ زيادةَ المَبنى تَدُلُّ على زيادة المَعنى، والمُرادُ: لِيُثَبِّتَ الَّذينَ آمَنوا عَلى الحَقِّ ونَبْذِ وساوِسِ الشَّياطينِ.

نُكْتة التَّعبير بجملة الصلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إيمان راسخ، ويقين ثابت

أوثر التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ؛ لِتَعليلِ الحُكْمِ بالتَّثبيت لِلَّذين آمنوا مِن خلالِ جُملةِ الصِّلة، وعُدِل عن اسم الفاعلِ (المؤمنين) إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للإشارة إلى تَحَقُّقِ إيمانِهم ورسوخِه وتأكُّدِه.

توجيه عطف الاسم على الفعل:

مُسَوِّغُ عَطْف الاسمِ على الفعل

والواو عطفت قولَه تعالى: ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾ على قوله سبحانه: ﴿لِيُثَبِّتَ﴾، وقد وجَّه ابنُ عاشور عَطْفَ الاسمَيْن: ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾ على الفعل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ بأنَّهما مَصْدَران في مَحَلِّ نَصْبٍ عَلى المَفْعول لِأجْلِه؛ لِأنَّ المَصدرَ المُنسَبِكَ في قَوْلِهِ: ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ في مَحلِّ نصبٍ، وإنْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 521.

(2) ابن جُزَيٍّ، التَّسهيل لِعلوم التَّنزيل، ص: 442.

كانَ مَجْرورَ اللَّفْظِ بِاللّامِ، إذْ لا يَسوغُ نَصْبُهُ عَلى المَفْعولِ لِأَجْلِهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَصْدَرًا صَريحًا(1).

علّة تنكير ﴿وَهُدَى وَبُشْرَىٰ﴾:

والتَّنكير في ﴿وَهُدَى وَبُشْرَىٰ﴾؛ لتفخيم الهداية والبُشْرى وتعظيمِهما؛ لِجلالةِ المُبَشِّرِ سبحانه وعظمته.

إيثارُ الوصفيْن: (الهُدى)، و(البُشرى) دون غيرهما ومراعاة الترتيب بينهما:

وَصْفان مُتكاملان

في قوله تعالى: ﴿وَهُدَى﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ أسند الهدايةَ للقرآن، والهادي الحقيقيُّ هو اللّه تعالى.

وأوثر الوصفان: (الهُدى)، و(البُشرى) دون غيرِهما؛ لأنَّ الهدايةَ هي المقصودُ الأعظمُ الَّذي يرجوه المسلمُ ويسعى إليه، وأمّا البُشْرى؛ فهي ثمرة الهُدى أو الهدايةِ.

وتقديم (الهُدَى) على (البُشْرى) مِن باب تقديم الأهمِّ على المُهِمِّ، والأصل على الفَرْعِ؛ فكَوْن القرآنِ كِتابَ هدايةٍ هو الأصل، أمّا بشارةٌ للمُسلمين؛ فهذا بعد كَوْنه كِتابَ هداية.

دلالة لامِ الجرِّ في ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾:

المُبَشِّرات للمسلمين خاصَّة

واللّام في قوله تعالى: ﴿وَهُدَى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ للاختصاص، فما ذُكِر مِن مُبَشِّرات، فهي للمسلمين المَوَحِّدين المُنْقادين لأوامرِ رَبِّهم خاصَّة.

وجه العُدول عن المُؤمنين إلى المُسلِمين:

الجَمع بين وصْفيْن عظيمين

عدل عن المؤمنينَ إلى المسلمينَ في خِتام الآية الكريمة؛ ليَجْمع لَهم بين وصفَيْن عظيمَيْن: الإيمانِ والإسلامِ، وليُشيرَ إلى أنَّهم طائعون مُنقادون لِرَبِّهم ومُستَسلمون لإرادتِه سبحانه، ومُصَدِّقون للرَّسول ﷺ في كُلِّ ما بَلَّغ عن اللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 284.

نكتة العُدول عن الإضمار إلى الإظهار:

زيادةُ مَدحِ المؤمنين بِوَصْفٍ آخَرَ شَرِيفٍ

عُدِل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ حيث إنَّ المُراد بالمُسْلِمينَ: الَّذينَ آمَنوا، فكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يُقالَ: وهُدًى وبُشْرى لَهم، فعَدَلَ إلى الإظْهارِ؛ لِزيادَةِ مَدْحِهم بِوَصْفٍ آخَرَ شَريفٍ[1].

بلاغة التَّعريض في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

التَّعريض بِحُصولِ أضْدادِ هَذِهِ الصِّفاتِ لِلمُشْرِكين والمُنْكِرين

قوله سبحانه: ﴿وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ﴾ مَفْعولٌ لَهُما مَعْطوفٌ عَلى مَحَلِّ ﴿لِيُثَبِّتَ﴾، والتَّقْديرُ: (تَثْبيتًا لَهم وإرْشادًا وبشارَةً)، وفيهِ تَعْريضٌ بِحُصولِ أضْدادِ هَذِهِ الصِّفاتِ للمُشرِكين والمُنْكِرين، بيانُ هذا أنَّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ جوابٌ عن رَمي المُشرِكين الرَّسولَ ﷺ بالافتراء، وهذا الجواب أُدْخل في الأسلوب الحكيم؛ حيث إنَّهم أرادوا بقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢ﴾ أنَّ هذا ليس مِن كلام اللّهِ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى لا يَسْخَر مِن أحَدٍ: يأمر بشيءٍ، وينهى عنه غدًا، بل هو مِن تلقاء نفسك، فأُجيبوا بأنَّ هذا مِن عِند اللّه تعالى، ثُمَّ زيد في التَّصوير بأنْ قيل: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾، ثُمَّ زيد قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ ليُنَبِّه على الدَّفع عن الطَّعن بألْطف الوجوه؛ أيْ: تنزيله مُلْتَبِسًا بالحقِّ والحكمة، كما تقتضيه مصالحُ النّاس، ثُمَّ نَعى على سخافة عقولهم، وقُبْحِ أفعالهم، فقال: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ تعْريضًا بأنَّ أضدادَ تلك الخِصال حاصلةٌ فيهم، وأنَّهم مُتَزلزِلون ضالّون موَبَّخون مُنْذَرون بالخِزْي والنَّكال، واللَّعْنِ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ أعداءَهم على النَّقيض مِن هذا؛ ليزيدَ في غيْظهم وحَنَقهم[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 284.

(2) الطِّيبيُّ، فُتوح الغيب، حاشية على تفسير الكَشّاف: 9/ 196.

بيانُ التَّعليلِ في الفاصلة:

بَيانٌ لِرُسوخِ إيمانِ المُؤْمِنِينَ، ورَجاحةِ عقولِهم

أشار ابنُ عاشور إلى بيان التَّعليل في الفاصِلة بقوله: "وفي التَّعْليلِ بِحِكْمَةِ التَّثْبيتِ والهُدى والبُشْرى بَيانٌ لِرُسوخِ إيمانِ المُؤْمِنينَ، وسَدادِ آرائِهِم في فهْمِ الكَلامِ السّامي، وأنَّهُ تَثْبيتٌ لِقُلوبِهِم بِصِحَّةِ اليَقينِ، وهُدًى وبُشْرى لَهم"[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 285.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النحل: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القرآن الكريم لم يتعلّمه الرّسول ﷺ من بشر

لمّا ذكَرَ اللّهُ ﷻ في الآية السابقة شبهةً من شُبه الكُفّار يدّعون فيها أنّ القرآن من عند رسول الله، وردّ عليهم بأنّه كلام الله نَزَّل به روحَ القدس جبريلَ عليه السلام من لَدُنْه ﷻ بالحقّ ليُثَبِّتَ الذين آمنوا على الإيمان، وليَكون هدًى وبشرى للمسلمين؛ جاءت هذه الآية لدحضِ شبهة أخرى بأوضح أسلوب وأفصح بيان؛ كشَف اللّه ﷻ عنها بعلمه سبحانه؛ إذ عزا الكفارُ هذا القرآن إلى مصدرٍ من البَشَر، ودلَّ ﷻ على كَذِبِ هذه التّهمة بدليلٍ منطقيٍّ قاطع بِكذبهم وبطلان شُبهتهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَشَرٞۗ﴾: مادّة (بشر) أصْلٌ يدلّ على ظهورِ الشّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنْسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِم، والبَشيرُ الحَسَنُ الوَجْهِ[1]، وعُبِّر عن الإنسان بالبشر اعتبارًا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر، واستوى في لفظ (البشر) الواحد والجمع، وثُنّيَ؛ قال تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، وخُصَّ في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر[2]، والبَشَرُ: اسْمٌ يَقع على النّاس أسودِهم وأحمرِهم[3].

وحين "أراد الكفار الغضَّ من الأنبياء اعتبروا ذلك فقالوا: ﴿إِنۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بشر).

﴿هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ [المدثر: 25]"[1]، فقول الكفار: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ يقصدون غلامَين عَجَميَّيْن: جَبْرًا ويسارًا[2].

2) ﴿لِّسَانُ﴾: "اللِّسانُ: ما يَنطِقُ، جارحةُ الكلام، يُذَكَّر ويُؤَنَّث، والألسُن بيان التأنيث في عدده، والألسِنةُ في التذكير، ولَسَنَ فلانٌ فلانًا يَلْسُنُه، أي: أخَذَه بلسانه، وقال طَرَفة:

وإذا تَلسُنُني أَلْسُنُها *** إنّني لستُ بمَوْهونٍ فقِرْ

واللِّسانُ: الكلامُ، من قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4]"[3]، "أي: بلغَة قومه"[4]، "ومنه قَوْلُهم: لِسانُ العَرَبِ أفْصَحُ لِسانٍ"[5]، "وأطلق على اللغة؛ لأنه أبرز آلاتها ... ولم يأتِ في القرآن من التركيب إلا كلمة ﴿لِّسَانُ﴾، وجمعه (ألسنة)"[6]، والمعنى في الآية: لُغةٌ وكلامٌ.

3) ﴿يُلۡحِدُونَ﴾: "اللَّحْدُ: حُفْرة مائلة عن الوسط، وقد لَحَدَ القبرَ: حفره، كذلك وألْحَدَهُ، وقد لَحَدْتُ الميّت وألْحَدْتُهُ: جعلته في اللّحد، ويسمّى اللَّحْدُ مُلْحَدًا، وذلك اسمُ موضعٍ من: ألحدته.

ولَحَدَ بلسانه إلى كذا: مالَ، قال الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ من: ألْحَدَ، وقُرئ: ﴿يَلۡحَدُونَ﴾ من: لَحَدَ، وألْحَدَ فلانٌ: مال عن الحقّ، والإلْحادُ ضربان: إلحاد إلى الشّرك بالله تعالى، وإلحادٌ إلى الشّرك بالأسباب، فالأوّل ينافي الإيمان ويبطله، والثاني: يوهن عُراه ولا يبطله، ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج: 25]"[7]، والمعنى في الآية: يَنْسِبون إليه التعليمَ.

4) ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾: (عجم) يدلّ على أصولٍ، تدور حول امْتِساك الشَّيْء في ذاته أو في غيره، مع التّداخل والانضغاطِ الشَّديد، كما هو النّوى في التّمر، ومنه عَجُمَ الكلام إذا تداخل

(1) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 204.
(3) الخليل، العين: (لسن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لسن).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (لسن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لسن).
(7) الرّاغب، المفردات: (لحد).

وتماسك[1]، ومِنه أيضًا السّكوتُ والصمت، فالبهيمة عجماء، وموج أعْجَم: ليس له رَشَاش ولا صوت، والأعجم: الأخرس، ويُقال: عَجُم فلان، بضم الجيم، أي: لم يُفْصِح في كلامه، وأُعجمَ الكلامَ: أَبْهمه، وسمّيت الحروف بحُروف المعجم لأنّها لا تفصح بذاتها عن معنى.

ومن لا يُفْصِح ولا يُبين كلامَه، ومن ليس بعربي وكان من جنس العجم، فهو أعجمي وعَجَمي، وجاءت التسمية بالعَجَم لمن لَيْس من العرَبِ قياسًا؛ كأنّهم لمّا لم يَفْهموا عنهم سمَّوْهم عَجَمًا[2]، ومعنى (الأعجمي) في الآية: الّذي لا يُفْصِحُ بالعربيّة في كلامه ولا يُبينُ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الـرّد على شُبه تعلُّم الرسول ﷺ القرآنَ من بشر بالدليل العقلي

يُخبر اللّه ﷻ في هذه الآية أنه يعلم علمًا أزليًّا أبديًّا أنَّ كفار قريش يزعمون أنَّ الذي يتلقّى عنه الرسول ﷺ القرآنَ الكريم بشرٌ من البشر - واحدٌ أو أكثر - وهم كاذبون في دعواهم، ثم ينفي اللّه تعالى ذلك الادِّعاء الكاذب بدليل عقليّ لا يقبل الجدال، هو أنَّ "لسان الرجل الذي يُميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسانٌ أَعْجَميٌّ غيرُ بيِّن، وهذا القرآن لِسانٌ عَرَبيٌّ مُبينٌ ذو بيان وفصاحة"[3]، "فكيف يتعلَّمُ مَن جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كلِّ كتاب نزل على نبيٍّ أُرسل، كيف يتعلَّمُ من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكة من العقل"[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمة أنَّ الكاذب يكذِبُ ولا يفكِّرُ فيما يؤول إليه كذِبُه، فيكونُ في قوله من التناقض والفسادِ ما يوجبُ ردَّه بمجرَّد

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجم).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 635.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 604.

تصوُّره، وإلى دفاعِ اللّه تعالى عن رسولِه ودرءِ كلِّ تُهمةٍ وفِرْيةٍ خبيثةٍ توجَّه إلى رسول اللّه ﷺ، وإلى أنَّ تعلُّم اللغةِ العربيةِ عبادة؛ لأنها توصل إلى فهم القرآن الكريم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ﴾:

زعْمُ الكفّارِ أنَّ القرآنَ كلامُ بشرٍ - مع عجزهم عن معارضته - مغالطةٌ

هذه الواو واو القسم بدليل اللام الداخلة على (قد) بعدها، ويمكن اعتبار جملة ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ استئنافية؛ سيقت لتسلية الرسول ﷺ وتهوين أمر تكذيب كفار قريش، وإمداده ﷺ بِحُجَّةٍ قوية وبرهان ساطع على كَذِبهم وغبائهم؛ إذ يزعمون نسبة الكتاب المجيد الذي جاء به بِلُغَةٍ فصيحة وبيان بليغ إلى أعجميٍّ لا يُحسن نُطْق الكلام العربي نطقًا صحيحًا، فكيف له أن يأتي بكلامٍ عجَزوا هم عن معارضته؟ ويمكن أن تكون الواوُ عاطفة لهذه الجملة على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ [النحل: 101]، ويكون الغرض إبطالًا لتلبيس آخر مما يُلَبِّسون به على عامَّتهم بأن يقولوا: إن محمدًا يتلقّى القرآن من رجل من أهل مكة[2].

معنى اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

غرابة هذا الاتهام من أرباب الفصاحة

لَمّا كان اتّهام كفار مكة للرسول ﷺ بأنه يتعلم القرآن من بشر أعجميّ اتّهامًا غريبًا لا يصدر من أرباب الفصاحة؛ جاء التعبير باللام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ الموَطِّئَةِ للقَسَم؛ لتأكيد وقوعه منهم؛ "أيْ: ولَقَدْ نَعْلَمُ أنَّ هَؤُلاءِ الكُفّارَ يَقولونَ ..."[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 604، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 286.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 232.

وفي الإتيان بها تقرير لهذا الخبر الذي يقتضيه عدمُ تصور الرسول ﷺ وقوع هذا الافتراء والبهتان من كفار قريش؛ لأنهم أصحاب البلاغة؛ فكيف يزعمون أنَّ هذا القرآن مما يُمكن لأعجمي إبداعه! لكنَّ تلك التهمة لا تضُر به ولا بالرسول ﷺ، و"أيُّ ضرر يَلحق مَن كانت مع السلطان مُجالستُه، إذا خَفيتْ على الأخسّ من الرعية حالته؟"[1].

فائدةُ التأكيد بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾:

الإشـــارةُ إلى تـغـريـر رؤساء المـشـركـين بعامَّتهم

صُدّرت الجملة بالتأكيد بلام القسم و(قد) للإشارة إلى أنَّ قادة المشركين كانوا يقولون ذلك لعامّتهم من باب التغرير بهم والتجهيل؛ لصرفهم عن الإيمان به ﷺ وبما نزل عليه ولا يجهرون به بين المسلمين؛ لأنه باطل مكشوف، وأن اللّه أطلع المسلمين على ذلك[2].

نكتةُ دخول (قد) على الفعل المضارع ﴿نَعْلَمُ﴾:

الـدلالـةُ على تـحـقّقِ العلم واسـتـمـرارِه وقِدَمِه وعمومِ الأحوال

قال ابن عطية: "(قَدْ) الملازِم للفعل حرفٌ يجيء مع التوقُّع إمّا عند المتكلم وإمّا عند السامع، أو مقدّرا عنده، فإذا كان الفعل خالصًا للاستقبال كان التوقُّعُ من المتكلم، كقولك: قد يقوم زيد، وقد ينزل المطر في شهر كذا، إذا كان الفعل ماضيًا أو فعلَ حالٍ بمعنى المُضيّ مثل آيتنا هذه، فإنَّ التوقُّع ليس من المتكلِّم، بل المتكلِّم موجِبٌ ما أخبر به، وإنما كان التوقُّعُ عند السامع فيخبره المتكلِّم بأحد المتوقَّعَيْن، ودخول (قد) على ﴿نَعْلَمُ﴾ تدلُّ على تحقّق العلم واستمرارِه وقِدَمِه، فهي تَعُمُّ المُضيَّ والحالَ والاستقبال"[3].

سرُّ التعبير بالعِلم دون المعرفة:

العـلـم أعـمّ وأشـمـل من المعرفة

آثر التعبير بالعلم دون المعرفة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾؛

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 321.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 286.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 285.

لوجود فرق بينهما؛ فالمعرفة تتعلق بالجزئيات، والعلم يتعلق بالجزئيات والكليات معًا؛ لذلك فالعلم أعمُّ وأشمل، وأكثر استيعابًا لأبعاد المعنى وتفاصيل القضية؛ أما المعرفة فتستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتدبر آثاره دون إدراك ذاته؛ لذلك لم يوصف علم اللّه تعالى بالمعرفة؛ إذ العارف قد يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء، أما العالم فمحيط بكل التفاصيل الدقيقة كما هو محيط بالكليات الجامعة، وهذا ما يليق بجلال اللّه تعالى وكماله، وهو المناسب لهذا السياق؛ لأنّ زعمهم في تعلُّم رسول اللّه ﷺ القرآن من أعجمي قد يكون صادرًا منهم في الظّاهر أو في الخفاء، وهو الأولى؛ فالمناسب لفَضْحِهم وكشف خفاياهم في هذا السّياق العلمُ دون المعرفة.

دلالة المضارعة في الفعل ﴿نَعْلَمُ﴾:

تهديدُ الكفّارِ باستمرار إحاطةِ علـمِ الله بكلِّ ما يستجدُّ من أقوالهم

دلَّ التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ﴾ على أنَّ علم اللّه محيطٌ بهم، وأنه سبحانه يعلم ما قال الكفّار في حقِّ القرآن، وقد جاء معبّرًا عنه بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾، فالمناسب أن يكون: (نعلم ما يقولون) وليس (علمنا ما يقولون)؛ لأن التعبير بالمضارع هنا جاء لتهديد الكفار، كأنَّ الآية تقول لهم: إن اللّه يُتابع أقوالكم أوَّلًا بأوَّل، وستُجزَوْن بما كنتم تعملون[1].

فالمضارعة في الفعل ﴿نَعۡلَمُ﴾ تصرِّح بأنّ علم اللّه تعالى بما يقع حاضرٌ أبدًا لا يتأخَّر، وأنّ علمه سبحانه "محيط بهم، وأنه ﷻ يعلم ما قالوا، وما سيقولون من تلك المقولات المنكرة، التي يقولونها في النبيّ الكريم ﷺ، وفي كتاب اللّه تعالى الذي بين يديه"[2]، فـ"صيغة الاستقبال لإفادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددي في متعلَّقه فإنهم مستمرّون على التفوّه بتلك العظيمة"[3].

(1) القدّوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 207.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 7/ 372.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 468.

المبالغة في تسكين عَجَبِه ﷺ من زعم الكفار

وجهُ التعبير بـ (أنَّ) في جملة ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾:

لقائل أنْ يقول: بدأ خبر علم اللّه تعالى بما يقولون بالقسم، فما الداعي لذِكر (أنّ) في جملة ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾؟ فأجاب ابن عطية عن ذلك فقال: "دخلت (أنَّ) للمبالغة في التأكيد"[1].

وفيها إشارة إلى شدّة تعجُّب النبي ﷺ من ادّعاء كفّار قريش أنّ هذا القرآن من قيلِ بَشَرٍ؛ فظهر بذلك دلالة استعمال (أنّ) على التوكيد والمبالغة في تسكينِ عَجَبِه ﷺ من مقولة الكفار ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾.

ازدراء الكفار وعدم العناية بذكرهم

غرضُ التعبير بالإضمار في قوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾:

في طيّ أسماء كفار قريش الذين يلحدون بكلام اللّه تعالى إلى لسانٍ أعجميٍّ، وعدم التصريح بها تطهيرٌ للسياق من ذكرهم، وازدراء لهم بسبب رِجسهم وكفرهم؛ وأنهم لا يستأهلون شرف الذكر في هذه الساحة الطاهرة؛ فاستبعادهم والتعبير عنهم بضمير الغائب أليق بالمقام.

قول السوء أخطر على قائله وعلى مجتمعه

سرُّ التعبير بالقول دون الزعم:

آثر القرآن الكريم التعبير بالقول دون الزعم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالقول دليل على قناعتهم العقيدية، وقديمًا قال الشاعر:

إنَّ الكَلامَ لَفي الفُؤادِ وإنَّما *** جُعِلَ اللِّسانُ عَلَى الفُؤادِ دَليلا

فالكفار هنا حريصون أن يُشاع عنهم القول بنفي أن يكون القرآن الكريم من كلام اللّه تعالى، أما الزَّعم؛ فهو حكاية قولٍ يكون مظنة للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذُمَّ القائلون به؛ نحو ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [التغابن: 7]، ونحو ذلك من الآيات في هذا الإطار[2]، وبناءً على هذا لم يرد التعبير به؛ لأنه يوحي بِعدم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 285.

(2) الرّاغب، المفردات: (زعم).

قناعتهم بما يَزعمون؛ وعدم قوة ما يدَّعون، ولأن القول أعمّ من الزعم؛ لذلك قد يُبنَى الجزاء عليه في الذكر الحكيم، كما في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [المائدة: 85]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾ [المائدة: 64]؛ وذلك لأن القول من أخطر ما يتعدَّى خيرُه أو شرُّه إلى الناس، بخلاف خطر المعتقَد المكتوم الذي يكون وقفًا على صاحبه.

فائدةُ التعبير بالمضارع في ﴿يَقُولُونَ﴾:

أصحاب السوء لا يملّون التشكيك في كتاب الله وفي نبوة رسوله

التعبير بالمُضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ﴾ يُترجِم بِدقّةٍ حرصَهم على إشاعة ذلك القول وإذاعته، وعدم التوقّف عنه كلما أتيحت لهم فرصة التشكيك في كتاب اللّه تعالى وفي نُبوَّة الرسول ﷺ فهم يجدّدون القول، وينوِّعونه، ويتفنَّنون في تزيينه وإقناع الناس به، و"أنهم مستمرّون على تفوُّهِ تلكَ العظيمةِ"[1]، ويقولون "قولًا متكرّرًا لا يزالون يلهجون به"[2].

دلالة التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾:

إشاعةُ التشكيك في القرآن بعزم وإصـرارٍ قضيَّةُ المشركين

كفّار قريش يبحثون عن الطعن في القرآن الكريم بكل الوسائل، ويدَّعون من القول الزّور؛ ذلك أنهم افتروا على الرسول ﷺ فرية مكذوبة ومفضوحة، أنه تعلّم القرآن من بشر أعجميّ[3]، وكان حرصهم الشديد الذي أكّده القرآن بأداة التوكيد ﴿إِنَّمَا﴾ من أجل إشاعة التشكيك في أنّ القرآن الكريم ليس من عند اللّه تعالى، وأنّ محمدًا ﷺ ليس مرسلًا من قِبَل ربه ﷻ، وفي سبيل تحقيقها يحتشدون، ويحشُدون كل طاقاتهم، ولا يتوانَوْن عنها قطُّ؛ لذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 141.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 256.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 468.

جاء الأسلوب مبنيًا على التوكيد، والتوكيد هنا بأسلوب القصر: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾، أي ليس هذا إلا من عند البشر.

وفي هذا دلالة على أن الاتهام الصادر منهم في القرآن وفي الرسول ﷺ مبنيٌّ على الإصرار والتأكيد.

بلاغة القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

زَعَمَ المشركونَ أنَّ بشريَّة القرآنِ أمرٌ معلومٌ مُسَلَّمٌ به

آثر القرآن الكريم التعبير بأسلوب القصر ﴿إِنَّمَا﴾ بهذه الصورة دون غيرها من صور القصْر؛ نحو النفي والاستثناء؛ فلم يرد التعبير على ألسنتهم: (ما يُعَلِّمُه إلا بَشَر)، بل قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾، والفرق بينهما جليل؛ إذ إنّ أداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾ تستعمل في المعاني المقرَّرة، والأحكام المشهورة، والقضايا التي لا يُختلَف فيها، فهم إذًا يوحون بإيثارهم ﴿إِنَّمَا﴾ بأنّ تعليم محمدٍ صلى الله عليه سلم مِن قِبَل بَشر أمر معلوم مسلَّم به ولا مُشاحَّة فيه؛ فينفثون في الناس هذا الشرّ المغلَّفَ بِخُبث طوايا ومكر نفوس.

ويدلّ تعبير القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيره على خُبّث نفوس الكفار وعدم اكتراثهم بذلك؛ فلم يؤكّدوا اتّهامهم لرسول الله ﷺ بطريق النفي والاستثناء الذي تَحاشَوْه؛ لأنه يرسل برسائل أنهم يحتشدون ويستميتون في تكذيب النبي ﷺ، وهذا ما لا يُريدونه أن يشاع عنهم استكبارًا.

والقصر في هذه الجملة ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ قصرُ قلبٍ لكلام رسول الله ﷺ أنّ هذا القرآن من عند الله تعالى وأنه حقًّا كلام الله ﷻ.

سرُّ التعبير بالتعليم دون التدريس:

بلاغة القرآن أجبرت الكفار على الاعتراف به

آثر القرآنُ الكريم التعبيرَ بالتعليم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ دون التدريس؛ لأنه يحقّق غرضَهم في الاتّهام والتلفيق؛ بخلاف التدريس والتلقين من الأعجمي للنبي محمد ﷺ فلا

يرقيان في وعي كفار قريش إلى ما رأوْه وعلِموه من عظمة نظم الذكر الحكيم، وما أبصروه من دقائق معانيه، وعلوِّ كعب بلاغته؛ لذلك ترقَّوْا في تصوُّرِهم إلى التعبير اللائق بهذا البيان العالي - وإن تنكّروا له - فقالوا: ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾، وبذلك يكونون قد وقعوا في التناقُض؛ إذ كيف يَرقى ﴿بَشَرٌ﴾ - أيًّا كان هذا البشرُ - إلى أن يُبدع هذا النَّمط الذي يَرقى إلى التعليم لا مجرّد التلقين والدراسة؟

بلاغة الإضمار دون الإظهار في ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾:

محاولةُ الكفارِ اليائسةُ الغضَّ من شأنه ﷺ

في إيثار الكفار ذكرَ النبي ﷺ بالضمير في قولهم: ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾ دون إظهار اسمه الشريف ﷺ؛ ليظهر الغرض من مقصودهم، وهو الغضُّ من قَدْر رسول الله ﷺ، والإيحاء بأنه - حاشاه ﷺ - ليس أهلًا لِذكر اسمه، وإجرائه على ألسنتهم.

أو أنَّ الذكر الحكيم هو الذي نأى بذكر اسم النبي الشريف ﷺ عن أنْ يُجريَه ولو حكايةً على ألسنتهم القذرة بقذارة الكفر ونجاسته، فاكتَفى بذكر ضميره الشريف ﷺ تكريمًا له.

دلالة التعبير بقولهم ﴿بَشَرٌ﴾ دون غيره:

جحودُهم لنبوته ﷺ ولفتُ انتباهٍ لما زعموه

آثر القرآن الكريم التعبير بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ دون غيره في إسناد تعليمه ﷺ إليه؛ مما يدعم جحودهم نُبوَّتَه ﷺ، ويقرّر إنكارهم أنَّ هذا القرآن من عند الله تعالى؛ ذلك أنّ ﴿بَشَرٌ﴾ مأخوذ من البشرة الظاهرة التي لا يُخفيها شعر، ومعنى الظهور الناضح من وصف ﴿بَشَرٌ﴾ يتّسق مع دعواهم أنّ قضية جلاء تَعَلُّمه ﷺ من ﴿بَشَرٌ﴾ أمرٌ ظاهر معلوم مسلَّم به ولا شكّ فيه.

و"يقصدون به غلامًا أعجميًّا كان يقرأ التوراة والإنجيل ورأى فيهما أوصاف النبي ﷺ فأسْلَمَ، وحسُن إسلامُه بعد أنْ تحقَّق من صفات النبوّة فيه"[1] مع اختلافهم في تحديد اسمه.

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 681.

ومما يذكر في سر التعبير بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾ أنها دعوةٌ للفت انتباههم إلى ما يقولون من غير رويّةٍ ولا تدبّر؛ لأنَّ البشر كلَّ البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أليسوا هم بشرًا ؟ فما لهم لا يأتون بمثله؟

لطيفةُ تنكيرِ ﴿بَشَرٌ﴾ في السّياق:

محاولةُ تحقير المصدر الذي يلحدون بالقرآن الكريم إليه

لمّا كان غرضُ الكفار الغضَّ من قدْر القرآن الكريم وقدر الرسول ﷺ نكَّروا لفظ ﴿بَشَرٌ﴾؛ إذ التنكير يُشعر بهوان المعلِّم، وغير ذلك من مَسَبّاتٍ ومَذمّات، مما ينعكس بالضرورة على تهوين ما جاء به محمد ﷺ، وما تَعلَّمه منه وتلقّاه عنه؛ فمن فرط جهلهم أنّهم توهَّموا أنّ هذا القرآن - الذي عجز كافَّة الخلق عن معارضته في فصاحته وبلاغته - مقولٌ وحاصل باتّصاله بِمَن هو أعجميُّ النطق[1].

توسعة المشركين على أنفسهم في اختلاق المعاذير

كفار مكة يمعنون في افترائهم على اللّه وعلى رسوله، ويظهر ذلك جليًّا في تعبير القرآن عن ذلك بقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، ومما يتناسب مع افترائهم تنكيرهم ﴿بَشَرٌ﴾ وتحقيرهم أمرَه بطَيِّهم لاسمه وعدم تحديدهم مَن يكون، ومع أنَّ البشرَ يثنَّى فيقال: (بشران) فإنهم أفردوه إمعانًا في التحقير والتجهيل والحطّ من شأنه؛ وبذلك يكون الكفّار قد جمعوا في ﴿بَشَرٌ﴾ بين إفراده، وتنكيره، وتجريده من اسمه؛ فنفوا عنه جميع المعاني السامية، قال القاسمي: "وإنما لم يصرّح باسْمه للإيذان بأنَّ مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات اللّه عليه إلى التعلّم من شخص معيّن بل من البشر، كائنًا من كان"[2].

ويؤكّد ذلك ما قاله ابن عاشور: "وسكتوا عن تعيينه توسعة على أنفسهم في اختلاق المعاذير، فإذا وجدوا ساذجًا أبْلَهَ يَسألُ عن

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 321.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 410.

المعنيِّ بالبشرِ قالوا له: هو جبر أو بلعام، وإذا توسّموا نباهةَ السائل تجاهلوا وقالوا: هو بشر من الناس"(1).

دلالة مقولة الكفار ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾:

الحقد يعمي صاحبه عن الحق

أبانت هذه الجملة القصيرةُ المتكاثفةُ الإيحاءاتِ والدلالات كِذْبَ كفار قريش في زعمِهم، وتجرُّدَهم من الصدق، ونفورَهم من الحقّ؛ ذلك أنهم أدرى الناس بِجَلال القرآن الكريم، وعظمةِ بلاغته، وسموِّ معانيه، لكنه الحقد الذي أعمى القلوب، والضلال الذي أظلم البصائر وأعشاها.

معنى فصل ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ﴾ عمّا قبلَه:

الفصل بين كلام الله وكلام كفار مكة؛ للردِّ عليهم

فُصلت هذه الجملة عما قبلها؛ لأنها "مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ يتضمّن أنه ليس منزَّلًا من عند اللّه تعالى فيسأل سائلٌ: ما جوابُ قولهم؟ فيقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى﴾، وهذا النظمُ نظيرُ نظم قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124]"(2).

ومما يُذكر في فصل النظم الكريم ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ﴾ عن قولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ أنَّ هذه الجملة من كلام اللّه ﷻ للرد عليهم، وأنّ الجملة السابقة من كلام الكفار؛ فقَطَع واستأنف بذكر الدليل؛ ليزيح تلك الشبهة الباطلة، فدلّل على بطلانها بأن هذا البشر أعجميٌّ لا يكاد يُبين بالعربية الفصيحة، وأنّ هذا القرآن في قمة العربية المُبينة، فكيف تدّعون صدور القرآن العظيم عنه، وأنتم أعرفُ الناس به وأفصحُ الخلق بالعربية؟

سرُّ التعبير بـ ﴿لِّسَانُ﴾ دون اللغة:

آثرَ القرآن الكريم التعبير بكلمة ﴿لِّسَانُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 287.

(اللسان) آلة اللغة، وتحاشيًا لإيهام معنى غير مراد

﴿يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ دون اللغة؛ لأن اللسان أداة اللغة وآلتُها سُمّيت باسمه، "وَإِطْلاقُ اللِّسانِ وهوَ اسْمُ الجارِحَةِ المَعْروفَةِ في الفَمِ عَلَى اللُّغَةِ مَجازٌ شائِعٌ"[1]، وقد تحاشى القرآن الكريم ذِكْر مفردة اللغة تمامًا؛ وبذلك تحاشى ما يوهمه بعض اشتقاقها من معنى (اللغو) فليس في كلام الله تعالى لغوٌ، وليس في الذكر الحكيم أيّ لغو؛ لذلك آثر الذكر الحكيم ذكر آلة اللغة وهي اللسان، مجازًا لغويّا مرسلًا، علاقته الآليّة كما ترى.

وقد "غَلَبَ إطْلاقُ اللِّسانِ عَلَى اللُّغَةِ؛ لِأنَّ أشْرَفَ ما يُسْتَعْمَلُ فيهِ اللِّسانُ هوَ الكَلامُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4]، وقالَ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مَرْيَم: 97]"[2].

وقد "أشار تعالى إلى وضوح بطلان بهتهم بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بيّن، وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين، ذو بيان وفصاحة، ومن أين للأعجميّ أن يذوق بلاغة هذا التنزيل، وما حواه من العلوم، فضلًا أن ينطق به، فضلًا أن يكون معلّمًا له!"[3].

دلالة التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

النظم القرآني يركّز على ذكر المهمّ دون سواه، والتشويق للمعنى

عبَّر القرآن الكريم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾؛ لأنه يتّسم بإبهام الدلالة وخفائها، وعدم تميُّز المقصود مَنْ يكون؟ لذلك كان الموصول فقير الدلالة؛ يحتاج إلى ما يَسُدُّ فقر دلالته، فإذا جاءت جملة الصلة ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ توجّه الموصول وتحدَّدتْ دلالته، وتبيّنتْ وجهة الكلام، وتوقّع المتلقّي طبيعة الخبر الآتي، وأنه من جنس ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾، وهذا ما عبَّر عنه البلاغيون ضمن مهامِّ التعريف بالموصول: الإيماء إلى وجه بناء الخبر[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 25.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 410.
(4) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 172.

وعبّر به؛ لأنّه عنصرُ تشويق بوصفه مُبهَمًا ناقص الدلالة، ثم هو مِن بين عناصر التعريف يُفسِح الأسلوب لِذكر عناصر ذات دلالاتٍ مهمة في سياقه، لأنها تتآزر على خدمة المعنى، وتُسهِم في تحقيق الغرض، فقد هيّأ الموصول هنا لذكر المضارع ﴿يُلۡحِدُونَ﴾، ولذكر القيد ﴿إِلَيۡهِ﴾، وما وراءهما من إشارات معنوية، ما كانت لِتُتاح إلا بسببٍ من الموصول، ثم إنَّ السياق هنا يأبى ذكر الأعلام المعبَّر عنها بالموصول؛ لأنه حينئذ يوهم تعلّق الغرض بها لا بقضية العُجمة التي فيها، مما يحول دون قدرتهم على إبداع هذا القرآن، والله تعالى أعلم.

سرُّ التعبير بقوله: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ دون (يميلون):

من خصائص بلاغة الذكر الحكيم غزارةُ دلالاتِ مفرداته وتراكيبه

آثر التعبير بلفظ ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ دون يميلون؛ لأنّ مادّة الفعل ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ تحمل إيحاء اللحد الذي يُلحد فيه الميِّت، وهي مفقودة في مفردة (يميلون)، فالكفار يتخابثون في زعمهم ذلك؛ فيرغبون بدفن تلك الأخبار، وكتم صوت الذكر الحكيم، والتخلُّص من قصّة محمد ورسالته، وأنّ الأمر لديهم ليس مجرّد الميل بالوحي الكريم إلى ﴿بَشَرٞ﴾ ونسبته إليه، وأنّ الإلحاد يُقرِّر اختلالهم، وميلَهم هم أنفسهم إلى باطل.

وإذا كان "الإلحاد معناه الميل، يقال: لَحد وألْحَد، إذا مال عن القصد" فإنّ الفعل ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ مضمّن معنى الفعل ينحرفون، ويختلّون"[1]، وأصل "الإلحاد: الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى تَرجِع مشتقاتُه كلُّها، ولمّا كان وسط الشيء يُشَبَّه به الحقُّ والصواب، استَتْبَعَ ذلك تشبيهُ العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد"[2].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 85.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 288، 9/ 189.

دلالة التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُلْحِدُونَ﴾:

الكفار لا يَملّون من إشاعة الشُّبَه والشكوك

المضارعة في ﴿يُلْحِدُونَ﴾ تحكي إصرارهم على كتْم صوت الرسول ﷺ والتشكيك في القرآنِ الكريم؛ لذلك يجدّدون الإلحاد ويكرّرونه، ولا يتوانَوْن في ذلك قط، ولا شكَّ أنَّ ذلك يملأ الأجواء شكوكًا وضجيجًا من شأنه أن يؤثّر في سواد الناس الأعظم أيَّ قدر من التأثير.

أثر تعدُّد القراءات في ﴿يُلْحِدُونَ﴾:

الكفارُ يَميلون بأنفسهم ويُميلون بزعمهم إلى بشريَّة القرآن كَذِبًا وزُورًا

من المقرّر أنّ تعدد القراءات يُثري الدلالات، ويضفي على سلوك هؤلاء الكفار قبحًا إلى قبح، وضلالًا إلى ضلال على الوجه المبيّن في كتب التفسير.

وقد جاءت قراءة العامّة بضم الياء وكسر الحاء ﴿يُلْحِدُونَ﴾ من (ألْحَد)، وقُرِئَ بفتح الياء والحاء[1]: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ من (لَحَد)، ويدلُّ على القراءة الأولى بضَمِّ الياء قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ [الحج: 25]، ويكون الإلحاد بمعنى الإمالة، وفُسِّر (يلحدون) في هذه الآية بالقراءتَيْن، فقال الفرّاء: يَميلون من الميل، وقال الزجاج: لسان الذي يُميلون القولَ إليه أعجميٌّ، وقال ابن قتيبة: أي: يؤمنون إليه، ويزعمون أنه يُعلِّمك أعجميٌّ لا يُفصِح ولا يتكلم بالعربية، فكيف يَتعلَّمُ منه ما هو في أعلى طبقاتِ البيان[2].

فتعاضدت القراءتان في قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ لِتُفيدا أنّ الكفار يَميلون إلى الإلحاد ويؤْثِرونه، ويُرَوِّجونه بين الناس، ويُرَجِّحونه عندهم.

وقال البعض: إنّ (ألحد) و(لحد) لغتان إلا أنّ (ألحد) أكثر من

(1) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر في سورة النحل، يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 273.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 85.

(لحد) بغير ألف، يقال: هو ملحد، ولا يقال: لاحِدٌ، ويقال: ألحد في الدين، ولحد عن الحق؛ إذا عدل[1].

دلالة تعدي الفعل ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ بـ (إلى) دون (اللّام):

بيانُ الغاية من زعمِهم وعزوِّهم، وأنَّ المعزوَّ إليه غيرُ مُستَحِقٍّ لهذا المَيْل

تعدية الفعل ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ بـ (إلى) يُثري دلالتَه، وذلك بِتضمينه معنى فعلٍ آخر نحو: (يَعزون)، وبذلك تَتغازر الدلالات، وتتآزر على كشف ما يُبطنونه مِن حقدٍ وكيد للرسول ﷺ ولرسالته العصماء ولكتابها الكريم، بما يُقرِّر أنَّ المعركة كانت - كما ستظلُّ - بين الحقِّ وأهله وبين الباطل وأهله على أشُدِّها، وتلك من سنة اللّه تعالى في خلقه.

ومما يذكر في سر تعدية الفعل بـ (إلى) دون اللام؛ أن (إلى) تدل على انتهاء الغاية؛ فكأن غايتهم ظاهرة في أمر الطعن في نبوته ﷺ؛ بخلاف (اللام)، فقد يفهم منها أن لسان الذي يلحدون إليه له مؤهلات استحقّ بها هذا الميل والإلحاد إليه، وهذا غير واقع؛ لأنه أعجمي؛ فظهر بذلك أنّ غايتهم مجرد الزعم بأنّه يعلّمُ النبي القرآن؛ للطعن والتشكيك.

دلالةُ الإضمارِ في قوله ﴿إِلَيۡهِ﴾ وبلاغتُه:

الاحتكامُ في أمرٍ إلى غير أهله دليلٌ على سفاهة العقول

دلَّ الإضمارُ في ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ على أنَّ (الأعجمي) ليس أهلًا لما زعموا في دعوى تعليمه للرسول ﷺ؛ لأنَّ الأمر فوقه كما هو فوقهم، وفوق الخلق جميعًا، وهم أدرى الناس بذلك لما يمتلكون من ناصية البيان؛ فهم الجيل الحُجَّةُ على الخلق جميعًا، وكأنه يقول لهم: "أنتم أفصح الناس وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظمًا ونثرًا، وقد عجزتم وعجز جميع العرب عن الإتيان بمثله، فكيف تنسبونه إلى أعجميٍّ ألكن وهو كما ترى؟"[2].

---

(1) ابن أبي مريم، الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها: 2/ 566.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 469.

سر إفراد الضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾:

مناسبةُ الضميرِ لمرجعه مع تحقيره في زعم القائلين

جاء الضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾ مفردًا ولم يأتِ جمعًا مطابَقةً لإفراد مَرْجِعِه في قولهم ﴿بَشَرٞۗ﴾؛ لأن هذا اللفظ يوصف به المفرد والمثنى والجمع، فهو مناسب؛ لأنَّ المراد به ﴿ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ غير أن الذين يلحدون إليهم أكثر من واحد، ففي بعض الأقوال أنه مثنّى، وفي بعضها أنه جمع، فكان القياسُ تثنيتَه أو جمعه بحسب العدد، غير أنَّ إفرادَ الضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾ أنسب لإفراد مرجِعه ﴿بَشَرٞۗ﴾، ثم إن في إفراده تناسبًا مع قصدهم الغضَّ من قَدرِه؛ لأنه كلما كان أحقر كانَ أغضَّ من عظمة القرآن الكريم الذي يَعزونه إليه ويزعمونه له.

براعةُ التعبير بقوله: ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾:

وجازةُ اللفظ بدلالته وتركيبه وجَرْسه في دحض فريتهم

آثرَ القرآن الكريم التعبير بقوله: ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾ دون غير العربي؛ لأنه يبطل زعمهم من أصله؛ ولأنّ المراد به الذي لا يُبين عن مراده من كلّ ناطقٍ، ولا يفهم السامع ما يريده.

ووصْفُ مَن يُلحِد إليه الكفارُ بالعُجمة يقرّر ضعْفه عن أن يكون هنالك، بل هو أبين على عجزه عن مجرد النطق باللغة نطقًا صحيحًا، فضلًا عن أن يُبدِع مثل هذا القرآنَ العظيم أو قريبًا منه، الذي عجَزوا هم عنه وهم أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة في عصر الازدهار اللغويّ.

أما وصف (غير العربي) فلا يُشترط فيه عدم الإفصاح، بل قد يفصح (غير العربي) بالعربية؛ فلا يغني هذا الوصف غَناء ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾؛ لأنّ الموصوف بـ ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾ قطعًا يَعجز، بل هو الأكثر عجزًا عن البراعة اللغوية العربية.

ثم إنّ كلمة ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾ مفردةٌ واحدة، أما بديلها - غيرُ الوافي بعطائها (غير عربي) - فكلمتان، والإيجاز بإيثار الأوَّلِ أوْلَى،

كذلك في حروف ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾ ثِقَلٌ يَحكي صعوبة اللغة العربية عليه وتعثُّرَه بنطقها.

سِرّ العدولِ عن (أعجم) إلى ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾:

النَّسَبُ إلى الأمة الأعجمية أقوى في الدلالة من صريح الوصف

الأصلُ في وصْفِ ﴿لِّسَانُ﴾ المحذوف أن يكون (أعجم)، فيكون التقدير: (لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجم)، لكنه نُسِب إلى أُمَّة العجم، فجاء الوصف ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾؛ وذلك "لِتَقْوِيَة وصْفِه بِالعجز عن الإفصاح"[1]؛ دعمًا للإبانة عن بُعْد ما بين نمط الذكر الحكيم العالي، ونمط أسلوب الأعجميّ النازل.

وفيه دلالة على تمكّن العُجمة فيه لدرجة أنه نُسب إليها، وفي ذلك توبيخٌ وتبكيت لكفّار مكة بسفاهة عقولهم.

غرضُ حذف الموصوف وإقامة الصّفة مكانه:

بيانُ كذِب الكفار، وإبرازُ سبب انهيار زعمهم

حَذَف النظمُ الكريم الموصوفَ (لسانٌ) وأبقى الصفة؛ لأن تقدير الجملة: (لسانُ الذي يُلحدون إليه لسانٌ أعجميٌّ)، فعبّر النظم الكريم مباشرة بالصفة ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾؛ وذلك للتركيز على دليل كذِب الكفار، وإبراز سبب انهيار زعمهم، وفيه تقريرُ نِسبة القرآن الكريم إلى اللّه ﷻ بدليل منطقيٍّ لا ينازِع فيه عاقل، وهذا أسلوبُ إقناعٍ مُفحِمٌ يُحيلهم على المنطق السديد في تحقيق المسألة، ويلقمهم الحُجّة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ﴾:

ليس من المنطق السّديد إنكارُ الإنسان ما يتجلّى له من الحقّ

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ واوُ الحال التي تَقْرِن زمنًا بين عُجْمَة لسانِ الأعجمي المزعوم وفصاحةِ القرآن الكريم الفصيح.

والمعنى: كيف يَتأتّى لكم ومنكم هذا الزعم حالَ عربيةِ القرآن

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 207.

الراقية، وفصاحته الدقيقة الأنيقة بما تَعْلمون، وأنتم في العربية أساتيذ؟ وهذا يضعهم في حرج شديد، ويَفْضح خِداعهم، ويُعرّي تمويههم على الناس، ويضيِّق عليهم خناق المناظرة.

سِرُّ التعبير باسم الإشارة (هذا):

فصاحة القرآن الكريم ظاهرةٌ للعيان

الإشارة إلى الذكر الحكيم ولغته الفصيحة بإشارة القريب (هذا) تنويهٌ بِقُرب تناوله وتَميُّزه لديهم؛ فلا يحتاجون إلى بذل جهدٍ لتحقيق أنه كلام اللّه؛ لأنه نزل بلغةٍ لسانها قريبٌ، وهو قريبُ التناول إليكم؛ فأنتم أهله المبرّزون فيه، وبذلك يضيّق عليهم الدليلُ الخناقَ، ويضطرهم إلى أضيق طريق في إلزامهم الحجة؛ فلا يَجدون مَهربًا من التسليم له بأنه من عند اللّه، وهذا من براعة النظم القرآنيّ الفريد.

فائدةُ إعادة ذكر اللِّسانِ موصوفًا للعربيِّ:

اختصاص اللّغة العربيّة بالقرآن الكريم دون غيرها مِنَ اللّغات

إعادة ذكر اللسان في جملة ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾ ضرورةٌ تُحتِّمها طبيعةُ الفصل بين اللسانَيْنِ وتمايُزهما واختلافهما اختلافًا جذريًا، فهذا لسانٌ وذاك لسانٌ آخرُ تمامًا، فذِكْرُه على جِهة الاستقلال يَدعم مخالفته ذلك اللسانَ الذي يُلحدون به إليه؛ فشتّان بينهما، فهذه لغةٌ فصيحة تتحمّل عمق الدّلالات القرآنيّة الكريمة، وتلك لغة هزيلة عاجزة عن أن تَستوعب طاقات هذا الكلام الشريف.

دلالة وصف اللّسانِ بالعربيِّ:

اللغة العربية توفي كل المقامات حقها

وصف اللّسان بقوله: ﴿عَرَبِيٌّ﴾؛ لأنه يحمل معنى الإعراب والإبانة والكشف والوضوح، كما يقال: أعرب الصبيُّ عمّا في نفسه، فوصف لغة القرآن الكريم - المعبّر عنها باللسان - بلغة العرب، والإعراب وصفٌ دقيق، يُعبِّر عن رقّتها وعذوبتها، وكذلك عن فخامتها وقوة ألفاظها وجزالة معانيها.

ومما يدلُّ عليه هذا الوصف أنها لغةٌ توَفّي المقامات حقَّها بذاتها، ويبرز ذلك بحسب طاقة المتكلم وبقدر امتلاكه لأدواتها.

سرُّ وصف اللِّسانِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

لغة القرآن الكريم أفصحُ لغات العرب

أضاف الذكرُ الحكيم للِّسانِ وصفًا آخرَ بعد وصفه بـ ﴿عَرَبِيٌّ﴾، هو أدخلُ في المعنى المراد من سابِقه، بل إنَّ الإعرابَ نفسَه يُفسَّر بالبيان، فوصف البيان أشدُّ صراحة ومباشرة نحو الإبانة التي هي غايةُ غايات اللغات.

وهذا الوصف يدلُّ على أنه "أفْصَحُ ما يكون من العربية"[1]، وأنه من شِدَّة بيانه مُظهرٌ لِغيره؛ لأنه ذو بيان عظيم في استعمالاته في كل المستويات العلمية في الحاضر والمستقبل.

سرُّ إيثارِ الوصف بالإبانة دون الفصاحة:

وصْفُ القرآن بالعربيّ المبُين ردٌّ على زعْمِ تعلّمِه مِنْ أعجميٍّ غيرِ مُبين

وُصف اللسان العربي بالبيان في قوله: ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ دون أن يقول: (عربي فصيح)؛ لأن وصف العربية يحمل معنى الفصاحة، وهي من لوازم البيان؛ لأنه مُبينٌ ما لهم وما عليهم، أو مُبين للحقوق التي للّه ﷻ عليهم، وما لِبعضهم على بعض، أو مبين: أي بيِّنٌ أنه من عند اللّه تعالى نزل؛ فليس بِمفترًى[2]؛ لأنه البيِّن في ذاته بما أعجزكم ببيانه.

بلاغة التضاد بين ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾، و﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾:

الضِّدُّ يُظهر حسنَه الضِّدُّ

التضاد بين ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾، و﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أتاح لذهن المتلقّي عَقْدَ موازنة خاطفةٍ بين ضِدَّين: ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، و﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾ - أي: حَصِرٌ عَييّ -، وذلك مما يزيد الهوّة بينهما اتساعًا، فيزداد العييُّ عيًّا، والبليغ بلاغة، وسوق ذلك في سياق القضية المنطقية المؤدّية إلى التسليم بالمطلوب يَدعم الغرض بقوة، ويُحقّق على الكفار كَذِبَهم وبُهتانهم، ويكشفهم أمام أنفسهم، ثم يفضحهم أمام الناس.

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 179.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 574.

فالتضادّ يدلُّ على أنه "زائد في الإبانة - بمعنى الفصاحة والبلاغة-؛ فحصل تمامُ التَّضادِّ بينه وبين لسانِ الذي يُلحدون إليه"[1].

بلاغة أسلوب القرآن في إبطال زعم كفار مكة:

اتّبع أسلوب القرآن الكريم هنا طريق خطاب العقل بالدليل المنطقي الذي يَحتكِم إلى العقل المتَّزن الرشيد الذي إذا تبين له الحقُّ أقرَّ به واتَّبَعه ولم يراوغ فيه، فإذا راوغَ فيه كان مغالطًا مفضوحًا.

الذكر الحكيم يعتمد الأدلة العقلية القاطعة في إفحام الخصوم

فهذا الأسلوب الذي اتَّبعه القرآن الكريم في إبطال زعم الكفار بقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ هو من أساليب التدليل التي تُلْجئ الخصمَ إلى التسليم من أقرب طريق، فإن لم يُسَلِّم بان للناس أنه معاندٌ مبطِل، فانصرفوا عنه، ولم ينصاعوا لضلاله، فهو من خير الأساليب الناجعة في الخصومات.

وفي هذا الدليل القرآنيِّ المنطقيِّ - القويِّ في إلزام الكفار الحُجَّة - أنموذجٌ عظيمٌ وأسوةٌ جليلةٌ "لِمَن يُجادلون أهل الأهواء، بأنْ يَحرصوا على الحُجَّة الساطعة، معرضين عن الحُجَج الأخرى؛ حتى لا يخبو ضوء الحقيقة خلال النقاش"[2].

دلالة سياق الآية:

لغةُ القرآن الفصيحةُ المبينة، ولغةُ مَن نسبوا القرآن إليه أعجمية

وقعت هذه الآية الكريمة ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ خيرَ موقع؛ حيث توسَّطتْ بين آيتي الحديث عن ادعاء افتراء الكذب على الرسول ﷺ؛ وإثبات وقوع افتراء الكذب من الكفار، وهما: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ و﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِى ٱلۡكَذِبَ﴾، فهم الّذين يفترون على الرسول ﷺ كما بيّن الدليل العقلي ذلك في الآية السابقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 288.

(2) القدّوميّ، التّفسير البياني، ص: 207.

والذكر الحكيم لم يَتَّهِمهم بالافتراء على الرسول ﷺ ورسالته إلا بعد أن دلّل على ذلك بالبرهان القاطع الفاضح لهم، فساق أولًا دعواهم على الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ [النحل: 101]؛ ثم كذّبهم من خلاله؛ فتقرّر صدقُه ﷺ بأنَّ لغةَ القرآنِ العربيةُ الفصيحةُ المبينة، وأن لغةَ الذين ينسبون القرآن إليه من البشر لغةٌ أعجمية مبهَمة عقيمة، وأنهما لا يلتقيان بحال، ولا سيّما أنكم أيها الكفار المكذِّبون قد عجزتم عن مجاراته ومعارضته وأنتم أهلُ الفصاحة وأرباب البيان، فكيف لهذا الأعجمي إبداعُه؟ ثم تَخْلُص هذه الآية بهذا الدليل العقلي إلى أنهم هم المفترون لا الرسول ﷺ، وتصرح بعده بهذا الافتراء الحقيقي منهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البشر والناس:

"البشر يقتضي حُسْنَ الهيئة، وذلك أنه مشتقٌّ من البِشارة - وهي حُسن الهيئة -، يقال: رجل بشير، وامرأةٌ بشيرة، إذا كان حسن الهيئة؛ فسُمّي الناس بَشَرًا؛ لأنهم أحسن الحيوان هيئة، ويجوز أن يقال: إن قولنا (بَشَر) يقتضي الظهور، وسُمّوا بَشرًا لِظهور شأنهم، ومنه قيل لظاهر الجلد: بَشَرَةٌ، والناس يقتضي النَّوْس، وهو الحركة، والناس جمع، والبشر واحد، وجمع، وفي القرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [المؤمنون: 24]، وتقول: محمد خير البشر، يعنون الناس كلهم، ويُثَنَّى البشر فيقال بَشَران، وفي القرآن: ﴿لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، ولم يسمع أنه يُجمع"(1).

التلقين والتعليم والدراسة:

التلقينُ يكون في الكلام فقط، والتعليم يكون في الكلام وغيره، تقول: لقَّنه الشعر وغيره، ولا يُقال: لقَّنه التجارة والنِّجارة والخياطة، كما يقال علَّمه في جميع ذلك، والتعليم يكون في المرَّة الواحدة، بخلاف التلقين لا يكون إلا من خلال مرّات متعددة، والتلقين هو مشافهتك غيرك بالتعليم وإلقاء القول إليه ليأخذه عنك، ووضع الحروف مواضعها، بخلاف التعليم لا يقتضي ذلك؛ ولهذا لا يقال: إن الله يُلقِّن العبد، كما يقال: إن الله يعلِّمه(2).

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 101.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 141.

أما الدراسة فهي تَلَقّي العلم ومراجعتُه بِغرض فهمه وحفظه، من "دَرَسَ يدرُس درْسًا ودِراسةً، فهو دارس، والمفعول مَدْروس، [يقال:] درَس الكتابَ ونحوَه: كرَّر قراءته ليحفظه ويفهمه، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ [الأنعام: 156]"(1)، وعلى ذلك فالدراسة أخص من العلم؛ لأنها تقوم على الفهم والتدبر.

العلم والمعرفة:

"المعرفة أخصُّ من العلم؛ لأنها علمٌ بِعَيْنِ الشيء مفصّلًا عما سواه، والعلم يكون مجملًا ومفصّلًا، قال الزُّهريُّ: "لا أصِفُ اللّهَ تعالى بأنّه عارف، ولا أُعَنِّفُ مَن يَصِفُه بذلك"، والفرق بين العلم والمعرفة إنما يتبيّن في الموضع الذي يكون فيه جملةٌ غير مبهمة؛ ألا ترى أن قولك: علمتُ أنّ لزيد ولدًا، وقولك: عرفت أنّ لزيد ولدًا يجريان مجرى واحدًا، قيل: المعرفةُ إدراك البسائط والجزئيات، والعلم: إدراك المركّبات والكلّيات؛ ومن ثَمَّ يُقال: عرَفت اللّه، ولا يقال: علمته"(2)؛ لأن معرفة شيء عنه ممكن، والعلم بكلّ شيء عنه ممتنع، واللّه تعالى أعلم.

(1) أحمد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (درس).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 500.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [النحل: 104]

الجاحدون بآيات الله تعالى محرومون من هدايات الإرشاد

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذَكَر اللّه تعالى في الآية السابقة افتراء الكافرين على الرسول ﷺ أنَّ الذي يُعلّمه القرآنَ بشر وأنه ليس من عند اللّه؛ جاءت هذه الآية بالوعيد الشديد لهم، ونفت عنهم الهداية لعدم إيمانهم، وجعلت لهم العذاب الأليم.

ومما يذكر في المناسبة أنه "لمّا ذَكَر اللّه تعالى هذا الجواب بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ في الآية السابقة على افترائهم أردفه هنا بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾"[1]؛ إذ كانوا جاحدين آيات اللّه ﷻ، وهو ما أتى به الرسول ﷺ من المعجزات وخصوصًا القرآن، فمَنْ بالَغ في جَحْد آيات اللّه تعالى سَدَّ اللّه تعالى عليه باب الهداية، وأوعده بالعذاب الأليم[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: الآيات جمع: الآية، وهي مشتقةٌ إما من (أيّ)؛ فهي التي تُبين أيًّا من أيٍّ، أو من قولهم: (أوَى إليه)، والصحيح أنها مشتقة من (التَّأيي) الذي هو التثبت والإقامة على الشيء، وتطلقُ على (العلامة) وعلى (البناء العالي)، والآية: من آيات اللّه، والجميع: الآيُ ... والآيات[3]، والآية: تقال لكل جملة من القرآن دالّة على حكم، وتقال لكل كلام من القرآن منفصل بفصل لفظي[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 272.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 597.
(3) الخليل، العين: (أيي).
(4) الرّاغب، المفردات: (أيي).

"والآية: الشيء العَجَب من قوله: ﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: 13]، أي عجائبه، يقال: فلان آية من الآيات أي عَجَبٌ مِن العَجَب"(1)، والمعنى في الآية: بحجج الله وأدلّته.

2) ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ﴾: "الهاءُ والدّالُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ: أَصْلانِ: أَحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشادِ، والآخَرُ: بَعْثَةُ لَطَفٍ، فالأوَّلُ قَوْلُهُم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أيْ: تَقَدَّمتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ، قالَ:

إذا كانَ هادي الفَتَى في البِلا *** دِ صَدْرَ القَناةِ أطاعَ الأميرا

وَيَنْشَعِبُ هَذا فيُقالُ: الهُدَى: خِلافُ الضَّلالَةِ، تَقولُ: هَدَيْتُهُ هُدًى ... والأَصْلُ الآخَرُ الهَديَّةُ: ما أَهْدَيْتَ مِنْ لَطَفٍ إلَى ذي مَوَدَّةٍ، يُقالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدي إهْداءً"(2).

وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه؛ الأوّل: الهداية التي عمّ بجنسها كلَّ مكلّف، مِنَ العقل والفطنة والمعارف الضّروريّة؛ قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: 50]، الثّاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن، الثّالث: التوفيق الذي يختصّ به من اهتدى، وهو المذكور في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: 17]، الرّابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، وهذه الهدايات مترتبةٌ بعضها على بعض(3)، فقوله تعالى هنا: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ﴾، أي: لا يَدُلُّهم، ولا يُرشدهم، بل يكلهم إلى ضلالهم يعمهون.

المَعْنى الإجْماليُّ:

من لم يؤمن بالله فليس أهلًا لهدايته

يؤكّد الله ﷻ في هذه الآية الكريمة أنَّ الذين رَفضوا قبول الإيمان بالله ﷻ ربًّا وإلهًا، وبالإسلام عقيدة وتشريعًا، وبمحمد ﷺ

(1) البَندنيجيّ، التّقفية في اللّغة، ص: 705.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).
(3) الرّاغب، المفردات: (هدى).

نبيًّا ورسولًا، ولم يصدِّقوا بالآيات أنها من عند اللّه؛ "لا يهديهم اللّه تعالى إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رُسله ﷺ في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجِع في الآخرة"[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَن جاءهم الهدى فردّوه يعاقبون من اللّه بحرمانه وخِذْلانه لهم، لعلمه سبحانه أنهم ليسوا أهلًا لذلك؛ لسوء حالِهم التابعِ لسوء اختيارهم، ويُحرمون هدايةَ اللّه؛ لأنَّ طريقَ الهدايةِ هو الإيمانُ بالقرآن[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصل هذه الآية عما قبلها:

حرمان الكفار من هداية الله

فُصلت هذه الآية عما قبلها؛ لأنها جملة استئنافية مؤكدة لحرمان الكفار من هداية اللّه تعالى؛ لأن هداية اللّه تعالى لا تُمنح إلا لِمن آمن بآياته ﷻ بالإقبال عليها بإخلاص، يَتبصّرها ويتبين صِدقها؛ لذلك قالوا: "إنما كان عدم الإيمان بآيات اللّه مؤديًا إلى ألا يهديهم؛ لأن الهداية إنما تكون لمن يفكرون في آيات اللّه ونِعمه، ومَن لا يفكّر لا يهتدي فلا يَهديه"[3]، لذلك كان موقع هذه الآية من التي قبلها "موقع التعليل لجميع أقوالهم المحكية والتذييل لخلاصة أحوالهم، ولذلك فصلت بدون عطف"[4].

غرضُ التأكيد:

تــرك الـنّـظـر في آيــات الـلـه تـعـالى، سبب الـحـرمـان من الهدى

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، تؤكِّد الآية الكريمة خبرَ نفي هداية اللّه تعالى عن الذين لا يؤمنون بآياته ﷻ؛ لأنهم ليسوا أهلًا لها؛ لِعُزوفهم عن الإقبال على لازمها وهو الإيمان بواهبها

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 604.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 160.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4274.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 289.

ﷻ، فـ"إضلال الله ﷻ لمن اختار الضلال أكيدٌ، وهذا ما جاء مؤكَّدًا بحرف التوكيد"[1].

وممّا يذكر في دلالة التأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ التفريق بين صنفين من الكافرين؛ صنفٌ يكون كافرًا ثم يؤمن، وصنفٌ آخر كافرٌ لا يؤمن وظلَّ على كفره، كأبي جهلٍ والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي مُعَيط وغيرهم؛ فهؤلاء كان التأكيد في حقّهم بعدم الهداية لعدم إيمانهم.

دلالة تقديم نفي الإيمان على نفي الهداية:

مَن وُفِّق إلى هداية الدلالة والإرشاد فاز بهداية المعونة إلى الإيمان

مما لفت أنظار العلماء في ترتيب معاني هذه الآية الكريمة أنَّ النظم الكريم قد رتَّب هِدايةَ الله تعالى للعبد على إيمانه بآيات الله ﷻ، بينما الظاهر المعروف أن الإيمان بالله تعالى وبآياته هو الذي يستلزم حصول الهداية الموصِّلة إليه، فالهداية تَحصُل قبل حصوله؛ وبذلك يقع الإشكال.

وقد أثار ابن عطية تلك الشُّبهة، وردّها فقال: "المفهوم من الوجود[2] أنَّ الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدّم في هذا الترتيب وأخّر، تهمُّمًا بتقبيح فعلهم، والتشنيع لخطابهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: 5]، والمراد ما ذكرناه، فكأنّه قال: (إنَّ الذين لم يؤمنوا لم يهدِهِم الله)"[3]، فاعتبر ابنُ عطية أنّ ﴿لَا﴾ في الآية الكريمة بمعنى (لم).

وذهب بعض أهلِ العلم إلى أن الترتيب جاء على أصله، وتكون الهدايةُ هنا بمعنى المعونةِ والتوفيق؛ يؤكد ذلك ما ذكره الشيخ الشعراوي بقوله: "إن الهداية نوعان: هداية دلالة وإرشاد، وهذه يستوي فيها المؤمن والكافر، فقد دَلَّ الله تعالى الجميع، وأوضح

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 209.
(2) يقصد واقع الحال في الدنيا بحسب علم البشر.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 422.

الطريق للجميع، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17]، أي: أرشدناهم ودَلَلْناهم؛ وهداية المعونة والتوفيق، وهذه لا تكون إلا للمؤمن، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: 17]"(1).

وأمّا الذي لا يؤمن بآيات اللّه ﷻ جُحودًا وعنادًا، بعدما تبين له الحقُّ فتنطبق عليه هذه الآية.

فائدةُ التّعبيرِ بالموصول وصلته:

التّشهيرُ بالكفّار؛ لكونهم لا يلتفتون إلى آيات الله

معلوم أنّ الموصول فقيرُ الدلالة؛ يحتاج إلى جملةِ صلةٍ تَسُدُّ فقْر دلالته، تلك الجملة هنا هي ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما فيها من عطاءات المضارعة، والقيد بالجارِّ والمجرور ... إلخ، وتلك الفضائل البلاغية لا يُتيحها من أدوات التعريف - بهذا الإيجاز - إلا الاسم الموصول.

لذلك كان "التعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للتشهير بهم"(2)، و"هم هؤلاء المشركون، وهم كلُّ من في قلبه مرض، وفي عقله دَخَل، فلا يلتفت إلى آيات اللّه تعالى، ولا يفتح عقله وقلبه لها، بل يلقاها معرِضًا منكرًا، ويمرّ بها مجانبًا مجافيًا"(3).

سِرُّ العدولِ عن التّعبير بالكافرين إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

انتفاءُ الإيمانِ عنهم هو سببُ عدمِ هدايتِهم

عدل القرآن الكريم عن وصف هؤلاء الذين "لا يصدقون بالقرآن أنه جاء من اللّه ﷻ"(4)، عن وصفهم بالكفر إلى نفي الإيمان الذي يعطي بمفهوم المخالفة وصفهم بالكفر لا محالة، غير أنَّ في إيثار نفي الإيمان - دون وصفهم بالكفر الصريح - تنبيهًا إلى سببيَّة الحكم عليهم بعدم الهداية؛ إذ كان سببَ حرمانهم من الهداية

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 8228.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 209.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 373.
(4) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/ 488.

التي تُمنح للمؤمنين انتفاءُ الإيمان عنهم صريحًا، مع تقديم أسباب الهداية إليهم، من رسول ورسالة وآيات هي أدلّة على صدقه.

وممّا يُذكر في سِرّ عدولِ القرآن عن وصف الكافرين إلى نفي الإيمان عنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أنهم لم يقفوا عند حيز الكفر فقط، بل منعوا غيرهم من الإيمان؛ فضلًا عن أنفسهم، وذلك بما قالوه عن القرآن من أنه أساطير الأولين، وأنه من تعليم البشر لرسول اللّه ﷺ.

دلالة التّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

بقاءُ المشركين على حالهم الحالِك من الضلال أزمنة مديدة

في إيثار التعبير بالمضارع المنفيّ في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إتاحة لصيغة المضارعة التي تشير إلى بقائهم على حالهم الحالِك من الكفر والضلال وإبائهم قبولَ الإيمان أزمنةً مديدةً متجدِّدةً دون وقفةٍ مع النفس تَرُدُّها عن غيِّها، ويدلُّ على نَفْي تجدُّد الإيمان من جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ التي تفصح عن أنهم يُجدِّدون لكلِّ دعوة إلى الإيمان تأبّيًا وامتناعًا ورفضًا جديدًا، وذلك يستلزم بطريق الكناية تَكَرُّرَ دعوتهم إلى الإيمان، فالأنبياء لا يَفْتُرون عن دعوة غير المؤمنين إلى الإيمان.

سرُّ النّفي بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

باب الإيمان مفتوحٌ للكافرين إذا أقلعوا عن كفرهم

آثر القرآن الكريم التّعبير في نفي الإيمان عنهم بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأن ﴿لَا﴾ تُفسِح مجال الإيمان لهؤلاء الكفار على الدوام ليدخلوه، ويفتح باب التوبة ما بقوا على قيد الحياة؛ أما (لم) فلا تناسب روح الدين؛ لأنّها تقطع بالحُكم على مَن رفض الإيمان بآيات اللّه تعالى ولو مَرّة واحدة، وتغلق دونه باب الإيمان فلم يُقبل منه بَعد الرفْض، وهذا ما ليس في الإسلام.

براعةُ التّعبير بالآيات في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

آثر التّعبير بالآيات في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ المادّة

آيـاتُ الله وبراهينُه دليلٌ قاطعٌ على صدق القرآن، وعلى نُبوّة محمّد ﷺ

اللّغويّة لها تدلّ على جلاء المعجِزة، وإقامة الحجّة على رافضِ الإيمان؛ إذ إنّها دلائلُ ساطعةٌ، كما أنّها غرائبُ وعجائبُ مؤكِّدة لدعوى النّبيِّ ﷺ، لم يعهدها النّاس قط؛ فكان التسليمُ لها أولى.

ولأنها تطلق على أنواعٍ متعدّدةٍ؛ حيث تشمل العديدَ من الآيات التي تكون بمنزلة العلامات والمعجزات، وإن كانت تتميّز عنهما بالثّبوت والاستقرار؛ فضلًا عن إطلاقها على الآي القرآنيّ؛ فهي الأصل في الإطلاق.

نكتةُ التّعبير بجمع الآيات:

الكثرة والتنوع

آثرَ القرآن الكريم التعبير بالجمع في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾؛ للدلالة على كثرتها وتنوُّعِها، وأنّ في آحادِها تناسبًا لقناعات آحاد الناس، إن لم تكن كلها مقنعةً لهم كلِّهم.

ومما يؤكّد دلالة الكثرة ما أشار إليه الشيخ أبو زهرة من أنَّ آيات الله تعالى ثلاثة أقسام: **القسم الأول**: الآيات الكونية، وهي الآيات الدالة على أنه وحده الخالق لكل شيء، وفي كل آية دلالة على الوحدانية.

والقسم الثاني: المعجزات التي تقترن بدعوى النبوة ويتحدّى بها النبي مَن يُكذِّبونه أن يأتوا بمثلها: كعصا موسى، وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى عليه السلام، وانشقاق القمر لسيدنا محمد ﷺ.

والقسم الثالث: الآيات القرآنيّة، والإيمان بها فرع الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنّ الإيمان بها إيمان بالقرآن، والإيمان بالآيات التي نفاها القرآن عنهم وترتّب على نفيها نفي الإيمان والهداية، هو الإيمان بالآيات الكونية، والإيمان بالمعجزة الكبرى معجزة النبي ﷺ، وهي المعجزة التي تحدّاهم أن يأتوا بمثلها فعجزوا[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4273.

معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

آيات الله تعالى هَداياه إلى خلقه

آثر التعبير بالباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنها تثري السياق بمعاني: الاستعانة، والسببيّة، والتّعليل... فما أبهاها! وعلى ذلك تُضَمِّنُ الباءُ الفعلَ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ معنى الفعل (يستعينون) و(يستدلون) ... إلخ؛ لذلك كانت تعدية الإيمان المنفي عن هؤلاء إلى الآيات بالباء تُقرّر أنَّ اللّه تعالى منحهم الأدلة التي يستعينون بها على تصديق الرسول ﷺ، والآيات أدوات يستعان بها في الوصول إلى الإيمان الصادق باللّه تعالى؛ لأنها بمنزلة الدليل والتعليل لأمر الإيمان.

دلالة إضافة الآيات إلى الله ﷻ:

تـعـظـيـمٌ لـهـا، وبيانٌ لرسوخها وقوّة تأثيرها

دلّت إضافة الآيات إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ على عظمتها وقوة تأثيرها، مع أنّ التعبير بالآيات وحده كافٍ في الدلالة على عظمتها، وأنها مُبْهِرَة، وأنها من الغرابة والعَجب بما يَضْمن لها التأثير في الناس، ومع ذلك دَعَم النظمُ الكريم تلك الدلالاتِ العظيمةَ بإضافة الآيات إلى اللّه تعالى، وأضفى عليها عظمةً إلى عظمتها، وقوةَ تأثيرٍ إلى قوتها، فإذا لم تُجْدِ مع الكفار برغم كل ذلك كانوا جديرين بالحرمان من هداية اللّه تعالى.

سِرُّ العدول عن (القرآن) إلى (الآيات):

بلاغة القرآن في خطاب المدعوين مِن خلال الآيات الباهرات

آثَر التّعبيرُ بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ دون (القرآن) لما يحمله هذا التعبير من الدلالات في مخاطبة المدعوين؛ لأنها تحملهم على الإيمان باللّه تعالى، لما سبق في ذهن المدعوين من آيات الأنبياء السابقين مع أقوامهم؛ فكان التعبير بها من هذا الباب، ولأنّ لفظ القرآن اسم واحد مع أنه يطلق على آلاف الآيات، أما لفظ الآيات فصيغتها جمع يلفت إلى معاني التعدّد، والتنوع، والكثرة، ولأن لفظ الآيات يحمل معاني الغرابة، والعجب، بخلاف لفظ (القرآن).

دلالة نفي الهداية عنهم بـ ﴿لَا﴾ دون (لن):

من رحمة الله أنَّه لم يغلق باب الهداية

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ دون (لن) للدّلالة على فتح الباب للكافرين إذا انخلعوا من كفرهم وبحثوا عن ربهم؛ فاللّه يفسح لهم الطريق كلما حانت الفرصة؛ لذلك لم يغلق دونهم باب القبول بالنفي بـ (لن) حتى وإن كانوا مصرّين على العِناد والجحود، ويُجدِّدون الرفض كلما جُدِّدتْ لهم الدعوة إلى الإيمان؛ لذلك أوثرت ﴿لَا﴾ دون (لن)، ولمراعاة التناسب بينها وبين جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

لطيفةُ التّعبير بالمضارع المنفيّ في الهداية:

تجدُّدُ نزولِ العقوبة بحسب المعصية

جاء الفعل مضارعًا هنا في قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِيهِمۡ﴾ بإزاء المضارع السابق في نفي الإيمان من قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وذلك يُعطي إشارةً إلى تجدّد نزولِ العقوبة بحسب المعصية؛ فما داموا لا يؤمنون فإنَّ اللّه تعالى لا يهديهم.

دلالةُ عدمِ ذِكْرِ جهة الهداية:

الكفّار محرومون من الهداية إلى كلّ خير

أعمل النظمُ الكريمُ الفعل (يهدي) في ضمير ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وسَكت عن ذِكر جِهةِ الهدايةِ التي نَفَى اللّه تعالى هدايته إياهم إليها: أهي هدايتهم إلى الإيمان في الدنيا؟ أم هدايتهم إلى الجنان في الآخرة؟ أم هدايتهم إلى غير ذلك؟

وقد تعدّدت الأقاويل في ذلك المحذوف، فقالوا: "لا يهْديهم إلَى الحُجَّة"[1]، و"لا يهديهم إلى ما ينجيهم من الحق لِما يعلم من سوء استعدادهم"[2]، "ولا يمدّهم بأمداد توفيقه وهدايته"[3]، و"لا يوفّقهم

(1) الفيروزاباديّ، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص: 230.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 470.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 373.

إلى طريق النجاة"[1]؛ ففي هذا الحذف إفادةٌ لعمومِ النفي، فهم محرومون من الهداية إلى كل أنواع الخير.

بلاغة التّعريف بالاسم الظّاهر:

إظهارُ اسم الجلالة أوقع في النّفس مِنَ الإضمار

كان حقُّ التّعبير - بمقتضى قواعد اللغة - الاكتفاءَ بالضمير في الفعل ﴿يَهۡدِيهِمُ﴾ دون النَّصِّ على الاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهُ﴾، فيكون السياق: (إن الذين لا يؤمنون بآيات اللّه لا يهديهم ولهم عذاب أليم)، غير أنَّ إظهار اسم الجلالة العظيم أوقعُ في النفس من الإضمار؛ إذ إن التكبُّرَ على آيات اللّه تعالى يقتضي الحرمان من توفيق اللّه تعالى، ولمراعاة التناسب بين جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وجملة ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ من ناحية التوازن اللفظي والتقابل المعنوي.

دلالة تقديم المفعول:

الكفّارُ ليسوا أهلًا لِنَيْل هداية الله تعالى

المفعول في جملة ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ وإن كان واجبَ التقديم، إلا أنّ تقديمه يُلمح إلى ابتغاء حرمانهم هم بخاصّة من هداية اللّه تعالى برغم أنها متاحة موهوبة لمن يطلبها، والمعنى: لا يهديهم اللّه تعالى هم بخاصّة، وهذا التقديم وإن لم يقطع باختصاصهم بهذا الحرمان فهو يُقرِّره في حقهم، ويؤكد أنهم لا ينالونه، وأنهم ليسوا له بأهل ما داموا على جحود حق اللّه تعالى في توحيده، والإيمان به، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العلى.

علةُ تقديم جملة نفي الهداية على جملة العذاب:

التّنبيهُ بسببيّة المعنى السّابق في وجود اللّاحق

رُتِّبتْ جملة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على جملة ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنّ حرمانهم من الهداية هو الذي طوَّح بهم في مجاهل الكفر والضلال، والكفرُ والضلال هو سببُ تعذيبهم بالعذاب الأليم، فالجملة السابقة سببُ السببِ المؤدّي إلى الثانية، ولا يصحّ العكس بحال.

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 682.

ولدفع تَوَهُّم البعض "أنه لكونه ﷻ هو المُضِلّ لا يتوجّه اللوم عليهم؛ نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي بذلك، لِمُباشَرَتِهم له مع حَجْب المراد عنهم، وخَلْق القدرة لهم؛ إجراءً على عوائد بعض الخلق مع بعض"[1].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على متعلّقه:

العذاب الأليم مقطوع به للكافرين بآيات الله تعالى

في تقديم الجارّ والمجرور ﴿وَلَهُمۡ﴾ على متعلّقه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ "تهديدٌ لهم ووعيدٌ على ما هم عليه من الكفر بآياتِ اللّه تعالى، ونسبة رسول اللّه ﷺ إلى الافتراءِ والتعلُّم مِنَ البشر، بعد إماطةِ شُبهتِهم وردّ طعنهم"[2].

كما أنّ في ذلك القطعَ بتعذيب هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وأنّهم لن يَنْجوا منه إن ماتوا على كفرهم واستكبارهم وإنكارهم بعثة النّبيّ ﷺ، ورسالةَ الإسلام، وكتابَه: القرآن الكريم.

سرُّ التعبير بالعذاب دون العقاب:

العذاب أشملُ وأنسبُ لمجازاة الكفر بالله تعالى

لما كان العقابُ محدودًا والعذاب لا حدود له، وأنّ طبيعة العقابِ أن تكون على إثر خطأ أو جرح، وأن العذاب أشمل من ذلك، وكان العقاب أيسرَ من أن يكون جزاءً لكفرٍ - إذ الكفر باللّه ﷻ أكبرُ الكبائر، فلا يوازيه ولا يكافئه إلا العذاب -؛ لكل ذلك كان التعبير بالعذاب هنا أنسب لجريمة الكفر بآيات اللّه تعالى وعدم الإيمان بها برغم وضوحها، وكان أنسب لمجازاتهم على الكيد لها؛ بخلاف العقاب فقد يكون يسيرًا لارتباط العقوبة بالذنب؛ فإذا عَظُم الذنب عظمت العقوبة، وإن صغر الذنب كانت العقوبة على قدره، بخلاف العذاب فهو أعمّ وأشمل.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 257.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 142.

وجهُ وصفِ العذاب بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ دون (مؤلم):

عـذاب الكفّار في الآخرة مِنَ الفظاعة بحيث لا يُحيط به وصفٌ

صيغ وصف ﴿أَلِيمٌ﴾ صيغةَ مبالغة، وهو بمعنى (مؤلم)، غير أنَّ وصف ﴿أَلِيمٌ﴾ أدخلُ في الإيلام، وأدلُّ على شدَّتِه بحيث لا يُحتمل، أما (مؤلم) فيطلق على كل ألم، ولا تبلغ صيغة اسم الفاعل (مؤلم) مبلغ صيغة المبالغة ﴿أَلِيمٌ﴾ في الترجمة عن هول عذاب من يجحد آيات اللّه ﷻ وفظاعته.

وفي وصف ﴿أَلِيمٌ﴾ حرفُ مدٍّ يُشعر بأنه عذاب يَتطاول إيلامه على الكافر، ويمتدُّ عليه ولا ينقطع عنه، أما (مؤلم) فاللفظ مقطوع قطعًا قد يوحي بانتهاء إيلامه إلى أمدٍ محدَّد، وهكذا تتآزرُ الصيغةُ الصرفية مع الإشارة الصوتية على بيان ما سيلقاه الكافر من عذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ متطاول.

سرُّ وصف العذاب بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ دون غيره:

تتنوَّعُ أوصافُ العذاب في الذِّكر الحكيم بِحسب نوع العِصيان

تستدعي السياقاتُ القرآنية المختلفة أوصافًا للعذاب بِحَسَبِها، ومما اقتَضى وصفَ العذاب بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ هنا هو الحديث عن نَفْيِ الإيمان، وما يستلزمه من الكفر الذي مَحَلُّه القلوب، و﴿أَلِيمٌ﴾ - كما فسَّره ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه - هو الوجيعُ الذي ينتهي ألَمُه ووجعه إلى القلب.

ولمّا كان الكفر بالآيات والجحودُ بها من عمل القلوب؛ كان العذاب الأنسب له هو الـ ﴿أَلِيمٌ﴾ الوجيع الذي يتوجَّهُ إلى القلوب محلِّ الكفر، فوجه المناسبة لذلك بَيِّنٌ محقّق[1].

معنى عطف قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما قبله:

الـدّلالـةُ على حرمانهم مِنَ الخير وإلقائهم في الشّر

عطف قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾؛ للدلالة على حرمانهم من الخير وإلقائهم في الشر؛ لأنهم إذا حرموا الهداية فقد وقعوا في الضلالة، وماذا بعد الحق إلا الضلال[2].

(1) كتب الدكتور أحمد محمد محمود سعيد في هذه الفكرة بحثًا بعنوان: (من وجوه الملاءَمة بينَ المَقال والمَقام في وصْفَي العذابِ بالمهين والأليم في الذّكر الحكيم) نُشر في مجلة قطاع كليات اللغة العربية، القاهرة، عام: 2008م.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 289.

دلالة موقع هذه الآية بين ما قبلَها وما بعدَها:

التّعجيلُ إلى ذِكر الإنذار، والتّخويف والتّحذير ممّا ينتظر المشركين

هذه الآية بمنزلة استطرادٍ، جاء معترضًا بين طرفي الحديث عن التدليل على كَذِب الذين يُلحدون بالقرآن إلى لسانٍ أعجميٍ في حين أنهم يُبصرون القرآن الكريم بهذا المستوى الرفيع من الفصاحة والبيان، والغاية من توسيطها - والله تعالى أعلم - التعجيلُ إلى ذِكر الإنذار والتخويف، وإلى التحذير مما ينتظرهم إنْ أصرّوا على عدم الإيمان بآيات الله تعالى الباهرات المُبهرات.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العذاب والعقاب:

"العقابُ يُنْبِئُ عن استحقاقٍ، وسُمّي بذلك لأن الفاعل يستحقُّه عَقيب فِعْله، ويجوز أن يكون العذاب مستحَقًّا وغير مستحقّ، وأصل العقاب التُّلُوُّ، وهو تأدية الأوّل إلى الثاني ... وفي التنزيل: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النمل: 10]، أي: لم يرجع بعد ذهابه تاليًا له مجيئه"[1]، و"يقال للظالم المبتدئ بالظلم: إنه معذِّب، وإن قيل: معاقِب، فهو على سبيل المجاز لا الحقيقة؛ فبينهما عموم وخصوص"[2].

العذاب والألم:

"أنَّ العذاب أخصُّ من الألم، وذلك أن العذاب هو الألم المُستمرّ، والألم يكون مستمرًّا وغير مستمرّ؛ ألا ترى أنّ قَرْصة البعوض ألمٌ وليس بعذاب، فإن استمرّ ذلك قلت: عذّبني البعوض اللّيلة، فكلّ عذاب ألمٌ، وليس كلّ ألم عذابًا، وأصل كلمة العذاب الاستمراء، ومنه يقال: ماء عذب؛ لاستمرائه في الحَلْق"[3].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 364.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 365.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 354.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المفتري الكذب على الله تعالى، هم الكفّار لا الرّسولُ عليه السلام

لمّا زيَّف اللّه تعالى في الآيات السابقة شُبَهَ الكافرين التي افترَوْها من قولهم عن الرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: 101]، و﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؛ أثبت لهم في هذه الآية ما رمَوْا به النبي ﷺ، وهو بريء منه، مقصورٌ عليهم[1].

ولمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السابقة اتِّهام كفارِ قريش رسولَ اللّه ﷺ باختلاق القرآن، وتَلَقّيه عن بشر، و"بعد أن نزّه القرآنَ عن أن يكون مفترًى، والمنزَّلَ عليه عن أن يكون مفتريًا؛ ثنى العنان لبيان مَن هو المفتري؟"[2]، وأكّد "براءة ساحته ﷺ عن لوث الافتراء"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفْتَرِى﴾: "الفَرْيُ: قَطْعُ الجلد لِلخَرْزِ والإصلاحِ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن الكريم في الكذب والشّرك والظّلم، نحو: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: 48]"[4]، ومعنى الآية: يَخْتلِقُ.

2) ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: "الكافُ والذّالُ والباءُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الصِّدْق، وتَلْخيصُهُ أنَّهُ لا يَبْلُغُ نِهايَةَ الكَلامِ في الصِّدْقِ"[5]، و"كَذَبَ يَكْذِبُ كَذِبًا: جاء بالكَذِب، أو أخبر بِخلاف ما يعرف أنه

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 290.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 470.
(4) الرّاغب، المفردات: (فري).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).

الواقع، وكذَب على غيره: أخبره بخلاف الواقع، أو نقل عنه ما لم يَقُلْه، ويقال: كذَب على نفسه: خدعها، وكذَّب غيرَه: نسَب إليه الكذِب، أو خطَّأه، أو نسَب إليه ما هو غيرُ صحيح ... وقوله تعالى: ﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 32]، أي: وصَفَه بما هو مُنَزَّهٌ عنه، أو أخبر عنه بما هو مخالف للواقع، أو نقَل عنه ما لم يصدر منه"[1].

فالكاذب على اللّه تعالى مدّعٍ عليه ما لم يقله، مزوِّرٌ مخادعٌ للناس مموِّهٌ عليهم، فتلك من صفات الكفار الذين يغطّون الحقائق ويظهرون خلافها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الــرّســولُ ﷺ أصـدقُ النّاس، وأكملُهم علمًا وعملًا

دلت هذه الآية على أن الرسول ﷺ لا يفتري الكذب أبدًا، إنما يختلقه مَن حُرم نورَ الإيمان بآيات اللّه ﷻ وكفر بها، و"لا يجرؤُ على افتراء الكذب وقلب الحقائق إلا الكافرون الذين اعتادوا على تكذيب آيات اللّه تعالى وبراهينه ... الذين لا يصدّقون بالبراهين والآيات الدالة عليه سبحانه"[2].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ الرسولَ ﷺ ليس كاذبًا فيما جاء به من عند ربِّه تعالى، فأعداؤه رمَوْه بالكذبِ الذي هو وصفُهم وعادتُهم التي اعتادوا عليها، فأظهر اللّه خزيَهم وبيّن فضائحَهم[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى فصل هذه الآية عمّا قبلها:

الرّدّ على مزاعم المشركين

فصلت هذه الآيةُ عما قبلها لنزولها منها منزلة التعليل من المعلَّل، وبيان علة الحكم عليهم بالعذاب الأليم، لافترائهم الكذب،

(1) حسن الجمل، معجم وتفسير لغويّ لكلمات القرآن: (كذب).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 682.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450.

ولأنها ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ [النحل: 101]، وقلبٌ للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون وليس رسول اللّه ﷺ، بعد أن حقَّق أنَّ القرآن منزل من عند اللّه بواسطة جبريل عليه السلام[1].

دلالة القصر:

قصر الافتراء على الكفار دون غيرهم، وردُّ التهمة عليهم

دلَّ القَصْرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾، على قصر الافتراء على الكفار بأسلوب "أبلغ مما قالوه؛ لأن قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ [النحل: 101]، قَصْرٌ للمخاطَب على صفةِ الافتراء الدائمة؛ إذ الجملة الاسمية تقتضي الثبات والدوام، فردَّ عليهم بصيغة تَقْصرُهُم على الافتراء المتكرِّر المتجدد؛ إذ المضارع يدل على التجدُّد"[2].

وكان ذلك بأسلوب ﴿إِنَّمَا﴾؛ إذ قَصر بها افتراء الكذبِ على كفار قريش ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قَصْرَ قَلْبٍ؛ إذ إنهم يزعمون أن محمدًا ﷺ يَكذب على اللّه تعالى، فردَّ اللّه تعالى عليهم هذا الزَّعْم بِقَلْبِ التُّهمة عليهم بعد أن حقق بالبرهان القاطع براءة ساحته ﷺ[3].

غرضُ القصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ غيرها:

خصوصيّة التّعريض الكامنة فيها، والكذبُ منحصرٌ في كفّار قريش

أوثِرَ القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ دون (ما) و(إلا) من طرق القصر الأخرى؛ لخصوصية التعريض الكامنة فيها، بل إنها "أقوى ما تكونُ وأعْلَق ما ترى بالقلب إذا كان لا يُراد بالكلامِ بعدَها نفْسُ معناه، ولكنَّ التعريض بأمرٍ هو مُقْتَضاه"[4]، فإيثارها في هذا الموضع "من لطائف المعاريض؛ إذ لمّا وصفوه عليه السلام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 290.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 410.
(4) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 354.

بالافتراء أنار الحقّ سبحانه في الجواب، فقال: لست أنت المفتري، إنما المفتري من كذّب معبوده، وجهل توحيده"[1].

ويدلّ القصر بها على أنّ الحُكْمَ بِقَصْر الكذب على كفار قريش دون النبي ﷺ حُكْمٌ معلومٌ مُسَلَّم به، لا يَشُكّ فيه أحدٌ، حتى إنهم هم في قرارة أنفسهم يقرّون به؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ تُستعمل في اللغة للخبر الذي "لا يَجهلُهُ المخاطَبُ، ولا يَدفعُ صِحَّتَه"[2].

سِرُّ التّعبير بالافتراء دون غيره:

المـفـتـرون على الـلـه ورسـولـه يـتـفـنّـنـون في اصطناع الكذب

أُوثِرَ التعبير بالافتراء دون غيره للدلالة على أنه كذبٌ مبالغٌ فيه أُعدّ إعدادًا متقنًا أظهره أصحابه في ثوب جميل لكي يروج على بعض الناس؛ أخذًا من الفراء، وهو لبس الثوب الجميل من باب المخادعة؛ لأنَّ الافتراء هو الاختلاق الذي لا رصيد له من واقع يُصَدِّقه، فالتعبير به يقرر أنَّ هؤلاء يدَّعون ادعاءً لا دليل عليه، ولا وجود له، وأنهم متقوِّلون بالفِرَى على اللّه تعالى، وعلى رسوله ﷺ بأنّ بشرًا يعلِّمُه القرآن الكريم.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَفۡتَرِي﴾:

الـكـفّـار لا يـتـوقّـفـون عن التّكذيب بالحقّ وأهله

المضارعة في ﴿يَفۡتَرِي﴾ تفصح عن تجديدهم الافتراء كلما حانت لهم الفرصة، لا يتورّعون عنه قط، وأنهم ينوّعون فيه، ويتفنّنون في خداع الناس والتمويه عليهم ليطفئوا نور اللّه تعالى، وأوثِرتْ أيضًا لرعاية المطابقة بين هذه الآية "وبين ما هو عبارةٌ عنه؛ أعني قولَه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾"[3].

سِرُّ التّعبير بالكذب بعد الافتراء:

تأكيدُ قبح ما زعمه هؤلاء الكفار لمخالفته للعقل والواقع

عبّر القرآن الكريم بالكذب بعد الافتراء من باب ذكر العام بعد الخاص للمبالغة في بيان قبحه؛ لأن الافتراء نوع من الكذب، يؤكد

---

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 322.

(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 380.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 142.

ذلك تأكيد فعل الافتراء بمفعوله الذي هو بمعنى المفعول المطلق لكونه آيلًا إليه في المعنى[1]؛ وذلك لأنَّ الآية مشحونةٌ بذكر أسباب الذمّ لهؤلاء الكافرين، وتلك المذمات تتمحور حول أوصاف الكذب والافتراء والاختلاق التي يؤكِّد بعضها بعضًا؛ وذلك لأنّ ما قالوه لا يصدقه العقل السليم؛ لأن أمر التعلم الذي ادَّعَوْه على الرسول ﷺ من بشر لا يتأتّى من جلسة واحدة، بل يحتاج إلى أزمنة متطاولة، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر بين الناس، ولا سيّما أنّ العلوم الموجودة في القرآن كثيرة، وتعلمها لا يتأتّى إلا من إنسان بلغ الغاية في التعليم والتحقيق، ولو وجد ذلك لكان مشارًا إليه بالبنان، والواقع لا ينطق بذلك؛ من هنا كان التعبير بالكذب بعد الافتراء من أدلّ الأدلة على قبح ما زعمه هؤلاء الكفار لمخالفته للعقل وللواقع.

دلالةُ التّعبير بالمصدر ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ دون التصريح بالفِرْيَةِ نفسها:

المبالغةُ في ذمِّهم، فالاتهام للقرآن وللرسول عينُ الكذب

الناظر في هذه الآية يجد التصريح بالكذب دون تحديد الفرية نفسها مع أنها معلومة ومعروفة مثل تكذيبهم نسبة القرآن الكريم إلى الله ﷻ، وتكذيبهم نبوّة الرسول ﷺ، غير أنَّ الآية الكريمة لم تنصَّ على تلك الافتراءات، بل ذَكرت وصفَها مباشرة (الكاذبة)، وأقامت مقام هذا الوصف مصدره ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾، فأخبرت بأنّ الكفار لا يختلقون فِرًى كاذبة، وإنما يختلقون ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ نفسَه، فكأن الآية الكريمة تقول: من أراد أن ينظر إلى الكذب محسوسا مجسَّدًا فلينظر إلى تلك الفِرى؛ فإنها منحوتةٌ من مادّة الكذِب الخالص؛ وذلك أبلغ الذمّ وأشدّ التهديد.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾:

تعريفُ اسم الجنس أقوى من تنكيره، فالكفّارُ بلغوا في الكذب نهايتَه

تدلّ (أل) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِى ٱلۡكَذِبَ﴾ على التعريف الذي يفيد أنّ الكفار بلغوا في الكذب نهايته، فكأنّه الكذب الكامل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 290.

بابه؛ كما يفيد تعريف ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ "بأداة تعريف الجنس الدالّة على تميُّز ماهية الجنس واستحضارها، فإنّ تعريف اسم الجنس أقوى من تنكيره، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2]"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

التّشهيرُ بهم بما يَدُلّ على كفرهم

أفاد التعبير "عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم، فيقال: إنما يفتري الكذب أنتم؛ ليفيد اشتهارهم بمضمون الصلة، ولأنّ للصّلة أثرًا في افترائهم، لِما تفيده الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر"[2].

ومما يذكر في سِرّ التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ التشهير بهم بما يدل عليه من أنهم كفار جاحدون[3].

سِرُّ تكرار جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مع سبق ذكرها:

التّنويه بمكانة الآيات وعظمتها، وبإيمانِ المؤمنين وذمّ الكافرين

سبق ذكر قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في الآية السابقة، فتَكرار جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في هذه الآية كذلك يشعر بأنَّ آياتِ اللّه تعالى من حيث الأهمية والقيمة والعظمة من اللّه تعالى بمكان، وأنه لا يسع أحدًا عدمُ الإيمان بها؛ لقيامها بدليل صدق رسول اللّه ﷺ وصدق نسبة القرآن الكريم إلى اللّه تعالى خير قيام لما لها من خطر في ميزان الشرع؛ لِبهاء تفاصيلها، ولِقوّة تأثيرها.

كما أن في تكرار جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من مفهوم المخالفة التنويه بإيمان الذين يؤمنون بآيات اللّه؛ فلا يخرجون عن الجادّة، ولا يَقبلون أن تكون كلمة ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ من بضاعتهم! وفي هذا دفاع عن النبيّ ﷺ، ودفعٌ لهذا الاتهام المفترَى، الذي يتهمه المشركون به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 211.

براعةُ التعبير بنفي المضارع ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دون نفي الماضي:

فتحُ بابِ الأمل، ومنعُ اليأسِ من إيمان الكافرين

آثر القرآن الكريم التعبير بنفي المضارع ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بـ ﴿لَا﴾ دون (لم)؛ فلو قيل - في غير القرآن -: إنما يفتري الكذب الذين لم يؤمنوا بآيات الله - لظلَّت وصْمة الكفر الأولى عالقةً بأصحابها حتى وإن آمنوا بآيات الله تعالى بعد هذا، وذلك غير صحيح؛ لأن الإسلام يجبُّ ما قبله كما تجبُّ التوبةُ النصوح ما قبلها، ولأن كثيرًا من كفّار قريش أسلموا وحسن إسلامهم، مثل خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وغيرهما، فالكفر الذي كان أوّل الأمر لا يحول بين المرء وبين الإيمان ما لم يغرغر.

ولئلا يبعث اليأس في نفوس الكافرين كان لا بد من نفي المضارع في جملة ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) كما جاءت عليه التلاوة الشريفة.

وإنّ نفيَ المضارع بـ ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يفصح عن تجدُّد هذا الحكم عليهم الحكم بالفرية على باطلهم المزعوم بالكذب، وأنهم لن يخرجوا من حظيرة الكذب إلّا بالإيمان بآيات الله ﷻ.

وقد"اختير في الصلة صيغة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دون: (لم يؤمنوا)، لتكون على وِزان ما عُرفوا به سابقًا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾، ولِما في المضارع من الدلالة على أنهم مستمرّون على الكفر، ولم يتوقع منهم تجدد الإيمان؛ فيستمرون على الكذب فيصير دأبهم وعادتهم"[1].

نُكْتَةُ إضافة الآيات إلى الألوهية دون الربوبية:

الألوهية في مقام العطاءات المعنوية، والربوبية في العطاءات الحسيّة

أضيفت الآيات إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ دون الربوبية؛ فلم يقل (بآيات ربهم)؛ لأنه لمّا كان المقامَ مقامَ نفي إيمان

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 200، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.

بالآيات وجحودها، واختلاق الأكاذيب عليها، وكل ذلك يتعلق بجانب الألوهية لا الربوبية؛ آثر الذكر الحكيم إضافة ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِۗ﴾ ﷻ دون ذِكر الربوبية؛ فلم يقل: (بآيات ربهم).

دلالةُ الوصل في ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الكافر يجمع بين عدم الإيمان، والاختصاص بالكذب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ للاستئناف؛ وفي الوصلِ بين الجملتين بيانُ المزامنةِ بين عدم إيمان الكفار: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾، وبين الحكم عليهم واختصاصهم بالكذب الخالص: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾؛ فالواو عَقَدَتْ للكفار وجمعت لهم بين السوأتين: عدم الإيمان بالآيات، والاختصاص بالكذب.

ولفظاعة جرم الكفّار الذين ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ أُرْدِفَت بالواو جملةُ القصر ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ بجملة قصر أخرى بطريق ضمير الفصل، وطريق تعريف المسند: وهي جملة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾[1].

سِرُّ التّعبير باسم الإشارة:

التّصريحُ ببعدِ الكفّار عن ساحة الإيمان بالله تعالى وآياته

في التّعريف بالإشارة المختصّة بالبعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إيحاءٌ بِبُعد منزلة هؤلاء المفترين الكاذبين في الضلال، وكأنَّ اسمَ الإشارة يُطَوِّح بهم بعيدًا عن ساحات الإيمان بآيات اللّه تعالى، تلك الآيات التي لا يؤمنون بها برغم جلائها أمام أعينهم.

وفي تلك الإشارة "تصريحٌ بعد التعريض؛ ليكون كالوشم عليهم، وهذا الأسلوب أبلغ من أن يقال: أنتم معشرَ قريش مفترون؛ لما أشير إليه، ولإقامة الدليل على أنهم كذلك"[2].

و"افتُتِحتْ جملة القصر باسم الإشارة بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات اللّه عنهم، ليُنَبِّه على أنّ المشار إليهم جديرون بما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 470.

يرد من الخبر بعد اسم الإشارة، وهو قصرُهم على الكذِب؛ لأنّ مَن لا يؤمن بآيات الله يتّخذ الكذب ديدنًا له متجددًا"[1].

دلالة ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾:

تخصيصُ الكافرين بأنهم الكاذبون على الحقيقة

عبّر القرآن الكريم "بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ لإفادة التخصيص، فهؤلاء الجاحدون هم فقط الكاذبون على الله"[2] وعلى نبيه ﷺ، فهو قصر قلْب، وهم الكاذبون على الحقيقة، الكاملون في الكذب؛ لأنَّ تكذيب آيات الله ﷻ أعظمُ الكذب.

بلاغة القصر في جملة التّذييل:

الكافرون أصلٌ في الكذب والافتراء، ومَن سواهم تبعٌ لهم

من المعلوم الواقع أنّ الكذب قد يَصدر من كثير من الناس، ليس فقط من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾، غيرَ أنَّ كذب هؤلاء ليس كأيّ كذب، وفي الحديث الشريف: "إنّ كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد ... "[3]، وفي الحديث الآخر: "مَن كذب عليّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النّار"[4]، فما أبشع الكذب في الدين وعلى الدين؛ لذلك فهذا القصر "قصر حقيقي ادعائي للمبالغة، إذ نزل بلوغ الجنس فيهم مبلغًا قويًّا منزلة انحصاره فيهم"[5]، فأفاد أنهم "أصل في الكذب والافتراء، ومَن سواهم تَبَعٌ لهم، يَقتدي بهم، ويتعلّق بأذيالهم"[6].

سِرُّ وصْفِ الكفّار بالكذب دون غيره:

الكذب دون سواه ينافي الإيمان بالله

لما كان الكفر وعدم الإيمان ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ الباهيةِ الزاهية أقبحَ الذنوب؛ ناسبه أن يوصف صاحبُه بأقبح الصفات الأخلاقية على الإطلاق وهو الكذِب؛ لذلك نَفى الرسول ﷺ عن المؤمنين الاتِّصاف به؛ حيث سُئل:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 211.
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1291)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1291)، عن المغيرة بن شعبة.
(4) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1291)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2134، 2266)، عن جابر بن عبيد الله.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 374.

أيكون المؤمن كذا وكذا، فيجيب: نعم، إلا في الكذِب، فقال: "لا"[1]؛ لأنّ الكذب قطعًا يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار كما أخبر ﷺ[2].

عِلّةُ تكرارِ وصفهم بالكذب:

إيقاعُ صفة الكذب عليهم على الدوام

كرَّر التعبيرُ القرآني وصفَهم بالكذب في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾؛ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم؛ إذ الصفة بالشيء أبلغ من الخبر به؛ لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر، فبدأ في هذه الآية بالخبر، ثم أكَّد بالصفة"[3]، فأثبت أنّ الكذب "نعتٌ لازِم لهم، وعادةٌ من عاداتهم"[4].

غرضُ تعريف المسند ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ بـ (أل):

قصرُ جنسِ الصفة على المَوْصوفين، مبالغةٌ في كمالهم في الكذب

جاء المسند ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ معرَّفًا باللام ليُفيد أنّ جنس الكاذبين اتَّحَدَ بهم، وصار منحصرًا فيهم، أي: الذين تعرف أنهم طائفة الكاذبين هم هؤلاء، وهذا يؤول إلى معنى قصرِ جنس المسند على المسند إليه، فيحصُل قَصْران في هذه الجملة: قصرُ موصوف على صفة، وقصرُ تلك الصفة على ذلك الموصوف ... قصر إضافيّ، أي ﴿هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة لا غيرهم الذي رَمَوْهُ بالافتراء وهو محاشى منه[5]، أي أنّهم دونه ﷺ، فهم المتناهون في الكذب أو الكاملون فيه، على أنّ اللام للجنس، ويدلُّ ذلك على قصر الجنس في المشار إليهم، مبالغةً في كمالهم في الكذب؛ إذ لا كذب أشنع من تكذيب آيات اللّه والطعن فيها، مع وضوح أنها آياتُه وبراهينه ﷻ[6].

---

(1) أخرجه مالك في الموطأ، برقم: (19)، عن صفوان بن سُليم.

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6094)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2607)، عن عبد الله بن مسعود.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 422.

(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 85.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.

(6) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 682.

دلالة التّعبير بـ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ دون (الكذّابون):

الكاذبُ ثابتٌ على كذبه وراسخ فيه، أمّا الكذّاب فمُكْثِرٌ مِنَ الكذب

آثَر الذّكرُ الحكيم صيغة اسم الفاعل (كاذب) في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ دون (الكذّابون)، بِغَضِّ النظر عن المبالغة والتَّكرار في (الكذابون)، فعُني بجانب الاسمية ودلالتها على رسوخ الصفة في الكاذب؛ ليقرّر أنّ كذبهم مقطوع به لهم، قال أبو حيان: "التوكيد البالغ والحصر بلفظ الإشارة، والتأكيد بلفظ هم، وإدخال (أل) على ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، وبكونه اسم فاعل يقتضي الثبوت والدوام"(1).

مناسبةُ الجمع بين عدم الإيمان والكذب:

الكذب والكفر قرينان، يستلزم كلٌّ منهما الآخر

في الجمع بين عدم إيمان كفار قريش بالآيات وبين الحكم عليهم بالكذب دليل استلزام كلٍّ منهما الآخر، فالكاذب لا يؤمن بآيات اللّه تعالى حقَّ الإيمان وإنِ ادّعاه - وقد سبق حديث: أن المؤمن لا يكون كذّابًا - ومن لا يؤمن بآيات اللّه تعالى هو قطعًا كاذب؛ لأنه منتكِس الفطرة، معاند للدعوة، ناكب عن الحق، وعلى هذا؛ فالنظم الكريم يقرِّر ويؤكّد التلازم بين الحرمان من احتضان أنوار الآيات، وبين الاتصاف بالكذب الكامل في بابه، ويقرر أنّ هذا كله بعضه من بعض، وأنّ أحدهما يَجُرّ إلى الآخر ويستلزمه قطعًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراء، والاختلاق، والكذب:

الكذب: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقاد المخبِر لهما يؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون: 1]؛ ردًا على قول المنافقين ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ [المنافقون: 1] وهو قول يطابق الحقيقة، ولكنه يخالف العقيدة التي يضمرونها، ولهذا سمّاه اللّه كذبًا من هذه الجهة، والافتراء: أخصّ منه، لأنه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 597.

كذبٌ مبالغٌ فيه أُعد إعدادًا متقنًا؛ فظهر في ثوبٍ جميل لكي ينخدع الناس فيه، ويُلَبَّس الباطل فيه ثوب الحق، قال تعالى في حق اليهود: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [النساء: 50]؛ فسمّى كذبهم افتراءً من هذه الناحية، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [سبأ: 8] لِزَعۡمِهِم أنه أتاهم بما لا يرتضيه الله سبحانه مع نسبته إليه، وعلى هذا فالافتراءُ نوعٌ من الكذب، ومن الفروق بينهما، أنّ الكذب يجوز في بعض المواطن، كالكذب في الحرب، والإصلاح بين الناس، وعلى الزوجة، بخلاف الافتراء[1]؛ أما الاختلاق فهو كذبٌ خاصّ يغلب عليه الاختراع، ولم يرد في القرآن الكريم إلا في قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾ [ص: 7]، و"الفرق بين افترى واختلق: أنّ افترى قطع على كذب وأخبر به، واختلق قدَّر كذبًا وأخبر به؛ لأنّ أصل افترى قطع، وأصل اختلق قدَّر"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 499.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 62.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شناعةُ مَن يكفر بقلبه ولسانه معًا

لَمّا ذكر تعالى في الآية السابقة الذين لا يؤمنون مطلقًا؛ أتبعهم هنا بذكر صنفٍ منهم، هم أشدّ كفرًا؛ فقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ الآية[1].

"ولمّا عَظَّم الذكر الحكيم تهديدَ الكافرين في الآيات السابقة ذكر في هذه الآية تفصيلًا في بيان مَن يكفر بلسانه لا بقلبه، ومَن يكفر بلسانه وقلبه معًا"[2]، وعقَّب بالوعيد على الكفر بالقلب واللسان بعد الإيمان بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُكۡرِهَ﴾: "الكُرْهُ: عدم الرضا، أو عدم الاختيار، ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83]، أي: راضين أو غير راضين، والكره: المكروه أو ما تصحبه مشقة ... والإكراه: الإجبار أو الإرغام، أي: حمل الشخص على أن يعمل عملًا وهو كاره له، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]"[3]، والكُرْه "على ضربين؛ أحدهما: ما يُعاف من حيث الطّبع، والثّاني: ما يُعاف من حيث العقل أو الشّرع، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 216]، أي: تَكْرَهونَهُ من حيث الطّبع، ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 314.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 273.
(3) حسن الجَمَل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (كره).

لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 216]؛ أنه لا يجب للإنسان أن يعتبر كَراهيَتَهُ للشيء أو محبّته له حتى يعلم حاله"[1]، والمعنى في الآية: أُرْغِمَ على النُّطْقِ بالكفرِ فتَلَفَّظَ به؛ خَوْفًا من هَلاكِه.

2) ﴿مُطۡمَئِنُّۢ﴾: "اطْمأنّ الرّجل، واطمأنّ قَلْبُهُ، واطمأنَّتْ نَفْسُه: إذا سَكَنَ واستأنس، والمُطْمَئِنُّ من الأرض، أرضٌ مُنْخَفِضة"[2] و"الطُّمَأْنينَةُ والاطْمِئْنانُ: السّكونُ بعد الانزعاج، قال تعالى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأنفال: 10]"[3]، "ومن المجاز: في فلان وقار وطمأنينة وتطامن، واطمأنّ قلبه على الإيمان"[4]، والمعنى في الآية: موقنٌ بحقيقةِ الإيمان.

3) ﴿شَرَحَ﴾: "الشّينُ والرّاءُ والحاءُ أُصلٌ يَدُلُّ عَلَى الفَتْحِ والبَيانِ، مِنْ ذَلِكَ: شَرَحْتُ الكَلامَ وغَيْرَهُ شَرْحًا، إذا بَيَّنْتَهُ، واشْتِقاقُهُ مِنْ تَشْريحِ اللَّحْمِ"[5]، و"أصل الشَّرْحِ: بَسْط اللّحم ونحوه، يقال: شَرَحْتُ اللّحم، وشَرَّحْتُهُ، ومنه: شَرْحُ الصّدر، أي: بسطه بنور إلهيّ وسكينة من جهة الله سبحانه وروح منه، قال الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25]، وشرح المُشْكِل من الكلام: بسطُه وإظهار ما يَخفى من معانيه"[6]، والمعنى في الآية: اعتَقَدَ الكفر.

4) ﴿صَدۡرٗا﴾: "الصّادُ والدّالُ والرّاءُ أصْلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما: يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الوِرْدِ، والآخِرُ: صَدْرُ الإنْسانِ وغَيْرُهُ، فالأوَّلُ قَوْلُهُم: صَدَرَ عَنِ الماءِ، وصَدَرَ عَنِ البِلادِ، إذا كانَ ورَدَها ثُمَّ شَخَصَ عَنْها ... وأمّا الآخَرُ فالصَّدْرُ لِلْإنْسانِ، والجَمْعُ: صُدورٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]"[7]، والمعنى في الآية: طابَتْ نفسُه بالكفر.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى عن شناعة حال مَن كفر باللّه تعالى بعد إيمانه فعليه غضبٌ من اللّه

(1) الرّاغب، المفردات: (كره).
(2) الخليل، العين: (طمن).
(3) الرّاغب، المفردات: (طمن).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرح).
(6) الرّاغب، المفردات: (شرح).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدر).

ﷻ، ولهم عذاب عظيم، إلا مَن أُكرِه على النطق بكلمة الكفر فتكلَّم بلسانه، وخالف قلبُه بالإيمان لينجو بذلك مِن عدوّه، فلا حرج عليه؛ لأنَّ اللّه سبحانه إنما يأخذُ العباد بما عقدتْ عليه قلوبُهم، لكن من كان منفسحَ الصَّدر بالكفر فاختاره على الإيمان وتكلَّم به طائعًا فهو مرتدٌّ عن الإسلام، فعليهم غضبٌ من اللّه ولهم عذاب عظيم[1].

الاضطهاد الشّديد رُخصةٌ للكفرِ باللّسان دون القلب

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى الرخصةِ في نطق كلمة الكفر حالَ التعذيب الذي لا يطاقُ؛ بشرطِ اطمئنانِ القلب إلى الإيمان وعدم انشراح الصَّدِر بكلمة الكفر، معَ إجماعِ العلماءِ على أنَّ من أُكرِه على الكفر فاختار القتلَ؛ أنه أعظمُ أجرًا عند اللّه ممَّن اختارَ الرُّخصة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمّا قبلها:

فُصِلت جملة ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لشبه كمال اتصالها بها، لأنّ الأولى تُقرِّر أن الكافرين هم الذين يفترون الكذب، وأنهم هم الكاذبون لا رسول اللّه ﷺ الذي يزعمون أنه افترى القرآن الكريم.

أعظم الكفر الكفرُ بعد الإيمان؛ لعلمهم به، ثمّ عدولهم عنه

وجاءت الثانية لِتُبَيِّن مصيرَهم، وتُقَرِّرَ غضب اللّه تعالى عليهم، ولِتُجيبَ عن سؤالٍ قد يَخطر في ذهن المتلقّي يقول: وما مصيرهم؟ أو: وما جزاء هؤلاء المفترين الكاذبين؟ فجاءت هذه جوابًا: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ فالكلام استئناف بياني.

التّعدُّد الإعرابيُّ لـ ﴿مَن﴾، وأثر ذلك في المعنى:

تعدّدت الوجوه الإعرابية في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾؛

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 86، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، ومجموعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 279.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 444، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 160.

الكذبُ على الله وتـرك الإيـمـان معبرُ الكفر

فمنهم من قال "﴿مَن﴾ في موضع رفع على البدل مِنَ الكاذِبينَ، ومُفَسِّر عن الكاذبين، ولا يجوز أن يكون ﴿مَن﴾ رَفعًا بالابتداء؛ لأنه لا خبرَ ههنا للابتداء، لأنَّ قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، ليس بكلام تامٍّ، وبعده: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فقوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ خبَرُ ﴿مَّن﴾ التي بعد ﴿وَلَٰكِن﴾"[1].

أو "﴿مَن كَفَرَ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾، على أن يجعل ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ اعتراضًا بين البدل والمبدَل منه، والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه"[2]، أو "﴿مَن كَفَرَ﴾ شرطية مبتدأ، وكذلك ﴿مَّن شَرَحَ﴾، و﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾: جواب عن الأولى والثانية؛ لأنهما بمعنى واحد، ويكون جوابًا للثانية، وجواب الأولى: محذوف يدلّ عليه جواب الثانية"[3].

بلاغة المقابلة بين هذه الآية وسابقتِها:

صـورةُ المقابَلة تُستكملُ بذكر الـفـريـقـين في الدنيا والآخرة

جاءت هذه الآية مبيِّنةً مصير الفريق المقابل للمؤمنين المذكورين في قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: 97]، فهؤلاء يسعدون في الحياة بالدين الحنيف، ويستضيئون بأنوار القرآن والسنة، أما أولئك الذين ذاقوا طعم الإيمان ثم انتكسوا فعليهم غضب من ربهم، فيحيَوْن حياةَ الظلام، ثم يوم القيامة يُصَبُّ عليهم عذاب عظيم لا يمكن تصوُّر فظاعته؛ فبذكر الآيتين تُسْتكمل صورة المقابَلة بين الفريقين في الدنيا والآخرة.

فـ "مضمون ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ مقابلٌ لمضمون

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 219.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 636.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 165.

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النحل: 97]، فحصل الترهيبُ بعد الترغيب"[1].

معنى التّعبير بـ ﴿مَن﴾ في الكفر دون غيرها:

إفادةُ الشّمول والعموم

آثر النظمُ الكريم التعبيرَ بـ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ دون غيرها؛ لأنها أعمُّ، فتشمل: المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، وليس كذلك أسماء الموصولات: (الذي) أو (التي) أو (الذين) أو (اللاتي) ... إلخ؛ فـ ﴿مَن﴾ إذن رمزٌ إيجاز في اللفظ ورحابةٍ في المعنى، ثم إنها تتناسب مع ﴿مَنۡ﴾ بعدُ في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أُكۡرِهَ﴾؛ لذا كانت الأنسب للسياق والمقام.

سِرُّ التّعبير بالكفر دون الشّرك:

الكافرُ ضالٌّ والمشرك أقربُ في رجاء الإيمان منه

الكافرون لا يؤمنون بالله تعالى أصلًا، أما المشركون فيؤمنون بالله ﷻ ويشركون به آلهة مزعومة، ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، وأخبر سبحانه عنهم: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: 106]، فالمشرك مختلُّ العقيدة يُرجى له التخلُّص من الشرك لما لديه من خلفية إيمانية يمكنه البناء عليها، والكافر ضالٌّ بالكلية، وإن كان كلاهما في ميزان التوحيد على غير المراد.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿كَفَرَ﴾:

تحقّق صفةِ الكفر ورسوخُها بالمرتدّ

وفي إيثار التعبير بالماضي ﴿كَفَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ﴾؛ إشارة إلى تحقُّق صفة الكفر ورُسوخها في قلب ﴿مَن كَفَرَ﴾، فصار من البعيد نجاتُه من الكفر؛ إذ صار جديرًا بالخِذْلان؛ لأنه عرف وذاق، وتبين أنوار الآيات، ثم تركها مرتدًّا عنها من أجل الدنيا.

سِرُّ التّعبير بالفعليّة دون الاسميّة:

آثر النظمُ الكريم التعبير بالفعلية التي تدلُّ على التجدّد والحدوث، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 293.

بيانُ حالِ من تجدّدَ كفره بعد إيمانه

المناسب لهذا السياق الذي يبيّن حالة من تجدّد كفره بعد إيمانه؛ بخلاف التعبير بالاسمية (الكافر) الذي يفيد الثبوت والاستمرار، ولا ينطبق ذلك على هذه الحالة؛ لأنّ كفره لم يتغير؛ فالوصف ثابت له ومستمرٌّ معه.

دلالةُ تقييد الكفر ﴿بِٱللَّهِ﴾ تعالى:

الكفر (بالله) تعالى جريمة عظيمة

آثر النظمُ الكريم تقييد الكفر بلفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، مع أنّ الكفر إذا أُطلِق انصرف إلى الكفر بالله ﷻ؛ فكان يمكن الاكتفاء بذكر الكفر دون ذكر متعلَّقه، لكنه آثر إظهار القيد "تعظيمًا لأمر هذه الردة؛ لأنه ليس كفرًا بأيّ أحد، إنه كفر ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ ولذا فليحذر مَن يُفكِّر في مثل هذا الأمر"[1]؛ ففي هذا الإظهار زيادةُ تشنيعٍ على هؤلاء الكافرين، وعظيم جرمهم في حق (الله) تعالى؛ لأنه خالقهم ورازقهم، ومنزِل هذا الكتاب الذي يقفون أمامه عاجزين عن مجاراته؛ لذلك رتّب العقاب الشديد لهم بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

عِلّةُ تقييد الكفر بالأُلوهيّة دونَ الرّبوبيّة:

السِّياق عنِ الكفر بالألوهيّة فاتّسق القيدُ معه

جاء التّعبير القرآنيّ بتقييد الكفر بلفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، دون تقييده بلفظ الربوبية بأن يقول: (من كفر بربه)؛ لأن المقام هنا مقام كفر بالألوهية، لا مقام ربوبية وامتنان بعطايا حسية؛ لذلك ناسب أن يكون الإزراءُ عليهم بتعليق الكفر بالألوهية لا الربوبية؛ فقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، دون: من كفر بربه، ويؤكد هذا أنّ السياق بِطوله مُتَّسق مع ذكر الألوهية؛ إذ تقول الآيات قبلها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، وبعدها: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾.

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾:

مجاوزةُ الإيمان محضُ جحود ومكايدة

تَدلُّ ﴿مِنْ﴾ في الاستعمال القرآني على معانٍ عديدة منها: التعليل، وابتداء الغاية، والمجاوزة؛ لأنه قد جاوز الإيمان وتخطّاه بعدما رآه، وابتدأ وانطلق إلى الكفر منه، واستحقّ بذلك ما جاء خبرًا في آخر الآية الكريمة، ويكون المعنى في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، أي: من بعد تَحقُّق إيمان هذا الذي كفر، وأنه قد تبيّن له الحق، وأنّ هذا الكفر ليس إلا محض جحود ومكايدة ومكابرة، استحق به الجزاء المذكور في الآية بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

دلالة الظّرفية:

تحقّق الإيمان في قلب المرتدّ قبل ارتداده

يدلُّ الظّرف ﴿بَعۡدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ على تَحقُّق الإيمان في قلب هذا المرتدّ قبل ارتداده؛ فذِكْرُ الإيمان هنا ليس له بل عليه، والمقصود بالظرفية ﴿بَعۡدِ﴾ تأكُّد رؤية المرتدّ صدقَ الرسول ﷺ وصدقَ نسبة القرآن الكريم الذي جاء به الرسول ﷺ إلى ربه ﷻ، ومع ذلك كفر بالله وآياته ورسوله ﷺ.

وكذلك يُرى أنَّ في هذه الظرفية "ترشيحًا لطريق الاستدراج، وتحسيرًا لهم على ما فاتهم من التصديق، وما اقترفوه من نسبته عليه السلام إلى الافتراء"[1].

سِرُّ التّعبير بالاسميّة ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ دون الفعليّة:

زيادةُ قُبحِ نُكوص الكافر بعد معرفته الحقِّ

التعبير بالاسمية في ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ يتّسق مع القيدِ بالظرف ﴿بَعۡدِ﴾؛ إذ التعبير بالاسميّةِ يدلّ على تحقّق الإيمانِ، ويؤكّد حصوله في نفس هذا الكافر المرتدّ، وأنه قد خالط قلبه، وترسّخ في نفسه لحظةً ما، وأن بصره بصدق الآيات الدالة على نبوة النبي ﷺ قد تغلغل فيها،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 471.

وأنه لم يَصدُر إلى الكفر إلا عن يقينٍ - لا يخالطه شكّ - بأنّ الدين حق، وأنّ القرآن فوق طاقة البشر، وكل ذلك يزيد كفرَه وجحوده قبحًا وجُرمًا.

دلالة إضافةِ الإيمان إلى ضمير الكافر:

كفرُ المرتدّ بعد إيمانه حُجّة عليه

تحملُ إضافة الإيمان إلى ضمير الكافر في قوله تعالى: ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ دلالةَ نوعيَّةِ هذا الإيمان، فهو الإيمان الذي صار حُجّة على صاحبه، وصار وبالًا عليه؛ فهو إيمان يضرُّ ولا ينفع، بخلاف الإيمان المطلق الذي ينفعُ ولا يضرُّ، ويرفع ولا يضع، ويُقبل من المؤمن الموفّق ولا يُرد عليه، وفيه إشارة إلى أنّ هذا الإيمان مخصوصٌ بالمرتد ومقصورٌ عليه.

سِرُّ اصطفاء الإيمان دونَ الإسلام في الآية:

الإسلام الصّادق يستلزم الإيمانَ مِن غير عكس

في اصطفاء اسم الإيمان دون الإسلام في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، دِقَّةٌ بالغة؛ لأنّ المرتدَّ قد خالط الإيمان نفسه لكنه لم يُسلم له قيادَه، نعم، هو أبصر الحق لكنه لم يمتثّله ولم يطبّقه منهجَ حياة، أما الإسلام فينطق بالاستسلام لتعاليم الدين وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وذلك لم يكن.

فالكافر مَرَّ بمرحلة الإيمان ولم يتجاوزها إلى مرحلة الاستسلام والانقياد، وعلى هذا يكون الإسلام بالمعنى السابق درجة أعلى مِن الإيمان، وأنّ الإسلام يستلزم الإيمان من غير عكس، وذلك خلاف الشائع من أمرهما؛ إذ الشائع الذائع أنّ الإسلام مجرد الاستسلام الظاهري، وأنّ الإيمان التصديق القلبي، وهذا إنما يختصّ بالمنافق، أما في المجمل فقد اتضح أنّ الإسلام يستلزم الإيمان دون العكس، والله تعالى أعلم.

دلالةُ الجملةِ الاعتراضيّة:

الرخصةُ بالكفر الظّاهريّ عند الإكراه

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾، في هذه الجملة الاعتراضية تتجلّى الدّقةُ التّركيبيّة لهذا النّظم الكريم؛ ذلك أنّ الحُكم على مَن كفر

- مِن بعد إيمانه - بالغضب والعذاب العظيم ليس على إطلاقه؛ إذ هناك مَن يفعله ظاهرًا تحت الإكراه، بينما الإيمان قد تمكَّن منه، واستقر في قلبه، وتشرّبته نفسه، راضيًا به محبًّا له، فكان لا بد من هذا القيد ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ الذي يدلُّ على أنَّ "مَن أُكرِه على الكفر وتلفَّظ به إنما هو معذور"[1].

غَرضُ توسّطِ الاستثناء بين طرفَي الجملة:

الاحـتراسُ بما لا يجوز الحكم بـه مِـن تعميم العقوبتين

من البراعة في نظم الآية الكريمة أن أُقْحِم هذا الاستثناء المنقطع ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ بين طرفي الجملة: ﴿مَن كَفَرَ﴾ ... ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾، وكان بالإمكان تأخيرُه ليأتي كما فسّروه في آخر الآية الكريمة خبرًا مستقلًّا مستأنَفًا، أو ابتداءً في آية أخرى، فتُكمَل الآية الكريمة هكذا: (من كفر بالله من بعد إيمانه فعليه غضب...)، ثم يساق الاستثناء في آية أخرى مستقلة: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾، غير أنَّ توسيطه اعتراضًا بين طرفي الجملة حقّق فضيلتين هما:

أنَّ التركيب قد جمع آيتين في آية، فحقّق تواثُق تركيبين، وشدَّ أسرهما، فأُفرغا إفراغًا واحدًا، وسُبكا سبكًا واحدًا كما يقول الجاحظ[2].

وأنَّ التركيب قد عجَّل بالاحتراس بذكر الاستثناء - المعترض بين جزئي الجملة - مِن سَبْق الوهم إلى ما لا يجوز الحكم به مِن تعميم العقوبتين ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾.. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾ ... على كل مَن كفر، بِمن فيهم المُكرَه على النطق بكلام الكفر مع ثبات قلبه على الإيمان الخالص واليقين الصادق.

بلاغةُ الإتيانِ بالاستثناء على غير حقيقته:

مـشـاكـلـةُ ما يَظهرُ مِن المكرَه بعد الإيمان ما مثله يكون مِـنَ الكافر

جملة ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ "ليست باستثناء حقيقيّ؛ لأنَّ المكره ليس

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.
(2) الجاحظ، البيان والتّبيين: 1/ 18.

بكافر، فلا يصحُّ استثناؤه من الكافر، لكنّ المكرَه لمّا ظهر منه بَعد الإيمان ما مِثله يظهر من الكافر طوْعًا صحَّ هذا الاستثناء لهذه المشاكلة"[1]؛ "لأنّ الكفرَ لغةً يَتمُّ بالقول"[2]، و"مُصَحِّح الاستثناء هو أنّ الذي قال قول الكفار قد كفر بلفظه"[3]، وذلك له "ترخيص ومعذرة"[4] مِنَ اللّه تعالى؛ "رِفْقًا بعباده، واعتبارًا للأشياء بغاياتها ومقاصدها"[5].

دلالة التّعبيرِ بـ ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ أُكۡرِهَ﴾:

عمومُها وشمولها الإفرادَ والتّثنيةَ والجمعَ

آثر النظم الكريم التعبير بـ ﴿مَنْ﴾ دون (الذي) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾؛ لأنها تتناغم مع التعبير بـ ﴿مَنْ﴾ في أوَّل الآية الكريمة، والسياق جليّ: ﴿مَن كَفَرَ﴾، ﴿مَنۡ أُكۡرِهَ﴾، و(مَن) تتسع لجميع الأعداد والأصناف من إفراد وتثنية وجمع، ومن الرجال والنساء كما سبق، أما التعبير بـ (الذي) فمخصوص بالمفرد المذكّر، فلا يَفي بالمقصود، ولا يحقّق الغرض من إشاعة التحذير لعموم هؤلاء.

سِرُّ التّعبير بالإكراه:

جواز التّلفُّظِ بالكفر ظاهريًّا في حالة خشية الهلاك

التّعبير بالإكراه صريحٌ في إباحة الكفر الظاهري في حالة الاضطرار القاهِر الذي لا سبيل إلى التخلّص منه البتّة، وبحيث يَخشى معه المكرَه من القتل أو قطع جزء منه، أو "أن يعذّبه بعذاب لا طاقة له به"[6]، وفي التصريح بالإكراه نفيُ منح إباحة الكفر لمجرد ترهيبٍ وتهديدٍ، أو استجابةٍ لأيّة إغراءات، و"درجة الإكراه المبيحة لأيّ فعل تُقَدَّر بدرجة الحرام الذي يُستباح به"[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 274.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 293.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 274.
(7) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.

دلالة بناء الفعل ﴿أُكۡرِهَ﴾ لما لم يُسَمّ فاعلُه:

إفادةُ عمومِ مَن يقعُ عليه فعلُ الإكراه

حُذِف فاعل الإكراه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ لإفادة العموم؛ فأيًّا كان المكرِه مِن أفرادٍ أو جماعات لا يتعلق بِعينه غرضٌ، ولا يتوقف على تعيينه حُكم، وإنما يتعلق الحكم بالمكرَه المؤمن، فإذا وقع عليه الإكراه رُفِع عنه الحرج وإن تلفظ بالكفر في الظّاهر.

سِرُّ عدمِ ذِكْر المكرَهِ عليه:

عـدمُ إشـاعـةِ التّلفُّظِ بالكفر إلّا لضرورة

حذف المكرَه عليه من اللفظ في جملة ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ لتعيُّنه، واكتفاءً بِفهمه من قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، ثم في حذفه لطيفة دقيقة هي أنّ الكفر باللّه تعالى مما يُفترض فيه ألا يكون من أحد أصلًا، فالأصل في العباد هو الإيمان، قال اللّه تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: 30]، وقال الرسول ﷺ فيما يَرويه عن ربه ﷻ: "إني خلقت عبادي كلهم حنفاء"[1]، والذي يناسب ذلك الأصل عدمُ إشاعةِ ذِكر الكفر بعامّة، وعدم ذِكره مضافًا إلى اللّه تعالى بخاصّة، وفي هذا تعليم للمؤمنين ألا يردِّدوا لفظ الكفر مضافًا إلى اللّه تعالى إلا لضرورة.

أثرُ اعتراض جملة ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ في المؤمن المكرَه:

التّعجيلُ بالعفو عمَّن يُكرَه على الكُفر تطمينٌ له

في التعجيل بِذكر هذه الجملة الاعتراضية: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ بعد ذكر المبتدأ وقبل سوق الخبر؛ تداركٌ للعبد المؤمن الذي يُكرَه على قول الكفر، وإحاطةٌ له بسياج الطمأنينة الذي لا يَنفُذ منه إلى نفسه أيُّ قلق، أو خوفٍ من اندراجه تحت الحكم الخطير: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

فإلى هذا الحدِّ من تطمين المؤمن المُكرَه يُعجِّل له النّظمُ الكريم ببشارة العفوِ عن كلام السوء غير المصحوب بتصديق القلب.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2865).

معنى الواو في قوله: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ﴾:

التّلفّظ بالكفر للمُكْرَه هو ما اقترن بالإيمان الرّاسِخ في القلب

الواو في جملة ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ واو الحال، التي توجب على المكرَه على الكفر الثباتَ على الإيمان لحظة مباشرة الكفر الظاهر، وألا يُجاوز النطقُ بالكفر شفتَيْه، وألا يمتزج شيء من الكفر بنفسه ولا بقلبه؛ إذ "أجمعوا على أن عند ذكر كلمة الكفر يجب عليه أن يبرّئ قلبه من الرضا به، وأن يقتصر على التعريضات"[1].

بلاغةُ موقعِ جملة ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

التّعريضُ بمن ينطق بالكفر طواعيَةً لمنفعة

جملة ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ "حال من المستثنى، والعاملُ هو الكفرُ الواقع بالإكراه لا نفس الإكراه؛ لأن مقارنةَ اطمئنان القلبِ بالإيمان للإكراه لا تُجدي نفعًا، وإنما المجدي مقارنتُه للكفر الواقع به، أي: إلا مَنْ كفر بإكراهٍ، مِن: إلا من أكره، فكفر، والحالُ أنَّ قلبَه مُطمَئنٌّ بالإيمان، لم تتغير عقيدتُه، وإنما لم يصرَّح به إيماءً إلى أنه ليس بكفرٍ حقيقةً، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيمانَ هو التصديقُ بالقلب"[2]، ومن بلاغة هذه الحال "أن مِن الناس مَن يُكرَه على الكفر، فيكفُر راضيًا متَّجهًا بنفسه وقلبِه إلى الكفر لتحصيل منفعة دنيوية خسيسة"[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالقلب دون الفؤاد:

القلب مناطُ الإيمان ومستقرُّه

جاء التعبير بالقلب في قوله: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ ليُنبّه إلى أن هذا القلب المتقلِّب بالنسبة لقضية الإيمان قد ثَبَتَ واستقرَّ على الإيمان، ولم يعد يتقلَّبُ بينه وبين الكفر، أو بينه وبين النفاق؛ لذلك قُيِّد بِوصف الاطمئنان، فقال تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، أما الفؤاد فمن التَّفَوُّدِ والتحرُّقِ والتألُّمِ، وذلك يتنافى مع دلالة الاطمئنان والسكينة بالإيمان.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 274.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.

ويؤكِّد ذلك ما روي من أنّ "ناسًا من أهل مكة فُتِنوا فارتدّوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم مَن أُكره فأجْرَى كلمةَ الكفر على لِسانه وهو معتقدٌ للإيمان، منهم عمّارٌ ... فقيل: يا رسول الله، إنّ عمارًا كفر، فقال: "كلّا، إنّ عمارًا مُلِئَ إيمانًا من قَرْنِه إلى قَدَمِه، واختلط الإيمانُ بِلحمه ودمه"، فأتى عمّارٌ رسولَ الله ﷺ وهو يَبكي، فجعل النبيُّ ﷺ يَمسح عينَيْه، وقال: "ما لك! إنْ عادوا لك فعُد لهم بما قلت""[1].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ﴾:

لا يخدعُ الإنسانُ نفسَه في قضية الإيمان

إضافة القلب إلى ضمير المُكْرَه في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ﴾، تَدعم فكرة ثباتِ المكره على الإيمان؛ إذ إنّ قلبَه هو الذي يختصُّ بالإيمان، ولا يَرَى ما فيه إلا الله تعالى؛ فلا يمكن خداع المكره نفسَه.

نُكْتَةُ اصطفاءِ وصف الاطمئنان للقلب:

الإيمان يمنح القلبَ الطمأنينة رغم قسوة الحال

آثر القرآن الكريم وصْف القلب بالاطمئنانِ في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنّ وصف القلب به يُناسب المقصودَ من تسكينه وطَمأنته، وجعْله هادئًا قارًّا بالإيمان؛ لأن الإيمان يَمنح القلب الأمنَ والأمان مهما أُحيط صاحبُه بالمخاطر الخارجية؛ فهو موصولٌ بالله تعالى.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّة في قوله: ﴿مُطۡمَئِنُّۢ﴾:

طمأنينةُ القلب بالإيمان تحقق لصاحبها راحة البال

اسمية الخبر ﴿مُطۡمَئِنُّۢ﴾ تناسب السياق القريب من جهةٍ، كما تناسب المعنى المقصود من الجهة الأخرى؛ أما مناسبتها للسياق فمن حيث مناسبتُها لاسمية ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ بالنسبة لمن انتكس إلى الكفر، وأما مناسبتها للمعنى فمن حيث إنّ اطمئنان قلب المؤمن المكرَه على الإيمان ضرورة للسماح له بالنجاة من الإكراه بالتلفظ بالكفر.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 636، وهو أثر إسناده ضعيف مسلسل بالضعفاء، يُنظر: الألبانيّ، السلسلة الصحيحة: 2/ 448.

ثم إن طبيعة دلالةِ مادة (طمن) تقتضي الاسميةَ؛ لأن طبيعتها الثبات، والتطامُن، من تطامنَتِ الأرضُ، أي: استقرَّت وتثبتتْ؛ ولهذا المعنى فإنَّ طمأنينة القلب المؤمن تحقّق لصاحبها راحة البال، ما دام إيمانه راسخًا كاملًا.

دلالةُ تعديَة ﴿مُطۡمَئِنُّۢ﴾ بالباء:

إيمانُ القلبِ يمنحه معانيَ الاطمئنان والاستقرار

للباء في القيد بالجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، إشارات معنوية عظيمة؛ فإنها تؤذن بتضمين اسم الفاعل ﴿مُطۡمَئِنُّۢ﴾ معاني متكاثفة منها: متمسكٌ بالإيمان، ملتصقٌ بالإيمان، مستعينٌ بالإيمان، مصحوبٌ بالإيمان، مستعلٍ على ضغوط الإكراه بالإيمان؛ وذلك أنَّ الاطمئنان في الأصل يعدَّى بـ (إلى)، فيقال: اطمأنّ إلى كذا، أي: ركن إليه، فلما جاءت الباء ألمحتْ إلى تلك الدلالات المتكاثفة مضمومةً إلى دلالة الاطمئنان، ومضمَّنةً فيه.

دلالة (أل) في لفظ ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

إيمانُ مَن أُكرِه على الكفر هو الإيمان الراسخ في القلب

دلّت (أل) في لفظ الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ على كماله وتميزه؛ لأنه لا بُدَّ للمكرَه على الكفر من رسوخ الإيمان في قلبه، واستجماعه خصائص الإيمان الصادق، واستيفائه شرائطَه حال نطقه بكلام الكفر، سواء كان كفرًا صريحًا، أو كان لازمًا من لوازم الكفر، مثل سَبّ النبي حاشاه ﷺ.

دلالة تعريف ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ بأل دون الإضافة:

الإيمان الصادق يمدّ صاحبه بطاقة الاحتمال

جاء التعبير القرآنيّ بالتعريف بـ (أل) للإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دون التعريف بالإضافة كما سبق في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾؛ وذلك للدلالة على رسوخ هذا الإيمان وكماله، وأيضًا لأنّ تعريف الإيمان في جانب المؤمن المكرَه بـ (أل) يوحي بأنه الإيمان النقيّ الذي يَمُدّ صاحبه بطاقةٍ جبّارة، مِن قوة

الاحتمال حتى مشارفة الموت، وعندئذ يُؤذَن له بالتلفُّظ بكلام الكفر دون أن يجاوز لسانه إلى قلبه.

أمّا تعريف الإيمان بالإضمار في جملة ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ فيوحي بأنّ إيمانه إيمان مزعزَع لم يرسخ في قلبه رسوخه في قلب المؤمن الصادق.

سِرُّ تقييدِ اطمئنانِ القلب بالإيمان دون ذكر الله:

التّعويلُ عند الإكـراه على إيمان قلب المُكرِه لا على ذكر لسانه

قُيد اطمئنان القلب بالإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دون ذكر الله؛ لأن الإيمان في مقام الإكراه على الكفر يكون دفينًا مكتومًا؛ فلا مجال ولا مناسبة لتحريك اللسان بذكر الله تعالى؛ لذلك قُيّد اطمئنانُ القلب هنا بما يناسبه وهو اطمئنانه بالإيمان المستكنّ الراسخ، الذي محلُّه القلب دون اللسان.

أمّا الاطمئنان بذكر الله تعالى - ولو تمتمة - فمجالُه السَّعةُ لا الإكراه؛ حتى لا يُلحَظ من قِبَل العدوِّ، الذي يُكرِه العبد على الكفر؛ فالذكر باللسان في هذا المقام يتنافى مع حالة الإكراه أصلًا، وهذا من رحمة الله تعالى بعبده المكرَه.

سِرُّ تقييدِ اطمئنان قلبِ المُكرَه ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دون الإسلام:

القلب المطمئنّ بالإيمان يظهر إسلامه على الجوارح

قيّد القرآن الكريم اطمئنان قلب المكره بالإيمان دون تقييد اطمئنانه بالإسلام في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنّ الإسلام يطلق على تنفيذ تعاليم الشرع من صلاة وصيام وزكاة، وليس هذا متاحًا للمؤمن حال إكراهه على الكفر، وإنما المجال حينئذ لاطمئنان قلبه بالإيمان؛ لأنه أمرٌ قلبيّ لا يطّلع عليه أحد، ولا يتحمل بسببه المشاق التي تكرهه على الكفر.

ولو قَيَّد النظم الكريم اطمئنانَ قلب المكرَه (بالإسلام) لضاق عليه الخناق حينئذ أكثر، ولَما قدَّم له الدين أيَّ رُخصة شرعية تخفّف

عنه في محنته العصيبة؛ لذلك كان التعبير القرآنيّ هو الأوفق في تعبيره باطمئنان قلب المكرَه ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ دون لفظ (الإسلام).

لطيفةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

حَذْفُ متعلَّق الإيمانِ يقطع بتعيُّنه؛ إذ لا يجوز الإيمان بسوى الله ﷻ لأنه لا ينصرف إلا إلى الله تعالى ربًّا وإلهًا، وإلى الإسلام دينًا وتشريعًا، وإلى القرآن كتابًا ودستورًا، وإلى محمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، هذا هو الإيمان الذي يُسمَح معه للمكرَه على الكفر بإظهار الكفر معه.

لا ينصرف الإيمانُ إذا أُطلِق إلّا لله تعالى

سِرّ التّعبيرِ بالإظهار في مقام إضمار الإيمان:

آثَرَ القرآن الكريم التعبير بالإظهار في قوله تعالى: ﴿مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دون الإضمار بأن يقول (مطمئن به)؛ لِما في الإظهار من إلحاح على ترسيخ الإيمان في نفس المكرَه، وإيناسه به، ودَعْم نفسه في مأزق الإكراه الذي يمرُّ به، ورفْع روحه المعنوية، وإنْ نطق بالكفر لسانه؛ بخلاف الإضمار فلا يؤدّي ذلك.

رسوخ إيمان العبد المكرَه يخفِّف عنه الكروب

عِلّةُ السّكوت عن حُكم مَن أُكْرِه وقلبُه راضٍ بالكفر:

بيّنت الآية الكريمة حُكمَ ﴿مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، وسكتتْ عن بيان حُكم مَن أُكرِه وقلْبه ليس مطمئنًّا بالإيمان، بل داخَلَ الكفرُ قلبَه مع الإكراه؛ فأولئك الذين عادوا إلى الكفر بأفواههم وبقلوبهم جميعًا، وهذا يعني أن المعاريضَ - الكلام الذي يوهِمُ به السامِعَ غيرَ ما عناه - وإن كانت بابًا من أبواب التيسير والرحمة بالمؤمنين، إلا أنها باب محفوف بالمخاطر، لا يدخله الإنسان إلا على حذرٍ وإشفاق، وفي هذا تنبيه للمكرَه إلى أنْ يحتاط من أيّ مهادنة قلبيَّةٍ للكفّار حين إبدائه الكفر ظاهرًا فقط.

التّحذير مِن مُداخلَة الكفر قلب المكرَه

بلاغةُ العطفِ:

تظهر بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ لأنها جملة استدراكية بعد ذِكر صاحب الحال ﴿إِلَّا مَنۡ

بيان لحُكْم صَدْر الآيـة بأسلوبٍ رائق

﴿أُكۡرِهَ﴾، والسياق من غير جملة الحال: إلا من أكره ولكن من شرح ...؛ فكلتاهما إذن معترضتان، وثانيتُهما مقرِّرةٌ لِمفهوم مخالَفة الأولى؛ ولذلك عطفتْ عليها؛ يقول ابن عاشور: "﴿مَّن شَرَحَ﴾ معطوف بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ على ﴿مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنه في معنى المنفيِّ لِوقوعه عقب الاستثناء من المثبت، فحرْف (لكن) عاطف، ولا عبرة بوجود (الواو) على التحقيق"[1].

ويرى القاسمي أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ رجوعٌ إلى صدر الآية وحكمِها بأسلوب مبيّن لِمن كفر، موضِّح له بمثابة عطف البيان، أو عطف التفسير؛ يقول: "وهذا الوجه من الإعراب: لم أره لأحد، ولا يظهر غيرُه لِمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن"[2].

عِلّةُ الاستدراك بـ ﴿وَلَٰكِن﴾:

تقريرُ حُكمِ مَن أُكره فكَفَر وطابَ به نفسًا

جاء النّظم القرآنيّ بذكر ﴿وَلَٰكِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾، ومن العجيب أنه لم يُبْطِئْ بِذكر هذا القيد بُعيد الجملة الاعتراضية الأولى، بل ألحقها بها مباشرة ليستقرَّ الحكمان معًا: حكمُ خبرِ المبتدأ ﴿مَن كَفَرَ﴾، و﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾، فكلاهما عليه غضبٌ من اللّه، وجملة ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ -على أحد الأقوال- معطوفةٌ على المبتدأ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ في أول الآية الكريمة؛ ليجتمع لهما حكمٌ واحد، أي: من كفر باللّه، ومن شرح بالكفر صدرًا؛ فعليهما غضب، ففي هذه الجملة "احتراسٌ من أن يُفهم من الاستثناء أنّ المكره مرخَّص له أن ينسلخ عن الإيمان من قلبه"[3]؛ لذلك كان التعبير بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ لتحرير قضية المكرَه، وتقرير حكم من أُكره فكفر فعلًا، و"طاب به نفسًا واعتقده"[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 412.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 201.

معنى ﴿مَّن﴾ في قوله: ﴿مَّن شَرَحَ﴾:

الموصوليّةُ والشّرطيّةُ فيها ثَراءٌ للمعنى

يجوز في ﴿مَّن﴾ في جملة ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أن تكون موصوليّةً، أو أن تكون شرطيّة؛ فعلى أن تكون شرطيّة تحتاج إلى فعل الشّرط وجوابه، والشّرط غيرُ مراد به معين، بل هو تحذير؛ لأنّ الماضي في الشّرط ينقلب إلى معنى المضارع، ويكون قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جوابَ الشّرطِ، وعلى كونها موصولية تحتاج إلى جملة الصلة مع تضمنها معنى الشرط، وبذلك اقتضتْ - في الوقت نفسه - أمرين؛ **الأوّل**: اقتضت جملةَ صلةٍ، هي هنا ذاتُ جملة الشرط ﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾، **والثّاني**: جملة جواب الشرط، وهي هنا ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾، وذلك التداخل الدقيق يَمنح التركيب ثراءً دلاليًّا يجعل السياق ممتلئًا بالمعاني المترتبة على الموصوليةِ والشرطية.

سِرُّ التّعبيرِ بفعل الشَّرْح:

التّفريقُ بين مَن طابت نفسُه بالكفر ومَن كَرِهَهُ

عبّر القرآنُ الكريم بالفعل ﴿شَرَحَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ للتفريق بين من أكره على الكفر وهو مبغض له لفظًا ومعنًى، وبين من طابت نفسه بالكفر، يدل على ذلك التعبير بمادة ﴿شَرَحَ﴾؛ لأنها تُفْصِحُ عن توسيع الصدر وانبساطه لاستقبال الكفر دون عوائق إيمانيَّةٍ تعوقه؛ وفي ذلك كناية عن كمال الرضا بالكفر، والسرور وطيب النفس له.

وذِكر مادّة ﴿شَرَحَ﴾ يجلو وجهَ استحقاق من طابت نفسه بالكفر للجزاء المتصل بها في التركيب: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

معنى التَّعبيرِ بالباء في قوله: ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾:

الكافر ملتصق بكفره، حريصٌ عليه، محتفٍ به

أوثِرَ في الآية الكريمة التّعبيرُ بالباء في قوله تعالى: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ لأنها تدلُّ على معانٍ متعدّدة؛ منها: معنى التعليل، أي: شرح صدرَه لأجل احْتفائه بالكفر ورضاه به.

وتدلّ الباء على الاستعانة؛ وكأنه استعان بالكفر دون الإيمان على فتّح الصدر، وتوسيعه للاختيار الأنسب له، فأداة الكافر التي يستعين بها على هذا الشرح هي الكفر، وكذلك تفيد الإلصاق، وكأنّه التصق بالكفر واختلط به.

سِرُّ تقديمِ الجارّ والمجرور:

إبرازُ وجهِ الإنكار والبشاعة في انشراحه بالكفر

دلَّ تقديمُ الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ على عناية هذا الكافر بالكفر، وعلى شدّة ارتباطه وتمسّكه به، والتصاقه به حتى صار قضيتَه الأهم؛ كما دل على "إبراز بشاعة الأمر بإظهار سبب الانشراح أولًا قبل ذكر الصدر؛ لأن المنكَر في الأمر ليس مجرد انشراح الصدر، بل المنكَر هو انشراحه بالكفر؛ ولذا قدّم لإبراز وجه الإنكار والبشاعة"[1].

غرضُ التّعبيرِ ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ دون (بكفره):

صورُ الكفر متنوّعة، وهو مِلّةٌ واحدة

تعريف ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ في جملة ﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ﴾ يوحي بأنه (الكفر) البالغ في بابه منتهى الضلال، وأنه ليس كفرًا خاصًّا به، كما كان هناك ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ - في القيد ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ - خاصًّا به؛ فصور (الكفر) عديدة، وكُلّه مِلَّةٌ واحدة، ومؤدّاه واحد مهما تعدّدت صوره؛ فكان تعريفُ (الكفر) بـ(أل) دالًّا على المقصود بدقّة.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿صَدۡرٗا﴾ دون تعريفه بالضّمير:

استحقارُ الصّدْر المنشرحِ بالكفر، المختارِ له

"لم يأتِ الصدر معرّفًا، بل نُكِّر استحقارًا لهذا الصدر الذي انشرح بالكفر"[2]، فلم يقل: (صدره)، "وحذف الضمير؛ لأنه لا يُشكِل بِصَدرِ غيرِه؛ إذ البشر لا يقدر على شرح صدر غيره؛ فهو نكرة يراد بها المعرفة"[3]، "فصُرِف الفعل إلى المضاف،

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.
(2) القدومي، التّفسير البيانيّ، ص: 213.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 276.

فانتصب على التمييز، فكأنه قال: (شرحه صدرًا)، أي: قَبِلَه على اختيار"[1].

سِرُّ التّعبير بـ ﴿صَدۡرٗا﴾ دون (القلب):

انشراح الصّدر دليلُ هدوءِ القلبِ وسعادته

جاء التعبير بالصدر دون القلب؛ لأنه محلُّ القلب الّذي يسعد بالإيمان أو بالكفر ويشتمل عليه؛ لذلك عبر القرآن الكريم بانشراح الصدر للكناية عن الراحة والهدوء والاستقرار، ولمّا كان المرتد عن الإيمان راضيًا مستبشرًا بكفره، عبر عنه بانشراح الصدر.

أما التعبير بالقلب فغير مراد هنا؛ لأنّ من لوازمه الاطمئنان والسكينة، والأصل أنّ المرتدَّ قد اعتقد الكفر، وارتاح له، وتطامن إليه، وسعِد به، وليس مجرّد قبول واعتقاد، ولكنِ استبشار وفرحة.

وجهُ إيثارِ صيغةِ التّمييز:

انشراحُ صدرِ الكافر بالكفر موقوتٌ

أوثِرت صياغةُ التّمييز في قوله تعالى: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ دون الإضافة؛ فلم يقل: (وصدرُه منشرح بالكفر) كما في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام؛ فهذا القلب دائم الاطمئنان بالإيمان، "بينما جملة ﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ هي جملة فعلية لا تدلُّ على الثبات والدوام؛ لأن القلب الكافر ليس قلبًا منشرحًا، بل انشرح وقتيًّا لأمر عارض، وسَرْعان ما يضيق هذا الصدر"[2].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

رضا الكفار بكفرهم سببٌ لاستحقاق غضب الله وعذابه

دلّتِ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على تفريع الجزاء وترتيبه على العمل، أي: رتَّبتِ استحقاقهم غضبَ الله تعالى على شرحهم بالكفر صدورهم، ووجه هذا الاستحقاق رضاهم

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 201.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.

التام، واحتضانهم المطلق للكفر، وفتح الصدر له؛ مما أوجب عليهم غضبَ اللّه تعالى.

معاملةُ الموصول كالشَّرط في الشَّبه

نُكْتَةُ اقترانِ الخبر بالفاء:

قُرن الخبر بالفاء في قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن في المبتدأ شَبَهًا بأداة الشرط، وقد يعامل الموصول معاملة الشرط، ووقع في القرآن في غير موضع، والآية مجرد تحذير للمسلمين من العود إلى الكفر.

فظاعةُ غضبِ الله واستحقاقُه بمن شرح بالكفر صدرًا

دلالةُ تقديمِ المسند في قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾:

ورد السياقُ الكريمُ بتقديم الجارّ والمجرور ﴿فَعَلَيۡهِمۡ﴾ على المبتدأ ﴿غَضَبٞ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى قوّة استحقاقِ ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ غضبَ اللّه تعالى، وجدارتهم به، وإفادة أنهم أحقُّ الخَلْق بِغضبه ﷻ؛ وفي تقديمه أيضًا "تصحيح الإتيان بالمبتدأ نكرةً حين قُصد بالتنكيرِ التعظيمُ، أي: غضب عظيم، فاكتفى بالتنكير عن الصفة"[1].

غضبُ الله تعالى وعذابُه للكافرين دائمٌ مستمرّ

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة:

جاء التّعبير بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ دون الفعلية؛ "لما تدل عليه من الدوام والثبات، أي: غضبٌ لا مغفرة معه"[2]؛ أما الفعل الماضي فمُنْتَهٍ بوجهٍ من الوجوه لارتباطه بالزمن، والزمن غير قارّ كما هو معلوم.

غضبُ الله تعالى يستلزم إنزال عقابِه بالمغضوب عليهم

سِرّ التّعبير بالغضب دون لازمه:

في التعبير بالغضب في قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دون لازمه مَزيد تهديدٍ وتنديد لمن يكفر سعيدًا بكفره فيشرح بالكفر صدره، والغضب يستلزم الانتقام من المغضوب عليهم، ولمّا كان وقوع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.

الغضب من اللّه تعالى صاحبِ القدرة المطلقة والقوة غير المحدودة كان كنايةً عن هول ما يَلقى المغضوبُ عليهم.

دلالة تنكير المسند إليه:

التّهويل والتّخويف من فظاعته وشدَّته

التّنكيرُ في قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ يفيد التهويل، ويوحي ببلوغ الخطر مداه الذي لا يُتصوّر، وأنه ﴿غَضَبٌ﴾ مستفظعٌ لا عهد لأحدٍ به ولا بخطورته، فهو غضب "عظيم لا يُكتنه كُنهه"[(1)]؛ "فاكتُفي بالتنكير عن الصفة"[(2)]؛ فتحقق بهذا التنكير التوازي بين ﴿غَضَبٌ﴾ المنكَّر وبين العذاب الموصوف بالعظيم بعدُ.

فائدةُ التّعبير بضمير الجماعة:

الالتفاتُ من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة

دلَّ التّعبيرُ بضمير الجماعة في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع سبق الإفراد في قوله تعالى: ﴿مَّن شَرَحَ﴾ على الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة؛ وذلك مراعاة للفظ ﴿مَّن﴾ ومعناها الجمع، وفي هذا الجمع إشارة إلى كثرتهم، وإلى كثرة الغضب الإلهي الذي يُصَبّ عليهم.

وجاء "الجمعُ في الضميرين المجرورين ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لمراعاة جانبِ المعنى، كما أنّ الإفراد المستكنَّ في الصلة لرعاية جانب اللفظ"[(3)].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

شِدَّة عذابهم وانتقامُ اللهِ منهم

تدلُّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على أن ابتداء صَبِّ الغضب على مَن شرح بالكفر صدرًا - من بعد إيمانه - ونزولِه عليه؛ إنما هو من عند اللّه ﷻ، وفي ذلك تهديد شديد ووعيد أكيد بشدة معاناتهم، وقوّة وقوع لازم الغضب - وهو الانتقام - منهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

تأكيدُ اختصاصِ الكفار بالعذاب دون غيرهم

دلَّ تقديم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، على اختصاص الكفار به دون غيرهم، ودلّ أيضًا على قَصْره عليهم، أي: أنّ هذا العذاب العظيم المستجمِع تلك الصّفات يُقصَر عليهم، ولا ينالُه سواهم، ولا يشاركُهم فيه غيرُهم، ودَلَّ أيضًا على توكيد تحقّق العذاب العظيم لهم، وتقرير نسبته الإيقاعيّة عليهم، وكأنّه صار مخصوصًا بهم مُعَدًّا لهم.

بلاغةُ إظهارِ الاسمِ الجليل في مقام الغضب:

تربيةُ المهابةِ، وتقويةُ تعظيم العذاب

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بإظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في مقام الغضب من قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بعد تقدُّم ذِكْره في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ دون إضماره؛ "لتربية المهابة، وتقويةِ تعظيم العذاب"[1] المذكور عقبه؛ لذلك ذُكِرَ الاسم الجليل بالعَلَميّة صريحًا مُظهَرًا في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

سِرُّ اختلافِ حرفي الجرّ (على، اللام):

إفـراغُ الغضبِ الإلـهيِّ عليهم إفـراغًا من علوٍّ واختصاصُه بهم

خالف التعبير القرآني بين حرفي الجر في الآية، إذ قيد الغضب بحرف الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ الذي يُشعر بإفراغ الغضب الإلهي عليهم إفراغًا من علوّ، وكأنه حِمَمٌ وصواعق تسقط عليهم، وهذا يليق بعلوّ اللّه عز وعلا وشدَّة وقع غضبه عليهم، أمّا اللّام في ﴿وَلَهُمۡ﴾ ففيها معنى الاختصاص، أي: أنّ العذاب العظيم مختصّ بهم دون سواهم.

غرضُ اختلافِ السِّياق في وصف العذاب:

سياق المعنى في الآيـة ودلالـتُـه يُـحـدِّدُ وصـفَ العذاب

وُصِفَ العذاب في هذه الآية بالعظيم، وفي الآية قبل السابقة بالأليم؛ لأن سياق المعنى في كل آيةٍ هو الذي يوجِّه نَحو وصفٍ يُناسبه مِن أوصاف العذاب، فقد سبق في الآية ذِكْر شرح الصدر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.

وتوسيعه وتراحُبِه انبساطًا واستبشارًا بالكفر، وارتياحًا إليه، وهذا يلائمه وصف (العظيم)، "وهو عذاب جهنم"[1]؛ ذلك أنه "لا جُرم أعظمُ من جرمهم"[2].

ووصف ﴿عَظِيمٌ﴾ يلائم السياق من حيث الكمّ أكثر مما يناسبه وصف (الأليم) من حيث الكيف، أما الآية التي قبل السابقة فتعالج قضية الحرمان من الهداية المترتبة على عدم الإيمان؛ فيناسبها وصف عذابها بالأليم كما جاء به النظم.

غرابة النَّظْم يتّسق مع غرابة الإذْن بكفر المُكْرَه باللّسان:

الإســـلامُ ديـنُ الرَّحمة المتَّسقة مــع أحـــوال العباد المتباينة

مِن أبرع ما جاء في كتب التّفاسير عن أسلوب هذه الآية الكريمة ما وُفِّق إليه صاحب التفسير القرآني للقرآن[3] إذ يقول: "جاء نظم الآية على غير مألوف اللغة، حيث جاء الشرط: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، ولم يُذكر له جواب، ثم دخل على هذا الشرط الاستثناء: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، ثم لم يُذكر لهذا الشرط والاستثناء الوارد عليه جواب، ثم ورد هذا الاستدراك: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ محمّلًا بشرط وجواب:

أمّا الشرط فهو الشرط السابق موصوفًا بمفهوم المخالفة للاستثناء الوارد على هذا الشرط، وأما الجواب فهو الجواب الذي يصلح للشرطين معًا، ولكنه اتَّجه إلى الشرط الثاني بعد أن وقع الاستثناء على الشرط الأول، والتقدير: (من كفر بالله من بعد إيمانه شارحًا بالكفر صدره فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 191.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.

(3) وقد نقلت النّص على طوله لِما يشتمل عليه مِن لمحات بلاغيّة رقيقة.

وتلك الحال التي تعرضها الآيةُ الكريمة من أحوال المؤمنين، حين يُمتَحَنون في دينهم، ويتعرضون للفتنة في عقيدتهم، فهذه الحال ليست من الأحوال المألوفة للإنسان، بحيث يروض نفسَه عليها، ويوطِّنها على احتمال إكراهِها، وإنما هي تجربةٌ قاسية يلقاها الإنسان مرة واحدة في حياته، حين تحمله البلوى على أن يتبدّل دينًا بدين، وعقيدة بعقيدة.

ومن هنا جاء النظم القرآني في الآية الكريمة على هذا الأسلوب الذي يمسك بتلك المشاعر المضطربة، ويصوِّر تلك النفوس القلقة المذعورة التي انعقدت في سمائها سحبٌ متراكمة، ترمي برعودها وبروقها وصواعقها، في غير مهل أو انقطاع.

وهكذا يحكي النظم القرآني بموسيقى ألفاظه ما تُحدِّث عنه الألفاظ بدلالة معانيها، فيقع المعنى في النفس موقعًا متمكِّنًا، حيث يدخل عليها مصوَّرًا مجسَّدًا"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإكراه والإلْجاء:

الإكراهُ: حَملُ الغير على أن يَفعل ما لا يرضاه، ولا يَختار مباشرتَه لو خُلّي ونفسه، ومنه حَمل الغير على ما يكرهه بالوعيد المُخيف[2]، والإلجاءُ نوع من أنواع الإكراه، بل هو أشد أنواع الإكراه؛ إذ يتحقّق الإلجاء "حيث ينعدم الرضا والاختيار، وتنتفي الإرادة والقصد، وذلك بالوقوع تحت التعذيب الشديد أو نحو ذلك، وهذه الحالة هي التي نزلت فيها آية النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾"[3].

القلب والفؤاد:

"لم يفرّق أهل اللغة بين القلب والفؤاد، بل عرَّفوا كلًّا منهما بالآخر"[4]، ولكنّ الناظر في استعمال القرآن الكريم يجد فرقًا بين القلب والفؤاد من ناحية الاشتقاق؛ ذلك أنّ أصل مادّة القلب تدل على التقلب والحركة، بخلاف مادّة الفؤاد؛ فإنها تدل على التفوُّد والتوقّد؛ فبينهما فرق ظاهر، ومن الأدلة على التفريق بينهما أنَّ أوصاف القلب تختلف

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 377.

(2) ابن عقيل، الواضح: 1/ 81، والتّفتازانيّ، شرح التّلويح: 2/ 395، وابن الهمام، فتح القدير: 232/ 9.

(3) القحطانيّ، الولاء والبراء في الإسلام، ص: 375.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 433.

عن أوصاف الفؤاد، وهذا يدلُّ على الفرق بينهما؛ فوصف القلب بالاطمئنان واللّين والإخبات والوجل إلى غير ذلك من الأوصاف التي اتّصفت بها قلوب المؤمنين، بخلاف أوصاف قلوب الكفار، ومنها الإنكار، والحمية، والانصراف، والمرض، والطبع إلى غير ذلك من أوصاف قلوب الكفار، والآيات في ذلك ظاهرة، وأما الفؤاد فقد وصف بأوصاف أخرى، منها التقلّب والإصغاء والثبات والفراغ، والملاحظ على هذه الأوصاف أنها تختلف عن أوصاف القلب.

ومن الفروق أيضًا: أن لفظ القلب ومشتقاته ورد في السور المكية والمدنية، بخلاف لفظ الفؤاد فإنه ورد في السور المكية فقط، وهذا يدل على أن اللّه تعالى يخاطب أفئدة الكفار؛ لأنّ الإيمان لم يدخل قلوبهم؛ فإذا دخل في الفؤاد فإنه يدخل في القلب؛ لأنّ الفؤاد هو باب القلب.

ومن الفروق أيضًا: أنّ القلب هو محل التكليف والمخاطبة؛ بخلاف الفؤاد فغير منوط بهذا الأمر، والآيات التي تدلّ على ذلك في القرآن ظاهرة، ولا نحتاج إلى تمثيل لها خشية الإطالة، ومما يؤكد الفرق بينهما استعمال القرآن لهما في آية واحدة في شأن أم موسى عليها السلام، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، ولو كان الفؤاد هو القلب لعبر بالضمير بدلًا من الظاهر، لكن تعبيره بالقلب دليل على الفرق بينهما.

ومن الذين فرقوا بينهما بعض أهل الحديث؛ فقالوا: "الأفئدة: توصف بِالرِّقَّة، والقلوبُ باللين؛ لأن الفؤاد: غِشاءُ القلب، إذا رقّ نفذ القول فيه وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ تعذَّر وصوله إلى داخله، وإذا صادف القلب شيئًا علق به إذا كان ليّنًا"[1].

الطّمأنينة والسّكِينة:

"الطّمأنينة والسّكينة كلٌّ منهما تستلزم الأخرى، لكنّ استلزام الطّمأنينة السّكينة أقوى من العكس، ثمّ إنَّ الطّمأنينة أعمُّ من السّكينة، وهي على درجات: طمأنينة القلب بذكر اللّه، وهي طمأنينة الخائف إلى الرّجاء، والطّمأنينة: سكون أمنٍ فيه استراحة أُنْسٍ،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 433.

والسّكينة تكون: حينًا بعد حين، والطّمأنينة لا تفارق صاحبها وكأنّها نهاية السّكينة"[1]، و"السكينة صولة تورث خمود الهيبة الحاصلة في القلب، وذلك في بعض الأوقات فليس حكمًا دائمًا مستمرًا، وهذا يكون لأهل الطمأنينة دائمًا، ويصحبه الأمن والأُنس والاستراحة"[2]، فالطَّمأنينةُ موجبُ السّكينة وأثرٌ من آثارها وكأنّها نهاية السّكينة.

الغضب والسّخط:

"الغَضَبُ يكون من الصغير على الكَبير، ومِن الكَبير على الصَّغير، والسخط لا يكون إلّا من الكَبير على الصَّغير يُقال سخط الأمير على الحاجِب ولا يُقال سخط الحاجِب على الأمير، ويسْتَعْمل الغَضَب فيهما، والسخط إذا عدَّيته بِنَفسِه فهوَ خلاف الرِّضا، يُقال: رضيه وسخطه، وإذا عدّيته بـ (على) فهوَ بِمَعْنى الغَضَب"[3].

(1) عدد من المتخصصين، نضرة النّعيم: 7/ 2702.

(2) المباركفوريّ، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 7/ 378.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ [النحل: 107]

حبُّ الكافرين للدّنيا وتركُهم الآخرة سببٌ لغضب الله عليهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا توعّد اللّه تعالى في الآية السابقة المرتدين بالغضب والعذاب العظيم بقوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ جاءت هذه الآية ببيان سبب استحقاق المرتدّين لهذا العذاب العظيم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ الآية.

ولمّا حكم اللّه تعالى بِغَضَبه وبعذابه العظيم على الكافرين، الذين شرحوا بالكفر صدورهم - بعد أن لامس الإيمان قلوبَهم - حُبًّا للكفر لا عن جهالة، في الآية السابقة؛ أتْبَع هنا بذكر سَبَبَيِ ذلك الحكم عليهم، وهما: إيثارهم الحياة الفانية على الباقية، وتَخْلية اللّه تعالى إياهم إلى اختيارهم، وعدم معونتهم في التخلُّص منه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾: أَحْبَبْتُ الشَّيْءَ فهوَ مُحَبٌّ، واسْتَحْبَبْتُهُ مِثْلُهُ، والاِسْتِحْبابُ: أن يتحرّى الإنسان في الشيء أن يحبه، ويكون بِمَعْنَى الاِسْتِحْسانِ[1]، و"أَحببْته نَقيضُ أبغضته، والحِبُّ والحِبّةُ بمنزلة الحبيب والحبيبة"[2]، و"﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [إبراهيم: 3]، أي: يُؤْثِرونَها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17]"[3]، و"استحبَّ الشَّيءَ: قبِله، وفضَّله واستحسنه، وآثره، واستحبَّ الشِّعْرَ على القصَّة: اختاره، وأحبَّه أكثرَ منها، وفضّله

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (حبب).
(2) الخليل، العين: (حبب).
(3) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (حبب).

عليها ... ما رغَّب فيه الشّارع ولم يوجبه، عكس مكروه: أمر مستحَبّ"(1).

مادّة الاستحباب إذن تدور حول معاني: الاستحسان، والإيثار، والقبول، والتفضيل، والاختيار؛ وذلك كله واقع من هؤلاء الكفار بالنسبة للكفر دون الإيمان.

2) ﴿لَا يَهۡدِى﴾: "الهاءُ والدّالُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ: أَصْلانِ: أَحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشادِ، والآخَرُ: بَعْثَةُ لَطَفٍ، فالأَوَّلُ قَوْلُهُم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أَيْ: تَقَدَّمتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ، قالَ:

إذا كانَ هادي الفَتَى في البلا *** دِ صَدْرَ القَناةِ أطاعَ الأميرا

وَيَنْشَعِبُ هَذا فَيُقالُ: الهُدَى: خِلافُ الضَّلالَةِ، تَقولُ: هَدَيْتُهُ هُدًى ... والأَصْلُ الآخَرُ الهَدِيَّةُ: ما أَهْدَيْتَ مِنْ لَطَفٍ إِلَى ذي مَوَدَّةٍ، يُقالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدي إِهْداءً"(2)، فقوله تعالى هنا: ﴿لَا يَهۡدِى﴾، أي: لا يَدُلُّهم، ولا يُرشدهم، بل يخليهم في ضلالهم يتخبّطون.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إيثارُ الحياةِ الدّنيا على الآخرةِ سببٌ للكفرِ المؤدّي إلى غضبِ الله وعذابِه الأليم

بيّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ "ذلك الوعيد السابق بإنزال الغضب والعذاب العظيم عليهم منه تعالى بسبب إيثارهم الدنيا وزينتها، وتعلقهم بمطامعها ومفاتنها، وإعراضهم عن الآخرة"(3)، فاختاروا الفانية، وآثروها على الباقية.

"وذلك الوعيد أيضًا بسبب أنَّ اللّه تعالى لا يهدي القوم الكافرين الإيمانَ، على سبيل القهر والإلجاء"(4)، ولا سيما هؤلاء الذين ذاقوا شيئًا من حلاوة الإيمان، ثم رجعوا إلى خبث الشرك ووحله؛ "لأنه

(1) أحمد عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (حبب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 684.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 684.

ثبت في عِلْمه المحيط اختيارُهم الكفرَ على الإيمان وإصرارهم عليه، فلِهذا لم يَعصمهم من الزيغ، ولا مما يؤدّي إليه من إنزال الغضب عليهم والعذاب العظيم بهم"(1).

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الاستسلامَ للنفس في تتبع الملذّات الدنيويةِ سببٌ للانحراف، وأنَّ هؤلاء القومَ لمّا اختاروا الكفرَ على الإيمان منعَهم اللّهُ الهدايةَ فلم يهدهم؛ لأنَّ الكفر وصفُهم، وترشدُ إلى أنَّ إيثارَ الدنيا على الآخرة طريقُ الكفر وسبيل الضلال والهلاك(2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصْل هذه الجملة عمّا قبلَها:

مَن عوقِبَ فبغضبٍ أو عذابٍ مِنَ الله بما اقترفَه

فُصِلَتْ هذه الآية عمّا قبلَها؛ لأنّها واقعة موقع التعليل، "وإشارة ذلك إلى مضمون قوله تعالى: فعليهم غضب من اللّه ولهم عذاب عظيم"(3)؛ فكأنّ سائلًا سأل: بماذا استحقّوا هذا الغضب وذلك العذاب العظيم؟ فكان الجواب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾ الآية.

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

شِدّة العذابِ وهولُه وخطورةُ وقْعِه على مَن استحقَّه

عبّر القرآنُ الكريم باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ فـ"الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة، واستحقاقهم خِذْلان اللّه بكفرهم"(4)، ومما توحي به الإشارةُ للبعيد - بلام البعد - خطورة المشار إليه، وشدّته على من يستوجبه بعمله.

معنى الباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمُ﴾:

ما يَحُلُّ بالعبدِ فبسبب ما كسبت يداه

الباء في قول اللّه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ تصرِّح بسببيَّة استحقاق

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 684.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 296.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 637.

مَن كفر بعد إيمانه وشرح بالكفر صدرًا غضبَ الله تعالى وعذابه العظيم؛ "فما استحقّوه من الغضب والعذاب كائن لهم بسبب استحبابهمُ الدنيا على الآخرة"[1]، و"هو تكسُّبٌ منهم عُلِّق به العقاب"[2]، وليس ظلمًا وقع عليهم.

نُكْتَةُ التّعبير بالحبّ في قوله: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾:

من طابت نفسُه بالكفر تخطَّى مستوى الرضا به

عبّر القرآن الكريم بالاستحباب في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون الرضا كما في قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: 7]؛ لأنه إذا كان الاستحباب يفوق الحبَّ ويتجاوزه إلى الإيثار، فإنه كذلك يفوق الرضا ويتجاوزه، فـ "الحب يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة جميعًا"[3]، والرضا قد يكون مع مخالفة الطباع، ويوافق الحكمة، كأن يَرضى المبتلى بالابتلاء ينزل به، لكن طبعه لا يميل إليه.

و"الإنسان قد يفضل شيئًا لا لحبّه بل للمصلحة، ولكن هؤلاء لم يقدموا الدنيا لمجرد المصلحة فقط، بل قدموها من فرط حبهم لها"[4]، وقد عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾، "وحبّهم هذا ناشئٌ من بغضهم للآخرة وما يترتّب على ذلك من إيمان؛ ولذلك ارتدّوا"[5].

براعةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾:

الحبُّ الطّبيعيّ فِطْرةٌ، والاستحبابُ تَكَلُّفٌ

عبّر القرآن الكريم بقوله: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ دون (أحبوا)؛ لوجود فرق بينهما في الاستعمال؛ ففعل (أحبّوا)، يعبَّر به مجرّدًا من السين والتاء حينما يكون الحب طبيعيًّا في مجاله المسموح، أو المُتَصَوَّر الممكن، أما الفعل ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ فيُترجِمُ عن تكلّف الحبّ الشديد،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 600.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 600.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 174.
(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 215.
(5) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 215.

والتعلُّق الذي يفوق حدود الخيال؛ فهم لم يحبوا فقط، بل طلبوا الحب للدنيا طلبًا؛ زيادة في المبالغة؛ لذلك كان التعبير بـ "استحبوا مبالغة في (أحبوا)، مثل استأخر واستكان"[1].

ومما يذكر في سر التعبير أنّ الاستحباب على وزن استفعال من المحبة؛ لأنّ المُؤْثِرَ للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر[2]، ولأن الاستحباب يدل على شدَّة كَلَف الكافرين بالدنيا، إلى درجة إيثارها على ما عند اللّه تعالى، ويدل أيضًا على أنهم عادوا إلى الكفر الذي كانوا فيه وأنِسوا به كما يأنس الغريب بلقاء أهله بعد طول غياب[3].

سِرّ ترتيبِ العذاب على استحباب الدُّنيا على الآخرة:

حُبُّ الدّنيا رأسُ كلِّ خطيئة

رتَّب القرآن الكريم الغضب والعذاب الأليم للكافرين الذين ارتدّوا بعد إيمانهم، وطابت نفوسهم لاستحبابهم للدنيا وغفلتهم عن الآخرة، ومن كان كذلك استحقَّ هذا العقاب؛ لأنه أوقع نفسه في المهالك؛ لأن الحياة الدنيا موصوفة بصفات مذمومة كثيرة، العاقل ينفر منها "أحَدُها: أنَّ بِسَبَبِ هَذِهِ الحَياةِ انْفَتَحَتْ أبْوابُ الآلامِ والأسْقامِ والغُمُومِ والهُمومِ والمَخاوِفِ والأحْزانِ، وثانيها: أنَّ هَذِهِ اللَّذّاتِ في الحَقيقَةِ لا حاصِلَ لَها إلّا دَفْعُ الآلامِ، بِخِلافِ اللَّذّاتِ الرّوحانِيَّةِ فإنَّها في أنْفُسِها لَذّاتٌ وسَعاداتٌ، وثالِثُها: أنَّ سَعاداتِ هَذِهِ الحَياةِ مُنَغَّصَةٌ بسبب الانقطاعِ والِانْقِراضِ والِانْقِضاءِ، ورابِعُها: أنَّها حَقيرَةٌ قَلِيلَةٌ، وبِالجُمْلَةِ فلا يُحِبُّ هَذِهِ الحَياةَ إلّا مَنْ كانَ غافِلًا عَنْ مَعايِبِها، وكانَ غافِلًا عَنْ فضائِلِ الحَياةِ الرّوحانِيَّةِ الأُخْرَوِيَّةِ، ولِذَلِكَ قالَ تَعالَى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: 17]، فَهَذِهِ الكَلِمَةُ جامِعَةٌ لِكُلِّ ما ذَكَرْناه"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 296.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 537.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 378.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 60.

بلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾:

الحياةُ الدُّنيا ومتاعها نهايةُ طموحِ الكافرين

دلَّ تعريف ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بأداة الاستغراق والاستيعاب (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ على عشق الكافرين لها، واستمساكِهم بكلّ ما يمكن أن يجمعوه منها من مال وولد وجاه، ويقرر إيثارهم إياها على رضوان الله تعالى، فكأنها نهاية كل طموحهم؛ فلا شيء يشغلهم إلا الحياة الدنيا، وذلك الخسران المبين.

سِر وصْف ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

تزهيدُ المؤمنين فيها، وفي الحرص عليها

سميت الدنيا بهذا الاسم لقربها، نقول: دانَيْت بين الأمرين؛ إذ قربت بينهما، ومن معانيها (الدنيء)، أي: الحقير؛ لذلك كشف النَّظم الكريم بوصفه ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ عن أنها من القِصَر والدنوّ والدناءة والحقارة إذا أُخِذتْ مِن غير حلّها، وأُنْفِقت في غير حقها، ولأنّ الدنيا بهذا الهوان على الله تعالى منحها من يحب ومن لا يحب، وفي الحديث الشريف: "وَلَوْ كانَتِ الدُّنْيا تَزِنُ عِنْدَ اللَّه جَناحَ بَعوضَةٍ ما سَقَى مِنْها كافِرًا شَرْبَةَ ماءٍ"[1]، وفي ذلك تزهيد للمؤمنين وتنفيرٌ من التعلّق بها والحرص عليها.

عِلّةُ تعديةِ الفعل ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ بـ ﴿عَلَى﴾:

من صفات الكفّار تفضيلُ نفعِ الدّنيا على نفع الآخرة

تعدية الفعل ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ بحرف الجر ﴿عَلَى﴾ يُلمح إلى أنَّ هؤلاء فضَّلوا الحياة الدنيا وآثروها على الحياة الآخرة، ولا يعطي هذه الدلالةَ التعبيرُ بكلمة (دون) - مثلًا - لو قيل: (استحبوا الحياة الدنيا دون الآخرة)، وتدل التعدية على تضمين الفعل ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ معاني أفعال أخرى إضافةً إلى معناه المباشر، من تلك الأفعال: أنهم (آثروا، واختاروا، وفضّلوا)، فمعنى ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ (فَضَّلوا)، فعدّي بحرف ﴿عَلَى﴾، أي: لأنهم قدَّموا نفع الدنيا على نفع الآخرة.

والذي حقَّق التضمين وهيّأ له: تَعْديةُ فعل الاستحباب بحرف

(1) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (2320)، وابن ماجه في سننه، برقم: (4110).

الجرّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ ذلك أنّ الاستحباب يتعدَّى بنفسه؛ فلما جاءت ﴿عَلَى﴾ دلَّ مجيئها على إرادة التضمين.

وقد جَمَعَ النظم الكريم بهذا التضمين بين الوَصْفَيْن: استحبّوا وفضلوا؛ "لِيَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الِاسْتِحْبابَ لِلدُّنْيا وحْدَهُ لا يَكونُ مَذْمومًا إلّا بَعْدَ أنْ يُضافَ إلَيْهِ إيثارُها عَلَى الآخِرَةِ"[1].

سِرُّ التّعبير بـ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون الحياة (العليا):

الدّارُ الآخرةِ هي حياةُ الخلود الدّائم

يُنبّه النظمُ الكريم بإيثار وصف ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ إلى أنها هي الأبقى، التي لا دارَ بعدها، وأنها الأَوْلى بالعناية لو كانوا يفقهون، ولا يُفيد وصْفُ (العليا) معنى الخلود الدائم المأخوذ من الآخرة، ولأنّ وصف ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مضمَّنٌ وصفَ (العليا)، وذلك بِقرينة مقابلته لِوصف ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾.

بلاغةُ الاكتفاءِ بذِكر الوصف وحَذفِ الموصوف:

تآزرُ خصائصِ التّراكيبِ على بيانِ ضلالِ الكفّار

جاء التعبير القرآني بذكر الصفة ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون ذكر الموصوف (الحياة)، اتّساقًا مع مُعْتَقَد الكافر المنكِر لوجودها أصلًا، فطواها الذكرُ الحكيم في تعبير دقيقٍ عن معتقدهم الضالّ؛ فتآزرت خصائص التراكيب على بيان ضلالهم البعيد.

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾:

جمعُ أسبابِ خِذْلان اللهِ للكافرين

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ واو العطف، وفي العطف بها "إشارة إلى سبب آخر من أسباب وقوع الكافرين تحت طائلة هذا الوعيد بعد ذكر السبب السابق المذكور في قوله: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وهو أنهم من جبلّة مظلمة، لا تقبل النور، ولا تتهدّى إليه، فكان أنْ أضلّهم اللّه، وتركهم في ظلمات يعمهون"[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 61.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 378.

وفي العطف "إشارةٌ إلى أنّ الآية جَمعت بين الكسب والاختراع، وهذا عقيدة أهل السنة"[1].

دلالة التّعبير بالاسميّة:

حِرمانُ الكافرين مِن هدايات اللهِ قانونٌ ثابت

إيثار القرآن صيغة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يناسب المعنى المقصود، وهو أنّ ذلك قانون سماويٌّ ثابت، ومبدأ شرعيّ لا يتبدّل في حرمان الكافرين من هدايات الله تعالى.

سِرُّ التّعبير بإظهار لفظ الجلالة:

تربيةُ المهابة في القلوب وتأكيدُ حُكمِ الله

لإظهار اسم الجلالة في مَواضِعِ إضماره إشاراتٌ عظيمة في كل موضع بحسبه؛ وذلك لِما للعَلَم الدّالّ على الذّات العَليّة من مهابة وجلال؛ فهنا أُعيد ذِكْر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ دون الإضمار (وأنه) بعد تقدُّم ذِكْرِه في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ ... ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك "لتربية المهابة"[2]، وتدعيم الحُكم وتقريره.

دلالةُ نفي الهداية:

حرمان المرتدّ من هداية الله له

نفى القرآن هداية المرتدّين في قوله: "﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وذلك لإقْدامهم على ذلك الارتداد"[3] بسبب اتباعهم للشيطان؛ فسدَّ عليهم كل مسالك الهداية، والمعنى كما يقول أبو السعود: "لا يريد هدايتهم"[4].

سِرُّ النّفي بـ ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَهۡدِى﴾:

مِنحةُ الهداية ممكنةٌ لمن تاب وأناب

نَفَى النظمُ الكريم هداية الله تعالى عن الكافرين بـ ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون (لن)؛ لأن النفيّ بـ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 600.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 276.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 588.

﴿لَا﴾ يُبّقي الهدايةَ ممكنةً لهؤلاء الكفار إن تابوا إلى اللّه تعالى وأنابوا، ويترك لهم باب التوبة - ما بقوا على قيد الحياة - مفتوحًا.

ولم يغلق باب الأمل بـ (لن) التي تبعث اليأس، ولا تُناسب روح الدين الحنيف السّمح؛ لأنها تقطع بالحكم المستقبلي على الكفار بالحرمان من هدايات اللّه تعالى، والإسلام يحُثُّ دائمًا على الإنابة إلى اللّه الرحمن الرحيم ﷻ.

عِلّةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

الدّلالةُ على أنّ الكفر وصفٌ للنّاكبين جميعًا

كان يُمكن إيجازُ العبارة بِحذف الموصوفِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾، والتركيز على الوصف ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كما سبق قريبًا في حذف الموصوف (الحياة) والاكتفاء بذكر الوصف ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، لكنّ إيراد "لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ هنا للدلالة على أنَّ مَن كان هذا شأنهم فقد عُرفوا به، وتمكّن منهم، وصار سَجيّة حتى كأنهم يجمعهم هذا الوصف"(1).

و"جريان وصفٍ أو خبر على لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ يؤذن بأنّه من مقومات قوميَّتهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: 12]"(2)، أي: "أن المقصودين هم مَن أصبح الكفر صفتهم التي عليها يجتمعون، ولأجل هذه الصفة المشتركة استحقّوا إطلاق (القوم) عليهم"(3).

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون (الذين كفروا):

ثبوتُ الكافر على كُفرِه يحولُ بينَه وبينَ هداية الله

إيثارُ التّعبيرِ بالاسمية في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون الفعلية في (الذين كفروا)، يُلمح إلى أنّهم "تمكّنوا من الكفر وأصبح صفتَهم التي عليها يجتمعون"(4)، كما تمكّن منهم الكفر وتغلغل في قلوبهم، وأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 296.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 215.
(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 215.

الكفر صار وصفًا لازمًا لهم، ثابتًا دائمًا فيهم، وأنه سيبقى حائلًا بينهم وبين هدايات اللّه ﷻ.

دلالةُ (أل) في الكافرين:

أقبحُ الكفرِ كفرُ مَنِ ارتدَّ بعد الإيمان

(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إمّا أن تحمل على العموم ويكون المعنى أنه لا يهديهم من حيث إنهم كفار؛ وإمّا أنه عموم يراد به الخصوص، والمقصود به هذا الصنف الذين بلغوا في الكفر أقبحه، وذلك لارتدادهم بعد الإيمان، وأنَّ كفرهم هو الكفر الذي لا يشبهه أو حتى يقاربه كفر، والسياق يقتضي تلك الدلالة بوضوح؛ لأنّ هؤلاء قد تجلّى لهم إعجاز (آيات اللّه) تعالى، ولامس اليقينُ بصدق الرسول ﷺ وصدق رسالته قلوبَهم، ثم فرّطوا في إيمانهم مقابل ثمن قليل مهما كانت المكاسب التي نالوها بكفرهم.

غرضُ تكرارِ نفي الهداية:

حرمانُ الكافرِ هدايةَ الإرشادِ أو التوفيقِ خسرانٌ مبين

نفى القرآن الكريم الهداية عن الكافرين في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ ليقرِّر قانونًا عامًّا، وسنّة إلهية مطّردة في الخلق، فكلُّ كافر يُحرم هداية اللّه تعالى سواء كانت هداية إرشاد، أو هداية معونة وتوفيق؛ قد حُرم الخير كله، وخسر خسرانًا مبينًا.

أما نفي الهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ فكان تهديدًا لمن كذَبوا في اتهامهم الذكرَ الحكيم بأنه من تعليم بشر أعجميّ، وعلى ذلك؛ يكون نفي الهداية في تلك الآية على الخصوص في الذين زعموا أنّ القرآن افتراه رسول اللّه ﷺ، وأنّه من تعاليم البشر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ [النحل: 108]

إيثارُ الحياةِ الدّنيا على رضوان الله تعالى سببُ انسدادِ منافذ الهدى

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرتِ الآيةُ السابقة أنَّ استمرار الكافرين على الكفر أعجب عليهم من ارتدادهم؛ أتبعهم في هذه الآية بسبب ذلك؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، ولما ذكر اللّه تعالى أنَّ سبب استحقاق المرتدّين الذين شرحوا بالكفر صدرًا بعد تأكُّدهم من صِدق الرسول ﷺ وصِدق رسالته استحبابُهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ أتبعه هنا بذكر السبب الأكبر، وأنه انسداد منافذ الهدى عليهم، وعدم انتفاعهم بالأدوات التي منحهم اللّه تعالى لينتفعوا بها بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَبَعَ﴾: "الطَّبْعُ: أن تصوّر الشيء بصورة ما، كَطَبْعِ السّكّةِ، وطَبْعِ الدّراهم، وهو أعمُّ من الختم، وأخصُّ من النّقش، والطّابَعُ والخاتم: ما يُطْبَعُ ويختم، والطّابِعُ: فاعل ذلك، وقيل للطّابَعِ: طابِعٌ، وذلك كتسمية الفعل إلى الآلة، نحو: سيف قاطع، قال تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [المنافقون: 3]"[1]، "والطَّبْعُ: الخَتْمُ: وهو التأثير في الطّين، وقوله تعالى: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأعراف: 100]، أي: نختم عليها مجازاة لهم فلا يدخلها الإيمان"[2].

2) ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾: "الغَفْلَةُ: سَهْوٌ يعتري الإنسان من قلّة التّحفُّظ والتّيقُّظ، يقال: غَفَلَ، فهو غافِلٌ، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ

(1) الرّاغب، المفردات: (طبع).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 494.

﴿هَٰذَا﴾ [ق: 22]، ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء: 1]، ﴿لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾ [النساء: 102]"(1)، ومعنى الآية: السّاهون عمّا أعدَّ اللّه لأمثالهم.

المَعنى الإجْمالِيُّ:

المرتدّون بعد إيمانهم غارقون في الغفلة

بيّنت الآيةُ الكريمة أنَّ أولئك الموصوفين "بما ذكرتْه الآيات السابقة - مِن ألوان الكفر، وقبائح الأعمال - خَتَمَ اللّه على قلوبهم فصارت مغلقة لا تقبل الحقَّ، وعلى أسماعهم فلم يعودوا يسمعون سماعَ فهْمٍ وتدبّرٍ كأنهم صُمٌّ، وختم على أبصارهم فلا تحسن رُؤْية ما يحيط بهم من عجائب الكون التي تتحدث بقدرة الخالق، ووحدانيّة المبدع جلّ شأنه، وأولَئِك هم الغارقون في الغفلة البالغون غايتها ومنتهاها دون سواهم"(2).

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ أثر الطبعِ في القلوب، والأبصار، والأسماع يورثُ البعدَ عن فهم المواعظِ، وعن كلام اللّه تعالى، وعن النظر في الآياتِ، والسَّهوِ عمّا يراد بهم، بحيثُ يُطبعُ على قلوبهم فلا يدخُلُها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذُ منها ما ينفعُهم ويصلُ إلى قلوبهم، فشملتهم الغفلةُ وأحاط بهم الخِذْلان، وحُرموا رحمةَ اللّه التي وسعت كلَّ شيء، وذلك أنّها أتتهم فردّوها، وعُرضت عليهم فلم يَقبلوها(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ فصل هذه الآية عمّا قبلَها:

حرمانُ المرتدّين الهدايةَ بحرمانهم الانتفاع بوسائلها

فُصِلتْ هذه الآيةُ الكريمة لاتّصالها الوثيق بالتي قبلها؛ لأنّها "بيان لخاتمةِ الآية السابقة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فهم لن يهتدوا؛ لأنهم اختاروا الضلالة، فطبع اللّه سبحانه على

(1) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 685.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 449، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450.

قلوبهم؛ فلا يصل إليها الإيمان، وعلى سمعهم وأبصارهم فلا يهتدون بهما"[1]، ولبيان أنَّ "حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها: من النظر الصادق في دلائل الوحدانية، ومن الوعي لدعوة الرسول ﷺ والقرآن المنزل عليه، ومِن ثبات القلب على حفظ ما داخله من الإيمان، حيث انسلخوا منه بعد أن تلبّسوا به"[2].

دلالةُ التّعبيرِ باسم الإشارة:

التّحقير والتّهوين مِن شأن المرتدّين

الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ واردة على هؤلاء الكافرين الذين وصفهم الله ﷻ في الآية السابقة؛ "لتمييزهم أكمل تمييز تبيينًا لمعنى الصلة المتقدمة، وهي اتصافهم بالارتداد إلى الكفر بعد الإيمان بالقول والاعتقاد"[3]، وفيها "زيادة في تحقير المشار إليهم وهم المرتدّون؛ لأنّ الإشارة إلى الشيء في سياق التكريم تكريم، وفي سياق التحقير تحقير"[4].

وجهُ الإخبار عن اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ باسم الموصول:

قومٌ مغضوبٌ عليهم لم يستثمروا أسباب الهداية المتاحة لهم

"أخبر عن اسم الإشارة في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالموصول؛ لِما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الحكم المبيَّن بهذه الجملة، وهو مضمون جملة ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾"[5]، و"للتشهير بهؤلاء المرتدّين، أي: أولئك هم بعينهم ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فاعرفوهم"[6].

سِرُّ التّعبير بالطّبع دون الختم:

كُفرُ المرتدّ دليلٌ على خُبث طبيعتِه وسجيّته

جاء التّعبيرُ بالطّبع في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ دون الختم لوجود فرق بينهما؛ فالطبع هو التأثير في الطين

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(6) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.

ونحوه، وأصل الطبع الصدأ يكثر على السيف ونحوه، والطبع على الشيء هو خاتمه، وهو أعمُّ من الختم؛ لذلك آثر القرآن الكريم التعبير به مع الذين ارتدّوا بعد إيمانهم ليكون الطبع علامةً وسمة يُعرفون بها، ولأنّ الطبع من الطباع والسجية؛ فيدل على الثبوت واللزوم، بخلاف الختم فإنه يدلُّ على المنع والتغطية من دخول شيء أو خروج شيء؛ لذلك كان التعبير بالطبع هو المناسب هنا مع المرتدّين؛ لأنَّ الكفر بعد الإيمان من شأنه أن يضعف في القلب معنى الإيمان؛ فيؤدّي ذلك إلى إضعاف إدراك الحق، وذلك لأنّ الكافر بعد الإيمان قد طُبع على مداركه بطابع يمنع من الوصول إلى الفهم والعلم؛ فيسمع ولا يتدبّر، وينظر ولا يعتبر؛ لأنّ قلبه مرض بسبب كفره بعد إيمانه[1].

وهناك من ذهب إلى أنّ الطبع لا يمنع من الإيمان بعدّة أدلة: **الأول:** أنه تعالى ذكر ذلك في معرِض الذمّ لهم، ولو كانوا عاجزين عن الإيمان به لما استحقّوا الذمّ بتركه، **والثاني**: أنه تعالى أشرك بين السمع والبصر وبين القلب في هذا الطبع، ومعلوم من حال السمع والبصر أنَّ مع فقدهما قد يصحّ أن يكون مؤمنًا فضلًا عن طبعٍ يلحقهما في القلب، **والثالث**: وصفهم الغفلة، ومن منع من الشيء لا يوصف بأنه غافل عنه، فثبت أنّ المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التي يخلقها في القلب، وإذا ثبت ذلك كان إيثار مفردة الطّبْع هنا موارَبة لباب التوبة، وتنحية التيئيس جانبًا؛ لعلهم يثوبون من قريب، وبخاصّة أنهم ذاقوا شيئًا من حلاوة الإيمان قبل أن يرتدّوا، والواقع جارٍ بهذا، فقد رأينا كثيرًا ممن ارتدّوا وهاجموا الدين بضراوة ثم عادوا منافحين عنه بقوّة، ولو عبّر بالختم لأغلق عليهم باب التوبة، وحرمهم من الأوبة، وعن مجاهد قال: "الرّانُ أيسَرُ من الطَّبْع، والطَّبع أيسر من الأقْفال، والأقفال أشدُّ ذلك كله"[2].

ولعلّ المقصود بالطبع هنا ما يُخَلِّفه من وسْم على المطبوع؛ فيكون علامة فضْحٍ لصاحبه إذا كان وسم كفر، والأولى أنَّ الطبع أشدُّ من الختم ودليلٌ على عدم الإيمان؛ بدليل إسناد الطبع إلى المنافقين في آيات القرآن الكريم، ولأنّ الطبع يحصل من تزايد الرّان لهم وترادف ما يزيد الكفر؛ لذلك فالطبع أشدّ مِنَ الختم.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4279.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 259.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾:

مـنـعُ وصــولِ الإيـمـانِ إليهم بتشبيه المعقول بالمحسوس

"الطّبْعُ بالسّكون: الخَتْمُ، وبالتّحريك الدَّنَس، وأصلُه من الوَسَخ يَغشى السيف، ثم استعمل فيما يُشبه ذلك من الآثام والقبائح"(1)، فهو هنا "مستعار لِمَنْع وصول الإيمان وأدلَّته، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس"(2)، و"المقصود أنه حال بينها وبين الحق لإصرارها على الكفر"(3)، وهو هنا يعني "جَعْل الشيء سجية وطبيعة، ومن هنا قيل: طَبْعُ الإنسان: عادته، والطبع على قلوب المرتدّين يكون بجعل الإعراض عن الإيمان والهدى طبيعةً لِهذه القلوب، فلا تتَّعظ ولا تلين أبدًا"(4).

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿طَبَعَ﴾:

تَحقُّقُ الوقوعِ وثُبـوت الطبع للمرتدّين

جاء التّعبيرُ بالماضي ﴿طَبَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ دون المضارع (يطبع)؛ لأنه يفيد مع تحقُّق الوقوع ثبوت الحكم عليهم بالخلود في الضلال.

دلالةُ إسناد الطبع إلى ﴿ٱللَّهُ﴾:

عِظَمُ انتكاسِهم بـإرادة الله سلبَهم نورَ الهداية

أسند النظم الكريم الطبْعَ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾؛ تعظيمًا لهذا الطبْع؛ لأنّ من ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ على قلبه فليس هنالك أحدٌ في الوجود يستطيع إزالة هذا الطبع(5)، وفيه دلالة على مزيد من الترهيب والتهديد.

سِرُّ التَّعبير بحرف الاستعلاء:

تمكُّنُ انغلاقِ قـلـوبـهـم فلا يدخلها هدى

عبّر القرآن الكريم بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ للدلالة على استعلاء الطبع على قلوبهم

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 6/ 102.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.

(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 685.

(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.

(5) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.

وتمكّنه منها؛ فلا يدخل منها شيء، ولا يخرج منها شيء، ولأنه يناسب الطّبْع والوَسْم الذي يُنْقَش على المختوم، ويعلوه ظاهرًا غير خفيّ ولا مستور.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾:

تجهيلُ قلوبِ المُرْتَدّين، وتناسي ذكرِهم بالإبعاد

إضافة النظم الكريم القلوبَ إلى ضميرِ الكفار (هم) دون إظهار اسمهم هكذا: (قلوب الكافرين)؛ دل على نُكران تلك القلوب وذَمِّها، وتخصيصِها بالخزي والتجهيل، وإبعاد ذكرهم الصريح عن ساحة الطُّهر والجلال؛ ذلك أنها (قلوبٌ) "أبت عن إدراك الحقّ والتأمل"[1]؛ فطبع الله تعالى عليها طابع الكفر، فلا تقبل إيمانًا، ولا تطمئن إليه[2].

غرضُ البَدءِ بالطّبع على القلوب قبل السّمع والبصر:

القلوبُ محلُّ الإيمان، والسّمعُ والبصر آلتا الإيصالِ إليه

بدأ النّظم الكريم بالطّبع على القلوب قبل السّمع والبصر؛ لأنّ القلبَ محلُّ الإيمان، والحواسّ خادمة القلب، وموصِّلةٌ إليه[3]، ولأنّ هذه الآية جاءت عقب الآيات السابقة التي نفت عنهم الإيمان، والإيمانُ تصديق يقوم على الحجّة والبرهان، وإدراك الحجّة والبرهان إنما هو في القلب، فكان التعليل المتّصل الواضح لنفي الإيمان أنّ قلوبهم مغلقةٌ لا تنفذ إليها الحُجَّة، ولا يتسرّب إليها نور البرهان؛ لذلك قدّم القلب على السمع[4].

وجهُ تقديم القلبِ في الذّكر على السّمع:

مراعاةُ السّياق وسَكْب المعاني ضرورةٌ بلاغيّة

قدّم القرآنُ الكريم ذكر القلب على السمع في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ﴾، بخلاف سورة الجاثية؛ حيث قدّم السمع في الذكر على القلب فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 379.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 2/ 398.
(4) عباس، التّفسير والمفسّرون في العصر الحديث: 2/ 494.

ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23]؛ ذلك لأنه سبحانه في سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفًا على قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23]، ومن اتخذ إلهه هواه، يكون أوّل ما يبدو منه للناس ويُعرف؛ هو إعراضه عن النصح، وليُّ رأسه عن استماع الحجّة، فكان مظهر عدم السماع منه أول ما يبدو للناظرين، فلذلك قدّم السمع على القلب؛ أما هنا فقدّم القلب مناسبة لسياق الآيات التي تتحدّث عن كفر المرتدّين وعدم إيمانهم، والكفر والإيمان محلّهما القلب؛ فكان مناسبًا تقديم القلب على السمع.

سِرُّ ترتيبِ الطّبع على السّمع بعد القلب:

القلب مَلِكٌ، والحواسُّ خادمةٌ له

جاء ترتيب الحواسِّ في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ﴾ من الأعلى إلى الأدنى - وليس العكس - تعظيمًا لقوة هذا الطّبْع، وفي هذا السياق يحتلّ القلب المنزلة الأهم؛ لأنه هو الأصل في موضوع الإيمان، والسمع أهمُّ من البصر، ثم تأتي منزلة الأبصار في الاعتبار وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالهداية.

عِلّةُ التّعبيرِ بالسّمع دونَ الأُذن:

الطّبْع يكون على السّمع بِحَجْب المسموع، لا على آلته

في إيثار النظم الكريم التعبير بالسمع دون الأُذن في قوله تعالى: ﴿وَسَمۡعِهِمۡ﴾ تنويهٌ بالغاية لا بالوسيلة؛ فالمسموع الواصل إلى القلب هو الغاية، أما الأُذُن فآلته التي تلتقطه من الأثير، وذلك يتمّ فِعلًا ولا يُحجب، وإلا لعُفي عنه؛ لأن الطّبْع حقيقة لا يكون على الأذن، وإنما يكون بِحَجْب المسموع عن الوصول إلى العقل والقلب؛ لذلك طبع "الله ﷻ على سمعهم، فلا يسمعون كلمةَ الحق، وعليه فلا يستجيبون لها"(1).

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 379.

سِرُّ التّعبيرِ بالإفراد في قوله: ﴿وَسَمۡعِهِمۡ﴾:

إيذانًا مِنَ الله بأنّ حُجّته واحدة، ودليلَه واحد لا يتعدّد

عبّر القرآنُ الكريم في السمع بالإفراد؛ فقال: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ﴾ دون الجمع في (أسماعهم)؛ لأنه مصدر لا يُثنّى ولا يجمع، ويصدق على القليل والكثير، ولأنّ السمع متعلّقه ما يلقى إليه من الكلام؛ فإذا سمعه جماعة من الناس، سمعوه سماعًا متساويًا، وإنما يتفاوتون في تدبّره.

وفيه إشارة إلى توحّد وسيلة الإدراك في حاسة السمع، وهذا ما أثبته العلم الحديث؛ فكشف عن وجوه كثيرة، منها: "أنَّ حاسّة السمع يمنحها الله للطفل قبل حاسة الإبصار، وأنّ السمع إنما يُدرك به شيء واحد، وهو الأصوات، بينما يُدرك بالبصر أكثر من شيء كالألوان والأشكال، وكان هذا لا يتعارض مع مفهوم الآية ومنطوقها، ولا يعارض أثرًا عن الرسول ﷺ فما المانع أن يقبل تفسيرًا علميًّا للآية فيكون إعجازًا قرآنيًّا خالدًا؟"[1].

ولأنّ المسموع بالنسبة للناس جميعًا شيء واحد، فعندما يسمعون كلام المرسلين كأنهم على سمع واحد، "فكان إفرادُ السمع إيذانًا من الله بأنّ حجّته واحدة، ودليله واحد لا يتعدد"[2].

دلالةُ التّعبير بالأبصار دون (أعينهم):

الإبصارُ هو الغاية، وهم لا يرون الأشياء رؤيةَ اعتبار

ذكر اللهُ الأبصار دون العيون في قوله تعالى: ﴿وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾؛ لأنّ العيون مجرَّدُ آلةٍ للإبصار، وهي المترجمة للأشكال والألوان، أمّا الأبصار فهي الغاية؛ فهم "لا يبصرون مواقع الهدى، ولا يتّجهون إليها"[3]؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، والمراد أنّهم لا يرون الأشياء رؤيةَ اعتبار، ويؤكد ذلك ما ورد في دعاء

(1) عباس، التّفسير والمفسّرون: 1/ 627.
(2) عباس، التّفسير والمفسّرون: 2/ 494.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 379.

الرّسول ﷺ: "وَمَتِّعْنا بِأسْماعِنا وأبْصارِنا وقوَّتِنا ما أحْيَيْتَنا"[1]، فذكر الأبصار دون العيون في دعائه.

سِرُّ التّعبيرِ بالجمع ﴿وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ دون المفرد:

الأبصارُ متفاوتةٌ في إدراك المرئيات

عبّر القرآنُ الكريم بالجمع في لفظ الأبصار في قوله تعالى: ﴿وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾؛ لأنها متفاوتة في إدراك المرئيات؛ فكل بصر له حظّه من الرؤية والاعتبار في الآيات الكونية والقرآنية، ولأنّ المَشاهد التي تراها العين متعدّدة في المجال الواحد؛ فهناك مشهدٌ من جانب اليمين، ومشهدٌ من جانب اليسار، إلى غير ذلك من الجهات الست، والأنظار "تختلف في عمق تدبرها وضحالته، فكان مِن ذلكم تعدّد المبصِرين بتعدُّد مقادير ما يستنبطون من آيات اللّه في الآفاق"[2].

لطيفةُ الجمعِ في الطّبع بينَ القلوب والأسماع والأبصار:

إشباعُ السّياق بالذَّمِّ لمن عطَّلَ الانتفاعَ بحواسِّه

جَمع الذّكرُ الحكيم هنا بين القلوب والأسماع والأبصار في الطبع دون مواضع أخرى، كقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأعراف: 100]؛ لأنّ القضية هنا خطيرة، والجرائم هنا متعدِّدة، ذلك أنَّ الكافر ترك الإيمان بعد أن ذاق بعضًا من حلاوته؛ لكن قلبه كان مريضًا، فلم يستعذب هذه الحلاوة لمرض قلبه؛ لذلك فالسياق مشبَّع بالذمّ لمن شرح بالكفر صدرًا.

سِرُّ تقديمِ السَّمع على البَصر:

السَّـمـعُ مِـن لـوازم النُّـطق؛ فـمـتـى بَـطـلَ الـسَّـمـعُ بطـلَ النُّطق

قُدّم السّمعُ على البصر[3] في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ

(1) أخرجه الترمذيّ في سننه، برقم: (3502)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم: (10234).

(2) عباس، التّفسير والمفسّرون: 2/ 494.

(3) "إلّا في مواطن قليلة، منها في سورة الكهف: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ [الكهف: 26]، لأنّ السّياق يقتضي ذلك، فقد خرج أهلُ الكهفِ فارّين حتّى لا يراهم أحدٌ، لكنّ اللهَ تعالى يراهم في ظلمة الكهف، وفي تقلبهم ذاتَ اليمين وذات الشمال، وفي سورة السجدة: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ [السجدة: 12] قدّم البصرَ هنا، لأنّهم كانوا يسمعون في الدّنيا ويكذبون في الآخرة، وأبصروا العذابَ والحقيقةَ، وقولهم: يعني أنهم موقنون، واليقين لا يتأتّى إلّا بالإبصار، وليس بالسّمع ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التكاثر: 7]، لأنَّهم رأوا العذاب عين اليقين"، يُنظر: السّامرّائي، لمسات بيانية، ص: 47.

﴿وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾؛ لأنّ السّمعَ أوّلُ عضوٍ يؤدّي وظيفته عند الطّفل ساعةَ الولادة؛ بخلاف العين فإنّها تؤدّي وظيفتَها بعد مُدّة مِنَ الزّمن.

ولأنّه بالسمع تصل نتائج عقول بعض الناس إلى بعض، فهو سببٌ لاستكمال العقل بالمعارف، ولأنه متصرِّفٌ في الجهات السِّتّ بخلاف البصر، ولأنّ السمع متى بَطل بطل النطق، والبصرُ إذا بطل لم يبطُل النطق.

فائدةُ ختامِ الآية بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾:

غفلتُهم مُطبِقة، فهي تُنافي حالةَ الاهتداء

ختمت الآية بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ لأنّ الغفلة صفة نقص أدّت إلى حرمانهم من نور الإيمان؛ لذلك كان المراد وصفهم بما أدّى إلى كفرهم بعد إيمانهم، فهم الغافلون الأكملون في الغفلة؛ لأنَّ الغافل البالغ الغاية ينافي حالةَ الاهتداء[1]؛ إذ "كانوا في غفلة مطبقة عن كل ما يصلهم بالحق، أو يلفتهم إليه"[2].

بلاغةُ القَصْر في ختام الآية:

بلوغهمُ الغايةَ والتّمام في الغفلة

القصر في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ "يُفيدُ أنَّهُم مُتَناهونَ في الغَفْلَة؛ إذْ لا غَفْلَةَ أعْظَمُ مِنْ غَفْلَتِهِم هَذِهِ"[3]، وهو "قصرُ موصوف ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ على صفة ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾، وهو قصر حقيقيٌّ ادعائي، يقصد به المبالغة، لعدم الاعتداد بالغافلين غيرِهم؛ لأنهم بلغوا الغايةَ في الغفلة حتى عُدَّ كلُّ غافل غيرهم كمن ليس بغافل، ومِن هنا جاء معنى الكمال في الغفلة، لا مِن لام التعريف"[4].

دلالةُ التّعبيرِ بضمير الفصل:

الغافل الحقيقيُّ مَن غفَل عن حقيقة الآخرة

دلَّ التّعبير بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 379.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 236.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 298.

﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ على التخصيص، "فمن غَفَل عن حقيقة الآخرة فهو الغافل الحقيقي؛ لأنه بغفلته هذه لا يخسر تجارة أو مالًا، وإنما يخسر كل حياته"(1).

براعةُ التّعبيرِ باسم الإشارة:

إبعادُ المرتدّين عن ساحة التّوحيد والطّهر

التّعبيرُ باسم الإشارة المخصوص بالبعيد في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾، يُشيرُ إلى بُعْدِ المُرتدّين - الذين شرحوا بالكفر صدورَهم - في أوديَة الضَّلال؛ وإبعادِهم الشُّقَّةَ في الجُرم؛ إذ لا أحدَ أضلُّ مِمَّن عَرف الحَقَّ ثُمّ جَحَدَه عن بيّنةٍ، متَّخِذًا إلَهَهُ هواه، كما أنّ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُبْعِد هؤلاء المُنتكَسين ويَطْرُدُهم عن ساحة التَّوحيد والطُّهر، ويَحْجِبُهم عن أنوار الآيات، ويحرمهم هداياتها.

سِرّ التّعبيرِ بصفة الغفلة:

وصف الكافرين بالغفلة من أبلغ أساليب الذّمِّ

آثر السياق وصْفَ الغفلة في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ لأنّ الأمر متعلّقٌ بالكفر بعد الإيمان، بل بشرح الصدور بالكفر بعد استنارتها بنور الإيمان وباهر الآيات؛ فاقتضى السياقُ المبالغةَ في ذمِّ هؤلاء المرتدّين، ولا ذمَّ أبلغ من وصفهم بالغفلة، وحصر الغفلة الحقيقية فيهم، وقصْرِها عليهم.

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾:

كمالُ غفلةِ المرتدّين، وفداحةُ خسرانهم بها

تدُلّ (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ على كمال غفلتهم، وفداحة خسرانهم بها؛ فـ "هؤلاء الذين فضّلوا الدنيا الزائلة على الآخرة الباقية، هم الغافلون الحقيقيون"(2)، و"لا غفلةَ أعظمُ من الغفلة عن تدبُّر العواقب"(3).

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 144.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميّة ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾:

الغفلةُ مترسِّخَةٌ في الكافرين وسجيَّةٌ لهم

إيثار التّعبيرِ بالاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ يقرِّر أنّ الغفلةَ صارت متجذِّرةً فيهم، وصارت فيهم سجيّةً، وأنهم هم "الكاملون في الغفلة والبلاهة؛ إذ لا غفلةَ أشدّ من غفلة المعرض عن عاقبة أمره، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية"(1).

بلاغةُ حذفِ المغفول عنه:

عـمـومُ غفلةِ المرتدّين عن كلِّ ما يُرضي الله

سكت الذِّكر الحكيمُ عن المغفول عنه؛ لتعدد المراد به فـ "يُحتمل أنّهم غافلون عن النظر في آياته وحُجَجِه، ويُحتمل أنّهم غافلون عمّا يَحُلُّ بهم؛ بكفرهم وتكذيبهم آيات اللّه وحُجَجَه"(2).

ويُفسِح حذف المغفول عنه توفير عناية المتلقّي على إثبات الغفلة لهم، ليُجعَل إطلاق الغفلة، وعدمُ تقييدها بمغفول عنه أصلًا؛ كنايةً عن مغفول يقتضيه السياق، والسياق هنا يقتضي أن تكون الغفلة كما يقول ابن عباس: "غافلون عمّا يراد بهم"(3).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّبْعُ والختم:

النّاظر في آيات القرآن الكريم يجد فرقًا بينَ الطّبع والخَتم، ذلك أنَّ الطّبْع في اللّغة أثرٌ يَثبت في المطبوع ويلزمه، فهو يُفيد معنى الثّبات واللُّزوم، والختم معناه المَنع، ويطلق على حفظ ما في الكتاب بتعليم الطينة، تقول ختمت الشيء ختمًا فهو مختوم، والخاتم ما يوضع على الطينة؛ فالملاحظ أنَّ الختم يطلق على تأثير الشيء كنقش الخاتم، والطبع: الأثر الحاصل عن النقش، وعلى هذا فالطبع يختلف عن الختم، ولهذا يقال: طبع الدرهم طبعًا، وهو الأثر الذي

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 242.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 582.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 87.

يُؤثِّره فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل: طَبْع الإنسان؛ لأنه ثابت غير زائل، وقيل: طُبِع فلانٌ على هذا الخُلق، إذا كان لا يزول عنه، وقال بعضهم: الطّبْع علامةٌ تدلُّ على كُنْه الشيء، قال: وقيل: طبْع الإنسان؛ لِدلالته على حقيقة مِزاجه من الحرارة والبرودة[1].

هذا من ناحية اللغة؛ أما في الاستعمال القرآني؛ فالطبع غالبًا ما يرد في جانب المنافقين والآيات في هذا كثيرة، بخلاف الختم فإنه يرد غالبًا في جانب الكفار، ومعلوم أنّ المنافقين أشد ضررًا من الكفار؛ لذلك فالكفر ثابت في قلوبهم ثبات الطبع في الإنسان، فأصبح كالإلف والطبيعة له، أما الختم فهو مسندٌ غالبًا إلى الكفار؛ لما وضعوه على أنفسهم من القيود التي تمنعهم من الإيمان، يؤكد ذلك ما ذكره القرآن في سبب عدم إيمانهم في سورة البقرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 6 - 7]؛ فلمّا نفى عنهم الإيمان بيّن العلة المانعة لذلك؛ لأنّ الله ختم على قلوبهم، فلا يصل إليها الإيمان لعنادهم، وعلى ذلك فالختم قفلٌ ومنع، والطبع شارةٌ وعلامة.

العين والبصر:

"أنَّ العين آلةُ البصر وهي الحَدَقة، والبصر اسم للرؤية؛ ولهذا يقال: إحدى عينيه عمياء، ولا يقال: أحد بصريه أعمى، وربما يجري البصر على العين الصحيحة مجازًا، ولا يجري على العين العمياء، فيدلل هذا على أنه اسم للرؤية على ما ذكرنا، ويسمى العلم بالشيء إذا كان جليًّا: بصرًا، يُقال: لك فيه بصرٌ؛ يُراد أنك تعلمه كما يراه غيرك"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 336.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 381.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الخاسرُ الحقيقيُّ مَن حُرِمَ هداية الله

"بعد أن بيَّنت الآية السابقة أنّ هؤلاء المرتدّين محرومون من الهداية بسبب اختيارهم الضلالة وتفضيلها على الهدى، جاءت هذه الآيةُ لتبيّن مصير من كان هذا أمره في الدنيا لا شك أنه الخاسر الحقيقي في الآخرة، ومن خسر آخرته فماذا ربح!"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا جَرَمَ﴾: "قالَ الفراء: هيَ بِمَنْزِلَة (لا بُدّ) و(لا محالة) في الكَلام، ثمَّ كثُرت فصارَت بِمَنْزِلَة قَوْلهم: حَقًّا، وأصلها: جَرَمَتْ، أي: كَسَبَتْ، قالَ الشّاعِر:

وَلَقَد طعنت أبا عُيَيْنَة طعنة *** جَرَمَتْ فزارَةُ بعْدها أن يغضبوا

أي: كَسَبَتْهم"[2]، وقال سيبويه: "جَرَم: عَمِلتْ؛ لأنها فِعلٌ، ومعناها: لقد حَقَّ"[3].

2) ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: الخُسر والخُسران: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان؛ فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا، وهو الأكثر، ويستعمل في المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي جعله اللّٰه تعالى الخسران المبين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: 15][4]، و"الخَسار

---

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 219.

(2) الزّجّاجيّ، حروف المعاني والصفات، ص: 72.

(3) السِّيرافيّ، شرح كتابِ سيبويه: 3/ 357.

(4) الرّاغب، المفردات: (خسر).

والخَسارة: الضَّلالُ والهَلاكُ، وفي التَّنْزيلِ العَزيز: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر: 1 - 2]؛ الفَرّاءُ: لَفي عُقوبَةٍ بِذَنْبِهِ وأن يَخْسَر أهله ومَنْزِلَهُ في الجَنَّةِ ... وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ [الكهف: 103]؛ قالَ الأخفش: واحِدُهُمُ الأَخْسَرُ، مِثْلُ الأَكْبَرِ، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٍ ٦٣﴾ [هود: 63]؛ قال ابْنُ الأعرابي: أي غَيْرَ إبعاد مِنَ الخَيْرِ أي غَيْرَ تَخْسيرٍ لَكُم لا لي"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الانتكاسُ بعدَ الإيمانِ هو الخسرانُ في الدنيا والآخرة

بيّنت هذه الآية الكريمة أنَّ الذين ارتدّوا بعد إيمانهم "لا محالة أنهم هم الخاسرون في أُخراهم، حيث ضيَّعوا أعمارهم فيما لا يفيد، وصرفوها في اقتراف المعاصي والآثام التي تُفضي بهم إلى غضب اللّه عليهم، والخلود في العذاب الأليم، وكان عليهم أن يتّجهوا إلى ما خلقوا له من توحيد اللّه وعبادته، وإلى كل عمل نافع لهم في الدنيا والآخرة"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرّ فصلِ هذه الآية عمّا قبلها:

كمالُ الاتصالِ؛ لوقوعها موقعَ النّتيجة لما قبلَها

فُصلت هذه الآية الكريمة عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال؛ لأنها "واقعة موقع النتيجة لما قبلها من الآية السابقة؛ لأنّ ما قبلها صار كالدليل على مضمونها؛ ولذلك افتتحت بكلمة نَفْي الشك"[3]، ولأنها "تعقيبٌ على هذا العَرْض الكاشفِ لأولئك الذين كفروا، وعَموا عن الهدى، وصمّوا عن الداعي الذي يدعوهم إليه"[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 685.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 298.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 380.

الأخسرون في الآخرة هم من عَموا عن طريق الإيمان

نُكْتَةُ التّعبيرِ بأسلوب ﴿لَا جَرَمَ﴾:

عبّر السّياقُ الكريمُ بهذا الأسلوب لما يحمله من معنى تأكيد وقوع الخسران وتحقيقه؛ فمعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: الحَقُّ أنَّهم في الآخرة هم الأخسرون؛ الناس أكثروا استعماله فصار في معارفهم بمعنى (حقًّا)، (ولا بُدَّ) في الحقيقة (حقًّا)؛ لأنّه إذا كان لا بدّ فهو حَقٌّ[1]، قال ابن عباس: "يريد: حقًّا أنهم الأخسرون"[2].

وقال الزّجّاج: "ومعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: (لا) نفيٌ لِما ظنّوا أنه يَنفعهم، كأنَّ المعنى: لا ينفعهم ذلك، (جَرَمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون)، أي: كَسَب لهم ذلك الفعلُ الخسرانَ...، والمعنى: لا يندفع عنهم عذابي، ولا يجدون وليًّا يصرف عنهم نقمتي، ثم ابتدأ مستأنفًا ﴿جَرَمَ﴾"[3]، فهي "كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل"[4].

بلاغةُ تعدّدِ المؤكّداتِ في الآية:

خُسرانُ الكافر عامّة، والمرتدّ خاصّة، هو الخسران الأكيد

الحكم على هؤلاء المرتدّين بالخُسران الكامل، وتخصيصُهم به؛ يقتضي التوكيد بأكثر من مؤكِّد؛ وذلك لِخُطورة الحُكم؛ لذلك تكاثرت المؤكِّدات في هذه الجملة المتَّسمة بإيجاز القَصر، من ذلك: التأكيد بأسلوب ﴿لَا جَرَمَ﴾، وحرف التوكيد (أنّ)، وأسلوب القَصر بضمير الفصل وتعريف الطرفَيْن ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، واسمية الخبر: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ دون (يخسرون)، أو (خسروا). "وإنما جاء هذا التأكيد لبيان حقيقةِ سوءِ حال المرتدّين في الآخرة"[5].

غرضُ تقديم الجارّ والمجرور:

خُسرانُ الآخرة هو الخُسرانُ الكبير

"قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تنبيهًا على عظيم أمر الآخرة

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 6/ 115.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 366.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 366.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 38.
(5) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 219.

الذي تناساه المرتدّون"[1]، ولَفْتًا إلى دار البقاء التي هي أوْلى بالعناية من نعيم الدنيا الزائل، برغم أنهم خاسرون في الدنيا والآخرة.

بلاغةُ القَصْرِ:

كلُّ خسارةٍ - وإن عظُمت - هي دون خُسرانِ الكافر المرتدِّ

جاء التّعبيرُ بأسلوب القصر والتخصيص في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: "لعظم خسرانهم، كأنه لا خاسر سواهم"[2]، وأنهم "هم الخاسرون خسارة كاملة وافية"[3]؛ لأنهم ضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المُخلَّد، و"معلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا؛ ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظُم خسرانه، فلهذا السبب قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، أي: هم الخاسرون لا غيرهم"[4].

سِرُّ اختيارِ وصفِ الخُسران:

الخُسرانُ أبينُ الصّفاتِ الدّالّة على البَلَهِ والجهل

اختارُ القرآنِ الكريم وصفَ المُرتدّين بالخُسران في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لوجود موجبه من خلال وصفهم في الآيات المتقدمة بصفات ستٍّ هي: أنهم استوجبوا غضب اللّه، وأنهم استحقّوا العذاب الأليم، وأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأنه تعالى حرمهم من الهداية، وأنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة[5]؛ فلمّا وصفهم اللّه تعالى بهذه الجرائم السِّتّ كان من المناسب وصفهم بالخسران الذي هو أبين صفات الخيبة والضياع، فـ "كلُّ واحد من هذه السِّتِّ مِن أعظم الأحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات"[6].

---

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 219.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 219.
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 340.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 277.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 276.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 276.

عِلّةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة في الخسارة:

يدلُّ التّعبيرُ عن خسران المرتدّين كلَّ خير بالجملة الاسمية ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ دون الفعلية: (خسروا) على ثبات الحُكم عليهم، والقطع به في حقّهم، وفي هذا مزيد ترهيب وتهديد ودفعٍ بهم نحو الإيمان؛ فما تزال الفرصة سانحةً ما لم ينزل بهم الأجل، وإلا "ضيّعوا أعمارَهم، وصرفوها إلى ما لا يُفضي إلا إلى العذاب المخلد"[1].

مزيدُ ترهيبٍ وتهديدٍ ودفعٍ بهم نحو الإيمان

بلاغةُ حذفِ متعلّق ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

سكت النظم الكريم عن ذكر متعلق ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لإفادة العموم فيما خسره هؤلاء؛ فيخسرون الدنيا، ويخسرون الآخرة، يخسرون بركات الآيات التي كفروا بها، ويخسرون راحة القلب الذي تحقّقه آيات اللّه تعالى للمؤمنين، يخسرون أنفسهم، ويخسرون أهليهم، إلى آخر جهات الخسران التي لا تكاد تتناهى؛ لذلك تعدّدت تقديرات العلماء في ذلك، فقالوا: "خسروا الجنّة ورحمةَ اللّه، خسروا أهلهم ومنزِلهم الّذي كان لهم في الجنّة، وخسروا منهم أنفسهم حين قذَفوها في النّار، خسِروا النّعم الدّائمة الباقية بالزّائلة الفانية، وخسروا أنفسهم؛ حيث قُتلوا، وأُسروا في الدنيا"[2].

خُسران الكافرين خُسران عامٌّ في الدّارين

وجه التشابه اللفظيّ:

وقع التّشابهُ اللّفظيُّ بين قوله تعالى في سورة هود: "﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾ [هود: 22]، وقوله تعالى هنا في النَّحل: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ فالملاحظ اختيار وصف ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾ [هود: 22] في هود؛ لِأَنّ هَؤُلَاءِ صدّوا عَن سَبيل اللّه تعالى، وصدوا غَيرهم فضلّوا، فهم الأخسرون، يُضاعف لَهُم العَذاب، وفي النَّحل

اجتمع في (الأخسرون) أسبابُ الشَّقاء والعذاب، و(الخاسرون) دونه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 144.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 582.

صَدّوا فهم الخاسرون؛ "لِأَن ما قبلها في هَذِه السّورَة - سورة هود - ﴿يُبْصِرُونَ ۝٢٠﴾ [هود: 20] ﴿يَفْتَرُونَ ۝٢١﴾ [هود: 21] لا يعتمدان على ألف بَينهما"(1).

وفي "آية سورة هود تقدَّمها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢١﴾ [هود: 21]؛ فكان المقصود بيان أنَّ خسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا"(2)، و"في الفواصل هنا - في النحل - اعتماد الألف كـ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ و﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾؛ فعبّر به لرعاية ذلك"(3).

"وإنما كانوا - في هود - أخسرين - أي: شديدي الخسارة - لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة، ولأنهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: 103 - 104]، فكانوا أخسرين؛ لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة"(4)، بخلاف موضع النحل؛ فجاء بوصف ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنّ الأسباب المذكورة في سورة النحل للحكم بالخسارة عليهم ليست مساوية لما ورد في سورة هود.

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 143.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 298.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 474.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 39.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل: 110]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ينْقَلِبُ الإكراهُ لِمَنْ هاجَرَ وصَبَرَ مغفرةً ورحمة

لمّا ذَكر اللّه تعالى فيما سبق الوعيد للمرتدّين بالغضب عليهم والعذاب العظيم لهم، ووصفهم بالخاسرين؛ بيّن في هذه الآية مكانة المؤمنين المهاجرين الذين أوذوا في سبيل اللّه، وبَذلوا كلّ ما يملكون من أموالهم وأنفسهم إيثارًا للآخرة على الدنيا بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾.

ولما ذكر في الآية المتقدمة حال مَن كفر باللّه تعالى مِن بعد إيمانه، وحال مَن أُكْرِه على الكفر فذكر - بسبب الخوف - كلمة الكفر، وحال من لم يذكرها ذكر في هذه الآية حال مَن هاجر مِن بعد ما فُتن فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فُتِنُواْ﴾: "جِماعُ مَعْنَى الفِتْنة: الِابْتِلاءُ، والامتِحانُ، والِاخْتِبارُ، وأصلها مأْخوذ مِنْ قَوْلِك: فتَنْتُ الفِضَّةَ والذَّهَبَ، إذا أذبتَهما بالنّار لِتُمَيِّزَ الرَّديءَ مِنَ الجيِّد ... والفَتْنُ: الإحْراقُ، ومِنْ هَذا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]؛ أي: يُحْرَقون بالنّار، ويُسَمَّى الصّائِغُ الفَتّان، وكَذَلِكَ الشَّيْطانُ، ومِنْ هَذا قيلَ لِلْحِجارَةِ السّود الَّتي كأنها أُحْرِقَتْ بِالنّار: الفَتينُ، وقيل في قَوْلِه: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، قالَ: يُقَرَّرونَ واللّه بِذُنوبِهِم"[2]، ومعنى الآية: اختُبِروا بتعذيبهم، وتَلَفَّظوا بالكُفر.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 277.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فتن).

2) ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾: الصبر: الإمساك في ضيق، والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمّيَ صبرًا، وإن كان في محاربة سُمّيَ شجاعة، وإن كان في نائبة سُمّيَ رحب الصدر، وإن كان في إمساك الكلام سُمّيَ كتمانًا، وقد سمى اللّه تعالى كل ذلك صبرًا[1].

و"يُقال: صابِر وصَبّار وصَبور؛ فأما الصّبور فالمقتدر على الصَّبْر، كَما يُقال: قَتول وضَروب، أي: فيهِ قدرَة على ذَلِك، والصبّار: الَّذي يصبر وقتًا بعد وقت"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كُفر الظّاهر مع صِدقِ يقين القلبِ مَعْفوٌّ عنه

بيّن اللّهُ تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ مَن يُفتن في دينه فيتكلم بكلمة الكفر، وصدره غير منشرح لها إذا صلح عمله وجاهد في سبيل اللّه، وصبر على المكاره، طمأنه اللّه على لسان نبيه؛ فقال اللّه: إن ربك - أيها الرسول - نصيرٌ لِمن هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام من بَعد ما فتنهم الكافرون، وآذَوْهم بالعذاب لحملهم على الارتداد، ثم جاهدوا أنفسهم وصبروا على أذى معذِّبيهم، فلم يَشُكّوا، ولم يكفروا، بل ظلّوا على سلامة عقيدتهم التي يُخفونها، ويضمرون التمسك بها[3].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى فضل الهجرة والجهاد والصبر، وأنَّ أكبرَ الأسبابِ التي تُنال بها أعظمُ العطايا وأفضلُ المواهب، هي مغفرةُ اللّه للذنوب صغارِها وكبارِها، المتضمِّنُ ذلك زوالَ كلِّ أمر مكروه، ورحمتُه العظيمةُ التي بها صَلَحت أحوالُهم واستقامت أمورُ

(1) الرّاغب، المفردات: (صبر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صبر).
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 685.

دينهم ودنياهم، وإلى أنَّ اللّه كَتَبَ المغفرة والرحمة للذين آمنوا، وهاجروا من بعد ما فتنوا، وصبروا على الجهاد[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ هذه الجملة على ما قبلها:

مـظـهـرُ الـكـفـر اضـطـرارًا موعودٌ بالمغفرة والرحمة

قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ "عطف على جملة: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾"[2]؛ لأنه تكملةٌ لتفاصيل من كفر ظاهرًا، ولم يتمادَ في الكفر، ولا شرح به صدره، وإنما تحيَّن الفرصة لينضم إلى جماعة المسلمين مهاجرًا مجاهدًا في سبيل اللّه تعالى.

ودلَّ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ على الترتيب الرُّتبيّ، كما هو شأنها في عطفها الجمل؛ وذلك أنّ مضمون هذه الجملة المعطوفة أعظم رتبة من المعطوف عليها؛ لما تحمله من رحمة اللّه وعفوه.

سِرُّ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

مَن فُتن في دينه وصبر أعلى رُتبة ممَن فُتن وكفر مُكرهًا

آثر القرآن الكريم العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ دون غيرها؛ لما تدل عليه من معانٍ منها: تباعد حال هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين اضطرّوا إلى الكفر ظاهرًا مِن حال أولئك الذين شرحوا بالكفر صدرًا[3]، إذِ "العطف بـ (ثم) يكون للتراخي الزمني بين الأحداث، أو للتراخي الرُّتبي - كما هو الحال في هذه الآية"[4]؛ فهي للإشارة إلى هذا الفاصل المعنوي الشاسع، الذي يَفصل بين الفريقين: فأولئك كافرون، وهؤلاء مؤمنون، وما أبعد ما بين الكافرين والمؤمنين! ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر: 20]"[5].

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 163.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 298.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 600.

(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.

(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 380.

ومن المعاني أيضًا الدلالة على عَزْل الذين أعطوا كلمة الكفر بألسنتهم وقلوبُهم مطمئنة بالإيمان، عن أولئك الذين شرحوا بالكفر صدرًا، والإشارة إلى أنَّ مغفرة الله لم تَجِئْهم إلا بعد تراخ وإبطاء، حتى لقد كادت لا تَلحقُهم، وفي هذا ما يُلقي ظلالًا مُعتِمة على التَّقيَّة، وأنه لا يَلجأ إليها المؤمنُ إلا عند الضرورة القصوى[1].

وكذلك "بيان بُعْدِ مرتبة مَن فُتن في دينه وصبر ولم ينطق بالكفر عن مرتبة مَن فُتن وكفر مُكرهًا"[2].

دلالةُ التّأكيد بقوله: ﴿إِنَّ﴾:

تطمين الذين فُتنوا في دينهم

في توكيد ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وتَكراره في الآية الكريمة مرتين مزيدُ تطمينٍ لهؤلاء الذين فُتِنوا في دينهم، واضطرّوا إلى التفوُّه بكلمة الكفر غير مؤمنين بها، وظلّتْ قلوبهم مطمئنّةً بالإيمان منعقدة عليه، برغم أنهم قد تُنازعهم نزغاتٌ لتشككهم في دينهم، وتزلزل ثبات عقيدتهم الصحيحة؛ فجاء التوكيد لطرد تلك النزغات، وبثّ روح الطمأنينة في أنفسهم بأن الله سبحانه غفور لذنوبهم، رحيم بهم.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصفة الرُّبوبيّة:

الرّبوبيّة بما تحمله من معانٍ مناسبة لمقامات الرحمة

آثر النَّظْمُ الكريم في الموضعين من الآية الكريمة ذكرَ اسم (الربّ) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ - دون ذكر اسم الجلالة (الله): لـ "التعرض لِعنوان الربوبية في الموضعين إيماء إلى عِلَّة الحُكم"[3].

كما آثر "التعبير بـ (الرب) لِما فيه من معاني الرعاية والعناية، وهذا يناسب سياق المغفرة والرحمة في هذه الآية"[4]، أما اسم الجلالة (الله) فتُناسبه مقامات الجلال والرهبة، والله تعالى أعلم.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 381.
(2) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 340.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 144.
(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.

دلالةُ الإضافة:

عُلوُّ منزلةِ رسولِ الله ﷺ عند الله

في إضافة اسم الرّبّ سبحانه إلى ضمير الرّسول ﷺ "مزيدٌ مِن الفضل والإحسان إليه من ربِّه ﷻ الذي يُضيفه إليه، ويدعوه إلى ساحة كرمه وإحسانه؛ فبهذا الإحسان نُزِّل من ربه هذه المنزلة التي لا تعلوها منزلة لبشر؛ لذلك "وقعت هذه الإضافة تشريفًا للنبي ﷺ"[1].

سِرّ إضافةِ (الرّبّ) إلى كافِ المفرد دونَ الجماعة:

إفاضةُ آثارِ الرُّبوبيّةِ هي بواسطته عليه السلام

جاءت "إضافة الربِّ سبحانه إلى ضميرِه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ مع ظهور الأثرِ في الطائفة المذكورة؛ إظهارًا لكمال اللطفِ به عليه السلام وإشعارًا بأنّ إفاضة آثارِ الربوبيةِ عليهم من المغفرة والرحمةِ إنما هي بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعًا له"[2].

وتوحي هذه الإضافة بأن مَن يرد على اللّه تعالى مِن غير بابه ﷺ بعد بعثته الشريفة؛ مردود غير مرحوم.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

عَفْوُ اللهِ ومغفرتُه مخصوصةٌ بالمهاجرين في سبيل الله

(اللّام) في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ "متعلّقٌ بالخبر ﴿لَغَفُورٌ﴾ على نية التقديم والتأخير"[3]، فالتقدير: (إنَّ ربك لغفور رحيم للذين هاجروا ...)، والعدولُ عن هذا الترتيب الطبيعي لعناصر الجملة يؤكّد العفوَ عما بَدَر منهم من نطق ألسنتهم بالكفر الظاهري، دون مواطأة قلوبهم عليه، وكأنَّ (اللام) تقطع بالعفو والمغفرة لهم وحدهم دون سواهم، ويكون المعنى: إنّ ربك وليُّهم وناصرهم؛ فيكون في تلك اللام قصر إفرادهم بالحكم دون الآخرين.

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 144.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 414.

انضمام المستضعفين إلى جماعة المؤمنين طلبًا لمرضاة الله

سِرُّ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

عبر القرآن الكريم بالموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ عن "جماعة كانوا مُستضعَفين بمكة، مُهانين في قومهم، فوافقوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادَهم وأهليهم وأموالَهم ابتغاء رضوان اللّه وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا"[1]؛ فكان التعبير مشعرًا بما امتنّ اللّه به عليهم من العفو والمغفرة.

والاسم الموصول مع صلته هنا - كما هما في كل نظْم بليغ - يُهيِّئان للخبر، ويومئان إلى وجه بنائه، فقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ يُرهِص بخبر من وادي: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنهم ما داموا قد هاجروا، وجاهدوا، وصبروا، فقد صاروا بمنزلة إكرام الوفادة على دار الإسلام، وصاروا أهلًا للعفو عن ضعفهم إزاء الإيذاء والنطقِ بكلام الكفر مكرهين، مطمئنّي القلوب بالإيمان.

"والمراد بالذين هاجروا: المهاجرون إلى الحبشة، الذين أذِن لهم النبي ﷺ بالهجرة؛ للتخلص من أذى المشركين، ولا يستقيم معنى الهجرة هنا إلا لهذه الهجرة إلى أرض الحبشة"[2].

فـ "لا يتوهم متوهِّمٌ أنَّ بُعْدَهم عن النبي ﷺ في تلك الشِّدَّة يوهن جامعة المسلمين، فاستوفى ذكر فِرَق المسلمين كلِّها، وقد أومأ إلى حظِّهم من الفضل بقوله: ﴿هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾، فسمى عَمَلَهم هجرة"[3].

الهجرةُ محافظة على الدّين، وانضمامٌ لجماعة المسلمين

وجهُ التّعبيرِ بالفعل:

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبير بالفعل ﴿هَاجَرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ دون (فرّوا)؛ لأنَّ الهجرة في مصطلح القرآن تدل

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 244.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 299.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 299.

على مفارقة الوطن لأجل المحافظة على الدين؛ لذلك وصف الذكر الحكيم "الانتقال من بلد إلى بلد فرارًا بدين الله تعالى"[1] بالهجرة، ووصف مَن قام بها بالمهاجرين، ولم يصفهم بـ (الفِرار)؛ وذلك لِما في مفهوم الهجرة من طُهر القصد، وسلامة الوِجهة، بخلاف ما يُلازم مفرَدَةَ (الفِرار) من رائحة الخوف والخَوَر.

دلالةُ حذفِ متعلّق ﴿هَاجَرُواْ﴾:

إفــادةُ عـمـومِ مناطقِ الهجرة

لم يَذكر النظمُ الكريم جِهة الهجرة ولا وجهة المهاجرين؛ ليشمل من هاجر إلى الحبشة من مكة فرارًا بدينه من الفتنة، ومن هاجر بعدُ إلى المدينة، ولأجل هذا المعنى؛ "قيل: الآية مدنية"[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بالمفاعلة ﴿هَاجَرُواْ﴾:

الهجرة الشّرعيّة مرغوبةٌ مأجورةٌ، والهِجْران مَقيتٌ آثمٌ

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبير بصيغة المفاعلة ﴿هَاجَرُواْ﴾ دون (هجروا)؛ لما تحمله هذه الصيغة من بذل الجهد في التغلّب على شهوات النفس في ترك ديارها وأموالها في سبيل الله وللدفاع عن دينه، ولِما فيها من المعاونة على البر والتقوى؛ فروح الدين داعية دائمًا إلى الترغيب في الانضمام إلى الجماعة، منفِّرة من الوحدة والفرقة اللتين يدلّ عليهما لفظ الهجران.

دلالة الظّرف:

تَداركَ اللهُ عبادَه المستضعفين بعد استنفادهم أسبابَ خلاصهم

دلّ التعبير بالظرف ﴿بَعۡدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ على أنَّ على العبد المكرَه أن يستنفد أسبابه في الخلاص من اضطهاده، وإكراهه على الكفر؛ لتتداركه مغفرة الله تعالى فتمحو عنه ما نطقه من الكفر، وتتداركه رحمته ﷻ فترفع درجته، حتى وإن كان قلبُه مطمئنًا بالإيمان؛ إذ هناك من العباد من يُكرَه على الكفر فلا يستجيب البتّة، بل يكابد العذاب مهما طال، فلا يعدو لسانُه ترديد شعار الصدق واليقين: أحدٌ أحد.

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 414.

سِرّ التّعبير بالمصدر المؤوّل:

فتنةُ مَن كَفَر مُكْرَهًا بلسانه مِن أسباب عَفْوِ الله عنه

آثر السّياقُ الكريم صياغةَ (الفتنة) المضافة إليهم (فتنتهم) صياغةَ المصدر المؤوَّل (ما فُتِنوا)؛ وذلك أنَّ تأويل المصدر يُتيح من الإشارات ما لا يتيحه المصدر الصريح؛ من ذلك أنَّ ﴿مَا﴾ المصدرية هذه توحي بأن معاناتَهم العذابَ، وجهادَهم، وصبرَهم كان متطاولًا ثقيلًا، وأنّ هذا ما أهَّلهم لتنزُّل عفو اللّه تعالى ومغفرته عليهم، ورحمته بهم، واللّه تعالى أعلم.

بلاغةُ المجازِ في ﴿فُتِنُواْ﴾:

المسلمُ كالذّهب تظهر جودتُه في المحن

مادة (فتن) في الأصل تستعمل في "إدخال الذهب النارَ لِتظهر جودته من رداءته، ثم تُجوِّز به عن البلاء، وتعذيب الإنسان"[(1)]، فكما يوضع الذهب في النار ليظهر الصافي منه من المخلوط، كذلك قد يتعرّض المسلم للضغوط المتعلقة بدينه ليتخلى عنه فلا يفعل، فهنا "أُطلق اسم الفتنة على البلاء وتعذيب الإنسان مجازًا"[(2)]؛ وذلك "لِما فيه من إظهار الحال والحقيقة ... وعليه يَحمل بعضهم تفسير الفتنة بالمحنة"[(3)].

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

عبّر القرآنُ الكريم بالفعل الماضي ﴿فُتِنُواْ﴾ عمّا تعرّض له هؤلاء المؤمنون الصادقون مِنَ الإكراه على الكفر؛ للدّلالة على ثِقل المعاناة التي عالجوها من صنوف التعذيب، حتى اضطُرّوا إلى التفوّه بالكفر؛ لتخفيف التعذيب عنهم.

سّرّ حَذفِ متعلّق ﴿فُتِنُواْ﴾:

فتنةُ المؤمنِ في دينه أعظمُ فتنةٍ

سكت النّظمُ الكريم عن ذكر ما ﴿فُتِنُواْ﴾ فيه؛ للعلم به؛ إذ إن فتنة المؤمن الجديرة بوصف الفتنة إنما تكون في دينه لا غير.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 474.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 685.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 244.

دلالةُ تقييدِ الهجرة بعدَ الفتنة:

رسوخُ إيمانِ المستضعفينَ وقوّةُ احتمالِهم وصبرِهم

يدلُّ تقييد هجرةِ النّاجين مِنَ المؤمنين الذين نطقوا بالكفر تحت الإكراه - بالظرف ﴿بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ - على رسوخ إيمانهم القلبيّ؛ إذ لم تزلزله المحنُ التي لاقَوْها على أيدي الكافرين، ويدلُّ على قوة احتمالهم، وطول صبرهم.

تعدُّدُ القراءات في: ﴿فُتِنُواْ﴾ وأثرها:

رحمةُ اللهِ تعالى تَتّسِعُ لمن تاب وأناب مِن عباده المؤمنين

قرأ الجمهور ﴿فُتِنُواْ﴾ بالبناء للمفعول؛ للدّلالة على أنَّ الذين هاجروا فتَنَهم الأعداءُ بإيذائهم في النّفس والمال والعرض، وقرأ ابنُ عامر الدِّمشقي الفعل (فَتَنوا) "بفتح الفاء والتاء، على معنى: مِن بعد ما فتنوا الناس عن دين اللّه، يُشير إلى مَن أسلم من المشركين، وقال أبو علي: مِن بعد ما فتنوا أنفسَهم بإظهار ما أظهروا للتُّقية؛ لأن الرُّخصة لم تكن نزلتْ بعدُ"[1].

وعلى هذا التأويل تتجلّى رحمة اللّه تعالى بهم؛ إذ غفر لهم تعذيب عباده المؤمنين وقد دخلوا الإيمان، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام حقًّا يجُبُّ ما قبله، وإلا فقد ارتكبوا الجرائم في حق المؤمنين بما يوجب لهم العذاب الأبدي.

سِرُّ التّعبير بالجهاد دون القتال:

الجهادُ أخصُّ مِنَ القتال، لا يكون إلا للغرض الشريف

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالجهاد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ دون القتال؛ لأنّ"المراد بالمجاهدة هنا دفع المشركين عن أن يردّوهم إلى الكفر"[2]؛ فهو جهاد غايته شريفة، تستحقّ التضحية والبذل بجميع أنواعه، من بذل مال، وأهل، ونفس، أما القتال فلا قَطْع فيه بتلك الغايات الشريفة؛ فقد يكون القتال لغرض شريف في سبيل اللّه، وقد يكون لغايات خسيسة، وأطماع محرمّة، وما إلى ذلك.

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 589، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 300.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

دَفْعُ كلِّ ظُلمٍ جهادٌ مأذونٌ فيه

جاء التّعبيرُ عن الجهاد بصيغة الماضي ﴿جَٰهَدُواْ﴾ ولمّا يُشرَعِ الجهادُ؛ إذ السّورة الكريمةُ مكيّة، وهذا دليلٌ على أنّ دَفْعَ كلِّ ظُلمٍ جهادٌ مأذونٌ فيه؛ فإن كان من مؤمنٍ في سبيل اللّه كان مأجورًا عليه، وإن كان من غير مؤمن؛ دفاعًا عن عرضه وأرضه لم يكن معتديًا؛ يُطال بجريرة، هذا على أنّ الآية مكية، أما إذا كانت مدنية؛ فيكون التعبير بالجهاد متّسقًا مع المرحلة التي تعالجها الآية الكريمة.

سِرُّ حذفِ مفعول: ﴿جَٰهَدُواْ﴾، وحَذْفِ متعلّق ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾:

للعِلْمِ به، وتنزيلًا للفعل المتعدّي منزلةَ اللّازمِ

سكت النّظمُ الكريمُ عن ذكر الذين يجاهدهم المؤمنون، ولم يُحدِّدْهم مَن يكونون؛ وذلك للعلم بهم، فلا شك أنّ المؤمنين إنما "جاهدوا المشركين حتى تكون كلمة اللّه هي العليا، وصبروا على البلاء والأذى طلبًا لرضا اللّه تعالى"[1].

ولتنزيل فعل الجهاد المتعدّي منزلة الفعل اللازم غير مقيد بمفعول مخصوص؛ وذلك يحقّق توفيرَ عناية المتلقّي على مجرَّد إثبات فعل الجهاد لهؤلاء المضطهَدين بغضِّ النظر عن المفعول مَن يكون، أي: أنّ هؤلاء المؤمنين المضطهدين كان منهم جهادٌ، وتَحقَّقَ منهم صبرٌ.

ولو قُيِّد الجهاد هنا بالمشركين؛ لكانت الصنوف الأخرى من الجهاد والصبر في سبيل الدين والعقيدة هَدْرًا في ميزان الحق.

معنى الواو المصاحبة للصّبر:

لا جهادَ بلا صَبرٍ، ولا صَبرَ إلّا معَ مجاهدة

العطف بـ (الواو) في قوله تعالى: ﴿جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ يعقد بين الجهاد والصبر في قَرَنٍ، ولا يقطع بحصول أيِّهما أوّلًا؛ ذلك أنهما قرينان متلازمان؛ فلا جهاد بلا صبر، ولا صبر إلا مع مجاهدة أيًّا كان نوع تلك المجاهدة، وعلى ذلك لا يناسب السياق من حروف

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 244.

العطف غيرُ (الواو)؛ لما لِكلٍّ منها من دلالة لا تخدم المعنى، ولا تتَّسق مع السياق.

سِرّ التّعبيرِ بالصّبر دونَ غيره:

الصَّبرُ درجاتٌ في سبيل تحقيق الغايات

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالصّبر في قوله تعالى: ﴿جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ دون غيره؛ لما يحمله من معانٍ عديدة؛ فيطلق على الثبات على "تَحمُّل المكروه والمَشاقّ"[1]، وعلى حبْسِ النفس على تجرُّع الأذى الحسّيّ أو المعنويّ؛ بغرض الوصول إلى غاية سامية؛ فهو التعبير الأنسب للجهاد في سبيل اللّه تعالى؛ ولأنّ الجهاد درجاتٌ كذلك الصبر الملازم له درجات.

دلالةُ التّعبير بالماضي:

نهايةُ الصّبر الوصولُ إلى الغاية المأمولة

عبر القرآن الكريم بالفعل الماضي ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾؛ ليتَّسق مع الماضي في ﴿هَاجَرُواْ﴾، والماضي في ﴿فُتِنُواْ﴾، وللدلالة على تحقق جميع هذه الأفعال، وما نتج عنها من ابتلاءات استحقَّ بها هؤلاء المستضعفون الجزاء الأوفى المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وتلك غايتهم التي كابدوا من أجلها طويلًا.

بلاغةُ ترتيبِ الصّفات في الآية:

مراعاةُ التّرتيبِ الزّمنيّ لاستمرار هذه الأفعال وانقضائها

رَتَّبتِ الآيةُ القرآنيَّةُ الصّفاتِ المَذكورةَ فيها بدءًا بالهجرة ونهاية بالصّبر؛ مراعاةً لترتيب زمن استمرار الأفعال، فالهجرة وقعت أولًا، وانقضى فعل الانتقال، ثم وقع الجهاد منهم، وأُخِّر ذِكْرَ الصّبر إلى النّهاية، مع أنّه كان مَوجودًا منذ البداية للزومه لكل هذه الصفات؛ "إذ لا هجرة من غير صبر، وكذا الجهاد، وإنما وقع في النهاية؛ لأنه هو الممتدُّ في الزمن بعد انقضاء الهجرة والجهاد إلى آخر لحظة تخرج فيها الروح"[2]، وإن كان صبرًا من نوع آخر، على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 300.

(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.

مشاقّ الحياة وأعبائها؛ لأنها دار ابتلاء؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: 4].

معنى التأكيد في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

تحقيقُ الوعد للذين هاجروا، ودفعُ النقيصة عنهم

"أُكِّد الخبرُ بحرف التّوكيد، وبالتوكيد اللفظي لتحقيق الوعد، والاهتمام بِدفْع النقيصة عنهم في الفضل، ويدل على ذلك ما في صحيح البخاري: أنَّ أسماء بنت عُميس - وهي ممن قدِم من أرض الحبشة - دخلت على حفصةَ، فدخل عمرُ عليهما، فقال لها: سبقناكم بالهجرة؛ فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت أسماء؛ وقالت: كلا واللهِ، كنتم مع النبيِّ يطعم جائعكم ويَعِظ جاهلكم، وكنا في أرض البُعَداء البُغَضاء بالحبشة، ونحن كنا نؤذَى ونَخاف، وذلك في الله ورسوله، وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله، فلما جاء النبيُّ ﷺ بَيْتَ حفصةَ قالت أسماء: يا رسول الله، إنَّ عُمر قال كذا وكذا، قال: "فما قلتِ له؟"، قالت: قلت له كذا وكذا، قال: "ليست بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان""[1].

على أنّ مِن أولئك المفتونين "من شرح بالكفر صدرًا، وقد فتح الله تعالى لهم باب التوبة في آخر الآية"[2].

سِرُّ تكرارِ إعادة قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

الـعِـبرةُ في نصوص الشّرع بِعُموم اللّفظ لا بخصوص السّبب

"أُعيدَ ذِكْرُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ رَغْمَ ذِكره في أوّل الآية لأمرين؛ الأوّل: طول الفصل، والثّاني: للتّأكيد على مغفرة الله ورحمتِه لهؤلاء المؤمنين"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 300، والحديث أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4230)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2503).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 474.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.

وللدّلالة على "أنّه غفورٌ لهم، يعني: لهؤلاء الذين فتنوا وعذبوا، ولغيرهم"[1]؛ وذلك يدلّ على أنّ العبرة في النّصوص الشّرعيَّة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب.

غَرضُ تعريفِ المسند إليه:

إفاضةُ آثارِ الرّبوبيّة على المؤمنين ببركته ﷺ

"عُرِفَ المُسنَد إليه، الذي هو اسم ﴿إِنَّ﴾ بطريق الإضافة دون العَلَميَّة؛ لِما يومئ إليه إضافة لفظ ﴿رَبَّكَ﴾ إلى ضمير النبيّ مِن كَوْن المغفرة والرحمة لأصحابه كانت؛ لأنهم أوذوا لأجل الله تعالى ولأجل النبيِّ ﷺ؛ فكان إسنادُ المغفرة إلى الله تعالى بعنوان كونه ربَّ محمدٍ ﷺ حاصلًا بأسلوب يَدل على الذات العلية، وعلى الذات المحمدية، وهذا مِن أدقِّ لَطائف القرآن في قَرْنِ اسم النبي باسم الله بمناسبة هذا الإسناد بخصوصه"[2].

كذلك أوثِر التعريف بالإضافة دون العلمية لـلإشعار بأنّ إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة ببركته، ﷺ؛ لكونهم أتباعًا له، صلوات الله عليه وسلامه[3].

دلالةُ قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

تعليمُ المسلمين الاعتراف بفضل المهاجرين الذين فُتِنوا

تدلُّ إعادةُ الضَّميرِ المضاف إلى الظّرف في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ على الفتنة؛ لأنَّ النفوس بعد صقلها بالفتنة تتّجه إلى الله تعالى، وقد سترت كل ذنوبها؛ فيكون الخلاصُ لله تعالى، ومن بعد ذلك يكون الغفران، وتكون الرحمة بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة[4].

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

مغفرةُ اللهِ تبدأ بعد الابتلاء والجهاد والصّبر، ولمن كابَدَها

تَدلّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ على ابتداء الغاية، أي: أن المغفرة والرحمة تبتدئ لهم من هنا، وليس قبل ذلك،

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 582.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 301.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 686.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4282.

وتدل على أن مغفرة اللّه تعالى ورحمته تداركتهم بعد تَحقُّق ما ذُكر بعدها منهم، فقد ﴿فُتِنُواْ﴾، و﴿جَٰهَدُواْ﴾، ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾، فحلّت عليهم المغفرة والرحمة.

ومن معاني ﴿مِنۢ﴾ هنا التعليل؛ فإنهم قد استحقّوا المغفرة والرحمة؛ لأنهم كابدوا كل هذه المحن (الفتنة، والجهاد، والصبر) حتى رسَتْ بهم سفينة معاناتهم على شاطئ المغفرة والرحمة، واستحّقوا بذلك ما جاء خبرًا في آخر الآية الكريمة: ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

عِلّةُ التّعبيرِ بالضّمير:

الضَّميرُ العائد تَـوَسُّـعٌ دلاليٌّ، وشـمـولٌ في المعنى

عبّر القرآنُ الكريم بالضّمير في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ دون الظاهر؛ لتعدد المراد به؛ فمنهم من قال: إنها "الفتنة، والفَعلة التي فعلوها، والمجاهدة، والمهاجرة، والصبر"[1]، ومنهم من قال: إنها "المغفرة التي عاد اللّه ﷻ بها على أولئك المفتونين بعد أن هاجروا، وجاهدوا وصبروا؛ فقد رحمهم اللّه تعالى، وغفر لهم، وأدخلهم في عباده المؤمنين"[2].

ولا مانع من عود الضمير إلى كل هذه الأمور؛ إذ لا يوجد دليل مخصّص، ولأن "الأصل أن يُحمل الأمر على الجميع لكونها كلها أعمال صالحة يغفر اللّه ﷻ لصاحبها ويرحمه"[3].

نُكْتَةُ عدمِ التّصريحِ بحالة الفتنةِ التي كانوا عليها:

الإشارةُ إلى أنّها شيءٌ بغيضٌ لا يُذْكَر إلّا ضَميرًا

وفي عودة الضمير إلى تلك الحالة دون ذكرها، إشارة إلى أنها شيء بغيض لا يُذكر إلا ضميرًا في هذا المقام، الذي لبس فيه أولئك المفتونون ثوبَ الإيمان ظاهرًا وباطنًا، والذي شملتهم فيه رحمة اللّه ومغفرته؛ فكان مِن تمامِ تلك النعمة التي أنعم اللّه تعالى بها عليهم

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 589.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 381.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.

ألا يُذكَّروا في هذا المقام بما يسوءُهم، وألا تمسَّ مشاعرَهم ذكرياتُ هذا الماضي البغيض، الذي انسلخوا منه وفارقوه، ثم كان من الحقّ أن يدفن هذا المنكر، وألا يرى المؤمنون له وجهًا أبدًا[1].

و"كل تلك الاحتمالات تشير إلى أنّ المغفرة والرحمة لهم جزاءٌ على بعض تلك الأفعال أو كلها"[2].

بلاغةُ التّوكيدِ باللّام:

عَفْوُ اللهِ موعودٌ به كُلُّ مَن أُكْرِهَ على الكفر

دخلت لام التأكيد على الخبر في قوله تعالى: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كل "ما ذُكر من تأكيد في الآية لِتطمين هؤلاء المؤمنين - ومَن في حكمهم - أنَّ اللّه ﷻ غفور رحيم؛ فلا تيأسوا من رحمة اللّه ومغفرته"[3].

سِرّ ختامِ الآية بِصِفتي المغفرة والرّحمة:

تشويقُ النّفوس لمعرفة جَزاءِ المهاجرين في سبيل الله

خُتِمَتِ الآيةُ بقوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لِما تحملُه هاتان الصّفتان الكريمتان من البشارة لهؤلاء الناطقين بالكفر مكرَهين؛ من المغفرة والرحمة في قوله تعالى: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: "لغفور لِما فعلوا من قَبْلُ، رحيمٌ يُنعِم عليهم مجازاةً لِما صنعوا مِن بعدُ"[4].

فائدةُ تقديمِ ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

التّخليةُ مِنَ العصيان قبل التّحليَة بأسباب الإحسان

درج الذِّكر الحكيم في الغالب على هذا الترتيب للصفتين؛ في "تَقْديم ذكر اسم الغفور على الرحيم؛ لأنَّ المغفرة سلامَةٌ، والرحمة غنيمةٌ، والسلامةُ أوَّلًا، ثمَّ الغنيمة تالية لها"[5].

وفي ذلك الترتيب تدرّجٌ من التخلية من آثار المعاصي قبل التحلية بأسباب الإحسان، وهو مبدأ إسلامي عامٌّ ترسِّخه الشريعة الغرّاء.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 381.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 301.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 474.
(5) القدوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.

غرضُ الجمعِ بين صِفتي ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

التّلازمُ بينَ الصّفتين مِن مظاهر رحمة الله

مِنَ المعهود في "أسلوب القرآن الجمع بين هذين الوصفين ﴿لَغَفُورٌ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾؛ لأنّ الغَفْر سَلْبُ عقوبةِ الذنب، والرحمة مجيءُ إحسانٍ جديد بعد الذنب الذي غُفِر"[1].

ولأنّ تلازُم هذين الاسمين ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في الذكر مظهرٌ من مظاهر رحمةِ الله تعالى؛ ذلك أنّه ﷻ لا يمحو عن عبده التائب ذنوبه فقط، بل يُكرمه بإمداده بالرحمات العظيمة.

دلالةُ التّغييرِ في ترتيب تركيبِ الجملة:

إعلاءُ أمرِ المؤمنين المستضعفين، وتنويهٌ بعظيم قَدْرِهم

الأصل في ترتيب الجملة أن يكون: (إن ربك لغفورٌ رحيمٌ للذين هاجروا ...)؛ لكنّ النظم القرآني جاء على غير ذلك بِذِكر الجارِّ والمجرور: ﴿لِلَّذِينَ﴾ قبل الخبر: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فالملاحظ أنه قدّم الجارَّ والمجرور ﴿لِلَّذِينَ﴾ مع جملة الصلة "إبرازًا للاسم الموصول قبل مجيء الخبر؛ حتى يكون هذا الإبراز إعلانًا لإعلاء أمرِ هؤلاء المؤمنين، وتنويهًا بِعظيم قَدْرِهم"[2].

بلاغةُ الجمعِ مع التّقسيم والتّفريق:

القرآنُ الكريمُ سياقٌ متماسِكُ التَّراكيبِ، مُتواثِقُ العُرَى

تحقَّق في هذه الآية وما قبلَها مِنَ الآيات الكريمات، مِن عناصر الوثاقة والتّرابط ما يجعلها كلامًا واحدًا، ويوقعُها في النّفس موقعًا بليغًا؛ ففيها "جَمعٌ مع التقسيمِ والتفريق، فالجمع قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، والتقسيم: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾، ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾، والتفريق: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾، و﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، والله أعلم بمراده من كلامه"[3].

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11932.

(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 221.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 204.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفتنة، والابتلاء، والاختبار:

"الفتنة أشدُّ الاختبار وأبلغُه، ويكون في الخير والشر، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: 28]، وقال تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]، فجعل النعمة فتنة؛ لأنه قصد بها المبالغة في اختبار المنعَم عليه بها، كالذهب إذا أُريد المبالغة في تعرُّف حاله أُدخِل النار، واللّه تعالى لا يختبر العبد لتغيير حاله في الخير والشر، وإنما المراد بذلك شدة التكليف"[1].

و"الابتلاء لا يكون إلّا بتحميل المكاره والمشاقّ، والاختبار يكون بذلك وبِفِعل المحبوب، ألا ترى أنه يقال: اختبره بالإنعام عليه، ولا يقال: ابتلاه بذلك؟ ولا هو مُبتلًى بالنعمة، كما قد يقال: إنه مُختبَرٌ بها، ويجوز أن يقال: إنّ الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلَى من الطاعة والمعصية، والاختبار يقتضي وقوع الخبر بحاله في ذلك، والخبر: العلمُ الذي يقع بكنه الشيء وحقيقته؛ فالفرق بينهما بيِّنٌ"[2].

(1) مختصون، نضرة النّعيم: 1/ 8.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 10.

﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ [النحل: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مجادلةُ النَّفسِ تنفع إذا اقترنت بعملٍ صالح

لَمّا ذَكَرَتِ الآيات السّابقة طرَفًا مُجْمَلًا من طغيان المشركين، وقسوتهم في تعذيب الضُّعَفاءِ من المؤْمنين، ثم ذكَر حال المهاجرين في سبيله، وما تعرَّضوا له من فتنةٍ في سبيل الثَّبات على الدّين، ناسب أن يَذْكُرَ حالَ كلِّ نَفْسٍ يوم القيامة، وأنَّها تأتي مُجادِلَةً على أعمالها، وأنَّ كلَّ مُكلَّف يَنال جزاء ما عَمِلَ في الدُّنيا، فالآية على عادة القرآن في الانتقال من ذِكر أحوال العبادِ في الدُّنيا إلى ذِكر حالهم في الآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُجَٰدِلُ﴾: أصلُ (جدل): أصلٌ واحدٌ، وهو من باب استحكام الشَّيء في استرسال يكون فيه[1]، أمّا معنى الجَدَل في اللُّغة؛ فقد جاء في (اللِّسان): الجَدَل: اللَّدَدُ في الخُصومة والقُدرةُ عليها، وقد جادله مُجادلة وجِدالًا، وجادله أي: خاصمَه، والاسم: الجَدَل، وهو شِدَّةُ الخُصومة[2]، وترجع جميع تصاريف الكلمة إلى معنى القوَّة والامتناع والشِّدة والإحكام، فيكون مشتقًّا من هذا المعنى الجامع الكلّي، ومن كلِّ واحدٍ من جزئياته باعتبار ما يشتركان فيه من ذلك المعنى، والمقصودُ بالمُجادَلةِ في الآية: دِفاعٌ بالقَوْلِ للتَّخَلُّصِ مِنْ تَبِعَةِ فِعْلٍ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 302.

2) ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾: "الواوُ والفاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إكْمالٍ وإتْمام، مِنْهُ الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أَوْفَى، فهوَ وفيٌّ، ويَقولونَ: أَوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا، وتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ حَتَّى لَم تَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، ومِنْهُ يُقالُ لِلْمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه"[1]، و"الوافي: الَّذي بَلَغَ التَّمام، يُقالُ: درهم وافٍ، وكيل وافٍ، وأَوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ"[2]، "وفَى الكيلُ، ووَفَى الشَّيءُ أيْ: تَمَّ، وأَوْفَيْتُه أنا أتممته، قالَ اللّه تعالَى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ [الأنعام: 152] ... وأَوْفَى الرَّجلَ حقَّه ووَفّاه إيّاه بِمَعْنَى: أَكْمَلَه لَهُ، وأعطاه وافيًا، وفي التَّنْزيلِ العَزيز: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النور: 39]، وتَوَفّاه هوَ مِنْهُ واسْتَوْفاه: لَم يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا، ويُقالُ: أَوْفَيْته حَقَّه، ووَفَّيته أَجْره، ووفَّى الكيلَ وأوفاه: أَتَمَّه"[3]، والمرادُ بالتَّوْفيَةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ وافيًا، أي: أعطاه حسابه كاملًا دون نقصان.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يومُ القيامة يومُ مجادلةٍ عن الحقوقِ ويوم جزاءٍ عادل

تُبيِّن الآية حال النّاس جميعًا يوم القيامة حين تأتي كلُّ نفسٍ تُخاصِمُ عن نفسِها، وتَحْتَجُّ عنها بما أسلفت في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ أو إيمانٍ أو كفرٍ، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ في الدُّنيا من طاعةٍ ومعصيةٍ، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾: يقول: وهم لا يفعل بهم إلّا ما يستحقونه، ويستوجبونه بما قدَّموه من خيرٍ أو شرٍّ، فلا يُجْزَى المُحْسِنُ إلّا بالإحسان ولا المُسيء إلّا بالَّذي أسلف من الإساءة، لا يُعاقَبُ مُحْسِنٌ ولا يُبْخَسُ جزاءَ إحسانه، ولا يُثابُ مُسيءٌ إلّا ثوابَ عمله[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(2) الراغب، المفردات: (وفى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 308.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ فصلِ صدر الآية عمّا قبله:

خطابُ النّاس بعدل الجزاءِ فيه وعدٌ وعيد، وتأكيدٌ للمغفرة والرحمة

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ إمّا "أنْ يكون هذا استئنافًا وتذييلًا بتقدير: اذكر ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾، وقع عَقِبَ التَّحذير والوعيد، وعيدًا للَّذين أُنذِروا، ووَعدًا للَّذين بُشِّروا، ويجوز أنْ يكون مُتَّصلًا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل: 110]؛ فيكون انتصابُ ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ على الظَّرفية لـ ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل: 110]، أيْ: يغفر لهم، ويرحمهم يومَ القيامة بحيث لا يجدون أثرًا لذنوبهم التي لا يَخلو عنها غالِبُ النّاس، ويجدون رحمة مِن اللّه بهم يومئذ، فهذا المعنى هو مقتضى الإتيان بهذا الظَّرف"[1].

والأنسب أنْ يكون قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ استئنافًا وابتداءً، شروعًا في بيان عدل اللّه تعالى يوم القيامة، بعد بيان أحوال أعمال النّاس في الدُّنيا.

بلاغةُ البدء بالظَّرف:

ذِكرُ القيامة واجبٌ في أعناق الذّاكرين

قُدِّم الظَّرف في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ لشدَّة أهوالِ ذلك اليوم؛ لِما في التَّقديم مِن التَّنبيه على العناية بالمُقدَّم؛ كما قال سيبويه: "كأنَّهم إنَّما يُقَدِّمونَ الَّذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم ببَيانه أعنَى، وإنْ كانا جميعًا يُهِمّانِهم ويَعنيانِهم"[2]؛ ففي تقديم الظَّرف عناية به وإيقاظ للغافلين، كأنَّه قال: انتبهوا يوم تأتي كلُّ نفسٍ تُجادِلُ عن نفسِها؛ فإنَّه يومٌ عظيمٌ.

فائدةُ اختيارِ مفردة الإتيان:

المقصود بالفعل ﴿تَأۡتِي﴾ "أيْ: تَحۡضُرُ"[3]، وقد آثر النَّظْمُ الكريم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 301.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 31.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 294.

أهل الموقف يَتحقّقون للحساب في إتيان سريع

مفردة ﴿تَأۡتِي﴾ دون تجيء؛ لأنَّ "جاء وأتى يستويان في الماضي، ويأتي أخفُّ من يجيء في المضارع، وكذا في الأمر جيئوا بمثله أثقل مِن فأتوا بمثله، ولم يَذكُرِ اللّه تعالى إلّا ﴿يَأۡتِي﴾ [البقرة: 258] و﴿يَأۡتُونَ﴾ [التوبة: 54]، وفي الأمر ﴿فَأۡتِ﴾ [البقرة: 258]، ﴿فَأۡتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿فَأۡتُواْ﴾ [البقرة: 23]؛ لأنَّ إسكان الهمزة ثقيل لتحريك حروف المدِّ واللّين، تقول جيء أثقل مِن ائْت"[1]، فمفردة الإتيان هنا تحكي بِخفَّتها سرعة الإتيان، وخفَّتها إلى ميدان الحساب، فالإتيان سيكون أيسرَ ممّا تتوقَّع عقول النّاس.

نكتةُ التَّعبير بالمضارعة ﴿تَأۡتِي﴾:

على المُتَدَبِّر استحضار إتيانه يوم القيامة بانفرادٍ

يتَّسق عطاءُ صيغةِ المضارَعة في الفعل ﴿تَأۡتِي﴾ مع ذِكْر الظَّرْف ﴿يَوۡمَ﴾، وأفادتِ المضارَعة تصوير ذلك المشهد لاستحضاره في نفوس المخاطَبين، فالآية تُخبر عن إتيان النّاس يوم القيامة، والإتيان مُسْنَدٌ لكلِّ نَفْسٍ وحدها، فعلى كلِّ نفسٍ أن تستحضر إتيانَها وتتصوَّره كأنَّه قائمٌ وحده، ومن لم يتأمَّل ذلك الإتيان الَّذي سيكون لجسده ونفسه وروحه، فما كسب من تدبُّر الآية إلّا تحريك اللِّسان.

فائدةُ استعمال ﴿كُلُّ﴾ دون جمع النَّفْسِ:

دفعُ تَوَهُّمِ حَصْرِ المُراد بالنَّفْس الكافرة

استعمال النَّظم الكريم كلمة ﴿كُلُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾، وذلك لإفادة عموم هذين الحدَثين: إتيان كلِّ نَفْسٍ للحساب، ومجادلة كلِّ نَفْسٍ عن نفسها، "فيجادل المؤمن والكافر، وجِدالُه بالكذِب والجَحَد، فيشهد عليهم الرُّسُلُ والجوارح، فحينئذ لا ينطقون"[2]، كلٌّ مشغولٌ بنَفْسه، ليس له فراغ إلى غيره، فلفظ ﴿كُلُّ﴾ شمل المؤمنين والكافرين، ولو قال: (يوم تأتي النفوس) لَتوُهِّمَ أنَّ المُراد نفوس الكافرين.

---

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 601.

سرُّ اختيارِ لفظ (النَّفْس) دون ما يُقاربها:

النَّفس أصلُ كلِّ خيرٍ أو شرٍّ في السُّلوك البشريِّ

آثرَ النَّظْمُ الكريم لفظَ النَّفْس دون مرادفاتها؛ وذلك لأنَّ النَّفْس هي أصلُ الشَّهوات والخيرات في الاستعمال القرآني، فالقرآن ذكَر النَّفس الأمّارَةَ بِالسّوءِ، واللَّوّامَةَ، والمُطْمَئِنَّةَ، فكان من المُناسِبِ أنْ يذكُر النَّفس التي تشمل هذه الأنواع جميعها، فيقع الاستغراق، كما أنَّ النَّفْس هي الباعث على العمل شرًّا وخيرًا، فكان ذِكرُ النَّفْس لمحًا لأصل العمل لدى الإنسان، فكما أنَّ النَّفْس هي الباعث على العمل في الدُّنيا، فهي الباعث على العمل للنَّجاةِ في الآخرة.

توجيه تأنيث فعل ﴿تَأۡتِي﴾ و﴿تُجَٰدِلُ﴾:

تأنيث الأفعال لِلَحظِ المعاني لا الألفاظ

ورد في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ فِعلا المؤنَّثِ: ﴿تَأۡتِي﴾، ﴿تُجَٰدِلُ﴾؛ فأُنِّث الفعلان لمناسبة تأنيث النفس، أمّا ذِكر لفظ ﴿كُلُّ﴾ "فجُمِع على المعنى"[1]؛ إذ هو لِمجرَّد إفادة العموم؛ والتَّقدير: "كلُّ ذي نَفْسٍ، ثمَّ أُجْري الفعل على المضاف إليه المذكور، فأتت العلامة"[2]، أي: علامة التَّأنيث.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع ﴿تُجَٰدِلُ﴾:

تصوير المجادلة بيانٌ لحال النَّفس الضَّعيفة الذَّليلة

جملة "﴿تُجَٰدِلُ﴾ في موضع رفع على النَّعت لـ ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾"[3]؛ أو "حالٌ مِن ﴿كُلُّ﴾، وجازت الحالُ من النَّكرة؛ لأنَّها مُضافَةٌ"[4]، وإيثارها صيغة مضارعة يُقرِّر في تلك الصِّفة لزومَها للمنعوت، وتطاولَها عليه تطاولًا يُناسب تطاوُل يوم القيامة على النّاس، كذلك تنهض صيغة المضارعة حالًا في ﴿تُجَٰدِلُ﴾ باستحضار صورة تلك النُّفوس، وهي ﴿تُجَٰدِلُ﴾ وتكابد في الْتماس أدلَّة براءة، تنجّيها من تُهَمٍ لا تُعَدُّ، وتصوِّر حالها لدرجة أنَّ "كلَّ أحد مِن الأنبياء وغيرهم

---

(1) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 600.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 426.

(3) الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/ 149.

(4) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 600.

يقول: نَفْسي نَفْسي، وهذا ليس بجدال ولا احتجاج، إنَّما هو مجرَّد رغبة"[1] في النَّجاة.

نكتةُ اختيارِ ﴿تُجَٰدِلُ﴾ دون (تُدافِعُ):

كنايةٌ عن حال النَّفْس بطلب النَّجاةِ يوم القيامة

آثرَ النَّظْمُ الكريم مفردةَ الجدال دون الدِّفاع؛ لأنَّ الدِّفاع دون الجدال في شدَّة المُحاجَجةِ؛ إذ إنَّ الجدال مِن فتْلِ الحَبْل وإحكام جَدْله؛ فيوحي بالاستماتة في الاستمساك بدليل البراءة - حتى وإنْ كان واهيًا -، ويُلِحُّ على إعادة المحاولة مرّات ومرّات، أمّا الدِّفاع فمفردة توحي بقوَّة دليل المدافِع، وثقته في براءته، والمقصود الأوَّل دون الآخر؛ فالمُراد من إيراد هذه المفردة بيانُ حال الضَّعف الشَّديد والخوف الشَّديد معًا ممّا يُشاهده الإنسان في أهوال القيامةِ، فيلجأ إلى المُجادلةِ، لعلَّه ينجو عند الله تعالى.

ولا ريب في أنَّه ليس المُراد بالجدال في هذا المقام ما نعرفه من جدال الدُّنيا من عنفوان المجادِل، ومغالطتِه، وغير ذلك، إذ المقام جَلَلٌ؛ ولذلك رأى الماتريديُّ عدَمَ تعيين المُراد بالمُجادلة، فقال: "وذلك كلُّه مُجادَلَتُهُم أنفُسهم، أو أنْ يُقال: ﴿تُجَٰدِلُ﴾ لكن لا يُفَسَّر ما تلك المُجادَلَةُ؛ لأنَّ الله تعالى ذكَر المُجادَلَة، ولم يذكُر ما المُجادَلَةُ؟"[2]، ولذلك فالأولى أنْ يكون ذِكْرُ المُجادَلَةِ من قبيل الكناية عن حال النَّفْس الطّالبة الفوز يوم العَرْضِ.

نكتةُ إضافةِ النَّفْسِ للنَّفْس:

النَّفسُ المضافةُ الإنسانُ والمضافُ إليها ذاتُه

لِسائلٍ أنْ يسأل عن معنى إضافة النَّفْس إلى النَّفْس في قول الله تعالى: ﴿عَن نَّفۡسِهَا﴾، فقد "جازتْ إضافة النَّفْس إلى النَّفس - ومِن شرط المُتَضايِفَيْنِ أنْ يكونا مُتغايرين - أنَّ المُراد بالنَّفس الأولى

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 426.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 583.

الإنسان، وبالثّانية ذاته"[1]، أيّ: "يأتي كلُّ أحدٍ يُدافع عن ذاته، أيّ: يُدافع بأقواله ليدفع تبعات أعماله؛ ففاعل المُجادَلة، وما هو في قوَّة مفعوله شَيْءٌ واحِدٌ، وهذا قريب من وقوع الفاعل والمفعول شيئًا واحدًا في أفعال الظَّنِّ والدُّعاء، بكثرة، مثل: أراني فاعلًا كذا، وقولهم: عَدِمتَني وفَقَدْتَني"[2].

"ولم يَقُلْ: تُجادِلُ عنها؛ لِئَلّا يتَّحد الضَّميران: فاعلًا ومفعولًا، مع أنَّ المُظهَرَ السّابق لفظُ النَّفْس"[3]، فيومئذٍ "كلُّ أحدٍ لا يُهِمُّه إلّا نفسَه، فهو مُخاصِمٌ ومحتجٌّ عن نَفْسِه، لا يتفرَّغ إلى غيره؛ وذلك أنَّ لِجهنم زَفرةً يقع كلُّ أحدٍ جاثيًا على ركبتيه"[4]، فـ "النَّفْس الأولى هي: الجملةُ (أيّ: مجموع الإنسان)، والثّانية: عينها وذاتها، فكأنَّه قيل: يوم يأتي كلُّ إنسان يُجادل عن ذاته لا يهمُّه شأنُ غيره، كلٌّ يقولُ: نَفْسي نَفْسي"[5].

دلالة الواو في: ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾:

حالُ النُّفوس في المجيء المُجادَلَةُ؛ وحالُها في تَوْفِيةِ الأعمال العدالةُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ عاطفة على قوله تعالى: ﴿تَأْتِي﴾، فهما حدَثان ذكرتهما الآية، الإتيان، والتَّوْفيَةُ، تَعَلَّقَ بالأوَّل ذِكْرُ المُجادَلَة، وتَعَلَّقَ بالآخر ذِكْرُ عدَم الظُّلم، والتَّوْفيَةُ إعطاء الشَّيء وافيًا دون نقصانٍ، والمعنى: "توفَّى كلُّ نفسٍ جزاء ما عملت من غير بخْسٍ ولا نُقْصان"[6]، فـ "لا يُنقَصون من حسناتهم، ولا يزدادون على سيئاتهم، وهذه الآية تَرُدُّ على المعتزلة؛ لأنَّهم يقولون بالتَّخليد لصاحب الكبيرة، وقد أخبر تعالى أنَّه توَفَّى كلُّ نفسٍ ما عملت من سوء، ولا توَفَّى ما عَمِلَتْ من الخيرات والطّاعات"[7].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 374.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 302.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 489.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 213.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/ 638، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 278.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 278.
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 583.

نكتةُ بناءِ فعل ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ للمفعول:

بَنى النَّظمُ الكريم الفعل ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ إلى مفعوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ وحذف الفاعل؛ لإظهار فعل التَّوْفيَةِ، فهو مقصود الجملة، وتوفير عناية المتلقي على الفعل لا الفاعل، والمعنى أنَّ "ثوابها غيرُ مُنْتَقَصٍ"[1].

العـدل شعار يوم القيامة؛ فلا يَظْلِمُ أحَدٌ أحدًا

وفي هذا الفعل "بيانٌ لِمَظهرٍ من مظاهر عَدْل اللّه تعالى في قضائه بين عباده، أيْ: وفي هذا اليوم تُعْطَى كلُّ نَفْس جزاء ما عملته من أعمالٍ في الدُّنيا وافيًا غير مَنْقوص، بلا ظُلْم أو حَيْفٍ أو مَيْل عن العدل والقسطاس، ولن يَنْفَعَ نَفْسًا مُجادَلَتُها عن ذاتها، واعتذارها بالمعاذير الباطلة، وإنَّما الَّذي ينفعها هو عملُها"[2]، وفي الفعل ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ "إعلالٌ بالقَلْب؛ إذ أصلُه: توَفَّيَ بياء في آخره؛ فلمّا جاءت الياء متحرِّكة بَعد فتحٍ قُلِبَتْ ألفًا، ورُسِمَت برسم الياء لأنَّها خامسة"[3].

بلاغةُ الإظهارِ في عبارة ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾:

ما يقتضيه الظّاهر أنْ يكون نظمُ الكلام: (يوم تأتي كلُّ نفس تُجادل عن نَفْسِها وتوَفَّى ما عَمِلَتْ)، لكنَّ النَّظم جاء على مقتضى الحال دون الظّاهر، فأظهر نائب الفاعل ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ وذلك "الإظهار في مقام الإضمار لزيادة التَّقرير، وللإيذان باختلاف وقْتَي المُجادَلَةِ والتَّوْفيَةِ، وإنَّ كانتا في يومٍ واحدٍ"[4]، وكذلك أوثِر الإظهار؛ "لِتكون الجملة مُستقلَّة، فتجري مجرى المَثَل"[5].

ما تَتَوَهَّمُهُ الأفهام يدفعه بديع نظم القرآن

كما أنَّ إظهار ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ تأكيدٌ للعموم بعد العموم، فعموم المُجادَلَةِ للنُّفوس، كما أنَّ عموم التَّوْفيَةِ للنُّفوس، ولحساسية الأوهام

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 214.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 245.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 400.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 476.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 302.

التي تطرأ على الأفهام، أَظهَر ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ كي يُعْلِمَ أنَّ النّاس جميعًا سواسية في ميزان العدل والفضل.

نوعُ ﴿مَّا﴾ ودلالتها في جملة ﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾:

قليلُ الأعمالِ وكثيرُها حاضرٌ يوم الحساب

﴿مَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ "حرفٌ مصدريٌّ"(1)، أيْ: "ثوابَ ما عَمِلَتْ، أو جزاءَ ما عَمِلَتْ، فحُذِف المضاف"(2)، "أيْ: جزاءَ ما عَمِلَت، بطريق إطلاقِ اسمِ السَّببِ على المُسبَّب؛ إشعارًا بكمال الاتِّصالِ بين الأجزية والأعمال"(3)، وإيثار ﴿مَّا﴾ دون أنْ يقولَ: (وَتوفَّى كلُّ نَفْس أعمالها)؛ إرادة إظهار العموم، فجميع أعمال العباد داخلةٌ في النَّظم، ولو قال: (أعمالها) لتوُهِّمَ أعْمالٌ خاصَّةٌ.

فائدةُ ذِكر مفردة العمَل دون لفظ التَّقديم:

النَّفس البشريّة تُحاسَبُ بمعيار الحقِّ لا فيما تَعْتَقِدُ أنَّه حقٌّ

آثَرَ النَّظْمُ الكريم مفردة العمل دون التَّقديم، فقال: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ ولم يَقُلْ: (وتوفَّى كلُّ نَفْس ما قدَّمت)، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182]؛ وذلك لأنَّ المقصودَ بهذا السّياق ذِكر الأعمال التي قام بها الإنسان في الدُّنيا، ويدخلُ فيها ما يظنُّه خيرًا وما يظنُّه شرًّا، أمّا دلالةُ التَّقديم ففيه مَلْحَظُ تقديم الأعمال مع إرادة الثَّواب عليها فيما يَظُنُّ العَبد أنَّه يصنع خيرًا، وقد يكون في غور الباطل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104].

دلالةُ واو الحال:

تَوْفِيَةُ العبادِ أعمالَهم وانتفاء الظُّلم في يوم الحساب

الواو في جملة ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ "واو الحال، فحال العباد حين يوَفَّون حسابهم أنَّهم غير مظلومين، وإنْ كان ما سبق مِنَ الآية يُغني في بيان معنى العدل ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾، فتَوْفِيَةُ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 399.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 214.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 144.

العباد أعمالهم تَوْفِيَةً كاملة تَدُلُّ على أنَّ أحدًا مِن الخَلْق لم يُظْلَم، ولكن جاء التَّصريح بِنَفْي الظُّلم زيادةً في التَّأكيد على عدل اللّه ﷻ، والتَّأكيد على عدل اللّه ﷻ في الجزاء يَدُلُّ على شِدَّة الوعيد للمرتدّين، وعظيمِ البشارة للمؤمنين"(1).

غرضُ استعمال الضميرِ المنفصل في جملة الحال:

كـلُّ عـبدٍ مخصوصٌ بدفع الظلم عنه جملةً وتفصيلًا

ضميرُ الجمعِ المنفصلُ (هم) في جملة ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ يُقرِّرُ نفيَ الظُّلم عنهم على العموم، بعد نفيه عنهم على الخصوص في قوله تعالى ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾، إذ فُهِم منه أنَّ كلَّ عبدٍ من البشَر مخصوصٌ بنفي الظُّلم عنه، فجاءت جملة الحال تأكيدًا في الوعد بدفع الظُّلم؛ لأنَّه لا يُظلَم أحدٌ عند اللّه تعالى، فإنْ أكرمه ورحمه وعفا عنه، وإلّا وفّاه حقَّه غير منقوصِ الحسنات ولا زائدِ السَّيئات، ولم يَظْلِمهُ ألْبَتَّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49].

وجه عَودِ ضمير الجمعِ على لفظ الفرد:

النَّظم قائمٌ على ربطِ المعاني بِلحاظِ المباني

عاد الضَّميران في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ "إلى كلِّ نَفْس بحسب المعنى؛ لأنَّ كلَّ نَفْسٍ تَدُلُّ على جمعٍ مِنَ النُّفوس، وزيادة هذه الجملة للتَّصريح بمفهوم ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾؛ لأنَّ تَوْفيَةَ الجزاء على العمل تستلزم كون تلك التَّوْفيَةِ عدلًا، فصَرَّحَ بهذا اللّازِم بطريقةِ نَفْيِ ضِدِّهِ - وهو نفي الظُّلم عنهم -، وللتَّنبيه على أنَّ العدل من صفات اللّه تعالى، وحصل مع ذلك تأكيد المعنى الأوَّل"(2).

نكتةُ مجيء المُسْنَدِ الفعليِّ منفيًّا:

القيامةُ عدلُ اللّه فيها باقٍ وفضله قائم

جاء الخبَر فعلًا منفيًّا في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وذلك لبيان أنَّ نفيَ الظُّلم عنهم مستمرٌّ في القيامة كلِّها، ابتداءً

(1) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 223.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 303.

وانتهاءً، فإنَّ عُنْوانَ ذلك اليوم عدل باقٍ وفضل قائم، و"الظُّلم: الاعتداء على الحقِّ، وأُطلِقَ هنا على مجاوزة الحدِّ المُعيَّن للجزاء في الشَّرِّ والإجحاف عنه في الخير؛ لأنَّ اللّٰه تعالى لَمّا عَيَّن الجزاء على الشَّرِّ، ووعد بالجزاء على الخير، صار ذلك كالحقِّ لِكُلِّ فريقٍ، والعِلْمُ بمراتب هذا التَّحديد مُفَوَّضٌ للّٰه تعالى"[1]، فـ "لا يُنْقَصونَ من أجورهم مثقال ذرَّة"[2].

نكتةُ بناء الفعل للمفعول ﴿يُظۡلَمُونَ﴾:

إذا أشـرق نـور الـحـقِّ غـابـت ظُلمَةُ الظُّلم

جاء الفعل ﴿يُظۡلَمُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول في جملة ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الحُكْم يوم القيامة ليس إلّا للّٰه تعالى، واللّٰه تعالى صاحب العدل المُطلَق، المنزَّه عن كلِّ ظُلم؛ وبناءً على هاتين المسلَّمَتَيْن، فإنَّ الظُّلْمَ لا يَتَأتَّى في يوم القيامة أصلًا؛ ويَختفي ويَغيب وجود الظُّلْم تمامًا؛ إذ لا فاعل له أصلًا، وإذا عُدِم فاعلُه لم يتأتَّ إلّا بناؤه للمفعول، فقيل: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ [غافر: 17]، وهذا أبلَغ في المديح وأجزل في الحَمد.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجِدالُ والحِوارُ:

الجدال يَغْلِبُ في الخصومات والحوار في مُطْلَق مراجعة الكلام

يَخْتَصُّ الجدال بما كان عن شِدَّةٍ وعِنادٍ في طلَب أخذ المطلوب معنويًّا كان أو ماديًّا، والجِدالُ مُطْلَقٌ في المُخاصَمَة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: 109]، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود: 74]، فقيل إنَّه قال للملائكة: بأيِّ شيءٍ استحقّوا عذاب الاستئصال؟

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 303.

(2) ابن عجيبة، المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/ 168.

فسُمّي ذلك السؤالُ المستقصي جدالًا؛ من رِقَّةِ قَلْبه، وعظيم رأفته عليه السلام[1].

و"المُحاوَرَةُ والحِوار: المُرادَّة في الكلام، ومنه التَّحاوُر، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: 1]، وكلَّمته فما رَجَعَ إلَيَّ حَوارًا، أو حَويرًا أو مَحورَةً، أيْ: جوابًا، وما يعيش بأحور، أيْ بعقلٍ يَحورُ إليه"[2]، ويغلب استعمال الحِوارَ في مُطْلَقِ التَّراجُعِ في الكلام، مع شيءٍ من اللّين والهدوء.

الجِدالُ والحِجاجُ:

غرضُ الجدال الإلزام، وغرض الحِجاجِ إظهار الحُجَّةِ

"إنَّ المطلوب بالحِجاجِ هو ظُهورُ الحُجَّةِ، والمطلوب بالجِدالِ: الرُّجوع عن المذهب، فإنَّ أصلَه من الجَدْل، وهو شِدَّةُ الفَتْل، ومنه الأجدل؛ لِشِدَّةِ قوَّتِه من بين الجوارح، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]؛ وذلك أنَّ دأب الأنبياء عليهم السلام كان ردعَ القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالَهم في دين الله تعالى بِبَذْل القوَّة، والاجتهاد في إيراد الأدلَّة والحُجَجِ"[3].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.

(2) الراغب، المفردات: (حور).

(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: 112 - 113]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الوعيد يقتضي بعضُه بعضًا، ويـؤدِّي بَعْضُهُ إلى بعضٍ

"لَمّا هدَّدَ اللّهُ تعالى الكفارَ بالوعيد الشَّديد في الآخرة، هدَّدَهم أيضًا بآفات الدُّنيا، وهو الوقوع في الجوع والخوف، كما ذكره في هذه الآية"[1]، و"لَمّا ذكر المَثَلَ، ذكَر المُمَثَّل فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾"[2]؛ فـ "جَعَلَهُم مَضْرِبَ مثَلٍ لقريةٍ عُذِّبتْ عذاب الدُّنيا، أو جَعَلَهُم مَثَلًا وعِظَةً لمِن يأتي بمِثْلِ ما أتَوا به من إنكار نِعمة اللّه"[3].

و"لَمّا أخبر عنهم بأنَّهم أُذيقوا لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وكان إنَّما ذكَرَ من صنيعهم أنَّهم كفروا بأنعُم اللّه - زيدَ هنا أنَّ ما كانوا يصنعون عامٌّ لِكُلِّ عملٍ لا يُرضي اللّه تعالى غير مخصوص بكفرهم نعمةَ اللّه ﷻ، وإنَّ مِن أشنعِ ما كانوا يصنعون تكذيبَهم رسولَ اللّه ﷺ مع أنَّه منهم"[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَغَدًا﴾: "عَيْشٌ رَغيدٌ، أيْ: رَغْدٌ، رَفيهٌ، والرَّغَدُ: سَعَةُ العَيش، وقومٌ رَغَدٌ ونساءٌ رَغَدٌ"[5]، و"عيشةٌ رَغْدٌ ورغَدٌ، أيْ واسِعةٌ طيّبةٌ، تَقولُ: رَغِدَ عيشُهم ورَغُدَ عَيْشُهم - بكسر الغين وضمِّها -، وأرغَد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 278.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 280.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 303.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 308.
(5) الخليل، العين: (رغد).

القومُ: أخْصَبوا وصاروا في رَغَدٍ من العَيْش، وأرغَدوا مواشيَهم: تركوها وسَوْمَها"[1]، والمُرادُ بالرَّغَدِ في الآية: الوافِرُ الهَنيءُ.

2) ﴿فَأَذَاقَهَا﴾: أصلُ (ذَوَق): أصلٌ واحدٌ، وهو "اختبارُ الشَّيءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثمَّ يُشتقُّ منهُ مجازًا، يُقالُ: ذُقْتُ المأكولَ، أذوقُهُ، ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عند فُلانٍ: إذا اخْتَبَرْتُهُ"[2]، وذَوَّقَهُ الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِهِ، والذَّوق وجود الطَّعم بالفَم، واستُعمل في العذاب بكَثرة، قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: 49]، واستعمل في الرَّحمة أيضًا ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ [هود: 10][3]، فإن كان التَّذوق للنِّعمة زيادة في التَّنعم، فالتَّذوق للعذاب زيادة في الألم، فهو مُستَعارٌ هنا إلَى إحساسِ الألَمِ والأذى إحساسًا مَكينًا كَتَمَكُّنِ ذَوْقِ الطَّعامِ مِنْ فم ذائِقِهِ لا يَجِدُ لَهُ مدْفَعًا[4].

3) ﴿مَثَلًا﴾: أصلُ (مثل): يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وهذا مِثْلُ هذا، أي: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعْنًى واحِدٍ[5]، والمَثَلُ: عبارةٌ عن قَولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيء آخر بينهما مُشابهة، ليُبيِّن أحدُهما الآخر ويُصوِّرَه، نحو قولهم: "الصَّيفَ ضَيَّعتِ اللَّبَنَ"[6]، فإنَّ هذا القول يُشبه قولكَ: "أهْمَلْتَ وقْتَ الإمكانِ أمرَكَ"[7]، وعلى هذا الوجه ما ضَرب اللّه تعالى من الأمثال، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر: 21]، والمُرادُ بالمَثَلِ في الآية: تَشْبيهُ حالٍ بِحالٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبر اللّه تعالى أنَّه جعَل "مثلًا قريةً كانت ذات أمنٍ وسلامةٍ من كلِّ مَخوف، لا يُهَيِّجُ أهْلَها أحدٌ بإغارة أو اعتداءٍ عليها، وكانت مُطْمَئِنَّةً ساكنةً قارَّة، لا يُزْعِجُ أهْلَها مُزْعِجٌ، ولا يَرْتَحِلُ عنها أحدٌ بسبب جوعٍ أو خوفٍ، يَسوقُ اللّه إليها أقواتها واسعة سهلة من كلِّ بلَد، وتُحمَل إليها من كلِّ مكان برًّا وبحرًا ... فجَحَدَ أهْلُ هذه القرية نِعم اللّه تعالى عليهم

(1) الصحاح، والجوهري: (رغد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 5/ 282، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 172.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 306.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(6) ابن سلام، الأمثال، ص: 247، والعسكري، جمهرة الأمثال: 1/ 324.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 145.

المعاصي ماحِقَةُ النِّعَم، وجالبة العقوبات

فقابلوها بالكفر بدل الشُّكر، وبالمعصية بدل الطّاعة فعاقبهم اللّه ﷻ بِعِقابٍ مِن الجوع والخوف تمكَّن منهم، وأحاط بهم إحاطة اللِّباسِ بِلابِسِهِ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والمعاصي"[1].

"ولقد جاء إلى أهل هذه القرية رسول من جنسهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأمرهم بطاعة اللّه وشكره، ولكنَّهم كَذَّبوه، وأعرضوا عنه ... فكانت نتيجة تكذيبهم السَّريع لنبيهم أنْ أخذهم العذاب العاجل الَّذي استأصل شأفتهم، والحال أنَّهم هم الظّالمون لأنفُسهم؛ لأنَّ هذا العذاب ما نزل بهم إلّا بعد أنْ كفروا بِأنْعُمِ اللّه، وكذَّبوا رسولَه"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في مطلع الآية:

السَّعيدُ مَن وُعِظَ بغيره

الواو في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ إمّا أنْ تكون استئنافية[3]، باعتبارِ استئناف ذِكر معنى جديد، وهو ضرب القرية مثلًا للنّاس، وإمّا أنْ تكون عاطفة، "عطفُ عِظَةٍ على عِظَةٍ، والمعطوف عليها هي جُمَلُ الامتنان بِنِعَم اللّه تعالى عليهم من قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: 53]، وما اتَّصل بها إلى قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ [النحل: 83]، ويجوز أنْ يكون المعطوف عليها جملة ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾"[4]، وهكذا يصرِّف اللّه تعالى لهم الآيات، ويعدِّدُ لهم العِظات؛ لعلَّهم يعتبرون، فيتَّعِظون، ولا يسقطون، فيعاقبون عقابَهم، "والسَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ"[5].

براعةُ استعمال مادّة الضرب:

قوَّة المَثَل راسخة في ذهن المُعْتَبِرِ

أصلُ الضَّرْب إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ، والضَّرْبُ مأخوذٌ من ضَرْبِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/ 688.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 248.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 375.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 303.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 2/ 512.

الدَّراهمِ، وهو ذِكر شيءٍ أثرُه يظهَر في غيره[1]، والآية الكريمة استعملت الفعل ﴿وَضَرَبَ﴾ في معنى: ساق، وبيَّن، وحكى؛ فحقَّقَتْ بِذلك براعةَ الاستهلال الجاذبِ نحوَ الانتباه والتَّركيز على تفاصيل هذا المَثَل الفاعل في النُّفوس؛ فإنَّ الضَّرب من شأنه أنْ يترك أثرًا في المضروب.

فالمقصود بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً﴾ "أيْ: جَعَل[2] القرية التي هذه حالُها مَثَلًا لِكُلِّ قوم أنْعَمَ اللّهُ تعالى عليهم، فأبْطَرَتْهُمُ النِّعْمَةُ، فكفروا وتولَّوا، فأنزل اللّه ﷻ بهم نقمته، فيجوز أنْ تُراد قريةٌ مقدَّرَةٌ على هذه الصِّفة، وأنْ تكون في قرى الأوَّلين قريةٌ كانت هذه حالُها، فضربها اللّه تعالى مثلًا لِمَكَّةَ إنذارًا من مثل عاقبتها مُطْمَئِنَّةً لا يُزْعِجُها خوفٌ"[3].

"ويجوز أنْ يكون ﴿وَضَرَبَ﴾ مُستعملًا في معنى الطَّلَبِ والأمر، أيْ: اضرب يا محمَّد لِقَوْمِك مثَلًا قرية إلى آخره"[4]؛ بُغْية أنْ يتَّعِظوا.

نكتةُ ذِكرِ المسند إليه:

المَثَلُ مِن الجليل عظيمُ الخطَر جليلُ القَدْرِ

آثرَ النَّظْمُ الكريم صياغةَ الفعل ﴿وَضَرَبَ﴾ مبنيًّا للفاعل في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ دون أنْ يَبْنِيَهُ للمفعول، كأن يقول: (ضُرِبَ مثَلٌ) وذلك لتعظيم هذا المَثَل؛ بإسناده مباشرة إلى الاسم الجليل، فإنَّه مَثَلٌ يجمع بين حالين ضِدَّيْنِ خطيرين، تَرَتَّبَ وقوعُ ثانيهما على الإخلال بحقِّ أوَّلِهما.

فقد آلَ حالُ القرية - محلِّ التَّمثيلِ - الآمنة، المُطْمَئِنَّة، التي يأتي أهلَها رزقُهم رغدًا من كلِّ مكانٍ إلى مُقاساتهم تَجَرُّعَ مرارةِ الجوع ومعاناتهم شظف العيش؛ بسبب إخلالهم بشكر المُنعِم ﷻ،

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 505، 506.
(2) "ولذا عُدِّيَ إلى مفعولين"، يُنظر: طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 246.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/ 638.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 304.

وتكذيبِ رسولهم المُرْسَل إليهم بما يسعدهم دنيا وآخرة، و"صيغ في صيغة الخبر توسُّلًا إلى إسناده إلى الله تعالى تشريفًا له وتنويها به، وليفرق بينه وبين ما صيغ بصيغة الطلَب نحو: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: 13]"[1].

بلاغة صياغة المسنَد ﴿وَضَرَبَ﴾ فعلًا ماضيًا:

سُنَّةُ الله في خلقه مُحَقَّقةٌ لا تتخلَّف أبدًا

جاء "التَّعبير عن ضَرْب المثَل الواقع في حال نزول الآية بصيغة الماضي ﴿وَضَرَبَ﴾ للتَّشويق إلى الإصغاء إليه، وهو مِن استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه، مِثْل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 1] أو لتقريب زمن الماضي من زمن الحال"[2]؛ "فيُجعَل كالإخبار عن أمرٍ حصل؛ لأنَّ النُّفوس أرغبُ في عِلمه، كقول المُثَوِّب: قد قامت الصَّلاة، وفيه التَّنبيهُ على أنَّه أمر محقَّق الوقوع"[3].

بلاغة المجاز وتنوُّعه:

شكرُ النِّعَم يُنادي على الرَّخاء، وكُفْرُها يُنادي على الشَّقاء

أثبت الذِّكْرُ الحكيم في المَثَل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ تلك الصِّفات ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ و﴿فَكَفَرَتْ﴾ إلى لفظ الـ ﴿قَرْيَةً﴾، بينما المقصود بتلك الصِّفات المتعدِّدة والمتباينة أهلُها؛ ذلك أنَّ القرية لا تَعقِل، ولا تُكَلَّفُ، ولا تُجازى بثوابٍ أو عقابٍ؛ وعليه فقد أراد بـ "الضَّمائر كلِّها أهلَ القرية، فقد كفروا بأَنْعُم الله ﷻ في ذلك، وفي جُملة الشَّرع والهداية"[4]، وعلى هذا يكون المجاز بحذف المضاف، أو أنْ نحمله على المجاز المُرسل، وعلاقته "المحليَّة؛ إذ أَطْلَقَ المحلَّ وأريد الحال"[5].

وتَكْمُن بلاغةُ ضَرْب المَثَل بالقرية دون أهلها - على نوعي المجاز

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 304.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 304.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 399.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 426.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 376.

- في الإيحاء بأنَّ تلك الصِّفات ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ قد تحقَّقت لأهلها، واكتملت لهم، واستتبَّتْ فيهم، حتى كأنَّها فاضتْ منهم على القرية نفسِها؛ وكأنَّها شاركتْهم فيها سعادةً وشقاءً؛ كناية عن بلوغ تلك الصِّفات لهم مبلَغ التَّمام.

سرُّ تنكير ﴿قَرْيَةً﴾ في هذا المثَل:

العِبْرَةُ بعموم المَثَل لا بِخُصوص المُمَثَّلِ به

جاء المَثَل في هذه الآية الكريمة بـ ﴿قَرْيَةً﴾ نكرةً، لأنَّه قُصِد بها قريةٌ غيرُ معيَّنة، ضُرِبَتْ مثلًا لِمَكَّة على معنى التَّحذير لأهلها، ليَحْذَروا أنْ يَقَعوا فيما وقعتْ هي فيه، وجعلت أيضًا مثلًا لغيرها مِن القرى ممّا يأتي بعدها إلى يوم القيامة[1]، مِن كلِّ "قرية كانت على هذه الصِّفة"[2]، "من قرى الماضين التي تعرفونها كقرية هود، أو صالح، أو لوط، أو شعيب عليهم السلام كان حالها كحالهم"[3].

وجعَل المثَل قريةً موصوفةً بصفات تُبَيِّنُ حالَها المقصود مِن التَّمثيل؛ فاستغنى عن تعيين القرية؛ والنُّكتة في ذلك أنْ يَصلُح هذا المَثَلُ للتَّعريض بالمشركين باحتمال أنْ تكون القريةُ قريتَهم، أعني مكَّة بأنْ جعلهم مَثَلًا للنّاس مِن بعدهم[4].

نُكتةُ ذِكرِ القرية على سبيل البدلِ دون العكس:

تشويقُ نفسِ المخاطَبِ أوقَعُ في الفهم وأجلبُ للأفهام

آثرَ النَّظْمُ الكريم ذِكر ﴿قَرْيَةً﴾ على سبيل البدل من ﴿مَثَلًا﴾، فأخَّرها "مع كونها مفعولًا أوَّلَ لِئلّا يَحولَ المفعولُ الثّاني بينها وبين صفتها ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ وما يترتَّب عليها ﴿فَكَفَرَتْ﴾، ﴿فَأَذَاقَهَا﴾، إذ التَّأخيرُ عن الكُلِّ مُخِلٌ بتجاذُب أطرافِ النَّظْم وتجاوُبِها.

ولأنَّ تأخير ما حقُّه التَّقديمُ ممّا يورث النَّفْسَ ترقُّبًا لِوُرودِه، وتَشَوُّقًا إليه لا سيَّما إذا كان في المُقدَّم ما يدعو إليه، فإنَّ المَثَلَ ممّا

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 426.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 194.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 264.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 304.

يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوالِ ما هو مَثَلٌ؛ فيَتَمَكَّنُ المُؤَخَّرُ عند ورودِه لديها فضلَ تمكنٍ"[1].

بلاغةُ الوصف بالماضي: ﴿كَانَتْ﴾:

تنزلُ العقوبات عند تمكُّنِ النِّعم ورسوخ الغفلة

ابتداءُ جملة الصِّفة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ بالفعل الماضي ﴿كَانَتْ﴾ أيْ: "كانت تعيش في أمانٍ لا يَشوبُه خوفٌ، وفي سُكونٍ واطمئنان لا يخالطهما فزعٌ أو انزعاجٌ"[2]، والماضي يُفْصِح عن تَحَقُّق تلك الصِّفات الطَّيبة لها، ويُقرِّر تَمَكُّنَ تلك الصِّفات الهانئة فيها، وأنَّ أهلها كانوا يَتقلَّبون في النَّعيم الحسّيِّ والأمان الرّوحيِّ، لا يُنغِّص عليهم الحياةَ شيءٌ أيُّ شيءٍ.

فإذا كانت تلك حالَهم من الرَّغَد والسَّعادة، ثمَّ تَمرَّدوا على المُنعِم ﷻ بِجُحود نِعَمِه، وتكذيبِ رُسله؛ فقد استوجبوا الذَّمَّ، واستحقّوا العِقاب، وباؤوا بالخُسران المُبين.

بلاغةُ المجاز العقليّ:

وفــرةُ النِّعم تظهر في القريةِ كُلِّها فتوصَفُ بها دون أهلها

وُصِفت القرية بصفتَي الأمنِ والاطمئنان في قوله: ﴿ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ من باب المجاز العقلي؛ إذ إنَّ القرية بُقْعَةٌ من الأرض - بما عليها من أبنية ومرافقها - لا تشعر بأمن ولا طُمأنينة ولا بفزع، وإنَّما يشعر بالأمن والطَّمأنينة أو الفزع أهلُها لا هي، والَّذي سوَّغ زحزحة تلك الأوصاف من أهل القرية إلى القرية نفسها "أنَّها مكان الأمن، وظرفٌ له، والظُّروف من الأزمنة والأمكنة توصَف بما حَلَّها، كما يقال: طيِّبٌ وحارٌّ وبارد"[3].

ومن بلاغة ذلك الإيحاءُ بأنَّ تلك الصِّفاتِ قد تمَّتْ لأهل القرية، وتكاثفتْ عليهم، وفاضت حتَّى عمَّتْ القرية كلَّها، كنايةً عن وفْرَتها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 144.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 246.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 279.

لأهلها، وذلك مما يعكس شُؤْمَ صنيعهم من الكفر والجُحود، وتكذيب رسولهم ﷺ، ممّا تسبَّب في انقلاب أحوالهم إلى أضداد تلك الصِّفات من الخوف وأهواله.

وبلوغُ تلك الصِّفات لأهل القرية يدُلُّ دلالة قاطعة على فساد نفوسهم، وعِظَم جُرمهم، واستحقاقهم أن يكون عقابهم عِبرةً لغيرهم، ومثَلًا يخوِّف اللّه تعالى به مَن تُسَوِّلُ لهم نفوسهم استقبال أنعُم اللّه تعالى بالجُحود والكفران.

بلاغةُ الجمع بين لفظي الأمن والطّمأنينة:

الأمـــنُ أصـل العـافـيـة والطّمأنينة ثمرتها العالية

جمَع النَّظْمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ بين الأمن والطَّمأنينة مراعاةً لجمع النَّظير مع نظيره والشَّبيه إلى شبيهه؛ لأنَّ الأمن والطَّمأنينة بعضهما من بعض؛ ولأنَّه لا يحصل للعبد ثانيهما إلّا بحصول الأوَّل؛ لذا جمَع بينهما الذِّكرُ الحكيم أسبابًا لِهناءة أهل تلك القرية المَضْروبَة مثَلًا هنا.

و"أمن القرية أنَّ أهلَها آمنون لا يتفاوزون كالبوادي"[1]، و"لا يُغار عليهم، مطمئنَّة قارَّة ساكنة بأهلها؛ لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوفٍ أو ضيق"[2]؛ وكان ذلك في إبّان نزول القرآن الكريم مُتحقِّقًا لأهل مكَّة؛ "لأنَّ العرب كان يُغيرُ بعضهم على بعض، أمّا أهل مكَّة فإنَّهم كانوا أهل حَرَم اللّه تعالى، والعرب كانوا يحترمونهم، ويَخُصّونهم بالتَّعظيم والتَّكريم"[3].

فكان ينبغي على أهل مكَّة أنْ يَلتفتوا إلى حِكمة ذلك المَثَل بقوَّة، وأنْ يُؤَثِّر فيهم بقوَّة، كما يجب أنْ يَلتفت إليه كلُّ مَن أوتي نعمةً مِن نِعم اللّه تعالى بقوَّة، وأنْ يتأثَّر به بقوَّة، وبخاصَّة نِعمة الأمن والطَّمأنينة بكلِّ لوازمها، والعقلاء قالوا:

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 218.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 88.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 279.

ثَلاثَةٌ لَيْسَ لَها نِهايَةٌ *** الأمنُ والصِّحَّةُ والكِفايَةُ[1]

سرُّ تقديم الأمن على الطّمأنينة:

الأمن توطئةٌ الطّمأنينة، فإذا غاب حضر الخوف والحُزن

قَدَّم النَّظمُ الكريم الأمنَ على الطَّمأنينة في جملةِ صفةِ القرية ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ لأنَّ الأمنَ أهمُّ أمرٍ خارِجيٍّ عن الإنسان، والطَّمأنينة أمرٌ داخليٌّ فيه، ولا يتحقَّق الدّاخليُّ إلّا بتوفُّر الخارجيِّ.

فالأمن ما يَبحث عنه النّاس أوَّلًا في هذه الحياة الدُّنيا، فإنْ تَحقَّق سَهُل احتمالُ فقدانِ ما دونه من بقيَّة أسباب السَّعادة والهناءة، أمّا إنْ فُقِد الأمن فلا قيمة لشيءٍ سواه من تلك الأسباب.

ويلتقي مع ذلك التَّرتيب ما ورد في الحديث الشَّريف بخصوصه؛ إذ يُقدِّم الرَّسول ﷺ الأمن أيضًا، فيقول: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُم آمِنًا في سِرْبِه، مُعافًى في جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قوتُ يَوْمِهِ - فكَأنَّما حيزَتْ لَهُ الدُّنْيا"[2].

وإلى ذلك فـ "الاطمئنان أثرُ الأمن ولازِمُه؛ من حيثُ إنَّ الخوف يوجب الانزعاج، وينافي الاطمئنان"[3]؛ إذ "الأمنُ: السَّلامةُ من تَسَلُّط العدو، والاطمئنانُ: الدَّعَةُ وهُدوءُ البال. فقُدِّم الأمنُ على الطَّمأنينة إذ لا تحصل الطَّمأنينة بدونه"[4].

بلاغةُ اختلاف الصِّيغتين ﴿مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ و﴿يَأۡتِيهَا﴾:

مِنَ النِّعم ما يلزم دوامها، ومنها ما يفتقر النّاس إلى تجدُّدها

جاءت جملةُ الصِّفة ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ فعليَّة مخالِفةً في السَّبْك اللُّغويِّ لِجُملة الصِّفة الأولى ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾، فقد جاءت الأولى اسميَّةً، وجاءت الثّانية فعليَّة، مع أنَّ كلًّا مِن ﴿ءَامِنَةٗ﴾، و﴿مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾، و﴿يَأۡتِيهَا﴾: أخبارٌ.

لكن دِقَّة النَّظْم الكريم اقتضتْ في الصِّفة الثّانية ﴿يَأۡتِيهَا﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 279.

(2) الترمذي، سنن الترمذي، الحديث رقم: (2346).

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 477.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 305.

"تغيير سبكها عن الصِّفة الأولى لِما أنَّ إتيانَ رزقِها متجددٌ، وكونَها آمنةً مطمئنَّةً ثابتٌ مستمرٌّ"[1]، وتَجدُّدُ الرِّزْقِ يوحي بتنوُّعه أيضًا، وثباتُ الأمن والطَّمأنينة يَعني دَوامَ راحةِ البال، وكلُّ ذلك يحقِّق الحياة السَّعيدة الهانئة الخالية من المنغِّصات.

بلاغة إسناد الإتيان إلى الرِّزق:

بيانُ يُسْرِ العيش وسَعَةِ الرِّزْقِ

وصَف اللّه تعالى القرية بإتيان الرِّزْقِ على الحال المَذْكورَة؛ وذلك لأنَّ "الإتيانَ مَجيءٌ بسهولة"[2]؛ ففي جملة ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا﴾: "بيانٌ لِسَعَةِ عيْشها، أيْ: يأتيها ما يحتاج إليه أهلُها واسعًا لَيِّنًا سهلًا"[3]، "يُجلَب إليها من كلِّ بلدٍ، كما قال اللّه تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: 57]"[4].

وفي إسناد الإتيان إلى الرِّزْقِ مجاز عقليٌّ؛ إذ الرِّزْقُ لا يأتي مِن تلقائه إلى أهل القرية، وإنَّما يُؤتَى به إليهم فيها، لكن الرِّزْقَ - وقد قَضى به الرَّزّاق ﷻ، وكتبه لهم - كأنَّه تعلَّق بهم؛ فيأتي إليهم اندفاعًا، ولِأيسر الأسباب، دون كَبيرِ كُلْفَةٍ، أو ثَقيلِ سَعْيٍ.

تَوْجِيهُ المَخْصوصِ بالذِّكْرِ ﴿رِزۡقُهَا﴾:

أنواعُ الرِّزْقِ لا تنحصر، وضامِنُها شُكْرُ الرَّزّاقِ

"حقيقة الرِّزْقِ: ما به النَّفْعُ، ويُطلَق على الطعام"[5]، فقوله تعالى: "﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا﴾ فيه وجهان: أحدُهما: أقواتُها، الثّاني: مرادُها"[6]؛ وبذلك يجتمع للقرية وأهلِها تَوافُر أَسْبابِ النَّعيم كلِّها، من الأمن والطَّمأنينة، والطَّعام تفصيلًا، ومن كلِّ ما يُحْتَمَلُ أنْ يُريده أهل القرية إجمالًا.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 145.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 60.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 246.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 88.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 271.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 217.

وبهذا يتحقَّق للأسلوب التَّدرُّج من التَّفصيل إلى الإجمال؛ إذ الرِّزْقُ بهذا التَّأويل "مرادُها" يتَّسع لكلِّ ما سَبَقَ وزيادة؛ فالأمن رزقٌ، والطَّمأنينة رِزْقٌ، والطَّعام رِزْقٌ، والوئام بين أهل القرية رِزْقٌ، وخصَّ الرِّزْقَ بالذِّكر للفتِ الأنظار إلى صفة الرَّزاقِ سبحانه، وإلى أنَّ كلَّ ما أتاها من نِعَمٍ لا تُحصى ولا تُعدُّ راجعة إلى المُنعم سبحانه.

بلاغةُ تقييد إتيان الرِّزْقِ بـ ﴿رَغَدًا﴾:

من رَغَدِ العَيْشِ تَوافُرُ الأمنِ والطَّمأنينة دون عَكْسٍ، فهو غاية الغايات

جاء تقييدُ الإتيان بالرِّزْقِ بالحال ﴿رَغَدًا﴾ مُتَمِّمًا لذِكرِ الأمن والطَّمأنينة المذكورَيْنِ قبله، وفي ذلك التَّرتيب تسلسُلٌ تصاعُديٌّ؛ إذ لا رَغَدَ إلّا بعد توافُرِهما، أمّا هما فقد يتحقَّقان بدونه، فقد يأمن العبد ويطمئنُّ وفي عَيْشِه بعضُ شَظَف، ففي النَّص على ذِكر الرَّغَد بيانٌ لدرجة النَّعيم إلى أعلاه.

ومعنى ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ أيْ: كثيرًا واسعًا، وافرًا، طيبًا هنيئًا، سهلًا، لا عناء فيه ولا تقتير[1]، و"تَيْسيرُ الرِّزْقِ فيها من أسباب راحة العيش"[2]، التي به تَكْتَمِلُ عليهم، وفيهم مع السَّببين السّابقين سُبُلُ النَّعيم؛ فـ "الآية الكريمة قد تضمَّنت أمهات النِّعَمِ: الأمان والاطمئنان ورغد العيش"[3].

معنى حرف ﴿مِّن﴾:

كَثْرَةُ الرِّزقِ لا تمنع العقوبة ولا ترفع العذاب

تقييد إتيان رِزْقِ القرية بالجارِّ والمجرور ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾، يُشيرُ إلى ابتداء غاية ذلك الإتيان؛ ممّا يجعل تلك القرية مَصَبَّ الرِّزْقِ الآتي من كلِّ مكانٍ في الأرض، وذلك يَتَناسَبُ مع قوله تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: 57] في توجيه المَثَلِ نَحْوَ مكَّة المكرَّمة؛ فهي المركز الَّذي يَطوفُ به النّاس، وتدور به وحوله الأرض، أي: ﴿كُلِّ مَكَانٖ﴾.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 585، والماوردي، النكت والعيون: 3/ 218، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 432، 14/ 305.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 305.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 247.

ففي ذلك القَيْدِ ﴿مِن كُلِّ﴾ بيانٌ لعُلوِّ قَدْرِ القرية، المَضْروب بها المَثَلُ، وذلك لن ينفع أهلَها إنْ كفروا بِأَنْعُم اللّه تعالى، وإنْ كذَّبوا رسوله ﷺ؛ فتلك سُنَّةُ اللّه تعالى في خَلْقه؛ فلْتَحْذَرِ المُجتَمعات المُنَعَّمَةُ من كُفْرانِ النِّعْمَةِ، وعدم القيام بشكر مُنْعِمِها ﷻ.

دلالة التَّعبير بصيغةِ العموم ﴿كُلِّ﴾:

كَثْرَةُ النِّعَمِ تقتضي الشُّكر لا الكفر

في النَّصِّ على لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾ قطْعٌ بأنَّ الأرزاق تُنقل إلى تلك القرية "من كلِّ بلدٍ، وتُحمَل إليها من كلِّ مكان برًّا وبحرًا"[(1)]، فإنْ كان المقصود بها مكَّة على وجه الخصوص، فالسَّبب في ذلك "إجابة دَعْوَةِ إبراهيم ﷺ، وهو قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: 37]"[(2)]، وقد يكون العموم في "﴿كُلِّ مَكَانٖ﴾ بمعنى من أمكنةٍ كثيرة، و﴿كُلِّ﴾ تُسْتَعْمَلُ في معنى الكثرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾ [الأنعام: 25]"[(3)].

وذلك العموم يتآزر مع عناصر التَّركيب على بيان وفْرَةِ أسباب النَّعيمِ؛ ممّا كان يقتضي من أهل القرية شُكْرَ المُنْعِم ﷻ لا كفره وتكذيب رَسوله ﷺ.

نكتةُ ذِكر ﴿مَكَانٖ﴾ دون (بَلَد):

المكان يَعُمُّ المَسْكونَ وغيره بخلاف البَلَد

في إيثار لَفْظِ ﴿مَكَانٖ﴾ دون (بَلَد) تآزُرٌ بَيِّنٌ مع دلالة لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾؛ إذِ المكان "المَوْضِعُ"[(4)] مُطلقًا؛ فيشمل بقاع الأرض وجهاتها كلّها حقيقة، أمّا التَّعبير بـ (كل بلد)، فيُشَكِّلُ بقاع الأرض تجوُّزًا، وقوله "﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ يعني منها بالزِّراعة، ومن غيرها بالتِّجارة؛ ليكون اجتماع الأمرين لهم أوفرَ لِسكَنهم وأعمَّ في النِّعمة عليها"[(5)].

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/ 688.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 279.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 306.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مكن).
(5) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 218.

فلمّا قال ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ دلَّ على أنَّ الأرزاق تأتي من الأماكن المسكونة وغير المسكونة، وهذا أليق بالعموم المناسب للمَثَل.

معنى الفاء ودلالتها في جملة: ﴿فَكَفَرَتْ﴾:

الطُّغيان سبب زوال النِّعم

أفاد حرف الفاء ﴿فَكَفَرَتْ﴾ معنى السببيّة، إذ "لمّا كانت السَّعَة تَجُرُّ إلى البَطَر غالبًا نبَّه تعالى لهم ذلك بالفاء فقال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ﴾"[1]؛ ويمكن أن تكون الفاء للترتيب الزمني، فـ "اقتران الفعل ﴿فَكَفَرَتْ﴾ بِفاء التَّعقيب بعد جملة: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ باعتبار حصول الكُفر عقِب النِّعم الَّتي كانوا فيها حين طرأ عليهم الكُفر، وذلك عند بعثة الرَّسول ﷺ إليهم"[2]، ففيه بيان سرعة الكفر بعد كَثرة النِّعم، فهو تحذيرٌ عظيم من الوقوع فيه.

والمقصود بِكُفْر القريةِ النِّعمةَ أنَّها "جحدت آلاء اللّه تعالى عليها، وأعظمُ ذلك بعثةُ محمَّدٍ ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم: 28-29]، ولهذا بدَّلَهم اللّه ﷻ بحالَيْهم الأوَّلَيْن خلافَهما، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾"[3].

توجيه ذِكر الكفر دون الجُحود:

الكُفْرُ أعَمُّ من الجُحود وأغلب في أهل القرية

الكُفْرُ ظُلمةٌ تُغطّي على قلب الكافر وعقله؛ فلا يَسْتَبْصِرُ الفرق بين الحقِّ والباطل، "وأصل الكُفْر التَّغطية على الشَّيْء، السَّتر لَهُ، فكَأن الكافِر مُغَطًّى على قلبه"[4]، أمّا الجُحود "فالإنكار مع العِلْم"[5]؛ وهو وإنْ تأتّى لِكُبَراءِ الكافرين، لم يتأتَّ لِعَوامِّهم، فيكون كُفر الَّذين يعلمون الحقيقة وينكرونها تغطيةً منهم لها، ويكون كُفر الَّذين لا

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 264.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 306.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 608.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كفر).
(5) الجوهري، الصحاح في اللغة: (جحد).

يعلمونها - وإنَّما تابعوا عليه كبارهم - تَغْطِيَةٌ على قلوبهم وعقولهم هم؛ فكان الكُفْرُ أعَمَّ للجميع من الجُحود وأغلب في أهل القرية؛ فآثره النَّظْمُ الكريم هنا والله تعالى أعلم.

فقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ يكون "بِتَرْكِ شُكْره وطاعته، وبأنْ لا يؤدّوا حقَّها من مواساةِ الفقراء وإسعاف ذوي الحاجات"[1]، أو أنَّ أهلها "كذَّبوا النَّبيَّ ﷺ وخالفوا أمرَه"[2].

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنْعُمِ﴾:

يتضاعف جُرْم الكافر عند استعمال النِّعْمَةِ في المعصية

مادَّة الكُفر تتعدَّى بنفسها، فيقال: كَفَرَ النِّعْمَةَ، أيْ أنكرها عن عِلْم بأنَّها نِعمة، أو عن غير عِلْم؛ لذلك تتوجه الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ إلى معنى السببيّة، وتُعطي دلالةَ تَضْمين الفِعْل (كَفَرَتْ) معنى الأفعال: (طغتْ، وبغتْ، وظلمتْ، وتعالتْ، واستكبرتْ)، فلا يَقْتَصِرُ المعنى على عدم شُكْرِ المُنْعِم على تلك الأنعُم، بل استعملوها في معصيته، وتجبَّروا بها، وبَغَوا، فتَضاعَفَ جُرمهم.

ولو جُعِلتِ الباءُ للتعدية، فإنه يمكن أن يُضَمَّن الفعلُ معنى الاستهزاء، أي: (كفرَتِ القريةُ أنعُمَ اللّهِ مُستَهزِئةً بها)؛ فلم يكتَفوا بكفر النعمة وجحودها وإنكارها وعدم شكرها، بل ازدادوا طغيانًا وظلمًا بأن استهزؤوا بها.

أو يُحمَل معنى التعدية في الباء على حذف في المعنى، أي: (كفرتْ بمُنْعِم الأنعُم)، كما اختاره الإمام ابن عاشور رحمه اللّه: "ومعنى الكُفْرِ بأَنْعُم اللّه تعالى: الكُفْرُ بالمُنْعِم ﷻ؛ لأنَّهم أشركوا غيره في عبادته، فلم يشكروا المُنْعِمَ الحَقَّ، وهذا يُشيرُ إلى قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾ [النحل: 83]"[3].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 218.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 88.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 306.

نكتةُ الجَمع على وزن (أفعُل):

التَّنبيهُ بالقليل على الكثير تحذيرٌ للسَّعيد وحُجَّة على العنيد

آثرتِ الآية اختيار صيغة (أفعُل) دون صيَغِ الجموع الأُخرى في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ و"الأنعُم جمع قِلَّة، والمعنى: أنَّ أهل تلك القرية كفرت بِأنْواعٍ قَليلَةٍ من النِّعَم، فعذَّبها اللّه ﷻ، والمقصودُ التَّنْبيهُ بالأدنى على الأعلى، يعني أنَّ كُفْرانَ النِّعَم القليلة لمّا أوْجَبَ العذاب، فكُفْران النِّعَم الكثيرة أوْلى بإيجاب العذاب"[1]؛ فـ "إيثارُ جمع القِلَّة للإيذان بأنَّ كفرانَ نِعمة قليلة حيث أوْجَبَ هذا العذابَ فما ظَنُّكَ بكفران نِعَم كثيرة"[2]، فدلَّت صيغة (أفعُل) الدّالة على القِلَّة على أنَّ القرية كفرت ببعض الأنْعُم، فأذاقها اللّه ما أذاقها، فكيف بمن كفر بِنِعَم اللّه تعالى الكثيرة، فهذا من التَّنْبيه بالأدنى على الأعلى وبالقليل على الكثير.

دلالةُ إضافة الأنعُمِ لِلَفْظِ الجلالة:

يزدادُ ذمُّ الكفر بالتَّصريحِ بكون الأنْعُمِ من الله تعالى

في إضافة الأنْعُم إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ يُضفي عليها عظمةً وجمالًا، ويوجبُ لأجل الأنْعُم شكرَه ﷻ على القرية المنعَم عليها ما لا يوجبه تعريف تلك الأنْعُم بـ (أل)، وفي المُقابلِ فإنَّ هذه الإضافة تزيد من ذمِّ القرية التي كفرت بهذه الأنْعُم، إذ إنَّها لم تكفر بأيِّ أنْعُمٍ، وإنَّما بأنْعُم اللّه الواحد القهّار، ومعنى الإضافة هو حرف مِن، أيْ: أنعمٌ من اللّه تعالى.

معنى الفاء ودلالتها في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا﴾:

كلُّ نِعمَة تُكْفَرُ فـتزول فـإلى نقمة تؤول

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ عاطفة للتَّعقيب[3]، لكنَّه "تعقيبٌ عُرْفيٌّ في مثل ذلك المعقَّب؛ لأنَّه حصَل بعد مُضيِّ زمنٍ عليهم، وهم مصرّون على كفرهم، والرَّسول ﷺ يُكرِّر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 279.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 146.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 375.

الدَّعوة وإنذارهم به، فلمّا حصَل عقِب ذلك بِمُدَّةٍ غيرِ طويلة، وكان جزاءً على كُفرهم، جُعِل كالشَّيءِ المُعقَّبِ به كفرُهم"[1].

وعلى ذلك ففي العطف بفاء التَّعقيب هنا إيحاء بأنَّ نعيمًا تَعْقُبُهُ عقوبةٌ لا قيمة له، وأنَّه مهما تطاول على صاحبه سيُطوَى ولا يبقى له أثر، وإنَّما الَّذي يبقى عليه ألَمُ العقوبة وثِقَل معاناتها، كذلك توحي الفاء بأنَّ "الإجْحاف في إيفاءِ النِّعمَة حَقَّها مِن الشُّكر يُعَرِّضها للزَّوال وانقلاب الأحوال"[2].

بلاغةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

على قَدر فظاعة الكفر يكون عِظم العقوبة

آثَرَ النَّظْمُ الكريم إظهار فاعل الإذاقة في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ﴾ بعد سَبْق ذِكره مضافًا إليه في جملة: ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾، ومُقتضى الظّاهر إضماره، كأنْ يُقالَ: (فكفرت بأنْعُم اللّه فأذاقها لباس الجوع)، ولا مرجع لفاعل الإذاقة حينئذٍ إلّا هذا الاسم الجليل، المضافُ إليه الأنعُمُ.

وتكمن نُكتة الإظهار في إبراز شدَّة الانتقام في العقوبة؛ ذلك أنَّ كفرهم كان ﴿بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ على جلالتها وعظمتها وخطورتها وعُلو قَدْرِها وقيمتها؛ فناسب ذلك أنْ يكون الانتقام مسندًا إلى اللّه تعالى في وضوح وصراحة، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾؛ فكان هذا الانتقام مكافئًا في شدَّته وعظيم خطره وشدَّة وطأته لذلك الكفر الشَّنيع.

بلاغة المجاز العقليّ في إيقاع الإذاقة على القرية:

شُؤم المعاصي يفيض مِنْ أصحابها على مَنْ حولهم

في إيقاع فِعل الإذاقة على القرية في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا﴾ مجازٌ عقليٌّ في النِّسبة الإيقاعيَّة؛ إذ القرية لا تُذاق ولا تذوق، وإنَّما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 306.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 181.

المقصود "أذاق أهلَها"[1]؛ وذلك "بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعُتوِّ عن أمر الله تعالى ورُسله ﷺ.

غير أنَّ الصّورة جاءت بـ "إيقاعِ الإذاقة عليها إرادةً للمُبالغة"[2]؛ وكأنَّ القرية قد عالجت لباس الجوع والخوف مثلهم؛ وعانتْ عقابهم، وكأنَّ شُؤْم صنيعهم المَقيت قد عَمَّ جميع ما حَوالَيْهم مِن البقاع وما عليها من الحيوان والنَّبات والجماد، كما كان كلُّ ذلك ينعم بأنعُمِ الله تعالى أيّام أنْ كانت تأتيهم رغدًا من كلِّ مكان.

براعةُ اجتماع استعاراتٍ فريدة ومعانٍ تليدة:

كُفرانُ الأنْعُمِ يُفاقم على أهله أنواع الضُّرِّ الدّاخليِّ والبؤس الخارِجيِّ

في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾، صورةٌ بيانيَّة بديعة؛ فقد "شُبِّه أثَرُ الجوعِ والخوف وضررُهما المُحيطُ بهم باللِّباس الغاشي لِلّابس؛ فاستُعير له اسمُه وأوقِع عليه الإذاقةُ المُستعارة لِمُطْلَقِ الإيصالِ المُنْبِئَةِ عن شدَّة الإصابة بما فيها من اجتماع إدراكَيْ اللّامسةِ والذّائقة، أو شُبِّهَ أثرُهما وضررُهما من حيث الإحاطةِ بهم والكراهةِ لديهم تارة باللِّباس الغاشي، وأخرى بطعم المرِّ البشعِ الملائم للجوع"[3].

و"الإذاقة: حقيقتها إحساس اللِّسان بأحوال الطُّعوم، وهي مستعارة هنا وفي مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى إحساسًا مكينًا كتمكُّن ذوق الطَّعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعًا... واللِّباس: حقيقته الشَّيء الَّذي يُلْبَسُ، وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنَّه مُسْتَعارٌ إلى ما يَغْشَى من حالة إنسان ملازِمة له كمُلازمة اللِّباس لابسَه.

ولّما كان اللِّباس مُستعارًا لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 194.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 145.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 146.

وملازمته، أُريدَ إفادة أنَّ ذلك مُتَمَكِّنٌ منهم ومُسْتَقِرٌّ في إدراكهم استقرارَ الطَّعام في البطن، إذ يُذاقُ في اللِّسان والحَلْق، ويُحَسُّ في الجوف والأمعاء، فاسْتُعيرَ له فِعْلُ الإذاقة تمليحًا وجمعًا بين الطَّعام واللِّباس؛ لأنَّ غاية القِرى والإكرام أن يُؤَدَّى للضَّيف ويُخْلَعَ عليه خَلْعَةٌ مِن إزار وبُرد، فكانت استعارتان تَهَكُّميَّتانِ، فحصَل في الآية استعارتان: الأولى: استعارة الإذاقة، وهي تَبَعيَّةٌ مُصَرَّحَةٌ، والثّانية: اللِّباس وهي أصليَّة مُصَرَّحَةٌ.

ومن بديع النَّظْم أنْ جُعِلَتِ الثّانية مُتَفَرِّعَةً على الأولى ومُرَكَّبَةً عليها بجَعْل لفظها مفعولًا للَّفظ الأولى، وحصَل بذلك أنَّ الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنَّهم بالغان منهم مبلغًا أليمًا"[1].

وهكذا يتجلَّى أنَّ الصّورة في قول الله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ مُتَكاثِفَةُ الظِّلال، مُتَآزِرَةُ البيان، مُتفرِّدة التَّركيب، وهي - عند التَّحقيق - صورتان استعاريَّتان مدمجتان في صورة: إحداهما تعالج بُؤْسَ المَظْهَرِ، والأُخرى تُبين عن ضُرِّ المَخْبَرِ، وتحت كلٍّ منهما بعد ذلك صوَرٌ بيانيَّة دقيقة، وقد رُكِّبتْ تلك الصّوَر تركيبًا جعلها متعانقة تعانُقًا يعكس تفاقم العقوبات المجتمعة على أهل تلك القرية الكافر أهلُها بِأنْعُم الله تعالى.

ويتَقرَّر ذلك بفكِّ الارتباط بين هاتين الصّورتين الكبيرتين على النَّحو الآتي:

الصّورة الأولى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾، وأصلها: فأذاقها الله مرارة الجوع، وهذه تتعلَّق بمرارة المَخْبَرِ الدّاخليِّ.

الصّورة الثّانية: وكساها الله مرارة الخوف، وأصلها: وكساها الله لباس الخوف، وتلك تتعلَّق بامتِقاعِ المظهر الخارجيِّ.

وقد أبقى النَّظمُ الكريم مِن الصّورة الأولى على الإذاقة والجوع، وحذف منها المرارة، وأبقى مِن الثّانية على اللِّباس والخوف - باعتبار عطفه على المضاف إلى اللِّباس فكأنَّه قيل: لباس الجوع ولباس الخوف - وحذف منها الكسوة.

وبذلك دلَّ على الجميع دَفعَةً، وتمَّم البيان في شكل تركيبيٍّ بديع وتعانُقٍ نظميٍّ فريدٍ، ليس للعربية به قبلَه عهدٌ، ولا يكون إلّا لِلُغَة الذِّكر الحكيم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 303.

والتَّعبير الحقيقي لهاتين الصّورتين: فأذاقها الله تعالى مرارة الجوع - وهذه حقيقة كلُّها -، وكساها الله تعالى رداء الخوف، وفي هذه صورة دقيقة متفاعلة؛ إذ الكُسْوَةُ هنا تشقُّق الجلد، وامتِقاعُ اللَّون، وصُفرة الخوف، وكلُّه ناضحٌ من شدَّة تأثير الدّاخل المأزوم، عامٌّ لكلِّ الجسد كاللِّباس الشّامل.

"ففي الجملة الكريمة تصوير بديع لِما أصابهم من جوع وخوف، حتَّى لكأنَّ ما هم فيه من هُزال وسوء حال، يبدو كاللِّباس الَّذي يَلْبَسُهُ الإنسان، ويجعلهم يذوقون هذا اللِّباس ذوقًا يحسّون أثره إحساسًا عميقًا"[1].

وهكذا تعانقت الصّور، وتآزر البيان في غير مُعاظَلَةٍ ولا تعقيد، فتَكاثَفَتِ الظِّلال الكاشفة عن شدَّة وطأة العقوبات المنوَّعة، المتضافرة على إرهاق القوم الَّذين كفروا بأنعُم الله تعالى.

بلاغةُ القرآن في استعارة اللِّباس للذَّوق:

دقَّةُ النَّظم لا تخضع لمنطق الصِّناعة ولا لرياضة المنطق

ربّما يَعرِضُ تساؤل: "اللِّباس لا يُذاقُ بل يُلْبَسُ، والواجب أنْ يُقالَ: فكساهم الله لباس الجوع، أو يُقالَ: فأذاقهم الله طعم الجوع، والجوابُ مِن وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّ الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان، **أحدهما**: أنَّ المَذوقَ هو الطَّعم، فلمّا فقدوا الطَّعام، صاروا كأنَّهم يذوقون الجوع، **والثّاني**: أنَّ ذلك الجوع كان شديدًا كاملًا، فصار كأنَّه أحاط بهم من كلِّ الجهات، فأشبه اللِّباس، فالحاصل أنَّه حصل في ذلك الجوع حالة تُشْبِهُ المَذوقَ، وحالة تُشْبِهُ المَلْبوسَ، فاعْتَبَرَ الله تعالى كِلا الاعتبارين، فقال: فأذاقها الله لباس الجوع والخوف.

الوجه الثّاني: أنَّ التَّقدير أنَّ الله عرَّفها لباس الجوع والخوف،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 247.

إلّا أنَّه تعالى عبَّر عن التَّعريف بلفظ الإذاقة، وأصل الذَّوْقِ بالفم، ثمَّ قد يُسْتَعارُ فيوضَعَ مَوْضِعَ التَّعرف وهو الاختبار ... ولباس الجوع والخوف هو ما ظهر عليهم مِن الضُّمورِ وشحوب اللَّون ونَهْكَة البدَن وتَغيُّرِ الحال وكسوف البال.

الوجه الثّالث: أنْ يُحمَل لفظ اللُّبس على المُماسَّةِ، فصار التَّقدير: (فأذاقها الله مساس الجوع والخوف)"[1].

قال الآلوسي: "وإنَّما لم يَقُلْ: (فكساها) إيثارًا للتَّرشيح لِئلّا يفوت ما تفيده الإذاقة من التَّأثير والإدراك وطعم الجوع؛ لِما في اللِّباس مِن الدّلالة على الشُّمول"[2].

و"اللِّباس: هو ما يستر وجوه الجواهر، ألّا ترى أنَّه سَمَّى اللَّيل لباسًا؛ لَمّا ستر وجوه الأشياء؛ فعلى ذلك الجوع يرفع السَّتر واللِّباس الَّذي كان قبل الجوع؛ لأنَّ الجوع إذا اشتدَّ غَيَّرَ وجه صاحبه، ورفع سَتْرَهُ، والجوع: ما ذكر أنَّه أصابهم جوع حتَّى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المُحْرَقَةِ"[3]؛ فـ "جعل الجوع والخوف لباسًا على التَّجسيم والتَّشبيه تصويرًا له، وذلك بحسب ما يقولون: تدرَّع فلان الفقر"[4]، قالوا: "إنَّ القحط بلَغ بهم إلى أنْ أكلوا القِدَّ والعِلْهِزَ، وهو الوبر يُخْلَطُ بالدَّم، والقِدُّ أديمٌ يُؤْكَلُ، قاله ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة"[5].

فقد "شبه ما يغشى الإنسان ويَتَلَبَّسُ به من أثر الجوع والخوف باللِّباس الحقيقيِّ، والجامع: كونهما مشتَملين على الإنسان وغاشيين له، ثمَّ أطلق اسم اللِّباس على ما يغشى الإنسان من أثرهما، وجعل إضافته إليهما قرينة مانعة عن إرادة الحقيقة، فهي استعارة مُصَرَّحَةٌ أصليَّة تحقيقيَّة؛ لكون المُشَبَّهِ المَتْروكِ عقليًّا"[6] يكشف ما "ظهر عليهم من سوء آثارهم بِالضَّمَرِ والشُّحوب، وتَغَيُّرِ الحال"[7].

بلاغة المقابلة بين صورتي النَّعيم والعذاب:

تَبْدو براعة النَّظْمِ الكريم غيرَ متناهية في الجمع بين تلك الصّورة الأليمة بعد كُفر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 280، وما بعدها مختصَرًا.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 477.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 585.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 735.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 218.
(6) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 9/ 210.
(7) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 88.

النِّعم إن شُكرت بقيتْ وإن كُفرت فرَّت وفرارها ألمٌ لا يزول

أهل القرية بأنعُم اللّه تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾، وبين صورة النَّعيم قبل كفرهم بأنعُم اللّه تعالى: ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

فصورة النَّعيم بتفاصيلها ودقائقها تُبين عن غاية الغايات في تحقُّق الأمن الغذائيِّ، والسَّلام الاجتماعيِّ، والأمان الرّوحيِّ، وغيرها من أسباب السَّعادة، بينما تكشف صورة العقاب - بتفاصيلها أيضًا - عن شدَّة البؤس وكمال الضُّرِّ الَّذي عاناه القوم داخلَ أبدانهم وخارجها.

وتلك المفارقة بين أَنْعَمِ حياة وأَبْأَسِ حياة في هذه الدُّنيا هي التي تكشف اتِّساع الهوَّةِ بينهما، وتَزيد كلًّا منهما في بابها تمامًا؛ فتُرغِّب في شُكْرِ أَنْعُم اللّه تعالى، وتخوِّف من كفرانها، وتَضْمَنُ تأثُّر العباد واتِّعاظهم بمآل القوم الكافرين.

سرُّ تقديم الجوع على الخوف:

تقديمُ ما له حُكم السَّبَبِ على ما له حُكم المُسَبَّبِ

قُدِّم ذِكر الجوع على الخوف في قوله تعالى: ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ "لكونه أنسبَ بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرِّزقِ"(1)؛ ولأنَّ الجوع يُعدُّ إحدى مقدِّمات الخوف، فإذا وقع الجوع في قريةٍ، فإنَّ الخوف يتطرَّق إليهم من كلِّ جانب، فقُدِّم ما له حُكم السَّبب على ما له حُكم النَّتيجة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: 4].

براعة فنِّ الاحتباك:

صورُ القرآن الكريم مُتفرِّدة في تراكيبها ونَشْر ظلالها

جَليٌّ أنَّ الصّورة في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ مُتكاثِفَةُ الظِّلال، متآزرة البيان، مُتفرِّدة التَّركيب، وهي - عند التَّحقيق - صورتان استعاريَّتان مُدمجتان في صورة:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 145.

إحداهما تعالج بؤس المظهر، والأُخرى تُبين عن ضُرِّ المخبر، وتحت كلٍّ منهما بعد ذلك صوَرٌ بيانيَّة دقيقة.

ويتقرَّر ذلك بفكِّ الارتباط بين هاتين الصّورتين الكبيرتين على النَّحو الآتي: الصّورة الأولى: فأذاقها اللّه لباس الجوع، وأصلها: فأذاقها اللّه مرارة الجوع، وهذه تتعلَّق بمرارة المخبر الدّاخليّ.

الصّورة الثّانية: وكساها اللّه مرارة الخوف، وأصلها: وكساها اللّه لباس الخوف، وتلك تتعلَّق بامتِقاع المظهر الخارجيِّ.

وقد أبقى النَّظْمُ الكريم من الصّورة الأولى على الإذاقة والجوع، وحذف منها المرارة، وأبقى مِن الثّانية على اللِّباس والخوف - باعتبار عطفه على المضاف إلَى اللِّباس فكأنَّه قيل: لباس الجوع ولباس الخوف - وحذف منها الكسوة، فجاء "ذلك على تقدير كلامين، كأنَّه قيل: أذاقها الجوع والخوف وألبسها لباسهما"[1]، وبذلك تحقَّق الاحتباك البلاغي البديع في دَمج الصّورتين.

وفضيلة ذلك الاحتباك أنَّه دلَّ على الجميع دَفعَةً، وتمَّم البيان في تَعَثْكُلٍ تركيبيٍّ بديع وتعانُق نظميٍّ فريد، يعكس تفاقُم العقوبات المجتمعة على تلك القرية، الكافر أهلُها بِأنْعُم اللّه تعالى، وليس للعربيَّة بمثل ذلك التركيب المُحتبِك عَهْدٌ، ولا يكون إلّا لِلُغَة الذِّكر الحكيم.

والتَّعبير الحقيقيُّ لهاتين الصّورتين: فأذاقها اللّه تعالى مرارة الجوع - وهذه حقيقة كلّها -، وكساها اللّه تعالى رِداءَ الخوف، وفي هذه صورة دقيقة متفاعلة؛ إذ الكسوة هنا تشقُّق الجلد، وامتِقاعُ اللَّون، وصُفرة الخوف، وكلّه ناضحٌ من شدَّة تأثير الدّاخل المأزوم، عامٌّ لكلِّ الجسد كاللِّباس الشّامل.

معنى التَّعريف في لفظي ﴿ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾:

تعريف ﴿ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ يوحي بأنَّهما البالغان في بابهما في العقوبة مبلغًا لا مزيد عليه؛ ذلك أنَّهم كفروا ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾، ومَنِ ارتكب تلك الخطيئة كان حقيقًا بأنْ يُشقيه اللّه

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 9/ 209.

الجوعُ والخوف معنيان كلّيّان يدخل فيهما جميع الفروع

تعالى بالجوع المُؤلِم، ويشمله في البؤس المُدْقِع، وهَذانِ اللَّفظان يدخل فيهما جميع صور الجوع والخوف، ممّا يعرفه المخاطَب، ومن ذلك "الخوف: ما ذُكر أنَّه بعث رسول اللّه ﷺ إليهم؛ ألا ترى أنَّه قال: "وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ"، وقيل: الخوف: القتل"[1]، وأنَّ الخوف "من السَّرايا التي كان يبعثهم إليهم فيطوفون بهم"[2].

معنى الباء ودلالتها:

عــذابُ اللّـه تعالى لا يكون إلّا بسبب صنيع ابن آدم

الباء في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ "حرفُ جرٍّ للسَّببية، أيْ: بسبب صنعهم أو بسبب الَّذي كانوا يصنعونه"[3]، فهو صريح في أنَّ السَّبب المُباشر لنزول تلك العقوبة المؤذية للبواطن والظَّواهر: الجوعُ والخوفُ بأهل القرية - إنَّما هو كفرهم بأنعُم اللّه تعالى.

فجاءت أداة السَّبَبيَّةِ هنا صَريحَةً مُباشِرَةً لِزيادة البيان التَّحذيريِّ للمُتلقّي - أيّا كان - من اقتراف ذلك السَّبب - الكفر بنِعمة اللّه تعالى؛ لأنَّه الجالب المُؤكَّد لعقوبة إذاقة لباس الجوع والخوف.

معنى (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾:

احتمال (ما) للموصوليّة والمصدرية

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ "موصولة، والعائد محذوف، أي: يصنعونه، وجوِّز أن تكون مصدريَّة"[4]، أيْ: بصنعهم، والمعنيان مُحتملان، وأنْ تكون موصوليَّة أقوى في الدَّلالة على ديمومة ممارسة الكفر وديدنهم في ذلك، والمصدريَّة صريحة في كون صنعهم هو سبب عذابهم.

دلالةُ استعمال ﴿كَانُواْ﴾:

الإيجاز يقتضي الاستغناء عن الفعل ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 585، والحديث رواه السيوطي، برقم: 15950، جمع الجوامع: 6/ 15.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 88.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 375.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 478.

﴿كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾، ولو قيل: (بما صَنَعوا) لصحَّ في المعنى البليغ، غير أنَّ ذلك الإيجاز يُهْدِرُ دلالةً جليلةً، وهي بيان تَغلغُل جريمةِ صناعة الكُفر بأنعُم اللّه تعالى في سلوكهم وطباعهم التي كانت ديدنهم في كلِّ وقتٍ، فهم كانوا في كلِّ أوقاتهم يصنعون الكفر بِأَنْعُم اللّه تعالى.

الضَّلال المتأصِّلُ في أهـل الكُفر يَـصِـيرُ فيهم سلوكًا مُتقَنًا وسجيَّة راسخة

فالنَّصُّ على الفعل ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ يدلُّ على أنَّه رسَخ في "جِبِلّاتِهم"[1] الَّتي تأصَّلت فيهم "فيما قبلُ، أو على وجه الاستمرار، وهو الكفرانُ المذكور، أُسْنِد ذلك إلى أهلِ القريةِ تحقيقًا للأمر بعد إسنادِ الكفرانِ إليها"[2]، ولـ "الإيذان بأنَّ كفران النِّعَمِ صار صناعة لهم وخُلُقًا راسخًا فيهم"[3].

سرُّ إيثار لفظ ﴿يَصۡنَعُونَ﴾:

صِناعةُ الكُفر دَيْدَنُ المُعذَّبين وسَجيَّة المُعانِدِين

في إيثار مادَّة الصُّنْع دلالة على إتقانهم سلوك الكُفر والعَمدِ إليه، ففي مادة "الصَّنْعَةِ إيذانٌ بأنَّ كفران نِعَمِه ﷻ صار صَنْعَةً راسخةً لهُم وسُنَّةً مسلوكة"[4] منهم.

وفيه دلالة على أنَّ ممارسة الضَّلال جهلًا وبغير عِلْم وبغير عَمدٍ قد يُعفَى عنه، أمّا الصَّنْعَةُ ففيها تكلُّف الكفر، وتعمُّد الضَّلال، بل فيها إتقانهما والتَّفَنُّن فيهما، والعياذ باللّه تعالى من حال أهل النّار؛ فدلَّ هذا الاختيار لهذه المُفردة على أنَّ القوم يصنعون الكفر بِأَنْعُمِ اللّه تعالى فكرًا وإرادةً وطمأنينةً به وسعيًا إليه، وحربًا على من يُخالفهم بشتَّى الأساليب، ومن كانت صناعتُه المَكْرَ، فلا يَحيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلّا بأهله.

نكتةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَصۡنَعُونَ﴾:

في إيثار التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَصۡنَعُونَ﴾ استحضارٌ لِكفرانهم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 266.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 145.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/ 688.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 145.

تَطاوُلُ أهْلِ الضَّلالِ في ضلالِهم يَسْتَوْجِبُ لهم شديد العقاب

بِأَنْعُم اللّه تعالى، حتَّى لَكأنَّه حاضِرٌ مُشاهَدٌ؛ وذلك يُبَشِّعه في نَفْس المُخاطَبِ، ويخوِّفه منه، فيَنْأى بنَفْسه عنه، كذلك في تلك المضارعة ﴿يَصْنَعُونَ﴾ دلالة على تَجدُّد ذلك فيهم، واستمرار وقوعه منهم أزمنة متطاولة؛ ممّا يزيده جُرمًا، ويَسْتَوْجِبُ لأهله إلى العقاب عقابًا.

بلاغةُ حذف مفعول ﴿يَصْنَعُونَ﴾:

كلمةُ الكُفر بغيضةٌ؛ فلا ينبغي للمؤمن ترديدُها

حُذِف مفعول الفعل ﴿يَصْنَعُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ "أيْ مِن الكُفْر والمعاصي"[(1)]؛ لقُرب ذِكره في الآية، وهو ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾.

ثم إنَّ المفعول المحذوف ليس مِنَ الأمور المحبوبة، فيُعاد ذِكرُه، بل هو ممّا يُصان اللِّسان عن ذِكره؛ لأنَّه أخطر المعاصي وأكبر الكبائر، إنَّه كُفْرٌ بالنِّعَم، وجُحودٌ لِحَقِّ الخالِق ﷻ، وتَكْذيبٌ لِرُسُله الكرام عليهم السلام.

نوعُ الواو ودلالتها:

إلحاقُ العقوبة بتعليلها أرسخ في التَّنبيه والتَّحذير

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٌ﴾ استئنافيَّة[(2)]، أو عاطفة[(3)]؛ إذ إنَّ هذه الجملة "من تَتِمَّة المَثَل؛ جيءَ بها لِبَيانِ أنَّ ما فعلوه مِن كُفْرانِ النِّعَم، لم يكن مُزاحمةً منهم لقضية العقلِ فقط، بل كان ذلك معارضةً لِحُجَّة اللّه تعالى على الخَلْق أيضًا"[(4)].

وقد "ظهر جَليًّا أنَّ حال أهل مكَّة أشبهُ بحال تلك القرية في السّوء واستحقاق العذاب، فقد كانوا في حَرَمٍ آمنٍ، ويُتَخطَّف النّاس مِن حولهم، ولا يَمُرُّ ببالهم طيفٌ من الخوف والفزع، وكانت تُجْبَى إليهم فيه ثمرات كلّ شيءٍ رزقًا من لدنه سبحانه؛ استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [البقرة: 126]"[(5)].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 194.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 403.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 178.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 145.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/ 689.

غرضُ التَّوكيد وبلاغته:

تنبيه المخاطَبين وتحذيرهم من مغبَّة أعمالهم

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ﴾ مُؤكَّدًا بأداتي التَّأكيد والتَّحقيق (اللّام)، و(قد)؛ وذلك "للاهتمام بهذا الخبر؛ تنبيها للسّامعين المُعرَّض بهم؛ لأنَّه محلُّ الإنذار"(1).

ويبدو أنَّ الخبر المقصود هنا ليس في مَجيءِ رَسولٍ منهم إيّاهم، ولا في أنَّهم كذَّبوه، وإنَّما في معاقبتهم بأخذ العذاب إيّاهم على غِرارِ خبر إذاقة أهل القرية لباس الجوع والخوف؛ إذ إنَّ أهل مكَّة قد قيسوا بأولئك؛ فكما أذاق اللّه تعالى أهل القرية لباس الجوع والخوف؛ أذاق أهل مكَّة هنا مرارة الجوع ومعاناة الخوف.

نكتة استعمال (المجيء) دون (الإتيان):

مِنْ أعظم نِعَمِ اللّه تعالى على عبادِه إرسال الرُّسل ومكثهم فيهم

استَعمل النَّظْمُ الكريم الفِعْلَ ﴿جَآءَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ﴾ دون الفعل (أتى)؛ لأنَّ "(جاء) يُسنَد إليه الجواهرُ والأعيانُ، وما يُرادُ تجسيدُه من المعاني"(2)، والَّذي جاء هنا هو الرَّسول ﷺ؛ فحُقَّ إسناد المَجيءِ إليه، أمّا الفِعْلُ (أتى)، فيغلب استعماله "في المَعاني والأزمانِ"(3).

وإلى ذلك ففي إسناد المَجيءِ إلى الرَّسول ﷺ في قوله ﴿جَآءَهُمۡ﴾ "دلالة على أنَّ هذا الرَّسول وصل إليهم، وبَلَّغَهُم رسالة ربِّه دون أن يُكَلِّفَهُم الذَّهاب إليه أو البحث عنه"(4)، فكان ينبغي عليهم أنْ يعرفوا له ذلك ويشكروه لا أنْ يكذِّبوه؛ ممّا أوجب لهم العقوبة كأهل القرية الأولى - موردِ المَثَل.

غرضُ تنكير ﴿رَسُولٞ﴾:

لا يُرسِلُ اللّه تعالى إلّا عظماء خَلْقِه وأصفياء عباده

ورد اسم ﴿رَسُولٞ﴾ غيرَ مُعرَّف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 308.
(2) القيعي، الأصلان في علوم القرآن، ص: 387.
(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 365.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 248.

﴿رَسُولٌ مِّنۡهُمۡ﴾ تعظيمًا لشأنه، وإكرامًا لوظيفته، وتهيئةً لوصفه بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ وجاء هذا الوصف تجريما لتكذيبهم إيّاه بعد ذلك، وجاء ذلك بدوره تَقْدِمَةً للحُكم عليهم: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾؛ فهم يعرفون رسولهم هذا كما يعرفون أبناءهم، "يعرِفونه بأصله ونَسَبِه، فأخبرهم بِوجوب الشُّكرِ على النِّعمة، وأنذرهم سوءَ عاقبةِ ما يأتون وما يذرون"(1)، ومع ذلك كذَّبوه فحَقَّ عليهم العذاب.

بلاغة التَّعبير بالوصف دون الإضافة:

بِعْثَةُ الرَّسول من صميم قومه يُحقِّق الثّقة ويُسْرَ التّفاهم

وصفَ الرَّسول المُرْسَلَ إلى القوم بِالجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ أيْ: كائنٌ منهم، دون أنْ يقول: (رسولهم)؛ وذلك لصراحة هذا التَّعبير بأنَّه "من أنفسهم من نَسَبهم وحَسَبهم يعرفونه، كقوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 146]؛ لأنَّه إذا كان مِن غير جوهرهم لم يظهر لهم الآية مِن غير الآية، ولا الحُجَّة من الشَّبهة، وكذلك يُعرَف صِدْقُ مَن نشأ بين أظهُرهم من كذبه، ولا يُعْرَفُ إذا كان من غيرهم"(2).

أمّا التَّعريف بالإضافة (رسولهم)، فلا يَقْطَعُ بِأنَّ الرَّسولَ المُرْسَلَ إليهم منهم ومن أنفسهم؛ فيبقى أغلبُ أمره مُبهَما عليهم، وتَفوتُ حكمة يُسْرِ التَّفاهُمِ معهم، ووَفْرَةِ ثقتهم فيه، وتَمامِ بيانه لهم؛ وتلك من دواعي تصديقهم إيّاه واتِّباعه.

معنى الفاء ودلالتها:

مِنْ طَبْعِ الجاحدين المسارعة إلى التَّكذيب بلا رويّة أو تفكُّر

جاء التَّعبير بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ للإشعارِ "بأنَّهم لم يتمهَّلوا، ولم يتدبَّروا دعوة هذا الرَّسول، وإنَّما قابلوها بالتَّكذيب السَّريع بدون رَويَّة، ممّا يدلُّ على غباوتهم، وانْطِماسِ بصيرتهم"(3).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 146، مختصَرًا.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 585.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 248.

وتكذيبُهم إيّاه كان "في رسالته أو فيما أخبرهم به ممّا ذُكِرَ؛ فالفاءُ فصيحةٌ، وعدم ذِكرِه للإيذان بمفاجأتهم بالتَّكذيب من غير تَلَعْثُمٍ"(1)، ومباشرة بلا أدنى تَردُّد.

سرُّ استعمال لفظ التَّكذيب دون الكُفر:

تكْذِيبُ الرَّسولِ تكذيبٌ للمُرْسَلِ صراحةً والمُرْسِلِ ضِمنًا

آثَرَ النَّظْمُ استعمال التَّكذيب في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دون أن يُقالَ: (فكفروا به)، وذلك أنَّ التَّكذيب أشدُّ وطأةً على نَفْس الرَّسول ﷺ؛ لذلك كان جرمه أكبر، وكانت عقوبته أوجب من حيث هو تكذيب للرَّسول الطّاهر البريء من الكذب، أمّا الكُفْرُ فإنَّه رَدٌّ لدعوته بقطع النَّظر عن اتّهام شخصه؛ لذلك رَتَّب النَّظْمُ الكريم على تكذيبهم إيّاه ﷺ أخذ العذاب إيّاهم بفاء التَّعقيب الموجِبَة للأخذ بلا مهلة.

"وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرَّسول جرى على سُنَّة اللّه تعالى، وهي أنَّهُ لا يُعذِّب مَن كفر به حتَّى يبعث إليهم رسولًا، يحذِّرهم عاقبة كفرهم، ويُرشدهم إلى آيات ربِّهم، وفي ذلك يقول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]"(2).

بلاغةُ الاستعارة في لفظ (الأخْذِ):

ذِكْرُ الأخذِ دليلُ مُكنةِ الإهلاكِ وشموله

المقصود بِالأخْذِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: الإهلاك(3)، فهو مجاز مرسل علاقته السَّببية؛ حيث ذُكر السَّبب ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ وأُريد المُسَبَّبُ (الإهلاك)، وفي إيثار ذِكرِ السَّبَبِ مَزيدُ تَرْهيبٍ؛ إذِ المُسَبَّبُ يذهب بصاحبه، فيُسَكِّنَ أَلَمَهُ، أمّا العذاب فباقٍ عليه.

"وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرَّسول جرى على سُنَّة اللّه تعالى حسبما يُرْشِدُ إليه قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 146.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/ 689.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 308.

رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15] وبه يَتِمُّ التَّمثيل؛ فإنَّ حال أهل مكَّة سَواءٌ ضَرَبَ المَثَلَ لهم خاصَّة أو لهم ولِمَنْ سار سيرتهم كافَّة أشبه بحال أهل تلك القرية مِنَ الغُرابِ بالغُراب"(1).

بلاغةُ إسناد الأخْذِ إلى ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ لا يَأۡخُذُ على الحقيقةِ المحسوسة، وإنَّما الَّذي يَأۡخُذُ المعذَّبين هو اللّه تعالى، فهذا الإسناد مجازٌ عقليٌّ.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

تصويرُ العذاب في الانتقامِ رادعٌ في المقام

في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ استعارةٌ مكنيَّة أصليَّة، حيث شبَّه العذاب بشخصٍ يأخذ، وحُذف المشبَّه به، وذُكر المشبَّه، وذكر لازمًا من لوازمه، وهو الأخْذُ، ونكتةُ الاستعارة تصوير العذاب بأنَّه يأخذهم انتقامًا منهم بسبب تكذيبهم رسول اللّه، وبيان أنَّ له إرادةً في أخذهم ورغبةً، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ٤٩﴾ [يس: 49].

دلالة تعريف العذاب:

عَذابُ الكافرين بالِغٌ في بابه؛ لا يُتصوَّر خطره

تعريف ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ في جملة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ يضفي عليه من الخطورة ما يجعله مَحْذورًا، فهو ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ البالِغُ في بابه مَبْلَغًا لا يُتصوَّر، كما أنَّ "تعريف العذاب للجنس، أيْ فأخذهم عذابٌ كقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾ [الأعراف: 94 - 95]"(2).

معنى الواو ودلالتها:

الظُّلْمُ إنْ لازم صاحبه أهلكه ولا يُبالي

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾: واو الحال، أيْ أنَّ تكذيبهم حصل "والحال أنَّهم هم الظّالمون لأنفُسهم؛ لأنَّ هذا العَذابَ ما نزل

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 478.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 308.

بهم إلّا بعد أنْ كفروا بأنعُم اللّه تعالى، وكذَّبوا رسوله ﷺ"[1]، وجملة الحال قيدٌ مؤكِّد لنوع كفرهم وتكذيبهم، وهو أنَّه أعْظَمُ أنواع الكفر وهو الشِّرك.

بلاغة الاسميَّة في جملة الفاصلة:

مَن استمرأ الظُّلمَ لَفَّه، فغَرِقَ فيه

جاءت جملة ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ اسميَّة كاشِفَةً عمّا داوموا عليه، وما ثبت لهم سَجيَّةً مِمّا "هم عليه مِنَ الظُّلمِ الَّذي هو كُفْرانُ نِعَم اللّه تعالى، وتكذيب رسوله غيرَ مُقْلِعينَ عنه بما ذاقوا من مقدِّماته الزّاجرةِ عنه، وفيه دَلالةٌ على تماديهم في الكفر والعِناد، وتجاوزِهم في ذلك كلَّ حَدّ مُعْتادٍ"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

القرية والمدينة:

القرية دون المدينة في حجمها وعدد قاطنيها

يُطْلِقُ القرآن الكريم اسم (القرية) على كلِّ مجتمع يَتَّفِقُ في عاداته، أو أخلاقه، أو عقيدته، أو حِرفته، كما أطلق في سورة الكهف على مُجْتَمَعِ البُخلاء اسم (القرية)، فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77]، والقرية مأخوذة من الاجتماع، وهي في الحجم وعدد السُّكان دون المدينة.

أمّا إذا اختلفت طبائع أهل المجتمع في شيءٍ من ذلك أطْلَقَ عليها القرآن الكريم وصف (المدينة)، كما أطْلَقَ على منطقة يثرب اسم (المدينة)، وذلك لاختلاف طبائع أهلها وبُعْدِ الجرَّةِ وافْتِراقِهم إلى منافقين وصحابةٍ مُخْلِصينَ، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: 101].

الكفر والجحود:

"الكُفْر: ضدُّ الإسلام، وأصل الكُفْر التَّغْطيَةُ على الشَّيء

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 248.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 146.

الكفرُ تَغْطِيَةُ الحقِّ والجحد إنكارٌ مع عِلْمٍ

والسَّتْرُ لَهُ، فكَأن الكافِر مُغَطًّى على قلبه"[1]، و"الجُحودُ: الإنكار مع العِلْم، يُقالُ: جَحَدَهُ حقَّه وبحقِّه، جَحْدًا وجُحودًا، والجَحْدُ أيضًا: قِلَّة الخير، وكذلك الجُحْدُ بالضَّم"[2]، و"الجُحود: ضدُّ الاقرار كالإنكار والمعرفة"[3].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كفر).
(2) الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم: (جحد)، ص: 666.
(3) الخليل، العين: (جحد).

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النحل: 114 - 115]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الانتقال من ضَرْبِ المَثَلِ بمن كفر بالنِّعم إلى ذِكرِ المُباحاتِ مِنَ النِّعَمِ

"لَمّا وعَظَهُمُ اللّه تعالى بما ذَكَر من حال القرية، وما أوتيتْ به مِن كفرها وسوء صنيعها - وصَل بذلك - بالفاء في قوله: ﴿فَكُلُواْ﴾ - صدَّهم عن أفعال الجاهليَّة ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها بأنْ أمَرهم بأكْل ما رزقهم اللّه تعالى من الحلال الطَّيب، وشُكر إنعامه بذلك"[1]، و"لَمّا أمرهم بتناول ما أحل لهم عدَّد عليهم مُحَرَّماتِه ليُعْلَمَ أنَّ ما عداها حِلٌّ لهم" فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾[2]، فالانتقال من ضَرْبِ المَثَلِ لمن كفر بأَنْعُم اللّه تعالى، إلى الإشارة إلى أَنْعُم اللّه تعالى لشكرها، في أكل الطَّيبات وترك المُحَرَّماتِ، وفي هذا الانتقال مَزيدُ تنبيهٍ وتحذير من مخالفة حُكم اللّه ونهيه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُهِلَّ﴾: "الإهْلالُ: رفع الصَّوت عند رؤية الهلال، ثم استُعْمِلَ لكلِّ صوت، وبه شُبِّه إهْلالُ الصَّبيِّ، وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 173] أيْ: ما ذُكِر عليه غَيْرُ اسم اللّه تعالى، وهو ما كان يُذْبَح لأجل الأصنام، وقيل: الإهْلالُ والتَّهَلُّل أنْ يقول: لا إله إلّا اللّه، ومن هذه الجملة رُكِّبت هذه اللَّفظة كقولهم: التَّبسمُل والبَسمَلة"[3].

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/ 640.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/ 243.
(3) الراغب، المفردات: (هلل).

2) ﴿ٱضۡطُرَّ﴾: "الضُّرُّ: سوءُ الحال ... والاضْطِرارُ: حَمل الإنسان على ما يَضُرُّهُ، وهو في التَّعارف: حَملُه على أمرٍ يَكرهه، وذلك على ضربين أحدهما: اضطرار بسببٍ خارج كَمَنْ يُضْرَبُ أو يُهَدَّدُ حتَّى يفعل منقادًا، ويُؤْخَذَ قهرًا، فيُحمَل على ذلك كما قال: ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٢٤﴾ [لقمان: 24].

والثّاني: بِسَبَبٍ داخل، وذلك إمّا بِقهرِ قوَّةٍ له لا يَنالُهُ بدفعها هَلاكٌ، كمن غَلَبَتْ عليه شهوةُ خمرٍ أو قمار، وإمّا بقهر قوَّة يَنالُهُ بدفعها الهَلاكُ، كمن اشتدَّ به الجوع فاضْطُرَّ إلى أكل مَيْتَةٍ، وعلى هذا قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾"[1].

3) ﴿بَاغٖ﴾: "البَغْي: طلب تجاوُزِ الاقتصاد فيما يُتَحَرَّى تَجاوُزُهُ أم لم يَتَجاوزْهُ، فتارَةً يُعْتَبَرُ في القَدْرِ الَّذي هو الكميَّة، وتارة يُعْتَبَرُ في الوصف الَّذي هو الكَيْفيَّةُ، يُقالُ: بَغَيْتُ الشَّيءَ: إذا طَلَبْتَ أكثر ممّا يجب، وابْتَغَيْتُ كذلك، وبَغَى: تكبَّر؛ وذلك لِتَجاوُزِهِ منزلته إلى ما ليس له، ويُسْتَعْمَلُ ذلك في أيِّ أمر كان، فالبَغْيُ في أكثر المواضع مذمومٌ، وقوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، أيْ: غير طالِبٍ ما ليس له طَلَبُه ولا متجاوِزٍ لِما رُسِم له"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُـهـيِّـئ الـذِّكـر الـحـكـيـم لتكليف المؤمنين بالتزام الحلال بالتَّخويف بما حلَّ بالسّابقين

تُخاطِبُ الآيتان النّاسَ بأنْ يأكلوا ممّا رزقهم اللَّه بضابط أنْ يكون حلالًا طيبًا؛ لِيُفْهَمَ أنَّ هناك ما هو مُحَرَّمٌ خبيث، وهذا من باب التَّوطئة لما سيُذكر من المُحَرَّماتِ، وقد أطْلَقَتِ الآية الأولى ذِكْرَ المُباحاتِ لكثرتها وأجْمَلَتِ المُحَرَّماتِ لِقِلَّتِها، ثمَّ حضَّهم على شكره ﷻ على هذه النِّعم، فلا يكونوا كمن كفرها فأخذه العذاب المُهْلِكُ، وذلك بشرط الإيمان وعبادة اللَّه وحده دون سواه.

(1) الراغب، المفردات: (ضرر).
(2) الراغب، المفردات: (بغي).

"فمن ألجأته الضَّرورة إلى أكل شيءٍ من هذه المُحَرَّماتِ، حالة كونه غير باغ، وغير طالِبٍ للمُحرَّم، وهو يَجِد غيره، أو غير طالِبٍ له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، ولا عادٍ ولا مَتَجاوِزٍ في أكله ما يَسُدُّ الجوع، ويحفظ الحياة فإنَّ اللّه تعالى غفور واسع المغفرة لعبادة، رحيم كثير الرَّحمة بهم"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوع الفاء ودلالتها في ﴿فَكُلُواْ﴾:

تَحْتَمِلُ الفاءُ أن تـكـون فصيحةً أو استئنافيَّةً أو عاطفة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ ثَرِيَّةُ الدِّلالات؛ دقيقةُ الرَّبْط بين لاحِقِها وسابِقِها، فيمكن حَملُها على أنَّها "رابِطَة لجواب شَرْطٍ مُقَدَّرٍ"[2]، فهي "فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شَرْطٍ مُقَدَّرٍ، تقديره: إذا عرفتم أيُّها المؤمنون حال أهل هذه القرية، وأرَدْتُم بيان ما هو النَّصيحة لكم، فأقول لكم: كُلوا ممّا رزقكم اللّه"[3].

ويُمكِنُ اعْتِبارُها ابتداءَ كلام آخر، ومعنى حُكم جديد، أو يكون الكَلامُ مُتَّصِلَ المعنى، أيْ: وأنتم أيُّها المؤمنون لستم كهذه القرية، فكُلوا واشكروا اللّه على تَبايُنِ حالكم من حال الكفرة[4]، ففيها "الْتِفاتٌ إلى أهل مكَّة خاصَّة، وإلى كلِّ ذي عقل ونظر، أنْ يأخذوا العِبرة من هذا المَثَلِ، وأنْ يجدوا في النِّعَمِ التي أنعمها للّه عليهم داعية يدعوهم إلى شكر اللّه، والولاء له، وإلّا حلَّ بهم عذاب اللّه، كما حلَّ بِتِلْكَ القرية الظّالمة"[5].

ويمكن حَملُ الفاء على أنَّها "تفريع على الموعظة وضَرْبِ المَثَلِ،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 250.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 403.
(3) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 15/ 408.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 427.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 385.

وخوطِبَ به فريق من المسلمين كما دلَّ عليه قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ إلى آخره، ولعلَّ هذا موَجَّهٌ إلى أهل هجرة الحبشة، إذ أصبحوا آمنين عند مَلك عادل في بلد يجدون فيه رزقًا حلالًا، وهو ما يُضافون به وما يكتسبونه بكدِّهم"(1).

"والفاءُ في المعنى داخلة على الأمر بالشُّكر، وإنَّما أُدخلت على الأمر بالأكل لأنَّ الأكل وسيلةٌ إلى الشُّكر، فكأنَّه قيل: فاشكروا نِعمة اللّٰه عقب أكلها، واعرفوا لها حَقَّها، ولا تُقابِلوها بالمعصية والكفران"(2).

توجيه تخصيص الأمر بالأكل بالذِّكر:

حاجَةُ الإنسان للأكل أولى وأدْوَمُ من حاجته إلى غيره

"الأمرُ في قوله: ﴿فَكُلُواْ﴾ للامتنان، والأمرُ بالأكل مُقَدِّمَةٌ للأمر بالشُّكر، وهو المقصود بالتَّفريع، والمقصود: فاشكروا نِعمة اللّٰه، ولا تكفروها، فيَحِلَّ بكم ما حَلَّ بأهل القرية المَضْروبَةِ مثَلًا"(3).

و"ليس الأكل مقصودًا وحدَه، إنَّما يَنْدَرِجُ ما في معناه من النِّعَم مِنَ اللِّباسِ والمَرْكَبِ والمَسْكَنِ، ولكن جاء التَّعبير بالأكل لأنَّه أعظمُ ما يَبحث عنه الإنسانُ أوَّلًا، وكذلك فإنَّ تَحْصيلَهُ - وما في معناه من الشَّراب - متكرِّرٌ، أمّا تَحْصيلُ اللِّباسِ فليس متكرِّرًا تَكَرُّرَ الطَّعام، ألا ترى أنَّ الواحد فينا، قد يشتري لباسًا ما، فيَسْتَعْمِلُهُ سنين عددًا"(4)، أمّا الأكل فلازِمٌ يوميًّا للإنسان لإقامة حياته سويَّة قويَّة.

معنى حرف (مِن):

ذِكْرُ المحرَّمات بعد الأمر بأكل الحلال كالاستثناء من العامّ

قُيِّدَ الأمر بالأكل بحرف (مِن) في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهو إمّا أنْ يُحمَلَ على التَّبعيض؛ أيْ: كلوا بعض ما رَزقكم اللّٰه حلالًا طيِّبًا، وإمّا أنْ يُحمَلَ على أنْ يكون للبيان، فأبانَتْ (مِن) عن نوع الطَّعام الَّذي يجوز للنّاس أكلُه، وهو كلُّ ما سوى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 308.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/ 690.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 309.
(4) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 229.

المُحَرَّماتِ المذكورات في الآية التّالية، والأليق بالنَّظم أنْ تكون (مِنْ) بَيانيَّةٌ؛ ذلك أنَّ ذِكْرَ المُحَرَّماتِ بعد الأمر بالأكل مِنَ الرِّزْقِ يجري مجرى الاستثناء بعد العام، فحَملُ (مِنْ) على أن تكون بيانيَّة، هو الأولَى بهذا المعنى.

فائدةُ استعمال (ما):

الاسم الموصول مُستَوْعِبٌ لجميعِ المُباحاتِ في الشَّرع

مِنْ رحمة اللّه تعالى أنْ حَدَّدَ المُحَرَّماتِ، وعيَّنها؛ وجعلها الأقلّ في الشَّرع الحنيف، وما سكت عنه الشَّرْعُ فداخل في دائرة المباح؛ وعلى ذلك فالمباحات في الإسلام هي الأكثر، وليس بالإمكان تعديدها؛ ولهذا الاعتبار استعَملَ القرآنَ الكريم لِلَملمة ذِكْرِ المباحات الاسمَ الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، فهو الاسم الَّذي يمكنه استيعاب أصناف المباحات كلها؛ فقال ﷻ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا﴾؛ فلم يَنِدَّ منها شيءٌ، وذلك إيجاز بارع كاشف عن عظَمة النَّظْمِ الحكيم.

دلالةُ المُضِيّ في الفعل ﴿رَزَقَكُمُ﴾:

الأرزاقُ مضمونة للأنام جميعًا، ثـم يَخْتَلِفُ حِسابُهُم يوم القيامة

تُفصِح صيغة المُضيِّ في جملة ﴿رَزَقَكُمُ﴾ عن تَحقُّق نزولِ الأرزاق من الرَّزّاق ﷻ إلى عباده، حتى قبل ذلك التَّوجيه الكريم، وأنَّ الأرزاق لم تتوقَّف عليه، بل لا تتوقَّف على امتثالهم الأمر من عدمه، فهي مضمونة لكلِّ الأنام، ومن شاء فلْيُؤْمِنْ ومَنْ شاء فلْيَكْفُرْ، ثمَّ يكون الحساب يوم يقوم النّاس لربِّ العالمين.

نكتةُ إسناد فعل ﴿رَزَقَكُمُ﴾ إلى الاسم الظّاهر:

معرفةُ الـرّازِقِ تَبْشِيرٌ بالرَّحمة وإشعارٌ بتمام النِّعمة

إسنادُ فِعْلِ الرِّزْقِ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُباشَرَةً في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ دون أنْ يُقالَ: (مما رُزِقتم)، أو (مما رزقتُكم)، يوحي بعظَمة ذلك الرِّزْقِ، ويؤكِّد بركته، ويَفْعَمُ النُّفوسَ ثِقَةً بكفايته مهما كان نوعه وكَمُّه قلةً وكَثرةً.

كذلك يبيِّن إسْنادُ الرِّزْقِ إلى اللّهِ ﷻ غرضَ الأمر مِن امتثال

التَّحليل لبعض الرِّزْقِ والتَّحريم لبعضه الآخر، ويُطمئنهم إلى كمال حِكمة اللّهِ تعالى فيما يُحِلُّ وفيما يُحرِّم؛ ومِنْ شأن ذلك أنْ يَحْمِلَ العِباد على الامتثال لهذا التَّشريع بِحُبٍّ وقناعة، بل تَقَرُّبٍ إليه تعالى بتنفيذ ذلك التَّشريع.

تنوُّع إعراب ﴿حَلَٰلًا﴾ بين الحاليَّة والمفعوليَّة:

الحِلُّ في الشَّرع في نَوْعِ الطَّعام، وكيفيَّة التَّذْكِيَة

قوله تعالى: ﴿حَلَٰلًا﴾ إمّا أنْ يكون حالًا، أيْ: كلوا مِنْ رزق اللّه تعالى حال كونه حلالًا، وإمّا أنْ يكون مفعولًا به لـ ﴿فَكُلُواْ﴾، ويكون ﴿طَيِّبًا﴾ صفة[1]، و﴿حَلَٰلًا﴾ في الأصل "صفة لموصوف محذوف، أيْ: طعامًا حلالًا"[2].

ويترتَّب على تنوُّع إعراب ﴿حَلَٰلًا﴾ بين الحاليَّة والمفعولية وجوبُ شمولِ الحُكم لاعتباريْها جميعًا دفعةً واحدة: اعتبار عَيْنها بِأنْ تكون هي في نفسها من الأنواع الحلال، واعتبار تَذْكيَتِها، بِأنْ تكون "مُذَكّاةً على اسم اللّه تعالى"[3].

سرُّ وصف الحلال بالطَّيب:

الحلالُ وصفٌ تشريعيٌّ والطيِّب وصفٌ ذاتيٌّ

"وصَف ﷺ الأكل الَّذي وصفه اللّه تعالى وأعطاه ومكَّن منه بوصفين: الأوَّل: أنَّهُ حَلالٌ، والثّاني: أنَّهُ طَيِّبٌ، والحلال أنْ يكون كَسْبُهُ لا خَبَثَ فيه، فالكَسْبُ بالرِّبا أو الرِّشوة والميسر، أو التَّغرير، أو السَّرقة أو الاغتصاب، أو الخمر كلّ هذا ليس برزق حلال، لأنَّهُ كَسْبٌ خَبيثٌ، وكذلك أَكْل ما سُمّي عليه اسمُ غيرِ اللّه مِن صنم أو صليب، أو معبود غير اللّه أيًّا كان.

وأمّا الوصف الثّاني: فهو أنْ يكون في ذاته طيِّبًا لا خبيثًا في ذاته، فلا يُؤَكَلُ الخِنْزيرُ ولا المَيْتَةُ، ولا الدَّم ولا ما تعافه النُّفوس،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 379.
(2) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 601.
(3) مكي، الهداية الى بلوغ النهاية: 6/ 4104.

ومن ذلك سِباعُ الطَّير وسِباعُ البهائم، فإنَّ لَحْم هذه وما يشبهه لَحْمٌ خبيثٌ"(1).

وفي وصف ﴿حَلَٰلًا﴾ بصفة ﴿طَيِّبًا﴾ يبيِّن أنَّ مِنَ الأرزاق ما يكون مُسْتَلَذًّا لبعض النّاس ومنه ما لا يكون مُسْتَلَذًّا لبعضهم، فـ "وقع النَّصُّ في هذا على المُسْتَلَذّاتِ؛ ففيه ظهور النِّعمة وهو عِظَم النِّعم، وإنْ كان الحلال قد يكون غير مُسْتَلَذٍّ، ويُحْتَمَلُ أن يكون الطَّيِّب بمعنى الحلال، وكَرَّرَهُ مبالغةً وتوكيدًا"(2).

نكتة تقديم ﴿حَلَٰلًا﴾ على ﴿طَيِّبًا﴾:

شرطُ أكلِ الطَّيِّب الحِلُّ ولا شرطَ لأكل الحلال

قُدِّم ذِكرُ ﴿حَلَٰلًا﴾ بجعله موصوفًا على ﴿طَيِّبًا﴾ بجعله صفةً؛ لأنَّ ذِكْرَ (الحلال) هو الأصل في توجيه النّاس للأكل، وأمّا صفة الطَّيِّب فهي تابعة لكون المأكول حلالًا، ولو استطابته النُّفوس، فلا يَصِحُّ إلّا في حال كونه حِلًّا مِنَ اللّه تعالى، فالحلال مُقدَّمٌ باعتباره الأصل، والطَّيِّب مُؤَخَّرٌ باعتباره تابعًا للأصلِ، فكُلُّ حلالٍ يُؤكَل، وليس كُلُّ طَيِّبٍ يُؤْكَلُ إلّا بشرط أنْ يكون حلالًا.

دلالةُ الواو في: ﴿وَٱشْكُرُواْ﴾:

الشُّكرُ قيدُ النِّعم والكفر صيد النِّقم

"لَمّا تقدَّم قوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ جاء هنا قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾"(3)، والواو في جملة ﴿وَٱشْكُرُواْ﴾ عاطفة، تضمُّ الأمر بالشُّكر إلى الأمر بالأكل، ومِنَ العلماء مَنْ يرى أنَّ أصل الأمر هنا هو الشُّكْرُ، وأنَّ "الأمر بالأكل مُقَدِّمَةٌ للأمر بالشُّكر وهو المقصود بالتَّفريع، والمقصود: فاشكروا نِعمَة اللّه تعالى ولا تكفروها، فيحل بكم ما حلَّ بأهل القرية المَضْروبَة مثَلًا"(4).

وموجِبُ شُكْرِه ﷻ "ما خَلَقَ لكم مِن ذلك، وما أَحَلَّ لكم مِن أكله

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4288.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 427.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 605.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 309.

على غيره مِنَ النِّعَم"[1]، "وحقيقة الشُّكر على النِّعمة الغيبةُ عن شهود النِّعمة بالاستغراق في شهود المُنْعِم"[2] ﷻ.

"إنَّ هذه النِّعَمَ التي هيَّأها الله تعالى وأباحها توجِبُ الشُّكر؛ ولذا جاء الأمر بالشُّكر بعد الإباحة، فقال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ وشكرها بالقيام بالواجبات مِن عبادةٍ وامتناعٍ عن الشِّرك، والتَّصدُّقِ منها لله تعالى، وإطعام القانع والمُعْتَرِّ، وأنْ يكون كلُّ ذلك لوجه الله تعالى لا يبتغي سواه، ولا يَطْلُبَ إلّا وجهه الكريم"[3].

نكتةُ إفراد ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾:

الغـرضُ الحثُّ على شكر جنس النّعمة في الأكل مــن الــحــلال الطّيّب

وردت النِّعمة بصيغتها المُفردة مضافة إلى الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾، وذلك لكونِ المُراد في سياق الآية نِعمَة الأكل من الرِّزْقِ الحلال الطَّيِّب، فجاء الأمر بشكر هذه النِّعمة بعد الأمر بأكلها، وقبل بيان بعض المُحرَّمات، فيكون إفراد النِّعمة يُراد من نِعمَة المباحات من الطَّعام، وهي تُعامَلُ معاملة الجنس لأنَّ هذه النِّعْمَةَ لها حيثيّات متعدِّدة.

نكتةُ إضافة النِّعمَة إلى لفظ الجلالة:

كلُّ ما يُضافُ إلى العظيم فأثره في القلب عظيم

أُضيفت النِّعمة إلى لفظ الجلالة لِما يأتي:

أوَّلًا: "إظهار اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّ مقتضى الظّاهر الإضْمارُ لزيادَةِ التَّذْكير، ولتكون جملة هذا الأمر مُستقلَّةً بدلالتها بِحيث تصحُّ أن تَجري مجرى المَثَلِ"[4].

ثانيًا: الدِّلالة على التَّوحيد، فقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾

---

(1) مكّي، الهداية الى بلوغ النهاية: 6/ 4105.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 325.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4289.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 309.

"أيْ توَحِّدونَهُ بالعبادة، وهي تدلُّ على أنَّ شُكْرَ النِّعمة مِنَ التَّوحيد؛ لِأنَّهُ يُضيفُ النِّعْمَةَ إلى اللَّه ﷻ وحده كما توَجَّهُ العبادة إليه وحده"[1].

ثالثًا: "ذُكِر لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى للتَّنبيه على مصدر النِّعَمِ"[2].

فائدةُ تقييد الأمر بالشُّكر بجملة الشَّرط:

إلهابُ النُّفوس لمعالي الأمور مَنْهَجُ القرآن في تربية المخاطَبين

في تعليق الشُّكْرِ على عبادة اللَّه تعالى في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ فوائد:

الأولى: إلهابُ المؤمنين وتَهْييجُهُم للعبادة، كما تقول لرَجُلٍ: إنْ كنت مِنَ الرِّجال فافْعَلْ كذا، على معنى إقامة نَفْسه[3]؛ لِأنَّ الشُّكر واجب عليهم على كلِّ حالٍ، ويزيد ذلك الإلهابَ إلهابًا أنَّ التَّقييد جاء بأداة ﴿إِن﴾ التي تدلُّ على مظنَّة تحقُّق الوقوع؛ لِيَنْشَطوا في شكره ﷻ، فيؤكِّدوا إيمانهم.

الثّانية: تعميمٌ للأحوالِ المقتضيةِ للشكر، أي: "وجِّهوا شُكْرَ نِعَمِه إليه، إنْ كنتم عابدين له بجهة، أيْ: افعلوا العبادة له والشُّكر في الأحوال كلِّها"[4]، وفي ذلك "إظهار صدق إيمانهم"[5].

الثّالثة: "تحريض المؤمنين على التَّمسك بالإيمان باللَّه، وإخلاص العبادة له وحده، وأنْ يقطعوا كلَّ صلة كانت تصلهم بمعبوداتهم التي عبدوها من دون اللَّه سبحانه، وذلك أنَّهُم كانوا في جاهليتهم يَدَّعونَ أنَّهُم مؤمنون باللَّه، وأنَّهُم إنَّما يعبدون هذه الأوْثانَ التي يعبدونها ليتقرَّبوا بها إلى اللَّه، كما يقول اللَّه سبحانه على لسانهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، وهذا ضلال مبين، وشِرْكٌ صُراحٌ باللَّه، فهو سبحانه الَّذي تفرَّد بالخَلْق والرِّزْقِ، فواجِبٌ أنْ يُفْرَدَ بالولاء والعبوديَّة"[6].

---

(1) الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، ص: 385.

(2) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 229.

(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 427.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 586.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 309.

(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 386.

غرضُ تقديم المفعول ﴿إِيَّاهُ﴾ على الفعل:

أخصُّ خصائصِ الألوهيَّة إفرادُ الله بالعبوديَّة

جاء المفعول مقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ دون أنْ يقول: (إنْ كنتم تعبدونه)؛ وتقديمه هنا نظير تقديمه في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5] في فاتحة الكتاب، وكلاهما يفيد قَصْرَ العبادة على اللّه تعالى واختصاصه ﷻ بها، فلا يُشارِكُهُ فيها أحَدٌ، وإلّا فإنَّها تُرَدُّ على صاحبها، ولا تُقبل منه، وذلك ما ورد صريحًا إجمالًا في كلِّ الأعمال في الحديث القدسي: "أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيهِ مَعي غَيْري، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ"(1)، ولا شك أنَّ وُجوبَ تحقُّق ذلك في العبادة بذلك آكد.

و"ذِكْرُ الوَحْدانيَّةِ بعدها، أيْ: بعد التَّوجيه إلى أكل الحلال الطَّيِّب، فيه إشارة إلى أنَّ تناول هذه النِّعَمَ من غير تحريم لبعضها، هو من عبادة اللّه تعالى، ذلك أنَّ الانتفاع بأيِّ نِعمَة مع الشُّعور بعظمة المُنعم تعالى واستحقاقه الشُّكر والتَّناول طاعة لأمره، واستجابة لطلبه هذا في عباده، ففي الانتفاع بكلِّ نِعمَة منحها للاستجابة للمُنْعِم عبادة، حتَّى في بضع أحدكم صدقة"(2).

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَعْبُدُونَ﴾:

عبادةُ الله تعالى متجدِّدةٌ بتجدُّد الأنفاس وتواليها

إيثارُ الخَبَرِ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ مضارعًا يوكِّد على ضرورة الاجتهاد في عبادته ﷻ، وتجديدِها في كلِّ وقتٍ، وتصفيةِ النِّيَّة في كلِّ عَمَلٍ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: 162 - 163]، وألّا يتوانى العبد فيها، ولا يكسل؛ لأنَّها وظيفته الأساس في هذه الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 56].

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، كِتابُ الزُّهْدِ والرَّقائِقِ، الحديث رقم: (2985).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4289.

بلاغةُ القصر ودلالته:

غـرضُ القصر التَّحـريـمُ مع زيادةِ إنكارٍ على المُخالف

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ "بيانٌ لمضمون جملة ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ لتمييز الطَّيِّب من الخبيث، ومناسبة هذا التَّحديد في المُحَرَّماتِ أنَّ بَعْضَ المسلمين كانوا بأرضِ غُرْبَةٍ، وقد يُؤْكَلُ فيها لَحْمُ الخنزير وما أُهِلَّ به لغير اللّه، وكان بعضهم ببلد يُؤْكَلُ فيه الدَّم وما أُهِلَّ به لغير اللّه"[1].

فأداة ﴿إِنَّمَا﴾ للقصر، "لكن كيف يُفهم هذا القصر مع وجود نصوص صحيحة عن النَّبي ﷺ تُحَرِّم غير ذلك، فعلى سبيل المثال: فقد نهى رسول اللّه ﷺ عن أكل كلِّ ذي نابٍ مِن السِّباع[2].

وللجواب أنَّهُ جاء قصرًا بالإضافة إلى السّياق والموضوع، ووَجْهُ كَوْنِ القَصْرِ إضافيًّا أنَّ الكفّار الَّذين نزل القرآن بينهم كانوا يَسْتَحِلّونَ هذه المُحَرَّماتِ، فجاءت الآية للرَّدِّ عليهم بصيغة جازمة، فهي لم تُحَرِّم فقط بل كأنَّها حصرت هذه المُحَرَّماتِ فيما كان الكفّار يَسْتَحِلّونَهُ، كَرَدِّنا على مَنْ يَسْتَحِلُّ صورة معينة من الإثم، فنقول له: إنَّما الإثْمُ ما تفعل، وليس القَصْدُ قَصْرَ الإثم على فعله، ولكنَّه زيادة في الإنكار"[3].

سرُّ التعبيرِ بالتَّحريم لا النَّهي:

التَّحْرِيمُ آكَدُ وأقـوى في المنع من النَّهي

جاء التَّعبير بمفردة التَّحريم لا النَّهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾؛ فلم يقل: (إنَّما نهاكم عن الميتة)، وذلك باعتبار أنَّ التَّحْريمَ آكدُ في دلالته وقوَّته في المنع من إتيان المُحرَّم، والتَّحريم يوحي بِقَطْعيَّةِ المُحرَّم، فلا يُلْتَمَسُ فيه معنى التَّعليل المُؤقَّت، والرَّبط بالحِكمة والمصلحة، بل هو أمر محسوم لا مجالَ فيه إلّا للخضوعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 309.

(2) في صحيح البخاري: «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كُلِّ ذِي نابٍ مِنَ السِّباعِ»، كِتابُ الذَّبائِحِ والصَّيْدِ، بابُ لُحومِ الحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ: 7/ 95، والحديث رقم: (5528).

(3) القدومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 231.

والذِّلَّةِ لأمر اللّه تعالى في ترك المحرَّم، كما أنَّ النَّهي قد يَرْتَبِطُ بزمانٍ معيَّن، ثمَّ يأتي بَعْدُ الحِلُّ، وليس كذلك التَّحريم، ولذلك جاء بعده ذِكرُ حالة الاضطِّرارِ ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كالاستثناء من عموم الأحوال.

نكتةُ عدم التَّصريح بالمسند إليه:

التَّحريمُ من خصائصِ توحيد الألوهيَّة

بُنيَ فِعل ﴿حَرَّمَ﴾ للفاعل المُضمر دون التَّصريح به؛ وذلك للإيماء إلى أنَّ فِعْلَ التَّحريم إنَّما هو للّه تعالى وحدَه، وهو ممّا يجب أنْ يُعْلَمَ، مع إفادة السّياق ذلك، فاسم الجلالة مَذْكورٌ قبله صريحًا وضميرًا في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾؛ ولذلك فاسم الجلالة مُقدَّر في الفعل ﴿حَرَّمَ﴾، والمُقدَّر كالمذكور.

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

تَساهُلُ النّاس في المأكولات طريق توسيع دائرة المُحَرَّماتِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ للتَّأكيد على شأن المُحرَّم، كأنَّ المخاطَبين هم المخصوصون بذلك دون سواهم، ففيه تأكيد بطريق التَّلميح، وهو ما يوحي بِتَساهُلِ النّاس في شأن المأكولات المُحرَّمة، وهو أمرٌ مشاهد في الواقع.

لطيفة استعمال حرف الاستعلاء (على):

نُزولُ تحريم بعض المأكولات استعلاءٌ بالعباد

في إيثار التَّعبير بحرف الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾ إيحاءٌ بأنَّ ذلك التَّشْريعَ العالي إنَّما هو نازلٌ مِن عُلوٍّ، وأنَّهُ نزل ليسمو بمن نزل عليهم من المؤمنين، ويرتقي بهم فوق كلِّ المخاطر دينًا ودُنيا، وأنَّهُ يضمن لهم الرِّفعة فوق الأنام جميعًا؛ لأنَّه نزل من قِبَل الملأ الأعلى لهم بخاصَّة؛ فينتشِلهم من أوحال الحياة الدُّنيا إلى مراقي الحياة الأخرى.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ﴾:

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ للعهدِ، وهو "ما مات من النَّعَمِ حتف

أنفه"[1]، والتَّعريف في ﴿وَٱلدَّمَ﴾ للعهدِ كذلك، و"هو ما يسيل من الحيوان الحي كثيرًا كان أم قليلًا، وما جرى منه بعد ذبحه، وهو الَّذي عبَّر عنه القرآن بالمسفوح"[2].

نكتة تخصيص لحم الخنزير بالتَّحريم مع عموم حرمته:

الخنزير حرامٌ كلُّه، وأكلُ لحمه أشدُّ حُرمة

نَصَّ الذِّكْرُ الحكيم على حُرمة لحم الخنزير بخاصَّة، وإن "أراد الخِنْزيرَ بجميع أجزائه، لَكِنَّهُ خصَّ اللَّحم لأنَّه المقصود بالأكل"[3]، و"سائر أجزائه كالتّابعة للحمه، ومِنَ الحِكَم في تحريم لحم الخنزير: قذارتُه، واشتمالُه على دودةٍ تَضُرُّ بآكله كما أثبت ذلك العِلْم الحديث"[4].

كذلك اختصَّ لَحْمُ الخنزير بالتَّحريم الصَّريح؛ لأنَّ اللَّحم ما يلزم المُضْطَرَّ لا الجلد ولا الضِّرس ولا غيرهما؛ فلِأنَّ المقام هنا لبيان ما يَحِلُّ للمضْطَرِّ نصَّ على حرمة ما يلزم المُضْطَرَّ زيادة في البيان.

فائدة استعمال الاسم الموصول:

عناصر التَّعبير القرآنيِّ تتَّسم بالإيجاز الدَّقيق

المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ "ما ذُكِرَ عليه غير اسم الله"[5] من الذَّبائح، و"تحريم الميتة والدَّم ولحم الخنزير كان لِعِلَّةٍ ذاتيَّة في تلك الأشياء، أمّا تحريم ما أُهِلَّ لغير الله تعالى به، فبِسبب التَّوجُّه بالمذبوح إلى غير الله ﷻ"[6].

و(ما) "اسم موصول معطوف على (لحم)"[7]، وفضيلة اسم الموصول هنا إفادةُ العموم؛ فيشمل جميعَ أنواع الذَّبائح المحرَّمِ

(1) مكّي، الهداية الى بلوغ النهاية: 6/ 4105.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 250.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 192.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 250.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 192.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 250.
(7) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 601.

أكلُها، مِمّا لم يُذكَر اسم اللّه تعالى عليها، ومِمّا ذُكر اسمٌ غير اسمه ﷻ عليها.

ولو لم يُعبَّر باسم الموصول (ما)؛ لاحتيج إلى تعداد أعداد لا حصر لها من أنواع الذَّبائح؛ فكان الاسم الموصول سبيلَ الإيجاز.

نكتةُ بناء فعل ﴿أُهِلَّ﴾ للمفعول:

استِغْراقُ أفرادِ مَن يذبح مِن دون الله تعالى

مِن رفيع بيان الذِّكر الحكيم العالي عدم ذِكر فاعل ﴿أُهِلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾؛ فلا يستحقُّ كافرٌ يَذبَحُ للأصنام، ويُهِلُّ عليها بغير اسم الخالِق الرّازق العظيم ﷻ أنْ يُكَرّرَ اسمُه في الكتاب المجيد.

كذلك بُني الفعل ﴿أُهِلَّ﴾ للمفعول؛ لكثرة من يذبح لغير اللّه تعالى، فأفاد البناء للمفعول الإيجازَ لاستغراق كلِّ ما يَصْدُقُ عليه هذا اللَّفظ.

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ للعلَّة والقصد في الوِجهة، أيْ إنَّ نيَّة التَّوجُّه في الذَّبح هو لأجل غير اللّه تعالى، وهو ما يمنع أكلَ لحم الذَّبيحة، ويُخْرِجُها من صلاحيَّة الاستعمال إلى عدم الصَّلاحيَّة.

نكتةُ استعمال ﴿لِغَيۡرِ﴾ دون التَّصريح بالأصنام:

استِيعابُ وِجهات الكفّار في الذَّبح تنحصر بلفظٍ مختارٍ في سياقه

من إيجاز القرآن البليغ إيثارُه لفظَ العموم ﴿لِغَيۡرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ دون النَّصِّ على لفظ (الأصنام)؛ ذلك أنَّ وِجهات الكفّار في نيَّة الذَّبح عديدة لا تكاد تنحصر، ويطول تعديد أصنام الكفّار والطَّواغيت على مَرِّ الأزمان؛ فكان اسْتِغْراقُها كُلُّها في لفظ ﴿لِغَيۡرِ﴾ أجمع للمقصود، وأنسب للإيجاز.

توجيه المتشابه اللّفظيّ في التّقديم والتّأخير:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على قيد ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ في البقرة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173]، بخلاف هذه الآية فعُكس الأمر: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾، وليس هذا من قبيل التّفنُّن في الأسلوب، بل المعنى مُختلِف تمامًا؛ ذلك أنَّ الإهلال هو رَفْع الصَّوت عند الذّبح، فكان الجاهليّون يرفعون أصواتهم عند الذّبح باسم اللّات، أو باسم العُزّى، فيُهلّونَ بأسماء الشُّركاء الباطِلينَ، ولا يذكرون اسم اللّه الوهاب، فمَرَّةً يُهلّون به لغير اللّه، ومَرَّةً يُهلّون لغير اللّه به، كيف ذلك؟

قالوا: لِأنَّ الذَّبح كان على نوعين: مَرَّةً يذبحون للتَّقرُّب للأصنام، فيكون الأصل في الذّبح أنَّهُ أُهِلَّ لغير اللّه به، أيْ: للأصنام، ومَرَّةً يذبحون ليأكلوا دون تقرُّب لأحد، فالأصل فيه أنَّهُ ﴿أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173]، إذن: تكرار الآية لِحكمة، وسبحان مَنْ هذا كلامه![1].

علّةُ ترتيبِ المحرَّمات:

التَّرتيب مُلاحظٌ فيه ما يَتَساهَلُ النّاس فيه

جاء تَرْتيبُ المُحَرَّماتِ في الآية الكريمة على الوجه الآتي: ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾، فقُدِّمَتِ المَيْتَةُ وثُنّي بالدَّم، وأُعْقِبَ بلحم الخنزير، وهذه الثّلاثة كان التَّحريم فيها لسبب داخلي، وروعيَ في ترتيبها التَّحْريمُ التَّصاعُديُّ، إذْ لَحْمُ الخنزير أقبحها وأخطرها، وقُدِّمَتِ المَيْتَةُ على الدّم لِعظم حجمها، ولأنَّ الدَّم جزءٌ منها، فبدأ بذِكر الأكثر فالجزء فالأقبح حسيًّا، فالأقبح عقَديًّا، وهو الصِّنف الرّابع فسبب تحريمه خارجي عقَدي؛ لذلك أُخِّر، ثمَّ لِأنَّهُ أكْثَرُها على الإطلاق؛ لكثرة ذبائح الكفّار في كلِّ الأقطار.

بلاغةُ الفاء الفصيحة ودلالتها:

في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ "بيانٌ لحالات الضَّرورة التي يُباح

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 13/ 8259.

للإنسان فيها أنْ يَأْكُلَ مِنْ تلك المُحَرَّماتِ"(1)، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾ هي "الفصيحة؛ لِأنَّها أفْصَحَتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّر، تقديره: إذا عرَفتم تحريم ما ذُكر عليكم وأردتم بيان حُكم ما إذا اضْطُرِرْتُم إليه؛ فأقول لكم: مَنِ اضْطُرَّ"(2)، أيْ: فمَنْ أُلْجئَ إلى أكل شيءٍ من تلك المُحَرَّماتِ فله ذلك بِشَرْطَيْهِ المذكورَيْن بعد.

بعد بيان حكم المحرَّمات يأتي حُكم الضَّرورات

معنى الاسم الموصول ودلالته:

شمولُ كلِّ مُضطَرٍّ مَقْصودُ السِّياق

﴿فَمَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾ موصولة بمعنى الَّذي؛ واسْتِعْمالُها ليَدْخُلَ فيها كلُّ مُضْطَرٍّ دون استثناء، وقد أُشربت معنى الشَّرط، ودلَّ عليه الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

نكتةُ حذفِ فِعل الأكل:

لفظُ الأكلِ محذوفٌ كحُكم الضَّرورة محذوفٌ في الأصل

في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾ حذفٌ، والتَّقدير: (فَمَنِ اضْطُرَّ فأكَلَ)، فحكمُ "الاضْطِرارِ ليس من أفعال المكلَّف حتَّى يُقال: إنَّهُ لا إثْمَ عليه؛ إنَّ اللّه غفور رحيم؛ فلا بُدَّ هاهنا مِنْ إضمارٍ، وهو الأكل، والتَّقدير: (فمَنِ اضْطُرَّ فأكَلَ فلا إثْمَ عليه)، والحذف هاهُنا كالحذف في قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة: 184]، فحُذف (فأفطر)، وإنَّما جاز الحذف لِعِلْم المُخاطَبينَ بالحذف، ولدلالة الخطاب عليه"(3)، ونكتةُ حذف الأكل الإشارة إلى عدم التَّساهل في الأكل، وأنَّه كما أنَّ لفظ الأكل محذوفٌ، فكذلك فِعْلُ الأكل يجب أنْ يكون كالمحذوف إلّا ضرورةً، وهذا من بديع عناية النَّظم بالإشارات إلى الضَّوابط الفقهيَّة.

نكتةُ اختيار لفظ الاضْطِرارِ دون الإجبار:

الاضْطِرارُ يَشْمَلُ الضَّرورَةَ الذّاتِيَّةَ والإجْبارَ الخارِجيَّ

آثَرَ النَّظْمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾ لفظَ الاضْطِرارِ دون الإجبار، فإذا كان الاضْطِرارُ بحيث "لا يَقْدِر

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 250.
(2) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 15/ 408.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 192.

الانسانُ على الامتناع مِنه بسببٍ موجِبٍ لذلك"[1]، وكان "الإجْبار في الأصْل حَملَ الغَيْر على الأمر، تُعورِفَ في الإكْراه المُجَرَّد، فقيل: (أجْبَرهُ على كَذا)، أيْ: أكْرَهَهُ فهوَ (مُجْبَرٌ)"[2]؛ فإنَّ الاضْطِرارَ أعَمُّ وأشْمَلُ؛ إذْ يكون نابعًا مِن داخل المُضْطَرِّ ويكون إكراهًا مِنْ خارجه، أمّا الإجبار فيَتَسَلَّطُ عليه مِنْ خارجه فقط؛ لذلك آثَرَ النَّظْمُ الكريم التَّعبير بالاضْطِرارِ؛ الذي يَسْتَوْعِبُ جميع حالات الضَّرورة التي قد يعانيها المُضْطَرُّ مِنْ داخله احتياجًا، أوْ مِنْ خارجه إكراهًا.

نكتةُ بناء فِعل ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ للمفعول:

أسبابُ الاضْطِرارِ عَديدَةٌ، والتَّرخيص فيها واحد

مِنْ بَديعِ الصّياغَةِ في جملة ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ بناء الفعل ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ للمفعول، ومعناه: "أُحْوِج وأُلْجِئَ، وهو افْتُعِلَ من الضَّرورة، وأصله مِنَ الضَّرَر، وهو الضّيق"[3]؛ ذلك أنَّ أسباب الاضْطِرارِ كَثيرَةٌ، وتعديدها يَخْرُجُ بالكلام عن حدِّ الإيجاز الممدوح، فمِنَ الاضْطِرارِ فُقْدانُ الطَّعام، ومنه الإكراه مِنَ الغير، ونحو ذلك، فحذف الفاعل ليشمل كلَّ مضيِّق على الإنسان ليأكل مِنَ المُحَرَّماتِ.

بَراعَةُ اختلاف أداتَي النَّفي: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾:

الأصْلُ أنْ يُحمَل اللَّفظ على عمومه، ولا يُخَصَّص إلّا بمُخصِّص

تعدَّدَت تأويل علماء الأمَّة في معنى ﴿بَاغٖ﴾، و﴿عَادٖ﴾ تعدُّدًا ثريًّا، و"الأصل في حَملِ اللَّفظ أنْ يُحْمَلَ على عمومه ولا يُخَصَّص إلّا بمخصِّص، فالبغي يَشْمَلُ كلَّ معانيه، وكذا العدوان، وعلى هذا فالعاصي بالبغي أوْ بالعدوان أوْ بالأكل لا يُرفَع عنه الإثمُ"[4].

ومِنَ اللّافت في صياغة الحالين: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ تَنَوُّعُ أداتَي النَّفي الدّاخلتين على كلٍّ منهما، والمتبادِر في ذلك أنَّ تنوُّع الحالات اقتضى تَنَوُّعَ الأدوات؛ فالمُضْطَرُّ في غير بغْيٍ، يَخْتَلِفُ عَنِ

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 66.
(2) الكفوي، الكلّيات، ص: 49.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 192.
(4) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 230.

المُضْطَرِّ في غير اعتداء، كذلك يحقّق ذلك التَّنَوُّعَ في الأدوات التَّفنُّن في الأسلوب، ويؤدّي إلى تلوين الكلام وإنْ كان الحُكم واحدًا.

نكتةُ تقديم (البغي) على (الاعتداء):

البغيُ تجاوزُ الحقِّ والإتيان بالباطل، والاعتداءُ تَجاوُزُ الحدِّ

لَمّا حَرَّمَ اللّه تعالى بعض المأكولات واستثنى عنها حال الضَّرورة، وهذه الضَّرورة لها سببان: أحدهما: الجوع الشَّديد، بحيث ألّا يَجِدَ مأكولًا حلالًا يَسُدُّ به الرَّمَقَ[1]، فعند ذلك يكون مضطرًّا، الثّاني: إذا أكْرَهَهُ على تناول المُحَرَّماتِ مُكْرِهٌ، فيَحِلُّ له تناوله[2].

وإنْ كان كُلٌّ مِنَ (البغي) و(الاعتداء) بمعنى تَجاوَزَ الحدِّ؛ فإنَّ البغي أبشع؛ ذلك أنَّ البغي فيه إشارةٌ إلى الاعتداء على الحقِّ جملةً والإتيان بما هو مُنْكَرٌ باطِلٌ، كَأنْ يأكل من المُحَرَّماتِ بحيث يُصْبِحُ الأَكْلُ مألوفًا، أمّا الاعتداء فهو تَجاوُزُ الحدِّ مُطلقًا، كَأنْ يأكل زيادة على ما ينبغي، ولذلك قُدِّمَ البغي على الاعتداء.

معنى الفاء ودلالتها على المحذوف:

رفعُ الإثم مأخوذٌ من جملةِ التَّعليل

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ "تَعْليليَّةٌ لجواب الشَّرط المُقَدَّرِ، وهو: فلا إثم عليه"[3]؛ إذْ إنَّ أصل التَّركيب قبل الإيجاز بالحذف: فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه؛ إنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ، وهذا المحذوف إنَّما فُهِمَ من جملة التَّعليل.

فسَعَةُ مغفرة اللّه تعالى وسَعة رحمته ﷻ هي سببُ رفْع الحَرج ودفْع الإثم عن المُضْطَرِّ إلى أكل شيءٍ من تلك المُحَرَّماتِ ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ بشرطيهما: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.

غَرَضُ التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

الإخْبارُ بأنَّ ﴿ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ليس محلَّ شكٍّ عند المؤمنين

---

(1) "الرَّمَقُ: بقية الحياة"، يُنظر: الخليل، العين: (رمق).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 192.

(3) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 231.

طَمأنَةُ نفوس المؤمنين بتأكيد المغفرة والرَّحمة

المُخاطَبِينَ بهذه الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ وعلى ذلك فإنَّهُم لا يحتاجون إلى توكيد جملة التَّذييل التَّعليليَّة (إنَّ الله غفور رحيم)؛ فوَجَبَ أنْ يكون التَّوكيد لعظمة هذا الخبر في نَفْسه بقطع النَّظر عن حال المُخاطَب، كما قال ابن حجر في الفتح: "وَقَدْ يَكونُ التَّأْكيدُ مِنْ جِهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهْتَمُّ بِهِ وإنْ لَم يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"[1]، ونكتةُ التَّوكيد هنا من جهة طَمأنَةِ المُخاطَبِينَ بالمغفرة والرَّحمة، لا سيَّما بعد اقتراف الأكل في حال الضَّرورة، فإنَّ المؤمن تُراوِدُهُ نفسُه بعد تَجاوُزِ المِحْنَةِ أنَّه لو لم يفعل لكان أفضل، فتأتي هذه الجملة التَّعليليَّة مُزيلَةً لمثل هذا الحرَجِ النَّفسيِّ، والضّيقِ القَلْبيِّ.

نكتةُ جمع وصفَي ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

من عظيم التَّشريع القرآنيِّ الجَمعُ بين التَّرخيص والعفو

الجَمعُ في هذا الخبر المؤكَّد بين الوصفين: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَطْمينٌ للعبد المُضطرِّ أنَّ ربَّه ﷻ "غفورٌ، ساترٌ عليه ذنبه، فلا يُؤاخِذُهُ به، رحيم به أنْ يُعاقِبَهُ على ذلك"[2]، "غفور فيما أكل، رَحيمٌ حين رخَّص له في أكل المَيْتَةِ عند الاضْطِرارِ"[3]، غفور "للمُضطرِّ عن هذا المنكَر الَّذي ألَمَّ به، وعليه أنْ يُخَلِّصَ نفسه منه في أقرب فرصة تسنح له، إنَّهُ أشْبَهُ بِالتَّقيَّةِ، التي يَتَّقي فيها المؤمن بلسانه الأذى الَّذي يَعْرِضُ له، إذا هو وقع بيَدِ عدوٍّ من أعداء الله"[4].

نكتة استعمال صيغتي المبالغة في الوصفين:

صيَغُ المبالغة في أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العُلى تناسب عظمته في ذاته وصفاته، فهنا تُتَرْجِمُ صيغتا المبالغة: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عن كثرة مَن يَتَفَضَّلُ ﷻ عليهم بالمغفرة والرَّحمة، وهو ﷻ

(1) العسقلاني، فتح الباري: 1/ 74.
(2) مكّي، الهداية الى بلوغ النهاية: 6/ 4106.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 295.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 386.

القائل: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156]، والقائل: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 135]، وهاتان الصّيغتان مختصٌّ كلٌّ منهما بما اختصَّت به في الاستعمال القرآني.

لطيفة تقديم وصف ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمُ﴾:

تَخْلِيَةُ العبد مِنْ آثار الذُّنوب مُقَدَّمَةٌ على شموله بالرّحمات

دَرَج الذِّكْرُ الحكيم على تقديم ذِكر ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمُ﴾؛ لِأَنَّ الرَّحمة عِلَّة المغفرة، فكأنَّه قال: أغفر لكم لِأنّي أرحمكم، كذلك في المغفرة تَخْلِيَةٌ وتَطْهيرٌ للعبد مِنَ المعاصي وآثارها، والرَّحمة تَحْلِيَةٌ له وإكرام بالكرامات، والتَّخْلِيَةُ مُقَدَّمَةٌ على التَّحْلِيَةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاضطرار والإجبار:

الاضطِرارُ أعَمُّ مِنَ الإجبار

"الاضْطِرارُ: كون الشَّيء بحيث لا يَقْدِرُ الانسان على الامتناع منه بسبب موجبٍ لذلك"[1]، و"الإجبار في الأصل حَملُ الغَيْرِ على الأمر، تُعورِفَ في الإكراه المُجَرَّد، فقيل: (أَجْبرهُ على كَذا) أيْ: أكرهه فهوَ (مُجْبَرٌ)"[2]، فالاضْطِرارُ أعَمُّ وأشْمَلُ؛ إذِ الاضْطِرارُ قد يكون نابعًا من داخل المُضْطَرِّ، وقد يكون مِنْ خارجه، أمّا الإجبار فيَتَسَلَّطُ عليه مِن خارجه.

البغي والعُدوان:

البغيُ أشدُّ الظُّلم، والعدوان بما يكون على الآخرين

"البغي: الاستطالة والخروج عن الواجب في الدّين أو في العِشرة، وقيل أصل البغي: الحسَد، ثمَّ سُمّيَ الظُّلم بغيًا؛ لِأنَّ الحاسد ظالم، وكلُّ مَن فعل فعلًا ليس له أنْ يفعله؛ ليؤذي به غيره فقد بغى"[3]، و"البَغْيُ: التَّعدّي، وبَغى الرَّجُل على الرَّجُل: استطال"[4]، "والعادي:

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 66.
(2) الكفوي، الكلّيات، ص: 49.
(3) الحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم: (بغى).
(4) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (بغى).

الظّالم، يُقالُ: أشْمَتَ اللّهُ بِكَ عاديَكَ، أيّ: عَدوَّك الظّالمَ لَكَ، والاعتداء والتَّعدّي والعُدْوان: الظُّلم، وقَوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البَقَرَة: 194]، الأوَّلُ ظُلْمٌ، والثّاني جَزاء"[1]، و"العدوان: أسوأ الاعتداء في قَوْلٍ أوْ فِعْلٍ أوْ حالٍ"[2].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (عدا).

(2) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 238.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٧﴾ [النحل: 116 - 117]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الانتقالُ مِنْ ذِكْرِ المُحَرَّماتِ إلى ذِكْرِ افتراء المشركين لتحليلها

مناسبة الآية لِما قبلها أنَّهُ تعالى "لَمّا حَصَر المُحَرَّماتِ في تلك الأربع بالَغ في تأكيد ذلك الحصر، وزيَّف طريقة الكفّار في الزّيادة على هذه الأربع، وفي النُّقْصانِ عنها أخرى، فإنَّهُم كانوا يُحرِّمون البَحيرَةَ والسّائِبَةَ والوَصيلَةَ والحامَ، وكانوا يقولون ما في بطون هذه الأنْعامِ خالِصَةٌ لذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا.

فقد زادوا في المُحَرَّماتِ، وزادوا أيضًا في المُحَلَّلاتِ؛ وذلك لِأنَّهُم حلَّلوا الميتة والدَّم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير اللّه تعالى، فاللّه تعالى بيَّن أنَّ المحرَّمات هي هذه الأربعة، وبيَّن أنَّ الأشياء التي يقولون إنَّ هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ كَذِبٌ وافتراء على اللّه تعالى، ثم ذكَر الوعيد الشَّديد على هذا الكَذِبِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَصِفُ﴾: أصلُ (وَصَفَ): أَصْلٌ واحِدٌ، هوَ تَحْلِيَةُ الشَّيْءِ، ووَصَفْتُهُ أصِفُهُ وصْفًا، أي: حلَّيتُهُ، والصِّفَةُ: الحلية، والصِّفَةُ: الأمارَةُ اللّازِمَةُ لِلشَّيءِ، كما يُقالُ وزَنْتُهُ وزْنًا، والزِّنَةُ: قَدْرُ الشَّيْءِ، يُقالُ: اتَّصَفَ الشَّيءُ في عَيْنِ النّاظِرِ: احْتَمَلَ أن يوصَفَ[2]، والوَصْفُ أيضًا: النَّعتُ، يُقالُ: وصَفَ الشَّيءَ يَصِفُهُ وصفًا وصِفَةً إذا نَعَتَهُ بما فيه، والجمعُ: أوصافٌ، ويأتي الوَصفُ بمعنى: الحالَة والهيئة الَّتي يكون

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 281.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصف).

عليها الشَّيء، كالجمال واللَّون، من قَولِهم: وصَفَ الثَّوبُ الجِسمَ، أي: أظهَر هيئتَه وبيَّنه[1]، وحَقيقَةُ الوَصفِ في الآيةِ: ذِكْرُ الصِّفاتِ والحُلَى، ثُمَّ أُطْلِقَ على القَولِ المُبينِ المُفَصِّلِ[2].

2) ﴿لِّتَفۡتَرُواْ﴾: أصلُ الفَرْيِ: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر[3]، والفِرْيَةُ الكَذِبُ، فرَى كَذِبًا فرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: 38]؛ أي اخْتَلَقَهُ[4]، قال السِّجستاني: "الافتراء: العَظيم من الكَذِب، يُقالُ لِمن عَمِل عملًا، فبالغ فيه إنَّه ليفري الفَري يَعْني ليقطع الأمر العجيب"[5]، والمُرادُ بالافتِراءِ في الآيةِ: الكَذِبُ الَّذي لا شُبْهَةَ لِلكاذِبِ فيه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الافــــتراءُ على شرع الله تعالى ديـدنُ المعتدين ومهارةُ الآثمين

تُخاطِبُ الآيةُ الكُفّارَ الَّذينَ حرَّموا البحائر والسَّوائب[6]، والمعنى: "ولا تقولوا القَوْلَ الكَذِبَ لِما تَصِفُهُ ألسنتكم بالحِلِّ والحُرمة في قولكم ما في بطون هذه الأنعام خالِصَةٌ لذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا من غير استنادٍ في ذلك الوصف إلى وحْيٍ مِنَ اللّٰه تعالى أَوْ قَياسٍ أَوْ سَنَدٍ شرعي، لا تقولوا القول الكذب: حَلالٌ وهذا حَرامٌ.

ولا تُحَرِّموا ولا تُحَلِّلوا لأجل قَوْلٍ تنطق به ألسنتكم كذبًا وزورًا، ويجول في أفواهكم بلا حُجَّة ولا بيِّنة، إنَّ الَّذين يفترون على اللّٰه الكذب لا يفلحون أبدًا، وما تراهم فيه في الدُّنيا فعَرَضٌ زائل وعارية مستردَّة، ومتاع قليل، ولهم في الآخرة عذاب أليم جدًا يَصْغُرُ بجانبه كُلُّ متاع قليل في الدُّنيا"[7].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (وصف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 192.
(3) الراغب، المفردات: (فري).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(5) السجستاني، غريب القرآن، ص: 103، والكفوي، الكليات، ص: 154.
(6) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/ 445.
(7) حجازي، التفسير الواضح: 2/ 343.

التَّهَجُّم على الفتوى بالحلِّ والحُرْمة مِنَ الخطورة بمكان

يقول العلماء استنباطًا مِنْ هذه الآية الكريمة: "ما مِنْ قارئ يقرأ هذه الهداية إلّا امتنع عن الهجوم بقوله: حلالٌ وحرامٌ، إلّا إذا كان النَّص على التَّحريم من قرآن أوْ أحاديث النُّبوة، ولقد كان إبراهيم النَّخعي، وهو من أئمَّة فقه الرَّأي كان إذا وصل برأيه إلى حُكْم يفيد التَّحريم لا يقول: حرامٌ، ولكن يقول أكرَهُ، وإذا وصل بقياسه إلى حُكْم يُفيدُ الحِلَّ قال: ليس مِن بأس، أوْ أسْتَحْسِنُ هذا؛ مُتحرِّجًا أنْ يقول حرامًا أوْ حلالًا؛ لكي لا يكون مِمَّنْ دخلوا في حُكْمِ هذه الآية"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾:

صريحُ العبارات فيه إلماحٌ لخفيِّ المعاني

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ استئنافيَّة[2]، أو عاطفة[3]، إذ "عاد الخطاب إلى المشركين بقرينة قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾، فالجملة معطوفة على جملة ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾، وفيه تعريضٌ بِتحذير المسلمين؛ لِأنَّهم كانوا قريبي عهدٍ بجاهليَّة، فرُبَّما بقيَت في نفوس بعضهم كراهيةُ أكل ما كانوا يتعفَّفون عن أكله في الجاهليَّة"[4]، وكأنَّ هذا الخطاب من باب: إيّاكِ أعْني واسْمَعي يا جارَة.

غرضُ النَّهي:

كَشْفُ كذبِ المفترين على الله في التَّحليل والتَّحريم

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ﴾ "عُلِّقَ النَّهيُ بِقولهم: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾، ولم يُعَلَّقْ بالأمر بأكل ما عدا ما حرَّم؛ لِأنَّ المقصود النَّهيُ عن جعل الحلال حرامًا والحرام حلالًا، لا أكل جميع الحلال وتَرْكَ جميع الحرام حتَّى في حال الاضْطِرارِ؛

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4293.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 408.

(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 178.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 310.

لأنَّ إمساكَ المرء عن أكل شيء لِكراهيةٍ أو عَيْفٍ[1] هو عملٌ قاصر على ذاته"[2].

والمعنى: "ولا تقولوا: هذه الميتة حلال، وهذه البَحيرة حرام، من أجل كذبكم، وإقدامكم على الوصف، والتَّخرُّص لِما لا أصل له"[3].

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تَقُولُواْ﴾:

تَحْرِيمُ الافتراء حالًا ومستقبلًا

التَّعبير بالمضارع المنفي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ يحذِّر المُخاطَبينَ من أصل ذلك القول الكاذب؛ لِأن النَّفي يَسلُب المضارعَ دلالة التَّجدُّد الكامنة فيه، كما يسلبه معنى الإثبات؛ فيؤول المعنى إلى وجوب دوامهم على امتثال تعاليم اللّه تعالى في الذَّبائح حِلًّا وحُرمةً، فالنَّهي لِأنْ يصدر عنهم قولٌ مفاده التَّحريم والتَّحليل من غير إذن اللّه تعالى، في الحاضر والمستقبل، وهذه دلالة التَّجدُّد في صيغة المضارعة.

معنى اللّامِ في قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾:

التَّحْلِيلُ والتَّحْرِيمُ نتيجةُ المُعْتَقَدِ الفاسِدِ الصّادِرِ عن اللِّسان الجائر

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ إمّا أنْ تكون "لام سببٍ وأجْلٍ، كما يقال: فعلتُ هذا لكَ، أيْ لأجلك وبسَببك، والمعنى: ولا تقولوا لأجل وصفكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرامٌ؛ أيْ إنَّكُم تُحِلّون وتُحَرِّمون لأجل الكذب لا لغيره، فليس لِتَحْريمِكُم وتَحْليلِكُم معنًى وسببٌ إلّا الكَذِبُ فقط، فلا تفعلوا ذلك"[4].

أَوْ أنْ تكون "إحدى اللّامين اللَّتين يتعدَّى بهما فِعلُ القول، وهي التي بمعنى (عَن) الدّاخلة على المُتحدَّث عنه، فهي كاللّام في قوله

(1) "عافَ الرجلُ الطعامَ أو الشراب يَعافُهُ عِيافًا، أي كرهه فلم يشربْه ...، وعافَتِ الطيرُ تَعيفُ عَيْفًا، إذا كانت تحوم على الماء أو على الجيَف وتتردّد ولا تمضي"، يُنظر: الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم: (عيف).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 311.

(3) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 2/ 590.

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 221.

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ [آل عمران: 168]، أيۡ: قالوا عن إخوانهم، وليست هي لامُ التَّقوية الدّاخلة على المُخاطَبِ بالقول"(1).

"وكون (اللّام) للتَّعليل أرجح؛ لأنَّ النَّص على بطلان مصدر التَّشريع ﴿لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ أقوى مِن النَّص على كذِب القول النّاشئ عن المصدر؛ لِأنَّ الطَّعن في الأساس أبلَغ مِن الطَّعن في الفرع، والأساس هو: ما تصفه الألْسُنُ من كون هذه سائبة أوۡ بحيرة أوۡ وصيلة، والفرع هو: القول بِأنَّ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ بناءً على ما سَبَق مِن وصفٍ"(2).

وصفُ اللِّسان بغير الحقِّ طريق النِّيران

معنى (ما) ودلالتها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ﴾ موصولة، أيۡ: ولا تقولوا الكذب لِلَّذي تصفُه ألسنتُكم مِن البهائم بالحِلِّ والحرام(3)، أوۡ "مصدريَّة، وهي مع مدخولها في محلِّ جرٍّ باللّام والجار، فيكون المعنى: ولا تقولوا هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لوصف ألۡسِنَتِكُم الكَذِبَ، أيۡ: لِتَعَوُّدِها عليه وجريانها به، أيۡ: لا تُحَلِّلوا ولا تُحَرِّموا لأجل قولٍ تنطقُ به ألۡسِنَتُكُم، وهو قولٌ مدفوعٌ لا تقوم به حُجَّة"(4).

أهلُ الباطلِ يصفون الكذب بأبهى الصّور ليَنطلي على الحمقى التّابِعين

براعةُ التَّعبير باختيار مُفردة الوصف:

آثرَ نظمُ الآية مُفردة (وصف) في قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ دون لفظةِ (قول)، فلم يَقُلۡ: (لما تقوله)؛ فوصَفُ ألسِنَتِهمُ الكذبَ، يعني تمثيلَها إيّاه، وترجمتَها عنه، وتشخيصَه فيه، "وتصويرَها له بصورة مُسۡتَحۡسَنَة، وتزيينَها له في المسامع كأنَّ ألۡسِنَتَهُم لكونها منشأً للكذب ومنبعًا للزّور شخصٌ عالمٌ بِكُنۡهِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 311.
(2) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 233.
(3) الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/ 151.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 380.

ومُحيطٌ بحقيقته، يصفه للنّاس ويُعَرِّفه أوضحَ وصفٍ وأبينَ تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية، كما يُقال: وجهُه يصفُ الجمالَ، وعينُه تَصِفُ السِّحْرَ"[1].

فـ"قوله تعالى: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ من فصيح الكلام وبليغه؛ كَأَنَّ ماهيَّةَ الكذب وحقيقتَه مجهولةٌ، وكلامُهم الكذب يكشف حقيقة الكذب، ويوضِّح ماهيته، وهذا مبالغ في وصف كلامهم بكونه كذبًا"[2]، وهو "تعبير عربيٌّ مُبينٌ للمُبالغة؛ جُعلت الألسنة لاسْتِساغَتِها الكذب وجريانه عليها، وتردُّده فيما تنطق به دائمًا كَأنَّها تَصِفُه وتُجسِّده للسّامع، أوْ كَأنَّ الكَذِب أمرٌ مجهول وعليهم تِبيانه للنّاس، وكَشْف الغطاء عن خوافيه؛ فهو بهذا الاعتبار مجاز عقليٌّ"[3].

ويَحْتَمِلُ التَّعبير بالوصف معنى: "لا تقولوا ذلك وصفًا كذبًا؛ لِأنَّه تَقَوُّلٌ لَم يَقله الَّذي له التَّحليل والتَّحريم وهو اللّه تعالى"[4]، و"أنَّ ما تقولونه يوحي مِن تلقاء نفسه أنَّهُ كَذِب، فكلمة ﴿تَصِفُ﴾ وكلمة (تَصِفونَ) غلب في استعمالهما للكلام الَّذي يَحْمِلُ معه دليلَ كَذِبه"[5]؛ ففيه كناية عن صِفة.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَصِفُ﴾:

افــتراءُ الـكـذب ديــدنُ الـكـفّـار ولحنُ الفجّار

المَقْصودُ بالفِعل ﴿تَصِفُ﴾ أيَ: تَذْكُرُ[6]، وتقولُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ[7]، وتدُلُّ صيغة المضارعة في الفِعل ﴿تَصِفُ﴾ على أنَّ ذلك الوصف الكاذب الَّذي يُحرِّم ما أحلَّ اللّه تعالى، ويُحلِّلُ ما حرَّم اللّه تعالى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 147.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 282.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 381.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 311.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/ 7033.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 418.
(7) ابن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/ 475.

صار دَيدَنهم، يُرَدِّدونَهُ ويُصِرّونَ عليه، ولا يزالون بِه يُظْهِرون عداوَتَهم للشَّرع الحنيف، ففيه مزيدُ تَشْنيعٍ عليهم، وتهديدٍ لهم.

نكتة إسناد وصف الكذب إلى الألسن:

عندما يتولَّى الافتراءَ اللِّسانُ يُغيِّب منطق الأذهان

في إسناد وصف الكذب إلى الألسن في قوله تعالى: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مَزيدُ تَشْنيعٍ عليهم؛ إذ يُقرِّر الإسناد أنَّهُم يَعلمون في قرارة أنفُسهم أنَّهُم كاذبون، وأنَّ ذلك لا يُجاوز أَلْسِنَتَهُم إلى قلوبهم، وذلك على حدِّ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: 11].

كذلك في إسناد قول الكذب إلى أَلْسِنَتِهَم "زيادةٌ في بيان بَشاعة فِعلهم، فهؤلاء يَفترون الكذب على اللّه تعالى بأَلْسِنَتِهَم التي خلَقها اللّه كَيْ تَذْكُرَهُ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 56]"[1].

نكتةُ جمع الألسنة:

جمع (الألسن) يُشيرُ إلى تواطؤ أهل الباطل

في جمع الألسنة في قوله تعالى: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مبالغةٌ في تقبيح تحريمهم ما أحلَّ اللّه تعالى، وتَحْليلِهم ما حَرَّمَ اللّه تعالى؛ وذلك لِما في جمع الألسنة مِنَ التَّكثير، الَّذي يدلُّ على كثرة ضجيجهم في قضية الكذب على اللّه تعالى، ويدعم ذلك قراءة (الكُذُبُ) بالضَّمِّ وصفًا للألسنة نفسِها، وهي "جمع كذوب، وهي قراءة معاذ، وابن أبي عبلة، وبَعْضِ أهلِ الشّام"[2]، كما أنَّ جمع الألسن يدلُّ على تواطؤ أهلِ الباطل في هذا الصَّنيع، وأنَّ السّاكت عن القول مع الرِّضا به كقائله.

كما أنَّ جمع الألسنة هنا يحكي اعتماد المفترين على كثرة ضجيجهم، ومؤازرة بعضهم بعضًا في خِضَمِّ المغالطات الإعلاميَّة، التي تتَّخذ من ذلك منهج تشويش على التَّشريع الحقِّ.

---

(1) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 233.
(2) الأبياري، الموسوعة القرآنية: 5/ 373.

سرُّ إيثار لفظ الكذب دون ما يُقاربه:

في إيثار التَّعبير بالكذب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ تأكيد لعلمهم بكذبهم على الشَّرع الحنيف، وذلك بخلاف ما لو جاء التَّعبير بالكفر الذي قد يكون عن قناعة وعقيدة، وبخلاف الضَّلال الَّذي يقول أيضًا بِاخْتِلالٍ في الفكر وانْحِرافٍ في الاعتقاد.

الكَـذِبُ صادرٌ عن عقلٍ واعٍ، وقلبٍ في المُنْكَرِ ساعٍ

أمّا لفظُ ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ الَّذي آثَرَ النَّظْمُ الكريم التَّعبير به عن وصفهم فيؤكِّد أنَّ عقيدتهم على خلافه، وأنَّهُم يكذبون لُمجرَّد الكذب، وأنَّهُم "يفترون على الله الكذب، أيْ يَقْطَعونَ به، وليس مُجَرَّدَ تكذيب في سياق التَّفكير والبحث عن الحقِّ"(1).

بلاغة تعريف ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾:

تَعْريفُ الكَذِبِ في قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ يدلُّ دلالة جليَّة على أنَّ هذا النَّوْعَ من الافتراء هو أقْبَحُ صوَرِ الكذب، وأشَدُّها جُرمًا في ميزان الشَّرع الحنيف، كيف لا؟ وهو كذبٌ في التَّشريع المُختصّ بالمشرِّع الأعلى ﷻ.

أعظمُ كذبٍ عرَفته البشريَّة الكذبُ في التَّشريع

إنَّ الاجتراء على اقتحام التَّشريع بعامَّة، والتَّشريع في جانب التَّحليل والتَّحريم بخاصَّة تجرُّؤٌ على سُلطة شرعيَّةٍ تنزَّلت من السَّماء لإحكام حياة أهل الأرض، كما في زعمهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ [الأنعام: 139]؛ فناسب جُرمَها تعريفُ ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾؛ ليُنبِّههم ذلك التَّعريف إلى أنَّ "تحليلكم وتحريمكم ليس له معنىً إلّا الكذب"(2)، وأنَّ "ما تصف أَلْسِنَتُهُم إلّا كذبًا، ولا تقول إلّا زورًا وبهتانًا"(3) صُراحًا؛ مبالغةً في التَّشنيع على مَن يجرؤ أنْ يُحِلَّ ما حرَّم الله تعالى، أو يحرِّم ما أحلَّ الله ﷻ.

(1) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 233.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 2/ 591.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 387.

سِياقاتُ النَّظْمِ القرآني تُعالِجُ المقامات بدقَّة لافتة

نُكتة حذف المشار إليه:

طوى النَّظْمُ الكريم المشار إليه باسم الإشارة في قولهم: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ ما صرَّح به في سياقات أخرى مِن صور ما حرَّمه الكفّار وما أحلّوه مُخالفين فيه حُكْمَ اللّه تعالى؛ لِأَنَّ الغَرَضَ هنا ليس تعديد المُحَرَّماتِ والمُحَلَّلاتِ التي خالفوا فيها شأن السّياقات الأخرى.

بل المَقامُ هنا مَقامُ مقابَلةِ توجيهٍ إلى الحلال المُجْمَلِ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ بِتَنْديدٍ مُجْمَلٍ لجرائم مُخالَفاتِهِم ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، فاكتفى النَّظْمُ الكريم هنا بـ "اسم الإشارة حكايةً بالمعنى لأوصافهم أشياء بالحِلِّ وأشياء بالتَّحريم"[1].

واسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ أَوْجَزُ عُنصرٍ لغويٍّ يَسْتَحْضِرُ أمام الأذهان ما اجترأوا على تحليله وتحريمه مخالفين فيه لحكم اللّه تعالى، ويطويه في أيسر لفظ؛ ليتفرَّغ ذهن المتلقّي للقضيَّة الأصل في السّياق، ولا يَنْشَغِلَ بتفاصيل أنواع المُحَرَّماتِ والمُحَلَّلاتِ المخالفات لشرع اللّه ﷻ.

كُلُّ حلالٍ أوْ حرامٍ في غير الشَّرع فهو كذبٌ

فائدةُ تقسيم الكلام:

قول اللّه تعالى - حكايةً لمخالفات الكفّار -: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ الَّذي هو "بدلٌ من الكذب"[2]، وفيه يُحَقِّقُ النَّظْمُ الكريم التَّوازنَ بِذِكر القسمين المُحتمَلَين: ﴿حَلَٰلٌ﴾ و﴿حَرَامٌ﴾ إجمالًا، وبإيجاز يُلائِمُ دِقَّة السّياق، وتركيزه على معالجة قضيَّة الكذب لا تفاصيل المكذوب فيه، فالكذب حاضرٌ في القسمين، الحلال والحرام.

معنى اللّام في: ﴿لِّتَفْتَرُواْ﴾:

علمنا أنَّ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ "مَقولُ قولهم، أيْ إنَّ قولهم عن مَطْعوماتِهِم: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ هو قَوْلٌ كَذِبٌ،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 311.

(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 239.

مَآلُ الكَذِبِ على الله تعالى افْتِراءٌ وبُهْتانٌ

قالوه لينتهي بهم إلى الافتراء على اللّه تعالى؛ فاللّام في قوله تعالى: ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ هي لام العاقبة"[1]، فـ "تُحَلِّلونَ وتُحَرِّمون بِناءً على أهوائكم، فتكون النَّتيجة أنَّكُم تفترون على اللّه الكذب"[2].

و"لا يَتَضَمَّنُ حَرْفُ اللّام معنى الغَرَض؛ لأنَّ ما صدر عنهم من تحليلٍ وتحريم دون أنْ يأذن به اللّه تعالى ليس الغرضُ منه افتراءَ الكذب فحسب، بل هناك أغراض أخرى كظهورهم بمظهر أولي العِلْم، وكَحُبِّهِم للتَّباهي والتَّفاخر"[3].

نكتة ذِكر افتراء الكذب دون الكذب مباشرة:

الافْتِراءُ بيانٌ لمنهج التَّخطيط للكذب، ومَكْرُ الكيد في إقناع العوام

الافْتِراءُ هو الاخْتِلاقُ الَّذي لا رصيد له من واقع يُصَدِّقه، وهو "أشنع أنواع الكذب"[4]؛ فالتَّعبير به يُقَرِّرُ أنَّ هؤلاء يدَّعون ادِّعاءً لا دليل عليه، ولا وجود له، وأنَّهُم متقوِّلون بالفِرَى على اللّه تعالى، وعلى رسوله ﷺ، وعلى الكتاب المجيد، وقد جُعِل الكذب مفعولًا للافتراء، وأوقِع الافتراء عليه، وذُكِر الكذب والافتراء في الآية الكريمة ﴿تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ خمس مرّات، و"أُكِّد فيها فعلُ الافتراء بمفعوله الَّذي هو بمعنى المفعول المُطلَق؛ لكونه آئلًا إليه المعنى"[5]؛ فتَكاثَفَتْ أسْبابُ الذَّمِّ على هؤلاء الكاذبين المجترئين على شرع اللّه تعالى؛ موازاة لِقُبح اجترائهم.

وليس قوله قبله: ﴿تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ "بِتِكْرارٍ مع قوله: ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾؛ لِأنَّ هذا لإثبات الكذب مطلقًا، وذلك لإثبات الكذب على اللّه تعالى؛ فهو إشارة إلى أنَّهُم لتمرُّنهم

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 387.
(2) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 233.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 252.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 252.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 290.

على الكذب، اجترأوا على الكذب على الله ﷻ، فنسبوا ما حَلَّلوهُ وحَرَّموهُ إليه"[1].

فائدة تقديم الجار والمجرور على المفعول:

قَدَّم النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المفعول ﴿ٱلْكَذِبَ﴾؛ فقرَّر للحُكم على افتراء الكذب ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ خصوصًا جُرْمًا إلى أصل جُرمه عمومًا.

بلاغةُ الحذف بدلالة حرف الاستعلاء:

الاستعلاءُ على شرعِ الله تعالى غايةُ الكفر وصدارة القُبح

اسْتُعْمِلَ حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ في جملة ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ﴾ للإشارةِ إلى التَّآزر مع بقيَّة عناصر التَّركيب على بيان فداحة الإثم الَّذي يُقارِفُهُ هؤلاء المجترؤون بتحليلهم وتحريمهم خلاف ما حَكم به الله تعالى.

ذلك أنَّ حرف الاستعلاء يَحْتَفِظُ بدلالة العُلوِّ، فالتَّعبير به في قوله تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ صريح في الدِّلالة على أنَّ المجترئ على مُضادَّة حُكم الله تعالى مُسْتَعْلٍ بمخالفته على حُكم الله ﷻ؛ فهو اسْتِعْلاءٌ مَجازيٌّ، على تقدير محذوفٍ، أيْ: على حُكم الله تعالى، أوْ على شرع الله تعالى، ونكتةُ الحذف بيانُ بشاعة هذا الافتراء، وقُبح هذا الاستعلاء، وأنَّه استعلاءٌ ناشزٌ عن سلوك الأسوياء.

توجيه جملة ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ﴾:

التَّحليلُ والتَّحريمُ بغير إذن الله افتراءٌ عليه كذبًا

قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ "ليس فيه بيان كذب على الله تعالى، فأعاد قوله ﷻ: ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ﴾ ليَحْصُلَ فيه هذا البيان الزّائد، ونظائره في القرآن كثيرة، وهو أنَّهُ تعالى يَذْكُرُ كلامًا ثُمَّ يُعيدُهُ بعينه مع فائدةٍ زائدة"[2]، فجملة: ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 418.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 282.

﴿ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ لِأنَّ وصفهم الكذب هو افتراء على اللّه سبحانه، ففُسِّر ذلك الوصف والكذب بالافتراء على اللّه"[1].

ولقد تساءل العلماء: "إنْ قيل: كيف سَمّاهُم مفترين على اللّه بتَسْميَتِهِمُ الحَرامَ حلالًا، والحَلالَ حرامًا؟ قيل: لِأنَّ التَّحليل والتَّحريم، والأمر والنَّهي ربوبيَّة، فإذا حرَّموا شيئًا أحلَّه اللّه، أو أحلّوا شيئًا حرَّمه اللّه فكَأنَّهُم على اللّه افترَوا أنَّهُ حرَّم أو أحلَّ، أو حرَّموا هم وأحلّوا، فأضافوا ذلك إلى اللّه أنَّهُ هو الَّذي حرَّم أو أحلَّ، فقد افتروا على اللّه؛ لِأنَّ مَن أحَلَّ شيئًا حرَّمه اللّه، أو حرَّم شيئًا أحلَّه اللّه - فقد كفَر، وليس من انتفع بالمحرَّم أو ترك الانتفاع بالمحلَّل - قد كفَر؛ إنَّما يصير آثمًا مجرمًا، وكذلك تارك الأمر ومرتكب النَّهي"[2].

عِلَّةُ فصْلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾:

"جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾ مُسۡتَأۡنَفَةٌ، مَسوقةٌ لتعليل ما قبلها"[3]، أيۡ: لا تقولوا ذلك الكلام الكاذب من تحريف أحكام الأنۡعام؛ لِأنَّهُ يؤدّي بكم إلى الخسران المُبين، ولا يوصِّلكم إلى الفلاح الَّذي تطلبونه به.

بلاغة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

الــذي يفتري الــكــذب على الــلــه لــيس أهــلًا لِشريف الخطاب

التَفَتَ النَّظۡمُ الكريم من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ إلى أُسلوبِ الغَيۡبَةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾؛ وذلك للانصراف عن الكافرين

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 223.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 587.
(3) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 15/ 409.

جملةً، تقبيحًا لهم وإهانةً لسلوكهم؛ ولتقرير قاعدة فيها بيان المفترين على الله الكذب في الآخرة.

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول الجمعيِّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾ "هم المشركون الَّذين حرَّموا أشياء"[1] لم يُحَرِّمها الله تعالى، وقد عبَّر عنهم هنا بالاسم الموصول "للدّلالة على أنَّ الصِّلة ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ هي السَّبب في عدم الفوز"[2]؛ فالذي رجَّح استعمال الموصول على غيره من أدوات التَّعريف أنَّهُ يُتيحُ ذِكْرَ جملة الصِّلة، التي تنصُّ صراحةً على سبب خسرانهم، وعدم فوزهم.

التَّشهيرُ بالمفترين بصلةٍ لا تنقطع عنهم إلى يوم الدِّين

وإلى ذلك فإنَّ الاسم الموصول يُعَرِّفُ بالمشركين بهذه الصِّلة، فيَجْعَلُها عليهم سِمَةً؛ فإنَّهُم ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، وكذلك في الاسم الموصول إيماءٌ إلى وجه بناء الخبر ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾؛ فما داموا ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، فإنَّ الخبر عنهم سيكون من وادي ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾، وبهذا يُحَقِّقُ الاسم الموصول تواثقًا للكلام ورَبْطَ أوَّلِه بآخره.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

مَنِ اسْتَطالَ في الافتراء أطالَ في الاسْتِمراءِ

آثَرَ النَّظْمُ الكريم صيغة المضارعة ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ للإيحاء بِأنَّ هؤلاء المجترئين على دين الله تعالى يُجَدِّدونَ افتراء كذبٍ على الله تعالى بعد افتراء، لا تواتيهم فُرْصَةُ افْتِراءٍ إلّا اقتنصوها، فلا يَمنَعُهُم تأدُّبٌ مع الله تعالى، ولا يُنَبِّهُهُم تَطاوُلُ الزَّمن بهم إلى خطئهم، فيَرْتَدِعوا.

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور في ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

افْتِراءُ الكَذِبِ على اللهِ خصوصًا يُفاقِمُ جُرْمَ الافتراء عمومًا

تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ في الجملة المؤكِّدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾: يُلْفِتُ بقوَّة إلى خطورة تلك الجراءة، ويُبَشِّعُ في النُّفوس افتراء الكذب ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى خصوصًا، ويهدِّد فاعله بارتكابه جُرْمًا إلى أصل جُرم الكذب المعلوم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 311.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4292.

توجيه تخصيص نفي الفلاح بالذِّكر:

غَرَضُ المفترين دنيا فانية فجزاؤهم نارٌ باقِيَةٌ

الفلاح هو "الظَّفَر بما يُؤَمَّل"[1]، فمعنى ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ "أيْ: لا يَخْلُدون في الدُّنيا، ولا يَبْقَون فيها"[2]، و"لا يفوزون بمحبوبٍ، ولا يَنْجوْنَ من مكروه"[3]، "ولا يفلحون في الوصول إلى مأمول"[4]، فتلك كلها رغائبهم قد ضلَّت السَّبيل إليهم، وضلّوا السَّبيل إليها.

وقد نَفَتْها الآية الكريمة عنهم، ولم تَنْفِ الإيمان أو الإسلام؛ وذلك لِأَنَّهُم إنَّما ارتكبوا مخالفة شرع الله تعالى تحليلًا وتحريمًا، بغرض الظَّفَر بِذلك النَّفْعِ العاجل في الدُّنيا، لا بِغرض تحصيل الإسلام أو الفوز بالإيمان الأبقى نفعًا في الآخرة، فصَرَّحَ النَّظْمُ الكريم بِأَنَّهُم "لا يفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراءَ للفوز بها"[5] في الدُّنيا، وإلى ذلك "لا يَنْجوْنَ من العذاب"[6] في الآخرة.

غرض التَّأكيد بالجملة الاسميَّة:

خسران المجترئين نتيجة حتميَّة وإنْ بقي منهم بقيَّة

أكَّد ﷻ عدم فوز المفترين بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾، و﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة، وبَيَّنَ سبحانه في تأكيد عدم فوزهم أنَّهُم يَحْسَبونَ بَريق الحياة ومتاعها هو المتاع، وبَيَّنَ الله تعالى أنَّ متاعها قليل؛ لِأنَّهُ في ذاته قَليلٌ، وزمانُه قَليلٌ، ومتاعُ الآخرة هو الأبقى، ومَن طلَب متاع الدُّنيا بِغير الحَقِّ فالآخرة تكون له عذابًا أليمًا"[7].

علة فصل ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ عَمّا قبله:

المتاعُ القليل يَغُرُّ صاحبَ العقل القليل

جملة ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ إمّا أنْ تكون ابتدائية، وفُصلت عَمّا قبلها

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 608.
(2) ابن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 6/ 4108.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/ 694.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 253.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 148.
(6) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 295.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4292.

لِأنَّها "تعليلٌ لِنفي الفلاح عن ﴿ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ فإنَّهُم بافترائهم الكذب، قد خسروا خسرانا مبينا؛ ذلك أنَّ هذا الَّذي عاد عليهم مِن كذبهم وافترائهم، هو شيءٌ تافِه، اسْتَرْضَوا به أهواءهم في هذه الحياة الدُّنيا؛ فأوقعهم في هذا الَّذي هم فيه من عدوان على حُرُماتِ اللّٰه ﷻ، وعصيان للّٰه تعالى وشرك به، وذلك هو الخسران المُبين"[1].

وإمّا أنْ تكون استئنافًا بيانيًّا؛ حيث إنَّها في صورة جواب عَمّا يجيش بخاطر سائل يسأل عن عدم فلاحهم مع مشاهدة كثيرٍ منهم في حالة من الفلاح، فأُجيبَ بِأنَّ ذلك متاع، أيْ: نَفْعٌ مؤقَّت زائل، ولهم بعده عذاب أليم[2].

غرض تنكير ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾:

متاعُ الدُّنيا قليلٌ حقيرٌ

تَنْكيرُ ﴿مَتَٰعٌ﴾ يوحي بتحقيره، ويؤكِّد "قِلَّتَهُ في ذاته، وقِلَّتَهُ في زمانه، وهو بجوار الكذب الَّذي يكذبونه لا يُعَدُّ متاعًا؛ لِأنَّ المتاع ما يقوم على متاع النَّفْس، والنَّفْس الكذوب تكون في اضطراب مُسْتَمِرٍّ، ولا تَملِكُ نَفْسَها كما لا تَنْضَبِطُ في ذاتها، ودَأْبُها على الكذب يُؤدّي إلى ضلال الفكر فيها حتَّى يصيبها خرف الكذب وفساده"[3].

بلاغة وصف المتاع بالقليل:

المتاع القليلُ ليس بمتاع بل هو نُهمة الجياع

وُصف ﴿مَتَٰعٌ﴾ بصفة ﴿قَلِيلٌ﴾ لوجوه:

أحدها: أنَّ متاع الدُّنيا مبنيٌّ على الزَّوال والانقطاع؛ فكلُّ ما كان على شرف الزَّوال والانقطاع، فهو قليل، كَما قيلَ في المَثَلِ: كُلُّ ما هو آتٍ قَريبٌ.

الثاني: سُمّيَ قليلًا لِما هو مَشوبٌ بالآفات والأحزان وأنواع البلايا

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 387.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 312.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4292.

والشَّدائد؛ فهو قليل في الحقيقة؛ أَوْ أَنَّهُ سمّاه قليلًا؛ لِما أَنَّ متاع الدُّنيا قليل عَمّا وُعِد في الآخرة[1].

دلالة الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

المقابلةُ بين متاع الدُّنيا الفاني وألم العذاب الباقي

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عَطَفَتْ خبرًا على خبر، أيّ ذلك المتاع الَّذي يبحث عنه المفترون هو متاع قليل، ولهم في الآخرة عذاب أليم، فدلَّت على المقابلة بين ما يكون لهم في الدُّنيا من المتاع القليل، الَّذي يرجون به السَّعادة، وبين ما يكون لهم في الآخرة من العذاب الأليم الَّذي يُذهب عنهم كلَّ متعةٍ في الدُّنيا.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

قدَّم النَّظْمُ الكريم الجارَّ والمجرور ﴿وَلَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للتَّهديد على سبيل التَّهكم؛ لِأَنَّ مَنْ يُخْبِرُ بأنَّه سيكون (له) يكون عطاءً، أمّا هنا فسيكون عذابًا لهؤلاء المفترين، و"للاهتمام؛ زيادةً في التَّحذير، وجيءَ بلام الاستحقاق في ﴿وَلَهُمْ﴾ للتَّنبيه على أنَّ العذاب حقُّهم لأجل افترائهم"[2].

سرُّ تقييد العذاب بـ ﴿وَلَهُمْ﴾ دون المتاع:

العـذاب الأليم لمـن يستحقُّه، والمتاع القليل لمن يرجوه

"جاء التَّعْبيرُ عن العذاب بـ ﴿وَلَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، بينما لَم يَأْتِ التَّعْبيرُ مع المتاع بـ ﴿وَلَهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُم مستَحِقّون للعذاب بِسبب افترائهم؛ ولذا جاء التَّعْبيرُ بما يدلُّ على استحقاقهم العذاب ﴿وَلَهُمْ﴾، بينما هم ليسوا مُسْتَحِقّينَ للمتاع القليل في الدُّنيا؛ ولذا لم يَنُصَّ على ما يدلُّ على استحقاقهم لهذا المتاع، وإنَّما قَدَّرَ الكَلامَ بـ(معيشتهم) أو (حياتهم) تَمَشّيًا مع هذه الدِّلالة"[3].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 588.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 312.
(3) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 235.

غرضُ تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

جاء وعيد مَن يفتري على اللّه تعالى الكذب بلفظ ﴿عَذَابٌ﴾ منكَّرًا؛ تهويلًا لخطره، وإيحاءً بِأنَّهُ ﴿عَذَابٌ﴾ مَنْكورٌ لا يُحاط بوصفه ثقلًا وشِدَّة، فهو ﴿عَذَابٌ﴾ "دائم ليس له وقت محدود"[1].

دلالَةُ وصْفِ العَذابِ بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ دون (مُؤْلِمٍ):

عـذابُ الكُـفّارِ في الآخـرة من الفظاعة بحيث لا يـحيـط به الوَصْفُ

صيغَ وصْفُ ﴿عَذَابٌ﴾ بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، وهو بمعنى (مُؤْلم)، غير أنَّ وصف ﴿أَلِيمٌ﴾ أدخلُ في الإيلام، وأدلُّ على شدَّتِه بِحيث لا يُحتمَل، أمّا (مُؤْلمٌ) فيُطلَق على كلِّ ألَم قد يُحتمَل وقد لا يُحْتَمَلُ، ولن تبلغ صيغة اسم الفاعل (مُؤْلمٌ) مبلَغ صيغة المبالغة ﴿أَلِيمٌ﴾ في التَّرجمة عن هول عذاب مَن يَكْذِبُ في تشريع اللّه ﷻ وفظاعته.

وإلى ذلك في وصف ﴿أَلِيمٌ﴾ حرفُ مدٍّ يُشعر بِأنَّهُ عَذابٌ يَتطاول إيلامه على الكافر، ويمتدُّ عليه ولا ينقطع عنه، أمّا (مُؤْلمٌ) فاللَّفظ مقطوع قطعًا، قد يوحي بانتهاء إيلامه إلى أمدٍ محدَّد، وهكذا تتآزرُ الصّيغةُ الصَّرفية مع الإشارة الصَّوتيَّة على بيان ما سيلقاه الكافر من عذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ متطاول"[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4293.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 289.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ [النحل: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من حال المشركين إلى حال اليهود الظّالمين

"لَمّا ذَكَرَ تعالى أنَّهُ إنَّما حَرَّمَ علينا الميتة والدَّم ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير اللّه به، وأنَّهُ أرْخَصَ فيه عند الضَّرورة - وفي ذلك تَوْسِعَةٌ لهذه الأُمَّة، التي يُريدُ اللّه بها اليسر، ولا يُريدُ بها العُسر - ذكَر ﷻ ما كان حرَّمه على اليهود في شريعتهم قبل أنْ ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرَج والتَّضييق، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾"(1).

وفي هذه المناسبة "ردَّ على الَّذين هادوا، أيِ اليهود، الَّذين كانوا من وراء المشركين، يزكّون أفعالهم المنكرة، ويقولون لهم: إنَّ هذا الَّذي أنتم عليه فيما تحلّون وتحرِّمون من مطاعمكم هو الحقُّ، وأنَّهُ من شريعة إبراهيم، وأنَّ ما يُحَدِّثُكم به محمَّد ﷺ، هو مِمّا يفتريه على اللّه؛ فاثْبُتوا على ما أنتم عليه، ولا تستمعوا له فجاء اليهود إلى المشركين يكذِّبون النَّبي فيما يقول لهم عن ربِّه في هذه المطاعم، فرمى اللّه اليهود بهذا الخزي الَّذي حملته إليهم الآية الكريمة"(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَادُواْ﴾: "الهودُ: اليهود، هادوا يَهودون هَوْدًا، وسُمّيت اليهود اشتقاقًا من هادوا، أيْ: تابوا، ويُقال: نُسبوا إلى يهوذا، وهو أكبرُ ولد يعقوبَ عليه السلام، وحوِّلت الذّال إلى الدّال حين عُرِّبت، والتَّهويد: شبه

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 610.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 388.

الدَّبيب في المَشْي، والسُّكون في الكلام، والهَوادةُ: البقيَّة من القوم يُرجى بها صلاحهم"(1).

2) ﴿قَصَصۡنَا﴾: "القَصُّ: تَتَبُّعُ الأثَرِ، يُقالُ: قَصَصْتُ أثره، والقَصَصُ: الأثر، قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: 11]، ومنه قيل لما يبقى من الكَلَأ فيُتَتَبَّعُ أثره: قَصيصٌ، وقَصَصْتُ ظُفْرَهُ"(2)، والقَصَصُ: اسْمٌ لِما يُقَصُّ، يُقالُ: قَصَّ الخَبَرَ قَصًّا إذا أخْبَرَ بِهِ، والقَصُّ أخَصُّ مِنَ الإخبارِ فإنَّ القَصَّ إخبارٌ بِخَبَرٍ فيهِ طولٌ وتَفْصيلٌ، والقَصُّ بالإدْغامِ مَصْدَرٌ، والقَصَصُ بِالفَكِّ اسْمٌ لِلمَصْدَرِ واسْمٌ لِلخَبَرِ المَقْصوصِ(3).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الظُّلم بسبب جراءة العباد لا بسبب تشديد الغفور الرحيم

بَيَّنَ اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة "أنَّ الأنعام والحرث حلالٌ لهذه الأُمَّة، فأمّا اليهود فحُرِّمتْ عليهم منها أشياء"(4)، فـ "على اليهود بصفة خاصَّة - دون غيرهم من الأُمم - حرَّمنا بعض الطَّيبات التي سبق أنْ بَيَّنّاها لك في هذا القرآن الكريم، وما كان تحريمُنا إيّاها عليهم إلّا بسبب بَغْيِهم وظلمهم"(5) أنفسَهم، وهم لم يصيبوا غير أنفسهم بهذا الظُّلم.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ "استئنافيَّة"(6)؛ حيث "بَيَّن أنَّهُ أوْضَحَ - لِمن تَقَدَّمَ - الحلالَ والحرام، فمنهم مَن أتى بما

(1) الخليل، العين: (هود).
(2) الراغب، المفردات: (قصص).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 267.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 197.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط لطنطاوي: 8/ 254.
(6) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 409.

أُمِر به، ومنهم من خالف، وكلٌّ عومِل بما استوجبه، فمن أطاع قلبُه قرَّبَه، ومن عصى ردَّه وحجَبَه"[1].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفِعل:

اختصَّ اليهود بمحرَّماتٍ جزاءَ لميلهم عن الحقِّ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ على الفِعل ﴿حَرَّمۡنَا﴾ للدِّلالة على قصر التَّحريم على أمَّة اليهود "بخاصَّة دون غيرِهم من الأوَّلين والآخِرين، وهو تحقيقٌ لِما سلَف من حصْر المُحَرَّماتِ فيما فصَّل بإبطالِ ما يخالفه من فِرْية اليهود وتكذيبهم في ذلك؛ فإنَّهُم كانوا يقولون: لسنا أوَّلَ مَن حُرِّمتْ عليه، وإنَّما كانت مُحَرَّمةً على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا"[2].

ففي تقديم الجارِّ والمجرور "إشارة إلى أنَّ ذلك حُرِّم عليهم ابتداء، ولم يكن محرَّمًا من شريعة إبراهيم عليه السلام التي كان عليها سلَفُهم، كما قال تعالى: ﴿۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ [آل عمران: 93]، فلا تحسبوا أنَّ ذلك من الحنيفيَّة"[3].

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

تحذيرُ المؤمنين مِن الميل عن الحقِّ في متابعة اليهود

آثرَ النَّظْمُ استِعْمالَ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ دون الاسم الظّاهر (اليهود)، وذلك لبيانِ أنَّهم "مالوا عن الإسلام"[4]، "حيث كانوا يقولون: لسنا أوَّل مَن حُرِّمت عليه هذه الطَّيبات، وإنَّما كانت محرَّمة على نوح وإبراهيم وغيرهما ممَّن جاء بعدهما"[5]، فإنَّ مَنْ مال عن طريق الحقِّ وقع في الإثم العريض، ففي هذا التَّعبير تحذيرٌ للأمَّة المسلمة أنْ تميل عن منهج اللّه تعالى.

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 326.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 148.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 312.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 296.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 254.

كما أنَّ في التَّعبير عنهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صلته ﴿هَادُواْ﴾ بيانًا لِعلَّة الحُكم بالتَّحريم قبل ذِكره؛ حيث يقول النَّصُّ الكريم: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾، فذُكِر سبب التَّحريم - وهو ميلُهم عن الحقِّ - قبل ذِكر الحُكم به ﴿حَرَّمۡنَا﴾، وفي بيان العِلَّة قبل الحُكم تثبيت له في الأذهان، وبيان الإنصاف في التَّضييق عليهم ابتداءً.

نكتةُ استعمال ﴿هَادُواْ﴾ بالماضي:

التَّـنـبـيـه على تـاريـخ الأُمـم دعـوةٌ للنَّظر والاعتبار

مِنْ عطاء صيغة الماضي في صلة الموصول ﴿هَادُواْ﴾ تحقُّق وقوع المَيل والانحراف منهم عن الدّين الحقِّ الذي شرعه اللّه تعالى لهم، فعاقبهم اللّه تعالى دون غيرهم بتلك العقوبات، "وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ ذلك التَّحريم إنَّما كان للظُّلم والبغي عقوبة وتشديدًا، وبه يُعلم الفرق في التَّحريم بينهم وبين غيرهم، فإنَّه لهم عقوبةٌ، ولنا المضرَّة فحسب"[1]، ففي هذه الصّيغة تنبيهٌ على مَلْحَظٍ تاريخيٍّ للاعتبار منه.

غرضُ إسناد التَّحريم إلى ضمير العظمة:

تشريعاتُ الحقِّ عظيمةٌ في ذاتها جليلة في أثرها

يوحي إسنادُ التَّحريم إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿حَرَّمۡنَا﴾ بِعَظمة المُحَرِّم ﷻ، وذلك الحقّ الَّذي لا شكَّ فيه؛ لِأنَّ المُلْكَ ملكُه، والأمرَ أمرُه، ولا يحقُّ لمخلوق أنْ يُحرِّم أو يُحِلَّ، وضمير العظمة (نا) في ﴿حَرَّمۡنَا﴾ يقرِّر ذلك.

بلاغة اختلاف التَّعبير في إسناد فعل التحريم:

حقائق المعاني أصلٌ في دقائق نظم المباني

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ "جاء التَّعبير بأسلوب المُتكلِّم، و(نا) للتَّعظيم، بينما جاء التَّعبير بأسلوب الغَيْبَةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾؛ لِأنَّ التَّحريمَ الَّذي وقع على بني إسرائيل كان عقابًا؛ فناسَبَهُ التَّعظيم - تعظيم المُحرِّم -، وهذا

---

(1) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 15/ 399.

بخلاف آية تحريم المَيْتَة"[1]، فإنَّه ابتداءُ تشريعٍ، وهو ما يُناسب سياق الآيات، والمعاني الَّذي لأجلها كان التَّحريم.

نكتةُ الإحالة بالاسم الموصول:

الإيجازُ بقصدِ استيعابِ عمومِ المُحال عليه

التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يطوي تَفاصيلَ كثيرة سبق ذكرُها في سورة الأنعام، وسَبَبُ الإحالة على المذكور هنالك؛ تحذيرُ المؤمنين من مقارفة تلك الأسباب؛ لكيلا يُعاقَبوا بمثل ما عوقب به اليهود، ولَمّا كان المقام هنا الإيجاز والاكتفاء بالإحالة على متقدِّم النُّزول، ناسب ذلك طيُّ تلك التَّفاصيل في الاسم الموصول، لتشملَها جميعًا بإيجازٍ إشاري.

توجيه التَّعبير بالماضي ﴿قَصَصْنَا﴾:

منزلة الرَّسول ﷺ السامية عند ربِّه سبحانه

في التَّعبير بالماضي ﴿قَصَصْنَا﴾ دون المضارع (نقصص) مُطابَقَةٌ للواقع؛ إذ قد سبق قصُّ تلك الأخبار إليه ﷺ، وفيه إلْماحٌ إلى ما يحظى به الرَّسول ﷺ من منزلةٍ عند ربِّه سبحانه منذ أمد تقول به صيغة الماضي.

بلاغة تقييد الفعل ﴿قَصَصْنَا﴾ بحرف الاستعلاء:

أخبارُ القرآن نازلةٌ بصدق مضامينها وحكمة معانيها

في تقييد الفِعل ﴿قَصَصْنَا﴾ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيْكَ﴾ إلماحٌ إلى عظمة هذا القَصِّ؛ وذلك بتضمينه معنى التنزيل من الملأ الأعلى، إلى كونه مسندا إلى ضمير العظمة، والمعنى: أنزلنا عليك هذا الخبر؛ وذلك يَدْعَم صِدقه، ويُؤكِّد دقَّة تفاصيله، وأنَّه حقٌّ لا شكَّ فيه ألبتَّة.

وكما أنَّ ذلك القَصَّ يَتَّسم بالعظمة لِكونه مُنَزَّلًا من عند اللّه تعالى كذلك يتضمَّن النَّظْمُ الكريم الإشارة إلى رسول اللّه ﷺ، بما يحظى به من التَّشريف والتَّكريم من لدن ربِّه ﷻ، بالتَّصريح بكون القصّ عليه ﷺ.

(1) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 237.

أخبارُ القرآن متآخيةٌ مترابطةٌ في مقاصدها

توجيه ذِكر القيد بالظَّرف:

القَيْدُ بالظَّرف في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ يتعلّق "بـ ﴿قَصَصۡنَا﴾ وهو الظّاهر، وقيل: بـ ﴿حَرَّمۡنَا﴾ والمحذوف الَّذي في ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ تقديره من قبل تحريمنا على أهْلِ مِلَّتِكَ"[1]، والمعنى: قصصنا عليك هذه الأخبارَ في سورة الأنعام قبل نزول هذه الآية، والآية المُشارُ إليها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: 146].

التَّشريعُ الإلَهيّ مَحْضُ عدالةٍ ومُكْتَنَزُ رَحْمَةٍ

نوع الواو ودلالتها في: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ إمّا أنْ تكون عاطفة هذه الجملة على جملة ﴿حَرَّمۡنَا﴾، وإمّا أنْ تكون حاليَّة من الفاعل في ﴿حَرَّمۡنَا﴾، أيْ: حَرَّمنا عليهم المَقْصوصَ عليك في حال أنّنا لَم نَظْلِمهُم في ذلك التَّحريم، "بتحريم ما حرَّمنا عليهم؛ لأنّا إنَّما حرَّمنا عليهم تلك الطَّيبات عقوبةً لهم، أو قال: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأنَّهم عَبيده وإماؤه؛ وللّه سبحانه أنْ يَمتَحِنَ عباده وإماءه بتحريمٍ مرَّةً، وبتحليلٍ ثانيًا، ولكن ظلموا أنفسهم؛ حيث وجَّهوها إلى غير مالكها، أو صرفوا شُكْرَ ما أنعم عليهم إلى غيره"[2].

صاحبُ الاجتراءِ على الشَّرع قد يتّهم الحقَّ بالظُّلم

توجيه ذِكر الظُّلم دون التَّضييق:

مِنْ دِقَّة التَّعبير القرآنيِّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ أنَّه لم يَنْفِ التَّضييق عليهم، بل نفى الظُّلم؛ ذلك أنَّ التَّضييق حاصلٌ، إذ بعض التَّشريعات يُراد بها التَّربية والتَّأديب، وإلّا فكيف يُخْبِرُ عن ذلك بأنَّه ظُلمٌ وقع عليهم، وإنْ كان قد وقع عليهم من أنفُسهم؟ على أنَّه سبحانه لم يضع "العقوبة بتحريم تلك الأشياء عليهم في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 608.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 588.

غير موضعها، بل هم طرقوا إلى ذلك وجاء من تسبيبهم بالمعاصي ما أوجب ذلك"[1]؛ أي: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ و"لكنّهم كفروا النِّعمة؛ فحُرِموا من نِعَم عظيمة"[2]، فمعنى التَّضييق حاضرٌ؛ لأنَّه ناشئ عن تأديبٍ، وهذا من خصائص اليهود الَّذين اختصّوا بالتَّطرُّف والغُلو والابتداع.

بلاغةُ إسناد فعل الظُّلم المنفيّ إلى نون العظمة:

تـوريث الطُّمأنينة للمخاطَب بعدل الله معينٌ على الحِكمة

في إسناد فِعل الظُّلم المنفيّ إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ تقريرٌ للعدالة الإلهية، وإلقاء الطُّمأنينة في نفوس المخاطَبين؛ ذلك أنَّ العزيز الَّذي لا يُغلَبُ لا يظلم عبادَه الفقراء إليه؛ إذ لا أحدَ يَقْدِر على المَساس بحقِّه ﷻ ليَرُدَّ ذلك بالانتقام الَّذي ربَّما جاء مشوبًا بالظُّلم، وإنَّما يأتي عقابُه إنْ لم يغفر نهاية في العدل.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَلَٰكِن﴾:

الواو في جُملة ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ إمّا أنْ تكون حاليَّة[3]، أيْ: والحالُ أنَّ ظلمهم موقوف ومقصور عليهم، أو أنْ تكون عاطفةً، ومدخولها "الجملة الاستدراكيَّة معطوفةٌ على جملة: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾"[4].

دلالةُ الاستدراك:

الـرَّدُّ على تهمٍ خبيثةٍ وافتراءات دنيئة

(لكن) في جملة: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ "مخفَّفَةٌ مُهمَلة، فهي حَرْفُ اسْتِدْراكٍ"[5]، و"الاسْتِدْراكُ هنا لتأكيد نفي الظُّلم، وإثبات الظُّلم عليهم هم"[6]، ودلالة الاسْتِدْراكِ موحيَةٌ بوجود

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 430.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 312.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 382.
(4) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 15/ 410.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 382.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4294.

تُهَم لله ﷻ عمّا يقول الظّالمون بوجود ظلم في تلك التَّشريعات، فجاء الرَّدُّ عليهم بأنَّهم هم الَّذين ظلموا أنفسَهم، فأوقعوها في حفرة التَّأديب، التي هي طريقهم إلى النَّجاة السَّرمديَّة إنِ اعتبروا وأحسنوا بالتَّواضع والصَّبر.

دلالةُ ذِكر ﴿كَانُوٓاْ﴾:

أسبابُ التَّحريم تحقَّقت وأحكام التَّأديب تنزَّلت

يُضْفي التَّعبير بصيغة الماضي ﴿كَانُوٓاْ﴾ في جملة: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ على أنَّ الظُّلم كان ديدنهم باستمرارٍ، وأنَّ ما نزل عليهم من تشريعاتٍ خاصَّة بهم، ما كان بسبب فعلٍ صدر عنهم بانفرادٍ أو بخطأ غير مقصود، بل هي أفعالهم المستمرَّة القائمة على التَّساهل بشرع اللّه تعالى، وما تفيض به الصّيغة من تحقُّق وقوع أسباب ذلك التَّحريم والتَّضييق عليهم، وتَطاوُلِ ذلك منهم، ذلك التَّحريم الذي أثَّر فيهم تأثير الظُّلم لِشدَّته، وإنَّهم به لِذلك لجديرون.

نكتةُ استعمالِ النفسِ مفعولًا به وتقديمِها على الفِعل:

أهلُ البَغْيِ يَضُرّون أنفسَهم في المقام الأوّل

قُدِّم ذِكر المفعول ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ على الفِعل ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ لبيان أنَّهم ما ظلموا إلا أنفُسَهم، فانحصر أثر فِعل الظُّلم في أنفسهم خاصّةً ولم يتعدَّ إلى غيرِهم، وهو أدعى في زيادة التَّشنيع والتوبيخ، ومما زاد شناعة إلى صنعهم، وبلاغةً في توبيخهم: أنَّ المفعولَ المقدَّمَ على الفعل طابق في حقيقته فاعلَه، فلم يكنِ اللّهُ سبحانه ظالمًا لهم، كما يتوهَّمه الجاهلون، أو يزعمه المعانِدون - وحاشاه - بل هم الذين ظلموا أنفسهم بأنفسهم، وهم الَّذين طرقوا أسباب التَّأديب والعقاب بأيديهم.

"وبذلك يَتَبَيَّنُ أنَّ ما حَرَّمَهُ اللّه تعالى على الأمَّة الإسلاميَّة، كالميتة والدَّم ولحم الخنزير، كان من باب الرَّحمة بها، والحرص على مصلحتها، أمّا ما حَرَّمَهُ سبحانه على اليهود، فقد كان بسبب بغيهم وظلمهم"[1]، و"معصيتهم لربِّهم، وتجاوزهم حدوده التي حدَّها

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط لطنطاوي: 8/ 254.

لهم، وانتهاك حرماته، فعوقبوا بهذا التَّحريم، كما قال في آية أخرى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: 160]"[1].

بلاغةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

تَطاوُلُ التَّضييق على النّاس وإحساسهم بالظُّلم بسببٍ من معاصيهم

آثَرَ النَّظْمُ الكريم في جملة الاسْتِدْراكِ صيغة المضارعة ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ دون الماضي (ظلموا) ليكون في مقابلة ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ استحضارًا لِظُلمهم أنفسَهم، كأنَّه يقع لحظة التِّلاوة، وكذلك للإيحاء بصيغة المضارع بتجديدهم ظُلْمَ أنفُسهم كلَّما باشروا تحريمًا أحَلَّهُ اللّه تعالى، أو تحليلًا حرَّمه اللّه ﷻ، فالتَّجدُّد والحدوث في صيغة المضارعة هنا يوحي بتجديدهم مخالفة الدّين، وما يترتَّب عليه من تجديدهم ظلم أنفسهم بذلك.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القصّ والتلاوة:

القصُّ يختصُّ بالأخبار، والتِّلاوة أعمُّ من ذلك

"القَصُّ: تَتَبّعُ الأثر، والقَصَصُ: الأثر، قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، والقَصَصُ: الأخبارُ المُتَتَبَّعَةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران: 62]"[2].

والتِّلاوة من "تَلا الشَّيءَ: تَبِعَه تُلُوًّا"[3]، "وتلوت القُرآن إذا قَرَأْتُه كَأنَّك اتَّبَعْتَ آيَة في إثْر آيَة، والمصدر التِّلاوَة"[4]، "وتَلا آياتٍ من القرآن الكريم: رتَّلها في إنشاد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] والمُرادُ: التِّلاوة مع إعطائها حقَّها من التَّأمل والعمل بمقتضاها"[5].

فالفرق بين القَصِّ والتِّلاوة، أنَّ القَصَّ ما اختصَّ بالإخبار عمّا وقع، وأمّا التِّلاوة فهي أعمُّ من ذلك، إذ تكون في الأخبار وغيرها.

(1) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 15/ 399.
(2) الراغب، المفردات: (قصص).
(3) الخليل، العين: (تلو).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تلو).
(5) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (تلو).

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٩﴾ [النحل: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين أحوالِ من ظلموا أنفسَهم، وبين التَّوبة الهادمةِ لجبال الذُّنوب، مهما كان صخرُها قاسيًا

يقول ابن عاشور: "مَوْقِعُ هذه الآيَةِ مِنَ اللَّواتي قَبْلَها كمَوْقِعِ قَوْلِه السّابِقِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل: 110]، فلَمّا ذُكِرَتْ أحْوالُ أهْلِ الشِّرْكِ، وكانَ مِنْها ما حَرَّموهُ على أنْفُسِهم، وكانَ المُسْلِمونَ قد شارَكوهُم أيّامَ الجاهليَّةِ في ذَلِكَ، ووَرَدَتْ قَوارِعُ الذَّمِّ لِما صَنَعوا، كانَ مِمّا يُتَوهَّمُ عُلوقُهُ بأذْهانِ المُسْلِمينَ أنْ يَحْسَبوا أنَّهُم سَيَنالُهُم شَيْء من غمصٍ لِما اقْتَرَفوهُ في الجاهليَّةِ، فطَمأنَ اللّهُ نُفوسَهُم بِأنَّهُم لَمّا تابوا بالإقْلاعِ عَنْ ذَلِكَ بالإسْلام، وأصْلَحوا عَمَلَهُم بَعْدَ أنْ أفْسَدوا، فإنَّ اللّهَ قد غَفَرَ لَهُم مَغْفِرَةً عَظيمَةً، ورَحِمَهُم رَحْمَةً واسِعَةً"(1).

كما أنَّ موقعَها ممّا سبقَها أيضًا يفتحُ بابَ الأمل أمام كلِّ مذنبٍ؛ مهما كان ذنبُه عظيمًا، ولو بلغ مستوى الافتراءِ على اللّه الكذبَ ومخالفةَ أمره(2). فالتّوبةُ الصّادقةُ تهدم جبالَ الذّنوب؛ مهما كان صخرُها قاسيًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: السّين والواو والهمزَة تدلُّ تصريفاتُها على القُبْحِ، ومِنْهُ سمّيتِ النّارُ سوْءَى؛ لقُبْحِ مَنْظَرِها(3)، ومنه قيل لفَرْجِ الرَّجُلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 313.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 283.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوأ).

أوِ المرأةِ: سوْءَة؛ لأنَّ الفطرَةَ السَّويَّةَ تَستَقْبحُ إظْهارَها[1]، وسُمّيتِ السَّيئةُ سيِّئَةً؛ لأنَّها عملٌ قبيحٌ[2]، والسّوء: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ منَ الأمور الدُّنيويَّة والأُخرويَّةِ[3].

2) ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: "الجيمُ والهاءُ واللّامُ أصْلانِ: أحَدُهُما خِلافُ العِلْمِ، والآخَرُ الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمَأْنينَةِ"[4]، والمعنى المحوريُّ الذي تدورُ حوله مادَّة (جهل): خلوُّ الباطن ممّا يفيد أو يُطْلبُ مع جفافٍ، ويلزم ذلك الخفَّةُ، كالنّاقة الموصوفة تُعَدُّ خاليةَ الباطن أو جافَّته، ومن هذا: الجهل ضدُّ العلم؛ لأنَّ الجاهل خالي الذِّهن منَ المعلومات ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273][5]، والجهلُ على ثلاثة أضْرُبٍ: **الأوّل**: وهو خلوُّ النّفس من العلم، هذا هو الأصلُ، وقد جعل ذلك بعضُ المتكلّمين معنى مقتضيًا للأفعال الخارجةِ عنِ النّظام، كما جعلوا العلمَ معنى مقتضيًا للأفعال الجاريةِ على النِّظام، **والثّاني**: اعتقادُ الشّيء بخلاف ما هو عليه، **والثّالث**: فعل الشّيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل، سواءٌ اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أم فاسدًا، كمن يترك الصّلاةَ متعمِّدًا، وعلى ذلك قولُه تعالى على لسان اليهود: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة: 67]، فجعل فعلَ الهزو جهلًا، وقال ﷻ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: 6][6]، وهذا المعنى الثّالثُ هو المراد هنا وهو ما يعنيه لفظُ الجهالة.

3) ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾: الصّادُ واللّامُ والحاءُ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا، ويُقالُ: صَلَحَ بِفَتْحِ اللّامِ[7]، والمعنى المحوريُّ سلامةُ جسم الشّيء، أي: التئامُه على حاله الأصليَّة، تامَّ النَّفع والخير الذي أوجِد أو أريدَ له: يؤخذُ ذلك من إصلاح الفاسد منَ الأشياء، وأنَّ التّوفيق لأمٌ والتئام، ومن معنويِّ ذلك "الصُّلْح: السِّلْمُ، وتصالح القومُ، وأصلحَ ما بينهم ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهل).
(6) الراغب، المفردات: (جهل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).

﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: 9][1]، والصَّلاحُ: ضدُّ الفساد، وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102]، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّـوبـةُ والإصـلاحُ، يَـجُـبّـان ما قبلَهما، ومن تـابَ تـابَ الله عليه

تجُرُّ الآية الكريمةُ المذنِبين إلى التَّوبة جرًّا مهما عظمت ذنوبُهم، فتعلنُ مخاطبةَ الرّسول ﷺ: ثمّ إنَّ ربَّك - أيُّها الرّسول الكريمُ - لَواسعُ الغفران والرحمة لأولئك الذين عملوا الأعمالَ السّيئةَ، بدافع الجهلِ والسَّفه والطّيشِ أوِ الاجتراء وعدم تدبُّر العواقب، ثم إنَّهم بعد ذلك تابوا توبةً صادقةً عن تلك الأعمال السّيئةِ، ولم يكتفوا بذلك، بل أصلحوا من شأن أنفسِهم، حيث أوقفوها عند حدود اللّٰه تعالى وأجبروها على تنفيذ أوامره، واجتنابِ نواهيه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف بالحرف ﴿ثُمَّ﴾:

أفـادَ التَّرتـيبُ الـرُّتـبـيُّ هنا طمأنةَ المسلمين عـن غـفـرانِ ذنوبهم السّابقةِ

﴿ثُمَّ﴾ كما هو مقرَّرٌ في معاني الحروف تفيدُ العطفَ مع التَّرتيب والتَّراخي الزَّمنيِّ أوِ الرُّتبيِّ أو كليْهما، وهي هنا تفيد التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ الجملة المعطوفة بـ﴿ثُمَّ﴾ تضمَّنت حكمَ التَّوبة، وأنَّ المغفرة والرَّحمة من آثارهما، وذلك أهمُّ عند المخاطَبين ممّا سبقَ من وعيد، فالآياتُ السّابقةُ بيَّنت أحوالَ أهل الشِّرك، وما حرَّموه على أنفسهم في الجاهليَّة، وربَّما كان قد شاركَهم المسلمون المخاطَبون بعضَها، فجاءت هذه الآيةُ معطوفةً بـ﴿ثُمَّ﴾، التي أفادتِ التَّرتيبَ الرُّتبيَّ؛ لطمأنة المسلمين بأنَّ من تاب وأصلح، فإنَّ اللّٰه قد غفر له[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلح).
(2) الراغب، المفردات: (صلح).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 255.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 313.

وفضلًا عن هذا الغرضِ الخاصّ الذي يحقِّقُه التّراخي الرُّتبي، فإنَّه يحقِّق كذلك غرضًا أعمَّ، هو بيانُ أنّ الافتراء على اللّه ومخالفةَ أمره، لا يمنعُهم منَ التّوبة وحصول المغفرة والرَّحمة(1)، وذلك لأنَّهم ربَّما توهَّموا أنّ عظمَ ذنبِ الافتراء على اللّه مانعٌ من قَبولها، فقد سبقَ هذه الآيةَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل: 116 - 117] فجاءت هذه الآية لتزيل هذا التّوهُّمَ.

سرُّ تتابعِ المؤكّدات في الآية:

أساليبُ التّأكيد ترتبطُ بشدَّةٍ بخوف التّائبين من عدم قَبول توبتهم واقعًا أو تنزيلًا

أُكِّدتِ الآيةُ بـ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة، وإعادةِ صدرِ الآية لطول الفصل ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾، واللّامِ المزحلَقة الدّاخلة على الخبر.

وتآزرُ هذه المؤكِّدات إمّا لكثرة خوف المعنيّين من ألّا يُغفر لهم تهيُّبًا لما فعلوا ووجَلًا؛ فاحتاجوا منَ المؤكِّدات ما يُطمئن بالهم، ويهدِّئُ من روعهم، وإمّا لإنزالهم منزلةَ المنكرين لما يظهرُ من حالهم وفرط خشيتِهم.

نكتةُ مجيء لفظةِ الرَّبِّ وإضافتها:

لفظةُ الرُّبوبيّة فيها طمأنةٌ وتسريَةٌ لقلب المخاطَب

في إيثار لفظة الرُّبوبيَّة تسريةٌ وطمأنةٌ لقلوب المؤمنين من أن ينالهم شيءٌ منَ المؤاخذة والحساب؛ فإنَّ الرُّبوبيَّةَ تقتضي معانيَ العناية والرِّعاية والتَّسريةِ والتَّسلية؛ فإنَّ الرَّبَّ هو المصلحُ والسيِّد والمربّي.

وفي إضافة هذا اللَّفظ إلى ضميره ﷺ تشريفٌ له ما بعده تشريفٌ، فكأنَّه يقول له: إنَّه ربُّك أنت، وليس لك ربٌّ سواه.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية الكريمة:

في العُدولِ من ضمائر التَّكلّم إلى الغيبة، تقريرٌ لسُنن الله في الرَّحمة

عدلتِ الآيةُ في ضمائرها المتعلّقةِ باللّه تعالى من التَّكلُّم في الآية السّابقة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 283.

﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١٨﴾ [النحل: 118] إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، ومعلومٌ أنَّ الغرض العامَّ لهذا الالتفات، هو تلوينُ الخطاب وتنبيهُ السّامع وتنشيطُه، وتطريةُ الخطاب، فضلًا عن أنَّه يختصُّ بنكات بلاغيَّةٍ نفيسةٍ في كلِّ موضعٍ من مواضعه على حِدةٍ، ولعلَّ السَّببَ في العدول هنا عن قوله: (ثمَّ إنَّني للذين عملوا السّوء بجهالة..) إلى النَّظم الكريم مع توجيه الخطاب إلى النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، ليتولَّى هو بنفسه تبليغَهم بهذا، كما أنَّ في مجيئها على هيئة الجملة الخبريَّة المؤكَّدة، والَّتي تعرضُ سنَّةً من سُنن اللّٰه الاجتماعيَّة ما يؤكِّد أنَّها حقيقة ثابتةٌ مقرَّرةٌ ومعروفةٌ لكلِّ من آمن، فلذلك عرضتْها الآيةُ بضمائر الغيْبة عنه ﷻ، وهي تخاطب نبيَّه ﷺ على أنَّ هذا الأمر ينبغي أن يدركوه، ويُحدِّثوا به غيرَهم عن ربِّهم جلَّ شأنه.

معنى لام الجر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

المغفرةُ خاصَّةٌ بمن يعمل السّوءَ بجهالة ثمَّ يتوبُ دون غيره

اللّام هنا يمكن أن تكون للتَّخصيص على اعتبارِ أنَّ هذه المغفرةَ خاصَّةٌ بمن يعمل السّوء بجهالة، دون غيره، ويمكن حملُها على معنى الاستحقاق؛ لأنَّهم يستحقّونها وأهلٌ لها، والحمل على التَّخصيص أولى.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

تفخيمُ شأن التّائبين، وتجديدُ قبول توبتِهم

الاسمُ الموصول مبهمٌ يُؤْتَى به في الأصل عند تعذُّر حصر المُراد به وتحديدِه، ولأغراض بيانيَّة أخرى كثيرةٍ، وهو مفتقرٌ لجملة صلة الموصول الَّتي تزيل إبهامَه، وهي هنا جملة فعليَّة ﴿عَمِلُواْ﴾، ويفتقر أيضًا إلى ضمير عائدٍ في جملة صلة الموصول سواءٌ أكان مذكورًا أم مقدَّرًا، والغرضُ من مجيئه هنا العمومُ، ليشمل كلَّ من عمل السّوء بجهالةٍ، وفي هذا حفظٌ لهم وعدمُ انتهاكٍ لأسرارهم، ويمكن أن يفيد الاسمُ الموصول هنا معانيَ التَّفخيم لشأن مِن استحقَّ هذه المغفرةَ.

وأمّا التَّعبيرُ بالجملة الفعليَّة في صلة الموصول فللدّلالة على تجدُّد المغفرة بتجدُّد الذَّنب، وفي هذا تطمينٌ لهم، ويمكن أن تكون فائدةُ التَّعبير بالفعل الماضي الدَّلالةَ على أنَّ هذا السّوء قد مضى، وانتهى منهم في الزَّمن الفائت.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾:

التَّوبةُ تجُبُّ ما فرطَ منَ الذُّنوب، وإن كانت كزبدِ البحر

أفاد التَّعريفُ باللّام هنا معانيَ الجنسيَّة الاستغراقيَّة؛ ليعمَّ كلَّ ما من شأنه أن يغمَّ صاحبَه، وأن يُسمّى سوءًا، يقول الآلوسيّ: السّوء ما يُسيء صاحبَه من كفر أو معصية، ويدخلُ فيه الافتراءُ على اللّه تعالى، وعنِ ابن عبّاس أنَّه الشِّرك، والتَّعميمُ أولى[1].

بلاغةُ المجاز في لفظِ ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾:

من شأن الذُّنوبِ أن تغمَّ صاحبَها، وتعودَ عليه بالسّوء

تقدَّم في معنى ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: أنَّه كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ من أمورٍ مادّيَّة أو معنويَّة، وعُبِّر بها هنا عنِ الذُّنوب؛ لأنَّ شأنها أن تغمَّ صاحبَها في الدُّنيا والآخرة، فالتَّعبيرُ بالسّوء (مجاز مرسل) عنِ الذَّنب بعلاقة السببيَّة والمسبَّبيَّة، لكون السّوء مُسبَّبًا عنِ الذُّنوب، والذُّنوبُ سببٌ فيه، فأطلق المسبَّب، وأراد السَّبب.

أو على سبيل (الاستعارة التَّصريحيَّة) بأن يكون قد شبَّه الذَّنب بالسّوء بجامع ما يتركُه من أثرٍ في النَّفس والبدن، ويمكن أن يكون هنا مجازًا بالحذف، والتَّقديرُ: (يعملون الأعمال السّوءَ)، فحذف الموصوفَ للعلم به وترك الصِّفةَ.

معنى الباء في شبه الجملة ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾:

الجهالةُ حالةٌ مصاحبةٌ للمرء، عند ارتكابه الذَّنبَ، تدلُّ على فُقدان الوعي بمآله

الباء هنا يمكن أن تكون للمصاحبة والملابسة، فكلُّ ذنبٍ يقعُ منَ العبد لا يكون إلّا عن جهالة، أي: إنَّ العبد حالةَ ارتكابه الذَّنبَ يكون جاهلًا، وليس المعنى كونَه جاهلًا بكونه ذنبًا، فإنَّ مثلَ هذا معفوٌّ عنه، لقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 368.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: 5] ولحديث: "إنَّ اللّه وضع عن أمتي الخطأ والنِّسيان"[1].

وعليه، فيكون موضعُ شبه الجملة ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ في محل النَّصب على الحاليَّة، ومعاني الإلباس والإلصاق لا تنفكُّ عنِ الباء[2]، ويمكن أن تكون الباء للسّببيّة، على معنى: أنَّ الجهالة هي السَّببُ الحاملُ لهم على العمل[3]، وكلا المعنيَيْن مقبولٌ سائغٌ.

فائدةُ التَّقييد بلفظ ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾:

يغفرُ الله الذُّنوبَ برُمَّتها، سواءٌ أكانت بجهالة أم بغيرها

التَّقييدُ بالجهالة هو لبيان الواقع، فإنَّ من يعملُ السّوءَ لا يعمله إلّا بجهالة، وقلَّةِ فكرٍ في عاقبة الأمر، أو عند غلبة الشَّهوة[4]، وذكر أبو حيّان أنَّه: لَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ يَغْفِرُ لِمَنْ يَعْمَلُ السّوءَ بِجهالَةٍ، ولا يَغْفِرُ لِمَنْ عَمِلَهُ بِغَيْرِ جَهالَةٍ، بَلِ الْمُرادُ أَنَّ جَميعَ مَنْ تابَ، فَهَذا سَبيلُهُ، وإِنَّما خَصَّ مَنْ يَعْمَلُ السّوءَ بِجَهالَةٍ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَنْ يَأْتي الذُّنوبَ يَأْتيها بِقِلَّةِ فِكْرٍ في عاقِبَةٍ، أَوْ عِنْدَ غَلَبَةِ شَهْوَةٍ، أَوْ في جَهالَةِ شَبابٍ، فذكر الأكثرَ على عادَةِ العَرَبِ في مثلِ ذَلِكَ[5].

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾:

التَّعريضُ بالجهالة، من حيث إنَّ المعاصيَ لا تقعُ إلّا عن جهالةٍ

التَّنكيرُ هنا قد يفيد التَّكثيرَ والتَّعظيمَ، أي: جهالةٌ كبيرة وعظيمةٌ بما يجب عليهم أن يعملوه، ويمكن أن يفيد التَّنكيرُ التَّحقيرَ للتَّقليل من شأن هذه الجهالة والتَّعريض بها؛ لأنَّ المعاصيَ كلَّها لا تقعُ إلّا بجهالة، والثّاني أقرب.

نكتةُ تقديم شبهِ الجملةِ على خبر ﴿إِنَّ﴾:

تقدَّم شبهُ الجملة ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، وما عُطف عليه

(1) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب: الطّلاق، الحديث رقم: (2045).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 314.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 368.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 369.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 609.

للعناية بحال أصحابها، وتشويقِهم للخبر بعدها، ولتشويقهم إلى التَّوبة؛ فإنَّ الذُّنوب كلَّها تقع بجهالة، وإنَّما ذكر الجهالةَ؛ ليبيِّن لهم أنَّ المعاصيَ لا تقع إلّا بسبب خلوِّ النَّفس منَ الوعي بمآلات الذَّنب وعواقبه، أو من عدم الانتفاع به، على معنى: إنَّ ربَّك - لمن عملوا السّوء بجهالة أو بدونها، ثمَّ تابوا من بعدها - لغفورٌ رحيمٌ.

المعاصي لا تقعُ إلّا بسبب خُلوِّ النَّفس مِنَ الوعيِ بمآلات الذَّنب وعواقبِه

دلالةُ الحرف ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾:

أفادت ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ الجملة المعطوفة بـ﴿ثُمَّ﴾ تضمَّنت حكمَ التَّوبة، والرَّحمةُ والمغفرةُ من آثارها[1]، ولا بأس من حملها على كلا معنيَيها: التَّراخي الرُّتبيِّ والزَّمانيِّ أيضًا؛ لأنَّ التَّوبة في الوجود متأخِّرة زمانًا عنِ المعصية.

الإشـارةُ إلى أنَّ التَّوبة بعد الذَّنب الكثير يقظةٌ للضَّمير

نكتةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿تَابُواْ﴾:

دلَّ الفعلُ الماضي على وقوع التَّوبة بعد العمل مباشرةً، فالعملُ وقع في الفعل الماضي، وكذلك التَّوبة، ولا يؤثِّر على هذا المعنى كونُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي، إذا اعتمدنا فيها كونَها للتَّراخي الرُّتبي.

عملُ السّوء يتطلَّب توبةً على الفور أو على التَّراخي الرُّتبيِّ

معنى ﴿مِنۢ﴾ في الآية:

﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ ابتدائيَّة، وهو المعنى الَّذي لا يكاد يفارقها، والمعنى: تابوا ابتداء بعد ذلك.

نكتةُ الإشارة بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أشار بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ لعمل السّوء بجهالة، وذلك للإيجاز في ترك ذكرِه لتقدُّم الحديث عنه، وأمّا البُعدُ المفهوم من اسم الإشارة هنا؛ فإنَّه يشير إلى البُعد المعنويِّ في الدَّركات والانحطاط؛ فإنَّ عمل السّوء سواءٌ أكان بجهالة أم بغير جهالة من شأن المؤمن أن يتجنَّبه، وأن يبعدَه عنه.

فعلُ السّوء مُؤْذنٌ بانحطاط صاحبِه في الدَّركات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 313.

غرضُ عطف قوله: ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾:

تحتاجُ التَّوبةُ إلى استقامةٍ بعدها وإصلاحٍ

عطفتِ الآية الإصلاحَ على التَّوبة ليبيِّن لهم أنَّ التَّوبة القلبيَّة دون مباشرة العمل في سبيل تحقيقها لا تكفي، بل لا بدَّ أن يرافقها الفعلُ، فضلًا عن أنَّ بعض الذُّنوب أَوْجَبُ في مباشرة الإصلاح بعدها، لا سيَّما تلك المتعلِّقة بحقوق العباد، وفسَّر بعضهم الإصلاحَ بالاستقامة على التَّوبة[1].

نكتةُ حذفِ متعلّق ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾:

حذفُ المفعول هنا لإفادة العمومِ، وتنوُّعِ معاني الإصلاح المتاح

حذفُ مفعول الإصلاح هنا يفيد العمومَ؛ ليشمل كلَّ ما هو يمكن إصلاحُه، فيعمُّ الإصلاحُ ما بينه وبين نفسه، في إصلاح توبته وعمله، ويشمل ما بينه وبين غيره من الحقوق المادّيَّة والمعنويَّة، وما بينه وبين ربِّه.

نكتةُ فصل جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

في إعادة بعضِ الكلام توكيدٌ وتقريرٌ، يعزِّز المعنى، ويوضح الدِّلالة

فُصِلت هذه الجملةُ، ولم تُعطف على سابقتها لكمال اتِّصالها بها، فهي توكيدٌ لفظيٌّ[2] لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾، وإنَّما أُعيد ذكرُها لطول الانقطاع، والفاصلِ بين المبتدأ والخبر، فضلًا عن أنَّ إعادة ذكرها فيه من التَّوكيد وتقوية الحكم ما فيه.

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

تزاحمُ المؤكِّدات، يتلاءمُ مع كثرة الخوفِ من عدم الغفرانِ

أُكِّدتِ الجملةُ بـ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة، واللّامِ المزحلقة، وسببُ تآزر هذه المؤكِّدات إمّا لكثرة خوف المعنيّين من ألّا يُغفر لهم؛ فاحتاجوا من المؤكِّدات ما يُطمئن بالهم، ويهدِّئُ من روعهم، وإمّا لإنزالهم منزلةَ المنكرين لما يظهر من حالهم وفرط خشيتهم.

معنى ﴿مِنۢ﴾ في شبه الجملة:

التّأسيس لكون الغفران بعد التَّوبة والإصلاح

﴿مِنۢ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ، وهو المعنى الَّذي لا يكاد يفارقُها، فغفرانُ السّيئاتِ بمجرَّد المبادرةِ إلى التَّوبة لطفٌ منَ اللّه بعباده.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 368.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 314.

عوْدُ الضَّمير في قوله: ﴿بَعْدِهَا﴾:

أبوابُ التَّوبة من بعدِ فعلِ السّوء مفتوحةٌ لا تُغلقُ

يقول أبو حيّان: والضَّميرُ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ عائد على المَصادرِ المَفْهومَةِ مِنَ الأفْعالِ السّابِقَةِ، أيْ: مِنْ بَعْدِ عَمَلِ السّوءِ والتَّوْبَةِ والإصْلاحِ، وقيلَ: يَعودُ على الجَهالَةِ، وقيلَ: على السّوءِ على مَعْنَى المَعْصيَةِ[1]، ولعلَّ القولَ بعموم عوْدِها على جميع المذكورات أولى.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾:

توكيدُ الغفران، دليلُ حلمِ الرَّحمن

هي لام التَّوكيد، وتُسمّى (اللّام المزحلقة) أيْضًا، وذَلِكَ لِأنَّ أصلها لامُ الابتداء، فكرهوا افْتِتاح الكَلام بتوكيدين، فأخَّروا اللّام دون (إنَّ) لِئَلّا يتَقَدَّم مَعْمول الحَرْف عليه[2]، وهي مفيدة للتَّوكيد، كما مضى بيانُه.

بلاغةُ التَّذييل بالاسميْن ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

مغفرةُ الله تعالى عامَّةٌ، ومستمرَّةٌ إلى يوم القيامة

جملةُ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسب للمقام؛ لأنَّ هذيْن الاسميْن يأتيان مقترنَيْن في المواقع التي تُذكر فيها التَّوبةُ أوِ الذُّنوب؛ ترغيبًا في التّوبة منَ الذنوب، وفتحًا لأبواب الأمل أمام العُصاة، ويأتيان في فواصلِ آيات الأحكام أيضًا؛ لأنَّ التَّكليف يقتضي التَّقصيرَ، وهذا يُفضي إلى طلب المغفرة والرَّحمة، وقدِ اقترن الاسمان في القرآن الكريم نحو سبعين مرَّة.

نكتةُ تقديم: ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

من كمالِ رحمة الله، مغفرتُه للمذنبين، وتوبتُه على العصاة النّادمين

قُدِّم لفظ ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ لنكتةٍ لطيفة؛ فمغفرةُ اللّٰه سبحانه ذنوبَ عباده التّائبين هي من رحمتِه بهم، فاللّٰه سبحانه هو الذي يغفر الذُّنوب جميعًا؛ لأنَّه رحيم.

فتقديم ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ جاء في غاية المناسبة، فهو من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 609.

(2) ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب، ص: 304.

باب تقديم المسبَّب على السّبب: فغفرانُ اللّه ذنوبَ التّائبين مسبَّبٌ عن رحمته ﷻ، أو لأنَّ المغفرة تقتضي مطلقَ السَّتر والتَّغطية، وأمّا الرَّحمة؛ فهي مزيد تفضُّل، فقدَّم سترَ الذَّنب أوَّلًا، ثمَّ بيَّن أنَّه محتاجٌ إلى الرَّحمة.

نكتةُ تنكيرِ الاسمين الجليلين ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

جاء هذان الاسمان الجليلان ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نكرتين لإفادة التَّعظيم، والمعنى: أنَّه ﷻ غفور لكلِّ ذنب، وهو سبحانه رحيمٌ يلطف بكلِّ عبد تائبٍ.

غرضُ صِيَغ المبالغة في ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

عُبِّر بصيغتَيِ المبالغة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على وزن (فعول) و(فعيل)؛ للدّلالة على كمال الصِّفتين؛ إذ أطلقت على مستحقٍّ للكمال، أو أنَّها - أي: المبالغة - لإفادة الكثرة فيهما، وهو إطلاقٌ على وجه الحقيقة لا على سبيل المبالغة بمعناها المفهوم من كونها دالَّةً على الزّيادة على الواقع، فما يسمَّى بصيغ المبالغة إذا أُطلقت على اللّه ﷻ؛ فهي مطلقةٌ بحسب وضعِها اللُّغويّ، ولا مبالغةَ فيها بمعناها المحذور الذي سبق ذكرُه، فهي بمنزلة فعلها الذي حُذف معمولُه توسُّعًا لإرادة التَّعميم؛ فإنَّ صفاتِ اللّه ﷻ صفاتُ عموم وشمول تامٍّ فيما هي له، والمعنى هنا: تكرُّر المغفرة من اللّه لعباده التّائبين واستمراريَّتُها مع تكرُّر ذنوبهم ثمَّ التَّوبةِ عنها، وقد يكون ورودهما على الصّيغة، من باب الصّفة المشبَّهة، فيكون المرادُ ثبوتَ صفتَيِ المغفرة والرَّحمة له سبحانه.

لا تضيقُ رحمةُ اللهِ بعاصٍ، ولا يتعاظمُ على التَّوبة ذنبُ مذنبٍ

لا يملُّ الله من مغفرةٍ، ولا تضيقُ رحمته عن مُنيبٍ

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفعل والعمل:

الفِعْلُ مؤثِّرٌ من جِهَةِ التَّأثيرِ، وهو عامٌّ سواءٌ أكانَ بإجادةٍ أم غيرِ إجادةٍ، أو كانَ بِعِلْمٍ أم غيرِ عِلْمٍ، وقصدٍ أم غيرِ قصدٍ، وكَما كانَ

الفعلُ قد يقع بقصدٍ أو بدون قصدٍ، بعلمٍ أو بغير علمٍ

من الإنْسانِ والحيوان والجماداتِ، وأمّا العملُ؛ فهو كُلُّ فِعْلٍ يكونُ مِنَ الحيوانِ بقصدٍ؛ فهو أخَصُّ مِن الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قَد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يَقَعُ مِنْها فِعلٌ بغيرِ قَصدٍ، وقَد يُنسبُ إلى الجماداتِ، والعملُ قَلَّما يُنسَبُ إلى ذَلكَ[1]، فهو بذلك يدلُّ على العموم، وعلى عدم الإتقان، والتعبير في الآية بـ ﴿عَمِلُواْ﴾، مطابق لما ورد من معانٍ؛ فإنَّ عملهم كان مقصودًا وممتدًّا زمانُه.

(1) الراغب، المفردات: (عمل).

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠
شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ
فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾

[النحل: 120 - 123]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

شريعةُ الّذين هادوا، واشتراكُ المشركين معهم، في شبهاتهم حول أبي الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام

يقول الرّازي: "اعْلَم أنَّهُ تعالى لَمّا زَيَّفَ في هَذِه السّورَةِ مَذاهِبَ المُشْرِكينَ في أشْياءَ، مِنْها قولُهُم بإثْباتِ الشُّرَكاءِ والأنْدادِ للّه تعالى، ومنها طَعْنُهُم في نُبوَّةِ الأنْبياءِ والرُّسُلِ عليهم السلام، وقولُهُم: لو أرْسَلَ اللّهُ رَسولًا؛ لَكانَ ذلك الرَّسولُ مِنَ المَلائِكَة، ومنها قولُهُم بتحليلِ أشْياءَ حَرَّمَها اللّهُ، وتَحْريم أشْياءَ أباحَها اللّهُ تعالى، فلمّا بالَغَ في إبْطالِ مذاهِبِهم في هذه الأقْوالِ، وكانَ إبراهيمُ عليه السلام رئيسَ الموحِّدينَ وقُدْوَةَ الأُصوليّينَ، وهو الَّذي دعا النّاسَ إلَى التَّوْحيدِ وإبْطالِ الشِّرْكِ وإلى الشَّرائِعِ، والمُشْرِكونَ كانوا مُفْتَخِرينَ به مُعْتَرِفينَ بِحُسْنِ طريقَتِهِ مُقِرّينَ بِوُجوبِ الاقْتِداءِ به، لا جَرَمَ ذكرَهُ اللّهُ تعالى في آخِرِ هذه السّورةِ، وحكى عنه طريقَتَهُ في التَّوْحيدِ؛ ليَصيرَ ذلك حامِلًا لِهَؤُلاءِ المُشْرِكينَ على الإقْرارِ بالتَّوْحيدِ والرُّجوعِ عن الشِّرْكِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةً﴾: الهَمزَةُ والميمُ أصْلٌ واحِدٌ، يَتَفَرَّعُ مِنْهُ أرْبَعةُ أبْوابٍ، وهيَ الأصْلُ والمَرْجِعُ والجَماعَةُ والدّينُ، وهَذِه الأرْبَعَةُ مُتَقارِبَةٌ، وبَعْدَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 283.

ذَلِكَ أُصولٌ ثَلاثَةٌ، وهيَ القامَةُ والحينُ والقَصْدُ[1]، وكُلُّ شَيْءٍ يُضَمُّ إلَيْه ما سِواهُ مِمّا يَليه، فإنَّ العَرَبَ تُسَمّي ذَلِكَ الشَّيْءَ أُمًّا، ومِنْ ذلك أُمُّ الرَّأْسِ، وهو الدِّماغُ، تَقولُ: أَمَمتُ فُلانًا بِالسَّيْفِ والعَصا أمًّا: إذا ضَرَبْتَهُ ضَرْبَةً تَصِلُ إلَى الدِّماغِ، والأميمُ: المَأْمومُ، وهيَ أَيْضًا الحِجارَةُ الَّتي تُشْدَخُ بِها الرُّؤوسُ[2].

والأُمَّة: كلُّ جماعة يجمعُهم أمرٌ ما إمّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد سواءٌ كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعها: أمم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، أي: قائمًا مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة[3].

2) ﴿قَانِتًا﴾: القافُ والنّونُ والتّاءُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على طاعَةٍ وخَيْرٍ في دينٍ، لا يَعْدو هَذا البابَ، والأَصْلُ فيه الطّاعَةُ، يُقالُ: قَنَتَ يَقْنُتُ قُنوتًا، ثُمَّ سُمّيَ كُلُّ اسْتِقامَةٍ في طَريقِ الدّينِ قُنوتًا، وقيلَ لِطولِ القيامِ في الصَّلاةِ: قُنوتٌ، وسُمّيَ السُّكوتُ في الصَّلاةِ والإِقْبالُ عَلَيْها قُنوتًا، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: 238][4]، والمعنى المحوريُّ الذي تدور حوله مادَّةُ (قنت): احتواءُ باطن الشَّيء على رخاوة متمكّنةٍ فيه لا تفارقه - كحال السّقاء الذي لا يتسرّبُ منه الماء، وبذا يظل رِخوًا، والانقيادُ يكون من لين الباطن وعدم قساوته، ومنه القُنوت: الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية، ورخاوةُ الباطن نوعٌ من الضّعف يتأتّى منه كلُّ ما فسَّروا به القنوتَ من خضوع، وطاعة، وسكوت حينَ الصلاة، ودعاء، وعبادة، وطولِ قيام للصلاة، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: 116]، مطيعون وخاضعون، كلٌّ قائم بالشّهادة أنَّه عبدُه، والجمادات قنوتها في ظهور الصّنعة عليها وفيها[5]، والقُنوتُ: لزوم الطّاعة مع الخضوع، وفُسِّر بكلِّ واحد منهما في قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: 238]، وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: 26] قيل: خاضعون، وقيل: طائعون، وقيل: ساكتون[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمّ).
(2) الخليل، العين: (أمّ).
(3) الراغب، المفردات: (أمّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قنت).
(6) الراغب، المفردات: (قنت).

3) ﴿حَنِيفًا﴾: الحاءُ والنّونُ والفاءُ أصْلٌ مُسْتَقيمٌ، وهو المَيْلُ، يُقالُ لِلَّذي يَمشي على ظُهورِ قَدَمَيْه: أحْنَفُ، وقالَ قَوْمٌ - وأراهُ الأصَحَّ -: إنَّ الحَنَفَ اعْوِجاجٌ في الرِّجْلِ إلَى داخِلٍ، ورَجُلٌ أحْنَفُ، أيْ: مائِلُ الرِّجْلَيْنِ، وذَلِكَ يَكونُ بأنْ تَتَدانَى صُدورُ قَدَمَيْه، ويَتَباعَدَ عَقِباهُ، والحَنيفُ: المائِلُ إلَى الدّينِ المُسْتَقيم[1]، والمعنى المحوريُّ للمادَّة: التفات الشّيء أوِ اعوجاجه عن معتاد الحال: ومن الاعوجاج في صورة انحناء الحَنْفاء: القوسُ، والموسى، والسّلحفاة، والحرباء، فكلُّ تلك معوجّة ماديًّا لانحناء هيئتها، ومن معنويّ هذا: الأمَةُ الحنفاء: المتلونة تكسل مرة وتنشط أخرى، ومنَ الالتفات عن معتاد الحال: حَنَف عنِ الشَّيء، وتحنَّف: مال، والحنيف: المسلِمُ الذي يتحنَّف عنِ الأديان الباطلة، أي: يميل عنها إلى الدّين الحقِّ[2]، والحَنَفُ: هو ميل عنِ الضَّلال إلى الاستقامة، والحَنيف هو المائل إلى ذلك، قال ﷻ: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾، وقال: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: 67][3].

4) ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾: يقول الخليل: الجَبَى: محفر البئر، والجَبَى: نثيلة البئر، وهي ترابها الذي حولها، تراها من بعيد، تقول: أرى جَبَى بئرٍ، وجَبَى حَوض، والجابيةُ: حوض ضخم واسعٌ تشرب منه الإبلُ في مركو من الأرض، والتَّجبيةُ: ركوعٌ كركوع المُصلي، والتَّجبيةُ: أن يُجبّي الرَّجُل على وجهه باركًا، واجتبى الرَّجلُ الرَّجُلَ؛ إذا قرَّبهُ[4].

والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة يقوم على استخراجٍ بقوة أو كثرة للماء ونحوه إلى حيّز جامع كبير، كجَمع الماء منَ البئر في الجابية ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: 13]: جمع جابية، ومنه الجِباية: استخراج المال من مظانّه، جَبَى الخراجَ والمال يجبيه ويَجْباه ويجبوه ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: 57]، ومن الأصل أُخِذَ الاجتباء: الاصطفاء والاختيار، وأصله أخْذٌ وضمٌّ إلى حيّز، والصيغة تجعله إلى النّفس: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 6].

ومنه أيضًا جاء: اجتبى الشّيءَ: جاء به من عند نفسه، أي: تكلَّف استخراجه، والصّيغة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حنف).
(3) الراغب، المفردات: (حنف).
(4) الخليل، العين: (جبي).

تعطي الاجتهاد المتمثّل في التّكلُّف: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: 203][1]، والاجتباء: الجمعُ على طريق الاصطفاء، قال ﷻ: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [القلم: 50]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: 203]، أي: يقولون: هلّا جمعتها، تعريضًا منهم بأنَّك تخترع هذه الآياتِ، وليست من الله، واجتباء الله العبدَ: تخصيصُه إيّاه بفيض إلهيٍّ يتحصَّل له منه أنواعٌ من النِّعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعضِ من يقاربهم مِنَ الصّديقين والشّهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50][2].

5) ﴿حَسَنَةً﴾: الحاءُ والسّينُ والنّونُ أَصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ، وامرَأَةٌ حَسْناءُ وحُسّانَةٌ والمَحاسِنُ مِنَ الإنْسانِ وغَيْرِه: ضِدُّ المَساوِئِ[3]، والمعنى المحوريُّ لمادَّة (حسن): نَقاءُ الشيء ورقته بخروج الخَشن أو الغليظ الذي يخالطه، فيَشوبُ رِقَّتَه منه، ومن هذا عبَّر التركيب عن الحُسن، أي: جمال المنظر ونقائه ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: 52] نقاؤهن، والمعنويُّ منه ﴿عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾ [الرحمن: 76]، ثم عُمِّم في الطَّيب الرقيق من الصُّحبة: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: 69]، والنِّعمةِ: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝١١﴾ [الطلاق: 11]، والعملِ ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة: 93]، ومن هذا: الحسَنَة ضدُّ السيئة ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]، والقول ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]، والحسنى: التي تَفْضُل سواها في الحُسن، فأُطلِقتْ على الجنة ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26][4].

وعند الرّاغب: الحُسْنُ: عبارة عن كلِّ مبهج مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحسِّ، والحسنةُ يعبَّر عنها عن كلِّ ما يسرُّ من نعمة تنال الإنسانَ في نفسه وبدنه وأحواله، والسيئة تضادُّها، وهما من الألفاظ المشتركة، كالحيوان، الواقع على أنواع مختلفة كالفرس والإنسان وغيرهما[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جبي).
(2) الراغب، المفردات: (جبي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسن).
(5) الراغب، المفردات: (حسن).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اتّصفَ إبراهيمُ عليه السلام بصفاتٍ كثيرةٍ، دلَّت بمجموعِها على ردِّ افتراءاتِهم عنه

إنَّ إبراهيم خليلُ الله، كان مُعَلِّم خَيْر، يأتمُّ به أهل الهدى، مطيعًا لله حنيفًا، مستقيمًا على دين الإسلام، ولم يكُ يُشرك بالله شيئًا، فيكونَ من أولياء أهل الشِّرك به، وهذا إعلام من الله تعالى أهلَ الشِّرك به من قريش أنَّ إبراهيم منهم بريء، وأنَّهم منه برآء، وكان يخلص الشُّكر لله فيما أنعم عليه، ولا يجعل معه في شكره في نعمه عليه شريكًا من الآلهة والأنداد وغير ذلك، كما يفعل مشركو قريش، وقد اصطفاه، وأرشده إلى الطَّريق المستقيم، وذلك دين الإسلام لا اليهوديَّة ولا النَّصرانية، وآتينا إبراهيم على قنوته لله، وشكره له على نعمه، وإخلاصه العبادة له في هذه الدُّنيا ذكرًا حسنًا، وثناءً جميلًا باقيًا على الأيّام، وإنَّه في الدّار الآخرة يوم القيامة، لمَّن صلح أمره وشأنه عند الله، وحَسُنت فيها منزلته وكرامته، وقلنا لك يا محمّد: اتّبع ملَّة إبراهيم الحنيفية المسلمة حَنيفًا مسلمًا على الدّين الذي كان عليه إبراهيم، بريئًا من الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما كان إبراهيم تبرَّأ منها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ ترك العطفِ على الآية السّابقة:

انحرافُ المشركين واليهود، عنِ الحنيفيّة السَّمحة الَّتي جاء بها إبراهيم عليه السلام

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ يقول ابن عاشور: هو اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ لِلانْتِقالِ إلَى غَرَضِ التَّنْويه بِدينِ الإسْلام بِمُناسَبَةِ قَوْلِه: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾، المَقْصودُ به أنَّهُم كانوا في الجاهليَّةِ، ثُمَّ اتَّبَعوا الإسْلامَ، فبَعْدَ أنْ بَشَّرَهُم بِأنَّهُ غَفَرَ لَهُم ما عَمِلوهُ مِنْ قَبْلُ زادَهُم فضْلًا بِبَيانِ فضْلِ الدّينِ الَّذي اتَّبَعوهُ، وجَعَلَ الثَّناءَ على إبْراهيمَ عليه السلام مُقَدِّمَةً لِذَلِكَ؛ لِبَيانِ أنَّ فضْلَ الإسْلام

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 316 - 319.

فضْلٌ زائِدٌ على جَميعِ الأدْيانِ بِأنَّ مَبْدَأَهُ بِرَسولٍ ومُنْتَهاهُ بِرَسولٍ، وهَذا فضْلٌ لَم يَحْظَ به دينٌ آخَرُ.

والأصْلُ الأصيلُ الَّذي تَفَرَّعَ عَنْهُ وعَنْ فُروعِه هَذا الانْتِقالُ ما ذُكِرَ في الآيَةِ قَبْلَها مِنْ تَحْريمِ أهْلِ الجاهليَّةِ على أنْفُسِهم كَثيرًا مِمّا أنْعَمَ اللّهُ بِه على النّاسِ.

ونَظَّرَهُم بِاليَهودِ؛ إذْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهم أشْياءَ، تَشْديدًا عَلَيْهم، فجاءَ بِهَذا الانْتِقالِ لِإفادَةِ أنَّ كِلا الفَريقَيْنِ قد حادوا عَنِ الحَنيفيَّةِ الَّتي يَزْعُمونَ أنَّهُم مُتابِعوها، وأنَّ الحَنيفيَّةَ هيَ ماجاءَ به الإسْلامُ مِنْ إباحَةِ ما في الأرْضِ جَميعًا مِنَ الطَّيِّباتِ، إلّا ما بَيَّنَ اللّهُ تَحْريمَهُ في آيَةِ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: 145][1].

دلالةُ البدءِ بالمؤكِّداتِ في الآيةِ:

تناسبُ زخمِ المؤكِّداتِ مع تزاحمِ الشُّبهاتِ

اُستهلَّت الآية في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بعددٍ من أساليب التَّأكيد منها: ﴿إِنَّ﴾، والجملةُ الاسميَّة والَّتي خبرُها جملةٌ اسميَّة أيضًا، وفيها يتكرَّر ذكرُ المبتدأ الأوَّل وإن كان محذوفًا، وهذا التَّوالي في المؤكِّدات إنَّما جاء لأنَّ هذه الآياتِ قد وصفته بتسع صفاتٍ قد اجتمعت فيه، ورفعت من قدره، وعرَّضت ببعض الشُّبهات الَّتي أُلقيت حوله وحول عصمتِه، فاقتضى الأمر تزاحمَ هذه المؤكِّدات.

نكتةُ حذف اسمِ ﴿كَانَ﴾:

التَّقديرُ في قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، أي: كان هو أُمَّة، فحُذف المسند إليه إيجازًا، لتقدُّم ذكره، ولتسريع ذكر خبره، وهو ﴿أُمَّةً﴾.

بلاغةُ المجازِ في الوصف بالأمَّة:

ما قام به إبراهيمُ عليه السلام في حياته، يوازي فعلَ أمَّةٍ من الأمم

ذكر الإمام الرّازي في توجيه وصفه عليه السلام بأنّه أمّة: أنْ تكونَ أُمَّةٌ فُعْلَةً بِمَعْنَى مَفْعولٍ كالرُّحْلَةِ والبُغْيَةِ، فالأُمَّةُ هو الَّذي يُؤْتَمُّ به، ودَليلُه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 315.

قولُهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾ [البَقَرَة: 124]، أو أنَّهُ عليه السلام هو السَّبَبُ الَّذي لِأجْلِه جُعِلَتْ أُمَّتُهُ مُمتازينَ عَمَّنْ سِواهُم بالتَّوحيدِ والدّينِ الحَقِّ، ولَمّا جَرَى مَجْرَى السَّبَبِ؛ فيكون وصفُه بالأمَّة إطْلاقًا لِاسْمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ[1] من باب المجاز المرسل بعلاقة (المسبّبيّة)، أو بعلاقة (العموم) حيث أطلق اللّفظ العام، وأراد به خاصًّا، وهو ما يعرفُ عند الأصوليين باللّفظ العامّ المرادِ به خاصٌّ، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 54]، حيث المراد بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: 54] هنا الرّسولُ صلى الله عليه وسلم.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿أُمَّةً﴾:

مكانةُ إبراهيمَ عليه السلام ليست كغيره

تتنوَّع أغراضُ التَّنكير بحسب تنوُّع المعاني المحتملة للَّفظة، فيمكن أن يفيد تنكيرُ لفظة ﴿أُمَّةً﴾ هنا معانيَ التَّعظيم والتَّفخيم والتَّكثير على اعتبار أنَّه يوازي العددَ الغفير من النّاس، ويمكن حملُ التَّنكير على النَّوعية على اعتبار أنَّ إبراهيم عليه السلام كان أمَّة غيرَ باقي الأمم.

دلالةُ جملة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾:

ما أكثرَ الَّذين خرجوا عن ملَّة إبراهيم عليه السلام، مع زعمِهم الانتساب له

إيراد ذكره عليه السلام عقيبَ تزييف مذاهبِ المشركين من الشرك والطّعن في النُّبوة، وتحريم ما أحلَّ الله تعالى؛ للإيذان بأنَّ حقيَّة دين الإسلام وبطلانَ الشِّرك وفروعه أمرٌ ثابت لا ريب فيه، وفي ذلك أيضًا ردٌّ على قريش واليهودِ حيث يزعمون أنَّهم على دينه[2]، ليَظهر الفرقُ بين حاله عليه السلام وحالِ المشركين وحال اليهود، ففي الجملة تعريضٌ بهم.

دلالةُ البناء الصَّرفيّ لقوله: ﴿قَانِتًا﴾:

صفةُ الطّاعة والامتثال، لم تفارق إبراهيمَ عليه السلام

بناءُ قوله: ﴿قَانِتًا﴾ على زنةِ اسم الفاعل، وهو ما اشْتُقَّ من

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 284.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 483.

المصدر المبنيّ للفاعل، لمن وقع منه الفعل، أو تعلَّق به[1]، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدَّوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له.

دلالةُ لام الجر في لفظ الجلالة ﴿لِّلَّهِ﴾:

اللّام هنا قد تكون للتَّقوية؛ لأنَّ العامل ﴿قَانِتًا﴾ هنا اسم مشتقٌّ عمِلَ عمَلَ الفاعل، وجاء متقدِّمًا والتَّقدير: (للّه قانتًا)[2]، فأفادت لامُ التَّقوية تأكيدَ الحكم وتحقيقَه؛ لأنَّ الاسم المشتقَّ كان يمكن أن يتعدّى بنفسه دونها، ولا مانعَ من حملها على معنى التَّعليل، والتَّقديرُ: (قانتًا لأجل اللّه).

طاعةُ إبراهيم عليه السلام، كانت خالصةً لله دون سواه

الموقعُ البيانيُّ والنَّحويُّ لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

هذه الكلمة وقعت بيانيًّا موقعَ الصِّفة الثّالثة لإبراهيم عليه السلام، ولذلك لم تُعطف على سابقتها لكمال اتِّصالها بها؛ إذ لا عطفَ بين صفاتٍ لموصوفٍ واحدٍ إلّا إذا دعت البلاغة إلى ذلك.

ميلُ نبيِّ الله إبراهيمَ عليه السلام، كان للحقِّ، وليس عنِ الحقِّ

وأمّا نحويًّا؛ فهي إمّا أن تكون خبرًا ثالثًا لـ﴿كَانَ﴾، أو حالًا من ضمير ﴿قَانِتًا﴾[3].

البناءُ الصَّرفيُّ لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

بُني قولُه: ﴿حَنِيفًا﴾ على زنة اسم الفاعل، وهو ما اشْتُقَّ من المصدر المبنيِّ للفاعل، لمن وقع منه الفعلُ، أو تعلَّق به[4]، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدَّوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له.

إبراهيمُ عليه السلام كان دائمَ الميل عنِ الباطل للحقِّ

فائدةُ عطف قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُ﴾:

قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، الظّاهرُ في الواو أنّها هنا عاطفةٌ،

إبراهيمُ عليه السلام كان يدعو للوَحدانيَّة، ويحاربُ الشِّرك وأهله

(1) الحملاويّ، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 316.
(3) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 7/ 301.
(4) الحملاويّ، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 61.

عطفت الصِّفةَ الرّابعة لإبراهيم ﷺ على الصِّفات السّابقة، ويكون سببُ مجيئها معطوفة بالواو دون ما تقدَّمها من إنزال التَّغاير العنوانيِّ منزلةَ التَّغاير الذّاتيِّ، بمعنى الإشادةِ بهذه الصِّفة دون غيرها لفضلها، فهي قد نفت عنه الشِّرك، لذلك عُطفت بالواو للإشارة إلى مغايرتها لما سبقها، ويمكن أن يكون سببُ عطفها على قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أنَّه يوجد نوع من التَّقابل بين قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مائلًا، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنَّ مُفاد الأخيرة أنَّه مسلمٌ، فيحسن عندئذٍ العطفُ بين الصِّفات المتقابلة، كقوله: ﴿ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التّوبة: 112]، وقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التَّحريم: 5]، ويمكن حمل الواو على معنى الحاليَّة على معنى: كان حنيفًا، والحال أنَّه لم يكن من المشركين.

نكتةُ نفي الشِّرك عن إبراهيم ﷺ:

نفيُ تهمةِ الشِّرك عن إبراهيم ﷺ بطرقٍ متنوِّعة

المتبادرُ إلى الذِّهن أنَّ قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ يدلُّ على ميله عنِ الباطل إلى الحقِّ، ثمَّ يأتي عطف قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عليه من باب التَّأكيد، وتقرير الصِّفة؛ لأنَّه داخلٌ في معناه، لكن يبدو أنَّ سبب عطفِها عليها أنَّ وصفَه بالحنيفيَّة يعني: الميْل لغةً، وقد يوهمُ هذا أنَّ ميله عن مذاهب غيره قد يوقعُه في الشِّرك من ناحية أخرى، فيكون قد أتى بهذا الوصف لدحض هذا الظّنِّ، أو لبيان حال ميله عن مذاهبهم، بأنَّه كان فرارًا منَ الشِّرك.

سرُّ معنى الأداةِ (لَم) النّافيةِ:

بيانُ أنَّ إبراهيم لم يتلبَّس سابقًا بالشِّرك، ولن يتلبَّس به مستقبلًا

حرف نفي وجزم وقلب، يقلب الفعلَ المضارع إلى معنى الماضي، ويجزم فعلًا واحدًا، ويمكن أن تدخل الهمزة عليها (ألَم)، يقول ابنُ عاشور: ونُفيَ كَوْنُهُ مِنَ المُشْرِكينَ بِحَرْفِ (لَم)؛ لِأَنَّ (لَم) تَقْلِبُ زَمَنَ الفِعْلِ المُضارِعِ إلى الماضي، فَتُفيدُ انْتِفاءَ مادَّةِ الفِعْلِ في الزَّمَنِ الماضي، وتُفيدُ تَجَدُّدَ ذَلِكَ المَنْفيِّ الَّذي هو مِنْ خَصائِصِ الفِعْلِ

المُضارِع، فيَحْصُلُ مَعْنَيان: انْتِفاءُ مَدْلولِ الفِعْلِ بمادَّتِه، وتَجَدُّدُ الانْتِفاءِ بصيغَتِه، فيُفيدُ أنَّ إبْراهيمَ عليه السلام لَم يَتَلَبَّسْ بالإشْراكِ قَطُّ، فإنَّ إبْراهيمَ عليه السلام لَم يُشْرِكْ باللهِ مُنْذُ صارَ مُمَيِّزًا، وأنَّهُ لا يَتَلَبَّسُ بِالإشْراكِ أبَدًا[1].

دلالةُ الموقع النَّحويِّ لقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُ﴾:

نـفـيُ تـهـمـةِ الـشِّـرك عـن إبـراهـيـم عليه السلام، ولو قيدَ أنملَةٍ

فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه السُّكونُ الظّاهر على النّون الَّتي حُذفت تخفيفًا[2]، والغرض من حذف النّون هنا عند ابن عطيَّة هو كثرةُ الاستعمال[3]، والَّذي يبدو أنَّ سبب الحذف المُفضي إلى التَّخفيف هو أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يدخل في دائرة الشِّرك، ولو للحظة واحدة، فجاء التَّخفيفُ للدّلالة على نفي كونِه في دائرة الشِّرك ألبتَّة.

نكتةُ حذفِ اسم: ﴿يَكُ﴾، ومعنى ﴿مِنَ﴾:

بيانُ أنَّ الشِّرك خلافُ الحنيفيَّة السَّمحةِ

حُذِفَ المسندُ إليه، وتقديرُه: هو، ويعود على إبراهيم عليه السلام، إيجازًا للعلم به، وتدلُّ ﴿مِنَ﴾ على الابتداء، وهو المعنى الَّذي لم يكن ليفارقَها، ويمكن حمْلها على التَّبعيض على معنى أنَّه لم يكن واحدًا منهم، ولا ضَيْرَ من حملها على البيان على اعتبار أنَّ غيرَ الحنيفيَّة، تشمل الشِّركَ والكفر وأهلَ الكتاب وغيرَهم.

دلالةُ (أل) على الجنس في ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

لم يكنِ الخليلُ منتميًا إلى أيِّ صنفٍ مِنَ الشِّرك المنبوذ

الأليقُ بالسّياق هنا حملُها على الجنسيَّة، على اعتبار نفي جنس الشِّرك عنه، فلم يكن منتميًا إلى صنف من صنوف الشِّرك مطلقًا.

نكتةُ فصلِ جملة: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾:

إبراهيمُ عليه السلام أنموذجٌ في شُكران النِّعم

هذه الجملة وقعت بيانيًّا موقعَ الصِّفة الخامسة لإبراهيم عليه السلام، ولذلك لم تُعطف على سابقتها لكمال اتِّصالها بها؛ إذ لا عطف بين صفاتٍ لموصوفٍ واحدٍ إلّا إذا دعت البلاغةُ إلى ذلك.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 316، 317.

(2) صافي، الجدول في الإعراب: 7/ 411.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 430.

وأمّا نحويًّا؛ فهي إمّا أن تكون خبرًا خامسًا لـ(كان)، أو حالًا من ضمير ﴿يَكُ﴾[1].

دلالةُ البناءِ الصَّرفيِّ لقوله: ﴿شَاكِرًا﴾:

كان إبراهيمُ عليه السلام دائمَ الشُّكر لربِّه ملازمًا له

بناءُ قوله: ﴿شَاكِرًا﴾ على زنة اسم الفاعل، وهو ما اشْتُقَّ من المصدر المبنيِّ للفاعل، لمن وقع منه الفعلُ، أو تعلق به[2]، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدَّوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له.

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾:

شكرُ إبراهيمَ عليه السلام للنِّعم، كان لأجل الله لا لسواه

اللّام هنا قد تكون للتَّقوية؛ لأنَّ العامل ﴿شَاكِرًا﴾ هنا اسم مشتقٌّ عمِل عمَلَ الفاعل، وجاء متقدِّمًا والتَّقدير: (لأنعمه شاكرًا)[3]، فأفادت لام التَّقوية تأكيدَ الحكم وتحقيقَه؛ لأنَّ الاسم المشتقَّ كان يمكن أن يتعدّى بنفسه دونها، ولا مانعَ من حملها على معنى التَّعليل، والتَّقديرُ: (شاكرًا لأجل أنعُم اللّه).

غرضُ التَّعبير بجمع القلَّةِ ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾:

شكرُ النِّعم القليلةِ مُفْضٍ إلى شكر النِّعم الكثيرة من بابٍ أولى

يقول الرّازي: فإنْ قيلَ: لَفْظُ الأَنْعُم جَمعُ قِلَّة، ونِعَمُ اللّه تَعالَى على إبْراهيمَ عليه السلام كانَتْ كَثيرَةً، فلِمَ قالَ: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾؟ قُلْنا: المُرادُ أنَّهُ كانَ شاكِرًا لِجَميعِ نِعَمِ اللّه إنْ كانَتْ قَليلَةً، فكَيْفَ الكَثيرَةُ؟[4] فيكون من باب التّنبيه بالأدنى على الأعلى، وفيه حثٌّ للمدعوّين على أن يكونوا كأبيهم إبراهيمَ عليه السلام في شكره للّه على قليل النِّعم فضلًا عن كثيرها.

نكتةُ فصل جملة ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾:

هذه الجملة وقعت بيانيًّا موقعَ الصِّفة السّادسة لإبراهيم عليه السلام،

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 7/ 301.
(2) الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 61.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 316.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 284.

ولذلك لم تُعطَفْ على سابقتها لكمال اتِّصالها بها؛ إذ لا عطفَ بين صفاتٍ لموصوفٍ واحدٍ إلّا إذا دعتِ البلاغةُ إلى ذلك.

وأمّا نحويًّا؛ فهي إمّا أن تكون خبرًا سادسًا لـ(كان)، أو حالًا من ضمير ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾[1]، ويمكن أن يكون سببُ فصل الجملة عن سابقتها الاستئنافَ البيانيَّ، جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: ما سببُ فوزه بهذه المحامد[2]؟

اجتباءُ الله تعالى لإبراهيمَ، لتميُّزه بصفاتٍ فيه أهَّلته لذلك

نكتةُ حذفِ الفاعل في الفعل: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾:

حُذف فاعلُ الاجتباء إيجازًا للعلم به، ولوجود ما يدلُّ عليه ممّا سبقه: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾، وحتّى ينشغلوا بالفعل عن الفاعل.

حذفُ الفاعل غايتُه الانشغالُ بالفعل عنِ الفاعل

غرضُ العُدولِ من الاسميَّة إلى الفعليَّة:

عدل النَّصُّ الحكيم عن قوله: مُجتبًى أو المُجتبى إلى التَّعبير بالفعل الماضي؛ وذلك ليبيِّن أنَّ هذا الاجتباء كان قديمًا ومرادًا، وأنَّ اللّٰه تعالى قد هيَّأه منذ القدم لحمل هذه الأمانة.

هيَّأ الله نبيَّه إبراهيمَ عليه السلام، ليكون أصلًا لكلِّ الأنبياء

فائدةُ العطفِ في قوله: ﴿وَهَدَىٰهُ﴾:

الواو هنا عاطفة، عطفت نعمةَ الهداية على الاجتباء، وحسُن العطفُ لاشتراك الجملتَيْن في الفعليَّة والماضويَّة.

جمعُ الاجتباء مع الهداية، قوامُ الشَّخصيَّةِ الإبراهيميَّةِ المصطفاة

نكتةُ حذْفِ الفاعل من الفعل ﴿وَهَدَىٰهُ﴾:

حُذف فاعلُ الهداية إيجازًا للعلم به، ولوجود ما يدلُّ عليه ممّا سبقه: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾، وحتّى يركِّزوا اهتمامَهم على الفعل نفسِه، ليكون باعثًا لهم على الاهتداء.

التَّركيزُ على الفعل يكون دافعًا للهداية

غرضُ تقديم الاجتباءِ على الهداية:

تقديمُ الاجتباء على الهداية، من تقديم السَّبب على المُسبَّب؛ فالهدايةُ هي ثمرة هذا الاجتباء.

تقديمُ السَّبب على المسبَّب منطقٌ واقعيٌّ مقبولٌ

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 7/ 301.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 317.

الصِّراطُ المستقيمُ وسيلةٌ توصلُ إلى الجنَّة دارِ السَّلام

نكتةُ تعديةِ الهداية بـ (إلى):

قولُه تعالى: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، ﴿إِلَىٰ﴾ حرفُ جر، ومعناه: انتهاءُ الغاية الزَّمانيَّة والمكانيَّة، والفعل (يهدي) يتعدّى باللّام، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: 35]، ويتعدّى بإلى، كما في الآية هنا؛ وقد تعدّى هنا بـ ﴿إِلَىٰ﴾، ولم يتعدَّ باللام؛ لتضمُّنه معنى الانتهاء في الهداية، أي: هدى اللّهُ إبراهيمَ هدًى منتهيًا في هدايته إلى صراط مستقيم[1]، وهو طريق الإسلام الَّذي رسمه اللّه له، أو هو طريقة الدَّعوة إليه، أي: "وهَداهُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ في الدَّعوة إلى اللّه"[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المهتدي لايزال في طريق الهداية يسعى، ويجتهد، قصدًا للوصول إلى الغاية الكبرى، وهي دخولُ الجنَّة؛ لأنَّ الصراط المستقيم هو وسيلةٌ توصل للغاية الَّتي هي دارُ السَّلام، ولهذا عُدّيَ الفعل بإلى، ولم يتعدَّ باللّام؛ لأنَّ دلالتَها على التعليل، وهذا لا يناسب استعمالَها مع الصِّراط؛ لأنَّه ليس الغايةَ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿صِرَٰطٖ﴾:

أفاد تنكيرُ هذه اللَّفظة هنا: معانيَ التَّعظيم والتَّفخيم.

الإسلامُ كالطَّريق الموصِل الى الغايةِ المطلوبة بدون اعوجاجٍ

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استعارةٌ تصريحيةٌ؛ حيث شبَّه البيانُ الإلهيُّ الإسلامَ بالصّراط المستقيم، فحذف المشبَّه: وهو الإسلام، وصرَّح بالمشبّه به: وهو الصِّراط المستقيم، أي: الطريق الذي لا اعوجاجَ فيه، فالصِّراطُ حقيقةٌ في الطَّريق الحسّي استعارةٌ للإسلام، وشبَّه الإسلامَ بالطَّريق الحسّي بجامعِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 112، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 143، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3665.

(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 244.

أنَّ كلًّا موصِلٌ للمقصود، وفي تشبيه الطَّريق الحسّي المدرك بالبصر تصويرٌ للمعنويّ المدرَك بالعقول اعتناءً ومبالغةً في إظهاره.

نكتةُ وصفِ الصِّراط بالاستقامة:

في وصفِ الصِّراط بالاستقامة، تعريضٌ بغيره

كثيرًا ما يصف الحقُّ سبحانه صراطَه بالاستقامة مع أنَّه لا يكون إلّا كذلك؛ وهذا الوصفُ للصِّراط بالاستقامة إنَّما هو للإشادة باستقامة صراط اللّه دون سُبُلِهم الَّتي يسلكونها، وليست هذه الصِّفة مقيَّدةً بمعنى: أنَّ هنالك صراطًا مستقيمًا وصراطًا غير مستقيم، بل للتَّركيز على هذا الوصف الذي لا ينفكُّ عن صراط اللّه العزيز الحميد، والتَّنبيهِ عليه، وفيه تعريضٌ بسُبُلهم المعوجَّة.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

عطفُ الصِّفات الإيجابيَّة على بعضها، دليلٌ على السُّموِّ والكمال

الواو هنا عاطفة، عطفت الصِّفةَ الثّامنة لإبراهيم عليه السلام، على ما تقدَّمها، والَّذي يحسِّن العطفَ بينها وبين الصِّفتيْن السّابقتيْن لها، اشتراكُهم في الفعليَّة، والماضويَّة.

نكتةُ إسناد الإيتاء إلى ضمير العظمة:

ما يُؤتيه الله تعالى، فهو مددٌ لا يَنضبُ

في إسناد الإيتاء إلى ضمير العظمة، تفخيمٌ لهذا الإيتاء، ورفعٌ لقدره، وأنَّه إيتاءٌ يليقُ بمن أُسند إليه.

بلاغةُ الالتفات في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

إظهارُ مكانة إبراهيمَ لتعليل دواعي تفضيلِه وتميُّزِه

والالتفاتُ إلى التَّكلُّم لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وتفخيم مكانه عليه السلام، ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، داخلٌ في عِدادهم كائنٌ معهم في الدَّرجات العلا من الجنَّة[1].

دلالةُ التَّعبير بالإيتاء:

الإيتاءُ فيه سهولةٌ وعطاءٌ كبيرٌ

يقول الرّاغبُ: الإتيان: مجيء بسهولة، وكلُّ موضع ذُكِرَ في وصفِ الكتاب (آتينا)؛ فهو أبلغُ من كلِّ موضع ذكر فيه (أوتوا)؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 484.

لأنَّ (أوتوا) قد يقال: إذا أوتي من لم يكن منه قَبول، وآتيناهم يقال فيمن كان منه قَبولٌ.

والإيتاء: الإعطاء، وخصَّ دفع الصَّدقة في القرآن بالإيتاء، نحو: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 277][1].

معنى ﴿فِى﴾ و(ال) من قوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾:

من رعتْهُ عنايةُ الله في الدُّنيا؛ نـال الأمـانَ، وحاز السَّعادةَ

ظرفيَّةٌ مجازيَّة، والمعنى: في حياته الأولى على الأرض، حيث شبَّه إحاطةَ الحياة الأولى فيه بإحاطة الغرفة أوِ المكان على من هو فيه، ومعنى (أل) في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: عهديَّةٌ ذهنيَّة؛ لأنَّ المراد فيها حياتُه الأولى على الأرض.

نكتةُ تقديم شبهِ الجملة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾:

ذكـرُ حسنةِ الدُّنيا، مُشوِّقٌ لحسنة الآخرة

قدَّم شبه الجملة الظَّرفيَّة على المفعول الثّاني لـ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، للعناية بظرف الإيتاء ومكانه قبل بيان نوعه وماهيَّته؛ وللتّشويق، لما سيأتي بعدها من وصف حاله في الآخرة.

غرضُ تنكير لفظ ﴿حَسَنَةً﴾:

أكرمَ الله تعالى إبراهيمَ عليه السلام بالعطاءات وخصوصًا النُّبوَّة

الحسنة تشمل ما قيل: بأن حبَّبه إلى النّاس حتى إنَّ جميع أهل الأديان يتولَّونه، ويُثنون عليه عليه السلام حسبما سأل بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: 84] وقيل: الحسنة النُّبوَّةُ، وقيل: الأولاد الأبرار على الكِبَر، وقيل: المالُ يصرفه في وجوه الخير والبرِّ، وقيل: العمرُ الطّويل في السَّعة والطاعة[2]، ولذا فإنَّ حمل التَّنكير على العموم والتَّعظيم أليقُ بهذا المقام.

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

خلاصةُ الحياة، مـا يكـونُ في الآخرة من نجاة

عطفتِ الواوُ هنا الصِّفةَ التّاسعة لإبراهيم عليه السلام، على الصِّفات السّابقة، والَّذي سوَّغ العطفَ بينهما وجودُ التَّقابل بين وصف حاله في الدُّنيا، وحالِه في الآخرة.

(1) الراغب، المفردات: (أتى).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 484.

فائدةُ توالي المؤكِّدات في الآية:

تــزاحــمــتِ المؤكِّداتُ لتزاحُمِ الشُّبهاتِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مجموعةٌ من أدوات التّوكيد وأساليبه هي: (إنّ، والاسميّة، واللّام المزحلقة الّتي كانت في أصلها لامَ ابتداء، وتقديم شبه الجملة ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾، وتزاحمُ هذه المؤكِّدات فيه خروجٌ عن الظّاهر دون مقتضى الحال؛ لأنَّ الخطاب كان مع النَّبيِّ ﷺ والفئةِ المؤمنة معه، وهم لا ينكرون هذه الحقيقةَ، ولكنَّ هذا التَّزاحم في المؤكِّدات إنَّما جاء تعريضًا باليهود الَّذين افتروا على إبراهيم عليه السلام ما افتروه، حيث إنَّ الآية الكريمة قد وطَّأت لحديث الآية الَّتي تليها عن أصحاب السَّبت، فبيَّنتِ الآيةُ الكريمة أنَّ إبراهيم عليه السلام في عداد الصّالحين المنزَّهين عن كلِّ نقيصة.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾:

العنايةُ بإبراهيمَ الخليلِ، تأكيدٌ لمقامه عند الجليل

قدَّم شبه الجملة الظَّرفيَّة على خبر (إنَّ) اعتناءً بإبراهيم عليه السلام، بأنَّه من الفائزين في الآخرة، وتشويقًا لما يأتي بعدها من الحكم عليه بالصَّلاح.

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لَمِنَ﴾:

تأكيدُ احتسابِ إبراهيمَ عليه السلام في زمرة الصّالحين

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، اللّام هنا هي اللّام المزحلقة، والَّتي تفيد التَّأكيدَ، وقد كانت ملازمةً للمبتدأ (هو)، على أنَّها لامُ الابتداء، فلمّا دخلت (إنّ)؛ انتقلت إلى الخبر؛ لأنَّ لغة العرب تكره تلاصقَ المؤكِّدات.

معنى ﴿لَمِنَ﴾ في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

لِحرفِ المعنى هنا دلالةٌ على ما يميِّزُ الموصوفَ الأكرمَ عليه السلام

﴿لَمِنَ﴾ هنا قد تكون ابتدائيَّة، وهو المعنى الَّذي لا يكاد يفارقها، بمعنى أنَّ بداية جزائه في الآخرة، تبدأ من الحكم عليه بالصَّلاح، ويمكن حملها على التَّبعيض على معنى أنَّه واحدٌ من إخوانه الأنبياء المشهودِ لهم بالصَّلاح، فضلًا عن كونها بيانيَّةً تمثِّل لبعض الثَّواب الَّذي ينتظره.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الصّالحون مشهودٌ لهم بذلك، والانتماء إليهم فلاحٌ

يمكن حمل (أل) هنا على العهد الذِّهنيِّ، على معنى الأنبياء والمشهودِ لهم بالصَّلاح ممَّن تعرفونهم، ويمكن حملُها على الجنس على معنى: هو واحدٌ من جنس الصّالحين.

نكتةُ تغايرِ النَّظم في الآية:

حالُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآخرة معروفٌ مقرَّرٌ

يُلاحظ أنَّه لمّا وصف السّياقُ حالَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدُّنيا، قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، ووصفَ حاله في الآخرة بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فلم يقل: (وجعلناه في الآخرة لمن الصّالحين) مثلًا، فقد جاءت الجملة الثّانية على هيئة الاسميَّة الَّتي تفيد التأكيدَ، وازدحمت بمجموعة من المؤكِّدات؛ لأنَّ حالَ فلاحه في الدُّنيا وحفظِ اللّه له ظاهرٌ للعيان لا يماري فيه أحدٌ، وإنَّما احتاج الأمر تأكيدَ حاله في الآخرة تعريضًا باليهود الذين ستأتي الآياتُ للحديث عنهم بعد هنيهة، فكان هذا التَّغايرُ في النَّظم والأسلوب؛ لبيان أنَّ حاله في الآخرة محقَّقٌ مؤكَّد لا يتغيَّر، ولا يتبدَّلُ.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْأٓخِرَةِ﴾:

بضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ

بين اللَّفظتيْن طباقُ إيجابٍ، حيث جمعتِ الآيةُ الكريمة بين لفظَيْن متضادَّيْن، بل هما متناقضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فلا يخلو المرء من أن يكون إمّا في الدُّنيا وإمّا في الآخرة.

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾:

مكانةُ نبيِّنا صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفيعةُ القدر؛ لأنَّها من ذات المشكاة

أفاد العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّراخيَ الرُّتبيَّ، يقول الزَّمخشريُّ: في ﴿ثُمَّ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول اللّه صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإجلال محلّه، والإيذانِ بأنَّ أشرف ما أوتيَ خليلُ اللّه إبراهيم من الكرامة، وأجلَّ ما أوليَ من النّعمة: اتِّباعُ رسولِ اللّه صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملَّته، من قبل أنَّها دلّت على تباعد هذا النَّعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى اللّه عليه بها[1].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 643.

نكتةُ الإسناد في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

ما جاء به نبيُّنا ﷺ كان وحيًا منَ الله تعالى، كما كان مع إبراهيمَ عليه السلام

في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ إسنادٌ لفعل الوحي إلى ضمير الاسم الأحسن؛ لبيان أنَّ الله تعالى هو الَّذي تولّاه، واجتباه للرِّسالة، وفي ذلك ردٌّ على مشركي مكَّة ومن لفَّ لفَّهم الَّذين اتّهموه بالكذب والافتراء على الله، ثمَّ إنَّ فيها تعريضًا باليهود الَّذين سيأتي الحديثُ عنهم في الآية الآتية، بأنَّ النَّبيَّ ﷺ من نفس الملَّة ونفسِ المشكاة، ولم يكن بِدعًا منَ الرُّسل.

معنى ﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ﴾:

اختيارُ أداةِ التَّفسيرِ لإيضاح المفهومِ المرادِ من الاتِّباع

(أنْ) تفسيريَّةٌ، فسَّرت هنا المراد بالإيحاء، أو مصدريَّةٌ، على معنى: بأن اتِّبع ملَّةَ إبراهيم، أي: باتِّباعها، ومنَ المحقِّقين مَن اقتصر على احتمال المصدريَّة[1].

دلالةُ الأمر باتِّباع الملَّة:

ملَّةُ الأنبياء من مشكاةٍ واحدةٍ، وإنِ اختلفت شرائعُهم

يفيد الأمر ﴿ٱتَّبِعۡ﴾ معنى الوجوب، وقد يدلُّ على الثَّبات والدّوام؛ لأنَّ شأنه ﷺ كذلك، يقول الآلوسي: وفي لفظ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، ثمّ الأمرِ باتباع الملَّة لا اتّباعِ إبراهيم عليه السلام، ما يدلُّ على أنَّه ﷺ ليس بتابع له، بل هو مستقلٌّ بالأخذ عمن أخذ إبراهيمُ عليه السلام عنه[2]، ومَعْنَى اتِّباعِ مُحَمَّدٍ مِلَّةَ إبْراهيمَ الواقِعِ في كَثيرٍ مِنْ آياتِ القُرْآنِ أنَّ دينَ الإسْلامِ بُنيَ على أُصولِ مِلَّةِ إبْراهيمَ، وهيَ أُصولُ الفِطْرَةِ، والتَّوسُّطُ بَيْنَ الشِّدَّةِ واللّينِ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78][3].

نكتةُ المجاز في الأمر بالاتِّباع:

الاتِّباعُ دليلٌ على المحبَّة والطّاعة

يقول ابن عاشور عن الأمر في قوله: ﴿ٱتَّبِعۡ﴾: مَجازٌ مُرْسَلٌ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 374.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 485.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 320.

الاقْتِصارِ على الشَّيْءِ ومُلازَمَتِه دونَ غَيْرِه؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ لَوازِمِ مَعْنَى الاتِّباعِ الحَقيقيِّ، وهو المَشْيُ خَلْفَ المُتَّبَعِ[1]، ويمكن أن يكون الأمرُ بالاتِّباع استعارةً تصريحيَّة تبعيَّة بتشبيه العمل بالدّين بالاتِّباع بجامع الملازمة.

نكتةُ الإضافة في ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

إبراهيمُ عليه السلام شديدُ الحرص والتَّفاني في تنفيذ الأمر الرَّبانيِّ

أضافتِ الآيةُ الكريمة الملَّةَ إلى إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وقد تكون هذه الإضافةُ على الحقيقة؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام، هو جدُّ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم، وهو من سمّانا المسلمين: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحجّ: 78]، وقد تكون على المجاز على اعتبار، أنَّ ملَّة نبيِّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم، تشبه ملَّة أبينا إبراهيم، ولا تخالفُها إلّا في الشَّرائع.

نكتةُ الإظهارِ في موضع الإضمار:

في الإظهار في موضع الإضمار، أغراضٌ بيانيَّةٌ كثيرةٌ تناسبُ مواضعَها

عدَلتِ الآيةُ عنِ الإضمار في ذكر نبيِّنا إبراهيم عليه السلام، فلم تقل: (أن اتَّبع ملَّته)، وأظهرت ذكره مرَّة أخرى؛ للثَّناء عليه وتعظيم شأنه عليه السلام، ولبيان أنَّ الملَّتَيْن إنَّما هما من مشكاة واحدة، ثمَّ للتَّذكير بحنيفيَّته ونفي الشِّرك عنه.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿حَنِيفٗاۖ﴾:

كان إبراهيمُ عليه السلام، مائلًا عنِ الباطل إلى جانب الحقِّ

﴿حَنِيفٗاۖ﴾ حال من إبراهيم، وتأتي الحال مِنَ المضاف إليه في ثلاث صوَر:

أولًا: أن يكون المضاف جزءًا من المضاف إليه.

ثانيًا: أو كالجزء منه مثل هذه الآية، فـ ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ حال من إبراهيم المضاف إليه، والملَّة كبعضه في صحة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ إذ لو قيل: (واتبع إبراهيم)؛ لكان صحيحًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 242.

ثالثًا: أن يكون المضاف عاملًا في الحال، كأن يكون مصدرًا أو وصفًا: نحو: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ [يونس: 4]، فـ ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ [يونس: 4] حالٌ من الكافِ والميم المضاف إليه، و﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [يونس: 4]: مصدر ميميٌّ عاملٌ في الحال النَّصبَ[1].

نكتةُ إعادةِ وصفِه بـ ﴿حَنِيفٗاۖ﴾:

الأمرُ بالائْتِساء بإبراهيمَ الَّذي كان موصوفًا بالحنيفيَّة

يقول ابنُ عاشور: "وانْتَصَبَ ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ على الحالِ مِنْ إبْراهيمَ، فيَكونُ زيادَةَ تَأْكيدٍ لِمُماثِلِه قَبْلَهُ، أوْ حالًا مِنْ ضَميرِ إلَيْكَ، أوْ مِنْ ضَميرِ اتَّبِعْ، أيْ: كُنْ - يا محمد ﷺ - حَنيفًا، كَما كانَ إبْراهيمُ حَنيفًا"[2].

فائدةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

تنوّعت أساليبُ الآياتِ في نفي الشِّرك عن أبي الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام

قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، هو مِمّا أوْحاهُ اللَّهُ إلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، المَحْكيِّ بِقَوْلِه: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وهو عَطْفٌ على ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ على كِلا الوَجْهَيْنِ في صاحِبِ ذَلِكَ الحالِ، فعلى الوجْه الأوَّلِ يَكونُ الحالُ زيادَةَ تَأْكيدٍ لِقَوْلِه قَبْلَهُ: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وعلى الوجْهِ الثّاني يَكونُ تَنْزيهًا لِشَريعَةِ الإسْلام المُتَّبَعَةِ لِمِلَّةِ إبْراهيمَ مِنْ أنْ يُخالِطَها شَيْءٌ مِنَ الشِّرْكِ[3]، فثمرةُ الجمع بين أسلوبَيْ نفيِ الشِّرك عنه، هو بيان نفيِه بالكلِّيَّة عنه.

معنى ﴿وَمَا كَانَ﴾ في سياق الآية:

قوَّةُ النَّفي مقابلةٌ لشدَّةِ الجحود

(ما) نافية، وإذا دخلت على ﴿كَانَ﴾؛ أفادت قوَّة النَّفي، ومباعدةَ المنفيِّ؛ لأنَّها مُشعرةٌ بالجحود.

معنى ﴿مِنَ﴾ في السّياق الكريمِ:

تنوُّعُ معاني حرفِ المعنى يوسِّعُ الدَّلالةَ أكثرَ

تدلُّ (من) على الابتداء، وهو المعنى الَّذي لم يكن ليفارقها، ويمكن حملُها على التَّبعيض على معنى أنَّه لم يكن واحدًا منهم،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 318.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 318.

ولا ضيْرَ من حملها على البيان على اعتبار أنَّ غيرَ الحنيفيَّة تشملُ الشِّرك والكفر وأهلَ الكتاب وغيرَهم.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

كلُّ أصنافِ الشِّرك مذمومةٌ ومشؤومةٌ

الأليقُ بالسّياق هنا حملُها على الجنسيَّة، على اعتبار نفيِ جنس الشِّرك عنه؛ فلم يكن منتميًا إلى صنف من صنوف الشِّرك مطلقًا.

فائدةُ تغييرِ النَّظْم في نفيِ الشِّرك:

المبالغةُ في نفي الشِّرك عن إبراهيمَ عليه السلام، تعريضٌ بالمشركين واليهودِ

نفى القرآنُ الكريم الشِّرك عن إبراهيم عليه السلام في الآية السّابقة بالجملة الفعليَّة، وهنا بالجملة الاسميَّة، يقول ابنُ عاشور: فحَصَلَ مِنْ قَوْلِه السّابِقِ: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ومن قَوْلِه هُنا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ثَلاثُ فوائِدَ: نَفْيُ الإشْراكِ عَنْ إبْراهيمَ في جَميعِ أزْمِنَةِ الماضي، وتَجَدُّدُ نَفْيِ الإشْراكِ تَجَدُّدًا مُسْتَمِرًّا، وبَراءَتُهُ مِنَ الإشْراكِ بَراءَةً تامَّةً[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجنفُ والحنفُ:

الجنفُ ميلٌ عنِ الاستقامة، والحنفُ ميلٌ عنِ الباطل

تقدَّم أنَّ الحَنَفَ اعْوِجاجٌ في الرِّجْلِ إلَى داخِلٍ، ورَجُلٌ أحْنَفُ، أيْ: مائِلُ الرِّجْلَيْنِ، وذَلِكَ يَكونُ بأنْ تَتَدانَى صُدورُ قَدَمَيْه، ويَتَباعَدَ عَقِباهُ، والحَنيفُ: المائِلُ إلى الدّينِ المُسْتَقيم[2]، والمعنى المحوريُّ للمادَّة: التفاتُ الشيء أو اعوجاجه عن معتاد الحال، والحنيف: المسلِم الذي يتحنَّف عنِ الأديان الباطلة، أي: يميل عنها إلى الدّين الحقِّ[3]، والحَنَفُ: هو ميل عن الضَّلال إلى الاستقامة.

وأمّا الجنف؛ فهو ميلٌ عنِ الاستقامة إلى الضَّلال، يقول ابن فارس: الجيمُ والنّونُ والفاءُ أصْلٌ واحِدٌ، وهو المَيْلُ، يُقالُ: جَنِفَ؛ إذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 14/ 318.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حنف).

عَدَلَ وجارَ؛ قالَ اللّهُ تَعالَى جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا﴾ [البقرة: 182]، ورَجُلٌ أَجْنَفُ إذا كانَ في خَلْقِه مَيَلٌ، ويُقالُ: لا يَكونُ ذَلِكَ إلّا في الطّولِ والِانْحِناءِ، ويُقالُ: تَجانَفَ عَنْ كَذا، إذا مالَ[1]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة: ميل بسبب انخسافٍ، أو نقصٍ في جانب من الشّيء: كما وُصف، ومن هذا الجَنَفُ: الميلُ والجور[2]، وبالتّالي فرغم تقارب حروف الجذريْن إلّا أنّهما من الأضداد.

الاجتباءُ والاصطفاءُ:

الاجتباءُ هو تهيئةٌ للاصطفاء

الاصطفاءُ: من الجذر اللُّغويّ (صفو)، المعنى المحوريُّ له: خلوُّ الشَّيء من الخشونة والكدر وما إليهما، كما في ملاسة الصَّفا ونقاء ما يُصفّى منَ الكدورة والشّوائب ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 158]، ومن ذلك "أصفاه بكذا: أعطاه الصفوة (النقيَّ الجيد من الشَّيء ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ [الإسراء: 40]، والصَّفيُّ فعيل: ما اختاره الرّئيس من المغنم لنفسه (استخلاص أو استحسان)، ثم عُمِّم على الجيِّد المختار، كالناقة الكثيرة الحَمل، والنّاقة الكثيرة اللَّبن، واستصفى الشيء واصطفاه: اختاره كأنَّه أخذه؛ لأنّه أصفى جنْسِه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صفوةُ اللّه من خلقه ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33] وهو ﷺ أكرمُ آل إبراهيم عليهم السلام[3].

والاجتباءُ: من الجذر اللغوي (جبي) أصلٌ واحد يدلُّ على جمع الشيء، يقال: جبيتُ المال، أي: جمعته، وجبيت الماء في الحوض، أي: جمعته، ومنه الجابية: الحوضُ الذي يُجمع فيه الماء[4].

واجتباء الشَّيء: هو افتعالُه وإعداده وتهيئتُه وصنعُه، يقول

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبي).

الرّاغب: واجتباء اللّٰه العبدَ: تخصيصُه إياه بفيض إلهيٍّ يتحصّل له منه أنواعٌ من النِّعم بلا سعي منَ العبد، وذلك للأنبياء وبعضِ من يقاربهم من الصّدّيقين والشُّهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞﴾ [القلم: 50][1]، وعلى هذا فالاجتباء هو سابقٌ للاصطفاء وتهيئةٌ له.

السَّبيلُ والطَّريقُ والصِّراطُ:

الصِّراطُ يتّصفُ بالاستقامة والوضوحِ دون غيره

يقال للطَّريق الواضح: سراط؛ لأنَّه كأنَّه يسترط المارَّة لكثرة سلوكهم[2]، الصِّراط هو الطَّريق المُستَسْهَل أصلُه من سَرَطْتُ الطَّعامَ ابتَلَعتُه، فقيل: سراط تصوُّرًا أنَّه يبتلعه سالكُه، أو يبتلعُ سالكَهُ[3]، والصِّراط الطَّريق المُستقيم[4]، والصِّراط طريق عُلمت للسّالك جميعُ معالمه، فهو يعلم جميعَ ما يلقاه أثناء الطَّريق من بدايته الى نهايته، فاللّٰه تعالى قد بيَّن دينه ووضَّحه، ولا يخفى شيءٌ على من أراد أن يسلك صراط اللّٰه، وجاء الصِّراط في القرآن الكريم في أغلب المواضع منسوبًا إلى اللّٰه تعالى، مثل قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: 126]، بينما خصَّ السَّبيلَ للدَّلالة على طريق أهل الضَّلال، إلا في المواضع التي جاءت معه القرينةُ المانعة من ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108].

وأمّا السَّبيل؛ فمنها طريق سالك، ومنها غيرُ ذلك؛ فالسَّبيل منها الطَّريقُ الذي لم يطرقه طارق، أو أنَّ المُخاطَب به لم يسبق له أن سلكه، فهو مجهولٌ عنده، وقد يكون معلومًا عند غيره، ومنها طريق سابلٌ، ونخلص بأنَّ الصِّراط يدلُّ على الوضوح والاستقامة،

(1) الراغب، المفردات: (جبي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(4) الراغب، المفردات: (صرط).

والسَّبيلُ منها ما هو سالك ومنها غير ذلك، وورد في القرآن الكريم بالإفراد والجمع بخلاف الصِّراط، فلم يأتِ إلّا منفردًا.

أمّا الطريق؛ فيكونُ في الخير والشَّرِّ، ولكنَّ السَّبيل أغلبُ وقوعًا في الخير من الطريق، ولا يكاد اسم الطَّريق يراد به الخيرُ إلّا مقترنًا بوصف، أو إضافةٍ تخلصُه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: 30][1].

الدّين والملّة:

الملّةُ اسمٌ لجُملة الشَّريعةِ، والدّينُ اسمٌ لما عليه كلُّ واحدٍ من أهلها

فرَّق بينهما أبو هلال العسكريُّ بأنَّ الملَّة اسمٌ لجملة الشريعة، والدّين اسمٌ لما عليه كلُّ واحد من أهلها، ألا ترى أنَّه يقال: فلان حسن الدّين، ولا يقال: حسن الملَّة، وإنَّما يقال: هو من أهل الملَّة، ويقال: لخلاف الذمّيِّ: الملّي، نسبةً إلى جملة الشريعة، فلا يقال له: دينيٌّ، وتقول: ديني دينُ الملائكة، ولا تقول: ملتي ملَّة الملائكة؛ لأنَّ الملَّة اسمٌ للشرائع مع الإقرار بالله.

والدّين ما يذهب إليه الإنسانُ، ويعتقد أنَّه يقرِّبه إلى الله، وإن لم يكن فيه شرائع، مثل دين أهل الشرك؛ وكلُّ ملَّة دينٌ، وليس كلُّ دين ملَّةً، واليهوديَّة ملَّة؛ لأنَّ فيها شرائعَ، وليس الشّرك ملَّة، وإذا أطلق الدّين؛ فهو الطاعة العامة التي يجازى عليها بالثواب[2].

ويضيف الرّاغب: المِلَّة كالدّين، وهو اسمٌ لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء؛ ليتوصَّلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدّين أنَّ الملَّة لا تضاف إلّا إلى النَّبيِّ ﷺ الذي تسندُ إليه، نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ [يوسف: 38] ولا تكاد توجد مضافةً إلى الله، ولا إلى آحاد أمَّة النَّبيِّ ﷺ، ولا تستعمل إلّا في حملة الشَّرائع دون آحادها، فلا يقال: ملَّة الله، ولا يقال:

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 509.

ملَّتي، وملَّة زيد، كما يقال: دين الله ودين زيد، ولا يقال: الصّلاة ملَّة الله، وأصلُ الملَّة من: أمللت الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: 282]، ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ [البقرة: 282]، وتقال الملَّة اعتبارًا بالشّيء الذي شرعه الله، والدّين يقال اعتبارًا بمن يقيمُه؛ إذ كان معناه الطّاعة[1].

(1) الراغب، المفردات: (ملل).

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٢٤﴾ [النحل: 124]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـوعَّـدتِ الآيـةُ مـنِ افـتروا على إبـراهيـمَ عليه السلام، وصحَّحت لهم مـفـهـومَـهـم للسَّبت

يقول ابنُ عاشور: "مَوْقِعُ هذه الآيَةِ يُنادي على أنَّها تَضَمَّنَتْ مَعْنًى يَرْتَبِطُ بِمِلَّةِ إبْراهيمَ وبِمَجيءِ الإسْلامِ على أساسِها، فلَمّا نَفَتِ الآيَةُ قَبْلَ هَذِه أنْ يَكونَ إبْراهيمُ عليه السلام مِنَ المُشْرِكينَ رَدًّا على مَزاعِمِ العَرَبِ المُشْرِكينَ أنَّهُم على مِلَّةِ إبْراهيمَ؛ انْتَقَلَ بِهَذِه المُناسَبَةِ إلَى إبْطالِ ما يُشْبِهُ تِلْكَ المَزاعِمَ، وهِيَ مَزاعِمُ اليَهودِ أنَّ مِلَّةَ اليَهوديَّةِ هِيَ مِلَّةُ إبْراهيمَ زَعْمًا ابْتَدَعوهُ حينَ ظُهورِ الإسْلامِ جَحْدًا لِفَضيلَةٍ فاتَتْهُم، وهِيَ فضيلَةُ بِناءِ دينِهِم على أوَّلِ دينٍ لِلْفِطْرَةِ الكامِلَةِ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِم، فذَلِكَ دالٌّ على أنَّ هَؤُلاءِ الفِرَقَ الثَّلاثَ اخْتَلَفوا في إبْراهيمَ، فكُلُّ واحِدَةٍ مِنْ هَؤُلاءِ تَدَّعي أنَّها على مِلَّتِه، إلّا أنَّهُ اقْتَصَرَ في الآيَةِ - السّابقة - على إبْطالِ مَزاعِمِ المُشْرِكينَ بِأعْظَمِ دَليلٍ، وهو أنَّ دينَهُمُ الإشْراكُ وإبْراهيمُ عليه السلام ما كانَ مِنَ المُشْرِكينَ"(1)، وفي هذه الآية قصدٌ إلى ردِّ زعم اليهود في هذا الأمر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّبْتُ﴾: ذكر ابنُ فارس أنَّ السّينَ والباءَ والتّاءَ أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على راحَةٍ وسُكونٍ، يُقالُ لِلسَّيْرِ السَّهْلِ اللَّيِّنِ: سَبْتٌ؛ لأنَّه يَكونُ في آخِرِ النَّهارِ مُخْتَرًا قَليلَ الحَرَكَة، فلِذَلِكَ يُقالُ لِلْمُتَحَيِّرِ: مَسْبوتٌ(2)، وجاء عند الرّاغب: أصلُ السَّبتِ: القطعُ، ومنه سَبَتَ السَّيرَ: قطعه، وسَبَتَ شعره: حلقه، وأنفه: اصطلمه، وقيل: سُمّي يوم السَّبْت؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 321.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبت).

اللّه تعالى ابتدأ بخلق السّماوات والأرض يوم الأحد، فخلقها في ستَّة أيّام كما ذكره، فقطع عمله يومَ السَّبت، فسُمّي بذلك، وسَبَتَ فلان: صار في السَّبت، وقوله: ﴿يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾ [الأعراف: 163]، قيل: يوم قطْعِهِم للعمل، ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ﴾ [الأعراف: 163]، قيل: معناه لا يقطعون العمل، وقيل: يوم لا يكونون في السَّبت، وكلاهما إشارةٌ إلى حالة واحدة، وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ﴾، أي: ترك العمل فيه[1].

2) ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: الخاءُ واللّامُ والفاءُ أُصولٌ ثلاثةٌ: أحَدُها: أنْ يَجيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ، والثّاني: خِلافُ (قُدّام)، والثّالِثُ: التَّغَيُّرُ[2]، والمعنى المحوريُّ لمادَّة (خلف): كَوْن أو بقية بعد ذاهب أو وراءه في ظهره، كالغُصن في الجِذْع بعد يُبسه، وكالرّقعة بعد ما بَليَ منَ الثوب في مكانها، وبقيةُ الطّعام في الفَم بَعْد ما بُلِعَ، وبقيةُ الماء في الإناءِ بعد ما ذَهَبَ منه، وظَفرُ الإنسان قائم، وهو وراءَه، والخالفة في الظهر، وكالمِربَد خَلْفَ البيت، وما عُلق خَلف الراكب، ومنه خَلَف فلانًا (نصر): جاءَ بعدَه، صار خلفه، كان بعده خلَفًا منه وبَدَلًا ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ [الأعراف: 169][3].

والاختلافُ والمخالفة: أن يأخذ كلُّ واحد طريقًا غيرَ طريق الآخر في حاله أو قوله، والخِلافُ أعمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين، ولمّا كان الاختلافُ بين النّاس في القول قد يقتضي التّنازعَ؛ استعير ذلك للمنازعة والمجادلة، قال: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [مريم: 37]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هود: 118][4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

فُرِضتْ أحكامُ السَّبت على بني إسرائيل، لشدَّة اختلافِهم على أنبيائهم

أي: إنَّما جُعِل وبالُ يوم السبت - وهو المسخ - على الذين اختلفوا

(1) الراغب، المفردات: (سبت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(4) الراغب، المفردات: (خلف).

فيه، فأحلّوا الصيد فيه تارة، وحرّموه أخرى، وكان من الحتم عليهم أن يتّفقوا فيه على كلمة واحدة بعد أن أُمروا بالكفّ عن الصّيد فيه، كما أنّ وبالَ التّحريم والتّحليل منَ المشركين من عند أنفسهم واقعٌ عليهم لا محالة.

وحاصِلُ المَعْنَى: ما فُرِضَ السَّبْتُ على أهْلِ السَّبْتِ إلّا لِأَنَّهُم لَم يَكونوا على مِلَّةِ إبْراهيمَ؛ إذْ مِمّا لا شَكَّ فيه عِنْدَهُم أنَّ مِلَّةَ إبْراهيمَ لَيْسَ مِنْها حُرْمَةُ السَّبْتِ، ولا هو مِنْ شَرائِعِها، وإنَّ ربك ليفصلُ بين الفريقين في الخصومة والاختلاف، ويجازي كلَّ فريق بما يستحقُّ من ثواب وعقاب(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتِها:

ملَّةُ إبراهيمَ ومحمَّدٍ عليهما السلام، قامتا على التَّوحيد، بخلاف المللِ الأخرى

يمكن أن تكون هذه الآية مستأنفةً استئنافًا جديدًا، وفُصِلت لكمال انقطاعها عن سابقتِها، ولا يعني كمالُ انقطاعها أنّه لا يوجد رابطٌ بينهما ألبتَّة، فهذا لا نجده في القرآن الكريم؛ إذ إنَّ بعضه آخذٌ بحُجَز بعضٍ، فموقع هَذِه الآيَةِ يُنادي على أنّها تَضَمَّنَتْ مَعْنًى يَرْتَبِطُ بِمِلَّةِ إبْراهيمَ وبِمَجيءِ الإسْلامِ على أساسِها.

فَلَمّا نَفَتِ الآيَةُ قَبْلَ هَذِه أنْ يَكونَ إبْراهيمُ عليه السلام مِنَ المُشْرِكينَ رَدًّا على مَزاعِمِ العَرَبِ المُشْرِكينَ أنَّهُم على مِلَّةِ إبْراهيمَ؛ انْتَقَلَ بِهَذِه المُناسَبَةِ إلَى إبْطالِ ما يُشْبِهُ تِلْكَ المَزاعِمَ، وهيَ مَزاعِمُ اليَهودِ أنَّ مِلَّةَ اليَهوديَّةِ هيَ مِلَّةُ إبْراهيمَ، ويمكن أن تكونَ جُملَةُ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ اسْتِئْنافًا بيانيًّا نَشَأ عَنْ قَوْلِه: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾؛ إذْ يُثيرُ سُؤالًا مِنَ المُخالِفينَ: كَيْفَ يَكونُ الإسْلامُ مِنْ مِلَّةِ إبْراهيمَ؟ وفيه جُعِلَ يَوْمُ الجُمعَةِ اليَوْمَ المُقَدَّسَ، وقد جَعَلَتِ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 160، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 323.

التَّوْراةُ لِلْيَهودِ يَوْمَ التَّقْديسِ يَوْمَ السَّبْتِ، ولَعَلَّ اليَهودَ شَغَبوا بِذَلِكَ على المُسْلِمينَ، فكانَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ بَيانًا لِجَوابِ هَذا السُّؤالِ، وقد وقَعَتْ هَذِه الجُملَةُ مُعْتَرِضَةً بَيْنَ جُملَةِ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ وجُملَةِ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ إلى آخره[1].

بلاغةُ القصرِ في مطلع الآية:

اقتصرتْ أحكامُ السَّبت وتعظيمه على الَّذين اختلفوا فيه

بدأتِ الآية بأسلوب القصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ الَّتي يؤتى بها مع المثبت غيرِ المعاند، أو لمن يُنزَّلُ هذه المنزلةَ، خروجًا عنِ الظّاهر، وليس خروجًا عن مقتضى الحال، وهنا خرجتِ الأداة عنِ الظّاهر، وجيء بها مع من ينكرُ أنَّ فريضة السَّبت كانت على هذا النَّحو؛ كي يقول لهم: إنَّ الأمر ظاهرٌ للعيان، ولا يحتمل الإنكارَ، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف، حيث قصر تعظيمَ أمرِ السَّبت على المختلفين فيه، وهو من قصر القلب، لقلب ما يظنُّه السّائلون المشغِّبون.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿جُعِلَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

البناء للمفعول من أجل الانشغال بالفعل عنِ الفاعل، لأهميَّة الفعلِ في السّياق

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ - أي: فُرِض تعظيمُه، والتّخلّي فيه للعبادة، وتركُ الصَّيد - فيه تحقيقٌ لذلك النَّفي الكليِّ وتوضيحٌ له، بإبطال ما عسى يُتوهَّمُ كونُه قادحًا في كلِّيَّته؛ فإنَّ اليهود كانوا يدَّعون أنَّ السَّبتَ من شعائر الإسلام، وأنَّ إبراهيمَ ﵇ كان محافظًا عليه، وإيرادُ الفعل مبنيًّا للمفعول جريٌ على سَنَن الكبرياء، وإيذانٌ بعدمِ الحاجة إلى التَّصريحِ بالفاعل، لاستحالة الإسنادِ إلى الآخر[2].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلسَّبْتُ﴾:

ما عظَّم الله منَ الزَّمان، فهو معظَّمٌ مرعيٌّ بأحكامِه

الظّاهر أنَّها عهديَّةٌ ذهنيَّة تعود على يوم السَّبت الَّذي عظَّمه الله تعالى لبني إسرائيل، ونهاهم عن الصَّيد فيه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 321 - 322.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 150.

نكتةُ تعْديةِ الجعْل بـ ﴿عَلَى﴾ في الآية:

يقول أبو السُّعود: عبَّر بالجعل موصولًا بكلمة على، للإيذان بتضمُّنه للتَّشديد والابتلاءِ المؤدّي إلى العذاب، وبكونه معلَّلًا باختلافهم في شأنه قبل الوقوعِ، باعتبار حالِ منشأ الاختلافِ منَ الطَّرف المخالفِ للحقِّ[1]، ويمكن أن يكون قد ضُمِّنَ فِعْلُ ﴿جُعِلَ﴾ مَعْنَى فُرِضَ، فعُدّيَ بِحَرْفِ ﴿عَلَى﴾[2]، فتكون البلاغةُ في اجتماعِ قوَّة الفعليْن: الجعل والفرض، أي: جعله فرضًا.

في التَّضمين بلاغةٌ لا تكون بغيره دون الحاجة للقولِ بتناوبِ حروف الجرِّ

بلاغةُ الحذفِ في قوله: ﴿جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ﴾:

ومَعْنَى ﴿جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ﴾: أنَّهُ جُعِلَ يَوْمًا مُعَظَّمًا لا عَمَلَ فيه، أيْ: جَعَلَ اللّهُ السَّبْتَ مُعَظَّمًا، فحُذِفَ المَفْعولُ الثّاني لِفِعْلِ الجَعْلِ؛ لِأنَّهُ نُزِّلَ مَنْزِلَةَ اللّازِمِ إيجازًا؛ لِيَشْمَلَ كُلَّ أحْوالِ السَّبْتِ المَحْكيَّةِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [النِّساء: 154]، وقَوْلُهُ: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [الأعْراف: 163][3].

الحذفُ أبلغُ أحيانًا منَ الذِّكر؛ لأنَّ النَّفسَ تذهبُ في تقديره كلَّ مذهب

سرُّ التَّعبيرِ عنِ اليهود بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعبير بالاسم الموصول فيه إبهامٌ ثمَّ إعلامٌ؛ لأنَّ الاسم الموصول مبهمٌ، ويحتاج إلى جملة صلة الموصول لتزيل إبهامه، وفي الإتيان به دون غيره منَ المعارف أغراضٌ بيانيَّة كثيرة، يقول ابن عاشور: وعَدَلَ عَنْ ذِكْرِ اسْمِ اليَهودِ أوْ بَني إسْرائيلَ مَعَ كَوْنِه أوْجَزَ إلَى التَّعْبيرِ عَنْهُم بِالمَوْصولِ؛ لِأنَّ اشْتِهارَهُم بِالصِّلَةِ كافٍ في تَعْريفِهِم، مَعَ ما في المَوْصولِ وصِلَتِه مِنَ الإيماءِ إلَى وجْه بِناءِ الخَبَرِ، وذَلِكَ الإيماءُ هو المَقْصودُ هُنا؛ لِأنَّ المَقْصودَ إثْباتُ أنَّ اليَهودَ لَم يَكونوا على الحَنيفيَّة[4].

في التَّعبير بالاسم الموصولِ أغراضٌ بيانيَّة تختلفُ من موضع لآخر

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 150.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 324.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 324.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 322 - 323.

اختلافاتُهم في أحكام السَّبتِ وتعظيمِه، أكثرُ من اختلافاتِهم في تحديد هذا اليومِ

عوْدُ الضَّميرِ في شبه الجملة ﴿فِيهِۚ﴾:

يقول الرّازي: وفي متعلق الاختلاف في الآيَةِ قَوْلانِ: القَوْلُ الأوَّلُ، أي: اختلفوا على نَبيِّهم موسَى حَيْثُ أمَرَهُم بِالجُمُعَةِ، فاخْتاروا السَّبْتَ، فاخْتِلافُهُم في السَّبْتِ كانَ اخْتِلافًا على نَبيِّهم في ذَلِك اليَوْمِ، ولَيْسَ مَعْنَى قَوْلِه: اخْتَلَفوا فيه أنَّ اليَهودَ اخْتَلَفوا فيه، فمِنْهُم مَنْ قالَ بِالسَّبْتِ، ومِنْهُم مَنْ لَم يَقُلْ به؛ لِأنَّ اليَهودَ اتَّفقوا على ذَلِك، فلا يُمكِنُ تَفْسيرُ قَوْلِه: اخْتَلَفوا فيه بِهَذا، بَلِ الصَّحيحُ ما قَدَّمناهُ، والقَوْلُ الثّاني: في اخْتِلافِهم في السَّبْتِ، أنَّهُم أحَلّوا الصَّيْدَ فيه تارَةً، وحَرَّموهُ تارَةً، وكانَ الواجِبُ عَلَيْهم أنْ يَتَّفِقوا في تَحْريمِه على كَلِمَةٍ واحِدَةٍ[1].

ولكنَّ القول الأوَّل لا يخلو من نقدٍ، يقول ابن عاشور: ولا مُناسَبَةَ بَيْنَ الخَبَرِ وبَيْنَ ما تُوُهِّمَ أنَّهُ تَعْليلٌ لَهُ على مَعْنَى جَعْلِ السَّبْتِ عَلَيْهم؛ لِأنَّهُمُ اخْتلفوا على نبيِّهم موسَى ﷺ لِأجْلِ السَّبْتِ، لِأنَّ نَبيَّهُم أمَرَهُم أنْ يُعَظِّموا يَوْمَ الجُمعَةِ، فأبَوْا، وطَلَبوا أنْ يَكونَ السَّبْتُ هو المُفَضَّلَ مِنَ الأُسْبوعِ بِعِلَّةِ أنَّ اللّهَ قَضى خَلْقَ السَّماواتِ والأرْضينَ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ، ولَم يَكُنْ في يَوْمِ السَّبْتِ خَلْقٌ، فعاقَبَهُمُ اللّهُ بِالتَّشْديدِ عَلَيْهم في حُرْمَةِ السَّبْتِ.

وكَيْفَ يَسْتَقيمُ أنْ يَعْدِلَ موسَى ﷺ عَنِ اليَوْمِ الَّذي أمَرَ اللّهُ بِتَعْظيمِه إلَى يَوْمٍ آخَرَ لِشَهْوَةِ قَوْمِه وقد عُرِفَ بِالصَّلابَةِ في الدّينِ؟[2].

لذا؛ فإنَّ القول الثّاني في أنَّ اختلافهم كان في التَّحليل والتَّحريم فيه، وانقسامهم في ذلك إلى فرق مختلفة هو الأقرب - واللّه أعلم - ويكون عودُ الضَّمير ليس على اليوم بل على أحكامه.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 285 - 286.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 321 - 322.

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾:

لا أحدَ يعدلُ في حكمه بين النّاس، كما يعدلُ ربُّ النّاس

الواو هنا يمكن أن تكون عاطفةً أو استئنافيَّة[1]، فإذا كانت عاطفة، فقد عطفت حكم الله بينهم على اختلافهم.

فائدةُ تزاحمِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

كثرةُ المؤكِّدات بابٌ منَ التَّعريض

أُكِّدت الجملة الخبريَّة في فاصلة الآية بـ(إنَّ)، والجملةِ الاسميَّة، وتكرارِ ذكر المسنَد إليه، تارة مبتدأً، وتارة فاعلًا، وكذلك اللّام المزحلقة؛ لأنَّها جاءت في سياق الحديث عن اليهود وافتراءاتهم، فاستحقَّت أن توشَّح بهذه المؤكِّدات لشدَّة كفرِهم وعنادِهم، فضلًا عنِ التَّعريض بمشركي مكَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَبَّكَ﴾ مضافًا:

مقامُ النُّبوَّة بين التَّسريةِ والتَّشريفِ

وفي التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة تسريَةٌ وتسليَةٌ لفؤاد النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المصلح والرّاعي والسَّيِّد، وفي إضافته إلى ضميره ﷺ تشريفٌ ما بعده تشريفٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لَيَحۡكُمُ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بالفعل المضارع استحضارَ صورةِ حكم الله بينهم في ذلك اليوم العظيم.

فائدةُ الظَّرفِ في ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾:

الحكمُ بينهم، توصيفٌ للحكم بين ظهرانيهم

﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ ظَرْفٌ لِلْحُكْم الْمُسْتَفادِ مِنْ ﴿لَيَحۡكُمُ﴾، أَيْ: حُكْمًا بَيْنَ ظَهْرانَيْهِم، ولَيْسَتْ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ لِتَعْدِيَةِ ﴿لَيَحۡكُمُ﴾؛ إِذْ لَيْسَ ثَمَّةَ ذِكْرُ الِاخْتِلافِ بَيْنَ فريقَيْنِ هُنا[2].

نكتةُ المجيءِ بالظَّرفيَّة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

إلى الله المآبُ، وعند الله تجتمعُ الخصومُ

المجيء على ذكر يوم القيامة هنا هو تذكيرُهم بالمعاد، وأنَّ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 385.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 325.

ثمرة اختلافهم على أنبيائهم إن لم تظهر في الدُّنيا؛ فإنَّها ستظهر نتائجُها في يوم الحساب.

معنى (ما) في سياقِ الآية الكريمة:

إيثارُ (ما) لكونها أجمعَ وأخصرَ

(ما) اسمٌ موصولٌ، و﴿كَانُواْ﴾ صلتُها، والغرض من المجيء به العمومُ؛ ليشمل كلَّ ما يمكن أن يُحكم فيه بينهم.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

تقديمُ ما عليه مدارُ الأمر من فصيحِ البيان

تقدَّمت شبهُ الجملة ﴿فِيهِ﴾، على خبر (كان)؛ لأنَّ مدارَ الحديث هو عن هذا الاختلافِ، سواءٌ أكان بشأن تحديد اليوم، أم حرمةِ الصَّيد فيه، لذلك تقدَّمت شبهُ الجملة؛ لأنَّها مدارُ الأمر وسببُ الوعيد.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

بيانُ أصالةِ الخلاف وتجدُّدِه في بني إسرائيل

عُبِّر في الفعل المضارع عن أمرٍ، قد مضى وانقضى، لاستحضار صورتهم في اختلافهم من ناحية، وللدَّلالة على تجدُّد اختلافاتهم من ناحية أخرى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاختلاف والتَّفرُّق والتَّنازع والتَّشتُّت:

الاختلافُ أعمُّ من بقيَّة الألفاظ المقاربة له، ولكلٍّ منها دلالةٌ في سياقها

الاختلافُ يأتي بمعنى المباينةِ، والتفرُّقُ بمعنى الفصلِ والتّمييزِ، والتّشتُّتُ قريبٌ منهُ، أمّا التّنازُعُ؛ فهو شدَّةُ الاختلافِ، والتّعبيرُ بالاختلافِ في الآيةِ أدقُّ.

وتفصيلُ ذلك: أنَّ الاختلافَ والمخالفةَ أنْ يأخذَ كلُّ إنسانٍ طريقًا، يباينُ طريقَ إنسانٍ آخرَ حالًا أوْ قولًا، وقدْ يقتضي الاختلافُ التَّنازُعَ، فاستُعيرَ للمنازعةِ ونحوِها(1).

أمّا التّفرُّقُ؛ فهو منْ فرقَ، وهو فصلُ الشَّيءِ عنْ غيرِه فصلًا

(1) الراغب، المفردات: (خلف).

يصلُ إلى العمقِ[1]، والتَّشتُّتُ يأتي بمعنى التفرُّقِ والتزيُّلِ كتشتيتِ الشيءِ، أي: تفرُّقه، فهو مرادفٌ لهُ، أمّا التنازعُ؛ فهو شدَّةُ الاختلافِ الموصلِ إليه[2]، كما مرَّ آنفًا، ونخلصُ منْ ذلكَ كلِّهِ إلى أنَّ التّعبيرَ بفعلِ الاختلافِ جاءَ دقيقًا واردًا على كلامِ العربِ.

(1) الراغب، المفردات: (فرق).
(2) الراغب، المفردات: (نزع).

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: 125]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من لازم الأمر باتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام؛ الأمرُ بالتزام خُطاه، في طريق الدَّعوة إلى مولاه

يَتَنَزَّلُ مَعْنَى هَذِه الآيَةِ مَنْزِلَةَ البَيانِ لِقَوْلِه: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾، فإنَّ المُرادَ بما أوحيَ إلَيْه مِن اتِّباعِ مِلَّةِ إبْراهيمَ هو دينُ الإسْلام، ودينُ الإسْلام مَبْنيٌّ على قَواعِدِ الحَنيفيَّةِ، فلا جَرَمَ كانَ الرَّسولُ ﷺ بِدَعْوتِه النّاسَ إلَى الإسْلامِ داعيًا إلَى اتِّباعِ مِلَّةِ إبْراهيمَ[1].

يقول البقاعيُّ: "ولما قدّم سبحانه في هذه السورة حكايةَ كثيرٍ من استهزائهم بوعدِه ووعيدِه، وتكذيبِهم لرُسله على أبشع وجه، والتّفتير عن حرقة الحرصِ عليهم، المفضي إلى شدة التأسُّف على ضلالهم وغيرِ ذلك مما ربما أيأس منهم، فأقعدَ عن دعائهم، وأتبعه ضربَ الأمثال، ونصبَ الجدال لعامة الخلق ما يجلُّ عنِ الوصف، وختمَ باتِّباع الأبِ الأعظم، لما كان ذلك، وأمرَ سبحانه نبيّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم وهو السميع المطيع أن يستنَّ بآثاره، ويقتدي بإضماره وإظهاره؛ فسَّر له تلك الملَّة التي أمره باتباعها بقوله: ﴿ٱدۡعُ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ﴾: ذكر صاحبُ المقاييس أنَّ: السّينَ والباءَ واللّامَ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرْسالِ شَيْءٍ مِنْ عُلوٍّ إلَى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شَيْءٍ، فالأوَّلُ مِنْ قيلِك: أسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبِمائِها، والسَّبَلُ: المَطَرُ الجَوْدُ، وسِبالُ الإنْسانِ مِنْ هَذا؛ لِأنَّه شَعَرٌ مُنْسَدِلٌ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 325.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 279.

وقَوْلُهُم لِأعالي الدَّلْو: أَسْبالٌ، مِنْ هَذا، والمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِه، والسّابِلَةُ: المُخْتَلِفَةُ في السُّبُلِ جائِيَةً وذاهِبَةً، وسُمّيَ السُّنْبُلُ سُنْبُلًا لِامتِدادِه، يُقالُ: أَسْبَلَ الزَّرْعُ؛ إذا خَرَجَ سُنْبُلُه[1]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة: امتدادٌ إلى أسفل مع اتّصالٍ كالثّياب الممتدة إلى الأرض[2]، ونحوها مما يدلُّ على هذه الإطالةِ، وورد عند الرّاغب: السَّبيلُ: الطَّريق الذي فيه سهولة، وجمعه سُبُلٌ، قال: ﴿وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا﴾ [النّحل: 15]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزّخرف: 10]، ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزّخرف: 37]، يعني به طريق الحق؛ لأنَّ اسم الجنس إذا أطلق؛ يختصُّ بما هو الحقُّ، وابنُ السَّبيلِ: المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى السَّبيل لممارسته إيّاه، ويستعمل السَّبيلُ لكلِّ ما يتوصَّل به إلى شيء خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[3].

2) ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: الحاءُ والكافُ والميمُ أَصْلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ، وأوَّلُ ذَلِكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وسُمّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ؛ لِأَنَّها تَمنَعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدّابَّةَ وأَحْكَمتُها، ويُقالُ: حَكَمتُ السَّفيهَ وأَحْكَمتُهُ؛ إذا أَخَذْتَ على يَدَيْه، والحِكْمَةُ هَذا قياسُها؛ لِأَنَّها تَمنَعُ مِنَ الجَهْلِ، وتَقولُ: حَكَّمتُ فُلانًا تَحْكيمًا منعته عَمّا يُريدُ، وحُكِّمَ فُلانٌ في كَذا، إذا جُعِلَ أَمرُهُ إلَيْه، والمُحَكَّمُ: المُجَرِّبُ المَنْسوبُ إلَى الحِكْمَةِ[4]، والمعنى المحوريُّ لهذا الجذر: ضَبْطٌ يمنع التَّسيُّب، ويمكِّن من جَعْل الشّيء أو جريانه على ما ينبغي ويراد، كحَكَمَةِ اللّجام تضبط الدّابَّةَ، وتمنعها منَ التَّسيُّب، أي: تُمكِّنُ من إيقافها وتوجيهها حسب مرادِ راكبها، ومن ذلك الضَّبطِ استُعمل التّركيب في ضبط المركبات بعضها مع بعض، أي: مَنعها من التفكُّك والتَّسيُّب سواء كانت مادّيةً أم معنويةً[5].

والحِكْمَةُ: إصابة الحقّ بالعلم والعقل، فالحكمةُ من الله تعالى معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومنَ الإنسان معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات، وهذا هو الذي وُصف به لقمان في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12]، ونبَّه على جملتها بما وصفَه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(3) الراغب، المفردات: (سبل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حكم).

بها، فإذا قيل في اللّه تعالى: هو حَكيم، فمعناه بخلاف معناه؛ إذا وُصف به غيرُه، ومن هذا الوجه قال اللّه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾ [التين: 8]، وإذا وُصف به القرآن؛ فلتضمُّنه الحكمةَ، نحو: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، وعلى ذلك قال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ [القمر: 4 - 5]، وقيل: معنى الحكيم المحكمُ، نحو: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1]، وكلاهما صحيح، فإنَّه محكمٌ ومفيدٌ للحكم، ففيه المعنيان جميعًا، والحكمُ أعمُّ من الحكمة، فكلُّ حكمة حكمٌ، وليس كلُّ حكم حكمةً، فإنَّ الحكم أن يُقضى بشيء على شيء، فيقول: هو كذا أو ليس بكذا[1]، والمراد بقوله: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: بالمقالة المحكمةِ الصّحيحةِ، وهو الدّليلُ الموضحُ للحق المزيحُ للشّبهة[2].

3) ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ﴾: العِظَةُ: الموعظة، وعَظْتُ الرَّجلَ أعِظُهُ عِظَةً وموعظة: واتَّعَظَ: تقبَّل العِظَةَ، وهو تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوه ممّا يرقُّ له قلبُه، ومن أمثالِهم المعروفة: لا تَعِظيني وتَعَظْعَظي، أي: اتَّعظي أنتِ ودَعي موعظتي[3].

والمعنى المحوريُّ لمادَّة (وعظ): كلامٌ أو عمل يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقدِم عليه ليتوقَّفَ عنه، كما هو واضحٌ في معنى الوعظ، وقيدُ التَّوقُّف يؤخذُ من التّذكير بالعواقب، والوعظُ: الإذكار بالخير بما يرقُّ له القلب، وكلُّ ما جاء في القرآن منَ التّركيب؛ فهو بمعنى هذا الإذكار والتَّنبيه[4]، وعند الرّاغب: الوعْظُ: زجرٌ مقترن بتخويف[5].

﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ هي الخطابياتُ المقنعةُ، والعِبَرُ النّافعةُ، على وجهٍ لا يخفى على المخاطَبين أنَّك تناصحُهم، وتقصِدُ ما ينفعُهم[6].

4) ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾: الجيمُ والدّالُ واللّامُ أصْلٌ واحِدٌ، وهو مِنْ بابِ اسْتِحْكام الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيه، وامتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلامِ، ويُقالُ لِلزِّمام المُمَرِّ: جَديلٌ، والجَدْولُ: نَهْرٌ صَغيرٌ، وهو مُمتَدٌّ، وماؤُهُ أقْوى في اجْتِماعِ أجْزائِه مِنَ المُنْبَطِحِ السّائِحِ،

(1) الراغب، المفردات: (حكم).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 151.
(3) الخليل، العين: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(5) الراغب، المفردات: (وعظ).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 151.

ورَجُلٌ مَجْدولٌ؛ إذا كانَ قَضيفَ الخِلْقَةِ مِنْ غَيْرِ هُزالٍ[1]، والمعنى المحوريُّ: امتدادُ الشّيء شديدُ الأثناء بالتفاف بعضِه على بعض أوِ التفاف مثلِه عليه، كما في الحَبْل، والأعضاءِ المفتولة، والأرضِ شديدة وممتدة، وكل ما في القرآن من التّركيب؛ فهو من هذا الجِدال[2]، والجِدال: المفاوضةُ على سبيل المنازعة والمغالبة، وقيل: الأصلُ في الجِدال: الصّراع وإسقاطُ الإنسان صاحبَه على الجَدالَة، وهي الأرض الصّلبة[3]، والمراد بمجادلتهم بالَّتي هي أحسن: مناظرتُهم بالطّريقة التي هي أحسنُ طرقِ المناظرةِ والمجادلة من الرّفق واللّينِ، واختيار الوجه الأيسرِ، واستعمالِ المقدِّمات المشهورةِ، تسكينًا لشغَبهم، وإطفاءً لِلَهبهم[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرَ الله تعالى نبيَّه الخاتمَ أن يسلكَ الطَّريقَ المثلى في الدَّعوة القائمةِ على الرِّفق والحكمةِ

في هذه الآية الكريمة بيانٌ واضحٌ للمنهج الَّذي انتهجه الخليلُ إبراهيم عليه السلام في دعوته، كي يمتَثلَه الرَّسول ﷺ، لكونه على ملَّته وعلى حنيفيَّته؛ وهي دعوة تقوم منهجيًّا على ثلاثة أركان:

وهيَ الحِكْمَةُ والمَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ والمُجادَلَةُ بِالطَّريقِ الأَحْسَنِ؛ ولذا وُجِّه الأمر إليه ﷺ في هذه الآية بأن: اسلك في الدّعوة والمناظرة الطّريقَ المثلى، وهي الدّعوة بالتي هي أحسن، وليس عليك غيرُها، أمّا الهداية والضَّلال والمجازاة عليهما؛ فإلى اللّه سبحانه لا إلى غيره، إذ هو أعلم بحال من لا يرعوي عن الضَّلال لسوء اختياره، وبحال من يصير أمرُه إلى الاهتداء، لما ينطوي بين جنبيّه من الخير، فما شرعه لك في الدَّعوة هو الَّذي تقتضيه الحكمةُ، وهو كافٍ في هداية المهتدين، وإزالةِ عذر الضّالين[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدل).
(3) الراغب، المفردات: (جدل).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 151.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 161.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتِها:

قد يكونُ الفصلُ لكمال الاتِّصال، أو لشبْهِ كمال الاتِّصال

فُصلت هذه الآية عن سابقتها، ولم تُعطف عليها؛ لغرضَيْن: أسلوبيٍّ، وموضوعيٍّ:

فأمّا الأسلوبيُّ؛ فهو كونُها آيةً إنشائيَّة، بدأت بفعل الأمر ﴿ٱدۡعُ﴾، وكون سابقتها جملةً خبريَّة، ولا تُعطف الخبريَّة على الإنشائيَّة أوِ العكس إلّا إذا آلت إحداهما إلى معنى الأخرى.

وأمّا من النّاحية الموضوعيَّة، فإنَّ الآية تُعدُّ بمنزلة البيان لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فقد جاءت مفسِّرةً لملَّة إبراهيم عليه السلام الّتي أُمرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم باتِّباعها، فتَرْك العطف إنَّما هو لكمال اتِّصالها بما تقدَّمها من آيات.

ويمكن أن يكون سببُ الفصل: شبهَ كمال الاتِّصال أوِ المسمّى بالاستئنافِ البيانيِّ، بأن تُحمل الآية على كونها جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ فُهِمَ بعد الآية السّابقة، مُفاده: وما هي ركائز ملَّة إبراهيم عليه السلام التي أمر نبيَّه باتِّباعها؟

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿ٱدۡعُ﴾:

يخرجُ غرضُ الأمر إلى أغراضٍ مجازيَّةٍ، كالدَّوام والاستزادة

يقول ابن عاشور: "ومُخاطَبَةُ اللّه رَسولَهُ صلى الله عليه وسلم بِهَذا الأمرِ في حين أنَّهُ داعٍ إلَى الإسْلامِ وموافِقٌ لِأصولِ مِلَّةِ إبْراهيمَ، دَليلٌ على أنَّ صيغَةَ الأمرِ مُسْتَعْمَلَةٌ في طَلَبِ الدَّوامِ على الدَّعْوةِ الإسْلاميَّةِ، مَعَ ما انْضَمَّ إلَى ذَلِكَ مِنَ الهدايَةِ إلَى طَرائِقِ الدَّعْوةِ إلَى الدّينِ، فتَضَمَّنَتْ هَذِه الآيَةُ تَثْبيتَ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم على الدَّعْوةِ، وألّا يُؤَيِّسَهُ قَوْلُ المُشْرِكينَ لَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ [النَّحل: 101] وقَوْلُهُم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النَّحل: 103] وألّا يَصُدَّهُ عَنِ الدَّعْوةِ أنَّهُ تَعالَى لا يَهْدي الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِآياتِ اللّه"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 325.

نكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿ٱدۡعُ﴾:

حُذف المفعولُ دلالةً على التَّعميم، على معنى: ادعُ النّاس أو قومك، وجوِّز أن يكون المراد: افعل الدَّعوة تنزيلًا له منزلةَ اللّازم للقصد إلى إيجاد نفس الفعل، إشعارًا بأنَّ عموم الدَّعوة غنيٌّ عنِ البيان، وإنَّما المقصودُ الأمرُ بإيجادها على وجه مخصوص(1).

يُنزّلُ الفعلُ المتعدّي أحيانًا منزلةَ اللّازم للتَّعميم

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالسَّبيل:

في قوله تعالى: ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، حيث شبَّه الإسلامَ بالسَّبيل بجامع أنَّ كليهما يؤدّي إلى مقصوده، فالسَّبيل هو: الطَّريق الذي فيه سهولةٌ، وكذلك حالُ الإسلام، فحُذف المشبَّه، وأُقيم المشبَّه به مكانه، يقول ابن عاشور: وسَبيلُ الرَّبِّ: طَريقُهُ، وهو مجازٌ لِكُلِّ عَمَلٍ مِنْ شَأْنِه أَنْ يُبَلِّغَ عامِلَهُ إِلَى رِضا اللّه تَعالَى؛ لِأَنَّ العَمَلَ الَّذي يَحْصُلُ لِعامِلِه غَرَضٌ ما: يُشْبِهُ الطَّريقَ الموصِلَ إِلَى مَكانٍ مَقْصودٍ، فلِذَلِكَ يُسْتَعارُ اسْمُ السَّبيلِ لِسَبَبِ الشَّيْءِ(2).

الإسلامُ طريقٌ مستقيمٌ يوصلُ سالكَه إلى مبتغاه

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيَّةِ مضافةً:

في إضافة السَّبيل إلى لفظ الرُّبوبيَّة ما لا يخفى من العناية بهذا الدّين، وأنَّه دين اللّه، وهو الَّذي أرشد إليه، وهذه الإضافة تجريدٌ للاستعارة(3)، وفي ذكر لفظ الرُّبوبيَّة دون الاسم الأعظم من التَّسرية والتَّثبيت لفؤاد النَّبيِّ ﷺ ما فيه، وإضافةُ لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضميره ﷺ تشريفٌ ما بعده تشريف.

لفظُ الرُّبوبيَّة يُعطي معانيَ التَّسرية والطَّمأنة والتَّثبيت

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾:

الباء للملابسة والإلصاق، وهو المعنى الَّذي لا يكاد يفارقها، على معنى أن تكون الحكمةُ والموعظة الحسنة ملابستَيْن لهذه الدَّعوة لا تنفكّان عنها.

لا غنًى للدَّعوة السَّديدة عنِ الحكمة والموعظة الرَّشيدة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 487.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 326.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 326.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ و﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ﴾:

الدَّعوةُ بالحكمة والإحسان، مؤثِّرةٌ في كلِّ إنسان

الأفضل أن تكون (أل) هنا الجنسيَّةَ الاستغراقيَّةَ التي تشمل صنوفَ الحكمة والموعظة الحسنة الَّتي تليق بنبيِّنا ﷺ، ويمكن على معنى آخر حملُها على العهديَّة على معنى: الحكمةِ والموعظة اللَّتين تعرفهما في مواضع الدَّعوة.

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، إمّا أن تكون حالًا من ضمير ﴿ٱدۡعُ﴾، أو متعلِّقةً به[1].

فائدةُ عطفِ الموعظة على الحكمة:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ يأتي للإشادة بالخاصِّ والعناية به

يقول ابن عاشور: وعَطْفُ ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ﴾ على ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ لِأنَّها تُغايِرُ الحِكْمَةَ بِالعُمومِ والخُصوصِ الوجْهيِّ، فإنَّهُ قد يَسْلُكُ بِالمَوْعِظَةِ مَسْلَكَ الإقْناعِ، فمِنَ المَوْعِظَةِ حِكْمَةٌ، ومِنْها خَطابَةٌ، ومِنْها جَدَلٌ، وهيَ مِنْ حَيْثُ ماهيَّتُها بَيْنَها وبَيْنَ الحِكْمَةِ العُمومُ والخُصوصُ مِنْ وجْهٍ، ولَكِنَّ المَقْصودَ بها ما لا يَخْرُجُ عَنِ الحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ بِقَرينَةِ تَغْييرِ الأُسْلوبِ[2].

نكتةُ تقييدِ الموعظة بالحسنة:

الحكمةُ لا تكونُ إلّا حسنةً

يقول ابن عاشور: وقُيِّدَتِ المَوْعِظَةُ بِالحَسَنَةِ، ولَم تُقَيَّدِ الحِكْمَةُ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ لِأنَّ المَوْعِظَةَ لَمّا كانَ المَقْصودُ مِنْها غالِبًا رَدْعَ نَفْسِ المَوْعوظِ عَنْ أعْمالِه السَّيِّئَةِ أوْ عَنْ توقُّعِ ذَلِكَ مِنْهُ، وكانت مَظِنَّةً لِصُدورِ غِلْظَةٍ مِنَ الواعِظِ ولِحُصولِ انْكِسارٍ في نَفْسِ المَوْعوظِ؛ أرشد اللَّهُ رَسولَهُ أنْ يَتوخَّى في المَوْعِظَةِ أنْ تَكونَ حَسَنَةً، أيْ: بِإلانَةِ القَوْلِ وتَرْغيبِ المَوْعوظِ في الخَيْرِ، قالَ تَعالَى خطابًا لِموسَى وهارونَ: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: 43 - 44].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 385.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 327 - 328.

وأمّا الحِكْمَةُ؛ فهيَ تَعْليمٌ لِمُتَطَلِّبي الكَمالِ مِنْ مُعَلِّمٍ يَهْتَمُّ بِتَعْليم طُلّابه، فلا تكونُ إلّا في حالَةٍ حَسَنَةٍ، فلا حاجَةَ إلَى التَّنْبيه على أنْ تَكونَ حَسَنَةً(1).

فائدةُ عطْفِ قولِه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾:

من مُقتضياتِ الحكمةِ، اللُّجوءُ إلى الجدالِ بالَّتي هي أحسن

عطفتِ الآيةُ الأمرَ بالمجادلة على الدَّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأنَّها من لوازمهما؛ إذ إنَّ من مقتضيات هذه الحكمة، أن يلجأ صاحبُها إلى الجدال مع خصومه إن دعته الحاجةُ إلى ذلك.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾:

الأمرُ يدلُّ على الدَّوامِ والاستزادةِ

مُخاطَبَةُ اللّه رَسولَهُ ﷺ بِهَذا الأمرِ في حينِ أنَّهُ قائمٌ به: دَليلٌ على أنَّ صيغَةَ الأمرِ مُسْتَعْمَلَةٌ في طَلَبِ الدَّوام على المجادلة بأسلوبها المشروع، فتَضَمَّنَتْ هَذِه الآيَةُ تَثْبيتَ الرَّسولِ ﷺ على قيامه بالجدال وعلى أسلوبه في الجدال(2).

نكتةُ تغايرِ النَّظمِ في قولِه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾:

يدلُّ الجدالُ على الإلزامِ والإفحامِ

يقول الرّازي: "ومِنْ لَطائِفِ هَذِه الآيَةِ أنَّهُ قالَ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾، فقَصَرَ الدَّعْوَةَ على ذكر هذين القسمين؛ لأنَّ الدَّعوة إذا كانَتْ بِالدَّلائِلِ القَطْعيَّة، فهيَ الحِكْمَةُ، وإنْ كانَتْ بِالدَّلائِلِ الظَّنّيَّة؛ فهيَ المَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ، أمّا الجَدَلُ؛ فلَيْسَ مِنْ بابِ الدَّعْوة، بَلِ المَقْصودُ مِنْهُ غَرَضٌ آخَرُ مُغايرٌ لِلدَّعْوة، وهو الإلْزامُ والإفْحامُ، فلِهَذا السَّبَبِ لَم يَقُلْ: (ادْعُ إلَى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ والجَدَلِ الأحْسَنِ)، بَلْ قَطَعَ الجَدَلَ عَنْ بابِ الدَّعْوةِ تَنْبيهًا على أنَّهُ لا تحصُلُ به الدَّعْوةُ، وإنَّما الغَرَضُ مِنْهُ شَيْءٌ آخَرُ"(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 329.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 325.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 287.

فائدةُ التَّصريحِ بضمير الغائبين:

ولَمّا كانَتِ المُجادَلَةُ لا تَكونُ إلّا مَعَ المُعارِضينَ؛ صَرَّحَ في المُجادَلَةِ بِضَميرِ جَمعِ الغائِبينَ، والمُرادُ مِنْهُ المُشْرِكونَ، فإنَّ المُشْرِكينَ مُتَفاوِتونَ في كَيْفيّاتِ مُحاجَّتِهِم، فمِنْهُم مَنْ يُحاجُّ بِلينٍ، ومنهم غيرُ ذلك(1).

المجادلةُ محاججةٌ، يؤمرُ بها بشروطها وآدابها

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾:

الباء للملاصقة والملابسة، أي: لتكن مجادلتك لهم ملتبِّسةً بكونها الَّتي هي أحسن.

نكتةُ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ عبَّر بالاسم الموصول لتعظيم شأنها وتفخيمِه، وجاءت جملةُ صلة الموصول اسميَّةً؛ لتفيد معنى الثَّبات والتَّوكيد على هذا النَّوعِ منَ المجادلة.

المجادلةُ اللَّطيفةُ مطلوبةٌ في سياق الآية

نكتةُ التَّعبير بالمفاضلةِ في ﴿أَحۡسَنُۚ﴾:

المجادلة هي مفاعلةٌ تقتضي وجودَ طرفَيْن فيها، فعُلِمَ أنَّ المَأْمورَ بِه أَنْ تَكونَ المُحاجَّةُ الصّادِرَةُ مِنْهُ أَشَدَّ حُسْنًا مِنَ المُحاجَّةِ الصّادِرَةِ مِنْهُم، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت: 34](2).

كلّما كان الخطابُ بالَّتي هي أحسنُ؛ كان التَّأثيرُ أعمقَ وأمكنَ

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، فُصلت هذه الجملة عن سابقتها، ولم تُعطف عليها للتَّغاير بينهما من ناحية الإنشاء والخبر، ولوقوعها تعليليَّةً بعد الجملة الأولى، فهي تعليلٌ لما ذكر أوَّلًا من الأمرين، كأنَّه قيل: اسلك في الدّعوة والمناظرةِ الطريقةَ المذكورة وما عليك غير ذلك، وأمّا حصولُ الهداية والضلال والمجازاة عليهما؛ فإلى الله سبحانه لا إلى غيره؛ إذ هو أعلم بمن يبقى على الضّلال، وبمن يهتدي إليه،

لا نعطفُ الخبريَّةَ على الإنشائيَّةِ ولا العكسَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 328.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 328.

فيجازي كلًّا منهما ما يستحقُّه[1]، وعلى هذا فيمكن أن يكون موقعُ الجملة موقعَ (الاستئناف البيانيِّ) جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: ما نتيجةُ سلوك هذه الطَّرائق في دعوتهم؟

بلاغةُ تزاحُمِ المؤكِّدات في الآية:

تـردُ المؤكِّـدات أحـيانًـا لإزالـة بعضِ مخاوفِ النَّفس

حظي قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ بعددٍ من المؤكِّدات، منها: إنَّ، والجملةُ الاسميَّة، وضميرُ الفصل الَّذي يفيد القصر، وصيغةُ المفاضلة ﴿أَعۡلَمُ﴾ وذلك لتنزيله ﷺ منزلةَ المنكرِ لشدَّة حرصه على هدايتهم، فجاءت هذه المؤكِّدات لتثبيته والتَّسريةِ عنه، بأنَّ أمرَ الهداية والضَّلال هو عند الله تعالى لا عند غيره، وإنَّما عليك البلاغُ دون النَّتائج.

وقد تكون ﴿إِنَّ﴾ هنا ليست للتأكيد لوجود ضميرِ الفصل الَّذي يفيد القصرَ، وتكون قائمة مقامَ فاء التَّفريع، حيث قال فيها الشَّيخ عبد القاهر الجرجانيُّ: واعلم أنَّ مِنْ شأنِ (إنَّ)؛ إذا جاءتْ على هذا الوجه، أن تُغْني غَناء الفاءِ العاطِفةِ مثلًا، وأنْ تُفيدَ من رَبْط الجملةِ بما قبلَها أمرًا عجيبًا، فأنتَ تَرى الكلامَ بها مستأنفًا غيرَ مستأنف، ومقطوعًا موصولًا معًا[2].

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الرُّبوبيَّة مضافًا:

لفظُ الرُّبوبيَّة، فـيـه تـسـلـيـةٌ وتـسريـةٌ لقلب المخاطَب

وفي التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة تسريةٌ وتسلية لفؤاد النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المصلحُ والرّاعي والسَّيِّد، وفي إضافته إلى ضميره ﷺ تشريفٌ ما بعده تشريف.

بلاغةُ القصرِ بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

أفـاد الـقـصـرُ هنا أنَّ العلمَ بأحوال المهتدين هـو شـأنُـه ﷻ وحدَه

توسَّط ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ بين المسنَد إليه والمسنَد، فأفاد قصْرَ صفة العلم عليه ﷻ دون غيره، فهو من قصر الصِّفة على الموصوف،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 487.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 273.

وهو قصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ العلم الحقيقيَّ بالمهتدين والضّالين للّه ﷻ دون غيره، ويمكن حملُه على القصرِ الإضافي على معنى أنَّ غيرَ اللّه يعلَمُهم أيضًا، ولكنَّ اللّه تعالى هو أعلمُ بهم منهم.

دلالةُ المفاضلةِ في قوله: ﴿أَعۡلَمُ﴾:

قد تأتي صيغةُ المفاضلة على بابها، وقد تكون مسلوبة المفاضلة بحسب المعاني المحتملةِ

قد تكون هذه المفاضلةُ على بابها، بألّا ينفي العلم بهم عن غيره، وإنَّما يُثبت لهم بأنَّه الأعلم، يقول ابن عاشور: والتَّفْضِيلُ في قَوْلِه: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ تَفْضِيلٌ على عِلْمِ غَيْرِه بِذَلِكَ، فإنَّهُ عِلْمٌ مُتَفاوِتٌ بِحَسَبِ تَفاوُتِ العالِمِينَ في مَعْرِفَةِ الحَقائِقِ، وفي هَذا التَّفْضِيلِ إيماءٌ إلَى وُجوبِ طَلَبِ كَمالِ العِلْمِ بِالهُدى، وتَمييزِ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ، وغَوْصِ النَّظَرِ في ذَلِكَ، وتَجَنُّبِ التَّسَرُّعِ في الحُكْمِ دونَ قوَّةِ ظَنٍّ بِالحَقِّ، والحَذَرِ مِنْ تَغَلُّبِ تَيّاراتِ الأَهْواءِ حَتَّى لا تَنْعَكِسَ الحَقائِقُ، ولا تَسيرَ العُقولُ في بُنَيّاتِ الطَّرائِقِ، فإنَّ الحَقَّ باقٍ على الزَّمانِ، والباطِلُ تُكَذِّبُهُ الحُجَّةُ والبُرْهانُ(1).

وقد تكون (أفعل) هنا مسلوبةَ المفاضلة، بأن يكون المرادُ بها المبالغةَ في اختصاصه سبحانه بعلم أحوالهم دون غيره.

معْنَيا الباء و(من) في قوله: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾:

مجيءُ صلةِ الموصول على الفعليَّة، يفيدُ التَّجدُّدَ

الباء قد تفيد الملابسةَ والملاصقة هنا، وقد تكون للتَّعدية، و(مَن) اسم موصول بمعنى (الّذي) وصلتُه (ضلّ)، وأفاد التَّعبيرُ بالاسم الموصول العمومَ؛ ليشمل كلَّ من كان شأنُه كذلك، ومجيء صلة الموصول على الفعليَّة يدلُّ على تجدُّد الضَّلال فيهم وعدمِ انقطاعه.

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالسَّبيل:

الإسلامُ طريقٌ واضحٌ مستقيمٌ، يوصل سالكَه إلى مُبتغاه

في قوله: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، حيث شبَّه الإسلامَ بالسَّبيل بجامع أنَّ كليهما يؤدّي إلى مقصوده، فالسَّبيل هو: الطَّريق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 334.

الذي فيه سهولة، وكذلك حالُ الإسلام، فحُذف المشبَّه، وأُقيم المشبَّه به مكانَه.

نكتةُ إضافةِ السَّبيل إلى ضميرِ الرُّبوبيَّة:

في إضافة السَّبيل إلى ضمير الرُّبوبيَّة ما لا يخفى منَ العناية بهذا الدّين، وأنَّه دين اللّه، وهو الَّذي أرشد إليه، وهذه الإضافة تجريدٌ للاستعارة[1].

سبيلُ اللهِ هو دينُه القويمُ، وصراطُه المستقيمُ

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ عاطفة، وحسَّن العطفَ بينها وبين الجملة السّابقة التَّغايرُ والتَّقابلُ بالمعلوم (الضَّلال والهداية)، والتَّشريك بالعلم.

علمُ اللهِ لا يغيبُ عنه شيءٌ في الوجود، عن أيِّ موجود

نكتةُ إعادةِ ضمير الفصلِ مع الهداية:

يقول ابن عاشور: "وإعادَةُ ضَميرِ الفَصْلِ في قَوْلِه: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ للتَّنْصيص على تَقْوِيَةِ هَذا الخَبَرِ؛ لأنَّهُ لَوْ قيلَ: وأعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ؛ لاحْتَمَلَ أنْ يَكونَ مَعْطوفًا على جُملَةِ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ على أنَّه خبر لـ ﴿إِنَّ﴾ غَيْرُ داخِلٍ في حَيِّزِ التَّقْوِيَةِ بِضَميرِ الفَصْلِ، فأُعيدَ ضَميرُ الفَصْلِ لِدَفْعِ هَذا الاحْتِمالِ"[2].

يفيدُ القصرُ بضمير الفصل أحيانًا دفعَ ما يُتوهَّم

مغنَيا (الباء) و(أل) في قوله: ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾:

الباء تفيد الملابسةَ والملاصقة، وهي تفيد التَّعديةَ أيضًا، ومعنى (أل) في ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: الظّاهر أنَّها (أل) الجنسيَّة الَّتي تفيدُ علمَ اللّه تعالى المستغرقَ لجنس المهتدين، فتفيد علمَه ﷻ بجميع صنوف المهتدين.

اللهُ عليمٌ بمن ضلَّ، وهو أعلمُ بالمهتدين

بلاغةُ تقديمِ علمه بالضّالّين:

قَدَّمَ ذِكْرَ عِلْمِهِ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِه على ذِكْرِ عِلْمِه بِالمُهْتَدين؛ لأنَّ

في التَّقديم للضّالّين تعريضٌ بهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 14/ 334.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 333.

المَقامَ تَعْريضٌ بِالوعيدِ لِلضّالّين، ولِأنَّ التَّخْلِيَةَ مُقَدَّمَةٌ على التَّحْلِيَةِ، فالوعيدُ مُقَدَّمٌ على الوَعْدِ[1].

نكتةُ العُدولِ في ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

الهدايةُ فطرةٌ ثابتةٌ في النفوس، والإعراض عنها حدَثٌ عارض

إيراد الضّلال بصيغة الفعل الدّالّ على الحدوث؛ لما أنَّه تغييرٌ لفطرة اللّه تعالى التي فطر النّاس عليها، وإعراضٌ عنِ الدعوة، وذلك أمر عارضٌ بخلاف الاهتداء الذي هو عبارةٌ عنِ الثّبات على الفطرة، والجريان على موجب الدعوة، ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبئِ عنِ الثّبات[2].

بلاغةُ المقابلةِ في الآية:

علمُ الله بكلِّ صنْفٍ، يكونُ به الجزاءُ من جنس العملِ

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، هنا نوعٌ من المقابلة بين هذيْن الصِّنفيْن في آخر هذه الآية الكريمة، وهي مقابلة ثلاثيَّة اشتركا فيها بثلاثة ألفاظ، فضلًا عن اشتمال المقابلة على طباق الإيجاب بين لفظتَي الضَّلال والهداية.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجادلة والمحاورة:

الجدالُ أشدُّ مِنَ المحاورة في النِّزاع، وقد لا يكون له ثمرةٌ

الجدالُ والحوار يشتركان في كونهما قد يكونان بحقٍّ أو بباطل، ولكنَّ الجدال أشدُّ في المنازعة، وأقلُّ في المعاودة والرُّجوع، وقد تقدَّم أنَّ المعنى المحوريَّ لـ(جدل): امتداد الشَّيء شديد الأثناء بالتفاف بعضِه على بعض أوِ التفاف مثلِه عليه، كما في الحَبْل، والأعضاءِ المفتولةِ، والأرض شديدة وممتدة، وكل ما في القرآن من التركيب؛ فهو من هذا الجِدال[3]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وقيل: الأصل في الجِدال: الصّراع وإسقاط الإنسان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 333.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 490.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدل).

صاحبَه على الجَدالَة، وهي الأرض الصُّلبة[1]، وأمّا الحَوْرُ: فهو التَّردُّد إمّا بالذّات، وإمّا بالفكر، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾ [الانشقاق: 14]، أي: لن يُبعث، وحارَ الماء في الغدير: تردَّد فيه، وحارَ في أمره: تحيَّر، ومنه: المِحْور للعود الَّذي تجري عليه البكرة لتردُّده، والقوم في حَوْرٍ، أي: في تردُّد إلى نقصان، والمُحاورَةُ والحِوار: المرادَّة في الكلام، ومنه التَّحاوُر، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة: 1][2]، ولبيان المتفق والمفترق بين اللَّفظين يمكن القول: إنَّ الجدال والحوار يشتركان في كونهما قد يكونان بحقٍّ أو بباطل، ولكنَّ الجدال أشدُّ في المنازعة، وأقلُّ في المعاودة والرُّجوع.

(1) الراغب، المفردات: (جدل).
(2) الراغب، المفردات: (حور).

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: 126 - 128]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مواصلة العطف، بإضافة توجيهات وأحكام وتشريعات جديدة

يقول ابن عاشور: هذِه الآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بما قَبْلَها أتَمَّ اتِّصالٍ، وحَسْبُكَ وُجودُ العاطِفِ فيها، وهَذا تَدَرُّجٌ في رُتَبِ المُعامَلَةِ مِنْ مُعامَلَةِ الَّذين يُدعَونَ ويوعَظون إلَى مُعامَلَةِ الَّذينَ يُجادَلونَ، ثُمَّ إلَى مُعامَلَةِ الَّذين يُجازَوْنَ على أفْعالِهم، وبِذَلِكَ حَصَلَ حُسْنُ التَّرْتيبِ في أُسْلوبِ الكَلامِ(1).

يقول البقاعيُّ: "ولما بيَّن أمرَ الدَّعوة وأوضح طرقَها، وقدَّم أمرَ الهجرة والإكراه في الدين والفتن فيه، المشير إلى ما سبب ذلك من المحن والبلاء من الكفار ظلمًا، وختم ذلك بالأمر بالرفق بهم، بعد ما خصّه صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلّم به منَ الأمر بالرفق، بالأمر لأشياعه بالعدل والإحسان - كما تقدَّم - ولو مع أعدى الأعداء، والنَّهي عن مجازاتهم إلا على وجه العدل؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾"(2) ثمَّ أوصى النَّبيَّ ﷺ بما يسرّي عن قلبه ويثبِّته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَاقَبۡتُمۡ﴾: العَيْنُ والقافُ والباءُ أصْلانِ صَحيحانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِه بَعْدَ غَيْرِه، والأَصْلُ الآخَرُ يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ، فالأَوَّلُ: كُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيْئًا، فهو عَقيبُهُ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 335.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 281 - 282.

كَقَوْلِكَ: خَلَفَ يَخْلُفُ، بِمَنْزِلَةِ اللَّيْلِ والنَّهارِ؛ إذا مَضَى أحَدُهُما عَقِبَ الآخَرِ، وهُما عَقيبانِ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما عقيبَ صاحبه[1]، ومن الأصل عاقبت الرّجل: جزيته بما فعل سوءًا، وأصل ذلك أنَّك جعلت ثمرة عمله تَعْقُبُه، أي: تلحقه لا يفوتها، وهي في الأصل عامة في الخير والشرِّ، كما قالوا: اعتقبتُ الرجلَ خيرًا أو شرًّا بما صنع، أي: كافأته به، ثم خُصَّت بالشّرِّ من المعاناة (المفاعلة) في إلحاقها به، ولا يكون ذلك إلا في الشَّرِّ، وبهذا المعنى جاء كلُّ من (عاقَب)، (عوقب)، (عقاب) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾، والملاحقة فيها واضحةٌ[2]، والعاقِبةُ إطلاقها يختصُّ بالثّواب نحو: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ [الروم: 10]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: 17] يصحُّ أن يكون ذلك استعارةً من ضدِّه، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21]، والعُقوبَةُ والمعاقبة والعِقاب يختصُّ بالعذاب[3]، والمعنى: وإن أردتم المعاقبةَ، على طريقة قول الطَّبيبِ للمحتمي: إن أكلتَ؛ فكُلْ قليلًا[4].

2) ﴿تَكُ﴾: الكافُ والواوُ والنّونُ أصْلٌ يَدُلُّ على الإخْبارِ عَنْ حُدوثِ شَيْءٍ، إمّا في زَمانٍ ماضٍ أوْ زَمانٍ راهنٍ، يَقولونَ: كانَ الشَّيْءُ يَكونُ كَوْنًا؛ إذا وقَعَ وحَضَرَ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: 280]، أيْ: حَضَرَ وجاءَ، ويَقولونَ: قد كانَ الشِّتاءُ، أيْ: جاءَ وحَضَرَ، وأمّا الماضي؛ فقَوْلُنا: كانَ زَيْدٌ أميرًا، يُريدُ أنَّ ذَلِكَ كانَ في زَمانٍ سالِفٍ[5]، وذكر الرّاغب أنَّ (كان): عبارة عمّا مضى من الزمان، وفي كثير من وصف اللّه تعالى تنبئ عن معنى الأزليَّة، قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: 40]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾ [الأحزاب: 27] وما استعمل منه في جنس الشيء متعلّقًا بوصف له هو موجود فيه، فتنبيه على أنَّ ذلك الوصف لازمٌ له، قليلُ الانفكاك منه، نحو قوله في الإنسان: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء: 67]، وقوله في الآية: ﴿وَلَا تَكُ﴾ (لا) ناهيةٌ، و(تك) فعلٌ مضارع مجزوم بلا، وعلامة جزمه السُّكونُ المقدّر على النّون المحذوفة للتَّخفيف[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

(3) الراغب، المفردات: (عقب).

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 152.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كون).

(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 386.

3) ﴿ضَيْقٍ﴾: يقول ابن فارس: الضّادُ والياءُ والقافُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ على خِلافِ السَّعَةِ، وذَلِكَ هو الضّيقُ؛ والضَّيقةُ: الفَقْرُ، يُقالُ: أضاقَ الرَّجُلُ: ذَهَبَ مالُهُ، وضاقَ؛ إذا بَخِلَ، وشَيْءٌ ضَيْقٌ، أيْ: ضَيِّقٌ، والبابُ كُلُّهُ قياسٌ واحِدٌ[1]، الضّيقُ: ضدُّ السَّعة، ويقال: الضَّيْقُ أيضًا، والضَّيْقَةُ يستعمل في الفقر والبخل والغمِّ ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: 77]، أي: عجز عنهم، وقال: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: 12]، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ [الشعراء: 13]، ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: 25][2]، ومعنى: ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ أي: شدّة وحرج[3].

4) ﴿يَمْكُرُونَ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ كَلِمَتانِ مُتَبايِنَتانِ: إحْداهُما المَكْرُ: الاحْتيالُ والخِداعُ، ومَكَرَ بِه يَمكُرُ، والأُخْرَى المَكْرُ: خَدالَةُ السّاقِ[4]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة: اختزانٌ رقيقٍ أو لطيفٍ في الأثناء، فتكتنز به، ولا يبرز متميِّزًا، كاختزان الحبوب في البيوت، والماء في أثناء الأرض، والشّحم في السّاق الملتفَّة، والندى في الرُّطَبة الصُّلْبة، والمَغرة في أثناء الثّوب أوِ اللّون فيها، ومنه المَكْرة بالفتح: نَبْتَة غُبيراء مُلَيحاء تُنْبِتُ قَصَدًا، وإنَّما سُمّيت بذلك لارتوائها ونجوع السّقي فيها، ومنه المكر[5]، وعند الرّاغب: المَكْرُ: صرف الآخر عمّا يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود، وذلك أن يُتحرّى بذلك فعل جميل، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومذموم، وهو أن يُتحرّى به فعلٌ قبيح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: 30][6]، والمراد بمكرهم هنا: فعلُهم وعملُهم[7] السّيِّئ.

5) ﴿مُّحْسِنُونَ﴾: الحاءُ والسّينُ والنّونُ أصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ وامرأةٌ حَسْناءُ وحُسّانَةٌ، والمَحاسِنُ مِنَ الإنْسانِ وغَيْرِه: ضِدُّ المُساوِئ[8]، والمعنى المحوريُّ لمادَّة (حسن): نَقاءُ الشَّيء ورقّته بخروج الخَشن أو الغليظ - الذي يخالطه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضيق).
(2) الراغب، المفردات: (ضيق).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 452.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكر).
(6) الراغب، المفردات: (مكر).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 595.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).

فيَشوبُ رِقَّتَه - منه، ومن هذا عبَّر التركيب عن الحُسن، أي: جمال المنظر ونقائه ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: 52] نقاؤهن، والمعنويّ منه ﴿عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ٧٦﴾ [الرحمن: 76] ثم عُمِّم في الطَّيب الرقيق من الصُّحبة: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: 69]، والنِّعمة: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ [الطلاق: 11]، والعملِ ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ﴾ [المائدة: 93]، ومن هذا: الحسَنَةُ ضدُّ السيئة ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: 160]، والقول: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: 83].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تركتِ الآيةُ للمسلمين تقديرَ ردودِ أفعالِهم، إزاءَ ما يقعُ عليهم، موصيةً إيّاهم بالصَّبر والإحسان

والمعنى الإجمالي للآيات: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ - أيها المؤمنون - من ظلمكم؛ فلكم في العقاب إحدى طريقين: أوَّلًا: أن تعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمُكم من العقوبة، وثانيًا: أن تصبروا، وتتجاوزوا عمّا صدر منه من الذَّنب، وتصفحوا عنه، وتحتسبوا عند اللّه ما نالكم به من الظُّلم، وتكلوا أمركم إليه، واللّه يتولّى عقوبته، والصَّبرُ خيرٌ للصّابرين من الانتقام؛ لأنَّ اللّه ينتقم من الظّالم بأشدَّ مما كان ينتقم منه لنفسه، ثمَّ أمر رسوله بالصّبر صراحة بعد أن ندب إليه غيره تعريضًا؛ لأنَّه أولى النّاس بعزائم الأمور، لزيادة علمه بشؤونه تعالى، فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، أي: واصبر على ما أصابك منهم من أذًى في اللّه، ومن إعراض عن الدّعوة، وما صبرك إن صبرت إلّا بمعونة اللّه وحسن توفيقه، ومشيئتِه المبنيةِ على الحِكَم البالغة الَّتي تنتهي إلى عواقبَ حميدةٍ، وفي هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ، وتهوينٌ لمشاقِّ الصَّبر عليه، وتشريفٌ له بما لا مزيدَ عليه، ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذِّبونك، وينكرون ما جئتهم به ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾، أي: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السِّحر والكهانة والشّعر؛ احتيالًا وخديعة لمن أراد الإيمان بك، وصدًّا عن

سبيل اللّه، فاللّه كافيك أذاهم، وناصرك عليهم، ومؤيِّدك ومظهرك عليهم، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك، فإنَّ اللّه مبعدُه عنك، ومحبطٌ ما صنعوا، وهم لا يشعرون، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾، أي: إنَّ اللّه مع الَّذين اتقوا محارمه، فاجتنبوها خوفًا من عقابه، والَّذين يحسنون رعايةَ فرائضه، والقيامَ بحقوقه، ولزومَ طاعته فيما أمرهم به، وفي ترك ما نهاهم عنه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ عطْفِ الآيات على سابقتها:

اقتضَى العطفُ بين الآيات التَّشريكَ في الأحكام والتَّغايرَ في الماهيَّة بينها

الواو في قوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ عاطفة، عُطفت بها الجملة على قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾، ولا صحَّة لما قيل من أنَّها منفصلةٌ عن سابقتها، وأنَّها نزلت في شأن التَّمثيل بحمزة في يوم أحد، فالرِّواياتُ لم تصحَّ في ذلك.

يقول الرّازي: "وأقولُ: إنَّ حَملَ هَذِه الآيَةِ على قِصَّةٍ لا تَعَلُّقَ لَها بِما قَبْلَها يوجِبُ حُصولَ سوءِ التَّرْتيبِ في كَلامِ اللّه تَعالَى، وذَلِكَ يُطْرِقُ الطَّعْنَ إلَيْه، وهو في غايَةِ البُعْدِ، بَلِ الأَصْوبُ عِنْدي أنْ يُقالَ: الْمُرادُ أنَّهُ تَعالَى أمَرَ مُحَمَّدًا ﷺ أنْ يَدْعو الخَلْقَ إلَى الدّينِ الحَقِّ بِأحَدِ الطُّرُقِ الثَّلاثَةِ، وهِيَ الحِكْمَةُ والمَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ، والجِدالُ بِالطَّريقِ الأحْسَنِ، ثُمَّ إنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ تَتَضَمَّنُ أمرَهُم بِالرُّجوعِ عَنْ دينِ آبائِهِم وأسْلافِهِم، وبالإعْراضِ عَنْهُ والحكم عَلَيْه بِالكُفْرِ والضَّلالَةِ وذَلِكَ مِمّا يُشَوِّشُ القُلوبَ ويوحِشُ الصُّدورَ، ويَحْمِلُ أكْثَرَ الْمُسْتَمِعينَ على قَصْدِ ذَلِكَ الدّاعي بِالقَتْلِ تارَةً، وبِالضَّرْبِ ثانيًا، وبِالشَّتْمِ ثالِثًا، ثُمَّ إنَّ ذَلِكَ الْمُحِقَّ إذا شاهَدَ تِلْكَ السَّفاهاتِ، وسَمِعَ تِلْكَ الْمُشاغَباتِ؛ لا بُدَّ وأنْ يَحْمِلَهُ طَبْعُهُ على تَأْديبِ أولَئِكَ السُّفَهاءِ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 163.

تارَةً بِالقَتْلِ وتارَةً بِالضَّرْبِ، فعِنْدَ هَذا أمَرَ المُحقّينَ في هَذا المَقام بِرِعايَةِ العَدْلِ والإنْصافِ وتَرْكِ الزّيادَةِ، فهَذا هو الوجه الصَّحيحُ الَّذي يَجِبُ حَملُ الآيَةِ عَلَيْه"(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة:

الجملةُ الشَّرطيَّةُ أقوى في دلالتها على مرادها مِنَ الجملة الخبريَّةِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ جاءت الجملة شرطيَّةً، مبدوءةً بـ(إنْ) التي تأتي في الشَّرط نادرِ الوقوع، أو فيما يُراد له أن يكون كذلك، بخلاف الشَّرط بـ(إذا)، وقد ربطت بين نوعيْن من المعاملة جعلت أحدهما جوابًا للآخر عند حدوثه، والجملة الشَّرطيَّة أقوى من الجملة الخبريَّة في ربطها بين جواب الشَّرط وفعله؛ إذ تجعل جوابَها متوقِّفًا على حصول فعلِها.

غرضُ حذفِ مفعول ﴿عَاقَبۡتُمۡ﴾:

غايةُ الحذف التَّوجيهُ لانشغال بالمذكورِ عنِ المحذوف

حُذف المفعولُ به للتَّعميم ليعمَّ كلَّ من يستحقُّ وقوعَ العقوبة عليه، فأُنزل الفعلُ المتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم لينشغلوا بالفعل عن المفعول.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَعَاقِبُواْ﴾:

العقوبةُ بالمثل، إنصافٌ وعدلٌ

الفاء رابطةٌ لجواب الشَّرط، وتقديرُه هنا: إن عاقبتم لكم الحقُّ بالرَّدِّ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به.

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿فَعَاقِبُواْ﴾:

ردُّ العُدوان أوِ الصَّبرُ متروكٌ للمسلمين

الظّاهر أنَّ الأمر هنا خرج عنِ الوجوب إلى التَّخيير والإباحة؛ لأنَّه قال بعدها: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

بلاغةُ المشاكلةِ بين العقوبتَيْن:

ما يقعُ على المسلمين من أذًى ووبال يُسمّى عقوبةً من باب المشاكلةِ

يقول أبو السُّعود: "وقد عبَّر عمّا وقع على المؤمنين بالعقاب، على طريقة إطلاقِ اسم المُسبَّبِ على السَّبب، نحوُ: كما تَدين تُدان، أو على نهج المشاكلةِ، والمقصودُ إيجابُ مراعاةِ العدل مع مَنْ يناصبُهم

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 288 - 289.

من غير تجاوزٍ حين ما آل الجِدالُ إلى القتال، وأدّى النزاعُ إلى القِراع فإنَّ الدعوةَ المأمورَ بها لا تكاد تنفك عن ذلك"[1]، وأضاف ابن عاشور: "فقَوْلُهُ: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾ مُشاكَلَةٌ لِـ ﴿عَاقَبْتُمْ﴾، اسْتَعْمَلَ ﴿عُوقِبْتُم﴾ في مَعْنَى عوملْتُم به، لِوُقوعه بَعْدَ فِعْلِ ﴿عَاقَبْتُمْ﴾، فهو اسْتِعارَة، وجْهُ شَبَهِها هو المُشاكَلَةُ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿عُوقِبْتُم﴾ حَقيقَةً؛ لِأنَّ ما يَلْقَوْنَهُ مِنَ الأذَى مِنَ المُشْرِكينَ قَصَدوا به عِقابَهُم على مُفارَقَةِ دينِ قَوْمِهم وعلى شَتْمِ أصْنامِهم وتَسْفيهِ آبائِهم"[2].

معنى الباء في قوله: ﴿بِمِثْلِ﴾:

الباء قد تكون للعوض أو للمقابلة بين العقوبتَيْن، وقد تكون للتَّوكيد وهي التي يسمّونها الزّائدة، فضلًا عن أنَّ الملابسة والملاصقة لا تنفكُّ عنها أبدًا.

المثلُ به يكون استيفاءَ الحقِّ، وهو ميزانٌ للعدل في ردِّ الفعل

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾:

الظّاهر أنَّ ﴿مَا﴾ موصولة، و﴿عُوقِبْتُم﴾ صلتُها، والغرض هنا من التَّعبير بالاسم الموصول التَّعميمُ ليشمل كلَّ معاملة أو عقوبة.

تعميمُ العقوبة، مُستوعِبٌ لكلِّ أنواعِ العقوبةِ

نكتةُ التَّعبير بـ﴿عُوقِبْتُم﴾:

تقدَّم في شرح المفردات أنَّ أصل قولنا: عاقبت الرجل: جزيته بما فعل سوءًا، وأصل ذلك أنَّك جعلت ثمرةَ عمله تَعْقُبُه، أي: تلحقه لا يفوتها، والعقوبة في الأصل عامّة في الخير والشَّرِّ وتختصُّ بالعذاب، وأمّا بناء الفعل للمفعول؛ فإنَّما هو لدفعهم للانشغال بالعقوبة عن فاعلها، فلا يهمُّ من كان المعاقِب، إنَّما يهُمُّ ما يجب عليهم أن يفعلوه.

في بناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعلُه دعوةٌ للانشغال بالفعل عن فاعله للعلم به

معنى الباء في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

الباء قد تكون للسببيَّة على معنى: عوقبتم بسببه، فضلًا عن أنَّ الملابسة والملاصقة لا تنفكُّ عنها أبدًا.

تحديدُ مقابلةِ العقوبةِ بمثلها، نأيٌ عنِ الانتقام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 152.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 335 - 336.

الصَّبرُ مفتاحُ ما يرجَّى

مغنَيا (الواو) و(اللّام) في ﴿وَلَئِن﴾:

الواو عاطفة، عطفت جملةً شرطيَّة على جملة شرطيَّةٍ أخرى، واللّام في ﴿وَلَئِن﴾ هنا، موطِّئة لقسَم محذوف، فهي تفيد التَّأكيدَ.

وقوعُ الشَّرط بـ(إنْ) هنا للمشاكلة مع الأولى أو للتسوية بينهما

معنى (إنْ) في سياق الآية الكريمة:

(إنْ) شرطيَّةٌ، تأتي مع الشَّرط غيرِ المحقَّق وقوعُه، أو نادرِ الوقوع أو لمن يُراد إنزاله هذه المنزلةَ، وفي مجيئها هنا خروجٌ عن الظّاهر؛ لأنَّ الصَّبر مطلوبٌ ومرغوب، فلربَّما جاءت مشاكلةً لـ(إنْ) الأولى، أو لبيان أنَّ من حقِّهم إذا وقع الاعتداء عليهم أن يردّوا، أو يصبروا، فالأمران سيّان ومتروكان لهم.

التَّوكيدُ يقوّي المعنى، والتَّخصيصُ يعيِّنُه

معنى اللّام في ﴿لَهُوَ﴾ ولام الجرِّ في ﴿لِّلصَّٰبِرِينَ﴾:

اللّام واقعةٌ في جواب القسَم؛ لأنَّ جواب القسَم جملة اسميَّةٌ مثبتةٌ، وهي تفيد التَّوكيدَ، وأمّا اللّام في قوله: ﴿لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، فهي هنا تفيد معنى التَّخصيص، أي: للصّابرين دون غيرهم.

الصَّبرُ خيرٌ وأنقَى للصّابرين

نكتةُ تنكير ﴿خَيۡرٌ﴾:

أفاد تنكيرُها هنا التَّعظيمَ والتَّفخيم، أي: هو خيرٌ وأفضلُ من الانتصار بالمعاقبة، والمراد هنا هو المفاضلةُ على معنى: لهو أفضلُ للصّابرين.

في العُدولِ عن خطاب الخاصَّة، إلى خطاب العموم، مبالغةٌ في التَّرغيب أحيانًا

سرُّ العُدول في ﴿خَيۡرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾:

المقصود بقوله: ﴿خَيۡرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: لكم إلّا أنَّه عدلَ عنه إلى ما في النَّظم الجليل، مدحًا لهم وثناءً عليهم بالصَّبر، وفيه إرشاد إلى أنَّه إن صبرتم؛ فهو شيمتُكم المعروفة، فلا تتركوها إذًا في هذه القضية، أو وصفًا لهم بصفة تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، وفيه ترغيبٌ في الصَّبر بالغٌ[1].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 491.

معنى (أل) في شبه الجملة: ﴿لِّلصَّٰبِرِينَ﴾:

لا يُستثنى مِنَ الفرج والجزاء صابرٌ محتسبٌ

الظّاهر أنَّها (أل) الجنسيَّة الَّتي تفيد الاستغراق، فيكون المراد: لهو خيرٌ لجنس الصّابرين، يقول الآلوسي: والمراد بالصّابرين جنسُهم فيدخل هؤلاء دخولًا أوّليًّا[1].

نكتةُ العطفِ بالواو للصَّبر على الصَّبر:

الرَّسولُ الأكرمُ أولى النّاس بعزائم الأمور، ومنها الصَّبرُ

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، الواو هنا عاطفةٌ، فالله تعالى، أمرَ نبيَّه ﷺ أمرًا صريحًا بما ندَب إليه غيرَه تعريضًا من الصَّبر؛ لأنَّه أولى النّاس بعزائم الأمور؛ لزيادة علمه بشؤونه سبحانه ووفورِ وثوقِه به.

دلالةُ الأمرِ في فعل الأمر ﴿وَٱصْبِرْ﴾:

على قدْرِ المقام يكونُ الصَّبرُ

الأمر هنا مفيدٌ للثَّبات والدَّوام والازدياد، كالأمر في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ ملتزمٌ بذلك متَّصفٌ به.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

الصَّبرُ عطاءٌ مِنَ الله وخصوصيَّةٌ

الواو إمّا أن تكون حاليَّةً، والمعنى: اصبر والحالُ أنَّ صبرك لا يحصل إلّا بتوفيق الله، أو تكون الواو اعتراضيَّةً، والجملة بعدها معترضةٌ بين المتعاطفات[2].

بلاغةُ القصْرِ في قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

العونُ على الصّبرِ إنَّما يكون مِنَ الله سبحانه دون سواه

وقع القصرُ هنا بالاستثناء بعد النَّفي، وهو استثناءٌ مفرَّغ من أعمِّ الأشياء، أي: وما صبرُك ملابسًا بشيءٍ مِنَ الأشياء إلّا بذكر الله تعالى[3]، وهو من قصر الموصوف على الصِّفة، حيث قصر الصَّبرَ على صفة كونِه من عند الله، وهو قصرٌ إضافيٌّ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 491.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 386، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 14/ 337.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 152.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِۚ﴾:

الباء قد تكون للسَّببيَّة على معنى: بسبب ذكرِ اللّه، فضلًا عن أنَّ الملابسة والملاصقة لا تنفكُّ عنها أبدًا.

كلُّ عملِ المؤمن بعون اللّه ومعيَّته

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾:

الواو عاطفة، عطفتِ النَّهيَ عنِ الحزن على الأمر بالصَّبر، وهو من عطف الإنشاء على الإنشاء.

عطفُ الإنشاء على الإنشاء، من فصيح البيانِ

غرضُ النّهي عنِ الحزن على الكافرين:

المُراد من نهيه ﷺ عن الحزن عليهم هو الوجوبُ - كما يبدو - وذلك لوجود نصوصٍ كثيرةٍ في القرآن الكريم كانت تنهاه ﷺ عنِ التَّأثُّر عليهم، والحزنِ لأمرهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: 26]، وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6].

حرصُ النَّبيِّ الأكرمِ على هداية قومه، كان يوقعُه في الحزن أحيانًا

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾:

الواو عاطفةٌ، عطفتِ النَّهيَ عنِ الضَّيق عليهم على الأمر بالصَّبر والنَّهي عنِ الحزن، وهو من عطف الإنشاء على الإنشاء.

الحزنُ يكبحُ الطُّموحَ

غرضُ النَّهي عنِ الضَّيق عليهم:

المُرادُ من نهيه ﷺ عنِ الضيق عليهم هو الوجوب - كما يبدو - وذلك لوجود نصوص كثيرة في القرآن الكريم كانت تنهاه ﷺ عنِ التَّأثُّر عليهم، والحزنِ لأمرهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠﴾ [النمل: 70]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: 12].

من شأن الحزنِ على هدايتهم أن يوقع في الضّيق

دلالةُ الموقعِ النَّحويِّ لقوله: ﴿تَكُ﴾:

قوله: ﴿تَكُ﴾: فعلٌ مضارع مجزوم، وعلامة جزمِه السُّكونُ المقدَّر على النّون المحذوفة للتَّخفيف(1).

التَّخفيفُ في اللَّفظ يأتي أحيانًا بناءً على التَّخفيفِ في المعنى

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 386.

يقول فاضلُ السّامرائيّ: "الأصل أنَّ الحكم النّحوي هو جوازُ الحذف؛ إذا كان الفعل مجزومًا بالسّكون، ولم يلِهِ ساكن أو ضمير متصل، فتحذف النّون تخفيفًا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ بمعنى: احذف الضّيق من نفسك، ولا تبق شيئًا منه أبدًا، أي: إنَّ المطلوب ليس فقط عدمَ الحزن، لكن مسح ونفي أيِّ شيءٍ منَ الحزن يمكن أن يكون في قلب الرّسول ﷺ فحُذِفت النّون من الفعل"[1].

سرُّ حذفِ اسم ﴿وَلَا تَكُ﴾:

اسم كان هنا محذوف، وتقديره: أنت، وحُذف تخفيفًا وإيجازًا، وربَّما كان سببُ الحذف التَّرفُّقَ والتَّلطُّفَ فيه ﷺ.

التّلطُّف بالرّسول الأكرم مظهرٌ لتكريمه

نكتةُ التَّعبير في قوله: ﴿فِي ضَيۡقٖ﴾:

حيث شبَّه إحاطةَ الضّيق به ﷺ بإحاطة الظَّرف بالمظروف، بجامع الشُّمول والاستيعاب.

مهما كان الضّيقُ، فالله يَحمي رسولَه ويَقيه

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿فِي ضَيۡقٖ﴾:

الضّيقُ مُستَعْمَلٌ مَجازًا في الغَمِّ والأسَفِ، كَما اسْتُعْمِلَ ضِدُّهُ، وهو الانْشِراحُ في الفَرَحِ والمَسَرَّةِ[2]، فشبَّه الغمَّ والأسف عليهم بالضّيق بجامع انقباض الصّدر على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ.

الغمُّ والأسفُ مَدْعاةٌ للضّيقِ

دلالةُ (مِنْ) في قوله: ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾:

(من) قد تكون هنا ابتدائيَّةً، وهو المعنى الذي لا يكاد يفارقها، وقد تكون بيانيَّة، على اعتبار أنَّ النّهي يشمل الضّيق وغيره، وإنَّما ذُكر الضّيقُ للتَّمثيل، وقد تكون تعليليَّة سببيَّةً، أي: بسبب ما يمكرونَه بك.

تنوُّعُ دلالةِ حرف المعنى، يؤكِّدُ دقَّةَ اختياره

معنى (ما) في قوله: ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾:

(ما) قد تكون موصولةً، وقوله: ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ صلتُها، وغرضُ

بيانُ تنوُّعِ مكرِهم، باستعمال الموصولِ الدّالِّ على التَّعميم

(1) السامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 648.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 17.

التَّعبير بالاسم الموصول التَّعميمُ، ليشمل صنوف مكرهم، وقد تكون مصدريَّةً، أي: من مكرهم.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿يَمْكُرُونَ﴾:

بيانُ قُبحِ المكرِ، وتَماديهم فيه

تقدَّم أنّ المكرَ صرفُ الآخر عمّا يقصده بحيلة، وهو هنا ملائمٌ لتدابيرهم، وتربُّصِهم بالمسلمين، وأمّا صيغةُ المضارعيَّة فتدلُّ على استحضار صورة مكرِهم القبيحة من ناحية، وتجدُّدِ هذا المكر وعدمِ انقطاعه من ناحية أخرى.

نكتةُ حذفِ مفعولِ المكر:

كلُّ مكرٍ بدرَ منهم، فهو مشمولٌ في السّياق

تقديرُ الكلام هنا: ولا تكن في ضيقٍ ممّا يمكرونه، فحُذف المفعولُ، ليعمَّ كلَّ مكرٍ مَكَروه، ولينشغلوا بالمكر نفسِه عن غيره.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾:

الجملةُ التَّعليليَّةُ لا تُعطفُ على سابقتها

فُصلت هذه الآية عن سابقتها، ولم تُعطف عليها؛ لأنَّها جاءت في موضع تعليل لما سبقَ من الأمرِ والنَّهي[1]، فتكون من باب الاستئناف البيانيِّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر: لِمَ كانت هذه الأوامر والنّواهي؟

وقد تكون ﴿إِنَّ﴾ هنا ليست للتأكيد، وتكون قائمةً مقام فاء التَّفريع، حيث قال فيها الشّيخ عبد القاهر الجرجانيّ: واعلم أنَّ مِنْ شأنِ (إنَّ) إذا جاءتْ على هذا الوجه، أن تُغْني غَناء الفاءِ العاطِفةِ مثلًا، وأنْ تُفيدَ من رَبْط الجملةِ بما قبلَها أمرًا عجيبًا، فأنتَ ترى الكلامَ بها مستأنفًا غيرَ مستأنف، ومقطوعًا موصولًا معًا[2].

فائدةُ توالي المؤكِّدات في صدر الآية:

تتزاحمُ المؤكِّداتُ أحيانًا، كي تزيلَ عن النّفس حزنَها وضيقَها

حظيت هذه الآية ببعض المؤكِّدات وهي: إنَّ، والجملةُ الاسميَّة، فضلًا عن دلالة المعيَّة، والَّذي حسَّن دخولَ هذه المؤكِّدات أنَّ الآية السّابقة أمرتهم بالصَّبر، ونهتهم عنِ الحزن والضّيق، وهي قضايا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 153.

(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 273.

نفسيَّةٌ وتحتاج إلى ما يعزِّزها، ويثبتها في نفوس المؤمنين، فجاءت هذه المؤكِّدات كي تزيلَ من النُّفوس كلَّ دواعي الخوف والحزن.

دلالةُ دخول ﴿مَعَ﴾ في السّياق:

معيَّةُ الله نصرٌ وتأييدٌ، وذلك محتوى وعدِهِ الصّادقِ الأكيدِ

معيَّة اللّه مجازٌ عن تأييده ونصره، والمرادُ بالمعيَّة هنا الولايةُ الدّائمةُ التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيءٍ من الجزَع والحزنِ وضيق الصدر، وما يُشعر به دخولُ كلمة ﴿مَعَ﴾ من متبوعيَّة المتَّقين، إنَّما هي من حيث إنَّهم المباشرون للتَّقوى، وكذا الحالُ في قولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: 153] ونظائرِهما كافَّة[1].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

التَّقوى ملمحُ التَّعظيم، ومفتاحُ الولوجِ على العظيمِ

التَّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلتِه يفيد التَّعظيمَ والتَّفخيم للمتَّقين، فالاسمُ الموصولُ يفيد الإبهامَ أوَّلًا، ثمَّ التَّعريفَ بعد ذلك من خلال صلته، وقد جاءت جملةُ صلة الموصول هنا جملةً ماضويَّةً، تفيد وقوعَ التَّقوى في الزَّمن الماضي؛ لأنَّها يجب أن تستقرَّ أوَّلًا في النُّفوس، حتّى يُبنى عليها ما بعدها.

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾:

تقديمُ السَّبب على المسبَّب، من بليغ البيانِ

عطفتِ الآية الإحسانَ على التَّقوى؛ لأنَّ الصَّبر والتَّقوى من لوازم الإحسان، فهو من تقديم السَّبب على المسبَّب، يقول أبو السّعود: وتقديمُ التَّقوى على الإحسان، لما أنَّ التَّخلية متقدِّمةٌ على التَّحلية[2].

بلاغةُ القصْرِ بضمير الفصل ﴿هُم﴾:

المستحِقّون معيَّةَ الله هُمُ المحسنون حقَّ الإحسان

توسُّط ضمير الفصل ﴿هُم﴾ بين المسنَد إليه والمسنَد، بما يفيد قصْرَ الإحسان عليهم دون غيرهم، وهو قصرٌ إضافيٌّ.

نكتةُ تَكرار الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تكريرُ الاسم الموصولِ للإيذان بكفاية كلٍّ من الصِّلتين في ولايته

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 153.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 153.

سبحانه، من غير أن تكون إحداهما تتمَّةً للأخرى[1]، فتكرار الاسم الموصول دلَّ على استقلاليَّة كلٍّ منهما على حدة، وأنَّه لا بدَّ لوقوع معيَّةِ اللّهِ من تحقُّق أحدِهما أو كِلَيْهما.

التَّكرارُ يفيدُ استقلاليَّةَ الصِّفتين عن بعضهما، لأهميَّة كلٍّ منهما على حدة

نكتةُ العدولِ في السّياق:

قوله تعالى: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾، فيه إيرادُ الجملة الأولى فعليَّةً ﴿ٱتَّقَواْ﴾ للدّلالة على الحدوث، كما أنّ إيرادَ الثّانيةِ اسميَّةً لإفادة كونِ مضمونِها شيمةً راسخةً لهم[2]، فتحقَّقَ من الجمع بينهما ضرورةُ تجدُّد التَّقوى فيهم، ليتحقّق وصفُهم بالإحسان.

بيانُ رسوخِ صفةِ الإحسان، مقابلَ تجدُّدِ التَّقوى

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مُّحۡسِنُونَ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ باسم الفاعل الجمعيِّ هنا على تمكُّن الإحسان فيهم وتكراره؛ حتّى بات اسمًا لهم يُعرفون به.

مَنِ اتَّصفَ بالإحسان عُرِفَ به

المراتبُ الأربعُ الّتي حوتها الآيات السّابقة:

بيَّن الإمام الرّازي أنَّ الآياتِ الثَّلاثَ السّابقةَ حوت أربعَ مراتبَ:

المَرْتَبَةُ الأولَى: قَوْلُهُ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ يَعْني: إنْ رَغِبْتُم في استيفاءِ القِصاص؛ فاقْنَعوا بالمِثْلِ، ولا تَزيدوا عَلَيْه، فإنَّ استيفاءَ الزّيادَةِ ظُلْمٌ، والظُّلْمُ مَمنوعٌ مِنْهُ في عَدْلِ اللّه ورَحْمَتِه، وفي قَوْلِه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأَوْلَى لَهُ ألّا يَفْعَلَ.

الأمرُ بالمَعْروفِ والنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ يَجِبُ أنْ يَكون بالرِّفْقِ مَرْتَبَةً فمَرْتَبَةً

والمَرْتَبَةُ الثّانيةُ: الانْتِقالُ مِنَ التَّعْريضِ إلَى التَّصْريحِ، وهو قَوْلُهُ: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، وهَذا تَصْريحٌ بأنَّ الأَوْلَى تَرْكُ ذَلِكَ الانْتِقام؛ لِأنَّ الرَّحْمَةَ أفْضَلُ مِنَ القَسْوَة، والإنْفاعَ أفْضَلُ مِنَ الإيلام.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 153.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 153.

المَرْتَبَةُ الثّالِثَةُ: وهو وُرودُ الأمرِ بِالجَزْمِ بِالتَّرْكِ، وهو قَوْلُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾؛ لِأنَّهُ في المَرْتَبَةِ الثّانيَةِ ذكرَ أنَّ التَّرْكَ خَيْرٌ وأوْلَى، وفي هَذِه المَرْتَبَةِ الثّالِثَةِ صَرَّحَ بالأمرِ بِالصَّبْرِ، ولَمّا كانَ الصَّبْرُ في هَذا المَقامِ شاقًّا شَديدًا ذكرَ بَعْدَهُ ما يُفيدُ سُهولَتَهُ، فقالَ: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، أيْ: بِتَوْفيقِه ومَعونَتِه، وهَذا هو السَّبَبُ الكُلّيُّ الأصْليُّ المُفيدُ في حُصولِ الصَّبْرِ، وفي حُصولِ جَميعِ أنْواعِ الطّاعاتِ، ولَمّا ذكرَ هَذا السَّبَبَ الكُلّيَّ الأصْليَّ؛ ذكرَ بَعْدَهُ ما هو السَّبَبُ الجُزْئيُّ القَريبُ، فقالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ وذَلِكَ لأنَّ إقْدامَ الإنْسانِ على الانْتِقامِ، وعلى إنْزالِ الضَّرَرِ بالآخرِ لا يَكونُ إلّا عِنْدَ هَيَجانِ الغَضَبِ.

المَرْتَبَةُ الرّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، وهَذا يَجْري مَجْرَى التَّهْديدِ؛ لِأنَّه في المَرْتَبَةِ الأولَى رَغَّبَ في تَرْكِ الانْتِقامِ على سَبيلِ الرَّمزِ، وفي المَرْتَبَةِ الثّانيَةِ عَدَلَ عَنِ الرَّمزِ إلَى التَّصْريحِ، وهو قَوْلُهُ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، وفي المَرْتَبَةِ الثّالِثَةِ أمَرَنا بِالصَّبْرِ على سَبيلِ الجَزْمِ، وفي هَذِه المَرْتَبَةِ الرّابِعَةِ كَأنَّهُ ذكرَ الوعيدَ في فِعْلِ الانْتِقامِ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ عَنِ اسْتيفاءِ الزّيادَةِ: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في تَرْكِ أصْلِ الانْتِقامِ، فإنْ أرَدْتَ أنْ أكونَ مَعَكَ؛ فكُنْ مِنَ المُتَّقينَ ومِنَ المُحْسِنينَ، ومَنْ وقَفَ على هَذا التَّرْتيبِ؛ عَرَفَ أنَّ الأمرَ بالمَعْروفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ يَجِبُ أنْ يَكونَ على سَبيلِ الرِّفْقِ واللُّطْفِ مَرْتَبَةً فمَرْتَبَةً[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المكر والكيد:

الكيدُ أقوَى منَ المكْر، وكلاهما مُستعمَلٌ في القرآن الكريم

يقول أبو هلال العسكريُّ: "المكر مثلُ الكيدِ في أنَّه لا يكون إلا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 289 - 290.

مع تدبُّر وفكرٍ، إلّا أنَّ الكيد أقوى من المكر، والشّاهد أنَّه يتعدّى بنفسه، والمكر يتعدّى بحرف، فيقال: كاده يكيده، ومكر به، ولا يقال: مكره والذي يتعدّى بنفسه أقوى، والمكر أيضًا تقدير ضرر الآخر من أن يُفعل به، ألا ترى أنَّه لو قال له: أقدرُ أن أفعل بك كذا، لم يكن ذلك مكرًا، وإنَّما يكون مكرًا؛ إذا لم يُعلِمه به، والكيد اسم لإيقاع المكروه بالآخر قهرًا سواءٌ علم أم لا، والشّاهد قولك: فلان يكايدني، فسُمّي فعله كيدًا، وإن علم به، وأصل الكيد المشقَّةُ، ومنه يقال: فلان يكيد لنفسه، أي: يقاسي المشقَّة، ومنه الكيد لإيقاع ما فيه من المشقَّة، ويجوز أن يقال: الكيد ما يقرِّب وقوع المقصود به من المكروه على ما ذكرناه، والمكر ما يجتمع به المكروه من قولك: جارية ممكورة الخلق، أي: ملتفَّة مجتمعة اللَّحم غيرُ رهلة"[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 508.

الجُزْءُ الخَامِسَ عَشَرَ

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

السّورة بين المكّيّ والمدنيّ:

الأصحّ أنّ سورة الإسـراء مكيّةُ النّزول

سورة الإسراء مكّيّة نزلت قبل الهجرة النّبويّة، وقد اختلف المفسِّرون بينَ مَن جعَلَ السّورةَ مكّيّة كاملةً دون استثناء، وبين مَن عدَّ آياتٍ مستثناة منها، فعند تتبّع كتبِ التّفسير نجد اختلافَ النّقل عنهم في ذِكْر استثناء آيات مدنيّة منها، حيثُ اختُلف في تعيين عدد الآيات المُستثناة منها[1].

ترتيبُها المُصحفيّ والنّزوليّ، وعددُ آياتِها في المصحف:

سورة الإسراء هي السّورة السابعةَ عَشْرةَ في ترتيب المصحف الشّريف، بعد سورة النّحل وقبلَ سورة الكهف، وترتيبُها النّزوليّ: التّاسعة والأربعون[2]، بعد سورة القصص وقبلَ سورة يونس.

وعدد آياتها مئة وإحدى عشرة آية عند الكوفيّين، ومئةٌ وعشر آيات عند الجمهور[3]، وذلك بحسب اختلافهم في عدّ رؤوس الآي.

وقد ورد في فضلها بعضُ الأحاديث، ففي صحيح البخاريّ: عن عبد اللّه بن مسعود ﵁ أنّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: "إنّهنّ مِنَ العِتاق الأوَل، وهُنّ مِن تِلادي"[4]، وعن عائشة ﵂ قالت: "كان النّبيّ ﷺ لا ينام حتّى يقرأ الزّمر وبني إسرائيل"[5]، وهذا الحرص والاهتمام له دلالتُه في شأن هذه السّورة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 6، ودروزة، التّفسير الحديث: 3/ 351، وفضل عبّاس، إتقان البرهان: 1/ 311، 386.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 43، ودروزة، التّفسير الحديث: 3/ 354.

(3) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 177.

(4) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4708)، العِتاق: جمع عتيق، وهو القديم، وكذلك التّالد بمعنى القديم، والمراد: أنهنّ نزلن في أوّل ما نزل من القرآن، وهو (أي: ابن مسعود) صغير، ينظر: مكّي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 4/ 352.

(5) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3405).

ظروفُ التّوقيت الزّمنيّ لنزول السّورة:

ظروفُ نزول السّورة حافلةٌ بالأحداث والتّحدّيات للمسلمين في مكّة

الفترة الزّمنيّة التي نزلت فيها سورةُ الإسراء هي فترة حافلة بأحداث جِسام عاشها المسلمون في مكّة المُكرّمة؛ إذ نزلت بعد فترة طويلة مِن حياة المسلمين فيها، وبعد كَبَدِ معاناةٍ واضطهاد، وبعد أن تقلّبت عليهم فيها أحوالٌ مِنَ التّكذيب والتّشكيك، ونزلت على النّبيّ ﷺ بعد وفاة زوجته خديجةَ ، وبعد وفاة عمّه أبي طالب؛ ففَقَد في أثناء ذلك كلّه السّندَ العاطفيّ والعقليّ بفقد زوجته خديجة ، وفَقَد فيها السّندَ الاجتماعيَّ والسّياسيّ بوفاة عمِّه أبي طالب، فأكرمه اللّهُ تعالى بعد ما لقيَه مِنَ القريب والبعيد بهذه الرّحلةِ المُعجزة.

وقدِ اختلفوا في وقت حصول حادثة الإسراء والمعراج: أكانت في السّنة العاشرة للبعثة، أم قبل الهجرة بسنة؟ وعلى كلّ حالٍ، فقد نزلتِ السّورةُ - كما يبدو - بعدَ هذه الحادثة؛ لِتُسَجِّلَها قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، فجاءتِ السّورةُ تحمل في طيّاتها ما تُثَبِّتُ به فؤادَ النّبيّ ﷺ، وترفعُ مِن معنويّاته، فجاءت لتعالجَ مواقفَ المشركين من قضايا العقيدة الرّئيسة، في جوّ مشحون يمثّل ذروةَ الصّراع بينَ الحَقّ والباطل، وفي مرحلة ساخنة مِن مراحل الدّعوة في مكّة[1].

أسماء السُّورة ووجه تسميتها:

أوّلًا: سورة الإسراء:

وقد سُمّيت في كثير مِنَ المصاحف بسورة الإسراء؛ لكون هذه المُعجزة المَذكورة - معجزة الإسراء - مَصَبّ الحديثِ في أوّلها، وبها عُرِفت؛ إذ قد ذُكِر في أوّلها الإسراءُ بالنّبيّ ﷺ، واختُصّتِ بالتّصريح به دونَ غيرها، فقد ألمَحَتْ سورةُ النّجم إلى بعض تفاصيل رحلةِ المعراج دونَ أن تُصَرّح بالحديث عنِ الإسراء[2].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 274.
(2) سورة النّجم: الآيات: 5 - 18.

معجزة الإسراء فيها تسرية عن الــرّســول ﷺ وتثبيتٌ لقلبه

من خلال تأمّل العلاقةِ بين أسماء السّورة ومحورِها العامّ، القائم على قوّة المواجهةِ والتّثبيتِ مِن خلال الاعتصام بالقرآن الكريم وهَدْيه؛ نجدُ ارتباطاتٍ وثيقةً، ووشائجَ لصيقةً بينَ كلّ اسم مِن أسماء السّورة ومحورِها العامّ، فتسميتُها سورةَ الإسراء؛ للأهمّيَّة الكبرى لرحلة الإسراء في حياة النّبي ﷺ، حيثُ مَثَّلتْ جانبًا مهمًّا في دعوته ﷺ، فقد كانت محطّةً تثبيتيّةً له، تزوّد منها بالطّاقة التي تُعينُه على المواجهة بعدَها، ففيها مِنَ التّسريَة والتّسليَة لقلبه الشّريفِ ﷺ ما يُعطيه القُدرةَ بعدَها على تَحَمُّل أعباءِ الدّعوة، فضلًا عن كون الرّحلة ذاتِها قد مثّلت مُنحنًى جديدًا في التّحدّي والمواجهة.

ثانيًا: سورة بني إسرائيل:

وسُمّيت سورةُ الإسراء في عهد الصّحابة سورةَ بني إسرائيل، كما ورد في الحديث عنِ السّيّدة عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: "كان النّبيُّ ﷺ لا ينامُ حتّى يقرأ الزُّمرَ، وبني إسرائيل"[1].

ووجهُ تسميتِها بسورة بني إسرائيل؛ ما ورد مِنَ الحديث عنهم في بَدء هذه السّورة الكريمة وختامها.

وقد أثار هذا الأمرُ سؤالًا عن سرِّ اختصاصها بذلك مع أنّ الحديث عن بني إسرائيل قد كان مستفيضًا في غيرها، كسورتي البقرة والأعراف وغيرهما، ولم تُسمّ تلك السّورُ باسمهم، والذي يظهر: أنّ حديث تلك السّورِ كان مرتبطًا بتاريخ بني إسرائيل مع أنبيائهم، وذِكْر مواقفِهم وصفاتِهم، في حين اختُّصت هذه السّورةُ بالحديث عن مَرَّتي إفسادِهم في الأرض.

ثالثًا: سورة سبحان:

وأمّا تسميتُها بسورة سبحان؛ فلِكونها استُهلّتْ بهذا اللّفظ -

(1) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3405).

لفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ - وافتُتِحَتْ به، وهو لفظٌ يُراد به التّنزيهُ والتّشريفُ والتّقديس للّه ﷻ[1].

محور السّورة العامُّ:

محورُ سورة الإسراء يبدو من خلال قوّة المواجهة والتّثبيت بالاعتصام بالقرآن، فكلُّ آياتِ السّورة بموضوعاتِها وأساليبِها جاءت متنوّعةً في عرض قوّة المواجهة والتّثبيت، من حيث الحجّة ودفع المطاعن، وكشف مكر أهل الباطل، وفي حكمة إنزال القرآن مُفرَّقًا على النّبيّ ﷺ[2].

محور السّورة يكمن في قُوّة المواجهة والتّثبيت بالاعتصام بالقرآن

قال ابن عاشور: "العمادُ الّذي أُقيمت عليهِ أغراضُ هذهِ السّورة إثباتُ نُبوّة مُحمّد ﷺ، وإثباتُ أنّ القُرآن وحيٌ مِنَ اللّهِ، وإثباتُ فضلِهِ وفضلِ مَن أُنزِل عليهِ، وذِكرُ أنّهُ مُعجِز، وردُّ مطاعِنِ المُشرِكين فيهِ وفيمن جاء بِهِ، وأنّهُم لم يفقهوهُ فلِذلك أعرضوا عنهُ، وإبطالُ إحالتِهِم أن يكون النّبيّ ﷺ أُسريَ بِهِ إلى المسجِدِ الأقصى.

فافتُتِحت بِمُعجِزةِ الإسراءِ توطِئةً لِلتّنظيرِ بين شريعةِ الإسلام وشريعةِ موسى صلى اله عليه وسلم على عادةِ القُرآنِ في ذِكرِ المُثُلِ والنّظائِرِ الدّينيّة، ورمزًا إلهيًّا إلى أنّ اللّه أعطى مُحمّدًا ﷺ مِنَ الفضائِلِ أفضلَ مِمّا أعطى مَن قبلَهُ"[3].

۞ موضوعات السورة:

الأوّلُ: الآيةُ الكريمة الأولى تحدّثت عن معجزة الإسراء مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، للرّدّ على تكذيب المشركين للنّبيّ ﷺ فيما وقع له مِن معجزته الخارقة للعادة، وتلك القِصّة تُنبئُ عن مواجهتين في مكانين عظيمين، يتبعهما النّصرُ والتّثبيت فيهما، فكانت قوّةُ المواجهة جليّةً في تثبيت النّبيّ ﷺ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 6.
(2) طهماز، المواجهة والتّثبيت في سورة الإسراء، ص: 5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 7.

الثّاني: الآيتان الكريمتان (2 – 3) تحدّثتا عن كتاب موسى، وأنّه كان هداية لبني إسرائيل لتثبيتهم، بشرط أن لا يتّخذوا من دون اللّه وكيلًا في اعتصامهم بالكتاب المُنزّل عليهم، وفي ذلك دلالةٌ على أنّ التّثبيت لا يحصل إلّا بالاعتصام بأوامر اللّه تعالى.

الثّالثُ: الآيات الكريمة من (4 – 8) فصّلت أحداثَ المواجهتين مع بني إسرائيل، فكانت القوّةُ في المواجهة الأولى بإرسال عباد أولي بأس شديد عليهم، وكانتِ القوّة في المواجهة الثّانية بمَساءة وجوههم وتتبير ما عَلَوْا، وبدخول المسجد عليهم، وكِلا المواجهتين تخلّلتهما القوّةُ والتّثبيتُ المُستمدّتان مِنَ العبودية للّه، اعتصامًا بأوامر اللّه في القرآن الكريم.

الرّابعُ: الآيات الكريمة مِن (9 – 15) انتقلت للتّحدّث عن سبيل التّثبيت والقوّة في المواجهة، وهي طريق الاعتصام بالقرآن، فالقرآنُ يهدي إلى الطّريق الأقوم ويبشّرُ بمصير المؤمنين تثبيتًا، ويبيّنُ خسارةَ غيرِ المؤمنين مَحْوًا وزوالًا، ثمّ انتقلت للتّحدّث عن حالة مواجهةٍ بينَ الإنسان الذي يدعو بالشّرّ وبينَ مَن يدعو بالخير، وحالةِ مواجهةٍ بين مَنِ اهتدى ومَن ضَلّ يوم القيامة، كلُّ تلك المواجهاتِ تُسْفِر عن مَحْوٍ وثباتٍ بين شيئين.

الخامِسُ: الآيات الكريمة مِن (16 – 22) بيّنت سنّةَ اللّه في إهلاك القرى والقرون؛ لعدم اعتصامهم بأوامر اللّه، ثمّ بيّنت حالةَ مواجهةٍ بين صنفين من النّاس: أحدهما: أراد العاجلة فلم يثبت، والآخر: أراد الآخرة فثبت، وكلاهما كان مرزوقًا في الدُّنيا ممدودًا بعطاء اللّه، لكنّ العبرة في الثّبات بالختام، فكان أصلُ التّثبيت بتوحيد اللّهِ وعدمِ اتّخاذ إلهٍ غيره.

السّادِسُ: الآيات الكريمة مِن (23 – 41) ذكرت مقوِّماتِ القوّة في المواجهة والتّثبيت، وذلك بالاعتصام بأوامر اللّه تعالى والابتعاد عن نواهيه، والالتزام بتوجيهاته في مجالات شتّى، مِن أخلاق ومعاملات وتشريعات، فمِن وجوب بِرّ الوالِدَين إلى صِلَة الأرحام، إلى التّوسّط في الإنفاق، وتحريمِ قتل الأولاد والنّفس البريئة، وتحريمِ الزّنا وأكلِ أموال النّاس بالباطل، والنّهي عنِ اتّباع الظّنّ، والتّحذير من التّكبّر والشّرك.

السّابعُ: الآياتُ الكريمة من (42 – 44) بيّنت دليلَ وحدانيّة اللّه بالحُجّة العقليّة ردًّا على المشركين، وفي ذلك تعليمُ النّبيّ ﷺ قوّةَ المواجهةِ العقليّة، وتثبيته للرّدّ على المشركين.

الثّامنُ: الآيات الكريمة من (45 - 48) وضّحت حالَ المشركين مع القرآن في عنادهم وسدّ منافذِ الهداية بأيديهم، فمَوانعُ تثبيتِ الهداية في قلوبهم: (الأكنّة، والوقر، والحجاب المستور، والنّجوى بينهم بالتّخذيل عنِ النّبيّ ﷺ واتّهامه بالسّحر)، كلّ أولئك لتعليم قوّةِ المواجهة مع الخصم وأنّه ضعيف؛ لتمسّكه بما وهن مِنَ الحُجَج، فالقويُّ مَنِ استعصم بالقرآن ففتح له المنافذَ القلبيّة والعقليّة والسّمعيّة.

التّاسعُ: الآيات الكريمة من (49 - 52) ذكرت إنكارَ المشركين للبعث والرّدَّ عليهم، وفي ذلك تعليمٌ للنّبي ﷺ قوّةَ المواجهةِ العقليّة في إثبات البعث والرّدِّ على إنكار المشركين له، وتثبيتٌ لقلب النّبيّ ﷺ على الحقّ المبين.

العاشرُ: الآيات الكريمة من (53 - 55) حضّت على القول الحسن في المخاطبة بينَ النّاس؛ لمواجهة وَسْوَسة الشّيطانِ في الإفساد واتّخاذه عدوًّا، وإزالة حزنه ﷺ عند المواجهة من عدم هداية المشركين، فوُجّهَ إليه - تسليَةً له - أنّ أَمْرَ الهدايةِ مرتبطٌ بمشيئته سبحانه، إن شاء هداهم وإن شاء تركهم وشأنَهم، ثمّ قوّةُ المواجهةِ تعتني بشأن من شؤون النّبيّ ﷺ التي لها مزيدُ اختصاص به، ذلك أنّ المشركين لم يقبلوا دعوةَ النّبيّ بغرورهم؛ لأنّه لم يكن من عظماء أهلِ بلادِهم وقادتهم، فأخرسهم وبكّتهم اللّهُ بهذا الرّدّ بقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ [الإسراء: 55]، فهو العالمُ العليمُ حيثُ يجعل رسالتَه، وأعاد تذكيرَهم بأنّ اللّه أعلمُ منهم بالمُستَحِقّ للرّسالة، بحسب ما أعدّه اللّه فيه مِنَ الصّفات القابلة لذلك، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ [الإسراء: 55]، وهذا كلّه قوّة في المواجهة وتثبيتٌ لقلب النّبيّ ﷺ.

الحادي عَشَرَ: الآيات الكريمة من (56 - 60) تحدّثت عن قوّة المواجهة في الرّدّ على المشركين ودَحض عقائدهم الباطلة، حيثُ قَرّر لهم سبحانَه أنّ مَن يدعونهم آلهةً مِنَ الملائكة أو الجنّ أو الإنس إنْ هم إلّا خَلْقٌ من خَلْق اللّه، يحاولون أن يجدوا طريقَهم إلى اللّه، ويتسابقوا إلى رضاه، وهم يخافون عذابَه الذي يَحْذَرُه مَن يعلم حقيقتَه ويخشاه، ثمّ المَحْو والتّثبيت، فما مِن قرية إلّا ستفنى؛ إمّا أن يُهلكَها بموت، وإما أن يُهلكَها بعذاب مستأصِل إذا تركوا أمرَه، وكذّبوا رُسلَه، وأنّ عدمَ إرسال الآيات التي سألها المشركون إنّما هو من باب عدم تعجيل العذاب لهم، كما فعل بأشياعهم من قبلُ، ثمّ يُختَم المقطعُ بحضّ

النّبيّ ﷺ على المواجهة وتبليغ رسالته، فلا يتهيّبُ مِنَ المشركين أحدًا، فالله القويُّ العزيزُ سيمنعُه مِن كلّ مَن بغاه سوءًا وهلاكًا.

الثّاني عَشَرَ: الآيات الكريمة من (61 – 65) بيّنت قِصّة سجودِ الملائكة لآدمَ وامتناع إبليسَ، وبيّنت توعّدَه له وذُرّيته، وفيها تعليمٌ لقوّة المواجهة ببيانِ وسائلِ إبليسَ في مواجهة النّاس وإغوائهم، وتثبيتٌ لعباد الله، فلا سلطانَ لإبليسَ على مَن تَوكّل على الله وأخلص دينه لله سبحانه.

الثّالِثَ عَشَرَ: الآيات الكريمة من (66 – 70) تتحدّث عن نِعَم الله على عباده، وجحودِ المشركين لها، وتهديدِ اللهِ لهم في جانب البحر والبرّ، مِن أنْ يحل بهم عقابُه حينَها، فلا مُدافعَ عنهم، ولا مُنقذَ لهم عند مواجهة قوّةِ الله، فلا وكيل يحميهم مِن إهلاك الله لهم ولا ناصر ينصرُهم.

الرّابعَ عَشَرَ: الآيتان الكريمتان (71 – 72) تتحدّثان عن مقامات التّفضيل لابن آدمَ في الدُّنيا والآخرة، ففي الدُّنيا فضّل الله تعالى جنسَه على كثير ممّن خَلَق تفضيلًا، وفي الآخرة فضّل أصحابَ اليمين على غيرهم ممّن عَميَ عنِ الحَقّ، وفي ذلك دلالةٌ على المواجهة بين شيئين، والتّثبيت في التّفضيل، ففي الدُّنيا باستخلاف الأرض، وفي الآخرة بتكريم المؤمن فيها.

الخامِسَ عَشَرَ: الآيات الكريمة من (73 – 77) تتحدّث عن مواجهة النّبيّ ﷺ لمحاولات فتنته مِنَ المشركين، وتثبيتِ اللهِ تعالى له على الحَقّ، وفي ذلك دلالةٌ على قوّة المواجهة، وتثبيتٌ له من خلال تحذيره وتذكيره بنِعَم الله عليه.

السّادِسَ عَشَرَ: الآيات الكريمة من (78 – 87) تتحدّث عن توجيهات ومقوّماتِ المواجهة والتّثبيتِ للنّبيّ ﷺ، وذلك باستمدادها مِنَ القرآن والاعتصام به.

السّابِعَ عَشَرَ: الآيتان الكريمتان (88 – 89) ذكَرَتا نتيجةَ تحدّي القرآن ومواجهته للمشركين في الإتيان بمثله، فلا يملك الإنسُ ولا الجنُّ أن يأتوا بمثله، ولو تظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة، فالمقطع يدلّ على المواجهة بالقرآن، والتّثبيتِ به، لعدم القُدرة على الإتيان بمثله، فهو كلام ربّ العالمين.

الثّامِنَ عَشَرَ: الآيتان الكريمتان من (90 – 100) تحدّثتا عن مواجهة النّبيّ ﷺ لعناد

المشركين وتعنّتهم في مقابلتهم الحَقّ، وتعليمِه ﷺ قوّةَ المواجهة في الرّدّ على شبهاتهم الزّائفة في بشريّة النّبيّ وفي البعث، وفي كلّ ذلك قوّةٌ في المواجهة وتثبيتٌ له ﷺ.

التّاسِعَ عَشَرَ: الآيات الكريمة من (101 - 104) تحدّثت عن أُنموذج قوّةٍ، من خلال المواجهة بين موسى عليه السلام وفرعون، أفرزت تثبيتًا لموسى عليه السلام ومحوًا لفرعونَ ومَن معه.

العِشرونَ: الآيات الكريمة من (105 - 109) تحدّثت عن تثبيت النّبيّ ﷺ بحِكْمة نزول القرآن مُفرّقًا، وخضوعِ الذين أوتوا العِلْمَ له، وهو يواجه كيدَ أهلِ الكفر ومَكْرَهم.

الحادي والعِشرون: الآيتان الكريمتان (110 - 111) خُتِمَتا بدعاء الله سبحانَه بأسمائه الحُسنى، والاعتناءِ بالصّلاة، والتّنويه بها، والأمرِ بحمد الله على وحدانيّته، وهذا هو الزّاد والمُقَوّم الرّئيسُ لقوّة المواجهة والتّثبيتِ، في وجه قوى المَكرِ والكيد، وبذلك خُتمت السّورة الكريمة بما بُدئت به.

المناسبات بينَ السُّورة وسابقتها ولاحقتها:

أوّلًا: المناسبة بين سورة النّحل والإسراء:

جاءت هذه السّورةُ في التّرتيب المُصحفيّ بعد سورة النّحل، وقد تلمّس وجهَ اتّصالِهما الإمامُ البقاعيّ بقوله: "لمّا كان مقصودُ النّحلِ التّنزّهَ عنِ الاستعجال وغيره من صفات النّقص، والاتّصافَ بالكمال المُنتجِ؛ لأنّه قادر على الأمور الهائلة، ومنها جعلُ السّاعة كلمح البصرِ أو أقرب، وختَمَها بعد تفضيل إبراهيمَ عليه السلام والأمرِ باتّباعه، بالإشارة إلى نصر أوليائه - مع ضعفهم في ذلك الزّمان وقِلّتهم - على أعدائه على كثرتهم وقوّتِهم، وكان ذلك مِن خوارق العادات، ونواقض المطّردات، وأَمَرَهم بالتّأنّي والإحسان؛ افتتحَ هذه بتحقيق ما أشار الختمُ إليه، بما خَرَقَه مِنَ العادة في الإسراء، وتنزيهِ نفسِه الشّريفةِ من تَوهُّم استبعادِ ذلك، تنبيهًا على أنّه قادرٌ على أن يفعل الأمورَ العظيمةَ الكثيرة الشّاقّة في أسرع وقت، دفعًا لما قد يَتَوَهَّمُ أو يَتَعَنَّتُ به مَن يسمع نهيَه عنِ الاستعجال، وأَمْرَه بالصّبر، وبيانًا لأنّه مع المُتّقي المُحْسِن، وتنويهًا بأمر محمّد صلّى اللّهُ عليه وعلى آله وسلّم، وإعلامًا بأنّه رأسُ المُحسنين وأعلاهم رتبةً وأعظمُهم منزلةً، بما آتاهُ مِنَ الخصائص التي منها المقامُ المحمودُ، وتمثيلًا لما أخبر به مِن أمر السّاعة"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 287، 288.

وللعلماء في المناسبة بين سورة الإسراء والسّورة السّابقة لها أوجه أخرى منها:

الأوّلُ: أنّه سبحانه ذَكر في سورة النّحل اختلافَ اليهودِ في السّبت، وهنا ذكر شريعةَ أهلِ السّبت التي شرعها لهم في التّوراة.

الثّاني: أنّه لمّا أمر نبيّه ﷺ بالصّبر ونهاه عن الحزن وضيقِ الصّدر مِن مكرهم في سورة النّحل؛ ذَكر هنا شرفَه وعُلوَّ منزلته عند ربّه[1].

الثّالِثُ: اختُصَّت سورةُ النّحل بذِكر نِعَمٍ عامّة حتّى سُمّيت لأجلها سورةَ النّعم، وذَكر هنا نِعَمًا خاصّة وعامّة.

الرّابِعُ: جاء ذِكر الشّفاء الحِسّيّ في سورة النّحل وهو العسل: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ [النّحل: 69]، وذَكر هنا الشّفاءَ المعنويَّ والحِسّيّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82].

الخامِسُ: أمر في سورة النّحل بإيتاء ذي القُربى حقّه، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل، وذلك بعد أن أمر ﷻ بالإحسان بالوالدين اللّذين هما منشأ القرابة[2]، فضلًا عن أنّ سورة الإسراء مكمّلة للوصايا والأوامر والنّواهي الّتي حُفّت بها سورة النّحل.

ثانيًا: المناسبة بين سورتي الإسراء والكهف:

وعنِ ارتباط نهايةِ سورة الإسراء بأوّل سورة الكهف، يقول أبو حيّان: "ومُناسبةُ أوّلِ هذِهِ السّورةِ لِآخِرِ ما قبلَها: أنّهُ لمّا قال: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105] وذكر المُؤمنين بِهِ أهلَ العِلْم، وأنّهُ يزيدُهُم خُشوعًا، وأنّهُ تعالى أمر بالحمدِ لهُ، وأنّهُ لم يتّخذ ولدًا، أمرهُ تعالى بِحمدِهِ على إنزالِ هذا الكِتابِ السّالم مِنَ العِوجِ، القيِّم على كُلِّ الكُتُبِ، المُنذِرِ مَنِ اتّخذ ولدًا، المُبشِّرِ المُؤمنين بالأجرِ الحَسنِ، ثُمّ استطرد إلى حديثِ كُفّارِ قُريش والتفت مِنَ الخِطابِ في قولِه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: 111] إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الكهف: 1]، لِما في ﴿عَبْدِهِ﴾ [الكهف: 1] مِنَ الإضافةِ المُقتضيةِ تشريفَه، ولم يَجِئِ التّركيبُ: (أنزل عليك)"[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 4.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 4، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 2.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 135.

وللعلماء في بيان المناسبة بين سورة الإسراء وسورة الكهف أوجهٌ أُخرى منها:

الأوّلُ: أنّ سورةَ الإسراء افتُتِحت بالتّسبيح، وسورةَ الكهف افتُتِحت بالتّحميد، وهما مقترنان في سائر الكلام نحو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: 3].

الثّاني: تشابُهُ ختامِ الإسراء وافتتاحِ الكهف؛ فإنّ في كلّ منهما حَمْدًا، نَعمْ فُرّق بينَهما بأنّ الحَمْدَ الأوّلَ ظاهرٌ في الحَمْد الذّاتيّ، والحمدَ المُفتَتَح به في الكهف يدلُّ على إنزال الكتاب.

الثّالِثُ: أنّه ذُكِر في الإسراء قولُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85] والخطاب فيها لليهود، وذُكِر في الكهف قصّةُ موسى نبيٍّ بني إسرائيل مع الخَضِر عليهما السلام، وهي تدلّ على كثرة معلومات الله التي لا تُحصى، فكانت كالدّليل على ما تقدّم.

الرّابِعُ: أنّه خصَّصَ في سورة الإسراء: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ [الإسراء: 104]، ثمّ عمَّم ذلك في الكهف بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ [الكهف: 98] إلى قوله: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠﴾ [الكهف: 100](1).

الخامِسُ: أنّ اليهود أَمَروا المشركين أن يسألوا النّبيَّ ﷺ عن ثلاثة أشياء: عنِ الرّوح، وعن قصّة أصحاب الكهف، وعن قصّة ذي القرنين، وقد ذُكِر جوابُ السّؤال الأوّل في آخر سورة الإسراء، وجوابُ السّؤالَين الآخَرين في الكهف، فناسبَ اتّصالُهما، ولم يجمع الأجوبةَ الثّلاثة في سورة؛ لأنّه لم يقع الجوابُ عن الأوّل بالبيان، فناسبَ أن يُذْكَر وحْدَه في سورة، واختيرت سورةُ الإسراء؛ لما بين الرّوح وبين الإسراء مِنَ المشاركة بأنَّ كلًّا منهما ممّا لا تكاد تصل إلى حقيقته العقولُ(2).

السّادِسُ: كلتا السّورتين اعتنيتا بتسليَة النّبيِّ ﷺ والتّسريَةِ عن قلبه، وكلتاهما نزلتا في أوقاتٍ اشتدّت فيها الحاجةُ إلى رفع معنويّاته ﷺ، وتوجيهِهِ في كيفيّة التّعامل مع خصوم هذا الدّين وأعدائه.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 113.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 199.

الخصائصُ الموضوعيّةُ والأسلوبيّةُ للسورة:

أوّلًا: الخصائص الموضوعيّة:

تميَّزت سورةُ الإسراء بمجموعة مِنَ الموضوعات التي انفردت أو غلبت فيها، ومِن ذلك:

أوّلًا: لم يأتِ ذِكْر رحلةِ الإسراء إلّا في هذه السّورة الكريمة.

ثانيًا: تميّزت سورةُ الإسراء بذِكْرِ ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، فلم تَرِد هذه التّسمية في أيّ سورة أُخرى، وفي ذلك إشارةٌ إلى نوعٍ مِنَ التّرابط المَصيريّ بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ويَدلّ ذلك على دور المَسجدَين في المواجهة والتّثبيت.

ثالثًا: تميّزتِ السّورةُ بحديثها عن إفسادَتَيْ بني إسرائيل.

رابعًا: تميّزت السّورةُ بذِكْر كثير مِن أحكام الشّريعة في مختلف نواحيها التّشريعيّة والعقائديّة والأخلاقيّة والقضائيّة، حيثُ فاضت هذه الأحكامُ عن بضع وعشرين حكمًا، كالقصاص، وبرِّ الوالدَين، وإيتاءِ ذوي القُربى واليتامى، وعدمِ التّبذير، وعدمِ البُخل، وعدمِ قتلِ الأولاد، والابتعادِ عنِ الزّنى، وعدمِ قتلِ النّفس، وعدمِ أكلِ أموال اليتامى، والوفاءِ بالعهود، والقسطِ في الكيل والميزان، والتّواضعِ، وعدمِ الخُيلاء، وفي ذلك دلالةٌ على الزّاد الذي تَحْصُل به قوّةُ المواجهة والتّثبيت.

خامسًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمةُ بذكر أساليبَ جديدةٍ في إغواء إبليس، لم تَرِد في سورة أُخرى كالاستفزاز، والتّسعير، والمشاركة في الرِّزق وغيرها[1].

سادسًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمة بذِكْر آيةِ التّحدّي الّتي تُخْبِر عن عجز الثّقلين عن الإتيان بمثل القرآن دونَ أن تطالبهم به، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: 88]، بخلاف السّورِ الأُخرى - البقرة، هود، يونس، الطّور - التي ذَكَرت مراحلَ التّحدّي، والتي جاء بها فعل الأمر ﴿فَأْتُوا۟﴾ [البقرة: 23]، وهذا للدّلالة على التّثبيت والتّأييد، والختام في أمر قوّة المواجهة، فكان له اعتِلاق بمحور السّورة.

(1) في الآيات: 62 - 64.

سابعًا: تميّزت سورةُ الإسراءِ بحديثها عن شخص النّبيّ ﷺ بوصف المواجهة والتّثبيت، وفي ذلك دلالةٌ على تعليمه ﷺ قوّةَ المواجهةِ والتّثبيت بالاعتصام بكتاب اللّه تعالى[1].

ثامنًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بذِكْر موانعِ الفهم، كالأكِنّة، والوَقر، وتولّي الأدبار، والحِجاب المَستور، والنّفور، والكُفور، ونزغ الشّيطان؛ لتزولَ موانعُ الاعتصام بالكتاب، وليَحْذَر المؤمنون منها، فتكون القوّة في المواجهة والتّثبيت.

ثانيًا: الخصائص الأسلوبيّة:

حفلت السّورة بالعديد مِنَ الأساليب والقضايا اللّغويّة التي اختصَّت بها دون غيرها مِنَ السّور، وإن شاركتْها بعضُ السّور في شيء من هذه الأساليب، منها:

أوّلًا: امتازتِ السّورةُ ببراعة المَطلعِ والاستهلال بلفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ بهذا البناء الصّرفيّ الفريدِ، وتفرّدتْ من بين سور المُسَبّحات - الحديد، الحشر، الصّف، الجُمُعة، التّغابن، الأعلى - بمَجيء التّسبيح مَصْدرًا؛ لتكونَ عَلَمًا للتّنزيه، فتَدلَّ على أبلغ ما يكون مِن معناه[2].

ثانيًا: تميّزتِ السّورةُ بذِكْر كلمةِ ﴿وَكِيلٗا﴾ خمسَ مَرّات[3] من أصل ثلاثَ عَشْرَةَ مَرّةً في القرآن[4]، وذلك للدّلالة على أنّ قوّة التّثبيت والمواجهةِ لا تكون إلّا بالاعتماد على اللّه، والافتقار إليه، والاتّكال عليه.

ثالثًا: تميّزتِ السّورة باقتران الاسمين الجليلَين ﴿خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء: 17، 30، 96] في فواصل الآيات، ثلاثَ مَرّات مِن بين خمس مَرّات في القرآن كلّه[5]، وفي ذلك دلالةٌ على العناية والرّعاية الكاملة لعباده أثناءَ المواجهة، والعناية المطلقة واللطف بنبيّه ﷺ، فأعطى هذا الاقترانُ بينَ الاسمين الجليلين قوّةً في المواجهة والتّثبيت لقلب النّبيّ ﷺ.

رابعًا: تميّزتِ السّورةُ بأنّها أكثرُ سورةٍ ورد فيها ذِكْر القرآن؛ إذ ذُكِرَ إحدى عَشْرَةَ مَرّةً في محاورَ عديدةٍ، وأُشيرَ إليه بالضّمائر في نحو هذا العدد وزيادة، وكلّ هذا للدّلالة على أنّ قوّة المواجهةِ والتّثبيت لا تحصل إلّا بالاعتصام بالقرآن وأوامره.

---

(1) في الآيات: 73 - 76.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 288.

(3) الآيات: [2، 54، 65، 68، 86].

(4) بقيّة المواضع: [النّساء: 81، 109، 132، 171]، [الفرقان: 43]، [الأحزاب: 3، 48]، [المزمل: 9].

(5) الآيات: [الإسراء: 17، 30، 96]، [فاطر: 31]، [الشورى: 27].

خامسًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بذِكْر التّسبيح فيها خمسَ مَرّاتٍ[1]، وبصيغ مختلفة، وفي ذلك دلالةٌ على زاد التّثبيت ومُقوّماته في مواجهة الخَصْم، فالثّبات بحاجة إلى قوّة في الذّكر وقوّة في الفِكْر؛ لذا نجد السّورةَ اعتنت بالقوّة الإيمانيّة والعَقَديّة على حَدٍّ سواء.

سادسًا: تميّزتِ السّورةُ بذِكْر مَجيء الوعدِ سبعَ مرّات في خمس آيات [الإسراء: 5، 7، 64، 104، 108]، وفي ذلك دلالةٌ على تحقّق النّصر والتّأييد عند المواجهة، فكان ذلك قوّةً في المواجهة وتثبيتًا للمؤمنين بنهاية الخصم.

سابعًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بتكرار صيغة اسم المفعول مقترنًا بالفعل النّاقص (كان) في كثير من آياتها، ﴿مَّفْعُولًا ۝٥﴾ [الإسراء: 5]، ﴿مَنشُورًا ۝١٣﴾ [الإسراء: 13]، ﴿مَذْمُومًا﴾ [الإسراء: 18]، ﴿مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18]، ﴿مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء: 19]، ﴿مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: 20]، ﴿مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾ [الإسراء: 22]، ﴿مَّيْسُورًا ۝٢٨﴾ [الإسراء: 28]، ﴿مَلُومًا﴾ [الإسراء: 29]، ﴿مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: 29]، ﴿مَنصُورًا ۝٣٣﴾ [الإسراء: 33]، ﴿مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء: 34]، ﴿مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ [الإسراء: 38]، ﴿مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ [الإسراء: 45]، ﴿مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾ [الإسراء: 47]، ﴿مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ [الإسراء: 58]، ﴿مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ [الإسراء: 63]، ﴿مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: 78]، ﴿مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: 79]، ﴿مَثْبُورًا ۝١٠٢﴾ [الإسراء: 102]، وفي ذلك دلالةٌ على الثّبوت إذا ما قيس بالفعل، فهذه المواضع المقترنة بالفعل دالّة على الثّبوت والدّيمومة، وفيها ما فيها من أوصاف النّصر والتّثبيت، أو المحو والزّوال، فكان لها اعتلاقٌ بقوّة المواجهةِ والتّثبيت.

ثامنًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بذكر فعل الأمر (قل) عشرين مرّةً في أمور مُهمّة اقتضت تولّيَ النّبيّ ﷺ لها دونَ غيره، وفي ذلك تصدّرٌ للنّبيّ ﷺ في قوّة المواجهة للباطل؛ لتثبيته على الحَقّ بأسلوب الحُجّة الدّامغة والبيّنة الواضحة.

تاسعًا: تميّزت سورةُ الإسراء بذِكر لفظِ (الرّبّ) سبعًا وعشرين مرّةً، وارتبط في أكثرها بضمير المخاطبة؛ لأنّ قوّة المواجهة والتّثبيت تقتضي القُربَ والخطابَ المباشرَ الذي يُضفي على القلب الطّمأنينة، فكان ذلك له ارتباطٌ بالمِحور العامّ.

عاشرًا: تميّزتِ السّورة بحُسن الانتهاء مع رَدّ الأعجاز على الصّدور، أمّا حُسنُ الانتهاء فإنّك ترى تنزيهَ الله تعالى الّذي خُتِمت به السّورةُ مِن أرقى الأساليبِ حيويّةً ودِقّةً، مع

(1) الآيات: [1، 43، 44، 93، 108].

ملاحظة رَدّ العَجُز على صدر السّورة؛ فإنّه لمّا بدأها بالتّسبيح والتّنزيه ختمها هنا بحمد الله تعالى مع نفي الشّريك والولد واتّخاذ الوليّ.

وأمّا رَدّ العَجُزِ على الصّدر فإنّه لمّا تحدّث في أوّل السّورة عن بني إسرائيلَ رجع فذكر ذلك في آخرها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: 104]، ولمّا ذكر الحديث عن القرآن في أوّلها عاد فذكره في آخرها، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105]، وكذلك لمّا ذكر الحديثَ عنه ﷺ في كونه قد أُسريَ به، عاد فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء: 105]، ولمّا ذكر التّسبيح في أوّلها عاد فقال في آخرها: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: 108]، مع ملاحظة ذِكْرِ الوعد هنا، كما ذكره مُكرّرًا مَرّتين في أوّلها.

حادي عَشَرَ: تميّزتِ السّورة الكريمة بقِلّة فواصلِ آياتها في الحرف الذي تنتهي به كلّ آية من آيات هذه السّورة، ففواصِلُ السّورةِ الكريمة من حرفين؛ هما: حرف (الألف المَدّيّة) في (110) مواضع، وحرفُ (الرّاء) في موضع واحد في الآية الأولى، ففاصلة الآية الأولى حرفُ الرّاء، جاءت لتقرع الأسماعَ وتتكرّر في وصف ذاته تعالى بالخبر الثّابت في اطّلاعه على دقائق الأمور وتفصيلاتها؛ لتشرئبّ القلوبُ إلى الطّمأنينة والثّبات على عزمها، أمّا الفواصل الباقية التي اشتملت عليها هذه السّورةُ الكريمةُ فإنَّها يوقف عليها بالسّكون بالألف المَدّيّة، وذلك علامةٌ على وَحْدة الجَرْس، ممّا يُحْدِث في النّفس نوعًا آخَر مِنَ الاطمئنان والرّاحة النّفسيّة، فهذه الرّاحة النّفسيّة تجمع في ثناياها القوّةَ في المواجهة، فتبعثُ على التّثبيت للقلب، بما احتوته السّورةُ مِن تأكيد على الاعتصام بالقرآن وأوامره.

ثاني عَشَرَ: تفرّدت سورةُ الإسراء عن غيرها مِنَ السّور باشتقاقات وصيغٍ لم تَرِد إلّا فيها، ومِن تلك الألفاظ المُتفرّدة: ﴿ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]، ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ [الإسراء: 60]، ﴿بِخَيْلِكَ﴾ [الإسراء: 64]، ﴿بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: 64]، ﴿تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: 69]، ﴿تَخْرِقَ﴾ [الإسراء: 37]، ﴿تَرْكَنُ﴾ [الإسراء: 74]، ﴿تَفْجُرَ﴾ [الإسراء: 90]، ﴿تُسْقِطَ﴾ [الإسراء: 92]، ﴿ثَبَّتْنَٰكَ﴾ [الإسراء: 74]، ﴿حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ [الإسراء: 50]، ﴿حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: 8]، ﴿زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: 81]، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء: 103]، ﴿فَمَحَوْنَآ﴾ [الإسراء: 12]، وفي هذه الألفاظ دلالاتٌ تُلْقي بظلالها على المِحور الرّئيس الذي اكتنف السّورة موضوعًا وأسلوبًا.

ثالث عَشَرَ: حظيتِ السّورة بألفاظ تفرّدت بها عن غيرها مِنَ السّور مِن جهة المادّة اللّغويّة؛ وهذه الألفاظ هي: ﴿فَجَاسُواْ﴾ [الإسراء: 5]، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ [الإسراء: 51]، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ [الإسراء: 62]، ﴿مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ [الإسراء: 63]، ﴿قَاصِفًا﴾ [الإسراء: 69]، ﴿لِدُلُوكِ﴾ [الإسراء: 78]، ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ [الإسراء: 79].

والجامع لهذه الألفاظ السّبعة التي تفرّدت بها السّورة أنّها ذات اتّصال مباشر بمِحور السّورة مِنَ القوّة في المواجهة والتّثبيت، فالسّورةُ اختزلت قِوَى المواجهةِ والتّثبيت في تلك الألفاظ الفريدة، فمِن إعداد قوّةٍ جسديّةٍ بلفظ: ﴿فَجَاسُواْ﴾ [الإسراء: 5]، إلى إعداد قوّةٍ فكريّةٍ بلفظ: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ [الإسراء: 51]، إلى إعداد قوّةِ تزكيَةِ النّفس بمواجهة إبليسَ وجُنده بلفظ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ [الإسراء: 62]، إلى إعداد قوّةٍ عقديَّة باليوم الآخِر بلفظ: ﴿مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ [الإسراء: 63]، إلى إعداد قوّةٍ عسكريّةٍ بالرّمي والتّحطيم والتّكسير بلفظ: ﴿قَاصِفًا﴾ [الإسراء: 69]، إلى إعداد قوّةٍ إيمانيّة روحيّة بلفظَيْ: ﴿لِدُلُوكِ﴾ [الإسراء: 78] للنّهار، و﴿فَتَهَجَّدْ﴾ [الإسراء: 79] للّيل، كلُّ تلك الألفاظِ الفريدةِ اكتنفت ظلالَها القوّةُ في المواجهة، والثّباتُ والتّثبيت في دلالاتها.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ الأولى في الإِسْراءِ لِآخِرِ آياتِ سورةِ النَّحْلِ:

عـمـادُ الـصَّـبر الـتّـقـوى وتـركُ الحُزنِ والضِّيق، وثمرتُه الرِّفعةُ والـعُـلُـوُّ في الدَّارين

لمّا تقدَّم في آخر سورة النّحل الأمرُ بالصّبر، وتَركِ الحُزن والضّيقِ مِن مَكْر الكافرين، ووَعْدُ اللهِ تعالى أنَّه معَ المُتّقين المُحسنين؛ ناسبَ الابتداءُ في سورة الإسراء بذِكْر معجزةٍ تقوم مقامَ التَّأييد في توريث الصَّبر والتّسليَة، وعدم الحُزن والضّيق مِن مَكر الماكرين، وبها قدِ استبانَ حالُ المُتَّقي المُحسن ﷺ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبۡحَٰنَ﴾: (سبح) السّينُ والباءُ والحاءُ تدلُّ على جِنسٍ مِنَ العِبادةِ، فالسُّبْحَةُ هي الصّلاةُ، ويختصُّ بذلك ما كان نفلًا غيرَ فرض، ومِنَ البابِ: التّسبيحُ، وهو تنزيهُ اللّهِ جلّ ثناؤُه عن كُلِّ سوء، والتّنزيهُ: التّبعيدُ[2]، وأصلُه: المَرّ السّريعُ في عبادة اللّه تعالى، وجُعِلَ ذلك في فعل الخير، كما جُعِلَ الإبعادُ في الشّرّ، فقيل: أبعَدَهُ اللّهُ، وجُعِل التّسبيحُ عامًّا في العبادات قولًا كان، أو فعلًا، أو نيّةً، و(سُبحانَ): أصلُه مصدر، نحو: غفران[3]، فالمصدرُ تسبيح، والاسمُ سُبحانَ يقومُ مقامَ المَصدرِ، و﴿سُبۡحَٰنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ منصوبٌ على المَصدرِ؛ والمعنى: أُسبِّح اللّه تسبيحًا[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سبح).

2) ﴿أَسۡرَىٰ﴾: السّينُ والرّاءُ والحرفُ المُعتلُّ تدلُّ على كشف الشّيءِ عنِ الشّيءِ، يقال: سروتُ عنّي الثّوبَ، أي: كشفتُه، ويُقالُ أيضا: سُرّي عنهُ، والسُّرَى: سَيرُ اللّيلِ، يُقالُ: سريتُ وأسريتُ[1]، وسريتُ سُرًى ومَسرًى وأسريتُ بمعنًى، إذا سِرتَ ليلًا، بالألف لُغةُ أهلِ الحِجازِ، وجاء القرآنُ العزيزُ بهِما جميعًا[2]، قال تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ [هود: 81]، وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾.

3) ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾: مادّة (عبد) أصلانِ صحيحانِ، كأنّهُما مُتضادّان، والأوّلُ من ذينِك الأصلينِ يدُلُّ على لين وذُلّ، والآخرُ على شِدّة وغِلَظ[3]، والعُبوديّةُ: إظهار التّذلُّل، والعِبادةُ أبلغُ منها؛ لأنّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال، وهو اللّهُ تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، والعِبادةُ ضربان: عِبادةٌ بالتّسخير، وعِبادةٌ بالاختيار، وهي لذوي النُّطق، وهي المأمور بها في نحو قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]، والعبدُ يقال: هو على أربعة أضرب؛ الأوّل: عبدٌ بحُكم الشّرع، وهو الإنسان الذي يَصِحّ بيعُهُ وابتياعه، الثّاني: عبدٌ بالإيجاد، وذلك ليس إلّا للّه، وإيّاه قصَدَ بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: 93]، والثّالث: عبدٌ بالعِبادةِ والخِدْمَة، والنّاسُ في هذا ضربان: عبدٌ للّه مُخْلِص، وعبدٌ للدّنيا وأعراضها، وهو الضَّربُ الرّابع، وجمعُ العبد الذي هو مُسترَقٌّ: عبيد، وجمعُ العبدِ الذي هو العابِدُ عبادٌ[4]، والمراد في الآية: سيّد الخَلْق ﷺ، فهو المَنعوت بهذه الصّفة الجليلة وهذا النّعتِ الكريم.

4) ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾: "القافُ والصّادُ والحرفُ المُعتلُّ أصلٌ صحيح يدُلُّ على بُعد وإِبعاد، مِن ذلِك القَصا: البُعدُ، وهو بالمكانِ الأقصى والنّاحيةِ القُصوى، وذهبتُ قَصا فُلانٍ، أي: ناحيتَهُ، ويُقالُ: أحاطونا القَصا، أي: وَقفوا منّا بينَ البعيدِ والقريب، غيرَ أنّهُم مُحيطون بنا، كالشّيءِ يحوطُ الشّيءَ يحفظُهُ"[5]، وقولُه: ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ يعني: بيتَ المَقدس، فسمّاهُ الأقصى اعتبارًا بمكان المُخاطَبين به مِنَ النّبيّ وأصحابه[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(4) الرّاغب، المفردات: (عبد) بتصرُّف.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصوى).
(6) الرّاغب، المفردات: (عبد).

5) ﴿بَرَكۡنَا﴾: البَركةُ: النّماء والزّيادةُ، والتّبريكُ: الدُّعاءُ للإنسان أو غيرِهِ بِالبركةِ، يُقالُ: بَرّكتُ عليهِ تبريكًا، أي: قُلت لهُ: باركَ اللّهُ عليك، وبارك اللّهُ الشّيءَ وبارك فيهِ وعليهِ: وضعَ فيهِ البركة[1]، والمقصود في الآية: بقاءُ الخيرِ فيما حولَ المسجدِ الأقصى وفيه لزومًا إلى يوم القيامة، مِن وجود العبّاد والمرابطين والعلماء، فهذه أعظمُ بركةٍ تنزل بمكانٍ.

6) ﴿حَوۡلَهُۥ﴾: (حول) الحاءُ والواوُ واللّامُ أصلٌ واحِد، وهو تَحرُّك في دور، فالحَوْلُ: العامُ، وذلك أنّهُ يحولُ، أي: يدورُ، ويُقالُ: حالتِ الدّارُ وأحالت وأَحْوَلَت: أتى عليها الحَولُ، وأَحْوَلتُ أنا بِالمكانِ وأَحلتُ، أي: أقمتُ بِهِ حولًا[2]، يُقالُ: رأيت النّاسَ حَوالَه وحَواليَه وحَوْلَه وحَوْلَيْه، فحَوالَه: وُحْدانُ حَواليَه، وأَمّا حَوْلَيْه: فَهِيَ تَثْنِيَةُ حَوْلَه، وفي حديثِ الاستِسقاءِ: "اللهُمّ حَوالَيْنا ولا علينا"[3]؛ يُريدُ: اللهُمّ أنزِلِ الغيثَ علينا في مواضِعِ النّباتِ، لا في مواضِعِ الأبنية، مِن قولِهِم: رأيتُ النّاسَ حَوالَيْه، أي: مُطيفين بِهِ مِن جوانِبِهِ، واحْتَولَهُ القومُ: احتوشوا حَواليه[4]، وحَولُ الشّيءِ: جانِبُه الذي يمكنه أن يُحَوّل إليه[5]، والمُرادُ بحوالي المَسجد الأقصى: نواحيه جميعها، ممّا يُتعارَف عليه بينَ النّاس بأنّه مِن نَواحي المسجد.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

جزءٌ من الزَّمان انتقل فيه سيِّد الـخـلـق بين مركزي العبادة في الأرض

اشتملت هذه الآيةُ الكريمة على دعوة المؤمنين إلى تنزيه اللّه تعالى مِن كلّ سوء، فهو الذي أسرى بعبده محمّد ﷺ ليلًا مِنَ المسجد الحرام في مكّة المكرّمة إلى المسجد الأقصى في بيت المَقدس، الذي

(1) ابن منظور، لسان العرب: (برك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حول).
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (933).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حول).
(5) الرّاغب، المفردات: (حول).

بارك اللّهُ فيه مِن كلِّ نواحيه، فوفدَ إليه العلماءُ والعبّادُ والصّالحون والمجاهدون، وقد أرى اللّهُ تعالى محمّدًا ﷺ مِنَ الآيات العظيمة والمعجزاتِ الجليلة، التي كانت بأمر اللّه تعالى ورعايته وعنايته، فهو المُتّصف بالصّفات العُليا، وهو السَّميع البَصير.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الاستهلالِ بذِكْر التَّسبيح:

الإسراءُ معجزةٌ عظيمةٌ عجيبةٌ باهرةٌ تستحقُّ التّسبيح والتّمجيد

لَمّا كان حَدَثُ الإسراءِ مِنَ الأهميّة بمكانٍ؛ لكونِهِ معجزةً باهرةً لنبيّ أُميّ، في بيئة أُميّة تتكبّد من المشقّة والعناء في رحلاتها ما تتكبّد، وإذ بهم يَرَون أمرًا خارقًا لم يعرفوه ولم يألفوه، فلم يصدِّقوه؛ جاء الأسلوبُ ببراعة الاستهلال ليُعبِّر عن هذه الرّحلة، مفتتحًا بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ مشيرًا إلى كمال القدرة، وتنزيهًا للّه تعالى عن صفات النّقص؛ فالافتتاحُ بِكلِمةِ التّسبيح مِن دونِ سبق كلام مُتضمِّنٍ ما يجِبُ تنزيهُ اللّهِ عنهُ، يُؤذِنُ بأنّ بعدَها خبرًا عجيبًا يستقبِلُهُ السّامِعون، دالًّا على عظيم القُدرةِ مِنَ المُتكلِّم، ورفيع منزِلةِ المُتحدَّثِ عنهُ؛ فإنّ جُملة التّسبيح في الكلام الّذي لم يقع فيه ما يوهِمُ تشبيهًا أو تنقيصًا؛ يتعيَّنُ أن تكون مُستعملةً في أكثرَ مِنَ التّنزيه، وذلك هو التّعجيبُ مِنَ الخبرِ المُتحدّثِ بِهِ[1].

سِرُّ استعمالِ صيغة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾:

أبدعُ المباني ما كان حاويًا لغزير المعاني

﴿سُبۡحَٰنَ﴾ اسمُ عَلَمٍ على التّسبيح، يقال: سبَّحتُ اللّهَ تسبيحًا، فالتّسبيحُ هو المَصدر، و(سبحانَ اللّه) عَلَمٌ للتّسبيح، دالٌّ على أبلغ ما يكون مِن معناه[2]، "ولمّا كان هذا الكلامُ من جانبِ اللّهِ تعالى، والتّسبيحُ صادِرًا منهُ، كان المعنى تعجيبَ السّامعين؛ لِأنّ التّعجُّبَ مُستحيلةٌ حقيقتُهُ على اللّهِ، لا لِأنّ ذلك لا يُلْتَفَتُ إليهِ في محامِلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 10.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 109، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 288.

الكلامِ البليغ؛ لإمكانِ الرُّجوعِ إلى التّمثيل، مِثلُ مجيءِ الرّجاءِ في كلامِه تعالى نحوُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٨٩﴾ [البقرة: 189]، بل لأنّهُ لا يستقيمُ تعجُّبُ المُتكلِّمِ مِن فِعلِ نفسِه، فيكونُ معنى التّعجيبِ فيهِ مِن قبيلِ قولِهِم: أتعجَّبُ مِن قولِ فُلانٍ: كيتَ وكيتَ"(1)، فالتَّسبيحُ هنا مستعمَلٌ في التَّنزيه ابتداءً مِن أيِّ نقصٍ، وهو كنايةٌ عنِ التَّعجُّب؛ ولهذا كان استعمالُ التَّسبيحِ هو الأنسبَ في هذا السّياقِ الجامعِ بين ذَيْنِكَ المعنَيين.

دلالةُ الإيجازِ بحَذْفِ العامل:

المَصادرُ أوفَر دلالةً وأمكَنُ معنًى مِنَ الإتيانِ بعواملِها

المصدرُ أصلُ المُشتقّات، واستعمالُه يُغني عنِ استعمال الفعل الّذي يحتاج إلى مفعولين، وبالمصدر إفادةُ المعنى تامّا مِن أخصر طريقٍ وأوجزِه، ففي استعمال المصدر ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ "ما لا يخفى مِنَ الدّلالة على التّنزيه البليغِ مِن حيثُ الاشتقاقُ مِنَ السَّبح، الذي هو الذّهابُ والإبعادُ في الأرض، ومنه: فرسٌ سَبوح، أي: واسعُ الجَري، ومِن جهة النّقلِ إلى التّفعيلِ، ومِن جهة العُدولِ مِنَ المَصدر إلى الاسم الموضوعِ له خاصّة، لا سيّما وهو عَلَمٌ يُشير إلى الحقيقةِ الحاضرةِ في الذّهن، ومِن جهة قيامِه مقامَ المَصدرِ مع الفعلِ، وقيل: هو مصدر كغُفران، بمعنى التَّنزّه، ففيه مبالغةٌ من حيثُ إضافةُ التّنزّه إلى ذاته المُقَدّسة، ومناسبةٌ تامّةٌ بينَ المَحذوف وبينَ ما عُطف عليه في قوله ﷻ، كأنّه قيل: تنزّه بذاته وتعالى"(2).

فائدةُ التّعبيرِ عنِ الذّات العَلِيّة بجملة الصِّلة:

إظهارُ التَّعجيب مِن قدرتِه سبحانَه على الإسراء بعبدِه

التّعبيرُ عنِ الذّاتِ العَلِيّةِ بطريقِ الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾، دون الاسمِ العَلَمِ (اللّه)؛ للإشعار بعِلّيّةِ ما في حَيّزِ الصّلةِ للمُضاف؛ فإنّ ذلك مِن أدلّة كمالِ قُدرته، وبالغِ حِكمَتِه، ونهايةِ تنزُّهِه عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 10.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 421.

صفات المَخلوقين[1]، ولِلتّنبيهِ على ما تُفيدُهُ صِلةُ الموصولِ مِنَ الإيماءِ إلى وجهِ هذا التّعجيبِ والتّنويهِ وسببِهِ، وهو ذلِك الحَدَثُ العظيمُ، والعِناية الكُبرى.

إدماجٌ في بيانِ رِفعةِ قَدْرِ مُحمّد ﷺ

يُفيدُ هذا المطلع أنّ حديثَ الإسراءِ أمرٌ فشا بينَ القوم، فقد آمنَ بِهِ المُسلمون، وأنكره المُشرِكون، وفي ذلِك إدماجٌ لِرفعةِ قَدْرِ مُحمّد ﷺ، وإثباتُ أنّهُ رسولٌ مِنَ اللّه، وأنّهُ أوتيَ مِن دلائِلِ صِدقِ دعوتِهِ ما لا قِبَلَ لهُم بإنكارِهِ، فقد كان إسراؤُهُ إطّلاعًا لهُ على غائِبٍ مِنَ الأرضِ، وهو أفضلُ مكانٍ بعدَ المسجِدِ الحرامِ[2].

سِرُّ التّعبير بفعل ﴿أَسۡرَىٰ﴾:

أسرى اللّهُ البُرّاقَ لعبده، فَسَرى البُرّاقُ بعبده

قولُه تعالى: ﴿أَسۡرَىٰ﴾ مأخوذٌ مِنَ الإسراء، وهو السَّير باللّيل خاصّة، يُقال: أسرى به، وسَرى به، أي: سار في اللّيل، والفعلان لازمان، إلّا أنّهما يختلفان في المَصدريّة، فمَصْدَرُ الأوّل: الإسراء، ومصدر الثّاني: السُّرى - بضَمّ السّين - كالهُدى، ولم يقرأ أحدٌ (سرى بعبده)، وإن كان أهلُ اللّغة قد قالوا: سرى وأسرى بمعنًى واحد، فدَلَّ على أنّهم لم يُحَقِّقوا العبارةَ، والإسراءُ مُتعَدٍّ في المعنى، ولكن يُحْذَفُ مفعولُه كثيرًا، حتّى ظَنَّ أهلُ اللّغة أنّهما بمعنًى واحد، لمّا رأوهُما غيرَ متعدّيَين إلى مفعول في اللّفظ، وإنّما قيل: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، أي: جعل البُراق يَسْري، كما تقول: أمضيتُه، أي: جعلتُه يمضي، لكن كَثُر حَذْفُ المفعولِ لقوّة الدّلالةِ عليه، أو للاستغناء عنْ ذِكْره؛ إذِ المَقصودُ بالخبر ذِكْر محمّد، لا ذِكْر الدّابّةِ التي سارت به[3]، ففيه شِبْهُ احتباكٍ، تقديره: أسرى اللّهُ البُراق لعبده، فَسَرى البُراق بعبده.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 421.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 10، 11.
(3) السّهيليّ، الرّوض الأنف: 3/ 413.

وفي هذا لطيفةٌ تُناسِبُ المَقامَ هُنا، إذ قال: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ دون (سرى بِعبدِهِ)، وهي التّلويحُ إلى أنّ اللّه تعالى كان مع رسولِهِ في إسرائِهِ بِعِنايتِهِ وتوفيقِهِ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: 48]، وقال: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[التّوبة: 40][1].

فائدةُ التّعبير بعنوان العُبوديّة دونَ الرّسالة أو النُّبوّة:

الجَمْعُ بين أعلى مراتبِ المَحبَّة، وأسمَى مراتبِ الخُضوعِ والذِّلَّة

آثَرَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بعنوان العُبوديّةِ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ دونَ الرّسالةِ أو النُّبوّة؛ وذلك أنَّ العبوديَّة هي إظهارُ التّذلُّلِ والخضوعِ، وهي أعلى المنازل وأشرفُ المقامات الّتي يرتقي بها الإنسانُ إلى أسمى درجاتِ القُرْبِ والرِّفعة، فإيثارُ وصف العبوديّة للإيذان بتمحُّضِه ﷺ في عبادته سبحانَه، وبلوغِه في ذلك غايةَ الغاياتِ القاصيَة، ونهايةَ النّهايات النّائيَة حسبما يَلوح به مبدأُ الإسراء ومنتهاه؛ وقيل: إنّ في التّعبير به هنا دون حبيبه - مثلًا - سَدًّا لباب الغُلوِّ فيه ﷺ، كما وقع للنّصارى في نبيّهم عليه السلام[2]، وكِلا التّوجيهَين صحيحٌ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ العبد إلى الضّمير:

قِمَّةُ الشّرف والمعالي الاتّصاف بنعتِ العبوديَّة

في قوله تعالى: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ أُضيف لفظُ (عبد) المُراد به سيِّدُ الخَلْقِ ﷺ إلى ضمير الغَيبةِ العائدِ على اللّه سبحانه وتعالى؛ بغرضِ التّشريفِ والتّعظيم، والتّقدير لشأنه ورفعة قَدْرِه ﷺ، وليست الإضافةُ إضافةَ تعريفٍ؛ إذ هو أشرفُ عبادِه، وأحقُّهم بالإضافة إليه، الذي لم يتعبَّدْ قَطّ لِسِواه من صنم ولا غيرِه، لرجاء شفاعةٍ ولا غيرِها[3]، وقد ذُكر أنَّه لم يُعَبِّرِ اللّهُ تعالى عن أحدٍ بالعبد مُضافًا إلى ضمير الغيبة المُشارِ به إلى الهويّةِ إلّا النّبيَّ ﷺ، وفي ذلك مِنَ الإشارة ما فيه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 10، 11.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 4.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 288.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 4.

سِرُّ التّقييد بالظَّرف ﴿لَيۡلٗا﴾:

لمّا كان الإسراءُ لا يكون إلّا ليلًا لخصوصيَّته به لُغةً؛ ناسَبَ أنْ يُسألَ عن سِرِّ التَّقييد بالظّرف لهذا الحَدَثِ الجَلَل، قال الزّمخشريّ: "فإن قلتَ: الإسراءُ لا يكون إلّا باللّيل، فما معنى ذِكْرِ اللّيل؟ قلتُ: أراد بقوله: ﴿لَيۡلٗا﴾ بلفظ التّنكير، تقليلَ مُدَّةِ الإسراءِ، وأنّه أسرى به في بعض اللّيل مِن مكّة إلى الشّام، مسيرةَ أربعين ليلةً"[1]، وجعلَهُ أبو حيّان على سبيل التّوكيد، والإفادةُ خيرٌ مِنَ الإعادةِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنّهُ إسراءٌ خارِقٌ لِلعادَةِ، لِقطعِ المسافةِ الّتي بين مَبدأِ السّيرِ ونِهايتِهِ في بعضِ ليلة[2]، فَذَكَر ﴿لَيۡلٗا﴾ للإشارة إلى كون السّير ليس سَهلًا؛ فضلًا عن كونه موضعَ غرابةٍ؛ إذ كان بأقصى السُّرعة![3].

اللّيلُ أُنسُ المُحِبّين، ولا يَدْعُو المَلِكُ إلى مجالسته ليلًا إلّا مَن أَحبّ

من ناحية أخرى، في إيثار لفظ اللّيل إشارةٌ إلى "أنّه كان بحيث لم يشعر به أحدٌ، بل وقع في سِتر، بحيث لم يَلْحَظْهُ أحدٌ مِنَ المُتّصلين بالنّبيّ، القريبين منه، الذين كانوا يشاركونه الحياةَ في بيته، وفي الحُجْرة التي كان ينام فيها"[4].

اللّيلُ مَظِنّةُ السّترِ، وخفاءِ العمل

غَرضُ تنكير ﴿لَيۡلٗا﴾:

اختُلف في توجيه غرضِ تنكير الظَّرف ﴿لَيۡلٗا﴾، فقيل: إنَّه للتّبعيض[5]، فالإسراءُ كان في بعض اللّيل، ولم يستغرق اللّيلَ كلَّه[6]، وقيل: إنَّه لِدَفع توهُّم أنّ الإسراء كان في ليالٍ، أو لإفادة تعظيمه[7]، كما هو المناسِبُ للسّياق والسّباق، أي: ليلًا أيَّ ليلٍ! دنا فيه المُحِبُّ إلى المحبوب، وفاز في مقام الشُّهود بالمَطلوب"[8].

تعظيم الزّمان بعَظَمة أحداثه، وشأنِ مُجْرَياتِه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 436.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 11.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4318.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 411.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 436، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 154.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 436، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4318.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 11.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 5.

نوع الحرف ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُه:

مَن أشرقت بداياتُه أشرقت نهاياتُه

ورد الحَرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ للدّلالةِ على ابتداءِ الغاية، حيثُ بدأ الإسراءُ برسول اللّه ﷺ مِنَ المَسجد الحرام ابتداءً حقيقيًا تحقيقيًا، وابتداءُ الغاية هنا مكانيٌّ، وهو أمرٌ غيبيٌّ نُؤمنُ به كما أخبر به ﷺ، أي: ابتدأ مِنَ المسجد الحرام؛ ليكتسبَ الشَّرفَ مَطْلَعُ تلك الرّحلةِ التّاريخيَّةِ العظيمةِ، التي رسمت مسارَ الحياةِ الدّينيَّةِ إلى يوم الدّين.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بـ: ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾:

الارتباطُ بينَ المَسجدَين باقٍ إلى قيام السّاعة

اختيرَ في النَّظم التَّعبيرُ بالمسجد الحرام دون البيت الحرام، أو الكعبة، وذلك لحُسْن المقابلةِ معَ المسجدِ الأقصى، ولرَبْطِ المَسجدين باسم واحدٍ يجمعُهُما، ولو قال: (مِنَ الكعبة إلى المسجد الأقصى) لوقعت مفاضلة ليس هنا موضعُها، وهي حاصلةٌ مِن أدلّة أُخْرَى؛ "والنُّكْتَةُ في هذا التّعبير مطابقةُ المَبْدأ المُنْتَهَى"[1].

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ البيت الحرامَ سيبقى مسجدًا للعابدين

المسجدُ: اسمٌ لمكان السُّجود، "ولُقّب بالمَسْجِدِ؛ لأنّ إبراهيم عليه السلام جَعَلَهُ لإقامة الصّلاةِ في الكعبة، كما حكى اللّهُ عنهُ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 37]، ولمّا انقرضت الحنيفيّةُ، وتركَ أهلُ الجاهليّةِ الصّلاةَ، تناسَوا وَصْفَهُ بالمسجدِ الحرام، فصاروا يقولون: البيت الحرام، وأمّا قولُ عُمر: إنّي نذرتُ في الجاهليّةِ أن أعتكف ليلةً في المسجدِ الحرام، فإنّهُ عبَّر عنهُ باسمِهِ في الإسلامِ"[2]، وفي اختيار السّجود مادَّةً للاسم العَلَم؛ تمييزٌ للسّاجدين مِنَ المشركين، وتمييزٌ لهذه الأُمَّة من غيرها مِنَ الأمم، التي لا تسجدُ في عبادتها، ولأنَّ السّجودَ أَخَصُّ خصائص الصّلاة في القُرْب والاقتراب، وللإيماء إلى أنَّ هذا البيتَ سيبقى مسجدًا إلى قيام السّاعة.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 14.

سِرُّ وَصْفِ المسجد بالحُرْمَة:

مكانةُ المسجدِ الحَرام وحُرمةُ انتهاكِ خُصُوصيَّتِه

وَصْفُ ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ بـ﴿ٱلْحَرَامِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ لبيانِ حُرْمَتِه، ولتحريم اللهِ تعالى فيه كثيرًا ممّا ليس بمُحَرّم في غيره منَ المواضع، وكذلك الشّهرُ الحَرام[1]، فالحَرَمُ بهذا المعنى ممنوعٌ أن يُعمَل أو يُرتَكَب فيه أيُّ عملٍ إلّا ما جاء به الإذنُ، والحَرامُ: فَعال بمعنى مفعول، كقولِهم: امرأةٌ حَصانٌ، أي: ممنوعة بعفافِها عنِ النّاسِ[2]، فهو حرامٌ فلا يَحِلُّ انتهاكُه؛ فلا يُقاتَلُ فيه، ولا يُصْطاد صَيْدُه، ولا يُقْطَع شَجَرُه.

دلالةُ حَذْفِ مُتَعلّق ﴿ٱلْحَرَامِ﴾:

حُرمَةُ المسجدِ الحَرام عامَّةٌ معلومةٌ مِنَ الشَّرع

يُحْذَفُ المُتعلِّق في حال الوصفيّة أو غيرها، إذا دَلّ العُرفُ على ذلك؛ لكونه معلومًا بدلالة الحال، فتقول العربُ: الشّهر الحرام، ويريدون الزّمن الذي حَرُم فيه القتال، بناءً على العُرف المُتبادِر لديهم، "وقد يُحْذَفُ المُتعلِّقُ لِقَصدِ التّكثير، فهو من الحَذْفِ لِلتّعميم، فَيَرجِعُ إلى العُموم العُرفيِّ، ففي نحو: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2] يُرادُ المَنوعُ من عُدوانِ المُعتدين، وغزوِ المُلوكِ والفاتِحين، وعملِ الظُّلم والسّوءِ فيه"[3].

نَوعُ التّعريفِ في ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾:

شُهرةُ هذا المَسجدِ بينَ النَّاس تجعلُه مُبَجَّلًا عند النّاس

العَلَمُ هو الّذي يُعيِّن مُسمّاه مُطلقًا، ويُؤتى به ليُمَيِّز مسمّاه من غيره، والعَلَمُ في ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عَلَمٌ بالغَلَبة، أي: بغَلَبة الإطلاق والاستعمال، قال الشيخ محمد الطّاهر بن عاشور: "فغلبَ عليه هذا التّعريفُ التّوصيفيُّ، فصار لهُ عَلَمًا بالغَلَبةِ في اصطِلاحِ القُرآنِ، ولا أعرِفُ أنّهُ كان يُعْرَفُ في الجاهِليّةِ بهذا الاِسم، ولا على مَسجِدِ بيت

(1) الرّاغب، المفردات: (حرم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 13.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 13.

المَقْدِس في عصرِ تحريمِهِ عند بني إسرائيل، وعَلَميَّتُه بمجموعِ الوصفِ والموصوفِ، وكِلاهُما مُعَرَّف باللّام، فالجُزءُ الأوّلُ: مِثلُ النّجم، والجُزءُ الثّاني: مثلُ الصَّعِق، فحصلَ التّعريفُ بمجموعِهِما، ولم يَعُدَّ النُّحاةُ هذا النّوع في أقسام العَلَم بالغَلَبة، ولعلّهُم اعتبروهُ راجعًا إلى المُعرّفِ باللّام، ولا بُدّ مِن عَدِّهِ؛ لِأنّ عَلَميَّتَهُ صارت بالأمرين"(1).

دلالةُ التّعبير بـ ﴿إِلَى﴾:

لكلِّ شيءٍ غايةٌ ونهايةٌ قُصْوى، كما كان للإسراء المسجدُ الأقْصَى

جاء استعمالُ حرف ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ للدّلالة على انتهاء الغاية المكانيّة، فقدِ ابتدأ رسولُ اللّهِ ﷺ رحلتَه مِنَ المسجد الحَرام، وانتهى فيها إلى المسجد الأقصى، وهي الرِّحلة الأرضيّة، فالمُراد أنّه أُسريَ به ابتداءً مِنَ المسجد الحَرام، وانتهاءً إلى المسجد الأقصى، ولو قال: (للمسجد الأقصى)؛ لاحتمل المَجازَ، أو التّعليل، أي: أُسريَ به مِنَ المسجد الحرام لأجل شأنِ المسجد الأقصى، فكان حرفُ ﴿إِلَى﴾ دالًّا على الحقيقة المكانيَّة التي لا تقبل التَّأويل.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾:

مسجدٌ حقيقٌ بكلِّ فداءٍ، ومُكابدةِ كلِّ عناءٍ

المُراد بـ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: هو المسجد المعروف ببيت المَقْدِس، بالقُدْس في فلسطين، وهو المَسْجِدُ الّذي بُنِي في عهد إبراهيم عليه السلام، فقد جاء عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه أنّه قال: "قُلْتُ: يا رَسولَ اللّه، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قالَ: "المَسْجِدُ الحَرامُ"، قالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قالَ: "المَسْجِدُ الأَقْصَى"، قُلْتُ: كَمْ كانَ بَيْنَهُما؟ قالَ: "أَرْبَعونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَما أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ؛ فَإِنَّ الفَضْلَ فيهِ"(2)، و"سُمّي به إذ لم يكن حينَئِذٍ وراءَه مسجدٌ، وفي ذلك مِن تربية معنى التّنزيه والتّعجُّبِ ما لا يخفى"(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 14.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3366).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 154.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾:

تجريدُ البُعدِ للبُعْدِ المَكانيّ المَحسوسِ، لا للبُعدِ المَقاميّ

آثَرَ النَّظمُ وصفَ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾ بـ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾ دون الأبعد، "والقَصَى هو البُعْدُ، والقَصيُّ: البعيدُ، يقال: قَصَوتُ عنه، وأَقْصَيتُ: أَبْعَدتُ، والمكان الأقصى، والنّاحية القُصْوَى، قال تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ يعني: بيتَ المَقْدِس، فسمّاه ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾ اعتبارًا بمكان المُخاطَبين به مِنَ النّبيّ ﷺ وأصحابه"[1]، فهو أقصى لا أبعد؛ وذلك لأنَّ المُراد تعيينُ البُعْدِ المكانيّ لا المَعنويّ، فهو قريبٌ مِنَ القلوب والنّفوس، وتَحِنُّ إليه أفئِدَةُ المؤمنين الصّادقين، ولو قال: (الأبعد)؛ لظُنَّ فيه البُعْدُ المعنويُّ كذلك، فكان هذا الاختيارُ دَفعًا للأوهام، ولتَعيين أنَّه الأقصى مكانًا، لا مقامًا ومنزلةً، كما أنَّ ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾ مبالغةٌ في البُعد، أمّا (الأبعد) فربّما يُحَدُّ بُعْدُه، أمّا هذا فقد بلغ في بُعْدِ المسافة مَداهُ.

دلالةُ صيغةِ أفعلِ التّفضيل:

التّعبيرُ بالأقصى مُشيرٌ إلى الأقرب

اختيرت صيغةُ (أفعل) التّفضيل في ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾؛ تنبيها إلى إشارةٍ غيبيَّة، وقد أجاد الشيخ ابن عاشور في تحليلها حين قال: "وفي هذا الوصفِ بصيغةِ التّفضيلِ باعتبارِ أصلِ وضعِها مُعجِزةٌ خفيَّةٌ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ؛ إيماءً إلى أنّهُ سيكونُ بين المَسجِدين مَسجدٌ عظيم هو مسجِدُ طيبةَ الّذي هو قَصيّ عنِ المسجِدِ الحرام، فيكونُ مَسجدُ بيتِ المقدِس أقصى منهُ حينَئِذٍ، فتكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى جميعِ المساجِدِ الثّلاثةِ المُفضّلةِ في الإسلام، على جميعِ المساجِدِ الإسلاميّة"[2]، وقد جُمِعَتْ هذه المساجِدُ في قوله ﷺ: "لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلّا إلى ثلاثَة مَساجِدَ: المَسْجِدِ الحَرامِ، ومَسْجِدِ الرَّسولِ ﷺ، ومَسْجِدِ الأَقْصَى"[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (قصى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 15.
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1189).

نُكْتَةُ ذِكرِ مبدأِ الإسراءِ ونهايتِه:

ذَكَرتِ الآيةُ مبدأَ رحلةِ الإسراء، وأنَّها بدأت ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وانتهت: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، وذلك لفائدتين:

ذِكْــرُ مَـبْـدأِ الإسراء ونهايته دالٌّ على أنّ الأمر مِن قبيلِ المُعجِزاتِ

الأولى: التّنصيصُ على قَطعِ المسافةِ العظيمةِ في جُزءِ ليلةٍ؛ لأنّ كُلًّا مِنَ الظّرفِ وهو ﴿لَيۡلٗا﴾، ومِنَ المَجرورين ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ قد تعلّق بِفِعلِ ﴿أَسۡرَىٰ﴾، فهو تعلُّق يقتضي الموازنةَ؛ ليُعْلَم أنّهُ مِن قبيلِ المُعجِزاتِ.

الثّانية: الإيماءُ إلى أنّ الله تعالى يجعلُ هذا الإسراء إشارةً إلى أنّ الإسلام جمع ما جاءت بِهِ شرائعُ التّوحيدِ والحَنيفيّة، ومِن هُنا تَظْهَر مُناسبةُ نزولِ التّشريع الاجتماعيّ في هذِهِ السّورة؛ إيماءً إلى أنّ هذا الدّين سيكونُ دينًا يَحْكُمُ في النّاسِ، وتُنفّذُ أحكامُهُ[1].

دلالةُ الوصفِ بالاسم الموصول:

الاسم الموصول مِنَ الأسماءِ المُبْهَمَة، وعليه: فإنّه يحتاج إلى الصّلة دائمًا؛ لكونها تُزيلُ إبهامَه، والمرادُ بالموصول وصِلته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ تعظيمُ أَمْرِ المسجدِ الأقصى، وتفخيمُ أمره، وزيادةُ تقريرِ شأنِه في نفوس السّامعين، والحَثُّ على زيارته، والاعتناءُ بقُدْسيّته لشَرفِه وطهارته، "وجيءَ في الصِّفةِ بالموصوليّةِ لِقَصدِ تشهيرِ الموصوفِ بمضمون الصِّلةِ، حتّى كأنّ الموصوفَ مُشتهرٌ بِالصِّلةِ عِندَ السّامعين، والمقصودُ: إفادةُ أنّهُ مُباركٌ حوله"[2].

الحَثّ على زيارة المسجد الأقصى، والاعتناءُ بقُدْسيّته لشَرَفِه وطهارته

توجيه تخصيص البركة بالذِّكر:

ذكر ﷻ من أوصاف بيت المَقدس البُعدَ المكانيَّ بكونه الأقصى، ثمّ وصفه بكونه مباركًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾، بعكس

بركةُ المسجد الأقصى أشهرُ ما فيه، والمحافظة عليه أبركُ ما فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 15، 16.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 19.

ما وصف به البيتَ الحَرام في مكّة بكونه أوّلَ بيت وضعَهُ اللّهُ تعالى في الأرض، وبكونه مباركًا، ووجود مقام إبراهيم الذي يُزار ويُصلّى تجاهَهُ مع وفور الأمن فيه، واكتفى هنا بذِكر وصف البركة؛ "ووجهُ الاقتِصارِ على وصفِ المسجِدِ الأقصى في هذِهِ الآيةِ بِذِكرِ هذا التّبريكِ أنّ شُهرة المسجِدِ الحرام بِالبركةِ، وبِكونِهِ مقامَ إبراهيم معلومةٌ لِلعربِ، وأمّا المسجِدُ الأقصى فقد تناسى النّاسُ ذلِك كُلّهُ، فالعربُ لا عِلمَ لهُم بِهِ، والنّصارى عَفَّوا أثرَهُ مِن كراهِيتِهِم لِليهودِ، واليهودُ قدِ ابتعدوا عنهُ وأيِسوا مِن عودتِهِ إليهِم، فاحتيج إِلى الإِعلامِ بِبركتِهِ"[1].

دلالة ضمير التّعظيم في ﴿بَٰرَكۡنَا﴾:

عظمة الفعل من عظمة الفاعل

ورد التّعبير في قوله ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ بإسناد فعل البركة إلى ضمير العظمة (نا) الفاعلين، وقد سبق ما يدلُّ على هذا التّعظيم في بيان قُدرته تعالى على خَرق العاداتِ حيث أسرى سبحانه بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في جزء قليل من الليل، وهذا أمرٌ خارقٌ للعادة قياسًا لقدرات البشر، وهو هيّن يسيرٌ عند اللّه القدير، والمتحدّثُ العظيم في هذا السياق هو اللّه ربُّ العالمين، والضمير (نا) يعود على الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾ والتّفخيمُ يُشيرُ إلى عظمة الفعل المُكتسبة من عظمة الفاعل، كأنّه يقول: (الذي باركنا بعظمتنا وجلالنا وعلمنا وحكمتنا وقدرتنا حوله).

دلالة صيغة المفاعلة:

الأقصى موطنُ النّبوّة والرّسالات، ومنزلُ العباداتِ والخيرات

ورد الفعل ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ بصيغة (فاعل)؛ لكثرة البركات حولَ المسجد الأقصى ومبالغةً فيما يُحيط به من هذه البركات، ومن هذه البركات: بركات الدّين والدُّنيا، أمّا بركات الدّين: فلِكَونه مهبطَ الأنبياء والملائكة وموطنَ العبادات، وأمّا بركاتُ الدُّنيا: فلإحاطته بخيرات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 20.

الدُّنيا مِنَ المياه والثِّمار والأشجار[1]، والأرزاقِ التي هي سببٌ في توفير معايش النّاس، وما يحتاجونه مِنَ الأقوات وسَدِّ الحاجات، وهو ما يشهد له الواقعُ والتّاريخ، وما تنافسَ فيه المتنافسون إلّا لهذه البركات.

البركةُ محيطة بـه إحـاطـة السّوار بالمعصم

بلاغة الكناية والمَجاز المُرسل:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بذِكر الظرف (حول) في قوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾، دون أن يُقال: (الذي باركنا فيه)، و"حولُ الشّيء: جانبُه الذي يمكنه أن يُحوَّل إليه"[2]، وحول الشّيء وحَواليه: ما يحيط به من جوانبه، "أي: لأجله، فما ظنّكَ به نفسِه؟! فهو أبلغُ مِن (باركنا فيه)"[3]، وإذا كانتِ البركة حواليه، فصارت محيطةً به من جميع جوانبه، فمن باب أولى أن تكون فيه؛ إذ هو الأساس والأصل، "فكونُ البركةِ حولَهُ كِنايةٌ عن حُصولِ البركةِ فيهِ بالأولى؛ لِأنّها إذا حصلت حولَهُ فقد تجاوزت ما فيهِ، ففيهِ لطيفةُ التّلازُم، ولطيفةُ فحوى الخِطابِ، ولطيفةُ المُبالغةِ بالتّكثيرِ"[4]، والتّعبير بـ ﴿حَوۡلَهُۥ﴾ مجازٌ مرسلٌ لعلاقة المجاورة مِن قبيل تسمية الشّيء باسم مجاوره.

خُصَّ رسولُ الله ﷺ برؤية آياتٍ لم تكن لغيره

دلالة اقتصارِ اللّام التّعليليّة على إراءة الآيات:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ لامُ التّعليل، وهي الّتي يصلُح موضعَها (مِن أجل)، والمراد: أسرينا به ﷺ لأجل تمكينه من رؤية آياتِ اللّه الغائبةِ عنه؛ فإنّ الغرض الأسمى مِنَ الإسراء هو بيانُ فضل النّبيّ محمّد ﷺ الذي بلغ ذروة سنام العبوديّة للّه تعالى، فأكرمه ربُّهُ بإراءته آيات عظيمة من آيات ربّه الكُبرى، وفي ذلك مزيدُ بيان قدرة ربّ العالمين وكمال عظمته وإحاطة علمه، "ولامُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4319.
(2) الرّاغب، المفردات: (حول).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 289.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 20.

التّعليلِ لا تُفيدُ حصرَ الغَرضِ مِن مُتعلّقِها في مدخولِها"[1]، "وإنّما اقتصر في التّعليلِ على إراءةِ الآياتِ؛ لِأنّ تِلك العِلّةَ أعلقُ بِتكريمِ المُسْرَى بِهِ والعِنايةِ بِشأنِهِ؛ لِأنّ إراءة الآياتِ تزيدُ يقين الرّائي بِوُجودِها الحاصِلِ مِن قبلِ الرُّؤيةِ"[2].

سِرُّ التّعبير بالرّؤية:

الرّؤية عند علماء اللّغة تعني: إدراكَ المَرئيِّ ومشاهدتَهُ، إمّا بالحاسّة البَصريّة، أو ما يدور في فَلَكها ويجري مجراها، وإمّا أن تكون وَهْمًا أو خيالًا، أو تكونَ عن الفعل والفكر، ولمّا كان الغرضُ مِنَ الإسراء به ﷺ مشاهدةَ قُدْرةِ اللّهِ ودلائلِه المنصوبةِ في الكون؛ تثبيتًا وبرهانًا لنُبوّته ﷺ؛ رأى ذلك مشاهدةً وعيانًا، فأراه اللّهُ ﷻ الملكوتَ الأرضيَّ، والفيوضاتِ السّماويّة، بدليل أنّ اللّه تعالى أعدّه ﷺ إعدادًا خاصًّا لهذه الرِّحلة، ولمّا كان الغرض مِنَ الإسراء إراءَتَهُ آياتِه الكبرى وأدلَّتَه العظمى على وجوده ﷻ، جعل ذلك أمرًا حسيًّا مشاهدًا لا يَشوبُه شَكٌّ أو ارتيابٌ.

آيـاتٌ أرضيّـةٌ، وفـيـوضـاتٌ سماويّة، حظيَ بها خيرُ البريّة

دلالة التّعبير عنِ الرُّؤية بالمضارع ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾:

أفاد الفعلُ المضارع ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ التّجَدُّدَ والاستمرارَ للرُّؤية، معَ استحضارِ هذه الصّورة الماضية في الأذهان، كأنّها تُرى وتُشاهد على مَرِّ العصور والدُّهور، فلا تنقطع هذه الرُّؤية، وذلك بفضل قراءة هذه الآيات المباركات، والإيمانِ بما كان فيها، فإنَّ الائتساء برسول اللّه ﷺ إيمانًا بأن يَرى المؤمنُ بقلبه ما رأى رسولُ اللّه ﷺ ببصره، لَهوَ من أعظم الإيمان الذي يُؤْجَر عليه، وما كان الصِّدّيق صدّيقًا إلّا بإيمانِه بما أخبر به رسولُ اللّه في تلك الرّحلة، فتبقى رِحْلَةُ الإسراء متجدِّدةً في قلوب المؤمنين، مستمرّةً في أفئدة المُحسنين.

وصـلٌ دائـمٌ، وقُـربٌ متّصلٌ، ومَدَدٌ لا ينقطع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 21، 20.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 21.

بلاغةُ إسنادِ الإراءَةِ إلى ضميرِ الجلالة:

إراءةُ الحَقِّ يقينُ المؤمنين ونبراسُ المُوَحِّدين

لَمّا كان الإسراءُ به ﷺ مِن صُنع اللّه تعالى، وكان آيةً دالّةً على أنَّ هذه النَّقلةَ العجيبةَ في بُرهَة مِنَ الزَّمن، لا تكون في طَوق البشر على الإطلاق؛ أراد اللّهُ تعالى أن يُهيِّأَ رسولُه ﷺ لاستقبال فيوضات القُدرة الإلَهيّة في شخصه المُختار ﷺ، ممّا ليس في مقدوره أن يفعله مِن تلقاء نفسه أو من عنديّاته، ولمّا كان المُسْري به هو اللّهُ تعالى ممّا لا يتصوّره العقلُ البشريّ كان ذلك مُمكِنَ الحدوث، وإسنادُ الرّؤيةِ إليه ﷻ؛ ليتجلَّى السّببُ المباشِر في إراءَته نبيَّهُ ﷺ الآياتِ والمَشاهد، وأنّه ليس في مقدوره ﷺ أن يفعل هذا مِن تلقاء نفسه، وإراءَةُ اللّهِ له دليلٌ قويٌّ على اختصاصِ اللّهِ تعالى له وتشريفه بهذا، فإذا كان اللّهُ تعالى هو الذي أراه فأَنْعِم بها مِن رؤيةٍ!

معنى الحرف ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُه:

الحرفُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾؛ للتّبعيض؛ لأنَّ ما رآه النّبيُّ ﷺ وإن كان عظيمًا، إلّا أنّه مع عَظَمتِه هو بعض آياتِ اللّه تعالى، مقارنةً بما اشتمل عليه هذا الكونُ مِن عجائب[1].

غرضُ التّعبير بصيغة الجمع (الآيات):

عَظَمَةُ الآياتِ تدلُّ على عظمة المشاهدات

ورد لفظُ (الآيات) في القرآن الكريم مجموعًا ومفردًا، ففي حالة الجمع فهو لجمع الدّلائل، وفي حالة الإفراد فَلِوَحدانيّة المدلولِ عليه؛ لِما يخرج عن ذلك[2]، وقد جُمعَت (الآيات) هنا دلالةً على عظيم شأن الآيات والمشاهدات الّتي رآها رسولُ اللّه ﷺ، مِنَ المُشاهداتِ الأرضيّة والسّماويّة، فجُمِعَت لتُناسبَ تلك المعجزةَ.

دلالةُ إضافةِ الآيات إلى ضمير جَمْع العَظَمة:

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَآۚ﴾ إلى ضمير العظمة

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 285.

(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 14.

آياتُ الله تعالى عظيمةٌ في شأنها، شريفةٌ في غايتها

تشريفًا وتعظيمًا لها، ودلالةً على أنّ ما رآه رسولُ اللّه ﷺ مِنَ الآيات مِمّا لا يُقادَر قَدْرُه، ولا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ، وعُدل عنِ الظّاهرِ إلى الضّمير اختصارًا وفخامةً لشأن المُعَبّر عنه، كأنَّه لشُهرته يدلُّ على نفسه، ويُكتَفى عن اسمه الصّريح بذِكْر شيءٍ مِن صفاته.

بلاغة الالتفات في الآية:

الانتقال مِن مقامِ الاستِدلالِ على عالَمِ الغيبِ إلى مقامِ المصيرِ في عالمِ المُشاهدةِ

التفت الخطابُ مِنَ الغَيبة في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، إلى التّكلُّم في ﴿بَٰرَكۡنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ بنون العَظَمة، ثمّ التفت إلى الغَيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ والاِلتِفاتُ هُنا امتاز بلطائف؛ منها: أنّهُ لمّا استُحضِرتِ الذّاتُ العَليّةُ بجُملةِ التّسبيح وجُملةِ الموصوليّة، صار مقامُ الغَيبةِ مقامَ مُشاهدة، فناسب أن يُغيِّر الإضمارَ إلى ضمائرِ المُشاهدة، وهو مقامُ التّكلُّم، ومِنها: الإيماءُ إلى أنّ النّبيّ ﷺ عند حُلولِهِ بالمَسجِدِ الأقصى، قدِ انتقل مِن مقامِ الاستِدلالِ على عالَمِ الغَيبِ إلى مقامِ مصيرِهِ في عالَمِ المُشاهدة، ومِنها: التّوطئةُ والتّمهيدُ إلى محمَلِ معادِ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، فيتبادَرُ عودُ ذلك الضّميرِ إلى غيرِ مَن عاد إليهِ ضمير ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾؛ لأنّ الشّأن تناسُقُ الضّمائرِ، ولأنّ العَودَ إلى الاِلتِفاتِ بالقُربِ ليس مِنَ الأحسنِ[1].

بلاغةُ التّوكيد والتّعليل في جملة التّذييل:

إحاطةُ الرّبّ ﷻ بأحوال عباده

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: السّميع لأقوال محمّد ﷺ، المُجيبُ لدُعائه، البَصيرُ بأفعالِ العالَم بكونها خالصةً لا يشوبها رياءٌ، مع اقترانها بالصِّدق والصّفاء، والخُلوّ مِنَ النِّفاق وما يخالف الفِطرة السّويَّة، ويرى ابنُ عطيّةَ أنّ هذا الخِتام وعيدٌ مِنَ اللّه للكفّار، الذين كذّبوا محمّدًا ﷺ في أمر الإسراء، فهي إشارةٌ لطيفةٌ بليغة إلى ذلك؛ أي: هو السّميعُ لما تقولون، البصيرُ بأفعالكم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 22.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 437 بتصرف.

وموقِعُ (إنّ) التّوكيدُ والتّعليلُ، كما يُؤذِنُ بِهِ فصلُ الجُملةِ عمّا قبلَها، وهي إمّا تعليلٌ لإسناد فعل ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ إلى فاعِلِه، وإمّا تعليل لِتعليقِهِ بِمفعولِه، فيُفيدُ أنّ تِلك الإراءةَ مِن بابِ الحِكمةِ، وهي إعطاءُ ما ينبغي لمن ينبغي، فهو مِن إيتاءِ الحِكمةِ مَن هو أهلُها.

ووجه آخر مُحتمِل، وهو تعليلُ تعليق فعل الإراءة في ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ بمفعوله، وذلك على اعتِبارِ مرجِعِ الضّميرِ إلى النّبيّ ﷺ؛ حيث يأتي من باب عدم الحاجة إلى تعليلِ إسنادِ فِعلِ اللّهِ تعالى؛ لِأنّهُ مُحقّقٌ معلومٌ، وإنّما المُحتاجُ لِلتّعليلِ هو إعطاءُ تِلك الإراءةِ العجيبةِ لِمَن شَكّ المُشرِكون في حُصولِها له، ومَن يحسبون أنّهُ لا يُطيقُها مِثلُهُ[1].

نوعُ القَصْرِ ودلالتُه في الفاصلة:

ورد القَصْر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ بطريق التّعريف باللّام وبضمير الفَصْل، وهو مِن قبيل قَصْر الصّفة على الموصوف قَصْرًا إضافيًّا؛ لإثبات صفاتٍ أُخْرَى له ﷻ، غيرِ السّمع والبصر، ونوعُه: قَصْرُ قَلْبٍ؛ إذ فيه قَلْبُ معتقَدِ كفّار قريشٍ في إنكار مُعْجزة الإسراء، فإذا كان الضّميرُ عائدًا إلى رسول اللّه ﷺ فالقَصْرُ واضحٌ، وعلى جعله عائدًا إلى اللّه ﷻ فعلى تأويل ذلك: بِأنّهُ المُسمِعُ والمُبصِرُ لِرسولِهِ الّذي كذّبتُموهُ، فيَؤولُ إلى تنزيهِ الرّسولِ عنِ الكذِبِ والتّوهُّم[2].

تنزيه النّبيّ ﷺ عن الكذب والافتراء

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأقصى والأبعد:

"القافُ والصّادُ والحرفُ المُعتلُّ أصلٌ صحيح يدُلُّ على بُعْدٍ وإبعاد، مِن ذلك القَصا: البُعْدُ، وهو بالمكانِ الأقصى والنّاحية القُصوى"[3]، والأقصى: هو الأبعدُ مكانًا، فأقصيتُ: أَبْعَدتُ، والمكانُ

الأقصى يَختصُّ بالبُعد المكانيّ، والأبْعَدُ بالبُعد المكانيّ والزّمانيّ والمَعنويّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 23، 22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 23.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصوى).

الأقصى، والنّاحيَةُ القُصْوى[1]، فاختصَّ الأقصى بالأبعَد في المكان، أمّا الأبعد فهو أعَمّ، فهو خلاف الأقرب، وبَعْدَ يقابل قَبْلَ، والبُعدُ خِلافُ القُربِ[2]، ويستعمل البُعد في الإهلاك والاستبعاد، فيُقال: هذا أمر بعيدٌ، لا يقعُ مِثْلُهُ لِعظمِهِ[3]، وقد تقدّم أنّ تسميتَه بالأقصى اعتبارًا بمكان المُخاطَبين به مِنَ النّبيّ وأصحابه؛ وذلك لأنَّ المُراد تعيينُ البُعد المكانيّ، لا المَعنويّ، فهو قريب مِنَ القلوب والنُّفوس، وتَحِنُّ له أفئدةُ المؤمنين الصّادقين، ولو قال: (الأبعد) لظُنَّ فيه البُعد المَعنويّ كذلك، فكان هذا الاختيارُ دفعًا للأوهام.

(1) الرّاغب، المفردات: (عبد).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصوى).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (بعد).

﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢﴾ [الإسراء: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

فاقت معجزةُ الإسراء كلَّ معجزةٍ مشاهدة

لمّا ذكر اللّهُ تعالى في الآية الأولى إكرامَه محمّدًا ﷺ، بما كان له مِنَ الإسراء ليلًا مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ولم يكن لأحد مِنَ الرّسل الكرام مثلُ هذه المعجزة، ناسب أن يذكر أكثرَ رسولٍ ذُكر في القرآن، مِن حيثُ إعطاؤه مِنَ الآيات الشّيء الكثير، وذلك لبيان فضلِ رسول اللّه ﷺ على الرُّسل الكرام، لا سيّما تقدّم ذِكْر إبراهيمَ عليه السلام في أواخر سورة النّحل، فهو توسيطُ رسولِ اللّه ﷺ بين نَبيَّين عظيمين، آتاهما اللّهُ سبحانه وتعالى مِنَ المعجزات العظيمة، والكتب الفريدة، حتّى قرنَهُما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19]، فالتّناسب بينَ الآيات يورِث معرفةَ العلاقةِ بين أولئك الرّسل، وما آتى اللّهُ كلًّا منهم، والفَضْل الذي خصّه بكل واحد منهم، وبه تَفْضُل رِحلةُ الإسراء بقيَّةَ المعجزات المشاهَدة، كما فَضَل نبيُّنا بقيَّةَ الأنبياء، فهذا وجه مناسبةِ إيرادِ هذه الآيةِ بعد الآية الأولى.

التّوراة هي الشّريعة القائمة عند أهل الكتاب المعاصرين للنّبوّة

من ناحية أخرى، لمّا كانت الآية السّابقة التي افتُتِحت بها السّورةُ، قد ذكرت تلك النّعمة العظمى التي أنعم اللّهُ سبحانه وتعالى بها على النّبيّ؛ إذ أسرى به مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، في تلك الرّحلة العجيبة؛ ناسبَ ذلك أن يَجيء ذِكْر النّعم التي أنعم اللّهُ بها على عباده، التي يُعَدُّ مِن أَجَلّها وأعظمِها إرسالُ الرُّسل إلى النّاس، ولمّا كانتِ التّوراة التي نزلت على موسى، هي الشّريعةَ القائمة عند أهل الكتاب المعاصرين للنّبوّة مِن يهودٍ ونصارى؛ كان ذِكْر موسى

والكتابِ الذي أُنزل عليه، أقربَ وأولى ما يُذْكَر في هذا المقام[1]، فـ"هذه الآية الكريمة موصولةٌ بما قبلَها للدّلالة على أنّ النّبوّة متّصلةٌ متّحدَةٌ في غايتها، وفي نهايتها"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: (كتب) الكافُ والتّاءُ والباءُ أصلٌ صحيح واحِد يدُلُّ على جمعِ شيء إلى شيء، مِن ذلِك الكِتابُ والكِتابةُ، يُقالُ: كتبتُ الكِتابَ أكتُبُه كتبًا[3]، ومعناه المِحوريّ: إلصاقٌ بدقّة وقوّة، كإلصاق جانبي شَقِّ القُربة، ومن ذلك الكتابةُ المعروفة، فهي إلصاقُ الكلام بتثبيت رموزه في وجه مادّة قويّة؛ حجرٍ أو جِلْدٍ، إثباتًا قويًّا تصعب إزالتُه[4]، و﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المراد في الآية هو التّوراة المُنَزَل على قلب موسى عليه السلام.

2) ﴿هُدٗى﴾: الهاءُ والدّالُ والحرفُ المُعتلُّ أصلانِ؛ أحدُهما: التّقدُّمُ لِلإرشادِ، والآخرُ: بَعْثَةُ لطف، فالأوّلُ قولُهم: هديتُه الطّريقَ هِدايةً، أي: تقدّمتُه لِأُرشِدَهُ، وكُلُّ مُتقدِّمٍ لِذلك هاد، قال[5]:

إذا كانَ هادي الْفَتَى في الْبِلا*** دِ صَدْرَ الْقَناةِ أَطاعَ الْأَميرا

ويَتشعَّبُ هذا فيُقالُ: الهُدى خِلافُ الضّلالةِ، تقولُ: هديتُه هُدًى[6]، "والهداية دلالةٌ بلطف، ومنه: الهَديّة، وهوادي الوحش، أي: متقدّماتها الهادية لغيرها، وخُصّ ما كان دلالةً بـ (هَدَيتَ)، وما كان إعطاءً بـ (أهديت)"[7]، والمراد في الآية: أنَّ كتاب موسى هدايةٌ وإرشادٌ لبني إسرائيل إلى طريق الحقّ والنّجاة.

3) ﴿وَكِيلٗا﴾: الواوُ والكافُ واللّامُ: أصلٌ صحيح يدُلُّ على اعتِمادِ غيرِك في أمرِك، مِن ذلِك الوُكَلَةُ، والوَكَلُ: الرّجُلُ الضّعيفُ، يقولون: وُكَلَةٌ تُكَلَةٌ، والتّوكُّلُ مِنهُ، وهو إظهارُ العجزِ في الأمرِ والاعتِمادُ على غيرِك، وواكلَ فُلانٌ: إذا ضيّع أَمْرَهُ مُتّكِلًا على غيرِه[8]، والتّوكيلُ:

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 433 - 434.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4331.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).
(5) البيت للأعشى، وهو في ديوانه، ص: 96.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(7) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).

أن تعتمد على غيرك وتجعلَه نائبًا عنك، والوَكيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النّساء: 81] أي: اكتف به أن يتولّى أمرَك، ويتوكّلَ لك، والتّوكُّلُ يقال على وجهين، يقال: توكّلتُ لفلان، بمعنى: تولّيتُ له، وتوكّلتُ عليه، بمعنى: اعتمدته[1]، ومعنى الوكيل في الآية: مُعينًا ونصيرًا ومُعتَمَدًا عليه في قضاء حوائجكم.

المَعنى الإجماليُّ:

شَرفُ بني إسرائيل باتِّباع الوحي وتوحيدِ ربّ العالمين

تُخبر الآيةُ بفضل اللّه تعالى على نبيِّ اللّه موسى عليه السلام، بأن آتاه اللّهُ التّوراة، وجعله نبراسَ هدًى لبني إسرائيل، وهذا الإيتاءُ شرفٌ لبني إسرائيل بأن خصَّهم بهذا النّبيّ الكريم، وبهذه الشّريعة المباركة، وهي دينُ الإسلام الذي أنزله اللّهُ على جميع رسله، فالعقيدةُ واحدة، وهي عقيدة التّوحيد، والشّريعة مختلفة، إلى أنِ استقرَّ الأمرُ في نهاية الزّمان لرسول اللّه ﷺ، فكان القرآنُ هو المُهيمنَ والنّاسخ لجميع الكتبِ المتقدّمة؛ فأنزل اللّهُ تعالى التّوراة لإنقاذ بني إسرائيل مِنَ الضّلالة والكفر، ثمّ أخذ عليهم العهدَ كي ينصرَهمُ اللّهُ تعالى، أن لا يتّخذوا مِن دونه ناصرًا ومُعينًا ونِدًّا في الالتجاء إليه، وقضاءِ حوائجهم، وإلّا وقعوا في الشّرك بعد أن كانوا مسلمين موحّدين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تعيين المعطوف عليه بواو: ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾:

عطفُ النِّعمةِ على النِّعمة مِن آثار المِنَّة على الأُمّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ للعطف، وفي تعيين المعطوف عليه أوجه:

الأوّل: الجملة السّابقة مِن تنزيه الرّبّ تبارك وتعالى، ولا يَلزم في عطف الجُمَل مشاركةٌ في خبر ولا غيره.

(1) الرّاغب، المفردات: (وكل).

الثّاني: قوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾، وهو بعيد، لصَيرورة التّركيب: سبحان الذي أسرى وآتينا، وهو في قوة: الذي آتينا موسى، فيعود ضمير المتكلِّم على الموصول مِن غير مُسوِّغ لذلك.

الثّالث: ما في قوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾ من تقدير الخبر، كأنّه قال: أسرينا بعبدنا، أريناهُ آياتِنا وآتينا، وهو قريب من تفسير المعنى لا الإعرابِ[1].

الرّابع: على محذوف تقديره: فآتينا عبدَنا محمّدًا ﷺ الكتابَ المُفصّلَ المُعجزَ، وجعلناه هدًى للخَلْق كافّةً، وآتينا موسى الكتاب[2].

الخامس: جُملة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾، والتّقديرُ: (اللّهُ أسرى بعبدِهِ مُحمّد ﷺ وآتى موسى الكِتابَ)، فهُما مِنّتانِ عظيمتانِ على جُزء عظيم مِنَ البشرِ[3].

دلالةُ التّعبير بالإيتاء دون الإعطاء:

إيتاءُ الكتابِ إيصالٌ بوساطة الوَحي

الإعطاء الإنالة، واختصّ العَطيّة والعطاء بالصّلة[4]، في حين أنّ الإيتاء هو إيصالٌ للمقصود مطلقًا، ولذلك خُصّتِ الزّكاةُ باستعمال الإيتاء؛ لأنّه لا يُشترط في إيصالها لمُستحقّيها المُناولةُ، وعلى هذا فلمّا لم يكنِ اللّهُ تعالى قد ناول موسى عليه السلام الكتابَ مناولةَ يَدٍ بيد - وحاشاه - جعل ما وصل إليه عليه السلام من هذا الكتاب - وهو التّوراة - إيتاءً عن طريق الوحي إبلاغًا وإعلامًا.

سِرُّ تخصيصِ موسى عليه السلام بالذِّكر:

نبيّانِ كريمان تشرّفا بتعظيم الإراءَة والإيتاء

خُصَّ موسى عليه السلام بالذِّكر في هذا السّياق؛ لِمُناسبةِ قولِه: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾، فكان ذلِك في قوّةِ أن يُقال: وآتيناهُ القُرآن وآتينا موسى التّوراة، كما يشهدُ بِهِ قولُه بعد ذلِك: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي

(1) ابن عادل الحنبليّ، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 206.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 294.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 25.
(4) الرّاغب، المفردات: (أتى، عطا).

﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، أي: لِلطّريقةِ الّتي هي أقومُ مِن طريقةِ التّوراةِ، وإن كان كِلاهُما هُدًى، على ما في حالةِ الإسراءِ بالنّبي ﷺ ليلًا، مِنَ المُناسبةِ لِحالةِ موسى عليه السلام حين أوتي النُّبوّةَ، فقد أوتي النّبوءةَ ليلًا وهو سارٍ بأهلِهِ مِن أرضِ مَدْين إذ آنسَ مِن جانبِ الطّورِ نارًا[1]، ففيه إيماءٌ إلى دعوتِه عليه السلام إلى الطّور، وما وقع فيه مِنَ المناجاة، جمعًا بينَ الأمرين المتّحدَين في المعنى[2].

معنى التّعريف في: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الكـتـابُ هـو التَّوراة

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو المعهودُ إيتاؤُهُ موسى عليه السلام وهو التّوراةُ[3]، فالتّعريف للعهد العلميّ أو الحُضوريّ لعدم سبق ذِكْرِه، لا صراحةً ولا كنايةً، إلّا أنّه مُدْرَكٌ معْروفٌ لدى السّامعِ، حاضرٌ حضورًا تامًّا، ومِن هنا سُمّي التّعريفُ بـ (أل) هنا للعهد العلميّ أو الحضوريّ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ عنِ التّوراة بالكتاب:

الإيماءُ إلى أنَّ ما سيُذْكَر في الآيات اللّاحقة مكتوبٌ معلوم

عبّر النَّظْم القُرآنيّ عنِ التّوراة بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، في كونها صُحفًا مكتوبةً كما في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: 145]، والمعهودُ لدى النّاس أنّ الكُتبَ السّماويّة ما كانت مكتوبةً مدوّنةً؛ ليتمّ حفظُها، فعَبّر بالمَحلِّ وهو الكتاب، وأراد الحالّ فيه وهو المكتوب، على طريق المَجاز المُرسل، ونُكْتَةُ التَّعبيرِ بالكتاب: الإيماءُ إلى أنَّ ما سيُقَصّ على المُخاطَبين في الآيات اللّاحقة مكتوبٌ، يعرفه بنو إسرائيلَ مِن كتابهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 25.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 155.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 25.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾:

موطنُ المِنَّة على بني إسرائيل هدايتُهم بالوحي

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾ عاطفةٌ على نظيره في ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾؛ لاتّفاق زمانهما، وهما لفظتان تتبع الثّانية منهما الأولى في الحُكم الإعرابيّ، فهي من قبيل عطف الجملة على الجملة لإتمام المعنى المراد، إذ إنّ الفائدة المترتِّبة على الإيتاء هي كون هذا الكتابِ مجعولًا لهداية هؤلاء القوم، وهذا هو موطنُ المِنَّة؛ فصار الإيتاء خاصًّا بهم، متعلِّقًا بهم تعلُّقًا أوّليًّا.

سِرُّ وصفِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بالهُدى بصيغة المَصدر:

الهُدى الكاملُ مصاحِبٌ للمُتمسِّك بالوحي

المَصدر عند النُّحاة أصل المشتقّات، وهو يُؤدّي دورَها وأكثرَ منها، والتّعبيرُ به يفيد المبالغةَ في الحُكم، وإسنادَه لصاحبه، فيكون استعمالُه في أكثر المواطن أبلغَ مِن غيره، واستعمالُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ مِن قَبيلِ هذه المبالغةِ؛ لِأنّ الهُدى بِسببِ العملِ بما فيه؛ فجُعِل كأنّهُ نفسُ الهُدى، كقولِه تعالى في القُرآنِ: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 2][1].

نُكْتَةُ الاكتفاءِ بوصف التّوراة بالهُدى:

التّدرّج في الوصف مِن سمات أسلوب القرآن

اكتُفِيَ بذِكر الهُدى في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون أن تُقرَن به صفةُ النّور كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]؛ لانصباب الكلام على إيتاء التّوراة موسى عليه السلام، مجعولةً هدايةً لإخراج بني إسرائيل بوساطة ذلك الكتاب، أمّا ما ورد في سورة المائدة مِن اقتران لفظتي الهُدى والنّور؛ فلِأنّ الكلام فيها مسوقٌ "لتقرير مزيد فظاعة حال أولئك اليهود ببيان عُلوّ شأن التّوراة على أتمّ وجه"[2]، كما أنَّ ما ورد في هذه السّورة سابقٌ للمائدة نزولًا، فأخبر ابتداءً عن هداية الكتاب، ثمّ أخبر عن كونه نورًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 25.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 142.

دلالةُ التّعبيرِ بفعل الجَعْل في: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى﴾:

لا عِبْرةَ في الهُدى إن لم يُؤثِّر الكلامُ المَسموعُ في الفعل المَسبوك

الجَعْل في عُرف اللّغة: "تغييرُ صورةِ الشّيء بإيجاد الأثر فيه"[1]، والجَعْل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى﴾ مرادٌ به التّكليف، أي: تكليفُ بني إسرائيلَ تنفيذَ الأوامرِ والأحكامِ الواردة في هذا الكتاب الّذي هو التّوراة والعملَ بما فيها، فالتّوراة هدًى إذا تحوّلت مِن كلام مسموع إلى فعلٍ مسبوك، أمّا إذا بقيت كلامًا بدون أثرٍ، فلا معنى لهدايتها إلّا بالقوّة لا بالفعل، والمطلوبُ أن تكون فعلًا في واقع بني إسرائيل، وهو متوقِّف على اختيارِهم، ولذلك لم يقل: (وهَدَينا به بني إسرائيلَ).

سِرُّ التّعبير ببني إسرائيلَ دونَ اليهود:

التّذكيرُ بالأصل الطَّيِّب يقوِّمُ الفرعَ الشّارد

بنو إسرائيلَ اصطلاحٌ نَسَبيٌّ لا دينيٌّ، وهم المَنسوبون إلى نبيّ اللّه يعقوبَ عليه السلام، واسمُه مُركّبٌ مِن" إيل" اسمٌ مِن أسماء اللّه تعالى، و"إسرا" وهو العبد أو الصّفوة مِنَ الخَلْق أو الإنسان أو المُهاجِر، وهو لقب سيّدنا يعقوبَ عليه السلام، وأُضيف بنو إسرائيلَ إلى لقب نبيّ اللّه يعقوبَ عليه السلام؛ لتحريكهم إلى طاعته، وقيل: قومٌ مِن أصلٍ ساميّ سُمّوا كذلك باسم يَهوذا أحدِ أبناءِ يعقوبَ، بخِلاف بني إسرائيلَ الّذين خُلِقوا بعدَ يوسفَ عليه السلام.

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيّة في: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾:

القراءتان اتّفقتا على الإنشاءِ بطريق الخبر والإنشاء

اخْتَلَف القُرّاءُ في قراءة: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾؛ فَقَرَأَ أبو عَمْرٍو بالغَيْب: ﴿أَلَّا يَتَّخِذُواْ﴾، وَقَرَأَ الباقونَ بالخِطاب[2]، فعلى قراءة الجُمهور: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ بتاءِ الخِطاب على الأصلِ في حِكايةِ ما يُحكى مِنَ الأقوالِ المُتضمِّنةِ نهيًا؛ تكونُ (أنْ) تفسيريّةً لِما تضمّنَهُ لفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من معنى الأقوالِ، ويكونُ التّفسيرُ لِبعضِ ما تضمّنهُ الكِتابُ اقتِصارًا على الأَهمِّ مِنهُ، وهو التّوحيدُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 142، 141.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 306.

وعلى قراءة أبي عمرو ﴿أَلَّا يَتَّخِذُواْ﴾ باعتِبارِ حِكايةِ القولِ بالمعنى، أو تكونُ (أَنْ) مصدريّةً مجرورةً بِلام محذوفةٍ حذفًا مُطّرِدًا، والتّقديرُ: (آتيناهُمُ الكِتابَ لِئلّا يتّخِذوا مِن دوني وكيلًا)[1]، أو تكون قراءة أبي عمرو جريًا على قوله تعالى: ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فهي على الأصل، والباقون بالخطاب التفاتًا[2].

والمعنى الجامع بينَ القراءتين، أنَّ قراءة الخطاب فيها مباغتةٌ في الخطاب، فهي انتقالٌ مِنَ الإخبار إلى الإنشاء، وقراءةُ أبي عمرو إخبارٌ مُرادٌ به إنشاء، فهما متّفقتان في المعنى، وإنْ اختلفتا في إيراده.

معنى الحرف ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

أيُّ اتِّخاذٍ مهما دَقَّ أو قلَّ داخِلٌ في المَنهيِّ عنه

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِي﴾ لابتداء الغاية؛ والمعنى: لا تتخذوا وكيلًا ابتداءً مِن مخالفةِ شرعي وديني؛ فإنَّ أيَّ اتّخاذٍ يكون مخالفًا لشرعِ اللّه تعالى فهو بدايةُ الضّلالِ المَنهيّ عنه، وهي نظيرُ النَّهي عنِ اتّباع خطواتِ الشّيطان، فإنَّ اتِّباع الخطوةِ الأولى فالتّاليةِ موصلٌ إلى الضَّلال، وكذلك هنا، فإنَّ اتّخاذ أيِّ وكيلٍ ابتداءً مِن مخالفة الشّرعِ مهما دَقَّ هو داخلٌ في المَنهيِّ عنه.

دلالةُ إضافةِ ﴿دُونِي﴾:

دعوةٌ للنّظر والتّأمّل في صنيع الله تعالى وإنعامه على بني إسرائيل

ورد لفظُ (دون) مضافًا إلى ضمير المُتكلِّم ﷻ في قوله: ﴿مِن دُونِي﴾؛ اختصارًا وإيجازًا، والتّعبير بضمير المُتكلِّم إحضارٌ قويٌّ لذاته تعالى، ولمّا كان السّياق كلُّه مِن أوّل الآية متضمِّنًا ضمائرَ العَظَمةِ في الإيتاء والجَعْل، والنّهي عن اتِّخاذ الوكيل، وكلُّها بأسلوب المُتكلّم الحاضرِ، ناسَبَ عدم صرفِ الحديث إلى الغائب؛ ليلفتَ الأذهان المُنصرفة إلى جلاله تعالى وقُدرته، وأنّه هو الوكيل الّذي يجب أن يُلجأ إليه، لا أحدَ غيره.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 26، 25.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 308.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ ﴿وَكِيلًا﴾:

آثَرَ النَّظمُ ذِكْرَ صفةِ الوكيل دونَ غيرِها، والوكيلُ فعيلٌ بمعنى مفعول، وهو المَوكول إليه، أي: المُفوّض إليه الأمورُ وهو الرّبّ[1]؛ وذلك للتّنبيه على سَفَه آرائهم في تَرْك مَن يكفي في كلِّ شيء، إلى مَن لا كفاية عنده لشيء[2]، "وقد عُرف إطلاقُ الوكيلِ على اللهِ في لُغةِ بني إسرائيل كما حَكَى اللهُ عن يعقوب وأبنائِه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ٦٦﴾ [يوسُف: 66]"[3].

مَن اتّكل على غير الله تعالى اتّكل على سَرابٍ، ومصيرُه إلى خَراب

دلالةُ التّنكير:

النّكرةُ ما شاع في جنسه دون أن يَدُلَّ على معيّن، فجاءت كلمةُ ﴿وَكِيلًا﴾ نكرةً؛ لأنَّها لم تدلّ على وكيل بعينه، وإنّما عُبِّر بها للدَّلالة على التّقليل والتّحقير لشأن هذا الوكيل المُتّخذِ من دون الله ﷻ، وهذا تعريضٌ بسَفَه هؤلاءِ وحماقتهم، حين يتركون صاحبَ القوى والقُدَر، ومَن يملك أَزِمّة الأمورِ وبيده مقاليدُها، ويتوجّهون إلى غير اللّه تعالى مِن صنم ونحوه ممّن لا يملكون لأمرهم شيئًا، ففِعْلُهم هذا دليلٌ على سَفَههم وحَماقتِهم الّتي لا نهايةَ لها.

الإعراض عن القويّ العزيزِ كِبْرٌ، والتّوجُّهُ إلى الضّعيف الذّليل حماقةٌ

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمفرد:

أُفرد الوكيلُ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ والمخاطَبون جمعٌ؛ فاتّخاذُهم سيكون لأكثرَ مِن وكيل؛ لإرادة الجِنس، وشيوع النّكرة في كلِّ ما يَصْدُق عليه هذا الاسمُ، فهو فعيلٌ بمعنى مفعول، يستوي فيه الواحدُ والجمعُ والمُذَكّر والمُؤَنّث، "فالإفرادُ لِما أنّ فعيلًا مفردٌ في اللّفظ، جمعٌ في المعنى"[4]، ونُكْتَةُ الإفراد أن يبقى هذا اللّفظ قائمًا لدلالته الاستغراقيّة لكلِّ ما

كلُّ مَن يُلتجأ إليه في الحوائج من دون الله داخلٌ في المَنهيِّ عنه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 15.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 295.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 26، 25.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 156.

يصدُق عليه هذا الاسمُ، ولكي لا يُظَنّ أنَّ هناك وكلاءَ مقصودين جاء النَّهي عنِ اتِّخاذهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

الإيتـاء يكـون بمناولةٍ وبغير مـنـاولــة، والإعـطاء يكون بمناولة

الإيتاءُ الإعطاءُ، تقولُ: آتى يُؤتي إيتاءً، وتقولُ: هاتِ بِمعنى آتِ، أي: فاعِل، فدخلتِ الهاءُ على الألِفِ، وتقولُ: تأتّى لِفُلان أمرُهُ، وقد أتّاهُ اللّهُ تأتيةً[1]، وخُصّ دفعُ الصّدقة في القرآن بالإيتاء[2]، وأمّا الإعطاء فهو مِنَ العَطوِ: التّناول، والمعاطاة المُناولة، والإعطاء: الإنالة، واختصّ العطيّة والعطاء بالصّلة[3]، والإعطاء: أصلٌ واحِد صحيح يدُلُّ على أخذ ومُناولة، لا يَخرُجُ البابُ عنهُما، فالعَطوُ: التّناوُلُ باليدِ، والمُعاطاةُ: المُناولةُ، ويُقالُ: عاطَى الصّبيُّ أهلَهُ، إذا عمِل وناول ما أرادوا، والعطاءُ: اسمٌ لِما يُعطى، وهي العَطيّةُ، والجمعُ عطايا، وجمعُ العطايا أَعْطيَة[4]، فالفرق بينَ الإيتاء والإعطاء: أنَّ الإيتاء يكون بوساطة وبدون وساطة، والإعطاء يكون مناولةً، كما أنَّ الإيتاء يغلب في المعنويّات والمَحسوسات، والإعطاء يغلب في المحسوسات.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(3) الرّاغب، المفردات: (عطا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو).

﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال مِن مِنّة الهداية إلى التّذكير بمِنّة الإنجاء

انتقلتِ الآيةُ إلى امتنان آخر على بني إسرائيلَ، وقد نجّى اللّهُ آباءَهم الأوّلين مع نوح ﷺ، فوجب شُكر نعمةِ اللّه عليهم، فكما أسرى بمحمَّد ﷺ مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأسرى بموسى ﷺ إلى جبل الطّور حيثُ المواعدةُ الرّبانيّة، وآتاه التّوراةَ هدًى وهدايةً، رجعَ فَذَكَر مِنّته ﷻ على نوحٍ ومَن معه، بإنجائهم مِنَ الغَرق في كونه عبدًا للّه تعالى شكورًا لنعمائه عليه، فأَلْفَتَهُمْ إلى وجوب الإذعان له تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةَ﴾: (ذرأ) الذّالُ والرّاءُ والهمزةُ يَدُلُّ على الشّيءِ يُبذَرُ ويُزرعُ، ومنه قولُهُم: ذرأنا الأرضَ، أي: بذرناها، وزَرْعٌ ذَريء، على فعيل، ومِن هذا البابِ: ذَرأَ اللّهُ الخَلْقَ يَذْرؤُهُم، قال اللّهُ تعالى: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 11](1)، ولفظ الذُّرّيّة نَسْلُ الثّقلَين، وكان ينبغي أن تكون ذُرّيئَة فكَثُرت، فتَركَتِ العربُ همزَها، وليس في القرآن من هذا التّركيب إلّا (ذرأ)، ومضارعها بمعنى نَشْرِ الأشياءِ الدّقيقة والذّرّيّة(2)، والذُّرّيّة تقعُ على الآباءِ والأبناءِ والأولادِ والنِّساء، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ [يس: 41]؛ أراد آباءَهُمُ الّذين حُمِلوا مع نوح في السّفينة(3)، والمرادُ بالذُّرّيّة هنا: آباؤُهم الّذين نَجَوا مع نوحٍ ﷺ أيامَ الطّوفانِ الأكبرِ؛ لإيمانهم بما جاء به نَبيُّ اللّهِ ﷺ، فالمقصود بها إذًا آباؤهم الأوَلُ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرأ).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذرأ).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (ذرا).

2) ﴿حَمَلْنَا﴾: "الحاءُ والميمُ واللّامُ أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على إقلالِ الشّيءِ، يُقالُ: حملتُ الشّيءَ أحمِلُهُ حملًا، والحَمْلُ: ما كان في بطن أو على رأسِ شجر، والحِملُ: ما كان على ظَهْر أو رأسٍ[1]، والمراد بالحَمْل هنا: ركوبُ مَن آمن مع نوح عليه السلام، فهم محمولون بأمر اللّه وإذنه، والمرادُ بالمَحمولين: المؤمنون الّذين ارتَضَوا منهجَ نبيّ اللّهِ نوحٍ عليه السلام وصدّقوه، ومِن هنا نجّاهمُ اللّهُ تعالى وأهْلَكَ المُعاندين المُكَذِّبين.

3) ﴿شَكُورًا﴾: ممّا تدلّ عليه الشّينُ والكافُ والرّاءُ: الثّناءُ على الإنسانِ بمعروف يوليكَهُ، ويُقالُ: إنّ حقيقة الشُّكرِ الرِّضا باليسير، يقولون: فَرَسٌ شَكور، إذا كفاهُ لِسِمَنِهِ العَلَفُ القليلُ، ويُقالُ في المَثَلِ: (أشْكَرُ مِن بَروَقَةٍ)، وذلِك أنّها تَخْضَرُّ مِنَ الغيمِ مِن غيرِ مطر[2]، ومعناه المِحوريّ: "امتلاءُ جَوفِ الشّيءِ بِرِخْوٍ طيِّبٍ، وظهورُه عليه، ولو كان رافدُه قليلًا، ومِن معنويِّ الأصل: الشّكر: عِرفانُ الإحسان لصاحبه ونشرُه؛ إذ هو تعبيرٌ عنِ امتلاء النّفسِ ورضاها بما قُدِّم لها مِن خير"[3]، والشّكور هنا: هو نبيُّ اللّهِ نوحٌ عليه السلام، المَوسومُ بكَثرة شُكْرِه ربَّه جل جلاله في كلِّ أحواله.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

لفتُ الأذهان إلى مِنّة الرّحمن

جاءت هذه الآيةُ إثارةً لعزائم بني إسرائيلَ نحو الإيمانِ والعملِ الصّالح، ولتنبيههم إلى نعمه سبحانه عليهم؛ إذ جعلهم مِن ذُرّيّة أولئكَ الصّالحين الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وحضّهم على السّير على منهاجهم في الإيمان والعمل الصّالح، فإنّ شأن الأبناءِ أن يقتدوا بالآباء في التّقوى والصّلاح[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 289 بتصرف.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فَصْل صدرِ الآية:

مِن أعظم المِنن تواليها، والتَّذكيرُ ببركةِ ماضيها

فُصلت آية: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ عمّا قبلَها؛ لكونها مسوقةً على وجه التّعليل؛ إمّا لإيتاء الكتاب، أو لِجَعْله هدًى، أو أنّها مُنَزّلَةٌ مَنزلةَ عطفِ البيان مِن سابقتها، فتَمّ الفصلُ بينهما لكمال الاتِّصال في كونها وردت مبيِّنةً تشريفَ اللّهِ تعالى لبني إسرائيل، بأنَّهم بنو إسرائيل مِن ذُرّيّة المؤمنين مع نوح عليه السلام، وإتمامُ نعمتِه عليهم ليقعَ منهم اتِّباعُ الرُّسلِ عليهم السلام، وليَحْمِلَهم ذلك على هذا الاتِّباع، و"يجوزُ أن يكون اعتراضًا في آخِرِ الحِكايةِ، ليس داخِلًا في الجُملةِ التّفسيريّةِ"[1].

دلالةُ النّصبِ في: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾:

تَحريضٌ على شُكرِ نِعمةِ الله، واجتِنابِ الكُفرِ بِهِ باتِّخاذِ شُركاءَ دُونَه

قولُه تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ منصوبٌ على الاختصاصِ، وفيه أوجهٌ أُخرى ما بين مُستبعَدَةٍ أو نافرةٍ عنِ القَبول[2]، ونُكْتَةُ الاختصاصِ: زيادةُ بيانِ بني إسرائيلَ بيانًا مقصودًا بِهِ التّعريضُ بِهِم؛ إذ لم يشكُروا النِّعمةَ[3]، أي: أنّكم مِن بني إسرائيلَ النّاجين مِن فرعون، مِن ذُرّيّة المَحمولين في سفينة النّجاة، فهو امتنانٌ مِن بعده امتنان، داعٍ إلى الشّكر والتّوحيد.

سِرُّ التّعبير بلفظ ﴿ذُرِّيَّةَ﴾:

التّلويحُ بالضّعفِ حالَ الإنجاءِ سابقًا، طريقُ الإقبالِ حالَ النِّسيانِ لاحقًا

إذا أُطلِقَتِ الذّرِّيّةُ فهي شاملةٌ للآباء والأبناء والنِّساء والأولاد، والمقصود بها هنا: أبناءُ مَن حُمِلوا مع نوحٍ عليه السلام، والمعنى: يا ذُرّيّةَ أو نَسْلَ وحَفَدَةَ أولئك الّذين نجّاهمُ اللّهُ تعالى مِنَ الغَرَق مع نوحٍ، وهم أجدادُكم الذين هُدوا إلى الحَقِّ والخير ونهجوا نهجَ التّوحيدِ، عليكم التّشبُّهَ بهم؛ إذ إنّكم أولى النّاسِ باتّباعهم، وفي إيثار لفظ الذُّرّيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 26.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 309، 308.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 26.

الواقعةِ على الأطفال والنساء تلميحٌ بأنّهم أضعفُ مِن آبائهم؛ لأنّهم متولِّدون عنهم، وتذكيرٌ بالنِّعمة مِن إنجاء آبائِهم؛ ليَلْتَزِموا طريقَ آبائِهم في الإيمان.

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَل:

حِفظُ الآباء هو نعمةٌ على الأبناء

الحَمْلُ في أصل وَضْعِه ما كان في بطن أو على رأس شَجَر أو ظَهْر ونحوِ ذلك، ولمّا كانتِ السّفينةُ هي الحامِلة لهؤلاء صار الحَمْلُ عليها، المَذكورُ في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا﴾ سببًا للنّجاة، فأُطْلِقَ السّببُ وأريدَ المُسَبَّبُ عنه على سبيل المَجاز المُرسل، والمعنى: ذُرّيّة مَن أنجيناهم مِنَ الغرَق أو الطّوفان مع نبيّ اللّه نوحٍ عليه السلام، بحَمْلِهم في هذه السّفينة.

بلاغةُ فَنِّ الإدماج في براعة التّعبير:

التّأسّي بالصّالحين مصدرُ نجاةٍ، والمخالفةُ مَهْبِطُ خسارةٍ

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ دون أن يقول: (ذريّة نوح)، وذلك للتّذكيرِ والتّحريضِ والتّعريضِ ببني إسرائيلَ؛ فبنو إسرائيلَ مِن ذُرّيّةِ سامَ بنِ نوح، وكان سامُ مِمّن ركِب السّفينة، فلم يَقُل: (ذُرّيّة نوح) مع أنّهُم كذلك، قصدًا لإدماجِ أربعةِ معانٍ: التّذكيرِ بِنعمةِ إنجاءِ أُصولِهم مِنَ الغرَقِ، والتَّذكير بأنّ اللّهَ أنجى نوحًا ومَن معهُ مِنَ الهلاكِ بِسببِ شُكْرِهِ وشُكْرِهِم؛ تحريضًا على الائتِساءِ بهم، والتّعريضِ بأنّهُم إن أشركوا لَيوشِكَنّ أن يَنزِلَ بِهِم عذابٌ واستِئصال[1]، والعِلْم بأنّهم عَقِبُ أولادِ نوحٍ المؤمنين؛ لتكونَ تلكَ مِنّةً أُخرى[2].

نُكْتَةُ عدمِ نسبةِ بني إسرائيلَ إلى غير نوحٍ عليه السلام:

المُتابعةُ إمّا بالاقتداء بالبررة الصّالحين، أو بتقليد العاصين الفاسدين

اختار السّياقُ نوحًا عليه السلام دون بقيَّة الأنبياء؛ كإبراهيم وموسى عليهما السلام، لما فيهِ أنّ ذُرّيّة نوحٍ كانوا شِقّين: شِقٌّ بارٌّ مُطيع، وهُمُ الّذين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 27.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 296.

حَمَلهُم معهُ في السّفينةِ، وشِقّ مُتكبِّر كافِرٌ وهو وَلدُهُ الّذي غرِق؛ فكان نوح ﷺ مثلًا لِأبي فريقين، وكان بنو إسرائيلَ مِن ذُرّيّةِ الفريقِ البارِّ، فإنِ اقتدوا بِهِ نَجَوا، وإن حادوا فقد نَزَعوا إلى الفريقِ الآخرِ؛ فيوشِكُ أن يَهلِكوا، وهذا التّماثُلُ هو نُكْتَةُ اختيارِ ذِكرِ نوحٍ مِن بينِ أجدادِهِمُ الآخَرين، مِثلِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ﷺ؛ لِفواتِ هذا المعنى في أولئك[1].

عِلّةُ فَصْلِ جملةِ الفاصلة:

فُصِلَت جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ عن سابقتها لكمال الاتِّصال؛ لكونها مؤكِّدةً للأولى، متّصلةً بها اتِّصالًا تامًّا، وجاءت هذه الجملة تذييلًا جامعًا، مقصودًا بها الثّناءُ والمَدحُ على نبيّ اللّهِ نوحٍ ﷺ.

الثّناء على الشّكور مدعاةٌ إلى الاقتداء

غَرضُ تأكيدِ أنَّ نَوحًا ﷺ عبدٌ شكور:

أُكِّد الكلامُ بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾؛ لتنزيل المُخاطَبين منزلةَ مَن يَجْهَلُ ذلك؛ "إمّا لِتوثيقِ حَمْلِهم على الاقتداءِ بِهِ، إنْ كانتِ الجُملةُ خطابًا لِبني إسرائيلَ مِن تمامِ الجُملةِ التّفسيريّةِ، وإمّا لِتنزيلِهِم منزلةَ مَن جَهِل ذلك حتّى تورّطوا في الفسادِ؛ فاستحقّوا الاستِئصالَ وذهابَ مُلكِهِم، لِينتقِلَ مِنهُ إلى التّعريضِ بِالمُشرِكين مِنَ العربِ بِأنّهُم غيرُ مُقتدين بِنوحٍ؛ لِأنّ مَثَلَهُم ومَثَلَ بني إسرائيلَ في هذا السّياقِ واحِدٌ في جميعِ أحوالِهِم، فيكونُ التّأكيدُ منظورًا فيهِ إلى المعنى التّعريضيِّ"[2].

تنبيهُ الغافلين على أسباب الرّفعة، وطريقِ العِزّة

دلالةُ ذِكر فعلِ ﴿كَانَ﴾:

﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ فعل يدُلُّ على وقوع الفعل فيما مضى مِنَ الزّمان، فإذا كان فعلًا متطاوِلًا لم يَدُلَّ دلالةً قاطعة على أنّه زال وانقطع، فعُبوديّةُ نوحٍ ﷺ وشُكْرُهُ قد انقطعا

العبوديّةُ والشُّكر لا ينقطع أثرُهما بموتِ أهلِهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 28، 27.

بموته، وبقي ذِكْرُهما حديثَ القرآنِ والنّاسِ عنه، و﴿كَانَ﴾ دالّةٌ على تقديم الوَصف وقِدَمِه، وما ثبت قِدَمُه استحالَ عدمُه، والكونُ هنا وصفٌ لما كان عليه مِنَ الشُّكر الذي كان مُلازمًا له في كلِّ أحواله، فاتّصفَ بالعبوديّة الخالصة للمُنْعِم عليه مع إدامة شُكره له؛ فلم ينقطع الحديثُ عنه متى ذُكِر اسمُه ﷺ؛ فمَجيئُها هنا صار مُؤَكِّدًا لهاتين الصِّفتين فيه، لا يَنفكّان عنه.

دلالةُ وصفِ نوحٍ ﷺ بالعبوديّة دون الرّسالة أو النُّبوّة:

غاية الإفضال والإنعام في غاية التّذلّل والخضوع لله تعالى

العُبوديّة: هي إظهار التّذلُّل والخضوع للّه تعالى، والعبادة أبلغ مِنَ العبوديّة؛ لأنّها غاية التّذلُّل؛ ولا يستحقُّها ولا تكون إلّا لِمَن له غايةُ الإفضال والإنعام، وهو اللّه ﷻ، ولمّا كان نوحٌ ﷺ عبدًا مخلِصًا للّه تعالى؛ وصَفَه اللّهُ تعالى بتلك الصِّفة، كما وصف نبيَّه محمّدًا ﷺ قبلَ ذلك في رحلة الإسراء، باعتبار هذه الصّفة برهانَ اختيارِه رسولًا.

توجيهُ تخصيصِ صفة الشّكور بالذِّكر:

مَن أدمن شيئًا عُرِف به، وصار علَمًا عليه

مِن أشهر صفات نوحٍ ﷺ صفةُ الشّكر، فكان "عبدًا مبالِغًا في الشّكر لنِعَم اللّه وعِرفانِ قَدْرِه وعَظَمتِه، وإنّما يكون العبدُ شكورًا إذا كان موحِّدًا لا يرى حصولَ شيءٍ مِنَ النِّعم إلّا مِن فضل اللّه، فاقْتَفوا أثرَه، واتَّبِعوا منهجَه وسُنَّتَه، واقْتَدوا به"، ومن هنا تظهر مناسبته لما قبلَه، "كأنّه قيل: لا تتّخذوا من دوني وكيلًا، ولا تشركوا بي؛ لأنّ نوحًا ﷺ كان عبدًا شكورًا، وأنتم ذُرّيّة مَن آمن به وحُمِل معه، فاجعلوه أُسْوَتَكم كما جعله آباؤكم أُسْوَتَهم، ويجوز أنْ يكون تعليلًا لاختصاصهم والثّناء عليهم، بأنّهم أولادُ المَحمولين مع نوح، فهم متّصلون به، فاستحقّوا لذلك الاختصاصَ، ويجوز أن يقال ذلك عند ذِكره على سبيل الاستطراد"[1].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 438.

سِرُّ اختيارِ صيغة فعول ﴿شَكُورًا﴾:

نـعـيـمُ أهـل الشّكر في زيادة متّصلة

وردت لفظةُ ﴿شَكُورًا﴾ في قوله تعال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ بصيغة المبالغة على وزن (فعول) فأفادت وصفَه ﵇ بأنّه كثيرُ الشُّكرِ في جميع حالاته، "وفيها إيذانٌ وإعلامٌ بأنّ الذين نجوا معه كان نجاؤهم ببركة شُكره ﵇، كما أنّ وُرودَ هذه الصّيغة يُعدُّ حَثًّا للذّرّيّة على الاقتداء به ﵇، وزجرًا لهم عنِ الشِّرك المُؤدّي إلى الكُفران"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّرِّيَّة والنّسل:

يُلحظ في الذّرّيّة الاستمرارُ، بخلاف النّسل فَمُطلقُ الخروج

تدلُّ الذُّرّيّة على الشّيءِ يُبذرُ ويُزرعُ، وقولُهُم: ذرأنا الأرضَ، أي: بذرناها، وزرعٌ ذَريء، على فعيل، والذّرْءُ الخَلْقُ، فيُلحَظ في الذّرّيّة الاستمرارُ والتّكاثرُ، أمّا النّسل فيَدُلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسِلالِه، والنّسلُ: الولدُ؛ لأنّهُ يُنسَلُ من والِدِتِه، وتناسَلوا: وُلِد بعضُهُم مِن بعض[2]، فيُلحظ فيه الخروج، ودلالةُ الذّرّيّة أرسخُ في معنى الاستمرار والتّكاثر، فكانت أوقعَ في سياق الامتنان.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 156.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرأ).

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾ [الإسراء: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال مِنَ الإخبار عن الكتاب إلى ما جاء في الكتاب

لمّا تحدّثتِ الآياتُ السّابقة عن مِنَّة رحلة الإسراء إلى المسجد الأقصى، وإيتاءِ موسى عليه السلام الكتابَ، وحَمْلِ بني إسرائيلَ في سفينة النّجاة، ناسبَ أن يذكرَ ما يَدُلّ على شَرَف كتابِ موسى عليه السلام، وصِحّة نسبته إليه تعالى بما يقتضي شمولَ العِلْم وتمام القُدرة، بما كشف عنه الزّمانُ مِن صدق إخباره، وقوّة وعيده وإنذاره؛ تنبيهًا على أنَّ مَن كَذّب بكتابه أهلكَه كائنًا مَن كان، وإنْ طال إمهالُه، فلا تغترّوا بحِلْمه؛ لأنّ الملوكَ لا تُقِرّ على أمرٍ يَقْدحُ في مُلْكِها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾: القافُ والضّادُ والحرفُ المُعتلُّ أصلٌ صحيح يدُلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانِهِ وإنفاذِهِ لجِهتِه، قال اللّهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: أحكم خَلْقهُنّ، والقضاءُ: الحُكمُ[2]، وفصلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو فعلًا، قال تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، أي: أمر بذلك، فهذا قضاءٌ بالإعلام والفصل في الحُكم، أي: أعلمناهم وأوحينا إليهم وحيًا جزمًا[3]، فالمراد بالقضاء في الآية الإعلامُ مِنَ اللّه بما سيفعله بنو إسرائيل، فجعله اللّهُ تعالى وحيًا مقطوعًا به؛ لكونه سبحانه أعلمُ بخَلْقه ومآلاتهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 297.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضى).
(3) الرّاغب، المفردات: (قضى).

2) ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾: "الفساد هو التّغييرُ عن المِقدار الذي تدعو إليه الحِكمة، والشّاهد أنّه نقيض الصّلاح، وهو الاستقامة على ما تدعو إليه الحِكمة"[1]، وهو "خروج الشّيء عنِ الاعتدال، قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُضادُّه الصّلاحُ، ويُستَعمل ذلك: في النّفس، والبَدن، والأشياء الخارجة عنِ الاستقامة"[2]، والمراد بإفسادهم في الأرض: تخريبُها وإهلاكُ ما فيها، وإخراجُها عن دائرة الصّلاح والنّفع، وهذا هو دَأْبُهم مِن أوّل الزّمان إلى آخره، وراثةً كابرٍ عن كابر.

3) ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾: (مرّ) الميمُ والرّاءُ أصلانِ صحيحانِ؛ يدُلُّ أحدُهُما على مُضيِّ شيء، والآخرُ على خِلافِ الحلاوةِ والطّيب، فالأوّلُ: مرّ الشّيءُ يمُرُّ، إذا مضى، ومَرُّ السّحابِ: انسِحابُهُ ومُضيُّهُ، ولقيتُهُ مَرّةً ومَرّتينِ إنّما هو عِبارة عن زمان قد مرّ، ويقولون: لقيتُهُ مَرّةً مِنَ المَرِّ، يجمعون المَرّة على المرِّ[3]، وقد استعمل القرآنُ ما كان لجزءٍ يسير مِنَ الزّمان مَرَّةً، ومَرّتين، قال تعالى: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾، استبشارًا بسُرعة الزّوال.

4) ﴿وَلَتَعۡلُنَّ﴾: العينُ واللّامُ والحرفُ المُعتلُّ أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على السُّموِّ والارتِفاع، لا يشِذُّ عنهُ شيءٌ[4]، فالمعنى المحوري للمادّة: "ارتفاع الشّيء فوقَ شيءٍ تحتَه أو أدناه"[5]، والمرادُ بالعُلو بالعُلوِّ في الآية هنا العُلوُّ المَذموم الّذي يُراد به التّجبُّرُ والتّكبُّرُ الّذي يَخرج عن حَدِّ الاستقامة والشّرف، بدليل المعطوف عليه، وهو الفساد.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لمّا ذكر اللّهُ تعالى إنعامَه على بني إسرائيل بإنزال التّوراة وجَعْلِها

أرشد الله تعالى بني إسرائيلَ إلى الهداية، لكنّهم آثَروا طريقَ الغِواية

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 226.
(2) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).

هدًى لهم، بيّن سبحانَه أنّهم ما اهتَدَوا بهُداه، بل وقعوا في الفساد والإفساد، فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: أوحينا إليهم وأعلمناهم بأنّهم سيفسدون في الأرض مَرّتين قتلًا وتَجَبُّرًا، وإخراجَ هذه الأرض مِن دائرة الصّلاح الّتي خلقها اللّهُ عليها، مع عدم التفاتهم إلى ما جاء في تعاليم التّوراة مِنَ الإيمان والاهتداء، فامْتَطَوا مَطيّة الإفسادِ والدّمار، مع عدم مراعاة آدابِ هذا الكتاب.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة واو عطف ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ للمعطوف عليه:

إقامةُ الحُجّة ببيانِ عاقبة مُخالفةِ هدي التّوراةِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ عاطفةٌ على قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمناسبةُ بين المعطوف والمعطوف عليه: أنّه لمّا أخبر عن إيتاءِ موسى الكِتابَ هُدًى، وذكر أنّه بيَّن لِبني إِسرائيلَ في الكِتابِ ما يَحِلُّ بِهِم مِن جَرّاءِ مُخالفةِ هدي التّوراة، إعلامًا لِهذِهِ الأمّةِ بأنّ اللّه لم يَدّخِر أولئك إرشادًا ونُصحًا، فالمُناسبةُ ظاهِرة[1].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ القضاء:

قطعُ العُذرِ بالأمرِ الفَصْل المُبَيَّن في التّوراة

يتضمّنُ لفظُ القضاءِ معنى الإحكامِ والإتقان والفَصْل، والمُرادُ به في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾: التّقديرُ والإعلام والوَحْيُ، فهو معنًى شامِلٌ جامع، ولمّا كان المرادُ بالقضاء هنا الوحيَ والإعلامَ، أي: كونَه وحيًا جازمًا، وقضاءً مبرمًا، فلمّا كان ذلك كذلك استَحقّ أن يكون مكتوبًا في الكتاب الّذي أُنزل إليهم، وهو التّوراة، فهو ليس مُجَرَّدَ إخبارٍ، بل إخبارٌ مُتْقَنٌ، وفيه الفصلُ في الأمور.

دلالةُ إسناد الفعل (قضى) إلى نُون العَظَمة:

قضاء الله تعالى نافذ، مقطوع بوقوعه

دَلَّ التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ على تَحَقُّقِ هذا القضاء وحصولِه، وكونِه وحيًا مقطوعًا به، فإسناد الفعل (قضى) إلى نون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 28.

العَظَمة، تشريفٌ وتعظيمٌ لهذا الوَحي المَقضيِّ به؛ لكونه سبحانه ممّن يملك القضاءَ والإيحاء، ولكون هذا القضاءِ مدوّنًا في كتاب يَتلقّون تعاليمَه، ويتابعون منهجَه، وهو أخصر وأوجزُ مِن أن يُقال: قضى اللّهُ في الكتاب؛ لإبلاغ الحُكم مِن أيسر طريق.

دلالةُ تعديَة (قضى) بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

تضمين الفعلِ (قضينا) معنى الإيحاءِ والقضاء المحتوم

الفعل (قضى) يتعدّى بنفسه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ [الأحزاب: 37] ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ [القصص: 29]، وإنّما تعدّى في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بحرف ﴿إِلَىٰ﴾؛ لتضمُّنه معنى: أنفذنا وأوحينا، أي: وأنفذنا إليهم بالقضاءِ المحتوم[1]، "ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال: (قضينا بني إسرائيل)، ولو كان بمعنى حكمنا لقال: (على بني إسرائيل)، ولو كان بمعنى أتممنا لقال: (لبني إسرائيل)"[2]، وفائدة التّضمين هاهنا الجمعُ بين معنيين؛ فاستعمال الفعل ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ في هذا الموضع فيه قَصْدٌ إلى معنىً معيّن، لا يتأتّى من دون ذِكره، إلّا أنّ تعديتَهُ بغير الحرف المستعمل معه عادةً فيه ضَرْبٌ مِنَ التّوسع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومُؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةَ أصلِ معناه، وباستعمال حرف الجَرّ الذي يتطلّب فعلين آخرين هما: أنفذنا، وأوحينا؛ يصبح للمعادَلة وجهان متكاملان؛ إذ يُؤدّي الفعلُ أصلَ معناه بالتّصريح به، ويقتضي حرفُ الجَرّ معنى الفعل الذي يطلبه بالتّضمين.

دلالة استعمالِ ﴿فِي﴾:

ثبوتُ القضاء المذكور في الكتاب

التّعبيرُ بحرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للدّلالة على تمكُّن الظّرف مِنَ المَظروف؛ ليكون حجّةً وبرهانًا عليهم، لا تبديلًا ولا تحويلًا، فالقضاءُ المُخْبَر به مقطوعٌ به، ثابتٌ في التّوراة، فمَن أراده فلْيَطْلُبْه ثَمَّ.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 310.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 390.

معنى التّعريف في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تعريفيّة، إمّا للعهد وإمّا للجنس، والأكثريّة مِنَ المفسّرين على إفراد الكتاب، والمراد به التّوراة، فيجوزُ أن يكون المُرادُ بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كِتابَ التّوراة، والتّعريفُ لِلعهدِ؛ لِأنّهُ ذُكِر الكِتابُ آنِفًا، ويجوزُ أن يكون ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بعضَ كُتُبِهِمُ الدّينيّة، فتعريفُ الكِتابِ تعريفُ الجِنسِ، وليس تعريفَ العهدِ الذِّكْرِيِّ، إذ ليس هو الكِتابَ المذكورَ آنِفًا في قولِهِ: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لِأنّهُ لمّا أظهر اسمَ الكِتابِ، أشعر بِأنّهُ كِتابٌ آخرُ مِن كُتُبِهِم، وَيَجوزُ أَنْ يُرادَ بِـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التَّوْراةُ وَكُتُبُ الأَنْبياءِ، وَلِذَلِكَ أَيْضًا وَقَعَ بِالإِظْهارِ دونَ الإِضْمارِ[1].

ذِكرُ كلِّ أمّةٍ في كتابِها لمَن أبصر واعتبر

نُكْتَةُ إظهارِ ما حَقُّه الإضمارُ:

قد يُتَجَوّز بحَذْف الضّمير للعِلْم به، والمُضْمَر لا يكون إلّا بعدَ الظّاهر لفظًا أو مرتبةً، أو لفظًا ومرتبةً، ولا يكون قبلَ الظّاهر لفظًا ومرتبةً إلّا في أبواب ضمير الشّأنِ والقِصّة، والضّميرُ لا يعود إلّا على مشاهَدٍ محسوس، ولمّا كان الأمرُ قضاءً وتقديرًا وحُكمًا، جاء التّعبيرُ بالاسم الظّاهر؛ لمزيد الاهتمام بالمَقضيِّ به وما ورد فيه مِنَ القضاء، ومِن هنا جاء التّعبيرُ باللّفظ الظّاهر ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لغرض التّشريف والتّعظيم والاهتمام بأمر هذا الكتاب وما جاء فيه، ولتقويَة أنَّ المُراد به التَّوراةُ، لا غيرُه مِنَ الكتب.

شرفُ أهلِ الكتابِ بشرفِ الالتزامِ به والعملِ بأمره

عِلَّةُ الفصلِ في: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إمّا أن يكون عطفَ بيانٍ وتفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ففصلت عنها لكمال الاتّصال، أو مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، على أنّ قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ مثيرٌ لسؤال: ما هذا القضاء الّذي قضاه اللّه تعالى؟

الإخبار عن الإفساد يقتضي الحَذَرَ مِنَ العواقب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 29، 28.

فجاء الجوابُ بقوله: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾، ففصلت لشبه كمال الاتّصال.

إفسادُ بني إسرائيل ثابتٌ مُؤكّدٌ بالقسم

نوعُ اللّام في: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾ جوابُ قسم محذوف، تقديره: واللّهِ لَتُفسدن، ويجوز أن تكون جوابًا لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾؛ لأنّه مضمَّنٌ معنى القَسَم، كما يقول القائل: قضى اللّهُ لأفعلنَّ كذا، فيَجْري القضاءُ والقَدَرُ مَجْرى القَسَم(1).

الإفسادُ يكون بعد الإصلاح، وهو وصفٌ متأصّلٌ في الهالكين

سِرُّ اختيارِ لفظِ الإفساد:

آثَر النَّظمُ اختيارَ لفظِ الإفساد في قوله تعالى: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾، وهو التّغيير عن المِقدار الذي تدعو إليه الحِكمة، والشّاهد: أنّه نقيض الصّلاح، وهو الاستقامة على ما تدعو إليه الحِكمة(2)؛ لأنَّ إفساد بني إسرائيل إنَّما يكون بعد إصلاح الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، وإفسادُهم في الأرض خروجُهم عن حَدِّ الاعتدال بتخريب الأرض وقتلِ الأنبياء والدُّعاة، واستباحةِ الدِّماءِ والأعراض؛ فإذا نزلوا أرضًا أفسدوها وهتكوا حرماتِها، وغيّروا معالِمَها، وحوِّلَت مِن دائرة الصّلاح إلى بوارٍ ودَمار، وهذا شأنهم في تَكبُّر وجَبَروت.

تأكيد خبرِ الإفساد دليلُ إصرارِ المُفسِد

دلالة التّأكيد في: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾ مع صيغة المضارع:

الفعل المضارعُ يُفيد التّجدُّدَ والاستمرارَ مع استحضار الصّورةِ الماضية، ليَنْظُرَ السّامِعُ ويستحْضِرَ إفسادَهم على مَرِّ العصور، واقترانُ الفعلِ المضارع هنا بلام القَسَم، وهي داخلة على الجملة الفعليّة، وهي إحدى أدوات التّوكيد، ثمّ اقترانه بنون التّوكيد الثّقيلة المُشَدّدة المفتوحة التي تدخل على المضارع وجوبًا أو جوازًا، دلّ على أنّ الإفساد سيقع مِن هؤلاء ويتجدّدُ بلا انقطاع، وأنّ الإفساد طَبْعُهم

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 290.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 226.

الّذي سيلازِمُهم ملازمة أرواحِهم لأجسامهم.

إطلاق العامّ وإرادة الخاصّ لشرف الخاصّ

توجيهُ المجاز في لفظ: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إطلاقُ لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ من إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ، وهي الأرض المُقدّسة بالشّام، أو مِن إطلاق الكلِّ وإرادة الجُزء على سبيل المَجاز المُرسل، إذ ليس المراد جميعَ الأرض، وإنّما الأرضُ المَخصوصة بهم وهي الأرض المُقَدّسة، والتّعبير بالمَجاز أعطى لهذه الأرض الشّرف والقُدْسيّة والمكانةَ، وهي الموصوفة سابقًا بقوله تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾.

أعظم الإفساد ما تغلغل في باطن الأرض

بلاغة الاستعارةِ التّبعيّة في حرف الظّرفيّة:

استُعمِل حرفُ الظَّرفيّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للدّلالة على تمكُّن إفسادهم في الأرض بما تحتويه من مبان وزروع وغيرها، فاستُعير حرفُ ﴿فِي﴾ الدّالُّ على الظَّرفيَّة، لحرف الاستعلاء الدّالِّ على العُلوّ استعارةً تبعيّةً في الحرف، مبالغةً في تمكُّن إفسادهم في الأرض، وإذا حملنا دلالة الإفساد إلى باطن الأرض فإنَّ استعمالَ هذا الحرف يكونُ من باب الحقيقة الظَّرفيَّة المكانيَّة، أي: إفسادًا يتغلغل في داخل الأرض؛ لتخريب أقدسِ ما فيها.

دلالةُ التّعبير بـ: ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾:

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بـ: ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾، والمَرّة جُزءٌ مِنَ الزّمن، وذلك للإشعار بانصرامهما وسُرعة انقضائهما، وقد استعمل القرآنُ ما كان لجُزءٍ يسير مِنَ الزّمان مَرَّةً، ومرّتين.

السّكوت عن الإفسادِ فسادٌ والرِّضا به إفساد

بلاغةُ المجاز المُرسَل في إسناد فعل الإفساد إلى الضّمير:

الإفساد المسند إلى ضمير الخطاب العائد لبني إسرائيلَ في قوله تعالى: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾ لم يصدر عنهم جميعًا، فهذا من قبيل إطلاق الكلِّ وإرادة الجُزء على سبيل المجاز المُرسَل؛ لأنّ الكلّ لمّا رضوا فعلَ

الجُزء صار أَمْرُ الإفساد يَعُمُّ الجميعَ، كما في قوله تعال: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: 77]، فأفاد هذا الإسنادُ "أنّهُ إِفسادٌ مِن جُمهورِهِم، بِحيثُ تُعدُّ الأُمّةُ كُلُّها مُفسِدةً، وإن كانت لا تخلو مِن صالِحين"(1).

معنى الواو، ودلالتها:

الإفساد سببُ العُلوِّ والطُّغيان

عطفت الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا﴾ على السّابقة ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾؛ لاتفاقهما في الخبريّة لفظًا ومعنى، إلى جانب اتّفاقهما في الغرض العامّ، وهو بيانُ ما سيقع من بني إسرائيل من إفساد وتخريب، يُغلِّفُهما تَجَبُّرٌ وكِبْرٌ يمنعانهم مِنَ الرُّجوع إلى الحَقّ.

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة في استعمال لفظ العُلُوّ:

الكِبر أصل كلِّ خراب، والطّغيانُ سِرُّ كلِّ دمار

ورد فعلُ العُلوّ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا﴾ استعارةً تبعيّةً؛ إذ استُعير العُلوّ بمعنى تجاوزِ الحَدّ المعلوم، تكبُّرًا وتَجَبُّرًا لطغيانهم وعصيانهم، فاستُعيرَ اللّفظ الدّالُّ على العُلوّ للطّغيان والعِصيان، واشتُقَّ منه الفعلُ (تَعْلُنَّ) على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، والقرينةُ لفظيّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الدُّخان: 31]، "تشبيهًا لِلتّكبُّرِ والطُّغيانِ بِالعُلوِّ على الشّيءِ؛ لِامتلاكِه تشبيهَ معقولٍ بِمحسوس"(2)، ولمّا كان فرعونُ طاغيًا عاليًا مُسرفًا، وهمُ المُستَضعَفون المَسومونَ سَوءَ العذابِ على يديه، امتثلوا طريقَتَه، وساروا على نهجه، فالأُمّة المغلوبةُ مولَعَةٌ بتقليد الغالبة.

دلالةُ التّعبير بالمَصْدر ﴿عُلُوّٗا﴾:

استكبارُ بني إسرائيل تجاوزَ مَداه

المَصدر أصلُ المُشتقّات، وهو مبالغةٌ في العُلوِّ، ولمّا كان طغيانُهم وعصيانُهم قد تجاوز الحَدَّ، واستكبارُهم بلغ مَداه، صار ذِكْرُ مصدرِ هذا العُلوّ أقصى ما يَتَصَوَّرُه العقلُ، وهو هنا مفعولٌ مُطلَقٌ، اكتسب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 30.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 30.

التّجدُّد والاستِمرار مِن فعله، فصار أكثرَ وَكادَةً؛ مبالغةً في هذا العُلوّ.

عُلُوُّ المُفسدين الكبير شاملٌ ومُتعدِّد ومُتكَثِّر

سِرُّ وصفِ العُلُوّ بالكبير دونَ العظيم والكثير:

وُصِفَ العُلوُّ بالكبير دون العظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾؛ لما في الكبير مِنَ الكَثرة والاتّساع، بخلاف العظيم، فهو وَصْفٌ للشّيء الواحد، وجاء في قوله تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: 219] قراءتان: ﴿كَبِيرٞ﴾ و﴿كَثِيرٞ﴾؛ لاشتراكهما في الشّيء الواحد الدّالّ على التّعدّد والاتّساع، وهذا ما دَلّ عليه الوصفُ، فَعُلوُّهم في الإفساد كثيرٌ وكبيرٌ، ومُتَعَدِّد ومُتّسِعٌ، وهذا متّسِقٌ مع دلالة الظّرفيّة الدّالّة على الشّمول والتّغَلْغُل في الأرض.

عُلُوٌّ مِن نوع خاصّ تَخطّى الحدودَ المعلومة

دلالة التّنكير:

أفاد التّنكير في قوله تعالى: ﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ التّعظيمَ والتّكثيرَ لهذا العُلوّ، أمّا التّكثيرُ فَلِكَون كميّةِ هذا العُلوّ كثيرةً، وأمّا التّعظيمُ فَلِكَوْنِ الكيفيّةِ الّتي يقع بها العُلوُّ عظيمةً متجاوِزَةً للحَدِّ، ويمكن أن يكون التّنكير للنّوعيّة، فهو عُلوٌّ مِن نَوع خاصّ تخطّى الحدودَ المعلومة، لإخبار القرآنِ عنه فيما أخبرتِ التَّوراةُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الـفـسـاد هـو مخالفة مقتضى الحِكمة لمَا فيه الصَّلاح، والعُتُوّ أشدُّ الفساد

الإفساد والعُتُوّ:

الفرق بينهما: أنَّ الفسادَ هو التّغيير عنِ المقدار الذي تدعو إليه الحِكمة، فهو نقيض الصّلاح الذي هو الاستقامة على ما تدعو إليه الحِكمة، فما قَصُرَ عن المِقدار أو أفرط كان فسادًا، فهو تغييرُ ما من شأنِه أن يكونَ صالحًا، والفسادُ يكون في الأفعال والأقوال، فيَقع على الابتداع وفِعلِ المُنكراتِ وغيرِها.

وأمّا العُتُوّ: فهو كَثْرةُ الإفساد وأَشَدُّه، وأصلُه من قولك: ضبعٌ عَثْواء، إذا كَثُر الشَّعرُ على وجهها، وكذلك إذا كَثُرَ الشّعرُ على وجهِ

الرَّجلِ، وعاثَ يعيثُ لغةٌ، وعَثا يَعْثو أفصحُ اللُّغتين، فالعَيْثُ: الإِفسادُ لا الفسادُ، ومنه: عاثَ الذِّئبُ في الغَنم إذا أفسد، ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة: 60]، ولم يأت في القرآن مِنَ التّركيب إلّا هذه العبارةُ خمسَ مَرّات، وهذا يُؤكّد التّلازمَ بينَ العُثوّ والفساد[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 213، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 598، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عثو).

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾ [الإسراء: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد الإساءة للنِّعمة تقع النِّقمة عقوبةً وعذابًا

بعد أن ذَكَرتِ الآيةُ السّابقةُ إخبارَ التَّوراةِ لبني إسرائيلَ بأنَّهم سوف يُفسِدون في الأرض مَرّتين، وليَكونَنَّ منهم عُلوٌّ كبير، ناسبَ الشّروعُ في ذِكْر المَرّتين مِنَ الإفسادَتين، وما مصيرُ بني إسرائيلَ فيهما، فَذَكَرتِ الآيةُ الإفسادةَ الأولى، وما حصل عَقِبَها مِن بعث عبادٍ أولي بأسٍ شديد؛ ليَقعَ العذابُ على بني إسرائيلَ، تأديبًا لهم، وعقوبةً على إفسادهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدُ﴾: "الواوُ والعينُ والدّالُ: كلِمةٌ صحيحة تدُلُّ على ترجيَة بقول"[1]، والوعدُ يكون في الخير والشَّرّ، يقال: وعدتُه بنفع وضُرّ وعدًا وموعِدًا وميعادًا، والوعيدُ في الشّرّ خاصّة[2]، واستعمالُ الوعد في الآية دلالةٌ على المَوعد الّذي ضربه اللّهُ تعالى لبني إسرائيلَ، وهي المَرّة الأوّلى مِن إفسادهم في الأرض، أخرج اللّهُ لهم عبادًا يَردّونهم عن هذا الإفساد.

2) ﴿بَعَثۡنَا﴾: "الباءُ والعَينُ والثّاءُ أصلٌ واحِد، وهو الإثارةُ، ويُقالُ: بعثتُ النّاقةَ: إذا أثَرْتَها "[3]، و"أصل البَعْثِ: إثارةُ الشّيءِ وتوجيهُهُ، يقال: بَعَثْتُهُ فانبعث، ويختلف البَعْثُ بحسب اختلافِ ما عَلِقَ به"[4]، ولمّا كان إفسادُ بني إسرائيلَ كبيرًا، وعتوُّهُم شديدًا، أخبر ﷻ أنّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(2) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(4) الرّاغب، المفردات: (بعث).

سيبعثُ عليهم عِبادًا أَشِدّاءَ يستأصِلون شَأْفَتَهم، ويَهدمون قُدْرَتَهم، وجعل اللهُ ذلك بَعْثًا بإثارةٍ وتحريكٍ يُزَلْزِل قِواهم ويُدَمِّرُهم.

3) ﴿بَأْسٍ﴾: الباءُ والهَمزةُ والسّينُ أصل واحِد، وهو الشِّدّةُ وما ضارعها، فالبأسُ: الشِّدّةُ في الحربِ، ورجُل ذو بأس وبئيس، أي: شُجاع[1]، "والبُؤْسُ والبَأْسُ والبأساءُ: الشِّدَّةُ والمَكْروه، إلّا أنّ البُؤْسَ في الفقر والحَرْب أكثر، والبَأْسَ والبأساءَ في النّكاية، نحو: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝٨٤﴾ [النّساء: 84]"[2]، وجاء التّعبيرُ بلفظ (بأس) دلالةً على قوّةِ هؤلاء العِباد وشِدّتِهم مع هؤلاء المُفسِدين؛ لتُناسِبَ القوّةُ القوّةَ، والشِّدّةُ الشِّدّةَ.

4) ﴿فَجَاسُواْ﴾: "الجيمُ والواوُ والسّينُ أصل واحِد، وهو تخلُّلُ الشّيءِ، يُقالُ: جاسوا خِلالَ الدّيارِ يَجوسون، قال اللهُ تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾"[3]، "وجاسوا: توسّطوها وتَردَّدوا بينها، ويقارب ذلك: جازوا وداسوا، وقيل: الجَوْسُ: طلبُ ذلك الشّيء باستقصاء[4]، وَرَدَ التَّعبيرُ تصويرًا بتوسُّطهم الدّيارَ المُقَدّسة وتَردُّدهم فيها؛ بحثًا عن هؤلاء المُفسِدينَ، فجاسوها وداسوها للوصول إلى هؤلاء؛ للقضاء عليهم وإهلاكهم.

5) ﴿خِلَٰلَ﴾: الخاءُ واللّامُ أصلٌ واحِد يتقاربُ فروعُهُ، ومرجِعُ ذلك إمّا إلى دِقّة أو فُرجَة، والبابُ في جميعِها مُتقارِب، فالخِلالُ واحِدُ الأَخِلّةِ، ويُقالُ: فُلانٌ يأكُلُ خِلَّهُ وخُلالَتَهُ، أي: ما يُخرِجُهُ الخِلالُ من أسنانِه[5]، فالخَلَل: فرجةٌ بينَ الشّيئين، وجمعه: خِلال، كخَلَل الدّار، والسّحاب، والرّماد، قال تعالى في صِفة السّحاب: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النّور: 43][6]، والمراد بخِلال الدّيار: أَزِقَّتُها ومَداخِلُها ومَخارِجُها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ وقتَ موعدِ "أوّلَى المَرّتين مِنَ الإفساد، فإذا جاء وَعْدُ الفُسّاقِ وَوقتُ العقابِ المَوعودِ به على المَرّة الأولى، سلّطنا عليكم جُندًا مِن خَلْقنا أُوْلي بأسٍ شديد

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس).
(2) الرّاغب، المفردات: (بؤس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوس).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلّ).
(6) الرّاغب، المفردات: (خلّ).

وعدُ الله تعالى لا يتخلّف، فإذا جاء لا يُؤَلَف

- أي: قوّةٍ وشِدّةٍ - وأصحابِ عُدّةٍ في الحُروب وعدد، وهم أهلُ بابلَ بقيادة بختنصّر، حين كَذّبوا إرمياءَ وجَرحوه وحَبَسوه، فجاسوا خِلالَ الدّيارِ، أي: أوغلوا في البلاد وتَمَلّكوها، وتَرَدَّدوا فيها وفي أوساطها ذهابًا وإيابًا، لا يخافون أحدًا، يقتلون ويَسْلُبون ويَنْهَبون، ويقتلون العُلماءَ والكُبراء، وكان مِن آثارهم إحراقُ التّوراة، وتخريبُ بيتِ المَقْدِس، وسَبيُ عددٍ كثيرٍ مِن بني إسرائيلَ، وكان ذلك وَعْدًا مُنْجَزًا نافذًا، وقضاءً كائنًا لا خُلْفَ فيه، أو قضاءً حتمًا جزمًا لا يقبل النّقضَ والنّسخَ؛ لأنّهم تَمَرَّدوا وقَتَلوا خَلْقًا مِنَ الأنبياء والعلماء".

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها التَّعقيبيّة:

إذا حان وَعْدُ اللهِ فلا خُلْفَ له ولا تَأَخُّر

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ عاطفةٌ، ومعناها التّعقيبُ، والتّعقيبُ في كلِّ شيءٍ بحسبه، والمراد هنا: أنَّه بعدَ وقوع الإفسادِ والعلوِّ مِن هؤلاء أرسل اللّهُ تعالى عليهم عقابَه بهؤلاء الّذين يجوسون خلالَ ديارهم، ويستأصلون شأفَتَهم، فالجزاءُ مِن جِنس العمل، والتّعقيبُ على ما بَعُد في العادة، لا على سبيل المضايفة.

دلالةُ التّعبير بالظّرف (إذا):

المَجيءُ واقعٌ مقطوعٌ تَحَقُّقُه

تُسْتعمَل (إذا) في الأمر المَقطوعِ بوقوعه، وهي ظَرفٌ لِما يُستقبَل مِنَ الزّمان، وجيءَ بها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾؛ لأنَّ المَجيءَ مُتَحَقِّقٌ مقطوعٌ به.

دلالةُ التّعبير بالمَجيء دونَ الإتيان:

مَجيءُ وَعْدِ اللهِ تعالى قويٌّ قَرْعُه، كبيرٌ أثَرُه

استُعمِل الفِعلُ ﴿جَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ دون أتى؛ ذلك لِما يوحيهِ هذا الفِعل مِنَ القوَّة والتّجسيد وتَحَقّق الحصول، فإنَّ "المَجيء كالإتيان، لكنّ المَجيءَ أَعَمّ؛ لأنّ الإتيان

مَجيءٌ بسُهولة، والإتيان قد يُقال باعتبار القَصْد وإن لم يكن منه الحصول، والمَجيء يُقال اعتبارًا بالحصول، ويُقال: جاء في الأعيان والمعاني، ولما يكون مَجيئُه بذاته وبأمره، ولِمَن قَصَد مكانًا أو عملًا أو زمانًا"[1].

بلاغةُ المَجازِ بِحَذْفِ المضاف:

عقابُ الله تعالى مُحقّق للّذين يُخالِفون أَمْرَه

جاء التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ على حَذْف المُضاف وإقامة المُضاف إليه مُقامَه، قال الزّمخشريُّ: "فإن قُلتَ: ما معنى ﴿وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾؟ قلتُ: معناه وَعْدُ عقابِ أولاهما"[2]، مبالغةً في مَجيء هذا العقابِ الموعود، والمرادُ: موعودُ أولى المَرّتين، وهو الزّمانُ أو الوقتُ المُحَدَّد الّذي قَدَّرَهُ اللّٰهُ تعالى لوقوع المَرّة الأولى مِنَ الإفساد والعُلوِّ.

معنى إضافةِ ﴿وَعۡدُ﴾ إلى ﴿أُولَىٰهُمَا﴾:

أُضيف الوَعْد إلى أولى المَرّتين؛ لأنّه بمنزلة البيان في تعيينهما، قال ابن عاشور: "وإضافةُ ﴿وَعۡدُ﴾ إلى ﴿أُولَىٰهُمَا﴾ بيانيّة، أي: المَوعودُ الّذي هو أولى المَرّتينِ مِنَ الإفسادِ والعُلوِّ"[3].

معنى البعث في قوله: ﴿بَعَثۡنَا﴾:

عقابُ اللهِ تعالى قَويٌّ شديدٌ، وَوَعْدُهُ نافذ محقّق

أصلُ البَعْثِ: إثارةُ الشّيء وتحريكُه بقوّةٍ، وتوجيهُهُ إلى حيثُ يريد الباعثُ له ذلك، فهو مِنَ الإثارة والتّيسير، وفيه معنى القوّة والنّفاذِ، وهل البعثُ على حقيقته الاصطلاحيَّة، أو المرادُ به المعنى اللّغويّ؟ يحتمل أن يكون اللّٰهُ "بعثَ إلى مَلِك تلك الأمّة رسولًا يأمُرُه بغَزوِ بني إسرائيلَ، فتكون البِعْثَةُ بأمر، ويحتمل أن يكون عبَّر بالبعث عمّا أُلْقيَ في نفس المَلِك الذي غزاهم"[4]، فالبعثُ مُستعمَل في

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 438.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 30.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 242.

"تكوينِ السّيرِ إلى أرضِ إسرائيل، وتهيئةِ أسبابِه، حتّى كأنّ ذلك أمرٌ بالمَسيرِ إليهم، كما مرّ في قولِه: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [الأعراف: 167]، وهو بَعْثُ تكوينٍ وتسخيرٍ، لا بعثٌ بِوحيٍ وأَمرٍ"(1).

بلاغةُ التَّضمينِ في تعديَة فعلِ البَعثِ بحَرف الاستعلاء:

تضمينُ البَعثِ معنى التّسليط

حرف (على) يُفيد الاستعلاءَ حقيقةً أو مَجازًا، والمراد بالبعث في قوله: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ أنّه تعالى سَلّطَ عليهم هؤلاءِ العبادَ؛ ليَرُدّوهم عن غَيِّهم وفسادِهم، فالاستعلاءُ هنا مَجازيّ؛ لكونه مُرادًا بِه التّسليطُ، وهو يعني الغَلبةَ والقَهرَ، كما يُظْهِرُ الإنسانُ ذنبَه الّذي يَرتكبُه، وهؤلاء قد منحَهم سُلطةَ الغَلَبةِ على هؤلاء، "وتعديةُ ﴿بَعَثۡنَا﴾ بِحرفِ الاستِعلاءِ لِتضمينِه معنى التّسليطِ، كقولِه: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [الأعراف: 167]"(2).

دلالة التّعبيرِ بالماضي ﴿بَعَثۡنَا﴾:

إيناسُ المَظلومين وطَمأنتُهم بتَحقُّقِ نَصرِ الله

ورد التّعبيرُ بالماضي لتَحَقُّقِ البعثِ وحُصولِه، وكَونِه واقعًا لا محالةَ، وفي التّعبير بلفظ الماضي إيناسٌ وطَمْأَنةٌ لهؤلاءِ المظلومين، الّذين وقعوا تحتَ إفساد المُتَجَبِّرين من بني إسرائيلَ، بأنّ الغلبة ستكون للمَظلومين وإن طال أَمَدُ ذلك، أي: إذا جاء في المستقبل وَعْدُ الآخِرة، تَحَقّقَ الوعدُ لا محالة.

نُكْتَةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العَظَمَة:

عَظَمَةُ البعثِ مِن عَظَمة الباعِث

أُسنِدَ فعلُ (بعث) إلى نون العَظَمة؛ لأنَّه يُرادُ به تعظيمُ الباعثِ، وهو اللّه تعالى، مع تحقيق الإيجازِ اللّفظيّ بالنّون، فهو أوجزُ مِن أن يقال: بعث اللّهُ، والإيجازُ في موطنه دالّ على المُراد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 30.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 30.

ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم

دلالة تقديم الجارِّ والمَجرور على المفعول:

أفاد تقديمُ الجارِّ والمَجرور في قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا﴾ على المفعول التّخصيصَ، والمراد: بعثنا عليكم لا على غيركم؛ لكونكم المخصوصين بهذا البَعثِ دونَ سِواكم، ومقصودُ التَّخصيصِ إظهارُ شَديدِ الغَضَبِ عليهم، فإنَّ المُعاقِبَ إذا أراد مُعاقَبَةَ الظّالم بشِدَّةٍ، أتى له بألفاظ تَدلّ عليها، فكأنَّ البعثَ قد سُلِّط عليهم تسليطًا لم يكن لغيرِهم.

العبوديّة لله سبحانه غايةُ المُنى وذروةُ مبتغى أهل الإحسان

معنى الجمعِ بصيغة: ﴿عِبَادًا﴾:

هناك فَرْقٌ بين عِبادِ اللّهِ، والعبيدِ المملوكين، يُقالُ: هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودةِ، وأمّا عَبَدَ يَعْبُدُ عِبادةً، فلا يُقالُ إلّا لِمَن يَعْبُدُ اللّهَ تعالى[1]، "والعِبادُ: المَمْلوكون، وهؤلاءِ عِبادٌ مخلوقيّةٍ، وأكثرُ ما يُقالُ: عِبادُ اللّهِ، ويُقالُ: عبيد، بِدونِ إضافة، نحوُ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: 46]، فإذا قُصِد المَمْلوكون بالرِّقِّ قيل: عبيدٌ، لا غيرُ، والمقصودُ بِعِبادِ اللّهِ هُنا الأشوريّون، أهلُ بابِلَ، وهُم جُنودُ بُخْتُنَصّرَ"[2].

المقصود بالعِباد نوعٌ يقوم بتأديب الفاسدين بصفاتٍ خاصّة

دلالة تنكير ﴿عِبَادًا﴾:

تنكير ﴿عِبَادًا﴾ للتّكثير والتّعظيم، فالتّكثير يكون في الكَمّيّة ممّا يُخيفُ الظّالمين، والتّعظيمُ للكَيْف في كونهم عبادًا، بعثَهُمُ اللّهُ تعالى للقيام بالتَّأديب كما يقوم العِبادُ المُخلِصون سواءً بسواء، لا تَردُّهم غائلةٌ عمّا أُمِروا به، وقد يكون التّنكيرُ للنّوعيّة، والمُرادُ بهم عبادٌ من نوعيّة خاصّة، بكونهم ذَوي بأسٍ شديدٍ، لا يهابون شيئًا، ويهابُهم غيرُهم.

عبادُ الله لا ينظرون إلى غيره، ولا يتعلّقون بسواه

نُكْتَةُ التّعبيرِ بـ: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾:

الفرق في التَّعبير بين ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾، و(عبادنا)، أنَّ الأولى تُفيد أنَّهم عبادٌ يقومون بأعمالٍ للّه تعالى، سواء بتسخيرِهم لذلك، أو

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 31.

باختيارِهم، أمّا الثّانية فهي معذوقةٌ بسياقها كي يُعْرَف معناها، فقد تكون الإضافة بمعنى (من)، وقد تكون بمعنى اللّام، فمعناها مُتعلّق بالسّياق الواردة فيه، وأمّا ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ فمعناها مُحَدَّدٌ في هذا السّياق، وهو أنّهم يَجوسون خلالَ الدّيار؛ لتحقيق مَقْصِدٍ يُريده اللّهُ تعالى، ولو قيل في هذا السّياق: (عبادنا) لكانت بمعنى (اللّام)، ولاحتملت أن تكون بمعنى (من)، فَعَبّر بـ (عباد) إشارةً إلى أنّهم خاضعون لإرادة اللّه تعالى فيهم، وإضافتهم له ﷻ بما يُفيد الاختصاص؛ لجَعْلهم له لا لأجل العُبوديّة والطّاعة، بل ليكونوا آلةَ تأديبٍ وتهذيبٍ لِمَن يَخرجون عنِ الهداية ويقعون في الفساد[1].

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمَجرور:

تخصيص العبادِ بالله تعالى

أفاد تقديمُ الجارّ والمَجرورِ ﴿لَّنَآ﴾ التّخصيصَ، أي: لنا لا لغيرنا، ومعنى التّخصيصِ: إثباتُه لمُسْندِه ونَفيُه عن غيره، ومن هنا يُقدّم.

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿أُوْلِي﴾:

المتّصف بالصِّفة أقوى من مصاحبها

﴿أُوْلِي﴾: اسمٌ مُبْهَم، بمعنى أصحاب يطلق على جماعةِ الذُّكور، ولا واحدَ له مِن لَفْظِه، والتَّعبيرُ به أبلغُ من التَّعبير بلفظةِ أصحاب، فكأنّ البأسَ صار شيئًا مُتأصِّلًا فيهم لا يفارقُهم، فهُم ذَوو بأسٍ وجَلَدٍ وقوّة، وأمّا الأصحابُ فهُم المُلازِمون للعِناية وقد تفارقهم، ولا تقال المُصاحبة إلّا لِمَن كَثُرت مُلازمتُه لهذا، فالمُتّصِف بالصِّفة أقوى من مصاحبها.

دلالةُ التّعبيرِ بالبأس دونَ القُوّة:

البَأْسُ مخصوصٌ في الحَرب، بخِلاف القُوّة فهي أشمل

جاء التَّعبيرُ بالبأس في قوله تعالى: ﴿أُوْلِي بَأْسٖ شَدِيدٖ﴾، والبَأْسُ: هو الشِّدّة في الحَرْب، أمّا القوّة فتُستعمَل تارةً في معنى القوّة، وتارةً للتّهيُّؤِ المَوجود في الشّيء، فالبأْسُ إذًا أشملُ وأعمُّ؛ لكونه خاصًّا بالحرب مع

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4335.

اقترانه بكونه شديدًا، فأدّى معنًى أبلغَ مِنَ القوّة؛ لأنّ القوّة لو كانت وَحدَها كافيةً ما قال قومُ بلقيس: ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [النّمل: 33]، فكأنّ القوّة بنفسها لا تكفي، فَقُرِنت بالبَأْس الشّديد لهذا.

معنى الفاء ودلالتُها:

أُعـقِـبَ البعثُ التّخَلّلَ في الدّيار

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَاسُواْ﴾ عاطفةٌ تعقيبيّةٌ لهذا الفعل بلا مُهْلَة، وعطفت الفاء جملةَ ﴿فَجَاسُواْ﴾ على جملة ﴿بَعَثۡنَا﴾؛ لأنّ هذا ممّا قضاه اللّهُ تعالى في الكتاب الّذي آتاهُ موسى عليه السلام.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿فَجَاسُواْ﴾ ماضيًا:

يختصُّ الجَوْسُ بالإحاطة لإلحاقِ الدّمار على المُفسدين

الجَوْسُ: هو تَخَلُّل الشّيءِ ودَوْسُه وطَلَبُه باستقصاءٍ وتتبُّع؛ للإحاطة بما فيه مَجيئًا وذهابًا، لترتَسِمَ معالِمُه في النُّفوس، أمّا التّردُّد: فلا يُحاط فيه بشيء من خباياه، فالجَوْسُ أبلغُ مِنَ التّردُّد، قال الطّاهر بن عاشور: "والجَوْس: التّخلُّلُ في البِلادِ وطَرْقُها ذِهابًا وإيابًا لِتتبُّعِ ما فيها، وأُريد بِهِ هُنا تتبُّعُ المُقاتِلَة، فهو جَوْسُ مَضَرّةٍ وإساءةٍ بِقرينةِ السّياقِ"[1]، والتّعبير بلفظ الماضي دالّ على تَحَقُّق وقوعِ فِعْلِ الجَوْسِ وحصولِه، تنزيلًا لما هو مُتَحَقِّقُ الوقوعِ كالواقع.

دلالةُ التّعبيرِ بكلمة ﴿خِلَٰلَ﴾:

خلال الدّيار تستغرق البلدَ كاملًا بخِلاف الوسط

آثَرَ النّظمُ القُرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿خِلَٰلَ﴾ لا بلفظ (وسط)، والخَلَل: فُرجَة بين الشّيئين، وجمعه: خِلال، كخَلَلِ الدّار والسّحاب، أمّا وَسْطُ الشَّيءِ: فما له طرفان متساويا القَدْرِ، ويقال ذلك في الكَمّيَّة المُتّصلة كالجِسم الواحد إذا قلتَ: وَسَطُهُ صلب[2]، والمعنى المراد من الكلام هنا: هو التّخلّلُ وليس التّوسُّطَ، إذ إنّ معنى الوَسَطِ على هذا هو ما يتخلّل الشّيءَ مِن أيِّ طَرفٍ فيه، وهو المُرادُ مِنَ الجَوْس في الآية، لما يتضمَّنُه من دلالة التّمكينِ بالسّيطرة على الأرض والانتشارِ فيها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 31.

(2) الرّاغب، المفردات: (خلّ، وسط).

نُكْتَةُ التّعبير بـ﴿ٱلدِّيَارِۚ﴾ دونَ البِلاد أو البيوت:

جَوْسُ المُفسدين كان لجميعِ ديارهم دونَ استثناء

استعمل النّظم الدّيارَ دون البيوت، أو البلاد، وذلك لأنَّ الجَوْس كان خلالَها، فأتى عليها دارًا دارًا، وهذا أدَلُّ على الاستغراق والشّمول، والملحوظ في لفظ الدّار ما يُدار حولها، في حين أنّ البيوت هي المكان المُعدّ للبيات، فالتَّعبير بالدّيار أَدلُّ على المُراد، ولم يقل: البلاد؛ لأنَّ الدّيار أدلّ على الجُزء؛ فإنَّ الإتيان على أجزاء البلد الواحد جُزءًا جُزءًا أشملُ مِنَ الإتيان على البلد بالكلّيّة، فكان التَّعبير بالدّيار هو الأبلغَ في هذا السّياق.

نوع التَّعريف في ﴿ٱلدِّيَارِۚ﴾:

المقصود بالدِّيارِ ديارُ بني إسرائيلَ في بيت المَقْدِس

التّعريف بـ (أل) في لفظ ﴿ٱلدِّيَارِۚ﴾ للعهد العِلْميِّ أو الحُضوريِّ، لعدم سبق ذِكْرٍ للمُعَرَّف بـ (أل) لا تصريحًا ولا كناية، ولكنّه مقصودٌ مِنَ النُّطق به، فعُلِمَ المقصودُ منه، وقد تَمّ إحضارُه في الذِّهن إحضارًا تامًّا، قال الطّاهر بن عاشور: "والتّعريفُ في الدّيارِ تعريفُ العهدِ، أي: ديارِكُم، وذلِك أصلُ جعلِ (أل) عِوضًا عنِ المُضافِ إليهِ، وهي ديارُ بلدِ أورشليم فقد دخلَها جَيشُ بُختُنصّرَ وقتل الرِّجال وسبى، وهَدَم الدّيارَ، وأحرق المدينةَ وهيكلَ سُليمان بِالنّارِ"[1].

معنى الواو ودلالتُها:

وقوعُ الفعلِ تَحقُّقٌ للوعد

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ عاطفةٌ لجملة كينونةِ حصولِ وَعْدِ اللّه تعالى، على جملة: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، مِن قبيل وصل الجُملَتين؛ لاتفاقهما في الخبريّة، وبينهما جهة جامعةٌ تُسوِّغ هذا العمل.

دلالةُ ذِكْرِ فعل (كان):

وَعْدُ اللهِ واقعٌ لا يتخلَّف

(كان) فعل ماضٍ دالٌّ على تحقُّق وقوع الفعل وحصوله، وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 31.

مفيدةٌ وقوعَ وعدِ اللّه تعالى بالانتقام مِنَ المُفسدين، وهي تفيد المُضيَّ والتّوكيد؛ لكون ما يتعلّق بها واقعًا لا محالة، وهي مفيدةٌ معنى القُدْرة، وهو أنّ اللّه تعالى قادر على إنفاذ وَعْدِه، لا يُراجعُه فيه أحدٌ البَتّة.

نُكْتَةُ التّعبير بالمصدر ﴿وَعۡدٗا﴾:

التسليطُ قضاءٌ حتميٌّ

ورد التّعبير بالمصدر ﴿وَعۡدٗا﴾ عن اسم المفعول (موعود) مبالغةً في مَجيء الوعد، والمعنى: كان ذلك التّسليط قضاءً حتميًّا، وهذا هو الوعد، وهو أقوى في استعماله مِن اسم المفعول.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿مَّفۡعُولٗا﴾:

لا حائلَ بين قضاء الله وبينَ إنفاذه

يُستعمَل المفعولُ إذا عُبِّر بفعل الفاعل؛ لأنَّ كلَّ مفعولٍ لا بدَّ له من فاعل، والمراد به: إيجادُ الوعدِ وحصولُه، فلا يَردُّه أحد، قال البقاعيُّ:" أي: لا شَكّ في وقوعه، ولا بُدّ أن يُفعَل، لأنّه لا حائلَ بيننا وبينَه، ولا يُبَدِّلُ القولَ إلّا عاجزٌ أو جاهل"(1).

دلالةُ حَذْفِ اسمِ كان:

بيانُ المَذكورِ مَظِنّةُ الاستغناء

حُذِفَ اسمُ كان هنا، والتّقدير: (وكان الجَوْسُ وعدًا مفعولًا)؛ لكونه معلومًا مِن سياق الكلام في قوله: ﴿فَجَاسُواْ﴾؛ فلا داعيَ لذِكره حينَئذٍ ما لم يكن وراءَ ذلك نُكْتَة.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإتيان:

المجيءُ أعمُّ من الإتيان ويُقال في المعاني والأعيان

المجيءَ يُقال اعتبارًا بالحصول، وهو أعمُّ من الإتيانِ؛ إذ يُقال: جاء في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا، وقال أبو هلال: "قولُكَ: جاء فلانٌ، كلامٌ تامٌّ لا يحتاج إلى صلة، وقولك: أتى فلانٌ، يقتضي مَجيئَه بشيء،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 298.

ولهذا يقال: جاء فلانٌ نفسُه، ولا يقال: أتى فلانٌ نفسُه، ثمّ كَثُر ذلك حتّى استُعمِل أحدُ اللّفظين في موضع الآخر"، وقال الزّركشيّ: "ومِن ذلك: جاء وأتى، يستويان في الماضي، ويأتي أخَفُّ مِن يَجيء، وكذا في الأمر: (جيئوا بمثله) أثقلُ من (فأتوا بمثله)، ولم يذكرِ النَّظْم القرآني إلّا ﴿يَأۡتِيَ﴾ [البقرة: 109] و﴿يَأۡتُونَ﴾ [الإسراء: 88]، وفي الأمر: ﴿فَأۡتِ﴾ [البقرة: 258]، ﴿فَأۡتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿فَأۡتُواْ﴾ [البقرة: 23]؛ لأنّ إسكان الهمزة ثقيلٌ لتحريكِ حروفِ المَدّ واللّين، تقول: جِئْ أثقلُ مِنِ ائتِ"[1].

الْبَعْث والإرسال:

الإرسالُ غايتُه إيصالُ رسالةٍ، والبعثُ إثارةٌ واستنهاض

الفرق بينَ البعث والإرسال: أنّه يجوز أن يبعث الرّجل إلى الآخَر الحاجةَ يَخُصّه دونكَ ودونَ المبعوثِ إليه، كالصّبيّ تَبعثُه إلى المكتب فتقول: بعثتُه، ولا تقول أرسلته؛ لأنّ الإرسال لا يكون إلّا برسالة وما يجري مَجراها، و"البعثُ لا يكون حملًا، ويستعمل فيما يعقل دون ما لا يعقل، فتقول: بعثت فلانًا بكتابي، ولا يجوز أن تقول: بعثت كتابي إليك، كما تقول: أنفذت كتابي إليك، وتقول: أنفذت إليك جميع ما تحتاج إليه، ولا تقول في ذلك: بعثت، ولكن تقول: بعثت إليك بجميع ما تحتاج إليه؛ فيكون المعنى: بعثتُ فلانًا بذلك"[2]، فالمُرسَلُ يكون حامِلًا لرسالة، وغايَةُ إرساله هي إيصالُ تلك الرّسالة، التي عادةً ما تكون ذاتَ قيمةٍ وأهميّة بالنّسبة إلى المُرسَلِ إليهم، وهذا على خِلاف المَبعوث؛ إذ إنّ المَبعوث قد يُبعَثُ لذاته ولا يحمل أو يصاحبه شيء، والمبعوثُ مُستنهَضٌ للقيام بالفعل.

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 80.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 284.

المحتويات

